دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله، الرسول، الإسلام

الله جل جلاله

اذا قرأت هذا البحث سترى ان أعظم حقيقة يثبتها العلم والعقل بما لا يقبل الجدل هي وجود الله، وأنه لا أحد في هذا الكون يعرف الله حق المعرفة غير المسلمين

بقلم
سعيد حوى

الناشر: مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت: ٩٢٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب أردت فيه بيان الاصول الثلاثة التى لا يكون المسلم مسلما الا بمعرفتها والايمان بها ، وكنت فيه جامعا منسقا أكثر منى مبتدئا مبدعا ، فقد لاحظت أنه قد كتب الكثير فى كل أصل من هذه الاصول الثلاثة ، بل كتب الكثير فى كل جانب من أصل ، دون أن يكون هناك بحث جامع لهذه الاصول . فأردت أن أسد هذه الثغرة بكل ما أوتيت من طاقة ، وكنت اذا ماوصلت الى بحث كتب فيه غيرى كتابة جيدة لا أرى مانعا أن أنقل ما كتب أو جزءا منه ، وقد أشير الى الاصل أو لا أشير . وفى كلتا الحالتين يكون هناك سبب ليس من الضرورى أن أذكره الآن ، فلا يستغربن القارىء اذا رأى فى الكتاب كثرة النقول ، فان حرصى على ابراز الفكرة كان أكبر من حرصى على أن يمدح مادح أو من خوفى أن يقدح قادح .

يقول عليه السلام : « من قال : رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وجبت له الجنة » . وقال : « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا » .

وهذا الكتاب (**الاصول الثلاثة**) تحدث عن الذات الالهية حديثا يمحو كل شك باذن الله ، ويزيل كل شبهة ، ويدحض كل افك ، ويصل بالانسان الى الرضى بالله ربا .

وتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا يجلو به شخصية هذا الرسول العظيم بالاقناع والبرهان اللذين يجعلان الانسان على مثل الشمس وضوحا ، بأن رسول الله هو أعظم مظهر للانسان فى كل جانب ، كما جلا أدلة رسالته بالشكل الذى لا يسع العقل الا أن يؤمن .

وتحدث بعد ذلك عن الاسلام : عقائد وعبادات ومناهج حياة ومؤيدات ، مبينا كلياته ، مظهرا جزئياته ، موضحا أصوله وفروعه ، مقيما الحجة على الناس فيه ، بحيث لا يسع الانسان أن يتركه الى غيره ... **« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »** (آل عمران : ٨٥) ولن ينتهى الانسان من الدراسة الا وقد ارتاح قلبه ، واطمأن ببرد اليقين اذا رغب فى الحق شاء الله له الهداية ، والا فكم عقل زاغ عن الحق وهو يراه . ان هذا الكتاب نقطة البداية لميلاد جديد لانسان يريد الخروج من ظلمة الشك والحيرة والضياع والتشتت والتمزق والفوضى .

ويلاحظ قارىء الكتاب أننى وقفت وقفات طويلة عند الاصل الاول « **الله** » والاصل الثانى « **الرسول** » مناقشا ومعللا ومبرهنا ومقنعا وعارضا المسألة على وجوه ، معتمدا خطاب العقل بأناة وصبر ، وملاحقا لكل جوانب الشك والشبهة ، بينما كنت فى الاصل الثالث « **الاسلام** » عارضا أكثر منى مناقشا ، والسبب فى ذلك يعود الى أن الانسان بعد أن يقتنع بوجود الله وأن محمدا رسوله ، لم يبق أمامه الا التسليم لدينه وشريعته • فالمسألة هنا ليست أن تقيم الحجة على كل جزء من الاسلام ـ والحجة لا شك قائمة ـ وانما المسألة هنا مسألة تعريف ، ومنطق العقل يقول : ان الانسان ليس أمامه الا التسليم لله فى شريعته ، فانه الرب وخلقه عبيد ، والاعلم الذى علم الانسان ما لم يعلم •

وسبب آخر جعلنا نقف هذه المواقف الطويلة أثناء الكلام عن الله والرسول ، هو أن المادية الملحدة تحاول بكل امكانياتها أن تنسى الانسان الله ، وأن تصغر فى قلبه وذاته رسل الله ، يساعدها على ذلك خطط أهل الاديان الباطلة فى تشويه الصورة الصحيحة لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان لابد من اعطاء هذه الدراسة حقها ، اذ أن هذه المحاولات تزداد يوما بعد يوم ، وتزداد انعكاساتها على النفس البشرية لحظة بعد لحظة ، حتى ان المسلمين ـ وهم وحدهم أهل الحق فى هذا العالم ـ أصابهم من هذا وهذا الكثير الفظيع ، حتى أصبحوا الآن فى أتون ردة خطيرة هائلة ، وأصبحوا بحاجة الى جلاء هذين الاصلين مع الاصل الثالث كغيرهم تقريبا ، الا من عصم الله ورحمه •

وقد أردت بهذا الكتاب شيئا آخر سوى ما مر :

ان الذين يقومون بشأن التربية الاسلامية أغفلوا أهم جانب فيها على الاطلاق ، هذا الجانب هو الذي أشار اليه ابن عمر فى هذا النص • يقول ابن عمر :

« لقد عشنا برهة من الدهر وان أحدنا يؤتى الايمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها • ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الايمان ، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب الى خاتمته ، لا يدرى ما آمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف عنده ينثره نثر الدقل(١) » •

---

(١) الدقل : ردىء التمر •

ان مأساة المسلمين تكمن فى أنهم أهملوا علم الايمان وطريقه ، **وهو المقدمة** الفطرية لكتاب الله ((**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى**)) •• (فصلت : ٤٤) •

فكان هذا الكتاب مع كتاب آخر هو ((**جند الله ثقافة وأخلاقا**)) محاولة لارجاع الامر الى نصابه فى هذا الموضوع •

ولعل هذا الكتاب بعد ذلك يعطى المسلم من قوة الحجة ما يستطيع به أن يدعو كل شارد عن باب الله ، وأن يقيم الحجة على كل عدو لله ممن يجحدون بآيات الله وان استيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا •

ولا يفوتنى أخيرا أن أنبه الى قضية هى :

أننى نقلت من كتب كافرين ، ونقلت من كتب منحرفين ، لان الحكمة ضالة المؤمن ، فليس كل كتاب نقلت عنه أشير به ، وليس كل كاتب نقلت عنه يستحق أن يقرأ ، ولكنى لم أنقل شيئا لا أوافق عليه الا بينته ، والله من وراء القصد وهو حسبى ووليى فى الدنيا والآخر ونعم الوكيل •

المؤلف

ملاحظة : كنت ألقيت الابحاث الاولى عن الذات الالهية على بعض الطلبة الجامعيين ، وما كان يخطر ببالى وقتذاك أن هذا سيكون جزءا من كتاب يخرج باسمى ، لذلك لم أحاول أن أعزو كل كلمة قلتها أو نقلتها الى مراجعها ، ثم كان أن حدث أمر النشر وأنا بعيد عن بلدى ومكتبتى ، فأرسلت البحث على ما هو عليه دون أن أقوم بعملية تمييز لما نقلته ، ولعل أبرز الكتب التى أخذت عنها ، ودمجت كلام أصحابها ضمن الكتاب كتاب ((**قصة الايمان**)) للشيخ نديم الجسر حفظه الله ، وكتاب ((**الله**)) للعقاد ، فمعذرة •

الله
جل جلاله

معرفة الله هى المرتكز الذى يرتكز عليه الاسلام كله ، وبدون هذه المعرفة يكون كل عمل فى الاسلام أو للاسلام غير ذى قيمة حقيقية ، اذ أنه فى هذه الحالة يكون فاقدا روحه ، وما قيمة عمل لا روح فيه ؟ .

ولكن كيف نعرف الله ؟ وما هو الطريق الى هذه المعرفة ؟ ان الجـــواب على هذا شىء لابد منه ، حيث اننا اذا لم نعرف الطريق لن نصل الى الغاية التى نطلبها .

١ ــ تصور الكافرين للطريق :

ان ناسا فى القديم وفى الحديث أنكروا وجود الله لانهم لم يدركوه بحواسهم ، متصورين أن هذا هو الطريق اليه ، ورموا المؤمنين به بأنهم : واهمون ، وضالون ، وخرافيون ، ومشوشون ، وغير علميين ، الى آخر السلسلة الطويلة من السب والهزء والسخرية والازدراء التى يوجهها الكافرون بالله الى المؤمنين لانهم آمنوا بالله عن غير طريق الحواس .

ان أمثال هؤلاء الذين يقولون : انهم لا يؤمنون الا بمـا أدركته حواسهم يكذبهم واقعهم المادى الذى يعيشونه ، فهم مثلا يؤمنون بالجاذبية وقوانينها ولم يشاهدوها ، بل رأوا آثارها ، ويؤمنون بالعقل ولم يروه بل رأوا آثاره ، ويؤمنون بالمغناطيسية ، وقد شاهدوا فقط انجذاب الحديد الى الحديد دون رؤية الجاذب ، ويؤمنون بوجود الالكترون والنيترون ولم يشاهدوا ألكترونا أو نيترونا ، فواقع أمرهم يدل على أنهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ، ولكن آثارها هى التى دلتهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه شك ، وهذا يعنى بوضوح أن كثيرا من حقائق الوجود يؤمن بها هؤلاء لاحساسهم باثارها دون احساسهم بها ذاتها .

والعقل وليس الحواس هو الذى عرفهم عليها ، وان كانت الحواس هى الآلة التى اعطت العقل أدوات الحكم حتى أصدر حكمه ، لكنه لولا العقـل ما صدر حكم ولمـا كانت معرفة . بل الحقيقة أن الحواس تعطينا أحيانا صورا كثيرة وهمية ولكننا نعرف الحقيقة بواسطة العقل وحده : فالعصا المغمـورة

بالمـاء تبدو مكسورة ، والخطوط المتوازية التى تنفصل بينها خطوط تبدو غير متوازية . والارقام البيضاء تبدو أكبر من الارقام السوداء ، وشعورنا دائمـا أننـا نسير ورؤوسنا الى أعلى سواء كنا فى القطب الشمالى أو الجنوبى أو على خط الاستواء ، فمثل هذه الصور تبين لنـا بوضوح أن الحواس لولا العقل لاعطتنا أخطاء بدلا من حقائق ، ولولا العقل لم تكن لنـا أى معرفة ٠

فهل كان هؤلاء على صواب عندما حصروا المعرفة كلها بالحواس ؟ وهل كانوا منطقيين مع أنفسهم عندما رفضوا الايمان بالله لانه لم تدركه حواسهم ، مع أنهم بالآثار وحدها آمنوا بكل الحقائق التى لم يشاهدوها والتى تشكل أكبر الحقائق التى عرفها الانسان ٠

ان هذا التصور الخاطىء لطريق معرفة الله قديما وحديثا من أكبر العوامل التى أبعدت كثيرا من الناس عن طريق الايمان الصحيح بالله ، مع أن مثل هذا التصور خاطىء بالبداهة ، لان العقل ببداهته يحكم أن الله خالق المادة ليس بمـادة ، لان المادة لا تخلق مادة ، واذا كان منتهى ادراك الحواس المـادة المحسوسة فقط ، فلن يكون الله محل ادراكها ٠ والذى يبدو أنه ما من أمة من الامم أو كافر من الكافرين الا وعندهم هذه الشبهة حول التصور الحسى للطريق الى معرفة الذات الالهية ، فلقد سمعنا فى عصرنا هذا أفرادا يجعلون عدم الرؤية سببا للالحاد ، وسمعنا كذلك دولا تصرح بهذا ، كما صرحت بذلك اذاعة الاتحاد السوفياتى عقب اطلاق قمرها الصناعى الاول الى الفضاء ٠

ومن طرائف أجوبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه نكتة يقال انها وقعت فى مدرسة ابتدائية ، حيث وقف معلم ابتدائى يقول لطلاب السنة الابتدائيـة السادسة : أترونني ؟ قالوا نعم ، قال : فاذن أنا موجود ، أترون اللوح ؟ قالوا : نعم ، قال : فاللوح اذن موجود ، أترون الطاولة ؟ قالوا : نعم ، قال : فالطاولة اذن موجودة ، قال : أترون الله ؟ قالوا : لا ، قال : فالله اذن غير موجود ٠ فوقف أحد الطلاب الاذكياء وقال : وترون عقل الاستاذ ؟ قالوا : لا ، قال : فعقل الاستاذ اذن غير موجود ٠

ويبدو أن هذا الوهم الذى يتمسك به كثير من الكافرين قديم قدم الكفر ، كما أنه أثر عن أمراض فى النفس والقلب ، وليس أثرا عن فكر سوى أو عقل مستقيم أو انصاف فى تحقيق ٠

فقد حدثنا القرآن الكريم أن الكافرين فى كل عصر ، كانوا يشترطون للايمان أن يحسوا بالله عن طريق السمع أو الرؤية ، وهذا بعض ما حدثنا به القرآن ذاكرا علل هذا الاشتراط ، وهى ذاتها الامراض التى ينتج عنها هذا

التصور الفاسد والكلام الخاطىء • ويحدد القرآن أسباب هذا الطلب بأنها : الجهل ، والكبر ، والانحراف ، والظلم •

١ ـ **الجهل** : **((وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون))** (البقرة : ١١٨) • ويلاحظ فى الآية أنها أشارت الى أن هذا القول ليس كلام عالمين بل كلام جهال ، وأن هذا الكلام ليس جديدا بل هو منطق الكافرين دائما قديما وحديثا ، وذلك أثر عن تشابه القلوب ، وأخيرا فانها تقرر أن الطريق الى الله هى آياته ، أى آثاره التى تدل عليه •

٢ ـ **الكبر** : **((وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا • يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين))** (الفرقان : ٢١ ـ ٢٢) •

وكما رأيناهم فى الآية الاولى يريدون أن يسمعوا ، نراهم هنا يريدون أن يروا ، ولكن من هم الذين يريدون أن يروا ؟ انهم الذين يتصورون أن الحياة الدنيا هى كل شىء وليس وراءها الا العدم • وكما ردت الآية الاولى عليهم بطريق غير مباشر ، كذلك بينت هذه الآية أن عالما غير هذا العالم وفى قوانين غير هذه القوانين يرى الكافرون الملائكة ، أما قوانين هذا العالم العادية فليس فيها للحواس من عالم الغيب نصيب ، واذا كانت الملائكة فى قوانين هذا العالم العادية لا ترى ، فأولى اذن أن تكون الذات الالهية كذلك • كما بينت الآية أيضا أن الكبر وحده هو الذى دفعهم الى مثل هذا المنطق وليس الوضع السوى للانسان الذى يرغب بالحق ويسلك اليه طريقه الصحيح •

٣ ـ **الانحراف** : وآية أخرى تحدثنا عن أحد فراعنة مصر اذ يقول :

((وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب • أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لاظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل)) (غافر : ٣٦ ـ ٣٧) والآية كما ترى تضمنت الرد فى قولها : **((وصد عن السبيل))** فليس ما تصوره فرعون طريقا يعرف به الله هو الطريق الصحيح ، بل هو طريق خاطىء •

٤ ـ **الظلم** : وآية أخرى تحدثنا أن اليهود طلبوا هذا الطلب ظلما :

((واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون)) (البقرة : ٥٥) • **وفى موضع آخر : ((فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم))** (النساء : ١٥٣) •

وكما ردت الآية الاولى على أمثال هؤلاء بشكل ضمنى ، فكذلك هنا اشعرتنا بالرد بكلمة (بظلمهم) ، فليس العدل هو الذى دفعهم الى أن يطلبوا مثل هذا الطلب بل الظلم ، ظلم النفوس للحق ، اذ تعرفه وتتنكر له • وكما طابق قول الكافرين اليوم قولهم قديما فى هذا الموضوع ، كذلك يطابق تهجمهم اليوم تهجمهم فى الماضى ، ففى الماضى يقص علينا القرآن قصة تهجمهم فيقول : ((**قال ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم • بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر**)) (الانبياء : ٤ ــ ٥) •

فلقد اتهموا المؤمنين بالله بأنهم : متوهمون ، وكاذبون ، وعاطفيون وأصحابهم اليوم يتهمــون المؤمنين بأنهم : غير علميين ، وغير صـــادقين ، ومشوشون مخدوعون •

ولئن سار على هذه الدروب كثير من الناس ، فليس للمسلم صاحب القلب الكبير أن يقتفى أثر الضالين ، فيقع فيما حذره الله منه ((**أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سـواء السبيل**)) (البقرة : ١٠٨) •

٢ ــ الطريق الى الله : آياته

واذن فمثل ذلك الطريق لن يصل بنا الى غاية فى موضوع الذات الالهية ، فتحديد الطريق ومعرفته أساس لكى نصل الى الهدف • ان الطريق الى الله هى آثاره التى تدل عليه وهى طريق وحيد ، والعقل والفكر والعلم شروط أساسية لسالك هذا الطريق •

اذن بدون عقل لن نعرف الآية ، وبدون فكر لن يعرف صاحبها ، وبدون علم لن تكون معرفة للاية أو لصاحبها • ولعل هذا الكلام مستغرب عنـــد الملحدين ، اذ أنهم يعطون لانفسهم دائما لقب : العلمانيين والعقلانيين والاحرار والمفكرين ، ولكن الدعوى بدون دليل ليس لها أى قيمة علمية •

وسيكون فى كل ما نكتبه فى هذا البحث الدليل ــ ان شاء الله تعالى ــ على صحة ما قلناه ، وهدم ما ادعوه ((**والذين يحاجون فى الله من بعـــد مــا استجيب له حجتهم داحضة**)) (الشورى : ١٦) وسيأتيك بيان هذا ••

أما الآن فنقول : المتأمل أدنى تأمل للقرآن ، يرى أن القرآن يلفت النظر بشكل واضح وواسع للعقل والفكر والعلم والآثار ، وهى الشروط الاساسية لمعرفة الله بشكل واسع وواضح ((**قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الارض ، أم لهم شرك فى السموات ؟ ائتونى بكتاب من قبـل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين**)) (الاحقاف : ٤) •

أى هل هناك ذرة من علم تشهد أن غير الله هو الخالق ، فاذا ما أنكر الناس ربهم ، فليس ذلك دليلا على العلم بل هو دليل على الجهل ((**ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير**)) (الحج : ٨) .

ولكنه ليس الجهل المطلق المجرد عن أية معرفة ، بل هو جهل خاص ذكره الله تعالى بقوله : ((**يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**)) (الروم : ٧) . ((**فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم**)) (النجم : ٢٩ ــ ٣٠) .

ان الاكثار من ذكر العلم والفكر والعقل فى القرآن ظاهرة تستلفت النظر بشكل بارز ((**ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**)) (الرعد : ٤) ((**ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون**)) (النمل : ٥٢) ((**ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون**)) (النحل : ١١) . ((**ان فى ذلك لآيات للعالمين**)) (الروم : ٢٢) . ((**قل انظروا ماذا فى السموات والأرض**)) (يونس : ١٠١) .

ومن ثم فان المتأمل للقرآن يدرك أن الاسلام يفرض على المسلم أن يفكر ، ويفرض عليه أن يتعلم ، وأن العلم والفكر جزءان من شخصية المسلم ، فى الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها ، أو باب معاش يرتزق منه ، أو هواية عند بعض الافراد ، واذ يفرض الاسلام العلم ، فلان بالعلم يعرف أن الاسلام حق ((**ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق**)) (سبأ : ٦) .

وسندرس فى صفحاتنا القادمة ان شاء الله آيات الله لنتبين الحقيقة السافرة ، تلك التى تقول أن الكافرين بالله أضلوا قلوبهم اذ لم يهتدوا اليه ، وأن المؤمنين هدوا قلوبهم اذ اهتــــدوا اليه ((**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**)) (التغابن : ١١) ، وأن مثل الكافر الذى لم يشاهد الله بعقله بعد رؤيته آياته ، كمثل حامل أسفار لا يعرف قيمتها ولا مؤلفها فينسبها الى المجهول المعدوم ، وسنرى كذلك ــ ان شاء الله ــ أنه ليست قلة الآيات ، ولا غموضها ، هى التى أدت بالكثير الى الكفر ، بل الآيات من الكثرة بحيث لا تعد ، ومن الوضوح بحيث لا تخفى ، ولكن السر فى الانسان ذاته ، السر فى اعراضه هو عن الآية ، فى كبره عن الاعتراف بالحق ، فى عدم تعرفه على الحقيقة ، فى انحرافه عن فطرة الانسان وأخلاق الانسان بحيث يصبح فى حالة انغلاق قلب وعمى ، لدرجة أنه لو حركته يد القدرة بشكل معجز لبقى مصرا على الانكار .

ويحدثنا القرآن عن أمثال هؤلاء فيقول : ((**ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون**)) (الحجر : ١٤ ــ ١٥) . ((**وان يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر**))

(القمر : ٢) ((**وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنهـا معرضون**)) (يوسف : ١٠٥) ٠

وقبل أن نبدأ باستعراض الآيات نحب أن نسأل :

ترى هل الله هو الذى يحتاج الينا كى نؤمن به ، أم نحن الذين نحتاج أن نؤمن به من أجل أنفسنا ؟ ((**ان الله لغنى عن العالمين**)) ٠ (العنكبوت : ٦) واذن فلنحرر أنفسنا من أجل أن نكون أهلا لرؤية آيات الله :

١ ـ **من الكبر** : لان الله لا يرى قلبا متكبرا آياته ((**سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بهـا ، وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**)) (الاعراف : ١٤٦) ٠

٢ ـ **ولنحرر أنفسنا من الظلم والكذب** : ((**والله لا يهدى القوم الظالمين**)) (الصف : ٧) ٠ ((**ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار**)) (الزمر : ٣) ٠

٣ ـ **ولنحرر أنفسنا من الافساد فى الارض ونقض العهد وتقطيع أواصر ما ينبغى أن يوصل** :

((**وما يضل به الا الفاسقين ٠ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصـــل ، ويفســـدون فى الارض ، أولئك هم الخاسرون**)) (البقرة : ٢٦ ـ ٢٧) ٠

٤ ـ **ولنحرر أنفسنا من الغفلة** : ان أردنا أن تنكشف آيات الله كلهـا لنـا ، فان بعضا من آيات الله يتكشف للانسان بمجرد الفكر ان لم تكن هناك موانع ، وأخرى بمجرد العقل : ومثال تلك وهـذه كل آية فى القرآن قد قال تعالى عنها : ((**ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**)) (الرعد : ٣) ٠٠ ((**ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**)) (الرعد : ٤) ٠

ولكن آيات الله كلها لا تتكشف لقلب الا اذا اجتمع لصاحبه فكر مع ذكر : ((**ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهـار لآيات لاولى الالباب ٠ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض**)) (آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١) ٠

وما أعرض معرض عن الله الا لغفلة ، ولا غفلة الا وراءها لعب ولهو ، والحياة الدنيا كلها لعب ولهو : ((**انمـا الحياة الدنيا لعب ولهو**)) (محمد : ٣٦) ٠ ((**اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ٠ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون ٠ لاهية قلوبهم**)) (الانبياء : ١ ـ ٣) ٠

٥ ـ ولنحرر أنفسنا من الاجرام : ((**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**)) (المطففين : ١٤) . ((**كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين**)) (الحجر : ١٢ ـ ١٣) .

٦ ـ ولنحرر أنفسنا من التردد فى قبول الحق اذا رأيناه صريحا : ((**ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون**)) (الانعام : ١١٠) . وساعتئذ فان آيات الله من الاشراق بحيث تغمر كل جوانب قلبك ، بعد اذ أعددته لتلقى النور ، ولكن هيهات والقلب قلب شيطان أن يكون أهلا لهداية الرحمن ، ذلك أن الضباب الكثيف يمنع أشعة الشمس ، والعطب فى العين يمنع الرؤية ، والمرض فى الاذن يمنع السمع ، وليس الذنب ذنب الماء الفرات اذا وجده المريض مرا : ((**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون الكذب سماعون لقوم آخرين ، لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم**)) (المائدة : ٤١) .

فالسر دائما فى الانسان نفسه : ((**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**)) (الصف : ٥) . وأما آيات الله فواضحة بينة : ((**وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**)) (الانعام : ٥٥) . وآيات الله نراها فى ثلاثة :

١ ـ الكون ـ ٢ ـ القرآن ـ ٣ ـ المعجزات والكرامات . وقد عبر القرآن عن كل من هذه الثلاثة بأنه آية تدل عليه :

الكون : ((**وفى الارض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون**)) (الذاريات : ٢٠ ـ ٢١) . . ((**وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون**)) (يوسف : ١٠٥) . ((**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** (يس : ٣٧ ـ ٣٩) . ((**ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله**)) (الروم : ٢٢ ـ ٢٣) .

القرآن : ((**وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم**))

(العنكبوت : ٥٠ ــ ٥١) ٠ ((**بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم**)) (العنكبوت : ٤٩) ٠ ((**وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله**)) (آل عمران : ١٠١) ٠

المعجزات : ((**وفيكم رسوله**)) (آل عمران : ١٠١) ٠ ((**اقتربت الساعة وانشق القمر ٠ وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**)) (القمر : ١ ــ ٢) ٠ ((**وياقوم هذه ناقة الله لكم آية**)) (**هود : ٦٤**) ٠ ((ورسولا الى **بنى اسرائيل ، أنى قد جئتكم باية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرىء الاكمه والابرص ، وأحى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بمـا تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين**)) (آل عمران : ٤٩) ٠

ونصوص القرآن تشير الى أن فى الكون آيات وليس آية ، وفى القرآن آيات وليس آية ، والمعجزات آيات وليست آية ٠

ان عشرات الظواهر فى الكون كل واحدة منها تدل على الله ٠ وعشرات الظواهر فى القرآن كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله ٠ والمعجزات ظواهر تاريخية كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله ٠ وفى كل ظاهرة آلاف الاشارات كل واحدة منها تدل على الله ، فالله أقام الحجـــة على الناس قياما كاملا : ((**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجـــة بعد الرسل**)) (النساء : ١٦٥) ٠ ((**قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ، قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال**)) (المؤمن : ٥٠) ٠ وفى هـذه الرسالة سنعرض لآيات الله فى الكون ، مقيمين الحجة على كل كافر ومعاند : أن الله موجود وأن له صفات الكمال والجلال والجمال كلها ٠ وفى الرســالة الثانية التى موضوعها ((**الرسول**)) سنرى بشكل ضمنى آيات الله فى القرآن وآياته فى معجزات الرسل ، اذ كما أن القرآن آية تدل على الله ، وكما أن فى المعجزة بشكل مطلق آية تدل على الله ، فان فى القرآن بنفس الوقت شــهادة على أن محمدا رسول الله وكذلك فى معجزاته ، ولذلك فقد أخرنا هذين الى الرسالة الثانية حيث اقامة الدليل على صحة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ان شاء الله تعالى ٠

ونبدأ الآن باستعراض ظواهر الكون التى تدلنا على الخالق العظيم :

الظاهرة الأولى

ظاهرة حدوث الكون

ظاهرة حدوث الكون : أى وجوده بعد اذ لم يكن :

أول ظاهرة تدلنا على الله هى حدوث هذا الكون الذى يدلنا على أن له محدثا ، وكلما تقدم العلم أكثر أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر اقناعا على هذه الظاهرة ، بل ما قدمه العلم من أدلة عليها جعلها فى حكم البديهية ، اذ وضوح الادلة وتعاضدها لم يبق مجالا للشك فيها • فقوانين الحرارة ، وقوانين الالكترون ، والطاقة الشمسية ، قد قدم كل منها دليلا واضحا عليها ، وبتضافر هذه الادلة يظهر الامر ظهورا لا يبقى معه مجال للشك ، هذا عدا عن الادلة الفطرية والعقلية والقطعية التى ذكرها الربانيون فى كل عصر • وسنحاول أن نستعرض هذه الجوانب واحدا بعد الآخر ، لندرى كيف يقدم كل منها الدليل على كون هذا الكون مخلوقا لخالق •

١ ـ قوانين الحرارة :

يقول (ليكونت دى نوى) رئيس قسم الفيزياء فى معهد باستور ، ورئيس قسم الفلسفة فى جامعة السوربون ، فى كتابه « مصير البشرية » :

ان أحد وجوه النجاح العظيمة التى حققها العلم الحديث ، ربط قانون « كارنوت ـ كلوزيوس » ـ (يدعى أيضا بالقانون الثانى فى الترموديناميك) الذى يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية ـ بحساب الاحتمالات ، وقد أثبت الفيزيائى الكبير « بولتزمان » أن التطور غير الحى وغير القابل للانعكاس الذى يفرضه هذا القانون ، يوافق تطورا نحو حالات أكثر وأكثر احتمالا تتصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة ، وهكذا فان الكون يميل نحو التوازن حيث تزول جميع عدم التناظرات الموجودة فى الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام •

وقد عبر « ادوار لوزكيل » عن هذا القانون وكيف أنه يثبت به أن لهذا الكون بداية بما يلى :

وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه ، وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود اله أزلى ، ولكن القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأى ، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا ، فهناك انتقال حرارى مستمر من الاجسام الحارة الى الاجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية • ومعنى ذلك أن الكون يتجه الى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الاجسام وينضب منها معين الطاقة ، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون • لذلك فاننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا والا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود ، وهكذا توصلت العلوم دون قصد الى أن لهذا الكون بداية ، وهى بذلك تثبت وجود الله ، وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ، ولا بد له من مبدئ أو من محرك أول أو من خالق هو الاله •

واستدل « فرانك ألان » عالم الطبيعة البيولوجية على عدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون ، يقول : كثيرا ما يقال : ان هذا الكون المادى لا يحتاج الى خالق ، ولكننا اذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجوده ونشأته ؟ هنالك أربعة احتمالات للاجابة على هذا السؤال : فاما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال وهو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده ، واما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، واما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية ، واما أن يكون له خالق •

أما الاحتمال الاول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الاحساس والشعور • فهو يعنى أن احساسنا بهذا الكون وادراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الاوهام ليس له ظل من الحقيقة ، فالرأى الذى يدعى أن هذا الكون ليس له وجود فعلى ، وأنه مجرد صورة فى أذهاننا ، وأننا نعيش فى عالم من الاوهام لا يحتاج الى مناقشة أو جدال •

أما الرأى الثانى القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة • ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة •

والرأى الثالث الذى يذهب الى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية ، انما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون وذلك فى عنصر واحد هو الازلية • واذا فنحن اما أن ننسب صفة الازلية الى عالم ميت واما أن ننسبها الى اله حى يخلق ، وليس هناك صعوبة فكرية فى الاخذ بأحد

الاحتمالين أكثر مما فى الآخر ، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة حتما الى يوم تصير فيه الاجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الاجسام الى الصفر المطلق بمضى الوقت • أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والارض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو اذا حدث من الاحداث ، ومعنى ذلك أن لابد لاصل الكون من خالق أزلى ، ليس له بداية ، عليم محيط بكل شىء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه أ هـ • فالقانون اذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليا ، لان الحرارة لا يمكن أن توجد لنفسها بعد برودته ولو كان أزليا لكان باردا •

٢ ـ قوانين الحركة الالكترونية :

والشهادة الاخرى التى تدل على حدوث الكون نجدها فى كل ذرة من ذرات الوجود على الاطلاق ، وذلك أن ذرات الكون كلها مؤلفة من جزيئات كهربائية سالبة وموجبة ، الموجبة يطلق عليها اسم البروتون ، والسالبة يطلق عليها اسم الالكترون ، وبعض الذرات فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى نيترون • والبروتون والنيترون يشكلان نواة الذرة ، بينما الالكترون تشكل كواكبها السيارة التى تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائرية اهليلجية ، وبسبب هذه السرعة الهائلة فى حركة الالكترون يبقى الالكترون متحركا هذه الحركة ، اذ لولا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الالكترون ، وعندئذ يكون العجب ، اذ فى هذه الحالة يصبح جرم كالكرة الارضية فى حجم بيضة الدجاجة ، اذ الفراغ كبير جدا فى عالم الذرة ، فكتل الجزيئات لا تأخذ الا حيزا صغيرا جدا من فراغ الذرة الواسع ، وذلك أن البعد بين النواة والالكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبيا •

من هذه الدراسة الموجزة للذرة نصل الى الحقائق التالية :

١ ـ أن الالكترون فى أكثر ذرات الوجود ـ ان لم يكن فى كلها ـ فى حركة دائمة دائرية •

٢ ـ وأنه ليس هناك أى دليل فى الوجود يدل على أنه يمكن أن يكون هناك وضع آخر للالكترون كان عليه أولا ثم انتقل الى هذه الحالة ، ان لم نحكم باستحالة تصور آخر أقدم من هذا الوضع ، اذ لو كان لاحتجنا الى مؤثر يجعل ألكترونات الوجود تتحرك بعد خمود فيتوسع الكون بعد ضيق •

٣ ـ أن هذا الكون كله مؤلف من نفس الذرات التى عرفنا خصائصها هنا ، بل من نفس العناصر ، وهذه الحركة التى نجدها فى الالكترون نجدها فى كل جرم فى الفضاء ٠

وبعد هذه الحقائق نقول :

ان الشيء الدائر لابد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته ٠ ولما كانت الالكترونات والاجرام كلها فى حركة دائرية ، ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة كما يبدو ، فاذن لابد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الالكترون ، وهذه البداية فى الحقيقة هى بداية وجود الذرات نفسها ، وبهذا نكون قد وصلنا الى أن لهذا الكون بداية ونشأة وخالقا خلق من العدم ، اذ العدم لا ينتج عنه وجود ٠

٣ ـ الطاقة الشمسية :

نحب أولا أن نذكر كلمة توضح معنى الازلية ٠ انه لو وضعنا الرقم (١) وأمامه أصفار ممتدة منه اليه على محيط الكرة الارضية ، فان هذا الرقم الكبير من السنين انما يمثل جزءا كالصفر تقريبا بالنسبة الى اللانهاية أو اللابداية ، ونفس الشيء لو كان الرقم (١) أمامه أصفار من أول الكون الى نهايته ، فان هذا الرقم لا يمثل الا جزءا من اللانهاية يشبه الصفر ، وكذلك هو بالنسبة للازل ٠

فالذين يقولون بقدم المادة انما يعطونها هذا المعنى ، وهذا الذى تثبت الظواهر كلها استحالته وخلافه ٠ والظاهرة هذه التى سنتكلم عنها تمثل احدى هذه الظواهر ٠

من أين تأتى الشمس بطاقتها ؟ وكيف تحافظ على حرارتها ؟ وعندما نقول الشمس فانما نعنى كل نجوم هذا الكون ، فنجوم هذا الكون كلها شموس ترى صغيرة لبعدها عنا وشمسنا هذه نموذج عنها ٠

والسؤلان اللذان ذكرناهما مهمان جدا ، لان الشمس وكل الشموس فى حالة اعطاء دائم ، فهى تعطى دائما اشعاعا حراريا يشكل طاقة ٠ لقد أضيء معرض شيكاغو الذى أقيم عام ١٩٣٣ بكامله بواسطة مفتاح ضخم يدار بواسطة شعاع ضئيل كان قد انبعث من نجم (السماك الرامح) منذ أربعين عاما ٠

فما سبب هذه الطاقة فى الشموس ؟ أجيب على هذا السؤال أكثر من جواب ، ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الاخير وهو : ان ذرات هذه الشموس تتحطم فى قلبها المرتفع الحرارة جدا ، وبواسطة هذا التحطم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التى لا مثيل لها ، وكما هو معلوم فان الذرة عندما تتحطم تفقد جزءا من كتلتها حيث يتحول هذا الجزء الى طاقة ،

واذن فان كل يوم يمر على أى شمس معناه فقدان جزء ولو يسيرا من كتلتها ، ان الشمس مثلا تفقد كل يوم كذا كيلو غرام ومثلها بقية النجوم ٠

فلو كانت هذه الشموس قديمة أزلية فهل يمكن أن تكون فى وضعها الحالى أو أنها تكون قد استنفدت وانتهى أمرها ٠ والازل كما رأينا هو الازل ، ونحن لم ننس أن قسما من هذه الطاقة التى تصرفها الشموس يتحول الى مادة ، ولكن نسبة التحول الى غير التحول تبقى ضئيلة كنسبة النجوم الى الفضاء ، وكلامنا ليس فى جزء من الكون يفقد ويعوض ، فقد يوجد مثل هذا التوازن أحيانا ، ولكن كلامنا فى الكون كله ، اذ ما دام الفضاء عظيما فحتما سيضيع قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحول الى مادة ، وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادى بشكل ما من جديد ، فان تصور أزلية الكون الحالى مستحيلة ، اذ شعاع واحد على مدى الازل كاف لاستنفاد طاقة الوجود كله ٠

أما الكلام بأن الكون كله كان فى الاصل طاقة ، فتحولت الى مادة ، وهو الآن مادة يتحول الى طاقة ، ومن ثم سيكون مادة وهكذا ، فالذى يبدو أن المغالطات فيه واضحة ، ذلك أن الطاقة كطاقة انمـــا تظهر اذا وجدت مادة ما تقوم بها ، فالطاقة تحتاج الى ذات وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم ، أو بتعبير العلماء القدامى : الطاقة عرض تحتاج الى جوهر لتظهر فيه ، فاشعاع الشمس عندما يصادف الارض مثلا ، تأخذ ذرات الارض حرارته وبهذا تصبح ذرات الارض مشحونة بالطاقة الحرارية ، ولكن اذا لم يصادف هذا الشعاع مادة فهل سيتحول نفسه الى ذرة مادية ؟ على الاقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن ، وبهذا يتضح بما لاشك فيه أن هذا الكون ليس قديما وأن له بداية ، وأنه لا يتصور وجوده لولا أن له خالقا ، هذا الخالق هو ابتدأ خلقه ووجوده بعد اذ لم يكن ٠

٤ ــ وقد عبر علماء التوحيد القدامى عن قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم بقدرة الله على الشكل التالى :

نظروا الى الكون فوجدوا ما فيه على نوعين : نوع يقوم بذاته ، ونوع لا يقوم بلا ذات ٠ فمثلا الجسم يقوم بذاته ، ولكن المرض لا يكون بلا جسم ، والذرة تقوم بذاتها ، ولكن الحرارة لا تكون بلا ذات ، وسموا ما يقوم بذاته الجوهر ، وما لا يقوم الا بالجوهر عرض ، فالذرة جوهر وحرارتها عرض ، والجسم جوهر والصحة عرض ٠

وقالوا : ان الجواهر لا تنفك عن الاعراض فما رأينا جوهرا الا ويلازمه عرض ما ، وكل عرض حادث ، فالظلام حادث ، فمنذ فترة كان قبله نهار ، والنهار حادث ، فمنذ فترة كان قبله ليل ، وحرارة الذرات مهما كانت فان لها

بداية ، وكذلك برودتها لها بداية وهكذا ، واذن فما من عرض الا وله بداية ، واذا كان لا جوهر الا بعرض فلا جوهر الا وله بداية ، فالكون جواهره وأعراضه كله حادث وليس أزليا ·

مناقشة سؤال :

ويثير الناس عند الوصول الى هذه الحقيقة السؤال التقليدى : من خلق الله الذى خلق الخلق ؟ وفى مضمون السؤال الجواب عليه · فالله خالق وكونه خالقا يجعلنا لا نتصور أنه مخلوق ، اذ لو كان مخلوقا لما استطاع أن يخلق ، ألا ترى أن الانسان مثلا مع كل ما أوتى من امكانات لم يستطع أن يخلق شيئا من عدم ، فكيف نتصور خالق هذا الكون مخلوقا ·

يقول الاستاذ البنا ــ رحمه الله ــ مجيبا هؤلاء الذين يسألون هذا السؤال :

اذا وضعت كتابا على مكتبك ، ثم خرجت من الحجرة وعدت اليها بعد قليل ، فرأيت الكتاب الذى تركته على المكتب موضوعا فى الدرج ، فانك تعتقد تماما أن أحدا لابد أن يكون قد وضعه فى الدرج ، لانك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه · احفظ هذه النقطة وانتقل معى الى نقطة أخرى · لو كان معك فى حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسى ، ثم خرجت وعدت الى الحجرة ، فرأيته جالسا على البساط مثلا ، فانك لا تسأل عن سبب انتقاله ولا تعتقد أن أحدا نقله من موضعه ، لانك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج الى من ينقله · احفظ هذه النقطة الثانية ثم اسمع ما أقول لك : لما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها ، بل لابد لها من موجد ، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى · ولما كان كمال الالوهية يقتضى عدم احتياج الاله الى غيره ، بل ان من صفاته قيامه بنفسه ، عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج الى من يوجده ، واذا وضعت النقطتين السابقتين الى جانب هذا الكلام ، اتضح لك هذا المقام ، والعقل البشرى أقصر من أن يتورط فى أكثر من ذلك ·

وقد كان علماء التوحيد يرون أن مثل هذا السؤال لا معنى له فيقولون :

اذا سرنا مع السائلين شوطا عندما سألوا : من خلق الله ؟ فقلنا لهم : غيره ، ومن خلق غيره ؟ غيره ، ومن خلق الثالث ؟ آخر · وماذا بعد ذلك ؟ فانه بالتالى لابد أن نصل فى النهاية الى ذات لا بداية لها ولا خالق ، هذه الذات التى لا بداية لها ولا خالق هى الذات الالهية ، وكل جواب فى الوسط لا معنى له فى النهاية ، فهناك خالق ومخلوق ولا يمكن أن يكون للخالق خالق ·

والحقيقة أن الذى يسأل مثل هذا السؤال اما هازل • والجواب عليه الاعراض عنه ، أو متوهم والجواب عليه ازالة سبب التوهم ، وسبب توهمه أنه رأى كل شىء موجود محتاجا الى خالق • فتصور أن هذا القانون يسرى على الخالق نفسه ، والجواب على هذا : أنه ليس شرطا حتميا أن تنطبق على الصانع نفس القوانين التى يخضع لها المصنوع ، اذ المصنوع والقوانين التى يخضع لها من صنع الصانع ، وفى حدود العالم نفسه نجد أن ما صنعه الانسان لا تسرى عليه حالات الانسان ، فالانسان يمشى تلقائيا ، ويريد ، ويعلم ، ويدرك ، ويفكر ، ويأكل ويشرب ، ويمس ، ويشتهى ، فهو شىء ، وما يصنعه شىء آخر ، ولكل خصائصه ، وهذا الكون شىء ، وخالقه شىء آخر ، وللكون خصائصه ، وللذات الالهية صفاتها •

وفى غالب الاحيان يكون صاحب السؤال من الذين لا يؤمنون بالله ، والجواب على مثل هذا أن نقول له : اننا جميعا متفقون على أن هناك شيئا قديما لا بداية له ولا خالق ، أنت تقول : ان هذا الشىء القديم هو المادة ، ونحن نقول هذا الشىء القديم هو الله ، وقد أثبتت العلوم كلها أن المادة غير قديمة فلم يبق الا أن يكون الله هو القديم • وقد ذكرنا فى الصفحات السابقة بعضا مما قالته العلوم ، وننقل الآن أقوالا أخرى لبعض علماء الطبيعة فى نفس الموضوع من كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم ص ٢٧ » مختتمين بها الحديث عن هذه الظاهرة • يقول « جون كوشران » : « وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فان المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية ، اذ أن لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد » • ويقول « ايرفنج وليام » فى نفس المصدر ص ٥٥ :

« ••• فعلم الفلك مثلا يشير الى أن لهذا الكون بداية قديمة ، وأن الكون يسير الى نهاية محتومة ، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلى ليس له بداية ، أو أبدى ليس له نهاية ، فهو قائم على أساس التغير » •

هذا كلام هؤلاء على كفرهم ـ اذ الايمان بالله له مستلزمات لم يقم بها هؤلاء ـ الا أن علمهم بقوانين الكون أوصلهم الى هذه الحقيقة الخالدة والقائمة فى كل فطرة ، والبديهية عند كل عقل مستقيم • والله عز وجل يقول : **((أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون • أم خلقوا السموات والارض)) ••** (الطور : ٣٥ ـ ٣٦) •

الظاهرة الثانية

ظاهـــرة الإرادة

- ١ -

ان هناك فرضيات ثلاث يمكن أن تذكر أثناء الحديث عن الكون وما فيه ، كتعليل لوجوده على ما هو عليه :

الاولى : ــ أن يكون من صنع الله ٠

الثانية : ــ أن يكون من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عن قصد وارادة وعناية منها ، أى أن عناصر المادة الاصلية فكرت ودبرت واتفقت على صنع تنوعات هذا العالم بهذه الاشكال والصور التى نراها ٠

الثالثة : ــ أن يكون الكون بما فيه ، قد تكون بطريق المصادفة ، أى أن الجزئيات الكهربية التى منها تتألف ذرات هذا الكون وجدت مصادفة ، وكان بعضها سالبا والآخر موجبا والاخير معتدلا مصادفة ، وكل جزىء سالب التقى بجزىء موجب مصادفة ، ومجموعة متدرجة من الواحد الى ٢٣٨ من الجزيئات الموجبة شكلت مع بعضها نوى مصادفة ، والجزيئات السالبة أخذت تدور حول هذه النوى مصادفة ، وكان بين النواة والكهارب فراغات لولاها لكان جرم كالارض بحجم البيضة مصادفة ، ووجود المدارات الثابتة لكل ثمانية كهارب كان مصادفة ، ووجود امكانيات الاتحاد بين العناصر لتشكيل مركبات جديدة بسبب نقص الالكترونات عن الثمانية فى غلافات بعض الذرات كان مصادفة ، واتحاد العناصر واجتماعها لتتكون هذه الاجرام الهائلة من الشموس كان مصادفة ، وانتظام الشموس فى مداراتها والكواكب فى مداراتها كما تنتظم الالكترونات مصادفة ، والحرارة الموجودة فى الشموس والاشعاع والترتيب كان مصادفة ، ثم الارض بوضعها الحالى الصالح للحياة : قشرتها ، هواؤها ، ماؤها ، جبالها ، حجمها ، وجدت مصادفة ، ثم الحياة بتنوعاتها وتركيباتها ، وأجهزتها المعقدة ، وجدت مصادفة ، ثم الانسان : بعقله ، وفكره ، وتركيبه ، وروحه ، وأخلاقه ، واستعداداته الخيالية والتصورية والعلمية ، وامكاناته للتسخير ، كل هذا وجد مصادفة ٠٠٠

هذه افتراضات ثلاث لا يمكن أن يكون غيرها لتعليل وجود هذا الكون على ما هو عليه ، أما الفرض الاول فيقول به المؤمنون ، وأما الفرض الثانى فلا يقول به أحد ، وأما الفرض الثالث فيقول به الماديون ·

واذن فنحن أمام فرضين فقط : اما أن يكون هذا الكون بتنوعاته من صنع صانع له ارادة طبقا لمبدأ السببية · واما أن يكون نتيجة المصادفة ·

– ٢ –

ومهمتنا أن نرى أيا من الفرضين يقوم عليه البرهان ، وأيا منهما لا دليل عليه ولا برهان ، اذ أن المصادفة فى حد ذاتها تكون أحيانا ممكنة وتكون أحيانا فى حكم المستحيلة عقلا ، وسنضرب أمثلة نبين منها حالة الامكان وحالة الاستحالة :

خذ لوحا واغرز فيه ابرة ، وضع فى ثقبها ابرة ثانية أخرى وقل لى : اذا رأى انسان هاتين الابرتين ، وسأل كيف أدخلت الثانية فى ثقب الاولى ، فأخبره انسان معروف بالصدق أن الذى أدخلها رجل وضعها بيده فى شق الابرة الاولى ، ثم أخبره انسان آخر معروف بالصدق أيضا ، أن الذى ألقاها صبى صغير ولد من بطن أمه أعمى ، فوقعت فى الشق بطريق المصادفة فأى الخبرين يصدق ؟

لا ريب أنه يميل الى تصديق الخبر الاول ، ولكنه أمام صدق المخبرين يرى أن المصادفة ممكنة ، فلا يجزم بترجيح أحد الخبرين على الآخر ، ولكن اذا رأى هذا الرجل ابرة ثالثة مغروزة فى شق الثانية أيضا ، فهل يبقى عدم الترجيح على حاله ؟ !

الحقيقة أنه يتقوى ترجيح (القصد) على المصادفة ، ولكن لا يزال للمصادفة محل ولو كان ضعيفا ، فاذا ما رأى الرجل أن هناك عشر ابر ، كل واحدة منها مغروزة فى ثقب الاخرى التى تليها ، فهل يبقى ترجيح فكرة القصد على وضعه السابق ؟ الحقيقة أن ترجيح فكرة القصد يتقوى لدرجة تكاد تتلاشى فيها فكرة المصادفة ·

وكلما ازداد تعقيد المسألة أكثر دنت فكرة المصادفة من الاستحالة ، فمثلا لو قلنا : ان الابر العشر مرقمة بخطوط ، لكل واحدة منها رقم ، من الواحد الى العشرة ، وقيل لنا فى الخبر : أن الصبى الاعمى أعطى كيسا فيه هذه الابر العشر مخلوطة مشوشة ، وأنه كان يضع يده فى الكيس ويستخرج الابر تباعا على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ، ويلقيها اعتباطا ، فتقع الاولى فى شق

المغروزة فى اللوح ، وتقع الثانية فى الاولى ، والثالثة فى الثانية ، والرابعة فى الثالثة ، وهكذا حتى اتم ادخال الابر العشر بعضها فى بعض على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ، ثم اذا تعقدت المسألة أكثر بحيث جعلنا بدل الصبى الهواء أو المـاء أو العدم •

فماذا يكون موقف الانسان فى هذه الحالة ، هل يصدق خبر من يقول بالمصادفة ، أو خبر من يقول : بأن هناك ذاتا ذات ارادة وبصر هى التى فعلت هـــذا ؟

لاشك أن الانسان العاقل يرجح ترجيحا مطلقا بداهة ، أن الثانى هو الصـــــادق •

وسبب هذا الترجيح يعود الى أن للمصادفة قانونا رياضيا عقليا لا يمكن الخروج عنه ، وهو :

(أن حظ المصادفة من الاعتبار ، يزداد وينقص ، بنسبة معكوسة مع عدد الامكانيات المتكافئة المتزاحمة) •

فكلما قل عدد الاشياء المتزاحمة ، ازداد حظ المصادفة من النجاح ، وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة فاذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين ، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين) • واذا كان التزاحم بين عشرة ، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد عشرة) ، وذلك لان كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعا ، والى هنا يكون الحظ فى النجاح قريبا من المتزاحمين حتى لو كانوا مائة أو ألفا ، ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخما هائلا ، يصبح حظ المصادفة فى حكم العدم بل المستحيل • ولادراك المسألة بشكلها الواضح فلنقرأ هذا المثال :

افرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة فى صناديقها ، فجاءت هزة أرضية قلبت صناديق الحروف وبعثرتها وخلطتها ، ثم جاءك منضد الحروف يخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعانى ، فالقضية تكون فى هذه الحالة قابلة للتصديق جدا •

ولو قال لك : ان الكلمات العشر ألفت جملة مفيدة كاملة ، تستبعد ذلك ، ولكن لا تراه مستحيلا •

ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها ، تشكلت وكونت عند اختلاطها بالمصادفة كتابا كاملا من ٥٠٠ صـحيفة ، يتضمن قصـيدة واحدة تؤلف

بمجموعها وحدة كاملة مترابطة منسجمة بألفاظها وأوزانها ، لا شك أنك فى هذه الحالة ترى الاستحالة بديهية وواضحة ٠٠

والسبب فى رؤية الاستحالة يعود الى قانون الصدفة نفسه ٠

فاذا علمنـــا أن نسبة خروج الارقام العشرة متسلسلة فى مسألة الابر هو (١) الى عشرة مليارات ، ولو كانت الابر (١٢) لكان احتمال خروجها متتابعة واحد الى ألف مليار ، ولو كانت (٢١) لاصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار مليار ٠

فكيف بالتزاحم الذى يجرى بين (٥٠٠) ألف حرف لتكوين (١٢٥) ألف كلمة تقريبا ، بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدا ؟ ان النتيجة هائلة لدرجة أن نسبة الاحتمالات فى حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة ٠

ولكى نعـرف معنى كلمة (٥٠٠) ألف حرف و (١٢٥) ألف كلمـــة و (٢٨) حرف هجائى ، لندرس هذا النص : « ان البروتينات من المركبات الاساسية فى جميع الخلايا الحية ، وهى تتكون من خمسة عناصر هى : الكربون والهيدروجين ، والنيتروجين ، والاوكسيجين ، والكبريت ، ويبلغ عدد الذرات فى الجزىء البروتينى الواحد (٤٠٫٠٠٠) ذرة ، ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة (٩٢)(١) عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا ، فان احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزيئا من جزئيات البروتين ، يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطا مستمرا لكى تؤلف هذا الجزىء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد ٠

وقد قام العالم الرياضى السويسرى « تشارلز بوجين جاى » بحساب هذه العوامل جميعا ، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد الا بنسبة (١) الى (١٠)١٦٠ أى بنسبة واحد الى رقم (١٠) مضروبا بنفسه (١٦٠) مرة ،! وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات ، وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة ، بحيث ينتج جزىء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات ٠

(يقول ليكونت دى نوى : يجب أن نتصور حجما أكبر من الكون الاينشتايينى بسكستيليون سكستيليون مرة) ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الارض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات ، قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها (٢٤٣) مرة من

---

(١) النص سابق على زمن اكتشاف بعض العناصر التى اكتشفت حديثا ٠

السنين (١٠)٢٤٣ • ان البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الاحماض الامينية ، فكيف تتآلف ذرات هذه الجزيئات ، انها اذا تآلفت بطريقة أخرى غير التى تتآلف بها تكون غير صالحة للحياة ، بل تصير فى بعض الاحيان سموما ،

وقد حسب العالم الانكليزى « ج•ب ليتز » الطرق التى يمكن أن تتآلف بها الذرات فى أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات ، فوجد أن عددها يبلغ الملايين « ١٠ »٤٨ ؛ وعلى ذلك فانه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكى تبنى جزيئا بروتينيا واحدا •

ولقد ذكرنا هذا النص لنرد مباشرة على من يقول : ان ما لا يحدث فى هزة واحدة ، يمكن أن يحدث فى غيرها الى ملايين الهزات ، لنبين الزمن الهائل الذى نحتاجه لتكوين جزىء واحد فيه خمسة عناصر ، مع ملاحظة أن أقصى تقدير لعمر الكون خمسة بلايين سنة •

فخمسة عناصر فى جزىء واحد ، يمكن أن تكون تشكيلاتها « ١٠ »٤٨ نوع ، فكيف بـ (٢٨) حرف هجائى تريد أن تشكل قصيدة مؤلفة من « ١٢٥ » ألف كلمة ، مجموع حروفها (٥٠٠) ألف حرف ، بتسلسل معين ، بفكر معين ، بنظم معين ! !

— ٣ —

وعلى ضوء هذا الذى ذكرناه ، نذكر كلمات علماء التوحيد المسلمين فى هذا الموضوع ، فان لهـا علاقة وثيقة بنظرية الاحتمالات للوصول بالنهاية الى المراد :

يتحدث علماء التوحيد عن الكون كحديثهم عن كل الممكنات التى يمكن أن تكون ، ويعددون هذه الممكنات ، فيقولون :

الممكنـــات المتقـابلات	وجودنا والعدم الصفات
أزمنة ، أمكنة ، جهات	كذا المقادير روى الثقات

فاذا كان هذا الكون من الممكنات ، فكل ممكن يمكن أن يكون موجودا ، ويمكن أن يكون معدوما • ويمكن أن يكون على صفة ، ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تعد ، ويمكن أن يكون فى زمان ، ويمكن أن يكون فى أزمنة أخرى ، ويمكن أن يكون فى مكان ، ويمكن أن يكون فى أمكنة أخرى ، ويمكن أن يكون بمقدار ، ويمكن أن يكون بمقادير أخرى ، وبالتالى فكل جزء من أجزاء هذا الكون تنطبق عليه هذه المعانى •

فاذا كان من بين هذه الممكنات كلها يختار دائما واحد ، هو الاحكم والاحسن والاكثر نظاما ، ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى ، فلابد اذن من وجود ارادة عليا رجحت أحد وجوه الاحتمال والامكان •

— ٤ —

وبعد هذا كله وقبل أن نصوغ مسألتنا فى صيغتها الاخيرة نقول :

ان المسألة فى موضوع الكون أعقد بكثير من المثالين اللذين ضربناهما ، ففى مثال الطفل والابر أو مثال المطبعة والحروف • الابر موجودة بثقوبها بامكانية الغرز فيها ، ذراتها متالفة مع بعضها على ترتيب معين ، من معدن معين ، والطفل موجود وعنده امكانية الرمى ، وله ارادة تتوجه حتى يرمى وان كان أعمى • وحروف المطبعة موجودة ، وهذا حرف كذا ، وذلك حرف معين ، وذراتها مجتمعة حتى تكون هذا الحرف ، وموجودة بجانب بعضها ومصفوفة فى صناديقها ، وهناك شىء اسمه هزة أرضية لها قوانين •

أما فى موضوع الكون ، فان القضية من التعقيد لدرجة لا تستطيع أن تحيط بها عقول البشر كافة ، مما يجعل الصدفة مستحيلة التصور فى حد ذاتها بله الوقوع •

— ٥ —

ونبدأ الآن فى صياغة المســـــألة :

هذا الكون مؤلف من عناصر واحدة : بنجومه ، وشموسه ، ومجراته ، وأرضه ، يبلغ عدد هذه العناصر أكثر من مئة ، وهذه العناصر نفسها عبارة عن شحنات كهربائية بعضها موجب ، والآخر سالب ، وبعضها معتدل • ويسمى الموجب بروتون ، والسالب ألكترون ، والمعتدل نيوترون •

وعدد الالكترونات فى مدار الذرة الخارجى يكون مطابقا لعدد البروتونات التى فى نواتها ، فاذا كان فى نواتها بروتون واحد كان فى المدار ألكترون واحد كما فى الهيدروجين ، واذا كان فى النواة بروتونان كان فى المدار ألكترونان ، وهكذا يتدرج العدد (واحد) من أخف العناصر وزنا ذريا الى أثقلها وهو الاورانيوم ، وبهذا التعادل العجيب بين الالكترونات السالبة والبروتونات الموجبة تتعادل كهربائية الذرة ، أما النوترونات المحايدة فان عددها فى نواة الذرة ـ قل أو كثر ـ لا يتعادل مع عدد الالكترونات •

واختلاف العناصر أثر عن اختلاف عدد البروتونات والالكترونات فى ذرة كل منها ، فالفارق بين الهيدروجين والاورانيوم ، أن الاول فيه بروتون واحد وألكترون واحد ، بينما الاورانيوم فيه (٢٣٨) بروتون و (٢٣٨) ألكترون •

والعناصر هذه هى التى يتشكل منها الكون كله ، وهى نفسها موجودة تقريبا فى كل جرم ، فنفس العناصر الموجودة فى الارض موجودة فى الشمس ، وكذلك فى كل نجم موجود فى هذا الفضاء كله ٠

واذن فكل هذه المجموعة من العناصر تجتمع مع بعضها بكتل عظيمة لتشكل جرما ، وكل جرم له نفس القوانين التى للاجرام الاخرى ، وهذه الاجرام كلها لهـا مداراتها المنتظمة ، لكل مداره الذى لا يصطدم فيه مع أى جـرم آخر رغم السرعات الهائلة التى يسير فيها ، حتى ان احتمال اصطدام نجم مع آخر كاحتمال اصطدام سفينتين : احداهما فى المحيط الهندى ، وأخرى فى المحيط الاطلسى ٠

وشمسنا نحن واحدة من هذه الاجرام التى لها نفس خصائصها وقوانينها ، ويتبع شمسنا كواكب سيارة احداها الارض التى نعيش عليها والتى ظهرت فيها الحيـــاة ٠

– ٦ –

ثم :

١ – لو كانت قشرة الارض أسمك مما هى عليه بمقدار بضع أقدام ، لامتص ثانى أكسيد الكربون والاكسجين ، ولمـا أمكن وجود حياة ٠

٢ – ولو كان الهواء أقل ارتفاعا مما هو عليه ، فان بعض الشهب التى تحترق بالملايين كل يوم فى الهواء الخارجى ، كانت تضرب فى جميع أجزاء الكرة الارضية ، وكان فى امكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق ٠

٣ – ولو أن شمسنا أعطت نصف أشعاعها الحالى ، لكنا تجمدنا ، ولو أنها زادت بمقدار النصف ، لكنا رمادا منذ زمن بعيد ٠

٤ – ولو كان قمرنا يبعد عنا « ٢٠٫٠٠٠ » ميلا بدلا من بعده الحالى ، – ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه « ٦٠٫٠٠٠ » ميل – ، لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الاراضى تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح الجبال نفســـــها ٠

٥ – ولو كان ليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات ، لاحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا فى كل نهار ، وفى الليل يتجمد كل نبت فى الارض ٠

٦ – ولو كان الاوكسجين بنسبة ٥٠ فى المائة أو أكثر من الهواء بدلا من ٢١ فى المائة ، فان جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة أن أول شرارة فى البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة كلهـــا ٠

ولو كانت نسبة الاوكسجين ١٠ فى المائة لتعذر أن يكون التمدن الانسانى على ما هو عليه اليوم ٠

٧ ـ ولولا المطر ، لكانت الارض صحراء لا تقوم حياة عليها ، فلولا الرياح والبحار والمحيطات ، لما كانت حياة ، ولولا أن الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح ، لما كانت حياة ، ولولا أن البخار أخف من الهواء ، لما كانت حياة ٠

٨ ـ ولو كانت مياه المحيطات ، حلوة لتعفنت وتعذرت بعد ذلك الحياة على الارض ، حيث أن الملح هو الذى يمنع حصول التعفن والفساد ، ولولا أن الكلور يتحد مع الصوديوم ، لما كان ملح ، وبالتالى ما كانت حياة ٠

٩ ـ ولو كان محور الارض معتدلا بدل هذا الميل الحالى الذى مقداره ٢٣ درجة مع سكون الارض ، لتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت فى مكانين محدودين فى الشمال والجنوب ، وكونت قارات الجمد ، ولظل الصيف دائما والشتاء الى الابد ، ولهلك الناس والحياة والاحياء ٠

١٠ ـ ولو كانت الارض كعطارد لا يدير الا وجهها واحدا منه نحو الشمس ، ولا يدور حول محوره الا مرة واحدة فى خلال الدورة الكاملة للشمس ، أو بتعبير آخر لـو كان قسم من الارض ليلا دائما والآخر نهارا دائما ، لما عاش أحد حيث الليل الدائم أو النهار الدائم ، ولا كانت حياة ٠

١١ ـ ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة ، فمن أين تلتقى الذرات وجزيئات الذرات ، ومن أين تكون الشمس شمسا والارض أرضا ؟ ولو كانت فمن أين تبقى فى مكانها الحالى ، ولو بقيت فكيف تكون الحياة وكيف يسير الانسان ؟

١٢ ـ وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الارض صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالى ٠ لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوى والمائى اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت ٠

١٣ ـ ولو كانت الالكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة ، والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات ، لكانت الكرة الارضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الانسان وغيره ، وعندما تكون المسألة كذلك ، يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الارض بدون فراغات بين جزيئات ذراته ٠

١٤ ـ ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات ، ان مواقع الالكترونات فى غلاف الذرة تنتظم فى ترتيب ثمانى ، فاذا بلغ عدد الالكترونات فى مدار الذرة السطحى

الثمانية ، تنتهى حمولة هذا السطح بامتلاء الاسرة الثمانية ، فلم يعد يتسع لالكترون آخر ، فاذا كان للعنصر تسعة ألكترونات ، اتخذ التاسع مركزا له فى مدار ثان فى غلاف الذرة ، وهكذا حتى تمتلىء الاسرة الثمانية فى المدار الثانى ، ثم فى المدار الثالث ، فالرابع الى النهاية ، ثمانية ثمانية ، واتحاد العناصر ببعضها يتمشى على أساس هذا الترتيب فى السطح ، ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين ألكتروناتها ، فاذا كان عدد ألكترونات العنصر أقل من ثمانية فى سطح الغلاف ، فانه يستطيع أن يستقبل عنصرا آخر فى ضيافته ، أما الذى فى طبقته الخارجية ثمانية ألكترونات فلا يستطيع أن يستقبل أحدا فى ضيافته ، فالذى فى طبقته الخارجية سبعة كهارب يستطيع الاتحاد بعنصر آخر فى طبقته ألكترون واحد ، والذى فى طبقته الخارجية ستة ألكترونات يتحد مع الذى فى طبقته الخارجية ألكترونان ، وهكذا ٠

١٥ ـ ولولا قوانين الحرارة ، لما تبردت الارض ولما كانت صالحة للحياة ٠

١٦ ـ ولولا الجبال ، لتناثرت الارض ، ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة ٠

١٧ ـ ولولا أن فى الارض أرزاقها ، لما استطاعت الحياة أن تبقى ٠

ـ ٧ ـ

هذه كلها مقدمات للحياة ، انها مقدمات أوصلت الى نتيجة ، وكل مقدمة من هذه المقدمات لا يمكن أن تكون مصادفة فى حساب الاحتمالات الا بنسبة « ١ » الى أرقام خيالية جدا ٠ واننا نرى أن كل مقدمة من مقدمات الحياة فى هذا الكون ، يمكن أن تكون على ملايين الاشكال الاخرى ، ولكن واحدا فقط من هذه الممكنات هو الذى اختير ، والمقدمة الثانية يمكن أن تكون على ملايين المحتملات ، ولكن واحدا فقط هو الذى اختير ، وبتضافر هذه المختارات من بين هذه الممكنات كلها ، وجد الجو المناسب للحياة ، فهل يمكن تعليل هذا كله بغير الارادة التى ترجح وجود ممكن على ممكن آخر ؟

ـ ٨ ـ

انها الارادة فقط :

ولنعد مرة أخرى الى ما قاله علماؤنا من قديم :

ان كل شىء فى هذا الوجود يمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون على غيرها ، ويمكن أن يكون فى زمان ويمكن أن يكون فى آخر ، ويمكن أن

يكون فى جهة وأن يكون فى جهة أخرى ، ويمكن أن يكون فى مقدار ويمكن أن يكون فى مقدار آخر ، وارادة الله وحدها هى التى يمكن أن يعلل بها ترجيح أحد وجوه الاحتمال ، حتى كان هذا الكون على أتم نظام وأكمله ، وكل شىء فيه على أجمل ترتيب وأروعه ٠

— ٩ —

وأخـــيرا :

ان الذين يقولون بأن حوادث هذا الكون كلها وليدة المصادفة ، انمـــا يعطون لهذه المصادفة علما محيطا وارادة كاملة وقدرة مطلقة ، تعلم ، وتريد ، وتقدر ، وهى فى كل ذلك تعمل بحكمة أكثر مما لو اجتمعت عقول البشر جميعا ، بنسبة ذكاء لا متناهية ٠

وان بداهية العقل تحكم أنه حيث وجد الاحكام ، كان العلم والارادة والقدرة والحياة ، وحيث وجدت هذه الصفات ، كانت الذات التى تقوم بهـا هذه الصــفات ٠

ان القلم الذى تكتب به والذى تشعر أنه أعد خصيصا لكى تكتب به يد الانسان ، ومخزن الحبر الذى أعد فيه لغاية ، والغطاء والثقب الموجود فيه اللذان أعــدا لحكمة ، والنحاسة التى تعلقه بها فى جيب سترتك ، وتجويف ابرة الكتابة ، وهذا العظم الذى فيها بخطوطه ذات الفائدة و ٠٠ هذا القلم الذى فيه هذه الاشياء المجتمعة ، لو حاول انسان أن يقنعك بأنه وليد مصادفة وليس وليد علم الانسان ، وارادة الانسان ، وقدرة الانسان ، وحياة الانسان ، وذات الانسان ، فانك لا شك تحمقه أو تجهله ، فكيف يخطر ببال ، أن الانسان ، هذه الآلة الضخمة ، والمعمل العظيم ، صاحب جهاز الهضم ، وجهاز الدوران ٠ وهذه الشجرة ذات الجذور والاوراق ، والساق بنسغها الصاعد والهابط ، وما يكون فيها من تنفس وتفاعلات وتشكلات وانتاج زهر وثمر ٠ « معمل أدق تركيبا من كل مـا صنعه عقل الانسان » ٠ وعالم الذرة بمـا فيه من طاقات وتحركات وتركيبات ، ومـا ينتج عنه من تفاعلات ، وآلاف الامثلة من أمثال هذا وملايينه ٠

كل هذا وليد مصادفات ؟! ٠ وهل يكون العقل الذى يقول بهذا علمانى الاتجاه ؟! ٠ وهو يتحدى كل قواعد العلم ٠

« قتل الانسان ما أكفره » (عبس : ١٧) ٠

« أو لم ير الانســـان أنا خلقناه من نطفـــة فاذا هو خصـيم مبين » (يس : ٧٧) ٠

الظاهرة الثالثة

ظاهرة الحياة

- ١ -

إن القصد من دراسة هذه الظواهر هو الوصول الى الله ، والايمان به ، وذلك بتحكيم قواعد العقل فى ذلك ، وعندما ندرس ظاهرة ما ، فاننا نريد دراسة الجوانب التى تشير الى الله فيها • حيث ان فى كل ظاهرة جوانب لا تعد ولا تحصى تدل على الله •

اننا نقول هذا فى مقدمة هذه الظاهرة ، لان بعض الناس يتوهمون أن التفكير فى الكون ، ودراسة ظواهره بعمق ، وترتيب المقدمات على النتائج ، والوصول الى الحقائق ، ونبذ الاوهام ، والقضاء على الخرافة ، والتمسك بالقانون الذى أوصلت اليه التجربة • كل هذه المعانى مما لا يتفق مع الفكر الدينى •

ولئن وجد هذا عند ديانات خاطئة ، ومذاهب باطلة ، فلا يصح هذا فى الدين الحق ، ولن يوجد أبدا • لان الحق لا يتعارض مع الحق • فاذا كان الدين حقا ، فلابد أن يكون كل أصل فيه ، وكل فرع من فروعه ، منسجما انسجاما تاما مع الحقيقة التى قام عليها البرهان ، والا فان نصا واحدا من نصوص الدين ، يثبت تناقضه مع الحقيقة القاطعة ، كاف لان يزعزع الثقة فى الدين كله •

- ٢ -

ولما كانت ظاهرة الحياة من الظواهر التى كثر الاخذ والرد حول بعض جوانبها ، كان لابد من أن نذكر بعض القواعد التى تتحدث عن بعض حقائق الاسلام ، حتى لا نقع فى التباس ، مع ملاحظة أن هذه الجوانب ليس لها علاقة فى موضوع دلالة ظاهرة الحياة على الله ، فنقول :

١ ــ ان الاسلام فرض على الناس الفكر والبحث ، وآيات القرآن فى هذا المعنى كثيرة :

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض ومــا خلق الله من شىء » (الاعراف : ١٨٥) ٠ **« قـل انظروا مــاذا فى السموات والارض »** (يونس : ١٠١) **« أو لم يتفكروا فى أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى »** (الروم : ٨) ٠

٢ ــ ان الاسلام فرض على الناس العلم ، والآثار الواردة فى الحث على العلم كثيرة ، وكذلك الآيات التى تبين أن العالمين بالكون أعرف بالله : **« ومن آياته خلق السموات والارض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين** (الروم : ٢٢) **« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ٠ ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انمــا يخشى الله من عباده العلماء »** (فاطر : ٢٧ ــ ٢٨) ٠

٣ ــ ومن البديهى بعد هذا ، أن ما وصل اليه الفكر والعلم يفترض على المسلم أن يقول به ، ولا يقول بخلافه ، وقــد يحدث أن يوجد بعض المسلمين الجاهلين ، وحتى ممن ينتسبون الى العلم ، من يعارض بعض الحقائق العلمية ، ولكن فى هذه الحالة يبقى رأيهم شخصيا ، وهم فيه خاطئون ويؤاخذهم على ذلك عامة المسلمين وعلماؤهم ٠ ولقد قال الامام الغزالى فى كتابه (تهافت الفلاسفة) حاملا على علماء الدين ، المنكرين للحقائق العلمية ، كمعرفة وقت الكسوف والخسوف وغيرها :

(ومن ظن أن المناظرة فى ابطال هذا من الدين ، فقد جنى على الدين وضعف أمره ، فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة ، فمن يطلع عليها ويتحقق من أدلتها ، ثم يقال له : ان هذا على خلاف الشرع ، لم يسترب فيه ، وانمــا يسترييب فى الشرع ، وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقة ، أكثر من ضرره ممن يطعن فيه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل) ٠

انه ليس من المعقول أن يأمرنا الله عز وجــل بالبحث والعــلم والنظر والمعرفة ، ثم يحرم علينا أن نأخذ بنتائج هذا العلم والبحث والمعرفة ، بل على العكس اذا أمرنا بالفكر أمرنا بالاخذ بنتائج الفكر وهكذا ٠٠٠

٤ ــ ولكن اذا كان الاسلام دينا علميا والمسلم علمى التفكير والاتجاه ، وهدفه أن يصل الى الحقيقة العلمية المركزة ، فليس معنى هذا أن يقبل الظن ، أو الفرضية ، أو النظرية على أنها حقيقة علمية ٠ ان المسلم ينبغى أن يقف أبدا على أرض من صخر فى عالم الفكر ٠ ان الله الذى حرم علينا أن لا نذعن

الحقيقة ، لم يرض لنـا أن نقبل شيئا دون برهان ، أو نعتبر الفرضية والنظرية حقيقة ، فنأخذ بها على أنها مسلمة ٠

((ولا تقف مـا ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا)) (الاسراء : ٣٦) ٠ **((ان يتبعون الا الظن وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا))** (النجم : ٢٨) ٠ **((قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين))** (النمل : ٦٤) ٠ **((ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين))** (الاحقاف : ٤) ٠ **((ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى))** (النجم : ٢٣) ٠

وهذا هو الفارق الكبير بين العقلية الاسلامية ، والعقلية الاخرى ، العقلية الاسلامية عقلية علمية متثبتة ، لا تقبل شيئا دون برهـان ، ولا تضع فى صف الحقائق الا مـا قام عليه الدليل القاطع ، وذلك على عكس العقلية الاخرى التى تشتط أحيانا ، فتصف مـا ليس علميا بأنه علمى وتؤمن بـه وكأنه قطعى ، رغم ضعف البرهان أو امكان انهياره ، ان العقل المسلم كما يرفض ألا يكون علميا ، كذلك يرفض أن يكون : حدسيا ، أو ظنيا ، أو متوهما ٠

ـ ٣ ـ

ومنذ قيام الاسلام كدين ، تفتح العقل المسلم على الحياة والعلم والتجربة ، وبدأ فى حل ألغاز الكون بعقلية تريد أن تعرف كل شىء وتخضع الكون كله للتجربة ، وتستنتج قوانينه المودعة فيه ، فقامت الحضارة الاسلامية أزهى مـا تكون الحضارة ، متدرجة نحو علم أكثر وكشوف أكثر ، وممـا لا شك فيه تاريخيا أن لقاح الفكر الاسلامى التجريبى ، هو الذى ولد العقـل الغربى التجريبى ، الذى قامت ـ كثمرة من ثماره ـ الحضارة العلمية والصـناعية الغربية ، واذا حدث فى العالم الغربى أن اصطدمت الحقائق التى محصتها التجربة بالدين الذى كان سائدا هناك ، فالذنب ذنب الدين المحرف المبـدل الذى لا يصمد أمام الحقيقة ٠

ولكن هذا الشىء الذى حدث هناك لم يحدث عندنا قديما أو حديثا ، ولا يمكن أن يحدث ، لان الحقيقة لا تصادم الحقيقة ، بل تدعمها ٠ والدين الحق دين الله ، والكون خلق الله ، ولا يمكن أن يتعارض مـا خلق الله مع مـا أخبر الله عنه ٠

ولذلك كانت ظاهرة من أعجب مـا عرف العالم ، وهى أن النص القرآنى وسع فى حال تعرضه لقضية كل حقيقة كشف العلم عنها فى هذه القضية ،

وسيسع كل حقيقة يمكن كشفها فيها ، وسنرى فى بحث الاعجاز القرآنى كثيرا من الآيات التى تعطى هذا المعنى بشكل واضح وصريح ، مثبتين كيف أن الحق لا يعارض حقا ٠ ولكن هذا لا يعنى أبدا أنه كلما قام انسان ، فقال قولا أن نحمل القرآن هذا القول ، أو نتأول القرآن لصالح هذا القول ، ان القرآن أمنع من أن يكون تابعا فقد أنزله الله ليتبع لا ليتبع ٠ ان القرآن والحقيقة العلمية لا يتناقضان ، ولذلك فاذا ما ثبتت الحقيقة العلمية ثبوتا كاملا ، فهم النص القرآنى لاذى له علاقة بهذه الحقيقة على مقتضاها ،بل فى هذه الحالة يكون النص القرآنى أسبق لتقريرها ، وان غفل عن معناه الحقيقى الناس قرونا ، نتيجة لقلة معرفتهم فى الكون ٠

— ٤ —

وقد ذكرنا هذه المقدمات لان دارس ظاهرة الحياة لابد أن يطالبنا بتوضيح الرأى الصحيح فى نظرية التطور ، كنظرية تعلل تنوعات الاحياء ، وظهور الانسان ، واليك ما نقوله فى هذا الموضوع :

١ — ان القول بأن انساننا الحالى الذى أتى من أب واحد ، وأم واحدة ، كان متحدرا من قرد خطأ ، لا شك فيه ولا ريب ، نقول هذا بلغة العلم ولغة القرآن ، ولا يتناقضان ٠

أما بلغة القرآن فلان الله يقول : ((**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**)) (آل عمران : ٥٩) ويقول : ((**بدأ خلق الانسان من طين**)) (السجدة : ٧) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل ، خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض ، فجاء بنو آدم على قدر الارض ، فجاء منهم : الاحمر والاسود وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والطيب والخبيث » قال الترمذى : حديث حسن صحيح ٠

وقال عليه الصلاة والسلام : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح ، عطس ، فقال : الحمد لله ، فحمد الله باذنه ، فقال له ربه : رحمك الله يا آدم ، اذهب الى أولئك الملائكة — الى ملا منهم جلوس — فقل : السلام عليكم ٠٠ فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع الى ربه فقال : ان هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم » ٠

وأما بلغة العلم :

١ — ان التاريخ كله ، كل سفر فيه ، وكل حجر من أحجاره ، وكل رواية يتناقلها الابناء عن الآباء تذكر أن أبا البشر آدم ٠

٢ ـ الفوارق الكبيرة بين الانسان والقرد أو أى حيوان آخر ، تثبت أنه لا صلة توالدية بين الانسان الحالى وأى حيوان ، هـذه الفوارق التى تبدأ من الناحيـــة الجسمية وتنتهى عنـد الاخـلاق ، وبين ذلك الفكر والعلم والارادة ••• الخ ••

وهذه القضية هى التى جعلت حتى بعض أنصار داروين « كوالدس » يقول : (ان الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الانسان ، ولابد من القول بخلقه رأسا) وقال « فرخو » : (انه يتبين لنـا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان من سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك) •

٣ ـ ان اكتشاف الكرومسومات (الصبغيات) وهى العامل فى انتقال الصفات الوراثية ، جعلت العلماء يتحرجون بادعاء ، أن الانسان منحدر من قرد ، وذلك أن هذه العرى الملونة ، لهـا عدد ثابت فى كل نوع من انسان أو حيوان ، حيث بها يختلف النوع ويتميز الجنس •

واذا كان العلم والقرآن يقولان بمـا أسلفنا ، فلا كلام لغيرهما ، بل ولو شك العلم وقال القرآن ، لمـا كان عاقل الا مع القرآن ، وذلك لان الله الذى خلق الانسان ، أعلم به كيف خلق •

« ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم » (الكهف : ٥١) أمـا فيما يتعلق بأنواع الحياة الاخرى ، فالذى يبدو أن العلماء الذين أيدوا داروين • ليسوا أكثر من العلماء الذين عارضوه ، وبمجرد أن تكون القضـية فيها أخذ ورد بين العلماء ، تبقى فى حـدود النظريات ، ولا ترقى الى المستوى العلمى المتـين •

واليك بعض أقوال العلماء الاختصاصيين فى هذا الموضـوع والذى قبله ، يقول « وولتر ادوار لامبرتس » أخصائى علم الوراثة : (وقد اتضح لى كثير من الحقائق ، فعلم الوراثة مثلا لم يقدم لنـا دليلا على صحة الفرضين الاساسيين اللذين أقام عليهما « تشارلز داروين » نظريته فى نشأة الانواع ، وهما :

١ ـ ان العضويات الصغيرة فى كل جيل من الاجيال ، تنزع دائما الى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها فى جميع الاتجاهات المكنة •

٢ ـ أن التغيرات المفيدة تورث فى الاجيال التالية ، وتتراكم نتائجها ، حتى ينتج عنها تغيرات جسيمة •

والواقع أن أقصى ما يمكن أن يتم من التغييرات فى النباتات والحيوانات، يمكن أن يتحقق سريعا عن طريق الانتقاء والتربية ، ويؤدى التلقيح الذاتى فى النباتات ، أو زواج الاقارب فى الحيوانات ، الى انتاج أفراد ضعيفة الى حد كبير ، ولا تتغير فى جميع الاتجاهات كما ذكر داروين ، الا عندما تصيبها بعض الطفرات ، وهى قليلة الحدوث •

وتعتبر هذه الطفرات على قلتها ، الاساس المادى الذى يبنى عليه علماء التطور وتفسيرهم لظاهرة التطور ، ولكن هل يمكن أن تكون الطفرات حقيقة وسيلة للتطور ؟ ان الدراسة الطويلة المتصلة لهذه الطفرات فى كثير من الكائنات ، وبخاصة فى ذبابة الفاكهة المسماة دروسوفيلا ميلانوجستر) تدل على أن الغالبية العظمى من الطفرات تكون من النوع المميت • أما الانواع غير المميتة منها فان التغيرات المصاحبة لها ، تكون من النوع الذى يؤدى الى التشويه ، أو على الاقل من النوع المتعادل الذى يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد • فمن الصعب اذن أن يؤدى تجمع هذه الطفرات الوراثية ، الى التغيرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة ، تعتبر أكثر تقدما ورقيا من أسلافها • وقد تؤدى الطفرة فى بعض الحالات النادرة الى تحسين صفة من الصفات ، كما يحدث فى جناح الدروسوفيلا ، ولكن اجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الأخرى التى تطرأ على الجناح ، يؤدى الى تكوين حشرات أقصر عمرا وأقل قدرة على الحياة ، ولنسلم جدلا بحدوث طفرات نادرة تصحبها تحسينات تبلغ ١ فى المائة فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الاجيال ، لكى تتراكم ويظهر أثرها وينتج عنها نوع جديد • لقد وضح (باتو) فى كتابه التحليل الرياضى لنظرية التطور : أن تعميم صفة من الصفات ، عن طريق الطفرة ، فى سلالة من السلالات ، لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الاجيال المتتابعة ، وحتى لو سلمنا بقدم الاحقاب الجيولوجية كما يقدرها الجيولوجيون ، فمن الصعب أن نتصور كيف أن حيوانا حديثا نسبيا مثل الحصان ، قد نشأ من سلفه الذى كان عدد الاصابع فى قدمه خمسا ، فى الفترة من العصر الحجرى حتى الآن) •

ويقول ليكونت دى نوى : (ان كلمة حلقة كلمة ذات أهمية كبرى فى تاريخ الكائنات الحية ، اذ لا يمكن اثبات ، أن شكلا ما من الكائنات يشكل حلقة حقيقية ، وقد يكون ذلك ممكنا فى بعض الحالات ، ولكنه ليس مؤكدا • وعلى أى حال يمكننا أن نقول : انه ليس هناك شكل يعيش حاليا وهو سلف مباشر لشكل آخر ، فالانسان لم ينحدر عن القرد • أما بين المستحاثات ، فان كثيرا من الاشكال التى تدعى أشكالا وسطية ، ليست سوى محاولات غير ناجحة للتكيف ، وقد تكون معاصرة أو سابقة أو تالية للاشكال الانتقالية الحقيقية • أ هـ •

وان الحلقة التى يقدمها بعضهم كأهم حلقة متكاملة من حلقات التطور ، هي حلقة روابط التسلسل عند الحصان ، اذ قدموا ستة أشكال وسطية ، تبتدىء من الهيراكوثيريوم والايوهيبوس من العصر الايوسينى منذ حوالى (٥٠) مليون سنة ، وتنتهى بالحصان الحالى ، ولكن هذه الاشكال الوسطية تبدو وكأنها ظهرت فجأة ، وحتى الآن لم يتمكن من معرفة الجسر الذى يربط بين هذه الاشكال الوسطية بسبب نقص المستحاثات ، ولكن حتى فى حالة ثبوت هذا ، فليس فى ذلك دليل على ما ذهب اليه داروين ٠ اذ أن الحصان بقى حصانا ٠ والمراد أن يؤتى بالدليل على أن الحصان أصبح جملا) ٠

ويقول « ليكونت دى نوى » كذلك : (منذ البداية تلاحظ وجود روابط وفروق أساسية بين الحيوان والنبات ، فالسائل المغذى فى الحيوانات هو الدم ، ودم الحيوانات العليا يحتوى على مادة أساسية هى عبارة عن صباغ أحمر ، يدعى بالهموغلوبين كبيرة جدا ومعقدة للغاية ، ويختلف تركيبها بين حيوان وآخر ، الوزن الذرى الادنى (٦٩٠٠٠) ، يقارب الهيموغلوبين فى تركيبه الكيميائى ، ذلك الصباغ الموجود فى النباتات والاشنيات ، والذى يدعى باليخضور ، الوزن الذرى (٩٠٤) وبينما يتصف الهيموغلوبين بوجود الحديد فى ذرته ، فان اليخضور يحتوى على جوهر من المغنزيوم ، ومما يزيد فى تعقيد المسألة أن الدم فى بعض مفصليات الارجل والرخويات والحيوانات الدنيا ، ويحتوى على صباغ يختلف وزنه الذرى تبعا للانواع بين (٤٠٠ر٠٠٠) و (٦ر٧٠٠ر٠٠٠) ويحتوى على جوهر من النحاس بدلا من الحديد والمغنزيوم (بعض أنواع الحلزون مثلا) فكيف تم الانتقال الكيميائى من صباغ لآخر ؟

يجب أن نعترف بصراحة أنه من المستحيل بيان ذلك ٠

(ان بعض الاشنيات الزرقاء تحتوى على العنكبوسيانين ، بينما الاشنيات الخضراء تحتوى على الكلوروفيل ، ولا أحد يستطيع أن يثبت أن الاشنيات الخضراء اشتقت من الاشنيات الزرقاء ، لان الفرق بين الاثنين كبير جدا ، وليس هناك شىء يستطيع أن يعلل هذا الانتقال ، لان البيئة التى يوجد فيها النوعان مشتركة ، فلا يعلل الانتقال بتغير بيئة) ٠

(لندع جانبا اغراء القول : بأن أشياء كثيرة قد تحدث خلال (١٠٠) مليون سنة ٠ فاذا لم يحدث شىء فى سنة واحدة ، فليس هناك ما يدعو بضرب ما يحصل بمليون أو ١٠٠ مليون مرة ـ لان نقول بأن شيئا سيحدث فى نهاية ذلك الزمن ، فيجب أن تتوفر دائما نقطة أو عدة نقاط بدء مهما كانت صغيرة ، لتصبح المسألة ممكنة) أ هـ ٠

لقد نقلنا هذه الاقوال ، لنبرهن على أن نظرية التطور ، ليست الا من قبل الفرضيات التى لم يقم عليها برهان قاطع ، ولولا أن الصهيونية العالمية ، والشيوعية العالمية ، كل واحدة منهما تتبناها ، لهوى فى النفس كامن ، لنقضت من زمن نتيجة للحملات العلمية المركزة التى قام بها آلاف من العلماء عليها ، ان بروتوكولات حكماء صهيون ، تذكر أنها هى التى مهدت لنجاح داروين ، وقصدها من ذلك تحطيم الاديان فى أنفس البشر غير اليهود ·

والشيوعية تتمسك بها ـ كمتمسك لابد منه ولو باطلا ـ لاثبات المادية الجدلية · أما موقفنا نحن المسلمين من هذه القضية · فهو الذى ذكرناه سابقا كموقفنا تماما من كل شىء : ما قام عليه البرهان قبلناه ، والا توقفنا فيه اذا كان النص القرآنى محتملا · أما اذا جزم النص القرآنى وشك العلم ، فنحن مع النص جزما ·

لقد أمرنا الله أن نبحث عن نشأة الحياة :

((**قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق**)) (العنكبوت : ٢٠)
((**أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده**)) (العنكبوت : ١٩) ·

ولقد أمرنا أن ننظر كيف وجدت الاحياء : ((**أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت**)) ·· (الغاشية : ١٧) ·

وعند الله علم اليقين : ((**قال : فما بال القرون الاولى ؟ · قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى**)) ·· (طه : ٥١ ـ ٥٢) · فما أخبرنا عنه من ذلك لا يكون غيره حقا ولا يكشف العلم عن سواه ، وقد ذكرنا ما قال فى هذه القضية · والآن نبدأ فى دراسة ظاهرة الحياة لرؤية الله فيها وهو المقصود من هذه الدراسة ، فنقول :

ان ظاهرة الحياة تدل على الله من أربعة جوانب :

١ ـ نشـأتها ·

٢ ـ تنوعاتها ·

٣ ـ الانســان ·

٤ ـ الاخــلاق ·

كل جانب من جوانب هذه المعانى يدل على الله دلالة كاملة ، ورغم كل المحاولات التى بذلت لاثبات أن هذه المعانى ، يمكن أن تكون دون أن يكون الله خالقها ، فان الحقيقة بقيت سافرة دائما ((ان الله هو الخالق)) ·

نشأة الحياة وتنوعاتها :

ان الملحدين يقولون : ان الحياة بدأت خلية بسيطة ، أو مجموعة خلايا ، ثم بدأ التكاثر يعمل عمله ، والتطور يعمل عمله ، حتى وصلت الحياة الى مـا وصلت اليه الآن ، ولكن هل لهم على هذا من برهان ؟ ان أكبر برهان ــ لو كان ــ هو أن يصنعوا الحياة ، خاصة والعناصر التى تتركب منها الاحياء معروفة ، ونسبها معروفة ، وأجهزتها معروفة ، وكل شيء فيها معروف ، وكل شرط تحتاجه الحياة يمكن أن يتوفر فى المصنع ، فمهما كانت الظروف الاولى التى ولدت فيها الحياة يمكن أن نقدرها ونوجد ظروفا مثلها ، ولكن حتى لو حصل هذا ؟ أيقول الذى صنعها : انها وجدت من غير شيء ؟ أم يقول : انها وجدت بعلم الانسان وارادة الانسان ، وقدرة الانسان ؟٠

ان الله عز وجل يتحدى الذين يؤمنون بغيره الهـا مهما كان نوع هذا الاله : طبيعة كان ، أو انسانا ، أو صنما ٠ أن يخلق هذا الاله المزعوم ذبابا :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله ، لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ٠ مـا قدروا الله حق قدره » (الحج : ٧٣ ــ ٧٤) ٠

ولقد سار الانسان فى الطريق ليجرب حظه فى هذا التحدى ، لا ليصنع ذبابا ، بل ليصنع مـا هو أقل من الذباب ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد كانت مـا يلى :

حاولت روسيا أن تبرهن على امكانية نشأة الحياة كيماويا ، وذلك ــ فى زعمها ــ كدليل تثبت به مذهبها الالحادى ، وكان أن كلفت بهذا الموضـوع « أوبارين » رئيس المعهد الكيميائى فى الاتحاد السوفياتى ، وطلبت منه أن يتفرغ للبحث فى أمر واحد ، وهو مدى امكانية ايجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائى ، وبعد عمل متواصل قارب عشرين عاما ، أعلن حوالى سنة (٦٢) عن انتهائه من دراسة هذا البحث ، وأعلن عن النتيجة التى توصل اليهـا ، فى تقرير رسمى أذاعته جميع وكالات الانباء فى العالم اذ ذاك ، وهى أن العلم الكيميائى عاجز عن ايجاد الحياة فى المخبر ٠ والعلم لا شأن له الا بالمـادة المحسـة ٠

وبدلا من أن يعترف أن الله هو خالق الحيـاة ، أجاب على سؤال كانت صـيغته :

هل التفاعل الكيمى فى المادة قادر على بعث الحياة ، كما انبعثت الحيـــاة الاولى منذ ملايين السنين وعلى الصورة التى ادعاها أرنست هيكل ؟

ــ ان هذا ممكن ولكن فى كواكب أخرى غير كوكبنا هذا ٠

وهذا تهرب واضح من السؤال حتى لا يحرج ، واذن لم لم نستطع صناعة الحياة وكل شىء متوفر ؟

والواقع أن عامة الذين لا يؤمنون بالله يتهربون من هذا الموضوع بمثل هذه الادعاءات ٠

ان الحياة قد جاءت من بعض الكواكب فى شكل جرثومة انسلت دون أن يصيبها تلف ، وبعد أن بقيت زمانا غير محدود فى الفضاء ، استقرت على الارض ، ومن ثم تسلسلت الحياة عن تلك الجرثومة ، أو يقولون : انها وصلتنا عن طريق نيزك أصاب أرضنا ٠

مثل هذا الكلام عدا عن كونه لا يفسر لنـــا علميا ــ تبعا لقوانين الوراثة ــ مــا نجده من أحياء ، فهو غير معقول كذلك ٠ اذ كيف استطاعت هذه الجرثومة أن تبقى حية فى درجة الصفر المطلق فى الفضاء ، واذا استطاعت البقاء رغم ذلك ، فكيف نجت من الاشعاع الكثيف ذى الموجة القصيرة الذى يقتل أمثالها ، واذا بقيت حية رغم ذلك فكيف وجدت لنفسها المكان الملائم ، وكيف وجد هذا الاتفاق المدهش فى الظروف ، حتى توالدت فبدأت الحيــاة ، وكم من السنين استغرقت هذه الرحلة حتى وصلت ، وفى الحالة الثانية ــ حالة النيزك ــ كيف سلمت رغم الاشتعال الذى يحدث عندما يصطدم النيزك فى جو الهواء ٠

واذا سلمنا بامكان هذا كله ، يبقى سؤالنا دون جواب ، كيف بدأت الحياة على ذلك الكوكب الاول ؟

ان الخلية الواحدة على بساطتها ، ينبغى أن تقوم بجميع وظائف الحياة : من تغذية ، وتنفس ، وطرح ، وحرارة معينة ، ونمو وتكاثر ، وانقسام ، وحركة ، وتأثر وافراز ، وتلائم مع البيئة ٠ ولذلك فان الخلية من التعقيد بحيث لا تقل أبدا عن أى كائن حى آخر ، ومن نوادر الاعترافات العلمية قول (بخنر) الذى يعتبر من أشد المؤيدين لمذهب النشوء ٠ ومن أكثر الماديين غلوا ومن الذى اتهموا داروين بأنه كان مصانعا لرجال الدين :

« ان البت فى أمر التولد الذاتى للكرية الاولى التى نشأ عنها الاصل الاول غير متيسر ، لان الاحوال المناسبة لتولد الكريات الاولى تولدا ذاتيا غــير معروفة ، والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من

الجماد مباشرة ، بل ان ظهورها من الجماد فى نظر العلم معجزة ليست أقل بعدا عن العقل من ظهور الاحياء العليا من الجماد رأسا » •

ويلوح أحيانا للعلماء بصيص من أمل ، فيجمع بالكثير منهم الخيال ، ها نحن قد كدنا نصنع الحياة ، ثم لا يجدون الا السراب ، ومن آخر ما سمعناه فى ذلك قولهم يوم اكتشفوا حمض D.N.A. : ان سر الحياة أصبح بأيدينا • ولكن بعد الضجة الكبيرة ، كان الجواب القاطع أن الحياة من صنع الله • واليك القصة كاملة :

ان بعض أمراض التبغ تتولد من حمات مركبة من هيولينات نووية • تقاوم مبيدات الجراثيم ، وتتصف بخواص حيوية تمكنها من التكاثر والتمثل ، ولقد تأكدت فى السنوات الاخيرة حقيقة جديدة ، ألا وهى أن هذه الحمات ليست الا حموضا نووية خالصة ، تحيط بها مادة هيولينية ، وأن الحمض النووى المكون لها هو أحد نوعين اما D.N.A. أو R.N.A. ولقد أمكن الآن معرفة بنية كل من هذين الحمضين معرفة تامة ، رغم تركيبهما المعقد جدا ، وذلك بفضل استخدام الاشعة فوق البنفسجية والمجهر الالكترونى ، ووسائل كيماوية كثيرة أخرى •

وتبين أن هذا الحمض يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية ، تؤلف وحدة صغيرة تتسلسل وتتكرر بشكل شريط أو سلسلة طويلة ، وتتقابل تلك السلسلة سلسلة أخرى مثلها ، تصطف أمامها وتلتف احداهما حول الاخرى بشكل حلزونى ، ويربط بين السلسلتين بمسافات متساوية الابعاد ، روابط هيدروجينية تجعل شكلها النهائى كشكل سلم لولبى أو درج مئذنة • وأوضح العالمان « واطسون وكريك » • أن عدد دورات الشريطين الحلزونيين فى الحمض يزيد عن ألف دورة ، وأن طول الشريطين أو طول الحمض لا يتجاوز ٣٠ انغستروما • ولقد قدر أحد العلماء أننا لو بسطنا الشريطين الحلزونيين ، ووصلنا نهاية أحدهما بنهاية الآخر ، لكان طولهما خارج النواة مترا ونصف المتر • ولكى ندرك تعقيد هذا الحمض نذكر الوزن الذرى لاحد نوعيه R.N.A. وهو (١ر٥ × ١٠^{٦}) ومع ذلك اكتشف الحمض ، واستطاع العالم (اوشوا) من اصطناعه وأخذ على ذلك جائزة نوبل •

لقد صيغ هذا الحمض وبلور ، فكان من ذلك حمض لا قدرة له على التكاثر هو مثل الحمض D.N.A. الذى وجد فى التبغ والحمات ، كانت صيغة الحمضين واحدة ، ولكن الفرق بينهما عظيم جدا وهو الفرق بين الحياة والموت • هو الفرق بين الصنم العديم الروح ، والجسد الحى الآهل بالروح •

وبعد فهذه هى النتيجة :

ان المادة لا تعقل حتى القوانين التى تطبق عليها ، فالذرات انمـا تطيع قواعد الالفة الكيماوية ، وقانون الجاذبية ، وتأثير درجة الحرارة · أما الحياة فهى ذلك السر العجيب الذى لا ندرى من كنهه شيئا سوى آثاره ·

((ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا)) (الاسراء : ٨٥) ·

يقول (ليبتز) : ان كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات ، وان كل حلقة فيها هى تركيبة من ذرات ، قوامها حمض من الاحماض النشادرية ، وهى أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ، ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف فى النسبة والترتيب ، ولكننا لا نراها فى بعض الانسجة الا على ترتيب واحد ، ونسبة واحدة ، بغير شذوذ ولا اختلاف فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة فى هذه الاصابة بين احتمالات الخطأ التى لا تحصيها أرقامنا المألوفة ·

يكفى لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الابجدية فى لغات البشر كافة ، لا تتجاوز الثلاثين ، ويتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الامم من الكلمات والعبارات · فاذا كانت خلية البروتين فى حجمها الخفى ، قابلة لاضعاف هذا التكرار ، ثم لا تشاهد فيها الا كلمة واحدة ، فى ترتيب واحد لا يتغـير ، فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الاصـابة فى التوفيق والتركيب · لتقريب هذا الخيال نقول : ان الضوء يصل من طرف المجرة الى الطرف الآخر فى ثلاثمائة ألف سنة ، فاذا أردنا أن نشبه اصابة الخلية فى تركيبها بمثل مفهوم ، فهذه الاصابة تضارع اصابة الرصاصة التى تنطلق من الارض فتصيب هدفا فى نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات ، وهذا على فرض أن حلقات الحلية خمسون فقط وليست بضع مئات ·

ولكن البروتين ليس هو كل شىء ، بل هو جزء من خلية ، والخلية جزء من عضو ، والعضو جزء من جهاز ، والجهاز جزء من جسد ، والجسد كله من بروتينات الى خلاياه ، الى أعضائه ، الى أجهزته ، متداخل تداخلا هائلا ، ومنسجم انسجاما تاما ومتفاعل مع بعضه تفاعلا تاما ·

والجسم الحى الذى تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته ، لا تزال فيه بقية للعجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه ، وهى أن هذه الذرات الخفية تتجمع وتتفرق وتلتئم وتنفصل على نحو يضمن لها التجدد ، أو يضمن

الدوام للحياة • فيتألف كل حى من جنسين ، وتخرج من كل منهما خلية واحدة يتكون منهما حى جديد ، وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجا وتارة أخرى فرادى ، على الوضع المطلوب فى المرحلة المطلوبة ، ويتفق عددها فى كل نوع من الانواع الحية بغير زيادة ولا نقصان ، وينطبع كل حى على عادات وغرائز تسوقه الى التناسل فى موعده المقدور ، فيبنى العش قبل أن ينسل ان كان من الطيور • ويفارق الماء الملح الى مداخل الانهار أو الخلجان قبل أن ينسل ان كان من سمك البحار • ويمتلىء بالشوق الى شريكه فى التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الانواع والاجناس •

ان التعقيد الهائل فى ظاهرة الحياة ، والانسجام الهائل فيها ، ووضع كل شىء فى محله ، انمـا يدل دلالة واضحة على علم وارادة وقدرة وراءها ، بشكل غريب عند الامى ، وعلمى مقنع عند العليم •

أن تنشىء المادة لنفسها أسماعا وأبصارا وأفئدة • ان هذا ليس من حالات المادة التى يقبلها العقل بغير تفسير ، وكل مـا قيل فى نفى العجب من تركيبة الجسم الحى ـ لاننا نرى الآلات المادية تعمل بنظام ، وتوزع العمل فيها لمقصد معلوم ، وهدف معلوم ـ هو العجب • فالعجب فى هذا التشابه بين الآلات والاجسام الحية ، لان الآلات لا تنشأ بغير صانع ، ولا يغنينا تعليل أعمالها بقوانين الحرارة والحركة عن تجاوز القوانين الى ارادة المهندس المسخر لهذه القوانين •

وقد كان الناس ينظرون بالعين المجردة الى أعضاء الجسم الحى ، فيعجبون وسعهم من العجب لدقتها ، وتساند أجزائها ، وتعاون وظائفها ، وسريان عوامل النمو فيها بمقاديره الضرورية ، على حسب السن والنوع والفصيلة ، سواء فى جسم الانسان أو جسم الحيـوان ، أو جسم الحشرة ، أو جسم النبات ، فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مم تتألف تلك الاعضاء ، وعلى أى نحو تتساند تلك الوظائف ، وتبين لهم أن هذه الاعضاء البارزة للعيان مجموعة من ذرات لا ترى الالوف منها بالعين المجردة ، وأن كل ذرة منها تقع فى موقعها من الجسم وتعاون بقية الذرات فيه ، كأنها على علم بها وبمـا تطلبه ، ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها ، الا تكفل سائرها باصلاح خطئها وتقويم ضـلالها •

وفى الارض بلايين البلايين من الاحياء ، وفى كل واحد منها من العجب ما لا ينقضى ، وهاك مثالا يبين لك كثرتها ، يقول «لسترجون زمرمان» أخصائى التربة :

« أما التربة المنتجة الخصيبة فهى تربة حية ، يعيش بها عدد لا يحصى من الكائنات الدقيقة ، من حيوان ونبات ، وقد تصل نسبة الكائنات الحية التى تعيش بهذه التربة الخصيبة الى ما يقرب من ٢٠ فى المائة من المادة العضوية التى بها ، وقد يصل عدد هذه الكائنات الحية الى بضعة بلايين فى الجرام الواحد من التربة) أهـ ٠

هذه البلايين الهائلة من الاحياء تنقسم الى آلاف من الاجناس والانواع ، كل جنس وكل نوع له خصائصه ، ومزاياه ، وشكله ، وصورته ، وطرق تغذيته ، وطرق حياته ، وكل فرد من أفراد كل جنس فيه خصائص الجنس وكل تعقيدات الحياة ٠

« وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » (الانعام : ٣٨) ٠

ولكل رزقه ، وغذاؤه ، وغريزته التى يبحث فيها عن الرزق ، وأجهزته التى يهضم بها رزقه ٠

« وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها، كل فى كتاب مبين » (هـود : ٦) **« ما من دابة الا هو آخـذ بناصيتها »** (هود : ٥٦) ٠

« والله خلق كل دابة من ماء : فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء » (النور : ٤٥) ٠ **« وبث فيها من كل دابة »** (البقرة : ١٦٤) ٠

ان المنطق الواحد المعقول ، أن الله الحى هو وحده خالق الحياة : **« والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شـيئا وهم يخلقون ٠ أموات غـير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون »** (النحل : ٢٠ ــ ٢١) ٠ ولا يستويان فى منطق العقل : **« أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون »** (النحل : ١٧) ولا يستويان كذلك عقليا : انسان نسب الحياة الى المصادفة ، وآخر ينسبها الى الله ٠

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بهـا ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (الاعراف : ١٧٩) ٠

وتأمل بعد هذا فى هذه القصة ، قصة أصغر مخلوق وأبسط مخلوق ، لترى أن وراء سر الحياة الله ، ابتداءا وانتهاءا ، نشأة وأنواعا ٠ هذا المخلوق هو الاميبا : عندما نذهب الى المعمل ، ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر

لكى نشاهد سكانها ، فاننا نرى احدى عجائب هذا الكون : فتلك الاميبا تتحرك في بطء ، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها ، فاذا به داخلها ، واذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق • بل اننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الاميبا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر.

فاذا ما لاحظنا هـذا الحيوان فترة أطول ، فاننـا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيوانا جديدا كاملا • (وقالوا : ان انقسام الخلية لا يتم الا اذا لامستها خلية أخرى ، اذن هنا عملية زواج بين ذكر وأنثى) تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التى تحتاج الكائنات الكبيرة الاخرى فى أدائها الى آلاف الخلايا أو ملايينها • ولا شك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذى بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج الى أكثر من المصادفة ، مع ملاحظة أنه موجود فى كل مكان فى العالم ، وهو الآن على ما كان عليه من أول ما وجد •

واذا دققت فى هذا الحيوان البسيط ، تجد داخله الجبلة « البروتوبلازم » ذات التركيب المائى ، والحيوية الفياضة ، مركز الحركة والحياة فى جميع الكائنات الحية ، يتحرك حركة عجيبة • فالاميبا لا تسبح فى الماء ولا تطفو على سطح قطرة الماء أو تندفع فى جوفها ، ولكنها تتحرك كما لو كانت تتسكب أو تسيل • أمـا جسم الاميبا فهو كتلة عارية من البروتوبلازم ، وهو يختلف عن الخلية النباتية ، فى أنه لا يحيط به من الخارج جدار صلب ، بل مجرد غشاء رقيق يحدد جسمه ، وكلما تحركت الجبلة « البروتوبلازم » فى اتجاه من الاتجاهات ، أطاعه ذلك الغشاء ، وتحرك معه فى نفس الاتجاه •

وبذلك يتغير شكل الحيوان ، وتتكون له زوائد لا تلبث أن يتغـير شكلها بعد قليل ، وبهذه الطريقة يتحرك الحيوان ، مستعينا بهذه الزوائد التى تشبه الاقدام ، والتى تسمى بسبب ذلك الاقدام الكاذبة ، ومن الممكن استخدام القوة المكبرة العظمى فى المجهر لمشاهدة الحشوة (السيتوبلازم) عند اندفاعه فى الاقدام الكاذبة ، ولكى تشاهد أن جسم الحيوان يتكون من طبقتين من الجبلة (البروتوبلازم) تختلفان فى كثافتيهما • أمـا احداهما فهى كتلة شفافة مائية دائمة الحركة ، وأما الاخرى فهى كتلة هلامية نصف صلبة تحيط بالطبقة السابقة احاطة تامة •

كيف تتحرك الاميبا ؟ما هى الاسباب التى تقوم بعمليات التغذية ؟ أجوبة كثيرة تبقى غير كافية ، مؤثرات كثيرة تؤثر على حركة الجبلة داخل الخلايا ، ولكنها مجرد مؤثرات سطحية بسيطة ، لا تستطيع أن تبين لنـا لماذا تبقى حركة الجبلة دائبة لا تنقطع ، حتى عندما يزول أثر هذه المؤثرات ، ومعنى

ذلك أن جانبا على الاقل من أسباب هذه الظاهرة يرجع الى الجبلة ذاته · فمن المحال اذن أن نفسر ظواهر الحيـــاة على أنها مجــرد استجابات لبعض المؤثرات الخارجيــة ·

وبهذه المناسبة نحن نعلم أنه عندما تنشطر خلية حية الى نصفين ، بطريقة التشريح الدقيق ، بحيث تكون النواة فى أحد القسمين دون الآخر ، فان القسم الخالى من النواة يموت بعد قليل · وقد أخفقت جميع الجهود التى بذلت للاحتفاظ به حيا ، وعلى ذلك فان النواة هى التى تنظم العمليات الحيوية فى الخلية وتسيطر عليها ، فاذا زال هذا الاشراف توقفت الحياة ·

وهكذا فى الخلية التى تشكل أبسط حيوان ، ترى قدرة الله كما تراها فى أعقد الاحياء ·

((**أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون**)) (الاعراف : ١٩١) ·

ان الكون مخلوق لا خالق ، ومن أعطى الكون أو الطبيعة صفة الخلق ، فقد أشرك بالله جهلا وسفاهة ·

فنشأة الحياة لا تعلل الا بالله ، ووجود الانواع والاجناس لا يعلل الا بالله، وما فى الاحياء من عجيب لا يعلل الا بالله ، وكل جزئية من هذا كله آية على الله·

ـ ٣ ، ٤ ـ

الانســـان والاخـــلاق :

الانسان أعظم ما خلق الله ، لذلك كان أبدع ما يعرف الله به ، فبقدر ما يعرف الانسان نفسه يعرف ربه ، وبقدر ما يجهل نفسه يجهل ربه ، لذلك كانت الحكمة التى تقول : « من عرف نفسه عرف ربه » من أصدق الكلم التى صاغها عقل الانسان ·

وأهم شىء فى الانسان ، صفاته الاساسية التى لا يمكن تعليلها الا بأنها قبس من أمر الله ، ثم أخلاق الانسان ، والصفات الاساسية للانسان : العلم ، والارادة والقدرة ·

ان المادة لا تعرف نفسها ، ولا تعقل غيرها ، والمادة لا يمكن أن يكون لهـا خيار ، وقدرتها قدرة محدودة باطار ، أما الانسان فيعلم ويريد تبعا لهذا العلم ، وقدرته تنفذ على ضوء هذه الارادة · ان استعداد الانسان للعلم ظاهرة من أعظم ظواهر الوجود ، اذ الانسان وحده من هذه المخلوقات التى نراها ، عنده استعداد ليعرف كل شىء ، ويحلل ويركب ويقايس ويعلل ، ويقبــل

ويرفض ، ويتصور ، ويستطيع أن يفكر حتى يعرف مجهولا على ضوء معلوم ، ويرسم للحياة طريقا أو طرقا ، ويبنى حضارة أو يهدمها ٠

ويتبع ظاهرة العلم ، ظاهرة التعبير حين يعبر الانسان عن كل هذا : تارة أدبا ، وأحيانا كلمة ، وأخرى فلسفة ، وطورا منطقا ، وبهدوء أو بشدة ، وبعاطفة أو بعقل ٠

ان علم الانسان وبيانه يدلان مباشرة على الله : (**الرحمن ٠ علم القرآن ٠ خلق الانسان ٠ علمه البيان**) (الرحمن : ١ ــ ٤) ٠ (**اقرأ وربك الاكرم ٠ الذى علم بالقلم ٠ علم الانسان ما لم يعلم**) (العلق ٣ ــ ٥) ٠

والمادة لا تريد ، بل تخضع لارادة ٠ وهذه الارادة لا تتغير ولا تتبدل سننها ٠ والحيوان ان كانت له ارادة فهى ارادة غريزة ضمن أطر معينة ٠ اطار الحياة والموت ، اطار الرزق والسفاد ، أما ما عدا هذا فهو فى بهيمية غامضة ، لا يعرف معنى الارادة حتى يريد ٠

ولكن الانسان عنده طاقة ارادة ، يرجح بها بين المتقابلين ، ويختار من بين الضدين ٠ كلامه بارادة ، وحركته بارادة ، وعمله بارادة ، ان الانسان وحده يملك حرية الاختيار ٠ بشكل لا مثيل له بين أجزاء العالم المحسوس ٠ يختار الكذب فيكذب ، ويختار الصدق فيصدق ، ويختار الخراب فيخرب ، والاعمار فيعمر ، طاقة هائلة من الارادة ، يرافقها طاقة هائلة من القدرة ٠

انه بقدر ما أعطى الانسان من طاقة ارادة ، أعطى قدرة عظيمة ، ومظهر هذه القدرة ، امكانية التسخير والاستفادة من كل شىء ٠ انه يستطيع أن يستنبت الارض اذا لم تنبت ، وأن يحصد اذا زرع ، وأن يركب متن الريح والماء ، وأن يأكل لحم الطير والسمك ، وأن يستخرج من كل شىء ما ينفع نفسه ، وأن يترك من كل شىء ما يضره ٠

ان علم الانسان ، وارادة الانسان ، وقدرة الانسان ، تدل بشكل واضح على تميز الانسان على المادة ، وأن المادة لا يمكن أن تعطيه علما ولا ادراكا ولا قدرة ولا ارادة ، بل الله وحده هو الذى يملك أن يعطى الانسان هذا : ((**وعلم آدم الاسماء كلها**)) (البقرة : ٣١) ٠ ((**هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا**)) (البقرة : ٢٩) ٠ ((**هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها**)) (هود : ٦١) ٠ ((**وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون**)) (الملك : ٢٣) ٠ ((**ألم نجعل له عينين ٠ ولسانا وشفتين ٠ وهديناه النجدين**)) (البلد : ٨ ــ ١٠) ٠

وأما الاخلاق ، فانها تلك المشاعر التى تنتج سلوكا ، ومجل هذه المشاعر عالم النفس عند الانسان ، انها عالم كامل لا نعرف عنه الا آثاره التى نحسها فى أعماقنا ، وتظهر تارة على صفحات وجوهنا ، أو على ألسنتنا أو أيدينا ٠

مشاعر الرحمة والقسوة ، العفو والانتقام ، الذلة والعزة ، العدل والظلم ، الامن والخوف ، الحرب والسلم ، الغضب والحلم ، الجبن والشجاعة ، الكبر والتواضع ، الجبروت واللين ، الهداية والضلال ، القبض والبسط ، الانخفاض والارتفاع ، التجمع والتفرقة ، الحب والبغض ، الحقد والغل ، الكراهية والحسد ، والاحساس بالجمال والاخلاص للمثل ، ومشاعر تفيض بها النفس وكأنها أمواج بحر كبير ٠

نساء فنبكى ، ونسر فنضحك ، ونعشق ونبغض من عشقناه ، ونرجو ونيأس ٠

انها النفس أغمض ما فى الانسان ٠ ان تجمع بروتونات أو الكترونات لا يكون احساسات أخلاقية ٠

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » (الاسراء : ٨٥) ٠
« ونفس وما سواها ٠ فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٧ ــ ٨) ٠

ان على الانسان ألا يخدع نفسه ، فلو فكر الانسان بعمق ، ونظر بانصاف الى نفسه ــ سواء كان عالما أو جاهلا ــ فماذا يرى ؟ ان الله يخاطب الانسان فى القرآن **« وفى الارض آيات للموقنين ٠ وفى أنفسكم أفلا تبصرون »** (الذاريات : ٢٠ ــ ٢١) ففى النفس آيات كثيرة كلها تشير الى أن الله هو الذى خلق ٠

وجود النفس نفسه آية ، وكل صفة من صفاتها الخيرة أو الشريرة آية ٠ وعدا هذا ، ففى النفس آيات أخرى تدل على أن فى هذا الكون عجائب غير مادية ، تجعل الانسان قريبا جدا مما وراء المادة ٠ فالتنويم المغناطيسى والطرح الروحى والتلباثى ، وحوادث الرياضة الروحية التى يبصر أصحابها بلا ابصار ٠ هذه المعانى كلها تدل على أن هناك شيئا غير المادة فى هذا الوجود ، وحوادث قراءة الافكار وما يحيط بها ، كلها تشير بعمق الى أن الانسان ليس مادة فحسب ، وأنه عندما يموت الانسان لا يكون قد تعطل جزء من جهازه المادى ، فقط بل مع هذا يكون الانسان قد فقد شيئا آخر ، هذا الشىء المفقود هو الانسان نفسه ، وعاد التراب الى التراب ٠

وأخيرا ، أن نشأة الحياة دليل على الله ، وتعقيدات الحياة دليل على الله ، وتنوع الاحياء دليل على الله ، ومركز الانسان فى هذا الكون بصفاته العليا دليل على الله ، وفى النفس البشرية ــ أخلاقها وعجائبها ــ دليل على الله ، وهذا وحده كاف لتعرف به الله • فكيف اذا اجتمع معه ما ذكرنا سابقا وما سنذكر لاحقا ؟ وكيف اذا اجتمع مع هذا وهى يتنزل ومعجزات تتحدى ؟! وكيف اذا اجتمع مع هذا رسل صادقون صالحون أتقياء أذكياء بررة ؟!

فهل يبقى بعد ذلك كله لكافر من حجة أو سبيل ؟! الا حجة الجهل وسبيل الهوى المؤدى الى البوار ثم النار ، ألا لعنة الله على الكافرين •

الظاهرة الرابعة

ظاهرة الاجابة

هذه الظاهرة لكل واحد منا تجربته الخاصة فيها ، فما من واحد منا نحن المؤمنين بالله ، وحتى غير المؤمنين ، الا مرت عليه فترة فيها شدة وفيها اضطرار وفيها قلق ، توجه فيها الى الله بقلب كله انكسار ورجاء وأمل ، واذا بالكرب يزول ، والشدة تنتهى ، ويجعل الله من بعد عسر يسرا ، ويعود الرخاء بعد الضراء • ولكنك تجد قلوبا بقيت شاكرة متذكرة زاد ايمانها ، وأخرى عادت الى غفلتها متناسية ما ذكرته ساعة المحنة •

ان الامر المسلم فيه ، أنه ما من نفس الا وتلجأ الى الله ساعة الخطر ؟ وقد أشار القرآن الى هذا المعنى كثيرا ، فقال : ((**قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله ، أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون ان كنتم صادقين • بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون**)) (الانعام ٤٠ ــ ٤١) •

((**واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون**)) (يونس : ١٢) •

واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا)) (الاسراء : ٦٧) • ((**هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين • فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق**)) (يونس : ٢٢ ــ ٢٣) •

((**قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين • قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون**)) (الانعام : ٦٣ ــ ٦٤) •

وقد جرت سنة الله أن يجيب المضطر اذا شاء ، كائنا من كان حتى ولو كان كافرا بالمعنى الاصطلاحى مادام قد توجه اليه •

والحوادث التى أخبر أصحابها عما جرى لهم فيها مما له علاقة بهذه الظاهرة كثيرة لا تعد ، فما من انسان الا وله قصة أو قصص ، أنا وأنت وهو • واليك أمثلة نختارها من بين آلاف أمثالها مما يجرى كل يوم ، تدل على أن الانسان ليس وحده ، فالله يرعاه ان كان أهلا للرعاية ، أو يستجيب له ان دعاه بقلب مضطر ، أو يكله الى نفسه ، وما أكثر خسارة من وكله الله الى نفسه ؟ وفى كل حالة نجد رعاية غير متوقعة ، أو استجابة غير عادية ، فان الانسان يلمح آثار قدرة الله واستجابته • وفى كل حادثة من هذا النوع يقع دليل على وجود الله عز وجل • وهذه نقول لها علاقة بهذا المعنى :

١ ــ نشرت مجلة المختار ((ريدر دايجست)) فى عدد أكتوبر ١٩٤٤ تحت عنوان ((ألا تؤمن بالصلاة والدعاء)) هذه الحادثة التى صاغتها كما يلى :

• ((واليوم تتدفق الادلة التى لا تنقض من كل ناحية ، على فضل الدعاء وقوته ، وليس مما يدهش أن يتوجه الناس فى ساعة الشدة والحاجة الى قوة خارجية ، وانما الشىء الوحيد المدهش فى هذا ، هو أن نراه مدهشا ، وما يصنع هؤلاء المصلون ((الداعون)) من الجنود والبحارة والطيارين ، الا كما صنع ((لنكولن)) الذى قال فى أحلك أيام الحرب الاهلية : ((بغير معونة من الله الذى هو معى لا أستطيع أن أنجح ، وبهذه المعونة لا يمكن أن أخفق)) •

ولا يكاد يوجد فوق الارض مخلوق لا ينطوى على الشوق الروحانى أو على شعور باطن مبهم ، بأن هناك قوة يتوجه اليها بفطرته •

حدث لما اضطر الماجور ((ألن لندبرج)) ــ من وستفيلد بولاية نيوجرسى ــ وهو يقود احدى القلاع الطائرة للنزول فى البحر فى طريقه الى أستراليا ، أن ساد الاعتقاد بأنه هو والتسعة الذين معه قد فقدوا ، وفى هذا يقول الماجور :

تمكنا من الخروج على طوقين من المطاط وكدنا لا نفعل ، ولم تكن معنا كسرة من خبز أو قطرة من ماء ، وكان رجال الطائرة كلهم قلقين الا الشاويش ((البرت هرناندز)) المدفعى الخلفى ، وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهال وسرعان ما راعنا بقوله : انه يعرف أن الله قد استمع اليه وأنه سيساعدنا وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة وقد تشققت شفاههم وورمت ألسنتهم فعجزوا عن مجاراة ((هرناندز)) فى التهليل والتسبيح ، ولكنهم كانوا يدعون مع ذلك ، وبعد ثلاثة أيام وقبل دخول الليل لمحوا معالم جزيرة صغيرة وما لبثوا أن شاهدوا ما لم يكن يجرى لهم فى خلد ، فأقبلت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الاجساد ، واتضح أن منقذيهم من أهل أستراليا الاصليين

وهم صيادون سود الاجسام منفوشو الرؤوس ، وقد جاءوا من داخل البلاد على مسافات مئات الاميال ، وقالوا انهم دفعوا بدافع غريب الى تغيير اتجاههم، فجاؤوا بزوارقهم الى هذا الشاطيء المرجاني الذى لا سكان فيه ، وهناك لحوا لندبرج وزملاءه •

٢ ـ أذاع راديو دمشق فى ١٩٦٥/١/١٠ الساعة الثالثة الا ربعا بعد الظهر ، نقلا عن مجلة الابحاث الطبية الصادرة فى انكلترا ، حادثة نشرتها المجلة المذكورة بتوقيع الطبيب الذى جرت معه الحادثة • والقصة أن شابا بقى مريضا بمرض مزمن مدة ثلاثة عشر عاما وأعيا الاطباء دون أن يصل الى نتيجة ، وقد دخل عليه كآخر طبيب ، الطبيب الذى يروى القصة ، وبعد أن أتم فحصه رأى أنه لا أمل منه ، وهناك سأله المريض بلهجة اليائس : لا أمل يا دكتور ؟ فقال الدكتور :

هناك أمل واحد فى السماء ، فجرب أن تدعو ، ألا تعرف أن تصلى ؟ ولاول مرة يدعو الشاب الذى دام مرضه ثلاثة عشر عاما ، وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع ، وجد المريض معافى ، وقد شفى من مرضه الذى لم يستطع الأطباء أن يعالجوه منه •

٣ ـ وحدثنا شاب مصرى ممن شاركوا فى المقاومة السرية التى جرت فى مصر فى قناة السويس من ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ عن ثلاثة من المقاومين ، خرجوا لينسفوا سكة الحديد فى منطقة مكشوفة • وكانت الليلة مقمرة ، والسماء صافية ، والارض صحراوية ترى حركات من فيها عن بعد ، ويعرضهم هذا لنيران العدو ومطاردته ، فقال أحد الثلاثة وهم ماضون : يارب ولا غيمة ، فلم يلبثوا أن شاهدوا سحابة تجلل وجه القمر ، فانتشر الظلام ، مما ساعدهم على القيام بمهمتهم ورجعوا بسلام •

وكلنا سمع ما حدث يوم الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثى ، اذ اشتعلت النيران فى مدينة بورسعيد ، وضاق الامر بالناس ، ودعوا ربهم مخلصين ، فكان المطر الذى أطفأ الحرائق يومذاك •

٤ ـ والناس فى كل مكان يتحدثون ، فما من مسلم الا وله تجربة خاصة فى هذا الامر • تضيق به السبل ، فيلجأ الى الله لجوء المضطر ، فتكون الاستجابة ويحصل الفرج • ومن أبرز مظاهر هذا المعنى قصص الاستسقاء حيث يلجأ المسلمون الى الله فى حالة القحط • ولهم فى ذلك آداب منها : التوبة ، ومنها الصلاة والدعاء • ومنذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

يتحدث المسلمون عن عجائب حصلت ، وعن أناس مجابى الدعوة أستجيب لهم ، ومن تتبع حوادث ذلك وجدها صحيحة بحيث تتحدى أدق مقاييس النقد التاريخى ٠

ان ظاهرة الاستجابة ظاهرة تتجدد دائما كلما توفرت شروطها ، وهى تدل بشكل قطعى على وجود ذات عليا ، تسمع نداء المنادين وتوسلات المتوسلين ، واذا شاءت تجيب المضطر أنى كان وكيف كان ، مسلما كان أو كافرا ٠ وتجيب المسلم فى كل الاحوال اذا كان متمتعا بشروط الاستجابة ، وكان فى الاستجابة خير له ، ولم يكن غيرها أحسن اليه منها : **((واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون))** (البقرة : ١٨٦) ٠

((وقال ربكم ادعونى أستجب لكم)) (غافر : ٦٠) ٠

استجب لله يستجب الله لك ٠

ونحيل من شاء التوسع فى هذا الموضوع الى كتاب ((الفرج بعد الشدة)) للقاضى التنوخى ٠ ففيه ما يكفى ٠ وانما اختصرنا فى هذه الظاهرة ٠ لكثرة الحوادث فيها وظهورها ، ولان فى البحث الثانى عن **((الرسول))** صلى الله عليه وسلم نماذج كثيرة عنها ٠

الظاهرة الخامسة

ظاهرة الهداية

اننا عندما ندرس الكون نرى فيه هداية كاملة ، من أصغر ذراته الى أكبر أجرامه ، ومن أبسط أشكاله الى أعقد مظاهره ، فكيف نعلل هذه الهداية ؟ كيف وجدت ؟ كيف استمرت ؟ كيف ثبتت ؟ ان هناك جوابا واحدا يقدمه العقل على ذلك ، هو وجود ذات هادية ٠

١ ـ ثعبان الماء متى اكتمل نموه ، هاجر من مختلف البرك والانهار ، قاطعا آلاف الاميال فى المحيط ، قاصدا الى الاعماق السحيقة جنوب « برمودا » حيث ملتقى ثعابين الماء فى كل أنحاء العالم ، وهناك يبيض ويموت ، أما صغارها تلك التى لا تملك وسيلة تتعرف بها على أى شىء ، سوى أنها فى مياه قفرة فانها تعود أدراجها ، وتجد طريقها الى الشاطىء الذى جاءت منه أمهاتها ٠ ومن ثم الى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة ، ولذا يظل كل جسم من الماء آهلا بثعابين البحار ، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكى فى المياه الاوربية أو العكس ٠

٢ ـ الزنبور يصيد الجندب النطاط ، وينخره بابرته فى مكان مناسب بحيث يفقده وعيه مع بقائه حيا كنوع من اللحم المحفوظ ، فلا يكثر السم فيه بحيث يميته ، أو يسمم لحم الاولاد اذا أكلوا منه ، ولا يقلله بحيث يبقى محتفظا بوعيه فيفر ، وبعد ذلك يحفر له حفرة فى الارض ، ثم تأتى أنثى الزنبور وتضع بيضا فى المكان المناسب بالضبط ، ثم تغطى هذه الحفرة وترحل فرحة ، ثم تموت بعد أن أمنت وسيلة الحياة لاولادها ٠ وهم صغار لا يستطيعون الحركة ، ولابد أن الزنبور قد فعل ذلك من البداية من يوم وجوده أول مرة وكرره دائما ، والا ما بقيت زنابير على وجه الارض ٠

٣ ـ الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عاما فى ولاية نيو انكلاند ، يغادر شقوقه تحت الارض حيث عاش فى ظلام مع تغير طفيف فى درجة الحرارة ، ويظهر بالملايين فى ٢٤ مايو من السنة السابعة عشرة تماما ، بحيث يضبط مواعيده للظهور فى اليوم تقريبا بهداية يعجز عنها الانسان لولا أنه يستعمل « التقويم » ٠

٤ ـ خطر لعالم أمريكى أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج ، بأن يضع البيض فى نفس الحرارة التى ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ،

فلما جمع البيض ووضعه فى جهاز التفريخ ، نصحه فلاح أن يقلب البيض اذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك ، فسخر منه العالم ، وأفهمه أن الدجاجة انما تقلب البيض لتعطى الجزء الاسفل منه حرارة جسمها الذى حرمه ، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيض ٠

واستمر العالم فى عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده ولم تفقس بيضة واحدة ، وأعاد التجربة وقد استمع الى نصيحة الفلاح أو بالاحرى الى تقليد الدجاجة ، فصار يقلب البيض حتى اذا واتى ميعاد الفقس خرجت الفراريج ٠ وآخر تعليل علمى لتقليب البيض ، أن الفرخ حينما يخلق فى البيضة ترسب المواد الغذائية فى الجزء الاسفل من جسمه اذا بقى بدون تحريك أوعيته ، ولذلك فان الدجاجة لا تقلب البيض فى اليوم الاول والاخير ٠

بهذه الهداية الكاملة فى عملية بقاء الجنس ، يبقى الدجاج فى العالم ، لانه يعلم تماما ما ينبغى أن يفعله ٠ ولابد أن ذلك فعلته الدجاجة الاولى حتى استمر جنس الدجاج ٠

٥ ـ حيوان الاكسيلو كوب يعيش منفردا فى فصل الربيع ، ومتى باض مات ، فالامهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها فى غذائها ودفاعها عن نفسها ، وهى لا تستطيع الحصول على غذائها مدة سنة كاملة ، لذلك ترى الام تعمد الى قطعة خشب ، فتحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم تجلب طلع الازهار وبعض الاوراق السكرية ، وتحشو بها ذلك السرداب ، ثم تبيض بيضة ، ثم تأتى بنشارة خشب وتجعلها عجينة لتكون سقفا لذلك السرداب ، وتصنع بعد ذلك سردابا آخر ، فاذا فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة ٠

٦ ـ يمتص جذر النخلة العناصر الغذائية فى التربة بالشعيرات الجذرية ، وتصعد العصارة بالضغط الاسموزى الى أعلى ، ويتغذى جذع النخلة بما غلظ من هذه العصارة ، أما الخلاصة فتصعد الى حيث تغذى الاجزاء العلوية ، وترتفع العصارة الدقيقة لتكون الثمرة ٠ وقمع البلحة هو مصفاتها التى تسمح بمرور المواد الغذائية تماما الى الداخل فقط ، وهى التى تكون الحلو من البلحة وغير الحلو من النواة ، والتى منها ينشأ جسم البلحة الطرى ، وهيكل النواة الصلب ، وبين الحلو والمر والصلب والطرى غلاف شفاف لا يكاد يرى ، ولم يحدث اطلاقا أن أخطأت نخلة ، فكونت نواة البلحة فى الخارج والبلحة فى الداخل ، أو كونت البلحة صلبة والنواة طرية ٠

٧ ـ الحيوان المنوى يشبه العلق فى حركته ، له رأس مفرطح ، وعنق قصير ، وذيل طويل ، ويتحرك بلولبية ذيله ، وقد أمد بقوة مقاومة ، اذ أنه فى

الاجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيه ويفقد مظاهر نشاطه ، فاذا ما وجد الوسط المناسب عادت له حيويته ونشاطه ، ويستمر فى الحياة عدة أيام متوالية فى انتظار البويضة التى يدفع بها مبيض الانثى ــ وهو جهاز التناسل عندها ــ ليؤدى الى احضانها ، ويتم كل ذلك بهداية منقطعة النظير • اذ لا دخــل لاى قوة ــ كائنة ما كانت كيماوية أو حيوية أو عقلية أو ادراكية ــ فى توجيـــه الحيوان المنوى الى بويضة الانثى •

٨ ــ فى عملية الرضاع كل شىء يتم بهداية •

تنمو الغدد التى تصنع اللبن مدة الحمل ، ويدفعها الى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان ، وفى نهاية الحمل وبدء الوضع ، تتلقى هذه الغدد من الغدة النخامية الموجودة فى قاعدة الجمجمة أمرا بالبدء فى صنع اللبن ، وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن ثدى أمه بهداية لا حد لها ، وعملية الرضاعة عملية شاقة ، اذ أنها تقتضى انقباضات متوالية فى عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه ، وحركات متواصلة فى فكه الاسفل ، وتنفسا من أنفه ، ويقوم الطفل بهذا كله بهداية تامة من أول رضعة لساعة فطامه • وقالوا : ان الرجل نفسه لا يستطيع أن يقوم بعملية الرضاع كما يقوم بها الطفل الذى لا يتجاوز عمره ساعات •

هذه أمثلة قصدنا بها لفت النظر الى ظاهرة الهداية ، فاذا مــا التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق ، يرى هذه الظاهرة فى كل شىء على الاطلاق ، فهى ظاهرة تنتظم شئون الكون كله بمــا فيه من الالكترونات فى الذرة ، الى الذرة ، الى العناصر ، الى الارض ، الى الشموس ، إلى المجرات بكل حوادثها ، فى كل خلية من خلايا الحيوان ، الى كل جهاز من أجهزته ، الى كل حيوان من وحيد الخلية الى النحلة ، الى الانسان •

((قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى)) (طه : ٥٠) •

تلك كلمة القرآن وهى كذلك كلمة العقل ، وهى كذلك كلمة العلم ، ان هداية بلا هاد غير مقبولة عقلا ولا علما •

ان الله ظهر باسمه الهادى فى كل شىء ، ومع ذلك ضل الكافرون عن الله ، وأضلوا قلوبهم ، وهم فى ضلالهم مهتدون الى طرق الضلال والزيغ ، اذ أن الانسان بما أوتى من ارادة واختيار ، وبمــا امتحن به فى هذه الحياة كأثر ناتج عن هذه الارادة ، قد ركب تركيبا ظهر فيه اسم الله الهادى بمــا يتفق مع هذه الحرية فى الارادة ومع هذا الامتحان :

« **ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها** » (الشمس : ٧ ــ ١٠) • « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فان الجنة هى المأوى** » (النازعات : ٤٠ ــ ٤١) •

ان الكافرين قديما كانوا يعتبرون الدعوة الى الله ، وتعليل كل شىء به نوعا من الافتراء والكذب والاسطورة : « **قال : ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم • بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر** » (الانبياء : ٤ ــ ٥) •

والكافرون اليوم : يعتبرون كل كلام غير كلامهم ، لا يقوم على علم ، أو تظهر منه رائحة الخرافة ، أو فيه معنى الاسطورة • ان التشابه الكامل بين الموقفين فى القديم والحديث دليل على وحدة النفس البشرية ، وان كان المحدثون أكثر فلسفة وأزهى زخرفا ، كما أن فيه دليلا على نوع من الهداية الى الضلال ، كهداية المهتدين الى الهدى ، وذلك ظهور لاسم الله الهادى فى عالم الانسان : « **وهديناه النجدين** » (البلد : ١٠) • « **انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا** » (الانسان : ٣) •

ان الكافر يرى أن بامكانه أن يعلل كل ظاهرة من ظواهر هـذا الكون بدون الله ، والذى لا يستطيع أن يعلله الآن يتصور أن باستطاعته أن يعلله فى المستقبل ، وبصرف النظر عن كون هذه التعليلات علمية عقلانية أو ظنية حدسية ، فانه مقتنع بهـا ولا يقبل أى تفسير آخر ولو كان علميا وعقليا ، لان كثرة الاحتمالات عنده لا تبطل ظهور الممكن الواحد ، وتعدد مظاهر الوجود على أشكال مختلفة يقنعه بأى تفسير يتوهمه بنفسه ، وذلك كأثر من استشعاره لذاته المتصفة بالعلم والقدرة والارادة والحياة ، وخلع هذه المعانى على الكون متناسيا أن الطبيعة بمجموعها ليس لهـا علم وارادة وقدرة وحياة • انه يقول عن كل شىء يراه ، انه ممكن ، ونحن ان لم نقل بامكانه نكفر (نخرج عن الاسلام) ولكن نقول بذلك ، اذا وجد علم الله وارادته وقدرته ، أما بغير علم ولا ارادة فلا •

ان الله ظهر كثيرا وبطن كثيرا ، ظهوره الكثير جعل المؤمنين به كأنهم يعاينون : (لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا) وبطونه الكثير جعل الكافرين على مثل اليقين بأن الاولين واهمون ، ولا يمكن فى حكم العقل الا أن يكون الله ظاهرا وباطنا بأن واحد : ظاهرا للجنان ، وخفيا عن العيان ، اذ ما يظهر للعيان خلقه ، وخلقه يدل الجنان عليه ، لذلك قال الله تعالى : « **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** » (التغابن : ١١) •

ليس فى خفاء الله حجة لكافر على كفر ، وقد رأينا هذا فى مقدمة ابحاثنا ، وفى ظهوره الحجة الكاملة على الايمان ، واذا كان فى ضلال الضالين نوع هداية الى الضلال ، اذ حرموا أنفسهم الرؤية الصافية فشاهدوا الامور معكوسة ، فان فى هداية المهتدين الظاهرة الكاملة على الهداية التامة • ولكن كما فى هداية المهتدين دليل على ظاهرة الهداية ، فان فى هداية الضالين الى طرق الضلال دليل عليها كما سنرى بعد ، والجميع يدل على أن هناك ذاتا هادية •

ان آيات الله التى تدل عليه واضحة جدا فى كل شىء ، ولكن الاهتداء اليها يحتاج الى انسانية أكثر ، الى أخلاق الانسان بشكل أدق : ((**سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**)) (الاعراف : ١٤٦) •

انها الحقيقة التى لا ترد : الكبر والغفلة عن آيات الله هما طريق الكفر ، والخضوع للحق وقبوله واليقظة على آيات الله هى طريق الايمان • فبمزيد من أخلاق الانسان ، وبمزيد من التأمل ، وبمزيد من طلب الحق ، لابد أن يصل الانسان الى الله • فاذا قيل : ان المرجع فى الهداية ارادة الله ••• ((**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها**)) (السجدة : ١٣) نقول : ان المرجع فى كل شىء ارادة الله ، وليس فى ذلك عذر لمعتذر أو متعلل أو متهرب أو رام المسئولية على غيره ، لقد قال الله : ((**ان هو الا ذكر للعالمين • لمن شاء منكم أن يستقيم**)) (التكوير : ٢٧ ـ ٢٨) فقال أبو جهل : ذلك الينا ان شئنا • فأنزل الله تتمة : ((**وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين**)) (التكوير : ٢٩) وهذا يعنى أن مشيئة الله محيطة بكل شىء ، ولكن لا يعنى هذا الغاء اختيار الانسان ومشيئته •

((**يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام**)) (المائدة : ١٦)

يضـــل به كثيرا ويهـــدى به كثيرا وما يضـــل به الا الفاسقين))
(البقرة : ٢٦) •

ان الله اذا أراد أن يضل انسانا ظهر له فى هذا الوجود كله باسمه المضل ، حتى لم ير فى آيات الله فى خلقه ما يدله عليه ، وكذلك فى آياته فى القرآن حتى لا يرى فيها آية تدله عليه ، وليس فى ذلك اجبار من الله له ، بل ذلك لان الانسان ذاته اختار الطريق الآخر كبرا وظلما ، فصار يرى الآيات معكوسة ، فما فيه حجة على الايمان صار يعتبره حجة له على الكفر ، وذلك لمـا قلنا كاثر من احاطة هداية الله فى الطريقين ، والذى يتحمل المسئولية هو الانسان ذاته •

تعالى الله أن يسأل تغيير ما سن من سننه ، وعلى الانسان أن يحقق ما طلب منه ضمن هذه السنن •

ويقول الكافرون : ان الله قادر على أن يهدى الناس كلهم الى ما يحب ، فلم لم يهدهم ؟

وان الله قادر على أن يجعل العالم خاليا من كل شر ، فلم لم يفعل ؟ يقولون هذا حتى يقولوا أخيرا : كون العالم فيه ضلال وكونه فيه شر ، فذلك دليلان على أن هذا العالم ليس من صنع الله ٠

ويقولون للمؤمنين : ما دمتم تؤمنون بالقضاء والقدر ، فما نحن فيه من انحراف قدره الله علينا ولا مخرج لنا من قدره ، فهو المسؤول اذن ولسنا المسؤولين ، فلا تلومونا ولو مرة ٠ ألم يقل : ((**يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء**)) (المدثر : ٣١) ٠

ونقول : كلمتهم هذه قالها الكافرون من قبل ، ورد عليهم القرآن أى رد :

((**وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل الا البلاغ المبين ٠ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت : فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة**)) (النحل : ٣٥ ـ ٣٦) ٠

نفس اللغة القديمة للكافرين استعملها كفار عهد الدعوة الاول ، واستعملها كفار عصرنا الحاضر : ((**سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، حتى ذاقوا بأسنا قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون**)) (الانعام : ١٤٨) ٠

ترى ما قيمة حجة الكاذبين ؟ يلاحظ فى الرد القرآنى أنه رماهم بالتكذيب لرسل الله صلوات الله عليهم ، وأنه رماهم بالجهل ، وأن بلاغ الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ فيه الحجة عليهم ٠

انهم نظروا الى عموم مشيئة الله ولم ينظروا الى مشيئتهم ، فأرادوا أن يقيموا الحجة على الله بكماله ، فأقام الله عليهم الحجة بمشيئتهم التى استعملوها فى غير طريقها الصحيح ٠

ان ما كتب الله ، وما علم الله ، وما أراد الله ، لا يسلب الانسان اختياره ، كلاهما خطأ عظيم : أن نظن أن الله لا يعلم ماذا سيحدث ، أو نظن بأن علمه

بما سيحدث يسلبنا اختيارنا • فالعلم كاشف لا مجبر ، واذا كان علمه لا يسلبنا اختيارنا ، فكذلك ارادته وكذلك قدرته ، فالقدرة تبرز ما خصصته الارادة والارادة تخصص ما سبق به العلم •

انه من الخطأ أن نفهم قوله : ((**يضل من يشاء ويهدى من يشـــاء**)) (النحل : ٩٣) بأنه يجبر على الهداية ويجبر على الضلال ، بل : ((**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم**)) (الصف : ٥) ((قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها)) (الشمس : ٩ ــ ١٠) • ((**ان هو الا ذكر للعالمين • لمن شاء منكم أن يستقيم • وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين**)) (والتكوير : ٢٧ ــ ٢٩) ان ارادة الانسان موجودة ، ولا يعنى هذا أن هناك شيئا يكون خارجا عن ارادة الله ، وعموم الارادة الالهية حق ، ولا يعنى هذا سلب الانسان حريته واختياره •

وأخــيرا : لقد خلق الله كل شىء ، حسيا كان أو معنويا ، من الاخلاق الفاسدة الى الاخلاق الحسنة ، الى الانسان ، الى الوجود كله ، وأعطى كل شىء هدايته ، فالكبر مهتد الى طريقه ، وكذلك الحسد ، وكذلك الضلال ، وكذلك كل نوع من أنواع الضلال ، وكذلك الهداية ، وكذلك أعواد شجر العنب التى تلتف حول أى شىء تصادفه ، وكذلك الشمس ، وكذلك القمر • وبالنسبة للانسان خاصة : ذاته ، ونفسه ، وجسمه ، وكل شىء فيه مهتد الى طريقه اذا ترك على سجيته ، ولكن هذا الانسان بمـا أوتى من ملكات أهلته للتكليف ، جعل الخير والشر له فتنة : ((**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**)) (الانبياء : ٣٥) • ونتيجة لهذا فرض عليه أن يحاول التغلب على كثير من ميوله ورغباته وأهوائه وشهواته ، وأن يكيف ذاته حسب هدى معين ، حده له الوحى الالهى ، ليقوم بدوره على هذه الارض ضمن طريق مخصوص •

وعلى هذا فانحراف الانسان عن هذا الطريق ضلال ، وان كانت فروع هذا الضلال من الهداية التى أعطيت لكل شىء فى موضوعه : ((**وهـــديناه النجدين**)) (البلد : ١٠) • ولكن كون الانسان يستطيع أن يتخلى عن هذا الضلال ــ ولو على حساب متعته ــ فانه مفروض عليه أن يعمل كى يحقق معنى الابتلاء ، ولذلك كان : ((حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات)) • وفى الظاهرة السابعة زيادة بيان ان شاء الله • وانما قصدنا فى هذه أن نشير الى أن الهداية الكاملة لكل شىء ــ مخلوق حسى أو معنوى ــ تشير الى ذات هادية : ((**أعطى كل شىء خلقه ثم هدى**)) (طه : ٥٠) فما من شىء الا وعنده نوع هداية عامة • حتى الاشياء المعنوية خيرا كانت أو شرا ، ولكن الانسان كلف بنوع من الهداية خاص ، وعليه أن يسعى لتحقيقه • والمهم بعد : أن يكون وضح لدينا أن هذه الهداية فى كل شىء لا يمكن أن تكون الا بالله الهـــادى •

الظاهرة السادسة

ظاهرة الإبداع

أرأيت لوحة رسام قال الناس عنها : انها أثر عظيم ؟ قل لى : لماذا حكم الناس عليها هذا الحكم ؟ ستقول لما فيها من ابداع فى التصوير والتعبير والجو والظلال والتناسق والتفاعل والمعرفة ، بما يثير الاعجاب فى نفس المشاهد ، انك تقول بدهشة أو باعجاب : لقد أبدع هذا الاثر فلان ، ترى ألم يخطر ببالك وأنت أمام مشهد ابداعى عظيم من هذا الكون ، أن تفكر فى المبدع الاعظم الذى أبدع هذا الكون ، أو أن الالفة أعمت بصرك عن الرؤية ؟ انك لو تأملت لوجدت :

أن الجمال والابداع يبدوان ملازمين لكل شىء فى الكون : السحب ، قوس قزح ، السماء الزرقاء ، النجوم ذات الالوان وانتشارها وانتظامها وحركاتها وهندستها ، القمر ساعة طلوعه عندما يكون بدرا أو هلالا أو ساعة توسطه قبة الفلك ، الشمس فى غروبها وشروقها ، الفجر والاصيل ، روعة الظهر ، كل ذلك آثار ابداع عظيم . ان أعظم فنان هو الذى يستطيع أن يرسم جزءا مما فى الكون للحظة من لحظاته بأمانة ، أما الكون فكل مظهر من مظاهره التى تتكرر ، أو تتعاقب أو تتغير صور من الجمال تثير فى النفس كل آن مباهج من الروائع .

كل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبدع نظام ، مخططة أجمل تخطيط ، تخطيط وابداع يقلد ولا يصنع ، تجده على أروع ما يكون فى الازهار ، برشاقتها الفاتنة وتصميماتها الرائعة وألوانها الموزعة ، بشكل يحافظ كل زهر معه على سمات جماله وتناسق ألوانه ، وانك لتجد فى كل زهرة احساسا جديدا ، وهى بديعة عندما تجتمع جنسا واحدا ، ورائعة عندما تكون أجناسا ، فالورق والزهر والساق والغصون والفروع والثمار ، كلها ابداع عجيب ، منفردة كانت أو مجتمعة موصولة أو مقطوعة .

والوادى الاخضر والنهر والاشجار الباسقة ، والصخور والجبال يجلل قممها الثلج ، أو التى تسبغ عليها السماء زرقتها من بعيد ، وكثبان الرمال الفسيحة الممتدة فى الصحراء ، والتتابع المنسق الفاخر لامواج المحيط وتلاطمها على أرض الشاطىء ، والهدير والخرير والصفير والزفيف والحفيف ، وصوت الرعد ، ولمعان البرق ، أليس ذلك كله جميلا وبديعا ومبهجا حتى عندما يخيف ؟ والطيور فوق البحر أو فوق الغابة أو على الارض هاربة منك أو مذللة بين

يديك ، ألوانها المتناسقة ، أشكالها الزاهية ، نقشاتها الفاتنة ، تصميمها الجميل ، أصواتها العذبة ، حركاتها الفاتنة ، وفى كل ريشة منها جمال ، وفى كل شعرة فيها رونق ، وفى جناحها ساعة يمتد وساعة ينقبض يرتفع أو ينخفض ، ما يجعل القلب يمور شعورا حيا واغتباطا ٠

قطع الثلج ذات الاشكال الهندسية المختلفة ، والخطوط البلورية للعناصر والمركبات ، وألوان العناصر منفردة أو مركبة ، وتركيباتها أجزاءا وكتلا ، كروية الارض ، وسحب المريخ ، ووجه القمر ، وكلف هذا الوجه ، كل ذلك جميل جميل لدرجة مدهشة تحت المجهر أو بالعين المجردة ٠ وفى الجمال جمال ، وفى الغنم جمال ، وفى البقر جمال ، وفى الماعز جمال ، وفى الكلب جمال ، وفى المهرة جمال ، وفى كل ما خلق الله جمال ، فى مراحه ومغداه فى سكونه وممشاه ٠ فى حركات السمك وتموجات حشائش البحر فى الاعماق ، أو تموجات حشائش البر اذا مر النسيم ، فى العظام المكسورة التى تشفى ، فى الجرح الذى يلتئم بعد اذ تمزق لحمه ، فى دورة الدم ، فى القلب الذى يتحطم ، ثم ينجبر بعد كسر ، فى حبوب اللقاح ، فى النحل تمتص رحيق الزهر ، فى تقبيل الفراشة ميسم الزهرة ، فى انتقالها الى ميسم آخر ، فى نقلها حب اللقاح الى زهرة أخرى ، فى التلقيح ، فى التزاوج ، فى انجذاب القرين الى قرينه ، فى كل شىء ابداع ٠

ان التناسق الذى نراه فى كل مخلوق ، انسجام الاعضاء بعضها مع بعض ، انسجام اللون مع الاعضاء جعل كل شىء فى محله ، كل ذلك ابداع يشير الى مبدع ٠

((**الذى أحسن كل شىء خلقه**)) (السجدة : ٧) ٠ ((**بديع السموات والارض**)) (البقرة : ١١٧) ٠ ((**ذلكم الله ربكم له الملك**)) (فاطر : ١٣) لن هذا الابداع من أجلك أيها الانسان ((**ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**)) (لقمان : ٢٠) ٠ ((**وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها**)) (ابراهيم : ٣٤) ٠٠ انه من أجلك حتى تعرف ربك بأسمائه كلها ، وتشكره جل جلاله وتعبده بحب وعشق ، ولذلك جعل فيك الاحساس بالابداع ، وحب الجمال ، فكان ذلك من أروع الابداع لو عقل الانسان ٠

لقد أعطى الانسان قوة الفكر والتصور وبداهة الشعور ، فصار يتذوق الجمال ، ويسرح بخياله من البداية الى النهاية ، ويتذكر بسرعة البرق آلافا من لوحات الوجود ، ويخترق بخياله حجب السموات والارض ، مع الادراك الذى يجعله يتفاعل مع كل شىء ٠ فيهوى ويحب ، ويمل ويبغض ، ويصمم تارة

للبناء وتارة للهدم ، فيجعل الحياة فنا والمعنى جهازا ؟. ان فى ذلك كله ابداعا سواء فى ذلك باطن الانسان أو ظاهره ، أو ما يحيط به ، وقد يرسم الرسام صورة الجميل فيبدع ، وصورة القبيح فيبدع ، وفى كلتا الحالتين يبقى الابداع ابداعا وفى كلتيهما يكون محسنا ، وفى الكون جميل وأجمل ، وقبيح وأقبح ، ولكن فى ذلك كله ابداعا ، ويظهر الابداع فى ذلك أكثر ، فلن يعرف الجميل الا بالقبيح ولا الاجمل الا بالجميل ، وتعدد الصور أكثر ايماءا ، وأبقى تجديدا ، وأدل فى القدرة على الابداع .

فلا يفوتنك يا صاح أن ترى الابداع ولا تعرف المبدع ، أو تلمس الاحسان وتنسى المحسن ، أو تعشق الجمال ولا يمتلىء قلبك بحب خالق الجمال ، بل ترنم مع الحداة :

عـــذابه فيـــك عـــذب	وبعـــده فيـــك قـــرب
وأنت عنـــــدى كروحى	بـــل أنت منهـــا أحب
حسبى من الحب أنى	لمـــا تحـــب أحـــب

الظاهرة السابعة

ظاهرة الحكمة

((قل أنظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)) (يونس : ١٠١) **((أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون))** (الاعراف : ١٨٥) **((وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون))** (يوسف : ١٠٥) **((ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون))** • (الاعراف : ١٧٩) •

ان الله لا يقبل من المسلم الا أن يرى فى كل شىء آية تدل عليه اعتقادا ، ونديبنا الى ذلك استشعارا ، وما لم يصل المسلم الى هذا المستوى الرفيع فانه بحاجة الى يقظة أكثر ، والى فكر أكثر ، والى ذكر أكثر •

ان يد الله التى خلقت أرت نفسها فى خلقها ، وارادة الله التى خصصت أرت نفسها فى مبدعاتها ، وحكمة الله ظهرت فلم تخف •

وان قلبا لم ير آثار الله فى كل شىء لقلب أعمى : **((فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور))** (الحج : ٤٦) • ولعله محل للشفقة **((فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا))** • (الكهف : ٦) •

لقد أمرنا الله أن ندرس آياته فى هذا الكون ، والكون ذاته يستلفت النظر ، ولقد درسه الكافرون والمؤمنون على السواء ، وليس هناك من فارق بين الطرفين فى العلم بهذا كثرة أو قلة ، ولكن الفارق انما هو باستعمال العقل وقوانينه للوصول الى ما وراء الكون ، أو بالجمود على رؤية الحس وعدم استعمال العقل والركون الى التراب •

ولئن أكثر القرآن من ذكر : أن فى الكون آيات لقوم يعلمون ، أو يتفكرون ، فقد أكثر كذلك من ذكر **((ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون))** (النحل : ١٢) • مما يدل على أن تحكيم قوانين العقل شرط لمعرفة آية الله •

وعلى هذا فكل ظاهرة من الظواهر التى نذكرها فى هذا الكون ، لا ندعى أننا وحدنا نعرفها ، فنحن والكافرون مشتركون فى هذه المعرفة ، ولكن الفارق أننا نعلل وجود هذه الظاهرة بلازمها العقلى الذى لابد منه ، وهم يرفضون هذا التعليل دون دليل ، كمهندسين وقفا أمام بناء جميل جدا ، فكلاهما يستوى فى كونه يعرف كل ما فى البناء من أجزاء ، من معرفته بكيفية الترتيب ، الى معرفته بكيفية التركيب ، الا أن احدهما جزم أن هذا البناء قد كان دون أن توجد خبرة وعلموارادة وقدرة وابداع وحكمة وذوات تقوم بها هذه الاشياء . والآخر حكم على البداهة بأن مهندسا عالما حكيما .. قد أظهر هذا البناء . ان المسألة بكل بساطة هى هذه ، وعندما يناقش الاول عقليا فى الحكم الذى اصدره يقول : انني فيما يستقبل من الايام سأكتشف كيف قام هذا البناء بنفسه ، مع أن العقل ببداهته يحكم ان زمانا أكثر سيعطينا تفصيلات أكثر فى امر البناء ، تدلنـــا على صاحبه بشكل أوسع وأدق ، ولن يلغى حكم البداهة أبدا .

والكون كلما تكشف أكثر دل على الله أكثر ، وهذه الظاهرة التى ندرسها الآن « ظاهرة الحكمة » خير شاهد على ما قلناه ، فالانسان العادى يرى أن فى الكون حكمة فيتعرف بها على الله الحكيم ، وكلما ازداد علما ، كلما زادت معرفته بهذه الحكمة ، فما رأينا العلم الا كاشفا للحكمة .

وان أكبر مصيبة ابتلى بها المؤمنون فى هذا الزمان ، هى دعوى الكافرين العلم حين يكفرون وأن المؤمنين لا يعلمون ، وساعدهم على الظهور بهذه الدعوى ، أن أكثرية المؤمنين فى زمننا أقل علما بظواهر الحياة الدنيا من الآخرين ، ولكنه بدأ العصر الذى يصبح فيه المؤمنون أكثر علما بظواهر الحياة الدنيا ، وبدأوا يثبتون أن مزيدا من العلم يعطى مزيدا من الايمان .

* * * * *

قالوا عن الحكمة : انها وضع الشىء فى محله ، وبالنسبة للكون باطلاق ، الا أنها تخيف لكفى ذلك حكمة ، ان وجود الخوف من أكبر الحكم ، اذ الكون ، فكل ما فيه على غاية من الحكمة ، فليس بامكان العقل أن يتصوره أحكم مما هو فيه ، وادرس كل شىء فيه ، أجزاءا وكتلا ، تجد الحقيقة ناصعة تقول : ما أنا عليه عين الحكمة ، وهذه أمثلة :

١ ــ لولا الموت ماذا حدث ؟ قالوا : لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت ، فانه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حـــول الكرة الارضية ارتفاعها ٥ سم ، وهذا جنس واحد من المخلوقات ، فكيف اذا كانت

المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت ! ومن هنا نفهم حكمة المرض ، وحكمة وجود مسببات الامراض من جراثيم وغيرها ، ويقول قائل : ترى لو كان الانسان يموت بلا مرض أليس أحسن ؟ أو لو كان يموت بمرض واحد فمتى أصيب بمرض كانت نهايته فيه ؟ وقد غاب عن هؤلاء حكمة وجود الامل ، وحكمة الانذار ، وحكمة البصر ، وحكمة الاعتبار بهذا الواقع ٠

٢ ـ ما يخرج من الانسان وحده ، كان يمكن أن يملا الدنيا ، لولا وجود أنواع البكتريات والعوامل الكثيرة التى تؤثر فى تحويل وابادة هذا الخارج ، ومن هنا نفهم حكمة وجود كثير من الموجودات التى يتصور الانسان مبدئيا أنه لا ضرورة لوجودها ، وبالتالى يتوهم أنها موجودة لغير ما حكمة ، انه لو لم يكن فى بعض المخلوقات الا جمالها لكفى الجمال ، ولو لم يكن فى بعض المخلوقات الا أنها تخيف لكفى ذلك حكمة ، ان وجود الخوف من أكبر الحكم ، اذ يعلم الانسان الحذر ، وبالتالى ينمي قدراته ، ولو لم يكن فى بعض المخلوقات الا أنها تريك محلها مع ما قبلها وما بعدها لتدلك على التناسق ، لكان ذلك وحده حكمة ، ولو لم يكن فى بعض المخلوقات الا أنك ترى فيها عجائب خلق الله وقدرته لكفى ذلك حكمة ٠

٣ ـ ويقول بعض الناس : وحتى الشر فيه حكمة ؟! وكذلك الالم ؟! أليس العدل خيرا من الظلم ، والرحمة خيرا من القسوة ؟ والرعاية خيرا من التيتم ؟ والايمان خيرا من الكفر ؟ والقيام بالواجب خيرا من اهماله ؟ وبالتالى فما الحكمة فى وجود هذه النقائص وغيرها خير منها ؟

ويصل الامر ببعضهم الى أن يسألوا لم خلق الله الشر ؟ والى أن يقولوا : ان وجود الشر دليل على « ألا اله » لان الاله ينبغي أن يكون خيرا ، ولا يصدر عنه الا كل خير ٠

ونقول : أن نحب معرفة الحكمة فى كل شىء ، أو أن نسأل حتى نعرف أو أن نحاول المعرفة ، فهذا شىء لا غبار عليه مع ملاحظة أن القصور فى معرفة الحكمة لا يعنى عدم وجودها ٠ وأما أن نسأل الله لم فعلت ؟! فهذا لا ، ولا يسأل هذا السؤال الا جاهل بجلال الله واحاطة علمه وناس محدودية الانسان بالنسبة لعدم تناهى كمالات الله ٠ والعالم اذا فعل عن علم لا يسأله الجاهل لم فعلت ؟ وكما قال الله عن الانســـان : ((**وما أوتيتم من العلم الا قليلا**)) (الاسراء : ٨٥) ٠ واذن : ((**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**)) (الانبياء : ٢٣) ٠

وأما أن تقول : ان وجود الشر دليل على (أن لا اله) ! فان هذا محض الجهل ، ومحض ضيعة الفكر ، ومحض عدم المعرفة بقوانين الكون ، فان وجود

الله قائم عليه من البراهين ، بحيث يأخذ حكم البداهة عند كل انسان لم تتعطل ملكاته ·

واذن ففي دائرة التعرف على الحكمة نجيب على التساؤلات الآنفة :

الزنى شر ، فهل خلق آلاته شر ؟! لقد خلق الله للرجل أعضاء تناسلية ، وكذلك للانثى ، وخلق عند الرجل شهوة وعند المرأة شهوة ، والحكمة واضحة ، فيما خلق الله ، ولكن الانسان هو الذى نقل استعمال هذه الآلات من الوضع الحكيم الذى خلقت له من أجل بقاء الجنس ، الى حالة الفوضى الجنسية ، فليس الشر اذن فى خلق هذه الاعضاء ، وانما الشر فيما فعله الانسان متجاوزا الحدود التى خلقت الاشياء من أجلها ·

وشرب الخمر شر ، وهل خلق العنب شر ؟ ان العنب فى حد ذاته شىء طيب جميل ، والحكمة فى خلقه واضحة ، والانسان هو الذى نقل العنب من وضعه الصالح الطيب الى الوضع الخبيث الفاسد · واستعمال الحديد فى القتل غير المشروع شر ، فهل خلق الحديد شر ؟ ! ان وجود الحديد فيه من الحكم ما لا يعد ولا يحصى ، وانما كان استعمال الانسان له استعمالا خاطئا هو الشر ·

والحسد فى حد ذاته الذى هو تمنى زوال النعمة عن المحسود شر ، فهل خلق ملكة التنافس عند البشر شر ؟! ان ملكة التنافس عند الانسان من أكبر العوامل التى تؤدى الى ازدهار العمران وصلاح الانسان ، ولكن الانسان هو الذى حرف هذه الملكة فيه فكان الشر · فالشر من صنع الانسان وليس فى وجود الملكة ، والكبر الذى هو غمط الناس وبطر الحق شر ، فهل خلق طلب الكمال والعلو المشروع شر ؟ لقد خلق الله عند الانسان استعدادا كى يطلب الكمال ويطلب العلو فى الكمال ، ولكن الانسان هو الذى حرف هذا الاستعداد فجعله كبرا ، فكان شرا ·

فالانسان اذن هو الذى بتنكبه عن تحقيق الحكمة فيما خلق الله — يحيل الخير الى شر ، والصلاح الى فساد ·

والسؤال الآن : ما الحكمة فى جعل هذا الاستعداد الهائل عند الانسان للخير والشر ؟! والجواب على ذلك :

(أ) كى يستعمل الانسان طاقاته كلها فلا تعطل طاقة ، طاقة العقل وطاقة الارادة ، وطاقة الروح ، وطاقة الفكر ، وطاقة الجسد ، فتظهر بذلك كمالات الانسان فى حالة استعمال كل طاقة فى طريقها الصحيح ، وفى ايجاده

التوازن بين هذه الطاقات ، وبالتالى يعرف فضل الله على الانسان • أو فى حالة تعطيل بعض الطاقات واطلاق بعضها الآخر على غير طريق الحكمة يظهر قبح الانحراف عن سنن الله ، وآثاره السيئة فيرجع الانسان الى الطريق الصحيح •

(ب) وبهذا يعرف الانسان الله حق المعرفة : اذ لا يعرف أن الله غفور الا اذا أخطأ الانسان واستغفر ، ولا يعرف أن الله تواب الا اذا تاب الانسان بعد الذنب وأيقن أن الله يتوب عليه ، ولا تعرف قدرته المطلقة على خلق كل شىء من خير وشر وهدى وضلال ، الا اذا كان هدى وضلال وخير وشر ، وبالتالى لا يعرف الله حق المعرفة الا اذا كان الانسان على ما هو عليه ، ولذلك كانت حكمة الله فى خلق الانس والجن هى معرفته : ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**)) (الذاريات : ٥٦) • ان الانسان لا يعرف أن الله مجيب الا اذا اضطر فدعاه واستجاب ، ولا يعرف أن الله رزاق الا اذا شاهد وصول الارزاق الى كل مخلوق • ومن هنا ندرك أسرار كثير من الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(جـ) والذين يطلبون أن يكون عالمنا هذا خيرا محضا يخطئون ، اذ أن الحكمة من وجود هذا الكون والانسان وحياته الاولى فيه هى الابتلاء ، ولا ابتلاء الا بوجود خير وشر ، وانما ينجح الانسان فى الامتحان اذا بذل جهدا اراديا للخلاص من الشر والاقبال على الخير : ((**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**)) (الانبياء : ٣٥) ((**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**)) (الملك : ٢) • ((**ونفس وما سواها • فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها**)) (الشمس : ٧ ــ ١٠) ((**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فان الجنة هى المأوى**)) (النازعات : ٤٠ ــ ٤١) • فاذا ما نجح الانسان فى امتحان الحياة الدنيا ، كان مرشحا للحياة فى عالم الخير المطلق فى الآخرة ((**لهم دار السلام عند ربهم**)) (الانعام : ١٢٧) • ومن سقط كان أهلا لدخول دار الشر المطلق ((**جهنم يصلونها وبئس القرار**)) (ابراهيم : ٢٩) جزاءا وفاقا •

• • • • •

٤ ــ وان الانسان اذا استعمل عقله بعلم ، سيجد أن من أصغر ذرات هذا الوجود ، الى كل جزء من أجزائه ، اليه جميعا ، ملىء بالحكم ، ولن يجد الانسان شيئا فيه قد خلا من أجمل الحكم ، والامثلة التى ضربناها فى ظاهرة الهداية أو الارادة أو الابداع ، كلها تصلح أمثلة على الحكمة المبثوثة فى كل خلق الله : ((**الذى أحسن كل شىء خلقه**)) (السجدة : ٧) • ((**صنع الله الذى أتقن**

كل شيء)) (النمل : ٨٨) ، وهذه أمثلة أخرى جزئية تصلح شاهدة على ظاهرة الحكمة فى اطارها الكبير :

(أ) ترى لو كانت عينا الانسان فى أعلى رأسه أو فى أسفل ذقنه أو فى مؤخرته أو ... ؟ أكان ذلك أحكم ؟! أم كونهما فى مكانيهما الحاليين ؟ ترى هل هناك جزء من الانسان كان خليقا أن يكون أحكم فى غير محله ؟ ان انسانا يحترم عقله لا يمكن أن يقول : نعم ٠

وكابسط مثال يضرب فى تبيان مواطن الحكمة فى أجزاء الانسان يد الانسان ، انه من الصعب جدا ، ان لم يكن من المستحيل ، أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف ، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته فى الوضع الملائم للقراءة ، وهذه اليد هى التى تصحح وضعه تلقائيا ، وحينما تقلب صفحاته تضع أصابع يدك تحت الورقة وتضغط عليها بالدرجة التى تقلبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به ، وتستعمل الآلة ، ويأكل بها الانسان ، ويفتح بهـا النافذة ، ويحمل بها مـا يريد ، ويلمس بها ، وقد يستعملها فى تحسس الجمال لنقل احساساته الى القلب ، حتى الاظافر فيها ، تحمى الاطراف لانها أكثر تعرضا للاصابة ، وبدون الاظافر لا تستطيع أن تحك جلدك أو تلتقط الاشياء الدقيقة ، وأخيرا فان الاظافر هى الميزان الصحى للانسان ، وان كل ما فعله الانسان ساعدت فيه الى أكبر حد حركة ابهام يده ، ولو كانت غير متحـركة كابهام القرد مثلا ، فانه لا يستطيع أن يفعل الكثير الكثير مما يفعله الآن ٠

(ب) شفة الجمل العليا مشقوقة كى تساعده على أكل نباتات الصحراء الشوكية ، وخفافه تناسب الرمل فلا تغوص فيه ، بخلاف ما لو كان له ظلف أو حافر ، وأهدابه الطويلة كالشبكة تحمى عينيه من ذرات الرمل ، وسنامه يكنز غذاءه فيه لامد طويل فى غيبة الطعام ٠

(ج) النتح فى النبات عبارة عن تبخر الماء من النبات عن طريق الاوراق ، الامر الذى يساعد على صعود العصارات من الارض خلال الجذور ، وتتم عملية النتح بواسطة ثغور موجودة على الورقة ، وهذه الثغور تختلف من نبات الى نبات بحسب بيئته ، لذلك يقل عدد ثغور النباتات الصحراوية عن عدد الثغور فى نباتات الحقل ، مما يقلل النتح فى الاولى عن الثانية ٠

(د) ان الطير أخف من أى حيوان فى حجمه ، وقد اتضح نتيجـة تشريحه أن عظام الطير رقيقه مجوفة ، لتعمل على خفة جسمه وتجعله بذلك قادرا على الطيران ٠

(هـ) فى القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى « البانجو » : تضع الانثى بيضها فى أشهر الشتاء المظلمة ـ حيث تتلبد الثلوج فى الارض والسماء ـ فى جيب جلدى فى الطرف الاعلى من رجلها ، ويبقى الصغار فى ذلك الجيب الى أن يقووا ويشتد مراسهم .

(و) ان للسمك خطا طوليا على كل جانب من جانبيه ، وبفحص هذه الخطوط بالمجهر ، وجدت أنها أعضاء دقيقة حساسة الى درجة كبيرة . فاذا اقتربت السمكة من حاجز أو صخرة ، تحس هذه الاعضاء باختلاف ضغط الماء نتيجة اصطدامه بالحاجز مهما كان تماوج الماء قليلا ، فتتفادى بذلك الاصطدام وتغير طريقها .

(ز) يطير الخفاش فى الليل حيث لا ضوء على ضعف بصره . ولا يصطدم الخفاش بالحواجز مهما كثرت . وقد تبين أن الخفاش يرسل اهتزازات ترجع اليه بالتصادم مع أى جسم يقابله ، فيحس به دون أن يراه . انه فى هـذا شبيه بالرادار .

هذه أمثلة تعطينا صورة مبسطة عن الحكمة المبثوثة فى كل شىء ، وأن الانسان كلما ازداد علما كلما ازداد ادراكا لظاهرة الحكمة كما قلنا من قبل ، ولكن القلوب العمى ، والآذان الصم ، والعقول المعطلة ، تبقى عاجزة فلا تعى عن الله آية : ((**وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون**)) (يوسف : ١٠٥) . ((**وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير**)) (الملك : ١٠) .

ترى لو نسب انسان الى مجنون ، أصم ، أعمى ، أخرس ، صناعة الرادار ألا يشك فى عقله ؟ بل يجزم بجنونه !. أو ليس الذى ينسب اهتزازات الخفاش الى المادة الصماء ، العمياء ، البكماء ، الميتة ، أكثر جنونا !.

((**ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير**)) (فصلت : ٤٠) .

* * * * *

ان فى هذا الكون مليارات من شواهد الحكمة فى الذرة والخلية ، وفى اجتماع الذرات والخلايا ، وفى كل نوع من أنواع الخلق وفى كل جزء منه ، وفى اجتماع هذا كله ، وكل شاهد من هذه المليارات لو نسبه انسان الى العدم لكان

مجنونا ، فكم هؤلاء مجانين أولئك الذين لا يؤمنون بالله الحكيم ! وكم هم سفهاء وقحون اذا يتهمون المؤمنين بخالق الحكمة أنهم مجانين !٠

((ن والقلم وما يسطرون ٠ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ٠ وان لك لأجرا غير ممنون ٠ وانك لعلى خلق عظيم ٠ فستبصر ويبصرون ٠ بأيكم المفتون ٠ ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ٠ فلا تطع المكذبين))
(القلم : ١ ــ ٨) ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠

الظاهرة الثامنة

ظاهرة العناية

١ ـ كل نعمة وراءها منعم ، وصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب ، تأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم ، رعاية الطفل حتى يكبر ويستغنى نعمة وراءها أب وأم ، وجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا ، وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للانسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى ٠

أترى هذه المعطيات الكثيرة التى ليست من صنع الانسان للانسان ، أليس وراءها يد ؟ ان مثل الكلام تعطيل للعقل أى تعطيل !٠

ولما كانت هذه الظاهرة ظاهرة العناية والنعمة على الانسان ، من أكثر الظواهر تفصيلا فى القرآن ، لما يترتب عليها من اظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه ، وبالتالى يستخرج شكر العاقل لله العظيم ، أو اقامة الحجة على الانسان وكفره وظلمه وجحوده ، وبالتالى استحقاقه كل عقاب ، فلذلك نبقى فى جو شرح القرآن لظاهرة النعمة على الانسان ، والعناية به وكون ذلك دليلا على الله ٠

٢ ـ يقول الله تعالى : ((**وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم**)) (النحل : ١٨) ٠ ويقول : ((**وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار**)) (ابراهيم : ٣٤) ٠

والملاحظة أن آية من الآيتين ختمت بـ ((**ان الله لغفور رحيم**)) بينما الاخرى ختمت بوصف الانسان ((**ان الانسان لظلوم كفار**)) فوضح من سياق الآيتين وختامهما معان :

(أ) ان هذه النعم التى لا تعد ليست مصادفة بل هى من خلق الله ، وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الانسان المؤمن ، اذا لم يقم لله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قياما كاملا ٠

(ب) ان جهل الانسان الذى ينتج عنه الكفر ، وكبره الذى ينتج عنه الظلم ، هو الذى يجعل الانسان لا يرى بداهة نعم الله ، ويجعله لا ينسبها

الى الله باخلاص وتجرد ، بل ينسبها الى أى شىء ، مهما كان تافها وباطلا : **((واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون))** (الزمر : ٤٥) ٠

٣ ــ وقد أجمل الله ماهية عنايته بالانسان ونعمه عليه فى آيات منها :

((هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا)) (البقرة : ٢٩) ٠ **((ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة))** (لقمان : ٢٠) ٠ **((وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه))** (الجاثية : ١٣) ٠ وفى هذا الاجمال السريع يتبين :

(أ) أول مظهر من مظاهر نعمة الله على الانسان ، خلقته على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة ٠

(ب) وثانى هذه المظاهر أن الارض بما فيها والسموات بما فيها مسخرة للانسان ٠

(جـ) ان هذا الانعام كله بجزئيه على الانسان من الله عز وجل « وأسبغ » « جميعا منه » ٠ ولا يمكن أن يكون الا ذاك ، لان مناسبة الكون للانسان وامكانه تسخيره ، لا يمكن أن يكون الا بمسخر ٠

٤ ــ وبعد هذا الاجمال ، نذكر بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمة الله على الانسان فى القرآن :

(أ) **((ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا))** (الاسراء : ٧٠) ٠ **((الرحمن ٠ علم القرآن ٠ خلق الانسان ٠ علمه البيان))** (الرحمن : ١ ــ ٤) ٠ **((لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم))** (التين : ٤) ٠ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان الله خلق آدم على صورته » أى على صفاته على رأى بعضهم ، فالله له ارادة وللانسان ارادة ، والله له علم وللانسان صفة علم ، والله حى وللانسان صفة حياة ، والله سميع وللانسان صفة سمع ، والله بصير وللانسان صفة بصر ، والله متكلم وللانسان صفة كلام ، والله حليم وللانسان صفة حلم ، والله رحيم وللانسان صفة رحمة و ٠٠٠٠٠٠ مع ملاحظة أن الله ليس كمثله شىء ، وجودا وصفات وأسماء وأفعالا ٠

فلم ينعم على مخلوق من المخلوقات كما أنعم على الانسان من حيث ما أعطى من معطيات خلقية ظاهرة وباطنة : **((وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة**

وباطنة » (لقمان : ٢٠) وكفى بالعقل للانسان نعمة ، وبسبب مما أعطى استطاع أن يسخر هذا الكون بما فيه ·

(ب) ثم يعدد الله عز وجل نعمه الكونية على الانسان ، وما أكثر الآيات فى ذلك ! ويكفى أن نعرف أن سورة طويلة هى سورة الانعام كلها تقريبا تتحدث عن هذا الموضوع ، وكذلك سورة النمل ، ولنذكر نماذج مختارة من القرآن الكريم : **« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »** (يونس : ٥) ·

ـ **« وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر »** (الانعام : ٩٧) · ان الطريق الوحيد للانسان كى يتعرف على الطريق الصحيح فى ظلمات البر والبحر هو النجم ، وقد كانت المسألة قديما أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الانسان من الاهتداء بالنجم ، ولكن فى الحاضر والى الابد سيبقى اهتداء الانسان بالنجم شيئا أساسيا · يهتدى بها قاطع الصحراء فى سيره ، والجندى فى معركته هجوما أو انسحابا ، والانسان حيث كان ، ان السفينة فى البحر اذ تسلك طريقها معتمدة على البوصلة وعلى خطوط الطول والعرض هى ـ حتى فى هذه ـ معتمدة على النجوم ، اذ لولا نجم القطب ما عرف طول ولا عرض ، ولولا النجوم الاخرى ما عرف نجم القطب · وبدون نجوم كم يتعذب الانسان وكم يضل ، وكم تشل حركته ، وكم تتقلص دائرة عمـــله !! ·

ـ **« وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون · وعلامات وبالنجم هم يهتدون »** (النحل : ١٥ ـ ١٦) ·

ـ **« الله الذى خلق السموات والارض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الانهار · وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهـار · وآتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الانسان لظلوم كفار »** (ابراهيم : ٣٢ ـ ٣٤) ·

ـ **« أو لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون · وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيهـا فجاجا سبلا لعلهم يهتدون · وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون · وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون »** · (الانبياء : ٣٠ ـ ٣٣) ·

ـ ((خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين • والانعام خلقهـا لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون • ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون • وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم • والخيل والبغال والحمـير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون • وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين • هو الذى أنزل من السماء ماءا لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون • وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحمـا طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيـه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون • وعلامات وبالنجم هم يهتدون • أفمن يخلق كمن لا يخلق أفـلا تذكرون • وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم)) • (النحل : ٤ ـ ١٨) •

ـ ((أو لم يروا الى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمال سجدا لله وهم داخرون)) (النحل : ٤٨) •

ـ ((والله أنزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون • وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنـا خالصا سائغا للشاربين • ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون • وأوحى ربك الى النحـل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون • ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شـفاء للناس ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون)) (النحل : ٦٥ ـ ٦٩) •

ـ ((والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون)) (النحل : ٧٢) •

ـ ((والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون • ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)) (النحل : ٧٨ ـ ٧٩) •

ـ ((والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا

تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين)) (النحل : ٨٠) .

ـ ((والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون . فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون)) (النحل ٨١ ـ ٨٣) .

ـ ((ألم نجعل الارض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا)) (النبأ : ٦ ـ ١٦) .

ـ ((فلينظر الانسان الى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الارض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولانعامكم)) (عبس : ٢٤ ـ ٣٢) .

ـ ((يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض ، لا اله الا هو فأنى تؤفكون)) (فاطر : ٣) .

ـ ((والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فسقناه الى بلد ميت ، فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور)) (فاطر : ٩) .

ـ ((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءا ، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور)) (فاطر : ٢٧ ـ ٢٨) .

ـ ((وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره اذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . ومن الانعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين . ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين)) .. ((ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ..)) (الانعام : ١٤١ ـ ١٤٤) .

ـ ((ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الاصباح ، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم)) (الانعام : ٩٥ ـ ٩٦) .

ـ ((وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)) (الانعام : ٩٨) ٠

ونختتم هذه الآيات بما ختمت به سورة الانعام :

((وهو الذى جعلكم خلائف الارض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما اتاكم ، ان ربك سريع العقاب ، وانه لغفور رحيم)) (الانعام : ١٦٥) ٠

وفى هذه الآية نرى اجمالا لنعم الله كلها :

١ ـ كون الانسان خليفة على هذه الارض ، وفى هذا اشارة لنوعى النعم : نعمة الله على الانسان فى اعطائه الخصائص الظاهرة والباطنة التى استأهل بها تسخير الوجود ، ونعمة الله على الانسان اذ جعل الارض بما فيها له ٠

٢ ـ وكون الناس ليسوا سواء ، بل رفع بعضهم فوق بعض درجات من أكبر النعم ٠ وقد يشكل على بعض الناس كيف يكون جعل الناس بعضهم فوق بعض نعمة ، وهذا من قصور الفهم ، وذلك لان الحياة الدنيا لا تقوم الا على هذا ، فلو كان الناس كلهم متساوين جمالا وذكاءا وقوة وعقلا وعلما وامكانات ، وكانوا كلهم فى الدرجة العليا من ذلك فانه وقتذاك ، لا يوجد كناس ينظف أرضا ولا عامل يقيم عملا ، ولكن وجودهم متفاوتين جعل كلا مسخرا فى حدود طاقاته ، الى جزء من العمل الذى تقوم به الحياة الدنيا ومصالح الخلق ٠ وبهذا التفاوت صلح ناس للامرة ، وآخرون للشورى ، وآخرون للجيش ، وهكذا ٠

ثم بينت الآية الحكمة فى وجود هذا التفاوت بين المستخلفين ، وهو الابتلاء فيما أوتى كل انسان من مقام ومواهب وامكانات ، فمن استعمل هذه فى طريقها الصحيح نجح والا فقد سقط ، وقد يسقط انسان أوتى من المكانة أعلاها ، وينجح انسان أوتى من المكانة أدناها ، ومن هنا ندرك أن أكبر نعمة أنعمها الله على الانسان ارسال الرسل له : **((وما أرسلناك الا رحمة للعالمين))** (الانبياء : ١٠٧) ٠ **((لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين))** (آل عمران : ١٦٤) اذ الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين يدلون كل انسان على الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يستعمل فيه ملكاته كلها ، بحيث لا يعطل شيئا منها ، وبحيث لا يصطدم مع الآخرين الذين يحسنون استعمال الملكات ، وبالتالى تتم نعمة الله على الانسان بالاستفادة من كل ما سخر له ، ولولا هذا لتضاربت محاولات الناس

من أجل الاستفادة مما سخر الله لهم واصطدموا ، وأصبح هذا الفضل على الانسان بتسخير كل شيء له سببا في شقاء الانسان ونزاعه كما هو واقع الآن ٠

من كل ما تقدم نخرج بما يلي :

هذا الانسان الصغير هو أكمل مخلوقات هذا الكون ، ودراسة كاملة لهذا الكون ، تدلنا على أنه : سماواته ، وأرضه ، وحيواناته ، ونباتاته ، كله مسخر للانسان لا يشذ عن هذا ذرة من ذراته :

فالنباتات قديمها وحديثها يستفيد منها الانسان مباشرة أو بطريق غير مباشر : ثمرها لغذائه ، وساقها لسياراته وشقته وناره ، وزهرها للنحل الذى يأكل منه الانسان العسل ، وقد تكون غذاء للشاة التى يأكل لحمها ، ويشرب لبنها ويستعمل صوفها لثيابه ، ويستخرج منها الدواء ويصنع منها الادوات ، ولا ننسى أن البترول منها كان ٠

وهذه الاحياء ما علمنا منها وما لم نعلم ، أليست كلها للانسان يستفيد منها بطريق مباشر وغير مباشر : درا ، وطعاما ، ومتعة نظر ، وقد نرى أصنافا من الاحياء لا نعرف الآن ماذا يستفيد منها الانسان وكيف يستفيد ، وقد يعرف فى المستقبل ، ولعل فى هذه القصة عبرة :

هناك نوع من الصبير يستعمل كسياج للمزارع ، نقل الى أستراليا وزرع هناك ، وكانت فاجعة اذ امتد بشكل هائل لدرجة أنه كاد يغطى كثيرا من الاراضى الصالحة للزراعة ، وحار العلماء فى الامر ، ثم عثروا على نوع من الجراثيم المرضية لا تعيش الا على هذا النوع من النبات ، فنقلوا هذه الجراثيم بواسطة النبات نفسه ، وبدأت الجراثيم تعمل عملها حتى تقلص النبات الى الوضع المناسب ، والملاحظ أن الجرثوم لم يقض على النبات ، بل بقى النبات ولكن بالقدر الذى ينفع ولا يضر ٠

ولعل فى قصة اكتشاف البنسلين وفى وجوده عبرة أخرى ، على أن كل شىء فى هذا الكون يستفيد الانسان منه بشكل أو باخر الآن أو غدا ، وعلى كل فان الانسان كما يتمتع باللقمة التى يأكلها والثوب الذى يلبسه يتمتع بالمنظر الجميل ، وكما يتمتع بالمنظر الجميل ، يتمتع بلذة المعرفة ، ولئن لم يكن فى بعض المخلوقات الا أنها تدل على حكمة الله ورحمته وسعة عنايته بمخلوقاته ، ايجادا وامدادا ، احياء واماتة ورزقا لكفى ٠

ثم أليست عناصر هذا الكون : حديده ، ونحاسه ، وأوكسيجينه ، وآزوته ، وهيدروجينه ، وذهبه ، كلها مسخرة للانسان ؟ ! ثم الارض بساطة

ومأواه ومحل معاشه وقراره ؟ ! وفي القمر للانسان جذبه ونوره وجماله ومعرفتنا الوقت به ؟ ! وفي الشمس للانسان جذبها وحراراتها ونورها وطاقتها التي تبثها ؟! وفي النجوم الهادية الجميلة ؟! والمياه ودورتها ؟! والرياح ودورتها ؟ ! ثم كون هذا الانسان على ما هو عليه من علم وارادة وقدرة وحكمة وعقل بحيث عزف كل شيء ، وكيف يستفيد من الاشياء ، أليس في هذا كله الدليل الكامل على أن هذا الكون خلق مسخرا للانسان ، وأن الانسان خلق مسخرا لهذا الكون ؟ ! أو ليس في هذا الدليل الكامل على أن هناك ذاتا رتبت هذا للانسان وأوجدت الانسان له · ذلك الله رب العالمين ؟!

« واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد · وقال موسى : ان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا فان الله لغني حميد » (ابراهيم : ٧ ــ ٨) · **« وقليل من عبادي الشكور »** (سبأ : ١٣) ·

* * * * *

الظاهرة التاسعة

ظاهرة الوحدة

ان الدارس لهذا الكون ، يرى أن فيه وحدة ، تدل دلالة كاملة على ان ذاتا واحدة بعلم واحد وارادة واحدة وقدرة واحدة قد أوجدته ، ومظاهر هذه الوحدة كثيرة منها :

١ ـ التكامل فى أجزاء هذا الوجود الذى يدلنا بدقة على أن خالقا واحدا قد رتب أجزاءه هذا الترتيب الدقيق المتكامل ، يقول الاستاذ البنا ـ رحمه الله :

الملاحظة الاولى : (هذا الهواء الذى نستنشقه مركب من عدة عناصر منها جزءان هامان : جزء صالح لتنفس الانسان ويسمى باصطلاح الكيميائيين الاوكسيجين ، وجزء ضار به ويسمى الكربون ، فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود المعجز ، أن هذا الجزء الضار بالانسان يتنفسه النبات وهو نافع له ، ففى الوقت الذى يكون الانسان فيه يستنشق الاوكسيجين ويطرد الكربون، يكون النبات يعمل عكس هذه العملية فيستنشق الكربون ويطرد الاوكسيجين) أهـ •

(ويتمم عملية ايجاد التوازن بين الصادر والوارد من غاز الفحم البحر ، فانه يمتص كل زيادة موجودة فى الجو اذا بلغت هذه الزيادة فوق الحد المناسب) •

(فانظر الى الرابطة التعاونية التكاملية بين الانسان والنبات والبحر فى شىء هو أهم عناصر الحياة وهو التنفس) •

الملاحظة الثانية : (أنت تأكل الطعام وهو يتركب من عدة عناصر نباتية أو حيوانية ، يقسمها العلماء الى مواد زلالية ونشوية ودهنية مثلا ، فترى أن الريق يهضم بعض المواد النشوية ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الذوبان ، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره ، والصفراء المنفرزة من الكبد تهضم الدهنيات وتجزئها الى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها ، ثم يأتى البنكرياس بعد ذلك ، فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم فى عنصر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية ، والرابعة تحول اللبن الى جبن ، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشرى وعناصر النبات والحيوان والأغذية التى يتغذى بها الانسان) •

الملاحظة الثالثة : (ترى الزهرة فى النبات ، فترى لها أوراقا جميلة جذابة ، ملونة بألوان مبهجة ، فاذا سألت علماء النبات عن الحكمة فى ذلك أجابوك بأن هذا اغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التى تمتص رحيق الازهار ، لتسقط على الزهرة ، حتى اذا وقفت على عيدانها علقت حبوب اللقاح بأرجلها ، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر الى الزهرة الانثى فيتم التلقيح ، فانظر كيف جعلت هذه الاوراق الجميلة فى الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان ، حتى يستخدم النبات الحيوان فى عملية التلقيح الضرورية للاثمار والانتاج) ٠

هذا التكامل تجده فى كل شىء بين الليل والنهار ، السماء والارض ، الشمس والقمر ، الاعضاء المذكرة والاعضاء المؤنثة ، الانسان والحيوان والنبات ٠٠

ان فى هذا الكون وحدة مظهرها تكامل أجزائه تدل على أن لها خالقا وأنه واحد ٠ أما لم دلنا هذا على الوحدانية ؟ يجيب على هذا الاستاذ البنا فيقول : (ان التعدد مدعاة الفساد والخلاف والعلو ولا سيما وشأن الالوهية الكبرياء والعظمة ، وأيضا فلو استقل أحد المتعددين بالتصرف تعطلت صفات الآخرين ، ولو اشتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم ، وتعطيل صفات الالوهية يتنافى مع جلالها وعظمتها فلابد أن يكون الاله واحدا لا رب غيره) ٠

وقد ذكر القرآن دليل التكامل على الخالق ووحدانيته فى أكثر من سورة :

((قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ! ٠ أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أاله مع الله بل هم قوم يعدلون ! ٠ أمن جعل الارض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ! ٠ أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الارض ، أاله مع الله قليلا ما تذكرون ! ٠ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أاله مع الله ، تعالى الله عما يشركون ! ٠ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والارض ، أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)) (النمل : ٥٩ ــ ٦٤) ٠

((أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ٠ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ٠ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ٠ أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر

من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون • وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه • أنه لا اله الا أنا فاعبدون)) (الانبياء : ٢١ ــ ٢٥) •

((**قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله قل أفلا تذكرون • قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون لله قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون • سيقولون لله قل : فأنى تسحرون • بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون • ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون • عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**)) (المؤمنون : ٨٤ ــ ٩٢) •

((**قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا • سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا**)) (الاسراء : ٤٢ ــ ٤٣) •

٢ ــ ومن مظاهر هذه الوحدة فى الكون ، ذلك التناسق والترتيب الذى ذكره الله فى القرآن بقوله :

((**ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور • ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير**)) (الملك : ٣ــ٤) •

وهذه أمثلة من هذا الكون تدلك على هذه الوحدة الشاملة المتناسقة فيه :

(أ) ان الالكترون يدور على عكس عقارب الساعة ، والارض تدور على عكس عقارب الساعة ، والشمس تدور على عكس عقارب الساعة ، والكواكب السيارة تدور على عكس عقارب الساعة ، والقمر وكل الاقمار تدور على عكس عقارب الساعة ، والنجوم كلها تدور على عكس عقارب الساعة ، ومجموعتنا الكبرى التى تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسية تدور على عكس عقارب الساعة ، والالكترون يدور على مدار بيضوى اهليلجى والارض تدور حول الشمس على مدار بيضوى اهليلجى ، وكذلك الزهرة ونبتون والمشترى والكواكب السيارة • ومحور الارض مائل ، ومحور القمر مائل ، ومحور المريخ مائل •• ومحور الشمس مائل ، والعجيب أن النسبة بين النواة وألكتروناتها كالنسبة بين الشمس وكواكبها السيارة •

(ب) ان ذرات الوجود كلها تقوم على الزوجية ، كهرباء سالبة وكهرباء موجبة ، فاذا ارتقينا الى النبات وجدنا عنصر الزوجية ، فالى الحيوان كذلك ، فالى الانسان كذلك : ((**سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**)) (ياسين : ٣٦) • وفى الارض نفس العناصر التى تؤلف الشمس ، ونفس العناصر التى تؤلف كل الكواكب ،

والكون بكل عناصره مؤلف من بروتونات والكترونات كعناصر أساسية ، ونيوترونات كشحنات كهربائية معتدلة تكون فى نواة بعض العناصر •

(جـ) فى هذا الكون قوة ومنابع قدرة ، وتحكمه قوانين ، وانك لتجد أدق معانى التناسق والوحدة بين هذه القوى والقوانين ، وكمثال :

من منابع القوة والقدرة فى هذا الكون : الضوء ، والحرارة ، والاشعة السينية ، والاشعة اللاسلكية ، والاشعة البنفسجية ، وتحت الحمراء ، هذه القوى كلها ترجع الى شىء واحد هو تلك القوة الكهربائية المغناطيسية ولها جميعا سرعة واحدة ، وانما اختلافها اختلاف موجة •

ومن قوانين هذا الكون ، قانون الجاذبية الذى يحكم الوجود كله من أصغر ذراته الى أكبر أجرامه ، والذى نصه : (كل شىء له كتلة يجذب كل شىء آخر له كتلة • وقوة التجاذب التى بينهما تزداد ازديادا طرديا بزيادة أى الكتلتين • فالقوة تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع البعد بينهما) •

والآن عرفنا أن هناك قوتين أو نوعين من القوة : القوة المغناطيسية الكهربائية ، وقوى الجاذبية وكلها ترجع الى أصل واحد •

يقول أينيشتاين : (ان روح العالم النظرى لا تحتمل أن يكون فى الوجود شكلان للقوى لا يلتقيان : شكل للجاذبية القياسية ، وشكل للمغناطيسية الكهربائية) •

(د) وهاتان قصتان تدلان على التناسق أولا ، وفى التشابه بينهما دليل على الوحدة الكونية :

الاولى : ان اختلاف العناصر الاصلية فى هذا الكون ، أثر عن اختلاف عدد ألكترناتها وبروتوناتها ، والوزن الذرى أثر من آثار هذا العدد ، وخواص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد ، وقد استطاع العام الروسى « مندليف » أن يصنف العناصر بحسب وزنها الذرى ووضع لها جدولا على هذا الاساس ، وكان ترتيب العناصر فى هذا الجدول متدرجا حسب قانون دورى تخضع له العناصر ، بحيث تشكل سلما متدرجا صاعدا ، ولكن مندليف فوجىء بفراغ كالفراغ الذى سنذكره بين المريخ والمشترى •

اذ أنه وجد أن درجات السلم الدورى للعناصر تطرد بتتابع لا فراغ فيه ، الا فى ثلاثة عناصر ، فاما أن يكون هذا القانون الدورى غير مطرد وغير صحيح ، واما أن يكون صحيحا ومطردا ، فلابد حينئذ من وجود هذه العناصر

المفقودة فى نفس تلك الدرجات الفارغة ، وكان مندليف واثقا من صحة قانونة الدورى ، فأخذ يؤكد أن هذه العناصر الثلاثة المفقودة لابد من وجودها على الارض ، بل انه استطاع على أساس وزنها الذرى الذى يأتى فى الدرجات الفارغة أن يحدد كل الخواص الكيماوية التى لها كأنه يراها ، وقد رأى « مندليف » قبل موته صحة نظريته العلمية ، واكتشف العلماء العناصر المفقودة بكل خصائصها كما حددها مندليف •

الثانية : أقرب الكواكب الى الشمس عطارد وبعده ٣٦ مليون ميل ، فالزهرة ومتوسط بعدها ٦٧ مليونا ، فالارض ٩٣ مليونا ، فالمريخ ١٤٢ مليونا ، فالمشترى ٤٨٤ مليونا ، فزحل ٨٨٧ مليونا ، فأورانوس ١٧٨٢ مليونا ، فنبتون ٢٧٩٢ مليونا من الاميال ، ويهمنا أن نعرف النسبة فى هذه الاعداد • ان أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (٩) منازل : أولها الصفر ، ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد ٣ ، ثم تتدرج مضاعفة هكذا (٣ ــ ٦ ــ ١٢ ــ ٢٤ ــ ٤٨ ــ ٩٦ ــ ١٩٢ ــ ٣٨٤) • فاذا أضيف الى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة التى فى منزلة العدد عن الشمس ، أى أنه باضافة (٤) الى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤ ــ ٧ ــ ١٠ ــ ١٦ ــ ٢٨ ــ ٥٢ ــ١٠٠ــ ١٩٦ ــ ٣٨٨) • فاذا أخذنا أعداد المنازل هذه ، وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين ، يظهر لنا بعد السيارة التى هى فى منزلة ذلك العدد عن الشمس ، فعطارد مثلا يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، وبما أن منزلته فى البعد هى الاولى فيكون رقمه ٤ ، فاذا ضربنا ٤ فى ٩ يكون حاصل الضرب ٣٦ مليون ميل ، وهكذا تسير النسبة فى بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة •

ولكنهم وجدوا أن منزلة العدد ٢٨ ليس فيها كواكب ، بل يأتى بعد العدد ١٦ الذى صاحبه المريخ ، العدد ٥٢ الذى صاحبه المشترى ، فما هو السر فى هذا الفراغ ؟ اما أن تكون النسبة التى اكتشفوها غير مطردة ، واما أن يكون هناك كوكب غير منظور فى مرتبة العدد ٢٨ على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، أى بين المريخ والمشترى وأخيرا وجدوا هذا الشىء الذى لابد من وجوده ، ولكنهم لم يجدوه كوكبا كبيرا ، بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها فى الفراغ المذكور الذى بين المريخ والمشترى ، أى فى نفس المنزلة التى حسبوها من قبل فارغة ، فكأنه كوكب تحطم •

هاتان قصتان متشابهتان فى قضيتين مختلفتين ، كل واحدة منهما تتمم الاخرى لتكملا عندك الشعور ، بأن يدا واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصره وجزئياته وكلياته •

(هـ) وللنجوم قصة :

فقد عرف الانسان شيئا من مواقع النجوم ، وعرف أن لهـا أقدارا ثابتة بحسب نورها وعددها • عدوا منها فى الماضى البعيد ستة أقدار ووقفوا ، ثم مازالوا يكتشفون الجديد ، حتى وصلوا الى القدر العشرين ، ثم الى القدر الحادى والعشرين ، والعجيب فى هذه الاقدار أنها تسير مترقية أو متدنيـــة ــ بحسب عدد النجوم تارة ، وبحسب قوة نورها أخرى ــ فى نسب مدهشة تطرد فى عدد النجوم ، فتزداد تباعا من قدر الى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الاول ١٤ نجما ، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ فى القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ فى القدر الحادى والعشرين مليارى نجم ، أما فى قوة النور فقد شوهد أن تلك الاقدار تزداد باطراد من القدر الاول الى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد النجوم فى القدر زادت قوة النور ، وأما بعد العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور فى التضاؤل •

(و) ومن مظاهر هذه الوحدة فى هذا الكون اتصال أفق النبات بأفق الحيوان ، واتصال أفق الحيوان بأفق الانسان ، فترى فى عالم النبات تدرجا من أدنى الى أعلى مع التشابه ، ونجد أعلى آفاق النبات متصلا بأدنى آفاق الحيوان ، وأعلى آفاق الحيوان متصلا ــ نوع اتصال ــ بأفق الانسان ، حتى حسب الحاسبون أن هناك بذرة أولى كان منها تطور وارتقى حتى أصبحت الاحياء على ما هى عليه • وقد ناقشنا هذه النظرية وبينا بطلانها فى ظاهرة الحياة ، ولكن القول بها دليـــل على ما بيناه من أن فى أحياء هـــذا الكون وترقياتها وحدة تدل على وحدة الصانع الذى خلقها أجناسا وأنواعا ، وجعل بعضها أرقى من بعض : ((**وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم**)) (الانعام : ٣٨) •

(ز) ومن مظاهر الوحدة فى هذا الكون أن المادة كلها من نور ، اذ أن عناصر المادة كلها تؤول الى ذرات وكهارب ، وأن هذه الذرات والكهارب تنشق فتؤول الى شعاع •

(ح) ومن مظاهر الوحدة أنك تجد أن أجنة الحيوان والانسان فى الشهور الاولى من الحمل متشابهة تشابها تاما ، فاذا بهذا التشابه يخرج منه ذلك الخلق المختلف •

• • • • •

وهذه المظاهر كلها تدل على التنسيق والترتيب ، فاذا أضفنا اليها ظاهرة

التكامل ، وجدنا ــ لا شك ــ أن ذاتا واحدة ، بعلم واحد ، بارادة واحـدة ، بقدرة واحدة ، هى صانعة هذا كله ٠

أما لم نسبنا هذا الوجود والوحدة فيه الى خالق ؟ ولم حكمنا أن هذا الخالق واحد ؟ فهذا ما سيأتيك الجواب عنه فى الفصول الثلاثة التاليـة بالتفصيل :

١ ــ السببية

٢ ــ الطبيعة

٣ ــ التوحيـد

وهذه الفصول الثلاثة منقولة من كتاب « الوجود الحق » للدكتور حسن هـويدى ٠

السببية

منذ امتياز هذا الانسان بالادراك واشراق أشعة عقله على الوجود ، تساءل ـ ولا يزال ـ عن مبدئه ومنتهاه ، فهو يتساءل من أين أتى والى أين يصير ؟ وهو اذ ينصرف فكره الى أن وروده المباشر الى هذا العالم ، انما كان من رحم أمه ، أو من نطفة أبيه ، لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة ، دون النظر الى المبدأ الاول ، والبحث عن السبب الاساسى الذى ترجع اليه جميع الاسباب ٠

ولهذا الدافع العميق الممتزج بالنفس البشرية ، والذى ولد معها ، ومازال يلازمها ، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل ، فنشأت أحكام مختلفة ، ونظريات متباينة ، وكان منهم مخطىء ومصيب ٠ غير أننا اذا نظرنا الى ما بين أيدينا من السماء والارض ، نرى أن المطر ينهمر من سحاب ، وأن الثمر يحصل من شجر ، وأن الشجر ينبت من الماء والتراب ، وأن الماء ينشأ من عنصرى (الاوكسجين والهيدروجين) ولم يشاهد الانسان منذ فتح عينيه على الوجود أن حادثا حدث من غير سبب ، أو أن شيئا وجد من غير موجد ، حتى أضحى هذا المعنى ـ بحكم الواقع القاهر ـ لا يتصور العقل خلافه ولا يطمئن الى غيره ، ولا يأبى الاقرار به الا عقل مريض شأن المعتوهين ، أو عقل قاصر شأن الطفل الذى يكسر الاناء ثم يقول : انه انكسر بنفسه ، ولذلك وجدنا ذلك العربى قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية ، فنادى نداءه المشهور : (البعرة تدل على البعير ، والاثر يدل على المسير ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا تدل على الصانع الخبير) ٠

لهذا الواقع الصريح ، والادراك القاهر ، وجريان الحوادث أبدا على هذا القانون ، أضحى هذا المبدأ مسلما به فى كتب الفلسفة ، وسمى بـ (مبدأ السببية) وهو أول مبادىء العقل المديرة للمعرفة ، لانه أساس الاحكام العقلية والمحاكمات المنطقية ، ولو التفت الى كلماتك التى تخاطب بها الناس صباح مساء ، والاحكام التى تنظم بها شؤون حياتك ، لوجدتها لا تخلو فى أى مرحلة من المراحل من الاستناد الى مبدأ السببية ٠

اذا ، فقولنا : (لابد لكل حادث من محدث) أمر يقينى مسلم به ولا يقبل العقل غيره ، وبالتالى محال على حادث أن يحدث بذاته ، وعلى شىء أن يوجد بغير موجد ، واليه الاشارة فى القرآن الكريم **((أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون))** (الطور : ٣٥) ٠ نقول بناء على هذه القاعدة : ان عالمنا هذا من

أرض وجبال ، وشجر ودواب ، وكواكب وشموس ، لابد له من محدث ، وان هذه الحوادث الفرعية الكثيرة ، مندفعة عن أسباب ، وهذه الاسباب مندفعة عن أسباب أخرى أقل من الاولى ، ولابد أن نصل بالنتيجة ، الى سبب لجميع هذه المسببات ، ومحدث لجميع هذه الحادثات ، لاننا كلما رجعنا الى الاصل الذى اندفعت عنه المسببات ، قلت العوامل الدافعة ، حتى نصل أخيرا الى مسبب واحد • كنظرك الى أغصان الشجرة المتعددة المتشابكة ، فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها ، ذهبت الى قليل من كثير ، حتى تنتهى الى ساق واحدة ، وانك تجد لهذه أمثلة كثيرة ، هى من الظهور بمكان لا تحتاج معه الى الوقوف الطويل وضرب الامثال •

اذا ، فانكار محدث للحوادث ، وموجد للوجود ، تناقض مع العقل ، واقامة على الخطأ ، ولعله لهذا الالزام المنطقى الذى لا مناص منه ، سماه « ابن سينا » ، بالواجب الوجود ، حفاظا على حرمة العقل من أن يوصم بالتخليط والتناقض ، أو البلاهة والتبلد ، اذ يستحيل أن ينبثق الوجود من العدم •

هذا وان قدم المبدأ ، أو قول كثيرين به ، أو ظهوره بمظهر البديهية لا يقضى عليه ، ولا يخرجه من الحق الى الباطل ، مادام العقل يمليه ، والواقع يؤيده ، الا اذا كان الداعى الى الانكار ، استكبارا على كل قديم ، أو عقوقا للمنطق السليم ، أو جريا مع كل هوى سقيم ، شأن الحمقى والمرضى والمغرورين •

وقد يقول قائل : ان هذا المحدث لجميع الحوادث هو الطبيعة ، وسيأتى الكلام على الطبيعة ، أو يقول : اذا أقررنا بوجود الخالق ، فمن الذى أوجد الخالق ؟ وسيأتى تفصيل ذلك(١) •

والذى نريد أن نخلص اليه الآن واضحا مجزوما به : لابد لكل حادث من محدث ، اذن فلابد لهذا العالم من خالق •

هنا قد يثير بعض النقاد قضية قدم العالم وحدوثه ، فيقول : ان هذه القاعدة تستقيم اذا سلمنا بحدوث العالم ولم نقل بقدمه •

ونقول : ان البرهان ملزم بالقول بحدوث العالم ونفى قدمه ، فقد قال الامام الغزالى ، بناء على ملاحظة الحركة والسكون : ان دورة من الفلك : اما أن

---

(١) مر معنا تفصيل هذا فى الظاهرة الاولى ، ولذلك لم ننقل كلام الاستاذ فيه •

تكون شفعا أو وترا ، فان كانت شفعا فقد أتمت عددا فرديا ، وان كانت وترا فقــد أتمت عددا زوجيا ، اذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود ، ولمـا كان محدودا فهو حادث قطعا ، ولو استمر الناقد فقال : ان أصل العالم (هيولاه) قديم ، والحركة طارئة ، قلنا له : من أين طرأت الحركة به ، فهو اذن اقرار منه صريح بوجود مرجح آخر أثر على العالم بايجاد الحركة ، بل هو استعجال فاصل للاقرار بوجود خالق للعالم • فالناقد بين أمرين : اما أن يرجع الى قولنا بالحدوث فيعترف بالخالق ، أو أن يقر بوجود المرجح وهو اعتراف بالخالق ، اذن ، فنقد الناقد واه لم يصل الى القرارة ولم يثبت للنقد ، والقول بقدم العالم باطل لا يسنده برهان(١) ، وهكذا تنهار (المادية الجدلية) التى تقول بقدم العالم ، هربا من الاقرار بوجود خالق للعالم ، وتفلتا من البرهان الملزم ، والدليل القطعى •

وقد تستغرب قولى بانهيارها بهذه السرعة ، ولكنى أقول : ان عقـدا من النظام لو بلغ ألف حبة لانفرط كله بحل العقدة الاولى • وان لم ترد ذلك ، فاحذف من المادية الجدلية كل ما بنى على أساس (قدم العالم) من الاحكام ، فأول حكم تهدمه من أحكامها الاساسية الحادها فى الخالق ، وعند القول بخالق الوجود ، تنشأ أحكام أخرى تهدم أحكامها الفرعية كما سترى ، دون أن يكون البحث موجها الى الفروع خاصة ، ولكن بروز الحقيقة فى الاصل يهدم بصورة عفوية كل باطل فرعى •

• • • • •

---

(١) بل القول بالحدوث هو الذى تسنده عامة البراهين كما رأينا فى الظاهرة الاولى •

الطبيعة

بعد ما تبين لك ، بما لا يقبل الشك ، وجود الخالق الاول ، وأنه الكامل المطلق ، وأن السؤال عن خالق الكمال المطلق لا يصح ، وتبددت أمامك تلك الشبهات ، بقيت شبهة من شبهات العصر ، وضلالة أخرى من ضلالاته ، وهي ـ كما سيظهر لك ـ مصطنعة كما تصطنع الاصنام ، مخيمة على الاحلام كما تخيم الاوهام ، ولكنها بكل أسف ، مع اصطناعها هذا ، وعدم استنادها الى أساس ، نجدها مسيطرة على عقول كثير ممن يدعون الثقافة والمعرفة ، وقد انطلت عليهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص • تلك الشبهة هي الطبيعة ، اله العصر المزعوم •

حينما تبادر أحد الطبيعيين بالقول :

من خلق السموات والارض ؟ يقول لك : الطبيعة •

من خلق النبات والحيوان ؟ يقول لك الطبيعة •

من خلق الانسان ؟ يقول لك : الطبيعة •

من يدبر جميع هذه الامور الفلكية ، والحيوية ، والغريزية ، وكل بحساب دقيق ونظام لا يحيد ، فسيقول لك : الطبيعة •

وهو يتذرع لك بهذا السبب لانه لا يستطيع أن يقول لك : انها تحدث بذاتها ، أو من تلقاء نفسها ، وينكر قانون السببية ، فهو أصاب حين أقر بالسببية وأخطأ حين جهل المسبب ، وليس شأننا حين البحث في هذا الامر أن نكتفي بالتسفيه والتشنيع ، ولكننا نناقش الامر من جميع الوجوه ، فما كان من حق أقررناه ، وما كان من باطل فندناه ، والعاقل الذى يصيخ الى المنطق ، والجاهل الذى يتبع هواه ، ويقيم على الباطل ولو تبين له الحق •

فما هي الطبيعة ؟ ومن هي مفاهيمها ؟ وما هي حقيقة تأثيرها ؟

الطبيعة في اللغة : السجية والخلق • غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس ـ حسب تفاوتهم ـ مفهومين :

المفهوم الاول : انها عبارة عن الاشياء بذاتها ، فالجماد والنبات والحيوان ، كل هذه الكائنات هي الطبيعة • وهو مفهوم غير دقيق ، وحكم غير سديد كما سيتبين لك •

المفهوم الثانى : انها عبارة عن صفات الاشياء وخصائصها ، فهذه الصفات من حرارة وبرودة ، ورطوبة ويبوسة ، وملاسة وخشونة ، وهذه القابليات من حركة وسكون ، ونمو واغتذاء ، وتزاوج وتوالد ، كل هذه الصفات والقابليات هى : الطبيعة ٠

وسواء أكان القول الاول أو القول الثانى هو المعبر عن الطبيعة بحق ، فما نصيب هذا القول من الحق ؟

أما القول الاول : فلا يخرج بالطبيعة ــ بالنسبة لخلق الوجود ــ عن تفسير الماء بالماء ، فالارض خلقت الارض ، والسماء خلقت السماء ، والاصناف صنفت نفسها ، والاشياء أوجدت ذاتها ، فهى الحادث والمحدث ، وهى المخلوق والخالق فى الوقت ذاته ، وبطلان هذا القول بين ، فهو ادعاء بأن الشىء وجد بذاته عن غير سبب ــ وقد تبين لك فساده بقانون السببية ــ واما ادماج الخالق والمخلوق فى كائن واحد ، فالسبب عين المسبب وهو مستحيل ، بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج الى الوقوف والشرح ٠

وأما القول الثانى : وهو الاعتماد على قابليات الاشياء وخصائصها فى التكوين ، فنقول فيه : الحقيقة ان الذين يعزون الخلق الى تلك القابليات والخصائص ، لا يعدون عن كونهم وصافين لتلك الظواهر ، لا يعرفون كنهها ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها ، ولو فعلوا ذلك لوجدوا أن القابلية التى اعتمدوا عليها فى خلق الشىء سراب خادع يحسبه الظمان ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ولايضاح ذلك بالطريق العلمى نضرب المثال التالى :

نضع حبة فى التراب ، ونسقيها بالماء فتنتفخ ، وتنفلق ، فيظهر منها الرشيم ، ويندفع منه الجذر الى الاسفل ، والساق الى الاعلى ، وتنشأ الاوراق فالازهار فالثمار ، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلا ٠

فالقابلية التى كانت فى الحبة هى الانتفاخ ، والانفلاق ، وظهور الرشيم ٠٠ ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظواهر الحيوية ، ولما نشأت عنها الثمرة ٠ فلنأت الى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها : لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شىء ٠ فمن الذى نفخها وفلقها ؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا : ان عقلها هو الذى هيأ لها ذلك ، ولو أن الماء هو الذى نفخها وفلقها ، لامكن للماء أن ينفخ فى الحديد ويفلقه ، اذن فلابد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر ، واذا كانت الحبة بذاتها ــ جدلا ــ انتفخت وانفلقت ، فلماذا لم تجمد وتضمر بدلا من أن تنتفخ وتنمو ؟ ولكى يحصل التكاثر والبقاء ، يحتاج الامر الى عقل وادراك ، ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة ، والبذرة لا تملك شيئا

من ذلك ! فكيف حصلت اذن ثمرة بعينها ، بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة ، وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة فى صميم كل بذرة منها ؟

والحقيقة أن من أنعم النظر فى تعبير الطبيعيين المستندين الى القابلية : **طبع** النبات على ذلك ، **انتفخت** الحبة ، **وانفلقت** ، وتوالدت الخلايا ، **تميل الخلية** الحية الى الانقسام ، يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهول لجهل الفاعل الحقيقى ، فكأن الطبيعى أغمض العين عن السبب الحقيقى ، وبنى الفعل للمجهول تخلصا • فمن الذى نفخ الحبة ؟ ومن الذى فلقها ؟ ومن الذى أدى الى التوالد ؟ ومن الذى جبل الخلية على الانقسام ؟ كل هذا التحقيق لا تصل اليه نظرة الطبيعيين القصيرة بل المقتصرة على وصف الظواهر ، دون الذهاب الى أسبابها ، بل المخطئة فى جعل الصفة المنفعلة سببا فاعلا ، والقابلية مؤثرا ، والظاهرة المجهولة عاملا مكونا ، فالانتفاخ صفة ، نشأت عن المؤثر الخارج عن الشىء ، وعن قبول أثره فى ذلك الشىء ، والانفلاق صفة ، والامتداد صفة ••

وما زاد الطبيعى على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوما مركبا ، سماه (قابلية التوالد والنمو) • فجعل من القابلية التى هى عرض من أعراض الشىء سببا فى الخلق ، ومن الصفة الانفعالية التى لا تعى ولا تدرك ، سببا فاعلا واعيا فى تكوين الاشياء ! اذن فمن الذى ركز الطبيعة فى العناصر ؟ ومن الذى نوع تلك الطبائع ؟ ان بذرة الاجاص ، وبذرة المشمش ، حين توضعان فى التراب تنتج كل واحدة منهما ثمرا يختلف عن الآخر ، بلونه ، وطعمه ، ورائحته ، مع أنه يسقى بماء واحد ، ومع اتفاقنا على أنه ليس للبذرة عقل ، ولا لجذر الشجرة ادراك ، فكيف كان الجذر يمتص الماء ، ويصطفى ذرات بعينها ، وينضج النسغ ويسوقه الى الثمر ، ويكون العصارة ، وينشىء الحلاوة ؟! كل ذلك يجعلنا نسأل عن السبب ، ولا نقف عند المجهول ، ولا نكتفى بوصف الظواهر ، بل لا نصف هذه الظواهر خطأ بأنها أسباب الخلق الحقيقية • ونحن نعلم أن القابلية ليست الا صفة من صفات الشىء ، فكيف تخلقه ؟ وأن الحبة بالنسبة للنبات جماد لا يعقل ، فكيف تنوعه ؟ واذا لاحظت أننا مجبرون بحكم هذه النظرة الى طبائع الاشياء ، أن نسأل عن حقيقة تلك الطبيعة ، وعمن طبع الاشياء عليها ، وكيف تؤثر ؟ وهل تبدع أم تصنف وتركب ، وهل هى فاعلة بذاتها ، أم منفعلة لغيرها ؟ أدركت أن الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد الى مجاهيل كثيرة ، ومن الاصل الحاسم الى الفروع التى لا تحسم الامر ، فبينما كنا نسأل عن خالق الحبة وفالق النوى ، انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهلة الى صفات انفعالية ليس لها من القدرة على الخلق نصيب ، ولولا قصر النظر عند الطبيعيين على هذه الاسباب الغريبة المحيرة دون مبرر ، لوجدنا الجواب شافيا منطقيا منسجما مع ما تقدم من التحقيق العلمى فى الآية الكريمة التالية :

« ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله ربكم فأنى تؤفكون » (الانعام : ٩٥) • وبذلك ترجع الاسباب كلها الى الخالق الاول وتعرف المجاهيل ، ويحسم الامر •

ولكى نزيد الامر وضوحا ، نضرب لذلك مثلا • محرك السيارة ، فان تحرك أجزاء المحرك ، واحتراق البنزين ، والقوة الدافعة فى محصول الانفجار ، كل تلك الخصائص قابليات وطبائع ، فهل تجد أن قابلية الاحتراق ، وخاصية الانفجار ، وقوانين الميكانيك ، هى التى خلقت المحرك وأبدعت السيارة ؟ لاشك أن القابلية غير ذات الشىء ، وأنها ان كانت سببا فى اندفاع الظواهر ، وبروز المظاهر ، فهو فى حدود التركيب والتصنيف ، لا فى حدود الخلق والابداع ، وهى فى المراحل الاخيرة ، لا فى المرحلة الاولى من خلق الوجود • ولذلك اذا أراد الطبيعى الخروج من هذا المأزق ، وأقر معنا من أن هذه الطبائع أسباب فرعية فى مجال التكاثر والتنويع ، ولا تعدو فى حقيقتها نوعية تساند الاسباب التى تكلمنا عنها فى مبدأ السببية • قلنا له : رجعت اذن الى الاصل الذى بحثنا عنه من قبل وأثبتناه ، ولم تستطع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعها ما يصح أن يكون سببا لاخراج الوجود من العدم •

واذا أردت أن تعرف العلة النفسية فى تكوين هذا الاله الزائف (الطبيعة) ، لدى بعض الناس ، وجدتها فى السلسلة التالية :

عاين الانسان صفة الشىء ، فأضاف الصفات بعضها الى بعض ، وكون من مجموع الصفات مفهوما ، وسمى المفهوم قابلية أو طبيعة ، ومالت النفس الى الراحة والاختصار • فجعلت من تلك الطبيعة فى خيالها ذاتا مستقلة فعالة ، وجمد الخيال البشرى على ذلك ، وتوهم صاحبه أنه وجد اله الوجود ، فأقبل عليه طائعا ، وأسلم له خاضعا ، من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن ، يصنعه ، ثم يتخيل أن له النفع والضر ، ثم يعبده !

وما أشد التشابه بين من كان يعبد الاصنام من قبل ويجادل عنها ، ومن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها ، فالعلة النفسية واحدة ، ونوعية الخطأ واحدة ، ألا وهى الاصطناع فى أول الامر ، وتوهم الاستقلال والتأثير فى آخره ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الخدعة فى آيات كريمة ، منها :

« ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله : أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (يوسف : ٤٠) •

((قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين • قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلونني فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما نزل الله بها من سلطان ، فانتظروا انى معكم من المنتظرين)) (الاعراف : ٧٠ ــ ٧١) •

فانظر من أى ناحية ضل البشر من قبل ، ومن أى ناحية يضلون اليوم ، والقضية ليست الا أسماء يسمونها فى البداية ، ثم يجادلون عنها كحقيقة واقعة في النهاية •

وخلاصة القول فى الطبيعة : أنها اما قول بان الاشياء حدثت ذاتها ، وهو قول ساقط من كل اعتبار •

واما قول بأن الصفات تخلق الذات ، وهو أشد تداعيا وسقوطا من القول الاول ، لانه اذا عجزت ذات الشىء عن خلقه ، فكيف تستطيعه الصفات ؟

واما اعتبار للقابلية على أنها سبب متأخر كبقية الاسباب ، فتفتقر الى السبب الاول وهو الذى به نقول •

اذن ففى الاحوال الثلاثة لابد من الرجوع الى الخالق الاول ، وتأتى الطبيعة متأخرة منفعلة له مفتقرة اليه •

وهكذا تجد أن الطبيعة ــ اله العصر المزعوم ــ لم تثبت أمام النقد المنطقى والشرح العلمى ، وليست بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابلياتها وقوانينها التى تجرى عليها ، وأن طبائع الاشياء لا تخلقها ، ومن كان يبحث عن ذات مستقلة لها ، مبدعة فعالة ، خارجة عن نطاق الاشياء ، كان لا شك باحثا عن عنقاء المغرب •

• • • • •

التوحيد

اذا كان سراب الطبيعة قد تبدد أمام ناظريك ، وأصبح أفق معرفة الخالق الاول واضحا لديك ، أمكنك أن تستكمل معرفتك هذه بالتعرف الى صفاته التى يلزمك بها البحث ، مستندا الى الحقائق المتقدمة ، وصفاته التى نستنتج من ذلك فنقول :

هو الاول : ليس قبله شيء ، لان القول بشيء قبله يجعل له حدودا ، والحدود من صفات الحوادث ، وقد فندنا ذلك من قبل •

وهو الآخر : وليس بعده شيء ، للمحذور نفسه ، فهو اذن (الازلى الابدى) •

وهو الحى : الحياة المطلقة ، لانه الواهب الحياة للاحياء ، ولا يصح الا أن تكون مطلقة ، لان النسبية من صفات الحوادث •

وهو السميع العليم ، البصير القدير ، لان هذه الصفات لوازم صفة الحياة ، ولما كان الاطلاق صفة لحياته ، كان الاطلاق ملازما لجميع الصفات الاخرى . بحيث لا يعجز السمع أو البصر أو العلم أو القدرة معجز •

وهو الواحد : الذى لا شريك له فى الملك ، ولما لهذه الصفة من أهمية عظيمة ، وخطورة بالغة ، نخصها بالتفصيل التالى :

لعلك أدركت من تسلسل البحث ، ومن ذكر الصفات المتقدمة ، ومن الجزم بكمال الله المطلق ، أن التوحيد حاصل ولا يحتاج الى برهان ، بل ان التعدد هو الذى يفتقر الى الدليل ، ولكننا على الرغم من ذلك ، نعرض لامر التوحيد بالتفصيل لعلاقته الصميمية بواقع الحياة •

القول بالتعدد يمكننا أن نختصره **بالتثنية** ، فان ثبتت التثنية ، صح التعدد من غير حصر ، وان بطلت بطل التعدد أصلا ، ولزم التوحيد •

فالقول بالتثنية يلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنين ، لان التساوى التام من جميع الوجوه باطل ، ولا يصح بالتصور الا اذا انطبق الاول على الثانى تمام الانطباق ، فيبقى فى النتيجة كائن واحد ، ولما انعدمت الصفة المميزة انعدم التمييز • فان قال مكابر : بامكان التمييز بين اثنين حال التساوى التام ، قلنا له : أقمت الحجة على نفسك حينما ميزت ، وما ميزت الا بادراك

صفة مميزة · ووجود صفة مميزة يبطل التساوى التام ، واذا بطل التساوى التام ، حصل التفاضل بين الاثنين فسقط المفضول **وبقى واحد** ·

والقول بالتثنية ، من الوجهة الرياضية يفيد وجود اطلاقين ، وذلك محال، لان وجود أحدهما ينافى اطلاق الآخر ، فهو اما أن يدخل فى اطلاق الاول ، فلا يبقى **الا الأول** · واما أن يخرج عن نطاق الاول ، فيسقط اطلاق الاول المفترض ، ويبقى **الثانى** ، أى أن الاطلاق محيط ، ولا يحاط به ، والنتيجة ، انه لم يبق **اطلاق واحد** ·

وهذا كما أنه دليل على التوحيد ، فهو دليل على حدوث العالم ونفى قدمه، لان القول بقدمه يفيد وجود اطلاقين ، وذلك محال كما رأيت · ومن هنا نفهم المعنى العميق للاية الكريمة ((**ألا له الخلق والامر**)) (الاعراف : ٥٤) أى أنه ليس تصريف الكون وحده حادثا فحسب ، بل الكون كله : خلقا ، وتصريفا مقهور للخالق ، فهو حادث بمادته ومعناه ·

واذا أردنا أن نجلى معنى هذا البرهان بالنسبة للتوحيد والتعدد ، قلنا : حين وجود اثنين يترتب على أحدهما أن يحيط بالثانى قدرة وعلما ، فان عجز عن ذلك ، فهو ليس باله ، **وبقى واحد** · وان قدر على ذلك ، سقطت ألوهية الثانى **وبقى واحد** · وبعض الفلاسفة يسمى هذا بـ : برهان التمانع ، فيقولون لو كان هناك الهان ، يريد أحدهما قيام زيد فى آن ، ويريد الآخر قعوده فى ذلك الآن ، فمجال نفوذ الارادتين ، لاستحالة المراد ، وجمع الاضداد ، فان غلبت ارادة أحدهما على الآخر ، فهذا الآخر عاجز **مقهور** ، فهو ليس باله ، **وبقى واحد** ·

وقد أورد ذلك ابن جرير الطبرى ، قال : (لم يخل كل واحد من الاثنين ·· من أن يكونا : قويين ، أو عاجزين · فان كانا عاجزين ، فالعاجز مقهور ، وغير كائن الها ، وان كانا قويين ، فان كل واحد منهما يعجزه عن صاحبه عاجز ، والعاجز لا يكون الها · فان كان كل واحد منهما قويا على صاحبه · فهو بقوة صاحبه عليه عاجز) ·

اذن لم يبق الا الواحد المطلق الذى لا يعجزه شىء فى الارض ولا فى السماء، وما قال من قال بالتعدد الا عن عقلية ابتدائية ، وفكرة وثنية ، وتصور خيالى مصطنع ، بعيد عن التحقيق ، مصادم للعقل ·

ولم يبق فى الدنيا من يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعدد · بل ان التحقيق لا يرشد الا الى التوحيد ، بريئا من صفات الحوادث ، كالالصاق والتفريع والولادة · فكما أن التعدد باطل ، فطرووه من بعد أشد بطلانا وأقبح ، وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره كالتثنية والتثليث وغيرهما ، على الرغم من اقامة

كثير من البشر اليوم على هذه العقيدة الفاسدة بكل أسف ، ولو رجعوا قليلاً الى العقل والمنطق لانهدمت أمامهم هياكل الوثنية وأساطير التعدد لقوة البرهان، وصراحة الحجة ، وثورة العقل على هذا التناقض المشين ، فليت شعرى ، متى يثور مفكرو العالم الاحرار وعقلاؤه المتجردون على هذه الوثنية النكراء ، فيمزقوا غشاء العنكبوت ، ويقودوا العالم الى التوحيد ؟!

والقرآن الكريم هو الذى حمل لواء التوحيد للناس ، ونص على ما تقدم من تفنيد التعدد وبطلانه ، وتأكيد التوحيد وثبوته ، فى آيات كثيرة حملت أنصع بيان وأقوى برهان ، منها :

((لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون)) (الانبياء : ٢٢) • **((ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون • عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون))** (المؤمنون : ٩١-٩٢) • **((هو الاول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم))** (الحديد : ٣) **((ألا انهم فى مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شىء محيط))** (فصلت : ٥٤) **((قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد))** •

وهكذا تثبت حقيقة التوحيد للخالق القديم بما لا يدع مجالا للريب والتردد •

والاحرى بالعالم المحقق ، أن يدعو الناس الى ذلك • ويفند لديهم نحلة التعدد ، ويفضح زيفها وبطلانها ، لكى يخرجوا من الظلمات الى النور ، ومن التناقض المشين الى الانسجام المنطقى المبين • وبذلك تخرج النفس البشرية مما تعانيه من الحيرة والتردد ، والكبت والقلق ، والجنوح بالنتيجة الى السبل الشاذة ، والمناهج السخيفة ، المضحكة المبكية ، والتى يثبت التحليل النفسى أنها ليست الا صورة حسية تعبر عن افلاس البشر فى التماس طريق الحق •

واستكمالا لكل جوانب الاقناع فى هذه المسألة ــ مسألة الطبيعة ، والسببية ، والتوحيد ــ ننقل هذه الرسالة الجيدة لبديع الزمان سعيد النورسى رحمه الله :

((قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السموات والارض)) (ابراهيم : ١٠)
تأمل فى هذه الآية وما فيها من الاستفهام الانكارى ، انها تدل على أن الحكم بوجود الله ووحدانيته ، من أوضح البدائه لكل من أبصر بعينه مرة هذه السموات والارض ، غير أنه بالرغم من ذلك ، فان فيما يلفظ به بعض المسلمين اليوم كلمات ، أقل ما فيها أنها تؤمىء الى الكفر بهذه الحقيقة الكبرى •

وسأتناول منها بالبحث ثلاث كلمات لا يرددها فى الغالب الا أحمق ذاهل عن حقائق الامور ، وملحد جعل من برذعة الحاده حلة يفاخر ويتباهى بهـا : احداها (**أوجدته الاسباب**) والثانية (**تشكل بنفسه**) والثالثة (**اقتضته الطبيعـة**) .

ان محاولات كثيرة تنبع من الاخذ بمبدأ هذه الكلمات الثلاثة القذرة ، ولو ذهبت أعدها بتفصيل علمى موسع ، لتجاوزت تسعين محالا من المحاولات التى لا يشك فيها علم عالم ولا عقل عاقل ، ولكنى سأكتفى من بيان ذلك كله بالعشر فقط أذكره فى عبارات موجزة سريعة .

ان (**المحال الاول**) : الناتج من كلمة (**أوجدته الاسباب**) ، يظهر جليـا فى هذا المثال : وقع احتياج الى معجون مستحضر من بضعة عقاقير وحشائش مختلفة الانواع والمقادير ، وقام الصيدلى بتحضير هذا المعجون طبق موازين دقيقة ، بحيث لو أن بعض الاجزاء طغى على الحد المطلوب او قل عنه ، لادى ذلك الى عكس الفائدة المرجوة منه .

فلو أن زلزالا مثلا وقع بين تلك القوارير التى استحضر منهـا الدواء ، فتكسرت وسال ما فيها ، وجرى بعضه الى بعض ، فاختلطت الاجزاء المتنوعة ، وتلاقت الى بعضها ، فهل يمكن أن يكون المحصول المركب من ذلك الخـليط مساويا لذلك الخليط الذى استحضره الصيدلى بميزانه الدقيق وخبرته العلمية وحسابه المنظم ؟ وهل يقبل مثل هذه الدعوى سوى من فاتته نعمة التفكير والعقـل ؟ !

ان كل ذى حياة على هذه الارض ما هو الا معجون رائع ، ركب من ملايين الاجزاء العجيبة المختلفة ، أخذت بمقدار وضمت الى بعضها بحكمة ونظام .. فـلا ريب أن اسـناد هـذا الشكل الى عمـل الاسباب المـادية الجـامدة والعناصر الميتة الصامتة ، أشنع واقبح من الاسناد فى ذلك المعجون الذى حصل من تصادم القوارير وسيلان ما فيها .

(**المحال الثانى**) : ان اسناد خلق الاشياء الى أسبابها المـادية ، يستلزم أن يكون للكثير من العناصر والاسباب الدقيقة المتناقضة تأثير مباشر فى وجـود الاشياء . والحال أن تلاقى الاسباب المختلفة المتباينة الى بعضها ، باتفـاق من جهة ، ودقة موزونة من جهة أخرى ، فى خلق البعوض مثلا ان لم يكن من أجلى المحالات . فهو من أشد الممتنعات ، لان جسم ذلك البعوض مع صغره ذو علاقة بأكثر العناصر والاسباب المـادية المبثوثة فى الكون ، بل انه بحق خلاصة وزبدة لها ، فلو سلمنا ادعاء استناد هذا الموجود الصـغير الى تلك

الاسباب ، للزم أن تحتشد جميع العناصر والاسباب كلها بالذات عند ايجادها، بل يجب توفرها كاملة فى جسمها ، بل فى حجيرة من حجيرات جسمها ، لان السبب المادى ينبغي أن يكون موجودا مع المسبب داخلا فيه ، أى فينبغى أن تكون هذه العناصر المادية المتناقضة كلها مجتمعة على الدوام ، تعمل عملها فى كل حجيرة من حجيرات جسم البعوض ، دون من يدفعها الى هـذا التلاقى والتفاعل ٠ ،

وهل هذا الا وهم يستحى بلهاء السوفسطائيين من الهذيان به ٠

(المحال الثالث) : إن القاعدة البديهية تقول : (ان الواحد لا يصـــدر الا عن **الواحد**) أى كل ما يتصف بوحدة النظام والتنسيق والانسجام فى مظهره وشكله ، فلابد أن يكون المؤثر فيه واحدا ، ضرورة أن التأليف بين المتنافرات ، والجمع بين المختلفات فى وحدة نوعية أو جنسية ، لا يمكن أن يتم اذا ما اجتمعت عليه أكثر من ارادة ويد واحدة ٠ ولا ريب أن هذا العالم العظيم تجمعه كله وحدة الانسجام والتنظيم ، فاسناد وجوده بعد ذلك الى الاسباب الجامدة المختلطة ، التى لا شعور لها ولا عقل ، من أعظم الخرافات المضحكة ٠ هذا الى أن الاسباب المادية لا يمكن تأثيرها الا بواسطة التماس والمباشرة ، وغير خاف أن تجانسها انما يكون بسطح الموجودات وظاهرها ، مع أن فى بواطنها ووراء حدود الحس منها من الانتظام والغرابة والانسجام ما ليس فى ظواهرها ، فأين أسبابها المادية الموجدة لها ؟ بل أين من يستطيع أن يفرق فى غوص ذلك الباطن ، بين السبب المؤثر والسبب المتأثر ، يفصلهما ، ويفرق بينهما فى الزمن والجوهر والحدود ؟ ٠

أما الكلمة الثانية : **(تشكل بنفسه)** فهى أيضا تنطوى على محـالات لا تعمى عنها الابصار ٠ غير أن المفكر المعاند من شأنه أن يبلغ به الكبر مبلغـا يلبسه برذعة الحمق ٠ ان الانسان العادىّ من شأنه أن لا يخضع لمحال واحد يتراءى لعقله ، ولكن مثل هؤلاء المعاندين لا يبالى أن يدافع عن حشـد من المحالات ، النابعة عن الباطل الذى أقسم أن لا يتخلى عنه ٠ انك أيها الانسان لست مادة بسيطة جامدة ملقاة على سطح هذا الوجود ، انما أنت جهاز معمـل دقيق كبير ، بلغ فى دقته غاية الروعة والانسجام ٠٠ ان فى جسمك ذرات عاملة ساعيه على الدوام ٠٠ ان لجسمك تفاعلا ــ فى غاية الانتظام ــ مع ســائر مظاهر الوجود من حولك ، انها أشبه ما يكون بتفاعل البيع والشراء والاخذ والاعطاء ٠٠ ان ملايين الذرات العاملة فى جسدك تظل ساهرة على حفظ سـير هذا التفاعل ودقة انتظامه ، وهكذا تعلم أن الانسجام ليس بين ذرات جسمك وحده ، بل بين مجموع هذه الذرات والوجود الخارجى من حوله ، ان هـــذا

يعنى أن ثمة وحدة انتظام سارية بأتم دقة بين وجودك العضوى ووجود سائر الكائنات من حولك !

فاذا رفضت أن توقن بأن الذرات الساعية فى جسدك ، انما تتحرك فيه طبق قانون الخالق الأزلى العظيم ، لزمك أن تقول ان للذرات التى تتفاعل فى حجيرة واحدة من حجيرات عينك مثلا عقلا متفلسفا هائلا ، وضع به قانون الانسجام والتطابق بين كل ذرة من جسدك من جهة ، وذرة من ذرات الوجود من حولك من جهة أخرى ، سواء كان ذلك الوجود هواء أو ضياء أو طعاما أو شرابا أو أى شىء آخر ، كما ينبغى أن يكون لكل ذرة من هذه الذرات فكر ، يدرك منابع دهرك ، وعناصر آبائك وأجدادك ، ويتصور ماضيك ومستقبلك ٠٠ يالخرافة العناد المتكبر !

أما اذا كان جوابك عن عالم الذرة ونظامها نفس جوابك عن عالمك الحسى هذا ٠ أى أن له أيضا أسبابه المادية وتفاعله الذاتى ، فان السؤال سيلاحقك عن العالم الثالث الذى من ورائهما ، والذى هو أدق من كليهما ٠ وهكذا تتسلسل العوامل والاسباب الى غير نهاية ، وتمتد الى حيث يضل وراءها عناد المعاندين وجحود المتكبرين ٠

الكلمة الثالثة (**اقتضته الطبيعة**) : ويتفرع عنها سلسلة من مظاهر التهافت المضحك ، نجمل بعضها فيما يلى :

١ ــ ان صاحب هذا القول ينبغى أن يلتزم أن كل ذرة من ذرات الوجود تنطوى على مجموعة العوامل والمؤثرات التى أبدعت هذه المجموعة الكونية ، وأنها تشتمل على القدرة والطاقة الكافية لابداع عالم كامل كالذى نراه من حولنا ، وما على هذه القدرة الا أن تنفذ ذلك وتعمل عملها ٠

اذ ما دام فى كل ذرة من ذرات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة ، المدبرة الحكيمة ، منفصلة عن غيرها ، غير مرتبطة بقيادة عامة لها ولامثالها ، فلا مناص من التزام هذه النظرية ٠٠ تماما كالذى يرى شعاع الشمس تسطع من قطرات المياه ، وقطع الزجاج والاجرام الشفافة ، ويأبى الا أن يزعم أن فى كل جرم من هذه الاجرام (طبيعته) الشعاعية المستقلة بذاتها ٠ فلا ريب أنه ينبغى أن يلتزم ويعترف بوجود شمس حقيقية مستقلة ضمن كل جرم من هذه الاجرام المضيئة على حدة ٠

ومن أراد أن يضحك من خرافة هذه النتيجة ، فليضحك قبل ذلك من خرافة المقدمة التى راح يزعمها ويتبناها ٠

٢ ـ ان على صاحب هذا القول أن يلتزم بأن شبرا واحدا من أى أرض معينة ، تنطوى على ما لا تنطوى عليه دول العالم كله من المصانع والمطابع والمواد الاولية المختلفة ، ذلك أن قدحا واحدا من التراب الذى لا تزيد مساحته على شبر ، يمكن أن تستنبت فيه معظم أنواع نباتات وأزهار العالم ، على سبيل التناوب ·· فلو لم تكن قدرة الخالق العظيم هى التى تقذف فى تلك الارض قدرة التفاعل ، مع ما تستقبله من مختلف النباتات والبذور ، لتعطى كلا منها ذاته وشكله وخصائصه ، اذا لكان لابد أن توجد فى تلك التربة عناصر وقابليات متناقضة ، بل ينبغى كما قلت أن تكون طاقة الصناعات الاوربية كلها محشورة فى ذلك الشبر من الارض ، اذ من المعلوم أن مواد النطف والبذور واحدة لا تختلف ، وهى عبارة عن مزيج : مولد الماء ، ومولد الحموضة ، والكربون ، والآزوت ، ومواد الماء ، والهواء والحرارة والضياء ، هى الاخرى بسيطة لا تختلف فى جريانها حول نبت وآخر ·

ومع ذلك ، فان هذه النباتات تنبثق فوق ذلك الشبر من الارض ، كل واحد يحمل صفاتها وخصائصها ولونها ورائحتها ، فلابد أن يوجد فى ذلك التراب شىء آخر غير المواد المعروفة للتراب والبذر والهواء ، يحد هذه البذور بخصائص التشكل والتميز · فانظر وتأمل فى مدى بعد هذا الكلام من الفكر والعقل !!

٣ ـ أذكر هنا مثالا كنت كتبته فى بعض الرسائل الاخرى ، يوضح حالة المنتسبين الى الطبيعة ·· فلنفرض أن فى قلب بعض الصحارى بناء رائعا ، مشيدا على أحسن طرز وأدق هندسة ·· وصادف أن دخل هذا الصرح بدوى متوحش ، لم يسبق أن رأى فى حياته غير صروح الخيام ، فتأمل فى براعته ونقوشه ومظاهر اتقانه ، ثم حدث نفسه أن ليس فى هذه الصحراء كلها من يقدر أن يبدع مثل هذا الابداع ، فلابد أن الباقى يجثم فى جوف البناء نفسه ·· ثم راح ينظر ويفتش عنه فى الغرف من حوله ، فلم ير أحدا ، ولكنه عثر على أوراق ، فيها : خارطة البناء ، ومواده ، وتفاصيل هندسته ، ففكر قليلا أن هذه الاوراق لا يد لها ولا بصر ، فليس من شأنها أن تشيد بناء ·· ولكنه ما لبث أن عاد فتعلق بها قائلا : ولكن ها هى ذى تبحث عن قوانين تشييده وكيفية تأليفه ، اذا فليس ثمة غيرها المشيد والبانى ·

فكذلك يدخل بدوى متوحش لم يهضم عقله الا اسم الطبيعة الى صرح هذا الكون العظيم ، فيدهشه أنه يرى ابداعا لا يجد من حوله ـ بسبب عقله القاصر ـ من أبدعه ، ويتأمل فى ثناياه وأطرافه ، فيعثر على اللوح الذى سجلت فيه قوانين الفطرة الالهية وقواعد صنعته الابداعية ـ المسماة خطأ بالطبيعة ـ فينبهر لها ، ويحدث نفسه ـ وهو فى غيبوبة عقلية تامة ـ أن لابد أن هذا اللوح بقوانينه هو الذى أبدع هذا الابداع ، وصنع هذا الصنع ·

ونحن نقول : أيها السكران الاحمق ، ارفع رأسك عن بئر الطبيعة ، وانظر وراءك الى صانع الكون • ان ذلك الذى بنى هذا الصرح ، ووضع أمام عينيك فى جنباته ، قانون تشييده ، ودستور ايجاده ، انما هو الخلاق الازلى اله العالمين جل جلاله ، لا الطبيعة التى أنت أجحد منها وأجهل •

ان الطبيعة صنعة لا صانع ، نقش لا ناقش ، حكم لا حاكم ، شريعة لا شارع ، مخلوق لا خالق ، منفعل لا فاعل ، مصدرة لا مصدر •

دلالات الظواهر
على الله وأسمائه الحسنى

هناك قاعدة تقول : ان الآثار تدل على الاسماء ، والاسماء تدل على الصفات ، والصفات تدل على الذات ، ولنضرب على هذه القاعدة مثلا يوضحها : لو أخذنا كتابا ودرسناه ، فاننا بواسطة دراستنا للكتاب ، نستطيع أن نتعرف على كثير من صفات صاحبه ، وبالتالى نتعرف عليه تعرفا ما ، فاذا كان فى الكتاب أدب ، حكمنا على صاحبه أنه أديب ، واذا كان مبتكرا ، حكمنا أن صاحبه مبدع ، واذا كان لا يخرج على قواعد النحو حكمنا بأنه نحوى ، واذا كان بليغا ، حكمنا على صاحبه بانه بليغ ، واذا كان فيه احاطة فى موضوعه ، قلنا عن صاحبه بأنه محيط ، واذا كان فيه دقة فى العرض وجمال ، حكمنا على صاحبه بأنه ذواقة ودقيق ، واذا كان الكتاب مرتبا منظما منسجما متسلسل الافكار ، حكمنا على صاحبه بأنه ناضج ، واذا كان فى الكتاب علم كثير ، حكمنا على صاحبه بأنه عليم ، وهكذا ، فكل ظاهرة فى الكتاب ، تدلنا على صفة من صفات صاحبه ، نسمى صاحبها بسببها اسما مشتقا منها ، له علاقة فيها ، وبالتالى نكون قد عرفنا صاحب الكتاب نوع معرفة ٠

ولنطبق القاعدة الآنفة الذكر على بحثنا ٠

فقد استعرضنا فى الصفحات الماضية تسع ظواهر كونية ، كل ظاهرة من هذه الظواهر تدل على اسم من أسماء الله أو أكثر ، فالكون من آثار الله : **((فانظر الى آثار رحمة الله))** (الروم : ٥٠) وآثار الله تدل على أسمائه ، وأسماؤه تدلنا على صفاته ، وصفاته تدلنا على ذاته ٠

فظاهرة القدم وحدوث العالم ، تدل على اسم الله الاول والخالق ، وظاهرة الحياة تدل على اسم الله المحيى والبارىء والمميت ، وظاهرة الهداية ، تدل على اسمى الله الهادى والمضل ، وظاهرة الابداع ، تدل على اسم الله البديع ، وظاهرة الاجابة ، تدل على اسم الله المجيب ، وظاهرة النعمة ، تدل على اسم الله المنعم المعطى ، وظاهرة الوحدة ، تدل على اسم الله الواحد ، وظاهرة الحكمة ، تدل على اسم الله الحكيم ٠

وعلى هذا ، فكل ظاهرة فى الكون ذكرناها أو لم نذكرها ، تدل على اسم من أسماء الله تعالى ٠ فظاهرة رزق كل مخلوق ، تدل على اسم الله الرزاق ،

وظاهرة الاعزاز والاذلال ، تدلان على اسم الله المعز والمذل ، وظاهرة ثبات القوانين فى الكون ، تدل على اسم الله المهيمن ، وظاهرة وجود المخلوقات ، تدل على اسمى الله القادر والمقتدر ، وظاهرة ترتيب الاشياء بعضها وراء بعض، تدل على اسمى الله المقدم والمؤخر ، وظاهرة الندم ، تدل على اسم الله التواب والغفار والعفو ، وظاهرة الانتقام ، تدل على اسم الله المنتقم ، وظاهرة النفع والضرر ، تدل على اسم الله النافع والضار ، وظاهرة امهال المخالفين عن امر الله ، تدل على اسم الله الصبور ، وهكذا فما من ظاهرة الا وتدل على صفة لله واسم ٠

غير أن دلالة الظواهر على الاسماء والصفات ، تختلف باختلاف المتعلق ، واختلاف الارتباط :

فمنها ما يدل على صفات الفعل ٠

ومنها ما يدل على صفات الذات الوجودية ٠

ومنها ما يدل على صفات الذات السلبية ، وكلها تدل على موجود ٠

ولتوضيح الفروق بين هذه الصفات ، نقول : لو قلنا : عن انسان بأنه قاتل ، فتلك صفة فعل من أفعاله ، ولو قلنا : انه سميع ، فتلك صفة وجودية له ، ولو قلنا : انه لا يشرب الخمر ، فتلك صفة سلبية له ، ولكن الانواع الثلاثة من الصفات ، تدل على وجود انسانى معين ٠

والحقيقة أننا نعرف الصفات الوجودية بصفات الفعل ٠ والصفات السلبية بصفات الفعل ونعرف الذات بكل الصفات ٠

وقبل أن نطبق ما قلناه على قضية التعرف على الله ، نحب أن نذكر ماذا نعنى بكلامنا : صفات وجودية ، أو صفات فعل ، أو صفات سلبية ٠

المراد بالصفة السلبية بالنسبة للذات الالهية ، الصفات التى تدل على سلب ما لا يليق به سبحانه وتعالى ، كالوحدانية ٠ والمراد بالصفات الوجودية بالنسبة للذات الالهية ، الصفات التى تدل على معنى زائد على الذات ، كالعلم والسمع ٠ والمراد بصفات الفعل ، تعلقات القدرة بالممكنات ، فكل تعلق لقدرة الذات الالهية بممكن ، يدل على اسم وصفة وفعل ٠

وهذه كلها تدل على وجود الذات ، وصفة الوجود للذات الالهية تسمى صفة نفسية ، لانها تدل على نفس الذات دون معنى زائد عليها ٠ واذن فما دل

على الذات دون معنى زائد ، نسميه صفة نفسية ، وما دل على صفة مدلولها وجودى دون معنى زائد ، نسميه صفة وجودية ، وما دل على صفة مدلولها عدمى ، نسميه صفة سلبية ، وليس كلامنا هنا يعنى نفى الصفات السمعية ، فالحديث عن الصفات السمعية محله • وانما نقصد هنا الصفات العليا التى يدلنا عليها مجرد العقل السليم ، بدراسة سليمة للكون ، ونص الكتاب والسنة هو الهادى ، وتوافق العقل معه دليل سلامة العقل •

فكل الظواهر التى نراها فى هذا الكون ، تدل على أربع صفات وجودية :

العلم ــ والارادة ــ والقدرة ــ والحياة ــ فلولا القدرة ما كان هذا الكون ، ولولا تخصيص الارادة الاشياء على ما هى عليه ما كان هذا الكون ، ولولا العلم ما كان شىء ، فأى جزء من أجزاء العالم يدل على علم سبق ، وارادة خصصت وقدرة أبرزت ، ومن لوازم اتصاف ذات بالعلم والارادة والقدرة ، أن يكون لها حياة •

والظواهر كلها تشير ، الى أن هذه الذات المتصفة بالعلم والارادة والقدرة والحياة ، والتى خلقت هذا الكون ، متصفة كذلك بالقدم فلا أول لها ، والبقاء فلا نهاية لها ، والوحدانية فلا ند لها ، ومخالفتها المخلوقات ، فلا يشبهها شىء من خلقها ، وقيامها بنفسها ، فلا تحتاج الى موجد أو مخصص •

والظواهر كلها تشير ، الى أن هذه الذات ، كاملة منزهة عن كل نقص ، ومن النقص العمى ، فهى بصيرة ، ومن النقص الصمم ، فهى سميعة ، ومن النقص البكم ، فهى متكلمة •

والظواهر كلها تشير الى موجود متصف بهذه الصفات •

موجود لا بداية له فهو الاول ، ولا نهاية له فهو الآخر ، ولا ند له فهو الواحد ، ولا مشابه له فهو القدوس ، ولا حاجة به لاحد فهو القيوم •

موجود متصف بالقدرة فهو قادر ، وبالحياة فهو حى ، وبالسمع فهو سميع وبالبصر فهو بصير ، وبالكلام فهو متكلم ، وبالعلم فهو عليم ، وبالارادة فهو مريد •

ومقتضى كثرة أفعال الله التى هى أثر عن العلم والارادة والقدرة ،

أن يكون لله أسماء كثيرة ، ولكن الادب مع الله ألا نسمى الله الا بما سمى به ذاته ، على لسان الوحى الثابت بالدليل القاطع ، لانه ـ جل جلاله ـ لا يعرف جلاله الا هو • وحتى لا ننسب الى الله الا ما يليق بذاته « الخير كله بيديك والشر لا ينسب اليك » فلا نسميه الا بما سمى به نفسه ، ومجموع ما سمى به ذاته ، يطلق عليه اسم : (الاسماء الحسنى) **((الله لا اله الا هو ، له الاسماء الحسنى** (طه : ٨) **((قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى))** (الاسراء : ١١٠) • **((ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه))** (الاعراف : ١٨٠) • وما من اسم من هذه الاسماء الحسنى الواردة فى الكتاب والسنة ، الا وفى الكون ظاهرة تدل عليه •

وهذه الاسماء كما وردت فى الكتاب والسنة تعبر عن صفات سلبية أحيانا، وعن صفات وجودية أحيانا ، وعن صفات كمال أحيانا ، وعن صفات فعل أحيانا ، فهى قد جمعت أمهات هذه الصفات كلها •

والاسماء الواردة فى الكتاب والسنة لله تعالى كثيرة ، ومع هذا فهى ليست كل أسماء الله • فقد ورد فى الحديث : « اللهم انى أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » •

ومن هنا نعلم أن ما ذكر ليس هو كل الاسماء الحسنى ، فان جلال الله لا يتناهى ، ولكن ما ذكر ، تدلنا عليه ظواهر الكون بشكل صريح أو ضمنى ، فاذا اجتمعت دلالة العقل مع دلالة النص واتفقا ، فذلك برهان سلامة العقل والنص ، على أنه فى معرض الحديث عن الاسماء والصفات ، ينبغى أن نلاحظ هاتين النقطتين اللتين أشار اليها الاستاذ البنا رحمه الله :

يقول **الاستاذ البنا** تحت عنوان (بين صفات الله وصفات الخلق) :

والذى يجب أن يتفطن له المؤمن ، أن المعنى الذى يقصد باللفظ فى صفات الله تبارك وتعالى ، يختلف اختلافا كليا عن المعنى الذى يقصد بهذا اللفظ عينه فى صفات المخلوقين ، فأنت تقول : الله عالم والعلم صفة لله تعالى ، وتقول : فلان عالم والعلم صفة لفلان من الناس ، فهل ما يقصد بلفظة العلم فى التركيبين واحد ؟ حاشا أن يكون كذلك ، وانما علم الله تبارك وتعالى علم لا يتناهى كماله ، ولا يعد علم المخلوقين شيئا الى جانبه • وكذلك الحياة ، وكذلك السمع ، وكذلك البصر ، وكذلك الكلام ، وكذلك القدرة والارادة ، فهذه كلها مدلولات الالفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها فى حق الخلق ، من حيث الكمال والكيفية اختلافا كليا ، لانه تبارك وتعالى لا يشبه أحدا من خلقه ، فتفطن لهذا المعنى

فانه دقيق ، ولست مطالبا بمعرفة كنهها ، وانما حسبك أن تعلم آثارها فى الكون ، ولوازمها فى حقك ، والله نسأل العصمة من الزلل وحسن التوفيق •

وكذلك يقول الاستاذ تحت عنوان (التفكر فى ذات الله) :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن قوما تفكروا فى الله عز وجل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تتفكروا فى الله ، فانكم لن تقدروا قدره » قال العراقى : رواه أبو نعيم فى الحلية باسناد ضعيف ، ورواه الاصبهانى فى الترغيب والترهيب باسناد أصح منه ، ورواه أبو الشيخ كذلك ، وهو على كل حال صحيح المعنى •

وليس ذلك حجرا على حرية الفكر ، ولا جمودا فى البحث ، ولا تضييقا على العقل ولكنه عصمة له من التردى فى مهاوى الضلالة ، وابعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها ، ولا تحتمل قوته مهما عظمت علاجها ، وهذه هى طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره •

فاحصر همتك فى ادراك عظمة ربك ، بالتفكير فى مخلوقاته ، والتمسك بلوازم صفاته •

* * *

ونحب أن نذكر فى هذه الفقرة — عن القرآن والسنة ، على اعتبار أنهما المصدران الوحيدان للمعرفة ، عن طريق الوحى الصادق الذى يقوم عليه الدليل الكامل ، كما سنرى ان شاء الله فى البحث الثانى — مجمل صفات الله كما وردت فى القرآن ، وبعضا من أسمائه الحسنى كما وردت فى الكتاب والسنة ، لنرى أن ما دلتنا عليه الظواهر بالعقل ، دلنا عليه الكتاب والسنة بالوحى عن طريق النقل •

يقول الاستاذ البنا تحت فصل (مجمل صفات الله فى القرآن) :

أشارت آيات القرآن الكريم الى بعض الصفات الواجبة لله تعالى ، والتى يقتضيها كمال الالوهية ، واليك بعض هذه الآيات الكريمة :

١ — وجود الله تعالى

قال الله تعالى : « **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الامر** ،

يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون • وهو الذى مد الارض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفى الارض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الرعد : ٢ ــ ٤) » وقال تعالى : « **وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة ، قليلا ما تشكرون • وهو الذى ذرأكم فى الارض واليه تحشرون • وهو الذى يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار ، أفلا تعقلون »** (المؤمنون : ٧٨ ــ ٨٠) فكل هذه الآيات تنبئك بوجود الله تبارك وتعالى ، وتستدل عليه بما ترى من تصرفاته فى شئون هذا الكون العجيب •

٢ ــ ٣ ــ قدم الله تعالى وبقاؤه

قال الله تعالى : « **هو الاول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شىء عليم »** (الحديد : ٣) وقال تعالى : « **ولا تدع مع الله الها آخر ، لا اله الا هو ، كل شىء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون »** (القصص : ٨٨) وقال تعالى : « **كل من عليها فان • ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام »** (الرحمن ٢٦ ــ ٢٧) وفى هذه الآيات الكريمة اشارة الى صفتى القدم والبقاء لله تبارك وتعالى •

٤ ــ مخالفة الله للحوادث

قال الله تعالى : « **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »** وقال تعالى : « **فاطر السموات والارض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن الانعام أزواجا ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »** (الشورى : ١١) وفى ذلك اشارة الى مخالفته تبارك وتعالى للحوادث من خلقه وتنزهه عن الولد والوالد والشبيه والنظير •

٥ ــ قيام الله تعالى بنفسه

قال الله تعالى : « **يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد** (فاطر : ١٥) وقال تعالى : « **ما أشهدتهم خلق السموات والارض ، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا »** (الكهف : ٥١) ونضيف : قال تعالى : « **ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا »** (فاطر : ٤١) • « **الله لا اله الا هو الحى القيوم »** (البقرة : ٢٥٥) وفى ذلك اشارة الى قيامه تعالى بنفسه واستغنائه عن خلقه ، مع حاجتهم اليه •

٦ ـ وحدانية الله تعالى

قال الله تعالى : ((**وقال الله : لا تتخذوا الهين اثنين ، انما هو اله واحد فاياى فارهبون • وله ما فى السموات والارض وله الدين واصبا ، أفغير الله تتقون • وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم اذا مسكم الضر فاليه تجارون**)) (النحل : ٥١ ـ ٥٣) وقال تعالى : ((**لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ، وما من الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ، ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم • أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم**)) (المائدة : ٧٣ ـ ٧٤) وقال تعالى : ((**أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون • لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون • لا يسأل عما يفعل وهم يسألون • أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل : هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق ، فهم معرضون • وما أرسلنا من قبلك من رسول ، الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون**)) (الانبياء : ٢١ ـ ٢٥) •

وقال تعالى : ((**قل : لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل : أفلا تذكرون • قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون : لله ، قل : أفلا تتقون • قل : من بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، ان كنتم تعلمون • سيقولون : لله ، قل : فأنى تسحرون • بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون • ما اتخذ الله من ولد وما كان معه اله • اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون • عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**)) (المؤمنون : ٨٤ ـ ٩٢) •

وقال تعالى : ((**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، ءالله خير أما يشركون • أمن خلق السموات والارض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فانبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أاله مع الله ! بل هم قوم يعدلون • أمن جعل الارض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أاله مع الله ! بل أكثرهم لا يعلمون • أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الارض ، أاله مع الله ! قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أاله مع الله ! تعالى الله عما يشركون • أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والارض ، أاله مع الله ! قل : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين**)) (النمل : ٥٩ ـ ٦٤) •

الى غير ذلك من الآيات التى تثبت أنه تعالى واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله وتصرفاته ، لا رب غيره ، ولا اله سواه •

٧ ـ قدرة الله تعالى

قال الله تعالى : ((يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الارض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج • ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور)) (الحج : ٥ ـ ٧) • وقال تعالى : ((ما أشهدتهم خلق السموات والارض ، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا)) (الكهف : ٥١) وقال تعالى : ((ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ، وما مسنا من لغوب)) (ق : ٣٨) وقال تعالى : ((وهو الذى مرج البحرين : هذا عذب فرات ، وهذا ملح اجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا • وهو الذى خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا)) (الفرقان : ٥٣ ـ ٥٤) وقال تعالى : ((ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار • يقلب الله الليل والنهار ، ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار • والله خلق كل دابة من ماء : فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شىء قدير)).(النور : ٤٣ ـ ٤٥) •

الى غير ذلك من الآيات الدالة على عظيم قدرته تبارك وتعالى ، وباهر عظمته •

٨ ـ ارادة الله تعالى

قال الله تعالى : ((انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون)) (ياسين : ٨٢) وقال تعالى : ((واذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا)) (الاسراء : ١٦) وقال تعالى حكاية عن الخضر فى قصته مع موسى عليهما السلام : ((فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)) (الكهف : ٨٢) وقال تعالى : ((يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم • والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا

عظيما • يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا)) (النساء) : ٢٦ ـ ٢٨) •

الى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشير الى اثبات ارادة الله تعالى ، وانها فوق ارادة ومشيئة : ((وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين)) (التكوير : ٢٩) •

٩ ـ علم الله تعالى

قال الله تعالى : ((الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ، وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير • يعلم ما يلج فى الارض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور)) (سبأ : ١ ـ ٢ وقال تعالى : ((يعلم ما فى السموات والارض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور)) (التغابن : ٤) وقال تعالى: حكاية عن لقمان فى وصيته لابنه : ((يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الارض ، يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير)) (لقمان : ١٦) وقال تعالى فى حكاية ما وقع بين شعيب وقومه : ((قال الملا الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا ، قال : أو لو كنا كارهين ! • قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم ، بعد اذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها ، الا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين)) (الاعراف : ٨٨ ـ ٨٩) وقال تعالى : ((ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ، ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك، ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، ان الله بكل شىء عليم)) (المجادلة : ٧) وقال تعالى : ((وما تكون فى شأن ، وما تتلوا منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل ، الا كنا عليكم شهودا • اذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، الا فى كتاب مبين)) (يونس : ٦١) •

الى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على سعة علمه تبارك وتعالى ، واحاطته بكل شىء ، قل أو كثر ، دق أو عظم •

١٠ ـ حياة الله تعالى

قال الله تعالى : ((**الله لا اله الا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الارض**)) (البقرة : ٢٥٥) وقال تعالى : ((**ألم ٠ الله لا اله الا هو الحى القيوم ٠ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والانجيل ٠ من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان**)) (آل عمران : ١ ـ ٤) ٠ وقال : ((**الله الذى جعل لكم الارض قرارا ، والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين ٠ هو الحى لا اله الا هو ، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين**)) (غافر : ٦٤ ـ ٦٥) ٠ الى غير ذلك من آيات كثيرة ، تدل على أن الله تبارك وتعالى ، متصف بالحياة الكاملة ، التى ليس ثم أكمل منها ٠

١١ ـ ١٢ ـ سمع الله تعالى وبصره

قال الله تعالى : ((**قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير**)) (المجادلة : ١) وقال تعالى : ((**أرأيت الذى ينهى ٠ عبدا اذا صلى ٠ أرأيت ان كان على الهدى ٠ أو أمر بالتقوى ٠ أرأيت ان كذب وتولى ٠ ألم يعلم بأن الله يرى**)) (العلق : ٩ ـ ١٤) وقال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما الى فرعون : ((**اذهبا الى فرعون ، انه طغى ٠ فقولا له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى ٠ قالا : ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا ، أو أن يطغى ٠ قال : لا تخافا اننى معكما ، أسمع وأرى**)) (طه : ٤٣ ـ ٤٦) وقال تعالى : ((**يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ٠ والله يقضى بالحق ، والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء ، ان الله هو السميع البصير**)) (غافر : ١٩ ـ ٢٠) الى غير ذلك من الآيات التى تدل على اتصافه تبارك وتعالى بالسمع والبصر ٠

١٣ ـ كلام الله تعالى

قال الله تعالى : ((**وكلم الله موسى تكليما**)) (النساء : ١٦٤) وقال : ((**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون**)) (البقرة : ٧٥) وقال : ((**وان أحد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه**)) (التوبة : ٦) الى غير ذلك من الآيات ، التى تدل على اتصافه تبارك وتعالى بصفة الكلام ٠

٠ ٠ ٠

وقد سمى الله عز وجل ذاته فى القرآن بأسماء كثيرة غير التى ذكرناها ٠٠ فمن الآيات التى ذكرت أسماء الله قوله تعالى : ((**هو الله الذى لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ٠ هو الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ٠ هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والارض ، وهو العزيز الحكيم**)) (الحشر : ٢٢ ـ ٢٤) ٠ وقوله تعالى : ((**سبح اسم ربك الاعلى**)) (الاعلى : ١) وقوله : ((**فسبح باسم ربك العظيم**)) (**الواقعة : ٧٤**) ٠ والآيات فى هذا الباب كثيرة ٠ كما ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة فى أحاديث صحيحة ـ وهو أعرف الناس بذات الله عز وجل ـ منها : « لله تسعة وتسعون اسماء مائة الا واحدا ، لا يحفظها أحد الا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية أخرى : « من أحصاها » ورواه الترمذى وزاد : ((**هو الله الذى لا اله الا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد المحصى ، المبدىء ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الاول ، الآخر الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور**)) ٠

وهذه الصفات التسعة والتسعون ، ليست كل ما ورد فى أسماء الله تبارك وتعالى ، بل نجد الاحاديث التى تزيد على هذه الصفات ٠ ففى رواية أخرى للحديث السابق : « الحنان ، المنان ، البديع » وورد كذلك من أسمائه تعالى : « المغيث » و « الكفيل » و « ذو الطول » و (ذو المعارج) و (ذو الفضل) و « الخلاق » ٠

قال أبو بكر بن العربى فى شرح الترمذى ، حاكيا عن بعض أهل العلم :

انه جمع من الكتاب والسنة من أسمائه تعالى ألف اسم ، وفى كلام صاحب القصد المجرد ما يفيد ذلك ، وأشار الشوكانى الى ذلك فى تحفة الذاكرين ، ثم قال : « وأنهض ما ورد فى احصائها الحديث المذكور ، وفيه الكفاية » وعلى اعتبار أن كل اسم من أسماء ذاته القدسية ، انما يدل على صفة من صفاته تعالى ويعبر عنها ، فان كل اسم من هذه الاسماء : اما أن يدل على صفة كمال ، أو على صفة وجود ، أو على صفة سلب ، أو على صفة فعل ، ومرجع هذه الصفات كلها وهذه الاسماء الى الثلاث عشرة صفة ، المذكورة فى الفقرة السابقة ، فهى أمهات صفات الفعل ، والسلب ، والكمال ، والوجود ، والمعانى . أهـ .

* * *

ومرة ثانية نحب أن نؤكد ، أن الخالق غير المخلوق ، وأن الله لا يشبه خلقه فى شىء : ((**ليس كمثله شىء وهو السميع البصير**)) (الشورى : ١١) وأن من أسس ضلال البشر فى باب الاعتقاد ، اعتقاد مشابهة الله لخلقه ، وقد رد الله فى القرآن على أى تصور من هذه التصورات ، فمثلا زعم اليهود أن الله خلق الخلق ، واستراح فى اليوم السابع بعد ستة أيام خلق ــ وهذا نوع تشبيه ــ فرد الله عليهم بقوله : ((**ولقد خلقنا السماوات والارض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب**)) (ق : ٣٨) أى تعب ، ورد على النصارى اعتبارهم أن الله مؤلف من أجزاء ، وأن من عباده من هو جزء منه ، فقال : ((**وجعلوا له من عباده جزءا ، ان الانسان لكفور مبين**)) (الزخرف : ١٥) .

فالمسلم يثبت لله ما أثبته لذاته من صفات وأسماء ، وينزه الله عز وجل بما نزه به نفسه على لسان رسوله : ((**سبحان الله عما يصفون . الا عباد الله المخلصين**)) (الصافات ١٥٩ ــ ١٦٠) فالله تعالى موجود ووجوده ليس كمثله شىء ، وبصير وبصره ليس كمثله شىء ، وسميع وسمعه ليس كمثله شىء ، وهكذا فى كل صفة لله عز وجل ، ولا نعرف عن الله الا ما عرفنا هو بكتابه وعلى لسان رسوله . وكتاب الله لا يناقض بعضه ، وسنة رسول الله الصحيحة كذلك لا تناقضه ، بل كلاهما يفسر الآخر ، وكل منهما يفسر بعضه، وانما نعرف الله بمجموع ما ورد فيهما ، دون أن نفهم فهما نجعل كتاب الله وسنة رسوله يناقضان بعضهما بعضا .

كما لا نحب التكلف فى فهم النصوص ولا التعسف ، ولا نحب الخوض أصلا فى قضية لها علاقة فى الذات الالهية ، الا بما يفيد الايمان والتسليم والتنزيه ، وعقيدتنا لذلك سهلة بسيطة ، مجمع عليها ، لا ينكرها علينا أحد . فالله موجود ووجوده ليس كمثله شىء ، وسميع وسمعه ليس كمثله شىء ، وبصير وبصره ليس كمثله شىء ، ومستو على المعنى الذى أراده

بالاستواء ، واستواؤه ليس كمثله شيء ، ويجيء ومجيئه ليس كمثله شيء ، وقريب وقربه ليس كمثله شيء ، وهكذا في كل اسم أو صفة وصف الله بها ذاته : ((**ولا يحيطون به علما**)) (طه : ١١٠) هكذا كان أدب الصحابة فى هذا الشأن ، فلا نتجاوز الى غيره ٠

أخرج الدارمى عن سليمان بن يسار : أن رجلا قدم المدينة ، فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل اليه عمر وقد أعد له عرجونا ، فقال : من أنت قال : أنا عبيد الله صبيغ ، فأخذ عمر العرجون ، وقال : أنا عبد الله عمر ، فجعل يضربه حتى دمى رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين حسبك ، قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى ٠

لقد أدرك عمر ما يترتب على سؤال هذا الرجل من أمور ، وهذا واقعنا شاهد على أن الامة ، منذ بحثت هذه الامور ، اختصمت وتفرقت ، لذلك قال مالك للسائل عن الاستواء : « والسؤال عنه بدعة » نسأل الله أن يطهر قلوبنا من البدع ٠

ونحب أن نختم هذا البحث بذكر ملاحظتين : احداهما حول ما يذكره بعض الناس عن خواص أسماء الله ، والثانية حول اسم الله الاعظم ٠

١ ـ قضية خواص أسماء الله الحسنى :

يقول **الاستاذ البنا** : يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواص وأسرارا ، تتعلق به على افاضة فيها أو ايجاز ، وقد يتغالى البعض فيتجاوز هذا القدر ، الى زعم أن لكل اسم خادما روحانيا ، يخدم من يواظب على الذكر به ، وهكذا ، والذى أعلمه فى هذا ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ أن أسماء الله تعالى ألفاظ مشرفة ، لها فضل على سائر الكلام ، وفيها بركة ، وفى ذكرها ثواب عظيم ، وأن الانسان اذا واظب على ذكر الله تعالى ، طهرت نفسه ، وصفت روحه ، ولا سيما اذا كان ذكره بحضور قلب وفهم للمعنى ، أما ما زاد على ذلك فلم يرد فى كتاب ولا سنة ٠ وقد نهينا عن الغلو فى دين الله تعالى ، والزيادة فيه ، وحسبنا الاقتصار على ما ورد ٠

٢ ـ قضية اسم الله الاعظم :

يقول **الاستاذ البنا** : ورد ذكر اسم الله الاعظم فى أحاديث كثيرة منها :

١ ـ عن بريدة رضى الله عنه ، قال : سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو وهو يقول : « اللهم انى أسألك ، بأنى أشهد أنك أنت الله لا اله

الا أنت ، الاحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » ، قال : فقال : والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الاعظم ، الذى اذا دعى به أجاب ، واذا سئل به أعطى » • رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال المنذرى : قال شيخنا أبو الحسن المقدسى : هو اسناد لا مطعن فيه ولا أعلم أنه روى فى هذا الباب حديث أجود اسنادا منه ، وقال الحافظ ابن حجر : هذا الحديث أرجح ما ورد فى هذا الباب من حيث السند •

٢ ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم المسجد ورجل قد صلى وهو يدعو ويقول فى دعائه : اللهم لا اله الا أنت ، المنان ، بديع السموات والارض ، ذا الجلال والاكرام • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أتدرون بم دعا الله ؟ دعا الله باسمه الاعظم ، الذى اذا دعى به أجاب ، واذ سئل به أعطى » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه •

٣ ـ عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اسم الله الاعظم فى هاتين الآيتين : ((**والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم**)) (البقرة : ١٦٣) • وفاتحة آل عمران ((**ألم • الله لا اله الا هو الحى القيوم**)) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه • وقال الترمذى : حديث حسن صحيح •

٤ ـ عن سعد بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « هل أدلكم على اسم الله الاعظم ، الذى اذا دعى به أجاب ، واذا سئل به أعطى ؟ الدعوة التى دعا بها يونس ، حيث نادى فى الظلمات الثلاث : لا اله الا أنت ، سبحانك ، انى كنت من الظالمين » فقال رجل : يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة ، أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تسمع قول الله عز وجل ((**ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين**)) (الانبياء : ٨٨) رواه الحاكم •

فأنت ترى من هذه الاحاديث ومن غيرها ، أنها لم تعين الاسم الاعظم بالذات ، وأن العلماء مختلفون فى تعيينه ، لاختلافهم فى ترجيح الاحاديث بعضها على بعض ، حتى اختلفوا على نحو الاربعين قولا • والذى نأخذه من هذه الاحاديث الشريفة ، ومن أقوال الثقات من رجال الملة ، أن الاسم الاعظم دعاء مركب من عدة أسماء من أسمائه تعالى ، اذا دعا به الانسان ، مع توفر شروط الدعاء المطلوبة شرعا ، استجاب الله له ، وقد صرحت به الاحاديث الشريفة فى عدة مواضع •

واذا تقرر هذا ، فما يدعيه بعض الناس من أنه سر من الاسرار ، يمنح لبعض الافراد ، فيفتحون به المغلقات ، ويخرقون به العادات ، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس ، أمر زائد على ما ورد عن الله ورسوله • واذا احتج هؤلاء البعض بالآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : **((قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك))** (النمل : ٤٠) • على القول بأن معنى : ((عنده علم من الكتاب)) أنه اسم الله الاعظم ، نقول لهم : قد صرح المفسرون بأن ذلك المدعو به كان ((يا حى يا قيوم)) أو : ((الله لا اله الا هو الحى القيوم)) • وادعى بعضهم : أنه سريانى ، لفظه (آهيا شراهيا) ، وهى دعوى بغير دليل ، فلم يخرج الامر عما ورد فى الاحاديث الصحيحة •

وخلاصة البحث : ان بعض الناس ولعوا بالمعميات ، وادعاء الخصوصيات ، والزيادة فى المأثورات ، فقالوا ما لم يرد فى كتاب ولا سنة ، وقد نهينا عن ذلك نهيا شديدا ، فلنقف مع المأثور •

• • •

والآن وقد استعرضنا تسع ظواهر كونية ، كل ظاهرة تدلنا على الله من وجه ، واستعرضنا دلالات الظواهر ، وأن كل ظاهرة ذكرناها أو لم نذكرها ، تدل على اسم من أسماء الله ، وذكرنا بعضا مما له علاقة بالاسماء والصفات والذات الالهية كما وردت فى الكتاب والسنة ، يبقى أن نقارن بين هذا المفهوم الصحيح عند المسلمين عن الذات الالهية ، والمفاهيم الاخرى الخاطئة عند غيرهم ، ليتبين أن المسلمين وحدهم عرفوا الله حق المعرفة ، معرفة قائمة على العلم والعقل والبديهة ، لا تجد جانبا من جوانبها فيه مغمز ، وذلك آية على أن هذا الاسلام دين الله ، وعلى أن محمد رسول الله ، أرسله الله ليرد الناس عن الباطل فى كل شىء الى الحق فى كل شىء •

• • •

وقبل أن نبدأ المقارنة نحب أن نلخص بعض ما مر معنا فى هذه الفقرة :

١ ـ ان ظواهر هذا الكون ، تدل على أسماء الله الحسنى ، وأسماؤه تدل على صفاته ، وصفاته تدلنا على ذاته •

٢ ـ مما تدلنا عليه ظواهر الكون ، ان الله عز وجل متصف : بالعلم ، والارادة ، والقدرة ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والوحدانية ،

والبقاء ، والاولية ، والقيومية ، والاستغناء ، وأن من أسمائه : المذل ، المعز ، الرزاق ، المعطى ، المنعم ..

٣ ـ ونظرة الى ما وصف الله عز وجل به ذاته ، أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ترينا انطباق ما دلتنا عليه الظواهر بدلالة العقل ، على ما دلنا عليه النص مع زيادة فى النص ، تصعد بقولنا الى منتهى الكمال والادب ، ودين يأخذ بيد العقل فى هذا الموضوع الى مثل هذه الذروة ، لا يبقى عند الانسان شكا بأنه وحى .

٤ ـ وفى كل ما مر ، آية على أن المسلم فى هذا الموضوع وغيره ـ لانه فرع عنه ـ قد اجتمع له صواب العقل ، وصفاء الفهم ، وسلامة الوحى الذى يأخذ بيد العقل والفهم الى الطريق السوى .

* * *

مقارنات

تحت عنوان ((**العقيدة الالهية**)) كتب عباس محمود العقاد فى كتابه ((**حقائق الاسلام وأباطيل خصومه**)) بحثا ، قارن به العقيدة الاسلامية فى ((**الله جل جلاله**)) مع عقيدة غير المسلمين فى باب الالوهية ، والملاحظ أن المقارنة منصبة على بعض عقائد الفلاسفة ، وعلى العقائد الدينية فى وضعها الذى صارت اليه كما يفهمه أهلها زمن الرسالة الاسلامية ، لا كما هى فى أصولها عند الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أصحاب هذه الرسالات ـ ان كانت فى الاصل عن رسل ـ اذ أننا نعتقد أن موسى وعيسى وكل رسول لله عقيدتهم فى الذات الالهية هى نفسها عقيدة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اذ كلهم رسول لرب واحد ، ولكن هذه العقيدة حرفت وبدلت بعده ، كما حرف وبدل غيرها ، فأصبحت تحتاج الى تصحيح ، فكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هذا التصحيح الكامل ، فالانحراف الكامل فى تصور الذات الالهية فى العالم كله من ناحية ، والتصحيح الكامل لهذا الانحراف من ناحية ثانية ، دليل على أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله · ونحن هنا لن ننقل بحث العقاد كله ، وانما سنختار منه ، مع ملاحظة أن ما ننقله هو كلامه نفسه ، وكل تعليق فى أسفل الصحيفة من كلامنا · **يقول العقاد** :

العقيدة الالهية

العقيدة فى الاله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها • من عرف عقيدة قوم فى الهم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ، ومن صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر ، وتقدر بها الحسنات والسيئات • فلا يهبط دين وعقيدته فى الاله عالية ، ولا يعلو دين وعقيدته فى الاله هابطة ، ليست مما يناسب صفات الموجود الاول الذى تتبعه جميع الموجودات •

ولقد كان النظر فى صفات الله ، مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية ، وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الاديان ، لان الفيلسوف النظرى ينطلق فى تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التى يتقيد بها الحكيم الدينى ، ويتقيد بها من يأتمون به من أتباعه فى الحياة العامة والمعيشة الخاصة ، فظهر بين الفلاسفة النظريين من سما بالتنزيه الالهى صعدا الى أوج لا يلحق به الخيال ، فضلا عن الفكر والاحساس •

وجاء الاسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة فى الاله الواحد الاحد ، صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين — فى جانب النقص منهما — أعظم المعجزات التى أثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله •

يقال على الاجماع : ان صفات الاله قد ارتفعت الى ذروتها العليا من التنزيه والتجريد(١) فى مذهب « أرسطو » الفيلسوف اليونانى الكبير •

والذين يرون هذا الرأى لا ينسون مذهب « أفلوطين » امام الفلسفة الافلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين الى العصر الاخير • غير أنهم لا يذكرونه فى معرض الكلام على التنزيه فى وصف الله ، لان مذهبه أقرب الى الغيبوبة الصوفية منه الى التفكير الجلى والمنطق المعقول ، وطريقته فى التنزيه أن يمعن فى الزيادة على كل صفة يوصف بها الله ، فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلما استطاع الزيادة اللفظية ، حتى تنقطع الصلة بينها

---

(١) هذا من حيث الدعوى لا من حيث الحقيقة كما يبينه العقاد بعد •

وبين جميع المدلولات المفهومة أو المظنونة ، ويرجح الاكثرون أن « أفلوطين » نفسه لم يكن يتصور ما يصوره من تلك الصفات ، وانما كانت غايته القصوى أن يذهب بالتصور الى منقطع العجز والاعياء ٠

فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية ، ليقول بصفة الاحدية ، ويقول : ان الواحد غير الاحد(١) ، لان الواحد قد يدخل فى عداد الاثنين والثلاثة والعشرة ، ولا يكون الاحد الا مفردا بغير تكرار ٠

ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود ، ليقول : ان الله لا يوصف بأنه موجود، تنزيها له عن الصفة التى يقابلها ـ العدم ـ وتشترك فيها الموجودات أو الموجدات ٠

لهذا يضربون المثل بأرسطو فى تنزيه الاله ، ولا يضربون المثل بأفلوطين ، لان مذهبه ينقطع فى صومعة من غيبوبة الذهول ، لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية ٠

ومذهب أرسطو فى الاله أنه : كائن أزلى ، أبدى ، مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا ارادة ٠ مذ كان العمل طلبا لشىء ، والله غنى عن كل طلب ، وقد كانت الارادة اختيارا بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الاصلح الافضل من كل كمال ، فلا حاجة به الى الاختيار بين صالح وغير صالح ، ولا بين فاضل ومفضول ٠ وليس مما يناسب الاله فى رأى أرسطو أن يبتدىء العمل فى زمان ، لانه أبدى سرمدى لا يطرأ عليه طارىء يدعوه الى العمل ، ولا يستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ، ولا جديد ولا قديم ، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التى لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه ٠

فالاله الكامل المطلق الكمال ، لا يعنيه أن يخلق العالم ، أو يخلق مادته الاولى وهى « الهيولى » ٠٠ ولكن لهذه « الهيولى » قابلية للوجود ، يخرجها من القوة الى الفعل شوقها الى الوجود الذى يفيض عليها من قبل الاله ، فيدفعها هذا الشوق الى الوجود ، ثم يدفعها من النقص الى الكمال المستطاع فى حدودها، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها : انها من خلقة الله الا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار ٠

---

(١) المسلمون يقولون : بالاحدية والواحدية ، فالله واحد أحد « والهكم اله واحد » ٠٠ « قل هو الله أحد » ٠

كمال مطلق لا يعمل ولا يريد ٠

أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدل المطلق على حد سواء ٠٠

ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شيء(١) ٠

ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذى يهابه من يحس قدرته ، فلا يجترىء عليه بالنقد والتسفيه ، قبل أن يفرغ جهده فى التماس المعذرة له من جهل عصره وقصور الافكار حوله ، لا من جهله هو أو قصور تفكيره ، فانه لم يعودنا فى تفكيره احتمالا قط لا يتقصاه الى قصارى مداه ، ولا يستوفى مقتضياته وموانعه جهد ما فى الطاقة الانسانية من استيفاء ٠

لنذكر أنه أرسطو ، لكى نذكر أن هذا العقل النادر ، لم يؤت من نقص فى تصور الصفات العلوية ، الا لانه عاش فى زمان ، لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الارضية « السفلى » التى نحسها ونعيش بينها ، ولو انه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراضها ، لكان له رأى فى الكمال العلوى غير ذلك الرأى الذى ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقيس(٢) ٠

لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية ــ السماوية ــ أنها خالدة باقية لا تفنى ، لانها من نور والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب ٠

ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الارضية ــ السفلى ــ كلها من نور ، وأن عناصر المادة كلها تؤول الى الذرات والكهارب ، وأن هذه الذرات والكهارب تنشق ، فتؤول الى شعاع ، لما ساقه الظن والقياس الى ذلك الخطأ فى التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفناء ، أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب ٠

ولعل ادراكه لذاك الخطأ فى فهم لوازم البساطة والكمال ، ولوازم البقاء والفناء ، كان خليقا أن يهديه الى فهم خطئه فى تصور لوازم الكمال الالهى ، فلا يمتنع فى عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات الحسنى

---

(١) أرسطو وغيره فى معرفة حقائق الوجود أطفال اذا قيسوا بالرسل عليهم الصلاة والسلام ٠

(٢) اذا كان أرسطو المعلم الاول كما يقولون على مثل هذا الجهل ، فكيف يخطر ببال بشر أن يترك اتباع الرسل لسفاهات ومتاهات غيرهم ٠

التى وصف بها الاله فى الاسلام ، ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والارادة ، ولا يمتنع فى عقله أن يكون لهذه الصفات لوازمها ومقتضياتها ، اذ لا تكون قدرة بغير مقدور عليه ، ولا يكون كرم بغير اعطاء ، ولا تكون مشيئة بغير اختيار بين أمرين ، واذا اختار الله أمرا فهو لا يختاره لذاته سبحانه وتعالى ، بل يختاره لمخلوقاته التى تجوز عليها حالات شتى لا تجوز فى حق الاله ، واذا خلق الله شيئا فى الزمان فلا ننظر الى الابدية الالهية بل ينبغى أن ننظر الى الشىء الموجود المخلوق فى زمانه ، ثم لا مانع عقلا من أن تتعلق به ارادة الله الابدية على أن يكون حيث كان فى زمن من الازمان ٠

لقد كان مفهوم البساطة الابدية الباقية عند أرسطو ، غير مفهومها الذى لمسناه اليوم لمسا فى هذه الكائنات الارضية ـ السفلية ـ فلا جرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا ، غير مفهومه الذى جعله أرسطو أشبه شىء بالعدم المطلق ، غير عامل ولا مريد ولا عالم بسوى النعمة والسعادة ٠٠ قانع بأنه منعم سعيد ٠

وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل : هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفى أن يسمو بالكمال الاعلى فوق مرتبته التى يستلهمها المسلم من عقيدة دينه ؟

نقول عن يقين : كلا ، فان الله فى الاسلام اله صمد لا أول له ولا آخر ، وله المثل الاعلى ، فليس كمثله شىء ، وهو محيط بكل شىء ٠

ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل : هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية فى مذهب التنزيه ؟

والجواب : كلا ، بل الدين هنا فلسفة أصح من الفلسفة اذا قيست بالقياس الفلسفى الصحيح ، لان صفات الاله التى تعددت فى عقيدة الاسلام لا تعدو أن تكون نفيا للنقائص التى لا تجوز فى حق الاله ، وليس تعدد النقائص مما يقضى بتعدد الكمال المطلق الذى ينفرد ولا يتعدد ٠ فان الكمال المطلق واحد ، والنقائص كثيرة ينفيها جميعا ذلك الكمال الواحد ٠ وما ايمان المسلم بأن الله عليم قدير فعال لما يريد كريم رحيم ، الا ايماننا بأنه جل وعلا قد تنزه عن نقائص الجهل والعجز والجحد والغشم ، فهو كامل منزه عن جميع النقائص ، ومقتضى قدرته أن يعمل ويخلق ، ويريد لخلقه ما يشاء ، ومقتضى عمله وخلقه أن يتنزه عن تلك « العزلة السعيدة » التى توهمها أرسطو مخطئا فى التجريد والتنزيه ٠ فهو سعيد(١) بنعمة كماله ، سعيد بنعمة عطائه ، كفايته لذاته

---

(١) اطلاق لفظ السعادة على الله اطلاق فلسفى لم يستعمل ولا يستعمل فى المصطلح الاسلامى ٠

العلية لا تأبى له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود فى الزمان ، أى من ذلك الوجود المحدود الذى لا يغض من وجود الله فى الابد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل ٠

ومن صفات الله فى الاسلام ، ما يعتبر ردا على فكرة الله فى الفلسفة الارسطية ، كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل فى الاديان الكتابية وغير الكتابية ٠

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ، ويتنزه عن الارادة لان الارادة طلب فى رأيه ، والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات ، لانه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة ٠٠ لان الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى اليه ٠ ولكن الله فى الاسلام عالم الغيب والشهادة ٠

((**وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة**)) (سورة يونس : ٦١) ٠

((**وهو بكل خلق عليم**)) (سورة ياسين : ٧٩) ٠

((**وما كنا عن الخلق غافلين**)) (سورة المؤمنون : ١٧) ٠

((**وسع ربنا كل شىء علما**)) (سورة الاعراف : ٨٩) ٠

((**ألا له الخلق والامر**)) (سورة الاعراف : ٥٤) ٠

((**عليم بذات الصدور**)) (سورة فاطر : ٣٨) ٠

وهو كذلك مريد وفعال لما يريد ٠

((**وقالت اليهود : يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان**)) (المائدة : ٦٤) ٠

وفى هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات ، كما جاء فى أقوال بعض المفسرين ، ولكنها ترد على كل من يغلون ارادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون فى يهود الجزيرة من يشير الى رواية من روايات الفلسفة الارسطية بذلك المقال ٠

وقد أشار القرآن الكريم الى الخلاف بين الاديان المتعددة فجاء فيه من ((سورة الحج : ١٧) :

« ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين اشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء شـــهيد » •

وأشار الى الدهريين فجاء فى سورة (الانعام : ٢٩) • **« وقالوا : ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »** • وجاء فيه من سورة (الجاثية : ٢٤) **« وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون »** •

فكانت فكرة الله فى الاسلام ، هى الفكرة المتممة لافكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها ، ولهذا بلغت المثل الاعلى فى صفات الذات الالهية ، وتضمنت تصحيحا للضمائر وتصحيحا للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله ، بقسطاس الايمان وقسطاس النظر والقياس •

ومن ثم كان فكر الانسان من وسائل الوصول الى معرفة الله فى الاسلام ، وان كانت الهداية كلها من الله •

ومجمل ما يقال عن عقيدة الذات الالهية التى جاء بها الاسلام : أن الذات الالهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات • وقد جاء الاسلام بالقول الفصل فى مسألة البقاء والفناء • فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفانى صورة أقرب الى الفهم من صورتيهما فى العقيـدة الاسلامية ، لان العقـــل لا يتصور وجودين سرمديين ، كلاهما غير مخلوق ، أحدهما مجرد والآخر مادة ، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء •

ولكنه يتصور وجودا أبديا يخلق وجودا زمانيا ، أو يتصور وجـودا يدوم ، ووجودا يبتدىء وينتهى فى الزمان •

وقديما قال أفلاطون ــ وأصـــاب فيما قال ــ : ان الزمان ليس محاكاة للابد ••• لانه مخلوق والابد غير مخلوق •

فبقاء المخلوقات بقاء فى الزمن ، وبقاء الخالق بقاء أبدى سرمدى لا يحده الماضى والحاضر والمستقبل ، لانها كلها من حدود الحركة والانتقال فى تصور أبناء الفناء ، ولا تجوز فى حق الخالق السرمدى حركة ولا انتقال •

فالله هو **« الحى الذى لا يموت »** (سورة الفرقان : ٥٨) •

« وهو الذى يحيى ويميت » (سورة المؤمنون : ٨٠) •

و ((كل شيء هالك الا وجهه)) (سورة القصص : ٨٨) .

وأيا كان المرتقى الذى ارتفع اليه تنزيه الفكرة الالهية فى مذهب أرسطو كما شرحناه بعض الشرح ، أو مذهب أستاذه أفلاطون كما أومأنا اليه بعض الايحاء ، فهذا التنزيه الفلسفى(١) كاد أن يكون خيالا جامحا بالنسبة الى العقائد الالهية التى كانت فاشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان .

فلا شك أن صورة « جوبيتر » رب الارباب عندهم ، كانت أقرب الى صورة الشيطان منها الى صورة الارباب المنزهين ، ولو لم يبلغ وصف التنزيه عندهم نصيبا ملحوظا من الكمال .

كان « جوبيتر » حقودا لدودا ، مشغولا بشهوات الطعام والغرام ، لا يبالى من شؤون الارباب والمخلوقات الا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادى فى طغيانه ، وكان يغضب على « أسقولاب » اله الطب ، لانه يداوى المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الارض الى باطن الهاوية ، وكان يغضب على « برومثيوس » اله المعرفة والصناعة ، لانه يعلّم الانسان أن يستخدم النار فى الصناعة ، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الارباب ، وقد حكم عليـــه بالعقاب الدائم ، فلم يقنع بموته ولا باقصائه عن حظيرة الآلهة ، بل تفنن فى اختراع ألوان العذاب له ، فقيده الى جبل سحيق ، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار ، حتى اذا جن الليل عادت سليمة فى بدنه ، لتعود الجوارح الى نهشها بعد مطلع الشمس .. ولا يزال هكذا دواليك فى العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء . وممــا رواه الشاعر الفيلسوف « هزيود » عن علة غضب الاله على « برومثيوس » أنه قسم له نصيبه من الطعام فى وليمة الارباب ، فأكثر فيه من العظام . وأقل فيه من اللحوم والشحوم ، فاعتقد « جوبيتر » أنه يتعالم عليه بمعرفته وفطنته ، لانه اشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة ، لم يشتهر بهــا الاله الكبير . ولا يغيب عنا ونحن نروى أخبار الاله الكبير منقولة عن « هزيود » أن هذا الشاعر الفيلسوف ، قد اجتهد قصارى اجتهاده فى تنزيه « جوبيتر » وتصويره للناس فى صورة من القداسة والعظمة ، تناسب صورة الاله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئا ما فى ديانة اليونان الاقدمين .

ومما رواه الرواة المختلفون عن « جوبيتر » ، أنه كان يخادع زوجتــه « هيرة » ويرسل اله الغمام لمداراة الشمس فى مطلعها ، حذرا من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ، ومفاجأته بين عشيقاته على عرش « الاولمب » ..

---

(١) ومع ذلك كان ضربا من التخبط والهذيان .

وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه « جانيميد » راعى الضأن الجميل الذى لمحه فى الخلاء ، فاختطفه وصعد به الى السماء ·· فلم يتنصل « جوبيتر » من تهمة الشغف بساقيه ، ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه ·

ومثل الامم القديمة كمثل اليونان فى بعد الفارق بين صورة الاله فى حكمة الفلاسفة ، وبين صورته فى شعائر الكهاء والمتعبدين ·

فالهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعابدها على طوائف من الارباب : منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة ، ومنها ما يلحق بالاوثان والانصاب ، وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا اليه بالبغاء المقدس وسفك الدماء ·

وقد انتهت هذه الارباب المتعددة الى الثالوث الابدى الذى اشتمل على ثلاث من الصور الالهية ، هى : الاله « براهما » فى صورة الخالق ، والاله « فشنو » فى صورة الحافظ ، والاله « سيفا » فى صورة الهادم ·· فجعلوا الهدم والفساد من عمل الاله الاعلى الذى يتولاه حين يتشكل لعباده فى تلك الصورة · وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل اله قرينا يسمونه « الشاكى » أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون اليها من الشرور ما ينزهون عنه قرينها أو أصحابها ·

فهذه الارباب صور لا تتباعد المسافة بينها وبين صور الشياطين والعفاريت والارواح الخبيثة المعهودة فى أقدم الديانات ، فاذا ارتفعنا فى معارج التنزيه والتجريد(١) بلغنا منها ذروتها العليا فى صورتين مختلفتين : احداهما صورة « الكارما » والصورة الاخرى « النرفانا » وكلتاهما تحسب من قبيل المعانى الذهنية ، وقل أن توصف بوصف الذات الالهية · فالكارما هى القدر الغالب على جميع الموجودات ومنها الآلهة وأفلاك السماء ، وهذا القدر هو فى الواقع حالة من الحالات العامة ، يمكن أن نعبر عنها بأنها هى « ما ينبغى » أو هى الوضع الحاصل على النحو الامثل ، فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتا الهية معروفة الصفات ، ولكنه مرادف لكلمة « الانبغاء » أو كلمة « الواجب » كما وجب فى الحوادث والموجودات ·

---

(١) عندما يتحدث العقاد عن التنزيه والتجريد عند الامم ، يقصد بذلك التنزيه والتجريد النسبيين اللذين وصل اليهما عقل الامة فى حالة من حالاتها ، لا التنزيه والتجريد كما ينبغى أن يكونا ، فذلك لم يعرفهما الا المسلمون كما هو واضح من سياق كلامه ·

والنرفانا حالة عامة كحالة الكارما ، الا أنها الى العدم أقرب منها الى الوجود ، لانها الحالة التى تنتهى اليها جميع الارواح حين تفرغ من عناء الوجود ، وتتجرد من شواغل الاجساد وشواغل الارواح على السواء ، وتتساوى أرواح الآلهة وأرواح البشر فى حالة النرفانا هذه ، كلما سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود •

ولسنا نريد فى هذه الصفحات القليلة ، أن نتتبع صورة الالهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الاولى ، وانما نجتزىء منها بالنماذج الدالة عليها فيما ارتقت اليه من التنزيه ، وفيما هبطت اليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه ، ولهذا يغنينا عن الاسترسال فى شرح عادات الاقدمين أن نضيف الى ما تقدم مثلا آخر يتمم أمثلة اليونان والهند ، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة الى عهد الديانات الكتابية ، وهى ــ أى الديانة المصرية القديمة ــ أرفع الديانات فيما نعلم ترقيا الى ذروة التوحيد والتنزيه ، وان كانت فى عبادتها الشائعة تهبط أحيانا الى مهبط الديانات الغابرة من عبادة الطواطم والانصاب ، وعبادة الارواح الخبيثة والشياطين •

بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتنزيه فى ديانة « آتون » التى بشر بها الفرعون المنسوب اليه « أخناتون » •

ويؤخذ من صلوات أخناتون المحفوظة بين أيدينا ، أنه كان يصلى الى خالق واحد ، يكاد يقترب فى صفاته من الاله الخالق الذى يصلى له العارفون من أتباع الديانات الكتابية ، لولا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس ، فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزا له ومرادفا لاسمه فى معظم الصلوات •



هذه الشواهد من التاريخ القديم ، شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتفصيل ، وهى مغنية فى الدلالة على المدى الذى وصل اليه تنزيه الفكرة الالهية فى أمم التاريخ القديم جميعها ، لانها تدل على ما وصلت اليه الفكرة الالهية المنزهة فى أرفع الحضارات الاولى ، وهى الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية •

وجملة الملاحظات على تنزيه الفكرة الالهية عند الاقدمين ، أنه كان تنزيها خاصا مقصورا على الفئة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الاسرار الدينيــة •

ثم يلاحظ عليه بعد ذلك ، أنه تنزيه لم يسلم فى كل آنة من ضعف يعيبه عقلا ، ويجعله غير صالح للاخذ به فى ديانات الجماعة على الخصوص ٠

ففى الديانة المصرية ، لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية ، ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الاثر فى عبادة آتون ٠

وديانة الهند لم تعلم الناس الايمان « بذات الهية » معروفة الصفات ، وليس فى معبوداتها أشرف من الكارما والنرفانا ، وهما بالمعانى الذهنية أشبه منهما بالكائنات الحية ، واحداهما ــ وهى النرفانا ــ الى الفناء أقرب منها الى البقاء ٠

والتنزيه الفلسفى الذى ارتقت اليه حكمة اليونان فى مذهب أرسطو ، يكاد يلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق ، ويخرج لنا صورة للاله لا تصلح للايمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح ٠

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الالهى مبلغه الذى جاءت به الديانة الاسلامية ، صالحا للايمان به فى العقيدة الدينية وصالحا للاخذ به فى مذاهب التفكير ٠

والديانة الاسلامية ــ كما هو معلوم ــ ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية ، مكانها فى علم المقارنة بين الاديان مرتبط بمكان الديانتين الاخريين وهما الموسوية والمسيحية ، وتجرى المقارنة بين الاسلام وبينهما فعلا فى كتابات الغربيين ، فلا يتورع أكثرهم من حسبان الاسلام نسخة مشوهة أو محرفة من المسيحية أو الموسوية ٠٠

والمسألة ــ بعد ــ مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة ، لا تحتمل الجدل الطويل فى ميزان النقد والمقارنة ، وان احتملته فى مجال الدعوة والخصومة العصبية ، ولا حاجة فى المقارنة بين هذه الديانات الى أكثر من ذكر العقيدة الالهية فى كل منها للعلم الصحيح بمكانها من التنزيه فى حكم الدين وحكم المعرفة النظرية ٠

ان المراجع التى تلقينا منها عقائد العبريين كما يدين بها أتباع الديانة الموسوية الى يومنا هذا ، مبسوطة بين أيدى جميع القادرين على مطالعتها فى لغاتها الاصيلة أو لغاتها المترجمة ، وأشهرها التوراة(١) والتلمود ٠ فصورة

---

(١) نصوص التوراة يلتزم بها اليهود والنصارى على السواء ، ولا يستحيى هؤلاء وأولئك أن يقارنوا عقيدتنا بعقيدتهم مع كل ما فيها من سفاسف كما سنرى ، بل يزيدون على ذلك أنهم يعتبرون عقيدتنا هابطة عن عقائدهم ، ثم يقال : ان لهؤلاء عقولا !!٠

الاله فى هذه المراجع من أوائلها الى أواخرها هى صورة « يهوا » اله شعب اسرائيل ...

وقد وصفوه فى كتبهم المقدسة ، فقالوا عنه مرة : انه يحب ريح الشواء ، وقالوا عنه مرة أخرى : انه يتمشى فى ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها ، وقالوا عنه غير هذا وذاك . انه يصارع عباده ويصارعونه ، وانه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده ، وغبروا ردحا من الدهر وهم يسوون بينه وبين عزرائيل شيطان البرية ، فيتقربون اليه بذبيحة ، ويتقربون الى الشيطان بذبيحة مثلها ...

وجمد العبريون على عقيدتهم الالهية ، فظل « يهوا » الها عبريا ، يستأثر بـه أبناء يعقوب بن اسحاق ، ولا يرجو الخلاص بمعونة منه الا الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده ، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العبريين قبل عصر الميلاد المسيحى ، ولم يأت التغيير فيه من قبل أبناء اسرائيل المحافظين على عقيدتهم الاولى ، بل أتى هذا التغيير من قبل المصلحين المجددين فى الدين اليهودى ، وقام به من بينهم رسول مغضوب عليه فى شرعتهم ، متهم بالمروق من زمرتهم ، وهو عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه .

وابتدأ عيسى بن مريم دعوته الاولى مختصا بها بنى اسرائيل دون سواهم من العالمين ، وذكرت لنا الاناجيل تفصيل الحوار الذى دار بين السيد المسيح وبين المرأة الكنعانية التى توسلت اليه أن يخرج الشيطان من ابنتها ، فروى انجيل مرقص فى الاصحاح السابع :

« أن امرأة بابنتها روح نجس ، سمعت بـه ، فأتت وخرت عند قدميه ، وكانت المرأة أممية ــ أى من أبناء الامم غير الاسرائيلية ــ وفى جنسها فينيقية سورية ، فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها ، وأما يسوع ، فقال لها : دعى البنين أولا يشبعون ، لانه ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فأجابت وقالت له : نعم يا سيد ، والكلاب أيضا تحت المائدة تأكل من فتات البنين ، فقال لها : لاجل هذه الكلمة ، اذهبى قد خرج الشيطان من ابنتك .. » .

ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقص حيث جاء فى الاصحاح الخامس عشر من الانجيل المنسوب اليه :

ان السيد المسيح « خرج من هناك وانصرف الى نواحى صور وصيداء ، واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمنى يا سيد

يا ابنَ داود . ابنتى مجنونة جدا . فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لانها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد أعنى . فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخــذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت : نعم يا سيد . والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها ، حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة . عظيم ايمانك ، ليكن لك كما تريدين . فشفيت ابنتها من تلك الساعة » .

ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التلاميذ فى الاناجيل ، أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاص بنى اسرائيل بدعوته ، ولم يتحول عنهم الى غيرهم الا بعد اصرارهم على رفضه ولجاجتهم فى انكار رسالته ، فوجد بعد اليأس منهم أنه فى حل من صرف الدعوة عنهم الى الامم المقيمة بينهم ، وضرب المثل لذلك بصاحب الدار الذى أقام وليمة العرس فى داره ، وأرسـل الدعوة الى ذويه وجيرانه ، فتعللوا بالمعاذير والشواغل ولم يستجيبوا لدعوته ، فأطلق غلمانه الى أعطاف الطريق يدعون من يصادفهم من الغرباء وعابرى السبيل ، على غير معرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم ، حتى امتلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن اختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها .

ويلاحظ فى قصة المرأة الكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالســيد ابن داود ، وأن عقيدة العبريين لم تزل تعلق آمالهم بالخلاص على يد رسول من ذرية داود ومن سلالة يعقوب بن اسحق بن ابراهيم .

ومضى عصر المسيح ، وجاء بعده عصر بولس الرسول ، وعقيدة الخلاص الموقوف على سلالة ابراهيم الخليل باقية مسلمة بين العبريين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد ، وانما أضيف اليهـا تفسير جديد لهذه البنوة ، وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على بنوة الجسد ، ولا فارق فيها بين من يحيون سنة ابراهيم الخليل من العبريين أو من الاميين الذين يسميهم العبريون « بالجوييم » .. أى الاقوام الغرباء .

فالعقيدة الالهية كما دان بها العبريون ، وجمدوا عليها الى عصر الميلاد ، انمـا هى عقيدة شعب مختار بين الشعوب فى اله مختار بين الآلهة(١) ،

---

(١) يشير العقاد هنا الى كثير من النصوص التورانية التى تشعر القارىء بأن اليهود لا يعتبرون الله رب العالمين ، بل هو ربهم فقط ، وللاخرين أربابهم ، وليس هذا طبعا العقيدة الصافية التى دعا لهـا موسى عليه السلام وفصلتها التوراة قبل تحريفها .

وليس فى هذه العقيدة ايمان بالتوحيد ، ولا هى مما يتسع لديانة انسانية ، أو مما يصح أن يحسبه الباحث المنصف مقدمة للايمان بالاله الذى يدعو اليه الاســـلام ٠

ثم تطورت هذه العقيدة الالهية بعد ظهور المسيحية ، فانتقلت من الايمان بالاله لابناء ابراهيم فى الجسد الى الايمان بالاله لابناء ابراهيم فى الروح ، وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول ، واتصلت المسيحية بالامم الاجنبية وفى مقدمتها الامة المصرية ، فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة الهية جديدة فى مذهب العبريين ، وهى عقيدة الثالوث المجتمع من الآب والابن والروح القدس ، وفحواها أن المسيح المخلص هو ابن الله ، وأن الله أرسله فداء لابناء آدم وحواء ، وكفارة عن الخطيئة التى وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة فى الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها ٠

وظهر الاسلام وفحوى العقيدة الالهية كما تطورت بهـا الديانة المسيحية ، ان الله الاله واحد من أقانيم(١) ثلاثة هى : الآب والابن والروح القـــدس وان المسيح هو الابن من هذه الاقانيم ، وهو ذو طبيعة الهية واحدة فى مذهب فريق من المسيحيين ، وذو طبيعتين الهية وانسانية فى مذهب فريق آخر ٠

ومن البديهى أن الباحث الذى يريد تطبيق علم المقارنة بين الاديان على المسيحية والاسلام ، مطالب بالرجوع الى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الاسلام فى الجزيرة العربية ، فلا يجوز لاحد من هؤلاء الباحثين ، أن يزعم أن الاسلام نسخة محرفة من المسيحية ، الا اذا اعتقد أن نبى الاسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها فى بيئته العربية ، وفيما اتصل به من البيئات الاخرى حول جزيرة العرب ٠ ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية فى سائر البيئات ومختلف العصور ، فالعقيدة المسيحية التى يجوز لصاحب المقارنة بين الاديان أن يجعلها قدوة للاسلام ، انما هى عقيدة المسيحيين فى الجزيرة العربية وما حولها ، وقد وصف « جورج سيل » مترجم القرآن الى اللغة الانجليزية حالة المسيحيين فى الحجاز وفى سائر الانحاء القريبة منه ، فقال ما ننقله من ترجمـــة مقدمته للقـرآن :

---

(١) ١ + ١ + ١ = ١ هذا الكلام غير المعقول يعتبره الذين لا يستحيون أستاذا لمثل هذا النص : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ٠ لقد جئتم شيئا اذا ٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ٠ أن دعوا للرحمن ولدا ٠ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ٠ ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا ٠ لقد أحصاهم وعدهم عدا ٠ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » ٠ (مريم : ٨٨ ـ ٩٥) ع

« انه من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الاحوال فى صدر المائة الثالثة للميلاد ، قد اضطر كثيرين من أنصارها أن يلجأوا الى بلاد العرب طلبا للحرية ، وكان معظمهم يعاقبة ، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة • وأهم القبائل التى تنصرت : حمير ، وغسان ، وربيعة ، وتغلب ، وبهراء ، وتنوخ ، وبعض طىء ، وقضاعة ، وأهل نجران ، والحيرة •• ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك — ولابد — أنه كان للنصارى أساقفة فى مواضع جمة ، لتنظم بهم سياسة الكنائس ، وقد تقدم ذكر أسقف ظفار ، وقال بعضهم : كانت نجران مقام أسقف ، وكان لليعاقبة أسقفان ، يدعى أحدهما : أسقف العرب باطلاق اللفظ ، وكان مقامه باكولة — وهى الكوفة عند ابن العبرى ، أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء — وثانيهما يدعى : أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة • أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريكهم » •

الى أن يقول :

« أما الكنيسة الشرقية ، فانها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضى ، وانتقض حبلها بمحاكاة الاريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع • على أن الذى ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية ، كانت بأن تدعى اختلافا فى التعبير عن المعتقد ، أولى من أن تدعى اختلافا فى المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتغلب بها كل من المتناظرين على الآخر ، أولى من أن تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة ، يتردد اليها جماعة القساوسة والاساقفة ، ويتماحكون ، ليعلى كل واحد منهم كلمته ، ويحيل القضايا الى هواه • ثم ان نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك ، كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش • أو من أصحاب الخطب ، يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم •• وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى ، والنصفة تباع وتشترى جهارا • أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وأرسكينوس ، فى المشاحنة على منصة الاسقفية — أى أسقفية روما — ما أفضى الى احتدام نار الفتنة ، وسفك الدماء بين حزبيهما •• وكان أكثر ما تنشأ المناقشات من القياصرة أنفسهم ، ولا سيما القيصر قسطنطينوس ، فانه اذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ، ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية •• هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب • أما فى بلاد هذه الامة التى هى موضوع بحثنا ، فلم تكن خيرا من ذلك •• فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الآخر ، وقيل أن أوربيجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب • وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها !!

فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم(١) ويعبدونها كأنما هى الله ، ويقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها : كليرس ، وبها سمى أصحاب هذه البدع كليريين .. وفضلا عن ذلك ، فقد اجتمع أيضا فى جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الاسماء ، لجأوا اليها هربا من اضطهاد القياصرة .. » .

كانت عقائد الفرق المسيحية فى جزيرة العرب ، وفى العالم المترامى حول جزيرة العرب ، على هذا النحو الذى وصفه رجل متعصب على الاسلام ، لا يتهم بمحاباته ، ولا يظن به أنه يتجانف على المسيحية وهو قادر على مداراتها .

ومن الواضح البين أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو ، لم تكن مما يغرى بالاعجاب ، أو مما يدعو الى الاقتداء . ومن الواضح البين أن موقف الاسلام ، كان موقف المصحح المتمم ، ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية .

فقد جاء الاسلام بالدعوة الى اله منزه عن لوثة الشرك ، منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية الى الاديان الكتابية .

فالله الذى يؤمن به المسلمون ، اله واحد لم يكن له شركاء ، و « **سبحانه عما يشركون** » .

وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة .. ولكنه هو « رب العالمين خلق الناس جميعا ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى .. فلا فضل بينهم لعربى على أعجمى ، ولا لقرشى على حبشى ، الا بالتقوى .

« **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » (سورة الحجرات : ١٣) .

وهو واحد أحد : « **لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد** »
(سورة الاخلاص : ٣ ـ ٤) .

لا يأخذ انسانا بذنب انسان ، ولا يحاسب أمة خلفت بجريرة أمة سلفت ، ولا يدين العالم كله بغير نذير .

---

(١) أشار القرآن الى هؤلاء بقوله : « واذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى الهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » (المائدة : ١١٦) .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »(١) (سورة فاطر : ١٨) ٠

تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » (سورة البقرة : ١٣٤) ٠

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (سورة الاسراء : ١٥) ٠

ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه : **« باسم الله الرحمن الرحيم »** ٠

« وما ربك بظلام للعبيد » (سورة فصلت : ٤٦) ٠

و **« هو الاول والآخر والظاهر والباطن »** (سورة الحديد : ٣) ٠

« وسع ربى كل شيء علما » (سورة الانعام : ٨٠) ٠

« وهو بكل خلق عليم » (سورة يس : ٧٩) ٠

وللباحث فى مقارنات الاديان ، أن يقول ما يشاء عن هذا الاله الواحد الاحد ، رب العالمين ، ورب المشرقين والمغربين ، الا أن يقول : انه نسخة مستمدة من عقائد عرب الجاهلية ، أو عقائد الفرق الكتابية التى خالطت عقائد الجاهليين ، على النحو الذى وصفه « جورج سيل » فى مقدمته لترجمة القرآن الكريم ، فان العقيدة الالهية التى تستمد من تراث الجاهليين ، لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية ، ولا مفخرة أظهر من مفاخر الاحساب ، ولن تخلو من لوثة الشرك ، ولا من عقابيل العبادات التى امتلات بالخبائث ، وحلت فيها الرقى والتعاويذ محل الشعائر والصلوات ٠

ومعجزة المعجزات ، أن الاسلام لم يكن كذلك ، بل كان نقيض ذلك فى صراحة حاسمة جازمة ، لا تأذن بالهوادة ولا بالمساومة ، فما من خلة كانت أبغض اليه من خلة العصبية الجاهلية ، والمفاخرة الجاهلية ، والتناحر الجاهلى على فوارق الانساب والاحزاب ٠

فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذى ينكر العصبية ٠

---

(١) أين هذا من عقيدتهم فى اثم البشرية كلها لخطيئة آدم عليه السلام ، حتى يضطر الله فى زعمهم الكاذب لاعدام ابنه ٠ تعالى الله عما يصفون !!

ومن جوف بلاد القبائل والعشائر ، خرج الدين الذى يدعو الى اله واحد « رب العالمين » ورب المشرق والمغرب ، ورب الامم الانسانية جمعاء ، بغير فارق بينها ، غير فارق الصلاح والايمان •

على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الاديان فى الغرب ، يطلقون نعوتهم على الاسلام سماعا ــ فيما يظهر ــ من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية ، التى لا يبدو منها أنهم كلفوا عقولهم جدا وحقا ، أن تلم الماما واحدة بهذا الدين فى جملة أو تفصيل •

ففى كتاب من أحدث الكتب عن أديان بنى الانسان ، ألفه أستاذ للفلسفة فى جامعة كبيرة ، يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات ــ بعد الاشارة الى السيف والعنف والاقتباس من النصرانية والصابئية والمجوسية :

« ان محمدا أسبغ على الله ــ ربه ــ ثوبا من الخلق العربى ، والشخصية العربيـــة ••• »(١) •

ويقول المؤلف :

« ان الحقيقة التى أقررها هنا ، تتجلى للباحث كلما تقدم فى دراسة هذا الدين العربى ، وهذه الشخصية الالهية العربية » •

بهذا النعت التقليدى ينعت المؤلف اله الاسلام ، بعد أن تقدم فى دراسته على حد قوله •• فماذا كان عساه قائلا لو أنه لم يسمع باسم الاسلام الا على الاشاعة من بعيد ؟!

لعله لم يكن بحاجة الى التقدم وراء البسملة فى سورة الفاتحة ، ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين ، وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه •••

ولعله كان يحسن المقارنة جدا ، وحقا ، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات اله الاسلام ، وقارن بينها وبين دين الصفات التى يختارها غير المسلمين ، فلا يذكرون الله فى مفتتح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت •

---

(١) لعله يكون أكثر اغرابا لو استشهد على ما ذهب اليه بقوله تعالى : « قل لو البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلما تربى ولو جئنا بمثله مددا » •

حسـدا حملنـه من أجلهـا   وقديما كان فى الناس الحسـد

فالله رب العالمين ، ملك يوم الدين ، لم يكن نسخة محرفة من صــورة « الله » فى عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الاصل الذى يثوب اليه من ينحرف عن العقيــدة فى الاله ، كأكمل ما كانت عليـــه ، وكأكمل ما ينبغى أن يكون ·

ومن ثم كانت هذه العقيدة الالهية فى الاسلام ، مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات ، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية ·

فهى عقيدة كاملة ، صححت وتممت عقيدة الهند فى الكارما والنرفانا ؛ لانها عقيدة فى خواء ، أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة ·

وهى عقيدة كاملة ، صححت وتممت عقيدة المعلم الاول بين فلاسفة الغرب الاقدمين ، لانه كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه ، ساقه هذا الخطأ الى القول بكمال مطلق ، كالعدم المطلق فى التجرد من العمل ، والتجرد من الارادة ، والتجرد من الروح ·

ودين يصحح العقائد الالهية ، ويتممها فيما سبقه من ديانات الامم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها ، تراه من أين أتى ، ومن أى رسول كان مبعثــه ومدعــاه ؟

من صحراء العرب ·

ومن الرسول الامى بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات ·

ان لم يكن هذا وحيا من الله ، فكيف يكون الوحى من الله ؟!

لكن كيف كان فى أخلاد المؤمنين بالوحى الالهى حيث كان ، فما يهتدى رجل « أمى » فى أكناف الصحراء الى ايمان بالله ، أكمل من كل ايمان تقدم ، الا أن يكون ذلك وحيا من الله · وانه لحجر على البصائر والعقول ، أن تنكر الوحى على هذه المعجزة العليا ، لانه لا يصدق عليها فى صورة من صور الحدس أو الخيال · انتهى كلام العقاد ·

* * *

وبعد : فمن العجيب الغريب المضحك المبكى ، أن نضطر لمقارنة عقيــدة الاسلام فى باب الربوبية ، مع سخافات الد..ر فى هذا الباب !!

أليس عجيبا أن نقارن ديانة فيها مثل هذا النص :

« ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » (لقمان : ٢٧) .

بديانة تقول عن الله : بأنه يجامع ، أو يصارع خلقه ، ويكادون يغلبونه . أو أن له ولدا ، أى وزوجة . مثل هذا الكلام التافه يمكن أن يقارن به ذلك الكلام العظيم ؟!

ان أى نص عن الذات الالهية فى الاسلام تدرسه ، يدلك على أن هذا النص لا يمكن أن يكون الا من عند الله ذاته ، كلاما أو وحيا .

ولكن ما العمل اذا ألف الناس العمى لدرجة أنهم لا يحبون معه الابصار ؟!

* * *

لقد درسنا ظواهر الكون ، فدلتنا على صفات الله ، فلما عدنا الى كتاب الله ازداد الفهم عمقا ، وأدركنا من أبعاد الموضوع أكثر ، ولا شك أنه لولا أننا مسلمون ، قد استقرت فى أذهاننا معرفة الله كأثر عن الوحى ، ما سرنا فى هذا البحث على مثل هذا السير . فدين يأخذ بيد العقل على هدى العلم ، ليدله على أن يربط الفروع بأصولها ، ويرجع بالاصول الى مصدرها دين لا يمكن أن يكون الا حقا .

* * *

ان هناك ناسا لا يسمعون ولا يعقلون ولا يفكرون ، عقائدهم سخيفة ، فاذا ما دعوا الى مثل هذا الصفاء ، والى مثل هذا المنطق الحكيم ، رفضوه لانهم درجوا على عقيدة خاطئة ، وألفوها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث ، فهؤلاء كما قال الله عنهم : **((انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم))** (الزخرف : ٢٢) كل أصحاب عقيدة باطلة يقولون هذا . أفما ينبغى لهؤلاء أن يعيدوا النظر ؟! فالقضية ليست قضية خيار ، وانما هى قضية مصير الانسان : اما الى جنة ، أو الى نار ستحرقهم مع آبائهم أبدا ، ان لم يهتدوا .

ان الوثنيين ، والمشبهين ، والمتنقصين ، والذين يعطون صفات الله لخلقه من غفران ذنب ، أو تفريج كرب ، أو اجابة دعاء أو تمجيد وتعظيم . ان الذين

لم يعرفوا صفات الله العليا ، وأسماءه الحسنى ، ووجوده الكامل ، وهيمنته الدائمة ، وامداده العظيم ، وتدبيره لشؤون خلقه ابتداءا وانتهاءا ، ان الذين لا يرون آيات الله في كل ما خلق . **هؤلاء كلهم لا يعرفون الله .**

اننا نحن المسلمين فقط نعرف الله حق المعرفة ، وننزهه حق التنزيه ، ونعبده حق العبادة ، ومن قرأ الجزء الثاني والثالث من هذا الكتاب ، سيرى حقا عجبا ، لا يمكن أن يكون ، لولا أن الله عز وجل ، هو الذى أوحى ، ويسر ، وأراد ما أراد لهذا الرسول وبهذا الدين .

فهرس الكتاب

دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله، الرسول، الإسلام

الرسول صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

« سنرى فى هذا البحث ، بالدليل والبرهان أن محمدا رسول الله حقا ، وأن محمدا أعظم الناس فى كل شىء ، وأن الذين يتخذون غيره قدوة حمقى وناقصون » .

بقلم
سعيد حوى

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت : ٩٢٤٧٠

المقدمة

من بين هذه المخلوقات التى تعد بالبلايين يظهر هذا الانسان بشكل متميز جدا ، وتميزه عن بقية المخلوقات يجعله عالما وحده تنطوى فيه العواله ويبقى بعد ذلك بقية من التفرد ٠

ونواحى هذا التفرد فى الانسان كثيرة نشير الى ما يلى منها :

١ ـ **فى خلقته** : قال تعالى **((لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم))** فما من شىء فى الانسان الا وقد ركب وصور على احسن مثال وأجمله وأعدله وأكمله ، قارن بين الانسان وبين أى مخلوق آخر من حيث الخلقة تجد تشابها فى مالابد منه للحى كحى ، ثم ترى بعد ذلك أوجه التمايز يد الانسان تمتاز على يد أى مخلوق آخر ، ولولا هذا لما كانت حضارات ، وقامة الانسان وانتصاب جسمه لا يشبهه فيه غيره ، وبشرة الانسان وأعضاؤه كل ذلك فيه تميز ، وهو فى الانسان أكمل وأعدل وأجمل من الظفر الى الشعر الى الانف الى الاذن الى الوجه الى القدم الى أى شىء ٠

٢ ـ **فى علمه** : قال تعالى : **((وعلم آدم الاسماء كلها))** وقال : **((علم الانسان ما لم يعلم))** فالانسان وحده أعطى ملكة التعلم بشكل لا مثيل له عند غيره ٠ فالمادة لا تعقل أصلا ، وكذلك النبات ، وعلم الحيوان محصور ضمن حدود طعامه وشرابه وسفاده ، والخطر الذى يتهدده ، ولا يتعلم شيئا الا بصعوبة ٠ أما الانسان فيعقل ذاته ويعقل غيره ، ويركب ويحلل ، يعرف الاشياء ، ولماذا وجدت وكيف وجدت وكيف يستفاد منها ، ويعرف القوانين التى تربط بين الاشياء أو التى تخضع لها الاشياء ، وآثار علم الانسان واضحة جلية وتميز الانسان فى ذلك واضح جلى ٠

٣ ـ **فى ارادته** : قال تعالى : **((انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا))** ان العلم شىء سلبى ، والذى يجعله ايجابيا ، هو الارادة ، وكلما كانت الاحاطة فى موضوع أتم كان مجال الاختبار أوسع ولما كان الانسان أكثر علما فهو أوسع ارادة ، ومجال الارادات أمامه أكثر وهو بالتالى يملك أكبر قدر من الارادة ٠ ولذلك تراه يستطيع أن يتصرف أمام الحادث الواحد بأكثر من أسلوب فاذا ظلم قد يعفو أو ينتقم وقد يكظم غيظه أو يظهره وقد

يؤخر الانتقام لتسنح له الفرصة وقد يجبن ٠ وقد يترفع وقد يسف وقد يرد بالمثل وقد يطغى وقد وقد ٠٠ مواقف كثيرة أمام الحادث الواحد ، أما الحيوان فله تصرف واحد أمام الحادث الواحد على ضآلة عدد مواقفه ومحدوديتها ٠٠ وهكذا فتميز الانسان فى صفة الارادة واضح جلى ٠

٤ ـ **فى مكانته وامكاناته :** ان مكانة الانسان فى الوجود هى السيادة ، وذلك أن كل شىء مسخر له : ((**هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا**)) ٠ ((**ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض**)) ٠ ((**هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها**)) وامكانيات الانسان تبلغ أن تستفيد من طاقات هذا الكون ٠ فقدرة الانسان هائلة يكفى لمعرفة تميزها على سبيل المثال أن نذكر أن كل الحيوانات لا تستطيع أن تصنع حتى فأسا بينما صنع الانسان الاقمار الصناعية والقنابل الذرية ٠

٥ ـ **فى ملكة البيان عنده :** قال تعالى : ((**الرحمن علم القرآن خلق الانسان ٠ علمه البيان**)) ان الحيوانات كلها لاتخرج من أفواهها الا أصوات مبهمة ، أما الانسان فانه يستطيع أن يخرج هذه الاصوات وزيادة على ذلك فانه يستطيع أن يخرج سبعا وعشرين حرفا تتركب منها مليارات الكلمات فى كل لغات العالم يتكلم بها الانسان ٠ فيسحر ويضحك ويبكى ويفسد ويصلح ويشعر أو ينثر ويبين عن خلجات الخاطر واشراقة الوجدان ، وقوانين الكون والسماء والارض ، ويغنى وينشد ، ان تميز الانسان فى ملكة البيان من أبرز خصائصه ٠

٦ ـ **فى عقله وادراكه وخياله وتصوره :** ان الحيوان يشترك مع الانسان فى حواسه ولكن الانسان يمتاز عنه ادراكا وتصورا وخيالا أرقى وأعلى ٠ فالانسان والحيوان يشاهدان زرقة البحر ولكن شتان بين النظرتين ٠ فزرقة البحر ألهم بسببها الانسان شعرا ونثرا وعلما ومتعة وتأملات واشارات الى أشياء كثيرة ، وتضع السم للذبابة فى ماء السكر فتأكل منه وتموت وتأتى الاخرى والاخرى ويمتن جميعا ولا يخطر لواحدة منهن أن تتعظ ، ترى كم انسانا يأكل من طعام مات منه غيره ورآه ؟ ٠٠

٧ ـ **فى استعداده الاخلاقى :** هناك أخلاق عالية وأخلاق سافلة ، أخلاق راقية وأخلاق منحطة ، أخلاق فاضلة وأخلاق مرذولة ، والانسان عنده استعداد لان يتدنى فيكون أخبث الموجودات أو يتعلى فيكون مثال طهر ٠ وعنده استعداد ليكون فى أحد حيزى الخير أو الشر أو يخلط بين الجانبين على حين الحيوان يبقى ذا خلق واحد فى الغالب ، فالغل والحقد والحسد والغش والكبر والرياء والغضب والطمع والبذخ والبطر والفخر والخيلاء والصلف والمداهنة والعجب والمكر والخيانة والمخادعة والقسوة والفظاظة والجفاء والطيش

وقلة الحياء وقلة الرحمة ، ثم أضداد هذه المعانى كلها وأمثال هذه وهذه كثير كل ذلك ، مما يمكن أن يتخلق به الانسان ومن ثم كان استعداد الانسان الاخلاقى سمة بارزة تميزه عن أى مخلوق آخر ٠

والسؤال الآن هو : ماذا يترتب على الانسان نتيجة لهذا التفرد ؟

ان القاعدة على قدر ما تعطى تطالب ضمن استطاعتك هى قاعدة هذا الموضوع ، فان الله جلت حكمته الذى سخر الكون للانسان قد رتب على ذلك أن جعل الانسان هو المسؤول الوحيد أمامه من هذه المخلوقات المرئية كلها فقال : ((**أيحسب الانسان أن يترك سدى**)) وقال : ((**أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون**)) وقال ((**انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا**)) فالله عز وجل جعل الانسان بهذا التفرد خليفة فى الارض ((**واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة**)) ((**وهو الذى جعلكم خلائف الارض**)) والاستخلاف يعنى ما يلى :

١ ــ ان المستخلف فى الملك ليس مالكا أصيلا ٠

٢ ــ ان عليه أن يتصرف حسب أمر المستخلف لا حسب أمره هو ٠

٣ ــ الا يشق عصا الطاعة ويتعدى الحدود المقررة له ٠

٤ ــ أن يفعل ما يريد المستخلف لا ما يريده هو ٠

وهذا كله يعنى أن الانسان ليس حرا بل هو عبد لله الذى أقامه هذا المقام فى الوجود قال تعالى : ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون**)) فسيادة الانسان على الكون فى مقابل عبوديته لله ٠ وما لم يعط الانسان عبوديته لله يكون قد أقام نفسه مقام الجماد والنبات والحيوان غير المسؤولين ٠ لذلك نرى القرآن قد ألح على عدم انسانية من لا يلتزم بطاعة الله فقال تعالى : ((**واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة**)) وقال ((**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة**)) وقال ((**ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون**)) وقال ((**ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**)) وقال ((**لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**)) وقال ((**والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم**)) ((**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا**)) وقال : ((**كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**)) ٠

ان القيام بأمر الله هو وحده الذى يطلق طاقات الانسان كلها فى طريقها الصاعد نحو الكمال ، وترك أمر الله يعنى اطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية الحـرة ٠

٠٠٠٠٠

ولا يقوم الانسان بأمر الله الا اذا عرفه حق معرفته وعرف ما يأمر به ، ولا يتم للانسان هذا الا بمعرفة الرسول الذى يصطفيه الله للقيام بهذه المهمة ، ذلك أن الله لم تقتض حكمته أن يتصل بكل انسان على حدة ليبلغه أمره بل اقتضت حكمته أن يصطفى من الناس رسولا يقوم بهذا نيابة عنه ((**الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس**)) وفى ذلك حكم منها :

١ ـ ان الاتصال بعالم الغيب يحتاج لاهلية خاصة واستعداد عظيم ، ولم يعط كل انسان مثل هذا (الله أعلم حيث يجعل رسالته) اذ أن حكمة الله اقتضت الا تجعل الناس درجة واحدة اذ لا تستقيم الحياة البشرية بذلك ٠ فمن للمهن ، ومن للحرف ومن لقضاء حاجات الناس ، ومن للخدمة ومن للسيادة ومن للتبعية ، اذا كان الناس على نسق واحد قال تعالى : ((**ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا**)) وكانسجام مع هذا القانون العام اصطفى الله بشرا ليكونوا رسلا ((**وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات**)) ٠

٢ ـ ان امتحان الانسان واختباره هدف أساسى من أهداف التكليف ((**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**)) وامتحان الانسان هدف آخر ((**وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا**)) ٠ ((**وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين**)) وانسجاما مع هذا جرت سنة الله أن يختار انسانا رسولا ليبتلى الآخرين به ٠ انه الاختبار العظيم الذى من نجح به تخلص من رجس الحسد ، وشهوة الاستعلاء ، وتمحص خالصا للحق محبا له ٠ ولاهمية ذلك نلاحظ أنه حتى الرسل امتحنوا بهذا المعنى ((**واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا**)) ٠

٣ ـ ومن أهم ما امتحن به الانسان تكليفه بالايمان بالغيب الذى قام على صدق المخبر به الدليل وهذا لا يتم الا اذا كان بين الله وخلقه واسطة هو الرسول ، هذا مع ملاحظة أن الرسل ممتحنون بشىء من هذا ((**وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء**))

((قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى)) واذن كانت حكمة الله أن يصطفى رسلا من البشر يعرفهم على ذاته ويعرفهم على ما يريد منهم ومن خلقه ويأمرهم أن يعرفوا الناس عليه وعلى تكاليفه لتتحقق بذلك انسانيتهم ولتتطهر بذلك أنفسهم ، وليعيشوا محققين ما من أجله خلقوا ٠

• • • • •

وهؤلاء الرسل يمثلون ذروة الكمال البشرى لانهم يمثلون ذروة العبودية لله ويقومون بأضخم مهمة فى الوجود وهى مهمه ارشاد الانسان الى طريقه الصحيح ، الى الكمال بتخليصه من أدران نفسه وكل مؤثر حيوانى أو مادى أو غريب عن فطرتها ، حتى تصبح ربانية **((ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كانوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون))** **((كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون))** **((لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا))** ٠

• • • • •

وبعد : كيف نعرف نحن بقية البشر رسل الله ؟ ان معرفة الرسول وأتباعه يترتب عليها هدايتى واستحقاقى ثواب الله بينما جهلى وكفرى به حال وجوده ودعوته لى يترتب عليها بقائى على ضلالى واستحقاقى عذاب الله فى الدنيا والآخرة لذلك كان مهما جدا أن أعرف كيف أهتدى الى الرسول وبدون معرفة هذا قد يلتبس على الامر فأعتبر غير الرسول رسولا فأضل أو أجهل الرسول فأعذب **((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا))** ٠

لذلك فقد جعل الله للرسل علامات يعرفون بها ٠ هذه العلامات هى :

١ ـ **الصفات الشخصية لصاحب الرسالة :** فليس من المعقول أن يكون الرسول كذابا اذ أن الكذاب لا يصدق فى الامور العادية فضلا عن مثل هذه القضية الكبرى فالاخلاقية العالية سمة لابد منها لانسان مرسل من عندالله ليظهر البشر من كل شر ويدله على كل خير ٠ فاذا ما كان شريرا تظهر عليه صفات الاشرار فأنى يجعله الله محل دعوته ، كما أنه ليس من المعقول أن يكون أبلها أو غير ذكى اذ المغفل أو عادى الذكاء لا يسلم له الناس عقولهم ولا يستطيع هو أن يقنع هذه العقول ، ومهمة الرسول لا تقوم الا اذا كان أكبر الناس عقلا وفطنة كى يستطيع اقامة الحجة على الناس ، كما أنه ليس من المعقول أن يدعو الرسول الى شىء ويكون سلوكه مخالفا لما اليه يدعو ٠ فهو يدعو الى طاعة الله فليس من المعقول أن يعصيه ٠ ويدعو الى ترك معصيته فلا يعقل

ألا يطيعه اذا كان صادقا • فينبغى اذن أن يكون مظهرا كاملا للطاعة وترك المعصية • كما أنه ليس من المعقول أن يرسل رسولا ولا تكون عنده امكانية تبليغ الرسالة المكلف بها الى أصحابها • وبدون هذا لا تقوم الحجة على الناس وهذا يحتاج الى شخصية فذة عظيمة • اذ دعوة الرسل ليست كغيرها من الدعوات التى ترضى شهوات البشر ، بل هى دعوة مهمتها كبح جماح النفس البشرية وعلى هذا فأمام عملية التبليغ عقبات ومخاطر وصعوبات واضطهاد لا يصبر عليها الا الصادق مع الله • ثم الرسول هو قدوة البشر فى طريقهم الى الله ، فلابد أن يكون أرقى البشر فى كل جانب من جوانب الحياة وعنده دائما الحل الامثل للبشر •

٢ ـ **المعجزات** : والمعجزات هى الامر الخارق للعادة الذى يظهر على يد الرسول أو النبى • وهى علامة على الرسالة لانها تخرج من عالم الاسباب كلها ، بحيث يعجز الانسان كانسان أن يأتى بها وذلك أن قدرة الانسان محدودة ضمن قوانين الكون ، وقدرة الله وحدها هى المطلقة ، فكون الرسول تظهر معه آثار القدرة المطلقة فذلك دليل على أن له صلة مع الله • ويخلط الناس عادة بين المعجزة التى هى علامة رسالة الرسول وبين السحر وآثار الرياضة الروحية • والذى نحب أن نقرره هنا هو أن السحر والشعوذة نوعان من العلوم التى تخضع لقوانين هذا الكون وان كانا مجهولين الا للقليل من الناس ولكن أى انسان تعلم علم السحر يستطيع أن يفعل ما يفعل وكذلك فيما يتعلق باثار الرياضة الروحية ، فلعالم الروح قوانينه التى من اكتشفها قد تظهر معه بعض آثارها ولكنها ما خرجت عن كونها من الاسباب العادية اذ أن أى انسان يستطيع أن يفعل ما فعلوه اذا سلك نفس طريقهم • أما المعجزة فلا علاقة لها بعالم الاسباب أصلا فليست كأثر عن علم أو تجربة أو قانون اذ من شروط المعجزة ألا يستطيع أحد من البشر أن يأتى بها •

ان المعجزة تكون بقدرة الله الذى يقول للشىء كن فيكون • ان عيسى عليه السلام كان يبرىء الابرص وقد يشفى البرص على يد طبيب ولكن الفارق بين الحالتين ان ذلك بقدرة الله وهذا بمعرفة القوانين التى بثها الله بالكون • ان الانسان يستطيع بذكائه وامكانياته أن يستخرج الماء من أعماق الارض أو أن يركب بالوسائل المعروفة من الاوكسجين والهدروجين ماء ، ولكن الفارق بين الماء المستخرج والمصنوع ، وبين الماء الذى خرج بضرب عصا موسى أو نبع حيث وضع محمد صلى الله عليه وسلم أصابعه كالفارق بين صنع الله وصنع الانسان ، صنع الله بكلمة كن وصنع الانسان بالعمل والجهد والآلة والفكر والعلم والاسباب وربط القانون بالقانون ، وهكذا استطاع الانسان أن يجاوز سطح الأرض ، ويسير بالفضاء ، ولكن الفارق بين هذا وبين عروج محمد رسول الله الى السماء كالفارق بين كل ما صنع الله وصنع المخلوق .

العروج كان بكلمةالله وصعود الانسان الى هذا الفضاء ، كانبالارتقاء بالاسباب ٠ فالمعجزة اذن لا دخل لا ىسبب كونى فيها سواء كان روحيا أو ماديا أو أى شىء آخر ٠ ومن هنا كانت ذات دلالة كاملة على أن صاحبها رسول الله ٠

٣ ـ **النبوءات** : النبوءة هى الاخبار عن المستقبل وكون وقوعها دليلا على صحة دعوى الرسالة يعود الى أن علم الانسان محدود بالزمان الحاضر والماضى ومحجوب عن المستقبل ، والله وحده ذو العلم المحيط بكل زمان ومكان، وما كان ويكون ، فكون الرسول يخبر عما سيكون ويقع كما أخبر ، فذلك دليل على أن له صلة بالله ، وكما أن المعجزة تخرج عن عالم الاسباب حتى تصلح دليلا ، فكذلك هنا المقصود بالاخبار عن الغيب مما ليس له علاقة بنتائج تترتب على مقدمات أو توقعات دلت عليها طوالع ، فهذا يستطيعه كثير من النـاس بما أوتوا من حكمة وحنكة وخبرة ومعرفة وتجربة ٠

٤ ـ **الثمرات** : ان ثمرات الرسول تدل عليه من انسجام دعوته مع قواعد الفطرة ، الى الاخلاقية العظيمة التى تظهر على أتباعه ، كأن يحكم الحق القوة ، ويظهر الوفاء على الغدر ، وان كان فى الغدر منفعة وتصبح نفس الانسان منضبطة انضباطا كاملا بالخير ، فيؤدى الحقوق ويقيم الواجبات ويعيش لله وبالله عادلا فى دنياه حريصا على آخرته ، تنفجرت طاقاته كلها ، وسارت فى طريقها الصحيح ، فنمت ملكاته العليـا كلها وانضبطت ملكاته الدنيـا جميعا ٠ ان ثمرات دعوة الرسول تختلف اختلافا جوهريا عن ثمرات أى دعوة أخرى حتى لتكاد الفطرة تحس بحدسها اذا رأت ثمرات النبوة أن سبب هذه الثمرات لابد أن يكون وراءه عناية ربانية خاصة ٠

٥ ـ **البشارات** : ان الأنبياء كلهم رسل الله الواحد الاحد ، وقد يأمر الله الرسول السابق أن يبشر برسول لاحق فتكون نبوءة للاول وتمهيدا للثانى ٠ وليس هذا شرطا فى كل رسالة ولكنه متوقع وجوده ومتأكد حصوله وقد يذكر بالبشارة اسم الرسول اللاحق أو صفاته أو كلاهما والبشارة يستأنس بهـا اذا وجدت بقية العلامات ٠

فهذه علامات خمس يتمم بعضها بعضا نتعرف بها على صدق مدعى الرسالة ونمتحن كل رسالة بهـا ٠

قدمنا هذا الكلام بين يدى الفصول الخمسة التى لها علاقة بهذه القضايا الخمس والتى نتحدث بها عن رسالة النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم وثبوتها ٠ هذه الرسالة التى ختم الله بها النبوة ((**ولكن رسول الله وخاتم النبيين**)) ونسخ بها كل شريعة سابقة وكلف الانسانية كلها بهـا ، بحيث

لا يستحق أحد رحمته الا اذا التزم بهـا ، ومن لم يلتزم بها استحق عذابه ٠ وتم بها انتقال الرسالة من طور القومية الى طور الانسانية الشاملة ، اذ أن رسل الله قبل محمد كانوا يبعث الواحد منهم الى قومه خاصة ٠ وبعث محمد الى الناس عامة ٠ فأصبحت الانسانية كلها ببعثته ملزمة بشريعة واحدة هى شريعته وليس أمام أحد من البشر خيار سوى سلوك الطريق الذى هدى اليه ٠ والا فانه يكون من الضالين ٠ ولـما كانت هذه الرسالة لها مثل هذه الاهميـة ٠ جعل الله عز وجل فيها ومعها من واضحات الادلة ومشرقات البراهين الكثير الكبير بحيث لا يبقى معه حجة لمحاج أو شبهة لأحد ٠

هذه الفصول الخمسة ٠ ستجد ان شاء الله فى كل واحد منها ما يؤكد لك هذا المعنى بشكله الكامل بحيث لا تشك معه أن محمدا رسول الله وأنه لا عذر لأحد كفر به أو أعرض عن شريعته ٠

وهذه الفصول الخمسة على الترتيب التـالى :

الفصـل الأول : الصـفات ٠

الفصـل الثانى : المعجـزات ٠

الفصـل الثالث : النبوءات ٠

الفصـل الرابع : الثمرات ٠

الفصـل الخامس : البشارات ٠

وبذلك ينتهى المبحث الثانى من مباحث هذا الكتاب ليبدأ المبحث الثـالث وهو الاسلام دين الله وشريعته التى بلغنا اياها رسوله صلى الله عليه وسلم وبذلك نكون قد عرفنا المكلف وهو الله فى المبحث الأول والتكليف وهو الاسلام فى المبحث الثالث ومبلغ التكليف والقدوة فيه وهو الرسول فى المبحث الثانى وهو هذا فالى الفصل الأول من هذا المبحث ٠

الفصل الأول

الصّفات

بدأنا بهذا الفصل بقصد التعريف على جوانب فى شخصية الرسول من ناحية ومن ناحية أخرى كى يكون بمثابة مفتاح للفصول الأخرى وقد حاولنا أن نمشى فيه على الترتيب التالى :

١ ـ **مقدمة :** نستعرض فيها صفات الرسول الجسمية ليتضح كيف أن تركيبه الجسمى متناسب مع الرسالة التى كلف بها ٠

٢ ـ **الباب الأول :** ويبحث فى الصفات الاساسية للرسل وكيف كان للرسول منها أعلى ما يتصور فى حق بشر ٠

٣ ـ **الباب الثانى :** ويبحث فى كون الرسول هو القدوة العليا للبشر فى كل جانب من جوانب الحياة لأنه كان فى كل جانب فى الذروة العليا من الكمال ٠

وجعلنا المقدمة تحت عنوان : تكوين الرسول الجسمى ٠

وجعلنا الباب الاول تحت عنوان : الصفات الاساسية ٠

وجعلنا الباب الثانى تحت عنوان : القدوة العليا ٠

ونأمل ألا ننتهى من هذا الفصل الا وقد اتضح لطالب الحق أن محمدا لا يمكن أن يكون الا رسول الله حقا صلى الله عليه وسلم ٠

تكوين الرسول الجسمانى

ان أول ما يقع بصر الانسان على رسول الله يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيل له • ومظهر يوحى بثقة مطلقة لا حد لها وهذا ما ينعقد عليه اجماع من شاهدوه عليه الصلاة والسلام •

أخرج الدارمى والبيهقى عن جابر بن سمرة قال : رأيت النبى فى ليلة اضحيان (أى مقمرة مسفرة) فجعلت أنظر اليه والى القمر فلهو كان أحسن فى عينى من القمـر •

وأخرج الترمذى والبيهقى عن أبى هريرة قال : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشـيه منه كأن الأرض تطوى له انا لنجهد وانه غير مكترث •

وأخرج الشيخان عن البراء قال : كان رسول الله بعيد ما بين المنكبين يبلغ شعره شحمة أذنيه ما رأيت شيئا أحسن منه •

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة فى وصف وجه رسول الله قال : بل مثل الشمس والقمر مستديرا •

وأخرج الشيخان عن البراء قال : كان رسول الله أحسن النـاس وجها وأحسنهم خلقا ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير •

وأخرج مسلم عن أبى الطفيل أنه قيل له صف لنـا رسول الله قال : كان أبيض مليح الوجه •

وأخرج الدارمى والبيهقى والطبرانى وأبو نعيم عن أبى عبيدة قال : قلت للربيع بنت معوذ صفى لى رسول الله قالت : لو رأيته قلت الشمس طالعة •

وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ضخم القدمين حسن الوجه لم أر بعده مثله •

وأخرج أبو موسى المدينى فى كتاب الصحابة عن أمد بن أبد الحضرمى قال : رأيت رسول الله فما رأيت قبله ولا بعده مثله •

وأخرج الدارمى عن ابن عمر قال : ما رأيت أشجع ولا أجود ولا أضـوأ من رسول الله •

وأخرج أحمد والبيهقى عن محرش الكعبى قال : اعتمر النبى من الجعرانة ليلا فنظرت الى ظهره كأنه سبيكة فضــة ٠

ومن شعر عمه أبى طالب فيه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمـال اليتـامى عصــمة للارامل

وأخرج عبد الله بن الامام أحمد والبيهقى عن على قال : كان النبى ليس بالذاهب طولا وفوق الربعة اذا جاء مع القوم غمرهم أبيض ضخم الهامة (أى الرأس) أغر أبلج أهدب الأشفار (أى طويل شعر العين أسوده) كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ لم أر قبله ولا بعده مثله ٠

ومن وصف هند بن أبى هالة له : كان رسول الله فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ٠٠ عظيم الهامة رجل الشعر ٠٠ أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن ٠ بينما عرق يدره الغضب (الحاجب الأزج المقوس الطويل الوافر الشعر) أقنى العرنين (العرنين الانف أو ما صلب منه والقنأ طول الانف ودقة أرنبته واحديداب وسطه) له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم (الأشم الطويل قصبة الانف) كث اللحية أدعج (الدعج شدة سواد العين) سهل الخدين ضليع الفم أشنب مفلج الأسنان (أى لاسنانه رونق وغير متراكبة) دقيق المسربة (أى خفيف شعر ما فوق السرة) كأن عنقه جيد دمية فى صفاء ، معتدل الخلق بادن متماسك سواء البطن والصدر عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ٠٠ أنور المتجرد ٠ طويل الزندين رحب الراحة ٠٠ شثن الكفين والقدمين سابل الأطراف (أى طويل الاصابع) خمصان الاخمصين ٠٠ ذريع المشية اذا مشى كأنما ينحط من صبب واذا التفت التفت جميعا خافض الطرف نظره الى الأرض أكثر من نظره الى السماء ٠٠

وكان اذا مس أحدا أحس بطمأنينة عجيبة وروح عجيب ٠

أخرج أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال : اشتكيت بمكة فدخل على رسول الله يعودنى فوضع يده على جبهته فمسح وجهى وصدرى وبطنى فما زلت يخيل الى أنى أجد برد يده على كبدى حتى الساعة ٠

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : مسح رسول الله خدى فوجدت لبده بردا وريحانا كأنما أخرجها من جونة عطار ٠ وأخرج الشيخان عن أنس قال : ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ولا شممت مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وكان منظره يوحى لمن يراه بأنه أمام نبى ٠

أخرج الترمذى عن عبد الله بن سلام قال : لما قام النبى المدينة جئته لأنظر اليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ٠

وعن أبى رمثة التميمى قال : أتيت النبى ومعى ابن لى فأريته فلما رأيته قلت هذا نبى الله ٠

ويقول عبد الله بن رواحة فى وصفه :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   لكان منظره ينبيك بالخبر

هذه بعض آثار مما ورد فى وصف تكوينه الجسمى نقلناها بين يدى صفاته وكمالاته الخلقية العظيمة لتتضح صورته من جميع جوانبها عليه السلام ٠

الباب الأول

الصفات الأساسية

انه لابد لكل رسول لله أن يكون متصفا بصفات أساسية أربع حتى يكون أهلا للرسالة • هذه الصفات الأربع هى :

١ ــ الصدق المطلق الذى لا ينقض فى كل حال • بحيث لو امتحن كل قول له لكان مطابقا للواقع اذا وعد أو عاهد أو جد أو داعب أو أخبر أو تنبأ واذا انتقضت هذه الصفة أى نقض ، فان دعوى الرسالة تنتقض من أساسها لأن الناس لا يثقون برسول غير صادق ، والرسول الصادق لا يمكن أن تجد فى جزء من أجزاء كلامه شيئا من الباطل فى أى حال من الاحوال وفى أى جانب من الجوانب •

٢ ــ الالتزام الكامل بما يدعو اليه نيابة عن الله اذ مهمة الرسالة تبليغ الناس ما كلفهم به الله فاذا لم يقم الرسول نفسه بهذه التكاليف دل ذلك على عدم تفاعله مع التكليف وهذا دليل كذبه فى دعوى الرسالة • اذ الرسول الذى يتصل به الله أعرف بجلال الله وبالتالى لا يعصى له أمر لأن عصيان أمر الله خيانة ، وغير الامناء ليسوا أهلا لحمل رسالة الله •

٣ ــ التبليغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة وعدم المبالاة معه بسخط الناس أو تعذيبهم أو ايذائهم أو كيدهم أو مؤامراتهم أو ارجافهم ، والاستقامة على أمر الله وعدم الانحراف عنه ، مهما كانت المغريات والاستمرار على ذلك • اذ بدون التبليغ لا تظهر الرسالة وبدون الاستمرار عليه والصبر لا تستقر • والخضوع لضغط الناس أو لاغرائهم دليل كذب دعوى البلاغ عن الله • اذ لا يبلغ رسالة الله الا من رغب بالله عن غيره وكان الله وحده هو العظيم عنده ولا يبالى بغير رضاه •

٤ ــ العقل العظيم اذا لا يسلم الناس ولا يتبعون انسانا الا اذا كان أرجحهم عقلا ليطمئنوا على أنه لا يسير بهم فى الطريق الخاطىء كما أنه بدون العقل

العظيم لا يستطيع صاحب الرسالة أن يقنع الآخرين بالحق الذى فى رسالته ، خاصة أصحاب المدارك الواسعة والعقول الكبيرة ولا يستطيع أن يرد هجمات المبطلين والمتكبرين والمنحرفين والمنتفعين بالانحراف . فلابد أن يكون الرسول أذكى الخلق وأفطنهم وأعقلهم وأحكمهم وأكملهم مدارك كى تقوم به الحجة .

فاذا اجتمعت هذه الصفات الأربع لانسان يذكر أنه رسول الله مع بقية العلامات التى يعرف بها الرسول دون وجود مانع يحيل الدعوى ، كان ذلك برهانا ودليلا على صحة الدعوى اذ لا يوجد مبرر لتكذيب الصادق ولا يوجد تعليل لحرارة الالتزام غير التسليم ، وعدم الانصراف عن التبليغ مع توفر دواعى الانصراف لا تعلل الا بالاخلاص للدعوة وصاحبها ، ودعوة حجتها معها ، وصاحبها قادر على اقامة الحجة فى أى جانب من جوانبها فيها دليل حقيتها .

وسنرى فى هذا الباب كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان المثل الأعلى فى كل صفة من هذه الصفات بحيث لا تستطيع أن تدرس واحدة منها عنده الا وتسلم أن صاحبها رسول الله حقا . وسندرس هذه الصفات على الترتيب المذكور هنا فنبدأ بصفة الصدق عنده عليه الصلاة والسلام .

١ ــ صدقه عليه السلام :

وطريقتنا فى استعراض هذه الصفة أن نأتى بالشهادات عليها وهذه الشهادات ثلاث :

(أ) شهادة الخصوم .

(ب) شهادة الأتباع .

(جـ) شهادة الواقع ، وشهادة الواقع تتمثل فى أربع : فى الاخبار وفى الوعد ، والعهد ، وفى المزاح والمداعبة وفى النبوءات .

(أ) شهادة الخصوم :

وشهادة الخصوم فى هذا الباب لها وزنها الكبير ، اذ تدلك على مبلغ الثقة التى كان يتمتع بها رسول الله عند الجميع ، ولكن بعض الناس استغرب واستكبر فأنكر دون وجود مبرر لهذا الانكار وهذه نصوص تؤكد لك هذا الذى قلناه .

« أخرج البيهقى عن المغيرة بن شعبة قال : ان أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أمشى أنا وأبو جهل فى بعض أزقة مكة اذ لقينا

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى جهل : يا أبا الحكم هلم الى الله ورسوله أدعوك الى الله • فقال أبو جهل : يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد الا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على فقال : والله انى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شىء • أن بنىقصى قالوا : فينا الحجابة • قلنا نعم ثمقالوا : فينا السقاية قلنا نعم ، ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى اذا تحاكت الركب قالوا : منا نبى • والله لا أفعل » وأخرجه ابن أبى شيبة بنحوه •

وأخرج الترمذى عن على أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فانزل الله تعالى ((**فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بايات الله يجحدون**)) •

« وأخرج ابن عساكر عن معاوية (رض) قال : خرج أبو سفيان الى بادية له مردفا هند وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حمارة لى اذ سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو سفيان : أنزل يا معاوية حتى يركب محد فنزلت عن الحمارة وركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار أمامنا هنيهة ثم التفت الينا فقال : يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لتموتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسىء النار • وأنا أقول لكم بحق وانكم لأول من أنذرتم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ((**حم تنزيل من الرحمن الرحيم** •• حتى بلغ ــ **قالتا أتينا طائعين**)) فقال له أبو سفيان : أفرغت يا محمد ؟ قال نعم ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمارة وركبتها وأقبلت هند على أبى سفيان : ألهذا الساحر أنزلت ابنى قال : لا والله ما هو بساحر ولا كذاب » وأخرجه الطبرانى أيضا •

وروى البخارى ومسلم قصة أبى سفيان عند هرقل كما حدث بها أبو سفيان ابن عباس ومنها سؤال هرقل لأبى سفيان هذا : « قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال • قلت لا » وفى آخر القصة يقول هرقل لأبى سفيان : « وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى » •

وأخرج الشيخان والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت ((**وأنذر عشيرتك الأقربين**)) صعد صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم

أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك الا صدقا قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد : قال أبو لهب : تبا لك يا محمد ألهـذا جمعتنا فنزلت : ((**تبت يدا أبى لهب وتب**)) من هـذه النصوص يتبين لك أن الثقة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم كانت متوفرة ولم يكن هذا الموضوع فيه شك أبدا وهذا الذى يعلل لنـا :

١ ـ ظاهرة الايمان به من قبل من حاربوه واحدا فواحدا طوعا لا اكراها أمثال خالد بن الوليـد وعمرو بن العـاص وعمر بن الخطاب .. ذلك لأنهم ما كانوا يشكون فى أن محمدا صادق ، ولكن فاجأهم بشىء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فانكروه ، حتى اذا ذهب هول المفاجأة وحكموا عقولهم التقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد صلى الله عليه وسلمفتولد عن ذلك ايمان .

٢ ـ ظاهرة الاخلاص له بعد الايمان : فبعضهم لم يؤمن الا آخرا بعد أن غلب كبقايا قريش فانهم أخيرا غلبوا للاسلام ، وكان يمنعهم من ذلك ثارات وأحقاد وشبهات وشهوات ، حتى اذا دخلوا فيه تسليما للامر الواقع واذا بهم مخلصون لرسول الله كأتم ما يكون الاخلاص ، ومتفانون فى الاسلام بعد أن زالت عن أعينهم غشاوات ، من بعدها تبينوا أن محمدا هو الأخ الكريم والابن الكريم فكانت معرفتهم به وثقتهم بشخصيته أساسا لاخلاصهم فى طريقهم الجديد الذى ساروا به بعد ذلك فرحين .

وبعد فهذه شهادة خصوم : بعضهم أسلم بعد خصومة شديدة وبعضهم مات على كفره ولكن الجميع حتى فى أشد حالات الخصومة كانوا مؤمنين أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق .

(ب) شـهادة الأتبـاع :

ونقدم لشهادة الأتباع بما يلى :

١ ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائم الخلطة لأصحابه فى طعامهم وشرابهم وسفرهم وصلاتهم ومجالسهم وهو عليه السلام كان يحب البساطة والصراحة ويكره التكلف ، وبعض الصحابة خالط الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعدها عشرات السنين .

٢ ـ وهؤلاء الأصحاب لم يكونوا أغرارا ولا مغفلين ولا منعزلين عن العالم ، بل بعضهم من مكة التى كان العرب سنويا يقصدونها للحج ، وتسلم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة عدا عن صلات أهلها بواسطة التجارة مع اليمن ومع الشـام حيث مراكز الحضارة . وبعض أصـحابه من المدينة حيث الصلات الفكرية مع اليهود وما ينشأ عن ذلك من تفتح ذهنى .

كما أن هؤلاء الأصحاب أثبتوا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولا وأكثرهم دهاءا وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم بفتح أعظم الدول المتحضرة وقتذاك وادارتها وكسب مودة شعوبها ودمجهم بعد ذلك في الأمة الاسلامية ٠

فاذا ما اجتمعت هاتان الناحيتان : الخلطة الدائمة ٠ وذكاء المخالطين ، فان أمر الكاذب يفتضح ، وأمر الصادق يتضح ٠

والظاهرة الواضحة في حياة الصحابة أنهم كلما ازدادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خلطة ازدادوا به ايمانا وتصديقا بل أكثرهم اختلاطا به أكثرهم ايمانا به وطاعة له وقد بلغ هذا معهم لدرجة أنه أصبح الموت من أجل ما يريد الرسول صلى الله عليه وسلم أحب اليهم من الحياة ، وانفاق المال أحب اليهم من امساكه ، والطاعة أحب اليهم من المعصية ٠ ودين الرسول صلى الله عليه وسلم أحب اليهم من الأموال والاولاد والمساكن والزوجات والوطن ٠ وكل هذا من مظاهر التصديق الكامل اذ لولا التصديق لما كان شيء من هذا ٠ فقد قتل منهم الابن أباه ، وأراد الأب قتل ابنه فعلام يفعلون هذا لولا أن ايمانهم برسول الله وتصديقهم به وصل الى ذروة الذرى ٠ وهذه أمثلة كل منها يعتبر أثرا من آثار التصديق الكامل ودليلا عليه نذكرها بلا تعليق وفي كل منها شهادة من صاحبها ٠ بعد تجربة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق لا شك في ذلك ٠

١ ـ أخرج الحافظ أبو الحسين الطرابلسي عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ـ ألح أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور فقال : يا أبا بكر انا قليل ٠ فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته ، وقام أبو بكر في الناس خطيبا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فكان أول خطيب دعا الى الله والى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوا في نواحي المسجد ضربا شديدا ووطىء أبو بكر وضرب ضربا شديدا ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ٠

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ٠ ولا يشكون في موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، فرجعوا الى

أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنوتيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ؟ ، فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : أنظرى أن تطعميه شيئا أو تسقيه اياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : والله ما لى علم بصاحبك • فقال اذهبى الى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : ان أبا بكر يسألك عن محمد ابن عبد الله فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وان كنت تحبين ان أذهب معك الى ابنك ، قالت : نعم • فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا • فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت والله ان قوما نالوا منك هذا لاهل فسق وكفر ، وانى لارجو أن ينتقم الله لك منهم • قال : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : هذه أمك تسمع • قال : فلا شئ عليك منها • قالت : سالم صالح • قال : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم • قال : فان لله على أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمهلتا حتى اذا هدأت الرجل وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ حتى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال : فأكب عليه رسول الله صلى الله عيه وسلم فقبله وأكب عليه المسلمون ، ورق له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة شديدة • فقال أبو بكر : بأبى وأمى يا رسول الله ، ليس بى بأس الا ما نال الفاسق من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها الى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار • قال : فدعا لها رسول الله صلى الله عيه وسلم ودعاها الى الله فأسلمت :

٢ ـ وأخرج ابن اسحاق عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما أسلم عمر رضى الله عنه قال : أى قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له جميل بن معمر الجمحى فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل ـ وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ـ حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعته انا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ـ وهم فى أنديتهم حول الكعبة ـ ألا ان ابن الخطاب قد صبأ • قال يقول عمر من خلفه كذب ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وثاروا اليه فما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم • قال : وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا • قال : فبينما هم على ذلك اذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر • قال : فمه ! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل • قال : فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه • قال فقلت لأبى ـ بعد أن

هاجر الى المدينة ـ يا أبت : من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة ـ يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال : ذاك أى بنى : العاص بن وائل السهمى • وهذا اسناد جيد قوى ـ كذا فى البداية •

٣ ـ وأخرج البخارى فى التاريخ عن مسعود بن خراش رضى الله عنه بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة اذا أناس كثير يتبعون فتى شابا موثقا بيده فى عنقه • قلت : ما شأنه ، قالوا : هذا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه صبأ • وامرأة وراءه تدمدم وتسبه • قلت من هذه ؟ قالوا الصعبة بنت الحضرمى أمه •

٤ ـ وأخرج البيهقى وابن سعد والحارث وابن المنذر وابن عساكر وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه : أن صهيبا رضى الله عنه : أقبل مهاجرا نحو النبى صلى الله عليه وسلم فتبعه نفر من قريش مشركون ، فنزل فانتضى كنانته فقال : قد علمتم يا معشر قريش انى أرماكم رجلا بسهم، وأيم الله لا تصلون الى حتى أرميكم بكل سهم فى كنانتى ثم أضربكم بسيفى ما بقى فى أدى منه • ثم شأنكم بعد ذلك وان شئتم دللتكم على مالى بمكة وتخلوا سبيلى • قالوا : نعم • فتعاهدوا على ذلك فدلهم ، فأنزل الله على رسوله القرآن : ((**ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله**)) حتى فرغ من الآية • فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم صهيبا قال : ربح البيع يا أبا يحيى ربح البيع يا أبا يحيى ! وقرأ عليه القرآن •

٥ ـ وأخرج الحاكم عن سليمان بن بلال رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج الى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعا الخروج معه ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأمر أن يخرج احدهما فاستهما • فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد (رضى الله عنهما) انه لابد لأحدنا من أن يقيم فأقم مع نسائك • فقال سعد : لو كان غير الجنة لآثرتك به انى أرجو الشهادة فى وجهى هذا ، فاستهما ، فخرج سهم سعد ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر • فقتله عمرو بن عبدود • وأخرجه أيضا ابن المبارك عن سليمان وموسى بن عقبة عن الزهرى ، كما فى الاصابة •

٦ ـ وأخرج الطبرانى عن ابن عمر ـ أن عمر ـ رضى الله عنهما ، قال يوم أحد لأخيه : خذ درعى يا أخى ! قال أريد من الشهادة مثل الذى تريد ، فتركاها جميعا ، قال الهيثمى رجاله رجال الصحيح •

٧ ـ وأخرج ابن اسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخى بنى عدى بن النجار قال : انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك الى عمر

ابن الخطاب وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار ـ رضى الله عنهم ـ وقد ألقوا بأيديهم • فقال : فما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا ، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قتل •

٨ ـ وأخرج الحاكم عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضى الله عنه وقال لى : ان رأيته فاقرئه منى السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأصبته وهو فى آخر رمق وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم • فقلت له يا سعد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرنى كيف تجدك ؟ قال : على رسول الله السلام ، وعليك السلام ، قل له : يا رسول الله أجدنى أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله ان يخلص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم شفر يطرف • قال : وفاضت نفسه ـ رحمه الله ـ قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه • وقال الذهبى : صحيح • ثم أخرج الحاكم من طريق ابن اسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة حدثه عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع رضى الله عنه ـ فذكر الحديث بنحو منه ـ وقال : فقال سعد : أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى من الأموات ، واقرئه السلام وقل له : يقول سعد : جزاك الله عنا ، وعن جميع الأمة خيرا •

٩ ـ وأخرج البيهقى عن مالك بن عمير رضى الله عنه وكان قد أدرك الجاهلية • قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انى لقيت العدو ولقيت أبى فيهم ، فسمعت لك منه مقالة قبيحة فلم أصبر حتى طعنته بالرمح ـ أو حتى قتلته ، فسكت عنه النبى صلى الله عليه وآله وسلم ثم جاء آخر فقال : انى لقيت أبى فتركته وأحببت أن يليه غيرى • فسكت عنه • قال البيهقى وهذا مرسل جيد •

١٠ ـ وأخرج البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أبى وهو فى ظل أطم فقال : غبر علينا ابن أبى كبشه • فقال ابنه عبد الله بن عبد الله رضى الله عنه : يا رسول الله والذى أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه ؟ فقال : لا ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته • قال الهيثمى رواه البزار ورجاله ثقات •

١١ ـ وذكر ابن هشام عن أبى عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازى أن

عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لسعيد بن العاص رضى الله عنه وقربه : انى أراك تظن أنى قتلت أباك انى لو قتلته لم أعتذر اليك من قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فانى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه ، فحدت عنه وقصد له ابن عمه على فقتله • كذا فى البداية • وزاد فى الاستيعاب والاصابة : فقال له سعيد بن العاص : لو قتلته لكنت على الحق وكان على الباطل ، فأعجبه قوله •

١٢ ــ وأخرج ابن سعد عن الزهرى قال : لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد غزو مكة فكلمه أن يزيد فى هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فدخل على ابنته أم حبيبة رضى الله عنها • فلما ذهب ليجلس على فراش النبى صلى الله عليه وسلم طوته دونه • فقال : يا بنية ! أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت امرؤ نجس مشرك • فقال : يا بنية ! لقد أصابك بعدى شر • وذكر ابن اسحاق نحوه بلا اسناد ، كما فى البداية وزاد : فلم أحب أن تجلس على فراشه •

١٣ ــ وأخرج الطبرانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما كان يوحد أحد حاص أهل المدينة حيصة • وقالوا : قتل محمد حتى كثرت الصوارخ فى ناحية المدينة • فخرجت امرأة من الانصار محرمة فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها ــ أى قتلى ــ لا أدرى أيهم استقبلت به أولا • كلما مرت على أحدهم قالت : من هذا ؟ قالوا : أبوك أخوك زوجك ابنك ، تقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقولون : أمامك حتى دفعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لا أبالى اذ سلمت من عطب •

• • • •

هذه نصوص تبين لك مدى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم عند أتباعه المخالطين له مما يدلك على أن تصديقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ حدا لا مثيل له •

(جـ) وأخيرا شـهادة الواقع :

ان شهادة الواقع أعلى الشهادات لأن الانسان يصل بامتحانه الى اليقين الذى لا يخالطه شك ونعنى بهذا أن يقوم الانسان باجراء اختبار كامل لكل ما ورد عن الرسول من قول أو فعل • فاذا ما وجد أن كل قول أو فعل مما يمكن أن يدخل تحت الاختبار لا يخرج عن الحق والصدق • لم يبق أمام الانسان الا طريق واحد هو الايمان والتصديق • وسنرى فى الفصل الثانى القادم أن

الاختبار الكامل للقرآن يجعلك على مثل الشمس وضوحا أن القرآن كله حق وصدق وأنه من عند الله وسنرى فى الفصل الثالث ان شاء الله أن الاختبار الكامل لنبوءاته ، يدلك على أن المستقبل كان كشفا لها وتوكيدا • أما هنا فسننقل نماذج من مزاحه ومداعباته لنرى أنها لا تخرج عن الحق والصدق ، ونماذج عن وعوده وعهوده وصدقه فيها ، ونماذج من أحاديثه التى يستطيع الانسان أن يعرف صدقها بالاختبار ، لنرى العجب فى مطابقة ما عرفه انسان عصرنا بعد التجربة ، لما نطقت به شفتا رسول الله من عصور • ثم نختم هذا الموضوع بالتذكير أن المصدر الوحيد الذى نستطيع أن نأخذ عنه العلم بالغيبيات بثقة هو رسول الله • فهو الحجة وحده فى هذا ، وكلامه حجة على غيره فيه ، مع مناقشة بعض القضايا التى لها علاقة بهذا الأمر ونبدأ باستعراض ما ذكرنا :

١ ـ نماذج من صدقه فى مزاحه ومداعباته :

ان الناس عادة لا يلتزمون الصدق فى المزاح ولكن رسول الله داعب صادقا ومازح صادقا وألزم أمته الصدق فى كل حال • أخرج أحمد عن أنس ابن مالك : ان رجلا أتى النبى فاستحمله فقال رسول الله : انا حاملوك على ولد ناقة فقال يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة ؟ فقال رسول الله : وهل تلد الابل الا النوق • رواه أبو داوود والترمذى •

وقال زيد بن أسلم : أن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت الى النبى فقالت : ان زوجى يدعوك قال : ومن هو أهو الذى بعينه بياض ؟ قالت والله ما بعينه بياض فقال بلى أن بعينه بياضا فقالت لا والله • فقال ما من أحد الا وبعينه بياض • هو أراد البياض المحيط بالحدقة وهى فهمت البياض على الحدقة الذى يكون الرجل أعور به •

وأخرج أحمد عن أنس : أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا ، وكان يهدى النبى الهدية من البادية فيجهزه النبى اذا أراد أن يخرج • فقال رسول الله : ان زاهرا باديتنا ونحن حاضروه وكان رسول الله يحبه وكان رجلا دميما • فأتاه رسول الله وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل فقال : أرسلنى من هذا ؟ فالتفت فعرف النبى فجعل لا يألو ما الصق ظهره بصدر النبى حين عرفه وجعل رسول الله يقول : من يشترى العبد ؟ فقال يا رسول الله اذن والله تجدنى كاسدا فقال رسول الله : لكن عند الله لست بكاسد • أو قال لكن عند الله غال • رواته ثقات فأنت ترى من سياق الحديث أنه عنى بالعبد عبد الله وكلنا عبد الله •

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن الحسن قال : أتت عجوز النبى فقالت يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال يا أم فلان أن الجنة لا تدخلها عجوز فولت تبكى فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ان الله تعالى يقول : ((**انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا**)) ٠

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن أنس قال : قال لى رسول الله يا ذا الأذنين قال أبو أسامة يعنى يمازحه ٠ وكل انسان له أذنان فأنت ترى من هذه الامثلة أنه داعب ومازح دون أن يخرج عن الحق والصدق ولكنه استعمل هذا الصدق استعمالا لطيفا ، على غير المتعارف ٠ ففهم المخاطب فهما كانت فيه نكتة وهكذا كانت مداعباته كلها حقا ٠

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول الله انك تداعبنا ٠٠ قال : انى لا أقول الا حقا ٠ انها نبوة صدق وما كان للنبوة أن يكون للباطل عندها أو معها نصيب ٠

٢ ـ نماذج من صدقه فى وعوده وعهوده :

أخرج أبو داود عن عبد الله بن أبى الخنساء قال : « بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك ٠ فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يا فتى لقد شققت على ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » ٠ وأخرج ابن حبان والحاكم : « كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : ان لى عندك موعدا يا رسول الله ٠ قال : صدقت فاحتكم ما شئت ٠ قال : أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها ٠ قال : هى لك وقال : احتكمت يسيرا ٠٠ » ٠

وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى فى قضية اسلامه وكيف أنه عندما كان مشركا تولى مطالبة الرسول صلى الله عليه وسلم بالجلاء عن مكة فى عمرة القضاء بعد انقضاء مدة الثلاثة أيام المتفق عليها يقول حويطب : « ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرة القضاء وخرجت قريش من مكة كنت فيمن تخلف بمكة أنا وسهيل بن عمرو لأن نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مضى الوقت فلما انقضت الثلاثة أقبلت أنا وسهيل بن عمرو فقلنا : قد مضى شرطك فاخرج من بلدنا فصاح يا بلال لا تغب الشمس وواحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا » ٠

وهذه فقرات من كتاب (بطل الأبطال) يحلل فيها صاحبه بعض مواقف

الوفاء بالعهد والوعد التى وقفها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قبل سنة من هدنة الحديبية كانت قريش تحاصر المدينة وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القرى والاعراب فنقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ٠ واشتد بذلك الكرب ولزل المؤمنون زلزالا شديدا ، ولكن الله نصر عبده ، وأعزه وألقى الرعب فى قلوب المشركين ، ولم تمض الا فترة وجيزة حتى كان جيش الاسلام بقيادة رسول الله يزحف الى مكة ، فنزل الحديبية وبعثت قريش رسلها الى محمد صلى الله عليه وسلم ٠

وهو ذا عروة بن مسعود الثقفى رسولها يعود اليها يصف حال محمد وجنده بهذه العبارة :

« انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه » ٠ كان محمد فى منعة وقوة ولكنه كان يعلن أنه لا يريد الحرب ، ويقول : لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ٠ فلما جاءه سهيل بن عمرو مفوضا من قريش لعقد الهدنة يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن وهو أن محمدا يسلم الى قريش من لجأ اليه من المسلمين بغير اذن وليه ولا يطالب تسليم من لجأ الى قريش من أتباعه ٠

ذلك الشرط أهاج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى أن عمر رضى الله عنه كان يذهب تارة الى أبى بكر وتارة أخرى الى الرسول ويقول : ألسنا المسلمين ! أليسوا المشركين ! ألست رسول الله ! ٠٠ فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فيقول الرسول : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله ٠ فقبول المسلمين هذا الشرط هو استسلام منهم لامر لم يدركوا سره وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم وتبينما هم على هذه المضاضة وقد فرغ الرسول من الجدل مع مفوض قريش سهيل بن عمرو ولم يكتب العقد ولم يمض جاءهم أبو جندل مستصرخا يرسف فى قيوده وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه فلما رأى سهيل ابنه قام اليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك ـ أى فرغنا من المناقشة ـ قبل أن يأتيك هذا ٠ قال محمد صدقت ، وأبو جندل ينادى يا معشر المسلمين ! أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ تصوروا ذلكم المقام مقام محمد وهو الشجاع الذى حدثتكم عن شجاعته المنقطعة النظير وهو القوى الذى خرج من المدينة زاحفا بجيش ٠ سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له تصوروه وهو يرى أقرب أصحابه (فى حالة تذمر) ثم تصوروا لاجئا يرسف فى القيود وهو من أبناء الاعزة فى قريش يرسف فيها (اتباعا) لمحمد ودين محمد ثم انظروا

اليه لا يحتال ولا يتردد ولما يكتب ولما يمض يقول لسهيل صدقت لقد لجت القضية ويرد صاحبه باكيا الى أعدائه تصوروا كل ذلك ثم ليكتب الى من يشاء بمثل واحد فى تاريخ البشر كله كهذا المثل يضربه محمد فى رعاية الكلمة التى قالها ولما تكتب ولما تمض .

ويقول صاحب الكتاب ذاكرا مثلا آخر :

ثم انظروا الى وفائه للمشركين أيضا : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل فى عقد محمد وعهده ، ومن شاء دخل فى عقد قريش وعهدها . فدخلت خزاعة على شركها فى عهد محمد فلما نقضت قريش عهدها معه ونصرت حليفتها بكرا عليها . ذهب عمرو بن سالم الخزاعى يطالب (رسول الله) بالعهد ويطالب (منه) نصر حلفائه فوقف على رسول الله وهو فى المسجد ينشده ويقول :

يا رب انى ناشد محمدا   حلف أبينا وأبيه الأتلدا

فانصر هداك الله نصرا اعتدا   وادع عباد الله يأتوا مددا

فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا   ان قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين سببا (فى تجهيز أضخم جيش عرفته الجزيرة والسير لنصرة الحليف وكان من آثار ذلك فتح مكة كما هو معروف) هذه أمثلة سقناها من وفاء (رسول الله) لاعداء الملة وقد عاهدهم .. أو قبل محالفتهم على غيرهم » .

هذه نماذج من صدقه فى وعده وعهده وسواها كثير فما حدث أن وعد رسول الله أو عاهد فأخلف أو غدر . روى البخارى أن هرقل لما سأل أبا سفيان عن محمد هل يغدر أجاب أبو سفيان : لا ـ فقال هرقل بعد ذلك : وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر » .

ان الغدر نوع من أنواع الكذب والخلف بالوعد كذب . والرسول عليه السلام منزه عن ذلك ، ومن النماذج القليلة التى ذكرناها ، نرى أنه ما أحد من البشر غير الرسل وصل الى ما وصل اليه الرسول فى الوفاء ، لشرف الكلمة ، الا اذا كان تلميذا من تلامذته ، يقتدى به .. لقد كانت كلمة الرسول هى الضمان الذى ما بعده ضمان ، حتى أن ألد خصومه وأعرقهم فى عداوته كان لا يتردد اذا تأكد أن محمدا أمنه أن يلقى نفسه فى أحضان المسلمين ، ثقة منه أن كلمة

محمد ضمان لا يعدله ضمان • ومن تتبع حوادث السيرة وجد الأمثلة الكثيرة على هذا ، انها صفة الصدق عند الأنبياء لا تتخلف •

٣ ــ نماذج من حديثه الذى صدقته علوم عصرنا من غير النبوءات :

(أ) قال عليه السلام فى الحديث الصحيح : (اذا وقع الذباب فى اناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فان فى أحد جناحيه داء وفى الآخر دواء) •

ان هذا الحديث ذكر قضيتين كلتاهما لم تكن معروفة قديما أولاهما أن الذباب ناقل داء وهذا شىء أصبح الآن معروفا لدى الجميع أن الذباب ناقل جراثيم ممتاز • والثانية وهى التى يجعلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كذلك وهذا تحقيق كتبه الدكتور عز الدين جوالة حول هذا الموضوع ننقل منه ما يلزمنا هنا يقول :

قبل الخوض فى هذا الموضوع لنتذكر ما يلى :

١ ــ من المعروف منذ القديم أن بعض المؤذيات يكون فى سمها نفع ودواء ، فقد يجتمع الضدان فى حيوان واحد فالعقرب فى ابرتها سم نافع ، وقد يداوى سمها بجزء منها وفى ذلك يقول العلماء « وقد وجدنا لكون أحد جناحى الذباب داء والآخر شفاء ودواء فيما أقامه الله من عجائب خلقه وبدائع فطرته شواهد ونظائر ، منها النحلة يخرج من بطنها شراب نافع ويكمن فى ابرتها السم الناقع ، والعقرب تهيج الداء بابرتها ويتداوى من ذلك بجرمها » •

٢ ــ وفى الطب يحضر لقاح من ذبيب الافاعى والحشرات السامة يحقن به لديغ العقرب أو لديغ الافعى • بل وينفع فى تخفيف آلام السرطان أيضا •

٣ ــ ان الطب الحديث استخرج من مواد مستقذرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأسا على عقب فالبنسلين استخرج من العفن والستربتومايسين من تراب المقابر •• الخ أو بمعنى أدن من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر • أما والحالة كذلك ، فهل يمتنع عقلا ونظريا أن يكون فى الذباب هذه الحشرة القذرة ، والتى تنقل القذر طفيلى أو جرثوم يخرج أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذى تحمله •

٤ ــ من المعروف فى فن الجراثيم أن للجرثوم ذيفان (مادة منفصلة عن الجرثوم) وأن هذا الذيفان اذا دخل بدن الحيوان كون البدن أجساما ضد هذا الذيفان ، لها قدرة على تخريب الذيفان والتهام الجراثيم تسمى بمبيدات الجراثيم •

فهل يستبعد القول بأن الذباب تلتهم الجراثيم فيما تلتهم ، فيكون في جسم الذباب الاجسام الضدية المبيدة للجراثيم والتى مر ذكرها ، ولهـا القدرة على الفتك بالجراثيم المرضة التى ينقلها الذباب الى الطعام أو الشراب • فاذا وقعت فى الطعام فما علينا الا نغمس الذبابة فيه فتخـرج تلك الاجسام الضدية فتبيد الجراثيم التى تنقلها وتقضى على الامراض التى تحملها •

• • • • •

وبعد كلام الدكتور عز الدين يستمر فينقل تحقيقا للطبيبين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين فى اثبات ما فى الحديث ننقل بعضـا منـه ، يقـولان :

ما تقوله المراجع العلمية :

فى ١٨٧١ وجد الاستاذ الالمانى « بريفلد » من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيلى من جنس الفطريات سماها « امبوزاموسكى » وهـو طفيلى يعايش الذبابة على الدوام وبالتدقيق فيه وجده من نوع من الفطـور التى تسمى « انتوموفترالى » تنتمى الى أهم فصيلة فى الفطور الاشنية وهى المسماة بالفطور الاشنية المرتبطة أو المتحدة ، وهو من النوع الثانى للفطـر المسمى الفطور الاشنية الطفيلية وهذا الطفيلى يقضى حياته فى الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة سيأتى ذكرها • ثم لا تلبث هذه الخلايا المستديرة أن تستطيل فتخرج من الفتحـات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة •

ودور الخروج هذا يمثل الدور التناسلى لهذا الفطر ، وفى هذا الدور تتجمع بذور الفطر داخل الخلية ، فيزداد الضغط الداخلى للخلية من جراء ذلك ، حتى اذا وصل الضغط الى قوة معينة لا تحتملها جدر الخلية انفجرت الخلية وأطلقت البذور الى خارجها بقوة دفع شديدة ، تدفع البذور الى مسافة ٢ سم خارج الخلية ، على هيئة رشاش مصحوبا بالسائل الخلوى • وعلى هذا اذا امعنا النظر فى ذبابة ميتة ومتروكة على الزجاج نشاهد :

(أ) مجالا من بذر هذا الفطر حول الذبابة المذكورة •

(ب) ويشاهد حول القسم الثالث والاخير من الذباب على بطنها وعلى ظهرها وجود الخلايا المتفجرة • والتى خرجت منها البذور وقد برز منها رؤوس الخلايا المستطيلة التى مر ذكرها • وقد جاءت مكتشفات العلماء الحديثة مؤيدة ما ذهب اليه « بريفلد » ومبينة خصائص عجيبة لهذا الفطر الذى يعيش فى بطن الذبابة منها :

١ ـ فى عام ١٩٤٥ أعلن أكبر استاذ فى علم الفطريات وهو «لانجيرون» أن هذا الفطر الذى يعيش دوما فى بطن الذبابة على شكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة (انزيم) قوية تحلل وتذيب من أجزاء الحشرة الحاملة للمرض ٠

٢ ـ فى عام ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠ تمكن العالمان الانجليزيان « آرنشتين وكوك » والعالم السويسرى « روليوس » من عزل مادة سموها « جافاسين » استخرجوها من فصيلة الفطور التى تعيش فى الذباب وتبين لهم أن هذه المادة مضادة للحيوية تقتل جراثيم مختلفة من بينها جراثيم غرام السالبة والموجبة والديزونتاريا والتيفوئيد ٠

٣ ـ وفى عام ١٩٤٨ تمكن « بريان وكورتيس وهيمنغ وجيفيرس وماكجوان » من بريطانيا من عزل مادة مضادة للحيوية أسموها « كلوتيزين » وقد عزلوها عن فطريات تنتمى الى نفس فصيلة الفطريات التى تعيش فى الذباب وتؤثر فى جراثيم غرام السالبة كالتيفوئيد والديزونتاريا ٠

٤ ـ وفى عام ١٩٤٩ تمكن عالمان انجليزيان هما « كومسى وفارمر » وعلماء آخرون من سويسرا هم « جرمان وروث واتلنجر وبلاتنر » من عزل مادة مضادة للحيوية أيضا اسموها « انياتين » عزلوها من فطر ينتمى الى فصيلة الفطر الذى يعيش فى الذباب ووجدوا لها فعالية شديدة جدا ، وتؤثر بقوة على جراثيم غرام موجب وسالب وعلى بعض فطريات أخرى كالزحار والتيفوئيد والكوليرا ٠

٥ ـ وفى عام ١٩٤٧ عزل « موفيتش » مواد مضادة للحيوية من مزرعة للفطريات الموجودة على نفس جسم الذبابة ، فوجدها ذات مفعول قوى على الجراثيم السالبة لصيغة غرام ٠ كالزحار والتيفوئيد وما يشابهها ووجدها ذات مفعول قوى على الجراثيم المسببة لامراض الحميات ذات الحضانة القصيرة المدة ٠ وان غراما واحدا من هذه المادة يمكنه أن يحفظ أكثر من ١٠٠٠ لتر من اللبن المتلوث بالجراثيم المذكورة ٠

والخلاصة يستدل من كل ما سبق أنه :

١ ـ يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة والبراز وما شابه ذلك ، فيحمل بأرجله أو يمج كثيرا من الجراثيم المرضية الخطرة ٠

٢ ـ يقع الذباب على الاكل فيلمس بأرجله الملوثة الحاملة للمرض هذا

الطعام ، أو هذا الشراب ، فيلوثه بما يحمل من سم ناقع ، أو يتبرز عليه فيخرج مع ونيمها تلك الجراثيم الدقيقة المرضة ٠

٣ ـ فاذا حملت الذبابة من الطعام ، وألقيت خارجه دون غمس ، بقيت هذه الجراثيم فى مكان سقوط الذباب ، فاذا التهمها الآكل وهو لا يعلم طبعا ٠ دخلت فيه الجراثيم ، فاذا وجدت أسبابا مساعدة ، تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض ، فلا يشعر الا وهو فريسة للحمى طريحا للفراش ٠

٤ ـ أما اذا غمست الذبابة كلها ، أو مقلت فى الطعام فماذا يحدث ٠ اذا غمست الذبابة أحدثت هذه الحركة ضغطا داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة فزاد توتر البروز والسائل داخلها زيادة تؤدى لانفجار الخلايا ، وخروج الانزيمات الحالة لجراثيم المرض والقاتلة له ٠ فتقع على الجراثيم التى تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها ، ويصبح الطعام طاهرا من الجراثيم المرضية ٠

٥ ـ وهكذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيرا للحديث النبوى المؤكدة لضرورة غمس الذبابة كلها فى السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء الذى يكافح ما تحمله من داء ٠

ويستنتج من ذلك أن العلم الحديث قد حقق ما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم ٠

فقد أثبت العلم الحديث أن الذباب ينقل الجراثيم والاقذار بأرجله من النفايات والكنف والمزابل الى الاطعمة والاشربة ، والى فتحات الوجه والتنفس فيسبب الامراض المعدية من تيفوئيد وسل وكوليرا وغيرها ، وهذا ما أخبر عنه المصطفى صلى الله عليه وسلم من أن بأحد جناحى الذبابة داء ٠

والداء يجب الوقاية منه والبعد عنه ، ولا يكون ذلك الا بمكافحة الذباب وابادته والاحتراس منه ٠

ويقرر العلم الحديث أيضا كما رأينا أن فى الذباب طفيليا له ذيفان يبيد الجراثيم ، ويفتك بها بشدة وأن هذا الذيفان لا ينفصل عن جرثومه الا بعد وصول توتره الى درجة معينة ، يكفى لبلوغه الضغط عليه بغمسه ولو فى الشراب أو الطعام ٠ وهذا ما ورد فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، **((وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى)) ٠**

٠٠٠٠٠

(ب) عن عائشة أن فاطمة بنت أبى حبيش سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت انى أستحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة ؟ فقال : « لا ان ذلك دم عرق ، ولكن دعى الصلاة قدر الايام التى كنت تحيضين فيها ثم اغتسلى وصلى » •

المسألة هنا كما يلى : للمرأة عادة شهرية يخرج فيها الدم من رحمها كأثر من آثار عدم تلقيح بويضة الانثى بماء الذكر والدم الذى يخرج منها فى هذه الحالة يسمى دم حيض وهذه امرأة يخرج منها الدم دائما وكانت تتصور ان هذا الدم كله دم حيض ولكن الرسول أفهمها أن هذا الدم ليس دم حيض ولكنه نزيف عرق •

فماذا يقول العلماء المختصون المعاصرون الآن فى هذه الناحية ؟

يقولون : ان الدم الوحيد الذى يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس أما الدم الآخر الذى يكون فى غير هذا فمرجعه الى نزيف يحدث فى بعض الاغشية مما لا علاقة له بالرحم ، ودم الحيض الذى يخرج منه ، فهل كان حديث أهل الاختصاص فى عصرنا الا مصدقا لما قاله عليه السلام من عصور لم يكن هذا فيها معروفا ؟

• • • • •

(ج) روى مسلم عن طارق الجعفى أنه سأل النبى عن الخمر فنهاه عنه فقال : انما أصنعها للدواء فقال : « انه ليس بدواء ولكنه داء » •

ان هذا الحديث يذكر أن الخمرة من أسباب المرض وليست من أسباب الشفاء • فماذا يقول الاطباء فى عصرنا ؟ ننقل للجواب على هذا ما ذكره صاحب كتاب (روح الدين الاسلامى) فى هذا الموضوع وقد نقل هو قسما من بحثه عن كتاب (الاسلام والطب الحديث) يقول :

الخمر أساسها مادة الكحول بكميات مختلفة ، وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة جدا فى جسم الانسان فى عملية هضم المواد السكرية •• ولها فوائدها طبيا ولكن يظهر أن هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جدا (وطبعا الحديث لم يذكر أن ما يجرى داخل الجسم من عملية التخمر فيه ضرر ولكن الكلام فيما نخمره ثم نشربه) فان زاد عن ذلك أحدث ضررا خصوصا اذا كان التعاطى لمدة طويلة ، فانه يحدث التهابا مزمنا فى الاعصاب وفى الكلى ، وتصلبا فى الشرايين وتحجرا فى الكبد ، وضعفا فى القلب ورب سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ (وطبعا لا يسأل هذا السؤال الا انسان يجهل أن

الجسم متى اعتاد على الكحول ، طلبه وغلب الانسان ، فلم يعد يستطيع الصبر عنه) والجواب أن الكحول يختلف عن أغلب المواد فى أنه حتى بالمقـــادير البسيطة • يحدث ضعفا فى قوة الارادة والحكم ، وتزداد به الانفعـــالات النفسانية ، وهذا هو الخطر ، لان الشخص يصبح شخصا آخر ، وارادته تصبح غير ارادته الطبيعية ، ومع علمه بضرر الزيادة فى حالته الاعتيـادية لا يقوى على منع نفسه ، وهو تحت تأثير البسيط منه وقد يحدث الشىء البسيط منه حركة انتعاش ولكن ضعف الارادة المتولدة منه يجعل الشـخص عبدا لعادة شرب الخمر •

وان تأثير الخمر يبدأ بمجرد وصول عشرة جرامات من الكحول الى الدم للشخص البالغ ، وهذا القدر يوجد فى كأس واحدة من الويسكى أو الكونياك ، وقد لا يصل الشخص الى درجة السكر ، ولكن على كل حال له أثر ملموس فى حالة الشخص الجنسية والعقلية ، واذا فحص الشخص فى هذه الحالة ، نجد أن درجة ادراكه وتقديره قد تغيرت فعلا ، فهو مثلا اذا كتب على الآلة الكاتبة ، زادت أخطاؤه عن المعتاد ، واذا قاد سيارة لم يتبع بالضبط قوانين المرور • وقد ثبت من الاحصائيات أن أكثر من ١٣ فى المـائة من حـوادث المرور سببها الخمر •

والجرعة الواحدة من الخمر تحدث شيئا من الارتفاع فى ضغط الدم ، وهذا الارتفاع وحده قد لا يكون له ضرر كبير ولكن الضرر يتضاعف اذا كان الشخص مرتفع الضغط من نفسه ، ثم اذا كانت كمية الخمر وافرة كانت كافية لان تحدث هيجانا يزيد فى الضغط لدرجة ينفجر معها شريان فى المخ ، يسبب شللا قد ينجو منه الشخص جزئيا أو لا ينجو كلية ، اذ من المعلوم أن الشخص الذى ضغطه الدموى مرتفع يجب أن يلتزم الهدوء فى حياته ، لان أى هيجان يزيد فى ارتفاع الضغط يعرضه لانفجار شريانى ، والسكران لا يمكنه أن يضبط عواطفه ، وبالتالى لا يمكنه أن يضمن لنفسه هذا الهدوء •

والخمر تحدث عند غير المتعود عليها احتقانا فى المعدة ، قد يسبب غثيانا أو قيئا ، واذا كانت الجرعة كبيرة سببت التهابا فى المعدة وعسر هضم يمتـد الى بضعة أيام •

ويرى بعض الاطباء أن الخمر ولو كانت قليلة جدا ، فهى ضارة بالخميرات فى طول القناة الهضمية • وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيرا طبيعيا • والخمر لها تأثير فى الوراثة • فقد شوهد أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحى الجسم ، ضعفاء البنية ناقصى العقول ، ويكون لديهم ميل الى الاجرام وذافع الى الشر • وأن من يبحث فى كتب الطب يتولاه العجب عندما يقرأ مسببات الامراض المختلفة • اذ يجد للخمر نصيب الاسد فى ذلك •

لقد أصبحت فكرة التداوى بالخمر محض خرافة وتأكد كونها داء بعشرات الطرق ، وأقل ما فيها ما ذكره « بتنام » فى كتابه أصول الشرائع : النبيذ فى الاقاليم الشمالية يجعل الانسان كالابله وفى الاقاليم الجنوبية يصير كالمجنون ٠

ولعله وضح بعد هذا كيف أن كلمة الرسول لا ينقضها شيء لانها محض الحق والصدق الذى لا تزيده الايام الا تثبيتا وتأكيدا ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠

(د) عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله » ، رواه مسلم ، وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله من داء الا أنزل له دواء » رواه البخارى ٠ وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداووا بحرام » ٠ أخرجه أبو داوود ٠

هذه الاحاديث تلح على أن لكل داء دواء فماذا قال الواقع ؟

لقد قال الواقع ولا يزال يقول كل يوم أن ذلك حق لا مرية فيه ، ففى كل يوم يكتشف أهل الاختصاص دواء لداء لم يكن له دواء معروف ٠ ولعلك تلاحظ أن العلماء مقبلون على محاولة اكتشاف دواء كل داء بروح الواثق أنه لابد أن يكون لكل داء دواء وان جهلوه الآن ، ولكن لابد واجدوه ٠ فأخذت هذه القضية مأخذ البديهية فى أذهانهم ، وفى ذلك كله تجد كيف أن كلمة رسول الله لا تنتقض بل هى الصدق كل الصدق ٠

٠ ٠ ٠ ٠ ٠

(هـ) مما قرره علماء الظواهر الطبيعية فى عصرنا أن ما ينزل سنويا من الامطار فى العالم لا يتغير مقداره بتاتا ، فلا يزيد ولا ينقص ولو مقدارا بسيطا ، وعللوا ذلك بأن ما تقدمه الشمس من الحرارة نسبته ثابتة ٠ والعوامل الاخرى التى تشارك فى وجود ظاهرة المطر تبقى ثابتة بالنسبة لمجموع الكرة الارضية ٠ فعلى هذا تكون نسبة بخار الماء فى الجو سنويا ثابتة ونسبة الامطار بالتالى لا تتغير بتاتا فى كل عام ، وأما ما نراه من كون المطر ينزل فى منطقة واحدة بنسب مختلفة خلال سنين ، فهذا لا يؤثر على جوهر القضية ، لانه ينقص فى مكان على حساب زيادته فى مكان آخر ، فالنسبة بالنسبة للعالم كله واحدة وان اختلت بالنسبة لكل منطقة على حدة ٠

وانظر بعد هذا الذى قدمناه الى هذا الاثر تجد أن علماء عصرنا ما زادوا

على أن أكدوا مضمونه ليكون جزءا من شهادة الواقع على صدق الرسول عليه السلام والاثر هو : « ما عام بأمطر من عام » ٠

(و) روى أبو داوود والترمذى عن ابن عباس حديث دخوله وخالد بن الوليد مع رسول الله على ميمونة ٠ ومن الحديث قال : قال صلى الله عليه وسلم : « من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، ومن سقاه الله لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فانه ليس شىء يجزىء من الطعام والشراب الا اللبن » ٠

ان هذه الحقيقة التى أشار اليها الحديث وهى كون الحليب هو الغـذاء الكامل وأى غذاء آخر يبقى فيه نقص كغذاء منفرد ، أصبحت الآن تجدها فى أى كتاب عن علم التغذية يصدر الآن ، وذلك بعد أن تقدمت وسائل التحليل والتجريب ، وتقدمت الانسان دالة على ما ينفع ويضر ، فان النتيجة التى أوصلت اليها انسان عصرنا فى هذا الموضوع كانت متناسقة تماما مع ما أشار اليه الرسول فى الحديث بشكل واضح ، وهذه الحقيقة على بساطتها تدلك كيف أن الكلمة النبوية كلها حق وصدق لا يزيدها مرور الايام الا ثباتا ٠

٠٠٠٠٠٠

(ز) نشر الدكتور « جراد فنتسر » فى مجلة كوسموس الالمانية مقـالا تحت عنوان : الاخطار التى تنشأ عن اقتناء الكلاب والاقتراب منها ٠

جاء فيه :

« إن ازدياد شغف الناس بالكلاب فى هذا العهد الاخير ، يضطرنا الى لفت الانظار للاخطار التى تنجم عن ذلك وخاصة اذا دفع اقتناؤها الى مداعبتها وتقبيلها ، والسماح لها بلحس الايدى وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها ، فكل ما ذكر مع نبوه عن الذوق السليم ، ومنافاته للاداب ، لا يتفق وقوانين الصحة فان الاخطار التى تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسـامح لا يستهان بها ، فان الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعداها الى الانسان وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل الى حد العدوان على حياته » ٠

وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجما لا تسـلم من الاصابة بهذه الديدان الشريطية ٠

وقد رؤى فى اقليم فريزلند بهولندة حيث تستخدم الكلاب فى الجـر ، أن فى كل مائة منها ١٢ اصابة ٠ ووجد فى اسلانده شخص مصاب بهـذه الآفة فى كل ٤٣ شخصا من أهاليها ٠ وشوهد أن هذه النسبة تزيد فى استراليا

اذ ثبت وجود شخص فى كل ٣٩ شخصا من سكانها مصابا بها • وثبت كذلك أنها كانت سببا مباشرا للكثير من الامراض فى الاقطار الاخرى •

ثم يقول : ومما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب ، وتعويد الاطفال التوقى منها • فلا تترك تلعق أيديهم ولا يجوز ابقاء الكلاب بمحال نزهة الاطفال ، وميادين رياضتهم ، ويجب أن لا تطعم الكلاب فى الاوانى المعدة لاكل الناس وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والاسواق العامة أو المطاعم • وعلى وجه عام يجب ابعادها عن كل ما له صلة بمأكل الانسان ومشربه » •

وان من كشوفات عصرنا استخراج كثير من مبيدات الجراثيم من التراب وخاصة تراب المقابر ، لانه أكثر من غيره تلوثا فمثلا الستربتومايسين والتتراسكلين والنيوماسين ، وكلها من مبيدات الجراثيم استفيد من التراب فى استخراجها لوجود ذيفان فى جراثيمه يقضى على أنواع من الجراثيم الاخرى •

ضع ما مر كله فى ذهنك واقرأ هذا الحديث :

روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله قال : « طهور اناء أحدكم اذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب » • انك ترى أن كشوفات عصرنا قد برهنت على صدق ما دلنا عليه الحديث •

• • • • •

٤ ــ **وأخيرا** : فانه ما من كلمة قالها رسول الله الا وكان الحق والصدق ملاها • ولكن كلام رسول الله ينقسم الى قسمين :

١ ــ ما له علاقة بالغيب •

٢ ــ ما له علاقة بالمشهود المحسوس •

فالنوع الثانى فقط هو الذى يستطيع الانسان أن يختبره فاذا ما ثبت صدقه فيه كان ذلك آية صدقه على الاول مع جعل الله علامات أخرى تكون دليل صدقه فى أمر الغيب ، هى المعجزات والنبوءات • فرسول ثبت صدقه فى كل شىء مع هذه المؤيدات فلا يبقى مجال أمام الانسان الا التسليم له •

ونحب أن نذكر هنا بعض الملاحظات المهمة بمناسبة كلامنا عن صفة الصدق عنده عليه السلام :

الملاحظة الاولى : ان معرفة صحة الحديث ، وتأكد ثبوته عن رسول الله • ينبغى أن يسبق دراسة المضمون • لان كثيرا من الكلام دس عليه وقد

قام العلماء بتمحيص الصحيح من كل ما روى عنه عليه السلام كما سيمر معنا فى كتابنا (دجند الله ثقافة وأخلاقا) فلابد من الرجوع الى ما أثبتوه أولا ، ليكون تحليل المضمون قائما على أساس سليم ، وينبغى أن يتوفر هذا فى كل دراسة لها علاقة برسول الله •

الملاحظة الثانية : ان بعض الالفاظ فى اللغة العربية نقلت من مدلولاتها اللغوية الى مدلولات شرعية ، فصارت تطلق على كلا المدلولين ، وقد تستعمل فى القرآن وفى حديث الرسول تارة بالاستعمال الاول ، وتارة بالاستعمال الجديد ، فلابد لدارس النص من أن يتأكد أولا من نوعية استعمال اللفظ فى النص الخاص الذى يدرسه • فمثلا كلمة « السماء » ذكرت أحيانا فى القرآن للدلالة على المعنى اللغوى وهو كل ما علا • وذكرت أحيانا للدلالة على السماء التى هى سكن الملائكة وفيها وفيها من عالم الغيب فلابد لدارس نص فيه مثل هذا أن يعرف بواسطة القرائن أولا المقصود الحقيقى من اللفظ فى هذا المحل • وقد أخطأ كثيرون بفهم النصوص نتيجة لعدم وضوح هذا عندهم ، فعرضوا قضايا على أنها حقائق وهى ليست كذلك ، وأنكروا قضايا هى من باب الحقائق ، وهم فى كلا الحالين متوهمون ، وجعلوا توهمهم من الاسلام ، فحملوا الاسلام ما ليس منه جهلا •

الملاحظة الثالثة : ان بعض الامور تكون نتيجة لعوامل كثيرة ، كل عامل من هذه العوامل يكون سببا من عدة أسباب مؤثرة فيه ، وفى هذه الحال • لو ذكر انسان سببا فقط ولم يذكر الآخر لا يعنى هذا انه ينفى البقية • فمثلا قد يكون الكسل نتيجة لاجتماع الحر والتعب والضجر والعادة والملل ، وقد تجتمع هذه الاسباب كلها عند انسان ، فلو قلت لهذا الانسان : الحر جعلك تكسل لا يعنى هذا أننى أنفى الاسباب الاخرى لكسله ، وهناك كثير من القضايا ربطها الله بأسباب حسية وأسباب غيبية كالموت مثلا • فان له سببا حسيا هو المرض ، وآخر غيبيا هو قبض الروح من قبل الملك الموكل بذلك ، وأمور كثيرة من هذا النوع ، والقرآن والحديث قد يتحدثان فى موقف عن السبب الحسى لقضية ، وقد يتحدثان فى موقف آخر عن السبب الغيبى لها ، ولا يعنى أن ذكر أحدهما فى موطن نفى للثانى •

ومن هنا نجد أن كثيرين من الناس يتوهمون فى فهم بعض النصوص ، فتراهم اذا قرأوا نصا يتحدث عن السبب الغيبى فقط لقضية لها سبب حسى كذلك ، انهم ينفون السبب الحسى أو العكس فى القضايا المقابلة ، وذلك جهل عظيم يقابله جهل الذين يثبتون السبب الحسى فقط ، ولا يثبتون معه السبب الغيبى الذى أخبرنا به الرسول الصادق • ان القوارع والجوائح والمصائب التى تصيب بنى البشر لها أسبابها العادية ، ولا يتنافى هذا مع كونها بقدرة

الله وارادته انتقاما من الناس بما صنعوا وتذكيرا لهم حتى يرجعوا • قال تعالى :
« ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم » •

الملاحظة الرابعة : تمتلىء كتب التصوف الاسلامى بالحديث عن انكشاف بعض عوالم الغيب للناس من الصوفيين ويقولون : ان أى انسان يفعل ما يفعلون يصل الى مثل الذى يصلون اليه من مثل هذه المشاهدات التى تزيد فى يقين الانسان ، ويلاحظ أن من الذين يقولون مثل هذا الكلام ناسا مجمعا على توثيقهم وصدقهم ، وهذا لا شك من جملة المؤكدات لصدق رسالة الرسول ، ولكننا نحب هنا أن نذكر بعض الضوابط لنعرف حدود ما يمكننا قبوله من هذا الكلام فنقـول :

١ ـ ان امكانية رؤية بعض عوالم الغيب ضمن شروط معينة جائزة • أشار اليها الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لبعض الصحابة ، فقد روى أحمد قول رسول الله لاصحابه وهو يسمع عذاب القبر : « لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع » • وقد روى مسلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر وحنظلة : « والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة ساعة وساعة » • وأخرج البخارى عن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده اذ جالت الفرس فسكت فسكنت الفرس ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريبا منها فانصرف فأخره ثم رفع رأسه الى السماء فاذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فلما أصبح حدث النبى صلى الله عليه وسلم فقال : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا • قال : « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لاصبحت ينظر اليها الناس لا تتوارى منهم » • وأخرج الشيخان والترمذى عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال : « تلك السكينة تنزلت للقرآن » •

٢ ـ لكنا لا نستطيع قبول كلام يدعى صاحبه أنه رأى من مثل هـذا الا بشروط منهـا :

(أ) أن يكون ممن تقبل شهادته فالفاسق والمبتدع والضال جميع هؤلاء لا تقبل شهادتهم وكلامهم فى مثل هذه القضايا •

(ب) وأن يكون هذا الاطلاع كأثر من آثار التزامه بشريعة الله ، وسنة رسول الله ، فلا نقبل كلام انسان ادعى أنه شاهد من مثل هذا باتباعه طريقا لم يشرعه لنا رسول الله ، لانه بعمله فسق والفاسق لا شهادة له ••

(جـ) وأن يكون ما اطلع عليه من عالم الغيب متفقا مع ما أخبر عنه رسول الله فى هذه القضية ، لان رسول الله وحده الذى لا يمكن أن يكون فى كلامه خطأ ، ولان الله جعله الحجة على الناس فى كل شىء ، فلا نقبل كلام انسان ينقضه نص ٠

(د) وألا يكون مدعاه أنه شاهد شيئا تستحيل مشاهدته شرعا فى قوانين كوننا الحالية ، أو يرتب على مشاهدته تشريعات محدثة فمن توفرت فيه هذه الشروط وأخبرنا أنه قد حدث له من هذه الكشوفات ، فلا علينا لو قبلنا كلامه اذ لا مبرر لتكذيبه ، ولم يعرف عنه الا الصدق ، ولعل الفارق بين العقل الخرافى والعقل العلمى هو التثبت لا الانكار دون مبرر ، فهذا نوع من المرض العقلى يشبه المرض الآخر ٠

الملاحظة الخامسة : ان هناك ظواهر غيبية كثيرة تحتاج الى تحليل ووضع لها فى محلها الصحيح :

١ ـ ظاهرة الاحلام ٠

٢ ـ ظاهرة التنويم المغناطيسى ٠

٣ ـ ظاهرة تحضير الارواح ٠

٤ ـ ظاهرة الاتصال بعالم الجن ٠

٥ ـ ظاهرة التلباثى ٠

هذه الظواهر أخذت محلها الآن فى معرض الحقائق وكل منها يدعم قضية الايمان بعالم الغيب من زاوية من الزوايا ، بصرف النظر عن تعليل هذه الظواهر ، الا أنها جميعا تشير الى قضية واحدة هى وجود عالم غيبى كما أخبر الرسل ، تمثل هذه الظواهر جزءا منه ٠

فانكشاف شىء من المستقبل البعيد للانسان وهو فى حالة النوم ، ووقوعه فى كثير من الاحيان حرفيا دون أن يكون فى بعض الحالات تفكير مسبق عنه ، دليل على وجود علم محيط بالمستقبل ، هو غيب بالنسبة لنا ٠

وظاهرة التنويم المغناطيسى تدل بشكل لا يقبل الجدل ، على وجود الروح وعلى أن لها قوانينها وعالمها الخاص ، فالانسان فى حالة النوم المغناطيسى ، تكون حواسه كلها معطلة ، وحتى الافعال الانعكاسية ٠ كذلك تكون فى حالة شلل تام ، حتى لو وخزت النائم بابرة فانه لا يظهر عليه أى شعور ، ومع ذلك فانك تسأله عن أشياء بعيدة عنه ، فيحدثك عنها وكأنه يراها وهو لا يعرفها

فى حالة اليقظة ، ولا يستطيع لو كان مستيقظا أن يجيب على أى سؤال مما أجاب عليه وهو نائم ، فاذا استيقظ من هذا النوع من النوم فانه لا يتذكر شيئا مما سئل عنه وأجاب • وهذه نقول عجيبة سجلت فى حالات التنويم المغناطيسى •

نقل « بيو » فى كتابه : المخاطبات على التنويم المغناطيسى هذه المحاورة بين منوم ومنومة كما نقلها « شارول » قالت المنومة : هل تسمع ما يأمرنى به ؟ فقال الدكتور : من هو الذى يأمرك ؟ فقالت هى ألست تسمعه فقال كلا لم أسمع شيئا ولم أر أحدا فقالت : حقيقة لانك نائم وأنا يقظى فقال لها الدكتور : كيف ذلك أتدعين أنى نائم وأنت يقظى ، مع أنك تحت تأثير ارادتى فى الحالة المغناطيسية ، انك تتوهمين أنك يقظى لكونك تكلمينى ، وانك متمتعة بنوع من الارادة ، ولكنك فى الحقيقة لا تستطيعين أن تفتحى جفنيك • فقالت : انى أكرر لك القول بأنك أنت النائم وأنا بالعكس اليقظى تماما على مثل الحالة التى ستكون عليها جميعا فى يوم ما لافسر لك ذلك • ان كل الذى تستطيع أن تراه أنت ليس الا أشكالا غليظة مادية ، فلا يمكن أن تميز الا أشكالها الظاهرة ، ولكن جمالها الحقيقى محجوب عنك تماما أما أنا ففى حالة وقوف وظائف أعضائى الآن وفى حالة حرية روحى من علائقها الاعتيادية ، فانى أرى ما هو مستور عنك وأسمع ما لا يمكنك سماعه ، وأفهم كل ما هو غير مفهوم لديك الى ان قالت : وانى بمجرد الارادة أستطيع أن أسمع الاصوات البعيدة عنى ولو كان بينى وبينها مائة فرسخ • وبالاختصار فانى لا أحتاج أن تأتى الاشياء الى أنا بل أذهب اليها حيثما كانت ، وأحكم على حقيقتها بطريقة أضبط مما يحكم بها عليها أى انسان آخر لا يكون فى الحالة التى أنا عليها •

ونقل « أكزاكوف » فى كتابه : المذهب الروحى وفن استحضار الارواح ما يلى :

ان زوجة الانجليزى الشهير « دومرجان » معتادة على تنويم امرأة وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب الى المحل الذى تعينه لها فقالت لها يوما وهى تحت تأثير النوم المغناطيسى : اذهبى الى منزلى القديم فقالت المنومة : قد فعلت وطرقت الباب بشدة ، قالت زوجة دومرجان : فذهبت فى اليوم التالى لاتأكد من صدقها ، وسألت عما حصل فى تلك اللحظة فأجابنى السكان بأنهم سمعوا طرقا شديدا على الباب ، فذهبوا اليه فلم يجدوا أحدا فعلموا أن ذلك فعل الاشقياء من الاطفال •

وينقل أكزاكوف كذلك حادثة أخرى لها علاقة بظاهرة تحضير الارواح ، هى أنه كان يحضر روحا مع ثلة من اخوانه ، وكانت الواسطة امرأة شهيرة

هى مدام « دسبرانس » فشاهد أن الروح تجسدت من نصفها الاعلى وأن الواسطة التى هى المرأة قد فقدت أطرافها السفلى تماما • وقد فحصوا ذلك بأيديهم وأعينهم وهم فى غاية الدهشة ، فلم يجدوا لاطرافها أثرا ثم لما ذهبت الروح عادت اليها اطرافها ، وقد شاهد مثل هذه الحادثة التى فيها يغنى جسد الواسطة كله أو بعضه علماء آخرون •

وظاهرة تحضير الارواح كظاهرة التنويم المغناطيسى أصبحت منتشرة فى كل مكان فى العالم ، وهى تدل بمجملها على وجود عالم الغيب ، اذ الارواح التى تحضر : قسم منها يذكر أنه أرواح بشر ، وأخرى تذكر أنها أرواح جن ، وهى كما رأيت فى بعض مظاهرها ، تريك كيف أن بعض الاجسام لا ترى مع وجودها اذا كانت فى حالة روحية معينة •

وأما ظاهرة التلباثى وهى الظاهرة التى تحدث لبعض الناس ، اذ يشاهدون حوادث بعيدة جدا بشكل خارق ، فهى كذلك تدل على أن فى الانسان شيئا غير الجسد ، وأما ظاهرة الاتصال بالجن وهى ظاهرة موجودة بشكل واضح فى بعض المناطق ولها خصائصها الغريبة • فهى تؤكد بشكل ما وجود عالم الجن والشياطين الذى أخبر عنه الرسل • هذه الظواهر كلها تشير وتؤكد الى أن هناك عالم غيب ولكن هذه الظواهر كلها لا يصح أن تكون وسيلة من وسائل المعرفة وطريقا من طرق الهداية اذ ما من واحدة منها فيها ضمانة على أنها طريق سليم للمعرفة اذ يختلط بها الكذب بالصدق ، والحق بالباطل ، وروح الشيطان بروح الانسان • وليست هناك مسؤولية محددة ، كما أن للدجل فى كثير من أحوالها نصيبا • لذلك يبقى أمام الانسان طريق وحيد مأمون لمعرفة عالم الغيب ، هو طريق الرسول المؤيد بالمعجزة من عالم الغيب ، وهى شهادة ضمان كاملة على الحق ، عدا عن كون البلاغ يأتينا عن مصدر ثقة مسؤول مشاهد لنا معروف ، وما دام الرسول وحده هو المصدر الوحيد للمعرفة فى موضوع عالم الغيب ، فينبغى أن يعرض استخدام هذه القضايا على هديه ، ليعرف حكم الجواز أو عدمه • كما ينبغى أن يعرض ما يأتينا منها على هديه ليعرف وجه الحق فيه ، ولا يصح أبدا أن نعتبر أمثال هذه الطرق وسيلة من وسائل المعرفة الجازمة أو طريقا من طرق الهداية المستقلة •

الملاحظة السادسة : ان سبب التزامنا الكامل بقول الرسول كمقياس وحيد للحق ، هو أنه وحده الذى كلفنا الله باتباعه وتصديقه ، وألزمنا ذلك وأقام علينا الحجة فيه بالعلامات الكثيرة التى جعلها مؤيدة له ، وشاهد صدق عليه ، فكان هذا ضمانا لنا بأنه على الحق والصدق اللذين لا شبهة فيهما ، لان الله وحده هو المحيط علما بكل شىء ، والمنزه عن كل خطأ ، وهذا رسوله الذى ينطق بأمره ووحيه ، فهو كذلك منزه عن الخطأ والباطل برعاية الله وتعليمه ، وهذه شهادة الواقع تثبت أن الحق كل الحق فى كل كلمة قالها رسول الله •

ذكرنا هذه الملاحظات الستة فى معرض الحديث عن صفة الصدق عند رسول الله لان الذى يصرف بعض الناس عن الايمان شبهة لها علاقة بواحدة من هذه الملاحظات ، كذلك الذى يستبعد وجود عالم غيبى ، أو كذلك الذى أشكل عليه نص ، اما لان النص غير صحيح النسبة لرسول الله أو لعدم حمل الحديث على المعنى المراد أو لقصور الاطلاع وهكذا ٠٠

وعلى كل فان ما كتبناه هنا عن صفة الصدق لرسول الله هو مقدمة البرهان عليها ٠ والا فان هذا البحث كله بفصوله الخمسة كله برهان عليها وتأكيد لمضمونها بالشكل الذى يثلج القلب باذن الله ببرد اليقين ٠

والآن ننتقل لاستعراض الصفة الاساسيه الثانية للرسل وحظه الاكمل منها عليه الصلاة والسلام وهى :

٢ ــ التزامه الكامل بتطبيق ما يدعو اليه عليه السلام :

شهدت البشرية فى تاريخها الطويل انفصالا بين المثل والواقع ، بين المقال والفعال ، بين الدعوى والحقيقة ، وكان دائما المثال والمقال والدعوى ، أكبر من الواقع والفعال والحقيقة ، وهذا شىء يعرفه من له أدنى معرفة بالتاريخ والحياة ، غير أن هذه الظاهرة تكاد تكون مفقودة فى واقع اتباع الرسل المخلصين وعلى عكسها تماما فى حياة الرسل ، اذ دائما فى حياة الرسل تجد أن واقعهم أعظم من كل تصور نظرى ، فهم وحدهم الذين دعوا الانسانية الى أعظم قمم السمو ، ومثلوا هم بسلوكهم العملى هذه الذروة بشكل رائع مدهش عجيب ، وهذا بحد ذاته من أدلة صدقهم ٠ اذ الالتزام بالسمو لا تطيقه النفس البشرية عادة ما لم تتهذب هذه النفس بدافع الخضوع لامر الله بعد الايمان به ، ومعرفة أمره ، ويستطيع الانسان أن يعرف هذا بالتجربة ، اذا شاهد أحوال الكافرين ، فمثلا قد يحاول كافر أن يقلد مسلما فى صلاته متظاهرا بالايمان ، فاذا ما راقبت مثل هذا وجدته عمليا لا يبقى على حالة واحدة بالتطبيق ، كما أن تطبيقه يكون بسيطا جدا ، ولو لم يكن فى وضع يراه الناس فانه لا يفعل شيئا أصلا ، فعندما ترى فى المقابل الرسل بعبادتهم العجيبة الكثيرة لله ، مع قيامهم بأمر الله كما كلفهم على ما فيه من مشقة أو جهد ، دون تكلف بل بكامل الرضا والسعادة ، فذلك لا شك دليل صدق لا يدحض ٠

ولما كان الكلام هنا خاصا بالحديث عن محمد رسول الله ، وظهور هذا فى حياته العملية على أعلى ما يخطر بعقل بشر ، رأينا أن نختار بعضا من الاوامر القرآنية التى وجهها الله لرسوله فى قضايا متعددة لنرى كيف

كان قيام رسول الله بها دليلا كاملا على أنه رسول الله ، وحرصنا أن تكون الاوامر التى ندرسها مختلفة الجوانب لنرى كيف كان يقيم رسول الله كل أمر أمر به بشكل كامل • بحيث لا يكون تنفيذه لامر مضيعا لامرآخر ، كما نرى عند بعض الناس ، اذ نراهم مقبلين على تنفيذ أمر الله فى العبادة مثلا ، مفرطين ببقية أوامر الله وتكاليفه ، لكن رسول الله كان يقوم بكل أمر بما لا يسبق اليه ، مع احاطته وعدم تفريطه بأى جانب من جوانب الاسلام الذى كلف به ، وأمر أن يدعو اليه ، حتى أن الدارس المنصف لحياته فى هذا الجانب لا يتمالك الا أن يشهد أنه رسول الله حقا • يقول الجلندى ملك عمان لما بلغه أن رسول الله يدعوه الى الاسلام : (والله لقد دلنى على هذا النبى الامى انه لا يأمر بخير الا كان أول آخذيه ولا ينهى عن شر الا كان أول تارك له وانه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفى بالعهد وينجز الموعود وأشهد أنه نبى) •

والاوامر التى اخترناها لرؤية تطبيقه العملى لها هى ما يلى :

١ ـ قوله تعالى : ((**بل الله فاعبد وكن من الشاكرين**)) •

٢ ـ قوله تعالى : ((**ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو**)) • ((**ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا**)) •

٣ ـ قوله تعالى : ((**واخفض جناحك للمؤمنين**)) •

٤ ـ قوله تعالى : ((**يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**)) •

٥ ـ قوله تعالى : ((**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك**)) • ((**كونوا قوامين بالقسط**)) •

فلنر نماذج من تطبيقه لكل أمر من الاوامر الآنفة الذكر مع ملاحظة أن كل أمر من أوامر الله له ، كان يقوم به على مثل هذا • بحيث لا تجد أمرا من أوامر الله الا وله من تنفيذه أعلى حظ يتصوره بشر لانه أعلى انسان مثل العبودية لله على الارض •

١ ـ نماذج من تنفيذه للامر الاول (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) :

أخرج الشيخان عن عائشة قالت : كان النبى يقوم من الليل (أى مصليا لله) حتى تتفطر قدماه فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » •

وذكر المغيرة عن رسول الله مثل هذا .

وأخرج البخارى عن عائشة أن رسول الله كان يصلى احدى عشرة ركعة ((أى فى الليل) يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه ويركع ركعتين قبل صلاة الفجر ثم يضجع على شقه الايمن حتى يأتيه المنادى للصلاة » .

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : صليت مع النبى ليلة فلم يزل قائما حتى هممت بأمر سوء قيل : ما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه » .

وأخرج مسلم عن حذيفة قال : صليت مع النبى ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلى بها فى ركعة (أى بالبقرة) فمضى فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها (وهذه السور تعدل سدس القرآن) يقرأ مترسلا اذا مر باية فيها تسبيح سبح واذا مر بتعوذ تعوذ ثم ركع فجعل يقول : سبحان ربى العظيم فكان ركوعه نحوا من قيامه ثم قال : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ثم قام طويلا قريبا مما ركع ثم سجد فقال : سبحان ربى الاعلى فكان سجوده قريبا من قيامه » .

وروى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فاتته الصلاة (أى قيام الليل) من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة » .

وأخرج مالك والترمذى وأبو داوود عن عائشة قالت : فقدته صلى الله عليه وسلم من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو ساجد يقول : « اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وأخرج البخارى عن أنس قال : كان رسول الله يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئا وكان لا تشأ أن تراه من الليل مصليا الا رأيته ولا نائما الا رأيته » .

وروى الترمذى عن عائشة قالت : « كان رسول الله يتحرى صوم الاثنين والخميس » .

وروى النسائى عن ابن عباس قال : « كان رسول الله لا يفطر أيام البيض فى حضر ولا سفر » .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال : « كان رسول الله يعتكف العشر الاواخر من رمضان » .

وروى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله اذا دخل العشر الاواخر من رمضان أحيا الليل كله وأيقظ أهله وجد وشـد المئزر » .

وروى البخارى ومسلم عن عائشة قالت : « لم يكن النبى يصوم من شهر أكثر من شعبان فانه كان يصوم شعبان كله وفى رواية : كان يصوم شعبان الا قليـلا » .

وعن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله : اقرأ على القرآن فقلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : انى أحب أن أسمعه من غيرى فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت هذه الآية : (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال : حسبك فالتفت فاذا عيناه تذرفان (أى يبكى) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داوود ومالك .

وعن عائشة قالت : « كان رسول الله يذكر الله على كل أحيانه » .

وروى أبو داوود والترمذى باسناد حسن صحيح عن ابن عمر قال : كنا نعد لرسول الله فى المجلس الواحد مائة مرة : رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم » .

وروى مسلم عن الاغر المزنى أن رسول الله قال : « انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة » .

وقال الحسن بن على : سألت أبى عن دخول رسول الله (أى الى بيته) فقال : كان دخوله لنفسه مأذونا له فى ذلك وكان اذا أوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لاهله وجزءا لنفسه ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فرد ذلك على العامة بالخاصة » .

وهذه نماذج متممة لمـا تقدم عن مناجاته لله وذكره له فى بعض أحواله :

عن جويرية زوج النبى أن رسول الله خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال ما زلت على الحال التى فارقتك عليها قالت نعم ، قال : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال : كان رسول الله عليه وسلم اذا كبر للصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ ، فقلت يا رسول الله : بأبى أنت وأمى

سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : أقول « اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الابيض من الدنس • اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد » أخرجه الخمسة الا الترمذى وهذا لفظ الشيخين •

زاد أبو داود والنسائى فى أوله : « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب » •

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى سجوده : اللهم اغفر لى ذنبى كله دقه وجله ، أوله وآخره ، سره وعلانيته •

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن : أى يطبق ما جاء فى القرآن من أمر الله) •

وفى أخرى لمسلم وأبى داود والنسائى كان يقول فى ركوعه وسجوده : (سبوح قدوس رب الملائكة والروح) •

وعن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ركع قال : اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربى خشع سمعى وبصرى ولحمى ودمى وعظامى لله رب العالمين • أخرجه النسائى •

وعن ابن أبى أوفى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رفع ظهره من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما شئت من شىء بعد • أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بين السجدتين : اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى واهدنى وارزقنى • أخرجه أبو داود والترمذى واللفظ له •

وعن على رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سجد قال : (اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين) ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت) •

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعد التشهد : اللهم انى أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة الدجال · وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات)

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة حين فرغ من صلاته يقول : اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعثى وترد بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء اللهم أعطنى ايمانا ويقينا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة · اللهم انى أنزل بك حاجتى ، وان قصر رأيى وضعف عملى وافتقرت الى رحمتك ، فأسألك يا قاضى الامور ، ويا شافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور اللهم ما قصر عنه رأيى ، ولم تبلغه مسألتى ولم تبلغه نيتى من خير وعدته أحدا من خلقك أو خير أنت معطيه أحدا من عبادى ، فانى راغب اليك فيه وأسألك برحمتك يا رب العالمين ·

اللهم يا ذا الحبل الشديد والامر الرشيد أسألك الامن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود ، الركع السجود ، الموفين بالعهود ، انك رحيم دوود ، وانك تفعل ما تريد · اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سلما لاوليائك حربا لاعدائك ، نحب بحبك من أحبك ، ونعادى بعداوتك من خالفك · اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان · اللهم اجعل نورا فى قلبى ، ونورا فى قبرى ، ونورا من بين يدى ، ونورا من خلفى ، ونورا عن يمينى ، ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ودود ، وانك تفعل ما تريد · اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين ، وأعطنى نورا ، واجعل لى نورا سبحان الذى تعطف العز وقال به ، سبحان الذى لبس المجد وتكرم به ، سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له سبحان ذى الفضل والنعم · سبحان ذى المجد والكرم سبحان ذى الجلال والاكرام) ·

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سلم يستغفر ثلاثا ويقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والاكرام) ·

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والارض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والارض ومن فيهن ، ولك

الحمد أنت مالك السموات والارض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحى ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت) ٠

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا أمسى : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله ٠ لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ٠ رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها ٠ رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ٠ رب أعوذ بك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر ، واذا أصبح قال ذلك : أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله) ٠

عن أنس رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوى الى فراشه قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا ٠ وكفانا وآوانا فكم من لا كافى له ولا مؤوى) ٠

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ المعوذتين ، وقل هو الله أحد ، ويمسح بهما وجهه وجسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به) ٠

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استيقظ من الليل قال : لا اله الا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ٠ ولا تزغ قلبى بعد اذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) ٠

وعن على رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند مضجعه : اللهم انى أعوذ بوجهك الكريم وبكلماتك التامات من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ٠ اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم اللهم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ولا ينفع ذا الجد منك الجد ٠ سبحانك اللهم وبحمدك) ٠

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله ٠ اللهم انا نعوذ بك من أن نزل أو نضل أو نظلم أو نظلم ٠ أو نجهل أو يجهل علينا) ٠

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال (قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلسه حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لاصحابه : اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك • ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكثر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا) •

وعن مالك (انه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وضع رجله فى الغرز وهو يريد السفر يقول : بسم الله اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الاهل • اللهم أزو لنا الارض وهون علينا السفر اللهم انى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ومن سوء المنظر فى المال والاهل) •

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قفل من السفر يكبر على كل شرف من الارض ثلاث مرات ، ثم يقول : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون ، عابدون ساجدون لربنا حامدون • صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده) •

وعن عبد الله الخطمى رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عيله وسلم اذا ودع أحدا قال : أستودع الله دينكم وأمانتكم ، وخواتيم أعمالكم) •

وله فى أخرى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : (استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك) •

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقبل الليل عليه فى السفر قال : يا أرض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب • ومن ساكن البلد ووالد وما ولد) •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند الكرب : لا اله الا الله العظيم الحليم لا اله الا الله رب العرش العظيم • لا اله الا الله رب السموات والارض ورب العرش الكريم) • وعن أنس رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كربه أمر يقول : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث : وقال ألظوا بياذا الجلال والاكرام) •

عن الخدرى رضى الله عنه قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا استجد ثوبا قال : اللهم لك الحمد أنت كسوتنى هذا ويسميه : أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له) •

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أكل أو شرب قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين) ٠

وعن أنس رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل الخلاء لقضاء الحاجة يقول : اللهم انى أعوذ بك من الخبث والخبائث) ٠

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا خرج من الخلاء قال : غفرانك) ٠

عن فاطمة بنت الحسين بن على عن جدتها فاطمة الكبرى رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد صلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : رب اغفر لى ذنبى ، وافتح لى أبواب رحمتك ، واذا خرج صلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال : رب اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك) ٠

عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأى الهلال قال : اللهم أهله علينا باليمن والايمان ، والسلامة والاسلام ، ربى وربك الله) ٠

وعن قتادة رضى الله عنه قال : (انه بلغه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى الهلال قال : هلال خير ورشد ثلاث مرات ، آمنت بالذى خلقك ثلاث مرات ، ثم يقول : الحمد لله الذى ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا) أخرجه أبو داود ٠

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك) ٠

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا عصفت الريح قال : اللهم انى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) ٠

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ٠ واجعل الموت راحة لى من كل شر) ٠

وعن أنس رضى الله عنه قال : (كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ٠

عن أنس رضى الله عنه قال (كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) ٠

وعن أنس أيضا رضى الله عنه قال (كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم انى أعوذ بك من الجذام والبرص والجنون ومن سيء الاسقام) ٠

وعن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم انى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الاربع) ٠

وعنه رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم انى أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الاخلاق) ٠

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول قبل موته : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه ، فقلت فى ذلك ، قال : أخبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى ، فاذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب اليه ٠ فقد رأيتها : اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) ٠



هذه نماذج من عبادته عليه الصلاة والسلام لله شكرا ، وهذا كله ولم نذكر اقامته للصلوات الخمس ولا لرواتبها ، ولم نتعرض لكل ما أثر عنه من عبادة لله جل جلاله ، فهل بلغ أحد فى عبادة الله وشكره ما بلغه رسول الله ، وهل يستطيع أحد أن يتصور أن هذا ممكن الوقوع والحصول بهذا الكمال والجلال، وبهذه الكثرة والسعة وبهذا الانسجام والتوافق مع هذه المعرفة العظيمة لله وكمالاته ٠ لولا أن محمدا رسول الله يقوم بأمره كأعظم ما يقوم به أحد ٠

٢ ـ نماذج من تنفيذه لامر الله فى المثال الثانى : ((ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو)) ٠

((ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)) ٠

روى البخارى ومسلم عن أنس أن النبى قال : اللهم لاعيش الا عيش الآخرة ٠

وروى البخارى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر فقلت لبيك يا رسول الله فقال : ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينارا الا شى أرصده لدين الا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ٠

وروى مسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملا به بطنه • الدقل : ردىء التمر •

روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى بيتى من شىء يأكله ذو كبد الا شطر شعير فى رف لى •

وروى البخارى عن عمر بن الحارث أخى جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنها قال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا الا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة •

وروى ابن جابر عن جابر رضى الله عنه أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله فأعطاه ثم أتاه آخر فسأله فوعده فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله : سئلت فأعطيت ، ثم سئلت فأعطيت ، ثم سئلت فوعدت ثم سئلت فوعدت فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهها ، فقام عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه فقال : أنفق يا رسول الله ولا تخش من ذى العرش اقلالا ، فقال بذلك أمرت • كذا فى الكنز ج ٣ ص ٣١١

وأخرج البزار باسناد حسن والطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم على بلال رضى الله عنه وعنده صبر من تمر فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أعد ذلك لامنيافى قال : ما تخشى أن يكون لك دخان فى نار جهنم أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش اقلالا • وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ج ١ ص ١٤٩ عن عبد الله نحوه ورواه أبو يعلى والطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه بنحوه باسناد حسن وكما فى الترغيب ج ٢ ص ١٧٤ •

وأخرج أبو يعلى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أهديت للنبى صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائرا • فلما كان من الغد أتته بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أنهك أن ترفعى شيئا لغد ، فان الله تعالى يأتى برزق كل غد • قال الهيثمى ج ١ ص ٢٤١ ورجاله ثقات •

وأخرج الطبرانى فى الكبير — ورواته ثقات محتج بهم فى الصحيح — عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة دنانير وضعها عند عائشة رضى الله عنها فلما كان عند مرضه قال :

يا عائشة ابعثى بالذهب الى على ، ثم أغمى عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مرارا ، كل ذلك يغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشغل عائشة رضى الله عنها ما به ، فبعث الى على فتصدق بها ٠ وأمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جديد الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة رضى الله عنها بمصباح لها الى امراة من نسائها فقالت : أهدى لنا فى مصباحنا من عكتك السمن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسى فى حديد الموت ٠

ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث عائشة بمعناه ٠ كذا فى الترغيب ج ٢ ص ١٧٨ وعن أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتصدق بذهب كان عنده فى مرضه ٠ قالت : فأفاق ، قال : ما فعلت ؟ قلت : شغلنى ما رأيت منك ٠ قال : فهلم بها قال : فجاءت بها اليه سبعة أو تسعة ـ أبو حازم يشك ـ دنانير ٠ فقال حين جاءت بها : ما ظن محمد لو لقى الله وهذه عنده وما تنفى هذه من محمد صلى الله عليه وسلم لو لقى الله وهذه عنده ، قال الهيثمى (ج ١٠ ص ٢٤٠) : رواه أحمد بأسانيده ، ورجال أحدها رجال الصحيح ٠

أخرج أحمد باسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير ٠ قال : فجلست فاذا عليه ازاره وليس عليه غيره واذا الحصير قد أثر فى جنبه واذا أنا بقبضة من شعيرنحو الصاع ، وقرظ فى ناحية فى الغرفة ٠ واذا أهاب معلق فابتدرت عيناى فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب فقال : يا نبى الله ، وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها الا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والانهار وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزائنك ٠ قال : يا ابن الخطاب ٠ أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ٠

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض وفى رواية : ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض ٠

وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : والله يا ابن أختى ان كنا ننظر الى الهلال ثم الهلال : ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقد فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ٠ قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الاسودان التمر والماء الا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الانصار وكانت لهم منايح وكانوا يرسلون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا « متفق عليه » ٠

وعن أنس رضى الله عنه قال : لم يأكل النبى صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات ، وما أكل خبزا مرققا حتى مات ·

وعن خالد بن عمر العدوى قال : خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميرا على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام الا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بردة فشققتها بينى وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها فما أصبح اليوم منا أحد الا أصبح أميرا على مصر من الامصار وانى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيما وعند الله صغيرا · رواه مسلم ·

وعن جابر رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا · متفق عليه ·

وعن أنس رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام شيئا الا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع الى قومه فقال : يا قوم أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وان كان الرجل ليسلم ما يريد الا الدنيا فما يلبث الا يسيرا حتى يكون الاسلام أحب اليه من الدنيا وما عليها · رواه مسلم ·

وعن عمر رضى الله عنه قال : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت : يا رسول الله لغير هؤلاء كانوا أحق به منهم ؟ فقال انهم خيرونى أن يسألونى بالفحش فأعطيهم أو يبخلونى ولست بباخل ·

وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه أنه قال : بينما هو يسير مع النبى صلى الله عليه وسلم مقفلة من حنين فعلقه الاعراب يسألونه حتى اضطروه الى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أعطونى ردائى فلو كان لى عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا · رواه البخارى · مقفله · حال رجوعه · السمرة : شجرة ، والعضاه :شجر له شوك ·

وأخرج أحمد عن جابر رضى الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ببابه جلوس والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لابى بكر وعمر فدخلا والنبى صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو صلى الله عليه وسلم ساكت فقال عمر : لاكلمن النبى صلى الله عليه وسلم لعله يضحك · فقال عمر : يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : هن حولى يسألننى النفقة · فقام أبو بكر الى عائشة ليضربها وقام عمر الى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبى صلى

الله عليه وسلم ما ليس عنده • فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده • قال : وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال : انى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : يا أيها النبى قل لازواجك ـ الآية • قالت عائشة : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت• فقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتها • وأخرجه مسلم والنسائى ، وعند ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت عائشة : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نسائه فقال صلى الله عليه وسلم : انى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك ، قالت: وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه • قالت ثم قال : ان الله تبارك وتعالى قال : يا أيها النبى قل لازواجك ـ الآيتين • قالت عائشة : فقلت : أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فانى أريد الله ورسوله والدار الآخرة • ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة ، وأخرجه البخارى ومسلم عن عائشة مثله •

* * *

هذه الامثلة على الزهد والانفاق وتحمل خشونة الحياة والاقبال على الله طلبا لمرضاته ، وحرصا على نيل ثوابه فى اليوم الآخر وهى يسير من كثير ، تبين كيف قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله حق القيام بحيث لا يسبق ولا يلحق ، اذ لو رجعت الى الامرين اللذين ذكرنا الامثلة على تطبيقهما • فانك لا تستطيع أن تجد أبلغ من هذا فى تنفيذ أمر الله وانه لمجافاة لكل واقع بشرى وتنكب عن كل حقائق النفس البشرية ، أن نتصور أن مثل هذا التطبيق والتنفيذ ، بهذا الشكل ، لمثل هذه الاوامر ، يمكن أن يكون ، لولا أن صاحبه رسول الله حقا • صغرت لديه الدنيا بما فيها وهان لديه المال بكل أنواعه لمعرفته بأن الله أعظم كل شىء ويهون فى سبيله كل شىء •

* * *

٣ ـ نماذج من تنفيذه للامر الثالث : ((واخفض جناحك للمؤمنين)) :

وعاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم لانه أتاه مرة مؤمن مسلم وهو يعرض دعوة الاسلام على زعيم من زعماء المشركين فلم يقبل على المسلم تقول عائشة : أنزلت **((عبس وتولى))** فى ابن أم مكتوم الاعمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا رسول الله أرشدنى وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : أترى بما أقول بأسا ؟ فيقول : لا ففى هذا ((أنزلت)) أخرجه مالك والترمذى •

وآيات العتاب هى : ((**عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك الا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى**)) ٠

فكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا العتاب وبعد ذلك الامر فى علاقته بالمؤمنين عوامهم وخواصهم ؟

* * *

أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس لطفا ، والله ! ما كان يمتنع فى غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبى أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه وما سأله سائل قط الا أصغى إليه أذنه فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده الا ناوله اياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزعها منه ٠

* * *

وعند يعقوب بن سفيان عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صافح أو صافحه الرجل لا ينزع يده ، وان استقبله بوجه لا يصرفه عنه ، حتى يكون الرجل ينصرف عنه ، ولا يرى مقدما ركبتيه بين يدى جليس له ٠ ورواه الترمذى وابن ماجه ، كما فى البداية ج ٦ ص ٣٩ ٠

* * *

وعند أبى داود عنه قال : ما رأيت رجلا قط التقم أذن النبى صلى الله عليه وسلم فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه ، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذا بيده رجل فترك يده حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده ٠

تفرد به أبو داود كذا فى البداية ج ٦ ص ٣٩ ٠

وأخرج البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه أن اعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم يستعينه فى شىء قال عكرمة رضى الله عنه : أراه قال فى دم ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ثم قال : أحسنت اليك ، قال الاعرابى : لا ولا أجملت ، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا اليه ، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم أن كفوا ، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ منزله دعا الاعرابى الى البيت فقال : انما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت ، فزاده رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا وقال : أحسنت اليك ، فقال الاعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ! قال النبى صلى الله عليه وسلم انك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت

ما قلت وفى نفس أصحابى عليك من ذلك شىء فاذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب عن صدورهم ! فقال : نعم ، فلما جاء الاعرابى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وانا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى ، كذا يا اعرابى ، فقال الاعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان مثلى ومثل هذا الاعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورا فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها ! فتوجه اليها وأخذ من قشام الارض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وانى لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار ٠

***

وأخرج الطبرانى عن أبى غالب قال : قلت لابى أمامة رضى الله عنه : حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن يكثر الذكر ويقصر الخطبة ويطيل الصلاة ولا يأنف ولا يستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتى يفرغ من حاجته ٠ واسناده حسن ، كما قال الهيثمى فى (ج ٩ ص ٢٠) وأخرجه البيهقى والنسائى عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه نحوه كما فى البداية ج ٦ ص ٤٥) ٠

***

وأخرج الترمذى فى الشمائل (ص ٢٥) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أنى خير القوم فقلت : يا رسول الله ! أنا خير أو أبو بكر رضى الله عنه ٠ فقال : أبو بكر ، فقلت : يا رسول الله أنا خير أم عمر رضى الله عنه ٠ فقال : عمر ٠ فقلت : أنا خير أم عثمان رضى الله عنه ، فقال : عثمان فلما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصدقنى فلوددت أنى لم أكن سألته ٠ وأخرجه الطبرانى عنه نحوه واسناده حسن كما قال الهيثمى ج ٩ ص ١٥ وقال فى الصحيح : بعضه بغير سياقه ٠

وعند البزار والطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسله ولم يكن يرى ركبتيه أو ركبته خارجا عن ركبة جليسه ولم يكن أحد يصافحه الا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه ٠ واسناد الطبرانى حسن ٠

***

وعند أحمد عن أنس رضى الله عنه قال : ان كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ينزع من يدها حتى تذهب به حيث شاءت • (رواه ابن ماجه) • وعند أحمد عنه قال : ان كانت الامة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به فى حاجتها • ورواه البخارى فى كتاب الادب من صحيحه معلقا كما فى البداية ج ٦ ص ٣٩ ، وروى مسلم فى صحيحه ج ٢ ص ٢٥٦) عن أنس أن امرأة كان فى عقلها شىء فقالت : يا رسول الله ان لى اليك حاجة فقال : يا أم فلان انظرى أى السكك شئت حتى أقضى لك حاجتك ! فخلا معها فى بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها • وأخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص (٥٧) عن أنس مثله •

❊ ❊ ❊

وأخرج مسلم (ج ٢ ص ٢٥٣) عن أنس رضى الله عنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أخذ أبو طلحة رضى الله عنه بيدى فانطلق بى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! ان أنسا غلام كيس فليخدمك قال : فخدمته فى السفر والحضر ، والله ! ما قال لى لشىء صنعته : لم صنعت هذا هكذا ولا لشىء لم أصنعه : لم لم تصنع هذا هكذا ؟ وعنده أيضا عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا فأرسلنى يوما لحاجة فقلت : والله لا أذهب وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبى الله صلى الله عليه وسلم فخرجت حتى أمر على الصبيان وهم يلعبون فى السوق فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاى من ورائى ! قال : فنظرت اليه وهو يضحك فقال : يا أنس اذهب حيث أمرتك ! قال : قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله ! قال أنس : والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشىء صنعته : لم فعلت كذا وكذا ؟ ولشىء تركته : هلا فعلت كذا وكذا وعنده أيضا عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، والله ، ما قال لى أفا قط ، ولا قال لى لشىء : لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا !

❊ ❊ ❊

وعند أبى نعيم فى الدلائل صفحة ٥٧ عن أنس رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين فما سبنى سبة قط ولا ضربنى ضربة ولا انتهرنى ولا عبس فى وجهى ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه ، فان عاتبنى عليه أحد من أهله قال : دعوه ! فلو قدر شى لكان •

وأخرج البزار عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتاه الوحى أو وعظ قلت : نذير قوم أتاهم العذاب ، فاذا ذهب عنه ذلك رأيت أطلق الناس وجها وأكثرهم ضحكا وأحسنهم بشرا • قال الهيثمى ج ٩ ص ١٧ : اسناده حسن •

❊ ❊ ❊

وأخرج البيهقى وابن النجار عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت عجوز الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : من أنت ؟ قالت : جثامة المزنية قال : بل أنت حنانة المزنية ، كيف أنتم ، كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت بخير بأبى أنت وأمى يا رسول الله فلما خرجت قلت : يا رسول الله ! تقبل على هذه العجوز هذا الاقبال ! فقال : يا عائشة ! هذه كانت تأتينا زمان خديجة وان حسن العهد من الايمان •

* * *

وأخرج البخارى فى الادب ص ١٨٨ عن أبى الطفيل رضى الله عنه قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير فأتته امرأة فبسط لها رداءه • قلت من هذه ؟ قال أمه التى أرضعته •

* * *

وروى الطبرانى عن الحسن بن على رضى الله عنهما وقد سأل أباه عن بعض صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان من سؤاله وجواب على ما يلى :

قال الحسن وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟ فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخزن لسانه الا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه (يجعله ضعيفا واهيا بالمنع والزجر عنه) معتدل الامر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة » •

قال فسألته عن مجلسه كيف كان ؟ فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر ، ولا يوطن الاماكن وينهى عن ايطانها، واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه نصيبه ، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو لميسور من القول • قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا له أبناء عنده فى الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الاصوات ، ولا تؤبن (تعاب) فيه الحرم • ولا تثنى فلتاته (أى لا تشباع زلاته وهفواته والمراد لا فلتات فى مجلسه)،

متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب) .

قال فسألته عن سيرته في جلسائه فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ (أى سيء الخلق) ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يوئس منه راجية ، ولا يخيب فيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه ، اذ تكلم اطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، واذا تكلم سكتوا واذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته حتى ان كان أصحابه ليستحلبونه في المنطق (وفى الكنز ليستجلبونه) ، ويقول : اذا رأيتم صاحب حاجة فارفدوه ولا يقبل الثناء الا من مكافيء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء « أو قيام » .

* * *

هذه أمثلة من مواقفه مع المؤمنين ، وتواضعه وخفض جناحه لهم ، ارجع بعد دراستها الى الآية التى أمرته بذلك فهل تراه الا قائما بها حقا وهل ترى انسانا يبلغ عشر ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم من المجد ويبقى يعامل المستضعفين والكبار والصغار والرؤساء والاتباع هذه المعاملة على سواء ؟ وهل هذا وضع طبيعي للنفس البشرية لولا أن الله هذبها وكانت مؤمنة بالله معلا متصلة به حقيقة طائعة له طاعة فناء ، اللهم ما كان هذا ليكون لولا أن محمدا عبدك ورسولك .

٤ ـ نماذج من تنفيذه للامر الرابع : ((يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم)) .

ان خلق الرحمة عند رسول الله لا يدانيه فيه أحد من خلق الله أخرج الشيخان عن أنس أن نبى الله قال : انى لادخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبى فاتجوز فى صلاتى مما أعلم من وجد أمه من بكائه ، ووسعت رحمته الناس حتى قال الله له : **((فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث آسفا))** وقد ظهرت هذه السجية على طبيعتها يوم فتح مكة اذ عفا عن أهلها بعد أن فعلوا فيه ما فعلوا كما ظهرت على سجيتها بعد انتهاء غزوة بدر وأسر الاسرى ولم يكن نزل عليه من أمر الله فى القضية شيء وانما هو الاجتهاد الذى أذن فيه لرسول الله فى هذه القضايا وكان أمام الرسول اقتراحان فى شأن الاسرى اقتراح أبى بكر واقتراح عمر وكان اقتراح أبى بكر أخذ الفداء واطلاق السراح . وكان اقتراح عمر القتل حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوب المسلمين رحمة بالكافرين ، وأخذ رسول الله

برأى أبى بكر لانه أقرب لطبعــه ، وهو الذى لاقى من قومه ما لاقى ثم ان الله عاتبه في هذه القضية على اللين وليس من اثم ولكن الله يريد أن يأخذ رسوله بالحزم فقال له « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض » ثم نزلت أوامر الله تطالب رسول الله بالجهاد والشدة والغلظة على الكافرين فأصبحت ترى رسول الله بعد هذه الرحمة الكبيرة والصبر الطويل والتحمل الكثير والمسالمة الدائمة • المقاتل الشديد والمنفذ الذى طاعة الله فوق كل عواطفه، بل عواطفه هى تنفيذ أمر الله ، واستعراض بسيط لحياته الحربيــة عليــه السلام يرينا أن هذا النوع من القتال الذى خاضه عليه السلام ما كان ليكون من صنع بشر ، لولا أن هذا الانسان ينفذ أمر الله ، معتمدا عليــه ، فانه ما من مقدمة فى حياة الرسول تشير الى مثل هذه النتائج ، لولا أن المســألة ربانية الطريق بدءا وختاما ، أسلوبا وتنفيذا • رب يأمر وعبــد رســـول ينفــذ :

يؤمر ألا يخشى شيئا فلا يخاف الا الله ويؤمر بأن يتوكل على الله ويعتمد عليه وحده فيدخل أى معركة بما يتوفر له من قوة دون خوف من أى حشــد يقابله ، ويؤمر بألا يكون فى قلبه رحمة بالكافرين فيضرب حتى يستأصل ، ويؤمر بمتابعة القتال فيقاتل ولمــا يسترح ، ويؤمر بالعمل المتواصل حتى يخضع أعداء الله فلا يكاد ينتهى من تهيئة غزوة الا الى غيرها ، ومن اخضاع منطقة الا الى منطقة أخرى • وهكذا حتى يضع اتباعه على الطريق لاخضاع العالم بعده لسلطان الله •

كان عدد أصحابه يوم بدر ثلاث مائة وخمسة عشر رجلا ، وعدد المشركين حوالى ثلاثة أضعاف تفوقهم بالعدة. ويدخل الرسول صلى الله عليه وســلم المعركة وينتصر بها ولا يعتمد الا على الله •

روى مسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة (رضى الله عنها) قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة • ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه • فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم جئت لاتبعك وأصيب معك فقال صلى الله عليه وسلم تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : لا • قال فارجع فلن أستعين بمشرك • قالت : ثم مضى حتى اذا كان بالشجرة أدركه الرجل فقال : كما قال أول مرة • فقال له صلى الله عليه وسلم كمــا قال أول مرة قال فارجع فلن أستعين بمشرك • ثم رجع فأدركه بالبيداء • فقال له كما قال أول مرة • وقال : هل تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم • قال : فانطلق • فانطلق معه •

وروى مسلم عن أبى الطفيل رضى الله عنه قال : قال حذيفة بن اليمــان رضى الله عنه ما منعنى أن أشهد بدرا الا أنى خرجت أنا وأبى الحســيل

فأخذنا كفار قريش فقالوا انكم تريدون محمدا فقلنا : ما نريد الا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه أن لا نقاتل معه فلما أتينا المدينة ذكر ذلك له صلى الله عليه وسلم فقال : انصرفا نفى لهم ونستعين بالله تعالى عليهم ٠

وأخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم الى الصوت وهو على فرس لابى طلحة رضى الله عنه عرى فى عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا قال : وجدناه بحرا أو انه لبحر وكان فرسا يبطىء ٠ وأخرج البخارى عن أبى اسحاق : سمع البراء بن عازب رضى الله عنه وسأله رجل من قيس أفررتم عن رسول الله يوم حنين فقال : لكن رسول الله لم يفرر ٠

والمعروف أن رسول الله ثبت يوم حنين بعشرة من أصحابه أدار بهم المعركة التى فر فيها اثنا عشر ألفا ثم كان النصر بعد الهزيمة وفى غزوة أحد كان المشركون أضعاف المسلمين ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم المعركة وفشل المعركة بعض المتسرعين الذين لم يلتزموا خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيب المسلمون يومها اصابات كثيرة وانفصل الجيشان ورجع كل الى بلده ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كاد يصل الى المدينة حتى أمر من دخل المعركة بالجهاز السريع فخرجوا بجراحهم وآلامهم وساروا وراء قريش فبلغ قريشا الخبر ففرت وتحولت الهزيمة الى انتصار وأكثر من هذا فقد قطع على قريش خط الرجعة اذ فكروا وهم عائدون أن يرجعوا الى المدينة ليدخلوها فاتحين مستأصلين لجذور الاسلام ٠ مع ملاحظة أن رسول الله بقى يقاتل يوم أحد حتى كف المشركون أنفسهم عن القتال ولم يفر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ٠

وفى غزوة الاحزاب تجمعت الجزيرة العربية كلها لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض يهود بنى قريظة عهدهم مع رسول الله صلى الله علية وسلم وأصبح المسلمون فى وضع لا يطيقه أحد من البشر يتهددهم الخطر من جوانب لا تعد وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انسحبت الاحزاب ولم يتمهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انسحابهم حتى سار الى قريظة لتأديب هؤلاء الناكثين للعهد فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم بالجاهلية فأخذ سعد العهد عليهم وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يلتزموا بحكمه فأعطوه فحكم سعد أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم فى يوم واحد أربعمائة رجل صبرا ٠ وهاجم الدولة الرومانية وهى يومها من هى وقوته لم تبلغ الا قليلا مما فتح لاصحابه بعد ذلك أن يدخلوا معاركهم مع الدولة الرومانية والدولة

الفارسية بان واحد على قلة فى العدة والعدد وانتصروا بتلك الشعلة التى أشعلها بهم الله على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ويكفى أن تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا بنفسه كما يروى مسلم تسع عشرة غزوة هذا عدا عن السرايا والبعوث الحربية التى كان يرسلها • هذا مع أن بقاءه فى المدينة كانت مدتها كلها عشر سنوات •

والحديث عن غزواته طويل جدا نجده مفصلا فى كتب السيرة • ويكفى أن نذكر أن من آثارها توحيد الجزيرة العربية كلها ، بيمنها وحجازها ونجدها وسواحلها ، حتى لم يبق فيها شبر لم يخضع لسلطان الله ، وفتح لاتباعه طريق العمل العالمى • من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا • ونحن هنا لا نريد التفصيل وانما نريد فقط ابراز ما به يظهر التطبيق الكامل لما أمر به رسول الله وهو بالتالى ما دعا اليه فكان فى كل شىء لا تخالف أعماله دعوته •

٥ ـ نماذج من تطبيقه للاوامر فى المثال الخامس : ((كونوا قوامين بالقسط)) • ((وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك)) •

أخرج البخارى عن عروة أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله فى غزوة الفتح ففزع قومها الى أسامة بن زيد يستشفعونه قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله وقال : أتكلمنى فى حد من حدود الله تعالى ؟ فقال أسامة استغفر لى يا رسول الله فلما كان العشى قام رسول الله خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فانما أهلك الناس أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد • والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر رسول الله بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت قالت عائشة : كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله •

وأخرج أبو داود عن العرباض بن سارية السلمى قال :

نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا فأقبل الى النبى فقال يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتاكلوا ثمرنا وتضربوا نسائنا ؟ فغضب رسول الله وقال يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد أن الجنة لا تحل الا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قام فقال : أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا الا ما فى القرآن الا انى والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء انها لمثل القرآن أو أكثر وان الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب الا باذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم اذا أعطوا الذى عليهم •

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن حدرد الاسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال يا محمد : ان لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها قال اعطه حقه قال : والذى بعثك بالحق ما أقدر عليهـا قال اعطه حقه قال والذى نفسي بيده ما أقدر عليها قد أخبر أنك تبعثنا الى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئا فارجع فأقضيه : قال : اعطه حقه وكان رسول الله اذا قال ثلاثا لم يراجع فخرج ابن أبي حدرد الى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة فنزع عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال اشتر مني هذه البردة فباعها منه بأربعة دراهم فمرت عجوز فقالت ما لك يا صاحب رسول الله فأخبرها فقـالت ها دونك هذا البرد لبرد عليها طرحته عليه وأخرجه أحمد أيضا ٠

وأخرج ابن ماجة عن أبي سعيد قال : جاء اعرابي الى النبي يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أحرج عليك الا قضيتني ، فانتهره أصحابه فقالوا ويحك تدري من تكلم ؟ فقال : اني أطلب حقي فقال النبي هلا مع صاحب الحق كنتم ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها : ان كان عندك تمـــر فاقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك فقالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فاقترضه فقضى الاعرابي وأطعمه فقال : أوفيت أوفى الله لك فقـال : أولئك خيار الناس انه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيهـا حقـه غـير متعتـع ٠

وأخرج أبو داوود عن أسيد بن حضير : أن رجلا من الانصار كان فيه مزاح فبينما هو يحدث القوم ويضحكهم اذ طعنه النبي في خاصرته بعود كان في يده فقال : اصبرني يا رسول الله (أي مكني من نفسك لاقتص منك) قال : اصطبر فقال : ان عليك قميصا وليس علي قميص فرفع النبي قميصه فاحتضنه وجعل يقبل كشحه (الكشح ما فوق شد الازار من جانب البطن) وقال انما أردت هذا يا رسول الله ٠

أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام باسناد رجاله ثقات قال :

لمـا أراد الله هدى زيد بن سعنة قال زيد بن سعنة ما من علامات النبوة شيء الا وقد عرفتها في وجه محمد حين نظرت اليه الا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما قال : زيد بن سعنة : فخرج رسول الله يوما من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب فأتاه رجل على راحلته كالبدوي فقال : يا رسول الله ! لي نفر في قريه بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الاسلام وكنت حدثتهم ان أسلموا أتاهم الرزق رغدا وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الاسلام طمعا كما دخلوا فيه طمعا فان رأيت أن ترسل اليهم بشيء تغيثهم به فعلت فنظر الى رجل بجانبه أراه عليا فقال : يا رسول الله ما بقي منه شيء قال زيد بن سعنة فدنوت اليه فقلت يا محمد هل أن تبيعني تمرا معلوما في حائط

بنى فلان الى أجل معلوم الى أجل كذا وكذا قال لا تسمى حائط بنى فلان قلت : نعم فبايعنى فأطلقت هميانى فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب فى تمر معلوم الى أجل كذا وكذا فأعطانى الرجل وقال (يظهر أنها فأعطاها الرجل) : أعدل عليهم وأغثهم قال زيد بن سعنة فلما كان قبل محل الاجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فى نفر من أصحابه فلما صلى على الجنازة ودنا الى الجدار ليجلس اليه أتيته فأخذته بمجامع قميصه وردائه ونظرت اليه بوجه غليظ قلت له : يا محمد ألا تقضينى حقى فوالله ما علمتم بنى عبد المطلب الا مطلا ولقد كان بمخالطتكم علم • ونظرت الى عمر وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير ثم رمانى ببصره فقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع ؟ وتصنع به ما أرى ؟ فوالذى نفسى بيده لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفى رأسك ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر الى فى سكون وتؤدة • فقال يا عمر أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا أن تأمرنى بحسن الاداء وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما زرعته • قال زيد فذهب بى عمر فأعطانى حقى وزادنى عشرين صاعا من تمر • فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ! قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكان ما رعتك وقال : وتعرفنى يا عمر ؟ قال : لا • قلت : أنا زيد بن سعنة • قال : الحبر • قلت : الحبر • قال فما دعاك الى أن فعلت برسول الله ما فعلت ؟ وقلت له ما قلت ؟ قلت يا عمر ! لم يكن من علامات النبوة شيئا الا وقد عرفت فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما وقد اختبرتهما ، أشهدك يا عمر أنى قد رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وأشهدك أن شطر مالى ــ فانى أكثرها مالا ــ صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال عمر : أو على بعضهم فانك لا تسعهم ، قلت أو على بعضهم • فرجع عمر وزيد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال زيد : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وآمن به وصدقه وبايعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة ، ثم توفى فى غزوة تبوك مقبلا غير مدبر ــ رحم الله زيدا •

من هذه الآثار يتبين كيف قام رسول الله بالقسط ، وأقامه على نفسه وأتباعه وأصحابه بلا محاباة ولا مداراة ولا مداهنة ، فكان فى ذلك فى القمة التى لا يرقى اليها راق فى تنفيذ أمر الله وتطبيقه •

* * *

هذه نماذج رأينا فيها خمسة أوامر لله ورأينا كيف أن رسول الله قام بها بالشكل الذى لا يبقى معه مزيد لمستزيد ، وهذا الذى رأيناه هنا هو الذى تراه فى كل أمر أمر الله به عباده حتى أن عائشة لما وصفت خلق رسول الله

قالت : « كان خلقه القرآن » وهذا واقع لا يعرفه حق المعرفة الا من درس القرآن ودرس معه سيرة رسول الله تفصيلا ، فانه يرى بوضوح أنه ما من أمر وجهه الله لخلقه الا وكان رسول الله أعظم الخلق تنفيذا له وتطبيقا ، بلا تفريط بأمر من أوامر الله وأى أمر من أوامر الله درست تنفيذ رسول الله له ذلك هذا التنفيذ على أن محمدا رسول الله ، وقد رأيت فى الأمثلة الماضية هذه النماذج العالية من الالتزام الرائع الذى يجعلك كل موقف من مواقفه تستبعد وقوعه من غير رسول ، أو تابع رسول يقتدى به ، وهذه الصفة التى مرت معنا هى التى يسميها علماء المسلمين الامانة ، اذ الامانة عندهم تعنى القيام بما كلف الله به عباده أخذا من قوله تعالى :

« انا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال • فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » فالأمانة هى التكليف وحملها هو اقامة ما كلف الله به عباده والرسل هم قدوة البشر فى القيام بأمر الله فلابد أن يكونوا أكثر الخلق أمانة أى التزاما صادقا بما يدعون الخلق اليه نيابة عن الله ، ووجود هذا الالتزام مع بقية شروط الرسالة ، دليل من جملة ادلة التى تثبت أن هذا الملتزم بما يدعو اليه الخلق من فضائل هو رسول الله رب العالمين •

والآن وقد وضح أن لرسول الله الحظ الاعلى من الصفة الثانية التى ينبغى أن يتصف بها كل من كان رسولا لله حقا ، فلننتقل الى الصفة الاساسية الثالثة لكل رسول وهى تبليغ دعوة الله مهما كانت الظروف ، لنرى كذلك أن لرسول الله الحظ الأعلى منها ، ونرى فى كل موقف من مواقفه فيها ما يثبت أنه رسول الله حقـا :

٣ ـ تبليغه عليه السلام دعوة الله وقيامه بذلك كاملا :

لقد سلك رسول الله كل طريق سليم لتبليغ دعوة الله على الوجه الاكمل ، وسلك الناس فى المقابل كل طريق يخطر بالبال ليثنوه عن القيام بأمر الله فلم يفعـل :

اتصل بالافراد اتصالا شخصيا ، وعرض نفسه على قبائل العرب ورحل من أجل تبليغ الدعوة وتتبع مواطن اجتماع الناس ليبلغهم • وأرسل الرسل نيابة عنه لتبليغ الدعوة واستقدم الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين • وراسل الامراء والملوك داعيا لهم الى الله وكلف أصحابه أن يتعلموا ويعلموا ويعلموا وأمر جنده ألا يحاربوا قبل أن يدعوا الى الاسلام ، ثم حمل جميع المسلمين أمانة البلاغ ليبلغوا العـالم دعوة الله • حتى لا يبقى أحد من البشر الا وقد بلغ ، وقامت عليه الحجة ، وفى المقابل ما ترك الآخرون طريقا الا سلكوه لانهاء الدعوة والداعية •

سلكوا طريق الايذاء له ولاتباعه ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الاغراء ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الضغط العائلى ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الاستهزاء والاعراض والسخرية والاتهامات ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا معه طريق المقاطعة الشاملة له ولمن آزره ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وقرروا قتله وملاحقته ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وطال الزمن والمستجيبون قليلون ، والجميع يحاولون ايئاسه واستمر ، ثم حاربوه ليستأصلوا دعوته ويستأصلوه وصبر واستمر رغم هذا كله ، ثم انتصر وانتصر دينه ولا زال ينتصر ويتقدم رغم الاوضاع السياسية السيئة للمسلمين ، وكل ذلك ببركات الداعية المبلغ الأول .

وقبل أن نستعرض نماذج عن هذا كله . نحب أن نؤكد التذكير بشيء حتى لا يلهينا العرض عن الغاية .

منه هذا الشيء هو : أن اثباتنا هذه الصفات لرسول الله وبرهاننا على ذلك ، كل هذا من أجل الوصول الى برد اليقين بالايمان به . واتباعه عن ثقة بأنه لا حق الا ما أخبرنا أنه حق ، فمن عرفته بالصدق طوال حياته وتأكدت من تحريه له تطمئن اذا أخبرك عن شيء . والرسول كذلك ، وقيام الرسول بتكاليف دعوته على ما فيها من مخالفة لهوى النفس ومن جهد ونصب دون انتظار مكافأة ما فى الحياة الدنيا طاعة لله ، دليل آخر على رسالته اذ غير هذا الطريق لطالب غير الله أسهل .

وأما عملية التبليغ فليست هى عند الرسل كبقية عمليات التبليغ الأخرى التى يقوم بها بقية البشر ، فى الدعوة لفكرة ما ، ومن ثم كانت عملية التبليغ عند الرسل دليلا على صدقهم فى كونهم مرسلين من عند الله .

ان غير الرسل يدعون الناس الى شيء تألفه نفوسهم وتهواه . أى أنهم يأتون الناس من قبل ما يشتهون فلا يعانون شيئا ولا يحتاجون الى تضحية ، وأحيانا يضحون ولكن ينتظرون كسبا ماديا أكثر من تضحيتهم . وتراهم دائما يلاحظون السلامة الا اذا أتاهم ما لم يكن بالحسبان . وترى الحياة عزيزة جدا عليهم وما أسهل ما ينسون دعوتهم اذا يئسوا من المكسب أو النصر . ونحن لا نعنى بالطبع هنا أتباع الرسل اذ هؤلاء يعملون بروح الاقتداء بالرسل فعندهم من حرارة اخلاصهم أن حماية النفس مقدمة عند أصحاب الدعوات الباطلة على التبليغ ولكن التبليغ عند الرسل لدعوة الحق مقدم على كل شيء .

ان الرسل يبلغون الناس رسالة الله التى فيها ضبط نفوس البشر ، حتى تستقيم على السنن الصحيح للحياة ، وهم بهذا يدخلون فى صراع مع أهواء البشر ، ولكل انسان هوى ، فهم يدخلون فى صراع مع الناس جميعا . والصعوبة

التى يعانونها من أعدائهم يعانون قريبا منها فى تربية أتباعهم والارتفاع بهم، اذ البشر هم البشر على كل حال ، وتجاوز الرسول لهذه العقبات كلها • وثباته على دعوة الحق بلا مداراة ولا مواربة بل مطالبة للنفس البشرية بواجباتها كاملة ، وصبره على ذلك ، وتحمله كل شىء فى هذا السبيل مرضاة لله • كل هذا دليل على حرارة الصدق والاخلاص للدعوة ولله المكلف بها • وسنرى فى كل نموذج نقدمه عن عملية التبليغ عند رسول الله وما رافقه شاهد صدق على هذا الذى قدمناه •

وسنقدم نوعين من النماذج :

١ ـ نماذج عن مواقف الكافرين منه ليثنوه عن الاستمرار بالتبليغ •

٢ ـ نماذج عن الطرق التى سلكها للقيام بعملية التبليغ •

نماذج النوع الأول :

(أ) ايذاؤه وصبره على ذلك :

١ ـ أخرج الطبرانى عن الحارث بن الحارث قال قلت لأبى : ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابىء لهم • قال : فنزلنا فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى توحيد الله عز وجل والايمان، وهم يردون عليه ويؤذونه حتى اذا انتصف النهار وانصدع الناس عنه : قبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحا ومنديلا فتناوله منها وشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال : يا بنية خمرى عليك نحرك ولا تخافين على أبيك • قلنا من هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته • رضى الله عنهـا •

وعنده أيضا عن منبت الازدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية وهو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا اله الا الله تفلحوا • فمنهم من تفل فى وجهه ومنهم من حثا عليه التراب ومنهم من سبه حتى انتصف النهار • فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال : يا بنية لا تخشى على أبيك غيلة ولا ذلة • فقلت : من هذه ؟ قالوا : زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى جارية وضيئة •

٢ ـ وأخرج البيهقى عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : لما مات أبو طالب عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه ترابا فرجع الى بيته ، فأتت ارأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكى فجعل يقول : أى بنية ! لا تبكين فان الله مانع أباك •

٣ ـ وعن ابن أبى شيبة عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : ما رأيت قريشا أرادوا قتل النبى صلى الله عليه وسلم الا يوما ائتمروا به وهم جلوس فى ظل الكعبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند المقام • فقام اليه

عقبة بن أبى معيط فجعل رداءه فى عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطا وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول فأقبل أبو بكر رضى الله عنه يشتد حتى أخذ بضبعى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه ويقـول ((**أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله**)) ٠

ثم انصرفوا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ٠ فلما قضى صلاته مر بهم ـ وهم جلوس فى ظل الكعبة ـ فقال : يا معشر قريش ! أما والذى نفس محمد بيده ما أرسلت اليكم الا بالذبح وأشار بيده الى حلقه ٠ فقال أبو جهل : ما كنت جهولا ٠ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت منهم ٠

٤ ـ وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قـال :

قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشا أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ٠

قال : حضرتم ـ وقد اجتمع أشرافهم فى الحجر ـ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ٠ لقد صبرنا منه على أمر عظيم ـ أو كما قالوا ـ قال فبينما هم فى ذلك اذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استقبل الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت ٠ فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول ٠

(غمزوه : أى أشاروا اليه) قال : فعرفت ذلك فى وجهه ثم مضى ٠ فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك فى وجهه ثم مضى ٠ فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقـال :

أتسمعون يا معشر قريش أما والذى نفس محمد بيده ! لقد جئتكم بالذبح ٠ فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل الا على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم فيه وضاءة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى انه ليقول :

انصرف يا أبا القاسم ، انصرف راشدا ،فوالله ما كنت جهولا ٠

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر ـ وأنا معهم ـ فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى اذا باداكم بما تكرهون تركتموه ٠ فبينما هم فى ذلك اذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ٠ فأطافوا به يقولون : أنت الذى تقـول كذا وكذا ؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ٠ قال فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ٠ أنا الذى أقول ذلك ٠

قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه وقام أبو بكر رضى الله عنه دونه يقول وهو يبكى : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه فان ذلك لاشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط ·

٥ ـ وأخرج البزار والطبرانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وأبو جهل بن هشام وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وعقبة بن أبى معيط وأمية بن خلف ورجلان آخران كانوا سبعة وهم فى الحجر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فلما سجد أطال السجود ·

فقال أبو جهل : أيكم يأتى جزور بنى فلان فيأتينا بفرثها فنكفئه على محمد صلى الله عليه وسلم فانطلق أشقاهم عقبة بن أبى معيط فأتى به فألقاه على كتفيه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد · قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندى منعة تمنعنى فأنا أذهب ، اذ سمعت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلت حتى ألقت عن عاتقه ثم استقبلت قريشا تسبهم فلم يرجعوا اليها شيئا ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود · فلما قضى صلى الله عليه وسلم صلاته قال :

اللهم عليك بقريش ـ ثلاثا ـ عليك بعتبة وعقبة وأبى جهل وشيبة · ثم خرج من المسجد فلقيه أبو البخترى بسوط يتخصر به ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم أنكر وجهه فقال : مالك ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : خل عنى ·

قال : علم الله لا أخلى عنك أو تخبرنى ما شأنك ؟ فلقد أصابك شىء · فلما علم النبى صلى الله عليه وسلم أنه غير مخل عنه أخبره فقال : ان أبا جهل أمر فطرح على فرث فقال أبو البخترى : هلم الى المسجد فأتى النبى صلى الله عليه وسلم وأبو البخترى فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البخترى الى أبى جهل فقال : يا أبا الحكم أنت الذى أمرت بمحمد صلى الله عليه وسلم فطرح عليه الفرث ؟ قال : نعم ·

قال : فرفع السوط فضرب به رأسه ·

قال : فثار الرجال بعضها على بعض ·

قال : وصاح أبو جهل ويحكم هى له انما أراد محمد صلى الله عليه وسلم أن يلقى العداوة بيننا وينجو هو وأصحابه ·

٦ ـ وأخرج أبو نعيم فى دلائل النبوة ص ١٠٣ : عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما قال : ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة فعمد الى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف وهم اخوة : عبد ياليل بن عمرو ، وخبيب بن عمرو ، ومسعود بن

عمرو . فعرض عليهم نفسه وشكا اليهم البلاء وما انتهك قومه منه فقال أحدهم : أنا أسرق ثياب الكعبة ان كان الله بعثك بشيء قط ؟

وقال آخر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبدا لأن كنت رسولا لأنت أعظم شرفا وحقا من أن أكلمك .

وقال الآخر : أعجز الله أن يرسل غيرك ؟

وأفشوا ذلك فى ثقيف الذى قال لهم ، واجتمعوا يستهزؤون برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدوا له صفين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها الا رضخوها بالحجارة وهم فى ذلك يستهزؤن ويسخرون فلما خلص من صفيهم وقدماه تسيلان الدماء عمد الى حائط من كرومهم فأتى ظل حبلة من الكرم فجلس فى أصلها مكروبا موجعا تسيل قدماه الدماء فاذا فى الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما أبصرهما كره أن يأتيهما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله وبه الذى به فأرسلا اليه غلامهما عداسا بعنب وهو نصرانى من أهل نينوى .

فلما أتاه وضع العنب بين يديه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله » فعجب عداس ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أى أرض أنت يا عداس ؟ قال أنا من أهل نينوى .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من أهل مدينة الرجل الصالح يونس ابن ابن متى ؟

فقال عداس : وما يدريك من يونس بن متى ؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأن يونس ما عرف ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحقر أحدا يبلغه رسالات الله تعالى .

قال : يا رسول الله أخبرنى خبر يونس بن متى ، فلما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم من شأن يونس بن متى ما أوحى اليه من شأنه خر ساجدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جعل يقبل قدميه وهما تسيلان الدماء .

فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما سكتا . فلما أتاهما قالا له : ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت هذا بأحد منا .

قال : هذا رجل صالح حدثنى عن أشياء عرفتها من شأن رسول بعثه الله تعالى الينا يدعى يونس بن متى ، فأخبرنى أنه رسول الله ، فضحكا وقالا : لا يفتنك عن نصرانيتك ، انه رجل يخدع ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة .

وذكر فى البداية (ج ٣ ص ١٣٦) عن موسى بن عقبة : وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما الا رضخوهما بالحجـارة حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان الدماء . وفيما ذكر

ابن اسحاق : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقد قال لهم ـ فيما ذكر لى ـ ان فعلتم ما فعلتم فاكتموا على وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه • فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه • ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد الى ظل حبلة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف •

من هذه القصص قصص الايذاء الرهيب نعرف ما لاقى وهو الشريف الهاشمى ذو النفس الحساسة ، ابن الاشراف ومع ذلك تحمل واستمر وليس بيده ألا يستمر ، وكما أوذى هو أوذى أتباعه كذلك وقتل بعضهم •• ومع ذلك صبروا وأمرهم بالصبر وهذا شيء يجرح الضمير أن يرى الانسان الناس يعذبون بسبب دعوته لولا أن ذلك هو الحق الذى لا ريب فيه وأن الانسان ليس مخيرا فى سلوكه بل هو الذى لابد منه للقيام بحق الله وانها لرسالة الله •

* * *

(ب) محاولة اغرائه ورفضه لذلك :

قال ابن اسحاق : وحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى ، قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد • قم اليه فكلمه ، فقام اليه عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن أخى : انك منا حيث قد علمت ، من السطة فى العشيرة (السطة : الشرف) والمكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يا أبا الوليد ، أسمع ، قال : يا ابن أخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه • أو كما قال له : حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه ، قال :

أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ·

قال : فاسمع منى ··

قال : افعل ··

فقال : ((بسم الله الرحمن الرحيم · حم تنزيل من الرحمن الرحيم · كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون · بشيرا ونذيرا · فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه)) ·

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة منها ، فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ·

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى انى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ·

***

وقال ابن اسحاق : اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان ابن حرب ، والنضر بن الحارث (بن كلدة) اخو بنى عبد الدار ، وأبو البخترى ابن هشام ، والاسود بن المطلب ، وزمعة بن الاسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، أو من اجتمع منهم ، قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه ، حتى تعذروا فيه ، فبعثوا اليه :

ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم :

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدأ ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم ، فقالوا له : يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله

ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الاحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ٠

أو كما قالوا له : فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ، ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيه ٠

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لامر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم ٠ قالوا : يا محمد فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فانك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا . وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب ، فانه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ؟ فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول ٠

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت اليكم ، انما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله بينى وبينكم ٠

قالوا : فاذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ٠ سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بهذا عما نراك تبتغى ، فانك تقوم بالاسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم ٠ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا ، أو كما قال ، فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ٠

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا ، كما زعمت ، ان شاء ربك فعل ؟ فانا لا نؤمن لك الا أن تفعل ٠

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك الى الله ، ان شاء أن يفعله بكم فعل ، قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم اليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، اذا لم نقبل منك ما جئتنا به ! انه قد بلغنا أنك انما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له : الرحمن ، وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ، وانا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك ، أو تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا ٠

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم — وهو ابن عمته — فهو لعاتكة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلتك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، أو كما قال له : فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ الى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر اليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ٠ وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم اياه ٠

قارن بين الصورتين : اضطهاد بدون حدود ، واغراء الى هذا المستوى ، ولا خيار ٠ خذ ما تريد واترك ما أنت عليه أو تضطهد هذا الاضطهاد المر ٠ ومحمد صلى الله عليه وسلم فى الحالتين هو هو لا الاضطهاد يؤثر فى صده عن عملية التبليغ ولا الاغراء يثنيه ٠ وفى موقفه فى كلا الحالتين شهادة على أنه رسول الله حقا وأنه صاحب دعوة هداية أولا وآخرا ٠

* * *

(جـ) محاولتهم أن يضغطوا عليه عائليا :

أخرج الطبرانى فى الاوسط والكبير عن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه قال : جاءت قريش الى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب ، ان ابن أخيك يأتينا فى أفنيتنا وفى نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به ، فان رأيت أن تكفه عنا فافعل ، فقال لى : يا عقيل ٠ التمس لى ابن عمك ، فأخرجته من كبس

(أى بيت صغير من أكباس أبى طالب) • فأقبل يمشى معى يطلب الفىء يمشى فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى الى أبى طالب • فقال له أبو طالب : يا ابن أخى : والله ! ما علمت ان كنت لى لمطاعا وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم فى كعبتهم وفى ناديهم تسمعهم ما يؤذيهم ، فان رأيت أن تكف عنهم • فحلق ببصره الى السماء فقال : والله ! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار • فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخى قط • ارجعوا راشدين •

قال الهيثمى (ج ٦ ص ١٤) : رواه الطبرانى وأبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبى يعلى رجال الصحيح ، انتهى وأخرجه البخارى فى التاريخ بنحوه كما فى البداية (ج ٣ ص ٤٢) •

وعند البيهقى أن أبا طالب قال له صلى الله عليه وسلم يا ابن أخى ان قومك قد جاؤنى وقالوا كذا وكذا فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك •

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه وضعف عن القيام معه • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم • لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى • فلما ولى قال له : حين رأى ما بلغ برسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن أخى فأقبل عليه فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا — كذا فى البداية (ج ٣ ص ٤٢) •

والذى يعرف عادة العرب فى احترام الاكابر منهم وطاعتهم لأمرائهم ومشايخ بيوتهم يدرك مدى الأثر الكبير الذى يحدثه تدخل أبى طالب شيخ بنى هاشم نتيجة ضغط قومه عليه • ومحمد صلى الله عليه وسلم الحيى الخجول المهذب ما كان ليخالف أمر عمه ورغبته لو كانت المسألة مسألة شخصية ولكن الأمر أكبر من ذلك • انه أمر الله الذى هو أكبر من كل عرف ومن كل اعتبار ومن كل ضغط • وفى ذلك شهادة كاملة لمن عرف عادات القبائل العربية على أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(د) سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والاعراض والاتهامات :

من سيرة ابن هشام ننقل هذه المقاطع :

— ثم ان الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، انه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ؛

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه ، وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول : يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لعذق (النخلة) وان فرعه لجناة ــ قال ابن هشام ، وبقال لغدق (الغدق : الماء الكثير) وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أنه باطل ، وأن أقرب القول فيه لان تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد الا حذروه اياه وذكروا لهم أمره ٠

وقال ابن اسحاق :

ثم ان قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، فراقه اياهم على كفرهم ٠

ــ وقال ابن اسحاق :

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الامم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه اذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم الى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ٠

ــ وقال :

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب ، حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » أى اجعلوه لغوا وباطلا

واتخذوه هزؤا ، لعلكم تغلبونه بذلك ، فانكم ان ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم .

ـ وقال : فقال أبو جهل يوما هو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق : يا معشر قريش ، يزعم محمد انما جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشرة ، وأنتم أكثر الناس عددا ، وكثرة ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ، فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك من قوله « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا » .. الى آخر القصة .

فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، جعلوا اذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلى فيتفرقون عنه ، ويأبون أن يستمعوا له ، فكان الرجل منهم اذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى ، استرق السمع دونهم ، فرقا منهم ، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم ، فلم يستمع ، وان خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، فظن الذى يستمع أنهم يستمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم ، أصاخ له يستمع منه » .

تصور حرب الدعاية الفظيعة التى لجأوا اليها ، وهم قريش موطن ثقة العرب ، والذين تأتيهم العرب سنويا للحج ، وهم يشوهون اسمه عاما بعد عام ، ويحاولون أن يحاربوه بكل سلاح من أسلحة القول ، والعربى نفسه لا تسمح أبدا أن يقف موقف المتهم ، ومع ذلك بقى رسول الله صلى الله عليه وسلم صابرا على هذه الحرب الدعائية الفظيعة ، هذه المدة الطويلة ! ثلاثة عشر عاما ، ما ونى وما كل ، وهو يقوم بعملية التبليغ المستقيمة النظيفة .

ان استمرار الداعية فى مثل هذا الجو المحموم وحده ، دليل على صدقه فيما يدعو اليه ، والا فكيف نعلل استمرار رجل فى دعوة يلاقى ما لاقى ، مع العرض عليه كل متاع الدنيا ، ثم لا يرضى الا بحمل الناس على دعوته مع هذا الموقف الشديد منه . ان هذا لا يعلل الا بصدقه فى دعوته ، وأنه يبلغها مأمورا من الله عز وجل ، وقد وضح له أن النكوص عن طريقه وراءه ما وراء الذى يعصى أمر الله من عقاب الله .

* * *

(هـ) استعمال سلاح المقاطعة :

قال ابن اسحاق : فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشى قد منع من لجأ اليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأصحابه وجعل الاسلام يفشو فى القبائل ، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى — قال ابن هشام : ويقال : النضر بن الحارث ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشل بعض أصابعه •

قال ابن اسحاق : فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب الى أبى طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا اليه وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب الى قريش ، فظاهرهم •

وقال ابن اسحاق : وحدثنى حسين بن عبد الله : أن أبا لهب لقى هند بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشا ، فقال : يا بنت عتبة هل نصرت اللات وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟ قالت : نعم فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة •

— وأخرج أبو نعيم فى الحلية ج ١ ص ٩٣ عن سعد رضى الله عنه قال : كنا قوما يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدته ، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومرنا عليه وصبرنا له ، ولقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة خرجت من الليل أبول ، واذا أنا أسمع بقعقعة شىء تحت بولى فاذا قطعة جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرين ثم استففها وشربت عيها من الماء فقويت عليها ثلاثا » •

هذه المقاطعة التى كان من آثارها ما رأيت استمرت ثلاث سنين متواليات• لا بيع ولا شراء ولا زواج ولا أزواج ولا طعام ولا شراب •

يقول السهيلى : كانت الصحابة اذا قدمت عير الى مكة يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام قوتا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع أحدهم الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس فى يده شىء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس •

ثلاث سنوات متواليات على هذه الحال والمسلمون وأقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين أنفسهم ممن يحموته عصبية بنى هاشم وبنى المطلب • ورسول الله صلى الله عليه وسلم صابر وهو يرى

هذه المناظر المؤلمة • زوجه خديجة الطاعنة فى السن عمه أبو طالب الطاعن فى السن أسرته أقاربه يعانون هذه الحياة المجهدة ، ومع ذلك ما فكر لحظة فى ايقاف عملية التبليغ والجهر بالدعوة ، وليس هناك ظاهريا بارقة أمل ، فالجزيرة العربية كلها مجمعة على الوقوف ضده مع قريش ، ومع ذلك بقى مستمرا لالقاء ولا مداهنة ولا تنازل ولا أى شىء آخر • فمن يستطيع أن يتحمل هذا لولا ايمان بالله وثقة به وصدق بوعده ووعيده ، واتصال بالله كامل يستسلم صاحبه لامر الله فيه • انها صفات الانبياء ولا يمكن أن تعلل الا بأن صاحبها رسول الله حقا •

* * *

(و) محاولتهم قتله :

ــ قال ابن اسحاق :

ثم ان قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم واسلامه واجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم ، مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : ــ فيما بلغنى ــ يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فانما هو رجل برجل • فقال : والله لبئس ما تسوموننى ، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا • قال : فقال المطعم بن عدى بن نوفل ابن عبد مناف بن قصى : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ، ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك ، أو كما قال : فحقب الامر وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضا •

ــ وقال ابن اسحاق :

فلما قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل : يا معشر قريش ان محمدا قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وانى أعاهد الله لاجلس له غدا بحجر ما أطيق حمله • أو كما قال ، فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فاسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشىء أبدا ، فامض لما تريد •

ــ وقال ابن اسحاق :

وكان اسلام عمر ــ فيما بلغنى ــ ان أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها

سعيد بن زيد وهما مستخفيان باسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه ، من بنى عدى بن كعب قد أسلم ، وكان أيضا يستخفى باسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه قد ذكروا أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق ، وعلى بن أبى طالب فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمدا هذا الصابىء ، الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله • فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا ! أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

فقال : وأى هل بيتى ؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما • قال : فرجع عمر عامدا الى أخته وختنه ••

ــ وقال ابن اسحاق : من خبر اجتماع الملاء من قريش وتشاورهم فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم • فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا • قال : فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيرا والنابغة ، ومن مضى منهم مع هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلاوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره ، فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فاذا خرج عنا فوالله لا نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، واذا غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت • فقال الشيخ النجدى : لا والله ، ما هذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك

من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه • ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد • دبروا فيه رأيا غير هـذا •

قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله ان لى فيه رأيا ، ما أراكم وقعتم عليه بعـد •

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسـيطا (الشريف فى قومه) فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعلقناه لهم (العقل : الدية) قال : فقال الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له » •

هذه نماذج من قرارات القوم بشأن اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم • واذن الفترة التى قضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة لم تكن فترة أمن من كل الجوانب • ومع هذه التهديدات المتواصلة وهذا الجو الذى يحطم الاعصاب • نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انقطع فترة عن القيـام بعملية التبليغ والجهر بها ، ومجابهة الناس بما يدعو له ، ان هذا كله ليس عاديا فى بيئة عربية وعلى النفسية العربية لولا أن المسألة مسألة وحى من الله وأمر •

* * *

(ز) ملاحقة خطواته ومحاولة ايئاسه منهم :

أخرج ابن اسحاق عن ربيعة بن عباد رضى الله عنه قال : انى لغـلام شاب مع أبى بمنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بنى فلان : انى رسول الله اليكم آمركم أن تعبـدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الانداد وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به • قال : وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان عليه حلة عدنية • فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا اليه قال ذلك الرجل : يا بنى فلان : ان هذا انما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بنى مالك بن أقيش الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا عنه •

قال : فقلت لابى : يا أبت •• من هذا الرجل الذى يتبعه ويرد عليـه ما يقول ؟ قال هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب •

– وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال ·· لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج فى المواسم فيدعو القبائل ، ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتى القبائل بمجنة وعكاظ وبمنى حتى يستقبل القبائل يعود اليهم سنة بعد سنة حتى أن القبائل منهم من قال : ما آن لك أن تيأس منا ؟ ··

لقد بقى مستمرا فى عملية التبليغ عن وتيرة واحدة وبدأب متواصل رغم هذه الظروف غير المواتية ، والتى تجعل الانسان العادى ييأس أو يفتر · ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فلولا أنه رسول الله حقا يقوم بهذا كله ايمانا بالله وتنفيذا لامره وتصديقا بوعده وخوفا من وعيده لما أمكنه الاستمرار وتجاوز شىء من هذا ··

ونكتفى بهذه الامثلة على تخطيه العقبات أمام البلاغ لننتقل الى عرض نماذج من عمله الدائب المستمر الشائل فى تبليغ دعوة الله أى الى :

٢ – نماذج النوع الثانى :

(وهو الطرق التى سلكها لايصال دعوة الله الى الناس) ·

(أ) دعوته الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم :

أخرج أحمد عن ابن عباس قال : لما أنزل الله **((وأنذر عشيرتك الاقربين))** أتى النبى الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه فاجتمع الناس اليه بين رجل يجىء اليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله : يا بنى عبد المطلب يا بنى فهر يا بنى كعب أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا : نعم · قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا الا لهذا ؟ وأنزل الله **((تبت يدا أبى لهب وتب))** ·

(ب) ذهابه الى أماكن تجمع الناس وتبليغهم دعوة الله :

أخرج أحمد عن رجل من بنى مالك بن كنانة قال : رأيت رسول الله بسوق ذى المجاز يتخللها يقول : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » قال وأبو جهل يحثى عليه التراب ويقول لا يغوينكم هذا عن دينكم فانما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى وما يلتفت اليه رسول الله ··

وأخرج أحمد عن ربيعة بن عباد من بنى الديل وكان جاهليا فأسلم قال : رأيت رسول الله فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول انه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا هذا عمه أبو لهب ·

وأخرج البخارى فى التاريخ وأبو زرعة والبغوى وابن أبى عاصم والطبرانى عن الحارث بن الحارث الغامدى قال :

قلت لابى ونحن بمنى ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء اجتمعوا على صابىء لهم قال فتشرفت فاذا برسول الله يدعو الناس الى توحيد الله وهم يردون عليه الحديث ·

وأخرج الطبرانى من مدرك قال : حججت مع أبى فلما نزلنا منى اذا نحن بجماعة فقلت لابى ما هذه الجماعة ؟ قال هذا الصابىء فاذا رسول الله يقول : يا أيها الناس قولوا : لا اله الا الله تفلحوا ·

وأخرج ابن اسحاق عن الزهرى : انه عليه السلام أتى كندة فى منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له مليح فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه ·

وعن محمد بن عبد الرحمن بن حصين : أنه (أى رسول الله) أتى كلبا فى منازلهم الى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه حتى انه ليقول يابنى عبد الله ان الله قد أحسن اسم أبيكم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم ·

وفى البداية عن عبد الله بن كعب بن مالك : أن رسول الله أتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فلم يك أحد من العرب أقبح ردا عليه منهم ·

وعن ابن اسحاق عن الزهرى أنه (أى رسول الله) أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم الى الله وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لاكلت به العرب ثم قال له : أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الامر من بعدك ؟ قال الامر الى الله يضعه حيث يشاء · فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الامر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه · فلما صدر الناس رجعت بنو عامر الى شيخ لهم قد كانت أدركه السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم الموسم · فكانوا اذا رجعوا اليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم · فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش ثم أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى يدعونا الى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به الى بلادنا · فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بنى عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذناباها من مطلب ؟ والذى نفس فلان بيده ما تقولها اسماعيلى قط ، وانها الحق فأين رأيكم كان عنكم ؟

وأخرج الحافظ أبو نعيم عن العباس رضى الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أرى لى عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجى الى السوق غدا حتى نقر فى منازل قبائل الناس وكانت مجمع العرب • قال فقلت : هذه كندة ولفها وهى أفضل من يحج البيت من اليمن وهذه منـازل بكر بن وائل ، وهذه منازل بنى عامر بن صعصعة ، فاختر لنفسك ؟ قال فبدأ بكندة فأتاهم فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من أهل اليمن • قال : من أى اليمن ؟ قالوا : من كندة • قال : من أى كندة ؟ قالوا : من بنى عمرو بن معاوية ، قال : فهل لكم الى خير ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : تشهدون أن لا اله الا الله ، وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله قال عبد الله بن الاجلح : وحدثنى أبى عن أشياخ قومه أن كندة قالت له : أن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان الملك لله يجعله حيث يشاء • فقالوا : لا حاجة لنـا فيما جئتنا به •

وقال الكلبى : فقالوا : أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا وننابذ العرب • الحق بقومك فلا حاجة لنـا بذلك • فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من بكر بن وائل • فقال : من أى بكر بن وائل ؟ قالوا : من بنى قيس بن ثعلبة • قال : كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى • قـال : فكيف المنعة ؟ قـالوا : لا منعة جاورنا فارس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم • قال : فتجعلون الله عليكم ان هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم ، وتستنكحوا نسـاءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تسـبحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين ، وتكبروه أربعا وثلاثين • قالوا : من أنت ؟ قال : أنا رسول الله • ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبى ، وكان عمه أبو لهب يتبعه فيقول للناس : لا تقبلوا قوله ، ثم مر أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا فى الذروة منا فعن أى شـأنه تسألون ؟ فأخبروه مما دعاهم اليه وقالوا : زعم أنه « رسول الله » قال : ألا لاترفعوا برأسه قولا فانه مجنون يهذى من أم رأسه • قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكره •

(جـ) رحلته من أجل التبليغ :

أخبر الطبرانى عن عبد الله بن جعفر قال : لمـا توفى أبو طالب خرج النبى الى الطائف ماشيا على قدميه يدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوه فانصرف فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال : اللهم انى أشكو اليك ضعف قوتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت أرحم الراحمين ، الى من تكلنى ؟ الى عدو يتجهمنى أم الى قريب ملكته أمرى ان لم تكن غضبان على فلا أبالى غير أن عافيتك أوسع لى • أعوذ بوجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح

عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك أو يحل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا قوة الا بالله ٠

(د) تكليفه من أسلم تبليغ من لم يسلم :

أخرج أبى عاصم عن الاحنف بن قيس قال : بينما أنا أطوف بالبيت فى زمن عثمان اذ أخذ رجل من بنى ليث بيدى فقال ألا أبشرك ؟ قلت : بلى قال أتذكر اذ بعثنى رسول الله الى قومك فجعلت أعرض عليهم الاسلام وأدعوهم اليه فقلت أنت : انك لتدعونا الى خير وتأمر به وانه ليدعو الى الخير فبلغ ذلك النبى فقال : اللهم اغفر للاحنف ٠

وأخرج الدارقطنى عن ابن عمر قال : دعا النبى عبد الرحمن بن عوف فقال : تجهز فانى باعثك فى سرية — فذكر الحديث وفيه : فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه فسار حتى قدم دومه الجندل فلما دخلها دعاهم الى الاسلام ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث أسلم الاصبغ بن عمرو الكلبى وكان نصرانيا ، وكان رأسهم فكتب عبد الرحمن — مع رجل من جهينة يقال له رافع بن مكيث — الى النبى يخبره فكتب اليه النبى أن تزوج ابنة الأصبغ فتزوجها وهى تماضر التى ولدت له بعد ذلك ابا سلمة بن عبد الرحمن ٠٠

وأخرج ابن اسحاق عن محمد بن عبد الرحمن التميمى قال : بعث رسول الله عمرو بن العاص يستنفر العرب الى الاسلام وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بنى بلى فبعثه رسول الله اليهم يتألفهم بذلك ٠٠

وأخرج البيهقى عن البراء أن رسول الله بعث خالد بن الوليد الى أهل اليمن يدعوهم الى الاسلام ٠ قال : البراء فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوه ٠ ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره أن يقفل خالدا الا رجلا كان ممن مع خالد ، فأحب أن يعقب مع على فليعقب معه ٠ قال البراء : فكنت فيمن عقب مع على ٠ فلما دنونا من القوم خرجوا الينا ثم تقدم ٠ فصلى بنا على ثم صفنا صفا واحدا ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت همدان جميعا ، فكتب على الى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلامهم ٠ فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجدا ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان !! السلام على همدان ٠

(هـ) تكليفه من تعلم أن يعلم من لم يعلم :

أخرج أبو نعيم فى الحلية عن عروة بن الزبير رضى الله عنه : ان الانصار لما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله وأيقنوا واطمأنت انفسهم الى دعوته فصدقوه وآمنوا به — كانوا من أسباب الخير وواعدوه الموسم من العام

المقبل فرجعوا الى قومهم ـ بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث الينا رجلا من قبلك فيدعو الناس الى كتاب الله فانه أدنى أن يتبع فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضى الله عنه أخا بنى عبد الدار ، فنزل بنى غنم على أسعد بن زرارة يحدثهم ويقص عليهم القرآن فلم يزل مصعب عند سعد بن معاذ يدعو ويهدى الله على يديه حتى قل دار من دور الانصار الا أسلم فيها ناس لا محالة ، وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم • ورجع مصعب بن عمير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يدعى المقرىء •

وروى الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة •• عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم وما بال أقوال لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لاعاجلنهم العقوبة) •

ثم نزل فقال قوم : من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والاعراب فبلغ ذلك الاشعريين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله : ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنا فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا فقالوا : يا رسول الله أنعظن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظن غيرنا ؟ فقال ذلك أيضا فقالوا أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : **((لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه))** •

(و) ارساله الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والامراء :

أخرج البيهقى عن ابن اسحاق قال : بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه وكتب معه كتابا :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشى الأصحم ملك الحبشة السلام عليك فانى أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى فانى رسول الله وقد بعثت اليك ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين

فاذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر فانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى ٠

وأخرج البخارى عن ابن عباس حديث أبى سفيان مع هرقل وفيه نص رسالة رسول الله اليه وهذا نصهـا :

بسم الله الرحمن الرحيم ٠ من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم ! سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم الاريسين **((يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون))** ٠

وأخرج ابن جرير من طريق ابن اسحاق نص رسالة الرسول الى كسرى وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ! سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فانى أنا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فان تسلم تسلم وان أبيت فان اثم المجوس عليك ٠

وأخرج البيهقى نص رسالة الرسول الى أهل نجران وهى :

باسم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب من محمد النبى رسول الله الى أسقف نجران وأهل نجران ! سلم انتم فانى أحمد اليكم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب أما بعد ! فانى أدعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد فان أبيتم فالجزية فان أبيتم فقـد أذنتكم بحـرب والسـلام ٠

وقد أرسل الرسول عليه السلام رسائل مشابهة الى المقوقس والى ملك اليمامة والى المنذر بن ساوى عظيم البحرين والى الحارث بن أبى شمر الغسانى والى الحارث بن عبد كلال الحميرى والى ملكى عمان ابنى الجلندى وغيرهم ٠

* * *

هذه نماذج من عملية التبليغ عند رسول الله تعطيك صورة مبسطة عن قيامه عليه السلام بتبليغ أمر الله ودينه وشريعته ، واستيفاء هذا الموضوع حقه يحتاج الى مجلد ضخم على الأقل ٠ اذ أن رسول الله خلال ثلاثة وعشرين عاما بعد النبوة ، لم يهدأ ولم يسترح ولم يفوت فرصة يستطيع بها أن يبلغ رسالة الله الا وبلغ ، بالاتصال الشخصى والعرض الجماعى ، وفى السفر والحضر وبنفسه وأتباعه وبالمشافهة والخطاب ، ثم عمم الأمر على أمته جميعا

بأن عليهم واجب البلاغ عنه • حتى لا يبقى انسان من البشر الا وقد بلغته دعوته ، وانظر الى نتائج هذا كله تجد أنه عليه السلام لم يمت الا والجزيرة العربية كلها مستجيبة لأمر الله ، وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين الا وكان أكثر العالم المعروف وقتذاك قد بلغته الدعوة ، فمن مستجيب ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر على الكفر عنادا ، وما من انسان يستطيع أن يتصور مثل هذا الحماس للتبليغ المنقطع النظير يمكن أن يكون الا وليد اقتناع كامل بصدق الدعوة والداعية ، وما كان الداعية ليعطى هذا الحماس لأتباعه ، لو لم يكن هو فى أعلى حالات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسئولية أمام الله ان قصر فيه •

ان تاريخ العالم كله لا يقص علينا ، أن أحدا قد استوعبت دعوته من قبل الآخرين فى حياته كما حدث لرسول الله الذى لم يمت الا وعشرات الآلاف من أتباعه يحفظون من الكتاب المنزل عليه الكثير ، ومن أحاديثه وتعاليمه الكثير الكبير ، ثم حفظت نصوص تعاليمه حرفيا لكل الأجيال الآتية بعد • لانها كلها مكلفة باتباعه ومحاسبة أمام الله ان لم تفعل • اذا بلغ واحد منها دعوته • أما من لم تبلغه دعوته فقد اقتضت حكمة الله ألا يعتبر مسؤولا ، ولكن عمليا • وذلك كله من آثار قيام الرسول بواجب التبليغ لم يبق أحد منذ زمن بعيد الا فى النـادر لم تبلغه دعوة رسول الله ، وأنت ترى الآن الدعاة الى الله على صراط رسول الله منتشرين فى العالم كله ، لقد قام رسول الله بعملية التبليغ حق القيام ، وكما رأيت فان فى كل موقف من مواقفه فيها ما يجعلك على برد اليقين ، بأن هذه المواقف ما كانت لتكون ، لولا أن رسول الله محمدا صادق فى دعوى الرسالة عن الله •

فالى الصفة الاساسية الرابعة الملازمة للتبليغ ولجوهر الرسالة عن الله وهى العقل العظيم وانعطافه لترى كيف أن لرسول الله الحظ الاعلى منها :

٤ ــ عقله العظيم وفطانته عليه السلام

١ ــ ان الصفة الرابعة للرسل عليهم الصلاة والسلام هى الفطانة وهى الصفة الملازمة للتبليغ • اذ الرسول معرض وهو يقوم بعملية التبليغ لمناقشات الخصوم أو لتساؤلات الاتباع أو لاعتراضات المشككين وانتقاداتهم ، فلابد أن يكون من الذكاء ، وقوة البيان وحدة العارضة ما يستطيع به أن يبهت الآخرين فلا تقوم لهم حجة ، اذ لو قامت لهم حجة لما كان له عليهم سلطان وذلك مقتضى قوله تعالى « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة » •

وهذا لا يتم الا بأن تكون دعوة الرسول حقا كلها ، اذ غير الحق لا تكون حجته واضحة ، والباطل دائما حجته داحضة ، ولا يتم كذلك الا بعقل يستطيع احكام الحجة فى العرض • فكم حق لم يجد عقلا فضـاع ، ولا يتم هـذا كله

الا بفصاحة وبيان يمكن بهما عرض الحجة بالشكل الأكمل ، ولا يتأتى هذا الا لأعلم الناس وأذكى الناس وأفصح النـاس ٠

فالناس يتفاوتون علما ويختلفون اختصاصا ٠ فمنهم رجل الدين ٠ ومنهم السياسى ٠ ومنهم الاقتصادى ٠ ومنهم الطبيب ، ومنهم رجل الحكمة ومنهم ومنهم ٠٠ وكل واحد من هؤلاء ينبغى أن تقام عليه الحجة لو اعترض من جانب اختصاصه فما لم يكن الرسول أعلم الخلق فى كل جانب من حيث صلة هذا الجانب برسالته لا يستطيع اقامة الحجة ٠

والناس يتفاوتون ذكاء وقوة حجة وعارضة ، والرسول مهمته أن يقيم الحجة على كل البشر فما لم يكن أذكى البشر فانه لا يستطيع أن يفعل ٠

وانسان يحتاج الى هذا كله لابد له من لسان مبين ، وفصاحة عظيمة ، حتى قال موسى يوم كلفه الله بالوحى : ((**رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى**)) ٠

وباجتماع هذه الجوانب كلها تتحقق صفة الفطانة عند الرسول وتدل بذلك على صاحبها أنه رسول الله حقا مع استكمال بقية الشروط ٠

فالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠

والحجة الكاملة البينة الخاصة فيه ٠

والعرض السليم الكامل الأداء ٠

والزام الخصوم العجز عن أن يكون لهم موقف حتى الا بالمتابعة ٠

كل هذا لا يتأتى الا لدعوة الله المحيط علما بكل شىء ولرسوله الذى يختاره أهلا لحمل دعوته ((**الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس**)) ((**الله أعلم حيث يجعل رسالته**)) ٠

٭ ٭ ٭

٢ ـ وباستعراضنا لهذه الجوانب عند رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم نجد أن له من كل شىء ذروة فمن حيث أن دعوته كلها حق فذلك لا مرية فيه وتحقيق ذلك فى كل بحوث هذا الكتاب ٠

ومن حيث الفصاحة فهو أفصح العرب على الاطلاق وأبينهم لغة ونطقا وأداء ٠

ومن حيث اقامة الحجة فانك لا تجد انسانا ، يستطيع اقامة الحجة المقنعة على كل انسان حسب مستواه العقلى بكل بساطة ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبهذا تأتى له أن يقيم الحجة على الناس بدينه كله ؛ عقيدة وعبادات وسلوكا ومنهاج حياة ، هذا مع توفيق الله له وحكمته جل جلاله بأن كان القرآن الكريم قد فصل كل شىء ، وحاج كل انسان فحجه ، فكان

القرآن مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح كما فحصه علماء الحديث ـ وهما محفوظان ـ حجة لله على البشر في كل جيل الى قيام الساعة ٠

* * *

٣ ـ ولتوضيح ظهور هذه الجوانب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ سنختار نماذج من مناقشاته يقيم بها الحجة على آخرين ومن خطبه أو كتبه يدعو بها الى شيء من شريعته ومن كلمه المعلل بالحكمة في الأمر أو النهي أو الخير مما يدلك على مدى ملكة الاقناع التي وهبها الله لرسوله حتى جعله أكمل الخلق في كل خلق ٠

ـ أخرج عبد الله بن أحمد وأبو يعلى عن سعيد بن أبي راشد قال : رأيت التنوخي رسول هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمص وكان جارا لي شيخا كبيرا قد بلغ الفناء أو قرب فقلت ألا تخبرني عن رسالة هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل قال بلى ٠٠ وذكر الحديث ومن جملته :

« فانطلقت بكتابه (أي كتاب هرقل) حتى جئت تبوك فاذا هو جالس بين أصحابه على المـاء ٠

فقلت : أين صاحبكم ؟

قيل ها هو ذا فاقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره ثم قال : ممن أنت ٠ قلت : أنا أحد تنوخ ٠ فقال : هل لك في الحنفية ملة ابراهيم ؟ قلت اني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع اليهم ٠ قال : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »

الى أن قال : ثم انه ناول الصحيفة رجلا عن يساره فقلت : من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم ؟ قالوا معاوية فاذا في كتاب صاحبي : يدعوني الى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النـار ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله فأين الليل اذا ذهب النهـار ٠

قال الهيثمي : رجال أبي يعلى ثقات ورجال عبد الله بن أحمد كذلك ٠

ـ أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين قال حدثني أبي عن أبيه عن جده أن قريشا جاءت الى الحصين ـ وكانت تعظمه ـ فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فانه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أوسعوا للشيخ ، وعمران وأصحابه متوافرون ٠ فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك ٠ انك تشتم آلهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصينة وخيرا ؟ فقال : يا حصين ان أبي وأباك في النار ، يا حصين كم تعبد من اله ؟ قال سبعا في الأرض وواحدا في

السماء • قال : فاذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء قال : فاذا هلك المـال من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء • قال : فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ، أرضيته فى الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟ قال : لا واحدة من هاتين ، قال : وعلمت أنى لم أكلم مثله •

قال : يا حصين أسلم تسلم •

قال : ان لى قوما وعشيرة فماذا أقول ؟

قال : قل اللهم أستهديك لأرشد أمرى وزدنى علما ينفعنى •

فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم • فقام اليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه فلما رأى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم بكى وقال :

بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم اليه عمران ولم يلتفت ناحيته فلما أسلم قضى حقه فدخلنى من ذلك الرقة • فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : قوموا فشيعوه الى منزله ، فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا صبأ وتفرقوا عنه • كذا فى الاصابة جـ ١ ص ٣٣٧ •

ـ أخرج أحمد عن أبى تميمة الهجيمى عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه رجل فقال : أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال أنت محمد ؟

فقال : نعم • قال : ما تدعو ؟ قال : أدعو الله عز وجل وحده ـ من اذا كان لك ضر فدعوته كشفه عنك ومن اذا أصابك عام فدعوته أنبت لك • ومن اذا كنت فى أرض قفر فأضلك فدعوته رد عليك •

فأسلم الرجل ثم قال : أوصنى يا رسول الله ، فقال : لا تسب شيئا • أو قال أحدا • شك الحكم ـ قال : فما سببت بعيرا ولا شاة منذ أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ـ أخرج أحمد عن عدى بن حاتم قال : لما بلغنى خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهت خروجه كراهية شديدة فخرجت حتى وقعت ناحية الروم ـ وفى رواية حتى قدمت على قيصر • قال : فكرهت مكانى ذلك أشد من كراهتى لخروجه •

قال : قلت : والله لو أتيت هذا الرجل فان كان كاذبا لم يضرنى وان كان صادقا علمت ، قال : فقدمت فأتيته • فلما قدمت قال الناس : عدى بن حاتم ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : يا عدى بن حاتم أسلم تسلم ـ ثلاثا • قال : قلت انى على دين • قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت تعلم بدينى منى ؟ قال : نعم ، ألست من الركوسية(١) وأنت تأكل

---

(١) الركوسيه : دين بين النصارى والصابئين •

مرباع(١) قومك ؟ قلت : بلى ، قال : هذا لا يحل لك فى دينك ، قال : نعم ، فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : أما انى أعلم الذى يمنعك من الاسلام، تقول : انما اتبعه ضعفة النـاس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العـرب - أتعرف الحيرة ؟

قلت : لم أرها وقد سمعت بهـا .

قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد . وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز ، قال : قلت كنوز ابن هرمز ؟

قال : نعم ، كسرى بن هرمز ، وليبذلن المـال حتى لا يقبله أحد .

قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تأتى من الحيرة تطوف بالبيت فى غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى . والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها . كذا فى البداية ج ٥ ص ٦٦ وأخرجه البغوى أيضا فى مجمعه بمعناه ، كما فى الاصابة ج ، ص ٤٦٨ .

ـ وأخرج أحمد عن عدوى بن حاتم قال : جاءت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بعقرب فأخذوا عمتى وأناسا فلما أتوا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فصفوا له ، قالت : يا رسول الله بان الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمن على من الله عليك فقال : ومن وافدك ؟

قالت : عدى بن حاتم .

قال : الذى فر من الله ورسوله ؟

قالت : فمن على ، فلما رجع ورجل الى جنبه ـ نرى أنه على ـ قال : سليه حملانا ، قال : فسألته فأمر لها ، قال عدى : فأتتنى فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها وقالت : ايته راغبا أو راهبا فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه : قال : فأتيته فاذا عنده امرأة وصبيان ـ أو صبى ـ فذكر قربهم منه ، فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر . فقال له : يا عدى ابن حاتم ؟ ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : لا اله الا الله ، من من اله الا الله ؟ ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : « الله أكبر » .

فهل شىء أكبر من الله عز وجل ؟ فأسلمت فرأيت وجهه قد استبشر .

ـ أخرج أبو يعلى عن حرب بن سريج قال حدثنى رجل من بلعدوية قال حدثنى جدى قال : انطلقت الى المدينة فنزلت عند الوادى فاذا رجلان بينهما عنزة واحدة واذا المشترى يقول للبائع : أحسن مبايعتى . قال : فقلت فى نفسى هذا الهاشمى الذى قد أضل الناس ، أهو هو ؟ قال : فنظرت فاذا رجل حسن

---

(١) مرباع : ربع الغنيمة .

الجسم ، عظيم الجبهة دقيق الأنف دقيق الحاجبين • واذا من ثغرة نحره الى سرته مثل الخيط الاسود شعر أسود واذا هو بين طمرين • قال : فدنا منا فقال: السلام عليكم ، فرددنا عليه ، فلم ألبث أن دعا المشترى فقال : يا رسول الله قل له : يحسن مبايعتى ، فمد يده وقال أموالكم تملكون انى أرجو أن ألقى الله عز وجل يوم القيامة لا يطلبنى أحد منكم بشىء ظلمته فى مال ولا فى دم وعرض الا بحقه ، رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل الأخذ ، سهل العطاء ، سهل القضاء ، سهل التقاضى ثم مضى •

فقلت : والله لأقصن هذا فانه حسن القول : فتبعته فقلت : يا محمد فالتفت الى بجميعه فقال : ما تشاء ؟

قلت : أنت الذى أضللت الناس وأهلكتهم وصددتهم عما كان يعبد آباؤهم •

قال : ذاك الله •

قال : ما تدعو اليه ؟

قال : أدعو عباد الله الى الله •

قال : فقلت ، ما تقول ؟

قال : اشهد أن لا اله الا الله وأنى محمد رسول الله وتؤمن بما أنزل على ، وتكفر باللات ، والعزى وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة •

قال : قلت : وما الزكاة ؟

قال : يرد غنينا على فقيرنا •

قال : قلت : نعم الشىء تدعو اليه •

قال : فلقد كان وما فى الأرض أحد يتنفس أبغض الى منه فما برح حتى كان أحب الى من ولدى ووالدى ومن الناس أجمعين •

قال • فقلت : قد عرفت • قال : قد عرفت ؟

قلت : نعم •

قال : تشهد أن لا اله الا الله وأنى محمد رسول الله وتؤمن بما أنزل على ؟ قال : قلت نعم يا رسول الله انى أرد ماء عليه كثير من الناس فأدعوهم الى ما دعوتنى اليه فانى أرجو أن يتبعوك ، قال : نعم فادعهم ، فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه •

ـ وذكر البخارى وأبو داوود وأتم ما ذكرا رزين مساجلة جرت بين المسلمين وبين أبى سفيان بعد موقعة أحد وقد أصيب المسلمون فنادى أبو سفيان جماعة من المسلمين يسألهم ويقول وهذا نص الحادثة كما رواها « فأشرف

أبو سفيان (أى على المكان الذى كانوا فيه) فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : (أى الرسول وكان معهم) : لا تجيبوه • فقال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ فقال : لا تجيبوه • فقال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : ان هؤلاء قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا : فلم يملك عمر رضى الله عنه نفسه • فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله لك ما يحزنك • قال أبو سفيان أعل هبل • فقال صلى الله عليه وسلم : أجيبوه • فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله أعلا وأجل • قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم • فقال صلى الله عليه وسلم : أجيبوه • قالوا ما نقول ؟ قال قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم • قال أبو سفيان : يوم بيوم والحرب سجال ، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى • فقال صلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، قالوا ما نقول ؟ قال : قولوا لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار • أخرجه البخارى وأبو داوود الى قوله لم تسؤنى وأخرج باقيه رزين •

ــ وعن ابن اسحاق من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين ــ وقسم للمتألفين من قريش (أى حديثو العهد بالاسلام ليمكن الاسلام فى قلوبهم) وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء قليل ولا كثير ــ وجد (أى تغيرت قلوبهم) هذا الحى من الانصار فى أنفسهم حتى قال قائلهم :

لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه • فمشى سعد بن عبادة رضى الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ان هذا الحى من الأنصار ، قد وجدوا عليك فى أنفسهم فقال : فيم ؟

قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شىء •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : ما أنا الا امرؤ من قومى •

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة • فاذا اجتمعوا فأعلمنى • فخرج سعد فصرخ فيهم ، فجمعهم فى تلك الحظيرة فجاء رجل من المهاجرين فأذن له فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ــ حتى اذا لم يبق من الانصار أحد الا اجتمع له • أتاه فقال :

يا رسول الله قد اجتمع لك هذا الحى من الانصار حيث أمرتنى أن أجمعهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فيهم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الانصار ! ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة (أى فقراء) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى • ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تجيبون يا معشر الانصار !

قالوا : وما نقول يا رسول الله ! وبماذا نجيبك ؟ المن لله ولرسوله ٠

قالوا : والله لوشئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : جئتنا طريدا فاويناك ، وعائلا فاسيناك ، وخائفا فامناه ومخذولا فنصرناك ٠ فقالوا : المن لله ولرسوله ٠

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الانصار فى لعاعة (أى فى شى تافه اذ اللعاعةنبت ناعم لايعمر طويلا) من الدنيا؟ تألفت بها قوما أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الاسلام ، أفلا ترضون يا معشر الانصار ، أن يذهب الناس الى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله الى رحالكم فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا ، وسلكت الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار ، اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الانصار ٠ قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم (أى بلوها بدموعهم) وقالوا : رضينا بالله ربا ورسوله قسما ثم انصرف ، وتفرقوا ٠ وهكذا رواه الامام أحمد من حديث ابن اسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه وهو صحيح ٠

ـ وأخرج مالك عن عطاء بن يسار :

أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أستأذن على أمى ؟

فقال : نعم ٠

فقال الرجل : انى معها فى البيت ٠

فقال : استأذن عليها ٠

فقال : انى خادمها ؟

فقال رسول الله : استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة ؟

قال : لا ٠

قال : فاستأذن عليها ٠

ـ وأخرج الامام أحمد والبيهقى فى شعب الايمان عن أبى أمامة رضى الله عنه أن فتى شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ائذن لى بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا من فقال : اذن فدنا منه قريبا ، قال : اجلس فجلس قال صلى الله عليه وسلم : أتحبه لامك ؟ قال : لا والله جعلنى الله فداءك : ولا الناس يحبونه لامهاتهم قال صلى الله عليه وسلم : أفتحبه لابنتك قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداءك قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم قال صلى الله عليه وسلم : أفتحبه لاختك ٠ قال : لا والله جعلنى الله فداءك قال : ولا الناس يحبونه لاخواتهم قال صلى الله عليه وسلم : أفتحبه لعمتك قال : لا والله جعلنى الله فداءك قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم قال صلى الله عليه وسلم : أفتحبه لخالتك قال : لا والله جعلنى الله فداءك فقال ولا الناس

يحبونه لخالاتهم : قال : فوضع يده صلى الله عليه وسلم عليه ثم قال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه واحصن فرجه قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت الى شيء .

ــ ومن نقاشه مع وفد نصارى نجران كما ترويه كتب السيرة فى أمر عيسى هذا المقطع :

قالوا : من أبوه ؟ (أى عيسى يريدون أن يقيموا الحجة بهذا السؤال على أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك ؟

وقد رد القرآن عليهم بقوله : ((**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**)) .

ورد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يلى :

قال : ألستم تعلمون أن الله حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟
قالوا : بلى .
قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟
قالوا : بلى .
قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟
قالوا : لا .
قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا الا ما علم ؟
قالوا : لا .
قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيىء فى الارض ولا فى السماء ؟
قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .
قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

ــ ويوم الحديبية وقد حميت قريش للحرب وهو لا يريده قال كلمة أحاطت بجوانب الموضوع الذى يجعل قريشا لا تريد الا ما أراد قال :

ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وأن أظهرنى الله عليهم دخلوا

فى الاسلام وافرين وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ٠

يعنى الموت ٠

***

هذه نماذج على مناقشاته التى يقيم بها الحجة على الآخرين بالبساطة المقنعة والفصاحة الآسرة ٠

وسترى نماذج على حدة ذكائه الهائل فى تصريف الامور وتدبيرها فى الباب الثانى من هذا الفصل ٠

أما هنا فنريد أن نتمم ببيان فصاحته التى لا مثيل لها وهى السمة المرافقة التى لابد منها فى اقامة الحجة ونضرب على ذلك أمثلة من خطبه وكتبه وكلمه الذى كان كله بليغــا ٠

***

فى حجة الوداع خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس خطبة طويلة وكان الذى يبلغها عنه ربيعة بن أمية وهذا جزء منها ترى فيه نماذج الكلم الذى فعله فعله فى القلوب بما لم يفعله كلام آخر :

قال رسول الله لربيعة : قل يا أيها الناس ان الرسول يقول : هل تدرون أى شهر هذا ؟ فقال ربيعة ٠ فصاح الناس : الشهر الحرام ٠ فقال رسول الله قل لهم : ان الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا ٠

ثم قال : قل يا أيها الناس ان الرسول يقول : هل تدرون أى بلد هذا ؟ فيقول ربيعة فيصيح الناس : البلد الحرام فيقول عليه السلام : قل لهم : ان الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا ٠

ثم يأمره : يا أيها الناس ان رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا ؟ فيقول لهم فيصيحون : يوم الحج الاكبر ٠ فيقول قل لهم : ان الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ٠

***

ومن كلمة له عليه السلام : أمرنى ربى بتسع : خشية الله فى السر والعلانية وكلمة العدل فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن أصــل من قطعنى وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ونظرى عبرة ، وآمر بالمعروف » ٠

***

ومن وصـــاياه :.

« يا غلام احفظ الله يحفظك • احفظ الله تجده تجاهك ــ أو قال أمامك ــ تعرف على الله في الرخاء يعرفك فى الشدة • اذا سألت فأسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله تعالى فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله تعالى لك لم يقدروا على ذلك • ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله تعالى عليك لم يقدروا على ذلك • جفت الاقلام وطويت الصحف فان استطعت أن تعمل لله تعالى بالرضا فى اليقين فافعل فان لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين » :

* * *

ومن خطبة طويلة له عليه السلام حفظ منها أبو سعيد الخدرى ما يلى :

« ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » •

« ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق اذا علمه » •

« ألا انه ينصب لكل غادر لواء يوم **القيامة** بقدر غدرته ولا غدرة أعظم من غدرة امام عامة يركز لواؤه عند أسته » •

« ألا ان بنى آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا ، الا وان منهم البطىء الغضب سريع الفىء والسريع الغضب سريع الفىء ، والبطىء الغضب بطىء الفىء ، فتلك بتلك • ألا وان منهم بطىء الفىء سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطىء الغضب سريع الفىء ، وشرهم سريع الغضب بطىء الفىء ، ألا وان منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سىء القضاء حسن الطلب ، ومنهم حسن الطلب حسن القضاء ، فتلك بتلك • ألا وان منهم السىء القضاء سىء الطلب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ، وشرهم سىء القضاء سىء الطلب ، ألا وان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالارض •

* * *

ــ عن معاذ بن جبل رضى الله عنه :

قال (كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير • فقلت : يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنـــة

ويباعدني من النار • فقال : لقد سألت عن عظيم ، وانه ليسير على من يسره الله عليه • تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت • ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله • قال : الصوم جنة • والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين • ثم تلا : تتجافى جنوبهم عن المضاجع • الى قوله : جزاء بما كانوا يعملون • ثم قال : ألا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله • قال : رأس الامر الاسلام • وعموده الصلاة وذروة سنامه : الجهاد • ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله : قلت بلى يا رسول الله • قال : كف عليك هذا ، وأشار الى لسانه • قلت : يا رسول الله • وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ــ أو قال على مناخرهم ــ الا حصائد ألسنتهم) •

ــ وعن أبى ذر رضى الله عنه قال :

(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله : فأما الثلاثة الذين يحبهم : فرجل أتى قوما فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه ، فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته الا الله والذى أعطاه ، وقوم ساروا ليلتهم حتى اذا كان النوم أحب اليهم مما يعدل به فنزلوا • فقام رجل يتملقنى ويتلو آياتى ، ورجل كان فى سرية فلقى العدو فانهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له ، وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله : فالشيخ الزانى ، والفقير المختال ، والغنى الظلوم) •

ــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم تعدنى • فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت انك لو عدته لوجدتنى عنده • يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى • قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : ان عبدى فلانا استطعمك فلم تطعمه ، أما علمت لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندى • يا ابن آدم : استسقيتك فلم تسقنى • قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : ان عبدى فلانا استسقاك فلم تسقه ؟ أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى) •

* * *

والسر فى فصاحته صلى الله عليه وسلم انه يقول الكلمة القصيرة فتبلغ كل مبلغ وتحيط كل احاطة ، وتصل الى أدق القضايا ، ويتفاوت الناس فى

الاخذ منها على مقدار ما أوتوا من حكمة وعلم وذكاء وفهم • وقد عبر هو عليه السلام عن سر فصاحته فقال : أوتيت جوامع الكلام • وانظر عبارته هـذه • تر معناها أنه ليعبر عن المعانى العظيمة الكثيرة الكبيرة بكلمة مختصرة سهلة ، ولكنها لا تكاد تدرك معانيها لمـا أحاطت به ، وهذه قضية يعرفها كل من اطلع على أحاديثه عليه السلام ، التى بلغت عشرات الآلاف ، والمحفوظة فى كتب الحديث المعتمدة المنقحة الصحيحة • وخذ أى حديث من أحاديثه وأى كلمـة من كلامه تجد هذا واضحا بالشكل الذى لا يلحق به انسان الا فى نوادر الحالات ، ولكن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كله من هذا النوع ومن ثم كان أفصح العرب على الاطلاق •

وقد ضرب العقاد أمثلة على هذا الذى قلناه وحللها فأتى بالجيد • نجتزىء منه بمثال يقول « ومن أمثلته (أى الكلام الجامع للمعانى الكبار فى الكلمات القصار عند رسول الله) علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله « كما تكونوا يول عليكم » • فأى قاعدة من القواعد الاصيلة فى سياسة الامم لا تنطـوى بين هذه الكلمات ؟ ؟

ينطوى فيها أن الامم مسؤولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل ، أو عذر بالاكراه ، لان الجهل جهلها الذى تعـاقب عليه ، والاكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه •

وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الامة لا بالنظم والاشكال التى تعلنهـا الحكومة • فلا سبيل الى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيهـا الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل الى حرية أمة تجهل الحرية ، ولو تقيـد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والاشكال •

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأحرى ألا يغير الوالى قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك •

وينطوى فيها أن الامة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث •

وينطوى فيها أن الامة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال وذلك هو الابلاغ الذى ينفذ فى وجهاته كل نفاذ » •

ويختم العقاد كلامه فى هذا الموضوع بقوله :

وأمثال هذه الاحاديث فى أصول السياسة والاخلاق والاجتماع ممـا لا يتناوله الاحصاء ، فى هذا المقام • كان محمد فصيح اللغة ، فصيح اللسان ،

فصيح الاداء ، وكان بليغا مبلغا على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين بل قدوة المرسلين » ٠

وحسبك هذه الشهادة من العقاد شيخ أدباء العرب فى القرن العشرين ٠

❋ ❋ ❋

وبهذا نرجو أن تكون قد اتضحت لك صفة الفطانة التى لا مثيل لها عند رسول الله فى بيان الحق ، واقامة الحجة فيه ، ونصاعة البيان فى عرضه ، وكمال الاداء فى ايصاله وستتضح لك هذه الصفة أكثر فى الباب الثانى ، حيث الكلام عن السياسى الاول ، والمحارب الاول ، والمعلم الاول عليه السلام ، ولعل الباب الثانى سيكون أكثره مشيرا الى عظمة عقله وفطانته عليه السلام ، فلنقتصر هنا على ما قدمناه ٠

❋ ❋ ❋

وبهذا نختتم الباب الاول من هذا الفصل وقد رأيت فيه كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له من الصفات الاساسية للرسل كمالها وتمامها وأن ذلك دليل على أنه رسول الله حقا ، خلقه الله على أكمل الاحوال ، وأرفع المقامات ووفقه لاعظم الاعمال ، مما ينوء بحمله كل الرجال مجتمعين ٠ فسار فى طريق لم تضطرب بدايته فيه ، ولم تتحول مسيرته عنه ٠ حتى وصل الى نهاياته على استقامة ٠ من أول الشوط اليها ، كل خطوة بعد التى تليها ، بناء يتكامل يوما فيوما حتى تم ، لا نقص فيه ولا عوج ، ولا ينقض منه شىء أبدا ، وما كان ذلك ليكون كله لولا أن الله المحيط علما بكل شىء وراء رسوله في كل شىء ٠ يسدده ويرعاه وييسره حتى كان ما كان ٠

الباب الثانى

القدوة العليا

فى الباب الاول رأينا أن لرسول الله من الصفات الاساسية للرسل الحظ الاعلى • وسنرى فى هذا الباب أن جوانب شخصية الرسول عليه السلام متعددة تعددا يجعله منفردا عن الرسل بميزات ، ان شاركوه فى بعضها فلم يشاركوه فى الكل • فشخصية الرسول تمثلت بها كل جوانب الحياة وما كل رسول كان له مثل هذا • فالرسول عليه السلام كان أبا وما كل رسول كان أبا ، وكان زوجا وما كل رسول تزوج ، وكان رئيس دولة ومؤسسها وما كل رسول أقام دولة • وكان القائد الاعلى لجيش الاسلام والمحارب الفذ وما كل رسول حارب • وبعث للانسانية عامة فشرع لها بأمر الله ما يلزمها فى كل جوانب حياتها العقيدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية والسياسية ، ولم يبعث رسول قط الى الانسانية عامة غيره وكان المستشار والقاضى والمربى والمعلم والمهذب والعابد والزاهد والصابر والرحيم •• الى آخر صفاته عليه السلام التى استوعبت كل جوانب الحياة ، فكان بذلك بين الرسل الرسول المفرد العلم الممتاز ((**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**)) وانما كان ذلك لان الله جلت حكمته جعل الاسلام المنزل على محمد نظاما شاملا لجوانب حياة البشر كلها ، وجعل حياة رسوله نموذجا لدينه كله فى كل جوانبه ، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين ، مرة بالبيان النظرى ومرة بالبيان العملى ، وشىء آخر هو أن البشر فيهم الاب والابن والزوج • وفيهم السياسى والاقتصادى ورجل الشورى ، وفيهم المحارب والمسالم ، وفيهم المبتلى والمعافى وفيهم الراعى والرعية وفيهم العامل والتاجر ، فالحياة البشرية متعددة الجوانب ، وكل انسان فيها يعيش حياة كاملة تختلف فى بعض جوانبها أو تتفق مع الآخرين ، وقد فرض الله على البشر على اختلاف مستوياتهم وتعدد مواقف حياتهم ، أن يكون الرسول لهم القدوة فى كل شىء ، فما لم تكن شخصية الرسول متعددة الجوانب والمواقف هذا التعدد ، لا يكون قدوة لكل البشر فى كل شىء •

وقد يعجب انسان أن تكون حياة رسول الله من الخصب بحيث تستوعب كل جوانب حياة البشر • فتكون قدوة لهم فى هذا كله ، ولكنه الواقع الذى تشهد له كل الدراسات النظرية والعلمية :

فمثلا من الناحية النظرية ادرس مواقف الصبر عنده فانك تجدها قد استوعبت كل موقف يحتاج الناس به الى الصبر · لقد أقام الله رسوله مقام المخرج من وطنه ، ومقام من مات له ولد وأولاد وأولاد أولاد ، ومن ماتت له زوجة وطم وأبناء عم · بعضهم قتلى · ومقام من فشل فى المعركة ومن أوذى واستهزىء به ومقام من شمت فيه · ومن اتهم بعرض أحب الخلق اليه ومقام من مرض وجرح · ومقام من جاع وعطش وخاف وغير ذلك من المقامات التى يعتبرها الناس مصائب بحيث لا تصيب الانسان مصيبة الا ويرى رسول الله قد أصيب بمثلها · وكان له موقف مثالى منها ، فيقف مثله ان كان مؤمنا · ومن الناحية العملية ، فان تاريخ الامة الاسلامية ما خلا فى عصر من عصوره ، من ملايين من أفراد هذه الامة ، مختلفى المدارك ، مختلفى المستويات · مختلفى الاختصاصات ، مختلفى المشارب · منهم الغنى ، والفقير والقائد ، والرئيس والعالم والعابد وغيرهم وغيرهم ، كل منهم متمسك بحبل الاقتداء برسول الله فى الصغيرة والكبيرة · حتى انك لتجد النماذج المتباينة من هؤلاء وكل منهم يقيم الدليل على أن سلوكه هو سلوك رسول الله فيما يسير عليه ، وكل ذلك فى الواقع ناتج عن الخصب فى حياة الرسول التى استوعبت أحوال البشر جميعا ·

والرسول عليه السلام فى كل موقف من هذه المواقف ، وفى كل حال من الاحوال ، وفى كل جانب من الجوانب ، كان المثل الاعلى للبشر والقدوة العليا والوحيدة لهم · اذ اليه يرجع الكمال فى كل شىء ، ومنه يعرف الكمال فى كل شىء ، وهذا هو الجانب الذى سنعرض له فى هذا الباب ليتضح لنا أنه لا كمال لاى انسان مهما كان فى أى حالة · الا باتباعه والاقتداء به والتأسى فيه ، وان الله لم يعط من الكمال لانسان ما أعطاه محمدا ، ولم يجتمع فى انسان من الكمالات ما اجتمع فى شخصه العظيم ، وذلك آية الله على أن هذا الانسان رسوله اذ ما كان هذا ليجتمع لانسان منبت عن الله وكمالاته ، واحاطة علمه وتوفيقه ، وطبعا نحن لا نستطيع وخاصة فى مثل هذا الباب القصير المخصص لهذا البحث · أن نحيط بجوانب شخصية الرسول عليه السلام مع الاشارة الى الكمال عنده فى كل · فذلك شىء يستنفد جهد الباحثين الكثر ولا يحاط به · وانما سنكتب هنا أربع فقرات فقط وباختصار · حول أربعة جوانب من حياته عليه السلام نرى فيها ما قدمناه واضحا وهو مقصود هذا الباب ·

هذه الفقرات هى :

الفقرة الاولى : الاخلاقى الاول ·

الفقرة الثانية : رجل الاسرة الاول أبا وزوجا ·

الفقرة الثالثة : المعلم والمربى الاول ·

الفقرة الرابعة : رجل الدولة الاول سياسيا وعسكريا ·

واخترنا هذه الجوانب لان المعروف عند الناس ٠ أن كمال الانسان فى جانب من هذه الجوانب يكون على حساب تفريطه فى بقية الجوانب ، وكلامنا فى غير المقتدين بالرسل من أتباعهم ، فاجتماع الكمال لرسول الله فى هذه الجوانب كلها دليل على صحة ما قلناه ولنبدأ باستعراض الفقرة الاولى ٠

الاخلاقى الاول

((وانك لعلى خلق عظيم))

ان أبرز سمة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم المتعددة الجوانب أخلاقيته التى لا مثيل لها فلو أنك جمعت كل خلق عظيم فى العالم ٠ وكل تصرف أخلاقى سليم تصرفه فى يوم من الايام انسان ٠ فان ما تجده فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم يربو على هذا كله مجتمعا ٠ مع انعدام التصرفات غير الاخلاقية فى حياته عليه السلام ، مما لا تستطيع معه أن تجد فى حياته كلها تصرفا يمكن أن ترى أعظم منه فى باب الاخلاق عند غيره صلى الله عليه وسلم ٠ وكان أصحابه صلى الله عليه وسلم يعرفون منه هذا ، ويتصرفون على أساسه معه ، فكثيرا ما كانوا يوقفون ناسا مواقف من الانبياء السابقون فيها سننا فكان يفعل ما فعلوا ٠ ويعرف الصحابة ماذا سيفعل ، اذ أنهم يعرفون عنه أنه لا يرضى أن يكون أحد أرقى منه تصرفا أو مسلكا ٠

فى الطريق الى فتح مكة لقى الرسول صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية وهما ابن عمه وابن عمته وكانا من أشد الناس ايذاء له بمكة ٠ فأعرض عنهما فأشار على بن أبى طالب على ابن عمه بما يلى قال له : ائته من قبل وجهه وقل له ما قال اخوة يوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين » فانه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جوابا ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ٠

فانظر ذلك الذى لا يرضى أن يسبقه أحد فى موقف من مواقف مكارم الاخلاق ٠ ان أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم هى ميزة شخصيته الكبرى، حتى أنه ليحدد مهمة رسالته بقوله : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » والواقع أنك لا تستطيع أن تأخذ صورة كاملة عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ الا اذا فهمت القرآن والسنة ، وكل ما له علاقة بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ اذ أخلاقه كما وصفته سيدتنا عائشة رضى الله عنها هى القرآن « كان خلقه القرآن » ٠

وقد رأيت بشكل عملى فى بحث الامانة من الباب الاول كيف أن كل آية

من القرآن كان صلى الله عليه وسلم المظهر العملى لها .اذ استعرضنا هناك عددا من الآيات والامثلة التطبيقية على ذلك فيه ٠

الا أننا نريد بهذا البحث أن نأتيك ببعض أمهات الاخلاق ومظهرها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشكل الذى لا يرقى اليه أحد سابقا أو لاحقا ٠

ونختار من هذه الاخلاق أخلاق الصبر والرحمة والحلم والكرم والتواضع٠ فهذه من أمهات الاخلاق التى تحمد اذا كانت فى محلها ، وسنرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع كل شىء فى محله فاذا كان العفو غير محمود فلا عفو ٠ واذا كانت الرحمة غير محمودة فلا رحمة ٠ وهكذا ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو الميزان الذى توزن بتصرفاته أخلاق البشر ويتحدد بهذه التصرفات حدود كل خلق فلا يطغى خلق على خلق ٠

أولا – نماذج من صبره :

١ – مر معك فى مبحث التبليغ صور من صبره صلى الله عليه وسلم على الاضطهاد والتعذيب ، والايذاء والتجويع والسخرية والردود القبيحة عليه والاهانات المتوالية ، وكل هذا تحمله بصبر ٠ فاذا ما علمنا أن هذه الفترة استغرقت ثلاثة عشر عاما ، أدركنا مقدار الصبر الذى تمتع به رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وليس هذا فحسب بل كل ما أصيب به هو أصيب به أتباعه والاذى الذى لحق به لحق بأقاربه وهو الشريف ، وكل هذا يجرح نفس الانسان، ويحطم أعصابه ، ومع ذلك فما أبه صلى الله عليه وسلم لهذا كله ، بل تحمله وتحمل معه الاتهامات الباطلة بالجنون والكذب والسحر ٠٠ و ٠٠

والذى جرب هذه القضايا كلها يعلم كم تحتاج الى طاقة من الصبر لا تنفذ٠ فاذا ما علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل هذه كله ، وهو يقف من الناس موقف الهجوم وموقف الدعوة الى ما عنده ٠ نعلم أن المسألة هنا أكبر من الصبر ذاته ٠

٢ – فاذا ما انتقلنا الى موطن آخر يمتحن فيه الصبر وهو مواطن القتال، رأينا كذلك عجبا ٠ ولعل أبرز مواقفه الصابرة فى الحرب والتى تتحطم فيها أقوى الاعصاب موقفاه يوم أحد ويوم الخندق ، يوم الهزيمة الذى بقى فيه ثابتا ، ويوم الحصار الذى أخذ بالانفاس وبقى فيه كله أمل ، وهاك وصفا مختصرا لموقفه الصابر فى اليومين :

– روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد يوم أحد فى سبعة من الانصار ورجلين من قريش ٠

« واستطاع المشركون أن يخلصوا قريبا من النبى فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجهه فأثقله وتفجر منه الدم وشاع أن محمدا قتل فتفرق المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون ما يفعلون ·

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبى وقاص ويقول ارم فداك أبى وأمى وكان أبو طلحة الانصارى راميا ماهرا فى اصابة الهدف قاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا رمى رفع رسول الله شخصه ينظر أين يقع سهمه ·

فى هذا اليوم الشديد اذ فر المسلمون ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا هذا العدد القليل ، ومع ذلك بقى صابرا يدير المعركة التى طرفاها ثلاثة آلاف مقابل أفراد · ولم يهزم ولكنه أصر مع من معه على الاستبسال · حتى رأى المشركون أن خسارتهم أكبر من ربحهم فتركوهم ·

فأى صبر هذا الصبر ؟

ولا ننسى أن نذكر أن الشائعة بقتل محمد صلى الله عليه وسلم كانت قد راجت والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، منع من عرفه من تكذيبها · حتى يثبط قريشا عن المضى فى المعركة · فاذن هو صبر فى أحرج المواقف لا يخرج صاحبه عن كامل التدبير ·

ـ ويوم الخندق وقد حوصرت المدينة هذا الحصار الطويل الصعب الذى لم يعرف المسلمون فيه نوما ولا راحة ، والاحزاب تمطرهم بوابل من الهجمات على الامكنة الضعيفة وتحركات المسلمين من مكان الى مكان خشية المباغتة وقد طالت الفترة وتعب المسلمون ، وكانوا كما وصفهم الله **((اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون هنالك ابتلى المؤمنين وزلزلوا زلزالا شديدا))** فى هذا الوضع المخيف يأتى الخبر الصاعق أن قريظة نقضت عهدها وقررت القتال وأصبح المسلمون جميعا معرضين لقتل الانفس وسبى الذرية فأى صبر يحتاجه القائد فى تلك اللحظات فى ذلك الموقف الذى يحطم الاعصاب ·

لقد تقنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه واضطجع ومكث طويلا حتى اذا هضم المسلمون خطورة موقفهم يبث الامل ويشد العزائم ويرفع المعنويات · وهو يقـول :

« أبشروا بفتح الله ونصره » ان خطورة الموقف الشديد لم تؤثر ذرة على أعصاب القائد العظيم بل هو الصبر الذى يربو على الصبر ·

٣ ـ فاذا ما انتقلنا الى موطن آخر من المواطن التى يمتحن فيها الصبر ، وهو موطن موت الاولاد والاقارب والاصحاب وقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم • القلب الرحيم ، ومع ذلك فانه الصبر الذى يفيض العبرة بلا شكوى ولا ضجر ، وهذه أمثلة من مواقفه فى هذه المواطن :

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

رأيت ابراهيم وهو يكيد بنفسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله : تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى ربنا والله يا ابراهيم انا بك لمحزونون » •

وأخرج ابن سعد أيضا عن مكحول قال :

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وابراهيم يجود بنفسه فلما مات دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عبد الرحمن : أى رسول الله هذا الذى تنهى الناس عنه متى يرك المسلمون تبكى يبكوا قال : فلما سريت عنه عبرته قال : انما هذا رحم وان من لا يرحم لا يرحم انما ننهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه •

ثم قال : لولا أنه وعد جامع وسبيل مئتاء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجدا غير هذا وانا عليه لمحزونون • تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وفضل رضاعه فى الجنة » •

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال :

لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه لا تدرى ما صنع فلقيت عليا والزبير فقال على للزبير اذكر لامك وقال الزبير لعلى : لا اذكر أنت لعمتك قالت : ما فعل حمزة ؟ فأرياها أنهما لا يدريان فجاءت النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

انى أخاف على عقلها فوضع يده على صدرها ودعا فاسترجعت وبكت ثم جاء فقام عليه وقد مثل به فقال : لولا جزع النساء لتركته حتى يحصل من حواصل الطير وبطون السباع ثم أمر بالقتلى فجعل يصلى عليهم فيضع تسعة وحمزة فيكبر عليهم تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمزة ثم يؤتوا بتسعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات حتى فرغ منهم » •

واخرج الطيالسى وأحمد وأبو داوود والترمذى وابن ماجه وأبو عوانة وابن حبان عن أسامة بن زيد رضى الله عنه :

قال : كنا عند النبى صلى الله عليه سلم فأرسلت اليه احدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيا لها فى الموت • فقال للرسول : ارجع اليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فعاد الرسول فقال : انها قد أقسمت لتأتينها فقام النبى صلى الله عليه وسلم وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم فرفع الى رسول الله الصبى ونفسه تتقعقع كأنها فى شن ففاضت عيناه فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء » •

٤ ـ فاذا ما انتقلنا الى موطن آخر من المواطن التى يمتحن بها الصبر وهو الصبر على المرض والجوع والفقر • نجد دائما القمة التى لا يرقى اليها الراقون •

أخرج أحمد والطبرانى وهذه رواية الطبرانى :

أن فاطمة ناولت النبى صلى الله عليه وسلم كسرة من خبز الشعير ، فقال : ما هذه ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال لها : هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام •

وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن بحير قال :

أصاب النبى صلى الله عليه وسلم جوع يوما فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » •

وأخرج مسلم والترمذى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال :

« ألستم فى طعام وشراب ما شئتم ؟ لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل وما يملأ بطنه (الدقل : أردأ التمر) » وفى رواية لمسلم عن النعمان رضى الله عنه قال : ذكر عمر رضى الله عنه ، ما أصاب الناس من الدنيا ـ فقال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ بطنه » •

وأخرج أبو نعيم فى الحلية والخطيب وابن عساكر ، وابن النجار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى جالسا فقلت يا رسول الله أراك تصلى جالسا فما أصابك ؟

قال : الجوع يا أبا هريرة • فبكيت • فقال : لا تبك يا أبا هريرة ، فان شدة الحساب يوم القيامة لا تصيب الجائع اذا احتسب فى دار الدنيا » •

وأخرج الطبرانى وابن حبان فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج أبو بكر رضى الله عنه بالهاجرة الى المسجد ، فسمع عمر رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر ما أخرجك هذه الساعة ؟

قال ما أخرجنى الا ما أجد من حاق الجوع (أى شدة الجوع) قال : وأنا - والله - ما أخرجنى غيره • فبينما هما كذلك اذ خرج عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ قالا : والله ما أخرجنا الا ما نجد فى بطوننا من حاق الجوع قال : وأنا - والذى نفسى بيده - ما أخرجنى غيره • فقوما فانطلقوا » •

وأخرج ابن ماجه وابن أبى الدنيا عن أبى سعيد رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موعوك(١) عليه قطيفة فوضع يده فوق القطيفة فقال : ما أشد حماك يا رسول الله • قال : انا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الاجر• ثم قال : يا رسول الله : من أشد الناس بلاء ؟

قال : الانبياء ؟

قال : ثم من •

قال : العلماء •

قال : ثم من ؟

قال الصالحون •

وأخرج البيهقى عن أبى عبيدة بن حذيفة رضى الله عنه عن عمته فاطمة رضى الله عنها قالت :

أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نساء نعوده وقد حم فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحمى فقلت : يا رسول الله ، لو دعوت الله أن يكشف عنك ، فقال : ان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم •

* * *

وأنت ترى من هذه الامثلة أنه ما من موطن من مواطن امتحان الصبر الا وقد امتحن فية صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم • وفى كل مرة تجد عنده الصبر الذى لا يخالطه هلع ، انها أخلاق النبوة فى أعلى كمالات البشر •

---

(١) موعوك : محموم •

ثانيا : نماذج من رحمته :

١ ـ والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر • تقسو قلوبهم وتجف دموعهم ، ونادرا ما تجد الموغل فى ذلك متصفا بصفة الرحمة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن اقتدى به ليسوا من هذا الطراز ، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجدت ، ولكنها صفات لا تطغى على خلق الرحمة أبدا ، بل كما أن هذه الصفات فى كمالها فكذلك خلق الرحمة عنده صلى الله عليه وسلم فى كماله ، وقد رأيته فى فقرة سابقة كيف تفيض عينه صلى الله عليه وسلم فى كثير من المواقف رحمة وشفقة ، وهو الصابر الذى ما عرف أكثر صبرا منه ، والمقاتل الذى ما عرف أكثر حنكة منه ، يفيض قلبه بالرحمة فيبكى وتدمع عيناه ، وقد يسمع صوت بكائه ، انها نفس تجيش جيشانا ببحار الرحمة •

٢ ـ وهناك مواطن يفقد فيها الرحماء رحمتهم ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفارقه رحمته ، يؤذى ويضرب ويضطهد فيقول : « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » ويوم فتح مكة وقد فعلت به ما فعلت ، كان موقفه غير المتوقع كما قص عمر قال : لما كان يوم الفتح ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة أرسل الى صفوان بن أمية والى سفيان بن حرب والى الحارث ابن هشام قال عمر : فقلت :

لقد أمكن الله منهم لاعرفنهم بما صنعوا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلى ومثلكم كما قال يوسف لاخوته : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) • قال : عمر فافتضحت حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم كراهية أن يكون بدر منى وقد قال لهم رسول الله صلى الله علية وسلم ما قال :

ان المواطن التى تغيب عادة فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقام أو الانتصار تبقى صفة الرحمة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محلها لا تطغى على غيرها ولا يطغى غيرها عليها •

ـ وكانت رحمته تسع الناس جميعا ويحس بها المستضعفون قبل الاقوياء، يقول عبد الله بن عمرو : دخل النبى صلى الله علية وسلم المسجد فجلس الى الفقراء وبشرهم بالجنة وبدا على وجوههم البشر فحزنت لاننى لم أكن منهم » •

وجاء فى صحيح البخارى : « أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر ذات يوم رجلا أسود فقال ما فعل ذلك الانسان ؟ قالوا مات يا رسول الله ، قال : أفلا آذنتمونى ؟ فقالوا : انه كذا وكذا قصته فحقروا من شأنه ، قال دلونى على قبره فأتى قبره فصلى علية » •

وقال معاوية بن سويد : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا خادم الا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اعتقوها فقيل ليس لهم خادم غيرها فقال فليستخدموها فاذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها » •

وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه ان نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : انى لادخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من وجد أمه من بكائه » •

وبلغت رحمته الحيوان فكان أرحم الخلق به •

قال عبد الرحمن بن عبد الله : كنا مع رسول الله فى سفر فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف) فلما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم قال : من فجع هذه بولدها ردوا ولدها اليها » •

ونهى أن يتخذ الحيوان هدفا يرمى بالنبال ليتعلم فيه الرمى ، وأمر من يريد الذبح أن يحد شفرته ويريح ذبيحته وألا يذبح الحيوان بمرأى من الحيوان ، ان رحمته بلغت كل شىء •

ـ ولكنها الرحمة التى لا تجاوز حدها :

لما أسر أبا عزة الشاعر أول مرة استعطفه حتى أطلق سراحه على شرط ألا يقف بعد اليوم ضده ، وتدور الايام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ويأمر بقتله • وهذا الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الحالة هو الذى أخذ به القانون الدولى فى القرن العشرين حيث نص على أن الاسير الذى يطلق سراحه بشرط عدم الدخول فى المعركة ضد آسريه مرة ثانية اذا أسر بعدها يقتل •

انها الرحمة التى تفيض حتى تعم الخلق ، ولكنها لا تجاوز محلها فتطغى على صفات الكمال الاخرى •

انها الرحمة التى تفيض حتى تكاد تقتل صاحبها أسى لما يرى انصراف الخلق عن طريق الجنة الى طريق النار • حتى يعاتب الله عز وجل صاحبها : ((**فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**)) •

انها رحمة النبوة وانها صفاتها •

* * *

ثالثا ـ نماذج من حلمه :

١ ـ وله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الحلم ـ كما له من كل خلق ـ كماله · يغضب للحق اذا انتهكت حرماته واذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتى يهدم الباطل وينتهى ، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب أو مسيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه يمكن اصلاحه ، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن وتجد حلمه دائما عجيبا · يفوق الحد الذى يتصوره الانسان خاصة وأن حلمه مع القدرة على البطش والقتل والارهاب ·

اذ لا يشك أحد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أمر بقتل انسانا لتبادر المئات الى تنفيذ أمره · بل ان بعضهم لا يحتاجون الى الامر بقدر ما يحتاجون الى الاذن · فلو أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن ينهوا كلامهم · ولكن الرسول الحليم صلى الله عليه وسلم كان يتحمل ويحلم حتى انك لتراه الحلم مجسما ·

فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما اذا أتاه ذو الخويصرة رجل من بنى تميم فقال : يا رسول الله : اعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلك من يعدل ان لم أعدل ! لقد خبت وخسرت ! اذا لم أعدل فمن يعدل ، فقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه ·

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه ·· » ·

ويوم حنين اذ قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قسم قال رجل : كما يروى البخارى ـ والله ان هذه لقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت (أى عبد الله) ، والله لاخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته فأخبرته فقال : من يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر "

وروى أحمد عن عائشة قالت :

ما ضرب رسول الله بيده خادما له قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط الا كان أحبهما اليه أيسرهما حتى يكون اثما فاذا كان اثما كان أبعد الناس من الاثم · ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى اليه حتى تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله » ·

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك ان امرأة يهودية أتت رسول الله بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها الى رسول الله فسألها عن ذلك قالت : أردت لأقتلك فقال : ما كان الله ليسلطك على أو قال على ذلك قالوا : ألا تقتلها :

قال : لا ··

وأخرج ابن جرير عن أنس رضى الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما المسجد وعليه برد نجرانى غليظ الصنعة فأتاه أعرابى من خلفه فأخذ بجانب ردائه حتى أثرت الصنعة فى صفح عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أعطنا من مال الله الذى عندك فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبسم فقال : مروا له ٠

وأخرج عن أبى هريرة قال : كنا نقعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغدوات فى المسجد فاذا قام الى بيته لم نزل قياما حتى يدخل بيته فقام يوما فلما بلغ وسط المجلس أدركه أعرابى فقال :

يا محمد احملنى على بعيرين فانك لا تحملنى من مالك ولا من مال أبيك وجذب بردائه حين أدركه فاحمرت رقبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا واستغفر الله لا أحملك حتى تقيدنى قالها ثلاث مرات ثم دعا رجلا فقال له : احمله على بعيرين ٠ على بعير شعير وعلى بعير تمر ٠ ورواه أحمد ٠

وأخرج الطبرانى عن أبى أمامة قال :

كانت امرأة ترافث الرجال (أى تكلمهم كلاما بذيئا) وكانت بذيئة فمرت بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو يأكل ثريدا على طربال فقالت : انظروا اليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد !٠

فقال النبى : وأى عبد أعبد منى ؟

قالت : ويأكل ولا يطعمنى ٠

قال : فكلى ٠

قالت : ناولنى بيدك ، فناولها ٠

فقالت : أطعمنى مما فى فيك ، فأعطاها فأكلت فغلبها الحياء فلم ترافث أحدا حتى ماتت » ٠

وأخرج أبو نعيم عن عائشة قالت :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فصنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما فسبقتنى حفصة فقلت للجارية : انطلقى فاكفئى قصعتها فأهوت أن تضعها بين يدى النبى فكفأتها فانكفأت القصعة فانتشر الطعام فجمعها النبى وما فيها من الطعام على الارض فأكلوا ٠ ثم بعثت بقصعتى فدفعها النبى الى حفصة فقال : خذوا ظرفا مكان ظرفكم وكلوا ما فيها فما رأيته فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وحلمه صلى الله عليه وسلم أوسع من أن يحاط بجوانبه ، ولولا هذا الحلم ما استطاع أن يسوس شعبا كالعرب يأنف أن يطيع أو ينصاع أو يجرح ،

وصدق الله العظيم ((ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله)) .

* * *

رابعا ـ نماذج من كرمه :

ان الكرم فى الاسلام طريق من طرق الجنة ، وان البخل طريق النار . ولذلك فقد كان كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجارى . ولا يبارى . ان الله قد جعل خمس الغنائم اليه وكانت حصته عليه السلام من هذا الخمس الخمس . وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة ولو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمع مالا لكان أكثر الخلق مالا . ان خمس غنائم حنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمان مائة من الجمال وثمانية آلاف أوقية من الفضة وألف ومائتان من السبى . هذا الخمس الذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرباه منه خمساه فكم نتصور غنى الرسول صلى الله عليه وسلم لو أراد أن يجمع مالا من غزواته كلها من خيبر الغنية وقريظة وبنى النضير ..

فاذا ما علمنا مقدار حق رسول الله صلى الله عليه وسلم المعطى له من هذه الأموال فقط مثل هذا واذا عرفنا أنه كان بالامكان استثماره وتنميته ثم علمنا بعد ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودى وأنه أمر أن يوزع ميراثه ان كان على المسلمين ، وانه ليس لأقاربه من ميراثه شيء وأنه ما كان يلبس الا الخشن ولا ينام الا على القليل ، وأنه يجوع الأيام وأنه كان يخشى اذا بقى فى بيته مال فلم يوزعه على الناس ، وكل ذلك قد مر منه أمثلة معك . أدركت أى كرم كان عنده صلى الله عليه وسلم وأى نفس طاهرة هذه النفس وأدركت أنها النبوة . وأن غير النبوة لا تجود بهذا الجود وترضى مع القدرة بهذه الحياة ، الا اذا كانت نفسا متأسية برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد شهد على ذلك أقوى الناس شركا وعنادا وبغضا له صلى الله عليه وسلم فأسلموا نتيجة ذلك ولعل فى ما ذكرناه غنية عن ضرب الأمثلة ولكن بالمزيد خيرا :

ـ أخرج الشيخان عن ابن عباس قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقى جبريل عليه السلام . وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن قال : فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة » .

وأخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال : لا ..

وأخرج الطبرانى عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضى الله عنها قالت : بعثنى معوذ بن عفراء بصاع من رطب عليه آخر من قثاء زغب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحب القثاء وكانت حلية قد قدمت من البحرين فملا يده منها فأعطانيها .

وفى رواية : فأعطانى ملء كفى حليا أو ذهبا ورواه أحمد بنحوه وزاد : فقال : تحلى بهذا » .

وأخرج الطبرانى فى الاوسط عن أم سنبلة رضى الله عنها : أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجه أن يقبلنها : فقلن انا لا نأخذ فأمرهن النبى صلى الله عليه وسلم فأخذنها ثم أقطعها واديا » .

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : جاءت امرأة الى رسول الله ببردة فقالت يا رسول الله جئتك أكسوك هذه فأخذها رسول الله وكان محتاجا اليها فلبسها فرآها عليه رجل من أصحابه ، فقال يا رسول الله ما أحسن هذه أكسنيها فقال نعم . فلما قام رسول الله لامه أصحابه وقالوا ما أحسنت حين رأيت رسول الله أخذها محتاجا اليها ثم سألته اياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه . قال والله ما حملنى على ذلك الا رجوت بركتها حتى لبسها رسول الله لعلى أكفن فيها » .

وأخرج أحمد عن أنس أن رسول الله لم يسأل شيئا على الاسلام الا أعطاه قال فأتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة قال فرجع الى قومه فقال : يا قوم أسلموا فان محمدا يعطى عطاء ما يخشى الفاقة » .

وزاد فى رواية : فان كان الرجل ليجيء الى رسول الله ما يريد الا الدنيا فما يمسى حتى يكون دينه أحب اليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها » .
وأخرج ابن عساكر فى قصة اسلام صفوان بن أمية عن عبد الله بن الزبير ما يلى :

وخرج رسول الله قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل اليه يستعيره سلاحه فأعار سلاحه مائة درع بأداتها .

فقال صفوان : طوعا أو كرها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عارية رادة فأعاره • فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملها الى حنين فشهد حنينا والطائف ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجعرانة فبينما رسول الله يسير في الغنائم ينظر اليها – ومعه صفوان بن أمية فجعل صفوان بن أمية ينظر الى شعب ملاء نعما وشاء ورعاء فأدام النظر اليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرمقه فقال :

أبا وهب يعجبك هذا الشعب •

قال : نعم •

قال : هو لك وما فيه •

فقال صفوان عند ذلك : ما طابت نفس أحد بمثل هذا الا نفس نبي ، أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأسلم مكانه •

هذه نماذج من الكرم تضيع بجانبها كل قصص الكرم المعروفة المشهورة عند الناس • كرم يجعل صاحبه يعيش حياة الجهد والمشقة والفاقة ، حياة لا يطيقها أحد غيره هو وعياله ، مع هذا الملك العريض الواسع ، والسلطان الكبير والواردات الكثيرة ، وزيادة على ذلك أنه لو أراد من أموال المسلمين شيئا لخاصة نفسه لكان المسلمون في ذلك كراما • وله الحق في ذلك أليس هو مدبر شؤونهم ومعلمهم ، ولكن هذا كله لم يحدث ، انه كرم في النفس يمنع صاحبه عن التطلع الى أموال الآخرين ، وكرم في النفس لا يقوم معه من ملك صاحبه شيء • انها أخلاق النبوة العربية الهاشمية المصطفاة سليلة ابراهيم عليه السلام •

خامسا : نماذج من ((تواضعه وتياسره))

ننقل هنا ما كتبه صاحب كتاب بطل الابطال تحت هذا العنوان مكتفين به في هذا الباب مع حذف بعض جمل المقال يقول :

صفة بينة لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة في طبعه الكريم تلك هي : التياسر والتواضع فبهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الانسان يؤتاها من صميم نفسه ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة ، كان محمد التياسر نفسه يتمثل في الرجل الكامل : وينبعث من أعماق قلبه ، فيبدد ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يخدع به الناس من قول أو فعل ، كان محمد قريبا سهلا هينا يلقى أبعد الناس وأقربهم وأصحابه

وأعداءه وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف .. بل بالحق سافرا فكانت أعماله تصدر طبيعية كل منها يدل على خلقه كما تدل الصورة على صاحبها واسمعوا الى عدى بن حاتم ٠

يقول وقد كان يظن أنه سيلقى ملكا فى المدينة :

دخلت على محمد وهو فى المسجد فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟

فقلت : عدى بن حاتم ٠

فقام وانطلق بى الى بيته فوالله انه لعامد بى اليه اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف طويلا تكلمه فى حاجتها قال فقلت والله ما هذا بملك ٠ قال ثم مضى بى رسول الله حتى اذا دخل بى الى بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها الى فقال اجلس على هذه قال : قلت بل أنت فاجلس عليها فقال بل أنت ، فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض ٠ قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك ٠٠ هذه طبيعة محمد لاطلاء عليها يأتيه عدى وقع وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى لجيوشه يأتيه مغلوبا فيجلسه على وسادة ويجلس هو على الأرض ٠٠

ثم انظروا اليه وقد مات ابنه ابراهيم ، فكسفت الشمس فقال الناس كسفت الشمس لموت ابراهيم ٠ فيقول فى المسجد : ان الشمس والقمر من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا حياته ٠

هذه هى النفس البريئة التى تعشق الحق للحق ٠ وتتعالى فى تواضع عن استغلال وهم من الأوهام ٠

* * *

انظروا كذلك اليه كيف يستأذن على أحد أصحابه وكيف يتصرف ؟

يقول قيس بن سعد :

زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد أبى ردا خفيا فقلت لأبى : ألا تأذن لرسول الله فقال : زده حتى يكثر علينا من السلام فقال صلى الله عليه وسلم : السلام عليكم ورحمة الله ثم رجع فاتبعه سعد فقال : يا رسول الله : انى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام فانصرف معه النبى ، وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل بها ثم رفع يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد ٠٠

فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارا فقال سعد : يا قيس اصحب رسول الله فصحبته فقال اركب معى فأبيت فقال : اما أن تركب واما أن تنصرف » .

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة تمر فى غير حفل ولا ظهور . يذهب اليه ماشيا ، ويعود على حمار يريد أن يردف عليه رفيقه . تلك السجية الظاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعا وطاعته قربة . فان يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء واستدامة الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والانصار لمحمد المتواضع مضرب الامثال فى تاريخ الدعوة الاسلامية (بل فى كل تاريخ) ولم تكن دعوته قيسا إلى الركوب معه على الحمار أمرا غريبا ، بل كانت هذه عادته يردف على حماره وبغلته وناقته ويعاقب مع رفاقه (المعاقبة أن يركب واحد مرة ويركب الثانى أخرى) قال ابن عباس : ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة استقبله أغيلمة بنى عبد المطلب فحمل واحدا بين يديه وآخر خلفه . وقال معاذ : كنت رادف رسول الله على حمار يقال له عفير ، وجاء اليه رجل وهو يمشى فقال : اركب وتأخر على حماره فقال محمد : أنت أحق بصدر دابتك منى الا أن تجعله لى : فقال الرجل : فانى جعلته لك . ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف فى السير ، فيزجى الضعيف (أى يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف ، ويدعو لهم .

كان مرة فى سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاما فقسم العمل بينهم ، فقام يجمع الحطب فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى ، لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقه . ولما وقف عليه أعرابى يرتجف خشية ، ذكره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا ، فقاموا له فقال : لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضا ..

وكان محمد يكره الاطراء والألقاب : انطلق اليه وفد بنى عامر ، فلما كانوا عنده قالوا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله ، فقالوا : وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا ، فقال : قولوا قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان .

كان فى تياسره جم التواضع ، وافر الأدب يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف بكله الى محدثه صغيرا كان أو كبيرا أو يكون آخر من يسحب يده اذا صافح . واذا تصدق وضع الصدقة فى يد المسكين ، واذا أقبل جلس حيث ينتهى المجلس بأصحابه . لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار . فكان يذهب الى السوق ويحمل بضاعته ويقول : أنا أولى بحملها .. ولم يستكبر من عمل الأجير والفاعل سواء كان فى بناء مسجد المدينة أو فى الخندق وهو أمير الجيش يدفع الاحزاب .

وكان محمد كذلك متواضعا فى ملبسه وسكنه . يلبس كعامة من حوله

ويسكن ، وقد واتته الدولة والسلطان فى صف من حجرات واطئة مبنية باللبن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ملبس بالطين ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر · وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله بيده ، ويخدم نفسه ويعقل بعيره ، ويأكل مع الخادم ويقضى حاجة الضعيف والبائس ·

كل هذا التواضع والتياسر الصادق من نفسه الطاهرة ، والذى هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيبته ولا محبته ، وقد قيل فى وصفه : من رآه بداهة هابه ومن عاشره أحبه · فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم وحب ووقار كامل ، لم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب ، وكثيرا ما بين لاصحابه كيف يتصرفون فى حضرته وفى خطابه ·

يقول ·· وليم موير ·· فى وصف تواضعه وتياسره : « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لاقل تابعيه ، فالتواضع والشفقة والصبر والايثار والجود صفات ملازمة لشخصه وجالبة لمحبة جميع من حوله فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا ، ولا هدية مهما صغرت وما كان يتعالى ويبرز فى مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه باقباله وان كان حقيرا · وكان اذا لقى من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره · وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف حسن المواساة وكان فى أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير فى راحة من حوله وهناءتهم » ·

ولسنا فى تاريخ محمد بحاجة الى أحد ، فان مما اختص به من بين رسل العالم وابطاله وضوح حياته وجلاءها من جميع نواحيها · وانما سقنا عبارة « موير » هنا لشعورنا أنها صادرة عن اعجاب صادق ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها ، لكان اليوم حيا بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التى طبعها على الوجوه بعمله وقوله لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يغطيها الطلاء ولا يحجبها رياء ولا ترى الا على حالة واحدة فى الليل والنهار وفى السر والعلانية وفى الشدة والرخاء وفى الضعف والقوة ، فى السوق وهو فى شبابه وفى الشيخوخة وهو على عرش النبوة والملك ·

وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها ، هى النفس التى اتصلت بالسماء وعاشت على الأرض دانية الى الناس محببة اليهم فى كل أطوار حياته · كان بطل الابطال صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى الذى نحن اليوم أحوج ما نكون اليه فى نطاق الاخوة الاسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه أو حسب أو نسب وانما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى والناس من آدم وآدم من تراب ·

وأخيرا وبعد أن ضربنا لك أمثلة على خمس من أمهات أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وضح بما لا يقبل الشك أن العالم لم يعرف ارتفاعا في الأخلاق في كلياتها وجزئياتها وأبعادها • بشمولها كله كما عرفه في رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما شهد بذلك القرآن العظيم • وأن منتهى آمال الاخلاقيين أن يقلدوه بخلق واحد من أخلاقه وهم لا يرتقون بهذا الخلق الا الى بعض ما هو عنده صلى الله عليه وسلم • وان الناس جميعا بكل ما أوتوا من أخلاق لو جمعت أخلاقهم الحميدة فانهم لا يبلغون أن يحيطوا الا بالأقل مما كان (عليه السلام) • هذا مع أن الناس لا تخلص أخلاقيتهم مما يعابون عليه بحق • أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الأخلاق كلها محضا • ليس فيها ما يخالط مما يلام عليه الانسان ، الا اذا كان اللائم أعمى البصيرة ، يرى الخير شرا والشر خيرا ، أو حاسدا أو متكبرا أعماه الحسد والكيد عن رؤية الحقيقة التى لا تغيب عن أحد • وان أحدا عرف الرسول صلى الله عليه وسلم فى زمانه من عدو أو صديق الا وأسلم فى ضميره أن الخلق المحمدى لا يرقى اليه مطعن ، وقد مر معك كثير من شهادة الأعداء وهم أعداء بذلك • وقديما قال أحد آباء زوجاته المشركين وقد بلغته خطبته لبنته « هو الفحل لا يجدع أنفه » • وقال عكرمة بن أبى جهل بعد حربه الطويل لرسول الله هو وأبوه فى لحظة اسلامه :

« أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله وأنت أبر الناس وأصدق الناس وأوفى الناس ، قال عكرمة : أقول ذلك وانى لمطأطىء رأسى استحياء منه » •

* * *

وبعد فالى الفقرة الثانية :

٢ ـ رجل الأسرة الاول : أبا وزوجا

١ ـ التعريف بأزواجه عليه السلام

قال ابن هشام : وكن تسعا : عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، وأم سلمة بنت أبى أمية ابن المغيرة ، وسودة بنت زمعة بن قيس ، وزينب بنت جحش بن رئاب ، وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبى ضرار ، وصفية بنت حيى بن أخطب فيما حدثنى غير واحد من أهل العلم •

وكان جميع من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة • خديجة بنت خويلد وهى أول من تزوج • زوجه اياها أبوها خويلد بن أسد

ويقال أخوها عمرو بن خويلد وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة فولدت لرسول الله ولده كلهم الا ابراهيم وكانت قبله عند أبى هالة بن مالك أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم حليف بنى عبد الدار فولدت له هند بن أبى هالة وزينب بنت أبى هالة وكانت قبل أبى هالة عند عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية . وتزوج رسول الله عائشة بنت أبى بكر الصديق بمكة وهى بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين أو عشر ولم يتزوج رسول الله بكرا غيرها . زوجه اياها أبوها أبو بكر وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم . وتزوج رسول الله سودة بنت زمعة .. زوجه اياها سليط بن عمرو ويقال : أبو حاطب ابن عمرو .. وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند السكران بن عمرو .

وتزوج رسول الله زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية زوجه اياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله ففيها أنزل الله تبارك وتعالى ((**فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها**)) وتزوج رسول الله أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند زوجه اياها سلمة بن أبى سلمة ابنها وأصدقها رسول الله فراشا حشوه ليف وقدحا وصفحة ومجشة (أى رحى) وكانت قبله عند أبى سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله فولدت له سلمة وعمر وزينب ورقية .

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب زوجه اياها أبوها عمر بن الخطاب وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمى .

وتزوج رسول الله أم حبيبة واسمها رملة بنت أبى سفيان بن حرب زوجه اياها خالد بن سعيد بن العاص وهما بأرض الحبشة وأصدقها النجاشى عن رسول الله أربع مائة دينار وهو الذى كان خطبها على رسول الله وكانت قبله عند عبيدة الله بن جحش الأسدى .

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية كانت فى سبايا بنى المصطلق من خزاعة فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى فكاتبها على نفسها فأتت رسول الله تستعينه فى كتابتها فقال هل لك فى خير من ذلك . قالت وما هو قال أقضى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم فتزوجها ..

وتزوج رسول الله صفية بنت حيى بن أخطب سباها من خيبر فاصطفاها

لنفسه وأولم رسول الله وليمة ما فيها شحم ولا لحم كان سويقا وتمرا وكانت قبله عند كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق •

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث بن حزن •• زوجه اياها العباس ابن عبد المطلب وأصدقها العباس عن رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند أبى رهم بن عبد العزى •• ويقال أنها التى وهبت نفسها للنبى وذلك أن خطبة النبى انتهت اليها وهى على بعيرها فقالت البعير وما عليه لله ولرسوله فأنزل الله تبارك وتعالى ((**وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها**)) ••

وتزوج رسول الله زينب بنت خزيمة بنت الحارث •• وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها اياهم ورقتها عليهم زوجه اياها قبيصة بن عمرو الهلالى وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها •

فهولاء اللاتى بنى بهن رسول الله احدى عشرة فمات قبله منهن اثنتــان خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة • وتوفى عن تسع قد ذكرناهن فى أول هذا الحديث •

واثنتان لم يدخل بهما أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها فوجد بهـا بياضا فمتعها وردها الى أهلها • وعمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بكفر فلما قدمت على رسول الله استعاذت من رسول الله فقال رسول الله : منيع عائذ الله ، فردها الى أهلها ويقال أن التى استعاذت من رسول الله كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان ويقال أن رسول الله دعاها فقالت : انا قوم نؤتى ولا نأتى فردها رسول الله الى أهلها •

القرشيات من أزواج النبى ست : خديجة •• وعائشة •• وحفصة •• وأم حبيبة •• وأم سلمة •• وسودة بنت زمعة ••

والعربيات غيرهن ست : زينب بنت جحش •• بن أسد بن خزيمة ، وميمونة بنت الحارث بن هلال بن عامر •• بن صعصعة •• بن قيس بن عيلان ، وزينب بنت خزيمة •• بن هلال بن عامر بن صعصعة •• وجويرية بنت الحارث ابن أبى ضرار الخزاعية ، ثم المصطلقية ، وأسماء بنت النعمان الكندية ، وعمرة بنت يزيد الكلابية •

ومن غير العربيات : صفية بنت حيى بن أخطب من بنى النضير •

ويقول الكافرون : ان هذا يخدش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون له كل هذا العدد من الزوجات :

ونقول : ان الذين يقولون هذا الكلام أحد ثلاثة : اما انسان له دين غير الاسلام والذى له دين · اما أن يكون دينه يقول بتعدد الزوجات أو لا ·

أو انسان لا يؤمن بدين ·

أما الانسان الذى لا يؤمن بدين فهذا عمليا يستعمل آلاف النساء استعمال الزوجات ، ولا يرى فى ذلك بأسا ولا يتحرج أن يضاجع أى امرأة ولو كانت أخته ، ولو كانت زوجة صاحبه ، وما أكثر ما سمعنا بأمثال هذا من هؤلاء · فلا محل لكلام هؤلاء ولا يناقشون أصلا ، لأنه ليس لديهم مقاييس يمكن أن تكون معقولة يناقشهم الانسان عليها ·

وأما الذين لهم دين يقول بالتعدد المطلق فهؤلاء كذلك لا نقاش معهم اذ ما أبيح لهم كيف يحرمونه على غيرهم ·

وأما الذين لهم دين يقول بعدم جواز التعدد كالنصارى الحاليين فاننا نقول لهم : اما أن عدم التعدد هو شريعة الله فهذا غير صحيح بدليل تاريخ الكنيسة عندكم وأما أن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا العدد من النساء يتنافى مع جلال النبوة · فان الكتب التى بين أيديكم وتؤمنون بها وهى كتب العهد القديم ، تذكر أن من الأنبياء الذين تؤمنون بنبوتهم من تزوج بنساء أكثر بكثير من نساء سيدنا محمد عليه السلام · وقد ذكرنا أمثلة من هذا فى مبعث الشهادات فلماذا تتناقضون ؟

غير محمد صلى الله عليه وسلم من الأنبياء اذا تزوج أكثر منه فذلك لا يتنافى مع جلال النبوة أما هو فلا ؟

ان هذا عمى عن الحقيقة وتجاهل لها ، فان فرط الرجولة ليس عيبا فى الرجل بل كمال فيه اذا بقيت ضمن الاطار الذى حدده الله ·

ان الأنبياء منفذون لاوامر الله لا يخرجون عنها ، فاذا ما صحت نبوة نبى وتصرف ضمن أوامر الله فلا حرج عليه وقد أشار القرآن الى هذا المعنى فى قصة زواج النبى صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش : **((ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا))** ·

ان ظاهرة الرسالة ظاهرة نادرة فى التاريخ البشرى وظهورها بمحمد صلى الله عليه وسلم هو الظهور الأخير لذلك فقد خص الله رسوله صلى الله عليه وسلم ببعض الأحكام وكل ما خص به صلى الله عليه وسلم كان فيه نوع من التكليف أكبر ، ونوع من العبء أكبر ، وحتى هذه القضية قضية تعدد زوجاته ، كان غرمها أكبر من غنمها ، وعبؤها أكبر من سهولتها ، ولما يترتب على ذلك من القيام بحقوق هذا العدد الكثير • وسياستهن وتدبير أمورهن من جهد ، مع كثرة أعباء السيد الرسول صلى الله عليه وسلم الأخرى من جهاد وتعليم وتدبير و ••

ولو تأمل الانسان هذا الموضوع بعمق لوجد أنه دليل على النبوة والرسالة مستقل وذلك لما فيه من الحكم الكثيرة والمصالح المتعددة •

فلقد أحل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج ما شاء بقوله :

((يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين)) •

ثم أخيرا أنزل :

((لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك)) •

اذن بعد أن تزوج ما تزوج منع من الزواج فلم يتزوج بعد وجعل الله زوجاته أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد أن يتزوج منهن بعده صلى الله عليه وسلم فما الحكمة فى ذلك كله ؟

١ ـ ان الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج الكبيرة والصغيرة والوسط ، والمرأة فى كل طور من أطوارها لها مشاكلها • وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية وأجوبته الدائمة بما يتفق مع كل طور ، ونقل هذا كله الى الأمة الاسلامية مما تقتضيه مهمة الرسالة التى جعلها الله عز وجل مبينة لكل شيىء مما يلزم الانسان •

٢ ـ ان المرأة فى الاسلام مكلفة كالرجل ، ولها وضعها الخاص الذى تختلف فيه عن الرجل • ووجود هذا العدد من النساء يساعد على نقل كل

ما له علاقة في المرأة الى الأمة الاسلامية • بحيث يكون أمهات المؤمنين أسوة النساء في العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربهن •

٣ ـ زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء النسوة الطاهرات وفيهن القرشية وغير القرشية وفيهن ذات الأصل اليهودى ، وفيهن من كان أبواها مهاجرين ، وفيهن من كان أبواها كافرين وقت زواجه منها ، ومنهن الصغيرة جدا ، ومنهن الكبيرة جدا حتى لا يرى المسلم حرجا في الزواج من أى امرأة أحلها الله له ما دامت متوفرة فيها شروط الحل • وحتى لا يرى المسلم حرجا في التعدد وهو كما سنرى في بعض الأحوال ضرورة لابد منها •

٤ ـ والرسول صلى الله عليه وسلم الذى افترض الله على المسلمين محبته ، قد استل بهذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لولا هذه الصلات من القرابة •

٥ ـ ان صلة الوصل في الغالب فيما له علاقة بالنساء كانت زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثرة زوجاته يجعل دائرة اتصال المسلمات به صلى الله عليه وسلم أكثر . وايصال الاحكام الى النساء متيسرا وكل واحدة منهن يألفها بعض النساء بجامع القرابة أو السن ، ولولا ذلك ما استطاعت امرأة واحدة أن تستوعب كل شئون النساء ولولا ذلك ما رأينا آلاف الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق زوجاته يتحدثن فيها عن آلاف الأمور كانت تبقى غامضة أو غير معروفة •

٦ ـ والإسلام قد أتى بمفاهيم جديدة ومثل كاملة مما له علاقة في المرأة وكان لابد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النساء لضمان استبقائها واستمرارها وتأكيدها وهى قلب لمفاهيم سائدة ، وأوضاع فاسدة ، فكان هذا العدد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم يحقق هذه الحكمة •

٧ ـ ثم كان هذا الزواج خلا لابد منه في بعض الحالات •

فأم سلمة المخزومية بنت سيد مخزوم المهاجرة الى الحبشة والى المدينة والتى استشهد زوجها ، وليس لهـا أحد وهى بنت زاد الراكب أبى أمية المخزومى وقد خطبها أبو بكر وعمر فرفضت • فهل تبقى وحدها أرملة وهى التى تحملت من أجل الاسلام ما تحملت ، انه ليس هناك حل أبر وأكرم من ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها الى نسائه وقد رضيت •

ورملة بنت أبى سفيان زعيم قريش بل العرب كلها ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتى أسلمت وهجرت أباها وقومها وهاجرت الى الحبشة مع

زوجها ثم تنصر زوجها وارتد ومات كافرا ، هذه تترك لمن ؟ أليست مكافأتها فى مكانتها أن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكم سيكون لهذا أثره فى نفس العدو الأكبر أبيها ٠

وزينب بنت جحش التى زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من متبناه زيد ولم تستقم حياتهما وأراد الله أن يهدم قاعدة التبنى عند العرب التى لا تقوم على أساس معقول فهدمها بشكل جذرى يوم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد ٠

وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها ، وقومها من أعز بيوت العرب عرضا ، وقد أسر رجال قومها ، وسبى نساؤهم ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفرجوا وأعتقوا كل من له علاقة بها ٠

وصفية بنت حيى كان أبوها ملك اليهود تقريبا وزوجها كذلك من ساداتهم وقد هلك أبوها وأخوها وزوجها وكان من سنته صلى الله عليه وسلم الرحمة بعزيز قوم ذل فضمها الى نسائه رحمة بها ، واستل ما بفؤادها من حقد كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة ، وبزواجه بعائشة وحفصة وثق الصلة أكثر بينه وبين أعظم رجلين بعده من أمته وهكذا ٠٠

٨ ـ وفتح بهذا الزواج صلى الله عليه وسلم لزعماء أمته أفقا جديدا لا ينبغى أن يغيب عنهم أثناء العمل المتواصل ٠ وهو تقوية الصلات مع الآخرين بواسطة الزواج ٠ وتوهين حقد المغلوبين بهذه الواسطة ، وقد رأينا المسلمين استفادوا من هذا الجانب استفادة كبيرة ٠

٩ ـ ثم هو بهذا الزواج وبسلوكه العملى العادل يبين الطريق الصحيح للسلوك الذى ينبغى أن يسلكه من تعددت زوجاته ، بحيث لا تختل قيم الحياة ، ولا تشعر المرأة بعذاب الظلم ، ويعرف النساء على حقوقهن وحدود هذه الحقوق ٠

وبظهور هذه الحكم وواقعيتها التى ذكرناها والحكم التى لم نذكرها نرى أن هذا الزواج أدل على النبوة ٠

وسترى هذا أوضح عندما ندرس سيرته معهن صلى الله عليه وسلم

ـ ٤ ـ

رأينا أن كل امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى زواجها مصلحة وحكمة وخلق عظيم وانسانية عالية ، تلمح بها تصرفات

النبوة ومثاليتها وأخلاقيتها ، وسنرى فى هذه الفقرة ونحن نستعرض الخطوط العريضة لسيرته معهن صلى الله عليه وسلم • أن كل خط من هذه الخطوط دليل على النبوة وأرقى أمثلة الأسوة •

١ ـ أول هذه الخطوط العدل فى السكن والنفقة والكسوة والمبيت والزيارات والوقت • كان بينهن الجميلة جدا والكبيرة والشابة والعادية الجمال ، وما كان يصرفه شيء من الميزات عن العدل ، لكل واحدة منهن ليلة ، واذا زاد احداهن زار بعد ذلك جميعهن وحتى وهو فى مرضه الأخير وهو أحوج الى الاستقرار فى بيت واحد لم يرض أن يستقر فى بيت عائشة الا بعد أن أذن له الجميع بذلك • ومع هذه الدقة فى العدل كان يستغفر الله من عدم عدله فى المحبة • اذ لا سلطان له على قلبه فيها ، بل السلطان لله فكان يقول :

« اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك » •

وكان اذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه • قالت أم سلمة « لما تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام عندى ثلاثا وقال : انه ليس بك هوان على أهلك • ان شئت سبعت لك وان سبعت لك سبعت لنسائى » •

وعن أنس ، من السنة اذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعا ثم قسم واذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا ثم قسم •

٢ ـ وثانى هذه الخطوط : التكافؤ فى الانسانية • فمن سنن الاسلام أن المرأة كالرجل فى الانسانية الا أن زوجها رئيسها **« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة »** وهذا شيء غير مألوف لا عند العرب ولا فى زمان نزول الاسلام ولكنه دين الله •

ومن أمثلة هذا التكافؤ فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية ، أنه كان ينزل على مشورة بعض نسائه وأنه كان يسمح لهن بمناقشته ، واذ اتزوج امرأة فبرضاها •

يوم الحديبية أمر المسلمين بأن يحلقوا وينحروا بعد الصلح ليتحللوا فبقوا واجمين فدخل على زوجه أم سلمة وهو متأثر فسألته ، فأخبرها فقالت : يا رسول الله أتحب ذلك ؟

اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك • فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، فلما رأى المسلمون ما صنع النبى

صلى الله عليه وسلم زاح عنهم الذهول نقاموا عجلين ينحرون هديهم • ويحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل الآخر •

وقال عمر : فتغضبت يوما على امرأتى فاذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى فقالت : ما تنكر أن أراجعك فوالله ان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وتهجره احداهن اليوم الى الليل قال فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : نعم • قلت و وتهجره احداكن اليوم الى الليل ؟ قالت نعم • « قلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر » •

وقال أنس فى الحديث عن صفية : « فكان صلى الله عليه وسلم يحوى لها وراءها بعباءة ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رضى الله عنها رجلها على ركبته حتى تركب » •

فاذا ما عرفت أنه فى عصر الفروسية فى أوروبا الذى يعتبر العصر الذهبى للمرأة ما كانت تجرؤ امرأة على أن تقدم مشورة لزوجها • أدركت أن تصرف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس وليد بيئته ولا زمانه وانما هو تصرف الأنبيـــاء •

ينقل العقاد هذه الحادثة ويعلق عليها من كتاب لغربى يتحدث عن المرأة فى عصر الفروسية قـــال :

يروى (أى صاحب الكتاب) فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت الى قرينهـــا الملك بيبين تسأله معونة أهل اللورين ، فأصغى اليها الملك ثم استشاط غضبا ولطمها على أنفها بجمع يده • فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول « شكرا لك • ان أرضاك هذا فأعطنى من يدك لطمة أخرى حين تشاء » •

ولم تكن هذه حادثة مفردة ، لأن الكلمات على هذا النحو كثيرة ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة ، وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت فى عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة » •

ولكن المظهر الأعظم من مظاهر هذا التكافؤ • أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يستنكف داخل بيته أن يقوم بحاجته ، وأن يخدم نفسه ، بل انه كان يقوم أحيانا بحاجة أهله ، وكان يقول :

« خدمتك زوجتك صدقة » ، واذن فقيام المرأة بشأن البيت ليس عارا يترفع عنه الرجل ، بل هو كمال يتطاول اليه الرجل ولا يأنف ، وكيف يأنف المسلم وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم •

٣ ـ والمرأة تحب من زوجها أن يكون جميلا متجملا ، وأن يقضى حقها الجنسى ، وأن يكون لطيفا معها مؤنسا لهـا ، وهذا كله خط آخر من خطوط معاملة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأزواجه ٠

فقد كان أجمل الناس وكان مع هذا الجمال أنيقا ، لا يطيق ما يتنافى مع هذه الأناقة مع بساطة المظهر وكان يقول : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فان بنى اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » ٠ ويقول « فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ثم اذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها » وكان يفعل هذا كله وأكثر منه فقد ورد فى وصفه اذا خلا مع أهله :

« كان ألين الناس ضحاكا بساما » ٠

« كان أفكه الناس مع نسـائه » ٠

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن احدى عشر ٠ قيل لأنس وكان يطيقه ؟

قال : كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين فى الجماع » ٠

وكان من آداب الاسلام أنه اذا كان للرجل زوجة أن يعفها ٠ أى أن يجامعها حتى لا تشعر بحاجة الى الرجال ٠

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته اذ أنها الضعيفة تحت يده ، الدائمة العشرة له ، فكان من كلامه « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لاهلى » وما ضرب امرأة قط وكان يؤنب من يضرب ٠

« أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره » ٠

٤ ـ والخط العريض الرابع فى معاملته لزوجاته حسن سياستهن وتأديبهن :

كن يغرن وكان يتحمل هذه الغيرة الا أن تخرج عن الخط السوى فيؤدب :

تقول عائشة رضى الله عنها : ما رأيت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول اللهصلى الله عليه وسلمطعاما وهو فىبيتى ، فأخذنى أفكل ـ أىقشعريرةـ فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الاناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال اناء مثل اناء وطعام مثل طعام ٠

وكان يدارى قلوبهن حتى تصفو ٠ تقول صفية : وما كان أبغض الى من رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل أبى وزوجى فما زال يعتذر الى وقال : يا صفية : ان أباك ألب على العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسى ٠

وكن يأخذن حريتهن في الكلام فيسمع ويرد ويؤدب :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ لخديجة ذكراها بشكل منقطع النظير فهو آية الوفاء في دنيا المروءة وشان من وفائه لها أنه يبر كل امرأة كانت لهـا صلة بخديجة وأنه كان يذكرها بكل خير حتى أن عائشة لم تغر من امرأة كما غارت من خديجة وهي متوفاة قالت له مرة :

خديجة خديجة لكأنما ليس في الأرض امرأة الا خديجة • فتركها فترة ثم عاد وأمها أم رومان عندها فقالت له أمها : يا رسول الله مالك ولعائشة : انها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتبا وهو يقول لهـا :

ألست القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة الا خديجة ؟

وقالت له مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منهـا فأسكتها قائلا :

« والله ما أبدلني الله خيرا منها • آمنت بي حين كذبني النـاس ، وواستني بمالها حين حرمني النـاس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » •

وقالت : دخل علي يوما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أين كنت منذ اليوم ؟ قال يا حميراء كنت عند أم سلمة • قلت ما تشبع من أم سلمة فتبسم ثم قلت يا رسول الله ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين احداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى ؟ قال : التي لم ترع قلت فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك كانت عند رجل غيري فتبسم عليه الســلام •

وكن يمزحن فيشاركهن سرورهن •

أخرج أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحريرة قد طبختها له فقلت لسودة رضي الله عنها والنبي صـلى الله عليه وسلم بيني وبينها : كلي فأبت فقلت لتأكلين أو لألطخن وجهك فأبت فوضعت يدي في الحريرة فطليت وجهها فضحك النبي صلى الله عليه وسـلم فوضع بيده لها وقال لها : الطخي وجهها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لهـا •

وفي رواية فخفض لها ركبته لتستقيد مني فتناولت من الصفحة شـيئا فمسحت به وجهي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك •

٥ ـ والخط العريض الخامس أنه صلى الله عليه وآله وسلم رفعهن الى أخلاق النبوة ولم يستطعن أن يحدن به عن طريقه ، وأعظم حادث يصور لنا هذا الوضع هو حادث تخييرهن اذ طلبن أن يوسع عليهن في المعيشة والنفقة ، وكانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعراض عن الدنيا وطلب الآخرة ،

فكانت النتيجة أن خيرهن بين البقاء عنده ، والرضى على هذه الحياة الهادفة الى اليوم الآخر . أو الطلاق ، وأمرهن بيدهن ، وهذا غاية العدل وغاية الحزم.

وهذه هى القصة كما يرويها بعض الصحابة :

أخرج أحمد عن جابر رضى الله عنه قال :

ـ أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ببابه جلوس والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبى صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو صلى الله عليه وسلم ساكت فقال عمر لأكلمن النبى لعله يضحك فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبى حتى بدت نواجذه وقال : هن حولى يسألننى النفقة ، فقام أبو بكر الى عائشة ليضربها وقام عمر الى حفصة كلاهما يقولان :

تسألان النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال : « انى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك قالت وما هو ؟ قال فتلا عليها **« يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » .**

قالت : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت الا أخبرتهـــا .

وروى أحمد من حديث طويل عن ابن عباس عن عمر قال :

فقلت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم فتغضب على امرأتى يوما فاذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى فقالت :

ما تنكر أن أراجعك فوالله ان أزواج رسول الله ليراجعنه وتهجره احداهن اليوم الى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر ، أفتأمن احداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فاذا هى قد هلكت . فتبسم رسول الله . فقلت يا رسول الله فدخلت على حفصة فقلت : لا يغرك ان كانت جارتك

أوسم وأحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك فتبسم أخرى فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟

قال : نعم ٠

فجلست فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر الا أهبة (جلودا) ثلاثة فقلت : أدع يارسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالسا ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ٠

فقلت : استغفر لى يا رسول الله ٠

وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل ٠

وفى كل ما نقلناه لك من هذه الخطوط تجد الزوج المثالى والقدوة العليا فى كل أمر ٠ ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذه الفقرة أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان عنده هذا العدد من النساء ، والذى كان يقوم بواجبه تجاههن ، والذى كان يعطيهن من ذاته ما رأينا ٠ هو الذى كان يقوم بالأعباء الضخمة التى لم يتحمل مثلها رجل غيره ٠ من عبادة الى سياسة الى قتال الى تدبير أمر ، ومن عادة الناس أن يشغلهم شىء من هذا عن أهليهم ، ولكنه الكمال عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث تقوم الواجبات كلها ومع الواجبات غيرها ولا يؤثر القيام باحداها على غيره وذلك من دلائل النبوة والرسالة ٠

وأخيرا :

يقول العقاد : قال لنا بعض المستشرقين ان تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ٠

قلنا : انك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع دين تسع نساء ٠

ونحن قبل كل شىء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ، ويشعر بمتعتها : هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هى أعمق فى طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين ، والتقاء الذكر والانثى ، فهى الغريزة التى تلهم الحى فى كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى ٠

أرأيت الى السمك وهو يعبر الماء الملح فى موسمه المعلوم فيطوى ألوفا من الفراسخ ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟

آرأيت الى العصفور وهو يبنى عشه ويعود من تجربة الى [illegible] الى [illegible] الزهر وهو يتفتح ليغرى الطير والنحل بنقل لقاحه ؟

أرأيت الى سنة الحياة فى كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هى سنتها ان لم تكن هى سنة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة ان لم يكن على هذا السواء ؟

فحب المرأة لا معابة فيه ٠

هذا هو سواء الفطرة لا مراء ٠

وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططا فى طلابه ٠ فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطباع ٠

فمن الذى يعلم ما صنع النبى فى حياته ، ثم يقع فى روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟

من من بناة التاريخ قد بنى فى حياته ويعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية ، والدول الاسلامية ؟ ومن ذا الذى يقول أن هذا عمل رجل مشغول ؟

عم شغلته المرأة ؟

ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد فى مسعاه ؟

فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب ٠ ورسالة محمد اذن هى الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة ، ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها ، فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة ، فيما يخاطب به الناس فى عامة العصور ٠ وأعجب شىء أن يقال عن النبى أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها ٠

* * *

نساء محمد يشكين قلة النفقة والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب اللذات ٠

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟ أما كان عليه يسيرا أن يفرض لنفسه ولأهله من الانفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون أن ارادة الرسول من ارادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال أنه كان يفرط فى ميله الى النساء ؟

هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟ لم يكلفه شيئا من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون . بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات فى طعامه ومعيشته وفى ميله الى نسائه . فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لهـا أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة فى العيش قد ينالها أصغر المسلمين ؛ ولا شك فى قدرة النبى عليها لو أراد .

* * *

وهكذا نبحث عن الرجل الذى توهمه المشهرون من مؤرخى أوربا فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم واهم .

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه ؟ .

ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التى يتحلين بهـا لعينيه ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه .

ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف والقناعة على ارضاء نسائه بالتوسعة التى كانت فى وسعه ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه .

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه .. أقبح فلاح .

ويزيد فى غرابته أن الرجل الذى توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع . فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة .

كان معروفا من صباه الى كهولته ، فلم يعرف أنه استسلم للذات الحس فى ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما كان يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح .. بل عرف بالطهـر والأمانة واشـتهر بالجد والرصانة .. وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات .. كلا لم يقل أحد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يحصى ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل .

* * *

الا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ، ولم يذكروا الا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته ، ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه وذاك أنه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات ٠

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق فى غير مشقة عندهم ولا معابة ٠

نسوا أنه بقى الى نحو الخامسة والعشرين لم يعتسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور اليه بين الأسر وبين الفتيات ٠

ونسوا أنه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى نحو الأربعين اكتفى بها الى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين ٠

ونسوا أنه اختار أحسابا فى حاجة الى التألف أو الرعاية ولم يختر جمالا مطلوبا للمتاع ٠

ونسوا ان الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ولم يجاوز حياة القناعة قط لارضاء نسائه ٠٠ ولو شاء لما كلفه ارضاؤهن غير القليل بالقياس الى ما فى يديه ٠

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام فلماذا نسوه ؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الاغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها ٠

* * *

ـ ٥ ـ

وبعد فهل رأيت زوجا مثل محمد صلى الله عليه وسلم بين الأزواج : انك لن ترى ، وكذلك لن ترى مثله أبا بين الآباء :

أخرج مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال : كان ابراهيم (أى ابنه الصغير) مسترضعا له فى عوالى المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وانه (أى البيت) ليدخن وكان ظئره قينا فيأخذه فيقبله ثم يرجع ٠

وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : رأيت الحسن والحسين (رضى الله عنهما) على عاتقى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت نعم الفرس تحتكما ٠ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ونعم الفارسان هما » ٠

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنه قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم حامل الحسن (رضى الله عنه) على عاتقه فقال له رجل : يا غلام نعم المركب ركبت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ونعم الراكب هو •

وأخرج الطبرانى عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على ظهره فكان اذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه أو أمسكهما قال : نعم المطية مطيتكما » •

وأخرج الطبرانى عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وهو يمشى على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين (رضى الله عنهما) وهو يقول :

« نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما » •

وأخرج الطبرانى عن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعينا الى طعام فاذا الحسين (رضى الله عنه) يلعب فى الطريق مع صبيان فأسرع النبى صلى الله عليه وسلم أمام القوم ثم بسط يده فجعل حسين يفر ههنا وههنا فيضاحكه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذه فجعل احدى يديه فى ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبله ثم قال : حسين منى وأنا منه أحب الله من أحبه • الحسن والحسين سبطان من الأسباط •

أرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جلاله العظيم كيف يعطى الأولاد حقهم وليس أولاده فقط بل كل الاولاد •

أخرج أحمد عن عبد الله بن الحارث رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف عبد الله وعبيد الله وكثير بن العباس (رضى الله عنهم) ثم يقول : من سبق الى فله كذا وكذا قال : فيستبقون اليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزم » •

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته وانه جاء من سفر فسبق بى اليه فحملنى بين يديه ثم جىء بأحد ابنى فاطمة الحسن أو الحسين (رضى الله عنهما) فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة •

وأخرج ابن عساكر أيضا عن عبد الله بن جعفر قال : مربى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألعب مع الصبيان فحملنى أنا وغلاما من العباس رضى الله عنه على الدابة فكنا ثلاثة •

وأخرج ابن عساكر أيضا : عنه قال : لو رأيتنى وقثما وعبد الله ابنى عباس رضى الله عنه ونحن صبيان نلعب اذ مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على دابة فقال : ارفعوا هذا الى فجعلنى أمامه وقال : ارفعوا هذا الى

مجعله وراءه وكان عبيد الله احب الى عباس من قثم فما استحيا من عمه أن حمل قثما وتركه قال : ثم مسح على رأسى ثلاثا كلما مسح قال : اللهم أخلف جعفرا فى ولده » ٠

ولا تحسب أن هذا الاكرام للصبيان فقط بل للبنات والصبيان :

وأخرج البخارى عن أبى قتادة قال خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم وأمامة بنت أبى العاص رضى الله عنها (أى بنت بنته) على عاتقه فصلى فاذا ركع وضع واذا رفع رفعها ٠

أخرج الطبرانى عن السائب بن يزيد (رضى الله عنه) أن النبى صلى الله عليه وسلم قبل حسنا رضى الله عنه فقال له الأقرع بن حابس لقد ولد لى عشر ما قبلت واحدا منهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا يرحم الله من لا يرحم الناس » ٠

وأخرج أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيجىء الحسن والحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال : يا نبى الله أطلت السجود فيقول : ارتحلنى ابنى فكرهت أن آعجله » ٠

❋ ❋ ❋

والشعب الذى كان يئد البنات ويرى أن موت البنات من المكرمات ، ولا يرى أحدهم البنت شيئا ، ويستقبل ولادتها هذا الاستقبال السىء الذى **وصفه القرآن ((واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ٠ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون)) ٠**

هذا الشعب هو الذى كان منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعامل بناته بما يلى ٠ فهل تراها بعد ما تقرؤها أخلاقا وليدة بيئتها ، أو أنها النبوة والتربية الالهية لصاحبها ، وحاشا أن تكون الا الثانية ٠

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت أحدا من الناس كان أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم كلاما ولا حديثا ولا جلسة من فاطمة (رضى الله عنها) قالت : وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا رآها قد أقبلت رحب بها ثم قام اليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها فى مكانه وكانت اذا أتاها النبى صلى الله عليه وسلم رحبت به ثم قامت اليه فقبلته ٠ وانها دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى قبض فيه فرحب وقبلها وأسر اليها فبكت ثم أسر اليها فضحكت » ولما سألتها

عائشة عما أسر لها رفضت أن تجيبها حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة « أسر الى فقال : انى ميت فبكيت ثم أسر الى فقال : انك أول أهلى بى لحوقا فسررت بذلك وأعجبنى » •

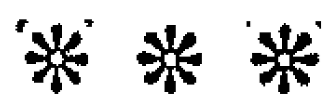
وماتت فاطمة بعد ستة أشهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وأخرج الترمذى عن جميع بن عمير التيمى قال : « دخلت مع عمتى على عائشة رضى الله عنها فسئلت أى النساء كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت فاطمة • فقيل من الرجال ؟ قالت : زوجها ان كان ما علمت صواما قواما » •

وعن المسور بن مخرمة رضى الله عنه قال : « خطب على بنت أبى جهل وعنده فاطمة فسمعت بذلك فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك وهذا على ناكح ابنة أبى جهل فقام النبى صلى الله عليه وسلم فتشهد وقال : « أما بعد فانى أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثنى وصدقنى وان فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها والله لا تجتمع بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبنت عدو الله أبدا » قال فترك على الخطبة •

وفى رواية أخرى قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : ان بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن الا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فانما هى بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها » أخرجه الخمسة الا النسائى •

أرأيت برا أبلغ بالبنات من هذا البر وما ذكرناه نموذج والا فأى بنت من بناته الأربع كانت تلاقى من العطف والبر ما تلاقيه فاطمة رضى الله عنها • انها كمال الابوة فى أكمل نبى •



ولكن الشىء الأدل فى هذا الباب على أخلاق النبوة مع هذه المحبة أنه ما كان ليرضى لبنته أن تعيش الا كما يعيش أكثر الناس فقرا • ذلك طابع الحياة التى يريدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأهله ، حتى لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، وحتى تتمحص أنفسهم لله واليوم الآخر وتأمل هذه الأمثلة وتذكر أن أحب الخلق اليه بشهادة عائشة هى فاطمة •

« أخرج البيهقى فى الدلائل عن على قال :

خطبت فاطمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت مولاة لى : هل علمت أن فاطمة قد خطبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت لا :

قالت قد خطبت فما يمنعك أن تأتى رسول الله فيزوجك فقلت : وعندى شيء أتزوج به ؟ فقالت : انك جئت رسول الله زوجك قال : فوالله ما زالت ترجينى حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أن قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت فقال :

لعلك جئت تخطب فاطمة ٠

فقلت : نعم ٠

فقال : وهل عندك من شيء تستحلها به ٠

فقلت : لا والله يا رسول الله ٠

فقال : ما فعلت درع سلحتكها ؟ فوالذى نفس على بيده انها لحطمية ما قيمتها أربعة دراهم ، فقلت : عندى فقال : قد زوجتكها فابعث اليها بها فاستحلها بها فان كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وأخرج النسائى عن ثوبان :

فانتزعت فاطمة سلسلة فى عنقها من ذهب فقالت : هذه أهداها الى أبو حسن فدخل صلى الله عليه وسلم والسلسلة فى يدها فقال : يا فاطمة ، أيسرك أن تقول الناس : ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يدها سلسلة من نار ثم خرج فلم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فأعتقته فحدث رسول الله بذلك فقال : الحمد لله الذى أنجى فاطمة من النار » ٠

وأخرج البخارى ومسلم : قال على لابن أعبد ألا أحدثك عنى وعن فاطمة ؟ قلت بلى قال : انها جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها واستقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها (وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها) فأتى النبى صلى الله عليه وسلم خدم فقلت لو أتيت أباك فسألته خادما فأتته فوجدت عنده حداثا فرجعت فأتاها من الغد فقال : ما كان حاجتك ؟ وسكتت فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها وحملت بالقربة حتى أثرت فى نحرها فلما ان جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادما يقيها حر ما هى فيه فقال : اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك واذا أخذت مضجعك فسبحى ثلاثا وثلاثين واحمدى ثلاثا وثلاثين وكبرى أربعا وثلاثين فتلك مائة فهى خير لك من خادم فقالت : رضيت عن الله وعن رسوله ولم يخدمها » ٠

* * *

ان كمال محمد صلى الله عليه وسلم كزوج وكماله كأب ٠ كماله فى عدله

وفى رحمته وفى لطفه وفى أنسه ، وفى رعايته وفى حسن سياسته وفى استقامته ، وفى حمل أزواجه وأولاده على طريقه • كل هذا شاهد صـــدق ودليل حق على أنه المثل الأعلى للانسان فى كل جانب من جوانب حيــاته ، وانه القدوة العليا لكل انسان فى أى جزء من أجزاء تصرفاته •

والى الفقرة الثالثة :

٣ ـ المعلم والمربى الأول

ـ ١ ـ

لقد حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم مهمته الأساسية بقـــوله : « انما بعثت معلما » والقرآن الكريم ذكر هذه المهمة الأساسية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بصراحة فقال : **((هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة))** فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول التعليم والتربية • تعليم الكتاب والحكمة وتربية الأنفس عليهما ، وكان الجانب الاعظم من حياة رسول الله صلى الله عليه وسـلم مستغرقا بهذا الجانب اذ أنه هو الجانب الذى ينبع عنه كل خير ولا يستقيم أى جانب من جوانب الحياة سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو عسـكريا أو أخلاقيا الا به ولا يؤتى الانسان ولا تؤتى أمة ولا تؤتى الانسانية الا من التفريط فى العلم الصحيح والانحراف عنه • اما الى الجهل أو الى ما يضر علمه ولا ينفع •

فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها ، وبلا تربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه • تصبح أمة فوضوية تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة • ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر وعادات وتصورات تختـلف فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد •

والظاهرة التى نجدها فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم ان السـيد الرسول بدأ بتشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية • بحيث ينبت الفرد فيها عن صلته بأى عالم غير عالم هذه الامة ، من حيث العقيدة والسلوك فصهر أفراد هذه الامة انصهارا تاما • ثم أطلق هذه الامة فى اتجاه وحيد حدد فيه لكل فرد مهمته ، ورباه على أدائها ، وحدد للجميع المهمة الكبرى ، ورسم لهم الطريق ، موضحا لهم كل شىء فى كل جانب ، وقادهم فى هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضيا الى ربه ، فانطلقوا بعده لا غيروا ولا بدلوا فكان ما كان ولا زال • مما نشاهده من آثار المسلم العظيم الذى كلما نعثر أخذت بيده تعاليم محمد وتربيتـه فأنقذته وقذفت به الى الأمام •

وبعد فاننا نقول : ان كمال المربى يظهر :

١ – بمقدار ما يستطيع أن ينقل نفس الانسان وعقله من حالة دنيا الى حالة أعلى وكلما رقى بالانسان أكثر كلما دل ذلك على كماله أكثر ٠

٢ – فى سعة دائرة البشر الذين استطاع أن ينقلهم الى كمالهم الانسانى، فكلما كانت الدائرة أوسع كلما كان أدل على الكمال ٠

٣ – ثم فى صلاحية هذه التعاليم والتربية ، وحاجة الناس جميعا لها ، واستمرار ابتاء هذه التعاليم آثارها على مدى العصور ٠ بحيث لا يستغنى البشر عنها ، وبشهادة العدو والصديق والمؤمن والكافر ما بلغ أحد فى تاريخ البشرية ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم فى هذه الجوانب كلها حتى قال موير : « لم يكن الاصلاح أعسر ولا أبعد منالا منه وقت ظهور محمد ولا نعلم نجاحا واصلاحا تم كالذى تركه عند وفاته » ٠ وقالت دائرة المعارف البريطانية « لقد صادف محمد النجاح الذى لم ينل مثله نبى ولا مصلح دينى فى زمن من الأزمنة » ويقول بوزورث اسمث : « ان محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الاطلاق » ٠

ويقول هيل :

« ان جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا فى تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيرا عميقا فى حضارة عصرهم وأقوامهم ولكننا لا نعرف فى تاريخ البشر أن دينا انتشر بهذه السرعة ، وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الاسلام ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد ٠ لقد أخرج أمة الى الوجود ومكن لعبادة الله فى الأرض وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأصل النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لا تعرف غير الفوضى » ٠

هذه شهادة الدارسين ممن لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد أعماهم حقد صليبى موروث فشهدوا ولم يؤمنوا ٠ وما أغنانا عن شهادتهم وشهادة الواقع أمامنا على كل جانب من هذه الجوانب المذكورة آنفا وهاك آثار تربيته :

أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شرفوا برؤيته والايمان به عشرات الألوف ٠ من هذه الالوف من رافقه كل فترة البعثة ، ومنهم من رآه مرة فسمع منه حديثا ٠ واذا أنت أجريت مقارنة بين حياة هؤلاء قبل تلمذتهم على محمد صلى الله عليه وسلم وبين حياتهم بعده ، بين واقعهم

قبل ذلك وبين واقعهم بعده ، بين أعمالهم وتصرفاتهم قبل وبين أعمالهم وتصرفاتهم بعد • بين أهدافهم الأولى وأهدافهم الثانية • بين تصوراتهم عن الله والكون والانسان أولا وبين تصوراتهم ثانيا ، انك تخرج نتيجة المقارنة وأنت ترى النقلة البعيدة الكبيرة الواسعة التى نقل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء من طور الى طور ، من حضيض الى سمو لا يدانيه سمو آخر •

خذ مثلا شخصية عمر بن الخطاب فى الجاهلية تجده رجلا قبلى الفكر والطبيعة والعاطفة والتصور ، محدود الادراك ، همه فى الحياة : السكر واللهو والبطالة مع أصدقائه • ولولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعاش عمر ومات عمر وما أحس به أحد ولكنه ما أن يشرب كأس الاسلام من يد رسول الله حتى يصبح عمر المشرع العبقرى الفذ ، ورجل الدولة العظيم الكبير، ورمز العدل الذى لا يكون الا معه مع الحزم والرحمة ، وسعة الأفق وصدق الادراك وحسن الفراسة ••

عمر الذى أصبح ملء الدنيا سمعها وبصرها • ما كان ليكون شيئا لولا أنه تربى فى حجر رسول الله فأخذ منه العلم والحكمة والتربية •

عبد الله بن مسعود راعى الابل المحتقر المهان فى قريش ، الذى ما كان ليعرفه الا سيده ومن يستخدمه ، هذا الرجل النحيل القصير الحمش الساقين• ماذا يصبح بعد أن ربته يد النبوة ، يصبح الرجل الذى يعتبر مؤسس أكبر مدرسة فى الفقه الاسلامى والتى ينتسب اليها أبو حنيفة النعمان ، يصبح الرجل الذى يقول فيه عمر لأهل الكوفة : لقد آثرتكم بعبد الله على نفسى •

* * *

انك عندما تدرس شخصية الانسان قبل اتصالها برسول الله وبعد اتصالها تجد أن كل شىء فيها قد تغير وتجد كل طاقاتها وملكاتها قد انطلقت فى الطريق الصحيح • الطاقات الجسمية • والطاقات العقلية • والطاقات النفسية • والطاقات الروحية • والطاقات الوجدانية ، والمعنوية والأخلاقية • هذه الطاقات كلها انطلقت فى اطارها الصحيح وطريقها المستقيم • بحيث لا يستطيع انسان أن يقول ان طاقة ما معطلة عند أصحابه أو أنها تعمل عملا غير صالح •

طاقة العمل : ((ان الله يحب العبد المحترف)) •

طاقة المشاركة فى العمل العام :

((اذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وتبعتم أذناب البقر وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى تعودوا الى دينكم)) •

الطاقة الجنسية : ((تزوجوا الولود الودود)) ٠

الطاقة الجسمية : ((المؤمن القـــوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف)) ٠٠

ملكة حسن الهندام : ((فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة فى أعين الناس فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش)) ٠

طاقة الفكر والعلم : ((طلب العلم فريضة)) ((تفكر ســـاعة خير من عبـــادة)) ٠٠

انك لا تجد طاقة من طاقات الانسان الا وقد أطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقها الصحيح ، فأصبحت ترى من أصحابه العجب ، فى تكامل شخصياتهم عبادا زهادا شجعانا محاربين عادلين رحماء اداريين سياسيين حكماء مربين ٠ كل واحد منهم أمة ، وما أسهل عليه أن يقود أمة ، ولا أدل على ذلك أنه ندر واحد منهم لم يصبح أميرا بعد ذلك ولم يفشل واحـد منهم فى ما ولى من قيادات ٠

* * *

واذا أردت أن ترى مقدار ما رفع رسول الله النفس البشرية فاقرأ هـذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة :

أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنها أن فتاة قالت يعنى للنبى صلى الله عليه وسلم أن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى أبيها فجاء فجعل الأمر اليها فقالت : يا رسول الله انى قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للاباء من الأمر شيىء)) ٠

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعرف حقها ، وتريد أن تعرف الأخريات عليه ٠ وأصبحت تستطيع أن تشكو اذا هضم حقها ، وتجد من يسمع لها ويعطيها اياه ٠ متى كان ذلك لولا تربية الرسول صـلى الله عليه وسلم لهذه الأمة ؟

* * *

وأخرج الخمسة الا مسلما قصة الحب العجيبة تلك التى كانت بين العبد مغيث والعبدة بريرة التى أصبحت بعد ذلك حرة وانفصم ما بينهما من نكاح وكانت لا تحبه وكان مولعا بها يقول ابن عباس :

ان زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كأنى أنظر اليه خلفها يطـوف ودموعه تسيل على لحيته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعبـاس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغكثا ؟ فقال لهـا رسول الله :

لو راجعتيه ؟ فقالت يا رسول الله تأمرنى قال : لا انما أشفع قالت : لا حاجة لى فيه » •

أهناك أبلغ فى التربية من هذا الذى وصلت اليه هذه الأمة حتى نساؤها الاماء • أن أصبح كل فرد فيها يعرف حقه وواجبه ويجادل فيه ويقف عنده •

* * *

أخرج الرويانى وابن جرير وابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال :

كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فرددها ثلاث مرات • فقدمنا فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله ! قد بايعناك فعلى أى شيء نبايعك ؟

فقال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات الخمس ، وأسر كلمة خفية أن لا تسألوا الناس شيئا • قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يناوله اياه •

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يبايع ؟ فقال ثوبان رضى الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بايعنا يا رسول الله ! قال : على أن لا تسأل أحدا شيئا •

فقال ثوبان : فما له يا رسول الله •

قال : الجنة •

فبايعه ثوبان •

قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة فى أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه •

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أعطى النبى صلى الله عليه وسلم حكيم بن حزام رضى الله عنه يوم حنين عطاء فاستقله فزاده فقال : يا رسول الله ! أى عطيتك خير ؟ قال : الأولى • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا حكيم ابن حزام ! ان هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس وحسن أكلة بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس وسوء أكلة لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، قال : ومنك يا رسول الله ؟ قال : ومنى ! قال : فوالذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا أبدا •

قال : فلم يقبل ديوانا ولا عطاء حتى مات ٠

قال : وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اللهم انى أشهدك على حكيم بن حزام أنى أدعوه لحقه من هذا المال وهو يأبى ، فقال : انى والله ما أرزأك ولا غيرك شيئا ٠ كذا فى الكنز ج ٣ ص ٣٢٢ ٠

أرأيت هذه النقلة العظيمة من حالة الى حالة أخرى : عزة نفس لا مثيل لها وماذا فى طياتها من أبلغ ما تصل اليه التربية الاستقلالية التى لا يكون معها معنى من معانى الاتكال على الغير ٠

* * *

أخرج مالك عن عطاء بن يسار قال : أتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس واللحية فأشار اليه صلى الله عليه وسلم كأنه يأمره باصلاح شعره ففعل ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم : أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » ٠

وأخرج مالك والنسائى عن أبى قتادة قال :

قلت يا رسول الله : ان لى جمة أفأرجلها ٠

قال نعم وأكرمها ٠

فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين من أجل قوله صلى الله عليه وسلم نعم وأكرمها ٠

أرأيت هذه التربية التى لا تدع جانبا من الجوانب الا وتستوعبه دق أو كبر مما له علاقة بظاهر الانسان وباطنه ٠

* * *

قال أبو داود :

وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاصى وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب فسماه هشاما وسمى حربا سلما وسمى المضطجع المنبعث وأرضا تسمى عفرة سماها خضرة وشعب الضلالة سماها شعب الهدى وبنى الزنية سماهم بنى الرشدة وسمى بنى مغوية بنى رشد » ٠

أرأيت هذه اللفتات الجمالية التى يربى كل شىء فى الأمة بها على نسق منسجم مع الدعوة والرسالة وهذه التربية التى وصلت الى الاسماء ٠

* * *

وروى الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة ٠٠ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة ٠

ثم نزل فقال قوم :

من ترونه عنى بهؤلاء ؟ قال : الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والاعراب ، فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله : ذكرت قوما بخير وذكرتنا بشر فما بالنـــا ٠

فقال : ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا فقالوا : يا رسول الله : أنعظن غيرنا ؟ فأعاد قوله عليهم فأعادوا قولهم : أنعظن غيرنا ؟

فقال ذلك أيضا ٠ فقالوا أمهلنا سنة فأمهلهم سنة يفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (**لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصـوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**) ٠

أرأيت أبلغ من هذه التربية التى تفترض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يتعلم حتى تترقى الامة كلها وهل رأيت نصا قبل هذا النص فى العالم يفرض التعليم ويجعله الزاميا اجباريا ٠ ولعلك ستدهش فى الرســالة الثالثة عندما سترى مزيدا عن النظام التعليمى فى الاسلام عن كماله واستيعابه لكل حاجات الانسان الروحية والمــادية ٠

* * *

وأخرج الشيخان عن أنس قال : بينا نحن فى المسجد مع رســـول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد فقال أصـحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه مه ٠٠ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزرموه (أى لا تقطعوا عليه بوله) دعوه فتركوه حتى بال ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له :

ان هذه المساجد لا تصلح لشيىء من هذا البول والقذر انما هى لذكر الله تعالى والصلاة وقراءة القرآن وأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من المـاء فشـنه عليه (أى صبه) ٠

ضربنا هذا المثـال لنعرف مقدار الوعى الحضارى عند العرب ، اذ ما من انسان فى العالم يبول فى معبده ، ولكن العربى فعلها وكان موقف الرســول

صلى الله عليه وسلم منها موقف المربى الذى مهمته أن يجبر النقص الى الكمال ، وكان من آثار ذلك ما عبر عنه أحد قواد الفرس : اذ رأى المسلمين يصلون صفا واحدا منتظما فقال :

أكل عمر كبدى اذ علم هؤلاء مكارم الاخلاق • وما كان عمر هو الذى علمهم مع فضله ولكن الذى علمهم وعلم عمر هو رسول الله صلى الله عليه وسلم •

* * *

ولم تكن دائرة تربية الرسول صلى الله عليه وسلم محدودة بل شملت كل الجزيرة العربية • بترتيب وسائل هذه التربية ، فكان لا يكتفى من القبيلة باسلامها حتى يأتيه وفدها ، وكان يبقى الوفد عنده فى المدينة أياما تمتد كثيرا أحيانا • وخلال هذه الاقامة كان يصوغهم صياغة جديدة • سواء بتوجيهاته أو بالاقتداء به • أو بأمر أصحابه أن يعلموهم • حتى اذا ما أذن لهم بالرحيل أمر عليهم رجلا منهم وأمرهم أن يقوموا بعملية التربية والتعليم نيابة عنه ، وكان زيادة على ذلك يرسل أصحابه آحادا أو جماعات ممن فقهوا وربوا تربية عالية الى كل مكان ، ليقوموا بدور المربى • فكان من آثار ذلك أنه خلال سنوات معدودة لا تتجاوز عشرا • أصبحت الجزيرة العربية ـ وما أوسعها حتى لتكاد تكون قارة ـ واعية لدين الله ، مرباة مهذبة الى حد كبير ، تغيرت مفاهيمها الى أعلى ما يبلغ انسان من تصورات ، بعد أن كانت فى أدنى دركات الانحطاط الفكرى حتى ليعبد أحدهم تمرات صباحا ويأكلهن مساءا •

* * *

وكان القرآن حفظا وفهما وتطبيقا وسلوكا هو أداة هذه التربية العظيمة• وسنرى فى بحث المعجزة القرآنية كيف أن هذا القرآن أحاط بكل شىء • وفتح آفاق النفوس والعقول على كل مشهد • فلم يعد به خافيا على أحد ما ينبغى أن يأخذ وأن يدع ، ولم يبق معه سؤال بلا جواب ، ولم تبق حجة لمنحرف الا وقد دحضت فيه ، ولا شبهة على الاسلام وأهله الا كشفت به ، ولا جانب من جوانب الحياة الا وقد عرف الحق فيه منه •

والرسول صلى الله عليه وسلم كان همه أن يستوعب الناس هذا القرآن حفظا وفهما وتطبيقا • اذ على قدر ما يستوعبه أفراد الامة على قدر ما ترتفع أنفسها ، ويسمو تفكيرها ، وتتفتح آفاق الحياة أمامها ، ولذلك جعل مقياس الخيرية القرآن فقال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » •

وكان يختار للامرة أكثر الناس أخذا للقرآن حفظا وفهما وتطبيقا • وربى أصحابه على ذلك ، فكانت سياسة الخلفاء الراشدين بعده منصبة على

أن يبلغ الناس بالقرآن غاية الجد فيه ، والحرص عليه ، حتى قال عمر لجيش من جيوشه وقد أرسله : انكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالاحاديث فتشغلوهم جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله امضوا وأنا شريككم » •

ولم تمض فترة الا وأصبح القرآن على كل لسان ، وأصبح كثير من الناس وقد حفظوه كله ، فارتقت بذلك مدارك المسلمين كلها ارتقاء لا مثيل له سواء فى ذلك جوانب العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الادارة أو الاخلاق أو التشريع أو الحرب أو السلم أو العلم أو العمل • فترة بسيطة من الزمان واذا بالامة الامية لا يغلبها غالب فكرا أو حربا أو حضارة وكل ذلك أثر من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يمكن أن ينسب لسواه ، وحدث بذلك مرة واحدة فى تاريخ البشر أن الانسانية رأت أمة : الحق عندها يحكم القوة ، والزهد عندها ترافقه الشجاعة ، والعبادة عندها ترافقها الحكمة ، أمة ما رأت مثلها الدنيا لذلك فانها ما كادت تتعرف عليها حتى دخلت فى دينها •

أو ليس عجيبا أن البلاد التى فتحها هؤلاء الذين رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل أهلها فى الاسلام طوعا لا كرها وأخلصوا للدين الجديد حتى فدوه بالارواح والاموال والاولاد مع أن الاسلام أعطاهم حرية البقاء على دينهم الاول كل ذلك انما كان كأثر من الاعجاب برجال لهم دين ليس مثله بين الاديان ولا يوجد مثلهم بين الرجال •

* * *

وسنروى الآن حادثات ثلاثا يعرف بها مقدار النضج الفكرى الذى وصل اليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث جابهوا به كل الثقافات الاخرى غالبين ، وهو جانب من جوانب التربية المحمدية لهذه الامة : أول هذه الحوادث مقطع من مناقشة حاطب بن أبى بلتعة ــ رسول رسول الله الى المقوقس ــ مع المقوقس وثانيها خطاب العلاء الحضرمى للمنذر بن ساوى أمير البحرين التى كانت تشمل فى الماضى الكويت الحالية وقطر والبحرين والاحساء باسمائها الجديدة وثالثها مناقشة المغيرة بن شعبة لكسرى ورستم وهذه هى مرتبة :

١ ــ قال المقوقس لحاطب : ما منعه ان كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم » •

٢ ــ وقال العلاء الحضرمى لامير البحرين :

« يا منذر انك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة • ان هذه المجوسية شردين ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله ، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة •• ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر :

هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا الا تصدقه ، ولمن لا يخون الا تأمنه ، ولمن لا يخلف الا تثق به ، هذا هو النبى الامى الذى لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه • اذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر » •

وقد أسلم المنذر •

٣ ــ ولما أرسل سعد بن أبى وقاص الى كسرى وفدا يدعونه الى الاسلام كان من قصتهم :

أنهم استأذنوا على كسرى فأذن لهم وخرج أهل البلد ينظرون الى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال فى أرجلهم وخيولهم الضعيفة وخبطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعددها ، ولما استأذنوا على الملك يزدجرد أذن لهم وأجلسهم بين يديه ، وكان متكبرا قليل الأدب ــ ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما أسمها عن الاردية والنعال والسياط •

ثم كلما قالوا له شيئا من ذلك تفاءل فرد الله فأله على رأسه • ثم قال لهم : ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا ؟ فقال له النعمان بن مقرن رضى الله عنه :

ان الله رحمنا فارسل الينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة • فلم يدع الى ذلك قبيلة الا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه الا الخواص ، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكث • ثم أمر أن ينهد الى من خالفه من العرب ويبدأ بهم ففعل فدخلوا معه جميعا على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع اياه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين الاسلام • حسن الحسن وقبح القبيح كله • فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة (المقاتلة) وان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم • وان أتيتمونا بالجزى قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم •

قال فتكلم يزدجرد فقال :

انى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضـــواحي ليكفوناكم لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فان كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا ، وان كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فأسكت القوم •

فقام المغيرة بن شعبة رضى الله عنه فقال :

أيها الملك ، ان هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وانما يـــكرم الاشراف الاشراف ، ويعظم حقـــوق الاشراف الاشراف ، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك • فجاوبنى ، فأكون أنا الذى أبلغك ويشهدون على ذلك ، انك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع • كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فانما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس الا ما غزلنا من أوبار الابل واشعار الغنم • ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وأن يبغى بعضنا على بعض ، وان كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك • فبعث الله رجلا معروفا نعـرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، وبيته خير بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو نفسه كان خيرنا فى الحـــال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد ، أول ترب كان له الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئا الا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننـــا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله •

فقال لنـــا : ان ربكم يقول : أنا الله وحدى لا شريك لى كنت اذا لم يكن شيىء ، وكل شيىء هالك الا وجهى ، وأنا خلقت كل شيىء والى يصير كل شيىء ، وان رحمتى أدركتكم ، فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على الســبيل التى أنجيكم بها بعد الموت من عذابى ، ولاحلكم دارى دار السلام • فنشـــهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق • وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه ••

فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتى ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر ان شئت الجزية وأنت صاغر ، وان شئت فالسيف

أو تسلم فتنجو بنفسك • فقال يزدجرد : اتستقبلنى بمثل هذا ؟ فقال ما استقبلت الا من كلمنى • ولو كلمنى غيرك لم استقبلك به •

***

عرضنا هنا جانبا من جوانب تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة ، وسيمر معك جانب آخر فى فصل الثمرات ، وسيأتيك فى المبحث الثالث (عن الاسلام) الجوانب التفصيلية لمنهاج التربية والتعليم الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم للانسانية ، وسترى أنه ما ترك شاردة ولا واردة مما يحتاجه البشر فى أمر دين أو دنيا ، وقد أحاط به ذلك المنهاج العظيم ، الذى جعل الأمة الاسلامية عندما كانت واعية له أرفع أمة فى ميزان الحضارة ، ورفعت به أمم الغرب فكان من أثره ما هم عليه الآن ، وتخلت عنه الأمة الاسلامية فوصلت الى ما هى عليه الآن •

ونظن أننا بما ذكرنا حتى الآن كفاية للاقناع بأن العالم ما شهد ولن يشهد مربيا كمحمد صلى الله عليه وسلم • فعل ما فعل بامكانياته المحدودة ماديا ، وبشعب أمى عمليا ، وخذ التاريخ كله وسله هل استطاع مرب أو زعيم أن ينقل أمة بهذه الفترة المحدودة ، والامكانيات غير المتوفرة من الناحية النفسية والأخلاقية والفكرية والحضارية والعسكرية والسياسية ، الى معشار معشار ما نقل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته فى سنوات معدودات ؟ اللهم لا •

***

ونريد أخيرا أن نقرر حقيقة هى لئن شارك غير محمد صلى الله عليه وسلم محمدا صلى الله عليه وسلم فى بعض جوانب ربى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم البشر • فان رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده هو الذى وضع النفس البشرية على الطريق الصحيح ، أما غيره فلئن أصلح جانبا فعلى حساب جوانب ويبقى ما أصلحه من النفس البشرية ذرة من جبل • أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصلح النفس البشرية كلها حتى أعماق أعماقها وبهذا نقول :

انه فى الأصل لا يوجد مرب غير محمد صلى الله عليه وسلم • فقولنا انه المربى الاول وقدوة المربين لا يعنى أننا أعطينا لغير من سلك طريقه صفة التربية حاشا ، وانما هو لتقريب الأمور كى تتضح الحقائق وهذا بيان ما قلناه :

ان النفس البشرية كثيرة التعقيد كثيرة الشهوات فهى تحب المال والتملك وتود الحصول عليه من أقرب الطرق ، وتحب المتعة من تمتعها

بالجمال الى الخمرة الى ما بلذ • وقد تصل الأمور ببعض الناس أنهم يتمتعون بمرأى الدماء • وما يمتع هذه النفس تود الوصول اليه مهما كان نوعه ، وبأى طريق ، والنفس تحب السيطرة وتحب التحكم بالآخرين ، والترأس عليهم والارتفاع عن غيرها ، وليس عند النفس مانع من استغلال الآخرين وبخسهم حقهم •

والنفس لا تألف النظام بل الفوضى ، والانفلات من كل تكليف ومن كل قيـد •

والنفس حريصة على الحياة ، وتكره الموت حتى ولو كان الموت شيئا ضروريا ، ككونه لحرب عادلة ، والنفس بشكل عام تود أن يؤدى لهـا حقها وتود أن تتهرب من واجبها •

وهذا الذى أجملناه بعض ما فى النفس •

وأن تعطى أنفس البشر كلها شهواتها فذلك مستحيل • اذ كل انســان يحب الرئاسة • فهل يمكن أن يكون الناس كلهم رؤساء ؟ وأجمل امرأة فى العالم يتمناها زوجة كل انسان فهل يمكن أن تكون زوجة لكل البشر ؟

لذلك فالبشر كلهم مجمعون على أنه لابد من وضع حدود وقيود للنفس البشرية • تتمثل هذه الحدود والقيود بالآداب والأخلاق والعادات والقوانين ، وتربية الناس على ذلك •

والذى نراه ان بعض المربين ينجحون فى جانب ، ويفشلون فى جوانب ، فنجد زعيمانجح فى تربية قومه على التضحية ، ونجد آخر نجح فى تربية قومه على النظام ونجد آخر نجح فى تربية قومه على أداء الواجب ، ونجد آخر نجح فى تربية قومه على العمل ، ولكنك فى المقابل تجد أنه نسى بقية جوانب النفس البشرية ، فلم يفعل لهـا شيئا • هذه ناحية ، وناحية أخرى فان هؤلاء نجحوا فى هذا الجزء ، ولكن قد يكون هذا الشيىء الذين نجحوا فيه غير موضوع فى محله ، فالذى نجح فى تعويد شعبه على الطاعة قد تكون طاعته فيما لا ينبغى ، والذى نجح فى حمل قومه على التضحية قد يجعلهم يضحون فيما لا يستحق التضحية ، ولكن الظاهرة التى نراها فى تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ربى كل جوانب النفس البشرية وهذبها وجعلها على الصراط الصحيح • فما ترى جانبا مضيعا ، وما ترى تهذيبا فى غير محله ، ولا ترى بعد ذلك للنفس المسلمة تصرفا كان ينبغى ألا يكون •

رباها على التضحية فى محلها ، وعلى الفداء فى محله ، وعلى النظـام حيث يحسن النظام • وعلى الطاعة حيث تجمل الطاعة ، وعلى تحقيق المتعـة حيث تكرم المتعة ، وعلى التملك حيث يعدل التملك ، وعلى العبادة لله ، وحسن المعاملة للناس ، كل ذلك وأمثاله دون أن يطغى جانب على جانب •

أو ينسى جانب على حساب جانب ، أو تستعمل النفس فيما يقبح أن تكون فيه ، أو تنتقد عليه • وفى المبحث الثالث (الاسلام) بيان هذا بما لا لبس عليه •

فمحمد وحده صلى الله عليه وسلم هو مربى النفس البشرية ، وغيره لا يجوز أن يعطى هذه الصفة الا بالقدر الذى يتأسى فيه برسول الله صلى الله عليه وسلم •

❋ ❋ ❋

والى الفقرة الرابعة :

٤ ـ رجل الدولة الأول : سياسيا وعسكريا

دمجنا العمل السياسى والعمل العسكرى فى هذه الفقرة على اعتبار أن العمل العسكرى أثر عن العمل السياسى ومرتبط به ارتباطا كاملا لا ينفصل عنه ، وقد يكون ذروته فى بعض الحالات التى تكون فيها الحرب لابد منها ، ثم ان الامكانيات السياسية فى ادارة الحروب لا تنفصل عن الامكانيات العسكرية فى الادارة السياسية ، والرسول عليه السلام ، كان قائد المسلمين سياسيا وعسكريا ، وهو الذى سار بهم من نصر الى نصر حتى جعل مفاتيح العالم فى أيديهم مرات عديدة ولا زال باستطاعة المسلمين أن يسترجعوها اذا تتلمذوا مرة أخرى تلمذة كاملة على يديه عليه السلام •

على أنه وان ارتبط العمل السياسى بالعمل العسكرى • فان لكل مجال كلام ينفرد فيه • لذلك فاننا سنقسم الكلام فى هذه الفقرة الى قسمين • الأول فى الكلام عن الرسول عليه السلام سياسيا • والثانى عسكريا ، لنرى كيف أن الرسول عليه السلام فى كل كان فى القمة التى لا يرقى اليها أحد ، وهو الأمى الذى لا يعرف قراءة ولا كتابة ، مما يدل على أن المسألة هنا ربانية المبدأ والطريق والنهاية •

❋ ❋ ❋

القسم الأول : الرسول عليه السلام

القيادة السياسية العليا

ان نجاح القيادة السياسية يتوقف على ما يلى :

١ ـ على استيعاب هذه القيادة لدعوتها ، وثقتها بها وبأحقيتها ، وثقتها بانتصارها • وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو اليه ، بحيث تكون مواقفها كلها منسجمة مع هذه الدعوة ، وبحيث تكون هذه المواقف كلها لصالح الدعوة ، حتى لا يكون بيد أعداء الدعوة سلاحا فعالا من هذه المواقف ضد الدعوة نفسها •

٢ ـ وعلى قدرة القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغا واقناعا •

٣ ـ وعلى قدرة القيادة فى استيعاب المستجيبين للدعوة تربية وتنظيما وتسييرا •

٤ ـ وعلى وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها •

٥ ـ وعلى قدرة القيادة أن تعرف امكانية الأتباع ، وأن تستطيع الاستفادة من كل امكانياتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة • بحيث يأخذ كل منهم محله الصحيح •

٦ ـ وعلى قدرة القيادة أن تحل المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد •

٧ ـ وعلى أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة لكل الواقع • فتضرب ضرباتها السياسية بشكل محكم •

٨ ـ وعلى قدرة هذه القيادة أن تصل الى النصر والاستفادة منه ، وتطبيق مبادىء دعوتها تطبيقا صحيحا •

٩ ـ وعلى قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها احكاما يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد •

وما عرف التاريخ انسانا كمل فى هذه الجوانب كلها الى أعلى درجات الكمال غير محمد صلى الله عليه وسلم • مع ملاحظة أن كمالاته هنا جانب من جوانب كمالاته المتعددة التى لا يحيط بها غير خالقها ، وان كمالاته ونجاحه

واستقامة خطواته وانتصاراته وتوفيق الله اياه كل ذلك دليل أنه رسول الله الذى رباه ، فأحسن تربيته وأحاطه برعايته • ولنبدأ الآن باستعراض هذه الجوانب التسع فى سيرة رسول الله العملية لنرى برهان كل وكماله فيه. مع ملاحظة أن خطتنا فى هذه الأبحاث الاختصار والاشارة لا التفصيل :

١ ـ استيعابه عليه السلام لدعوته نظريا وعمليا وثقته بها وبانتصارها

اذا كان هناك انسان استوعب جوانب دعوته كل الاستيعاب ، ووثق بها وبمصيرها كل الثقة ، وعرف مضمونها كل المعرفة بداياتها ونهاياتها وأولها وآخرها ومقدماتها ونتائجها ، ولم يتزحزح عن جزء منها • بل الخطوة الثانية تأتى مكملة للخطوة الأولى وممهدة للخطوة التالية ، فذلك هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرسول عليه السلام كان واضحا تماما لديه ان منطلق دعوته هو ان الحاكم الحقيقى للبشر لا يجوز أن يكون غير الله • وان خضوع البشر لغير سلطان الله وحاكميته شرك ، وأن التغير الأساسى الذى ينبغى أن يتم فى العالم هو نقل البشر من خضوع بعضهم لحاكمية بعض، الى خضوع الكل لله الواحد الأحد ، وأن الامة التى تحمل هذه القضية بكل متطلباتها ، هى التى سيكون بيدها مفاتيح الحياة البشرية ، ولها قياداتها ومن هذه البداية ، وانسجاما معها ، يقوم كل شىء فى حياة البشرية ثانيا ، وحياة الأمة التى تحمله أولا ولننظر وضوح هذه الجوانب عنده صلى الله عليه وسلم فى بداية الامر ونهايته :

روى ابن اسحاق عن ابن عباس قال : لما مشوا الى أبى طالب وكلموه ـ وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشرافهم ـ فقالوا يا أبا طالب انك منا حيث قد علمت • وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه • فبعث اليه أبو طالب فجاءه فقال : يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا اليك ليعطوك وليأخذوا منك قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم • فقال أبو جهل نعم وأبيك وعشر كمات قال تقولون : لا اله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه فصفقوا بأيديهم » •

وروى ابن اسحاق عن الزهرى فى قصة عرض الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته على بنى عامر بن صعصعة ما يلى : ثم قال له : (أى بحيرة بن فراس) : أرأيت ان نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك

أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال (أى رسول الله) الامر لله يضعه حيث يشاء فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه » ٠

قال عدى بن حاتم :

بينما أنا عند رسول الله اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ٠٠ ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل فقال يا عدى هل رأيت الحيرة قلت لم أرها وقد انبئت عنها فقال : ان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا الا الله ٠٠ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز ، قال عدى فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز » ٠٠

وقد طالب المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة أن يطرد المستضعفين من المسلمين حتى يجلسوا اليه وفى كل مرة كان يتنزل قرآن ويكون موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الرفض ومن هذه ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود قال : مر الملا (أى السادة) من قريش على رسول الله وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار رضى الله عنهم ونحوهم وناس من ضعفاء المسلمين فقالوا (أى الملا مخاطبين رسول الله) أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أفنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم ؟ اطردهم عنك فلعلك ان طردتم اتبعناك قال فأنزل الله عز وجل :

« وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ٠ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداء والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين » ٠٠ وأخرجه أحمد والطبرانى ٠

* * *

من هذه الأمثلة نرى بشكل واضح استيعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوته وثقته بها وبانتصارها ، وانسجام مواقفه معها ، ووضوح طريقه أمامه ، ومعرفته بنهايات ما يريد منها ٠ فلم تضطرب بدايات مواقفه أبدا مع نهاياتها ، بل كل خطوة تأتى تكون مكملة لما قبلها ، وكل تشريع جديد يأتى متمما لما قبله ، حتى كملت شريعة الله ، وتم دينه وهذا كله ما كان ليتم لولا أن محمدا رسول الله ٠

وهذا أول ما يلزم العمل السياسى العام ٠ تجده كأكمل ما يكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

ويكفيك لتعرف معنى هذا الذى قدمناه · أن تعلم أن الناس يعتبرون العمل السياسى الاسلامى عملا مثاليا لا يستطيعه أى انسان ، فاذا ما عرفنا بعد ذلك أن الرسول عليه السلام استطاع أن يقود الناس بهذا الاسـلام · فلا نجد موقفا من مواقفه تناقض مع نصوص ومبادىء دعوته ، وعلمت أنه ما من زعيم سياسى ، الا ويضطر للتناقض ، اما لاحقا مع سابق ، أو دعوى مع عمل ، أو داخليا مع خارجى ، أدركت مدى الكمال فى القيادة المحمدية ، وخاصة اذا عرفت أنه لم يستطع أن يرتفع من حكام الأمة الاسلامية الى القيادة بالاسلام الكامل بحق الا أفراد منهم الخلفاء الراشدون الاربعة والثالث ثير عليه وقتل ظلما · والرابع خرج عليه وانتصر بعد ذلك خصمه السياسى · أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ساس الناس بالاسلام ولم ينزل بالاسلام الى مستوى الناس بل رفع الناس الى مستواه · على وتيرة واحدة ، ونسـق واحد ، فى الفكر والعمل ، من بداية الدعوة حتى انتقاله صلى الله عليه وسلم الى العالم الآخر ·

* * *

٣ ـ استطاعته عليه السـلام الاستمرار بدعوته تبليغا واقناعا

ان هناك شيئين أساسيين فى العبادة · يجب أن يتفطن لهما قادة الحركات السياسية الفكرية الجديدة :

(أ) الحرص على استمرار عملية التبليغ والاقناع ·

(ب) البصر الحكيم فى الموقف الذى يتخذ من الخصم ·

ان أى دعوة من الدعوات اذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليـغ والاقناع تجمد ، ثم تنحصر ثم تموت ، وأى دعوة من الدعوات لا تتخذ الموقف المناسب من الخصم ، تضرب ضربة ساحقة ثم تزول ، ولنضرب على هذا مثالا:

ان الهنود عندما أرادوا تحرير بلادهم من الانكليز · اختاروا لنفسهم طريق اللاعنف فى العمل · ومعناه عندهم أن لا يجابه الانسان القوة الظالمة بالعنف بل يتحمل ظلمها بصبر حتى تتغير هى عواطفها ، وترتدع عن غيها ، وفائدة هذا الطريق أنه يكسب صاحبه عطف الناس وعطف الرأى العام خاصة عندما يكون على حق ، وقد نجح الهنود أخيرا فى تحرير بلادهم ولم يكلفهم هذا الطريق ضحايا كثيرة · ولو أنهم سلكوا غير هذا الطريق لما استطاعوا وقتذاك أن يصمدوا أمام قوة بريطانيا فيكونون قد خسروا كثيرا وفشلوا أخيرا ·

وأنت عندما تدرس هذين الجانبين فى العمل عند رسول الله صـلى الله عليه وسلم تجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نجح فيهمـا نجاحا منقطع النظير ، فرغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه كما رأينـا فى

الفصل السابق ، ورغم العداء العنيف الذى ووجه به ، ورغم كل شىء فان عملية التبليغ لم تنقطع لحظة من اللحظات ، ولعل أهم نقطة تلمحها بعد التوحيد أثناء عرض الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته على القبائل ، هو الحاحه على قضية حماية الدعوة ، واستمرارها وتأديتها ، ولقد تجاوز الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما من المجابهة للمشركين ، دون انقطاع عن العمل ، مما يدل على مقدار نجاحه فى هذا الموضوع ·

وأما بالنسبة للامر الثانى فأنت تلاحظ حكمة مواقفه تجاه العدو فهو فى مكة : يصبر ويأمر أتباعه بالصبر ، ولو فعل غير هذا لخسر أتباعه قتلا · ولشغل بذلك فى قضايا الثأر · ولما أمكنه أن يتابع عملية التبليغ ، وكسب بهذه الخطة كثيرا من القلوب ·

فاذا ما انتقل الى المدينة رأيت تجدد مواقفه على حسب الظروف الجديدة من معاهدة ، الى سلام ، الى حرب ، الى ضربة هنا ووثبة هناك ، ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتا على عملية تبليغ الحق واقناع الناس بها ، على كل مستوى وبكل وسيلة ملائمة ·

واذا أردت أن تقدر مقدار النجاح المحرز فى هذا الطريق فانظر هذه المقارنة :

ان الحركة الشيوعية رغم وسائل القرن التاسع عشر فى الدعاية وتفرغ أتباعها فانها لم تستطع أن تحقق نصرا وتعمم الا بعد سبعين عاما من أول بيان أصدره زعيماها ·

ولكن الذى حدث بالنسبة للدعوة الاسلامية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عممها خلال ثلاث وعشرين عاما التعميم الذى يرافقه الاقتناع · ولهذا فاننا نقول مطمئنين : انه لم توجد حركة سياسية تقوم على أساس عقيدى نجحت كما نجحت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبفترة قصيرة وهذا كذلك يدلنا على أن الأمر أكبر من أن يكون بدون توفيق الهى لهذا الرسول الاعظم الفذ على مدى التاريخ بين الرجال ·

٣ ـ قدرته عليه السلام على استيعاب أتباعه تربية وتنظيما وتسييرا ورعاية

ان الدعوة العقيدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها من نواح ثلاث :

١ ـ ألا تقدر هذه الدعوة على أن تربى أتباعها تربية نموذجية ، بحيث يعطى أتباعها صورة حسنة عنها ، مما يؤدى الى نفور الناس منها كأثر عن

نفورهم من أصحابها • فيكون بذلك التابع حجة على الدعوة بدلا من أن يكون حجة لها ، وهذا يؤلب الرأى العام ضدها تأليبا خطيرا ويعطى الرأى العـــام حجة تلو حجة عليها • وعلى العكس من ذلك اذا ما ربى أفرادها تربية نموذجية حية فان الناس يؤمنون بها قبل ايمانهم بدعوتهم ، ويحبونهم قبل أن يعرفوا ما يدينون به ، وكم رجال ضربوا دعوتهم بسلوكهم مع أنهم يحملون دعوة عظيمـــة •

٢ ـ أن يدخل الدعوة ناس ولا تستطيع هذه الدعوة أن تسخر طاقاتهم فى سبيلها • فأمثال هؤلاء يكونون فى وضع مشلول فلا هم ضد الدعوة ولا هم يقدمون شيئا لها ، وفى هذه الحالة تكون قيادة الدعوة وحدها متحملة كل مسئولياتها ، والدعوة اذا كانت على امتداد دائم فان هذه القيادة ستصبح فى وضع لا يسمح لها أن تقوم بكل واجباتها ، وتكون المسألة هكذا • داعيـــة واحد ، ومدعوون كثيرون ، أما فى الحالة الأخرى فأنك تجد العكس ، عندما تستطيع قيادة الدعوة أن تسخر طاقات الأتباع لصالح الدعوة ، فان المسئولية يتحملها مجموع الأفراد ، فيكون كل فرد داعية نائبا مناب القائد ، وكل فرد يؤدى دوره • وفى النهاية فمهما توسعت دائرة الدعوة تبقى القيادة على قوة فى تحملها •

٣ ـ وعندما لا يحس الأتباع بالرعاية الدائمة ، والملاحظة التامة ، وعندما لا يوضعون فيما يحسن وضعهم به أو عندما يحسون بأنهم منسيون ، أو عندما لا يعرف الانسان محله ومهمته المكلف بها كل هذا يؤثر على نفسية الأتباع بالدعوة ويولد عندهم فتورا عنهـــا •

هذه النواحى الثلاث لابد من تلافيها لأى دعوة تقوم على أساس مبدأ معين وعدم تلافيها يعطل سير الدعوة ويقتلها •

وأنت عندما ترى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقيادته لأتباعه فى هذه الجوانب تجد تجنبه لهذه الجوانب ، ووجود عكسها بشكل لا مثيـــل له • بحيث لا تستغرب بعد كيف انتصرت هذه الدعوة ، وهذه الجماعة ، وكيف توسعت على مر الأيام •

ففى الجانب الاول رأيت البحث السابق عن تربية الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف أن الأمة الاسلامية كلها قد وسعت تربية ، وكيف ارتفع الافراد من طور الى طور بحيث أصبحوا نماذج يقتدى بها •

وفى الجانب الثانى ترى الحركية الدائمة التى كان يجعل أصحابه دائما يعيشونها • فاذا أسلم رجل رباه التربية الاسلامية ثم كلفه أن يقوم بأعبـــاء

الدعوة فى جهة من جهاتها ، أو يقوم بجزء من أعبائها ، وفى الجانب الثالث نرى دقة الرسول فى الرعاية والعناية والسهر على شئون الأتباع بشكل عجيب ، ولعل هذا الجانب هو الاحق بالتمثيل هنا لأن الجانبين الآخرين ممثل لهما فى غير هذا المقام !!

أخرج ابن اسحاق عن أم سلمة أنها قالت : لما ضاقت مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل اليه شيء مما يكره ، ومما ينال أصحابه • فقال لهم رسول الله : « ان بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده ، حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه » وقد وجههم مرتين الى الحبشة • مرة فى السنة الخامسة ، ومرة فى السنة السابعة ، حيث كان المسلمون مقدمين على أعظم مراحل الاضطهاد • مرحلة المقاطعة الشاملة •

وعندما قرر الرسول الهجرة الى المدينة ، وجه أتباعه كلهم قبله ، وبقى فى مكة حتى اذا لم يبق الا من له عذر خرج مهاجرا ، وأخرج أحمد عن شداد ابن عبد الله قال قال أبو أمامة : يا عمرو بن عبسة بأى شيء تدعى أنك ربع الاسلام قال : انى كنت فى الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيئا ثم سمعت عن رجل يخبر أخبار مكة ويحدث أحاديث • فركبت راحلتى حتى قدمت مكة ، فاذا أنا برسول الله مستخف واذا قومه عليه جراء فتلطفت له فدخلت عليه فقلت ما أنت ؟

قال : أنا نبى الله فقلت وما نبى الله •

قال : رسول الله • قال قلت الله أرسلك • قال : نعم • قلت : بأى شيء أرسلك قال : بان يوحد الله ولا يشرك به شيء وكسر الأوثان وصلة الرحم • فقلت من معك على هذا قال : حر وعبد (أو عبد وحر) واذا معه أبو بكر بن قحافة وبلال مولى أبى بكر • قلت انى متبعك قال : انك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ولكن ارجع الى أهلك • فاذا سمعت بى قد ظهرت فالحق بى قال فرجعت الى أهلى وقد أسلمت • فخرج رسول الله مهاجرا الى المدينة فجعلت أتخبر الأخبار حتى جاء ركبه من يثرب • فقلت ما هذا المكى الذى أتاكم ؟ قالوا أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك • وحيل بينهم وبينه ، وتركنا الناس سراعا • قال عمرو بن عبسة فركبت راحلتى حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه فقلت يا رسول الله أتعرفنى ؟ قال : نعم • ألست أنت الذى أتيتنى بمكة قال قلت بلى ••

هذه أمثلة ثلاثة تدلك على مبلغ دقة الرسول فى توجيه أصحابه بالشكل الذى يحمون فيه ويأمنون ، وكيف أنه لا ينسى أحدا منهم ، بل يستوعبهم

جميعا برعايته ، وكيف يعدهم للحظة المناسبة ، وكيف يسير كل واحد منهم بحكمة تناسب وضعه ، ولا ننتقل بك من هذا البحث حتى نضرب لك أمثلة ثلاثة أخرى على سهره على حاجات أتباعه الشخصية وتأمينها لهم :

ـ أخرج أحمد عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول والله ان كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع وان كنت لاشد الحجر على بطنى من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه ٠ فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته الا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمر عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته الا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمر أبو القاسم فعرف ما فى وجهى وما فى نفسى فقال أبا هريرة ، قلت له لبيك يا رسول الله فقال :

الحق واستأذنت فأذن لى فوجدت لبنا فى قدح قال : من أين لكم هذا اللبن فقالوا أهداه لنا فلان ـ أو آل فلان ـ قال : أبا هر قلت لبيك يا رسول الله قال : انطلق الى أهل الصفة فادعهم لى قال وأهل الصفة أضياف الاسلام لم يأووا الى أهل ولا مال اذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث اليهم منها واذا جاءته الصدقة أرسل بها اليهم ولم يصب منها قال : وأحزننى ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى به بقية يومى وليلتى وقلت : أنا الرسول فاذا جاء القوم كنت أنا الذى أعطيهم وقلت ما يبقى لى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال أبا هر خذ فأعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت الى رسول الله فأخذ القدح فوضعه فى يده وبقى فيه فضلة ثم رفع رأسه ونظر الى وتبسم وقال أبا هر قلت لبيك رسول الله قال بقيت أنا وأنت فقلت صدقت يا رسول الله قال : فاقعد فاشرب قال : فقعدت فشربت ثم قال لى اشرب فشربت فما زال يقول لى اشرب فأشرب حتى قلت لا والذى بعثك بالحق ما أجد له فى مسلكا قال : فناولنى القدح فرددت اليه القدح فشرب من الفضلة ٠

وأخرجه البخارى كذلك ٠

وأخرج أحمد عن ربيعة الأسلمى قال :

كنت أخدم النبى فقال لى يا ربيعة ألا تزوج قلت لا والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج وما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شىء فأعرض عنى ، ثم قال لى الثانية يا ربيعة ألا تزوج ؟ فقلت ما أريد أن أتزوج ما عندى ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلنى عنك شىء فأعرض عنى ، ثم رجعت الى نفسى فقلت والله لرسول الله أعلم منى بما يصلحنى فى الدنيا والآخرة

والله لئن قال لي ألا تزوج لأقولن نعم يا رسول الله مرني بما شئت . فقال لي يا ربيعة ألا تزوج فقلت : بل مرني بما شئت .

قال : انطلق الى آل فلان حي — من الأنصار كان فيهم تراخ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقل لهم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني اليكم يأمركم أن تزوجوني فلانة (لامرأة منهم) ، فذهبت اليهم فقلت لهم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني اليكم يأمركم أن تزوجوني ، فقالوا : مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا يرجع رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بحاجته .

فزوجوني وألطفوني وما سألوني البينة . فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حزينا . فقلت : يا رسول الله ! أتيت قوما كراما فزوجوني وألطفوني وما سألوني البينة وليست عندي صداق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بريدة الأسلمي اجمعوا له وزن نواة من ذهب .. قال : فجمعوا لي وزن نواة من ذهب فأخذت ما جمعوا لي فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم قال اذهب بهذا اليهم فقل لهم : هذا صداقها . فأتيتهم فقلت : هذا صداقها ، فقبلوه ورضوه وقالوا : كثير طيب ،
قال : ثم رجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حزينا فقال : يا ربيعة مالك حزين ؟ فقلت : يا رسول الله ما رأيت قوما أكرم منهم ورضوا بما آتيتهم وأحسنوا وقالوا : كثير طيب وليس عندي ما أولم . فقال : يا بريدة اجمعوا له شاة . قال : فجمعوا لي كبشا عظيما سمينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب الى عائشة (رضي الله عنها) فقل لها : فلتبعث بالمكتل الذي فيه الطعام . قال : فأتيتها فقلت لها ما أمرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : هذا المكتل فيه سبع آصع شعير لا والله لا والله : ان أصبح لنا طعام غيره خذه . قال : فأخذته فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما قالت عائشة ، قال : اذهب بهذا اليهم فقل لهم : ليصبح هذا عندكم خبزا وهذا طبيخا ، فقالوا : أما الخبز فسنكفيكموه وأما الكبش فاكفونا أنتم ، فأخذنا الكبش أنا وأناس من أسلم فذبحناه وسلخناه وطبخناه فأصبح عندنا خبز ولحم فأولمت ودعوت النبي صلى الله عليه وسلم .

— وأخرج أحمد عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي :

لا تدخلن عليكم جليبيبا ، ان دخل عليكم لافعلن ولافعلن .

قال : وكانت الانصار اذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي صلى الله عليه وسلم فيها حاجة أم لا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل

من الأنصار : زوجني ابنتك ! قال : نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين ! قال : اني لست أريدها لنفسي ، قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : لجليبيب ، قال : أشاور أمها ، فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ابنتك ، قالت : نعم ونعمة عين ، قال : انه ليس يخطبها لنفسه انما يخطبها لجليبيب ، قالت : لجليبيب : أنيه لجليبيب أنيه ، لا لعمر الله لا نزوجه ! فلما أن أراد ليقوم ليأتي النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية : من خطبني اليكم ؟ فأخبرتها أمها • فقالت : أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ! ادفعوني اليه فانه لن يضيعني ! فانطلق أبوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : شأنك بها ، فزوجها جليبيبا ، قال : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة له ،قال : فلما أفاء الله عز وجل عليه قال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : لا • قال : لكني أفقد جليبيبا ، قال : فاطلبوه • فوجدوه الى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه فقالوا يا رسول الله ها هو ذا الى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قتل سبعة ثم قتلوه • هذا مني وأنا منه ـ مرتين أو ثلاثا • ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ساعديه وحفر له ، ماله سرير الا ساعد النبي صلى الله عليه وسلم ثم وضعه في قبره ، لم يذكر أنه غسله ، قال ثابت فما كان في الأنصار أيم أنفق منها » •

ولعل في هذه الامثلة كفاية على ابراز مقدار رعايته لاتباعه واستيعابهم في كل الجوانب •

٤ ـ الثقة التي كان يتمتع بها عليه السلام عند أتباعه :

للثقة بين الناس وقائدهم أهمية عظيمة جدا عند أصحاب الفكر السياسي لذلك ترى في أنظمة الحكم الديمقراطية ، أن الحكومة تبقى حاكمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التي تعرفها ببعض الوسائل ، وقديما قال كونفوشيوس حكيم الصين : ان الحكومة ينبغي أن توفر لشعبها الثقة بها والحماية له ، بواسطة القوة والطعام والشراب وما يلزم • قالوا فان لم تستطع أن تؤمن هذه الأشياء الثلاثة قال تتخلى عن تأمين الطعام والشراب ، قالوا فان لم تستطع تأمين الاثنتين الأخيرتين قال : تتخلى عن تأمين القوة والحماية ولا تفرط في الثقـة » •

وهذا شيء معقول اذ ما دام الناس واثقين بحكومتهم ومتعاونين معها ، فانهم يستطيعون بالتالي أن يسدوا النواقص ، أما اذا فقدت الثقة : تلاشي كل شيء ، وفقدت الأمة قوتها وحمايتها وهذا شيء مجرب تاريخيا • ان فقدان الثقة يشل العمل السياسي ويميت حركة الامة ويضعف روحها المعنـوية ويضرب اقتصادها وبالتالي يهوي بها •

لذلك كان من أهم عوامل نجاح القائد السياسى سلامة ثقة الأمة به ومحبتها له ، فان هذا اذا وجد يعوض كل النواقص وكل الفراغات ، فاذا ما وضح هذا بشكل عام نقول :

ان تاريخ العالم كله لا يعرف مثلا واحدا يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم به :

ان ثقة الناس بالقائد الرسول ، كانت ثقة متناهية ، يكفى لادراكهـا أن ترى بعضا من مواقف الصحابة فى أدق وأصعب وأحرج الأحوال :

فى يوم العقبة حيث تم اللقاء بين الرسول صلى الله عليه وسلم والوفد الثانى للانصار كان من أمرهم :

قال العباس بن عبادة :

يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم •

قال : انكم تبايعونه على حرب الأحمر والاسود من الناس • فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ؟ فمن الآن فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة وان كنتم ترون أنكم وافوه بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الاشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة • قالوا : فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الاشراف » •

وقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله وان بيننا وبين الناس حبالا (أى أحلافا وعهودا) فلعلنا نقطعها ثم ترجع الى قومك وقد قطعنا الحبال وحاربنا الناس فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وقال : الدم الدم الهدم الهدم وفى رواية : بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم •

ثم أقبل أبو الهيثم على قومه فقال يا قوم هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهد أنه لصادق وأنه اليوم فى حرم الله وأمنه وبين ظهرى قومه وعشيرته فاعلموا أنه ان تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحدة فان كانت طابت أنفسكم بالقتال فى سبيل الله وذهاب الأموال والاولاد فادعوه الى أرضكم فانه رسول الله حقا وان خفتم خذلانا فمن الآن • فقالوا عند ذلك : قبلنا عن الله وعن رسوله • ما أعطيانا وقد أعطينا من أنفسنا الذى سألتنا يا رسول الله فخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه فقال أبو الهيثم : أنا أول من بايع •

وأخرج أحمد من حديث بيعة العقبة :

فقلنا (أي الأنصار) يا رسول الله علام نبايعك ؟

قال : تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة • فقمنا اليه وأخذ بيده أسعد بن زرارة رضي الله عنه وهو من أصغرهم فقال رويدا يا أهل يثرب فانا لم نضرب اليه أكباد الابل الا ونحن نعلم أنه رسول الله وان اخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف فاما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله • واما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله • قالوا :

أمط عنا يا سعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا » ••

من هذه النصوص يشعر الانسان بمقدار الثقة التي كانت تملأ قلوب هذا الرعيل الأول مع معرفتهم بما سيترتب على هذه البيعة من آثار مخيفة •

ومن مواقف مقدمات معركة بدر :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبا أصحابه :

ما ترون في قتال القوم ؟

فقام المقداد بن عمرو فقال :

اذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » ••

ثم تكلم آخرون ثم قال سعد بن عبادة :

ايانا يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها الى برك الغماد لفعلنا •

وقال سعد بن معاذ :

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ••

قال : أجل ••

قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يا رسول الله لما

أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا انا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك ما تقر به عينك فسر على بركة الله ٠

هذه المواقف ، وكل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه مواقف من هذا النوع تدلك على مقدار الثقة المتناهية التى كانت لرسول الله فى قلوب أصحابه ٠

والحقيقة أن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت من الأسر والقوة والنفاذ ، بحيث لا يملك من يخالطها الا أن يذوب فيها ، الا اذا كانت شخصيته معقدة ، ولعل فى قصة مولاه زيد بن حارثة ما يؤكد هذا المعنى ٠ اذ يأتى أبو زيد وأعمامه ليشتروه ويرجعوا به الى أهله حرا ولكن زيدا يختار صحبة محمد مع العبودية والغربة ٠ على فراقه ، مع الحرية ولقاء الأهل ، وهذه ظاهرة عجيبة أن يصارح زيد أهله بهذا ٠ وهو ليس صغير السن بل كان وقتذاك ناضج الفكر ، فكافأه محمد (كان ذلك قبل النبوة) أن حرره وتبناه ٠

ويكفينا ما ذكرناه فى هذا الباب ٠ فالسيرة وحياة الصحابة كلها شواهد على أن الثقة التى تمتع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أتباعه لم يعرف العالم لها مثيلا ٠

٥ ــ استطاعة القائد الاستفادة من كل امكانيات الأتباع العقلية والجسمية أثناء الحركة ، مع المعرفة الدقيقة بامكانية كل منهم ووضعه فى محله

ان عبقرية القيادة لا تظهر بشىء ظهورها بمعرفة الرجال ، ووضع كل فى محله ٠ واستنفاذ عقول الأتباع بالشورى ، واستخلاص الرأى الصحيح ، وفى كل من هذين كان الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة العليا للبشر ٠

ان الشورى فى فن السياسة عملية تستجمع فيها طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأى الصالح ، ويتحمل فيها كل فرد مسئولية القرار النهائى ، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة ٠ فيندفع نحو المراد بقوة ، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة ٠ ويبقى الانسان فيها على صلة بمشاكل أمته وجماعته ، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شورى بين المسلمين ، حتى يتحمل كل فرد من المسلمين المسئولية كاملة ولا يبقى مسلم مهملا ٠

والظاهرة التى نراها فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كقائد ٠ حبه

للشورى ، وحرصه عليها ، ومحاولته توسيع دائرتها ، واستخلاصه الرأى الأخير فى النهاية :

فبيل غزوة بدر استشار الناس فأشار المهاجرون ، فلم يكتف ، ثم استشار الناس فأشار الخزرج والأوس ثم اتخذ قراره الاخير فى الحرب حتى يمحو أى تردد عن أى نفس .

ولما عسكر المسلمون يوم بدر فى أدنى ماء جاء الحباب بن المنذر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال : يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل ، امض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتعسكر فيه ثم تغور ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملاه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى ونفذ صلى الله عليه وسلم ما أشار به .

وقبيل يوم أحد استشار الناس وأخذ برأى الأكثرية .

ويوم الاحزاب أخذ برأى سلمان الفارسى ويوم الحديبية أشارت عليه أم سلمة زوجته فأخذ برأيها .

انها القيادة التى لا تستكبر أن تنزل على رأى مسلم كائنا من كان ، ما دام الرأى سليما صحيحا ، والقيادة الصالحة هى التى تعمم الشورى حتى لا يبقى أحد عنده رأى الا قاله ، وخاصة فيما يكون فيه غرم ، بعد غزوة حنين جاءت هوازن مسلمة وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم سبيهم وثروتهم فقال لهم ان معى من ترون وان أحب الحديث الى أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟

قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين فأثنى على أن الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فان اخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين وانى قد رأيت أن أرد اليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه اياه من أول مال يفىء الله علينا فليفعل . فقال الناس :

قد طيبنا ذلك يا رسول الله فقال لهم : انا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم عادوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا » .

انها الشورى التى يأخذ فيها كل انسان حقه ولقد علم المسلمون من تبيهم هذا فأحسنوا القيام به حتى أن كان عمر بن الخطاب ليستشير المرأة فربما أبصر فى قولها الشىء يستحسنه فيأخذ به ٠

* * *

وأما معرفة الرجال ووضع كل فى محله المناسب له وتكليفه بالمهمة التى يصلح لها فكذلك لا يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيها ٠

ان أبا بكر وعمر كانا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقبهما الصحابة بالوزيرين له وكان يسمر معهما فى قضايا المسلمين ولما مرض صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن يصلى بالناس وهذا الذى جعل المسلمين يختارونه بعد خليفة ثم كان عمر الخليفة الثانى والناس يعرفون ماذا فعل أبو بكر وعمر يوم حكما الناس فهل يشك أحد أن تركيز الرسول صلى الله عليه وسلم على هاتين الشخصيتين كان فى محله وأنهما من الكفاءة فى المحل الأعلى وأن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما فى محله وهذان مثلان فقط والا فما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا الا ورأيت الحكمة فى هذا الاختيار ٠

يقول عمرو بن العاص فى قصة اسلامه وخالد بن الوليد :

فوالله ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى أمر حزبه منذ أسلمنا « وما أحد الا ويعرف كفاءة هذين الرجلين من آثارهما بعد ٠

عندما أتى وفد بنى تميم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا :

يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ٠

قال : لقد أذنت لخطيبكم فليقل فقام عطارد بن حاجب فقال فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس الخزرجى أن يرد عليه فرد ثم قام شاعر بنى تميم فقال فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت أن يرد فغلب خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبهم وشاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعرهم ٠

لكل مقام رجال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر الخلق فراسة فى اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب ٠

ولعل فى قصة نعيم بن مسعود بالغ الدلالة على ما قلناه :

كان نعيم بن مسعود حسن الصلة بكل القبائل المعادية للمسلمين يوم الأحزاب سواء فى ذلك يهود بنى قريظة أو قومه أو قريش ٠٠ وفى أحلك

اللحظات أيام الأحزاب أسلم نعيم وقد أصبح المسلمون بين بنى قريظة فى الداخل والمشركين بعد الخندق واذا أتى المسلمون من قبل قريظة لم يعد يصلح خط دفاع المسلمين واضطروا للدخول فى معركة مفتوحة ليست متكافئة ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أسلم نعيم يكلفه ألا يعلن اسلامه وأن يقوم بعملية تخلخل صف العدو ٠

يقول عليه السلام لنعيم :

انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة ورجع نعيم وكان من أمره ما سنقصه عليك مما يشهد أن اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موفقا غاية التوفيق :

خرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال : يا بنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم ٠

قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ٠

فقال لهم : ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ٠ البلد بلدكم ٠ فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه الى غيره ٠ وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ٠ وقد ظاهرتموهم عليه ٠ وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ٠ فليسوا كأنتم فان رأوا نهزة أصابوها ، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ٠ ولا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ٠ فقالوا له : لقد أشرت بالرأى ٠

ثم خرج حتى أتى قريشا : فقال لأبى سفيان ومن معه : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا وانه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى ٠ فقالوا : نفعل ٠

قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ٠ وقد أرسلوا اليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ؟ ثم نكون لك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ٠ فأرسل اليهم أن نعم ٠ فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا ٠

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان انكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس الى ٠ ولا أراكم تتهموننى ٠ قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ٠

قال : فاكتموا عنى ٠

قالوا : نفعــل ٠

ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ٠

وحذرهم ما حذرهم ٠٠

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنع الله ورسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤس غطفان الى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام فقد هلك الخف والحافر ٠ فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه ٠ فأرسلوا اليهم أن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم ٠ ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدا معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ٠ حتى نناجز محمدا ٠ فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ٠ ولا طاقة لنا بذلك منه ٠

فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفــان : والله ان الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فارسلوا الى بنى قريظة : انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا ٠ فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا ٠ فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذى ذكر لكم نعيم لحق ما يريد القوم الا أن يقاتلوا ٠ فان رأوا فرصة انتهزوها وان كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم ، وهكذا أفلح المسلمون فى فصم عرى التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم ٠

٦ ـ قدرته الكاملة عليه السلام على حل المشاكل الطارئة

ان الدعوات والتنظيمات السياسية التى تقوم على أساسها ، كثيرا ما تضرب بسبب مشكلة طارئة لا تستطيع القيادة أن تحلها حلا موفقا ، مما يؤدى الى انقسام أصحابها أو ضربها والقضاء عليها ، وكلما كانت القيــادة أقدر على حل المشاكل كلما كان ذلك أضمن لنجاح الدعوة ٠

وقد يحدث أن بعض القيادات تحل المشاكل حلا غير مشروع فتستعمل القوة مع أتباعها ، فتبيد المعارضين أو تسجنهم أو ٠٠ كما نرى كثيرا من هذا فى عصرنا الحاضر ٠ الا أن الظاهرة التى لا مثيل لها فى تاريخ القيــادات العالمية انك تجد قدرة لا مثيل لها على حل المشاكل بكل بساطة عند رســول الله صلى الله عليه وسلم هذا مع سلوك الطريق الألطف مع الاتباع ٠ والذى

عرف العرب عن كثب يدرك أى قيادة هذه قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى استطاعت أن تشق الطريق بأقل قدر ممكن من المتاعب ٠

انه لا توجد أمة فى العالم أكثر مشكلات من الأمة العربية ، اذ العوامل النفسية التى تثير المشاكل كثيرة جدا ، فكلمة قد تثير حربا ، وجرح كرامة قد يؤدى الى ويلات ونظام للثارات ، وشعور بالولاء ، وعواطف متأججة ، وعصبية عارمة وجرأة نادرة وقسوة وصلابة وعدم انضباط ٠٠ وكل واحدة من هذه تحتاج الى قيادة تتمتع بكفاءة منقطعة النظير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم القائد الفذ الذى استطاع أن يدير أمر هذا الشعب القوى المراس ويحل كل مشاكله بكل بساطة وهذه أمثلة على حلوله السريعة للمشاكل :

١ ـ حله لمشكلة وضع الحجر الأسود قبل النبوة حين هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها وهذه رواية ابن اسحاق للحادث :

قال ابن اسحاق :

ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى حتى تحاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ٠ فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ، ثم انهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا ٠ فزعم (اذ يروى أن المشير على قريش مهشم بن المغيرة ويكنى أبا حذيفة) بعض أهل الرواية :

ان أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذ أسن قريشا كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا ٠

فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ٠ هذا محمد ٠ فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم هلم الى ثوبا ، فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوا جميعا ، ففعلوا ٠ حتى اذ بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه ٠

٢ ـ نموذج من حلوله السريعة لمشاكل المنافقين :

فى مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بنى المصطلق نزل

المسلمون على ماء فحدثت حادثة أراد عبد الله بن أبى أن يستغلها ليهدم وحدة صف المسلمين وهو قديما رأس قومه فلنر ماهية الحادثة وكيف حلها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقول ابن هشام فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الماء وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهنى على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين • فغضب عبد الله بن أبى بن سلول ــ وعنده رهط من قومه ــ فيهم زيد بن أرقم غلام حدث ــ فقال : أو فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا : والله ما عدنا وجلابيب قريش الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم •

(جلابيب قريش : لقد كان المشركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين) •

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، فاخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه : لا ولكن أذن بالرحيل • وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها : فارتحل الناس •

وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله : ما قلت ولا تكلمت به ، وكان فى قومه شريفا عظيما •

فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، حدبا على ابن أبى بن سلول ودفعا عنه •

فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال :

يا نبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم : قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبى بن سلول • قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل ؟ قال : فأنت

يا رسول الله والله تخرجه منها ان شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ؟ ثم قال : يا رسول الله أرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فانه يرى أنك استلبته ملكا .

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما ، وانما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبى .

ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له بقعاء ..

ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم باذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذى أوفى لله باذنه . وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر أبيه فقال : يا رسول الله ، انه بلغنى انك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

وجعل بعد ذلك اذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

* * *

٣ ـ حله لمشاكل الهجرة :

ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة كانت هناك مشاكل تحتاج الى حل سريع :

(أ) قضية انسجام الناس بعضهم مع بعض وهم من قبائل شتى .

(ب) ايجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس فى المدينة وليسوا كلهم مسلمين فمنهم اليهود ومنهم المنافقون ومنهم المسلمون .

(جـ) حل المشكلة الاقتصادية اذ المهاجرون تركوا أولادهم ومساكنهم ، ومشكلة المهاجرين دائما مشكلة صعبة حتى بالنسبة للدول الحديثة ، ثم كان اليهود هم المسيطرين على السوق التجارية • اذ السوق الوحيدة فيهـا لهم ولنرى كيف حلت هذه المشاكل كلها بسهولة •

وقد حلت المشكلة الأولى والثالثة مع بعضهما على الشكل التالى :

ما كادت الامور تستقر بالمدينة حتى أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين سوقا ليستغنوا عن سوق اليهود ، وشرع بأمر الله سنة الاخاء فكل مهاجرى جعل له أخا أنصاريا ، وجعل هذه الأخوة أعمق من أخوة النسب فكانوا يتوارثون بها وحض الناس على الكرم والسخاء والايثار ، وصادف ذلك نفوسا ما عرف التاريخ أشرف منها ، ولا أرقى بعد الرسـل ، فكان من آثار ذلك الشىء العجيب •

روى البيهقى عن عبد الرحمن بن عوف قـال :

كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد : أيها الناس فقدموا لأنفسكم • تعلمن والله ليصعقن أحـدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ــ ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ــ ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم ، من استطاع أن يقى نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم وعلى رسول الله •

وروى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : انى أكثر الأنصار مالا فاقسم مالى نصفين ولى امرأتان فانظر أعجبهما اليك فسـمها لى أطلقها فاذا انقضت عدتها فتزوجها • قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك أين سوقكم • فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب الا ومعه فضل من أقط وسمن ••

ومن خبر الأنصار يوم هاجر اليهم الناس انهم كانوا يختصمون على المهاجر كلهم يريد أن يضمه الى نفسه حتى انه لم ينزل مهاجرى على أنصارى الا بقـرعة •

بهذه الروح التى بثها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أتباعه حلت مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء على الحل •

أما المشكلة الثانية وهى ايجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس اذ المجتمع

المدنى كان مؤلفا من الأوس والخزرج وبينهما عداء قديم ، واليهود وكانوا منقسمين على بعضهم ، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، وهم حريصون على أن يبقى النزاع بين الأوس والخزرج • ثم أتى المهاجرون وهم كذلك من عشائر كثيرة فكان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كتب أول وثيقة سياسية فى الاسلام بين هذه الأطراف كلها تمثل الدستور الذى يتعايش به هؤلاء جميعا وقد رضوا جميعا به :

قال ابن اسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم • انهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون (الربعة : الحال التى جاء الاسلام وهم عليها) بينهم • وهم يفدون عانيهم (العانى : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف من ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى (المعاقل : الديات ، الواحدة : معقلة) كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مولى مؤمن مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عظمة) ظلم ، أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن ايديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، الا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وأن المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول

دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط (أى قتلة بلا جناية منه توجب القتل) مؤمنا قتلا عن بينة ، فانه قود به الا أن يرضى ولى المقتول ٠ وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثا ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد صلى الله عليه وسلم ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، الا من ظلم وأثم فانه لا يوقع الا نفسه (أى يهلك نفسه) وأهل بيته ٠

وان ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، الا من ظلم وأثم فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وان لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان البر دون الاثم ، وان موالى ثعلبة كأنفسهم ٠

وان بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج أحد الا باذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، الا من ظلم وأن الله على أبر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم وان الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين ، الا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وأن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ٠

قال ابن اسحاق : وان البر دون الاثم ، لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وان الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب

دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، الا من ظلم أو أثم ، وان الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

٤ ـ حله لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة :

أثناء غزوة الاحزاب أعلن بنو قريظة نقضهم للعهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرروا الحرب وكان قصة ذلك كما يلى :

كان من جملة الرجال الذين ألبوا العرب حتى تجمعوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة حيى بن أخطب اليهودى فلما اجتمعت العرب عامة وحاصرت المدينة أتى حيى بن أخطب كعب بن أسد سيد قريظة ليقنعه بانهاء عهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشاركة فى الحرب ضده وكان كعب حتى تلك اللحظة غلقا أبوابه وحصونه وملتزما الوفاء بعهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

ولما طرق حيى بن أخطب باب كعب قال له كعب رافضا أن يفتح له الباب انك امرؤ مشؤوم وانى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه الا وفاءا وصدقا وبعد أخذ ورد سمح له كعب بالدخول فقال حيى :

- ويحك يا كعب جئت بعز الدهر وبحر طام ٠

قال : وما ذاك ٠

قال : جئتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومه وبغطفان على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم الى جانب أحد وقد عاقدونى وعاهدونى على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه ٠

قال كعب : جئتنى والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه يرعد ويبرق وليس فيه شيء ٠ دعنى وما أنا عليه فانى لم أر من محمد الا وفاء وصدقا ٠

ولكنه لم يزل به وببنى قريظة حتى أقنعهم بنقض العهد فأحضرت قريظة الصحيفة التى كتب بها الميثاق فمزقتها وبعث النبى من يستكشف له الأمر كسعد بن معاذ حليف بنى قريظة فى الجاهلية فقالوا له : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد وسبوا سعدا فقالوا له وهو سيد الأوس بكل وقاحة أكلت أير أبيك ٠٠

وكانت خيانة داخلية فى أحرج المواقف ، وغدرا لو أعطى ثمراته الخبيثة لاستؤصل الاسلام والمسلمون ، اذ به لا تعود للخندق فائدة ، ويتحطم خط دفاع المسلمين ، وتكون الكارثة ، انها خيانة جزاؤها بشكل طبيعى الاعدام ٠

وانتهت غزوة الأحزاب بانسحاب المشركين ثم أمر رسول الله صلى الله

عليه وسلم المسلمين للتوجه الى بنى قريظة لمعاقبتهم وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه وكانوا يعرفون أن الحكم فيهم سيكون القتل والصحابة كلهم يعرفون أن جزاءهم سيكون كذلك • وهذا هو الحكم الحق والعدل والذى نصت عليه توراة اليهود نفسها •.

وقبل أن يصدر الرسول صلى الله عليه وسلم حكمه تواثبت الأوس وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم العفو كما عفا عن بنى النضير ، اذ بنو قريظة كانوا حلفاء الأوس فى الجاهلية ، وبنو النضير كانوا حلفاء الخزرج ، والاوس والخزرج كانتا تتنافسان فى كل شىء ، واذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم أمام معارضة من قسم كبير من أصحابه فى قضية حساسة هى قضية تنفيذ عقوبة يستحقها مجرمون فكان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ما هذه قصته كما يرويها ابن هشام حيث حكم سيد الأوس فيهم وسيد الاوس هو الذى عانى ما عانى من بنى قريظة يوم غدروا ، وسيد الأوس ما كان يحكم الا بما استحق هؤلاء فرضيت الاوس بتحكيم سيدها وحكم بالعدل فى أمرهم وهو القتل جزاء خيانتهم ورضيت الأوس :

يقول ابن هشام :

فلما أصبحوا (أى بنى قريظة) نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ،انهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت فى موالى اخواننا بالأمس ما قد علمت ـ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه • فسأله اياهم عبد الله بن أبى بن سلول فوهبهم له ــ فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم ؟ قالوا بلى • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك الى سعد بن معاذ •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رفيدة فى مسجده ، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين • وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب • فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم ، وكان رجلا جسيما جميلا ثم أقبلوا معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن (آن) لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم • فرجع بعض من كان معه من

قومه الى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل اليهم سعد ، عن كلمته التى سمع منه ٠

فلما انتهى سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا الى سيدكم ــ فأما المهاجرون من قريش فيقولون : انما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ٠

وأما الأنصار فيقولون : قد عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا اليه فقالوا : يا أبا عمرو ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ٠ فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ٠ أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم ــ قال : وعلى من ها هنا ؟ ــ فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجلالا له ــ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ٠ قال سعد : فانى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » ٠

ثم نفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم ٠

* * *

٥ ــ حله لمشكلة هزيمة أحد :

يوم أحد خسر المسلمون المعركة بسبب عدم تنفيذ مخطط الرسول صلى الله عليه وسلم للمعركة كاملا وهذا الفشل سيكون من آثاره ما يلى :

١ ــ ضعف الروح المعنوية عند المسلمين ٠

٢ ــ طمع القبائل العربية كلها بالمسلمين ٠

٣ ــ سقوط هيبة المسلمين العسكرية ٠

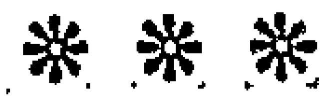
٤ ــ توجه قلوب الناس كلها للقضاء على المسلمين ٠

٥ ــ تنفس المنافقين واليهود وتربصهم الشر بالمسلمين ٠

٦ ــ وهناك احتمال بعد أحد أن يفكر المشركون وقد انتصروا ورجعوا أن يعودوا لاستئصال المسلمين من جديد وقد سنحت لهم الفرصة ٠

فكيف فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلافى هذه النتائج كلها :

انه ما كاد يصل الى المدينة حتى أمر المسلمين الذين دخلوا المعركة أن يستعدوا مباشرة للحرب رغم اعيائهم ثم خرج بهم تابعا آثار المشركين ولم يكد المشركون يسمعون بأنباء هذا الهجوم والطرد وراءهم الا وأعلنوا الرحيل الذى يشبه الهرب مع أنهم كانوا يفكرون أثناءها بالرجوع الى المدينة لاستئصال المسلمين فيها ولم يقع يومها حرب ولكن هذه العملية الجريئة غسلت آثار أحد كلها وبشكل سريع ٠ اذ كانت معركة أحد يوم السبت وكان خروج الجيش هذا يوم الأحد وبقى معسكرا فى حمراء الاسد طيلة ثلاث ليال ونزل القرآن بعد ذلك فربى المسلمين ووعظهم وغسل كل الآثار النفسية للهزيمة ٠



هذه أمثلة خمسة ضربناها لنرى كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحل المشاكل بسرعة عجيبة فلا يبقى لها أى أثر ، هذه الامكانية العجيبة فى حل المشاكل ٠ جعلت رجلا كبرنارد شو الأديب الانكليزى المشهور يقول : ما أحوج العالم الى رجل كمحمد يحل مشاكله وهو يشرب فنجانا من القهوة (أى ببساطة) وهذه الأمثلة التى ضربناها ، نماذج ٠ والا فمن قرأ كتب الحديث ككتاب البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وموطأ مالك ومسند أحمد وكتب حياة الصحابة وكتب السيرة ، رأى كثرة المشاكل اليومية الفردية والجماعية التى كانت تعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسوس شعبا من أعصى شعوب العالم انقيادا وطاعة وسياسة ، ومع هذا فما عرف أن مشكلة مرت عليه الا وحلها بسهولة كاملة واستقامة مع منهج الحق الذى يدعو اليه ، والذى يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية بآن واحد ، وما كان ذلك ليكون لولا توفيق الله ورعايته ٠



٦ ـ بعد نظره عليه السلام وضرباته السياسية الموفقة :

ان الدارس لتصرفات رسول الله ٠ يجد أنه لا يوجد تصرف من تصرفاته عليه السلام ، الا وفيه غاية الحكمة ، وبعد النظر ، فمثلا يرسل كسرى الى عامله على اليمن ـ باذان ـ أن يهيج رسول الله ، وأن يقبض على رسول الله ليرسله الى كسرى فيرسل باذان رجلين ليقبضا على رسول الله ويأتيا به الى كسرى ويأمر باذان أحد الرجلين أن يدرس أحوال رسول الله فلما وصل الرجلان أبقاهم الرسول عنده خمسة عشر يوما دون رد عليهم وقتل كسرى فى اليوم الخامس عشر فأنبأهم عليه السلام بقتل كسرى يوم مقتله وأهدى أحد الرجلين منطقة فيها ذهب وفضة وأرسل الى باذان رسالة مضمونها انه ان أسلم أعطاه ما تحت يده وكان من آثار هذا كله أن خلع باذان ولاءه لكسرى وأسلم معلنا ولاءه لمحمد صلى الله عليه وسلم ٠

ويوم أراد المنافقون أن يستغلوا شعائر الاسلام ، ليوجدوا عملا منسقا فيما بينهم ضد الاسلام • بأن يبنوا مسجدا يكون مركزا لتامرهم ودسهم وتجمعاتهم المشبوهة • أمهلهم عليه السلام حتى عاد من غزوة تبوك ، ثم حرق المسجد وهدمه وفضح الله أمرهم ، والأمثلة من هذا النوع كثيرة كلها تدل على حنكته عليه السلام وحكمته وبعد نظره السياسي ، وان كان العمل السياسى عنده عليه السلام غير منفصل عن غيره ، فنجده يخاطب كل قوم بأسلوب ينسجم مع نفسيتهم ، ويعامل كل انسان بطريقة ترضى هذا الانسان بالحق وهكذا ، انظر الى خطابه الى وفد بنى الحارث بن كعب تجده يختلف عن أى خطاب آخر خاطب به وفدا من الوفود لأن هذه القبيلة لها وضع خاص •

قال ابن هشام :

فأقبل خالد الى رسول الله وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب منهم قيس بن الحصين ذى الغصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قراد الزيادى وشداد بن عبد الله القنانى وعمر بن عبد الله الضبابى فلما قدموا على رسول الله فرآهم قال من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند : قيل يا رسول الله : هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا نشهد أنك رسول الله وأنه لا اله الا الله • قال رسول الله وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله ثم قال رسول الله أنتم الذين اذا زجروا استقدموا فسكتوا فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المدان نعم يا رسول الله نحن الذين اذا زجروا استقدموا قالها أربع مرار فقال رسول الله لو أن خالدا لم يكتب الى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم قال يزيد بن عبد المدان أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا قال فمن حمدتم قالوا حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله قال صدقتم ثم قال رسول الله بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية قالوا لم نكن نغلب أحدا قال بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم قالوا كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله انا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدا بظلم •

ولما كانت خطتنا فى هذا البحث الاختصار فسنكتفى بتحليل موقف من أبرز مواقفه السياسية عليه السلام ، تتضح به حنكته وحكمته بشكل كامل • هذا الموقف هو الموقف الذى تمخض عنه صلح الحديبية ، وما لهذا الصلح من آثار رائعة وهذه هى القصة كما يرويها ابن هشام نذكرها ثم نعقب عليها :

قال ابن هشام :

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه

وهو يخشى من قريش الذين صنعوا : أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والانصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه انما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له ٠

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبى فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها الى كراع الغميم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (فى صفحة العنق) ٠

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ وان رجلا من بنى أسلم قال : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقا وعرا أجرل (كثير الحجارة) بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا الى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس : قولوا : نستغفر الله ونتوب اليه ٠ فقالوا ذلك ٠ فقال : والله انها للحطة التى عرضت على بنى اسرائيل فلم يقولوها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض فى طريق تخرجهم على ثنية المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة ٠

فسلك الجيش ذلك الطريق ٠ فلما رأت خيل قريش قترة الجيش (غبار الجيش) قد خالفوا عن طريقهم ، رجعوا راكضين الى قريش ٠ وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته ٠ فقالت الناس : حلات الناقة (بركت ولم تنهض) ٠ قال : ما خلات وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ٠ لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ، ثم قال للناس : انزلوا ٠ قيل له يا رسول الله ما بالوادى ماء ننزل عليه ٠ فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به فى قليب من تلك القلب (القليب : بئر) فغرزه فى جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن ٠

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه بديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من خزاعة فكلموه وسألوه : ما الذى جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم

يأت يريد حربا وانما جاء زائرا للبيت ، ومعظما لحرمته ، ثم قال لهم نحوا مما قال لبشر بن سفيان ، فرجعوا الى قريش فقالوا : يا معشر قريش ! انكم تعجلون على محمد ، ان محمدا لم يأت لقتال وانما جاء زائرا هذا البيت ، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا : وان كان جاء ولا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تحدث بذلك عنا العرب ٠

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة ٠

ثم بعثوا اليه مكرز بن حفص بن الأخيف ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : هذا رجل غادر ، فلما انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوا مما قال لبديل وأصحابه ، فرجع الى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بعثوا اليه الحليس بن علقمة ـ أو ابن زبان ـ وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اعظاما لما رأى ٠

فقال لهم ذلك ٠ فقالوا له : اجلس فانما أنت اعرابى لا علم لك ٠ فغضب عند ذلك وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ، والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالاحابيش نفرة رجل واحد ٠ فقالوا له : مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ٠

ثم بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفى ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ثم قال :

يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس (الأوشاب : الاخلاط) ثم جئت بهم الى بيضتك (القبيلة والعشيرة) لتفضها بهم ٠ انها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ٠ قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ٠

وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا ، وأبو بكر الصديق خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد ، فقال : امصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟

قال : هذا ابن أبى قحافة ٠

قال : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ، ولكن هذه بها ٠

ثم جعل يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه ٠ والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديد ٠ فجعل يقرع يده اذا تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول :

اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل اليك ٠

فيقول عروة :

ويحك ما أفظك وأغلظك ٠

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ٠ قال : أى غدر ، وهل غسلت سوأتك الا بالأمس ٠ فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا ٠

فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقا الا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شىء الا أخذوه ٠ فرجع الى قريش فقال : يا معشر قريش ، انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا ٠ فروا رأيكم ٠

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعى ، فبعثه الى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له « الثعلب » ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وارادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه الى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى ابن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى اياها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان ٠ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان فبعثه الى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه انما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته ٠ فخرج عثمان الى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله صلى الله

عليه وسلم والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل • قال ابن اسحاق فحدثنى عبد الله بن أبى بكر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نبرح حتى نناجز القوم فدعا رسول الله الناس الى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت • وكان جابر بن عبد الله يقول : ان رسول صلى الله عليه وسلم لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على ألا نفر فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها الا الجد بن قيس أخو بنى سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنى أنظر اليه لاصقا بابط ناقته قد ضبأ اليها يستتر بها من الناس ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى ذكر من أمر عثمان بن عفان باطل •

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بنى عامر بن لؤى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لاتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا • فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فلما انتهى سهيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح •

فلما التأم الأمر ولم يبق الى الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال يا أبا بكر : أليس برسول الله ؟ قال بلى • قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال بلى • قال :

أليسو بالمشركين ؟ قال : بلى • قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أبو بكر :

يا عمر : الزم غرزه ، فانى أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله • ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله • ألست برسول الله ؟

قال : بلى •

قال : أو لسنا بالمسلمين •

قال : بلى •

قال : أو ليسوا مشركين ؟

قال : بلى •

قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى •

فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا •

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » فكتبها ثم قال : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم • ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه • وان بيننا عيبة مكفوفة وانه لا اسلال ولا أغلال • وانه من احب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » •

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده • وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم ، وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب ، السيوف فى القرب ، لا تدخلها بغيرها •

فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد ، قد انفلت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون •

فلما رأى سهيل أبا جندل قام اليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال : يا محمد لقد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا • قال : صدقت • فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده الى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد ذلك الناس الى ما بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وانا لا نغدر بهم •

فوثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى الى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فانهم المشركون ، وانما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى عمر قائم السيف منه ، يقول عمر :

رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبى وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك وعلى بن أبى طالب ، وكان هو كاتب الصحيفة » اهـ

هذه قصة الحديبية فلنر آثارها وقيمة هذا العمل من الناحية السياسية الحركية :

يقول الزهرى ، فما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه انما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه • ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الاسلام قبل ذلك •

قال ابن هشـــام :

والدليل على قول الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى الحديبية فى الف وأربع مائة فى قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف ، وحسبك أن تعلم أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة زعماء قريش اسلموا فى هذه المرحلة •

ومن آثار هذه العمليـــة :

أن تهدمت حجة قريش الأساسية فى جمعها العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أن قريشا أخذت زعامتها من كونها مجاورة للكعبة بيت الله ولهذا الجوار ولتعظيمها لهذا البيت كانت العرب تعظمهم وتدين لهم فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا عمرته وتعظيمه للبيت الحرام تهدم أمام الرأى العـام كثير من الحجب •

ومن آثار هذه العملية أن فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من العرب الذين يسيرون فى فلك قريش لغيرهم ، وأن تفرغ لليهود فأنهاهم من جزيرة العرب سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ومن آثار هذه العملية أن اقتنعت كثير من القبائل العربية بتعنت قريش حتى أن الأحابيش كادوا يدخلون المعركة بجانب محمد صلى الله عليه وسلم يومها وهم حلفاء قريش المشركة •

ومن آثار هذه العملية أن أعطيت القبائل العربية حرية التحالف مع محمد صلى الله عليه وسلم وهذا شىء ما كان ليكون من قبل ، فدخل من شـاء من هذه القبائل فى حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ومن آثار هذه العملية وكثرة اقبال الناس على الاسلام بعدها ، أن انقطع أمل الناس من غير المسلمين بنصر أو عزة أو غلبة أو منعة الا بالاسلام ، فضلا عن انقطاع أملهم بانهاء الاسلام والمسلمين ٠

ومن آثار هذه العملية أن تفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح آفاق أمته على العالم ٠ وتفهيمهم مهمتهم العالمية ، بارسال رسله وكتبه الى الدول الكبرى يومذاك ٠ كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشي ٠٠

ومن آثار هذه العملية أن خمدت فتن المنافقين الذين كانوا يشدون أزرهم ٠ وتتقوى ظهورهم بقريش ، وتبعثرت القبائل العربية الوثنية ، وهمدت حدة قريش وعصبيتها ، واسترخت وأخذت تقوى تجارتها ، وركنت الى السلام ، ولما كانت الهدنة مديدة المدة لم تفكر في البحث عن أحلاف لها بينما كان المسلمون يتوسعون يوميا ٠

ومن آثار هذه العملية فتح مكة ٠ اذ عندما نقضت قريش عهدها واعتدت على حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى خزاعة وعمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة فاتحا ٠ لولا صلح الحديبية وما أحاط به لرأيت عرب الجزيرة العربية كلهم وقد ورمت أنوفهم وأقبلوا للدفاع عن مكة وكعبتها وأصنامها وقريشها ، ولكن صلح الحديبية والآثار التى ترتبت عليه لم يبق بقية من الحمية لا عند قريش ولا عند غيرها لها ، فكان أن فتحت مكة صلحا بل لقد فتحت مكة من يوم دخلها المسلمون فى العام التالى للصلح بأعدادهم الضخمة وروحهم العالية المرتفعة ٠ وتظاهرتهم التى أرهبت من رآها ٠

لقد كانت ضربة سياسية لا يستطيعها غير محمد صلى الله عليه وسلم ٠ اذ ضربها وأصحابه غير راضين ، وأعداؤه لا يعرفون كيف يتصرفون ٠ واذك عندما تعلم أن عمر وكبار الصحابة كانوا كارهين لما حدث ، وترى بعد ذلك هذه الآثار ، تدرك أن الأفق الذى ينظر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أفق فريد فى تاريخ الزعامات كلها ٠

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتعرض لمصير أقسى الشروط التى فرضتها قريش فى المعاهدة والذى أثار المسلمين ، وهو أن قريشا لا ترد من جاءها من المسلمين مرتدا وأن المسلمين يردون من جاءهم من مكة مسلما بدون اذن ، لقد كانت نهاية هذا الشرط أن طلبت قريش نفسها الغاء هذا الشرط من المعاهدة وقصة ذلك ما يلى :

لما فر أبو بصير عبيد بن أسيد وهاجر الى المدينة بعد صلح الحديبية أرسلت قريش وراءه رجلين وقالوا :

العهد الذى جعلت لنا فدفعه الى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لاحد الرجلين والله انى لأرى

سيفك هذا يا فلان جيدا فاستله الآخر فقال أجل والله لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير : أرنى أنظر اليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال صلى الله عليه وسلم حين رآه :

لقد رأى هذا ذعرا فلما انتهى الى النبى قال : قتل والله صاحبى وانى لمقتول فجاء أبو بصير فقال : يا نبى الله قد وفى الله ذمتك قد رددتنى اليهم ثم أنجانى الله منهم فقال صلى الله عليه وسلم ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده اليهم فخرج حتى أتى سيف البحر • قال : وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم الا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت عنده عصابة فوالله ما يسمعون بعير لقريش خرجت الى الشام الا تعرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش الى النبى صلى الله عليه وسلم تناشده الله تعالى والرحم لما ارسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل اليهم » •

وهكذا ألغت قريش بنفسها أشد البنود قسوة كما ظنها المسلمون •

اذا عرفت آثار الحديبية وعرفت أن الصحابة كلهم كانوا غضابا لهذا الصلح • حتى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمرهم بعد كتابة الصلح أن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا متحللين من احرامهم لم يقم منهم رجل واحد ، مما داخلهم من الغم مع تكرار رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر ثلاثا • ولم يفعلوا ألا بعد أن حلق عليه السلام ونحر هديه ، هنالك أفاقوا ونفذوا ما أمرهم به ، اذ عرفت هذا تدرك الأفق العالى الذى كان ينظر منه عليه السلام ، وتدرك أن قيادته جزء من صلته بالله المحيط علما بكل شىء فكان مسددا راشدا مهديا •

* * *

٧ و ٨ ـ الوصول الى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر

واحكام البناء بحيث يكون قادرا على الصمود فى المستقبل ووضع أسس النمو الدائب المتطور بحيث تحتفظ الدعوة بامكانية السير عبر العصور :

لقد مضى على بدء الاسلام أربعة عشر قرنا ولا زال الاسلام بانتشار ولا زال يتوسع ، ورغم كل ما تبذله الدعايات الكافرة من أعدائه • سواء كانوا أصحاب دين أو غير أصحاب دين ، بطرق منظمة وغير منظمة ، فلا زال الاسلام هو الاسلام ولا زال قادرا على أكثر من الحركة ، ورغم الملابسات التاريخية التى أوقعت العالم الاسلامى فى قبضة أعدائه ، ورغم سيطرة هؤلاء

الأعداء • فالاسلام باق ورغم أن الكافرين استطاعوا أن يهيؤا لاعداء الاسلام وسائل الانتصار داخل العالم الاسلامى ، فالاسلام شامخ يتحدى ويقهر •

وخلال هذا التاريخ الطويل • دخل الاسلام فى صراع مع ثقافات فغلبها ، ومع أديان فغلبها ، ومع قوى عظيمة فصهرها •

وخلال هذا التاريخ الطويل سقطت دول تحكم باسم الاسلام ، وقامت دول تحمل الاسلام واستوعب الاسلام الجميع •

وفى كل مرة كان الاسلام محمولا حق الحمل ، كان أصحابه هم الغالبين وحضارته أرقى الحضارات وما أتى المسلمون الا من تقصيرهم وتفريطهم وجهلهم بالاسلام •

القرون الوسطى عند الأوروبيين قمة التأخر ، والقرون الوسطى عندنا قمة التقدم ، وكانوا يومها متمسكين بدينهم وكنا لا زلنا متمسكين بديننا ومن هنا مفرق الطريق ، حيث كان الاسلام حمل أتباعه على التقدم • وسنرى هذا واضحا فى المبحث الثالث وحيث كان غير الاسلام دينا كان تأخر •

والاسلام الآن يصارع على كل مستوى شرقا وغربا فكرا وسلوكا وهو فى كل حال أبدا غالب وان اضطهد المسلمون فذلك لقوة فكرهم لا لشىء آخر •

وما أحد يجهل أن روح الجهاد فى قلب المسلمين هى التى حررت العـالم الاسلامى من قبضة مستعمريه فى عصرنا هذا ، وان كان جهاد المسلمين ضرب بيد ناس منهم وليسوا منهم ، فأبدلوا بعد التحرير المسلمين بالاسلام مذاهب أخرى • هذا الاسلام الذى كان هكذا عبر العصور يحمله جيل الى جيل وهو الآن يستعد ليكون له المستقبل كله •

هذا الاسلام استطاع أن يفعل هذا لأن الاساس الذى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم له خلال ثلاث وعشرين عاما ، كان من القوة بحيث يحمل كل العصور ، ويسع كل العصور •

* * *

ونحن اليوم نرى دعوات فكرية وسياسية كثيرة ، لا تحمل فى جوهرها امكانية تطبيقها ، أو لا تستطيع قياداتها أن تحققها فى عالم الواقع مع أن بيدها كل السلطات وبيدها كل الوسائل • ولكنها تقف عاجزة عن تحقيق الفكرة ، وأحيانا تتراجع من نصف الطريق ، ولكن الظاهرة التى نراها فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خلال عشر سنوات فقط كان كل جزء من أجزاء دعوته قائما يمشى على الأرض ، على أكمل ما يكون التطبيق ، وكل جزء من أجزاء دعوته قابلا للتطبيق ، خلال كل عصر وما مر عصر الا ورأيت الإسلام مطبقا بشكل من الأشكال ، فاذا ما علمت بأن دعوة سياسية فكرية تحتاج الى عشرات السنين حتى تنتشر وتنتصر وقد تطبق وقد لا تطبق ،

أدركت أن العملية هنا ليست عملية عادية وانما هى شىء خارق للعادة تحس وراءه يد الله · وتحس بالتالى أن الدين دين الله · وأن محمدا عبده ورسوله ·

* * *

وقد آثرنا هنا الاختصار لأن المسألة الثالثة (الاسلام) كلها برهان عملى على أن شريعة الاسلام وأحكامه تعلو فى كل عصر وعلى كل فكر ·

وننتقل هنا نقلة أخرى لاستعراض جوانب الشخصية القيادية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمور الحرب كما وعدنا فى أول هذا البحث :

* * *

القسم الثاني : الرسول عليه السلام
الشخصية القيادية العسكرية المثلى

قبل الكلام عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية • نحب أن نذكر بعضا من مواقفه العسكرية كنماذج تكون بمثابة مقدمة للحديث في هذا الموضوع :

(ا) قال ابن هشام يروى قصة فتح حصون خيبر عن أنس بن مالك :

« واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا محمد والخميس فأدبروا هرابا فقال رسول الله : الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين •

قال ابن اسحاق :

وكان رسول الله حين خرج من المدينة الى خيبر سلك على عصر (جبل بين المدينة ووادى الفرع) فبنى له فيها مسجدا ثم على الصهباء (موضع بينه وبين خيبر روحة) ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع • فنزل بينهم وبين غطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ، فبلغنى أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه • حتى اذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسا • ظنوا أن القوم قد خالفوا اليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهاليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خيبر •• يفتحها حصنا حصنا •• » •

تأمل : عنصرى المفاجأة والمداهمة ، حيث لم يستطع يهود حصون خيبر ، أن يجمعوا قوتهم ، وتأمل حيلولة رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين المدد ، وتأمل الاحتياطات المتخذة لابقاء غطفان فى مواقعها •

❊ ❊ ❊

(ب) بعد فتح مكة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قبائل هوازن وثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال • قد جمعوا جموعهم لحربه ، فبعث اليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى وأمره أن يدخل

فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن حدرد فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم • وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر •

يقول ابن هشـــام :

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير الى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعا له وسلاحا فأرسل اليه وهو يومئذ مشرك فقال : يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا غدا فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟ قال : بل عارية ومضمونة حتى نؤديها لك قال ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح » •

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيش عدته اثنا عشر ألفا منهم ألفان من أهل مكة •

وجعل أمير مقدمته خالد بن الوليد • وطبعا المفروض أن تكون مهمتها استطلاعية •

يقول جابر بن عبد الله فيما يرويه عنه ابن هشام :

لمـا استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى وادى من أودية تهامة أجوف خطوط انما تنحدر فيه انحدارا وفى عماية الصبح (أى ظلامه قبل أن يتبين) وكان القوم قد سبقونا الى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا » •

وهنا تجـد كيف أن خالدا رجل الحرب العظيم ، قـد فشـل فى مهمته الاستطلاعية الضاربة ، اذ أصبح فى الكمين هو ومقدمته • وكانت صدمة فرت منها المقدمة وثبت خالد ، الا أن الجيش لمـا رأى المقدمة فارة دون معرفة السبب ، والجيش فيه من أهل مكة الكثير وهم بعد ليسوا فى حالة نفسية جيدة • ففروا وأخذ الناس هول المفاجأة وبدقائق معدودات فر الجيش كله ، ولم يبق حول رسول الله صلى الله عليه وسلم أحـد :

أخرج البخارى عن أنس رضى الله عنه قال لمـا كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف والطلقاء فأدبروا عنه حتى بقى وحده فنادى يومئذ ندائين لم يخلط بينهما التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار : قالوا لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار فقالوا لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال : أنا عبد الله ورسوله •

وروى ابن هشام عن العباس بن عبد المطلب قال :

انى أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذا بحكمة بغلته (أى لجامها) البيضاء قد شجرتها بها وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما رأى من الناس :

أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء فقال : يا عباس : اصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السحرة فقال : فأجابوه لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهى الى رسول الله حتى اذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت : يا للانصار ثم خلصت أخيرا يا للخزرج وكانوا صبرا عند الحرب ...

* * *

عن جابر بن عبد الله قال : بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله يصنع ما يصنع ، اذ هوى له على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه فيأتيه على بن أبى طالب من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجف عن رحله واجتلد الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الاسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تأمل هذه المقتطفات من غزوة حنين : ارساله العيون للاستطلاع . اختياره خالدا . استعارته الأدراع والسلاح . تلافيه الهزيمة . ادارته المعركة بنفسه . معرفته برجاله الذين يعتمد عليهم فى ساعة المحنة .

وقبل الانتقال عن هذا المقام ، نحب أن نذكر هنا موقفا يجمع بين أعلى ما فى العبقرية العسكرية والسياسية :

بعد الانتهاء من معركة حنين قرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفتح الطائف ، فذهب اليها وحاصرها ، وكان أهلها عندهم خبرة فى فن الدفاع العسكرى ، والبلدة محصنة وخيراتها كثيرة ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحصار سيطول فاستشار نوفل بن معاوية فقال :

يا نوفل ما ترى فى المقام عليهم فقال يا رسول الله ثعلب فى جحر ان أقمت عليه أخذته . وان تركته لم يضرك فأمر النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل .

والآن تصور منطقة الطائف وحولها قبائل موتورة منذ قريب لازالته مستقلة فهى لا شك اذا تفرغت لنفسها ولم تشغل قد تسبب مشكلة خطيرة فى قلب الدولة الاسلامية . اذ تكون مجمعا لكل موتور حاقد .

فانظر كيف هيأ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشغلها ويضايقها حتى أسلمت :

كان قائد القبائل المحاربة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين مالك بن عوف • وقد فر بعد المعركة ولجأ الى ثقيف فلما جاء وفد هوازن يفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم سألهم عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا هو بالطائف مع ثقيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبروا مالكا أنه ان أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل فأتى مالك بذلك فخرج من الطائف • وقد كان مالك خاف ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال ما قال فيحبسوه فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له فأتى به الى الطائف فخرج ليلا فجلس على فرسه فركض حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها فلحق برسول الله فأدركه بالجعرانه أو بمكة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة الابل وأسلم فحسن اسلامه •• فاستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه وتلك القبائل : ثمالة وسلمة وفهم فكان يقاتل بهم ثقيفا لا يخرج لهم سرح الا أغار عليه حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن الثقفى : هابت الأعداء (انبنا ثم تغزونا بنو سلمة • وأتانا مالك بهم ناقضا للعهد والحرمة • وأتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نقمة) •

فانظر بكف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشغل ثقيفا ضايقها فيقضى على الأخطار والمشاكل المتوقعة بهذه البساطة الكبيرة •

* * *

لعلك بهذين المثالين من مواقفه العسكرية عليه السلام أخذت صورة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم فى القيادة العسكرية ، كهو فى كل شىء ، يمثل دائما القمة التى لا يرقى اليها آخرون ، وقد حلا لعباس محمود العقاد أن يعقد مقارنة بين محمد صلى الله عليه وسلم والقائد العسكرى الافرنسى النابغة فى فن الحرب نابليون بونابرت ، فأرانا فى هذه المقارنة أنه ما من قضية مهمة فى أمر الحرب فطن لهـا نابليون وطبقها الا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سباقا لهـا • هذا مع أن نابليون كان متفرغا مختصا بفن الحرب • ثم انه صادف فى حياته العسكرية من الفشل ما لم يحدث قط لرسول الله صلى الله عليه وسلم عسكريا ، ولا لمن رباهم ودخلوا المعارك الكبرى بعده ، هذا مع ملاحظة الامكانيات المحدودة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والامكانيات الكثيرة الموجودة بيد غيره من أمثال نابليون ، وقد استطرد العقاد استطرادات مفيدة فى هذا الموضوع نحب أن ننقلها مع شىء من الحذف لبعض الجمل لفائدتها ولكن قبل ذلك نحب أن نقرر هذه الحقيقة وهى :

أن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ حياة دولته العسكرية بجيش مقداره ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا · محاط بقبائل الجزيرة العربية كلها · مشركيها ويهودها ونصاراها وكلها معادية له ، وفى الجزيرة العربية وعلى أطرافها سلطان لفارس والروم ، وقد استهدفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحربه وبهذه القوة الصغيرة وبدعوته الكبيرة شق رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقه دعوة وسياسة وحربا · فأخضع الجزيرة العربية كلها ، ولم يتوقف الا وقد هيأ المسلمين لحرب الفرس والروم بان واحد · فأتم خلفاؤه ما بدأه عسكريا · فسقطت الدولة الفارسية وتقلصت الدولة الرومانية عن آسيا وأفريقيا تقريبا · كل ذلك بحوالى ثلاث وعشرين عاما وما حدث بعده من فتوحات لا يمكن أن ينسب الا اليه فانه من آثار تربيته وتأسيسه وتخطيطه ·

وهذا شيء يتحدى التاريخ سابقا ولاحقا أن يكون قد حدث مثله ولو مرة فى تاريخ العالم · فنحن اذا ما نقلنا هذه المقارنة لا نعنى التساوى · حاشا · وانما نريد أن نبرهن على أن كل عظمة يرجح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاختصاصيين المتفرغين لهـا ، وهو فى كماله بها ككماله فى كل شيء غيرها ، يرجح الناس كلهم بكمالاتهم كلهـا ·

* * *

يقول « العقاد » : ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذى كان هو الأسلوب الغالب فى العصور الماضية ، والذى ظهر فى الحرب العالمية الحاضرة انه لا يزال الخطوة الأخيرة فى جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود · لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنـا السبق فى خطط النبى العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم ·

١ ـ « فنابليون » كان يوجه همه الأول الى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع ·· وانما كان عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذى يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وهو على يقين أن الفوز فى هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التى يلجأ اليها جلة القواد ·

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور ··

أن يختار الموقع الملائم له ،

وأن يختار الفرصـة ،

وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده ·

وكان النبى صلى الله عليه وسلم سـابقا الى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها ·· فكان كما قدمنا لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم بعزم

الاعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الاحوال، بل ربما وصل اليه الخبر كما حدث فى غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة ·· فلا يثنيه ذلك عن الخطة التى تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ولا يبالى ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدى ، فلم يحدث ما توقعوه

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها ·· ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك الأعداء وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة فى أيدى المهاجمين ، الا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه ، كما حدث فى غزوة الخندق ·

٢ ــ وكان نابليون يقول ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد ·

والنبى عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التى هى فى الحقيقة قوة الايمان ·· وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبة خمسة الى واحد فى بعض المعارك مع رجحان الفئة الكثيرة فى السلاح والركاب الى جانب رجحانهم فى عدد الجنود ··

ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة ، فالنبى عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة فلا يقال هنا ان الفضل لقوم على قوم فى المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا فى جيوش نابليون · وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان ·

٣ ــ وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التى يتناولها اقتداره ، فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل الى القارة الأوروبية وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا الى طريق فرنسا ··

وهكذا كان النبى عليه السلام يحارب قريشا فى تجارتها ، ويبعث السرايا فى اثر القوافل كلما سمع بقافلة منها ··

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبة هذه السرايا وسموها « قطعا للطريق » وهى سنة المصادرة بعينها التى أقرها « القانون الدولى » وعمل بها قادة الجيوش فى جميع العصور ، ورأينا تطبيقها فى الحرب الحاضرة والحرب الماضية ، رشيدا تارة وغاليا فى الحمق والشطط تارة أخرى ··

٤ ــ وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه الى الجيش ·· ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة ··

ونرجع الى غزوات النبى عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة ، الا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التى عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها فى الغدر والوقيعة ، كما حدث فى حصار بنى قريظة وبنى قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم فى الميدان المختار بغير كبير اختلاف .

٥ – وكان نابليون معتدا برأيه فى الفنون العسكرية ، ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه فى مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال .

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه فى خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه ببدر ، وألمعنا اليه آنفا – حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر ، ثم بتغوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل اليه الاعداء . وقيل فى روايات كثيرة أنه عمل بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة . فحفر الخندق وعمل النبى بيديه فى حفره .

وقبول النبى مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة وسنة من سنن القواد الكبار ، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقا أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسى بين أهل المدينة فى ابان الهجمة عليها ، لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات الى سد الثغور وحماية الظهور فى جميع وقعاته . وفى وقعة أحد جعل الجبل الى ظهره وأقام على الشعب الذى يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا مشددا عليهم فى التزام موقفهم قائلا لهم :

احموا ظهورنا فانا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وان رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل ، والذى يفعل هذا فى شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله فى ثغرة مدينة ، ولكن المشاورة هنا هى المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق اليه النبى وما تبع فيه نابليون ، فهذه خصلة معهودة فى كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب .

٦ – ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون .

وكان فراسة النبى فى ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء . وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التى ينحرونها كل يوم فعرف

قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذى يحتاج اليه • وكان صلوات الله عليه انما يعول فى استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بفجاجه ودروبه ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون أو دلائل استطلاع » •

٧ ــ واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والاقلام وكان يقول : انه يخشى من أربعة أقلام ، ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام •

والنبى عليه السلام كان أعرف الناس بنفع الدعوة فى كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التى عاهدوا عليها ويشهرون به وبالاسلام ، أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون فى هجوه وهجو دينه ، فينفذ اليهم من يحاربهم فى حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم •

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الانجليزى كولردج الذى كان يخوض فى ذمه ويستهوى الأسماع بسحر حديثه •

الا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الاسلام انما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وانما هى فى مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية • وليس وقوف الجيش أمام الجيش الا سبيلا من سبل الصراع فى هذا الميدان • فليس فى حالة سلم مع النبى اذن من يحاربه فى صميم الدعوة الدينية ويقصده بالطعن فى لباب رسالته الاسلامية • وان لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده وانما هو مقاتل فى الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين . ولا سيما اذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة الا ريثما تعود •

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح فى وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب ازهاق حياته • وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين ، ولو كان للرسول الاسلامى من غرض لجاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه فى دينه وان لم يشهروا السيف فى وجهه • فان الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذى يضربون فيه •

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التى سبق اليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح ، ولم يتخذ محمد الحرب صناعة •• فاذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا

اليه فيه فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع الى أن سكن فى منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمى بين رمال الصحراء ·

ولقد كانت خبرة النبى ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال فكانت طريقته فى اختيار القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلا يحتذى فى جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذى كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة فكثرت فيه ــ من ثم ــ حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال العدو ·

ففى الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التى تصدر الى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو فى عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض · الى أمثال ذلك من العلامات التى تعين بها الجهات ·

ويتفق فى أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على سر البعث ورجاله جميعا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون فى غزوة أم فى مناورة استطلاع ، الى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات وهناك تصدر الأوامر التى لابد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ولا خوف من كشفها فى تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذى يقابلها به العدو اذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة · ولا سيما اذا كانت الحركة من حركات البحار ·

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة · وقد عرفت فى المأثورات النبوية على أتم أصولها التى تلاحظ فى أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله ابن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن « سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك وامضى فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم » ·

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثا وقديما وعند بداءة الدعوات على التخصيص ·

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبى عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما فى البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون ، وان الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبى عليه السلام فى جميع المطالب وهى فى حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع ، ولهذا كان اذا أراد غزوة ورى بغيرها على النحو الذى يتبعه قادة الحروب الى الآن ·

ومما لوحظ فى كتاب النبى لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصاته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات فى هذا المقام ٠

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذى يتقيه اذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الأخبار عمدا أو يتلقاه على غير اكتراث ، أو يطلع الاعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه ٠

ولهذا تعانى الدول أكبر العناء فى مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفى امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة حتى تطمئن الى صحته قبل الاعتماد عليه ٠

وفى الحروب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف ، فيتسللون الى مراكز المواصلات ويعبثون بين القرى المعزولة فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستعانة أو المقاومة ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد ٠

قيل فى الاعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل فى انتقادها والتنبيه الى خطرها كثير ٠

فمن دواعى الاعجاب بها أنها أفادت فى قطع المواصلات واشاعة الذعر وتضليل المدافعين وانها شىء جديد فى شكله وان لم يكن جديدا فى غايته ومرماه ٠

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية ٠ فهى تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقيبا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه فليس أيسر له اذا هو انفرد وأعوزته الرغبة فى انجاز عمله من أن يستأسر فى أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء طلبا للسلامة ٠ ولا عقاب عليه الى نهاية القتال ٠ ثم يتعلل بما شاء من المعاذير ان وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه ٠ وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه فى أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات ٠

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة ان لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم ، وهى لهذا أحرى أن تحسب من وحى اخوان الطريق والهام العقائد لا من النظام الذى يدرب عليه كل جيش

ويصلح لجميع الجنود ، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون فى نفوس الناشئة جذوة البغضاء ، ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذى يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ ، لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب •

وها هنا تتجلى حكمة النبى عليه السلام فى اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والاكراه • فهذه « أولا » بعثة منفردة لا سبيل الى الاكراه الفعال بين رجالها اذا أريد •

وهى « ثانيا » بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره المقسور ، وألزم ما يلزم العامل فيها ايمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فان أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء •

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع ، فقد كان عليه السلام عليما بمزاياه • معنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، فى حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه •

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فى هذا الميدان حيث أصيب فى وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فى روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم •

فمن أسباب الهزيمة نابليون اهماله النصائح التى سمعها فى مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فى الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع •

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ، ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع • أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذى كان شديد التعويل عليه •

أما « هتلر » فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة •

فقد اشتهر أنه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم • واشتهر أنه أخطأ فى استطلاع القوم اذ خيل اليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويترقب الاغارة عليه لنصرته كائنا من كان ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى وهو عنصر الجرمان •

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون • ولكنه لم يخطىء

خط مثل هذا الخطأ فى جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم ـ كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية ـ أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين ٠

***

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ٠ ينبغى أن ننظر الى فكرة القائد قبل أن ننظر الى ظواهر المعارك أو أشكالها أو أحجامها ، لأننا اذا نظرنا الى الظواهر فلا معنى اذن للمقارنة على الاطلاق ، اذ من المقطوع به ان عشرة ملايين يجتمعون فى ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وأن حربا تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والاشارة ، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل ، وأن المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم ، فلا معنى اذن لمقارنة بالظواهر تنتهى الى نتيجة واحدة وهى استضخام الحرب الحديثة والنظر الى القيادة الغابرة كأنها شىء صغير الى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة ٠

لكننا اذا نظرنا الى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة ٠

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدى قائد من قوى الرأى والسلاح والكلام ٠ وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تأتى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال ٠

***

ويزيد هذه الشهادة عظما ، أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هياب ، شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجور فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال ٠

***

فمحمد كان فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان على فارس الفرسان يقول « كنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب منه الى العدو » ٠

ولولا ثباته فى موقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين ، لحقت الهزيمة على المسلمين ٠ وخروجه بالليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد هددها الأعداء

بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة لم يدعه اليه شيء . لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير فى داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره .

ومشاركته فى الوقعات الأخرى هى مشاركة القائد الذى لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود .

واذا كان القائد خبيرا بالحرب قديرا عليها غير هياب لمخاوفها ، ثم اكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعا لصفات الرسول . أ.هـ

* * *

نقلنا كلام العقاد الآنف لما فيه من فوائد ، الا أننا لا نعتقد أنه أحاط بمزايا رسول الله صلى الله عليه وسلم العسكرية . ولا نعتقد أنه أراد ذلك ، وانما لمس بعض هذه المزايا لمسا خفيفا ، ولا نعتقد كذلك أننا نستطيع استجلاء هذه المزايا كلها لقصورنا أولا وللايجاز الذى نقصده ثانيا فى هذه الكتابات ، غير أن هناك ميزة تربو على كل ما ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ميزات فى قضية الحرب لم يتعرض لها حتى الآن هى تأمينه صلى الله عليه وسلم لجيشه ولدولته دائما (الهيبة العسكرية) التى تجعل الآخرين دائما فى حالة رعب وقد عبر هو نفسه صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الحقيقة بقوله « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » وان من جملة عوامل النصر المهمة دائما فى حرب المسلمين هذه الناحية التى وطد أركانها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وحافظ عليها أصحابه بعده ، وهى التى كانت تفعل فى قلوب أعدائه المقاتلين الأفاعيل . ولو درسنا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية لرأينا أن هدفا كبيرا دائما من أهداف عملياته العسكرية كان ابقاء هذه الهيبة وزيادتها وتأكيدها وتوسيع دائرتها حتى وصل المسلمون الى حالة فى النهاية كان الناس كلهم يهابونهم ولا يهابون أحدا . لا دولة كبرى ولا صغرى ولا قبيلة ولا جيشا ولا سلاحا ولا عددا ولا عدة فترى الجيش الصغير (٣٠٠٠) يهجم على الجيش الكبير (٢٠٠٫٠٠٠) يوم مؤتة ولا يبالى بالنتائج ، واليك عرضا موجزا لأعمال الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية خلال سنة من أول سنى المدينة لتعرف كيف أوجد هذه الهيبة العسكرية وأمنها .

ما كاد يستقر بالمدينة حتى يرسل فى رمضان من السنة الأولى للهجرة حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين من المسلمين فيلتقى بأبى جهل يقود قافلة

لقريش ومعه ثلاث مائة راكب فيحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنى فلا يقع قتال ٠

وفى شوال من نفس السنة يرسل عبيدة بن الحارث فى ستين راكبا الى وادى رابغ فيلتقى بأبى سفيان ومعه مائة مشرك فيترامى الفريقان بالنبل ولا يقع قتال ٠

وفى ذى القعدة يرسل سعد بن أبى وقاص فى نحو عشرين رجلا يعترض عيرا لقريش ولكنها تفوته ، وفى صفر يخرج الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه بعد أن يستخلف سعد بن عبادة على المدينة فيسير حتى يبلغ ودان يريد قريشا وبنى ضمرة فلم يلق قريشا وعقد حلفا مع بنى ضمرة ٠

وفى ربيع الأول خرج الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار الى بواط معترضا عيرا لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاتته ٠

وفى جمادى خرج الى العشيرة من بطن ينبع وأقام بها شهرا صالح فيه بنى مدلج ٠

ثم أغار كرز بن جابر الفهرى على المدينة واستاق سرحها فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى طلبه حتى بلغ وادى سفوان قريبا من بدر فهرب كرز ولم يدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وعند مقفله من هذه الغزوة أرسل عبد الله بن جحش بسرية فيها ثمانية من المهاجرين ٠

وفى رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التى كانت أول صدام عنيف مسلح بين المسلمين وغيرهم سقط فيه قتلى أعتى المشركين ، فانظر من رمضان الى رمضان كم سرية وكم غزوة حركها رسول الله ومن حكم هذه السرايا :

١ ــ انها تدريب عملى واعداد نفسى للمسلمين يجعلهم دائما فى حالة تعبئة عامة وحذر دائم واستعداد يقظ وحركة قتالية سريعة ٠

٢ ــ اشعار الأعداء بالقوة التى تهاجم ولا تنتظر حتى تهاجم والقاء الرعب فى قلوب من يفكر بغدر وشر ٠

٣ ــ الاشعار بالانتقال من مرحلة الصبر الى مرحلة الرد بالمثل على الظالم وايقاف المشركين عند حدهم ٠

وكانت معركة بدر الضربة الساحقة التى حققت هذه الأغراض جميعا ، وكان ما قبلها مقدمة لها ، وخلال عشر سنوات قضاها الرسول فى المدينة ، نجد أن أعماله العسكرية من غزوات الى سرايا بلغت عشرات وكلها كانت محكمة وسريعة وناجحة ، من غزوة ضد قريش الى عملية ضد اليهود ، الى

تتحرك نحو القبائل العربية على الحدود الرومانية والفارسية . الى مناوشة مع الدولة الرومانية ، ولم يقبض عليه السلام حتى فتح للمسلمين طريق العمل العسكرى الذى انطلقوا منه على العالم • فلم يوقفهم شىء الا ضعف جذوة الاسلام فى أنفسهم لأمد •

والاهم من الناحية العسكرية مما قدمناه هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ بأتباعه من الانضباط العسكرى مبلغا ما بلغه قائد عسكرى آخر ، ونحن نعلم أن الانضباط العسكرى هو كل شىء فى المعركة ولا يمكن أن تظهر عبقرية قائد عسكريا الا اذا كان الانضباط موجودا ولذلك فان ثمانين بالمئة من عبقرية القيادة العسكرية تظهر فى انضباط جنـــدها معها فى اللحظـــة الحاسمة ، فاذا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا قمته وفى أمة العرب الشعب المـارد المتمرد الذى لا يعرف انضباطا ولا طاعة فتلك معجـزة المعجزات •

وكمثال على مدى الروح الانضباطية التى تمتع بها المسلمون فى آخر حياته عليه السلام ما حدث يوم غزوة تبوك • اذ تخلف بعض الأتباع عن الذهاب معه صلى الله عليه وسلم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بمقاطعتهم (وهم ثلاثة) فلم يكلمهم أحد حتى تاب الله عليهم وستمر معك القصة فى/مبحث الثمرات •

ان عبقرية هذه القيادة لا مثيل لها فى كل تصرف من تصرفاتها الصغيرة والكبيرة ، التى نجدها حيث يبقى أبا سفيان يوم فتح مكة على الطريق تمر به كتائب المسلمين كلها ، حتى ينقطع آخر أمل له فى المقاومة وحتى يتلاشى آخر تردد عنده فى الاستسلام ، والتى نجدها حيث يغزو الروم يوم تبوك ويعقد المعاهدات مع أطراف دولتهم ، ممهدا بذلك هذه الأطراف لاستقبال الجيوش الاسلامية فى المستقبل •

واذا كانت نتائج العمل العسكرى ميزانا توزن به قيمة هذا العمل العسكرى فانه لا يوجد فى ميزان العالم أجمع أثقل من العمل العسكرى الذى قام به رسول الله اذ ما من معركة حدثت للامة الاسلامية بعد الا وكانت قبسـا من شمس رسول الله ، وما من ظفر حققه المسلمون الا ووراءه الروح التى بثهـا رسول الله فى موات القلوب ، ولئن مرت ظروف انتصرت بهـا الامة الاسلامية فى عصرنا • فاستغل انتصارها اعداؤها ، فان تعاليم رسول الله ستجعل هذه الأمة فى وضع آخر مرة أخرى باذن الله •

* * *

وبعد : ان الرسالة الثالثة من هذا الكتاب وهى التى تشكل البحث الثالث فيه ستوضح تعاليم رسول الله بشكل مفصل • وهذا الذى جعلنا نقصر هذا البحث فقط على صفات الرسول دون ذكر التعاليم التى تنبع عنها هذه التصرفات ،

وبصرف النظر عن الحدود التى حدها رسول الله لكل شىء فى الحياة البشرية لتسهيل البحث ، وانما أردنا ابراز الكمال الذى يتمتع به رسول الله فى كل شىء فى هذا الفصل • بحيث استجمع أعلى قمم السلوك البشرى فى كل شىء فكان الانسان الوحيد الذى يصح أن يكون قدوة البشر العليا فى كل شىء • وبعد أن تقرأ الرسالة الثالثة سترى بوضوح أن البشرية لن يستقيم أمرها الا بأخذها بتعاليم محمد والاقتداء به ، وأن الحدود التى حدها رسول الله فى حياته السلوكية والعملية فى كل الجوانب هى أرفع وأعدل ما ترتقى اليه آمال البشر مع الواقعية التى لا تخرج هذه التعاليم الى مثل معطلة ، وان أى انحراف عن التأسى برسول الله واتباع تعاليمه انما هو فى الواقع ارتكاس وانتكاس مهما حاول أهل الباطل أن يفيضوا عليه من الالقاب والنعوت والتسميات • فالرسول عليه السلام قد أعطى البشر بوحى من الله الصيغة الوحيدة للحق ، فمهما ابتغت البشرية الهدى فى غير هذه الصيغة فانها الى ضلال تسير • لقد رأيت فى هذا الفصـل :

ان رسول الله صادق ودلك هذا على أنه رسول الله •

وان رسول الله أمين فى تنفيذ ما دعا اليه ودلك هذا على أنه رسول الله •

وان رسول الله قد بلغ دعوة الله حقا ودلك هذا على أنه رسول الله •

وان رسول الله أعقل البشر وأعظمهم فطانة فدلك هذا على أنه رسول الله حقـا •

وان رسول الله أعظم الناس فى باب التربية والتعليم ودلك هذا على أنه رسول الله حقـا •

وان رسول الله أكمل الخلق أبا وزوجا وأخلاقا وقيادة وكل ذلك دلك على أنه رسول الله حقا •

ورسول تدلك صفاته على رسالته الى أين تفارقه متبعا أصنام الهوى وأباطيل الهوس ومجانين الضلال ، ان هؤلاء لا يسيرون بك الا الى الهاوية •

ولكن رسول الله لا يدلك عليه فقط صفاته بل قامت الأدلة على رسالته حتى لم يزغ عن الرؤية الا أعمى •

فالى الفصل الثانى لترى الدليل الكامل الآخر على أن محمدا رسول الله •

دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله، الرسول، الإسلام

الرسول صلى الله عليه وسلم

الجزء الثاني

« سنرى في هذا البحث ، بالدليل والبرهان أن محمدا رسول الله حقا ، وأن محمدا أعظم الناس في كل شيء ، وأن الذين يتخذون غيره قدوة حمقى وناقصون » .

بقلم
سعيد حوى

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . بعابدين
القاهرة - ت : ٩٣٢٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الفصل الثاني

المعجزات

سنكتب فى هذا الفصل فقرتين وتعقيبا :

الفقرة الأولى :

حول المعجزة القرآنية نتحدث بها عن خمسة جوانب من جوانب المعجزة القرآنية كل منها يشهد ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون الا من عند الله ٠

الفقرة الثانية :

معجزات أخرى لرسول الله غير القرآن نتحدث عن تسعة أنواع منها كل واحدة منها تشهد أن محمدا رسول الله ٠

التعقيب :

ونتحدث به عن الفارق بين المعجزة وغيرها من الأمور التى يراها الناس خارقة للعادة ، ونرجو ألا ينتهى هذا الفصل الا وقد انشرح القلب ببرد اليقين أن محمدا رسول الله وأنه ليس أمام الانسان الا طريق محمد وحده ٠ يصح للانسان ان يسلكه « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » ٠

فالى الفقرة الأولى من هذا الفصل :

الفقرة الأولى

المعجزة القرآنية

يقول عليه الصلاة والسلام (ما من نبى الا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى الى فأنا أرجو ان أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) • ان النبيين عليهم الصلاة والسلام كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحى الذى أنزل اليهم وبلغوه • أما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فمعجزته كانت فى نفس الوحى • فالوحى نفسه فيه دليل على أنه من عند الله عز وجل اذ هو ذاته المعجزة ، ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية كانوا يلفتون الى أن الآية بين أيديهم :

((**وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**)) • العنكبوت : ٥٠ ، ٥١

واذا كان القرآن باقيا بحفظ الله ((**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**)) سورة الحجر : ٩

فالمعجزة اذن باقية محسوسة يستطيع كل انسان ان صدق أن يعرفها ويتقينها بعلم يقين •

((**بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد باياتنا الا الظالمون**)) • العنكبوت : ٤٩

وهذا القرآن من أين أخذته ذلك على ذاته ، على شرط أن تأخذه بعلم ، وتطلب الحق فيه بصدق ، فالعالم بأى علم له علاقة بالقرآن يستطيع أن يرى فى القرآن الحق الذى يعلو أن يكون مصدره بشرا •

((**ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد**)) • سبأ : ٦

فالعالم باللغة ، الدارك لأسرارها ، البصير فيها ، يرى أن لغة القرآن ليست بيان بشر • والعالم بأساليب التعبير ومجال البيان ولفتات البلاغة ، يرى أن ما فى القرآن من أسلوب وبيان وبلاغة جل عن طوق بشر •

والعالم المحيط بالتاريخ المتثبت بما كان ، سواء قبل نزول القرآن أو بعده • يرى أن ما فيه من خير ليس مصدره البشر •

والعالم بالكون قوانين وواقعا يرى أن القرآن ليس من عند بشر اذ ما فيه من علم لم يكن ساعة نزوله معروفا ، شيء ضخم فيه دليله •

والعالم بالنفس غرائزها وما يصلحها ويفسدها ، وما يرتفع بها ويهبط ، يستطيع ادراك ربانية القرآن •

والعالم بالتشريع الاجتماعي والجنائي والاقتصادي ، وكل الجوانب الأخرى • يمكنه معرفة ذلك ، والعالم بالاخلاق والتربية والسلوك ، يستطيع أن يرى الله في قرآنه •

والعالم بالأمم حضاراتها وعمرانها ، والعوامل التي تبينها وتهدمها يستطيع أن يرى القرآن في مصدره الرباني •

والعالم بالكتب السماوية كالتوراة والانجيل والزبور ، يدرك أن كتابا يحكم في أدق قضايا الخلاف بين أتباع هذه الديانات ، ليس مصدره محمدا الذي لم يسمع كتابا ولم يقرأ •

ان العالم يرى ، وطالب الحق يرى ، أما المتكبر أما الحاسد أما طالب الدنيا أما الظالم أما أعمى القلب المظلم البصيرة ، أما هؤلاء فلن يروا ، لأنهم ليسوا أهلا للرؤية •

((سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق)) الاعراف : ١٤٦

((واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا • وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا)) الاسراء : ٤٥ ، ٤٦ .

((وما يجحد باياتنا الا الظالمون)) • العنكبوت : ٤٩

ان مثل هذا النوع من البشر الذي يجحد ، وقلبه مستيقن يمنعه من الاقرار الكبر والبطر ، ليس لك الى مناقشته سبيل ، اذ الحجة وعدمها معه سواء •

((وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)) النمل : ١٤

اذ ليس سبب انكاره عدم الحجة ، بل السبب في ذاته هو ، وأن الذين عاني منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل رسول • هم من هذه الطبقة العاتية ، وليسوا من أولئك الذين يبحثون عن الحق حتى اذا وجدوه عرفوه وقبلوه واعتنقوه •

((فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بايات الله يجحدون)) الأنعام : ٣٣

واليك هذه القصة :

جاء الوليد بن المغيرة الى الاخنس بن شريق فقال : ما تقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول : قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة ، قلنا : نعم • قالوا : فينا السدانة قلنا نعم • قالوا : فينا السقاية — قلنا : نعم • يقولون : فينا نبي ينزل عليه الوحي ! والله لا آمنت فيه أبدا •

هذا هو نمط الناس الذين لم يؤمنوا بالقرآن ، ليس لهم عذر ولا مستمسك وأنى يكون لهم عذر وتحدى المعجزة يقرع آذانهم وهم صامتون ٠

((**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**)) هـود : ١٣

اكذبوا وهاتوا مثل سوره ولكنهم لم يفعلوا وحتى الذى ادعى النبوة والوحى كمسيلمة ٠ لم يتكلم ليعارض القرآن بل كان يعترف أن القرآن وحى سماوى ، ولكنه تكلم ليقال : وها أنا يوحى الى ولكنه لم يتحد بوحيه ٠

((**وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ٠ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النـار**)) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

لقد تحداهم أن يفعلوا وقال لهم لن تفعلوا ولم يفعلوا أليس فى ذلك عجب ؟

عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة ٠ فلم يساجلوا هنا ولم يعارضوا ٠

وعجب لأنهم أمة البيان وبهتوا أمام البيـان ٠

وعجب لأنهم فعلوا كل شىء من أجل القضاء على الدعوة الجديدة وسكتوا عن أبسط الأشياء وهو الكلام ٠

وعجب أن وراث الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم ٠ أصبحوا مسلمين كحسان والخنساء وبجير وكعب والحطيئة ولبيد ٠ وهم الأعلم باللغة والابصر فيها ولبعضهم لسان أشد من السيف ، ومع ذلك كان موقفهم السكوت ثم التسـليم ٠

أليس عجبا أن تجد الخنساء الشاعرة وهى التى قالت لحسان بن ثابت فى سوق عكاظ حين أنشـدها :

لنـا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسـيافنا يقطـرن من نجـدة دمـا
ولدنـا بنى العنقـاء وابنى محـرق فأكرم بنـا خالا وأكرم بنـا ابنمـا

ضعفت افتخارك وأبرزته فى ثمانية مواضع قال وكيف ؟ قالت قلت : لنـا الجفنات والجفنات ما دون العشر ٠ ولو قلت الجفان لكان أكثر ٠ وقلت الغر ٠ والغرة البياض فى الجبهة ، ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعا ٠ وقلت يلمعن واللمع شىء يأتى بعد الشىء ، ولو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الاشراق أدوم من اللمعان ، وقلت بالضحى ٠ ولو قلت العشية لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف فى الليل أكثر طروقا ، وقلت أسيافنا والأسياف دون العشر ٠ ولو قلت سيوفنا كان أكثر ، وقلت يقطرن فدللت على قلة القتل ٠ ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وقلت دما ٠ والدماء أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت ٠ ولم تفتخر بمن ولدوك ٠

هذه نفسها النقادة الشاعرة التى ملأت الدنيا نحيبا على أخيها صخر تفقد أولادها الأربعة فى الاسلام بمعركة واحدة فلم تذرف دمعة بل تحمد الله ، لقد آمنت بالقرآن وغير القرآن اعماقها .

لقد شعر العرب الأقحاح يوم ذاك أن هذا القرآن الذى يسمعونه لم يخرج من بشر ، كانوا يحسون هذا فى أعماقهم سواء فى ذلك مؤمنهم وكافرهم .

وانظر هذين النصين عن مؤمن وكافر :

(أ) روى أن أبا بكر رضى الله عنه وكان أنسب العرب وأعلمهم بلغاتها وأشعارها وأمثالها ، سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفة ، عن كلام مسيلمة ، وما كان يدعيه قرآنا فحكوا له فقال أبو بكر : سبحان الله ويحكم ان هذا الكلام لم يخرج عن ال (أى عن ربوبية) فأين كان يذهب بكم ؟ فانظر مفهوم كلامه وشعوره . ان القرآن خارج من الله وليس من بشر .

(ب) وروى أن الوليد بن المغيرة المخزومى جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم . فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم ان قومك يريدون ان يجمعوا لك مالا ليعطوكه لئلا تأتى محمدا لتعرض لما قاله . فقال الوليد : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا .

قال أبو جهل : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له .

قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، ووالله ان لقوله حلاوة وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه مغدق اسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته .

قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعنى حتى أفكر فلما فكر قال : (هذا سحر يؤثر) يأثره عن غيره .

ولما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد : ان وفود العرب ترد فأجمعوا فيه (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) رأيا لا يكذب بعضكم بعضا فقالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه .

قالوا : مجنون .

قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه .

قالوا فنقول ساحر : قال ، ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده ٠

قالوا : فما تقول ؟

قال : ما انتم بقائلين من هذا شيئا الا وأنا أعرف أنه لا يصدق ، وان أقرب القول أنه ساحر وأنه سحر يفرق بين المرء وابنه والمرء واخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس ٠

ان هذا الاحساس بربانية المصدر ، والتحدى من المصدر نفسه ، وظهور العجز قديما وأبدا ما ترك لكافر عذرا ولا حجة ٠

والناس اما صافى الفطرة يستجيب لأول بارقة نور ، فيشتعل نور فطرته ، واما انسان أصاب فطرته تعقيد وتوهم ، سواء بسبب الوراثة أو الفكر الخاطىء مثل هذا انما نطالبه بالعلم قبل الحكم ، وبالبحث بعد العلم ، وسيرى الآية واضحة والمعجزة قائمة من أى أبواب العلم أتاها ٠

(أ) فهو لو درس حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعد النبوة قبل القرآن وبعد القرآن يجد جوابا قاطعا ، أنه الوحى والنبوة وليس غيرهما ، رجل أمى جاوز الأربعين لم يعرف عنه خلالها أنه تكلم بشىء له علاقة بدين ، ولا درس ولا كتب فلم يتلق علما ولم يقرأ كتابا دينيا أو غير دينى ٠ ثم البيئة بيئة أمية ولكنها ذكية لا تعلم عن النبوءات والرسالات شيئا ، فليست هناك مقدمة تشير الى نتيجة ومع ذلك واذا بقرآن يتلى ، ودين يقوم ، ومفاهيم تتغير بسر هذا القرآن الذى يتحدى فيسكت المتحدون ، وهذا ما أشار القرآن اليه كدليل على النبوة لا يبقى معه ريب ٠

« **وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون** » العنكبوت : ٤٨

« **ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** » النحل : ١٠٣

« **وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون** » الأنعام : ١٠٥

ان دارس القرآن العظيم لا يمكن ان يتصور أن ما فيه صادر عن جهل ، بل يرى أنه لابد صادر عن علم محيط ، وهناك سر المعجزة ٠ ولذلك قال الكافرون تعلم محمد ودرس ٠ واذ يثبت التاريخ أن محمدا لم يدرس ولم يتعلم ، والقرآن حكمة وعلم فليس هناك مصدر الا الوحى ولابد هنا من التأكيد على ناحيتين :

الأولى : أن الكافرين مؤمنون بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون على هذه الحالة الا اذا كان محمد قد تعلم أعظم ما يكون العلم ، وتصورهم حدوث

تعلمه هو الذى يجعلهم يستبعدون معنى الوحى • فاذا ما ثبت أنه لم يتعلم ولم يتلق علما من أحد فليس أمامهم الا نسبة هذا الكتاب الى الوحى ، وكونه لم يتلق علما من أحد ، شىء مشهور ، فان مكة لم يكن بها أهل كتاب الا ورقة ابن نوفل وحداد ، والحداد أعجمى • كم يمكن أن تكون ثقافته العامة والدينية فى زمن ما كانت الكتب الدينية فيه الا عند رؤساء الديانات ولم تكن مترجمة ثم جلوس الرسول عنده للاخذ منه شىء مبتوت من عدم وجوده • وكذلك ورقة وليس هناك أى نص تاريخى يشير الى غير هذا بل كل النصوص على أن المعلم الوحيد للرسول صلى الله عليه وسلم هو الوحى •

الثانية : أن النبوة قائمة على الصدق والذين اتبعوا النبى اتبعوه لأنه صادق • ولو رأوا وهم الذين يخالطونه ـ ليل نهار ذرة شبهة لأنكروا وبينوا • وهم من هم ، فاذا ما ذكر القرآن كما ورد فى الآيات أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتلق علما من أحد وكان الذين حول الرسول صلى الله عليه وسلم وهم أعرف الناس به صبيا وشابا وكهلا يعرفونه غير هذا لرأوا فى ذلك مدخلا يشكون فيه بالصدق ، ولو كان القرآن من عند محمد وكان قد تعلم عن غيره من الناس ، لما نفى مثل هذا النفى الذى يمكن افتضاحه بسهولة لو كان •

فاذا ما تأكدت الناحية الأولى والثانية • شهادة التاريخ ، وشهادة واقع الحال • وانتفى امكانية التعلم البشرى ، لم يبق الا الوحى مصدرا لأعظم أثر فى تاريخ البشرية •

(ب) وكذلك لو درس الانسان ظاهرة الوحى نفسها بامعان وتبصرة وأحاط بها احاطة ما وحكم العلم والعقل • لوجد أن المسألة وحى وليست غير ذلك ، وأنها النبوة ليس الا • ادرس مثلا هذه الآثار التى هى بعض مما حدث الصحابة عن هذه الظاهرة •

عن عمر رضى الله تعالى عنه قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل فأنزل عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه فقرأ **((قد أفلح المؤمنون))** الى عشر آيات منها من أولها وقال : من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال (اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم وأرضنا وارض عنا ••) الترمذى •

وفى مسلم عن أبى هريرة قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ نزل عليه الوحى لم يستطع أحد منا يرفع طرفه اليه ، حتى ينقضى الوحى • وفى لفظ كان اذا نزل عليه الوحى

استقبلته الرعدة • وفى رواية كرب لذلك ، وتربد وجهه ، وغمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر •

وعن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه قال :

كان اذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة الشديدة أخذه من الكرب والشدة على قدر شـدة السورة ، واذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينهـا •

وفى رواية البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها :

فيفصم عنه وان جبينه ليتصبب من العرق فى اليوم الشديد البرد • ان هذه الحالة التى ترافق ظهور النص القرآنى ليست حالة عادية كما أنها ليست حالة مرضـية •

فالحالة المرضية لا يرافقها تصبب عرق ، ولا يرافقها ظهور نص كالنص القرآنى وقد يكون سورة طويلة • كسورة الانعام ، أو يكون نصا تشريعيا من أدق النصوص التشريعية فى تاريخ العالم كنصوص المواريث •

ان هذه الظاهرة تدل على أن مصدر القرآن خارجى عن ذات محمد صلى الله عليه وسـلم : ((**ان هو الا وحى يوحى**)) النجم : ٤

(جـ) وكذلك لو درس الانسان النص القرآنى بامعان فانه سيصل الى نتيجة واحدة ، هى أن هذا النص لا يمكن أن يكون من عند بشر ، **بل لابد أن** يكون من عند الله والنص القرآنى بين أيدينا • فتعال نستعرض بعض خصائصه وبعضا من معانية فاننا سنجده أول على ذاته ، وأكثر اقناعا للراغب فى الحق الطالب له ، ونؤثر أن نسلك فى هذا الاستعراض الطريق التالى :

ان الاعلم بالقرآن هو صاحب القرن ، وهو أولى من يتحدث عن خصائصه وأولى من يصف مناحى دلالاته واعجازه ، ونحن نجد أثناء دراستنا لهذا القرآن ، آيات كثيرة تحدثت عن صفات هذا القرآن وخصائصه • فلو أننا تتبعنا هذه الآيات وفهمناها نكون قد أدركنا خصائص القرآن بشكل أجود ، وأكثر احاطة ، واقرب الى السهولة ، مع ملاحظة أننا سنذكر ان شاء الله مع كل خاصية دليلها والبرهان عليها ليطمئن قلب الشاك ، ويرتاح قلب المؤمن بالعلم الذى لا يدحض ((**وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم**)) الحج : ٥٤

يتصور بعض الناس الذين يقرأون القرآن من أهله ومن غير أهله ، ان السورة القرآنية لا تشكل وحدة متناسقة مترابطة ، وانه لا صلة بين الآيات وان كانت هناك صلة بين بعض آيات السورة ، فان السورة ككل فاقدة هذا التماسك ، وكما يتصورون هذا التصور فى السورة الواحدة يتصورونه بشكل

أكبر بالنسبة للقرآن كله ، ولسوره كلها فلا رابطة بين السورة والسورة، ولا رابطة بين سور القرآن عامة .

وهذا التصور أقل ما يقال فيه ، أنه تصور فاسد يقوم على جهل كبير ، وعلى بساطة فى الفكر وضحالة فى النظر . فما كان القرآن ليكون كذلك ، وقد رتب الله آياته في السورة الواحدة ورتب الله سوره على الشكل الذى نراه . فان السيد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤمر بأن يضع الآية فى مكانها من السورة ، والسورة فى مكانها من القرآن ، فترتيب الآيات فى السورة الواحدة بوحى ، وترتيب السور فى القرآن بوحى ، والله عز وجل حكيم على ، وقد وصف كتابه بأنه على وحكيم ، **« وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم »** الزخرف : ٤

فلا يكون كلام غير الله أكثر ترتيبا ، وأكثر انسجاما من كتاب الله . وسنذكر هنا نموذجين من الأمثلة . نموذجا نتبين فيه ترابط السورة القرآنية وتناسقها ، ونموذجا نتبين فيه الصلات بين سور القرآن عامة .

(أ)

المثال الاول من النموذج الاول

افتح المصحف الآن على سورة (ق) وتأمل :

تبدأ السورة هكذا :

« ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » ق : ١ ــ ٤

تبدأ السورة بمقدمة هى الآية الأولى ثم يأتى حرف « بل » ثم حديث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة منذر ينذرهم بالبعث بعد الموت . واستبعادهم لهذه المسألة ، ثم يأتى الرد عليهم وان أصبحوا ترابا فان الله يعلم ما أخذته الأرض منهم ، واذا كان علم الله كذلك فلا استبعاد لخلقهم مرة ثانية . اذن بايجاز مقنع ذكر هذا المقطع من السورة اشكالا للكافرين ورد عليه فانتهى بذلك المقطع من السورة ليبدأ مقطع جديد والملاحظ فى المقطع الجديد أنه كذلك مبدوء بكلمة « بل » كما بدأ المقطع الأول بكلمة « بل » وفيه حديث عن تصورات الكافرين ورد عليهم كالمقطع الأول يقول :

« بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج » ق : ٥

هذا موقف الكافرين من الوحى الذى أنذرهم به الرسول ، فيما له علاقة باليوم الآخر ويأتى الرد : **« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل**

زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب : ونزلنا من السماء ماء بماركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » ق : ٦ ـ ١١

هذا الجزء الأول من الرد ، وفيه لفتهم القرآن الى الكون ليتعرفوا فيه على الله وقدرته ، حتى أوصلهم الى رؤية احياء البلد الميت بالمطر ، والنبات يكون ميتا ينزل عليه المطر فيحيا و ٠٠٠ كذلك الخروج ، بهاتين الكلمتين اللتين تأتيان بعد لفت النظر هذا يأتى الرد المفحم لهؤلاء الذين استبعدوا بعث الانسان وكذبوا رسول الله ٠

ولا زلنا حتى الآن فى المقطع الثانى ٠

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيـد ، أفعيينا بالخلق الأول » ق : ١٢ ـ ١٤

رأينا فى بداية هذا المقطع « بل كذبوا بالحق لمـا جاءهم » ورأينا الرد الأول ، وتتمة للرد يذكر القرآن مشيرا : كما كذب هؤلاء فقد كذب غيرهم ٠٠ وبعد أن يعرض علينا هوية المكذبين ٠ يجعلنا نتعجب ونستنكر تكذيبهم ويقيم الحجة عليهم بكلمة « أفعيينا بالخلق الأول » اذا كان الله خالق الانسـان أول مرة ولم يعجزه ولم يتعبه أفيعجز أن يخلقكم مرة ثانية ؟

وبذلك ينتهى المقطع الثانى ليبدأ المقطع الثالث ويلاحظ كذلك أنه مبـدوء بكلمة « بل » كما بدأ المقطع الأول والثانى وفيه حديث عن نفس المضـمون يقـول :

« بل هم فى لبس من خلق جديد » الكافرون شاكون فى خلقهم مرة ثانية ويأتى الرد على مرحلتين كل مرحلة مبدوءة بكلمة « ولقد » كما كان الجواب فى المقطع الأول مبدوءا بكلمة « قـد » عند قوله « قد علمنا ما تنقص الارض منهم » ٠

يقـول :

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ، اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيـد ، ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ، ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتـد مريب ، الذى جعل مع الله الها آخر فألقياه فى العذاب الشديد ، قال قرينـه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لدى وقد قدمت

اليكم بالوعيد ، ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ، يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هى من مزيد ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن **هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص ، ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد))** •

وبهذا تنتهى المرحلة الأولى من الرد على شكهم ، وهى مرحلة تذكر بخلق الانسان ، وعلم الله بكل ما يجول بخاطره ، ورقابة الملائكة على الانسان ، وتذكير الانسان بالموت ، وبالمصير الفظيع الذى أعد للكافر ، وبالمصير المشرق المعد للمؤمن التقى ، وان هذا وعد من الله للمؤمن • وتختم هذه المرحلة بالاعلان أن الانسان ذا القلب وأن الانسان الذى يصغى بتدبر ، يكفيه هذا البيان ليتذكر ، وتبدأ المرحلة الثانية من الرد وتستمر حتى نهاية السورة •

((ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج انا نحن نحيى ونميت والينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)) •

يذكر هذا القسم بأن الله خالق السموات والأرض وما فيهما فى مدة قصيرة بلا تعب وفى هذا الكلام رد مقنع على الشك ، هذا الاله لا يعجز عن اعادة الانسان مرة ثانية •

وهل شك الانسان فى محله ؟

ثم يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أقوالهم ـ الآنفة الذكر ـ التى رأيناها فى المقطع الأول ((**آئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد**)) وفى المقطع الثانى : ((**بل كذبوا بالحق لما جاءهم**)) وفى المقطع الثالث ((**بل هم فى لبس من خلق جديد**)) والعبادة لله ويؤكد له أن يوم القيامة آت وأنهم محشورون وأن الله يعلم أقوالهم وأن مهمته أن يذكرهم • فخاتمة السورة اذن تخاطب النبى وتعلمه كيف ينبغى أن يكون موقفه •

وكما ترى من استعراض هذه السورة ، فان التناسق والترتيب والوحدة والتكامل كل هذه موجودة بشكل واضح فى السورة • فاذا ما أتى انسان مغرض أو معرض ، وقال بأنه لا رابط بين الآيات فى السورة الواحدة ، فانه لا شك يدلل على فساد ذوقه ، وعمى بصيرته وليس ذلك بضار القرآن شيئا •

المثال الثانى من النموذج الأول

سورة الواقعة

تبدأ السورة فى الحديث عن الساعة :

((اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة اذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا)) وبعد هذه المقدمة ننتقل الى تصنيف الناس فى ذلك اليوم :

((وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ؟ والسابقون السابقون)) ثم تبين ما أعد لكل صنف من هذه الأصناف مبتدئة بالسابقين لانهم الافضل :

((أولئك المقربون فى جنات النعيم • ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما)) •

ثم تبين ما أعد لأهل اليمين :

((وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود ، وطلح منضود، وظل ممدود وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة، انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين ثلة من الاولين وثلة من الآخرين)) •

ثم تبين ما أعد لأهل الشمال :

((وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، انهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون أو أباؤنا الأولون ، قل ان الاولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ، ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين)) •

ويبقى بعد ذلك عندنا فى السورة مقطعان كل منهما ينتهى بكلمة **((فسبح باسم ربك العظيم))** •

يبدأ المقطع الأول بهذه الآية **((نحن خلقناكم فلولا تصدقون))** الخطاب كما ترى من الله للانسان يذكره فيه بأنه خلقه ويطالبه فيه أن يصدق ، وبديهى أنه يطالبه هنا بالتصديق فى اليوم الآخر الذى كان الحديث السابق كله عنه ،

ثم يبدأ المقطع يناقش الانسان لاقناعه بالتصديق ، ونجد أن المقطع مقسم الى أربعة أقسام كل قسم مبدوء بكلمة « أفرأيتم » وكل قسم يلفت الانسان للايمان بالله والتصديق بأنه الخالق للوصول بعد ذلك الى الايمان باليوم الآخر :

الفقرة الأولى : ((**أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون**)) •

الفقرة الثانية : ((**أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون : انا لمغرمون بل نحن محرومون**)) •

الفقرة الثالثة : ((**أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون**)) •

الفقرة الرابعة : ((**أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أما نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم**)) •

ينتهى المقطع وقد أثبت أن الله هو الخالق العظيم ، وباثبات هذه الحقيقة لا يسع الانسان الا أن يصدق بما أخبره الله عنه بأنه كائن يوم القيامة •

ويبدأ المقطع الأخير فى السورة :

((**فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ، أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**)) فيتقرر فيه أولا أنه لا مجال للتكذيب بشىء أخبر به القرآن ، وانه لعقوق بالانسان أن يكذب ثم يستمر المقطع مبينا أن الموت لابد منه ، وأنكم عاجزون أيها البشر عن رده :

((**فلولا اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين**)) •

واذا تقرر هذا كله فان الذى أخبرتم عنه فى أول السورة حق كله :

((**فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم**)) •

((**وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين**)) •

((**وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم**)) •

((**ان هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم**)) •

وبذلك تنتهى السورة ، مرتبطا أولها باخرها ، معروضة أدلة أولها وآخرها فى وسطها متناسقة تناسق كل ما كان من عند الله ولكن العمى لا يبصرون •

المثال الثالث من النموذج الأول

سورة الأنبيـاء

تتألف السورة من مقدمة هى آية واحدة ، وسبعة مقاطع المقطع الأول مبدوء بكلمة « ما » والمقاطع الست الأخرى مبدوؤة بكلمة « وما » فكأن حرف العطف الواو يعطف « ما » فى المقاطع الست عليها فى المقطع الأول ٠ وسنرى باستعراضنا لمقاطع السورة ومقدمتها ، ارتباط المقاطع بعضـــها ببعض وانسجام الكل مع المقدمة ، لتظهر أخيرا الوحدة المتناسقة فى السورة كلها ٠

تبدأ السورة بهذه الآية **((اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون))** فالآية تتحدث عن غفلة الناس واعراضهم مع قرب الحساب ٠

ثم يبدأ المقطع الأول :

((ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون ٠ لاهيـة قلوبهم وأسروا النجوى ٠ الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ٠ قال : ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو الســـميع العليم ٠ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا باية كما أرسل الأولون ٠ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون)) ٠

يتحدث المقطع عن موقف الناس من الوحى ، وأنهم يستقبلونه بغفلة ٠ واعراض واتهام صاحبه بأنه بشر بلا ميزة ، وأنه ساحر وأن الوحى محض تخيلات وأوهام ، وأنه مختلق وأن الرسول انسان عاطفى غير ذى عقــل علمى ، وأنهم يطلبون آية كدليل ٠ وفى المقطع تذكير بعلم الله ، وتذكير بأن ذلك طبيعة الانسان فى كل عصر ٠

ويأتى المقطع الثانى :

((وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ٠ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ٠ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ٠ لقد أنزلنا اليـكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون ٠ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشـأنا بعدها قوما آخرين ٠ فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون ٠ لا تركضـوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ٠ قالوا يا ويلنـا انا كنا ظالمين ٠ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين)) ٠

والمقطع كله رد على أقوالهم فى المقطع الأول وتوكيد للحقائق الموجودة فيه فالمقطع يقول :

صحيح أن الرسول بشر ولكنه ميزته عليكم أنه يوحى اليه ٠ يعرف هذا كل أمة بعث بها رسول ، وهؤلاء الرسل فيهم كل صفات البشرية ، ولكنهم

مؤيدون من الله • منصورون على من خالفهم ، وأن هذا القرآن وحى ككل وحى سابق ، فينبغى أن يعقل المكلفون فيه هذه الحقيقة ، وليعلموا أن قرى كثيرة لم تستجب لوحى الله فكان عاقبتها الهلاك والدمار •

ولاحظ نهاية المقطعين :

نهاية المقطع الأول :

((ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون)) •

ونهاية المقطع الثانى :

((وكم قصمنا من قرية ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين)) •• الى ((حتى جعلناهم حصيدا خامدين)) •

ويأتى المقطع الثالث :

((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين • لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين • بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون • وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون • يسبحون الليل والنهار لا يفترون • أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون • لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون • لا يسأل عما يفعل وهم يسألون • أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)) •

لقد بين المقطع الأول والثانى حالة الكافرين فى الاعراض عن الوحى ، وفى الغفلة واللهو والموقف غير الجدى • ولما كان هذا كله نابعا عن التصور الخاطىء لقضية خلق الكون وعن عدم معرفة الجلال الالهى وحقوقه ، وعن الشرك والتصورات المضحكة التى لا تقوم على دليل • فان هذا المقطع الذى مر معنا تحدث عن هذه المعانى كلها ويلاحظ أن المقطع قد ختم بهذه الجملة **((بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون))** • وهى تبين ارتباط هذا المقطع بما قبله وبالمقدمة •

واذ يقرر المقطع الثالث هذه المعانى كلها مما له علاقة بجلال الله ، وفساد الشرك وكونه لا دليل عليه ، ليصحح موقف الانسان فى الحياة ، فان المقطع الرابع يأتى ليؤكد وحدانية الله ، وانها الدعوة التى حملها كل رسول ، وأن أى دراسة للكون توصل الى هذه الحقيقة :

ان خالق هذا الكون واحد •

يقول المقطع الرابع :

((وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون • وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون • لا يسبقونه بالقول

وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون • ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين • أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون • وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون • وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون)) •

ويأتى بعد ذلك المقطع الخامس وهو أطول المقاطع فى السورة • ويلاحظ منذ بدايته ، انسجامه مع السورة كلها فى خطابه ومعانيه • فهو مثلا مبدوء بكلمة « وما » ككل المقاطع ويخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك كمثلها لاحظ : بداية المقطع الثانى الذى بدأ الرد على الأفكار التى طرحها الكافرون •

((وما أرسلنا قبلك الا رجالا)) •

وبداية المقطع الرابع :

((وما أرسلنا من قبلك من رسول ••)) •

وبداية المقطع الخامس الذى فيه نظرنا الآن **((وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد)) ••**

ولطول المقطع نستعرض جملة معانيه حسب تسلسل آياته ثم بعد ذلك نذكر ارتباط هذا المقطع بما قبله •

تذكر الآيات الأولى فيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم ميت ككل بشر • واذا مات هو فلن يخلد أعداؤه ، وما فى الحياة كله ابتلاء ، والمرجع الى الله ، فمن ينبغى أن يخشى من الموت صلى الله عليه وسلم أم هم ؟ تقول الآيات :

((وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون • كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون)) •

ثم يتحدث المقطع عن موقف الكافرين اذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلامهم وابعاد الله لهم ، وسؤالهم متى تحقيق هذا الوعيد والجواب :

((واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون • خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين • لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون • بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون)) •

ثم يبين المقطع أنه اذا استهزىء برسول الله صلى الله عليه وسلم فان كل نبى سابق قد استهزىء به :

« ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون » ٠

ثم يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم أمرين كل منهما مبدوء بكلمة « قل » ٠

الأول : **« قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ٠ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ٠ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون »** ٠

وواضح أن هذا رد على موقفهم ، وتبيان لهم أنهم لو عرفوا الله حق المعرفة ما وقفوا هذا الموقف ٠

الثانى : **« قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون »**

وفي هذا كذلك رد عليهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يقول من عند نفسه فاذا لم يسمعوا فهم السبب ٠ فاستهزاؤهم في غير محله بل هم الجديرون بالاستهزاء ٠

ثم يبين المقطع حالهم اذا عاقبهم الله في الدنيا وماذا أمامهم في الآخرة :

« ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين ٠ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ٠

ثم يبدأ المقطع يقص علينا من قصص الأنبياء بحيث نأخذ من كل قصة نبي عبرة تنسجم مع موضوع السورة ٠ وقبل أن نبدأ استعراض هذه القصص واحدة فواحدة ، ونرى انسجام كل قصة مع السورة فاننا بشكل عام :

نلاحظ فيما مضى معنا من المقطع ٠ أن الحديث منصب على نفس المعاني التي مرت في المقاطع السابقة : موقف الكافرين من الوحي والرسول ، وعاقبة هذا الموقف ومناقشته ٠

ونبدأ الآن في استعراض القصص :

١ ـ **« ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين ٠ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ٠ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون »** ٠

وبينة علاقة القصة بالسورة ، فالسورة من بدايتها تتحدث عن الذكر المنزل **« ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث »** والقصة هنا تشير الى أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم قد أنزل مثله على موسى وهارون ، فلا مجال اذن

لانكاره ، ويلاحظ أن القصة الأولى منسجمة تمام الانسجام مع معانى المقطع الاول فكأنها مثال عليه ٠

٢ ـ ((ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ٠ اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون ٠ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ٠ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ٠ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ٠ قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين ٠ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ٠ فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ٠ قالوا : من فعل هذا بالهتنا انه لن الظالمين ٠ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ٠ قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ٠ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ٠ قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم ان كانوا ينطقون ٠ فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ٠ ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ٠ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ٠ اف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ٠ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ٠ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ٠ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين ٠ ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين ٠ وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين)) ٠

٣ ـ ((ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين ٠ وأدخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين)) ٠

٤ ـ ((ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ٠ ونصرناه من القوم الذين كذبوا باياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين)) ٠

ويلاحظ أن القصص الثلاثة ٠ هذه قصة ابراهيم ولوط ونوح عليهم السلام لها علاقة فى المقطع الثانى ، اذ أنها تؤكد نفس معانيه ((وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ٠ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ٠ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين)) ٠٠

لاحظ كلمة « فأنجيناهم » هنا وورودها فى القصص الثلاثة ٠

٥ ـ ((وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ٠ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ٠ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم

من بأسكم فهل أنتم شاكرون • ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين • ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين)) •

٦ ـ ((وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين • فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين)) •

٧ ـ ((واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين ، وأدخلناهم فى رحمتنا انهم من الصالحين)) •

٨ ـ ((وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين • فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين)) •

٩ ـ ((وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين • فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين)) •

١٠ ـ ((والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين • ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)) •

هذه عشر قصص وهى بمجموعها وهذه الآية الأخيرة التى أعقبتها تؤكد المقطع الرابع :

((وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فأعبدون)) •

وكما ترى فان المقطع الخامس يؤكد بمجموعه المعانى الموجودة فى المقاطع السابقة ، ولعل خاتمة المقطع يتبين لك فيها هذا الارتباط ، فقد تحدث عن اقتراب يوم القيامة وقد بدأت فيه السورة ، وعن مصير الكافرين والمؤمنين فى ذلك اليوم ، ووعد الله للمؤمنين بالنصر وتأمل تتمة آيات المقطع :

((وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون • فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون • وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون • حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون • واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين • انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون • لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون • لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون • ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون • لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون • يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين •

ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون • ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين)) •

وأخيرا يأتى المقطع السادس ليبين :

أن محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للبشر وأنه مأمور أن يدعو الناس الى التوحيد والاسلام ، وأن عليه أن يبلغ ، وأن يوم القيامة آت ، وأن الله يعلم السر والجهر وتختم السورة بدعاء للنبى صلى الله عليه وسلم •

واذا تأملت المقطع الأخير تجد ارتباطه الوثيق بكل مقاطع السورة ، وتذكر الآن معانى السورة ثم تدبر آخر مقطع :

((وما أرسلناك الا رحمة للعالمين • قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون • فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون • انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون • وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين • قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون)) •

❋ ❋ ❋

ولعل هذا المرور الخاطف على هذه السور الثلاث وضح لنا تناسق السورة القرآنية ووحدتها وانسجامها وترابطها ، وهذا الذى رأيناه هنا نستطيع أن نراه فى كل سورة قرآنية من الفاتحة الى سورة الناس بما فى ذلك السور الكبيرة كالبقرة وآل عمران •• ونتيجة لهذا القول نقول : ان الترتيب فى كل سورة من سور القرآن كائن بشكل معجز فهو مع كماله فى بابه لا يستطيع أن يدركه الا انسان بلغ الذروة فى نضج التأمل • فهل يمكن أن يكون هذا وليد بيئة أمية ؟

❋ ❋ ❋

(ب)

والآن ننتقل لاثبات الأمر الآخر :

ان القرآن كله مترابط فيما بينه ، بشكل وحدة منتظمة مترابطة ••

أول سورة من سور القرآن هى الفاتحة ويلاحظ أنها أوجزت معانى القرآن كله • فمعانى القرآن كلها تدور حول العقائد ، والعبادات ، ومناهج الحياة ، والسورة بدأت بالعقيدة ((**بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين**)) وثنت بالعبادات ((**اياك نعبد واياك نستعين**)) وثلثت بمناهج الحياة ((**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم**)) وبينت أخيرا أن منهاج المسلمين متميز ((**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**)) ويلاحظ أن آخر مقطع فيها مبدوء بكلمة ((**اهدنا**)) ويأتى فى أول

سورة البقرة ((**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**)) فالرابطة اذن بين سورة الفاتحة والبقرة والقرآن كله واضحة ٠

ننتقل الآن الى سورة البقرة والسور التى تليها الى سورة يونس وهى المسماة بالسبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والاعراف والانفال ، والتوبة ، لنرى هل هناك رابطة بين هذه السور :

نظرة على سورة البقرة نلقيها ترينا :

١ ــ ان السورة مبدوءة بأحرف ((**الم**)) ويأتى بعدها عشرون آية تتحدث عن أقسام الناس فى المصطلح القرآنى ٠ متقين ، وكافرين ، ومنافقين ، وتصف كلا من هؤلاء ٠

٢ ــ تأتى بعد ذلك خمس آيات مبدوءة بكلمة ((**يا أيها الناس**)) وفيها دعوة الى الناس جميعا أن يكونوا من الفئة الأولى « المتقين » وان طريق التقوى هو عبادة الله ، وتصف الآيات مظاهر قدرة الله ، وكون القرآن لا شك فيه ، ومصير الذين لا يسلكون هذا السبيل ومصير الذين يسلكونه ٠

٣ ــ تأتى بعد ذلك ثلاث آيات تتحدث عن الله عز وجل والقرآن ، وموقف المهتدين منه ، وضلال الضالين به وصفاتهم ((**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ٠ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون**)) ومناقشة من يكفر بالله عز وجل ٠

٤ ــ تأتى بعد ذلك آية مبدوءة بكلمة ((**هو**)) تتحدث عن الله أنه خلق كل شىء فى الأرض للبشر ٠

٥ ــ تأتى بعد ذلك عشر آيات تتحدث عن قصة آدم عليه السلام ، ونزوله الى الأرض ، وتختتم بالقاعدة التى تحاسب عليها البشرية ((**فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**)) ٠

بعد ذلك يقص الله من قصص بنى اسرائيل وموقفهم من الهدى المنزل عليهم ٠ ثم من قصة ابراهيم عليه السلام وعبوديته لله ودعواته ووصاياه ، ثم قواعد حول قبلة المسلم بعد قصة ابراهيم ، ثم أوامر لها علاقة بالعبادة والتقوى ثم فريضة الله على المسلمين فى أمر القتال الآية ٢١٦ ٠

٦ ــ ((**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**)) ثم تأتى آية مبدوءة بكلمة ((**يسألونك**)) الآية فيها استفتاء من الصحابة عن قضية لها علاقة بالقتال ثم تفصيلات فى أمور كثيرة ٠ حتى تختم السورة ٠ ومن السهل جدا على دارس السورة أن يجد وحدتها ، وليس هذا ما نريده الآن بل نريد اثبات الصلة بين هذه السورة والسور الست التى تليها ٠

ولعلك تدهش اذا قلنا لك أن السور الست الطوال التى تأتى بعدها انما تشرح وتفصل هذه المقاطع التى ذكرناها لك بشكل واضح لا يلتبس على المتأمل • وهى تشرح هذه المقاطع بالتسلسل الموجود فى سورة البقرة وكأن هذه المقاطع تحتاج الى زيادة ايضاح فجاءت كل سورة تشرح كل واحدة منها مقطعا وهاك الدليل :

١ ــ سورة البقرة مبدوءة بأحرف ((**ألم**)) وسورة آل عمران مبدوءة بنفس الأحرف • سورة البقرة مبدوءة باية ((**ذلك الكتاب لا ريب فيه**)) • سورة آل عمران مبدوءة بهاتين الآيتين ((**الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق**)) •

العشرون آية الأولى فى البقرة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين • سورة آل عمران كلها توضح ملامح هذه الفئات الثلاث ، والحدود التى ينبغى أن تقف عليها الجماعة المسلمة فى علاقتها مع الفئتين الأخريين •

٢ ــ بعد العشرين آية من سورة البقرة تأتى الآية المبدوءة بـ ((**يا أيها الناس**)) والتى تبين للانسان طريق التقوى وأن التقوى هدف ((**اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**)) •

وتأتى سورة النساء بعد سورة آل عمران مبدوءة باية :

((**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة**)) نفس النداء • نفس المعانى ، وكأنك عندما تدرس سورة النساء انما تدرس التقوى طريقا وسلوكا •

٣ ــ وبعد هذه الآيات تأتى الآيات التى مرت معنا ، والتى تتحدث عن نقض العهد • وتأتى بعد سورة النساء سورة المائدة وهى مبدوءة بالأمر بالوفاء بالعقود ((**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**)) وفى السورة أكثر من آية تذكر العهود •

((**واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا**)) وكأن السورة تذكر المعانى الأساسية للعهود الاساسية التى من تمسك بها اهتدى بهدى القرآن والا ضل •

٤ ــ وبعد آيات البقرة هذه تأتى الآية ((**هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا**)) وتأتى بعد سورة المائدة سورة الأنعام التى تتردد فيها كلمة ((**هو**)) ((**وهو**)) مرات كثيرة • الآية الثانية ((**هو الذى خلقكم من طين**)) والآية (١٨) ((**وهو القاهر فوق عباده**)) والآية (٦٠) ((**وهو الذى يتوفاكم**)) و ••

وهكذا مرات ، وآخر آية فى السورة تكاد تكون معنى حرفيا لآية البقرة ((**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم**)) فكأن سورة الأنعام كلها تفصيل لمجمل الآية فى البقرة •

٥ ــ وتأتى بعد ذلك فى البقرة قصة آدم ، وتنتهى بالقاعدة التى ذكرناها ((**فمن تبع هداى** ٠٠)) وتأتى بعد سورة الأنعام سورة الاعراف والآية الثانية فيها ((**اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم**)) والآية الأولى فيها تقول ((**المص ، كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، اتبعوا**)) وتأتى بعد ذلك قصة آدم وقصص عن أمم وكيف كان موقفهم من الهدى المنزل عليهم فكأن السورة كلها عرض عملى وتاريخى ومناقشة فى جو القاعدة التى انتهت بها قصة آدم فى سورة البقرة ٠

٦ ــ وكما أنه بعد آية القتال فى سورة البقرة تأتى كلمة ((**يسألونك**)) وفيها استفتاء عما له علاقة فى القتال ، فان سورة الأنفال بعد الاعراف مبدوءة بكلمة ((**يسألونك**)) ٠

والسورة كلها والسورة التى بعدها وهى سورة « التوبة » تتحدثان عن القتال وأدب الحرب ، ويلاحظ أن السورتين فى القرآن مكتوبتان بلا فاصل « البسملة » فكأن السورتين شرح وتوضيح للفريضة التى ذكرها الله فى سورة البقرة ٠

ونظن أن قد وضحت الرابطة التى تربط هذه السور فيما بينها ٠

ولكنك سترى أعجب ان شاء الله تعالى :

١ ــ سورة آل عمران شرحت العشرين آية كلها فى البقرة أما سورة يونس فتفصل الآية الأولى من سورة البقرة ((**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**)) ٠

لاحظ الآن سورة يونس : تبدأ السورة بهذه الآية :

((**الر تلك آيات الكتاب الحكيم**)) ٠

ثم تقول ((**أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم ، ان أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون ان هذا لساحر مبين**)) اذن تبدأ السورة بتحطيم الشبه الموجودة فى أذهان الناس حول القرآن ، ويستمر هذا المعنى حتى ينتهى عند الآية (٣٧) بهذا الشكل :

((**وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين**)) ثم يأتى حرف « أم » فكأنه استمرار للمقطع المبدوء بحرف الاستفهام الهمزة « أكان » ٠٠

((**أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين**)) ٠

اذن لا زالت السورة تدحض شبه المرتابين والمكذبين ، ويستمر هذا المقطع حتى الآية (٥٧) المبدوءة بـ ((**يا أيها الناس**)) وكأن السورة حتى هذه

الآية تفصل الجزء الأول من الآية الاولى من سورة البقرة ((**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه**)) وتأتى الآية (٥٧) لتبدأ السورة فى تفصيل الجزء الثانى من الآية ((**هدى للمتقين**)) تقول آية يونس ((**يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين**)) •

وتختم السورة بهذه الآية (١٠٤ ــ ١٠٨) :

((**قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين • وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين • ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذن من الظالمين ، وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**)) •

((**قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ، واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين**)) وبهذا تنتهى السورة •

٢ ــ وسورة النساء شرحت التقوى فى الآية (٢١) من سورة البقرة . أما سورة هود فانها تفصل الأمر ((**اعبدوا**)) من نفس الآية •

واقرأ الآن سورة هود تجد ، ((**الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا الا الله**)) ولعلك لاحظت كلمة ((**ألا تعبدوا الا الله**)) ، ثم استمر فى التلاوة لتجد فى الآية الخامسة والعشرين :

((**ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين • أن لا تعبدوا الا الله**)) ، ثم استمر حتى الآية الخمسين تجد ((**والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله**)) ثم استمر حتى الآية (٦١) تجد : ((**والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله**)) ثم استمر حتى الآية (٨٤) تجد ((**والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله**)) والى آخر آية فى السورة ((**ولله غيب السموات والأرض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون**)) ، ولعلك لاحظت فيها الأمر « فاعبده » •

٣ ــ وسورة يوسف تبين مقنعة للانسان أن هذا القرآن من عند الله فهى تفصل ــ والله أعلم ــ الآية التى بعد ما مر فى البقرة ((**وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله**)) فان سورة يوسف تبدأ ((**الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين**)) • وتختم السورة ((**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ما كان حديثا يفترى**

ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)) .

٤ ــ وبعد الآية (٢٤) فى البقرة تأتى الآيتان :

((ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون)) .

وادرس الآن سورة الرعد لتجدها تفصيلا لهذه المعانى .

فمما يلفت النظر فى سورة الرعد ، أن الآية الثانية فيها **((الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ..))** وأن الآية الثامنة **((الله يعلم ما تحمل كل أنثى))** والآية (٢٦) **((الله يبسط الرزق لمن يشاء)) ..**

فكأن كل مقطع فى السورة مبدوء بكلمة **((الله))** فالمقاطع كلها تفصل اذن آية البقرة الآنفة الذكر **((ان الله لا يستحيى))** فاذن سورة الرعد تعرفنا على الله أكثر ويلاحظ أنه فى المقطع الثانى من سورة الرعد ، ترد هذه الآيات فى خاتمته ، وهى كما ترى تأكيد لمعنى الآيتين المذكورتين فى البقرة :

((أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الالباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)) .

ولا يشك الانسان وهو يقرأ آيتى البقرة (٢٧ و ٢٨) ويقرأ سورة الرعد أن سورة الرعد تفصيل لتلك الآيتين .

ونستطيع الآن بعد أن استعرضنا مثالين يثبتان وجود الترابط بين سور القرآن ككل أن نضع أسس نظرية فى هذه القضية فنقول :

ان كل مجموعة سور من القرآن تشكل كلا متكاملا ، وهذه المجموعات كلها انما تفصل المعانى التى ذكرتها سورة البقرة على الترتيب مع تبيان وتوضيح وتفصيل ، وقد رأينا مثالين على ذلك ، ويلاحظ أن كل مجموعة من السور قد عرضت الأسس النظرية والعملية للاسلام ، بحيث أن من يقرأ أى

مجموعة من هذه المجموعات ، يتذكر بكل الحقائق الاولية فى الاسلام • كما يلاحظ أن كل مجموعة من هذه المجاميع قد عرضت هذه الحقائق بلغة وطريقة عرض ونغمة جرس تختلف عن الأخرى ، مما يبهر الانسان ولا يستطيعه مخلوق: أن تعرض قضية واحدة على عشرات الاوجه وبطرق كثيرة من العرض • المعانى فى البقرة مرتبة ترتيبا معينا كل مجموعة سور تشكل وحدة • تعرض المعانى القرآنية على ترتيب عرضها فى سورة البقرة ، هذه المجموعة تتدرج من الطول الى القصر ، كل وحدة تذكر الانسان بالمعانى الأساسية بطريقة عرض تختلف عما قبلها • ولو تأملت سورة العصر فما بعدها لرأيت نفس ترتيب العرض فى سورة البقرة مع فارق القصر ، فهل يمكن أن يكون هذا من عند بشر !

ولعلنا استطعنا بفضل الله بعد ما تقدم توضيح هذه الآيات وتفهيم معناها مما وصف الله به كتابه :

١ ـ ((**كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**)) •

٢ ـ ((**كتابا متشابها مثانى**)) •

٣ ـ ((**ان هو الا ذكر وقرآن مبين**)) ((**وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم**)) •

فبسبب مما رأيناه كان القرآن مفصلا ، وكان متشابها ، وكان مثانى ، وكان مذكرا • لأن كل جزء منه يذكر بما ينبغى أن يتذكره الانسان • وبمثل هذا وبمثل ما يأتى بعد كان هذا الكتاب على غاية الحكمة ولا يعلوه كتاب أبدا عرفه البشر •

ـ ٢ ـ

ومن خصائص هذا القرآن التى تشير الى ربانية مصدره ، ما أشار اليه القرآن بقوله :

((**قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض**)) ((**لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه**)) ((**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**)) •

لقد أخبر الله فى الآية الأخيرة أنه سيكشف للناس خفايا هذا الوجود ، ودقائق هذا الانسان وأن هذا الكشف فيه دليل صادق على أن القرآن حق ، اذ ما سيعرفه الانسان سيطابق ما فى القرآن وهذا لا يكون الا اذا كان منزل القرآن هو الله العالم بأسرار السموات والأرض ولئن كانت الآية الاخيرة نبوءة كاملة فى حد ذاتها ، تحققت بما كشف الانسان حتى الآن فان ما سنذكره من أمثلة سيكون برهانا كاملا على نسبة القرآن لله جل جلاله :

لقد تحدث القرآن بلغة واضحة عن كثير من القضايا الكونية ، مما لم يكن

معروفا قطعا قبل أربعة عشر قرنا فى أى مكان من العالم ، فضلا عن ان يكون معروفا فى جزيرة العرب حيث الأمة الامية ، التى كانت معارفها عن الكون محدودة وسطحية ، فكان حديث المحيط بسر كل شىء • وكلما تقادم الزمان أكثر كلما ظهرت دقة القرآن أكثر • فيصبح الانسان أمام الحقيقة التى لا شك فيها أن خالق الكون ومنزل القرآن واحد ، الله رب العالمين ، وهذه أمثلة وفى القرآن المزيد لمستزيد :

١ ــ قال الله تعالى :

((وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين)) •

يقول العلم اليوم أن الحليب قبل أن يصبح فى الثدى ، يمر على عمليتى تصفية • الأولى تصفيته من الفضلات وذلك بعد الهضم ونزول السائل الحليبى الى الامعاء ، اذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة اياها فى الدم ومبقية الفضلات فى الأمعاء حيث تطرح خارج الجسم • وأما المواد الممتصة التى طرحت فى الدم فان قسما منها يغذى جسم الكائن الحى وقسما آخر تصفية الغدد اللبنية من الدم وترسله الى الضرع حليبا خالصا سائغا للشاربين •

اذن قال العلم هذا الحليب يصفى أولا من الفضلات ثم من الدم •

وقال القرآن ((**من بين فرث** (والفرث هو الفضلات) **ودم لبنا خالصا**)) ••

وهذه الحقيقة العلمية التى يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر وما كان بشر فى ذلك العهد ليتصورها فضلا عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة ، وما يملك انسان يحترم عقله أن يمارى فى هذا أو يجادل ، ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة ، يكفى وحده لاثبات الوحى من الله بهذا القرآن •

٢ ــ قال الله تعالى :

((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء)) •

((منذ اكتشاف الطبقات العليا من الجو بفضل الطيران والبالونات ، استطعنا أن ندرك ظاهرة كونية تنتج عن نقص أوكسيجين الهواء فى طبقات الجو العليا ، اذ يشعر الصاعد فى هذا العلو ببعض الصعوبة فى التنفس ويحس بالضيق ، والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع فى السماء يشعر بعوارض الضيق ، ولذلك يستعمل الطيارون الذين يصعدون الى الارتفاعات العالية أجهزة

المتنفس الصناعية حتى يتفادوا هذه الحالة ولقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية العليا • ويلاحظ أن الآية لم تعبر عن لفظ الصعود فى الجبال بل عبرت عن الصعود فى السماء • كما أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وصحارى ممتدة وليس فيها جبال عالية بحيث يأخذ الساكن فيها فكرة عن تسلق الجبال وما يشعر المتسلق فيها من ضيق » •

٣ ـ قال تعالى :

« ومن كل شىء خلقنا زوجين » •

وقال **« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »** •

القاعدة فى اللغة العربية أن (كل) اذا أضيفت الى معرفة عمت أجزاؤها واذا أضيفت الى نكرة عمت أفرادها وفى الآية الأولى أضيفت (كل) الى نكرة لذلك تعم جميع الاشياء •

يقول صاحب ظلال القرآن « وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض وربما فى هذا الكون ، اذ أن التعبير لا يخصص الارض قاعدة الزوجية فى الخلق وهى ظاهرة فى الاحياء ولكن كلمة شىء تشمل غير الأحياء أيضا ، والتعبير يقرر أن الاشياء كالاحياء مخلوقة على أساس الزوجية ، وحين تتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا وأن فكرة عموم الزوجية حتى فى الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلا على عموم الزوجية فى كل شىء•• حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير •

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول وهى لا تكاد ••

ان بناء الكون كله يرجع الى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء موجب وسالب •

٤ ـ قال تعالى : **« يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم »** •

وقال **« ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون »** •

وقال : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ،

فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين))
وقال : ((**اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق))** •

يتم الاخصاب بين الحيوان المنوى للرجل وبويضة المرأة فى أعلى القناة الواصلة بين المبيض والرحم ، فيبدأ الجنين خلية واحدة ولكن الانسان كله بكل عناصره وخصائصه يكون مختصرا فى تلك الخلية الواحدة ، ثم تنحدر فى اتجاه الرحم مستغرقة فى رحلتها ما يقارب الاسبوع ، تكون خلاله قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا تلتصق هذه الكتلة بجدار الرحم فتنهشه ربما بواسطة أنزيمات معينة حتى تعلق به كنقطة صغيرة تتغذى على دم الأم وليس أدق من كلمة العلقة فى وصف شكل ونشاط الجنين فى هذه المرحلة ثم تأخذ هذه العلقة فى النمو ، وتأخذ خلاياها فى التنوع ، ويكون شكلها مستديرا بغير انتظام ، وتبقى كذلك بضعة أسابيع يكون الدم فيها فى (برك) صغيرة لا فى شرايين محددة ، ان شكلها لا يختلف عن شكل قطعة من اللحم الممضوغ وان كان طولها لا يتعدى بضعة مليمترات •

ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادى هو الغضروف الذى تترسب حوله مادة العظم فيما بعد ، وتنشط الخلايا فى كافة أجزاء المضغة مكونة الأنسجة والاجهزة التى تكسو العظام المتكونة لحما •

وهنا يقف الانسان مدهوشا امام ما كشف عنه القرآن من حقيقة فى تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة الا أخيرا بعد تقدم علم الأجنة التشريحى • وذلك أن خلايا العظام هى التى تتكون أولا فى الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم الا بعد ظهور خلايا العظم ، وتمام الهيكل العظمى الغضروفى للجنين • وهى الحقيقة التى يسجلها النص القرآنى ((**فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما))** فسبحان العليم الخبير •

فى كل المراحل السابقة لا توجد فروق بين جنين الانسان وجنين الحيوان ولكن ما ان يوشك الشهر الثانى للحمل على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الانسانية لهذا الجنين فاذا به خلق آخر •

ان الجنين الانسانى مزود بخصائص معينة هى التى تسلك به طريقه الانسانى فيما بعد ، وهو ينشأ ((**خلقا آخر**)) فى آخر أطواره الجنينية بينما يقف الجنين الحيوانى عند التطور الحيوانى لأنه غير مزود بتلك الخصائص • ومن ثم فانه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبة الحيوانية فيتطور الى مرتبة الانسان تطورا آليا كما تقول النظريات المادية فهما نوعان مختلفان اختلفا بتلك النفخة الالهية التى بها صارت سلالة من الطين انسانا • واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتى ينشأ بها الجنين الانسانى خلقا آخر • ان الانسان والحيوان يتشابهان فى التكوين الحيوانى ، ثم يبقى الحيوان حيوانا فى مكانه لا يتعداه ، ويتحول الانسان خلقا آخر

قابلا لما هو مهيأ له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلى من نوع الحيوان الى نوع الانسان .
((**فتبارك الله احسن الخالقين**)) .

وان الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه « معجزات العلم(١) » حين يصنع الانسان جهازا يتبع طريقا خاصا فى تحريكه دون تدخل مباشر من الانسان . فأين هذا من سير الجنين فى مراحله تلك وأطواره وتحولاته ، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة فى طبيعتها وتحولات كاملة فى ماهيتها ؟

غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضى العيون مغلقى القلوب . لأن طول الالفة أنساهم أمرها الخارق العجيب ، وأن مجرد التفكير فى أن الانسان هذا الكائن المعقد كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته فى تلك النقطة الصغيرة التى لا تراها العين المجردة ، وأن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك فى مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقا آخر . فاذا هى ناطقة بارزة فى الطفل مرة أخرى . واذا كان الطفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة . هذه الوراثات وتلك التى كانت كامنة فى تلك النقطة .

ان مجرد التفكير فى هذه الحقيقة التى تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب .

كل هذا يتم فى القرار المكين الذى هو الرحم وان من يدرس تشريح الرحم ، وموضعه المكين الأمين فى أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ذا الجدار العريض السميك ، ثم يرى هذه الاربطة العريضة ، والاربطة المستديرة ، وهذه الاجزاء من البريتون التى تشده الى المثانة والمستقيم ، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره وتحميه من الميل أو السقوط . تطول معه اذا ارتفع عند تقدم الحمل ، وتقصر الى طولها الطبيعى تدريجيا بعد الولادة . ان من يدرس كل ذلك ثم يعرف تكوين الحوض وعظامه يعرف جيدا صدق قوله تعالى :

((**ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين**)) .

٥ ـ ((**وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءا فأسقيناكموه وما انتم له بخازنين**)) .

((**ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار**)) .

---

(١) لا يجوز اطلاق المعجزة الا على الأمر الخارق للعادة الذى يجرى على يد الرسل بقدرة الله .

ان العوامل المسببة للامطار محورها الكهربائية الجوية وقد أشير اليها اشارات واضحة كما سنرى فى هاتين الآيتين كما ضمت الآيتان معانى أخرى ٠

لقد كان الناس قبل يحملون وصف الرياح « باللواقح » على أنها لواقح للزرع والشجر وهذا منهم اغفال للنصف الثانى من الآية ٠ اذ لو كان ما ذهبوا اليه هو المراد لترتب عليه ازكاء الزرع واخراج الثمر للناس يأكلونه لا انزال الماء من السماء يشربونه ، أما وقد رتب الله على ارسال الرياح لواقح انزال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحتم أن يكون « للواقح » معنى آخر غير معنى نتاج الزرع ويكون مع ذلك ــ من ناحية ــ شبيها بلقاح الأحياء من زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه ربين نزول الماء ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب ، وما عليك الآن الا أن تتذكر بعض الحقائق العلمية حتى ترى سر الاعجاز فى الآية :

ان تكاثف السحاب مطرا أثر عن الكهربائية ، اذ من السحاب ما كهربائيته سالبة ، ومنه ما كهربائيته موجبة ، والرياح هى أداة اتحاد أنواع السحب حتى يتكون المطر ٠ وهذا هو المراد كما هو ظاهر فى الآية من وصف الرياح بأنها لواقح ٠

فالملاقحة هنا بين قطيرات أو بين سحاب وسحاب والشبه تام بين التلقيح الكهربائى والتلقيح النباتى فكما تتحد الخليتان فى حالة التلقيح النباتى لتنشأ بعد ذلك خلية واحدة لها غير خواص الخليتين الأصليتين فكذلك فى حالة اتحاد سحاب وسحاب اذ ينشأ عنهما برق ورعد ومطر ، اذ ينزل المطر كأثر عنه التفريغ الكهربائى السحابى ٠

فاية الحجر تلك هى مظهر من مظاهر الاعجاز المتجدد للقرآن لأن تلاقح السحاب وأثره فى نزول المطر أمر كان يجهله الانسان حتى كشف عنه العلم الحديث ٠

ثم زادت آية النور معنى الاعجاز « ثم يؤلف بينه » فان التأليف بين السحاب ما هو الا اشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبأ فى الجو تعبئة تتفق مع ما سيخلق عنها من برق وصواعق ومن مطر أو برد ٠

فاذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام عظيما ، فاذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض ــ كما هو الغالب ــ نزل المطر الناشىء عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته اثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق ، فاذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية فى ذلك السحاب الركام من القوة والاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية

علوية ومطرية سفلية تكون البرد وتما حتى يصير أثقل من أن يظل فى أسر تلك القوى فيسقط على الأرض والانسان لا يعرف كثيرا عن الظروف التى يتكون فيها البرد ولكنه يعرف أنها ظروف يسودها اضطراب جوى عظيم ٠ هذا الاضطراب قد أشارت اليه الآية والى طبيعته اشارتين :

الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذى يتكون البرد داخله بالجبال ٠ ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهى تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فاذا المشهد مشهد الجبال حقا بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها وانه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس الا بعدما ركبوا الطائرات ٠

والثانية : حين أشارت الى عظم القوى الكهربائية المشتركة فى تكوينه بنصها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك ((**يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار**)) ٠

٦ ـ ((ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ٠ ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا)) ٠

نحن نعلم أن الجو هو تراكب طبقات متتابعة ، تقل فيما بينها كثافة الهواء ابتداء من الأرض ، وفى وسط كهذا يجب أن يكون مسلك الشعاع الضوئى منحنيا طبقا للقانون الثانى للعالمين (الهيثم ـ ديكارت) وهو قانون الانكسار ٠٠ ان قانون (الهيثم ـ ديكارت) يقول بأن الشعاع الضوئى الذى ينتشر فى مجال ذى كثافة متغيرة باستمرار يخط فى مسيره خطا منحنيا ذا تجويف متجه نحو النقط الاكثر كثافة وفى هذا المجال يقبض الظل « قبضا يسيرا » بالنسبة لما قد يكون عليه فى الفراغ الذى لا يوجد فيه انكسار ٠ ذلك توافق عظيم بين ما كشفه الانسان مما لم يكن معروفا زمن تنزل القرآن وبين القرآن ٠

٧ ـ ((**والسماء بنيناها بأييد وانا لموسعون**)) وهكذا يبدو الكون من خلال الآية ـ بسبب استعمال اسم الفاعل « موسع » الذى يفيد الاستمرار فى هذه الحالة ـ وكأنه فى حالة توسع مستمر وكأنه يزداد على الدوام ، هذه المسألة أصبحت الآن من مسلمات العلوم وهى التى قالت (انشتين) عندما اكتشف عالم الطبيعة (هابل) أن الكواكب السديمية تبتعد عن (سديمنا) واستنبط عالم الرياضة البلجيكى (لومتر) من ذلك نظرية امتداد الكون ، أو ليس عجيبا مذهلا أن يضع الوحى دائما معالمه المضيئة أمام الفكر العلمى حتى كأنها تصف له الطريق وهل يستطيع أحد أن يقول بأن معالم كهذه قد انبثقت من عقل أمى ٠

٨ ـ ((وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون)) ٠

((**يغشى الليل النهـار يطلبه حثيثا**)) ٠

ان فى هاتين الآيتين اشارتين واضحتين الى موضوع دوران الأرض فالآية الاولى تلفت النظر الى أن الإنسان لأول وهلة يرى الجبال ثابتة ، ولكنها فى واقع الامر تسير تبعا لسير الكرة الارضية ذاتها ويذهب بعض المفسرين الى أن الآية فى حديث الآخرة ولكن نهايتها : ((**صنع الله الذى أتقن كل شىء**)) تدل على أنها فى عالمنا هذا ٠

والآية الثانية تشير الى نفس المعنى وان كانت الاشارة أبعد وذلك :

لنفرض أن الشمس والأرض ثابتتان اذن يكون قسم من الارض نهـارا دائما وآخر ليلا دائما ، فاذا ما فرضنا أن الشمس هى التى تدور حول الأرض فان فى هذه الحالة المنبع الضوئى هو المتحرك واذن فالنهار هو السائر والليـل تابـع ٠

وعلى عكس ذلك فى حالة دوران الأرض فالمنبع الضوئى ثابت نسبيا(١) أى بالنسبة للارض ــ وان كان هو فى حد ذاته متحركا وفى حالة ثبات المنبع الضوئى يكون الليل هو السائر وحركة النهار تابعة وهذا الذى ذكرته الآية اذ قالت : ((**يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا**)) فالليل هو الذى يطلب النهـار ولا يكون هذا الا اذا كانت الأرض هى التى تدور حول نفسها ، ولزيادة التوضيح نقول : اذا عمل الفعل ــ فى اللغة العربية ــ بمفعوليه فالأول منهما يكون فاعلا فى المعنى والثانى مفعولا ، ولا يصح تقديم ما هى مفعول فى المعنى على ما هو فاعل بالمعنى فى حالة وجود اللبس وآية : ((**يغشى الليل النهـار يطلبه حثيثا**)) عمل فعل بمفعولين كل منهما يصلح أن يكون فاعلا ومفعولا ٠ فلابد اذن أن الفاعل فى المعنى يكون هو المقدم فلما قال الله عز وجل ((**يغشى الليل النهـار**)) دل على أن الليل هو الفاعل فى النهار فى المعنى وهو الفاعل فى قوله عز وجل : ((**يطلبه حثيثا**)) يقول ابن مالك :

والأصـل سبق فاعـل معنى كمن
من ألبسـن من زاركم نسـج اليمن

ويلـزم الأصـل لموجب عـــرى
وترك ذاك الأصل حتمـا قد يرى

٩ ــ والآيات القرآنية فى هذه الناحية كثيرة لمن أراد أن يتبع وكلهـا تشير الى شىء واحد : ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر فانك اذ تجد

---

(١) يقول علماء الكون اليوم ان للشمس ثلاث حركات ٠ حركة عمودية باتجاه كوكب الجاثى مع الكواكب السيارة ، وحركة حول نفسها ، وحركة مع مجرتها ٠

فى كلمتين حقيقة علمية ما عرفها الناس الا فى زمن متأخر تصبح أمام شىء خارق جدا جدا ٠

فعندما يقول : ((**والجبال أوتادا**)) تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التى تقول بأن للجبال جذورا وتدية فى الأرض يعدل امتدادها ضعفى ارتفاع الجبل عن الارض ٠

وعندما يقول :

((**اذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الارض أثقالها**)) تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التى تعب العلم حتى وصل اليها وهى أن الاضطرابات سابق البركان وان باطن الأرض أثقل من قشرها وان كانت الآية لم تأت لبيان هذا ولكنها مع هذا لم تتناقض مع النظريات العلمية ٠

وعندما يقول فى قراءة صحيحة :

((**وجعل فيها سراجا**)) عن السماء تجد نفسك أمام حقيقة علمية غير متوقعة فالسراج فى اصطلاح القرآن الشمس وفى الماضى لم يكن تعرف الا شمس واحدة واذا بالعلم اليوم يقول هذه النجوم كلها شموس ٠

وعندما يقول :

((**والشمس تجرى لمستقر لها**)) تجد نفسك أمام أدق الحقائق عن الشمس التى تبين أخيرا أنها تشارك مجرتها فى دورتها وتدور حول نفسها وهى مع هذا تسير فى اتجاه عامودى نحو كوكبة الجاثى ويتوقع العلم حدوث حالة مالها فى يوم من الأيام ٠

وعندما يقول :

((**يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل**)) تجد نفسك أمام مسألة كروية الأرض اذ التكوير انما يكون للشىء الدائرى كما تجد نفس المعنى فى قوله : ((**والارض بعد ذلك دحاها**)) فالأدحية والادحوة مبيض النعام ٠

وعندما يقول :

((**وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم**)) تجد نفسك أمام الحقيقة العلمية التى تقول انه لولا الجبال لكانت قشرة الأرض فى حالة تشقق دائم وبالتالى فى حالة ميدان واضطراب شديدين ٠

وعندما يقول :

((**أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما**))

تجد نفسك أمام ما كشفه العلم بعد زمن فى كلا تفسيرى الآية سواء

فسرنا ((**رتقا**)) بأنهما كانتا شيئا واحدا وهذا ينسجم مع أدق النظريات العلمية خاصة السديمية أو فسرنا ((**رتقا**)) بأن الأرض كانت لا تنبت والسماء لا تمطر وهذا ينسجم مع النظريات التى تقول ان الأرض فى الاصل كانت كتلة نارية كالشمس فلم يكن وقتذاك شىء حى أو ماء ، وكلا التفسيرين أشار اليه ابن كثير ٠

وهذا وأمثاله كثير ولو أنصف العقل عرف أن هذا القرآن أنزله خالق السموات والأرض العليم بهما ((**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**)) ٠

* * *

ـ ٣ ـ

ومن خصائص هذا القرآن التى تشير الى ربانية مصدره ما أشار اليه القرآن بقوله :

((**وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميـد**)) ٠

لقد تكلم القرآن عن الماضى وتكلم عن المستقبل وفى كلامه عن الماضى أو المستقبل تنزيه عن الخطأ وجل عن الباطل ، وهو فى كلا الأمرين يقدم الدليل الكامل على أنه من عند الله ٠

وقد حاول ناس أن يطعنوا ببعض أخباره عن الماضى متصورين أن بعد الزمان يجعل كلامهم مقبولا عند غير المؤمنين ، وهم يدعون فى ذلك النقد العلمى ، والنزاهة التاريخية ، ولكن العلم أثبت بالكشوف المحسوسة تخريفهم وصدق القرآن ٠

« فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادا وثمودا ، وأنكر الكوارث التى اصابتهم بغير حجة ، الا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفى الجزاف ٠ فما لبثوا طويلا حتى تبين لهم أن عادا (Oditu)وثمود (Thamudida) مذكورتان فى تاريخ بطليموس وأن اسم عاد مقرون باسم ارم فى كتب اليونان فهم يكتبونها (ادراميت) ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد ارم ذات العماد وعثر المنقب (موزيل التشيكى) صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل عند مدين منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه اشارة الى قبائل ثمود ٠

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ، ونكبة جيشه ، واهتمامه بتعطيل الكعبة ، وبنائه القليس فى صنعاء لصرف العرب عن الكعبة اليها ، ثم تنكشف النقوش عن إسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالأمير الحبشى من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » ٠

ويروى الرحالة (بروس) الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم أن أبرهة قصد الى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى ، ولايقل عن هذه الأسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد بل أقل من جيـل » •

انه ما من شىء تحدث عنه القرآن فى الماضى الا كانت وقائع التاريخ القديم ونصوصه وحفرياته تؤيده من أدق التفصيلات ـ حيث يحدثنا القرآن عن شك بعض النصارى أنفسهم فى صلب المسيح ، فتكون فرقة كبيرة من فرقهم قديما لا تؤمن بصلب المسيح ـ الى أكبر الوقائع حيث يحدثنا القرآن عن الطوفان العظيم الذى تذكره مصادر التاريخ القديم كلها ، سواء المصادر المصرية، أو اليونانية ، أو البابلية ، ويأتى التنقيب الحديث ليرى طميه ويحـدد مكانه •

وعندما نعلم أن قسما من أخبار القرآن كان معروفا عند العرب ، وقسما كان مجهولا لا يعرف شىء عنه ، كقصة الطوفان • اذ يقول القرآن عنهـا **« تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبـل هذا »** ولم يكن هناك مصدر آخر غير الوحى كما هو ثابت تاريخيا يأخذ عنه محمد صلى الله عليه وسلم • يتبين كنتيجة لهذا كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون مصدره غير الله عز وجل •

« لا يأتيه الباطل من بين يديه » •

وأما حديثه عن المستقبل ، وتصديق المستقبل حديثه • فذلك أدل فى بابه على أنه من عند الله • فما من كلمة قالها القرآن قديما نقضتها الوقائع على مر الأيام ، حتى هذا الزمان والى آخر الزمان • سواء فى ذلك ما فى القـرآن من تشريع أو اخبار أو بيان ولتشريع القرآن محل آخر ندرسه فيه •

وقد رأينا مثلا فى الخاصية السابقة على أن بيانه عن الكون كان موافقا ـ ولا يمكن ألا يكون ـ لكل ما اكتشفه الانسان من حقائق • ونريد هنـا أن نتحدث عن شىء مما أخبر به عن المستقبل ووقع ، وقبل أن نبدأ بضرب الأمثلة نحب أن نذكر كيف أن فى هذه الخاصية دليلا لا يدحض على أن القرآن من عند الله وذلك :

ان علم الانسان محدود بالزمان الحاضر والماضى ، أما المستقبل فهـو غيب مستور مجهول • والانسان يستطيع أن يوازن ويقـايس ليصـل الى احتمال فى أمر هذا المستقبل ، قد يقع وقد لا يقع وهو أبدا لا يستطيع أن يجزم ، فعندما يحدثنا كتاب عن بعض ما سيأتى حديثا جازما ، ثم يقـع هـذا الخبر عنه تماما وقوعا مطابقا مرات دون أن يتخرم ذلك مرة ، اننا فى هـذه الحالة لابد واجدون غير علم الانسان واحاطته ، انه لابد أن يكون ذلك أثرا

من علم محيط منكشف أمامه المستقبل كالحاضر والماضى انه علم الله عز وجل .

وهذه أمثلة مما فى القرآن :

١ ـ ((والله يعصمك من الناس)) :

روى الامام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهر ذات ليلة وهى الى جنبه قالت فقلت ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : « ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة » قالت : فبينا أنا على ذلك اذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد بن مالك ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله : قالت فسمعت غطيط رسول الله فى نومه » .

وروى الترمذى والحاكم عن عائشة وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال :

كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرس بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » .

من هذين الأثرين يتبين لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يحرس وكان يحب أن يحتاط فى أمر حماية نفسه وقد حرسه الصحابة حتى نزول هذه الآية التى تجزم أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من الناس .

لن تستطيع يد قاتل أن تمتد اليه ، وهذا اخبار عن غيب اذ من الذى يستطيع أن يجزم أنه لن يقتل قتلا مع توفر دواعى التعرض للقتل خاصة لرجل كمحمد صلى الله عليه وسلم عاداه الناس جميعا وصار للعداء مظهر الدم فى أمة تأصل فيها معنى الثأر . ان مثل هذا لا يجزم به انسان متماسك عقليا ، ان لم يكن مصدر ذلك العلم المحيط .

وتذكر لنا السيرة محاولات كثيرة أعدها اليهود لاغتياله ، ومحاولات كثيرة أعدها المشركون كلها لم تبلغ شيئا فى الوقت الذى لم يكن أى مانع بشرى يحول دون تنفيذ الجريمة الا عناية الله . وعدا عن محاولات الاغتيال فقد كانت معارك الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة وكانت خطرة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم هو هدف العدو فيها ، وما حدث أبدا أن ولى الرسول صلى الله عليه وسلم العدو ظهره وكان أقرب أصحابه الى العدو ساعة المعركة وكانوا يلوذون به اذا حمى الوطيس كما يذكر ذلك صناديدهم ، ومع هذا وذاك فالآية تجزم أن هذا الانسان معصوم لن يقتل وقد كان .

لقد انتقل الرسول عليه السلام الى الرفيق الأعلى بيد القدرة الالهية لا بتسليط انسان ـ ونذكر هنا أثرين يوضحان حماية الله لرسوله فى أشد ساعات الخطر تحقيقا لوعده .

ـ روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة وروى مسلم فى صحيحه عن جابر قال :

كنا اذا أتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كنا بذات الرقاع نزل نبى الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبى صلى الله عليه وسلم أتخافنى ؟ قال : لا • قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله يمنعنى منك ضع السيف فوضعه •

ـ وروى الشيخان : فى غزوة حنين انكشف المسلمون وولوا مدبرين فطفق الرسول صلى الله عليه وسلم يركض جهة العدو راكبا بغلته وعمه العباس آخذ بلجامها يكفها عن الاسراع فأقبل المشركون اليه فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بلغته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب • كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه فوالله ما نالوا منه نيلا بل أيده الله بجنده وكف عنه أيديهم بيده •

ان نبوءة تقول لانسان وهو معرض كل يوم لخطر القتل : لن تقتل • لا يمكن أن يجزم بها رجل يحترم نفسه أن يكذبه الناس ما لم يكن ذلك وحيا من الله الذى يعلم الغيب وبيده الموت والحياة •

٢ ـ ((سيهزم الجمع ويولون الدبر • بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)) •

نزلت هذه الآية فى مكة كما روى البخارى عن عائشة : (نزل على محمد بمكة وانى لجارية ألعب) : **((بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر))** والمسلمون وقتذاك مستضعفون فى مكة قليلون رمتهم العرب عن قوس واحدة ولم تكن هناك أية فكرة قتال ، ولو كان قتال فلم يكن متوقعا فى ميزان القوة أن يغلب المسلمون ، ومع ذلك تنزل هذه الآية المنبئة فلا يفهم المسلمون المراد منها حتى عمر • روى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال :

لما نزلت **((سيهزم الجمع ويولون الدبر))** قال : عمر : أى جمع يهزم ؟ أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب فى الدرع وهو يقول : **((سيهزم الجمع ويولون الدبر))** فعرفت تأويلها يومئذ • وقد وقعت الواقعة بعد فترة طويلة تميز بها معسكر الكافرين عن معسكر المؤمنين وأصبح للمسلمين دار ، وللمشركين دار ، واصطدم الجمعان ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عارف يومها أنه اليوم الموعود • روى البخارى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قبة له يوم بدر : أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض • فأخذ أبو بكر (رضى الله عنه) بيده وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك • فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول : **((سيهزم الجمع ويولون**

الدبر • بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)) وقد انتصر جمع الايمـان ، وهزم جمع الكافرين وصدق القرآن العظيم ، وآمن المؤمنون أن هذا انمـا هو علم الله الذى لا يخطىء •

٣ ـ ((**غلبت الروم • فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون • فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ينصر من يشـاء))** •

ـ كان المشركون يجادلون المسلمين فى مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم ان الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية ••

ولقد كان الاخبار بهذا النصر وبأنه كائن فى وقت معين اخبارا بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون • ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حدا يكفى من دلائله أنها غزيت فى عقر دارها ، وهزمت فى بلادها ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك ـ الى أمد طويل ـ قائمة فضلا عن أن يحـدد الوقت الذى سـيكون لها فيـه النصر ، ولذلك كذب به المشركون وتراهنـوا على تكذيبه ، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين بل عززهما بثالث حيث يقـول : ((**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله))** •

ـ اشارة الى أن اليوم الذى يكون فيه النصر هناك للروم على الفـرس • سيقع فيه ها هنا نصر للمسلمين على المشركين ، واذا كان كل واحـد من النصرين فى حد ذاته مستبعدا عند الناس أشد الاستبعاد ، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين فى يوم ؟

لذلك أكد القرآن أعظم التأكيد بقوله ((**وعد الله لا يخلف الله وعده ولـكن أكثر الناس لا يعلمون))** ولقد صدق الله وعده فتمت للروم الغلبة على الفـرس باجماع المؤرخين فى أقل من تسع سنين ، وكان يوم نصرها هو اليـوم الذى وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين فى غزوة بدر الكبرى • كما رواه الترمذى عن أبى سعيد ورواه الطبرى عن ابن عباس وغيره • فكانت نبوءة ثالثـة فى الآية تحققت •

٤ ـ ((**ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم أدبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر • سأصليه سقر))** •

((**تبت يدا أبى لهب وتب • ما أغنى عنه ماله وما كسب • سيصلى نارا ذات لهب • وامرأته حمالة الحطب • فى جيدها حبل من مسد))** •

النص الأول :

فى الوليد بن المغيرة كما هو معروف من أسباب النزول •

والنص الثانى فى عم النبى صلى الله عليه وسلم وزوجة عمه ، والنصان يخبران فى حياة الثلاثة انهم سيدخلون النار وهذا يعنى أنهم سيموتون على الكفر ولن يدخلوا فى الاسلام وواضح فى ذلك الاخبار عن الغيب • فكم من مشرك كان مثلهم ضلالا وكفرا وعتوا وكيدا بالمسلمين ، ثم كان بعد من المسلمين كأبى سفيان وخالد وعمرو بن العاص •• وظواهر الامر لم تكن تدل على أن الوليد مثلا أبعد من أبى سفيان عن الاسلام • فللوليد تلك الشهادة العظيمة التى رأيناها سابقا فى القرآن كما أن الآخر عم النبى صلى الله عليه وسلم ولكنها النبوءة التى لا تتخلف اذ تقول فيكون ما قالت ولم يحدث أن القرآن ذكر انسانا بأنه من أهل النار ثم أسلم •

٥ ـ ((لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا)) •

منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية واشترطت عليهم قريش اذا جاءوها فى العام المقبل أن يدخلوها عزلا من كل سلاح الا السيوف فى القرب •

فهل كان للمسلمين أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود ، وقطع الارحام ، وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غدا ؟

على أنهم لو صدقوا فى تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم اذ دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ؟ ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم الى فخ ؟ وآية ذلك • اشتراط تجردهم من السلاح الا السيف فى القراب وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون الى أنهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ولكن لا يأمنون معه أن ينالوا بسهامهم وبنبالهم •

فى هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة : الدخول والامن وقضاء الشعيرة • فدخلوها فى عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم ، وقضوا مناسكهم كما أخرج ذلك الشيخان • وكان من بعد ذلك الفتح القريب •

٦ ـ كان القرآن بمكة يقص على المسلمين ما يثبت به فؤادهم ، ويعدهم الأمن والنصر الذى كان لمن قبلهم **((ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون • وان جندنا لهم الغالبون)) •**

((انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)) •

كان هذا يوم كانوا فى مكة حيث كانوا ينامون على خوف ، ويستيقظون على خوف • ثم هاجروا الى المدينة فكيف كان الحال ؟

روى الحاكم وصححه (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه

المدينة وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون الا بالسلاح ولا يصبحون الا فيه فقالوا : أترون انا نعيش آمنين مطمئنين لا نخاف الا الله فنزلت الآية : ((**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا**)) ٠٠ وروى ابن أبى حاتم عن البراء قال :

فنزلت هذه الآية ونحن فى خوف شديد ٠ فانظر بعد ذلك ماذا كان من نصر وماذا كان من أمن وماذا كان من استخلاف بلدة عدد سكانها مئات تقوم بها دولة كل من حولها يعاديها ، واذا بها بسنوات تضرب كل جزيرة العرب وتنتصر عليها ، وتضرب أكبر دولتين فى العالم دولة الفرس والروم فتنتصر عليهما ، ثم تنساح فى الأرض فلا يستعصى على سيوف أهلها شعب ولا بلد ٠

٧ ـ ((وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير)) ٠ ((وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء)) ٠

ان الكلام عن الشىء فرع تصوره هذا بالنسبة للانسان ٠ أما بالنسبة للذات الالهية ، فان الكلام عن شىء أثر العلم به ٠ وأنت ترى فى هاتين الآيتين خطابا للانسان انه لن يعجز الله ، ولكن يلاحظ فى الآية الأولى أنه خاطب الانسان على الارض فقط ، وفى الآية الثانية خاطبه على الأرض وفى السماء ٠ فزيادة ((**فى السماء**)) اذن فى الآية الثانية زيادة ذات دلالة كبيرة ، هذه الزيادة فيها معنى النبوءة التى تبشر بامكانية صعود الانسان الى السماء وتخاطبه فى كل أحواله بأنه خاضع لقهر المشيئة الالهية غير خارج عما تريد هذه الذات ٠

يا انسان لن تعجزنى على الأرض ، واذا صعدت الى السماء فلن تعجزنى ، ولم يصعد الانسان الى السماء الا فى عصرنا هذا ، فكأن الخطاب اذن لانساننا الحالى وذلك من أسرار الاعجاز ٠

وفى كل حال يظهر لك كيف ان الزمان يظهر ما فى القرآن من حق ، وكيف ان هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠

٨ ـ ((والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون)) ٠

((وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ٠ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون)) ٠

الآية الأولى ذكرت أصنافا مما يركبه الانسان وله فيه زينة ، وبعد أن عد هذه الاصناف ذكر أنه سيخلق ما لم يعلمه الصحابة المخاطبون الأول بهذه الآية ، ومن جو الآية نفهم ان هذا الشىء سيخلقه الله عز وجل هو مما يركب وفيه زينة بنفس الوقت غير الخيل والبغال والحمير ٠

والآية الثانية تحدد نوع تحديد بعض صفات هذه المركوبات وتقول :

((**وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون**)) •

ترى ما هذا الذى هو من جنس الفلك ويركبه الانسان ؟

لقد كان يومها فى مستقبل الغيب السفينة الفضائية والطائرة والسيارة والقطار وكل هذه المركوبات التى رأيناها حديثا تدخل لغويا فى كلمة ((**وخلقنا لهم من مثله ما يركبون**)) •

واذن فنحن أمام آيتين تبشران بمركوبات جديدة للانسان ، وقد كان ما بشر به القرآن ، يبقى معنى لابد من الاشارة اليه وهو اننا نلاحظ تطور المركوبات يوما بعد يوم كل يوم يأتى بجديد لا يعلمه الانسان قبله وهذا الشىء نفسه نفهمه من آخر الآية الأولى ((**ويخلق ما لا تعلمون**)) •

فالقرآن فى الحقيقة يخاطب الانسان أبدا فى كل زمان ومكان • فعندما أسمع الخطاب اليوم ((**ويخلق ما لا تعلمون**)) أفهم أن فى غد شيئا جديدا ، ويكون اذن ما تراه من تطور كل يوم فى عالم المركوبات داخل ضمنا فى الآية •

وأخيرا نقول : ان بعض الصحابة منذ تنزل القرآن فهم ان الله سيخلق للانسان ما يركبه غير ما يعهده الناس قديما يسير فى البر كما تسير السفن فى البحر •

٨ ـ ((**وقطعناهم فى الأرض أمما**)) •

((**واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**)) •

((**ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس**)) •

هذه الآيات فى اليهود وان واقع التاريخ ، ومستقبل الزمان بالنسبة لعصر تنزل القرآن ، هو الذى يفسرها • فكان ما حدث تفسير القدرة الالهية للعلم الالهى ، اذ كان اليهود مشردين طوال هذا الزمان ، كما أخبر الله ((**وقطعناهم فى الأرض أمما**)) ومع هذا التقطيع كان العذاب المتواصل من لدن عصر القرآن الى هذا الزمان •

والتاريخ يقص علينا قصة هذه الحقبة من تاريخ اليهود ، وانه اضطهاد دائم ، وذلة دائمة ، من ملاحقة الأسبان لهم ، الى مطاردة الكنيسة فى كل مكان ، الى ما وقع لهم فى روسيا ، وآخر أنباء هذا العذاب ما سامهم اياه النازيون مما يعرفه أهل الأرض جميعا • هذه صورة مما وقع لهم فى الغرب ، والصورة الاخرى التى وقعت لهم فى الشرق والغرب انهم أبدا محكومون من غيرهم ، وانهم أبدا يعانون حياة الذلة ، وفى هذا وذلك عذاب ((**واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب**)) •

ثم حدث ان عطفت عليهم الشعوب والحكومات • أمريكا ، وانجلترا وروسيا ، وفرنسا •• والناس فكان لهم ما يسمى دولة فارجع بعد ما ذكرناه الى الآية الثالثة ترى كيف تمت النبوءة ((**ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله • وحبل من الناس**)) •

عذاب متواصل وذلة دائمة الا بحبل من الله وحبل من الناس ، فلما كان هذان الحبلان • صار لهم دولة ، ولكن الآية الأولى تذكر أن العذاب لن ينقطع عنهم الى يوم القيامة • لذلك فهم على موعد معنا نحن المسلمين (انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) • وفى التوراة الحالية المحرفة هذا القول ((سأجمعك يا اسرائيل فى أرض الميعاد ثم أذبحك ذبحا)) وسيعلمون ماذا سيفعل بهم جند الله بعد أن تنتهى هذه الردة عن الاسلام ان شاء الله •

٩ ـ والذى يريد أن يتتبع هذا النوع مما فى القرآن يجد الكثير • ففى آية ((**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**)) نبوءة تحققت وفى آية ((**فان لم تفعلوا • ولن تفعلوا**)) نبوءة تحققت وفى آية ((**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم**)) نبوءة تحققت • مظهرها ما كشف الانسان من علم وما يكشف ، وفى آية ((**اذا جاء نصر الله والفتح • ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا**)) نبوءة تحققت وفى آية ((**ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد**)) نبوءة تحققت •

والشىء الذى نريد أن نخرج به هو أن القرآن اذا قال فذلك العلم الذى لا يخطىء لأنه علم الله المحيط •

غير أن فهمنا للقرآن قد يخطىء وهذا هو البلاء الكبير عندما نفهم القرآن فهما خاطئا ، ونعطيه للناس ، بل نلزمهم به أو يلتزمون • وهذا خطر كبير • لذلك ينبغى أن نكون على حذر عندما نقرأ تفاسير القرآن : وكل مفسر فهم القرآن على ضوء ثقافة عصره فقدم لنا فهمه للقرآن تفسيرا للقرآن وشتان بين الفهم الخاطىء للقرآن وحقيقة القرآن •

ـ ٤ ـ

شىء آخر يدلك على أن هذا القرآن مصدره الله عز وجل ، وانه ما كان ليكون هكذا لولا أنه منزل من عند الله الذى أحاط علمه بكل شىء • هذا الوجه الذى نريد أن نتحدث عنه الآن هو الذى أشارت اليه الآيات القرآنية التالية :

((**ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون**)) •

((**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير**)) •

((**وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**)) •

((ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه)) .

* * *

ان الدراسات النقدية للتوراة لم تعترف بالصحة الا لسفر واحد من أسفارها . هو سفر ((ارمياء)) كما يذكر (مونتيه) فى تاريخ الكتاب المقدس، وليس الانجيل بأسعد حالا . فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقيه) كثيرا من أخباره مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الاناجيل اربعة . وهذه الأخيرة بدورها لاتعتبر الآن من الصحاح ، لان النقد أثبت انها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن اى بعد عصر الحواريين الذين تنسب اليهم التعاليم المسيحية وعلى هذا فان شكوكا كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية .

ان انجيلا واحدا نطق به عيسى على انه كلمة الله ، فلم يكون الانجيل أربعة ولم كان بينها اختلاف وتعارض وزيادة ونقص ، ولقد لعن ارمياء فى سفره المذكور (أقلام النساخ الكاذبة) .

ومن هنا كان للقرآن فيما يتعلق بهذه الكتب مواقف كل منها يشير الى ربانية مصدره ، حيث ان هذه المواقف كلها تدل على علم مطلق لا يأتيه الشك ، حتى يتحدى فى بعض المواقف ان يأتوا بالتوراة ليثبتوا ما يدعون مما يذكر القرآن خلافه : **((كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين)) .**

ـ أول هذه المواقف أن التوراة والزبور والانجيل ، هذه الموجودة حاليا ليست هى بالضبط الكتب السماوية الاصلية بل داخلها تحريف وتبديل ، ونسى قسم منها وقد رأينا موقف النقد العلمى العقلى النصرانى من هذا الموضوع وكلمة أرمياء التى تتفق مع ما ألح القرآن عليه :

((ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)) .

((من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه)) . ((يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به)) .

ـ الموقف الثـانى :

ذكر القرآن الكريم كثيرا مما كان فى التوراة والانجيل من معان ووحى ، وعندما نستعرض هذه النصوص ونقرأ التوراة والانجيل فاننا نجد هذه النصوص قد طابقت ما فى التوراة والانجيل ، مما يدل على ان قسما من التوراة والانجيل لم يحرف ، وعلى أن الله العليم بما أنزل هو منزل القرآن . اذ لا شك تاريخيا كما مر ان محمدا ليس له أى اطلاع على كتب دينية أو غير دينية :

وهذه الأمثلة :

١ ـ يقـول القـرآن :

((وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)) • ((واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الاهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب • ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم)) •

ويقول انجيل يوحنا الفقرة الثالثة الباب السابع عشر (وهذه هى الحياة الابدية أن يعرفوك انت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) •

ويقول انجيل مرقس الباب الثانى عشر (٢٨) (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى انه أجابهم حسنا سأله أية وصية هى أول الكل فأجابه يسوع ان أول كل الوصايا اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هى الوصية الأولى) •

ويقول انجيل متى الباب التاسع عشر (١٦) (واذا واحد تقدم وقال : أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الابدية فقال له لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحا الا واحد وهو الله)) •

وهذه نصوص صريحة فى الاناجيل الحالية تثبت أن دعوة عيسى كانت للتوحيد وانه رسول ثم كان الانحراف وأتى القرآن ليصحح الانحراف •

٢ ـ يقول القرآن على لسان عيسى **((ومصدقا لما بين يدى من التوراة))** ويقول **((وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة)) •** ويقول مخاطبا لنا **((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)) •**

ويذكر انجيل متى اصحاح (٥) على لسان عيسى : (لا تظنوا أنى جئت لانقض الناموس أو الانبياء ما جئت لانقض بل لاكمل فانى الحق أقول لكم الى أن تزول السموات والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات واما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات فانى اقول لكم : ان لم يزد بركم على الكتبة والقديسين لن تدخلوا ملكوت السموات)) •

٣ ـ يقـول القـرآن :

((وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف

والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له » .

وفى الاصحاح (٢١) من سفر الخروج :

وهذه هى الاحكام التى تضع امامهم (من ضرب انسانا فمات يقتل قتلا ومن ضرب اباه أو امه يقتل قتلا وان حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برضى) .

٤ ــ يقــول القــرآن :

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » . « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » . « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » .

وتقول التوراة فى الاصحاح الأول من سفر التكوين بعد ذكر قصة الخلق . (وقال الله نعمل الانسان فخلق الانسان ذكرا وأنثى وباركهم الله وقال لهم أثمروا واملاوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا وكان .. يوما سادسا) ..

وفى الاصحاح الثانى من سفر التكوين .

ــ (فأكملت السموات والأرض وكل جندها) .

ــ (هذه مبادىء السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الاله الأرض والسموات) .

ــ (وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية) .

ــ (فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من اضلاعه وملا مكانها لحما وبنى الرب الاله الضلع التى اخذها من آدم امرأة وأحضرها اليه) .

٥ ــ يقــول القــرآن :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ويقول **« مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان »** ويقول **« ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا »** ويقول **« وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها »** .

وفى سفر أيوب اصحاح (٣٨) اجاب الرب ايوب وقال : (شد الآن حقويك كرجل ــ أى قف باستعداد ــ فانى اسألك فتعلمنى : اين كنت حين اسست الأرض ؟ اخبر ان كان عندك فهم من وضع قياسها وعلى أى شىء قرت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله . من حجز البحر بمصاريع حين اندفق من فم الرحم هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار اتخرج المنازل من أوقاتها وتهدى

الشمس مع بناته من يهيىء للغراب صيده ذا نعب فراخه الى الله فأجاب أيوب الرب وقال : ها أنذا حقير فماذا أجابوك وضعت يدى على فمى » •

٦ ـ يقول القرآن :

« ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل • لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » ويقول « ليس كمثله شىء » ويقول « لله ملك السموات والأرض » •

وتقول التوراة سفر الخروج :

« الرب يملك الى الدهر الى الأبد » (ص ح ١٥) وفى الاصحاح (٣٧) « عند الله جلال مرهب القدير لا ندركه عظيم القوة والحق وكثير البر » وفى الاصحاح(٣٣) « هو ذا الله يتعالى بقـــدرته من مثله » « هو ذا الله عظيم ولا نعرفه وعدد سنيه لا يفحص » •

٧ ـ يقول القرآن :

« واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون »

ويقول « ولمـا رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح » ويقول « وانظر الى الهـك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » •

وفى الاصحاح(٣٢) من سفر الخروج « فانصرف موسى ونزل من الجبل » وكان عندما اقترب الى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه ••

ثم أخذ العجل الذى صنعوه وأحرقه بالنار حتى صار ناعما وذراه على وجه المـاء •

٨ ـ يقول القرآن متحدثا عن موسى :

« قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى » •

وفى الاصحاح (٣٣) من سفر الخروج (فقال موسى : ارنى مجدك •• (١٨) قال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الانسان لا يرانى ويعيش)(٢٠) •

٩ ـ يقول القرآن :

« واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا » •

وفى الاصحاح العشرين من سفر الخروج : (انا الرب الهك الذى اخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى امامي لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما فى السماء •• لا تسجد لهن ولا تعبدهن لانى

أنا الرب الهك غيور واصنع احسانا الى ألوف من محبى وحافظى وصاياى) ٠

١٠ ـ يقول القرآن فى سورة يوسف عن يوسف :

((اذ قال يوسف لابيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين)) ويقول سفر التكوين الفصل (٣٧) (قال رأيت حلما أيضا كان الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة له) ٠

ويقول القرآن على لسان اخوة يوسف :

((اقتلوا يوسف أو اطرحوه ارضا يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ٠ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين)) ٠

وفى سفر التكوين :

(والآن تعالوا نقتله ونطرحه فى بعض الآبار ونقول : ان وحشا ضاريا افترسه ونرى ما يكون من أحلامه ، وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما اطرحوه فى هذا البئر التى فى البرية) ٠

ويقول القرآن :

((قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ٠٠

((وجاءوا على قميصه بدم كذب)) ٠

وفى سفر التكوين :

(فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعز وغمسوا القميص فى الدم ٠ وحش ضار أكله افترس يوسف افتراسا) ٠

ويقول القرآن :

((وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الآبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله أنه ربى أحسن مثواى)) ٠

وفى سفر التكوين :

(وكان بعد هذه الأمور ان امرأة مولاه طمحت عينها الى يوسف وقالت ضاجعنى فأبى وقال لامرأة مولاه هوذا مولاى لا يعرف معى شيئا مما فى البيت وجميع ما هو له جعله فى يدى ٠٠ فاتفق فى بعض الايام انه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن فى البيت أحد من أهله فأمسكت بثوبه وقالت ضاجعنى) ٠

ويقول القرآن :

((وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع

سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملا افتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون • قالوا اضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين)) •

ويقول سفر التكوين :

(ان فرعون رأى حلما كأنه واقف على شاطىء النهر فاذا بسبع بقرات صاعدة منه وهى حسان المنظر وسمان الابدان فرتعت فى المرج وكأن سبع بقرات أخرى صاعدة وراءها من النهر وهى قباح المنظر وعجاف الابدان فوقفت بجانب تلك على شاطىء النهر فأكلت البقرات القباح المنظر العجاف الابدان السبع بقرات الحسان المنظر السمان ••

ثم نام فحلم ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبتت فى ساق واحدة وهى سمان جياد وكأن سبع سنابل دقاقا قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها فابتلعت السنابل الدقائق السبع السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون فاذا هو حلم فلما كانت الغداة انزعجت نفسه فبعث ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها فقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون) •

❋ ❋ ❋

من هذه النقول نعرف معنى الآية القرآنية التى ختمت بها سورة يوسف **((ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه))** ونعرف كذلك وحدة الوحى ووجوده اذ رأينا ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يتلق أى تعليم سابق مما يوهم ان مثل هذا التلاقى وليد دراسة ، كما أن البيئة العربية لم تكن منتشرة فيها هذه المعانى ابدا ، ولم تكن تعرفها ، بدليل الآية التى ذكرت فى سورة يوسف عقب القصة **((ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون))** •

فعندما يتم التلاقى بين معنى ذكره الانجيل أو التوراة أو الزبور مع معنى موجود فى القرآن ، مع ملاحظة ما ذكرناه آنفا فذلك دليل لا يدحض على أن هذا القرآن من عند الله **((لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه))** •

ـ الموقف الثالث :

رأينا فيما مضى ان التوراة والانجيل والزبور فى الأصل من عند الله ، ورأينا كذلك أنها قد داخلها تحريف وتبديل وتغيير ونسيان وضياع ، والشىء العادى اذن بعد هذا ، أن تحدث انحرافات ضخمة نتيجة لهذا ، ومفاهيم خاطئة ، وتصورات فاسدة ، واختلافات كثيرة ، ويأتى القرآن ليصحح لهم هذه المفاهيم كلها ، وهذه الأخطاء كلها ، وهذه الانحرافات كلها • فيبين ويوضح ويوبخ ويعاقب ويدعو وينذر ، ويعلل ويوضح ، ويطالب ويأمر ، وينهى بجزم وحزم وتعليم وارشاد وأستاذية مطلقة ، وسيادة بينة • فرد اليهود والنصارى معا الى القصد والى الطريق المستقيم • **((ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون)) ((يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم**

على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير)) •

وهذه أمثلة :

١ ــ أعطى قسم من الكتابيين العصمة لبعض البشر ممن ليسوا بانبياء ، فأطاعوهم وعطلوا نصوص الكتب السماوية ، كما هو مشاهد الآن عند النصارى مع البابا • فقال لهم ((**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**)) •

وقـــال :

((**قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل**)) •

٢ ــ ووصف بعض الكتابيين الله بصفات خلقه • فقالوا عنه انه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع فقال لهم ولغيرهم :

((**ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغــوب**)) •

٣ ــ ووقف اليهود من عيسى ابن مريم وأمه موقفا منكرا فقال عنهم :

((**فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بايات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا • وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما • وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم**)) •

٤ ــ واله بعض النصارى عيسى ابن مريم فقال :

((**لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة**))•

٥ ــ وقال بعض النصارى بالتثليث فرد عليهم :

((**لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد**)) ووضع عيسى وامه فى المحل الصحيح ((**ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام**)) •

٦ ــ وتصور بعض الكتابيين أن اثمهم يحمله غيرهم وأن الانسان آثم بالأصل فقالوا بالخطيئة الازلية ورفعها بالمسيح فقال ((**ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به**)) •

وقـــال :

((**ولا تزر وازرة وزر أخرى**)) •

والأمثلة كثيرة جدا على هذا فى القرآن ، كثرة تلفت النظر لدرجة أن الانسان لا يشك بتاتا اذا طالع هذه الكتب كلها ، ان القرآن قد استوعب معانيها وأصلح ما أفسدوه فيها ، وأقام الناس على الحق الذى لا شبهة فيه ، ويخرج أخيرا بهذه النتيجة :

ان الحديث عن الكتب السماوية وأهلها فى القرآن يدل على علم محيط كامل بهذه الكتب وأهلها ، ويدل على علم محيط كامل فى مواطن الخلاف التى لم يكن منها شىء معروف فى جزيرة العرب ، ويدل على علم محيط كامل فى مواطن الانحراف ، وكذلك بالتناقض بين النصوص ، كأثر عن هذا الانحراف واستعمال دقيق كامل للمصطلحات الكتابية . هذا مع أمية الرسول صلى الله عليه وسلم ووجود هذه الكتب فى غير اللغة العربية ، وعدم انتشارها ، وجهل البيئة العربية بمضامينها ، وثبوت أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتلق تعليما من أحـد .

ان هذا كله لا شك يثبت أن هذا القرآن وحى من عند الله .

* * *

— ٥ —

وآخر ما نريد ذكره فى فصل المعجزة القرآنية . هذه الخطوط العامة حول لغة القرآن ، وأسلوب القرآن ، وفى ذلك برهان أى برهان على كون هذا القرآن من عند الله .

ان المبتدىء فى طريق ليس له فيها تجربة سابقة ولا لأحد قبله ريادة فيه ، يختلف وضعه عن المجرب الخبير ، أو من صاحب المجربين واسـتفاد من خبرتهم ، كما يقال هذا فى الحل والترحال . يقال مثله عن عالم الأدب ، لم كان حسان بن ثابت فى الجاهلية أقوى شاعرية منه فى الاسلام ؟

لأن المعانى التى كان يتحدث عنها فى الجاهلية معان مطروقة من شعراء قبله . قالوا فيها كثيرا ، وفتحوا فيها آفاقا واسعة استفاد منها ، فقال وأجاد .

أما فى الاسلام فالوضع يختلف . فقد أتى الاسلام بمفاهيم جديدة وقيم ومثل عليا تختلف عما فى الحياة الجاهلية ، وأقام نظاما للحياة على أسس معاكسة تماما لمـا كان عليه الناس ، والمعركة بين جديد وقديم ، فكان اذن هو يتحدث عن هذا الشىء الجديد كله رائدا غير مسبوق ، فشىء عادى اذن أن يكون شعره الاسلامى أضعف من شعره الجاهلى . ان زهير بن أبى سلمى لم يكن شعره بهذه الجودة لو لم يستفد من تجربة حجر الشعرية ، ولولا شعر زهير ما كان الحطيئة جيد الشعر ومعانى هؤلاء واحدة .

هذه قضية ينبغى أن تكون على ذكر منا ، ونحن نتحدث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن .

وجرت عادة الناس أن لغة الأدب غير لغة القانون ، ولغة المخاطبة غير لغة الشعر ، وطريقة التعبير عن القضايا العلمية ، تختلف عن طريق التعبير فى قضايا الخيال والتصور أو العاطفة ، وفى الأدب عادة يشطح الخيال فيقرب البعيد ويبعد القريب فيكون كذب وشطط واسفاف ومجانة ٠٠

وهذه قضية ثانية ينبغى أن تكون على ذكر منا كذلك ٠

والأديب عادة ينتزع الصورة من بيئته ، ومن محيطه مما يشاهده أو يسمعه فيحلل ويركب ويغوص ويحلق ويدقق ، ولكنه لا يخرج عن بيئته ومحيطه :

من زهير اذ يقول :

ترى العين والآرام فى عرصساتها — واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

الى على بن الجهم اذ يقول للخليفة :

انت كالكلب فى الحفاظ على الود — وكالتيس فى قراع الخطوب

وهذه قضية ثالثة كذلك ينبغى أن نتذكرها أثناء الحديث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن ٠

وأى شاعر تكلم ، وأى أديب قال أو كتب ، لو عرض عليه ما قال بعد مدة من قوله أو كتابته ، لغير أو بدل أو قدم أو أخر ، وأى قول قيل يمكن أن ينتقده الناقدون ٠ فيرون كلمة أجود من كلمة ، وحرفا أجمل من حرف ، وجرسا ألطف من جرس ، أو أكثر مناسبة ، وقد تجد القصيدة الجيدة فتجد فيها كلمة غير مناسبة لما قبلها ، أو جرسا غير منسجم مع معنى ، الى آخر ما هو معروف عند نقاد الكلام ، ولا تخلو قصيدة قيلت من أن توجد كلمة فيها يوجد غيرها أفصح منها أو أدق تعبيرا أو أجود معنى ٠

وفيما رأيناه من نقد الخنساء فى أوائل هذا البحث مثال كاف ، فاذا ما اتضحت هذه القضايا كلها نقول : ان انسانا يعقل لا يستطيع أبدا أن يتصور أن هذا القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم أو سواه من البشر ، بل لابد أن يكون مصدر هذا القرآن الذات العليا ذات الله عز وجل :

١ ـ فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ٠ فما فيه من صور وما فيه من أمثال جل عن طوق الفكر وبعد عن قدرة البشر ٠ خذ مثالين على ذلك :

(أ) ((**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمئان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور**)) ان هذا النص وخاصة المثل الثانى منه لا يمكن أن يكون وليد

البيئة العربية ولا وليد العصر الذى وجد فيه ولتعرف لماذا ؟ اقرأ هذا التعليق : (فى هذه الآية اشارة الى الامواج الداخلية والسطحية فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعبا هى أمواج غير منظورة تتحرك فى خطوط سيرها الغامضة بعيدا فى اعماق البحار وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات الى القطب الشمالى كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى بالماء الميت ، والذى عرف الآن بأنه أمواج داخلية • وفى عام ١٩٠٠ لفت الانظار كثير من مساحى البحار الاسكندنافيين الى وجود أمواج تحت سطح الماء والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التى ترتفع وتهبط بعيدا أسفل السطح فان حدوثها على نطاق واسع فى المحيط قد أصبح أمرا معروفا جيدا ، فهى تقذف بالغواصات فى المياه العميقة كما تعمل شقيقاتها السطحية على قذف السفن • ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج ،وبتيارات أخرى قوية فى بحر عميق ، فالآية القرآنية تقول : **((فى بحر لجى))** اذن الكلام عن بحر عميق **((يغشاه موج من فوقه موج))** اذن أمواج داخلية وأمواج سطحية **((من فوقه سحاب))** اذن الكلام عن مكان يكثر فيه الضباب والصورة انما تنطبق على الانسان اذا كان تحت الأعماق أى تحت الامواج الداخلية • مثل هذا التصوير معجز لا يتصور من رجل الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنا •

(ب) **((ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله))** •• **((قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا))** مثل هذه الصورة مما لا يخطر على قلب بشر فى التعبير عن سعة علم الله بالكلمات التى تعبر عن هذا العلم الذى لا يتناهى بهذا التصوير البالغ الروعة الموجز الواضح السهل • أن تنقلب الأشجار كلها أقلاما والبحار كلها حبرا وفوق البحر أبحر وتبدأ الاقلام بالكتابة وينفد ماء البحر وتبقى بعد ذلك الكلمات لا تتناهى ، ان الأمة التى كان تصورها عن الالة أن تصنع صنم التمر ثم تعبده ثم تأكله ، ليس بالامكان ان يصدر عن فرد من أبنائها مثل هذا التعبير والتصور ولكنه كلام الله •

٢ ـ والقرآن الكريم نزل منجما خلال ثلاث وعشرين عاما وكتاب تم جمعه وكماله خلال هذه الفترات الطويلة لابد ـ الا اذا كانت المسألة غير عادية ـ أن يكون هناك اختلاف فى أسلوبه قوة وضعفا ما بين بدايته الى نهايته ولابد أن يكون هناك اختلاف فى المضامين • وهذا شىء يلاحظ عند كل من تعاطى صناعة الكلام ، وصناعة الافكار ، وصناعة الاصلاح وصناعة الأمم • التجربة تغير الرأى ، والتجربة تقوى الأسلوب ، وليست آراء الانسان بعد عشرين عاما من العمل الاصلاحى هى بنفسها قبل العشرين ، ولكنك فى القرآن تجد ظاهرة الوحدة فى الأسلوب سواء فى ذلك ما نزل أولا أو ما نزل أخيرا وسواء فى ذلك النص التشريعى ، أو النص الوعظى أو النص الوصفى أو النص القصصى • وظاهرة الوحدة فى المعانى فلا تجد معنى متأخرا ينقض معنى

متقدما ، بل يتممه وكل ذلك يتم بلا تدبير أو ترتيب أو تفكير يخرج النص الموحى به من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأخذ محله فى القرآن ، ويبقى كما هو بلا تغيير ولا تبديل ، ويبقى هذا الأسلوب متميزا متفردا ما عرف له مثيل من قبل ومن بعد مختلفا عن أسلوب محمد صلى الله عليه وسلم نفسه فى الكلام مع بقاء معانى القرآن أعظم وأحكم وأروع ما سمعته أذن الانسان ٠ فالمسألة بانصاف ليست بشرية الصنع وهذه أمثلة على وحدة الأسلوب ووحدة المعانى ٠

١ ــ من النصوص التشريعية فى القرآن :

((يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساءا فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث فان كان له أخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما)) ٠

ومن النصوص القصصية :

((وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين)) ٠

((وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين)) ٠

ومن النصوص الوعظية :

((يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ٠ الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ٠ كلا بل تكذبون بالدين ٠ وان عليكم لحافظين ٠ كراما كاتبين ٠ يعلمون ما تفعلون ٠ ان الأبرار لفى نعيم ٠ وان الفجار لفى جحيم)) ٠

ومن النصوص الوصفية :

((ألم نجعل الأرض مهادا ٠ والجبال أوتادا ٠ وخلقناكم أزواجا ٠ وجعلنا نومكم سباتا ٠ وجعلنا الليل لباسا ٠ وجعلنا النهار معاشا ٠ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ٠ وجعلنا سراجا وهاجا ٠ وأنزلنا من المعصرات ماءا ثجاجا ٠ لنخرج به حبا ونباتا ٠ وجنات ألفافا)) ٠

هذه النصوص كما ترى بعضها نزل سابقا وبعضها نزل لاحقا ، وكل يتحدث عن معنى ٠ ولكن هل تجد اختلافا فى الأسلوب ؟

ان انسانا ذا عقل لا يستطيع أن يحكم على هذه الظاهرة الا أنها خارقة للعادة ٠

ــ أول آية نزلت فى الخمر قوله تعالى

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » ٠

فتعبير السكر والرزق الحسن دل على أن السكر غير الرزق الحسن ، فكانت أول آية غمزت من الخمر ٠ ثم تأتى الآية الأخرى **« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما »** ٠

ثم تأتى الآية الأخرى :

« لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ٠

ثم تنزل الآية الأخيرة :

« انما الخمر والميسر والأنصـاب والازلام رجس من عمـل الشـيطان فاجتنبوه » فهل تجد تناقضا بين أول آية ذكرت الخمر وآخر آية ٠ وعلى معنى متقدم بل أكمله وأوضحه وتممه ٠ وصدق الله العظيم **« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »** ٠

٣ ــ والقرآن الكريم طرق معانى ما طرقها أحد من قبل أمة العـرب ٠ فالمفروض لو كان الأمر بشريا ، أن يرى آثار ذلك من ضعف صياغة ، وقلب كلمات ، وتلعثم وتكلف الى غير ذلك ، الا أن الواقع غير ذلك فقد تحدث القرآن عن الجنة والنـار والملائكة والانسان والجن والأخلاق والسياسة والكفر والايمان ، وتحدث عن الذات الالهية ، وناقش المعارضين ، وأفحم المجادلين ، وهو فى ذلك كله فى أعلى طبقات البلاغة ، وفى أعظمها ، وكل من أتى بعد وتحدث عن أى معنى طرقه القرآن ، كان فيما قال أقل الى درجة الثلاثين اذا قيس ما قيل الى لغة القرآن ٠ لدرجة أنك لا تستطيع أن تجد فى اللغة العربية كلها كلمة تحل محل الكلمة القرآنية بجمالها وجرسها ، وما تعطيه من معنى ، ومناسبتها لما قبلها وبعدها ٠ هذه البلاغة العظيمة كلها لم يرافقها شحطة فكر ، ولا كذبة خاطر ٠ ولا لفتة غير واقعية ٠ بل الحق الذى لا يناقش فيه واحـد ٠

ونرى ذلك بشكل مضطرد من أول القرآن لآخره ٠ كتاب ضخم لا يتخلف فيه حرف عما قلناه ، وزيادة على ذلك فان الكلمة القرآنية ، والآية القرآنية تكاد تعطيك معناها وان لم تعرفه ، وتكشف لك عما فيها وان لم تفهم ، فجرس الحرف ، ومحل الكلمة فى الآية ، ومحل الآية فى السورة ، كل ذلك عجيب ، مظهر عجبه أن هذا الكتاب على كونه أعلى طبقة من طبقات البلاغة عرفه الانسان ٠ فانه سهل لدرجة أنه يفهمه كل انسان ، ولكن كل انسان يأخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية ٠ وكلما ارتقى أكثر كان فى القرآن أكثر ، وكلما أتى جيل وجد فى القرآن جديدا تفهمه الأجيال كلها ٠ ولا تحيط بما فيه الأجيال كلها وصدق الله **« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهـل من مدكر »** ٠

يقرؤه عالم الاقتصاد المختص ، فيستخرج منه أرقى ما تترقى به الحياة الاقتصادية للانسان ، ويكتب فى ذلك كتابا ضخما وفى القرآن مزيد لمستزيد ٠

يقرؤه عالم الجيولوجيا فيجد فيه أعجب ما اكتشف علم الجيولوجيا فى القرن العشرين ، فيؤلف فى ذلك كتابا ضخما وفى القرآن مزيد لمستزيد ٠

ويقرؤه عالم الفلك فيجد فيه أعجب ما عرف الانسان فى الفلك وفى القرآن مزيد ٠٠٠

ويقرؤه عالم الاجتماع فيرى أن الحياة الاجتماعية اذا خرجت عن سنن القرآن كان فى ذلك دمارها ٠

ويقرؤه ويقرؤه أصحاب كل اختصاص فيرون أنهم لا يسعهم أن يكونوا الا تلاميذ صغارا ولا يحيطون بأسراره علما ٠

ويقرؤه الرجل العادى فيفهمه فيتذكر ويبكى ويتعظ ٠ انه كتاب كل انسان وان كان بيانه أرقى من كل بيان ، وكلمته أفصح من كل كلمة ، حتى انك لو فتشت فى كل قواميس اللغة عن كلمة تحل محل الكلمة القرآنية فتكون أجمل منها أو أحكم أو أفصح أو حاولت أن تقدم كلمة منه عن محلها أو تحذفها أو تؤخرها بحيث يكون ما فعلت أحسن مما كان فانك لا تستطيع مهما بذلت من جهد ٠ بل تنقطع أنت وشيطانك ويبقى القرآن هو القرآن ٠ وزيادة على ذلك، فانك لا تجد الكلمة التى تعطيك المعنى المقصود بأبعاده كلها كالكلمة القرآنية ٠ وهذه أمثلة توضح هذا الذى قدمناه هنا ٠

١ ـ ((ولكم فى القصاص حياة))

قارن هذا التعبير بأى كلمة قالتها العرب فى معناها أو يمكن أن تقولها فانك ستجد الفارق الكبير بين التعبير القرآنى وأى تعبير آخر ٠ فمثلا قال العرب فى معنى الآية ما يلى : (قتل البعض احياء للجميع) وقالوا (أكثروا القتل ليقل القتل) وقالوا (القتل أنفى للقتل) ولعل آخرها أجودها فلنقارنه فى الآية لنجد أن التعبير القرآنى أفصح وأبلغ وأحكم فى ستة اوجه وبعضهم أوصلها الى أكثر من عشرة :

(أ) ان التعبير القرآنى أخصر لأن المقارنة ما بين كلمتى (القصاص حيـاة) و (القتل أنفى للقتل) ٠

(ب) ان قولهم (القتل أنفى للقتل) فيه التباس اذ ظاهره أن القتـل سبب لانتفاء نفسه بخلاف لفظ القرآن واضح فيه أن نوعا من القتل وهو القصاص سبب لنوع من أنواع الحيـاة ٠

(ج) فى قولهم (القتل أنفى للقتل) كررت كلمة القتل مرتين اما التعبير القرآنى فذكرت فيه كلمتا قصاص وحياة ٠

(د) فى قولهم (القتل أنفى للقتل) لم يشمل الا نوعا مما ينبغى القصاص فيه • أما التعبير القرآنى فشمل القتل وغير القتل ، من ما القصاص فيه سبب من أسباب الحياة السعيدة الآمنة •

(هـ) ان القصد من القصاص حفظ الحياة الانسانية ولذلك كان تعبير القرآن أجود ، اذ وضح المقصود مباشرة من تعبيرهم الآخر اذ ذكر المقصود تبعـا •

(و) وأخيرا فان تعبيرهم قاصر وموهم وخاطىء : اذ قد يكون القتل سببا لكثرة القتل كالقتل ظلما ، فتعبيرهم عمم مع أنه ما كل قتل نافيا للقتل على خلاف التعبير القرآنى • فانه صحيح شامل غير موهم ، صادق ظاهرا وباطنـا • كيف قلبته اعطاك معنى صحيحا •

وفى تعريف كلمة القصاص وتنكير كلمة الحياة فى التعبير القرآنى ، معانى عظيمة كبيرة أما هنا فليس فى تعريف ولا اخبار أى ميزة •

٢ ـ ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل)) •

هذا مقطع أمرت به الأمة الاسلامية بالاستعداد ، وكان هذا الامر لهـا فى كل زمان ومكان • وشمل كل ما يلزم من أمر الاعداد والاستعداد ولنحاول أن نفهم النص :

من : فى اللغة العربية تأتى للجنس أحيانا وهذا معناها هنا ، والقـوة فسرها الرسول صلى الله عليه وسلم بالرمى فلما قال الله **((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة))** صار المعنى وأعدوا لهم ما تستطيعون اعداده مما يرمى به ، أى من جنس ما يرمى به ، فشمل ذلك السهم والصاروخ والمدفع والقنبلة الذرية ، وكل ما يمكن أن يخترعه الانسان من أدوات الرمى ، ولمـا قال **((ومن رباط الخيل))** أى وجنس رباط الخيل ، فشمل ذلك كل ما يركب للمعركة أى شمل التعبير كل الآليات •

أرأيت الاعجاز الواضح اذ يسع النص القرآنى الزمان كله ، والمكان كله ، ولو أنك حاولت أن تغير كلمة أو حرفا من هذا التعبير لبدا القصـور ، فانك ستجعل النص لزمان دون زمان أو قاصرا على جزء مما ينبغى اعداده •

٣ ـ ((هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)) •

هذا التعبير القصير الذى عبر عن المرأة بأنها لباس للرجل ، وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة كم فيه من معان ؟

(أ) يشترط فى اللباس أن يكون خاصا بصاحبه ، وملكا له وحده ، وكذلك المرأة ينبغى أن تكون كلها لزوجها لا لغيره • لا خدها • ولا عينها • ولا جسمها ولا ••

(ب) ويشترط فى اللباس أن يكون ساترا لعورة الرجل ، وكذلك لعورة المرأة ، وكذلك المرأة بالنسبة للرجل أو العكس ، زوجتى ينبغى أن تكون ساترة لعيوبى لا تفضحنى أما اذا كانت أداة فضيحة فهذا شىء لا يحتمل ٠

(جـ) ويشترط فى اللباس أن يكون طاهرا وكذلك المرأة أو الرجل ٠

(د) ويشترط فى اللباس أن يكون مناسبا لمكانة الانسان الاجتماعية وكذلك الرجل مع المرأة ٠

فهل تجد فى اللغة العربية كلها كلمة تحل محل هذه الكلمة بحيث يبقى الجمال والكمال والجرس والانسجام مع السابق واللاحق وتعطى هذه المعانى كلهـا ٠

٤ ـ ((نساؤكم حرث لكم))

الحرث هى الأرض التى تفلح ليلقى فيها البذر ويلقى البذر من أجل الثمر فالرجل مهمته القاء البذار والمرأة مهمتها حضانة هذه البذر ٠ الأرض يعتنى بها حتى تقطف الثمرة ، وتختار صالحة للزراعة ، ولا يلقى الانسان بذاره فى الأرض ويتركها ، ولا يبذر فى غير أرضه وقد تختلف طريقة البذار ويبقى محل البذار واحدا ٠

هل تجد كلمة فى اللغة العربية تحل محل كلمة حرث ، لو قلت « أرض » لمـا أعطت المعنى المراد ولو قلت ولو قلت فلن تجد أجمل وأكمل وأكثر معانى وأجود وأصدق منها فى محلهـا ٠

٥ ـ ((فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا))

الطين المشوى يسمى آجرا أو قرميدا بعد عملية صنعه ترى هل تحل واحدة من الكلمتين فى محل هذا التعبير الجميل المصاغ هذه الصياغة العظيمة ، ثم التعبير القرآنى يدل على أن الآجر من ساعة الطلب غير موجود وفى ذلك لفتة تدلنا لعى حماقة فرعون وبطره اذ لم يقدر الزمان الكافى لعمل يحتاج الى زمن طويل وهل يحل محل كلمة الصرح كلمة أخرى ٠

٦ ـ ((فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات)) ٠

ترى لو تقدمت كلمة متأخرة على أخرى متقدمة ، فهل يبقى الجمال والتناسق واللطافة والوزن والنغم والخفة على الاذن كما هى موجودة فى هذه الصياغة ؟ حتما لا ٠٠

٧ ـ ((كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية))

لو سألك سائل ماذا تعنى كلمة سفع فى اللغة العربية فانك لا تعرف الا اذا رجعت الى قاموس ولكنك اذا رجعت الى الآية وتلوتها فان قلبك يكاد يحس

بمعناها وان لم تعرف معناها وذلك سر من أسرار القرآن يحسه كل من له صلة في هذا القرآن ٠

وبعد فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد بيئة ولا يمكن أن يكون الكمال فيه والتناسق فيه والترتيب فيه والجمال فيه والوحدة فيه والاختيار العظيم فيه الا من عند الله العظيم العليم ٠

والذى ذكرناه فى هذه الفقرة الخامسة هو من خصائص القرآن المذكورة فى الآيات :

((ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر)) ٠ ((أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)) ٠ ((قرآنا عربيا غير ذى عوج)) ٠ ((والله نزل أحسن الحديث)) ٠

* * *

وبهذا نختم الحديث عن المعجزة القرآنية ، ولم نذكر الا الطرف الأقل عنها ٠ والا ففى القرآن مناحى لو بحثت لكان هنا محلها ككون القرآن فيه تبيان كل شيء **((ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)) ٠**

وككون القرآن يهدى دائما وفى كل شيء لأقوم الطرق ٠

((ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)) ٠

وغيرها وغيرها مماوصف الله به كتابه ، وتجد مصداقه فيه ، الا أن بعضا مما له علاقة بما ذكرناه سنراه فى الرسالة الثالثة التى تأتى بعد هذه الرسالة : ((الاسلام))

ولعل فيما كتب فى هذا الفصل كفاية لطالب الحق ليؤمن أن هذا القرآن من عند الله ، وأن محمد رسول الله ، واذا بقى فى قلبه شك ، فليجرب أن يؤلف مثل سورة مهما كانت قصيرة من سور القرآن ، فان عجز فليجرب أن يتعاون مع الآخرين ممن هم أبلغ ، فان عجزوا فقد قامت عليهم الحجة ولم يبق الا الضلال والحماقة وعمى القلب وموت الضمير ٠

((وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ٠ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)) ٠

((قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)) ٠

((قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد)) ٠

والى الفقرة الثانية من هذا الفصل :

الفقرة الثانية
معجزات أخرى

ان قدرة الانسان محدودة بما حدها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعه الانسان والا لا • فالانسان مثلا يستطيع اذا توفر لديه أوكسجين وهيدروجين والأدوات اللازمة لاحداث التفاعل بينهما أن يصنع منهما ماء فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الانسان ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق • ويستطيع الانسان أن يتحكم بألكترونات وبروتونات النحاس فيصبح النحاس ذهبا اذا توفرت لذلك شروط وأدوات معينة • ولكن الانسان لا يستطيع أن يوجد ذهبا من لا شيء ، والبخار الموجود فى الجو ينعقد مطرا اذا وجدت شروط معينة من برودة وكثافة وغيرها ، ويستطيع الانسان ببعض الوسائط أن يوفر هذه الشروط بالجو فينزل مطرا اصطناعيا كما يقولون • ولكن لا يستطيع الانسان بمجرد الكلام أن ينزل مطرا •

اذن رغم ما أعطى الله الانسان من امكانات يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فان قدرة الانسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون •

ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التى يخلق بها ما شاء من الممكنات •

بعد هذا نقول : ان مما يعرف به الانسان أنه رسول الله هو أن تظهر معه آثار قدرة الله • فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون مما لا يمكن أن يكون للجهد البشرى فيه علاقة ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الانسان رسول الله • بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله • وتقوم بذلك حجة الله على خلقه بأنه أرسل رسولا ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق فى دعوى الرسالة ، ولا يكون لأحد عذر فى عدم متابعة الرسول بعد ذلك •

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول صلى الله عليه وسلم تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخيا اذ الثابت تاريخيا كالثابت مشاهدة فى اقامة الحجة •

***

ولم يوجد رسول أبدا فى تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتا تاريخيا يتحدى أدق معايير النقد التاريخى مثل ما كان لخاتم رسل الله

محمد صلى الله عليه وآله وسلم · فان معايير النقد التى وضعها علماء المسلمين لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وصل اليها العالم قط ولا يرقى الى نتائجها شـك ·

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخيا يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قدرة الله المباشرة مؤيدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأشكال وصور ومظاهر تحيط بكل الأوضاع · مما لا يبقى ريبا لمرتاب ، الا اذا مات انصافه مع قلبه فعمى بذلك عقله ·

وهذه نماذج من هذه الواقعات التى لا تفسر الا بالقدرة الالهية المؤيدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله وبها قامت الحجة على خلق الله فى كل العصور هى القرآن ، الذى رأينا بعض ما فيه مما يشهد أنه كتاب الله فى الفقرة السابقة ومع ملاحظة أننا لم نرد الاستقصاء هنا وانما أردنا ضرب الأمثلة فقط ، والا فمعجزات الرسول عليه السلام كثيرة جـدا ·

- ١ -

أخرج مسلم والبيهقى وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : قال : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ذات الرقاع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جابر ناد بوضوء · فقلت ألا وضوء ؟ ألا وضوء ؟ قلت يا رسول الله ما وجدت فى الركب من قطرة وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله صلى الله عليه وسلم الماء فقال لى : انطلق الى فلان الانصارى فانظر فى أشجابه من شيء فانطلقت اليه فنظرت فيها فلم أجد فيها الا قطرة فى عزلاء شجب يابسة مما لو أنى أفرغه لشربه واحد فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته قال :

اذهب فأتنى به فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدرى ما هو ويغمزه بيده ثم أعطانيه فقال :

« يا جابر ناد بجفنة الركب » فقلت :

ياجفنة الركب ، فأتيت بها تحمل فوضعت بين يديه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده هكذا فبسطها فى الجفنة وفرق بين أصابعه ثم وضعها فى قعر الجفنة وقال : خذ يا جابر فصب على وقل بسم الله فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ففارت الجفنة وفارت حتى امتلات فقال يا جابر ناد من كانت له حاجة بماء فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الجفنة وهى ملاى ·

وأخرج الشيخان من طريق اسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر

والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فى ذلك الاناء وأمر الناس ان يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم » .

وأخرج الشيخان من طريق ثابت رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا بماء فأتى بقدح رحراح فيه شىء من ماء فوضع أصابعه فيه فجعلت انظر الى الماء ينبع من بين اصابعه فجعل القوم يتوضؤون فحزرت من توضأ منه ما بين السبعين الى الثمانين .

وأخرج الشيخان عن أنس (رضى الله عنه) أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا بالزوراء فدعا بقدح فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف اصابعه فتوضأ اصحابه به جميعا . قلت لأنس كم كانوا قال : زهاء ثلاث مائة » .

وأخرج أحمد والبيهقى والبزار والطبرانى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وليس فى العسكر ماء فقال رجل : يا رسول الله ليس فى العسكر ماء . قال هل عندكم شىء ؟ قال : نعم . فأتى باناء فيه شىء من ماء فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه فى فم الاناء وفتح أصابعه قال : فرأيت العيون تنبع من بين أصابعه فأمر بلالا ينادى فى الناس الوضوء المبارك » .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : انكم تعدون الآيات عذابا وكنا نعدها بركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كنا نأكل مع النبى صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع تسبيح الطعام وأتى النبى صلى الله عليه وسلم باناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فقال النبى صلى الله عليه وسلم : حى على الطهور المبارك والبركة من الله حتى توضأنا كلنا » .

وأخرج البخارى عن مسور بن مخرمة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بالحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضا فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه وكانوا بضع عشرة مائة من أصحابه » .

وأخرج البخارى عن البراء (رضى الله عنه) قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة والحديبيـــة بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا باناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم انها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا .

وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع (رضى الله عنه) قال : قدمنا مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم الحديبية ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة ما ترويها فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها يعنى الركية فاما دعا واما بزق فيها فجاشت فسقينا وأسقينا » .

وأخرج مسلم عن معاذ بن جبل (رضى الله عنه) أنهم خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك فقال : انكم ستأتون غدا ان شاء الله عين تبوك وانكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا فأتاها والعين مثل الشراك تبض بشىء من ماء فغرف من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شىء ثم غسل وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جنانا » .

وأخرج الشيخان عن عمران بن حصين (رضى الله عنهما) قال : كنا فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا اليه الناس العطش فدعا عليا ورجلا آخر فقال : اذهبا فابغيانى الماء فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحين من ماء على بعيرها فقالا لها أين الماء قالت عهدى بالماء أمس هذه الساعة (أى يبعد مسيرة يوم كامل) فانطلقا بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا باناء فأفرغ فيه من أفواه المزادتين فمضمض فى الماء وأعاده فى أفواه المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالى (أى مصب الماء من القربة) ونودى فى الناس أن اسقوا واستقوا فسقى من شاء واستقى من استقى وهى قائمة تنظر ما يفعل بمائها وأيم الله لقد أقلعوا عنهما وانه ليخيل الينا أنها أشد ملاءة منها حين ابتدؤا فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجمعوا لها فجمعوا من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاما كثيرا فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلمين والله ما رزئنا من مائك شيئا ولكن الله عز وجل هو سقانا . قال : فأتت أهلها وقد احتبست عنهم فقالوا : ما حبسك يا فلانة ، قالت : العجب لقينى رجلان وذهبا بى الى هذا الذى يقال له : الصابىء ففعل بمائى كذا وكذا الذى قد كان فوالله لأنه أسحر من بين هذه وهذه وقالت بأصبعها الوسطى والسبابة فرفعتهما الى السماء تعنى السماء والأرض أو أنه لرسول الله حقا .

قال : فكان المسلمون بعد يغيرون على ما حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذى هى فيه فقالت يوما لقومها ما أرى الا أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدا فهل لكم فى الاسلام فأطاعوها فدخلوا فى الاسلام » .

وأخرج مسلم عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فأسرى ثم نام فما استيقظ الا والشمس فى ظهره فدعا بميضأة(١) كانت معى

---

(١) الميضأة : اناء يوضع فيه الماء .

فيها شيء من ماء فتوضأ منها ثم قال احفظ علينا ميضأتك فسيكون لهـــا نبأ فسار حتى امتد النهار فقال الناس هلكنا وعطشنا فقال لاهلك عليكم ٠

ثم قال انطلقوا الى عمرى يعنى القدح الصغير فدعا بالميضأة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يصب وأبو قتادة يسقيهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أحسنوا الملء كلكم سيروى حتى ما بقى أحد ٠

— ٢ —

أخرج البخارى عن ابن عمر (رضى الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه فحن الجذع فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم فمسحه فسكن ٠

وأخرج أحمد وابن سعد والدارمى وابن ماجة وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس (رضى الله عنه) أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب الى جذع قبل أن يتخذ المنبر فلما اتخذ المنبر وتحول اليه حن الجذع فأتاه فاحتضنه فسكن فقال صلى الله عليه وسلم لو لم أحتضنه لحن الى يوم القيامة » ٠

وأخرج الدارمى والترمذى وأبو يعلى والبيهقى وأبو نعيم عن أنس (رضى الله عنه) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الى جذع فلمـــا اتخذ المنبر وقعد عليه خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره فنزل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتزمه فسكت فقال : والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا الى يوم القيامة حزنا على رســول الله صلى الله عليه وســلم ٠

وأخرج ابن سعد وابن راهويه فى مسنده والبيهقى عن سهل بن ســعد الساعدى (رضى الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم الى خشبة فلما اتخذ المنبر حنت الخشبة فأقبل الناس عليها فرقوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم فنزل صلى الله عليه وسلم فأتاها فوضع يده عليها فسكنت » ٠

وأخرج الدارمى وابن ماجة وابن سعد وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقى عن أبى بن كعب (رضى الله عنه) قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع فصنع المنبر فلما جاوز ذلك الجذع اليه خار حتى تصدع وانشـــق فنزل صلى الله عليه وسلم فمسحه بيده حتى سكن » ٠

وأخرج البيهقى وأبو نعيم عن أم سلمة (رضى الله عنها) قالت : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خشبة يستند اليها اذا خطب فصنع له منبر فلما فقدته خارت خوار الثور حتى سمعها أهل المسجد فأتاها صلى الله عليه وسلم فاحتضنها فسكنت ٠

وأخرج ابن أبى شيبة والدارمى وأبو نعيم عن أبى سعيد الخـــدرى (رضى الله عنه) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع

فصنع له منبر فلما قام عليه حن الجذع حنين الناقة الى ولدها فنزل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضمه اليه فسكن » .

وأخرج البخارى عن جابر بن عبد الله (رضى الله عنه) قال : كان جذع يقوم اليه النبى صلى الله عليه وسلم فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع صوتا مثل أصوات العشار .. (النياق) .. حتى نزل النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت » .

قال التاج السبكى : حنين الجذع متواتر لأنه ورد عن جماعة من الصحابة الى نحو العشرين من طرق صحيحة كثيرة تفيد القطع بوقوعه ، وقال القاضى عياض بالشفاء : إنه متواتر . وقال البيهقى : قصة حنينه من الأمور الظاهرة التى نقلها الخلف عن السلف .

— ٣ —

أخرج البخارى عن أنس (رضى الله عنه) قال : أصابت الناس سنة (جدب) على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يوم الجمعة يخطب أتاه اعرابى فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وما نرى فى السماء قزعة ، فوالذى نفسى بيده ما وضعهما حتى ثار سحاب كأمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت الماء يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذى يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الاعرابى فقال : يا رسول الله تهدم البناء فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال : اللهم حوالينا ولا علينا فما يشير بيده الى ناحية من السحاب الا انفرج حتى صارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادى قناة شهرا ولم يجىء أحد من ناحية الا حدث بالجود » وأخرج مسلم مثله .

وأخرج البخارى عن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للارامل

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس (رضى الله عنه) أن ناسا من مضر أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يدعو الله أن يسقيهم فقال : اللهم اسقنا غيثا مغيثا هنيئا مريئا مريعا غدقا طبقا نافعا غير ضار عاجلا غير رائث فأطبقت عليهم حتى مطروا سبعا .

وأخرج الدارمى وأبو يعلى والطبرانى والبزار وابن حبان والبيهقى وأبو نعيم بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فأقبل أعرابى فلما دنا قال له النبى صلى الله عليه وسلم أين تريد قال الى أهلى قال هل لك فى خير قال وما هو قال تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله قال من شاهد على ما تقول ؟ قال هذه الشجرة فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بشاطىء الوادى فأقبلت تخد الأرض خدا حتى جاءت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه رسول الله ثم رجعت الى منبتها ورجع الاعرابى الى قومه فقال ان يتبعونى آتك بهم والا رجعت اليك فكنت معك .

وروى البخارى فى تاريخه والبيهقى والدارمى والترمذى بسند صحيح عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : بم أعرف أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ان دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتؤمن بى ؟ قال : نعم . فدعاه فجعل ينقز (أى يثب) حتى أتاه فقال : ارجع فعاد الى مكانه فأسلم الاعرابى .

وفى رواية : فجعل ينزل من النخلة شيئا فشيئا حتى سقط على الأرض فأقبل وهو يسجد ويرفع حتى انتهى الى النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال له ارجع فعاد فأسلم الاعرابى وقال : أشهد أنك رسول الله .

وروى الامام أحمد والطبرانى والبيهقى عن يعلى بن مرة الثقفى (رضى الله عنه) قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مسير فذكر الحديث الى أن قال : ثم سرنا حتى نزلنا منزلا فنام النبى صلى الله عليه وسلم فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيته ، وفى رواية : طافت به ثم رجعت الى مكانها فلما استيقظ صلى الله عليه وسلم ذكرت له ذلك فقال : هى شجرة استأذنت ربها فى أن تسلم على فأذن لها » .

وأخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) قال : آذنت (أى أعلمت) النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا له شجرة وأن الجن قالوا : من يشهد لك (أى بأنك رسول الله) فقال صلى الله عليه وسلم هذه الشجرة ، ثم دعاها للشهادة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع » .

وأخرج الامام أحمد والبيهقى والطبرانى بسند صحيح عن يعلى بن سبابة (رضى الله عنه) قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فأمر وديتين (أى نخلتين صغيرتين) فانضمتا » .

وأخرج البزار عن بريدة بن الخصيب (رضى الله عنه) قال :

سأل أعرابى النبى صلى الله عليه وسلم آية (أى علامة) تدل على أنه

رسول الله فقال له : قل لتلك الشجرة : رسول الله يدعوك • فدعاها فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدى رسول الله فقالت : السلام عليك يا رسول الله ، قال الاعرابى : مرها فلترجع الى منبتها فرجعت فدلت عروقها فاستوت فقال الاعرابى : ائذن لى أسجد لك ، أى بعد أن آمن به صلى الله عليه وسلم كما صرح به فى رواية فقال له صلى الله عليه وسلم لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لامرت المرأة أن تسجد لزوجها • فقال الاعرابى : فأذن لى أقبل يديك ورجليك فأذن له » •

قال الشيخ أحمد الدحلان فى السيرة النبوية : وأحاديث كلام الشجر له صلى الله عليه وسلم كثيرة شهيرة رواها أهل السنن عن كثير من الصحابة منهم عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأسامة بن زيد ، وأنس بن مالك ويعلى بن مرة وغيرهم ورواها عنهم أضعافهم من التابعين •

وقال القاضى عياض فى الشفاء عنها : فصارت فى انتشارها من القوة حيث هى ، قال الشهاب الخفاجي : يعنى أنها نقلت عن كثير من الصحابة والتابعين حتى بلغت التواتر المعنوى وصارت فى مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء •

— ٥ —

يقول الله تعالى :

« اقتربت الساعة وانشق القمر • وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر • وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » •

روى البخار عن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : انشق القمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال عليه الصلاة والسلام :

« اشهدوا » •

وروى البخارى ومسلم عن أنس (رضى الله عنه) : أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما » •

وروى الترمذى من حديث ابن عمر فى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : قد كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق فلقتين فلقة دون الجبل وفلقة فوق الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا » •

وروى الامام أحمد عن جبير بن مطعم قال : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا سحرنا محمد فقالوا ان كان سحرنا فانه لا يستطيع أن يسحر الناس » •

وروى أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال :

اجتمع المشركون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاصى بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ان كنت صادقا فشق لنا القمر فلقتين ، فسأل ربه فانشق » •

ونقل الخطيب فى تفسيره عن حذيفة وقد خطب فى المدائن قوله : « ألا ان الساعة قد اقتربت و أن القمر قد انشق على عهد نبيكم » •

وكفى ذكره فى القرآن الكريم حتى يحكم بتواتره اذ الآيات واضحة فيه ولا يمكن أن تفسر بغيره ولذلك أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه كما قال القاضى عياض والسبكى وغيرهم •

ونقل صاحب كتاب اظهار الحق عن المقالة الحادية عشر من تاريخ فرشتة، أن أهل مليبار من اقليم الهند رأوه أيضا « أى حادث انشقاق القمر » •

وذكر الحافظ المزى عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد فى بلاد الهند بناء قديما مكتوبا عليه بنى ليلة انشق القمر •

وقد أثار بعض مبشرى النصارى شبهات حول هذا الموضوع ، من ناحية أن هذا الحدث كان ينبغى أن يذكر فى كل التاريخ العالمية لو كان صحيحا متناسين أن الخسوف مثلا قد يقع فى منطقة من العالم ، ويبقى ساعات ولا يراه الا أهلها • وقد ناقش مقالتهم صاحب الكتاب المذكور آنفا • وننقل جزءا من مناقشته للامر قال :

١ — ان انشقاق القمر كان فى الليل ، وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشى ، والتردد فى الطرق • سيما فى موسم البرد ، فان الناس يكونون مستريحين فى داخل البيوت وزواياها ، مغلقين أبوابها ، فلا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا الا من انتظره واعتنى به ، ألا ترى الى خسوف القمر فانه يكون كثيرا وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم أحد به فى السحر •

٢ — ان هذه الحادثة ما كانت ممتدة الى زمان كثير فما كان للناظر أن يذهب الى الغير الذى هو بعيد عنه وينبهه أو يوقظ النائم ويريه •

٣ — انها لم تكن متوقعة الحصول لأهل العلم ينظرونها فى وقتها ، ويرونها كما أنتم يرون هلال رمضان ، والعيدين والكسوف والخسوف فى

أوقاتها غالبا لأجل كونها متوقعة الحصول ، ولا يكون نظر كل واحد الى السماء فى كل جزء من أجزاء النهار أيضا فضلا عن الليل ، فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة ، وكذلك من وقع نظره فى هذا الوقت الى السماء ، كما جاء فى الأحاديث الصحيحة أن الكفار لما رأوها قالوا سحركم ابن أبى كبشة فقال أبو جهل هذا سحر فابعثوا الى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا • فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقا وذلك لأن العرب يسافرون فى الليل غالبا ويقيمون فى النهار ، فقالوا هذا سحر مستمر •• ثم نقل ما ذكرناه قبل هذا النقل •

٤ ـ انه قد يحول فى بعض الأمكنة وفى بعض الاوقات فى الديار التى ينزل فيها المطر كثيرا فانه يكون فى بعض الأمكنة سحاب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر فى النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق الى ساعات متعددة • وكذا لا يرى فى الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور فى بعض أمكنة أخرى • لا أثر للسحاب ولا للمطر ، وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والامكنة الاولى قليلة ، وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج فى موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس الى أيام فضلا عن القمر •

٥ ـ ان القمر لاختلاف مطالعه ليس فى حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين فيظهر فى بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض ••

ـ ٦ ـ

أخرج البخارى عن البراء (رضى الله عنه) : أن عبد الله بن عتيك لما قتل أبا رافع ونزل من درجة بيته سقط الى الأرض فانكسر ساقه قال فحدثت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أبسط رجلك فبسطتها فمسحها فكأنما لم أشكها قط •

وأخرج الشيخان (البخارى ومسلم) عن سهل بن سعد (رضى الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : لاعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه فلما أصبح قال : أين على بن أبى طالب قالوا : يشتكى عينيه قال : فارسلوا اليه فأتى به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع » •

وأخرج البخارى عن يزيد بن أبى عبيد قال :

رأيت أثر ضربة فى ساق سلمة بن الأكوع فقلت له ما هذه الضربة ، قال : ضربة أصابتنى يوم خيبر فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفث فيها ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة » •

وأخرج النسائى والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه وأخرجه البرهان

الحلبى من طرق متعددة حتى قال الشهاب الخفاجى فى شرح الشفاء فلم يبق فيه شبهة :

عن عثمان بن حنيف (رضى الله عنه) أن رجلا أعمى قال :

يا رسول الله ادع الله لى أن يكشف عن بصرى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد انى أتوجه بك الى ربك أن يكشف عن بصرى اللهم شفعه فى فما قام القوم من مجالسهم الا ورجع الرجل وقد أبصر وكان عثمان بن حنيف وبنوه يعلمونه للناس فيدعون به عند تعسر قضاء الحاجات فتقضى » ٠

وأخرج ابن عدى وأبو يعلى والبيهقى من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن جده قتادة بن النعمان : أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا فدعا به فغمز حدقته براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت » ٠

وأخرج البيهقى من وجه آخر عن قتادة مثله وزاد بعد قوله « براحته » وقال « اللهم اكسه جمالا ٠ وأخرج ابن سعد عن زيد بن أسلم رضى الله عنه أن عين قتادة بن النعمان أصيبت فسالت على خده فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت أصح عينيه » ٠

وأخرج البيهقى وأبو نعيم والطبرانى من طرق أن عين قتادة أصيبت يوم أحد فوقعت على وجنته فردها صلى الله عليه وسلم فكانت أحسن عينيه ٠

ولفظ رواية الطبرانى وأبى نعيم عن قتادة قال : كنت يوم أحد اتقى السهام بوجهى دون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان آخرها سهما ندرت سنه حدقتى فأخذتها بيدى وسعيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآها فى كفى دمعت عيناه فقال : اللهم ق عين قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظرا فصارت كذلك ٠

والظاهر أن احدى عينيه أصيبت فى بدر والأخرى فى أحد ٠

وأخرج الامام أحمد والطبرانى عن الوازع قال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والأشج فى ركب ومعنا رجل مصاب فقلت يا رسول الله ان معى خالا مصابا فادع الله له قال : ائتنى به فأتيت به فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى رأيت بياض ابطيه ثم ضرب ظهره وقال : أخرج عدو الله فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده بين يديه فدعا له ، ومسح وجهه فلم يكن فى الوفد أحد بعد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل عليه ٠

وأخرج أبو يعلى والبيهقى بسند حسنه ابن حجر فى المطالب العالية عن

أسامة بن زيد قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحجة التى حجها حتى اذا كنا ببطن الروحاء نظر الى امرأة تؤمه فحبس راحلته فلما دنت منه قالت يا رسول الله : هذا ابنى ما أفاق من يوم ولدته الى يومى هذا فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ووضعه بين صدره وواسطة الرحل ثم تفل فى فيه وقال : أخرج يا عدو الله فانى رسول الله ثم ناولها اياه وقال خذيه فلا بأس عليه قال أسامة فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حجه انصرف حتى اذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شوتها .

وأخرج أحمد وابن أبى شيبة والبيهقى والطبرانى وأبو نعيم من طريق سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أمه أم جندب قالت :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند جمرة العقبة فرمى ورمى الناس ثم انصرف فجاءت امرأة ومعها ابن لها به مس (أى جنون) قالت : يا رسول الله ابنى هذا به بلاء لا يتكلم فأمرها النبى صلى الله عليه وسلم فجاءت بتور (اناء من حجارة فيه ماء) فأخذه صلى الله عليه وسلم بيده فمج فيه ودعا فيه وأعاده فيه ثم أمرها فقال : اسقيه واغسليه فيه قالت فتبعتها فقلت هبى لى من هذا الماء قالت خذى منه فأخذت منه حفنة فسقيتها ابنى عبد الله فعاش فكان من بره ما شاء الله أن يكون قالت ولقيت المرأة فزعمت أن ابنها برأ وانه غلام لا غلام خير منه « ولفظ أبى نعيم » برأ وعقل عقلا ليس كعقول الناس .

وأخرج أحمد والدارمى والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن امرأة جاءت بابن لها فقالت يا رسول الله ان بابنى هذا جنونا وانه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيفسد علينا ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ودعا له فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى .

وأخرج الحاكم عن أبى بن كعب قال :

كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاء اعرابى فقال يا نبى الله ان لى أخا به وجع قال وما وجعه قال به لم (أى جنون) قال فائتنى به فأتاه به فوضعه بين يديه فعوذه النبى صلى الله عليه وسلم بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين :

« والهكم اله واحد .. وآية الكرسى وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران : شهد الله أنه لا اله الا هو .. » وآية من الأعراف : ان ربكم .. وآخر سورة المؤمنين : فتعالى الله الملك الحق .. » وآية من سورة الجن : « وانه تعالى جد ربنا .. » وعشر آيات من أول الصافات وثلاث آيات

من آخر سورة الحشر وقل هو الله أحد والمعوذتين فقام الرجل كأنه لم يشك شيئا قط •

ورواه عبد الله بن الامام أحمد فى الزوائد بسند حسن •

— ٧ —

ومعجزة أخرى متواترة النقل نقدم لها بما يلى :

لقد صعد الانسان الى ارتفاعات كبيرة فى هذا القرن ، ولكن رغم هذا فانه باق ضمن اطار معين محدود فى السرعة والزمان والمكان • فهو ما جاوز بعد دائرة الأرض ومجاوزته دائرة المجموعة الشمسية مستحيل وأقرب نجم الى مجموعتنا الشمسية على ما يقال يبعد حوالى أربع سنين ضوئية أى لو سار الانسان بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر فى الثانية فانه يصل بعد أربع سنوات وهذا مستحيل المستحيلات •

وهنا يظهر الفارق بين المعجزة والعادة ، المعجزة تتعلق بقدرة الله المباشرة أما العادة فهى خاضعة للاسباب التى جعل الله عز وجل هذا العالم يسير عليها •

فقد أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى القدس وعرج به الى ما فوق السماء السابعة ورجع بمدة زمنية قصيرة جدا لم تتجاوز دقائق أو سويعات قليلة فكان فى ذلك معجزة دلت على قدرة الله وعلى أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وقد يقول قائل : ان المعجزة حتى تقوم بها الحجة على الناس ينبغى أن تكون مشاهدة يراها الناس والاسراء والمعراج لم يرهما أحد وانما أخبر عنهما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه والاخبار بالمعجزة وحده من صاحبها لا تقوم به الحجة على الناس •

والجواب أن الحجة قامت بسبب أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر عن قضايا ما كان ليستطيع الاخبار عنها لولا أنه أسرى به وعرج وبهذا قامت الحجة على الناس • اذ أن الناس عندما أخبرهم بما حدث له سألوه دليلا فقدم لهم جوابا عن كل ما سألوه وهذه أمثلة :

١ — أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى مالك عن أنس •• فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا يا أبا بكر هل لك فى صاحبك يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ثم رجع فى ليلة فقال أبو بكر : ان كان قاله فقد صدق • وانا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، نصدقه على خبر السماء • فقال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما علامة ما تقول : قال : مررت بعير لقريش وهى فى مكان كذا وكذا فنفرت الابل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فضرع فانكسر فلما قدمت العير

سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٠

٢ ـ أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كذبتني قريش حين أسرى بى الى بيت المقدس قمت فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه ٠

٣ ـ أخرج ابن أبى حاتم والبيهقى وصححه والبزار والطبرانى وابن مردويه عن شداد بن أوس : « ٠٠ فأتانى أبو بكر فقال : يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك فى مظانك فقلت علمت أنى أتيت بيت المقدس الليلة فقال يا رسول الله انه مسيرة شهر فصفه لى قال ففتح لى صراط كأنى أنظر اليه لا يسألنى عن شىء الا أنبأته عنه قال أبو بكر أشهد أنك رسول الله فقال المشركون انظروا الى ابن أبى كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة فقال : ان من آية ما أقول لكم أننى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيرا لهم فجمعه فلان وأن مسيرهم ينزلون بكذا ثم كذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتى كان قريبا من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وليس فى هذا النص والنص الأول تناقض فالنص الاول يتحدث عن جمل عليه غرارة بيضاء وأخرى سوداء انكسرت رجله أما هذا فيتحدث عن الجمل الأول فى القافلة وعليه غرارتان سوداوان ٠

٤ ـ أخرج أحمد وابن أبى شيبة والنسائى والبزار والطبرانى وأبو نعيم بسند صحيح من طريق زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبى فقعد معتزلا حزينا فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس اليه فقال له كالمستهزىء :

هل كان من شىء قال نعم قال وما هو ؟ قال : انى أسرى بى الليلة ، قال : الى أين ـ قال : الى بيت المقدس قال ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم، فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحده الحديث ان دعا قومه اليه قال :

أرأيت ان دعوت قومك أتحدثهم ما حدثتنى قال نعم قال : هيا معشر بنى كعب بن لؤى فانفضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

انى أسرى بى الليلة قالوا الى أين قال : الى بيت المقدس قالوا ثم أصبحت بين ظهرانينا قال نعم قال : فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا قالوا وتستطيع أن تنعت المسجد وفى القوم من سافر اليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس على بعض

النعت فجيء بالمسجد وأنا أنظر اليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعته وأنا أنظر اليه فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب ·

٥ ـ أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر من طريق أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه حدث عن ليلة أسرى به ·· ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب : أنى أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بى الى السماء ثم رأيت كذا وكذا فقال أبو جهل ألا تعجبون مما يقول محمد قال فأخبرهم بعير قريش قال لما كانت فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا وانها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا ومتاعه كذا فقال رجل أنا أعلم الناس ببيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، فرفع لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المقدس فنظر اليه فقال بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا فقال صدقت ·

٦ ـ وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظى قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية الكلبى الى قيصر صاحب الروم وذكر قصة اجتماع أبى سفيان بهرقل وأسئلة هرقل لأبى سفيان الى أن يذكر ما يلى على لسان أبى سفيان :

قلت أيها الملك ألا أخبرك عنه خبرا فعرف أنه قد كذب · قال وما هو قلت انه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد ايلياء ورجع الينا فى تلك الليلة قبل الصباح : قال وبطريق ايلياء عند رأس قيصر قال البطريق قد علمت تلك الليلة قال فنظر اليه القيصر وقال ما علمك بها ، قال انى كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم فعالجناه فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلا فدعوت النجاجرة فنظروا اليه فقالوا هذا باب سقط عليه النحات والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى فرجعت وتركته مفتوحا فلما أصبحت غدوت فاذا الحجر الذى من زاوية الباب منقوب واذا فيه أثر مربط الدابة فقلت لأصحابى ما حبس هذا الباب الليلة الا على نبى وقد صلى الليلة فى مسجدنا ، فقال قيصر يا معشر الروم أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبيا بشركم به عيسى وهذا هو النبى الذى بشر به عيسى فأجيبوه الى ما دعا اليه فلما رأى نفورهم قال يا معشر الروم دعاكم ملككم يختبركم كيف صلابتكم فى دينكم فشتمتوه وسببتموه وهو بين أظهركم فخروا له سجدا ·

٧ ـ وأخرج مسلم من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيتنى من الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربا ما كربت مثله قط فرفعه الله لى أنظر اليه ما يسألونى عن شىء الا نبأتهم به ·

وهناك سؤال آخر يسأله بعض الناس وهو أين هى السماء التى عرج اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

والجواب أن القرآن قد ذكر السماء فى كثير من آياته وأراد بها المعنى اللغوى لها ٠ وذكر أحيانا السماء وأراد بها معنى اصطلاحيا له ارتباط بالمعنى اللغوى ، ففى اللغة كل ما علاك فهو سماء : قال الله تعالى **((أنزل من السماء ماء)) ((أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما))** فهنا قصد المعنى اللغوى فقط **((تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم)) ((الله الذى خلق سبع سموات))** ذكرت هنا السماء بالمعنى الاصطلاحى ٠

« انى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع أربع أصابع الا ٠٠ » فالمقصود بالسموات هذه سكن الملائكة ، والتى فيها الجنة فى السماء السابعة ، وسقفها عرش الرحمن ، فهذه السموات هى التى عرج اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سنرى فى الأحاديث بعد قليل ٠ أما أين هى فالله أعلم بذلك ٠ اذ هى من المغيبات عنا أما ما يتصوره بعض الناس بأن هذه الزرقة هى هذه السموات فهذا خطأ ووهم ، اذ هذه الزرقة ترى من الأرض فقط فاذا ما ارتفع الانسان فى الفضاء غابت فهى انعكاسات أضواء وأنوار وأجواء ٠

واذن فنحن نؤمن أن هناك سموات سبعا ، وعرشا فوقها ، اثبتناها باثبات الله اياها ، واخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، ولا نجزم بمكانها وان كنا نجزم أنها فى جهة فوق بالنسبة لسكان الأرض ، ولا نعرف عنها الا ما أخبرنا الله ورسوله ، هذه السموات هى التى كان اليها العروج وهى التى تصعد اليها أرواح البشر وتنزل الملائكة والروح منها ٠

* * *

ويتساءل آخرون : ما الحكمة فى الاسراء والمعراج ؟

والحكمة ـ والله أعلم ـ تكمن فى ناحيتين :

الأولى : أن الله أرى رسوله ما دعا اليه فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الى الايمان بالجنة ، ورأى الجنة وأن يدعو الى الايمان بالرسل ورأى الرسل ٠ صلوات الله وسلامه عليهم ، والى الايمان بالملائكة ورأى الملائكة ، والى الايمان بالله ورأى آثار قدرة الله وملكوته وقد ذكر الله فى القرآن :

((لنريه من آياتنا)) ٠

الثانية : أن الله يعد رسوله لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة الاسلامية ٠ هذه المرحلة تشبه المرحلة التى رأى فيها موسى آيات الله الكبرى وهى مجابهة فرعون ٠

فقد قال الله عن موسى ((**لنريك من آياتنا الكبرى • اذهب الى فرعون انه طغى**)) ان موسى الذى سيقابل فرعون الطاغية قد هيء بهذه الرؤية لاحتقار كل القوى الأرضية ما دامت معه قوة الله : وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مأمورا فى الصبر طوال المرحلة المكية ، وبعد الهجرة أمر بالمجابهة وكان الاسراء والمعراج قبل الهجرة بقليل • فكانت رؤية آيات الله الكبرى تمهيدا لهذه المرحلة التى سيقف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقلة من أصحابه فى وجه الدنيا كلها • قال الله فى أوائل سورة النجم بعد الحديث عن المعراج ((**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**)) ومن قبل كما ذكرنا أرى موسى من آيات الله الكبرى قبل مرحلة المجابهة •

* * *

وأخيرا بعد هذه المقدمات عن هذه المعجزة نبدأ بذكر طرف عنها • قال الحافظ السيوطى :

اعلم أن الاسراء ورد مطولا ومختصرا من حديث أنس وأبى بن كعب وبريدة وجابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان وسمرة بن جندب وسهل بن سعد وشداد ابن أوس وصهيب وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وعبد الله ابن أسعد بن زرارة وعبد الرحمن بن قرط وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ومالك بن صعصعة وأبى أمامة وأبى أيوب وأبى حية وأبى الحمراء وأبى ذر وأبى سعيد الخدرى وأبى سفيان بن حرب وأبى ليلى الأنصارى وأبى هريرة وعائشة وأسماء بنتى أبى بكر وأم هانىء وأم سلمة •

وعد الامام القسطلانى فى المواهب اللدنية ستة وعشرين صحابيا وصحابية رووا حديث الاسراء والمعراج فهو اذن حديث متواتر مع نص القرآن عليه فى سورتى الاسراء والنجم وهذه بعض روايات الحديث :

١ ــ أخرج مسلم عن طريق ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة ثم عرج بنا الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بادم فرحب بى ودعا الى بخير ، ثم عرج بى الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعا لى

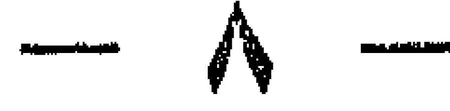
بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بادريس فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعود اليه ثم ذهب بى الى سدرة المنتهى فاذا ورقها كاذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها فأوحى الى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لا تطيق ذلك فانى قد بلوت بنى اسرائيل وخبرتهم فرجعت الى ربى فقلت يا ربى خفف عن أمتى فحط عنى خمسا فرجعت الى موسى فقلت حط عنى خمسا قال ان أمتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى حتى قال يا محمد انهن خمس صلوات بكل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك الخمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فان عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقلت قد رجعت الى ربى حتى استحييت منه .

٢ ـ وأخرج مسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسرى بى على موسى قائما يصلى فى قبره .

٣ ـ وأخرج أحمد وابن أبى شيبة والترمذى والحاكم وصححاه والنسائى وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن حذيفة أنه حدث عن ليلة أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال « ما زايل البراق حتى فتحت له أبواب السموات فرأى الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عاد » ولفظ ابن مردويه فأرى ما فى السموات وأرى ما فى الأرض .

٤ ـ أخرج مسلم من طريق مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهى الى سدرة المنتهى واليها ينتهى ما يصعد به وفى لفظ ما يعرج به من الأرواح حتى يقبض منها واليها ينتهى ما يهبط به من فوقها حتى يقبض . اذ يغشى السدرة ما يغشى قال غشيها

فراش من ذهب وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئا المقحمات ٠



وعندما يدعو رسول الله لانسان فانك تجد ما دعا له قد تحقق تماما كما دعا ، وكثرة الحوادث في هذا الموضوع تجعل الانسان على اليقين الكامل ٠ ان محمدا رسول الله وان الله عز وجل يؤيد رسوله ويسدده ويستجيب دعاءه حتى لا يشك معه بقيمة الكلمة التى تخرج من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وقد قال القاضى عياض فى الشفاء اجابة دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لجماعة دعا لهم أو عليهم متواترة معلومة ضرورة وأخرج الامام أحمد عن حذيفة ابن اليمان (رضى الله عنه) قال كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا دعا للرجل أدركت ولده وولد ولده » ٠

وهذه أمثلة منتقاة من عشرات أو مئات الحوادث من نوعها فى كل منها دليل ما قلناه :

١ ــ أخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن على رضى الله عنه قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن فقلت يا رسول الله تبعثنى وأنا شاب أقضى بينهم ولا أدرى ما القضاء فضرب بيده فى صدرى وقال اللهم اهدى قلبه وثبت لسانه فوالذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين ٠

٢ ــ أخرج البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن « بارك الله لك » وأخرجه ابن سعد والبيهقى من وجه آخر وزاد قال عبد الرحمن لقد رأيتنى ولو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهبا أو فضة ٠

٣ ــ أخرج الترمذى والحاكم وصححه عن سعد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اللهم استجب لسعد اذا دعاك فكان لا يدعو الا استجيب ٠

٤ ــ أخرج الشيخان عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال دعا لى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم فقهه فى الدين » وأخرجه الحاكم والبيهقى وأبو نعيم من وجه آخر عنه بزيادة : « وعلمه التأويل » فصار حبر هذه الأمة ولا سيما فى علم التفسير ٠

وأخرج الامام أحمد وأبو نعيم عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسى ودعا لى بالحكمة فلم تخطئنى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

٥ ــ أخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال :

اشتكى ابن لأبى طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا ونحته فى جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال كيف الغلام قالت هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح وظن أبو طلحة أنها صادقة فبات فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما كان منهما فقال صلى الله عليه وسلم لعل الله يبارك لكما فى ليلتكما قال سفيان قال رجل من الأنصار فرأيت لهما سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن •

٦ ـ أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ما على وجه الأرض مؤمن ولا مؤمنة الا وهو يحبنى قلت وما علمك بذلك قال انى كنت أدعو أمى الى الاسلام فتأبى فقلت يا رسول الله ادع الله أن يهدى أم أبى هريرة الى الاسلام فدعا لها فرجعت فلما دخلت البيت قالت أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى من الفرح كما كنت أبكى من الحزن وقلت يا رسول الله قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة الى الاسلام فادع الله أن يحببنى وأمى الى عباده المؤمنين وأن يحببهم الينا فقال صلى الله عليه وسلم اللهم حبب هذا وأمه الى عبادك المؤمنين وحببهم اليهما فما أعلم مؤمنا ولا مؤمنة الا وهو يحبنى وأحبه •

٧ ـ أخرج الشيخان عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع ألا تسمعنا من هنيهاتك وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم بقوله :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتنينا وثبت الاقدام ان لاقينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا السائق قالوا عامر قال يرحمه الله قال رجل من القوم وجبت يا رسول الله هلا أمتعتنا به فلما تصافّ القوم تناول عامر سيفه ليضرب به ساق يهودى فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته فمات منه • وأخرجه مسلم من وجه آخر وفيه فقال من هذا القائل قالوا عامر قال غفر لك ربك قال وما خص رسول الله صلى الله عليه وسلم قط أحدا به الا استشهد فقال عمر لولا متعتنا بعامر أى ما استغفر لانسان يخصه قط الا استشهد •

٨ ـ أخرج البخارى عن أبى عقيل أنه كان يخرج به جده عبد الله بن هشام الى السوق ليشترى الطعام فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان أشركنا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا لك بالبركة فيشركهم فربما أصاب الراحلة كما هى فيبعث بها الى المنزل •

٩ ـ أخرج الشيخان عن أبى بكر رضى الله عنه قال طلبنا القوم فلم

يدركنا منهم غير سراقة بن مالك على فرس له فقلت يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا قال لا تحزن ان الله معنا فلما كان بيننا وبينه قدر قيد رمحين أو ثلاثة دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اكفناه بما شئت فساخت به فرسه فى الأرض الى بطنها فقال يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه فوالله لاعمين على من ورائى من الطلب فدعا له صلى الله عليه وسلم فانطلق راجعا ٠

١٠ ـ أخرج البخارى فى الأدب والنسائى عن أم قيس أنها قالت توفى ابنى فجزعت فقلت للذى يغسله لا تغسل ابنى بالماء البارد فيقتله فانطلق عكاشة ابن محصن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بقولها فتبسم ثم قال طال عمرها فلا يعلم امرأة عمرت ما عمرت ٠

١١ ـ أخرج البيهقى وأبو نعيم من طريق يعلى بن الأشدق قال سمعت النابغة نابغة بنى جعدة يقول أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم شعرا فأعجبه فقال جدت لا يفضض الله فاك قال يعلى فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن ٠

١٢ ـ أخرج البخارى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه الى كسرى فلما قرأه كسرى مزقه فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق فمزقوا ٠

١٣ ـ وروى البيهقى باسناد صحيح أنه صلى الله عليه وسلم دعا على الحكم بن أبى العاص وكان يختلج بوجهه أى يحرك وجهه وحاجبيه وشفتيه استهزاء بالنبى صلى الله عليه وسلم فقال كن كذلك فلم يزل يختلج الى أن مات ٠

١٤ ـ وأخرج مسلم بن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أن رجلا أكل عند النبى صلى الله عليه وسلم بشماله فقال كل بيمينك قال لا أستطيع قال لا استطعت ما منعه الا الكبر ٠ قال فما رفعها الى فيه بعد ٠

— ٩ —

عندما تدرس حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدك دائما أمام حادث تشعر فيه أنك أمام قدرة الله المباشرة التى لا دخل لعالم الأسباب فيها ، ولا تستطيع أبدا أن تجد تعليلا لما تراه ، أو نقل اليك نقلا صحيحا ، الا أن الله جلت حكمته يجرى على يد هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ما تقوم به الحجة على الكافر ، ويزداد به المؤمن يقينا ويخرج به الشاك عن شكه ٠

ولا يفوتنا هنا ونحن ننقل نوعا آخر من أنواع معجزاته صلى الله عليه

وسلم أن نشير مرة ثانية الى أن هذه النقول هى أدق نقول تاريخية فى العالم • لأن معايير النقد التى وضعت لاستخراج صحيحها لا مثيل لها أبدا • مع ملاحظة أنها منقولة فى النهاية عن الصحابة الذين كانوا يعتقدون أن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر ، وقد رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدق ، وما كان أحدهم يسكت عن باطل رآه • فلو حدث أن صحابيا أخطأ فى النقل فانهم جميعا كانوا يردون عليه اذا بلغهم خطؤه ، واذن فنحن اذ ننقل هذه النقول ننقلها باطمئنان الواثق الى ما بين يديه ، ولئن كان فى الاخبار المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو ضعيف فالعلة تكمن فى أجيال ما بعد الصحابة والتابعين • وعلماء النقد عند المسلمين ما تركوا أمثال هذه تمر ونحن نحاول ألا ننقل الا ما كان ثابتا بعد النقد والا كشاهد • بعد هذا نبدأ بنقل مجموعة من الآثار تدور حول معنى واحد ، يظهر فيه الاعجاز ، وما ننقله فيه غيض من فيض وكثير مما نقلناه مروى بعدة روايات عن عدة صحابة ومخرج فى عدة كتب ولكنا اخترنا رواية من مجموع روايات الحادثة الواحدة وهاك هذه المختارات •

* * *

١ ــ روى البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما فى قصة حفر الخندق قال رأيت بالنبى صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا وهو ضمير البطن من الجوع فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة وهى الصغيرة من أولاد المعز وفى رواية عن جابر رضى الله عنه انا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة فجاؤا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت فى الخندق فقال أنا نازل ثم أقام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم فضرب فعادت كثيبا أهيل فقلت يا رسول الله ائذن لى الى البيت فاذن فقلت لامرأتى رأيت بالنبى صلى الله عليه وسلم شيئا ما كان لى فى ذلك صبرا فعندك شىء قالت عندى شعير وعناق فذبحت العناق وطبخت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ثم جئت النبى صلى الله عليه وسلم والعجين قد اختمر والبرمة بين الأثافى ــ أى الأحجار التى توضع عليها القدر ــ كادت أن تنضج وقالت امرأتى لا تفضحنى برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه فجئته فساررته فقلت يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطبخنا صاعا من شعير فتعال أنت ونفر معك يعنى دون العشرة وفى رواية فقلت طعيم لنا صنعته فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان وكنت أريد أن ينصرف وحده قال كم هو فذكرت له فقال كثير طيب قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى فصاح النبى صلى الله عليه وسلم يا أهل الخندق ان جابرا صنع سؤرا فحيهلا بكم ــ أى هلموا مسرعين ــ والسؤر الطعام الذى يدعى اليه •

وفى رواية فقال قوموا فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال ويحك جاء النبى صلى الله عليه وسلم بالأنصار والمهاجرين ومن معهم

قالت هل سألك قلت نعم وفى رواية قال لقيت من الحياء ما لا يعلمه الا الله تعالى وقلت جاء الخلق على صاع من شعير وعناق فدخلت على امرأتى أقول افتضحت جاءك رسول الله بالجند أجمعين فقالت هل كان سألك كم طعامك فقلت نعم فقالت الله ورسوله أعلم نحن أخبرناه بما عندنا وفى رواية انها خاصمته فى أول الأمر وقالت بك بك فلما اعلمها بأنه أعلم النبى صلى الله عليه وسلم سكن ما عندها وقالت الله ورسوله أعلم لعلمها بامكان خرج العادة ودل ذلك على وفور عقلها وكمال فضلها (رضى الله عنها) واسمها سهيلة بنت معوذ الأنصارية ٠

فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تنزل برمتكم ولا يخبزن عجينكم حتى أجئ وفى رواية قال جابر فجئت وجاء النبى صلى الله عليه وسلم يقدم الناس فأخرجت المرأة له عجينا فبصق فيه وبارك ثم عمد الى برمتنا وبصق فيها وبارك أى دعا بالبركة ثم قال لجابر ادع خابزة لتخبز مع زوجتك ثم قال لها اقدحى أى اغرفى من برمتكم ولا تنزلوها وهم – أى القوم الذين جاءوا معه ألف – واقعدهم عشرة عشرة يأكلون فاقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا – أى مالوا عن الطعام – وان برمتنا لتغط أى لتغلى وتفور كما هى وان عجيننا ليخبز كما هو ٠ وفى رواية فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه ادخلوا ولا تضاغطوا فجعل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا أجمعين والتنور والقدر أملا ما كانا فقال كلى واهدى فلم نزل نأكل ونهدى يومنا أجمع ٠ وفى رواية فأكلنا و أهدينا لجيراننا فلما خرج صلى الله عليه وسلم ذهب ذلك ٠

٢ – وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا فأمر نبى الله صلى الله عليه وسلم فجمعنا مزاودنا فبسطنا له نطعا فاجتمع زاد القوم على النطع فتطاولت لاحزر كم هو فحزرته كربضة لعنز ونحن أربع عشرة مائة فأكلنا حتى شبعنا جميعا ثم حشونا جرباننا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل من وضوء فجاء رجل بأداوة له فيها نطفة ماء فأفرغها فى قدح فتوضأنا كلنا ندغفقة دغفقة أربع عشرة مائة ٠

٣ – وأخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا يا رسول الله لو أذنت لنا ننحر نواضحنا فأكلنا وادهنا فقال عمر يا رسول الله ان فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك الخير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ويجئ الآخر بكف تمر ويجئ الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شئ يسير فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ثم قال لهم خذوا فى أوعيتكم فأخذوا حتى ما تركوا فى العسكر وعاء الا ملؤوه فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة وأخرجه بنحوه ابن سعد والحاكم وصححه البيهقى وأبو نعيم عن أبى عمرة الانصارية رضى الله عنـــه وأخرجه ابن راهوية وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنـــه) عنه لبفظ :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فأصابنا جوع شديد فقلت يا رسول الله خرج الينا الروم وهم شباع ونحن جياع وارادت الأنصار أن ينحروا نواضحهم فنادى فى الناس من كان عنده فضل من زاد فلبأتنا فحزرنا جميع ما جاؤا به فوجدوه سبعة وعشرين صاعا فجلس رسـول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه فدعا فيه بالبركة ثم قال أيها الناس خذوا ولا تنتهبوا فأخذوه فى الجرب والغرائر حتى جعل الرجل يعقد قميصه فيأخذ فيه حتى صدروا وانه نحو ما كان يحزرون فقال النبى صلى الله عليه وسلم أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله لا يأتى بهما عبد بحق الا وقاه الله حر النـــار •

٤ ـ وأخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال : قال أبو طلحة لأم سليم لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا أعرف فيــه الجوع فهل عندك من شىء قالت نعم فأخرجت أقراصا من شعير ثم ذهبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرسلك أبو طلحة قلت نعم فقال لمن معه قوموا فجئت أبا طحة فاخبرته فقال أبو طلحة يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليس عندنا ما نطعمهم قالت الله ورسوله أعلم فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هلمى ما عندك يا أم سـليم فأتت بذلك الخبز فأمر به ففت وعصرت عليه عكة لها فادمته ثم قال فيـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء أن يقول ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجـلا أو ثمانون • وأخرجه مسلم من عدة طرق وفى بعضها ثم أكل رســـول الله صلى الله عليه وسلم وأهل البيت وأفضلوا ما بلغ جيرانهم وفى بعضها فقال بسم الله عظم فيه البركة •

٥ ـ وأخرج الدارمى وابن أبى شيبة والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه وأبو نعيم عن سمرة بن جندب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة فيها طعام فتعاقبوها الى الظهر منذ غدوة يقوم قوم ويقعد آخرون فقال رجل لسمرة هل كانت تمد قال ما كانت تمد الا من ههنا وأشار الى السماء •

٦ ـ وأخرج البخارى عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما قال كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة فقال هل مع أحد منكم طعام

فاذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل بغنم يسوقها فاشترى منه شاة فأمر بها فصنعت وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسواد البطن أن يشوى قال وأيم الله ما من الثلاثين ومائة الا وقد حز له رسول الله صلى الله عليه وسلم من سواد بطنها ان كان شاهدا أعطاه وان كان غائبا خبأ له قال وجعل منها قصعتين فأكلنا منها أجمعون وشبعنا وفضل من القصعتين فحملنا على البعير •

٧ ـ وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال دعانى النبى صلى الله عليه وسلم فقال انطلق الى المنزل فقل هلموا الطعام الذى عندكم فأعطونى صحيفة فيها عصيدة بتمر فأتيته بها فقال لى ادع أهل المسجد فقلت فى نفسى الويل لى مما أرى من قلة الطعام والويل لى من المعصية فدعوتهم فاجتمعوا فوضع النبى صلى الله عليه وسلم أصابعه فيها وغمز نواحيها وقال كلوا بسم الله فأكلوا حتى شبعوا وأكلت حتى شبعت ورفعتها فاذا هى كهيئتها حين وضعتها الا أن فيها آثار أصابع النبى صلى الله عليه وسلم •

٨ ـ وأخرج أبو يعلى والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى وأبو نعيم عن قيس بن النعمان (رضى الله عنه) قال لما انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر مستخفين مرا بعبد يرعى غنما فاستنقياه اللبن فقال ما عندى شاة تحلب غير أن ههنا عناقا حملت أول الشتاء وقد أخرجت وما بقى لها لبن فقال صلى الله عليه وسلم ادع بها فدعا بها فاعتقلها النبى صلى الله عليه وسلم ومسح ضرعها ودعا وجاء أبو بكر بمجن فحلب صلى الله عليه وسلم وسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعى ثم حلب فشرب هو صلى الله عليه وسلم فقال الراعى من أنت فوالله ما رأيت مثلك قط قال محمد رسول الله قال أنت الذى تزعم قريش أنه صابئ قال انهم ليقولون ذلك قال فأشهد أنك نبى وان ما جئت به حق وانه لا يفعل ما فعلت الا نبى •

٩ ـ وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : والله الذى لا اله الا هو ان كنت لاعتمد كبدى على الأرض من الجوع وان كنت لاشد الحجر على بطنى من الجوع ولقد قعدت يوما على الطريق فمر بى أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته الا ليستتبعنى فمر ولم يفعل ثم مر بى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ثم قال يا أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله •

قال الحق ومضى فاتبعته فدخل واستأذنت فأذن لى فدخلت فوجد صلى الله عليه وسلم لبنا فى قدح فقال من أين هذا اللبن قالوا أهداه لك فلان وفلانة قال صلى الله عليه وسلم : أبا هريرة •

قلت لبيك يا رسول الله •

قال الحق بأهل الصفة فادعهم وادعهم لى قال وأهل الصفة أضياف الاسلام لا يأوون الى أهل ولا مال اذا أتته صلى الله عليه وسلم صدقة بعث بها اليهم ولم يتناول منها شيئا فاذا أتته هدية أرسل اليهم فأصاب منها وأشركهم فيها فساءنى ذلك وقلت وما هذا اللبن فى أهل الصفة كنت أرجو أن أصيب من هذا اللبن بشربة اتقوى بها وانى لرسول فاذا جاؤا أمرنى صلى الله عليه وسلم أن أعطيهم ما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت فقال : أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله قال خذ فأعطهم فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح أعطيه لآخر فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح حتى انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده ونظر الى وتبسم وقال يا أبا هريرة قلت لبيك يا رسول الله قال بقيت أنا وأنت قلت صدقت يا رسول الله قال اقعد فاشرب فشربت فقال اشرب فشربت فما زال يقول اشرب فأشرب حتى قلت لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة صلى الله عليه وسلم •

***

وبعد هذا ننتقل الى خاتمة هذا الفصل :

تعقيب

ان المعجزة حجة على صحة دعوى الرسالة • غير أن بعض الناس يحاول أن يتهرب من حجيتها بذكر أشياء خارقة للعادة تظهر على يد غير الرسل ، يراها الناس ثم يعتبر ذلك دليلا على أنه لم تقم عليه الحجة بالمعجزة ، والحقيقة أن هناك أشياء كثيرة يراها الناس خارقة للعادة وليست كذلك • والمعجزة تختلف عن كل هذه الأشياء وبهذا تقوم الحجة على الناس ولنضرب أمثلة :

فى دمشق من بلاد الشام يرى الناس فى حى الاكراد ظاهرة عجيبة هى خروج رجل انسان من قبر صاحبه ، والرجل لم تتغير ولم تتبدل مع أن صاحبها متوفى من مئات السنين ، ونسمع كثيرا عن أخبار ناس سحرة يأتون أشياء عجيبة ، ونسمع كثيرا عن أشياء عجيبة تظهر على يد فقراء الهنود ، والرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن خوارق تظهر على يد الدجال فى آخر الزمان ويروى لنا الثقات أن هناك ناسا من صلحاء المسلمين تظهر على أيديهم خوارق للعادة فمثلا يذكر ابن تيمية أن الشيخ عبد القادر الجيلانى منقولة كراماته تواترا •

فما مقام المعجزة التى تقوم بها الحجة بين هذه الأشياء ؟

كنا ذكرنا فى مقدمة هذه الفصول أن المعجزة تكون بخلق الله المباشر دون أن يكون للاسباب الكونية فيها أى تعلق • على خلاف السحر فانه علم له قوانينه

من أتقنها ظهر على يده منه ، وعلى خلاف الأعاجيب التى تظهر نتيجة الرياضات الروحية • فان ذلك أثر من أسباب وقوانين كونية تخضع لها عوالم الروح •

ومن هنا كانت هذه الأشياء فى الحقيقة نتائج عادية لمقدسات خاصة ، أما معجزة الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم فتختلف عن هذا كله لأنها ليست وليدة علم أو قانون كونى وسبب ، أما الخارقة للعادة التى تظهر على يد رجل صالح ، فهى مثل المعجزة من حيث كونها خارجة عن الأسباب ، ومن حيث كونها بقدرة الله المباشرة •

ولكنها فى العادة لا تكون الا على يد انسان متمسك بحبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى أثر من آثار اتباع الرسول • فهى كرامة لمن ظهرت على يده معجزة للرسول • لأنه لولا اتباعه للرسول ما أظهر الله على يديه مثل هذه الخوارق ، فالكرامة والمعجزة من مشكاة واحدة ، ولكن المعجزة تظهر مع دعوى الرسالة ، والكرامة تظهر تأييدا لصاحب الرسالة على يد انسان متبع للرسول •

ولا نحكم على الخارقة أنها كرامة الا بعد التأكد من استقامة صاحبها على أمر الله وسنة رسوله •

ان سنة الله جرت ألا يظهر خارقة للعادة بكل شروطها على يد انسان كذاب فى دعوى الرسالة عنه ، وهنا سر الفرق الحقيقى بين المعجزة وكل خارقة أخرى •

فصاحب الكرامة لا يدعى الرسالة ، ولذا فان ظهورها على يده لا يجعل فى الأمر التباسا ، خاصة وهو متبع لرسوله متمسك بشريعته •

وأما المسيح الدجال فليس يدعى الرسالة وتظهر معه الخوارق تأييدا لها حاشا ، ولكنه انسان جعله الله عز وجل أعظم فتنة للبشر اذ يدعى الألوهية ويظهر معه شيء من آثار قدرة الله ليبقى العقل البشرى مسؤولا ، اذ العقل يعرف الله بصفات الكمال وهذا الانسان لا يمكن أن يكون هو الله • فما يظهره الله على يده فتنة يختبر بها العباد ، ولا يلتبس ما يظهر على يده بالمعجزة التى تقوم بها الحجة ، لأنه لا يدعى الرسالة أصلا ، ولو كان يدعى الرسالة ما ظهرت على يده مثل هذه الخوارق •

واذن بعض ما يظهر للناس أنه خوارق للعادة ليس هو فى الحقيقة من هذا النوع •

وبعضها لا يظهر مع دعوى الرسالة فلا يلتبس بالمعجزة •

وتبقى المعجزة شاهدة على صحة دعوى الرسالة ، والكرامة اذا خرجت من

أهلها دليل على صدق التابع والمتبوع ، فلا التباس بين المعجزة وغيرها والحجة قائمة على البشر بها ٠

ولا عذر لأحد لا يتبع صاحبها ٠

وأخيرا وقد انتهى هذا الفصل ٠

نقــول :

ان انسانا يرى معجزة المعجزات بين يديه (القرآن) ثم لا يؤمن بأن محمدا رسول الله ، أعمى القلب والعقل ٠

وان انسانا تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات محمد عليــه السلام ثم لا يؤمن به ، مظلم الوجدان والضمير ٠

وان انسانا مثل هذا ليقولن فى يوم :

((وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ٠ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير)) ٠

* * *

والى الفصل الثالث لنرى برهانا آخر على أن محمدا رسول الله ٠

الفصل الثالث

النبوءات

ان المستقبل مجهول للانسان ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الانسان بالنسبة للمستقبل هو من باب التوقعات التى تعتمد على المقدمات المؤدية للنتائج، وحتى فى هذه فمهما أوتى الانسان من صدق الحدس ، وقوة الادراك ، فان كلامه يبقى من باب التوقعات التى يمكن ألا تقع ، أما فى حالة عدم وجود المقدمات التى تؤدى الى النتائج • فالمسألة تبقى من باب التخرصات أو التوهمات ، ووقوعها فى هذه الحالة من قبيل المصادفات ، وعدم وقوعها هو الأصل ، لقد تنبأ اليهودى الشيوعى الخبيث « ماركس » أن الثورة الشيوعية ستكون فى ألمانيا وانجلترا ، وكان يستبعد أن تقوم فى روسيا فكانت فى روسيا لملابسات خاصة ولم تكن فى ألمانيا أو انجلترا •

فاذا ما وجدنا ظاهرة عند انسان ، هذه الظاهرة هى أنه تحدث عن المستقبل حديثا ما خرمه المستقبل ، ولا فى جزء من أجزائه ، فنحن اذن أمام ظاهرة تحتاج الى تحليل وتعليل ، وليس كلامنا هنا الا فى حالة التصديق الكامل من الواقع للنبوءة الثابتة ، فليس كلامنا اذن فى التوقعات ، وليس كلامنا فى التكهنات الكهنية التى يكذب الواقع عشرات منها ، وليس كلامنا فى النبوءات المدعاة التى يدعى أنها قيلت قبل وقوع مضمونها • والحقيقة أنها قيلت بعده ، وليس كلامنا فى أمر بيت فتنبأ بوقوعه بعض من بيته ، وليس كلامنا فى انسان تحققت بعض نبوءاته وكذب الواقع بعضها ، وليس كلامنا فى نبوءة كانت عن رؤيا منام أو ما يشبه رؤيا منام ، وليس كلامنا فى نبوءة صدرت عن تابع نبى صديق فكانت كرامة له باتباعه لهذا النبى •

وانما كلامنا فى اخبار عن المستقبل المجهول ، عن رجل يقول عن نفسه انه رسول ، ويتحقق هذا المستقبل تحققا تاما لا يخرم منه شىء • فتلك اذن نبوة لا شك فيها واتصال بالله عالم الغيب والشهادة لا شك فيه •

هكذا يذكرون عن التوراة وهكذا ذكر القرآن يقول الله فى القرآن :

((عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا • الا من ارتضى من رسول)) •

ويذكرون عن التوراة : (فان احببت وقلت فى قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية ان ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهذا الرب لم يكن تكلم به بل ذلك النبى صوره فى تعظيم

نفسه ولذلك لا تخشاه) • الباب الثـامن عشر من كتاب الاستثناء التثنية ٢٢ » •

وهذه نبوءات تحدث بها السيد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تجعلك على مثل الشمس مبصرة • ان محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه لا ينطق عن الهوى والذى نعرضه هنا فى هذا الفصل قليل من كثير نجتزىء به حتى يأخذ الانسان صورة واضحة المعالم عن هذا الموضوع ومن أراد التوسع فعليه بالكتب التى استقصت هذه الأبحاث ، وسترى فى الامثلة التى سنذكرها نبوءات عن حوادث معينة لاشخاص معينين ونبوءات وقعت قديما وأخرى نراها الآن • ونبوءات عن حوادث خاصة أو عامة تقع للامة الاسلامية أو بينها قريبا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعيدا وهذه هى الأمثلة فتأملها :

١ ـ روى البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : صعد النبى صلى الله عليه وسلم أحدا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : اثبت أحد فانما عليك نبى وصديق وشهيدان •

وهذه نبوءة فيها أن عمر وعثمان يستشهدان • وقد قتل عمر أبو لؤلؤة ، وقتل عثمان فى الفتنة المعروفة •

٢ ـ وفى الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبى موسى الأشعرى : « أنه توضأ فى بيته ثم خرج فقال : لالزمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأكونن معه يومى هذا فجاء المسجد فسأل عن النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا خرج وجه ههنا فخرجت على اثره أسأل عنه حتى دخل بئر (أريس) فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ فقمت اليه فاذا هو قد جلس على بئر (أريس) وتوسط قفها (حافة البئر) وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت لأكونن بواب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت من هذا ؟ فقال أبو بكر •

فقلت على رسلك ثم ذهبت فقلت : يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن •

فقال : ائذن له وبشره بالجنة فأقبلت حتى قلت لأبى بكر :

ادخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرك بالجنة فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم معه فى القف ودلى رجليه فى البئر كما صنع النبى صلى الله عليه وسلم وكشف عن ساقيه ثم رجعت فجلست وقد تركت أخى يتوضأ ويلحقنى فقلت ان يرد الله بفلان خيرا ـ يريد أخاه ـ يأت به فاذا انسان يحرك الباب فقلت من هذا ؟

قال : عمر بن الخطاب •

فقلت : على رسلك •

ثم جئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وقلت :

هذا عمر يستأذن فقال : ائذن له وبشره بالجنة فجئت عمر فقلت : أذن ويبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة فدخل فجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القف عن يساره ودلى رجليه فى البئر ثم رجعت فجلست فقلت ; ان يرد الله بفلان خيرا ـ يعنى أخاه ـ يأت به فجاء انسان فحرك الباب فقلت من هذا فقال : عثمان بن عفان فقلت : على رسلك وجئت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال :

ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه فجئت فقلت : ادخل ويبشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة مع بلوى تصيبك وفى رواية أخرى فقال : اللهم صبرا فدخل فوجد القف قد ملىء فجلس وجاههم من الشق الآخر .

فهذه نبوءة فى أن عثمان ستصيبه بلوى وقد كانت هذه البلوى هى ما حدث له فى الفتنة التى أدت الى قتله عليه الرضوان ، ومما رشح هذا المعنى ما رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ادعوا لى بعض أصحابى فقلت أبو بكر ؟ قال : لا . فقلت : عمر ؟ قال : لا . فقلت : ابن عمك على ؟ قال : لا . فقلت : عثمان ؟ قال : نعم . فلما جاء قال لى بيده فتنحيت فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يساره ولون عثمان يتغير فلما كان يوم الدار وحصر قيل له : ألا تقاتل ؟ قال : لا . ان رسول الله عهد الى عهدا وأنا صابر نفسى عليه .

٣ ـ روى الشيخان عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على أم حرام بنت ملحان ـ وهى من خالاته فى الرضاع ـ فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ وهو يضحك قالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟

قال : ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة .

قالت : فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك .

قالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟

قال : ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله ، كما قال فى المرة الأولى .

قالت : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلنى منهم .

قال : أنت من الأولين ٠

وقد غزا معاوية بن أبى سفيان قبرص فى سنة ثمان وعشرين هجرية ومعه من كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ، وكانت مع عبادة زوجه أم حرام بنت ملحان ٠

٤ ـ أخرج الشيخان أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يوما : أيكم يحفظ ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفتنة التى تموج كموج البحر فقال : حذيفة رضى الله عنه : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ان بينك وبينها بابا مغلقا ٠ قال : أيفتح أم يكسر ٠ قال : يكسر ٠ قال : اذن لا يغلق أبدا فقيل لحذيفة : من الباب ؟ قال هو عمر قيل له : أكان عمر يعلمه ؟ قال نعم ٠ كما يعلم دون غد الليلة انى حدثته ليس بالأغاليط ٠

وأخرج الطبرانى عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم يعنى عمر ٠ ويروى معناه عن عثمان بن مظعون وخالد بن الوليد ٠ وكلنا يعلم أن الفتنة بين المسلمين وقعت بعد عمر ٠ أما الردة فلم تكن فتنة بين المسلمين ، وانما كفر بالاسلام حاربه المسلمون وهم يد واحدة ٠

٥ ـ وأخرج الشيخان عن مسلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على تخلف عن النبى صلى الله عليه وسلم فى خيبر وكان رمدا فقال :

أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج فلحق به فلما كان مساء الليلة التى فتح الله فى صباحها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه ، فاذا نحن بعلى وما نرجوه فقالوا : هذا على فأعطاه الراية ففتح الله عليه ٠

ووردت القصة أيضا من حديث ابن عمر وابن عباس وسعد وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، وعمران بن حصين وجابر وأبى ليلى ، أخرجها كلها أبو نعيم ٠

٦ ـ أخرج البخارى عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحسن : ان ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين فهذه نبوءة عن انقسام وفرقة وصلح بواسطة الحسن ، وقد كان الانقسام وجرت الدماء ثم أصلح الله الحال عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة ، وحقن دماء المسلمين ٠

٧ ـ وأخرج الشيخان عن سعد بن أبى وقاص قول رسول الله له وقد مرض بمكة حتى أشرف على الموت : « لعلك تخلف ـ أى تعيش ـ حتى ينتفع بك اقوام ويستضر بك آخرون » فشفاه الله وفتح الله العراق على يديه وهدى الله به أناسا أسلموا على يديه وغنموا معه ٠ وأضر الله به ناسا من الكفار جاهدهم وقتل منهم وسبى ٠

٨ ـ وأخرج الشيخان عن أبى سعيد ومسلم عن أم سلمة وأبى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار : تقتلك الفئة الباغية قال الحافظ السيوطى : هذا الحديث متواتر رواه من الصحابة بضعة عشر ٠

ففى الحديث ثلاث نبوءات أن هناك فئة باغية وأن عمارا سيقتل قتلا ، وأن الفئة الباغية قاتلته وقد كان كل هذا اذ قتلته فئة معاوية ولم يكن بجانبها الحق ، وقد دخل كثير من الصحابة المعركة بجانب على بعد مقتل عمار لكون الحديث حجة له فى كونه على الحق ٠

٩ ـ أخرج البخارى عن عدى بن حاتم قال : بينما أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فشكا اليه الفاقة وأتاه آخر فشكا اليه قطع السبيل فقال : يا عدى بن حاتم ان طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا الا الله ـ قلت فيما بينى وبين نفسى فأين ذعار طىء الذين سعروا البلاد ـ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت : كسرى بن هرمز ؟

قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد قال عدى :

وقد رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ، ولئن طالت بكم حياة سترون الثالثة ٠

قال البيهقى : قد وقعت الثالثة فى زمن عمر بن عبد العزيز ثم أخرج عن عمر بن أسيد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : انما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا ، والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول :

اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله نتذكر من يضعه فيهم فلا نجده فيرجع بماله قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ٠

١٠ ـ أخرج الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينا نحن عند النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما اذ أتى ذو الخويصرة فقال يا رسول الله : اعدل قال : ويلك ومن يعدل اذا لم أعدل ، خبت وخسرت ان لم اكن أعدل ٠ قال عمر يا رسول الله : ائذن لى فيه أضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان له اصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية آيتهم رجل اسود احدى عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدر در يخرجون على خير فرقة من الناس ٠ قال أبو سعيد فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت اليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى نعته ٠

وأخرج مسلم عن عبيدة قال لما فرغ من أصحاب النهر قال : ابتغوا فيهم ان كانوا القوم الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فان فيهم رجلا مخدج اليد فابتغيناه فوجدناه فدعوناه اليه فجاء حتى قام عليه فقال : الله أكبر ثلاثا ٠ والله لولا أن تبطروا لحدثتكم بما قضى الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قتل هؤلاء ، قلت : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أى ورب الكعبة ٠ ثلاث مرات ٠

١١ ــ أخرج مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها أنها قالت للحجاج : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ان فى ثقيف كذابا ومبيرا ٠ فأما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فلا أخالك الا اياه) وقد روى ابن سعد والبيهقى عن عمر ما يشير الى الحجاج ، وكذلك روى الامام أحمد والبيهقى عن الحسن ما يشير اليه ، وأخرج البيهقى عن على كذلك ما يشير اليه ٠

١٢ ــ وأخرج الشيخان عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله ٠

وأخرجه البخارى عن أبى هريرة ٠

وأخرج الحارث بن أبى أسامة عن أبى محيريز قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فارس نطحة أو نطحتان ، ثم لا فارس بعد هذا أبداً ، والروم ذوات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن ٠

ومعروف تاريخيا أنه بسقوط دولة الأكاسرة انتهى أمرهم تماما ولم يستردوا ملكهم بتاتا وبقى من يومها الأمر للمسلمين ، وبسقوط دولة القياصرة فى القسطنطينية انتهت دولتهم تماما ولم يستردوها مرة ثانية وبقى من يومها الأمر للمسلمين ، مع ملاحظة أن الدولة الرومانية طال أمرها حتى سقطت بيد المسلمين سقوطا نهائيا ، على عكس الدولة الفارسية وهذا ما أشار اليه الحديث الثانى ٠

١٣ ــ وأخرج أبو داوود والترمذى عن سفينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدى فى أمتى ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكا عضوضا بعد ذلك وهكذا وقع خلافة أبى بكر سنتان وثلاثة أشهر وعشرون يوما ، وخلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وخلافة عثمان احدى عشر سنة واحدى عشر شهرا وثمانية عشر يوما ، وخلافة على أربع سنين وعشرة أشهر أو تسعة ، وخلافة الحسن ستة أشهر فكانت ثلاثين ٠

والحديث الذى رواه البزار بسند حسن صحيح يتحدث بشكل واضح عن مراحل الحكم فى الامة الاسلامية ، كما وقعت ونثبت هنا نص الحديث كما ورد فى كتاب « الموافقات » و « الامامة » ٠

« ان أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ، ثم يكون ملكا عاضا فيكون فيكم ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعه الله جل جلاله ثم يكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل فى الناس بسنة النبى ، ويلقى الاسلام بجرانه فى الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض لا تدع السماء من قطر الا صبته مدرارا ، ولا تدع الارض من نباتها وبركاتها شيئا الا أخرجته •

وواضح ان الدور الأول والثانى انتهى بزوال الخلافة الراشدة ، وأن الدور الثالث استمر حتى زوال الدولة العثمانية ، وأن الدور الرابع هو الذى نحن فيه وأن الدور الخامس قادم باذن الله •

١٤ ــ وأخرج مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انكم ستفتحون ارضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما » والمقصود بالرحم أنهم أخوال ابراهيم ابن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم : اذ المقصود فى ذلك أرض مصر والآثار فى الاخبار عن فتح مصر كثيرة •

١٥ ــ وأخرج البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : وعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو الهنــد وقد غزوناها •

١٦ ــ روى الستة الا النسائى عنه عليه الصلاة والسلام :

« لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر • ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الانوف كأن وجوههم المجان المطرقة » وينطبق الوصف تماما على التتــار ، أما أصحاب نعال الشعر فقــد ذكر البيهقى : أن قوما من الخوارج خرجوا بناحية الرى وكانت نعالهم الشعر وقوتلوا •

١٧ ــ أخرج أبو يعلى عن معاوية بن خديج رضى الله عنه قال : كنت عند معاوية فأتاه كتاب عامله أنه أوقع بالترك وهزمهم فغضب معاوية من ذلك ثم كتب له لا تقاتلهم حتى يأتيك امرؤ فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشــيح والقيصوم وهما نبتان يوجدان فى بلاد العرب وقد حدث أن السلطان خلال أربع مائة عام كان للترك على العرب الا مناطق الصحراء •

١٨ ــ روى البخارى « لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله » •

وفى حديث ابن الزبير •

« بين يدى الساعة ثلاثون كذابا » ••

وأخرج أحمد عن حذيفة بسند جيد « سيكون فى أمتى كذابون دجالون سبعة وعشرون ، أربعة نسوة وانى خاتم النبيين لا نبى بعدى » •

وقد ظهر كثير من هؤلاء الكذابين حتى الآن ولعل ابرزهم فى عصرنا غلام أحمد القاديانى الذى ادعى انه نبى نسخت به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ومن هذه السلسلة الخبيثة مسيلمة ، والأسود العنسى وسجاح •

١٩ ــ روى البخارى والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الابل ببصرى » • وروى ابن أبى شيبة واحمد والحاكم وصححه عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليت شعرى متى تخرج نار من جبل وراق تضىء لها أعناق البخت ببصرى كضوء النهار » ويبدو ان الحديث هنا عن بركان عظيم يخرج من أرض الحجاز من مكان عينه الرسول صلى الله عليه وسلم •

وقد وقع هــذا •

قال النووى تواتر العلم بخروج هذه النــار عن جميع أهل الشام قال السمهودى وكانت فى زمنه وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة ســنة أربع وخمسين وستمائة • لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها ، واشتدت فى يوم الثلاثاء وظهرت ظهورا عظيما ثم فى ليلة الاربعاء ثالث الشهر • فى الثلث الاخير من الليل حدثت زلزلة عظيمة جدا أشفق النــاس منها واستمرت تزلزل بقية اليوم ثم الى يوم الجمعة ولها دوى أعظم من الرعد فتموج الأرض وتتحرك الجدران حتى وقع فى يوم واحد دون ليلته ثمانى عشرة حركة •

وكانت هذه كلها مقدمات لظهور هذه النــار وقد وصف القسطلانى فى كتاب أفرده لهذه الحادثة هذه النــار فقال :

« ان ضوأها استولى على ما بطن وما ظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران ، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة ، ولونها هى يعتريه حمرة والقمر كأنه كسف » •

وقال القسطلانى كذلك : « أنها لم تزل مارة على سبيلها وهى تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى ، وان طرفها الشرقى آخذ بين الجبال فحالت دونها ثم وقفت ، وان طرفها الشامى وهو الذى يلى الحرم اتصل بجبل يقال له وعيرة على قرب من شرقى جبل أحد » •

وقد ذكر هذه النــار السمهودى فى تاريخ المدينة ، وذكرها القاضى سنان والقاشانى والعماد بن كثير والمطرى وغيرهم ••

٢٠ ــ وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشــاء يتطاولون فى البنيان » •

٢١ ـ روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صنفان من أمتى من أهل النـار لم أرهما بعد · قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسـهن كاسنمة البخت » وكذا ··

وروى الامام أحمد والحاكم عن ابن عمر :

« يكون فى آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياثر حتى يأتوا أبواب المساجد · نساؤهم كاسيات عاريات على رؤسهن كأسنمة البخت العجاف العنوهن فانهن ملعونات ، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمهم كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم » ·

ولعل أدق وصف لمـا عليه وضع النساء فى زماننا من تبرج وعرى ونتن وميوعة وفتنة ، هو ما وصفوه به الحديث الشريف ، وهذا لا شـك معجـزة واضحة · اذ ما كان أحد يستطيع أن يتصور أن تصبح المرأة المسلمة فى مثل هذه الحالة عليها الآن ، حتى انك لو كنت فى بداية هذا القرن الرابع عشر الهجرى لمـا استطعت أن تتصور بشكل من الأشكال هذا الوضع الحاضر لامرأة أصلها مسلمة ·

٢٢ ـ أخرج أبو داود والبيهقى عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الاكلة الى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟

قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وليبزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن · قيل وما الوهن يا رسـول الله : قال حب الدنيا وكراهية الموت · والمراقب لوضع المسلمين منذ ظهـور ما يسمى بالمسألة الشرقية حتى الآن يجد هذه الظاهرة ظاهرة طمع الأمم بالعالم الاسلامى والكيد له والتخطيط لامتصاص خيراته واضحة جدا مع ما وصف به رسول الله المسلمين ·

٢٣ ـ أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم: على أنقاب المدينة ملائكة لايدخلها الطاعون ولا الدجال · وقد مر على الأمة الاسلامية مئات السنين واجتاح الطاعون كثيرا من بلاد الاسلام فى كثير من الأعصـار · والمدينة المنورة يأتيها فى كل سنة مسلمون من كل الامصار وما حدث ولن يحدث باذن الله ان رؤيت مرة ظاهرة انتشار الطاعون فى المدينة ، وهذا شىء معروف مأثور متعارف عليه عند علماء الاسلام ·

٢٤ ـ وهذه جملة أحاديث تراها فى عصرنا هذا واقعا يتحرك أمامك :

« ان بين يدى الساعة فشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وفشو القلم وظهور الشهادة بالزور وكتمان شهادة الحق » ·

« يأتى على الناس زمان لا يتبع فيه العليم ولا يستحيا فيه من الحليم، ولا يوقر فيه الكبير ولا يرحم فيه الصغير يقتل بعضهم بعضا على الدنيا ، قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا يمسى الصالح فيهم مستخفيا أولئك شرار خلق الله لا ينظر الله اليهم يوم القيامة » •

« لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عارا ويكون الاسلام غريبا ، وحتى تبدو الشحناء بين الناس • وحتى يقبض العلم ويهرم الزمان وينقص عمر البشر وينقص السنون والثمرات ويؤتمن التهماء ، ويتهم الأمناء ، ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ، ويكثر الهرج ــ وهو القتل ــ وحتى تبنى الغرف ــ أى القصور ــ فتطاول وحتى تحزن ذوات الأولاد أى لعقوق أولادهن ، وتفرح العواقر ويظهر البغى والحسد والشح ويهلك الناس ويكثر الكذب ويقل الصدق وحتى تختلف الامور بين الناس ويتبع الهوى ، ويقضى بالظن ويكثر المطر ويقل الثمر ويغيض العلم (أى علم حقيقة الاسلام) غيضا ، ويفيض الجهل فيضا • ويكون الولد غيظا والشتاء قيظا ، ويقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقى لشرار أمتى ، فمن صدقهم بذلك ورضى به لم يرح رائحة الجنة » •

* * *

وأخيرا نقول :

ان هذا الباب قد ألفت فيه كتب كثيرة ونقل فيها الكثير الكثير ، وهو قليل بالنسبة لما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة عن المستقبل ، فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة قال « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئا يكون من مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدثه ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، وقد علمه أصحابى هؤلاء وانه ليكون منه الشيىء قد نسيته فأراه فأذكر كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه » •

وروى مسلم عن عمرو بن أخطب الانصارى قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن الى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا » •

انها النبوة ولا شيء غير ذلك **((فمن شاء فليؤمن • ومن شاء فليكفر))** •• **((فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها))** •

النبوة التى دلتنا بما أخبرتنا عنه من غيوب أن لصاحبها صلة كاملة بالله ، ولولا ذاك ما ظهر فى كلام صاحبها آثار علم الله المحيط فى الماضى والحاضر ، وكأنما المستقبل أمامه مكشوف بكشف الله له •

وهذه آثار أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحتاج الى شرح لوضوح انطباقها على وضع أمتنا فى هذا العصر ، فكأنما قيلت فيه عنه وهى مسطورة فى كتب الاخبار عنه عليه السلام من مئات السنين نقلناها من كتاب مطابقة الاختراعات العصرية للاحاديث النبوية ، وقد نسب صاحبه كل حديث الى مصدره ومرجعه من كتب الحديث •

١ ـ « لا تقوم الساعة حتى تروا أمورا عظاما لم تكونوا ترونهـا ولا تحدثون بها أنفسكم » •

٢ ـ « ولن يكون ذلك (أى من قضية الدجال) حتى تروا أمورا يتفاقم شأنها فى نفوسكم وتساءلون بينكم هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكرا » •

٣ ـ « لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة الى الشام يبتغون فيها الصحة » •

والشام تشمل فلسطين ولبنان والأردن وسوريا ، وانظر حال مصايف هذه البلاد تجد كيف أنها مملوءة بالحجازيين وغيرهم ممن يأتون للراحة فقط مما لم يكن موجودا من قبل •

٤ ـ « لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطرا لا تكن منها بيوت المدر ولا تكن منها الا بيوت الشعر » • ولعل صورة الطائرات فى الحرب العالمية الثانية وهى تمطر المدن بوابل القنابل فتزعزع كل بناء • تذكرنا بجزء مما ينطبق الحديث عليه • اذ تأثير هذه القنابل على بيوت المدر أكثر من تأثيرها على بيوت الشعر •

٥ ـ « ان الله تعالى قال فى الحديث القدسى » :

« أبث العلم فى آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير فاذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقى عليهم » •

ومن رأى تسهيل العلم فى زماننا وكثرة أدواته ومعاهده من مدارس واذاعة وجرائد ومجلات و •• رأى مصداق الحديث •

٦ ـ ومن حلايث على وله حكم المرفوع :

« ويحا للطالقان فان لله فيه كنوزا ليست من ذهب ولا فضة » والطالقان من قزوين وتلك ناحية وجود البترول •

٧ ـ « تخرج معادن مختلفة معدن منها قريب من الحجاز يأتيه من أشرار الناس » •

ونحن نعلم أن معدن البلاد القريبة من الحجاز فى عصرنا انما يستخرجة الأجانب بوسائلهم الكثيرة وفى الحديث الآخر « ستكون معادن يحضرها شرار الناس » ولاحظ كلمة يحضرها المشددة الضاد •

٨ ــ « ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد الا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره » •

ومن رأى فى زماننا قيام الحياة الاقتصادية كلها على المصارف والبنوك رأى الواقع الذى أخبر عنه الحديث •

٩ ــ « ما أنتم اذا مرج الدين وسفك الدماء وظهرت الزينة وشرف البنيان » •

وفى زماننا حدث هذا كله : اختلط الدين وكثر القتل وظهرت الزينة وكثر البنيان وشرف وتطاول كما فى حديث آخر « وحتى يتطاول الناس فى البنيان » •

١٠ ــ « لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عارا ويتقارب الزمان » • وقد أصبح القرآن الآن رجعيا وأصحابه يعيرون بالرجعية وتقارب الزمان حتى قطعت المسافة الطويلة بالزمن القصير •

١١ ــ « كيف بكم أيها الناس اذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم قالوا : يا رسول الله ان هذا لكائن قال : نعم » • وقد حدث هذا كما يشاهد واقعا •

١٢ ــ « اذا كثر قراؤكم وقلت علماؤكم وكثرت أمراؤكم وقلت أمناؤكم والتمست الدنيا بعمل الآخرة وتفقه لغير الله » •

وقد كثر القراء وقل العلماء وكثر الأمراء حتى فى كل قطر أمير وأصبحت الدنيا هدفا ولم تعد معاهد العلم تخرج طلابا لله •

١٣ ــ « ان بين يدى الساعة سنين خداعة يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين ويتكلم فيها الرويبضة قيل وما الرويبضة ؟ قال : الفاسق يتكلم فى أمر العامة » •

« سيأتى على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطلق فيها الرويبضة قيل : وما الرويبضة قال : الرجل التافه ينطق فى أمر العامة » •

« والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول وتظهر التحوت قالوا : يا رسول الله وما الوعول وما التحوت ؟ قال : الوعول وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم » •

« وكان زعيم القوم أرذلهم » •

ومن رأى واقع السنين التى نعيش بها علم مصداق هذه الآثار اذ تسلط على الناس فى كل مكان أكثر الناس وضاعة وانحطاطا وتفاهة ، وضاع أصحاب الحلوم والعقول •

١٤ ــ « سيكون بعدى سلاطين ، الفتن على أبوابهم كمبــارك الابل لا يعطون أحدا الا أخذوا من دينه مثله » ولعه كلمة « كمبارك الابل » أبلغ وصف مفهوم يومئذ للسيارات •

١٥ ــ « يوشك أن يؤمر عليهم الرويجل فيجتمع اليه قوم محلقة أقفيتهم بيض قمصهم فاذا أمرهم بشىء حضروا » •

فانظر هذا الوصف الدقيق لنوع الحلاقة والقمصان التى يلبســها بعض الموظفين ممن لم يكن نوعيتها معروفة قديما •

١٦ ــ « والمشى بالأسواق والافخاذ بادية » • وهذا ينطبق على ما يسمى فى زماننا بالفرق الرياضية والكشفية ويرى خاصة أثناء الاستعراضات •

١٧ ــ « قص اللحية » وقد أصبح الآن هو السائد واللحية مستغربة •

١٨ ــ « لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل ، ولتأخذن بمثــل أخذهم ان شبرا فشبر وان ذراعا فذراع ، وان باعا فباع ، حتى لو دخــلوا جحر ضب دخلتم فيه » • ومن رأى كثرة تقليدنا للغربيين فى أى مســلك سلكوه شاهد يقينا وقوع الحديث •

١٩ ــ ومما رواه معاذ فى أشراط الساعة :

« ان الدم يسفك بغير حقه ، والمــال يعطى على الكذب » • وترى المــال يعطى على الكذب فى صورة اعطائه لرجال المباحث السياسية على تقــارير ، قسم كبير منها كاذب ، ولكتاب روايات مختلقة ، واعداد برامج اذاعية مختلقة كاذبة وأشياء كثيرة من هذا القبيل •

٢٠ ــ « ويح لهذه الأمة ماذا يلقى فيها من أطاع الله ؟ كيف يكذبونه ويضربونه أنه أطاع الله من أجل أنهم أطاعوا الله ــ قال عمر بن الخطــاب : يا رسول الله الناس يومئذ على الاسلام ؟

قال : نعم يا عمر •

قال عمر : يا رسول الله : الناس يومئذ على الاسلام ؟

قال : نعم يا عمر •

قال عمر يا رسول الله : ولم يبغضون من أمرهم بطاعة الله ؟

قال ترك القوم الطريق وتزين الرجل منهم بزينة المرأة لزوجها وتبرج النساء زيهم زى الملوك الجبابرة يسمنون كالنساء فاذا تكلم أولياء الله وأمروهم بطاعة الله قيل له : أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة تكذب بالكتب تحرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا أولياء الله » •

ومن عرف وضع الأمة الاسلامية اليـوم رأى كيف أن الدعاة الى الله وشريعته يضطهدون فى كل مكان من قبل الحكام الظالمين ٠

٢١ ـ « ستكون فتنة يفارق الرجل فيها أخاه وأباه تطير الفتنــة فى قلوب الرجال منهم الى يوم القيامة حتى يعير الرجل فيها بصلاته كما تعير الزانيــة بزناها » ٠

وما رؤيت هذه الفتنة فى العالم الاسلامى الا هذا العصر الذى فيــه يلام الرجل على صلاته ويوبخ ، ويعير مع كثرة دعوات السوء المنتنة ودخـــول أصحابها فيها واستمرارهم عليها مع بطلانها ٠

٢٢ ـ « يأتى على الناس زمان يخير الرجل فيه بين العجز والفجور فمن أدرك ذلك الزمان فليختر العجز على الفجور » ٠

٢٣ ـ « سيخرج قوم فى آخر الزمان هم دجالون كذابون ببدع من الحديث لم تسمعوا به أنتم ولا آباؤكم فاياكم واياهم لا يفتنونكم » ٠

٢٤ ـ « اذا كنت فى قوم عشرين رجلا أو أقل أو أكثر فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم رجلا يهاب الله عز وجل فاعلم أن الأمر قد حضر » ٠

٢٥ ـ « لا تقوم الساعة حتى يفيض المـال فيضـا ، ويغيض الـكرام غيضا ، ويجترىء الصغير على الكبير واللئيم على الكريم » ٠

٢٦ ـ « سيأتى على الناس زمان تمات فيه الصلوات ، ويشرف فيه البنيان ويكثر فيه الحلف والتلاعن ويفشو فيه الرشا والزنا ، وتباع الآخرة بالدنيا ٠ فاذا رأيت ذلك فالنجا والنجا قيل : وكيف النجا قال : كن حلسا من أحلاس بيتك وكف لسانك ويدك » ٠

٢٧ ـ « ليأتين على الناس زمان يؤمنون بالله ولا يشركون به شـيئا ويصومون رمضان ويصلون الخمس وقد ســـلبوا دينهم لأنهم رأوا الحـق فتركوه » ٠

٢٨ ـ « انى لأعلم أهل دينين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى النار قوم يقولون : ان كان أولنا ضلالا ما بال خمس صلوات فى اليوم والليـــلة انما هما صلاتان : العصر والفجر » ٠

والذى يعرف شيئا من طائفة الاسماعيليين يدرك صدق الحديث فانهم يؤمنون أن عليهم صلاتين فقط صباحا ومساء ٠

٢٩ ـ « سيظهر شرار أمتى على خيارهم حتى يستخفى فيهم المؤمن كمـا يستخفى فيكم المنافق اليوم » ٠

٣٠ ـ « ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الحر والحـرير والخمــر والمعازف » وهذا واقع الآن بشكل واضح ٠

٣١ ــ « انه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله » ٠

٣٢ ــ « لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره وحتى تترك الأئمة ذكره على المنابر » ٠

٣٣ ــ « لتنقضن عرى الاسلام عروة عروة ٠ فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها وأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة » ٠

٣٤ ــ « يأتى على الناس زمان يصبح الرجل بصيرا ويمسى ما يبصر شعرة » ــ (أى يضل الحق) ٠

٣٥ ــ « ان الناس دخلوا فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا » ٠

٣٦ ــ « ان بين يدى الساعة فتنا كقطع الليل المظلم فتن كقطع الدخان يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا » ٠

٣٧ ــ « ليت شعرى كيف أمتى بعدى حين تتبختر رجالهم وتمرح نساؤهم ، ليت شعرى كيف هم حين يصيرون صفين صفا ناصبى نحورهم فى سبيل الله ٠ وصفا عمالا لغير الله » ٠

٣٨ ــ « اذا ظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش وجاهدوا فى غير سبيل الله فالقائمون يومئذ بكتاب الله سرا وعلانية كالسابقين الأولين من المهاجرين والانصار » ٠

٣٩ ــ « ذلك أيام الهرج حين لا يأمن الرجل جليسه » ٠

٤٠ ــ « قال أبيض رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى لا تبقى ملة الا ولها منكم نصيب ٠ قلت يبادرون يخرجون من الاسلام ؟ » ٠

قال : يصلون بصلاتكم ويجلسون مجالسكم وهم معكم فى سوادكم ، ولكل ملة منهم نصيب ٠ قلت : (أى الوليد راوى الحديث) أى والله لكل ملة منهم نصيب الا الاسلام فلا نصيب له منهم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » ٠

٤١ ــ « من اقتراب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الاخيار ويفتح القول ويخزن العمل » ٠

٤٢ ــ « من اقتراب الساعة تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال » ٠

* * *

وأنت اذا تأملت هذه الآثار فانك لا تجد فيها حديثا الا وتراه أمامك واقعا على الأرض الآن ، مما لم يكن موجودا من قبل • حتى أن رائى العين لا يصف بأبلغ من هذا ، وانما كان هذا ، لأنه أثر علم الله المحيط الذى اطلع على بعضه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال ما قال ووقع كل ما قال • وفى ذلك الشهادة الكاملة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا وصدقا لا يمترى فى ذلك الا متكبر أو حاسد أو شيطان يرى الحق ولا يتبعه •

ان النبوءات التى اخترناها كلها نبوءات قد وقعت للرسول عليه السلام • ونبوءات أخرى لم يحن وقتها بعد ، ومن العجيب أن بعضها مذكور فى الكتب الدينية السابقة على رسولنا عليه السلام • وهذا يؤكد أن مصدر هذه النبوءات السابقة الوحى وأنها من القسم الذى لم يحرف فى الكتب الأولى ، وكل تعليل آخر ظاهر الفساد ، فلم تكن مثل هذه القضايا منتشرة ولا معروفة فى الجزيرة العربيــة •

والرسول عليه السلام أمى لا يحسن القراءة ، ولم تكن هذه الكتب أصــلا مترجمة الى العربية فى ذلك الزمان ، عدا عن كون النسخ محدودة جدا لا توجد الا عند رؤساء الدين اليهودى بالنسبة لنسخ التوراة • غير أن بعض هــذه النبوءات موجودة فى كتب العهد الجديد التى لا يؤمن بها اليهود أصلا • وليست موجودة عندهم ولم تكن هناك أى صلة بين النصارى ورسول الله عدا عن كون الفكر النصرانى لم يكن له أى صدى فى مكة والمدينة • عدا ما ذكر أن ورقة ابن نوفل كان له مثل هذا الاتجاه •

الا أن اتصال الرسول بورقة كان محدودا ومعروفا ما جرى فيه • وورقة آمن برسالة محمد من اللحظة الأولى ، فليس هناك من تعليل لوجود هـــذه النبوءات المشتركة الا وحدة المصدر وهو الوحى •

أبرز هذه النبوءات المشتركة ثلاث :

١ ــ الاخبار عن يأجوج ومأجوج •

٢ ــ الاخبار عن المسيح الدجال •

٣ ــ الاخبار عن نزول عيسى بن مريم فى آخر الزمان وأنه يقتل الدجال•

فقد أخبر الرسول عليه السلام عن مجىء ناس ذوى عدد هائل سموا باسم يأجوج ومأجوج الى منطقة فى فلسطين قبيل قيام الساعة ، وأخبر عليه السلام بأحاديث متواترة عن ظهور انسان سماه المسيح الدجال يدعى الألوهية وهــو أكبر ما فتن به البشر ، وأن المسيح عليه السلام يقتله بعد نزوله •

وقد ذكر فى كتاب المشاهدات الباب ١٩ وفى الباب الثانى من الرســالة الثانية الى أهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان :

« ان عيسى ــ عليه السلام ــ سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله » •

وقد نقل عن حزقيال عليه السلام فى كتب العهد القديم أنه أخبر عن خروج يأجوج ومأجوج فى الزمن المستقبل واهلاكهم حين وصولهم الى جبال اسرائيل ثم عقب على ذلك فى الكتاب المنسوب اليه فى الباب التاسع والثلاثين الفقرة الثامنة :

« ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذى قلت عنه » اشارة الى يوم القيامة ·

ان هذا كله يؤكد لنا رسالة محمد عن الله ويجعلنا على اليقين الذى لا شك معه ، أن ما قاله عليه السلام هو الحق الذى لا يمترى فيه ·

ملاحظة : قصة يأجوج ومأجوج واردة كذلك فى القرآن ، ولكن التفصيلات التى ذكرناها عن الرسول صلى الله عليه وسلم آنفا توضح وتبين الآيات القرآنية ، ومن عجيب الأخبار ما ذكره لنا الاستاذ محمد الصواف عن رجل سعودى سماه لنا كان فى الصين وأخبره هذا الرجل وهو معروف فى الحجاز : أنه عندما كان فى الصين أخبره الصينيون أن عندهم قبيلتين معروفتين تسميان مأجوج ويأجوج وتسميان بهذا الاسم الآن وهما مشهورتان به ·

* * *

الفصل الرابع

الثمرات

ان دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام تختلف عن أى دعوة أخرى من دعوات البشر المنبثة عن هداية الله ، ولذلك كان شيئا عاديا تماما أن تكون آثارها وثمارها تختلف عن غيرها ، فاذا كان من ثمار الدعوات الأخرى الاغراق فى الشهوات والملذات الحيوانية ، فان من ثمار دعوة الرسل ضبط النفس الا عن المتع المعقولة ٠

واذا كان من ثمار الدعوات الأخرى عدم التقيد بالحق والخير والمعروف ٠ فانه شىء عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل الالتزام بهذا ، واذا كانت دعوات غير الرسل تعتبر الجمال مقدما على الأخلاق ، فشىء عادى أن يكون من ثمرات دعوة الرسل اعتبار الجمال فى الأخلاق الكريمة العالية ٠

والقصد من هذا أن نقول :

ان الفطرة تحس بالخير والشر ، وان فطرة الانسان تستشعر الثمرة الطيبة للدعوة الطيبة ، كما يستشعر ذوق الانسان حلاوة الثمرة الطيبة ، وان فطرة الانسان تستشعر الثمرة الخبيثة للدعوة الخبيثة ، كما يستشعر ذوق الانسان مرارة الثمرة الرديئة ٠

ولذلك كان عند الفطرة نوع بصيرة تستطيع بها أن تميز ثمرات الرسول الحق من ثمرات مدعى النبوة الكاذب ، وأن ترى فى آثار كل ما يدل على صدق الأول وادعاء الثانى ٠

وقد أشارت الكتب السماوية الى هذا المعنى ٠

فقال الله تعالى فى القرآن :

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا » ٠

ويذكرون فى انجيل يوحنا الباب السابع الفقرة الخامسة عشر على لسان المسيح قوله :

« احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم ، هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا » ٠

ويقول الله تعالى :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فئازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » ·

ويذكرون فى الباب الثالث عشر من انجيل متى على لسان المسيح عليه السلام :

« قدم لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها فى حقله وهى أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها » ·

يعرف النبى من ثماره ، لذلك كان لابد من كتابة هذا الفصل لتبيان أن ثمار محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تكون الا ثمار نبى ·

وسنستعرض فى هذا الفصل عشر ثمرات من ثمراته عليه الصلاة والسلام· فى كل منها شهادة كاملة على أنها منبثقة من شجرة النبوة الطيبة العطرة المتميزة ·

أولا ـ التوحيد :

فى الهند اليوم ٢٠٠ مليون بقرة ، هذه الأبقار يعتبرها الهنود مقدسة ، وبالتالى فانهم لا يستفيدون منها بتاتا ، ويحرمون ذبحها ، وأكثر من هذا فان الشعب الهندى كله مسخر لخدمتها ، وتعيش على حسابه ، فكم يحتاج هذا العدد من الأبقار الى مراع وطعام ؟

وكم تعطل طاقات على حساب هذا المعنى ·

وزيادة على ذلك فان لهذا البقر سلطانا على كل شىء · تقف البقرة فتوقف وراءها السيارات ولا يزعجها أحد حتى تمضى هى فيمضى غيرها · وتبول فى أى مكان ، وتخثى فى أى مكان · وتعتدى على مال أى انسان ، ولا أحد يجرؤ على أن يعترض سبيلها بشىء · وفى الهند هذه السنين مجاعة تهدد عشرات الملايين ، ترى لو استفاد الشعب الهندى من البقر ألا تنحل شىء من أزمته ؟

ان هذه الصورة من صور الشرك جعلت البشر مسخرا لخدمة البقر ·

وفى مصر اليوم أهرامات ضخمة جدا ، أحجارها ضخمة جدا ، نقلت من أمكنة بعيدة جدا ، نقلها آلاف من أبناء الشعب المصرى الى منطقة الاهرامات ، وتعبت فى بناء هذه الاهرامات آلاف الأدمغة وآلاف الايدى من أجل ماذا ؟

من أجل أن يصنعوا قبرا لفرعون الذى كانوا يعبدونه كاله !!

فكم أنفق من جهد ، وكم أنفق من أموال ؟ بسبب هذه الصورة من صور الشرك ٠

شعب من البشر مسخر كله لخدمة فرد من البشر ٠

وفى العالم اليوم حوالى ثلاثة عشر مليونا من الطائفة الاسماعيلية ، التى تعبد رجلا كاله وتقدم له كل عام خمس أموالها ، تجعله فى كفة ميزان ، وتجعل الذهب فى كفة أخرى حتى يتساويا ، وتقدمه له كهدية سنوية ، ثلاثة عشر مليونا من البشر يستغلهم فرد باسم الألوهية ٠ ليجهدوا ويقدموا ، أما هو فيأخذ ويكنز وينفق بلا حساب على أشياء كثيرة وقد يكون المرشح لهذا المنصب داعرا فاسقا ماجنا ، ينال هذا كله ويصرفه فى كل سبيل داعر ، ذلك أثر من آثار الشرك بالله ، أن يستغل فرد من البشر شعبا كاملا من البشر باسم ألوهية الانسان وعبودية الانسان للانسان ٠

وفى العالم اليوم شعوب وثنية ، وقديما كانت الوثنية منتشرة فى العالم كله لم تخل منها أمة من الأمم :

الرومان واليونان ، والهند والصين واليابان والعرب ٠٠ والشعوب الافريقية من مصر الى غيرها ٠٠ فماذا تعنى هذه الوثنية ؟ قبل أن نقول ماذا تعنى نضرب أمثلة عن نماذج منها :

(أ) عند العرب :

١ ـ روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : كنا نعبد الحجر ، فاذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به ٠

٢ ـ وقال الكلبى : كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعل ثلاثا أثافى لقدره واذا ارتحل تركه ٠

٣ ـ وقال صاعد فى كتاب (طبقات الأمم) كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وتميم الدبران ، ولخم وجذام المشترى ، وطىء سهيلا ، وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارد ٠

٤ ـ وقال الكلبى : كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فاذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، واذا قدم من سفر كان أول ما يصنع اذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا ٠

٥ ـ وكان لكل قبيلة من العرب صنم ولكل ناحية أو مدينة صنم خاص وكان فى فناء الكعبة وحدها ثلاث مائة وستون صنما للعبادة ٠

٦ ـ قال سعيد بن جبير فى شرح الأزلام : « الازلام حصى بيض كانوا اذا أرادوا غدوا أو رواحا كتبوا فى قدحين فى أحدهما : أمرنى ربى وفى الآخر نهانى ربى ، ثم يضربون بهما فأيهما خرج عملوا به » ٠

(ب) عنـد الهنـود :

يقول أبو الحسن الندوى عن حال الوثنية فى الهند :

« بلغت الوثنية أوجها فى القرن السادس ، فقد كان عدد الآلهة فى ويد ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت فى هذا القرن ٣٣٠ مليونا ، وقد أصبح كل شىء رائعـا وكل شىء جذابا ، وكل مرفق من مرافق الحيـاة الها يعبـد ، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والالاهات الحصر وأربت على العـد ، فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله ــ زعموا ــ فى عهود وحوادث معروفة ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها اله ، ومنها نهر الكنج الذى خرج من رأس « مهاديو » الاله ، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة ، والأجرام الفلكية وغير ذلك ، وأصبحت الديانة نسيجا من خرافات وأساطير وأناشـيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستسغها العقل السـليم فى زمن من الأزمان » •

(جـ) والفرس :

كانوا يعبدون ملوكهم ونيرانهم ، واليابانيون يعتبرون ملكهم ابن الشمس المعبودة ، واليونانيون يعبدون اله المطر فلانا والاهة الحب فلانة واله الحرب فلانا •• وهكذا ••

* * *

فماذا تعنى هذه الوثنيات كلها ؟

تعنى أن الانسان اعتبر نفسه أقل من الحجر ، وأقل من الشمس ، وأقل من الحيوانات ، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها ، بل جعلها فى مقام السـيد ، وجعل نفسه فى مقام العبد الذليل ، وجعلها تتحكم به بواسطة وبغير واسطة •

وقال النصارى : ان المسيح ابن الله وأعطوه حكم الأب ــ تعالى الله عمـا يقول الظالمون علوا كبيرا •

فأصبح المسيح عندهم الها ، كما اعتبر الهنود بوذا من قبل الها ، وهؤلاء وهؤلاء صنعوا التماثيل لهذا وهذا وعبدوها ، فأصبحت ديانة وثنية شركيـة من ناحيتين : من ناحية عبادة الأصنام ومن ناحية عبادة الانسان ، ونتج عن هذا أن اعتبر النصارى خليفة المسيح الممثل بالبابا له حكم المسيح من حيث طاعة أوامره ونواهيه ، فأصبح التحليل والتحريم والتضليل والتخريف الذى عليه طابع الديانة المقدسة الصادر من قبل البابا هو كل شىء • فكانت ماسى وفظائع من حجر على العقل ، وقتل للانفس ، وسلب للحريات ، ومقـاومة لكل حق ما ذكر التاريخ منه الكثير •

* * *

وألحد ناس قديما وألحدوا فى هذا العصر الا الأقل ، فماذا يعنى الالحاد ؟

يعنى الالحاد أن الانسان عبد الكون كله بدلا من أن يعبد أجزاء منه ، وخلع على الكون كله صفات الألوهية ، فالكون يخلق ويرزق ، ويعطى ويمنع ، ويحيى ويميت ، ويتصرف ويعمل ويرتب ويبدع ويكون ، واعتبروا أنفسهم أعظم ما فى هذا الكون فعبدوا أنفسهم ، اعتبروا أن الانسان مصدر التشريع ، ومصدر الحاكمية ، ومصدر الأمر والنهى • وهو حر أن يفعل وأن يترك وأن يعمل كل شىء فغلبتهم شهواتهم ، وظلموا بعضهم ، وأصبح كل واحد من هؤلاء يعتبر نفسه الها ، وأخيرا اعتبرت الفلسفة الشيوعية الشعب كله الها يفعل ما يشاء ، لا راد لحكمه ، وتمثل الشعب بأفراد تصرفوا كالهة ، فحدث على يدهم من الماسى ما لم يحدث على يد غيرهم ، حتى أنه قتل فى زمان ستالين وحده تسعة عشر مليونا من أبناء الشعوب المسماة بالاتحاد السوفيتى •

فلم يكن الالحاد اذن الا صورة جديدة من صور الشرك ، انتقل به الانسان من الجزئية الى الكلية ، ومن الشرك الواضح الى الشرك المقنع ، فأعطى الكون كله صفات الألوهية بعدما كان يعطى أجزاء منه ، وعبد نفسه وتعبد لها بعدما كان يعبد غيره •

ومحمد وحده بوحى من الله ، من يوم بعثته الى قيام الساعة ، هو الذى وضع الانسان فى محله الصحيح فعلمه :

❋ ❋ ❋

١ ــ أن الكون كله ، قمره وشمسه ونجومه وأرضه وحيواناته من بقر ونمر وأسد وعجل ، ونباتاته كلها ، وأحجاره ومعادنه وكل شىء فيه خلق للانسان ! فالانسان سيده والانسان مكرم ومفضل عليه •

((هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا)) •

((ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض)) •

ومن حق الانسان أن يستفيد من الأرض وخيراتها ، ومن القمر وما فيه ومن المريخ وغيره ، كل الكون مسخر للانسان والانسان أكرم ما فيه :

((ولقد كرمنا بنى آدم)) •

٢ ــ وأن الله خالق الكون والانسان ، هو وحده الاله المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، المستحق وحده للعبادة • والانسان عبده وحده :

((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)) •

فالناس كلهم عباد الله •• رسولهم ونبيهم ، وملكهم وخادمهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، ولا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه •

« وما أرسلنا من قبلك من رســول الا نوحى اليــه أنه لا اله الا أنا فاعبــدون » •

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقـول للنـاس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الـكتاب وبما كنتم تدرسون » •

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » •

لا اله الا الله •

لا حجر ولا قمر ولا بشر ولا كون ولا مجلسا نيابيا يحلل ويحرم كما يشاء ، ولا شعب ولا حاكم ولا محكوم ولا البشرية كلها •

كل الكون للانسان ، والانســـان لله • مقام الانسان السـيادة على المخلوقات ، لأنها مسخرة له ، والعبودية لله وحده : بنقلة واحدة نقل محمـد صلى الله عليه وسلم البشر من أحط الدركات الى أعلى الدرجات ، وبذلك وجد المسلم ، وهذه أول ثمرة من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم وهى أول ثمـرة من ثمار كل نبى ولكن الناس انحرفوا :

مكتوب فى نسخ التوراة الموجودة الآن :

(لو دعا نبى أو من يدعى الالهام فى المنام الى عبادة غير الله يقتـل هذا الداعى وان كان ذا معجزات عظيمة) الباب الثالث عشر من سفر الاستثناء ، وفى الباب السابع عشر منه :

(لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرجم رجلا كان أو امرأة) •

ومكتوب فى نسخ الانجيل الحالى :

(وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) **« انجيل يوحنا الباب السابع عشر ـ ٣ »** ⊡

وفى الباب الثانى عشر من انجيل مرقص ـ ٢٨ (فجاء واحد من الكتبـة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله • أية وصية هى أول الكل فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا : اسمع يا اسرائيل الرب الهنـــا رب واحـد) •

* * *

وبهذه النظرة الى الكون والانسان ، فتح المسلم أقفال الكون بالتجربة والمشاهدة ، يدفعه فى ذلك عقيدة أن الكون كله للانسان ، وعليه أن يستفيد منه ، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم الى القمة فى تسخير الكون ، فذلك بسبب أنها أخذت هذا المعنى عن الحضارة الاسلامية ، ولولا ذاك لما كان

فى أوروبا حضارة ولا علم وأين يكون ومحاكم التفتيش وسيف الكنيسة مسلطة على رأس كل من يفكر ، يقول بريفولت فى كتابه « بناء الانسانية » :

« ما من ناحية من نواحى تقدم أوروبا الا وللحضارة الاسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير » .

ويقول فى موضع آخر :

« لم تكن العلوم الطبيعية التى يرجع فيها الفضل الى العرب هى التى أعادت أوروبا الى الحياة ، ولكن الحضارة الاسلامية قد أثرت فى حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى الى أوروبا » .

ولكن للاسف فان أوروبا أخذت جزءا فقط من هدى محمد صلى الله عليه وسلم فى هذا الموضوع ولو أخذته كله لأفلحت واهتدت .

ان هذه الثمرة من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم التى لا يصلح الانسان الا بها ، ولا يأخذ محله الصحيح الا اذا اعتقدها ، لا يمكن أن تكون على هذا الكمال والتمام فى دعوة محمد عليه الصلاة والسلام لولا أنه رسول الله حقا . أراد الله به أن ترجع الانسانية عن الانحراف الى الاستقامة .

ثانيا ـ التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه وجعله محور سلوك الانسان :

مكتوب فى كتاب أيوب فى الباب الثانى والأربعين منه فقرة (١٧) (ومات أيوب شيخا معمرا ويبعث مرة أخرى مع الذين يبعثهم الرب) .

ومكتوب فى انجيل مرقس الباب الثالث عشر فقرة (٣٢) :

« وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا (الابن) أى المسيح الا (الآب) أى الله » ، وتعالى أن يكون أبا أو يكون له ولد ، وانما ذكرنا العبارة هنا لندلل على ذكر يوم القيامة فى كتب العهد القديم والجديد .

ومكتوب فى الباب التاسع عشر من انجيل متى هكذا (١٦) : (واذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية) .

ان الرسل كلهم بعثوا من أجل أن يبشروا بالحياة الأبدية الطيبة للصالحين والعذاب الأبدى للطالحين .

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

ان من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم أنه أخرج باذن الله وأمره جيلا من البشر لم يعد له همه الا فى أن ينال رضا الله ، وينال سعادة الأبد ، ودل البشرية على الطريق الى ذلك . فكان أتباعه أعظم نماذج عرفها العالم كطلاب آخرة . هذا مع قيام كامل فى أمر الدنيا اصلاحا ورعاية ، ولكن كممر الى

الآخرة • وهذه أمثلة على هذه النماذج تخرجها تربية محمد صلى الله عليه وسلم فى كل جيل وكان فيها القدوة الأولى :

١ ـ أخرج الامام أحمد باسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قـال :

حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير قال فجلست فاذا عليه ازاره وليس عليه غيره ، واذا الحصير قد أثر فى جنبه ، واذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع وقرظ (ورق السلم يدبغ به) فى ناحية من الغرفة ، واذا اهاب معلق فابتدرت عيناى فقال : ما يبكيك ؟ يا ابن الخطاب ! فقال : يا نبى الله وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها الا ما أرى وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته ، وهذه خزانتك • قال : يا ابن الخطاب ؟ أما ترضى أن تكون لنـا الآخرة ولهم الدنيـا » ؟

٢ ـ وأخرج أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« مات أبو بكر رضى الله عنه فما ترك دينارا ولا درهما ، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه فى بيت المـال » •

٣ ـ ومن حديث طويل أخرجه ابن عساكر عن الحسن البصرى فى عمر ابن الخطاب :

« فقالوا : ما ترون يا معشر المهاجرين والأنصـار الى زهد هذا الرجل والى حليته ؟

لقد تقاصرت الينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر ، وطرفى المشرق والمغرب ، ووفود العرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعها اثنتى عشرة رقعة • فلو سألتم معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم الكبراء من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والسابقين من المهاجرين والأنصار يغير هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظره ويغدى عليه جفنة من الطعام ويراح عليه جفنة يأكله ومن حضره من المهاجرين والأنصـار •

فقال القوم بأجمعهم : ليس لهذا القول الا على بن أبى طالب رضى الله عنه فانه أجرأ الناس عليه وصهره على ابنته ، أو ابنته حفصة ـ فانها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موجب لهـا لموضعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم •

فكلموا عليـا فقال على :

لست بفاعل ذلك ولكن عليكم بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم فانهن أمهات المؤمنين يجترئن عليه .

قال الأحنف بن قيس : فسألوا عائشة وحفصة رضى الله عنهما وكانتا مجتمعتين .

فقالت عائشة : انى سائلة أمير المؤمنين ذلك .

وقالت حفصة : ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك .

فدخلتا على أمير المؤمنين فقربهما وأدناهما .

فقالت عائشة : يا أمير المؤمنين أتأذن لى أكلمك ؟

قال : تكلمى يا أم المؤمنين ! قالت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى لسبيله . الى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وكذلك مضى أبو بكر رضى الله عنه على اثره لسبيله بعد احياء سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل المكذبين ، وأدحض حجة المبطلين ، بعد عدله فى الرعية ، وقسمة بالسوية ، وارضاء رب البرية ، فقبضه الله الى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى . لم يرد الدنيا ولم ترده ، وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر وديارهما ، وحمل اليك أموالهما ودانت لك أطراف المشرق والمغرب ، ونرجو من الله المزيد ، وفى الاسلام التأييد ، ورسل العجم يأتونك ، ووفود العرب يردون عليك ، وعليك هذه الجبة ، قد رقعتها اثنتى عشرة رقعة ، فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك ، ويغدى عليك بجفنة من الطعام ويراح عليك بجفنة تأكل أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصـــار .

فبكى عمر عند ذلك بكاء شديدا ثم قـــال :

سألتك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شبع من خبز بر عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة ، وجمع بين عشـــاء وغداء حتى لحق بالله ؟ !

فقالت : لا .

فأقبل على عائشة فقال :

هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب اليه طعام على مائدة فى ارتفاع شبر من الأرض . كان يأمر بالطعام فيوضع على الارض ويأمر بالمائدة فترفع ؟ قالتا : اللهم نعم . قال لهما : أنتما زوجتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين ، ولكما على المؤمنين حق وعلى خاصة . ولكن أتيتما ترغبانى فى الدنيا وانى لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة من الصوف فربما حك جلده من خشونتها ، أتعلمان ذلك ؟

قالتـا : اللهم نعم ٠

فقال : هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة وكان مسحا فى بيتك يا عائشة تكون بالنهـار بسـاطا وبالليل فراشا فندخل عليه فنرى أثر الحصير على جنبه ، ألا يا حفصة أنت حدثتينى أنك ثنيت له ذات ليلة فوجد لينها فرقد فلم يستيقظ الا بأذان بلال فقال لك يا حفصة ماذا صنعت ؟ أثنيت المهاد ليلتى حتى ذهب بى النوم الى الصباح ؟ مالى وللدنيا ومالى شغلتمونى بلين الفراش يا حفصة !

أما تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أمسى جائعا ورقد ساجدا ، ولم يزل راكعا وساجدا وباكيـا ومتضرعا فى آناء الليل والنهار الى أن قبضه الله برحمته ورضوانه ! لا أكل عمر طيبا ، ولا لبس لينا ، فله أسوة بصاحبيه ، ولا جمع بين أدمين الا الملح والزيت ، ولا أكل لحما الا فى كل شهر ينفض ما انفض من القوم ، فخرجتا فخبرتا بذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل ٠

٤ ـ رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه يقيل فى المسـجد وهو يومئذ خليفة ، قـال :

ويقوم وأثر الحصير بجنبه ٠

فيقال : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين ٠

وعن شرحبيل بن مسـلم أن عثمـان رضى الله عنـه كان يطعم النـاس طعام الأمارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت ٠

٥ ـ أخرج أبو نعيم فى الحلية (ج ١ ص ٨٢) عن رجل من ثقيف أن عليا رضى الله عنه استعمله على عكبرا قال :

ولم يكن السواد يسكنه المصلون ـ وقال لى : اذا كان عند الظهر فرح الى فرجعت اليه فلم أجد عنده حاجبا يحبسنى عنه دونه ، فوجدته جالسا وعنده قدح وكوز مـاء ـ فدعا بطينة فقلت فى نفسى :

لقد آمننى حتى يخرج الى جوهرا ولا أدرى ما فيها ، فاذا عليها خاتم فكسر الخاتم ، فاذا فيها سويق ، فأخرج منها فصب فى القدح ، فصب عليه مـاء فشرب وسقانى ، فلم أصبر فقلت :

يا أمير المؤمنين ! أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك !

قال : أما والله ما أختم عليه بخلا عليه ، ولكنى أبتاع قدر ما يكفينى فأخاف أن يفنى فيصنع من غيره ، وانما حفظى لذلك ، وأكره أن أدخل بطنى الا طيبـا ٠

٦ ـ أخرج أبو نعيم فى الحلية (جـ ١ ص ١٠١) عن عروة قال : دخل عمر بن الخطاب على أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فاذا هو مضطجع على طنفسة رحله ، متوسد الحقيبة فقال له عمر : الا اتخذت ما اتخذ أصحابك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ؟ هذا يبلغنى المقيل ٠ وقال معمر فى حديثه :

لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر : أين أخى قالوا : من ؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا : الآن يأتيك ! فلما أتاه نزل فاعتنقه فقال ثم دخل عليه بيته فلم ير فى بيته الا سيفه وترسه ورحله ٠

٧ ـ وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن الحسن قال :

كان عطاء سلمان رضى الله عنه خمسة آلاف درهم ، وكان أميرا على زهاء ثلاثين ألفا من المسلمين ، وكان يخطب الناس فى عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها ، واذا خرج عطاؤه أمضاه (أى تصدق به) ويأكل من سفيف يده » ٠

٨ ـ روى الامام أحمد عن محمد بن كعب أن ناسا نزلوا على أبى الدرداء رضى الله عنه لليلة قرة فأرسل اليهم بطعام سخن ولم يرسل اليهم بلحف ، فقال بعضهم لقد أرسل الينا بالطعام فما هنأنا مع القر ، لا أنتهى أو أبين له ٠ قال الآخر : دعه ، فأبى ٠

فجاء حتى وقف على الباب ، رآه جالسا وامرأته ليس عليها من الثياب الا ما لا يذكر فرجع الرجل وقال :

ما أراك بت الا بنحو ما بتنا به ٠

قال : ان لنا دارا ننتقل اليها قدمنا فرشنا ولحفنا اليها (أى الدار الآخرة) ولو ألفيت عندنا منه شيئا لأرسلنا اليك به وأن بين أيدينا عقبة كؤودا ، المخف فيها خير من المثقل أفهمت ما أقول لك ؟

قال : نعم ٠

٩ ـ وأخرج أبو نعيم عن عمر بن حمزة بن عبد الله قال : كنت جالسا مع أبى عمر رجل فقال :

أخبرنى ما قلت لعبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) يوم رأيتك تكلمه بالجرف ؟ قال : قلت يا أبا عبد الرحمن ! رقت مضغتك ، وكبر سنك ، وجلساؤك لا يعرفون حقك ولا شرفك ، فلو أمرت أهلك أن يجعلوا لك شيئا يلطفونك اذا رجعت اليهم ، قال : ويحك والله ما شبعت منذ احدى عشرة سنة ولا ثنتى عشرة سنة ولا ثلاث عشرة سنة ولا أربع عشرة سنة ولا مرة واحدة فأنى لى ؟

وانما بقى منى كظمئى الحمار ٠

١٠ ـ أخرج عمر بن شبة عن أفلح مولى أبي أيوب رضي الله عنه قال : كان عمر (رضي الله عنه) يأمر بحلل تنسج لأهل بدر يتنوق فيها (أي يتجود ويبالغ) فبعث الى معاذ بن عفراء حلة فقال لى معاذ :

يا أفلح : بع هذه الحلة فبعتها له بألف وخمس مائة درهم ثم قال : اذهب فابتع لى بها رقابا ، فاشتريت له خمس رقاب ، ثم قال والله ان امرءا اختار قشرين يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لغبين الرأى ، اذهبوا فأنتم أحرار » .

❋ ❋ ❋

مما مضى يتبين كيف أن الجيل الذى رباه محمد رسول الله جيل أصبح همه الأعلى الآخرة ، ولم يعد له فى غيرها همة : الا اذا كان وسيلة الى الآخرة تقربهم الى الله ، وتفرع عن هذا الأصل سلوك لا مثيل له فى أى جانب من جوانب الحياة ، والحياة والمال هما الميزان الذى يمتحن به ايمان الانسان بالمبدأ والعقيدة . فعلى قدر تضحيته يكون ايمانه ، والتضحية التى نراها عند الصحابة ـ الجيل الذى رباه رسول الله ـ بالنفس والمال ابتغاء وجه الله والدار الآخرة تضحية لا مثيل لها فى تاريخ العالم أبدا ، مما يدل على مقدار ايمانهم باليوم الآخر ، حتى أصبح محور وجودهم . وهذه أمثلة على تضحيتهم بالمال والنفس تؤكد لك مقدار استقرار هذا المعنى فى أنفسهم :

(أ) تقول زوجة طلحة بن عبيد الله (رضى الله عنه) :

دخلت يوما على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له : مالك ؟ لعله رابك منا شىء فنعتبك ؟

قال : لا ولنعم حليلة المرء المسلم أنت ! ولكن اجتمع عندى مال ولا أدرى كيف أصنع به . فقلت :

وما يغمك منه ! ادع قومك فاقسمه بينهم .

فقال : يا غلام على بقومى .

فسألت الخازن : كم قسم ؟

قال : أربع مائة ألف .

« كذا فى الترغيب ، ورجاله ثقات » .

(ب) وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن العزيز قال :

« كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون اليه الخراج ، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم الى منزله وليس معه شىء » .

ـ سمعت السيدة عائشة (رضى الله عنها) يوما رجة فى المدينة فقالت :

ما هذا ؟ قال : قافلة لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شيء ، وكانت سبعمائة بعير فقالت : يدخل عبد الرحمن الجنة حبوا (أى بسبب غناه). فلما بلغه ذلك قال :

انى لأرجو أن أدخلها قائما ، فجعل القافلة كلها فى سبيل الله الجمال وما عليها ووزعها على الناس ٠

(ج) أخرج الطبرانى فى الكبير عن مالك الدار (هو مالك بن عياض مولى عمر ذكره الحافظ فى الاصابة) :

أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربع مائة دينار ، فجعلها فى صرة فقال للغلام : اذهب بها الى أبى عبيدة بن الجراح (رضى الله عنه) ثم تله فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب الغلام اليه فقال :

يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ٠

فقال : وصله الله ورحمه ٠ ثم قال :

تعالى يا جارية ! اذهبى بهذه السبعة الى فلان ، وبهذه الخمسة الى فلان ، وبهذه الخمسة الى فلان ، حتى أنفدها ورجع الغلام الى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضى الله عنه فقال :

اذهب بهذا الى معاذ بن جبل وتله فى البيت حتى تنظر ما يصنع ، فذهب بها اليه فقال :

يقول أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال رحمه الله ووصله ، تعالى يا جارية ! اذهبى الى بيت فلان بكذا ٠ اذهبى الى بيت فلان بكذا ٠ فاطلعت امرأة معاذ وقالت :

ونحن والله مساكين فأعطنا فلم يبق فى الخرقة الا ديناران فدحى بهما (أى رمى) اليها ، ورجع الغلام الى عمر فأخبره فسر بذلك فقال : انهم اخوة بعضهم من بعض ٠

(د) أخرج ابن سعد عن أم درة قالت : أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهى يومئذ صائمة فقلت لها : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه ؟

فقالت : لو كنت أذكرتنى لفعلت ٠

(هـ) وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا ٠ فلما توجه الى أحد أراد أن يتوجه معه ، فقال له بنوه : ان الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت فنحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله ان بنى هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ، والله انى أرجو أن استشهد ، فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ٠

وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ٠ فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل يوم أحد شهيدا ٠

(و) تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد ابن معاذ فقال :

يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة انى أجد ريحها من دون أحد قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفه الا أخته ببنانه ٠

(ز) وأخرج ابن سعد عن جعفر بن عبد الله بن مسلم الهمدانى (رضى الله عنه) قال :

لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جرح أبو عقيل الأنيفى (رضى الله عنه) رمى بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب فى غير مقتل فأخرج السهم ووهن شقة الأيسر ــ لما كان فيه ٠ وهذا أول النهار وجر الى الرحل ، فلما حمى القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدى رضى الله عنه يصيح بالأنصار :

الله ! الله ! والكرة على عدوكم ٠ وأعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار :

أخلصونا ! أخلصونا فأخلصوا رجلا رجلا يميزون ٠ قال عبد الله بن عمر (رضى الله عنه) فنهض أبو عقيل يريد قومه ، فقلت : ما تريد يا أبا عقيل ! ما فيك قتال ؟

قال : قد نوه المنادى باسمى ٠ قال ابن عمر فقلت انما يقول يا للانصار لا يعنى الجرحى ٠

قال أبو عقيل : أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوا ،قال ابن عمر فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده مجردا ثم جعل ينادى يا للانصار كرة كيوم حنين ٠ فاجتمعوا ــ رحمهم الله ــ جميعا يقدمون المسلمون دربة (أى جرأة وشجاعة وثقة) دون عدوهم حتى اقتحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بيننا وبينهم ٠ قال ابن عمر : فنظرت الى أبى عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحا كلها قد خلصت الى مقتل وقتل عدو الله مسيلمة ، قال ابن عمر :

فوقعت على أبى عقيل وهو صريع آخر رمق فقلت :
يا أبا عقيل ٠

فقال : لبيك – بلسان ملتاث – لمن الدبرة ؟ قال : قلت : أبشر ، ورفعت صوتى قد قتل عدو الله فرفع أصبعه الى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله •
قال ابن عمر : فأخبرت عمر (رضى الله عنه) بعد أن قدمت خبره كله فقال : رحمه الله ما زال يسأل الشهادة ويطلبها ، وان كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم وقديم اسلام •

(ح) وفى يوم اليرموك قال عكرمة بن أبى جهل :

« قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواطن ، وأفر منكم اليوم ثم نادى : من يبايع على الموت ؟

فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور (رضى الله عنه) فى أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد (رضى الله عنه) حتى أثبتوا جميعا جراحا وقتل منهم خلق : منهم : ضرار بن الأزور ، وأتى خالد (رضى الله عنه) بعدما أصبحوا بعكرمة جريحا فوضع رأسه على فخذه ، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ويقول : كلا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد » •

(ط) وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنه) قال : « انى لفى الصف الأول يوم بدر ، اذ التفت فاذا عن يمينى ويسارى فتيان حديثا السن فكأنى لم آمن بمكانهما اذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه : يا عم أرنى أبا جهل ، فقلت :

يا ابن أخى ما تصنع به ؟

قال : عاهدت الله ان رأيته أن أقتله أو أموت دونه •

فقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله •

قال : فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما فأشرت لهما اليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء » •

***

فهل وجد جيل فى العالم مثل هذا الجيل ، بلغ فى التضحية فى سبيل الله وابتغاء رضوانه وطمعا فى جنته وخوفا من ناره كما بلغ هذا الجيل العظيم الذى رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ولعل فى الأمثلة التالية من صبر الصحابة وتحملهم الاذى وثباتهم على دعوة الله حرصا على السعادة الأبدية ، ما يجعلك على اليقين الذى ما بعده يقين ، ان تربية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أعظم تربية ربانية فى تاريخ الانسان • هدفها رضوان الله دون مطمح آخر :

(أ) أرى خباب بن الأرت عمر بن الخطاب ظهره وفيه آثار تعذيب

المشركين له فقال عمر ما رأيت كاليوم . قال خباب : أوقدوا لى نارا فما أطفأها الا ودك ظهرى » أى دهنه .

(ب) وقال أبو ذر :

قلت : يا رسول الله : انى أريد أن أظهر دينى . فقال رسول الله : أخاف عليك أن تقتل ، قلت لابد منه وان قتلت .

قال : فسكت عنى فجئت وقريش حلقا يتحدثون فى المسجد فقلت : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

فانتقضت الحلق فقاموا فضربونى حتى تركونى كأنى نصب أحمر ، وكانوا يرون أنهم قد قتلونى ، فأفقت فجئت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى ما بى من الحال فقال لى : ألم أنهك . فقلت : يا رسول الله كانت حاجة فى نفسى قضيتها » .

(جـ) عن أبى رافع قال :

وجه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) جيشا الى الروم وفيهم رجل يقال له عبد الله بن حذافة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فأسره الروم ، فذهبوا به الى ملكهم فقالوا له : ان هذا من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له الطاغية :

هل لك أن تتنصر وأشركك فى ملكى وسلطانى ؟

فقال له عبد الله : لو أعطيتنى ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما فعلت .

قال : اذن أقتلك .

قال : أنت وذاك . فأمر به فصلب .

وقال للرماة : ارموه قريبا من يديه قريبا من رجليه ، وهو يعرض عليه وهو يأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت ، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم أمر به أن يلقى فيها فلما ذهب به بكى فقيل له : انه قد بكى فظن أنه جزع فقال :

ردوه ، فعرض عليه النصرانية فأبى .

فقال : ما أبكاك اذن ؟

فقال : أبكانى أنى قلت فى نفسى تلقى الساعة فى هذا القدر فتذهب فكنت أشتهى أن يكون بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تلقى فى الله .

فقال الطاغية : هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك ؟

قال : وعن جميع أسارى المسلمين ·

قال : وعن جميع أسارى المسلمين ·

قال عبد الله ،فقلت فى نفسى : عدو من أعداء الله أقبل رأسه يخلى عنى وعن أسارى المسلمين لا أبالى ، فدنا منه فقبل رأسه فدفع اليه الأسارى فقدم بهم على عمر رضى الله عنه فأخبر عمر بخبره فقال عمر :

حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا أبدأ فقام عمر فقبل رأسه » ·

(د) وعن عثمان رضى الله عنه قال :

بينما أنا أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء اذ بعمار وأبيه وأمه يعذبون فى الشمس ليرتدوا عن الاسلام فقال أبو عمار : يا رسول الله الدهر هكذا · فقال : صبرا يا آل ياسر · اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت ، وفى رواية : صبرا يا آل ياسر صبرا يا آل ياسر فان موعدكم الجنة » ·

(هـ) وعن أبى الأسود قال :

وكان عم الزبير يعلق الزبير فى حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول ارجع الى الكفر فيقول الزبير : لا أكفر أبدا ·

ترى أيمكن أن يكون هذا التفانى فى طلب رضوان الله الا ثمرة من ثمار نبى ؟

أو يمكن أن يستطيع كذاب على الله أن يجعل أصحابه فى هذه الدرجة من الرغبة فى نيل رضوان الله ؟ ان من المعروف أن فاقد الشىء لا يعطيه ، ان الرجل الذى يكذب على الله لا يؤمن به ولا يؤمن باليوم الآخر الذى أعده ، فلا يستطيع أن ينقل الناس الى هذه الحال من الايمان ، لولا أنه أعلى فى هذا الموضوع منهم بكثير · فلقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى حال الرهبة من الله بشكل لا نرى مثله الا عند نبى ·

فأعطاهم اليوم الآخر حسبا رقيقا مرهفا · اذا وقع أحدهم بالمعصية جاد بنفسه من أجل التخلص من آثارها ، وترفعوا عن الشهوات والدنايا واحتقروا مظاهر الحياة الفانية ، حتى أن أحدهم أصبح ولا تساوى الدنيا عنده شيئا يذكر ، فأصبحت الفضيلة لهم عادة ، والأمانة عندهم محترمة ، وكلمتهم عهدا · وكل ذلك حرصا على رضوان الله وطلبا لجنته وخوفا من ناره ·

(أ) روى الامام مسلم :

أن ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : انى ظلمت نفسى وزنيت وانى أريد أن تطهرنى فرده · فلما

كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله : انى زنيت فرده الثانية • فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومه فقال أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا : ما نعلمه الا وفى العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم •

قال : فجاءت الغامدية فقالت :
يا رسول الله انى قد زنيت فطهرنى •

وانه ردها فلما كان الغد قالت يا رسول الله : لم تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا • فوالله انى لحبلى • قال :

أما لا فاذهبى حتى تلدى ، قال : فلما ولدته أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا وقد ولدته •

قال : فاذهبي فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ثم أمر فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجموها فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله سبه اياها فقال :

مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له • ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت » •

(ب) حدث الطبرى قال :

« لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض ، أقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الاقباض فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به •

فعرفوا أن للرجل شأنا فقالوا من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى • ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلا حتى انتهى الى أصحابه فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس » •

(جـ) أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير وأظهر اليواقيت واللالىء الثمينة العظيمة ، وعليه تاج وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب •

ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له :

ضع سلاحك ٠

فقال : انى لم آتكم ، وانما جئتكم حين دعوتمونى ، فان تركتمونى هكذا والا رجعت ٠

فقال رستم : ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ٠

فقالوا له : ما جاء بكم ؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ٠

(د) هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله ٠ قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ٠

قال : لا شىء ، كنت أذكر الله ٠

فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وكان فضاله يقول :

والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئا أحب الى منه ٠

قال فضالة : فرجعت الى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث اليهـا فقالت، هلم الى الحديث فقلت :

يأبى الله عليك والاسلام ٠

(هـ) عن أبى موسى قال :

انتهينا الى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينـه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين وقد قال عمرو وعمـارة : انهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك فقال جعفر : لا نسجد الا لله ٠

***

انه بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح الضمير يقظا على اليوم الآخر ٠ لا يغفل عنه ، فاستقام بذلك عمود الحياة كلها ٠ اليوم الآخر الذى دعا اليه كل المرسلين وغفل عنه كل الناس وهو أهم قضايا الانسان لأنها قضـية مصيره ويجعلها الانسان أبسط قضاياه لغلبة الحس بالدنيا عليه حتى اذا مات الانسان وانكشف له صدق الرسل فيما أخبروا عنه ندم ولات حين مناص ٠

واحياء الانسان بهذه الذكرى واحياء هذه الحقيقة فى قلب الانسـان هى الثمرة الثانية من ثمرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانها لثمرة نبـوة لا ثمرة كذابين مدعين ، ولا يستطيع العقل أن يتصور الا هذا ٠

ثالثا ــ انسانية واحدة كريمة :

وجاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظرة الناس بعضهم الى بعض ما يلي :

١ ــ في الهند :

لم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة ، وأعظم فصلا بين طبقة وطبقة ، وأشد استهانة بشرف الانسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينيا ومدنيا وخضعت له آلافا من السنين ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الويدي ، بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، أو بحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها • وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي • وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفق عليه في البلاد ، وأصبح قانونا رسميا ومرجعا دينيا في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » •

يقسم هذا القانون أهل البلاد الى أربع طبقات متمايزة وهي :

١ ــ البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين •

٢ ــ شتري : رجال الحرب •

٣ ــ ويش : رجال الزراعة والتجارة •

٤ ــ شودر : رجال الخدمة •

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« ان القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه • وشتري من سواعده • وويش من أفخاذه • والشودر من أرجله ، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم • فعلى البراهمة تعليم ويد ، أو تقديم النذور للالهة ، وتعاطي الصدقات • وعلى الشتري حراسة الناس ، والتصدق وتقديم النذور ودراسة ويد ، والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعي السائمة ، والقيام بخدمتها ، وتلاوة ويد والتجارة والزراعة • وليس لشودر الا خدمة هذه الطبقات الثلاثة • »

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا فقد قال : ان البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وان ما في العالم هو ملك لهم ، فانهم أفضل الخلائق ، وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر من غير جريرة ما شاؤوا ، لان العبد لا يملك شيئا ، وكل ماله لسيده ، وان البرهمي الذي يحفظ رك ويد « الكتاب المقدس » هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة • بذنوبه وأعماله ، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية ، أو يأخذ منهم أتاوة ، ولا يصح

لبرهمي في بلاده أن يموت جوعا ، وان استحق برهمى القتل لم يجز للحاكم الا أن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل •

أما الشترى فانهم وان كانوا فوق الطبقتين « ويش وشودر » ولكنهم دون البراهمة بكثير • يقول « منو » : ان البرهمي الذى هو فى العاشرة من عمره يفوق الشترى الذى ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده •

أما شودر « المنبوذون » فكانوا فى المجتمع الهندى ـ بنص هذا ـ القانون المدنى الدينى ـ أحط من البهائم ، وأذل من الكلاب ، فيصرح القانون بأن من سعادة « شودر » أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك ، وليس لهم أن يقتنوا مالا ، أو يدخروا كنزا ، فان ذلك يؤذى البراهمة ، واذا مد أحد من المنبوذين الى برهمى يدا أو عصا ليبطش به ، قطعت يده ، واذا رفسه فى غضب فدعت رجله ، واذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه وينفيه من البلاد ، وأما اذا مسه بيده أو سبه فيقطع لسانه ، واذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتا فائرا ، وكفارة قتل الكلاب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء » •

٣ ـ فى فارس :

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجرى فى عروقهم دم الهى ، وكان الفرس ينظرون اليهم كالهة ، ويعتقدون أن فى طبيعتهم شيئا علويا مقدسا يدعون أنه يجرى فى عروقهم ، فكانوا يكفرون لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر ولا يجرى اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد فى مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقا على كل انسان ، وليس لانسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم انما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق •

كما يعتقدون أن طبقة البيوتات الروحية والأشراف فوق العامة فى طينتهم، وفوق مستوى الناس فى عقولهم ونفوسهم ، ويعطونهم سلطة لا حد لها ، ويخضعون له خضوعا كاملا يقول « آرتهرسين » :

« كان المجتمع الايرانى مؤسسا على اعتبار الحرف والنسب ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقارا لأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية • أن يقنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه • ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها ، وكان ملوك ايران لا يولون وضيعا وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزا واضحا ، وكان لكل واحد مركز محدد فى المجتمع •

وكان فى هذا التفاوت بين طبقات الامة امتهان للانسانية • يظهر لك جليا فى مجالس الامراء والاشراف ، حيث يقوم الناس على رؤوس الامراء كأنهم جماد لا حراك بهم ، ويجلسون مزجر الكلب •

ثم يبالغون فى تمجيد القومية الفارسية ، ويرون أن لها فضلا على سائر الأجناس والامم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحدا ، وكانوا ينظرون الى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية •

٣ ـ هذان مثلان يبينان لنا حال العالم فى قضية الانسان حين البعثة • وليس هما كل شىء ، فاليونان والرومان كل واحدة منهما كانت ترى غيرها برابرة ، وهى وحدها نموذج النوع الانسانى العالى ، وكنت ترى هذا الشعور بالأفضلية حتى على مستوى القبيلة ، حتى على مستوى الاسرة ، ولم يكن يخطر ببال قضية الانسانية الواحدة ••

٤ ـ ومالنا نذهب بعيدا فحتى الآن نرى :

أن هتلر يعتبر الشعب الجرمانى أعظم شعوب الدنيا ، وله حق سيادة العالم •

والشعب الأمريكى لا يزال يعامل السود معاملة احتقار وازدراء وامتهان ، ولا يعترف لأسود بحق لدرجة أن سينما البيض لا يدخلها سود • ومطعم البيض لا يدخله سود ، ومدرسة البيض لا يدخلها سود •

وفى جنوبى افريقيا الأسود أحقر عند البيض من الكلب •

بل أكثر من هذا بقيت الكنيسة النصرانية فترة طويلة فى افريقيا لا ترى أن الرجل الأسود أهل لان يكون قسيسا ، وأخيرا تظهر الطبقية بشكل آخر : رأسمالية ـ بورجوازية ـ بروليتاريا ••

* * *

هذا بشكل عام ، فاذا ما نظرنا الى المسألة من زاوية أخرى ، زاوية أن الانسانية رجل وامرأة ، وكل منهما انسان ، فانك تجد ولا تزال تجد مثل هذه الصور :

فى القرن السادس الميلادى كانت بعض المجامع الكنسية تبحث : هل المرأة انسان أو حيوان ؟

وكان العرب يئدون بناتهم حتى قال صعصعة بن ناجية :

جاء الاسلام وقد فديت ثلاثة مائة موؤدة •

وكان الهنود اذا مات الرجل حرموا على زوجته أن تتزوج وأهانوها .

حتى أصبحت عادة عندهم أن تحرق المرأة نفسها اذا مات زوجها لتتخلص مما يصيبها بعد موته ، وقد يحدث عندهم أن يخسر الرجل زوجته فى القمار وفى كل مكان ليس للمرأة شخصيتها الحقوقية المستقلة ٠

وحتى الآن تجد أن القانون الفرنسى لا يسمح للمرأة أن تتصرف بأموالها الا باذن زوجها ، والقانون الانجليزى لا يسمح لها بتغيير اسمها الا باذن زوجها ، أما هو فحر ٠٠

واذا نظرنا الى الانسانية من وجه آخر ٠ وجه الأحرار والعبيد ، فاننا نجد صورا من البشاعة فى معاملة الرقيق لا تصور ، الرقيق ليس له حق حياة ولا كرامة ولا يوجد شعور أصلا بانسانيته ٠

***

هذا كله كان وبعض منه كما رأينا لا يزال :

فماذا فعل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر من الله ووحى :

لقد أعلن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقق عمليا انسانية الانسان ، ووحدة الانسانية ، وكرامة الانسان ، الرجل انسان ، والمرأة انسان ، والعبد انسان ، والناس كلهم سواء فى هذه الانسانية ، فلا شعب أعلى من شعب ، ولا جنس أعظم من جنس ٠

وفى ذلك يقول صاحب كتاب « هذا الدين » فيه :

« من العصبية القبلية بل عصبية العشيرة بل عصبية البيت ، التى كانت تسود الجزيرة ، ومن عصبية البلد ، وعصبية الوطن ، وعصبية اللون ، وعصبية الجنس ، التى كانت تسود وجه الأرض كله ٠٠

من هذه العصبيات الصغيرة التى لم تكن البشرية تتصور غيرها فى ذلك الزمان ، جاء الاسلام ليقول للناس :

ان هناك انسانية واحدة ، ترجع الى أصل واحد ، وتتجه الى اله واحد ٠ وأن اختلاف الأجناس والالوان ، واختلاف الرقعة والمكان ، واختلاف العشائر والآباء ٠٠ كل أولئك لم يكن ليتفرق الناس ويختصموا ، ويتحوصلوا وينعزلوا ، ولكن ليتعارفوا ويتآلفوا ، وتتوزع بينهم وظائف الخلافة فى الأرض ، ويرجعوا بعد ذلك الى الله الذى ذرأهم فى الأرض واستخلفهم فيها ٠

وقال لهم الله سبحانه فى القرآن الكريم :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » ٠

« يا أيها النـــاس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحـدة ، وخلق

منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا)) •

((ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين)) •

لم تكن هذه مبادىء نظرية ولكنها كانت أوضاعا عملية •

لقد انساح الاسلام فى رقعة من الأرض فسيحة ، تكاد تضم جميع الاجناس وجميع الالوان •• وذابت كلها فى النظام الاسلامى • ولم تقف وراثة لون ، ولا وراثة جنس ، ولا وراثة طبقة ، ولا وراثة بيت ، دون أن يعيش الجميع اخوانا ، ودون أن يبلغ كل فردمنهم ما تؤهله له استعداداته الشخصية ، وما تكفله له صفة الانسان •

واستقر هذا الخط العريض فى الأرض ، بعد أن كان غريبا فيها ، أشد الغرابة ، ومستنكرا فيها كل الاستنكار ـ وحتى بعد انحسار المد الاسلامى ، لم تستطع البشرية أن تتنكر له كل التنكر ، ولم تعد تستغربه كل الاستغراب •

حقيقة : انها لم تستطع أن تتمثله كما تمثلته الجماعة المسلمة ، ولم يستقر فيها استقراره فى المجتمع الاسلامى •

وحقيقة : ان عصبيات شتى صغيرة ما تزال تعيش ، عصبيات الأرض والوطن وعصبيات الجنس والقوم وعصبيات اللون واللسان •

وحقيقة : ان الملونين فى أمريكا وجنوب افريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة ، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة فى أوروبا كلها •

ولكن فكرة الانسانية الواحدة ما تزال خطا عريضا فى هتافات البشرية اليوم ، وما يزال هذا الخط الذى خطه الاسلام هو أصل التفكير البشرى ـ من الناحية النظرية ـ وما تزال تلك العصبيات الصغيرة تبزغ وتختفى ، لأنها ليست أصيلة ولا قويمة •

وجاء الاسلام والكرامة الانسانية وقف على طبقات معينة ، وعلى بيوت خاصة ، وعلى مقامات معروفة • أما الغثاء ـ غثاء الجماهير ـ فهو غثاء لا وزن له ولا كرامة ! غثاء !!

وقال الاسلام كلمته المدوية : ان كرامة الانسان مستمدة من انسانيته ذاتها ، لا من أى عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، أو الطبقة أو الثروة أو المنصب الى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة •• والحقوق الاصيلة للانسان ، مستمدة اذن من تلك الانسانية التى ترجع الى أصل واحد كما أسلفنا •

وقال لهم الله في القرآن الكريم :

((ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)) •

« واذ قال ربك للملائكة : انى جاعل فى الأرض خليفة » ٠

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » ٠

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » ٠

وعلم النـــاس منذئذ ،

ان الانسان ـ بنوعه ، كريم على الله ٠ وان كرامته ذاتية أصيلة ٠ لا تتبع جنسه ، ولا لونه ، ولا بلده ، ولا قومه ولا عشيرته ، ولا بيته ٠ ولا عرضـا من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة ٠

انما تتبع كونه انسانا من هذا النوع الذى أفاض عليه ربه الكريم ٠ ولم تكن هذه المبادىء نظرية ، انما كانت واقعا عمليا ، تمثل فى حياة الجمـاعة المسلمة ، وانساحت به فى أرجاء الأرض ، فعلمته للناس ، وأقرته فى أوضاع حياتهم ، كذلك وعلمت جمهور الناس ٠٠ ذلك الغثاء ٠٠ أنه كريم ، وأن له حقوقا ، هى حقوق الانسان ، وأن له أن يحاسب حكامه وأمراءه ، وأن عليه ألا يقبل الذل والضيم والمهانة ٠ وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقـوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس ـ وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد ممن ليس بحاكم أو أمير ٠

وكان هذا ميلادا جديدا « للانسان » ميلادا أعظم من الميلاد الحسى ٠٠

فأى انسانية لانسان اذا لم تكن له حقوق الانسان ، وكرامة الانسان ، واذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته ، وبحقيقته التى لا تتخلف عنه فى حال من الأحوال ؟

بدأ أبو بكر رضى الله عنه عهده بقوله :

« لقد وليت عليكم ولست بخيركم : فان أحسنت فأعينونى ٠ وان أسأت فقومونى ٠ أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ٠ فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » ٠

وخطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يعلم الناس حقوقهم تجـاه الأمراء :

« يا أيها الناس ٠ انى والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا من أموالكم ٠ ولكنى أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ٠ فمن فعل به شىء من ذلك فليرفعه الى ٠ فوالذى نفس عمر بيده ، لأقصنه منه ٠٠ فوثب عمرو بن العاص فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أرأيتك ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيتـه فأدب بعض رعيته ٠ انك لتقتص منه ؟ » ٠

قال عمر : « أى والذى نفس عمر بيده لأقصنه منه • وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه • ألا لا تضربوا الناس فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم » •

وكتب عثمان (رضى الله عنه) كتابا الى جميع الأمصار قال فيه :

« انى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم قد سلطت الأمة على الامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فلا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى الا أعطيته • وليس لى ولا لعمالى حق قبل الرعية الا متروك لهم • وقد رفع الى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون • فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم ، يأخذ حقه حيث كان منى أو عمالى ، أو تصدقوا ، ان الله يجزى المتصدقين » •

والمهم ــ كما أسلفنا ــ أن هذه لم تكن مجرد مبادىء نظرية أو مجرد كلمات تقال •

فقد طبقت تطبيقا واقعيا ، وسرت فى أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للاوضاع العملية •

وحادثة ابن القبطى الذى سابق ابن عمرو بن العاص ، فاتح مصر وواليها، فسبقه فضربه ابن عمرو ، فشكا أبوه الى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فاقصه منه فى موسم الحج وعلى ملأ من الناس •• حادثة معروفة •

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر •• ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحررى الذى أطلقه الاسلام فى ضمائر الناس وفى حاجاتهم •

فمصر اذ ذاك بلد مفتوح • حديث عهد بالفتح الاسلامى • وهذا القبطى لم يزل على دينة فردا من جماهير البلد المفتوحة • وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الاقليم ، وأول أمير عليه من قبل الاسلام •• وحكام هذا الاقليم قبل الفتح الاسلامى هم الرومان :

أصحاب السياط التى تجلد ظهور شعوب المستعمرات ، ولعل ذلك القبطى كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان •

ولكن المد التحررى الذى أطلقه الاسلام فى أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطى سياط الرومان وذلها ، وأطلقه انسانا حرا كريما ، يغضب لأن يضرب ابن الامير ابنه بعد اشتراكهما فى سباق • وهذه أخرى ، ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر الى المدينة لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطارا ، ولكن جملا ، يخب به ويضيع الأشهر الطوال كل ذلك ليشكو للخليفة •

الخليفة الذى حرره يوم الفتح تحت راية الاسلام ، والذى علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان •

وهكذا ينبغى أن نفهم ، وأن ندرك عمق المد الاسلامى التحررى • فليست المسألة فقط أن عمر عادل ، وأن عدله لا تتطاول اليه الأعناق فى جميع الازمان •

ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر المستمد من الاسلام ، ومنهجه ونظامه، انطلق فى الأرض تيارا جارفا محررا مكرما للانسان •• بصفته « الانسان » •

هذا المستوى الرفيع ، لم ترتفع اليه الانسانية قط •• هذا صحيح ولكن هذا الخط العريض الذى خطه الاسلام ، فى كرامة الانسان وحريته وحقوقه تجاه حكامه وامرائه ، قد ترك فى حياة البشر آثارا لا شك فيها • وبعض هذه الآثار هو الذى يدفع بالبشرية اليوم الى اعلان « حقوق الانسان » •

وحقيقة أن هذا الاعلان لم يأخذ طريقه الواقعى فى حياة البشرية •

وحقيقة أن « الانسان » مايزال يلقى المهانة والاذلال والتعذيب والحرمان فى شتى أنحاء الأرض •

وحقيقة أن بعض المذاهب تجعل مقام الانسان دون مقام الآلة ، وتقتل حرية الانسان وكرامته وخصائصه العليا فى سبيل الانتاج ومضاعفة الدخل ، والتفوق فى الاسواق •

كل هذا صحيح •

ولكن هذا الخط ما يزال قائما فى مدارك البشرية وتصوراتها ولم يعد غريبا عليها كما كان يوم جاءها الاسلام •

* * *

وهذه نماذج من توجيهات السيد الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب نذكرها كأمثلة على هديه فى بناء جوانب انسانية الانسان •

(أ) كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب لينتهين قوم يفتخرون بابائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان •

(ب) وعن عائشة رضى الله عنها أن فتاة قالت ـ يعنى للنبى صلى الله عليه وسلم ـ ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى أبيها فجعل الأمر اليها فقالت : يا رسول الله انى أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للاباء من الأمر شىء •

(جـ) عن معاوية بن سويد بن مقرن قال :

لطمت مولى لنا فهربت ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبى فدعاه ودعانى ثم قال للخادم : أمثل منا فعفا ثم قال : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا خادم الا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أعتقوها فقيل له ليس لهم خادم غيرها فقال : فليستخدموها فاذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها ٠

(د) وعن المعرور بن سويد قال :

رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولاتكلفوهم من العمل ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم عليه ٠

(هـ) وكان عمر رضى الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعنى بلالا ٠

وسنرى ان شاء الله فى الرسالة الثالثة « الاسلام » هذه المعانى بالتفصيل ٠

* * *

هذه ثمرة من ثمرات محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى ثمرة ما كانت لتكون لولا أنه رسول الله ٠

ان بيئة الجزيرة العربية ما كانت لتنبع منها فكرة وحدة الانسانية وكرامتها ، بل ما كانت لتخرج انسانا له رسالة للبشرية عامة ٠ فكل المقدمات ما كانت لتوحي بنتيجة من هذا النوع ٠

يقول العقاد :

ثم يستمع الناس الى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادى بنى الانسان جميعا الى دين واحد واله واحد وحق واحد :

((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم)) ٠

((وما أرسلناك الا كافة للناس)) ٠

((وما أرسلناك الا رحمة للعالمين)) ٠

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل اليه فيقول فى تفسير هذه الآيات :

(لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى) ولو لم يكن من سعة المسافات بين المقدمات ، وهذه النتيجة غير هذا الذى أجملناه لكان فيه الكفاية ٠ لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتى النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والاعراق على نحو لم يعرف

له مثيل بين الامم والعصبيات ، وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم فان الرسول صلى الله عليه وسلم الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والامم ، لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه الشريفين • بل كان من شرف الابوة فى الذؤابة التى يعترف بها الكافرون، وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس أنهم اذا صلحوا واستقاموا **((فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون))** •

رابعا ـ المسؤولية الفردية :

((ذهبت طالبة شابة من جامعة فرانكفورت تقول لمدير الجامعة مستنجدة أن والديها يهددانها بالطرد ، ولما سألها عن السبب أجابت • لأنها ستضع مولودا وقالت : انها لا تعلم اسم أو شخصية والده ، لأنه كان يرتدى قناعا حيث أنها ارتكبت الفاحشة فى أيام الكرنفال أو الناشنج ، وهذه الحادثة ليست الا قصة صغيرة تقع أمثالها عشرات الألوف كل سنة فى بلاد الاباحية التى أحيت تقاليد الدعارة الجماعية تحت ستار التطور والتحرر • فكانت أعياد الكرنفال أو الناشنج التى تستمر ثلاثة أيام وفيها تباح كل الأعراض والحرمات ، بل انه من المخالف لآداب التقاليد أن تسير فتاة مع صديقها هذه الليلة أو تسهر زوجة بجانب زوجها • وأيام الاباحة الثلاثة تبدأ رسميا فى الدقيقة ١١، من الساعة ١١ من اليوم ١١ من الشهر ١١ من كل سنة مع تفاوت بسيط فى مواعيدها بين مدينة وأخرى ، وفى أثناء هذه المهرجانات بهذه المناسبة تتعرى النساء من كل شىء تقريبا وهن يختلطن بارلجال حيث تجرى الدعارة الجماعية ومن دون أن يعرف كل رجل ما اسم هذه التى يرافقها ومن دون أن تعرفه هى أيضا ، لأن الجميع يحرصون على ارتداء الاقنعة ، وفلسفة الالمان فى هذه الاعياد هى أن من حق البشر أن يخطئوا ، لانهم اذا لم يخطئوا فسيرتفعون الى مستوى الآلهة ، وهذا غير معقول وأن خطاياهم ستغفر لهم حتما لأن المسيح قد دفع الثمن وصلب من أجلهم ، وهم يرددون هذه الفلسفة فى صحفهم ومجالسهم وفى كل مكان)) •

هذه ثمرة من ثمرات الفكرة النصرانية التى تقول :

ان الانسان خاطىء منذ ولادته ، لأن أباه آدم قد ارتكب الخطيئة • وأن المسيح عليه السلام ـ صلب ـ حسب زعمهم حتى يكفر عن البشر خطاياهم فهو قد تحمل خطايا البشر •

وهذه الفكرة معناها أن الانسان مسؤول عن أعمال غيره ، وغيره مسؤول عن أعماله ، وبين هذا وهذا تضيع المسؤولية الفردية التى يحس بها الانسان انه مسؤول عن أعماله فقط • صغيرها وكبيرها ، وليس مسؤولا عن عمل غيره بتاتا •

ويترتب على الفكرة الأولى ناحيتان خطيرتان :

الاولى : أن الانسان غير طاهر القلب والنفس منذ نشأته بسبب وراثته

الخطيئة وهذا يؤثر تأثيرا سيئا فى نظرته لنفسه من حيث أنه كما ورث الخطيئة ولم يخطىء ، فسيعتمد على غيره فى حمل خطاياه عنه •

الثانية : أنه ما دام غيره مسؤولا عن ذنوبه ، فانه لن يبالى بهذه الذنوب • وعندئذ تملا الخطيئة الأرض ، وادرس ما يحدث فى كنائس أمريكا وبريطانيا وغيرهما بالذات تجد مقدار اللامبالاة فى الخطيئة •

وهذا أكثر الأديان أتباعا الآن فى العالم •

* * *

توجد عند البراهمة والبوذيين والجينيين ـ وهى ديانات لها أتباعها الكثر فى العالم ـ عقيدة شبيهة من حيث سلب مسؤولية الانسان الفـردية بالديانة النصرانية •

هذه العقيدة هى عقيدة تناسخ الأرواح ، وخلاصة هذه العقيدة أن الروح بعدما تفارق جسدا فى هذه الدنيا تنتقل الى جسد آخر فى هذه الدنيا نفسها • ولا يكون هذا الجسد الثانى أو القالب الثانى بكلمة أصح الا متفقا مع الحياة التى قد أعدها الانسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه فى حيـــاته الأولى • فان كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة ، فان روحه ستنتقل الى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانات أو النباتات ، وأما ان كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة ، فان روحه سترتقى الى طبقة من الطبقات العليا » •

هذه العقيدة مقتضاها أننى أنا الانسان الحالى • انسان بهذا الوضـع نتيجة لسلوك غيرى ، وحصيلة لسلسلة طويلة من أعمال المخلوقات قبلى ، وهذه المخلوقات السابقة على ، هى أنا وأنا باعمالى الحاضرة سأكون بالتالى نباتا أو حيوانا أو انسانا ويحس الانسان بذاته أنه منقطع الشعور النفسى بما كان •

فماذا ينتج عن هذه العقيدة ؟

١ ـ « سينتج عن هذه العقيدة شعور لدى الانسان بأن الحيوان والنبات والانسان سواء فى ميزان الوجود ، اذ الحيوان كان انسانا والنبات كان حيوانا • ويترتب على هذا ألا يجوز ايذاء النبات والحيوان والانسان ، حتى ولو آذانى الانسان ، وعندئذ فان أمة من هذا النوع تعتقد مثل هذه العقيـدة معرضة للفناء والحرمان والاضمحلال ، ومثل هذه العقيدة ليست صالحة ولذلك فان أهلها يعيشون مشتتين بين واقعهم الذى يعملون ، وعقيدتهم التى يعتقدون •

٢ ـ كما ينتج عن هذه العقيدة رهبانية مميتة عمليا • اذ أن أهل هـذه العقيدة يعتقدون أن الشهوة هى أصل كل فساد فى الأرض وهى التى تلوث الروح بالذنوب والآثام ، ولأجلها تنتقل الروح من قالب الى قالب وتذوق وبال

أعمالها مرة بعد مرة ، فالانسان اذا أودى بها ، وقضى عليها ، ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبها ، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ ، ويقولون :

ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه ، لأنه من المحال اذا انشغل الانسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشؤونها الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها • والنتيجة اللازمة لذلك ـ يقولون ـ ان من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليه أن ينعزل عن الدنيا ، ولا يسكن الا فى الغابات ، ورؤوس الجبال وكهوفها ، وأن من لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناسخ، ويستعد للانضمام الى طبقات الحيوانات والنباتات •

٣ ـ ولما كانت الفكرة الأولى والثانية غير عمليتين •

فالناس نتيجة لذلك اما أن يسلكوا الطريق المرسوم للخلاص من دورة التناسخ بزعمهم فتفنى البشرية كلها لو سلكت هذا الطريق •

واما انسان لن يمشى فى هذا الطريق وهو بالتالى لا يبالى لأنه ليس مسؤولا عن حاضره ولا يهمه مستقبله •

* * *

ويظهر انعدام المسؤولية الفردية عند البشرية بصورة أخرى ، كلها غير معقول :

تظهر بصورة أخذ الثأر من أى قريب للقاتل ، كما يحدث عند العرب فى الجاهلية ، وتظهر بصورة الايمان بأن الانسان غير مسؤول أمام أحد عند الملحدين الفوضويين ، وتظهر بصورة أن الانسان مسؤول أمام القانون فقط فاذا استطاع أن يهرب من عين القانون فعل ما شاء •

* * *

وهناك صورة أخرى تنعدم فيها المسؤولية موجودة عند اليهود •

فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، الذى غفر له كل شىء ، فمهما فعلوه من جرائم أو ماسى ، أو مفاسد ، أو مظالم ، فان خصوصيتهم هذه تجعلهم بمنجاة من عذاب الله الا بشكل بسيط جدا جدا •

هذه صور من فرار الانسان من المسؤولية كانت يوم بعث محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زالت وهى كلها صور غير معقولة ، وآثارها خطيرة على الانسان ، والحياة الانسانية كلها ، من حيث انعدام مسؤولية الانسان أو قصورها ، مما يؤدى الى انحراف فظيع فى السلوك •

فماذا فعل محمد صلى الله عليه وسلم بأمر الله ووحيه :

لقد كان الاعلان الذى أعلنه الاسلام هو أن الانسان لا يتحمل الا مسؤولية أعماله وحده ، فلا يتحمل مسؤولية جد ولا مسؤولية ذنب أخ وعم ، الا اذا كان له علاقة فى الموضوع ، وأن الجيل اللاحق لا يتحمل أوزار الجيل السابق ، وانما الانسان مسؤول عن أعماله وحده صغيرها وكبيرها أمام الله فى الآخرة، وأمام شريعة الله فى الدنيا فقال القرآن • **((ولا تزر وازرة وزر أخرى))** •

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) •

وخاطب القرآن الناس :

((ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به)) •

فأصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة • حتى قال قائل المسلمين : « كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام » وأصبح الذى يقدم الانسان أو يؤخره هو عمل الانسان حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أغنى عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سليني ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا) رواه البخارى ومسلم •

وبذلك استقام سلوك الانسان ، وتحرر ضمير الانسان من التواكل والاعتماد على الآخرين ، وبذلك لم يعد الانسان غير مبال فى أمر الخطيئة ، وبذلك استقلت شخصية الانسان استقلالا تاما ، وبذلك أصبح الخير مرجوا من الانسان ، وبذلك قضى على الخرافة ، وقامت الحقيقة محلها •

هذه الثمرة العظيمة من ثمار دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تدل على أن محمدا رسول الله ، لأنها ثمرة ما كانت لتكون لولا الوحى ، وقد صاغ العقاد هذا الموضوع صياغة عالية نأخذ من فقراتها ما يلى :

« وللديانة الانسانية مناط واحد ، هو ضمير كل فرد من أفرادها • فما لم يكن لهذا الضمير حساب ، وعليه تبعة ، فلا ديانة لانسان ، ولا لجملة الناس • وفكرة التبعة الفردية والمسؤولية الفردية بسيطة ، سهلة الفهم ، تتجدد الحاجة الى تطبيقها كل يوم ، فى كل بيئة اجتماعية ، فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها ، وسهولة فهمها ، وتجدد الحاجة الى تطبيقها ، لما خلا المجتمع الانسانى قط من مبدأ المسؤولية الفردية منذ أوائل عهد الانسان بالاجتماع •

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت ، وظلت مهملة من عهد البداوة الى عهود الحضارة الأولى ، لان محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع الى سلطان واحد ، اذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر

أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه الى قبيلة المعتدى عليه • فان لم تسلمه تضامنت فى الدفاع عنه ، ووقعت الحرب بين القبيلتين ، أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر الى الابناء والاعقاب •

فمضى نظام القبيلة على مسؤولية القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على المحافظة ، وعلى رعاية المأثورات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة التى كانت تسمى أم الشرائع • جعلت الأب مسؤولا عن الاسرة ، وأباحت له التصرف فى أرواحها وأموالها • وقد ناظرتها فى الشرق شريعة حمورابى ، فجعلت من حق الرجل الذى تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم انسانا مستقلا بحياته •

وكانت فى الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسؤولية الفردية ، ولكنها ترجع بها الى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التى لا تعرف لها بداءة منذ أزل الآزال ، فهو مولود بجرائره وآثامه ، وكفارة تلك الجرائر والآثام الى الأجل المقدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده • بل هى سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد » •

(كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده بل يسأل عنها كل ولد من ذريته) •

أما الدعوة الاسلامية فالمسؤولية الفردية فيها شىء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لاحدى هذه المقدمات •

ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسؤولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ، ويعوقها كل نظام مصطلح عليه فى المعاملات والعقوبات •

قامت بها فى أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثأر ، ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس ((**وأن ليس للانسان الا ما سعى**)) أن جيلا لا يؤخذ بجريرة أسلافه ، ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته •

((تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون)) •• ((وكل امرىء بما كسب رهين)) •

فمرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الاسلام وحده ، مبتدئا بغير سابقة ، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات • ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأى على حواشى العقيدة ، ولكنها هى الفتح الأكبر من فتوح الضمير فى جميع مراحل التاريخ • اذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب •

خامسا ــ العـــدل :

ثمرة خامسة من ثمار محمد رســول الله صلى الله عليه وآله وســلم نتحدث عنها فى هذه الفقرة · تشهد أنه رسول الله ، ولولا ذلك ما كانت ولا غيرها هذه الثمرة ، هى العدل الذى ما عرف تاريخ العالم له مثيــلا · وسنختار حوادث من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الذين رباهم · نرى فيها كيف ارتفعت النفس البشرية بمحمد صلى الله عليه وسلم وبهديه الى آفاق هى أعلى ما يطمح اليه الطامحون على مدى الأزمان والاجيال · ونرى بذلك كيف أن القرآن كان واقعا حيا متمثلا بهذا الجيل الفريد ، وكيف أن القرآن يرفع الانسان الى أعلى آفاق الانسانية وغيره يدنيه نحو حضيض الحيوانية ·

* * *

((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا)) ·

((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ويجر منكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب التقوى واتقوا الله ان الله خبير بمـا تعملون)) ·

((واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)) ·

* * *

١ ــ أخرج ابن ماجه عن أبى سعيد (رضى الله عنه) قال : جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عيله حتى قال : أخرج عليك الا قضيتنى فانتهزه أصحابه فقالوا : ويحك تدرى من تكلم ؟ قال : انى أطلب حقى · فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل الى خولة بنت قيس فقال لها : ان كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك فقالت نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله فاقترضه فقضى الاعرابى وأطعمه فقال : أوفيت أوفى الله لك فقال :

(أولئك خيار الناس انه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيهـا حقــه غير متعتع) ·

أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه والحديث رواه البزار عن عائشة مختصرا والطبرانى من حديث ابن مسعود (رضى الله عنه) باســناد جيــد ·

٢ ــ وأخرج البخارى عن عروة أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الفتح ففزع قومها الى أسامة بن زيد (رضى الله

عنه) يستشفعونه • قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

اتكلمنى فى حد من حدود الله ؟

فقال أسامة : استغفر لى يا رسول الله •

فلما كان العشى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

(أما بعد فانما هلك الناس أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) •

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت قالت عائشة (رضى الله عنه) كانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم •

٣ ـ أخرج البيهقى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنهما ـ قام يوم جمعة فقال :

اذا كان بالغداة فأحضروا صدقات الابل نقسم ولا يدخل علينا أحد الا باذن • فقالت امرأة لزوجها :

خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملا ، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر قد دخلا الى الابل فدخل معهما فالتفت أبو بكر فقال :

ما أدخلك علينا ؟

ثم أخذ منه الخطام فضربه ، فلما فرغ أبو بكر من قسم الابل دعا بالرجل فأعطاه الخطام وقال : استقد (أى اقتص منى كما ضربتك ماضربنى) فقال له عمر : والله لا يستقيد لا تجعلها سنة قال أبو بكر فمن لى من الله يوم القيامة فقال عمر : ارضه • فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة (أى كساء له خمل) وخمسة دنانير فأرضاه بها » •

٤ ـ كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد وكل بتقدير حصة المسلمين فى خيبر عبد الله بن رواحة وكان أهلها يهودا وفى ذلك يروى البيهقى عن ابن عمر (رضى الله عنه) حديثا منه :

كان عبد الله بن رواحة (رضى الله عنه) يأتيهم كل عام فيخرصها (أى يخمنها) عليهم ثم يضمنهم الشطر فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال :

يا أعداء الله تطعمونى السحت (أى الحرام) والله لقد جئتكم من عند

أحب الناس الى ولأنتم أبغض الى من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضى اياكم وحبى اياه على أن لا أعدل عليكم فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض » ٠

٥ ــ أخرج ابن عساكر وسعيد بن منصور والبيهقى عن الشعبى قال : كان بين عمر وبين أبى بن كعب ــ رضى الله عنهما ــ شىء فقال عمر :

اجعل بينى وبينك رجلا فجعلا بينهما زيد بن ثابت (رضى الله عنه) فأتياه فقال عمر :

أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم ٠ فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ها هنا يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : هذا أول جور جرت فى حكمك ولكن أجلس مع خصمى فجلسا بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر فقال زيد لابى أعف أمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء » ٠

٦ ــ وأخرج ابن سعد وابن راهويه عن عطاء قال : كان عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم فاذا اجتمعوا قال : « يا أيها الناس انى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم انما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم فمن فعل به غير ذلك فليقم » فما قام أحد الا رجل قام فقال :

يا أمير المؤمنين ان عاملك فلانا ضربنى مائة سوط قال فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه فقام عمرو بن العاص رضى الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين انك ان فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك ٠ فقال : كيف لا أقيد وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه ٠ قال فدعنا لنرضيه ٠

قال : دونكم فأرضوه فافتدى منه بمائتى دينار كل سوط بدينارين ٠

٧ ــ وأخرج ابن عساكر قال :

كتب عمر بن الخطاب الى فيروز الديلمى (رضى الله عنهما) :

« أما بعد فقد بلغنى أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل فاذا أتاك كتابى هذا فأقدم على بركة الله فاغز فى سبيل الله » فقدم فيروز فاستأذن على عمر (رضى الله عنهما) فأذن له فزاحمه فتى من قريش فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشى فدخل القرشى على عمر مستدمى فقال له : عمر من فعل بك ٠

قال : فيروز وهو على الباب ٠
فأذن لفيروز بالدخول فدخل فقال :
ما هذا يا فيروز ؟

قال : يا أمير المؤمنين انا كنا حديثي عهد بملك انك كتبت الى ولم تكتب اليه وأذنت لى بالدخول ولم تأذن اليه فأراد أن يدخل فى اذنى قبلى فكان منى ما قد أخبرك ٠

قال عمر : القصاص ٠

قال فيروز : لابد ؟

قال : لابد ٠

فجثى فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه فقال له عمر (رضى الله عنه) : على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة وهو يقول : قتل الليلة الأسود العنسى الكذاب قتله العبد الصالح فيروز الديلمى أفتراك مقتصا منه بعد أن سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الفتى قد عفوت عنه بعد أن أخبرتنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا فقال فيروز لعمر : أفترى هذا مخرجي مما صنعت اقرارى له وعفوه غير مستكره ؟ قال : نعم قال فيروز : فأشهدك أن سيفى وفرسى وثلاثين ألف من مالى هبة له » ٠

٨ ـ وأخرج الطبرى عن اياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال : أمط عن الطريق فلما كان فى العام المقبل لقينى فأخذ بيدى فانطلق بى الى منزله فأعطانى ست مائة درهم وقال : استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك قلت يا أمير المؤمنين : ما ذكرتها ٠

« قال : مانسيتها » ٠

٩ ـ أخرج المحب الطبرى فى مناقب العشرة قال :

كان لعثمان عبد فقال له انى كنت عركت أذنك فاقتص منى فأخذ بأذنه ثم قال عثمان : أشدد يا حبذا قصاص فى الدنيا لا قصاص فى الآخرة ٠

١٠ ـ وأخرج ابن عساكر عن على بن ربيعة قال : جاء جعدة بن هبيرة الى على (رضى الله عنه) فقال يا أمير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب الى أحدهما من نفسه أو قال :

من أهله وماله والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك فتقضى لهذا على هذا ٠ قال : فلهزه على (رضى الله عنه) وقال : ان هذا شىء لو كان لى فعلت ولكن انما ذا شىء لله » ٠

١١ ـ وأخرج الترمذى والحاكم عن الشعبى قال : خرج على بن أبى طالب الى السوق فاذا هو بنصرانى يبيع أدرعا فعرف على رضى الله عنه الدرع فقال

هذه درعى بينى وبينك قاضى المسلمين وكان قاضى المسلمين شريحا كان على استقضاه فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس قضائه وأجلس عليا فى مجلسه وجلس شريح قدامه الى جنب النصرانى فقال على :
اقض بينى وبينه يا شريح • فقال شريح :

ما تقول يا أمير المؤمنين فقال على هذه درعى وقعت منى منذ زمان • فقال شريح : ما تقول يا نصرانى ؟

فقال النصرانى : ما أكذب أمير المؤمنين الدرع درعى •

فقال شريح : ما أرى أن تخرج من يده فهل من بينة ؟

فقال على : صدق شريح •

فقال النصرانى : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء • أمير المؤمنين يجىء الى قاضيه وقاضيه يقضيه على هى والله يا أمير المؤمنين درعك اتبعتك وقد زالت عن جملك الأورق فأخذتها فانى أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله •

فقال على :

أما اذ أسلمت فهى لك (وحمله على فرس) •

١٢ ـ وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن الحارث بن سويد قال : كان المقداد ابن الاسود (رضى الله عنه) فى سرية فحصرهم فعزم الأمير أن لايجشرأحد دابته (أى لايخرجها للمرعى) فجشر رجل دابته لم تبلغه العزيمة فضربه فرجع الرجل يقول : ما رأيت كما لقيت اليوم قط فمر المقداد فقال : ما شأنك ، فذكر له قصده فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى الى الأمير فقال : أقد من نفسك • فأقاده فعفا الرجل فرجع المقداد وهو يقول : (لأموتن والاسلام عزيز) •

* * *

ان هذا العدل الذى رأينا بعض نماذجه فيما مضى ، انما كان وليد دعوة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم والا فان العرب قبل كان شعارهم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » وان الانسان ليعجب كيف تمثل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العدل بهذه السرعة ، وبهذا العمق ، بحيث انهم غلبوا أمما ، وسيطروا عليها • فساسوها سياسية عادلة لا مثيل لها ، مما أدى بهذه الشعوب أن تدخل فى الاسلام أفواجا بمجرد أن رأوا معاملة هؤلاء الفاتحين الذين لا يغلبون ، العادلين الذين لا يجورون •

وعلى الرغم من تضاؤل جيل الصحابة بالنسبة لرقعة الأرض المفتوحة ، فان قوة الحياة التى صبغتها تربية الرسول صلى الله عليه وسلم فى قلوب الأصحاب ، كانت كافية لان تجعل الامور تمشى فى طريقها المستقيم •

وحتى بعد ذلك ، والى أن يرث الله الارض ومن عليها ، فان قضاة الاسلام المتحققين بالاسلام علما وعملا • هم الذين يضربون أبدا المثل الأعلى فى العدل الربانى العظيم ، الذى يتضاءل بجانبه كل قضـاء •

وأنقل هنا مثلين لقاض من قضاة الدولة العباسية • هو شريك بن عبد الله قاضى الكوفة فى زمن الخليفة المهدى • لنرى فيها نزاهة القضاء الاسلامى وعـدله :

١ ــ قال عمر بن الهياج : كنت من صحابة شريك ؛ فأتيته يوما وهو فى منزله باكرا فخرج الى بفرو ليس تحته قميص عليه كساء ، فقلت له • ألا تقوم الى مجلس الحكم ؟

قال : غسلت ثيابى أمس فلم تجف فأنا أنتظر جفوفها اجلس • فجلست فجعلنا نتذاكر باب (العبد يتزوج بغير اذن مواليه) فقال : ما تحفظ فيه ؟ ما تقول فيه ؟

وكانت الخيرزان قد وجهت رجلا فى الطراز الى الكوفة وجـاء الوالى عيسى بن موسى الأمر بألا يتعرض له ، فكان هذا الرجل حر التصرف لا يعصى له أمر ، ولا سلطان للامير عليه •

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يفضى الى النخع ، ومعه جماعة من أصحابه • عليه جبة خز وطيلسان على برذون فاره ، واذا رجل بين يديه مكتوف فلما مر ببيت القاضى صاح الرجل :

واغوثاه أيا بالله ثم بالقاضى ، ففتح شريك الباب وخرج ، فدعا به فاذا ظهره مكشوف وآثار الضرب فيه ، **فأقعده الى جنبة وقال له** ما شأنك ؟ قال : أنا رجل أطرز وأعمل الوشى ، هذه صناعتى ، وكراء مثلى مئة فى الشهر • وأخذنى هذا منذ أربعة أشهر قهرا ، وحبسنى وألزمنى بالعمل بقوتى ، ولا يعطينى أجرا ولى عيال قد ضاعوا ، فهربت منه فلحقنى فضربنى وكتفنى • فقال شريك للوكيل : قم فاجلس مع خصمك :

قال : أصلحك الله يا أبا عبد الله هذا من خدم السيدة ، وهذا أمرها فاحبسه حتى يشتغل لها • قال : ويلك قم فاجلس معه كما يقال لك ، فقام فجلس معه • قال :

ما هذه الآثار التى تظهر بظهر هذا الرجل ؟ من أثرها به ؟ قال أصلح الله القاضى انما ضربته أسواطا بيدى وهو يستحق أكثر من هذا لأنه لم يشتغل للسيدة • احبسه حتى يشتغل هذا أمر السيدة •

فألقى شريك رداءه وقام فدخل داره ، وأخرج سوطا وضرب بيده الى مجامع ثوب الوكيل وقال للرجل :

اذهب الى أهلك وجعل يضرب الوكيل • فهم أعوانه أن يخلصوه فقال : من ها هنــا من شباب الحى ؟ فجاءه جماعة فقال :

من وقف من هؤلاء فاذهبوا به الى الحبس ، فهربوا جميعا وتركوه ، وما زال يضربه حتى رأى أن ذلك يكفيه ، فتركه فانصرف وهو يهدده بانتقام السيدة ، فألقى السوط من يده ، وعاد الى ما كنا فيه من المذاكرة كأنه لم يصنع شيئا وقال لى :

يا أبا حفص ما تقول فى العبد يتزوج بغير اذن مواليه ؟

وأراد الوكيل أن يركب برذونه فاستعصى عليه ، ولم يكن معه من يمسك له الركاب فجعل يضرب البرذون فصاح به شريك :

أرفق به ويلك ، فانه أطوع لله منك ، فمضى ماشيا فقال لى شريك : خذ فيما كنا فيه قلت : ما لنا ولهذا الآن ؟ قد فعلت والله فعلة ستكون لهــا عاقبة مكروهة • من ضرب وكيل الخيرزان فكأنه ضربها ، ومن ضربها فكأنما ضرب الخليفة • قال : أعز أمر الله يعزك • خذ فيما كنا فيه ، فعدنا نتذاكر فى مسألة العبد يتزوج بغير اذن مواليه ، وذهب الوكيل الى موسى بن عيسى أمير الكوفة فدخل عليه شاكيا باكيا ، وكشف عن ظهره فارتاع الوالى وغضب وقــال :

من فعل بك هــذا ؟

قــال : شريك •

قــال : لا والله ما أتعرض لشريك ، قال سأشكوك الى السيدة •

قــال : لا أتعرض لشريك •

فمضى الوكيل ولم يعــد » •

٢ ــ وكان موسى أمير الكوفة من كبار أمراء البيت العباسى ، وكان له سلطان الأمارة وسلطان النسب ، وكان مع ذلك كله يتجنب أن يكون بينه وبين القاضى خلاف ، ويبتعد عن طريقه ولا يعارضه فى شىء • ولم ينج مع هذا كله من الخلاف ، ولم يختلفا لأن الامير عرض له فى قضائه بين الناس ، ولا لانه دخل مؤيدا لمدع أو مدعى عليه ، بل اختلفا من أجل دعوى أقيمت على الأمير نفسه ، وسبب الدعوى أن الامير أراد أن يوسع داره ، وكان الى جنبها بستان نخل لاخوة ورثوه من أبيهم ، وكانوا خمسة اخوة وأختا واحدة ، فاشترى منهم جميعا الا الأخت ، فانها أبت أن تبيع فزادها فى الثمن وضاعفه لها أضعافا ، وهى تصر على الاباء • فغاظه أن يفســد عليه أمره حمق هذا المرأة ، وأراد أن يضطرها الى البيع وكان بينها وبين حصص اخوتها التى باعوها سياج ، فبعث غلمانه ليلا فأزالوه •

وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اختلط بنخل اخوتها ولم تعد تعرفه

أرضها من الأرض التى باعوها للامير • فأقبلت تبكى وتلطم ، ولا تدرى ماذا تفعل ، وذهبت تكلم الأمير فلم يسمع منها وقال لها :

خذى ثمن الأرض أضعافا •

فقالت : لا أبيعها وانطلقت تتوسل اليه بوجوه البلد ، فما وجدت منهم مسعفا ولا معينا فقال لها واحد من جيرانها :

أنا أدلك على من يخلص لك حقك • فاستبشرت وابتهجت وقالت ومن هو ؟ قال : القاضى • اذهبى اليه فنادى أنا بالله ثم بالقاضى ، وقصى عليه قصتك •

فذهبت تسأل الناس : أين قصر القاضى فيضحكون منها ويقولون لها : ومتى كان للقاضى قصر ؟ إطلبيه فى المسجد أو فى داره ، ودلوها على داره فرأت دارا صغيرة من اللبن والطين ، ما على بابها جرس ، وليس حولها جند • فقالت فى نفسها أين هذا من قصر الأمير وهمت بالرجوع ، ثم أحبت أن تجرب • فقرعت الباب تسأل عنه ، فقالت لها امرأته هو فى مجلس الحكم فى المسجد ، فدخلت الى المسجد تسأل عنه فدلوها عليه ، فصاحت أنا بالله ثم بالقاضى • قال : من ظلمك ؟

قالت : الأمير موسى بن عيسى •

قال : فيم وما دعواك ؟ فحكت له قصتها ، فأعطاها ورقة بعد أن ختمها وقال لها : امض بها الى بابه حتى يحضر معك •

فلما أرادت الدخول على الأمير صاح بها الحاجب : مكانك يا امرأة ماذا تريدين ؟

قالت : الأمير •

فأراد ارجاعها فقالت :

ان معى هذه ، قال وما هذه يا امرأة ، قالت بطاقة القاضى للامير فوثب وقال : تقولين انها بطاقة القاضى هاتيها لأراها ، فلما رآها قال ويحك ولم لم تقولى من أول الأمر ان معك بطاقة القاضى ؟ أدخلى • فلما قرأها الأمير أمر بدعوة صاحب الشرطة فلما جاءه قال :

امض الى شريك فقل له يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك • امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها على ، فحاول صاحب الشرطة أن يعتذر عن هذه المهمة ، فأصر الأمير فأرسل صاحب الشرطة من يأخذ له أغراضه الى السجن ولما أوصل الرسالة أمر به شريك الى السجن لأنه يتدخل فى شأن القضاء ، فأرسل الامير الحاجب فسجنه شريك أيضا ، فأرسل اليه الامير وجوه الكوفة للوساطة فسجنهم جميعا ، فجاء الامير ليلا ففتح باب السجن وأخرجهم جميعا ، ولما بلغ من الغد الأمر الى شريك قال لغلامه :

الحقنى بثقلى الى بغداد ، والله ما طلبنا هذا منهم ، ولكن أكرهونا عليه وقد ضمنوا لنا الاعزاز فيه اذا تقلدناه لهم ، وركب دابته ومضى نحو قنطرة الكوفة فى طريقه الى بغداد ، وأخبر الناس الأمير فلحقه وجعل يمشى معه ويقول له :

يا أبا عبدالله تثبت أنظر دع أعوانى أفتحبس اخوانك • اخوانك تحبسهم قال : نعم • لأنهم مشوا لك فى أمر لم يجز لهم المشى فيه ، ولست براجع حتى يردوا جميعا الى الحبس ، والا مضيت الى أمير المؤمنين فاستعفيته مما قلدنى فأمر موسى بردهم جميعا الى الحبس وهو واقف مكانه ، حتى جاءه السجان فقال قد رجعوا الى الحبس • فقال القاضى لغلامه • خذ بلجامه فقده الى مجلس الحكم ، ونودى على المرأة فجاءت فأجلسها معه ، فقال الأمير : أنا قد حضرت أفلا تطلق من حبستهم ، قال أما الآن فنعم ، وأمر باخراجهم من السجن وقال للامير :

ما تقول يا رجل فيما تدعيه هذه المرأة ؟

قال : صدقت •

قال : أتعيد سياجها وترد ما أخذته منها ؟

قال : نعم •

قال للمرأة : بقى لك شىء تدعينه ؟

قالت : نعم • بيت حارس البستان ومتاعه •

قال : ما تقول •

قال : أرد ذلك كله •

قال : بقى لك شىء •

قالت : لا وجزاك الله خيرا •

قال : قومى • ووثب فأخذ بيد موسى وأجلسه فى مجلسه وقال له : السلام أيها الأمير أتأمر بشىء ؟ فضحك وقال : بأى شىء آمر ، قال : ذاك حق الشرع وهذا حق الأدب •

***

عدل لا مثيل له ، ذلك ثمرة من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم تدل على أنها ثمرة نبى ، اذ ليس لها مصدر سواه تنسب اليه فى أمة لم تهذبها ثقافة سابقة ، ولا تجربة قضائية مستمرة ، ولا رقابة اجتماعية معترف عليها ••

سادسا ــ الطاعة المبصرة :

وثمرة سادسة من ثمار سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، تشهد أنها ثمرة نبى ونبوة ، هى الطاعة المبصرة ، وذلك أن العرب شعب

لم يترب على طاعة أحد ، ولم يترب على نظام ولا انضباط ، وليس لديه مفهوم عن الولاء لحكومة ما ، أو الخضوع لها ، وأما غير العرب فالأمر عندهم مختلف ، طاعة عمياء لملوكهم ، ومرؤوسيهم فى كل شىء • اذا أمروا بالشىء كان خيرا ، واذا نهوا عنه نفسه كان شرا ، لا يقال لهم لا ، ولا يحاسبون ولا يراقبون •

وحدث ذلك الحدث الضخم ، أن الأمة التى لا تعرف النظام ، أصبحت منظمة ، والتى لا تعرف الطاعة أصبحت مطيعة ، ولكنها طاعة من نوع جديد فريد ، طاعة بالحق لا بالباطل ، بالعدل لا بالظلم لمن يستحق الطاعة لا لمن لا يستحقها ، فكان ذلك فتحا جديدا فى تاريخ الوعى عند الشعوب ، لدرجة أن العربى الذى كان يتعصب لقريبه وينصره وان كان على الباطل ، ولا يطيع فيه أحدا أبدا صار على ابن عمه اذا كان على الباطل ، ويطيع فيه أبعد الناس نسبا عنه فى الحق ، والذى كان أبعد الناس عن الانضباط ، صار أكثر الناس انضباطا ، ومن قرأ تاريخ العرب فى الجاهلية ، عرف الفارق الكبير بين ذلك الواقع وواقعهم بعد • وهذه أمثلة من واقعهم بعد تربية الرسول صلى الله عليه وسلم اياهم •

(أ) روى ابن جرير بسند عن ابن زيد قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبى : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبى أنت وأمى ؟ قال يقول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل فقال : فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الاعز وهو الاذل • أما والله لقد قدمت المدينة يارسول الله وان أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر منى ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله ابن عبد الله بن أبى على بابها بالسيف لأبيه ثم قال :

« أنت القائل لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ، أما والله لتعرفن العزة لك ، أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا الا باذن من الله ورسوله » فقال :

يا للخزرج ، ابنى يمنعنى بيتى ! •

فقال : والله لا يأويه أبدا الا باذن منه فاجتمع اليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخله الا باذن من الله ورسوله فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : اذهبوا اليه فقولوا له : خله وسكنه فأتوه فقال : أما اذا جاء أمر النبى صلى الله عليه وسلم فنعم •

(ب) ومن كلام لسعد بن معاذ يوم بدر يخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فأظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ،

وما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك » .

(جـ) ويروى كعب بن مالك قصته مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فيقول فيها :

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال :

فاجتنبنا الناس أو قال : تغيروا لنا حتى تنكرت لى نفس الأرض فما هى الارض التى أعرف الى أن قال : حتى اذا طال على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس الى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت له :

يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار » .

ويقول : بينما أنا أمشى فى سوق المدينة اذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول :

« من يدلنى على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى جاءنى ، فدفع الى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا فقرأته فاذا فيه : أما بعد فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا أواسك . فقلت حين قرأتها وهذه من البلاء فتيممت بها التنور ، فسجرتها حتى نزلت توبته وكان ما كان .

(د) وللعرب ولع فى الخمر تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء ، وشغلت جانبا كبيرا من شعرهم وتاريخهم وأدبهم ، وكثرت أسماؤها وصفاتها فى لغتهم ، وكثر فيها التدقيق والتفضيل كثرة تدعو الى العجب ، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائما يرفرف عليها علم يسمى غاية ، وشاعت تجارتها عندهم حتى أضبحت كلمة التجارة مرادفة لكلمة بيع الخمر ، ومع هذا كله فما يكاد تحريم الخمر ينزل حتى انتهى أمر الخمر من أرض العرب . روى أبو بريده عن أبيه قال :

بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة ، اذ قمت حتى آتى رسول الله فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر : ((**يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان**)) .. الى قوله : ((**فهل انتم منتهون**)) فجئت الى أصحابى فقرأتها عليهم الى قوله : ((**فهل أنتم منتهون**)) .. قال : وبعض القوم شربته فى يده شرب بعضا وبقى بعض فى

الاناء فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا فى باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا انتهينا •

(هـ) ولقد تأصل فقه الطاعة فى المعروف عند العرب وغيرهم من المسلمين حتى وصل الى عجائز النـــاس :

« أخرج مالك عن ابن أبى مليكة قال : ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بامرأة مجذومة وهى تطوف بالبيت فقال لها : يا أمة الله لا تؤذى الناس • لو جلست فى بيتك • فجلست • فمر بها رجل بعد ذلك فقال : ان الذى كان نهاك قد مات فارجعى • قالت : ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا » •

(و) وتأصل فقه الطاعة بالمعروف فى أنفسهم ظاهرا وباطنا فى الغيبة والحضور فى المنشط والمكره :

لمـا عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد غضب ناس ، وممن غضب علقمة بن علاثة وهو من أمراء العرب فانظر ماذا كان جوابه فى هذه الحادثة اللطيفــة :

« لقى عمر رضى الله عنه علقمة بن علاثة جوف الليل وكان عمر يشبه بخالد بن الوليد رضى الله عنه • فقال له علقمة : يا خالد عزلك هذا الرجل لقد أبى الا شحا لقد جئت اليه وابن عم لى نسأله شيئا فأما اذا فعل فلن أسأله شيئا • فقال له عمر : هيه فما عندك ! فقال : هم قوم لهم علينا حق فنؤدى لهم حقهم وأجرنا على الله • فلما أصبحوا قال عمر لخالد : ماذا قال لك علقمة منذ الليلة ؟ قال : والله ما قال لى شيئا قال : وتحلف أيضا فجعل علقمة يقول لخالد : مه يا خالد فقال عمر كلاهما قد صدق وأجاز علقمة وقضى له حاجته •

(ز) ولكن طاعتهم طاعة ضمن حدود المعروف أما أن تكون على غير ذلك فلا :

أخرج الشيخان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا • قال : فأغضبوه فى شىء فقال :

اجمعوا لى حطبا فجمعوا فقال : أوقدوا نارا فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا : بلى قال : فادخلوها • قال فنظر بعضهم الى بعض وقالوا : انما فررنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار • قال : فسكن غضبه وطفئت النـــار فلما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها انما الطاعة فى المعروف » •

وكان الصحابة يتذاكرون هذا الأصل ويتواصون به حتى لا ينحرفوا بانحراف سلطان أو حكم :

لما ولى زياد الحكم بن عمر الغفارى خراسان أرسل عمران بن الحصين رضى الله عنهما يطلبه حتى اذا لقيه قال : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لأحد فى معصية الله تبارك وتعالى ؟ قال نعم . فقال عمران : الحمد لله أو الله أكبر .

(ج) وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على سرية ومعه فى السرية عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال : فخرجوا حتى أتوا قريبا من القوم الذين يريدون أن يصبحوهم نزلوا فى بعض الليل قال :

وجاء القوم النذير فهربوا حيث بلغوا ، فأقام رجل كان قد أسلم هو وأهل بيته فأمر أهله فتحملوا وقال قفوا حتى آتيكم ، ثم جاء حتى دخل على عمار رضى الله عنه قال :

يا أبا اليقظان انى قد أسلمت وأهل بيتى فهل ذلك نافعى ان أنا أقسمت . فان قومى قد هربوا حيث سمعوا بكم ، قال فقال له عمار : فأقم فأنت آمن .

فانصرف الرجل هو وأهله ، قال : فصبح خالد القوم فوجدهم قد ذهبوا فأخذ الرجل وأهله فقال له عمار : انه لا سبيل لك على الرجل قد أسلم .

قال : وما أنت وذاك ؟ أتجير علي وأنا الأمير ؟

قال : نعم أجير عليك وأنت الأمير . ان الرجل قد آمن ولو شاء لذهب كما ذهب أصحابه ، فأمرته بالمقام لاسلامه . فتنازعا فى ذلك حتى تشاتما فلما قدما المدينة اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر عمار الرجل وما صنع فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أمان عمار ونهى يومئذ أن يجير أحد على الأمير فتشاتما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال خالد :

يا رسول الله : أيشتمنى هذا العبد عندك أما والله لولاك ما شتمنى فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم :

كف يا خالد عن عمار فانه من يبغض عمار يبغضه الله عز وجل ومن يلعن عمارا يلعنه الله عز وجل . ثم قام عمار واتبعه خالد بن الوليد حتى أخذ بثوبه فلم يزل يترضاه حتى رضى عنه ونزلت هذه الآية :

((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم

ـ أمراء السرايا ـ **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول))** • فيكون الله ورسوله هو الذى يحكم فيه •

((ذلك خير وأحسن تأويلا)) •   (خير عاقبة)

***

والمسألة فى هذا الموضوع كما يلى :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم علم الانسان أن الله وحده هو الذى يستحق الطاعة وحتى الرسول صلى الله عليه وسلم انما يطاع لله وغير رسول الله انما يطاع بطاعة الله **((من يطع الرسول فقد اطاع الله))** • **((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم))** أى من المسلمين ، اما غير المسلم فلا طاعة له ، والمسلم طاعته فى حدود كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لذلك ختمت الآية : **((فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر))** وعلى هذا فمن أمر بمعصية الله فلا طاعة له ، وبهذا تماسكت شخصية الانسان تماسكا لا مثيل له ، فصار المسلم يقول : لا ، اذا كان ينبغى أن تقال مهما كان وراءها ، لا يبالى ان كان الناس كلهم عليه فى الباطل ، لا يساير الناس ولا يداريهم على حساب الحق • أما فى الحق فهو أكثر الناس طاعة وانضباطا اذ فى هذه الحالة جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله طاعة الأمير فرضا ، وفى الباطل معصيته فريضة : قال أبو جعفر المنصور الخليفة لطاووس : ناولنى الدواة • فرفض • قال : أخشى أن تكتب فيها معصية فأكون شريكك فيها • فما أبلغ هذا فى ثمار النبوة وما أدله عليها ألا يطيع الانسان غير الله •

سابعا ـ أجيال خيرة جريئة بالحق :

وثمرة أخرى من ثمار محمد صلى الله عليه وسلم تشهد أنه رسول الله :

ما هو الخير وما هو الشر ؟ وما هو المعروف وما هو المنكر ؟ واذا عرفنا الخير والشر والمعروف والمنكر ، فما هى أجزاء هذا وهذا ، وأفراد هذا وهذا ؟ واذا عرفنا الجميع فكيف نقتلع جذور الشر ونقضى عليه ، ونمكن للخير وندعمه ؟ وكيف نوجد بشرا ليس للشر فى قلوبهم نصيب ، وقد نذروا للخير أنفسهم ، همهم الأعلى اقامة بنيانه وارساء حقائقه ؟ هذه قضايا يعجز عن كل واحد منها الكثير ، ولا يجمع بينها أحد ولكن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بفترة بسيطة من الزمن عرف الانسان بالخير كله والشر كله وربى جيلا يعشق الخير ، ويبغض الشر ويتفانى من أجل أن تقوم الحياة البشرية على الخير المشرق المنير • فخرجت نماذج ما عرف العالم بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام أقوى منها ، ولا أصلب فى هذا الأمر •

***

اقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم واقرأ القرآن والحديث فانك لا تجد خيرا الا ذكر ، ولا شرا الا ذكر ، ولا تجد شيئا قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه خير تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك الا اذا جانبت العقل ولم تخضع لحجة ، ولا تجد شيئا قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه شر تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك ، الا اذا كنت متبعا للشهوات مبالا مع الهوى ((**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن**)) ومهما حاولت أن تجد شيئا من الشر لم ينه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فانك لا تجد ، ومهما حاولت أن تجد شيئا من الخير لم يأمر به فانك لا تجد ، والشيء المهم بعد ذلك أن هذا الخير تمثل بمجتمع بشرى لم يبق فيه للشر ظهور ، وكل ذلك ببركات رسول الله صلى الله عليه وسلم وتربيته • وسنضرب هنا أمثلة من حياة المسلمين يتبين فيها حربهم العنيفة للمنكر وحرصهم على المعروف وأمرهم به :

ولن نختار هذه الأمثلة من حياة الصحابة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فانه هو الذى كان يتولى الامر ولا فى زمن الخلفاء الراشدين لشهرة ذلك عن عصرهم • بل سنقدم أمثلة عما حدث بعد يرى منها كيف أن الماء الذى فجره محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقى أبدا صافيا زلالا خيرا يحيى القلوب بالخير ويميت بها الشر :

(أ) أخرج الطبرانى وأبو يعلى عن أبى قنبل عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أنه صعد المنبر يوم الغمامة فقال عند خطبته :

انما المال مالنا والفيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه ، فلم يجبه أحد ، فلما كان فى الجمعة الثانية قال مثل ذلك فلم يجبه أحد ، فلما كان فى الجمعة الثالثة قال مثل مقالته فقام اليه رجل ممن حضر المسجد فقال :

كلا •• انما المال مالنا والفيء فيئنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه الى الله بأسيافنا •

فنزل معاوية رضى الله عنه فأرسل الى الرجل فأدخله فقال القوم : هلك الرجل ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير فقال معاوية للناس : ان هذا الرجل أحيانى أحياه الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

سيكون بعدى أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون فى النار كما تتقاحم القردة •

وانى تكلمت أول جمعة فلم يرد على أحد فخشيت أن أكون منهم

ثم تكلمت فى الجمعة الثانية فلم يرد أحد على قلت فى نفسى انى من القوم ، ثم تكلمت فى الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد علي فأحيانى أحياه الله ·

(قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو يعلى ورجاله ثقات) ·

(ب) أخرج مسلم عن الحسن البصرى أن عائذ بن عمرو رضى الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد فقال : أى بنى ·· انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ان شر الرعاء الحطمة فاياك أن تكون منهم ، قال له : اجلس فانما أنت من نخالة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قال وهل كانت لهم نخالة ! انما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم » ·

(ج) روى الخمسة الا البخارى عن طارق بن شهاب (أن أول من بدأ بخطبة العيد قبل الصلاة مروان فقام اليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة) وفى رواية الترمذى (يا مروان خالفت السنة) زاد أبو داود (أخرجت المنبر فى يوم عيد ولم يكن يخرج فيه وبدأت بالخطبة قبل الصلاة) قال : قد ترك ما هنالك · قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وليس عند النسائى الا الأخير أى المسند ·

(د) وفى الاحياء عن الشافعى قال : حدثنى محمد بن على قال : انى لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وفيه ابن أبى ذؤيب وكان والى المدينة الحسن بن زيد قال : أتى الغفاريون فشكوا الى أبى جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد قال الحسن : يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبى ذؤيب · قال : فسأله فقال : ما تقول فيهم يا ابن أبى ذؤيب ؟ قال : أشهد أنهم أهل تحطم فى أعراض الناس كثيروا الأذى لهم · قال أبو جعفر : قد سمعتم · فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد : قال أشهد عليه : انه يحكم بغير الحق ، ويتبع هواه ، فقالوا : قد سمعت ما قال فيه ابن أبى ذؤيب وهو الشيخ الصالح ؟ قال : يا أمير المؤمنين اسأله عن نفسك فقال : ما تقول فى ؟ قال : أسألك بالله الا أخبرتنى قال : تسألنى بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرنى ، قال :

أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته فى غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش ·

قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده فى قفا ابن أبى ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أنى جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك ، قال : فقال ابن أبى ذؤيب : يا أمير المؤمنين قد ولى أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية ، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم ، قال : فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال : والله لولا أعلم أنك صادق لقتلتك • فقال ابن أبى ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين انى لأنصح لك من ابنك المهدى •

(هـ) وصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالملك أيوب : يا أيوب ما حجتك عند الله ان قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ثم تبيح الخمور • قال : وهل جرى ذلك ؟ قال : نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ، قال هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبى • قال : أنت ممن يقولون : ((**انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون**)) فأمر الملك برفعها •

وسأل الشيخ تلميذه للباجى قال : يا سيدى أما خفته ؟ قال الشيخ : يا بنى استحضرت هيبة الله فصار قدامى مثل القط •

(و) وللنووى مواقف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ننقل بعضها :

لما ورد دمشق من مصر السلطان المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد قتال التتار واجلائهم عن البلاد زعم له وكيل بيت المال أن كثيرا من بساتين الشام من أملاك الدولة فأمر الملك بالحوطة عليها أى بحجزها وتكليف واضعى اليد على شىء منها اثبات ملكيته وابراز وثائقه فلجأوا الى الشيخ النووى فى دار الحديث فكتب الى الملك هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين •• قال الله تعالى : ((**وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين**)) وقال تعالى : ((**واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**)) وقال تعالى : ((**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**))

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره ، ونصيحة عامة المسلمين ، ففى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الدين النصيحة لله ، وكتابه ، وأئمة المسلمين وعامتهم) •

ومن نصيحة السلطان ــ وفقه الله لطاعته وأولاه بكرامته ، أن تنهى اليه الأحكام اذا جرت على خلاف قواعد الاسلام • فقد أوجب الله تعالى الشفقة على الرعية ، والاهتمام بالضعفة وازالة الضرر عنهم •

قال الله تعالى :

((**واخفض جناحك للمؤمنين**)) •

وفى الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انما تنصرون وترزقون بضعفائكم) ٠

قال صلى الله عليه وسلم : (من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ٠ والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : (اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم مارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : (ان المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا) ٠

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان ، أعز الله أنصاره ٠ فقد أقامه لنصرة الدين ، والذب عن المسلمين ، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف وفتح عليه الفتوحات المشهورة ، فى المدة اليسيرة ، وأوقع الرعب منه فى أعداء الدين وسائر الماردين ٠ ومهد له البلاد والعباد ، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد ، وأمده بالاعانة واللطف والسعادة ، فلله الحمد على هذه النعم الظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين ، وزيادتها فى خير وعافية آمين ٠

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين ٠

فقال تعـالى :

((لئن شكرتم لأزيدنكم)) ٠

وقد لحق المسلمون بسبب هذه الحوطة على أملاكهم ، أنواع من الضرر ، ولا يمكن التعبير عنها ، وطلب منهم اثبات لا يلزمهم ، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين ٠ بل من فى يده شىء فهو ملكه ، لا يحل الاعتراض عليه ، ولا يكلف باثباته ٠ وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصى نوابه به ، فهو أولى من عمل به ٠

والمسؤول اطلاق الناس من هذه الحوطة ، والافراج عن جميعهم ، فأطلق أطلقك الله من كل مكروه ، فهم ضعفة ، ومنهم الأيتام والارامل والمساكين والضعفة ، والصالحون وبهم تنصر وتعان وترزق ، وهم سكان الشام المبارك ، جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم ، فلهم حرمات من جهات ، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم ، وأطلقهم فى الحال ، ولم يؤخرهم ، ولكن لا تنهى اليـه الأمور على وجهها ، فالله أغث المسلمين يغثك الله ، وارفق بهم يرفق الله بك ، وعجـل لهم الافراج قبل وقوع الأمطار ، وتلف غلاتهم فان أكثرهم ورثوا هذه الاملاك

من أسلافهم ، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء (أى اسناد تمليك) وقد نهبت كتبهم ، واذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن رفق بأمته ، ويظهره على أعدائه ٠

فقد قال الله تعـالى :

((ان تنصروا الله ينصركم)) ٠

وتتوفر له من رعيته الدعوات ، وتظهر فى مملكته البركات ، ويبارك له فى جميع ما يقصده من الخيرات ٠ وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة) ٠

فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التى يذكر بهـا الى يوم القيامة ، ويحميه من السنن السيئة ، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول والسلام عليكم ورحمـة الله وبركاته ٠ والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه)) ٠

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وخشى اذا لان له أن يعيـد معـه فى الشام سيرة العز بن عبد السلام فى مصر ، فأجابه بالرد الشديد ، وأراد أن يعجل عليه بالعقوبة ، فأمر بقطع رواتبه وعزله من مناصبه ٠

فقالوا له :

انه ليس للشيخ راتب ، وليس له منصب ٠

ولمـا رأى الشيخ أن الكتاب لم يفد ، وأن هذا اللين منه لم يأت بنفـع ، ذهب اليه بنفسه ، وقابله وكلمه كلاما غليظا ٠ وأراد السلطان البطش به ، فصرف الله قلبه عن ذلك وحمى الشيخ منه ، وأبطل الأمر بـ (الحـوطة) وخلص الناس من شرها ٠

ثم جاءت قضية أخرى :

أراد السلطان أن يجهز جيشا ، ففرض على الناس ضريبة جديدة ، فعاذوا منه بالشيخ واجتمع اليه علماء دمشق ووكلوه أن يكتب ما يريد وهم يمضـون معه الكتاب ، وكانت الوحشة لا تزال قائمة بينه وبين الملك ، لمـا كان منه فى (قضية الحوطة) ٠ فلم يكتب اليه رأسا بل كتب الى الأمير بدر الدين الخازن ليوصل كتابه اليه وكان بدر الدين نائب الملكة وأتابك الجيوش (أى القـائد العام) وكان موصوفا بكثرة المودة ومحبة العلماء والصلحاء وحسن السيرة ٠

قال تلميذه السخاوى :

فمما كتبه وأرسل به ورقة الى الظاهر تتضمن وجوب العدل فى الرعية ، وازالة المكوس عنهم ، ووضع العلماء والشيوخ خطوطهم معه ٠

فقرأ الأمير الكتاب ورفع الورقة الى السلطان ، فاشتد غضبه ، واحتج بأنه يريد هذا المال للجهاد وهم يعارضونه وكان عليهم أن يؤيدوه وأنهم ينكرون عليه ، ولم يكونوا ينكرون على الكفار لما كانوا يحكمون البلاد ، قبل أن يخرجهم منها بجهاده الطويل ، ومثابرته عليه • وتوعد العلماء ، فتقاعسوا ، ولكن النووى لم يبال ، وكتب اليه فى الجواب هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، من عبدالله يحيى النووى ينهى : ان خدام الشرع ، كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره فجاء الجواب بالانكار والتوبيخ والتهديد ، وفهمنا من أن الجهاد ذكر فى الجواب على خلاف حكم الشرع ، وقد أوجب الله ايضاح الأحكام عند الحاجة اليها ، فقال تعالى :

((واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه))•

((ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم)) •

وذكر فى الجواب أن الجهاد ليس مختصا بالأجناد ، وهذا أمر لم ندعه ولكن الجهاد فرض كفاية ، فاذا قرر السلطان له أجنادا مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع ، تفرغ باقى الرعية لصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزراعة والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم اليه ، فجهاد الاجناد مقابل بالاخباز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شىء ما دام فى بيت المال شىء ، من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك •

وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا وبيت المال بحمد الله معمور ، زاده الله عمارة وسعة وخيرا وبركة ، فى حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين **((وما النصر الا من عند الله))** وانما يستعان فى الجهاد وغيره بالافتقار الى الله تعالى ، واتباع آثار النبى صلى الله عليه وسلم وملازمة أحكام الشرع وجميع ما كتبناه ، أولا وثانيا هو النصيحة التى نعتقدها وندين لله بها ، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه ، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية، وليس فيها ما يلام عليه ، ولم نكتب هذا للسلطان الا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرفق بالرعية ، والشفقة عليهم واكرامه لآثار النبى صلى الله عليه وسلم • وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذى كتبناه ، وأما ما ذكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا فى البلاد ، فكيف تقاس ملوك الاسلام وأهل الايمان والقرآن ،

بطغاة الكفار ، وبأى شىء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئا من ديننا ؟ وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عذل السلطان وحلمه وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام ؟ وأما أنا فى نفسى فلا يضرنى التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان فانى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله ((**انما هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هى دار القرار**)) ((**وأفوض أمرى الى الله ، ان الله بصير بالعباد**)) وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وأن لا نخاف فى الله لومة لائم ، نحن نحب للسلطان معالى الامور وأكمل الاحوال وما ينفعه فى آخرته ودنياه ويكون سببا فى دوام الخيرات له ويبقى ذكره له على مر الايام يخلد فى سنته الحسنة ويجد نفعه ((**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا**)) • وأما ما ذكر فى تمهيد سلطان البلاد وادامته الجهاد وفتح الحصون وقهر الاعداء ، فهو بحمد الله من الامور الشائعة التى اشترك فى العلم بها الخاصة والعامة ، وسارت فى أقطار الارض ولله الحمد •

وثواب ذلك مدخر للسلطان الى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، ولا حجة لنا عند الله اذا تركنا النصيحة الواجبة علينا •

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

وبعد اذا لم يكن تمييز الخير من الشر والمعروف من المنكر وتبيان كل ، وتربية الناس على محبة الخير والمعروف ، وبغض الشر والمنكر ، اذا لم يكن هذا من ثمار النبوة فما هى ثمار النبوة ؟

لقد بين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس الخير والشر •

ودل الناس على أن يفعلوا الخير وحده ، وعلى أن يحاربوا الشر أنى كان• فكانوا مثلا عليا لا مثيل لها فى ذلك ، استحقوا معها أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ((**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**)) •

نعم انها ثمار النبوة ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، فلم تكن الجزيرة العربية مرشحة لشىء من هذا ولا غيرها لولا وحى الله •

ثامنا ــ دولة هداية لا جباية :

وثمرة ثامنـــة :

أخرج ابن سعد عن سفيان بن أبى العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : الله ما أدرى خليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت ملكا فهذا أمرعظيم • قال قائل يا أمير المؤمنين انبينهما فرقا فان الخليفة لا يأخذ الا حقا ولا يضعه

الا فى حق ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا فسكت عمر •

وقال عمر لسلمان : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : ان أنت جبيت من أرض المسلمين (أى أرض الدولة الاسلامية وان كانت لذمى غير مسلم) درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حق ، فأنت ملك غير خليفة) •

هذه هى الثمرة المقصودة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شرع بأمر من الله للناس فى شأن المال شريعة لا يمكن أن يوجد أعدل منها ، فلا يؤخذ من أحد مال الا بعدل ، ولا يتملك انسان ملكا الا بحق وعدل ، وقبل ذلك لم تكن فى الأرض نظرية للتملك صالحة ولا عادلة ، ولا نظرية للجباية صالحة أو عادلة ، وكان شعار الحكومات قبل الاسلام : الجباية ، فأصبح شعار حكومة الاسلام : الهداية •

* * *

يقول الدكتور الفرد ج• ميكر عن الحكم الرومانى فى مصر :

ان حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها الا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة ، أو تهذيب نفوسهم ، أو اصلاح أمور أرزاقهم فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد الا على القوة ولا يحس بشىء من العواطف على الشعب المحكوم •

ويقول مؤلف (ايران فى عهد الساسانين) عن الوضع فى ايران :

« كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة ، واغتصاب الأموال فى تقدير الضرائب وجباية الاموال •

« ان ما قام به كسرى أنوشروان من اصلاح النظام المالى كان فى مصلحة مالية المملكة أكثر منه فى مصلحة الرعية • فلم تزل العامة يعيشون فى الجهل والضنك كما كانوا فى السابق •

« كان الفلاحون فى شقاء وبؤس عظيم ، وكانوا مرتبطين بأراضيهم ، وكانوا يستخدمون مجانا ، ويكلفون كل عمل • يقول المؤرخ : اميان مارسيلينوس : ان هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ، ولم يكونوا ينالون اعانة أو تشجيعا من راتب أو أجرة وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضى كعلاقة العبيد بالسادة » •

* * *

أين هذا مما حدث ببركات رسول الله صلى الله عليه وسلم مما نرى نماذجه هنا :

(أ) أوصى عمر بن الخطاب وصية لمن يلي أمر المسلمين بعده منها :

« وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فانهم ردء الاسلام ، وجباة الاموال ، وغيظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم » • « وأوصيه بذمة الله وبذمة رسوله ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم الا طاقتهم » •

(ب) وأخرج ابن زنجويه عن رجل من ثقيف قال : استعملنى على بن أبى طالب رضى الله عنه على عكبرا فقال لى وأهل الأرض عندى : « ان أهل السواد قوم خدع فلا يخدعنك فاستوف ما عليهم » ثم قال لى : رح الى فلما رجعت اليه قال لى :

انما قلت لك الذى قلت لأسمعهم ، لا تضربن رجلا منهم بسوط فى طلب درهم ، ولا تقمه قائما ، ولا تأخذن منهم شاة ، ولا بقرة انما أمرنا أن نأخذ منهم العفو أتدرى ما العفو ؟ الطاقة •

وفى رواية البيهقى « ولا تبيعن لهم رزقا ولا كسوة شتاء ولا صيفا ولا دابة يعتملون عليها ولا تقم رجلا قائما فى طلب درهم قال :

قلت : يا أمير المؤمنين اذن أرجع اليك كما ذهبت من عندك •

قال : وان رجعت كما ذهبت ويحك انما أمرنا أن نأخذ منهم العفو (يعنى الفضل) •

(ج) وأخرج أبو عبيد عن يزيد بن أبى مالك قال : كان المسلمون بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا فى عنبه فخرج عمر رضى الله عنه حتى لقى رجلا من أصحابه يحمل ترسا عليه عنب فقال عمر : وأنت أيضا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : أصابتنا مجاعة فانصرف عمر (رضى الله عنه) وأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه •

(د) وأخرج الحاكم عن ابراهيم بن عطاء عن أبيه أن زيادا أو ابن زياد بعث عمران بن حصين (رضى الله عنه) ساعيا فجاء ولم يرجع معه درهما فقال له : أين المال ؟ قال : وللمال أرسلتنى ؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناها فى الموضع الذى كنا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(هـ) وكتب عمر بن عبد العزيز الى عروة بن محمد :

« أما بعد فانك كتبت الى تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال ان نخصبوا أو أجدبوا ، أو حيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم

سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين اذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل الى ما تعرفه من الحق ثم ائتنف (أى خذ) الحق فاعمل به بالغا بى وبك ما بلغ وان أحاط بمهج أنفسنا وان لم ترفع من جميع اليمن الا حفنة من كتم فقد علم الله أنى بها مسرور ، اذا كانت موافقة الحق والسلام » ٠

(و) وأخرج ابن عساكر والواقدى عن عبد الله بن أبى حدود الأسلمى رضى الله عنهما قال : لما قدمنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية اذا هو بشيخ من أهل الذمة يستطعم فسأل عنه فقال : هذا رجل من أهل الذمة كبر وضعف فوضع عنه عمر (رضى الله عنه) الجزية التى فى رقبته وقال : كلفتموه الجزية حتى اذا ضعف تركتموه يستطعم ؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكان له عيال » ٠

وفى رواية أبى عبيد وابن زنجويه والعقيلى عن عمر (رضى الله عنه) أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد : ما أنصفناك اذا كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ثم ضيعناك فى كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه » ٠

(ز) « وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أراد عمر رضى الله عنه أن يأخذ دار العباس بن عبد المطلب (رضى الله عنه) فيزيدها فى المسجد فأبى العباس أن يعطيها اياه فقال عمر : لآخذنها قال : فاجعل بينى وبينك أبى بن كعب رضى الله عنه قال : نعم فأتيا أبيا فذكرا له فقال أبى : أوحى الله الى سليمان بن داوود (عليهما الصلاة والسلام) أن يبنى بيت المقدس وكانت أرضا لرجل فاشترى منه الأرض فلما أعطاه الثمن قال : الذى أعطيتنى خير أم الذى أخذت منى ؟ قال : بل الذى أخذت منك قال : فانى لا أجيز ثم اشتراها منه بشىء أكثر من ذلك فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاثا فاشترط عليه سليمان عليه الصلاة والسلام أنى أبتاعها منك على حكمك فلا تسألنى أيهما خير ؟ قال فاشتراها منه بحكمه فاحتكم اثنى عشر ألف قنطار ذهبا فتعاظم ذلك سليمان أن يعطيه فأوحى الله اليه (ان كنت تعطيه من شىء هو لك فأنت أعلم وان كنت تعطيه من رزقنا فاعطه حتى يرضى) ففعل ٠ قال : وأنا أرى أن عباسا أحق بداره حتى يرضى قال العباس فاذ قضيت لى فانى أجعلها صدقة للمسلمين » ٠

وفى رواية فقال أبى لعمر : ما أرى أن تخرجه من داره حتى ترضيه فقال له عمر : أرأيت قضاءك هذا فى كتاب الله وجدته أم سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبى : بل سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر وما ذاك ؟ فقال انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان سليمان بن داوود صلى الله عليه وسلم لما بنى بيت المقدس جعل كلما بنى

حائطا أصبح منهدما فأوحى الله اليه أن لا تبنى فى حق رجل حتى ترضيه فتركه عمر فوسعها العباس رضى الله عنهما ـ بعد ذلك فى المسجد » ٠

وأخرج ابن جرير الطبرى عن زياد بن جزء الزبيدى فقال افتتحنا الاسكندرية فى خلافة عمر رضى الله عنه فذكر الحديث وفيه ثم وقفنا ببلهيب وأقمنا ننتظر كتاب عمر حتى جاءنا فقرأه علينا عمرو رضى الله عنه وفيه :

« أما بعد فانه جاءنى كتابك تذكر أن صاحب الاسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيب من سبايا أرضه ولعمرى لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب الى من فىء يقسم ثم كأن لم يكن فاعرض على صاحب الاسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من فى أيديكم من سبيهم بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ماعليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فانا لا نقدر على ردهم ، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفى له به ٠

قال : فبعث عمرو الى صاحب الاسكندرية يعلمه الذى كتب به أمير المؤمنين قال : فقال : قد فعلت قال فجمعنا ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الاسلام والنصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية قال : ثم نحوزه الينا واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال القاسم : وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد قال : فوقفناه فعرضنا عليه الاسلام والنصرانية وأبوه وأمه واخوته فى النصارى فاختار الاسلام فحزناه الينا ووثب عليه أبوه وأمه واخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريفا كما ترى ٠ فذكر الحديث ٠

***

ان نقل الدولة من دولة جباية ظالمة ، الى دولة هداية كاملة ، مع مرافقة نظرية فى التملك والحقوق فى الملك لا مثيل لها فى تاريخ العالم ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا لم يكن رسم طريق التملك العادل الذى ليس فيه ظلم ولا حيف ولا حرام ، والحقوق التى فى هذا الملك للفقراء والمساكين والغارمين ٠٠ بحيث تقوم قضايا المال على العدل الذى لا باطل معه ٠ اذا لم يكن هذا من ثمار النبوة ، فما هى ثمار النبوة ؟ ان محمدا رسول الله لا شك فى هذا ولا ريب ٠

تاسعا وعاشرا ـ جهاد وحرية :

وثمرة تاسعة :

((لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)) ٠

اذن هى الحرية الدينية لغير المسلمين فى ظل دولة الاسلام ٠

فقد أعطى الاسلام الحرية للناس فى عقائدهم اذا خضعوا لحكم الاسلام ما لم يكن وثنيا من جزيرة العرب ، فهذا لا حرية له ، وما عدا هذا فما عرف الناس مكانا يأمنون فيه على دينهم غير أرض الاسلام ٠ والدليل على ذلك واضح ، هو أنه حيث فتح المسلمون أرضا فيها دين وجدت بقايا أهل هـذا الدين موجودين ، ولو أن المسلمين كانوا يكرهون رعاياهم على اعتناق دينهم كما فعل غيرهم لما وجدت هذه الظاهرة ٠ انك لا تجد مثلا مسلما واحـدا فى اسبانيا مع أن المسلمين فيها كانوا ثلاثين مليونا ، بينما تجد نصـارى فى بلاد الشام حتى الآن من بقايا النصارى الأولين ، وتجد يهودا ، ولا يزال غير المسلمين هم الاكثرية فى الهند مع أن المسلمين حكموها ثمان مائة سنة ، وهكذا تتكرر الظاهرة فى كل مكان ٠

لقد حاول مرة السلطان سليم الأول أن يأخذ أولاد النصارى ويربيهم على الاسلام ، فوقف أمامه علماء المسلمين معارضين ، وأعلنوا أن هذا لا يجـوز فعدل عن فكرته ٠

ومن قرأ معاهدات المسلمين مع غيرهم من أبناء الأرض المفتوحة ، وجـد سعة صدر المسلمين وتسامحهم ، وعلم أن دعوة الاسلام لم تسلك طريقها الى القلوب الا عن طريق الاقناع والمعاملة الحسنة ، والايمان بالقيم العظيمة الموجودة فى هذا الدين ، واقرأ نص المعاهدة التى كتبت بين نصارى الشام وبين عمـر تجد هذا المعنى واضحا وهذا نص المعاهدة :

((بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهـل ايلياء من الأمان أمانا لانفسهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبرها ، وسائر ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صلبانهم ولا شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن ايليـاء أحد من اليهود ٠ وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسـه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على ايلياء من الجزية ، ومن أحب من ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعتهم وصليبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم ، وعلى صليبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء رجع الى أرضه وأنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله صـلى

الله عليه وسلم وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية »، شهد على ذلك من الصحابة رضى الله عنهم خالد بن الوليد (رضى الله عنه) وعمرو بن العاص (رضى الله عنه) وعبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنه) ومعاوية بن أبى سفيان (رضى الله عنه) ومن قرأ شهادة السكان غير المسلمين رأى مصداق ذلك •

يقول البطريرك (عيشو يابه) عام ٦٥٦ هجرية :

« ان العرب الذين مكنهم الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون » •

ويقول مكاريوس بطريك انطاكية : « أدام الله بناء دولة الترك خالدة الى الأبد • فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالاديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين ، أم ناصريين يهودا أو سامرة » •

ويقول أرنولد : حتى ايطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم الى التركى لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أى حكومة مسيحية •

ويقول : وحدث أن هرب اليهود الاسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة فلم يلجأوا الا الى تركيا فى نهاية القرن الخامس عشر •

ويقول ريتشارد ستيبر من أبناء القرن السادس عشر : وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب •• سمحوا للمسيحيين جميعا للاغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاؤا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية وفى أماكن أخرى كثيرة جدا ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثنتى عشرة عاما قضيتها فى اسبانيا أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب بل انا فى خطر على حياتنا وسلفنا •

* * *

وحتى الجزية التى هى من جانب رمز للخضوع لسلطان الاسلام ، هى من جانب آخر رمز على الحرية الدينية ، فالجزية من هذا الجانب تفرض على رعايا الدولة الاسلامية من غير المسلمين ، فى مقابل حمايتهم وعدم مشاركتهم فى الحروب ، وفى ذلك منتهى العدل • اذ القتال فى الاسلام قتال عقيدى • فالمسلم الذى يقاتل انما يقاتل بوحى من اسلامه وعقيدته ، وفى سبيل ربه ودينه • فلو أننا طالبنا رعايانا من غير المسلمين أن يقاتلوا معنا فكأننا فى هذه الحالة نجبرهم على القتال من أجل عقيدة لا يؤمنون بها ، وذلك منتهى الظلم ، وخاصة اذا كان القتال ضد أبناء دينهم أنفسهم • فالجزية اذن من هذا الجانب لصالح هؤلاء الرعايا ، وجزء متمم لحريتهم ، بدليل أنه حدث

فى التاريخ الاسلامى أن ناسا من غير المسلمين شاركوا فى جيوش المسلمين فأسقط عنهم المسلمون الجزية ٠

***

وحتى العقوبة الصارمة التى فرضها الاسلام على المرتدين عن الاسلام وهى القتل ، هذه العقوبة لصالح الأقليات غير الاسلامية فى الارض الاسلامية من جانب ٠ اذ غير المسلم عندما يعلم ان الدخول فى الاسلام باختياره ، ولكنه اذا دخل وخرج فجزاؤه القتل ، فذلك يجعله يفكر كثيرا قبل اعتناقه الاسلام فيقدم عليه بعد دراسة طويلة واقتناع كامل ٠

***

قارن هذه الحرية المعطاة لغير المسلمين فى الأرض الاسلامية ، فى عقائدهم وديانتهم ، بما يفعل الآخرون حديثا وقديما من اجبار الانسان على تغيير عقيدته ، أو قتله أو سجنه ، أو تعذيبه أو اضطهاده ، أو فرض فكر معين عليه يعتنقه ويتبناه ، أو عدم السماح له بدراسة دينه وعقيدته ، أو يحال بينه وبين من يمكن أن يلقنه دينه ، وتجد فى ذلك ماسى وحوادث تثير شجن الانسان ٠ لكن لو درست التاريخ الاسلامى ٠ فانك لا تجد حادثة واحدة شبيهة بهذا وهذه أمثلة على أعمال غير المسلمين :

يذكر صاحب كتاب كشف الآثار فى قصص أنبياء بنى اسرائيل وهو كتاب صاحبه نصرانى :

١ ـ أمر قسطنطين الأعظم بقطع آذان اليهود واجلائهم الى أقاليم مختلفة ، ثم أمر امبراطور الروم فى القرن الخامس أن يخرج اليهود من الاسكندرية التى كانت مأمنهم ٠٠ وأمر بهدم كنائسهم ٠ ومنع عبادتهم وعدم قبول شهادتهم ، وعدم نفاذ الوصية ان أوصى أحد منهم لأحد فى ماله ، ولما احتجوا على ذلك نهب جميع أموالهم وقتل كثيرا (صفحة ٢٧) ٠

٢ ـ ان يهود بلدة أنطيوح لما أسروا بعدما صاروا مغلوبين ، قطع أعضاء البعض وقتل البعض ، وأجلى الباقين كلهم ، وظلم الامبراطور الرومانى اليهود الموجودين فى المملكة كلها ، وأجلاهم وهيج الدول الأخرى على هذه المعاملة فتحملوا بذلك الظلم من آسيا الى أقصى حد فى أوروبا ، ثم بعد مدة كلفوا فى اسبانيا أن يقبلوا شرطا من شروط ثلاثة ٠ أن يقبلوا المسيحية ، فان أبوا عن قبولها يكونون محبوسين ، وان أبوا عن كليهما يجلون من أوطانهم ومثل ذلك حدث فى فرنسا (ص ٢٨) ٠

٣ ـ ومن القوانين التى أصدرها الكاثوليكيون : ولا يجوز الأكل مع اليهودى ويجب نزع أولادهم منهم لتربيتهم تربية مسيحية (ص ٢٩) ٠

٤ ـ وقد ثبت تاريخيا أن اليهود أجلوا من فرنسا سبع مرات (ص ٣٠ ـ ٣١) ٠

٥ ـ وحدث لهم فى النمسا واسبانيا وبريطانيا من القتل والطرد والاكراه الكثير ، وقد أجلى ادوارد الأول ملك بريطانيا أكثر من خمسة عشر ألفا من اليهود بعد أن نهب أموالهم (ص ٣٢) ٠

***

ويذكر توماس نيوتن فى كتابه عن نبواءت الكتب المقدسة : أن النصارى عندما فتحوا بيت المقدس فى الحروب الصليبية قتلوا أكثر من سبعين ألفا من المسلمين ٠

ونقول : ان المسلمين عندما استردوا المدينة بعد زمن طويل لم يقتلوا انسانا واحدا بعد الفتح ٠

***

وأصدر الملك لويس الحادى عشر سنة ١٧٢٤ قانونا يقول فيه : ان الكاثوليكية وحدها مأذون بها وأما أصحاب الديانات الأخرى فجزاؤهم الاشغال المؤبدة ، وكل واعظ يدعو الى ملة غير الكاثوليكية جزاؤه الموت ٠

وقتل فى فرنسا فى مذبحة واحدة وهى الشهيرة بمذبحة برتولماوس واحد وثلاثون ألفا من البروتستانت ٠

وقتلت محاكم التفتيش حرقا بالنار حوالى ، مائتين وثلاثين ألفا ، والذين قتلوا بالسيف وبالات التعذيب خلق كثير هذا من غير المسلمين ، أما المسلمون فقد ذكرنا أنه لم يبق فى اسبانيا من الثلاثين مليونا من المسلمين مسلم واحد ، كلهم غدر بهم فمن قتيل أو طريد أو مكره على تغيير دينه ٠

ان اعطاء الانسان الحرية الكاملة فى أمر اختياره عقيدته وعدم اجباره على تغيير دينه بأى واسطة من وسائط الاكراه ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ ما كانت لتكون لولا الوحى ٠ ان العرب هذا الشعب القاسى ، كان يمكن أن يمثل فى حال النصر الدور الذى مثله التتار من بعد ٠ قتل جماعى ، ومحو للحضارة ، ولكن العرب على العكس من ذلك ٠ مثلوا على مسرح التاريخ أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة ، وهذا ليس من أخلاقهم فى الأصل لولا دعوة الله ودين الله ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

***

بل ان عملية الجهاد المستمر ، والتضحيات الكثيرة التى بذلت فيه من أجل اخضاع العالم لسلطان الله ، مع اعطاء الفرد الحرية فى البقاء على دينه أو الانتقال منه الى الاسلام دين الله الحق ٠ بالاقتناع الكامل ٠ دليل كامل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ٠

فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتنافى مع الحرب العادلة ، تصوراتهم

معكوسة تماما · ان حرب الأنبياء وحدها هي المعقولة في العالم ، اذ أن الحياة البشرية لا تستقيم الا على قانون الله وشريعته · فما لم يكن العالم خاضعا لسلطان الله ، فان العالم تمزقه بمن فيه وتتذاك أهواء البشر ، أما اذا خضع لسلطان الله المتمثل بعباده المستقيمين الصالحين ، وشريعة الله ، فان في ذلك صلاحه · وكما قدمنا فلا يعني اخضاع البشر لسلطان الله اجبارهم على الدخول في دين الله ·

والذين ينكرون على رسول الله الجهاد في سبيل الله اما ملحدون : وهؤلاء أصغر من أن يرد عليهم لأن القتل والخراب الذي يحدث على أيديهم بغير حق يندى له جبين الوحوش · فقد قتلت روسيا من رعاياها من أجل اقامة الحكم الشيوعي تسعة عشر مليونا · واما أهل دين : كاليهود والنصارى وهؤلاء يناقضون أنفسهم فان في التوراة التي يؤمن بها جميعهم نصوصا كثيرة تدل على أن الأنبياء جاهدوا في سبيل الله ، وفي الانجيل وكتب العهد الجديد ما يدل على أن الأنبياء يحاربون وهذه شواهد :

١ ـ مذكور في كتاب المشاهدات الباب (١٩) والرسالة الثانية الباب الثاني لاهل تسالونيق وهما كتابان نصرانيان : أن عيسى عليه السلام سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله · أي قرب قيام الساعة وهذه عقيدة المسلمين أيضا ·

٢ ـ وفي سفر التثنية (١٠) : واذا دنوت من قرية لتقاتلها ادعهم أولا الى الصلح فان قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذي بها يخلص ويكونون لك عبيدا يعطونك الجزية · وان لم ترد تعمل معك عهدا وبدأت بالقتل معك فقاتلها أنت واذا سلمها الرب الهك بيدك أقتل جميع من بها من جنس الذكر بحد السيف دون النساء والأطفال والدواب وما كان في القرية غيرهم واقسم للمعسكر الغنيمة بأسرها · وكل من سلب أعدائك الذي يعطيك الرب الهك · وهكذا فافعل بكل القرى البعيدة منك جدا · فأما القرى التي تعطى أنت اياها فلا تستحي منها نفسا البتة ولكن أهلكهم هلاكا كلهم بحد السيف · الحيثي والآموري والكنعاني والفرزي والحوابي والبابوسي كما أوصاك الرب الهك ·

٣ ـ وفي الباب الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني هكذا (٢٩) : فجمع داوود الشعب وسار الى راية فحارب أهلها وفتحها وأخذ تاج ملكهم على رأسه ·

والنصوص عندهم في هذه كثيرة تجدها في سفر الخروج الباب الثالث الفقرة (٤٣) وفي الباب الرابع والثلاثين منه (١٠) وفي سفر العدد الباب الثالث والثلاثين وفي سفر صموئيل الأول الباب السابع والعشرون (٨) وفي سفر الملوك الباب الثامن عشر (٢٠) وغيرها وغيرها كثير يقول بولس المقدس عند النصارى في الرسالة العبرانية الباب الحادي عشر فقرة (٣٢) : وماذا أقول أيضا لأنه يعوزني الوقت أن أحدث عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح

وداوود وصموئيل والانبياء الذين بالايمان قهروا ممالك صنعوا برا نالوا مواعيد سدوا أفواه أسود اطفئوا النار ، نجوا من حد السيف تقووا من ضعف صاروا أشداء فى الحرب هزموا جيوش غرباء ٠

* * *

وأخيرا الجهاد فى سبيل الله ثمرة من ثمار النبوة ، وعدم اكراه النـاس على الدخول فى الاسلام ثمرة أخرى ، وكلتاهما تشهد أن محمدا رسـول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وهذه الثمار كلها غيض من فيض والا فان ثمار النبوة كثيرة تعجز الانسان عن الاحصاء ٠ وحيثما نظرت فى الاسلام دلك الاسلام على أنه دين الله رب العالمين ، وأن محمدا رسول هذا الاله العظيم وأنه المبلغ عنه ٠

والى الفصل الخامس لنرى حجة أخرى على رسالة رسولنا عليه السلام ٠

الفصل الخامس

البشارات

— ١ —

ان القرآن الكريم ذكر بوضوح وفى أكثر من سورة أن الكتب السماوية السابقة قد بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ((**واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين**)) •

((**ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم باياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون**)) •

((**ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**)) •

ان ظاهرة عامة كنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين جميعا ، ويترتب عليها معانى كثيرة من وحدة للانسانية وتوحيد دينها • تحتاج الى مقدمات ومبشرات توجد استعدادا عاما عند الناس لها •

— ٢ —

والدارس للنصوص التاريخية التى تتحدث عن فترة ما قبل البعثة وأثنائها يلاحظ ملاحظة هامة • هى أن الناس فعلا الذين كان لهم صلة بكتاب سماوى كان واضحا فى أذهانهم أنه سيبعث نبى ، وكانوا يرتقبون ظهوره وان بعضا من علمائهم قد أعلن إسلامه بمجرد اجتماعه بهذا النبى صلى الله عليه وسلم •

فمن ذلك قصة سلمان الفارسى كما تذكرها روايات كثيرة ، وتنقله من عالم الى عالم فى النصرانية ، حتى دله آخرهم على الترقب لنبى كاد أن يبعث

من أرض العرب ، وذلك سبب مجيئه الى أرض العرب وسكناه فيها ٠

ومن ذلك القصة التى يرويها البخارى عن أبى سفيان عندما استدعاه هرقل فى بلاد الشام اذ يقول فى آخرها هرقل « وقد كنت أعلم أنه خارج نبى ولم أكن أظن أنه منكم » ٠

ومن ذلك ما ذكرته صفية بنت حيى أم المؤمنين عن أبيها وعمها اليهوديين قالت :

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء ، غدا عليه أبى حيى بن أخطب وعمى أبو ياسر مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا ، فهششت اليهما فما التفت الى أحد منهما مع مابهما من الهم ٠ فسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ أى المبشر به فى التوراة قال : نعم والله قال : أتثبته وتعرفه ٠ قال : نعم قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبدا » ٠

ومن ذلك قصة اسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن هشام فى سيرته قال ابن اسحاق وكان من حديثه كما حدثنى بعض أهله عنه وعن اسلامه حين أسلم وكان حبرا عالما قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له فكنت مسرا لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة ى أعمل فيها ، وعمتى خالدة ابنة الحارث تحتى جالسة فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت ٠ قال فقلت لها : أى عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به ، قال فقالت : فذاك اذن قال : ثم خرجت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ثم رجعت الى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا ٠٠

ومن ذلك قصة النجاشى وموقفه من أصحاب السيد الرسول صلى الله عليه وسلم فى هجرتهم اليه وقوله بعد نقاش وعرض عندما أوفدت قريش عمرو ابن العاص وعمارة بن الوليد لاخراجهم :

٠٠ أشهد أنه رسول الله وأنه المبشر بن عيسى فى الانجيل ٠

وقد اشتهر حديث اليهود للاوس والخزرج عن خروج نبى وكان ذلك من جملة العوامل التى جعلت هذا الاستعداد الكبير عند الأوس والخزرج للايمان :

فمن ذلك ما جاء عن سلمة بن سلامة رضى الله عنه ، وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى هذا كائنا أن الناس

يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ، قال : نعم والذى يحلف به وليود أى شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه اياه فيطبقونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدا فقالوا له ويحك وما آية ذلك ، قال نبى يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده الى مكة واليمن قالوا ومن يراه فنظر وأنا من أحدثهم سنا فقال : ان يستنفد أى يستكمل هذا الغلام عمره يدركه ، قال سلمة والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وهو أى ذلك اليهودى بين أظهرنا فامنا به وكفر بغيا وحسدا فقلنا له ويحك يا فلان ألست الذى قلت لنا فيه ما قلت قال بلى ولكن ليس به ٠

— ٣ —

وعلى كل حال فان وجود الكتب الدينية العالمية الآن أصبح كثيرا ، وانتشارها واسعا ، ولعل دراسة منصفة تستخرج الكثير مما له علاقة بهذه الحقيقة ٠ هذا مع الاعتقاد بأن هذه الكتب قد حرفت وبدلت ، يشهد على ذلك كل دراسة جيدة لنصوص هذه الكتب ولواقعها التاريخى ، ويكفى كبرهان عملى على تحريف أحدثها وأقربها الينا (الانجيل) أن الانجيل الواحد أصبح أربعة بينها تعارض أحيانا وبعضها يزيد على بعض أو ينقص وفى سندها التاريخى شك ٠

وقد قام بهذه الدراسة المنصفة الواسعة الواعية علماء كبار ، جمعوا بين معرفة اللغات ، ومعرفة الديانات ، فتخرج معهم الشىء العجيب الذى لا يدع مجالا لانسان يحترم عقله ان يشك بأن هناك بشارات بمحمد النبى العربى قبل ميلاده بمئات السنين ، ونحن هنا ناقلون نماذج من هذه الدراسات ، وسيرى أى منصف أن هؤلاء العلماء ما ظلموا وما حرفوا وما اعتسفوا فى فهم النصوص ولا حملوها فوق ما تحتمل ٠ بل فهم هذه النصوص على غير ما ذكروه، هو الاعتساف والتحريف ، وتحميل النصوص ما لا تحتمل ، وكتمان للشهادة ونأى عن الحق :

((الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)) ٠

— ٤ —

يقول العقاد :

من هذه الدراسات كتاب باللغة الانجليزية ألفه « مولانا عبد الحق فديارتى وسماه : محمد فى الأسفار الدينية العالمية » واستفاد فى مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الاوروبية ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيل بل عمم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا اطلعنا على شواهد أى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الاولى أو الديانات الكتابية ٠

يقول الأستاذ عبد الحق : ان اسم الرسول العربى « أحمد » مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا من كتب البراهمة وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ، ونصها « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » • ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين بل ينقل عن أحدهم « سينا أشاريا » أنه وقف عند كلمة أحمد فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهى « أهم » و « آت » و « هى » وحاول أن يجعلها تفيد « اننى وحدى تلقيت الحكمة من أبى » قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه • ان العبارة منسوبة الى البرهمى « فاتزا كانفا » من أسرة كانفا ولا يصدق عليه القول بأنه وحده تلقى الحكمة من أبيه •

وفى مواضع كثيرة يرى المؤلف أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا الذى ورد فى كتاب الآثار فافيدا •

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زندافستا نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت » ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة « أبا لهب » ويدعو الى اله واحد لم يكن له كفؤا أحد وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة •

وهذه هى جملة الصفات التى يوصف بها الله سبحانه فى الاسلام : أحد صمد ليس كمثله شىء لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا •

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتيه ، تنبىء عن دعوة الحق التى يجىء بها النبى الموعود ، وفيها اشارة الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف « ان أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم اتباعه فارس ، ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم ، يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التى تطهرت من الأصنام ويومئذ يصبحون وهم اتباع للنبى رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ وهى الاماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم وان نبيهم ليكون فصيحا يتحدث بالمعجزات » •

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى الى فقرات من كتب العهد القديم ، والعهد الجديد ، فقال : ان النبى عليه السلام هو المقصود بما جاء فى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم) •

وجاء بالنص العبرى كما يلى : (ويومر يهووه مسيناتى به وزارح مسعير لامو هو فيع مهرباران وأتامر ببوث قودش حيميفو أيش داف لامو) .

فترجمه هذا (ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم) .

وقال ان الشواهد القديمة جميعا تنبىء عن وجود فاران فى مكة وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتى يوسبيوس : ان فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من أيلة .

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التى صدرت فى سنة ١٨٥١ (أن اسماعيل سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر) ثم قال ان سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران اذ جاء فيه (أن بنى اسرائيل ارتحلوا من برية سيناء ، فحلت السحابة فى برية فاران) ولم يسكن أبناء اسماعيل قط فى غرب سيناء فيقال ان جبل فاران واقع الى غربها . ولم يحدث قط أن نبيا سار بقيادة عشرة آلاف قديس غير النبى محمد عليه السلام ، وقوديش تترجم بقديس فى رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها بالملائكة فى الترجمات الأخيرة .

كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم فقول موسى الكليم : ان نبيا مثلى سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم أبناء ابراهيم ، يُصدق على النبى العربى صاحب الشريعة ولا يصدق على نبى من أبناء ابراهيم تقدمه فى الزمن . أ هـ (نقل هذا المقطع من كتاب العقاد : مطلع النور ــ باختصار بعض جمله) .

— ٥ —

ومن هذه الكتب التى قام أصحابها بدراسة النصوص الحالية للكتب الدينية اليهودية والنصرانية : كتاب اسمه « اظهار الحق » لـ « رحمة الله بن خليل الهندى » ولعل هذا الكتاب أعظم دراسة نقدية لنصوص الديانتين اليهودية والنصرانية وأدق نقد لاعتراضات أتباع هاتين الديانتين على الديانة الاسلامية، بحيث يرى أى دارس منصف للكتاب أن يهود اليوم ونصارى اليوم والسابقين لهم الى فترات طويلة من الزمان ، ليسوا على شىء وأن الاسلام وحده هو الذى يصح أن يسمى دينا ، فهو وحده دين الله الحق فى هذا الزمان .

ولأهمية الكتاب نعرض صورة مختصرة له هنا ، ثم نأخذ منه ما له علاقة فى بحثنا من نصوص لا زالت موجودة رغم التحريف والتبديل تبشر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقارىء الكتاب يحس احساسا يقينيا أن المؤلف متمكن من كتب العهدين القديم والجديد تمكنا تاما ، فكأنه قرأهما عشرات المرات واطلع على كل ما كتبه

أهلهما من تفاسير أو شروح أو تعليقات عليهما • وكتب كتابه بعد ذلك ، وسبب تأليف الكتاب أن المبشرين النصارى أخذوا يهاجمون الاسلام مهاجمات عنيفة فى الهند أثناء الاحتلال البريطانى ، وركزوا هجومهم حول خمس نقاط نتصدى لهم كثير من علماء المسلمين ، وكان من آثار هذا التصدى أن عقدت مناظرة بين أكثر المبشرين سلاطة لسان وبين مؤلف الكتاب حضرها أكبر رجالات الهند • كان من نتائجها أن انسحب القس المبشر بعد أن قامت عليه الحجة ولما يتم النقاش فى المسائل المقرر نقاشها •

والكتاب يناقش المسائل الخمس التى أثارها المبشرون النصارى وهاجموا بها الاسلام وهى :

١ ـ ان دعوى القرآن بأن فى التوراة والانجيل تحريفا وأن اليهود والنصارى حرفوا الكلم عن مواضعه دعوى باطلة •

٢ ـ ان بعض آيات القرآن منسوخة وأن النسخ دليل على أن القرآن ليس من عند الله لأن أحكامه بهذا قابلة للتبديل والتعديل •

٣ ـ ان الله ثلاثة الآب والابن وروح القدس والاسلام يدين بوحدانية الله ومحاولتهم البرهنة على عقيدة التثليث ومن ثم التهجم على عقيدة التوحيد •

٤ ـ ان القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم وليس كلام الله المنزل وتشكيكهم فى طريقة جمعه وتواتره •

٥ ـ انكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء •

والكتاب ناقش هذه المسائل الخمس مناقشة دقيقة مستفيضة كل مسألة فى باب وزاد بابا سادسا تناول فيه العهدين القديم والجديد مع مقدمة وبحث فى كل منها ما يلى :

(أ) المقدمة وتشمل ثمانى ملاحظات عامة بين يدى الكتاب يذكر فى بعضها مراجع الكتاب وطبعات المراجع وسنة طبعها وأين طبعت ، ويذكر بعض عادات المبشرين فى بعضها ويعتذر فى بعضها عن بعض ألفاظ يستعملها ويبين أنهم يستعملون أشد منها مئات المرات •

(ب) الباب الأول : تناول فيه الكلام على العهدين العتيق والجديد كل باب من أبوابهما ، واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات ، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم فى كلتا الديانتين سند متصل لأى كتاب من كتب العهدين ثم تناول بعد ذلك ما فى كتب العهدين من الاختلاف والاغلاط ، وبين أن ادعاءهم بأن هذه الكتب الموجودة بين أيديهم الهامية ، ادعاء باطل ، وساق برهانا على هذا البطلان سبعة عشر وجها لكثرة ما بها من أغلاط وتحريف واختلافات عجز مفسروهم عن التوفيق

بينها ، ثم ان الكاثوليك والبروتستانت يختلفون فى الاعتراف ببعض هذه الكتب ، فما يعترف به الكاثوليك ينكره البروتستانت والعكس بالعكس ٠

(ج) الباب الثانى : أثبت فيه وجود التحريف فى كتب العهدين القديم والجديد مصداقا لقوله تعالى ((**يحرفون الكلم عن مواضعه**)) وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد ، وكان يأتى هذا التحريف أحيانا بالزيادة وأحيانا بالنقصان ، وأحيانا بالتبديل اللفظى ، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهدا كما ساق على التبديل اللفظى خمسة وثلاثين شاهدا ، واكتفى بهذا القدر مخافة الاطالة ، أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهدا، كما أورد عدة مغالطات للمبشرين النصارى فندها ببراهين ساطعة ، ثم نقل على سبيل الاستدلال أقوال النصارى الثقات عندهم من المفسرين والمؤرخين ليزيد حججه نصاعة وقوة ، وبلغت هذه الاستدلالات من أقوالهم الثلاثين قولا مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لاقامة الحجة عليهم من كتبهم وبلسان علمائهم ، وفى ختام هذا الباب أورد أمورا يزول بها استبعاد وقوع التحريف فى كتبهم بل تثبت وقوع التحريف ٠

(د) الباب الثالث : أثبت فيه بالأدلة القاطعة نسخ بعض الاحكام فى الشريعتين الموسوية والمسيحية بعد أن بين ماهية النسخ ، ثم برهن على أن الأحكام العملية للتوراة نسختها شريعة عيسى ، وأن لفظ النسخ موجود فى كلام قديسيهم ، الى غير ذلك من الامور الهامة ، مبينا أكاذيبهم فى اختصاص الشريعة الاسلامية بالنسخ ، مبرهنا على أن النسخ فى اصطلاح الشريعة الاسلامية موجود مثله عند اليهود والنصارى ٠

٨ ــ الباب الرابع : فى ابطال التثليث ٠

وهذا الباب ينقسم الى مقدمة وثلاثة فصول ٠

١ ــ المقدمة وهى كمدخل الى الفصول الثلاثة يذكر فيها اثنتى عشرة قضية ، ككون التوراة مصرحا فيها بتحريم عبادة غير الله وكتصريح العهد الجديد والقديم بأن الله ليس كمثله شىء ، وان النصوص المتشابهة محمولة على هذا التنزيه ٠

٢ ــ الفصل الأول فى ابطال التثليث بالبراهين العقلية ، ويأتى على ذلك بسبعة براهين كلها دامغة فى استحالة التثليث من الناحية العقلية ٠

٣ ــ الفصل الثانى فى ابطال التثليث بأقوال المسيح ، ويأتى فيه باثنى عشر قولا عن السيد المسيح من الانجيل الحالى ، كلها تثبت أن المسيح دعا الى التوحيد الخالص وأنه رسول فقط وكمثال :

(أ) من انجيل يوحنا اصحاح سابع جملة (٣) وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته ٠

(ب) فى الباب التاسع عشر من انجيل متى هكذا ٠٠ (١٦) واذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية (١٧) فقال له : لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحا الا واحد وهو الله ٠

٤ ـ الفصل الثالث فى مناقشة النصوص الانجيلية التى يتمسك بها المثلثون واثبات أن فهمهم لها خاطىء هذا على فرض ثبوتها ومن المؤكد تاريخيا بطلان بعضها ٠

فمثلا يعتمدون على اطلاق كلمة ابن الله فى الانجيل على مرادهم مع أن الانجيل نفسه يطلقها على كل صالح « طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون » « انجيل متى باب خامس (٤٤) » « وصلوا لأجل الذين يسبونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات » (٤٥) نفس المصدر « لو كان الله آباكم لكنتم تحبوننى » يوحنا باب ٨ ـ ٤٢ ٠

وهكذا يثبت أن كل نص حملوه على التثليث قد استعمله المسيح على غير ما فهموه فى خطاب الناس حتى لا يبقى مجال لمتشكك ٠

(و) الباب الخامس : أثبت فيه أن القرآن من عند الله باثنى عشر وجها ، وكل وجه كاف لاقامة الحجة ، وناقش الشبهات التى يذكرها بعض المبشرين ، وتحدث بعد ذلك عن السنة وثبوتها ، وبرهن على وجود الروايات اللسانية عند اليهود والنصارى التى سجلت متأخرة مع ملاحظة جواز الكذب عليهم لأنهم يرون الكذب جائزا فى موضوع النقل اذا كان لصالح الشريعة ٠ أما المسلمون فعلى عكس هذا تماما ، والدارس لموضوع السنة يرى أن أدق نقد فى العالم عرف أو سيعرف هو نقد علماء السنة للوصول الى الحديث الصحيح ٠

(ز) الباب السادس : أثبت فيه نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ودفع فيه كل مطعن توهمه هؤلاء القسس الذين هاجموا الاسلام أو ادعوا أنهم توهموه وقسم الباب الى فصلين :

الفصل الأول : فى اثبات النبوة وسلك فيه ستة سبل ، كل سبيل يؤدى الى اقامة الحجة بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ٠

١ ـ معجزاته ٠

٢ ـ أخلاقه ٠

٣ ـ كمال شريعته ٠

٤ ـ انتصاره ٠

٥ ـ حاجة الناس اليه والى شريعته ٠

٦ ـ تبشير الأنبياء السابقين عليه عن نبوته عليه السلام ٠

الفصل الثانى : فى دفع المطاعن التى يتوهمها المبشرون منافية لدعوى النبوة وهم يفعلون هذا مدعين أنهم مؤمنون بنصوص العهد القديم والجديد ، وأنبياء العهدين ولما كانوا مؤمنين بنصوص العهدين القديم والجديد فانه يذكر المطاعن التى وجهوها الى السيد الرسول صلى الله عليه وسلم • ويثبت أن رسل العهدين قد فعلوا مثلها أو أشد منها ، وأكثر من هذا يثبت أن بيتهم كله من زجاج ، وأن ما يذكرونه فى العهدين فى حق الرسل لا يليق بالمؤمنين العاديين فضلا عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم المبرئين عندنا من كل مذمة •

ويبدأ الفصل فى ذكر تصوراتهم الفاسدة فى نصوصهم المحرفة عن الرسل، وما يتكلمون فى حقهم من الكلام القبيح ، كنسبة الزنا اليهم والمعاصى ، ويأتى هنا بما لا يستطيع أحد أن يهضمه مما يجعل مقام الرسل وحاشاهم عرضة لسخرية الساخرين ، فاذا كان هذا مفهومهم الفاسد عن الرسل فبأى شيء يعترضون على محمد صلى الله عليه وسلم ولم يقع فى أدنى ما ذكروه عن رسلهم كذبا •

ثم يذكر المطاعن ويرد عليها واحدا واحدا :

المطعن الأول : فى عملية الجهاد الاسلامى وكيف أنهم يرون أن ذلك متناف مع مقام الرسالة ، ويذكر للرد على هذا الطعن خمسة أمور :

١ ـ حول استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم فى الدنيا والآخرة ، ويذكر ذلك عن كتبهم •

٢ ـ ان الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم فى العهد القديم قاتلوا الكفار وسبوا نساءهم وذراريهم ، ويأتى كدليل على ذلك بعشرات الشواهد من العهد القديم المعترف عليه عندهم •

٣ ـ ان الجهاد فى الاسلام أرحم بما لا يقاس بما يذكرونه فى كتبهم عن عمليات القتال السابقة •

٤ ـ ان عملية الجهاد عندنا لا تعنى الاكراه على الدخول فى الاسلام ولكن تاريخهم هم وخاصة النصارى ملىء بجرائم الاغارة على عقائد البشر واكراههم ، ويذكر من ذلك أمثلة تقشعر منها جلود الانسان • محاكم تفتيشهم، مذابحهم الفظيعة ، طريقتهم القذرة فى الحرب ، وطريقتنا الرحيمة • ان التاريخ كله ضدهم وكله معنا •

٥ ـ يتحدث عن الجهاد فى الشريعة الاسلامية •

المطعن الثانى : ان محمدا لم تظهر على يده معجزة فلذلك هو ليس نبيا ، ويرد على هذا أولا : يثبت من كتبهم أنه ليس مشروطا عندهم وجود المعجزة للنبى فحتى على صحة دعواهم فليس هذا مطعنا بالنسبة لعقيدتهم ، ولكن الحقيقة غير ذلك فان معجزات محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من معجزات أى رسول ويثبت هذا •

المطعن الثالث : موضوع زواجه صلى الله عليه وسلم بكثيرات وخاصة بزينب وتحريم زواج زوجاته بعد وفاته ويرد على هذا الكلام بثمانية مقاطع :

١ ـ ان الأنبياء الذين يعترفون على نبوتهم فى الكتب المعتبرة عندهم تزوجوا أكثر من عدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بكثير فما أحله الله لرسوله حلال وما حرم حرام ٠

٢ ـ ان قصة زواجه بزينب كما يوردونها باطلة لا أساس لها ، وقد ذكرت فى القرآن ، والسنة الصحيحة على خلاف ما أوردوه ونقلوه ٠

٣ ـ ان التحريم والتحليل بيد الله ، ولذلك نجد شيئا تقصه كتب العهدين فعله أنبياء سابقون وحرمه أنبياء لاحقون ، واذ ثبت أن القرآن وحى من الله فما أحله حلال وما حرمه حرام ٠ ورسول الله لم يفعل ما حرمه الله ٠

٤ ـ ان هؤلاء يطعنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وما خالف الله أمرا مما ذكر في القرآن وينسون أن كتبهم تذكر عن رسلهم كذبا أنهم خالفوا الوحى الذى نزل عليهم ٠

٥ ـ يذكر فى هذا المقطع أمورا فظيعة مذكورة فى كتبهم تجرح مقام عيسى وحوارييه وحاشاهم من كلام هؤلاء الاتباع المارقين وكذلك مما حدث فى تاريخ كنائسهم من الاثم والزنى والفجور مما لا يطيق أحد أن يسمعه أفيطعنون بعد ذلك بنا وبماذا ؟ ونحن أطهر أهل الأرض ذيلا ٠

٦ ـ خطؤهم فى فهم بعض الآيات القرآنية ٠

٧ ـ اذا صدر للنبى أمر ولم يفعله يكون عاصيا ، أما اذا فل شيئا مباحا له فى الأصل فلا حرج فاذا ما أطاع الرسول الله فلا مأخذ عليه ٠

٨ ـ يذكرون فى كتبهم أن هوشع النبى أمره الله أن يتزوج زانية وأن يتعشق بامرأة فاسقة محبوبة لزوجها (وحاشاه) وأمثال هذا كثير فى كتبهم ويذكر بعضا منه فكيف ينكرون على محمد صلى الله عليه وسلم زواجه بزينب بعد طلاقها من زوجها وانتهاء عدتها بأمر الله ، ويذكر فى ذلك أن كتبهم تذكر أن الله خص بعض أنبيائه بأمور خصوا بها عن غيرهم ، تجوز لهم ولا تجوز لغيرهم ، ومحمد رسول الله ٠ فاذا خص بحكم فأى وجه للطعن عليه مع ملاحظة تفرده بكل كمال مما لا تتطاول اليه أعناق الرجال ٠

المطعن الرابع : يدعون فيه أن محمدا أذنب والمذنب لا يكون رسولا ويرد على كلامهم بخمسة مقاطع يثبت فيها عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم عن الذنب وأنه لم يرتكب ذنبا قط ٠

وبذلك ينتهى الكتاب ، والكتاب فى الحقيقة أنفس كتاب فى علمنا ٠ ناقش الديانة النصرانية واليهودية نقاشا دقيقا فى النصوص والمضمون معتمدا على

كلام علمائهم نفسه ، وفى تصورنا أن أى منصف من أتباع الديانتين يطلع على الكتاب كله مضطر لنبذ دينه والدخول فى الاسلام •

ونبدأ الآن بنقل الجزء المتعلق بالبشارات من الفصل الأول من الباب السادس لانه هو المقصود هنا ، مع ملاحظة أننا حذفنا بعض مقاطع من فقراته لم نجد ضرورة لنقلها والمكان الذى تم فيه حذف نشير اليه بثلاث نقط وكل ما نذكره هنا هو كلامه بنصه :

قال فى المسلك السادس من مسالكه لاثبات نبوة محمد عليه السلام تحت عنوان : اخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام ما يلى :

ولما كان القسيسون يغلطون العوام فى هذا الباب تغليطا عظيما استحسنت أن أقدم على نقل تلك الأخبار أمورا ثمانية تفيد للناظر بصيرة (الامر الاول) ان الانبياء الاسرائيليين مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليه السلام ، أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش واسكندر وخلفائه، وحوادث أرض آدوم ومصر ونينوى وبابل ، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد الذى كان وقت ظهوره ، كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تتاوى طيور السماء فى أغصانها ، فكسر الجبابرة والأكاسرة ، بلغ دينه شرقا وغربا ، وغلب الاديان وامتد دهرا بحيث مضى على ظهوره ومولده ألف ومائتين وثمانين الى هذا الحين ، ويمتد ان شاء الله الى آخر بقاء الدنيا ، وظهر فى أمته ألوف ألوف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقين ، والأولياء ذوى الكرامات والمجاهدات والسلاطين العظام ، وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرهما • فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الاخبار عن الحادثة العظيمة •

(الأمر الثانى) أن النبى المقدم اذا أخبر عن النبى المتأخر لا يشترط فى اخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية فى السنة الفلانية فى البلد الفلانى ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الاخبار فى غالب الأوقات مجملا عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جليا بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفيا عليهم أيضا لا يعرفون مصداقه الا بعد ادعاء النبى اللاحق أن النبى المتقدم أخبر عنى ، وظهور صدق ادعائه بالمعجزات وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء وظهور صدقه يصير جليا عندهم بلا ريب ، ولذلك يعاتبون، كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله (ويل لكم ايها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم) كما هو مصرح به فى الباب الحادى عشر من انجيل لوقا •

(الأمر الثالث) : ادعاء ان أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وايليا ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهم أيضا لما علمت فى الأمر الثانى أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى

عليه السلام أولا : أنت المسيح ولما أنكر سألوه أنت ايلياء ولما أنكر سألوه أنت النبى أى النبى المعهود الذى أخبر به موسى فعلم أن هذا النبى كان منتظرا مثل المسيح وايلياء وكان مشهورا بحيث ما كان محتاجا الى ذكر الاسم ، بل الاشارة اليه كانت كافية • وفى الباب السابع من انجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا ٤٠ (فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبى) ٤١ (وآخرون قالوا هذا هو المسيح) وظهر من هذا الكلام أيضا أن النبى المعهود عندهم كان غير المسيح ولذلك قابلوا المسيح •

(الأمر الرابع) : ادعاء أن المسيح خاتم النبيين ولا نبى بعده باطل لما عرفت فى الامر الثالث أنهم كانوا منتظرين للنبى المعهود الآخر الذى يكون غير المسيح وايلياء عليهم السلام ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده • وقد يتمسكون لاثبات هذا الادعاء بقول المسيح المنقول فى الآية الخامسة عشرة من الباب السابع من انجيل متى هكذا (احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة) والتمسك به عجيب لأن المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الانبياء الكذبة لا الانبياء الصدقة أيضا ولذلك قيد بالكذبة • نعم قال احترزوا من كل نبى يجىء بعدى لكان بحسب الظاهر وجه للتمسك •• فمقصود المسيح عليه السلام التحذير من هؤلاء الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة لا من الانبياء الصادقين أيضا ولذلك قال بعد القول المذكور فى الباب السابع (من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا) ومحمد صلى الله عليه وسلم من الأنبياء الصادقين كما يدل عليه ثماره على ما عرفت فى المسالك المتقدمة •

(الأمر الخامس) : الاخبارات التى نقلها المسيحيون فى حق عيسى عليه السلام لا تصدق عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونه أشد الانكار والعلماء المسيحية لا يلتفتون فى هذا الباب الى تفاسيرهم وتأويلاتهم ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق فى زعمهم على عيسى عليه السلام • قال صاحب ميزان الحق فى الفصل الثالث من الباب الأول فى الصفحة ٤٦ من السنخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٤٩ (المعلمون القدماء من الملة المسيحية ادعوا هذه الدعوى الصحيحة فقط : ان اليهود أولوا الآيات التى كانت اشارة الى يسوع المسيح بتأويلات غير صحيحة وغير لائقة وبينوها خلاف الواقع) انتهى • وقوله ادعوا هذه الدعوة الصحيحة فقط غلط يقينا ، لأن المعلمين القدماء كما ادعوا هذه الدعوى ادعوا أن اليهود حرفوا الكتب تحريفا لفظيا كما عرفت فى الباب الثانى • لكننى أقطع النظر عن هذا وأقول : كما أن تأويلات اليهود فى الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين فى الاخبارات التى هى فى حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا • وسترى أن الاخبارات التى ننقلها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقا من الاخبارات التى نقلها الانجيليون فى حق عيسى عليه السلام • فلا بأس علينا ان لم نلتفت الى

تأويلاتهم الفاسدة ٠ وكما أن اليهود ادعوا فى حق بعض الاخبارات التى هى فى حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين أنها فى حق مسيحهم المنتظر أو فى حق غيره أو ليست فى حق أحد ، والمسيحيون يدعون أنها فى حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم ٠ فهكذا نحن لا نبالى بمخالفة المسيحيين فى حق بعض الاخبارات التى هى فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ولو قالوا انها فى حق عيسى عليه السلام ٠ وسترى أيضا أن صدقها فى حق محمد صلى الله عليه وسلم أليق من صدقها فى حق عيسى عليه السلام فادعاؤنا أحق من ادعائهم ٠٠

(الأمر السادس) : أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالبا الاسماء فى تراجمهم ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد وأنهم يزيدون تارة شيئا بطريق التفسير فى الكلام الذى هو كلام الله فى زعمهم ، ولا يشيرون الى الامتياز ، وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم ومن تأمل فى تراجمهم المتداولة بألسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور الكثيرة ٠

* * *

واذا عرفت هذه الأمور الستة أقول : ان الاخبارات الواقعة فى حق محمد صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة الى الآن أيضا ، مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب ومن عرف أولا طريق اخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر على ما عرف فى الأمر الثانى جزم بأن الاخبارات المحمدية فى غاية القوة ٠ وأنقل فى هذا المسلك عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتستنت ثمانى عشرة بشارة(١) :

البشارة الأولى : (فى الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء هكذا (١٧ ـ فقال الرب لى نعم جميع ما قالوا ١٨ ـ وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شىء آمره به ١٩ ـ ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ ـ فأما النبى الذى يجترىء بالكبرياء ويتكلم فى اسمى ما لم آمره به بأن يقوله ام باسم آلهة غيرى فليقتل ٢١ ـ فان أحببت وقلت فى قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية ، ان ما قاله ذلك النبى فى اسم الرب ولم يحدث فالرب ما تكلم به بل ذلك النبى صوره فى تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) ٠ وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن أحبار اليهود ولا بشارة عيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستنت بل هى بشارة محمد صلى الله عليه وسلم لعشرة أوجه ٠ (الوجه الأل) : قد عرفت فى الأمر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به فى هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح

---

(١) بعض البشارات آثرنا عدم نقلها لصعوبة ادراك مضمونها الا بتأمل طويل ٠

فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام ٠ (والوجه الثانى) : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ مثلك ويوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى أما أولا فلانهما من بنى اسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى اسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهى هكذا : (ولم يقم بعد ذلك فى بنى اسرائيل مثل موسى يوفه الرب وجها لوجه) فان قام أحد مثل موسى بعده من بنى اسرائيل يلزم تكذيب هذا القول ٠٠

(الوجه الثالث) : انه وقع فى هذه البشارة لفظ من بين اخوتهم ولا شك أن الأسباط الاثنى عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود كون النبى المبشر به منهم قال منهم لا من بين اخوتهم ، لأن الاستعمال الحقيقى لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببنى اسرائيل ، كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقى فى وعد الله هاجر فى حق اسماعيل عليه السلام فى الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وقبالة بجميع اخوته ينصب المضارب) ٠

وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (بحضرة جميع أخوته يسكن) وجاء بهذا الاستعمال أيضا فى الآية الثامنة عشر من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين فى حق اسماعيل فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (منتهى اخوته جميعهم سكن) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا (أقام بحضرة جميع اخوته) والمراد بالاخوة ههنا بنو عيسو واسحاق وغيرهم من أبناء ابراهيم عليه السلام ٠ وفى الباب الثانى من سفر الاستثناء هكذا ، (وقال لى الرب ٤ ثم أوصى الشعب أنكم ستجوزون فى تخوم اخوتكم بنى عيسو الذين فى ساعير وسيخشونكم فلما جزنا اخوتنا بنى عيسو الذين يسكنون ساعير الخ) والمراد باخوة بنى اسرائيل بنو عيسو ولا شك فى أن استعمال لفظ اخوة بنى اسرائيل فى بعضهم مفهم كما جاء فى بعض المواضع من التوراة استعمال مجازى ولا تترك الحقيقة ولا يصار الى المجاز ما لم يمنع عن الحمل على المعنى الحقيقى مانع قوى ٠ ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بنى اسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما ٠

(الوجه الرابع) : انه وقع فى هذه البشارة لفظ (سوف أقيم) ويوشع عليه السلام كان حاضرا عند موسى عليه السلام داخلا فى ابنى اسرائيل نبيا نى هذا الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ ٠

(الوجه الخامس) : انه وقع فى هذه البشارة لفظ (أجعل كلامى فى فمه) وهو اشارة الى أن ذلك النبى ينزل عليه الكتاب والى أنه يكون أميا حافظا للكلام وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الأمرين فيه ٠

(الوجه السادس) : انه وقع فى هذه البشارة (ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به فأنا أكون المنتقم من ذلك) فهذا الأمر لما ذكر لتعظيم هذا النبى المبشر به فلابد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الأمر عن غيره من الانبياء فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الأخروى الكائن فى جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية التى تلحق المنكرين من الغيب لأن هذا الانتقام لا يختص بانكار نبى بل يعم الجميع فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعى فظهر منه أن هذا النبى يكون مأمورا من جانب الله بالانتقام من منكره فلا تصدق على عيسى عليه السلام لأن شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد ٠

(الوجه السابع) : فى الباب الثالث من كتاب الأعمال فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا : ١٩ (فتوبوا وارجعوا كى تمحى خطاياكم ٠ ٢٠ ــ حتى اذا تأتى أزمنة الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادى به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ ــ الذى اياه ينبغى للسماء ان تقبله الى الزمان الذى يسترد فيه كل شىء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ــ ٢٢ ــ ان موسى قال ان الرب الهكم يقيم لكم نبيا من اخوتكم مثلى له تسمعون فى كل ما يكلمكم به ٢٣ ــ ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبى تهلك من الشعب) ٠ فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا لانبى غير المسيح عليه السلام وان المسيح لابد أن تقبله السماء الى زمان ظهور هذا النبى ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين وتأمل فى عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفى لابطال ادعاء علماء بروتستنت ان هذه البشارة فى حق عيسى عليه السلام وهذه الوجوه السبعة التى ذكرتها تصدق فى حق محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه لأنه غير المسيح عليه السلام ويماثل موسى عليه السلام فى أمور كثيرة ــ ١ ، ٢ ــ كونه عبد الله ورسوله ــ ٣ ــ كونه ذا نكاح واولاد ــ ٤ ــ كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية ــ ٥ ــ كونه مأمورا بالجهاد ــ ٦ ــ اشتراط الطهارة وقت العبادة فى شريعته ــ ٧ ــ وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء فى شريعته ٨ ــ اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز ــ ٩ ــ حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان ــ ١٠ ــ كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية ــ ١١ ــ أمره بحد الزنا ــ ١٢ ــ تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص ــ ١٣ ــ كونه قادرا على اجرائها ــ ١٤ ــ تحريم الربا ــ ١٥ ــ أمره بانكار من يدعو الى غير الله ــ ١٦ ــ أمره بالتوحيد الخالص ــ ١٧ ــ أمره الأمة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله لا ابن الله أو الله والعياذ بالله ــ ١٨ ــ موته على الفراش ــ ١٩ ــ كونه مدفونا كموسى ــ ٢٠ ــ وعدم كونه ملعونا لأجل أمته ٠ وهكذا أمور أخر تظهر اذا تؤمل فى شريعتهما ولذلك قال الله تعالى فى كلامه المجيد ((**انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا**)) وكان من اخوة بنى اسرائيل لأنه من بنى اسمعيل وأنزل عليه الكتاب وكان أميا جعل كلام الله فى فمه وكان ينطق بالوحى كما

قال الله تعالى : ((**وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى**)) وكان مأمورا بالجهاد وقد انتقم الله لاجله من صناديد قريش والأكاسرة والقياصرة وغيرهم وظهر قبل نزول المسيح ..

(الوجه الثامن) : انه صرح فى هذه البشارة بأن النبى الذى ينسب الى الله ما لم يأمره يقتل ، فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا لكان يقتل ، وقد قال الله فى القرآن المجيد أيضا ((**ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين**)) وما قتل بل قال الله فى حقه ((**والله يعصمك من الناس**)) .

(الوجه التاسع) : ان الله بين علامة النبى الكاذب ان اخباره عن الغيب المستقبل لا يخرج صادقا . ومحمد صلى الله عليه وسلم اخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلة كما علمت .. وظهر صدقه فيهـا ، فيكون نبيـا صادقا لا كاذبا .

(الوجه العاشر) : ان علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به فى التوراة ولكن بعضهم اسلم وبعضهم بقى فى الكفر .

البشارة الثانية : الآية الحادية والعشرون من الباب الثانى والثلاثين من سفر الاستثناء هكذا : هم أغارونى بغير اله وأغضبونى بمعبوداتهم البـاطلة وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب ، وبشعب جاهل أغضبهم ، والمراد بشعب جاهل العرب ، لأنهم كانوا فى غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والاصنام وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من اولاد هاجر الجارية ، فمقصود الآية ان بنى اسرائيل اغارونى بعبادة المعبودات الباطلة فاغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون فأوفى بما وعد ، فبعث من العرب النبى صلى الله عليه وسلم فهداهم الى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى فى فى سورة الجمعة ((**هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين**)) وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس فى الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم فى العلوم والفنون ، وكان جميع الحـكماء المشهورين مثل سـقراط وبقراط وفيثاغورس وافلاطون وارسطاطاليس وأرشميدس وبليناس واقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الرياضـيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السـلام ، وكان اليونانيون فى عهده على غاية درجة الكمال فى فنونهم وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهـد العتيق أيضا بواسـطة ترجمة سبتوجنت التى ظهرت باللسان اليونانى قبل المسيح بمقدار مائتين وست

وثمانين سنة ، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكمية الجديدة ٠

البشارة الثالثة : فى الباب الثالث والثلاثين من سفر الإستثناء فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا **(وقال جاء الرب من سيناء واشرق لنا من ساعير واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار** فى يمينه سنة من نار) فمجيئه من سيناء اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، واشراقه من ســـاعير اعطاؤه الانجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلائه من جبل فاران انزاله القرآن لان فاران جبل من جبال مكة ، فى الباب الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال اسماعيل عليه السلام هكذا (٢٠) (وكان الله معه ونما وسكن فى البرية وصار شابا يرمى بالسهام (٢١) وسكن برية فاران) ولا شك أن اسماعيل عليه السلام كانت سكونته بمكة ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا فانتشرت فى هذه المواضع لأن الله لو خلق نارا فى موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع الا اذا أتبع تلك الواقعة وحى نزل فى ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك وقد اعترفوا أن الوحى اتبع تلك فى طور سيناء فكذا لابد أن يكون فى ساعير وفاران ٠

البشارة الرابعة : فى الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله فى حق اسماعيل عليه السلام لابراهيم عليه السلام فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وعلى اسماعيل استجيب لك هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا فسيلد اثنى عشر رئيسا واجعله لشعب كبير) ٠ وقوله اجعله لشعب كبير يشير الى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن فى ولد اسماعيل من كان لشعب كبير غيره ، وقد قال الله تعالى ناقلا دعاء ابراهيم واسماعيل فى حقــه عليهم السلام فى كلامه المجيد أيضا : **((رَبنا وابعث فيهم رسولا منهم يتــلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم))** ٠

البشارة الخامسة : الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من ســفر التكوين هكذا كما فى الترجمة العربية سنة ١٧٢٢ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ :

(فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من تحت فخذه حتى يجيء الذى له الكل واياه تنتظر الأمم) ٠

وفى الترجمة العربية سنة ١٨١١ (هكذا) : (**فلا يزول القضيب من يهوذا** والرسم من تحت أمره الى أن يجيىء الذى هو له واليه تجتمع الشعوب) ٠

((يذكر المؤلف هنا كلاما طويلا محتواه أن القضيب هنا لا يفسر الا بالنبوة ويفند كل تفسير آخر مستشهدا بالتاريخ والوقائع المذكورة فى كتب اليهــود والنصارى أنفسهم ومقتضى كلامه أن الذى له الكل واياه تنتظر الأمم لابد أن يكون محمد عليه السلام ولا يصح أن يفسر به غيره لو فسرنا أن المقصــود بذلك المسيح لكان فهمنا متناقضا مع النص اذ المسيح من آل اسرائيل ومن

ذريته والكلام هنا عن نبوة تخرج عن ذرية اسرائيل الى انسان تجتمع اليه الشعوب من غيرهم وليس ذلك لغير محمد عليه السلام » ٠

البشارة السادسة : الزبور الخامس والأربعون هكذا :

(فاض قلبي كلمة صالحة أنا أقول أعمالي للملك (١) لساني قلم كاتب سريع الكتابة (٢) بهي في الحسن أفضل من بني البشر (٣) انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله الى الدهر (٤) تقلد سيفك على فخذك أيها القوى بحسنك وجمالك (٥) استله وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك (٦) نبلك مسنونة أيها القوى في قلب أعداء الملك الشعوب تحتك يسقطون (٧) كرسيك يا الله الى دهر الداهرين عصا الاستقامة عصا ملكك (٨) أحببت البر وأبغضت الاثم لذلك مسحك الله الهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك (٩) المر والميعة والسليخة من ثيابك من منازلك الشريفة العاج التي أبهجتك (١٠) بنات الملوك في كرامتك قامت الملكة عن يمينك مشتملة بثوب مذهب موشى (١١) اسمعي يا بنت وانظري وانصتي باذنيك وانسى شعبك وبنت أبيك (١٢) فيشتهي الملك حسنك لأنه هو الرب الهك وله تسجدين (١٣) بنات صور يأتينك بالهدايا لوجهك يصلي كل أغنياء البشر (١٤) كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى (١٥) يبلغن الى الملك عذارى في أثرها قريباتها اليك يقدمن (١٦) يبلغن بفرح وابتهاج يدخلن الى هيكل الملك (١٧) ويكون بنوك عوضا من آبائك وتقيمهم رؤساء على سائر الأرض (١٨) سأذكر اسمك في كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب الى الدهر والى دهر الداهرين) ا ٠هـ٠ وهذا الأمر مسلم عند أهل الكتاب ان داود عليه السلام يبشر هذا الزبور بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ولم يظهر الى هذا الحين عند اليهود نبي يكون موصوفا بالصفات المذكورة في هذا الزبور ويدعي علماء بروتستنت أن هذا النبي عيسى عليه السلام ويدعى أهل الاسلام سلفا وخلفا أن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم فأقول انه ذكر في هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات (١) كونه حسنا (٢) كونه أفضل البشر (٣) كون النعمة منسكبة على شفتيه (٤) كونه مباركا الى الدهر (٥) كونه متقلدا بالسيف (٦) كونه قويا (٧) كونه ذا حق ودعة وصدق (٨) كونه هداية يمينه بالعجب (٩) كون نبله مسنونة (١٠) سقوط الشعب تحته (١١) كونه محبا للبر ومبغضا للاثم (١٢) خدمة بنات الملوك اياه (١٣) اتيان الهدايا اليه (١٤) انقياد كل أغنياء الشعب له (١٥) كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم (١٦) كون اسمه مذكورا جيلا بعد جيل (١٧) مدح الشعوب اياه الى دهر الداهرين ٠ وهذه الاوصاف كلها توجد في محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه ٠ أما الأول فلأن أباهريرة رضي الله عنه قال : (ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه) ٠ وعن أم معبد رضي الله عنها قالت في بعض ما وصفته به : (أجمل الناس من بعيد وأحلاهم وأحسنهم من قريب) ٠ وأما الثاني

فلان الله تعالى قال فى كلامه المحكم ((**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**)) الآية • وقال أهل التفسير أراد بقوله ((**ورفع بعضهم درجات**)) محمدا صلى الله عليه وسلم أى رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة وقد أشبع الكلام فى تفسير هذه الآية الامام الهمام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير • وقال صلى الله عليه وسلم (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) أى لا أقول ذلك فخرا لنفسى بل تحدثا بنعمة ربى • وأما الثالث فغير محتاج الى البيان ، حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف ، وقال الرواة فى وصف كلامه انه كان أصدق الناس لهجة فكان من الفصاحة بالمحل الأفضل والموضع الاكمل • وأما الرابع فلان الله تعالى قال ((**ان الله وملائكته يصلون على النبى**)) وألوف ألوف من الناس يصلون عليه فى الصلوات الخمس • وأما الخامس فظاهر وقد قال هو بنفسه (أنا رسول الله بالسيف) • وأما السادس فكانت قوته الجسمانية على الكمال • وأما شجاعته فقد قال ابن عمر (رضى الله عنه) (ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال على كرم الله وجهه (وانا كنا اذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا) • وأما السابع فلان الأمانة والصدق من الصفات الجبلية له صلى الله عليه وسلم كما قال النضر بن الحرث لقريش : (قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم انه ساحر لا والله ما هو بساحر) وسأل هرقل عن حال النبى صلى الله عليه وسلم أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، قال : لا • وأما الثامن فلانه رمى يوم بدر وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة تراب فلم يبق مشرك الا شغل بعينه فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلا وأسرا فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه • وأما التاسع فلان كون أولاد اسماعيل أصحاب النبل فى سالف الزمان غير محتاج الى البيان وكان هذا الأمر مرغوب له وكان يقول (ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه) ويقول (ارموا بنى اسماعيل فان أباكم كان راميا) ويقول عليه السلام (من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا) • وأما العاشر فلان الناس دخلوا أفواجا فى دين الله فى مدة حياته • وأما الحادى عشر فمشهور يعترف به المعاندون أيضا كما عرفت فى المسلك الثانى • وأما الثانى عشر فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة للمسلمين فى الطبقة الاولى ومنها شهربانو بنت يزدجرد كسرى فارس كانت تحت الامام الهمام الحسين رضى الله عنه • وأما الثالث عشر والرابع عشر فلان النجاشى ملك الحبشة ومنذر بن ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل اليه بهدية والمقوقس ملك القبط أرسل اليه ثلاث جوارى وغلاما أسود وبغلة شهباء وحمارا أشهب وفرسا وثيابا وغيرها • وأما الخامس عشر فقد

وصل من أبناء الامام الحسن رضى الله عنه الى الخلافة فى أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها ٠

أما السادس عشر والسابع عشر فلانه ينادى ألوف ألوف ، جيل بعد جيل فى الأوقات الخمسة بصوت رفيع فى أقاليم مختلفة « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » ويصلى عليه فى الاوقات المذكورة غير المحصورين من المصلين والقراء يحفظون منشورة والمفسرون يفسرون معانى فرقانه والوعاظ يبلغون وعظه ٠ والعلماء والسلاطين يصلون الى خدمته ويسلمون عليه من وراء الباب (أى باب تبره عليه السلام) ٠

البشارة السابعة : فيها « لأن الرب يسير بشعبه ويشرف المتواضعين بالخلاص تفتخر الابرار بالمجد ويبتهجون على مضاجعهم ترفيع الله فى حلوقهم وسيوف ذات فمين فى أياديهم وانتقامهم من الأمم وتوبيخاتهم ليصنعوا انتقاما فى الامم وتوبيخات فى الشعوب ليقيدوا ملوكهم بالقيود واشرافهم باغلال من حديد ليضعوا بهم حكما مكتوما هذا المجد يكون لجميع الأبرار » ٠٠ (لم تتحقق هذه البشارة الا بالمسلمين الذين فعلوا هذا باسم الله ولله) ٠

البشارة الثامنة : فى الباب الثانى والأربعين من كتاب أشعيا هكذا :

٩ ــ (التى قد كانت أولاها قد أتت وأنا مخبر أيضا بأحداث قبل أن تحدث وأسمعكم اياها ٠

١٠ ــ (سبحوا للرب تسبيحة جديدة حمده من أقاصى الأرض راكبين فى البحر وملؤه الجزائر وسكانهن) ٠

١١ ــ (يرتفع البرية ومدتها فى البيوت نمل قيدار سبحوا يا سكان الكهف من رؤوس الجبال يصيحون) ٠

١٢ ــ (يجعلون للرب كرامة وحمده يخبرون به فى الجزائر) ٠

١٣ ــ (الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة بصوت ويصيح على أعدائه بتقوى) ٠

١٤ ــ (سكت دائما صمت صبرت صبرا فاتكلم مثل الطائفة ما بدد وابتلع معا) ٠

١٥ ــ (اخرب الجبال والآكام وكل نباتهن أجفف واجعل الانهار جزائر والبحيرات اجففهن) ٠

١٦ ــ (وأقيد العمى فى طريق لم يعرفوها والسبل لم يعلموا أسيرهم فيها أصير أمامهم الظلمة نورا والعقب سهلا هذا الكلام صنعته لهم ولا أخذلهم) ٠

١٧ ــ (اندبروا الى ورائهم والمتكلمون على المنحوتة القائلون للمسبوكة

انكم آلهتنا ليخزون خزيا) وظهر من الآية التاسعة أن أشعيا عليه السلام أخبر أولا عن بعض الأشياء ثم يخبر عن الاخبار الجديدة الآتية فى المستقبل فالحال الذى يخبر عنه من هذه الآية الى آخر الباب غير الحال الذى أخبر عنه قبلها ولذلك قال فى الآية الثالثة والعشرين هكذا (من هو بينكم ان يسمع هذا يصغى ويسمع الآية) والتسبيحة الجديدة عبارة عن العبادة على النهج الجديد التى هى فى الشريعة المحمدية وتعميمها على سكان أقاصى الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبرارى ، اشارة الى عموم نبوته صلى الله عليه وسلم ولفظ قيدار أقوى اشارة اليه لأن محمدا صلى الله عليه وسلم فى أولاد قيدار ابن اسماعيل • وقوله (من رؤوس الجبال يصيحون) اشارة الى العبادة المخصوصة التى تؤدى فى أيام الحج يصيح ألوف ألوف من الناس لبيك اللهم لبيك • وقوله (حمده يخبرون به فى الجزائر) اشارة الى الأذان يخبر به ألوف ألوف فى أقطار العالم فى الاوقات الخمسة بالجهر • وقوله (الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة) يشير الى مضمون الجهاد اشارة حسنة بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون لله وبأمره خاليا عن حظوظ الهوى النفسانية ولذلك عبر الله عن خروج هذا النبى وخروج تابعيه بخروجه وبين فى الآية الرابعة عشر سبب مشروعية الجهاد وأشار فى الآية السادسة عشر الى حال العرب لأنهم كانوا غير واقفين على أحكام الله وكانوا يعبدون الأصنام وكانوا مبتلين بأنواع الرسوم القبيحة الجاهلية كما قال الله تعالى فى حقهم ((**وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين**)) وقوله (لا أخذ لهم) اشارة الى كون أمته مرحومة ((**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**)) والى تأبيد شريعته • وقوله (والمتوكلون على المنحوتة القائلون للمسبوكة انكم آلهتنا ليخزون خزيا) وعد بأن عابدى الأصنام والأوثان كمشركى العرب وعابدى الصليب وصور القديسين يحصل لهم الخزى والهزيمة التامة ووفى بما وعد فان مشركى العرب وهرقل عظيم الروم وكسرى فارس ما قصروا فى اطفاء النور الأحمدى لكنهم ما حصل لهم سوى الخزى التام وعاقبة الامر لم يبق أثر الشرك فى اقليم العرب وزالت دولة كسرى مطلقا وزالت حكومة أهل الصليب من الشام مطلقا وأما فى الاقاليم الأخر فمن بعضها انمحى أثره مطلقا كبخارى وكابل وغيرهما ومن بعضها قل كالهند والسند وغيرهما وانتشر التوحيد شرقا وغربا •

البشارة التاسعة : فى الباب الرابع والخمسين من كتاب أشعيا هكذا : ١ (سبحى أيتها العاقر التى لست تلدين انشدى بالحمد وهللى التى لم تلدى من أجل أن الكثيرين من بنى الوحشة أفضل من بنى ذات رجل يقول الرب) ، ٢ (أوسعى موضع خيمتك وسرادق مضاربك ابسطى لا تشفقى طول حبالك ثبتى أوتادك) ٣ (لانك تنفذين يمنة ويسرة زرعك يرث الأمم ويعمر المدن الخربة) ٤ (لا تخافى لانك لا تخزين ولا تخجلين فانك لا تستحيين من أجل أنك خزى صباك تنسين وعار ترملك لا تذكرين أيضا) ٥ (فانه يتولى عليك الذى صنعك رب الجنود اسمه وفاديك قدوس اسرائيل اله جميع

الأرض يدعى) ٦ (انما الرب دعاك مثل الامرأة المطلقة والحزينة الروح وزوجة منذ الصبا مرذولة قال الهك) ٧ (لساعة فى قليل تركتك وبرحمة عظيمة أجمعك) ٨ (فى ساعة الغضب أخفيت قليلا وجهى عنك وبالرحمة الأبدية رحمتك قال فاديك الرب) ٩ (مثلما فى أيام نوح لى هذا الذى حلفت له أن لا أصب مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك) ١٠ (فان الجبال ترتجف والتلال تزلزل ورحمتى لا تزول عنك وعهد سلامى لا يتحرك قال رحيمك الرب) ١١ (فقيرة مستأصلة بعاصف بلا تعزية ها أنذا ابلط بالرتبة حجارتك وأونسك بالسفير •

١٢ (وأجعل يسبا محاضك وأبوابك حجارة منقوشة وجميع حدودك لأحجار مشتهية) ١٣ (جميع بنيك متعلمين من الرب وكثرة السلام لبنيك) ١٤ (وبالبر تؤسسين فابتعدى من الظلم لانك لا تخافين ومن الهيبة لأنها لا تقرب منك) ١٥ (ها يأتى الجار الذى لم يكن معى والذى قد كان قريبا يقترب منك) ١٦ (ها أنا ذا خلقت صائغا الذى ينفخ فى النار جمرا ويخرج اناء لعمله وأنا خلقت قتولا للاهلاك) ١٧ (كل اناء مجبول ضدك لا ينجح وكل لسان يخالفك فى القضاء تحكمين عليه هذا هو ميراث عبيد الرب وعدلهم عندى يقول الرب) ا•هـ• فأقول المراد بالعاقر فى الآية الأولى مكة المعظمة لانها لم يظهر منها نبى بعد اسماعيل ولم ينزل فيها وهى بخلاف أورشليم لأنه ظهر فيها الانبياء الكثيرون وكثر فيها نزول الوحى وبنو الوحشة عبارة عن أولاد هاجر لانها كانت بمنزلة المطلقة المخرجة عن البيت ساكنة فى البرية ولذلك وقع فى حق اسماعيل فى وعد الله هاجر (هذا سيكون انسانا وحشيا) كما هو مصرح به فى الباب السادس عشر من سفر التكوين وبنو ذات رجل عبارة عن أولاد سارة فخاطب مكة الله آمرا لها بالتسبيح والتهليل وانشاد الشكر لأجل أن كثيرين من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لاهلها ، ووفى بما وعد بأن بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أفضل البشر خاتم النبيين من أهلها فى أولاد هاجر • وهو المراد بالصائغ الذى ينفخ فى النار جمرا وهو القتول الذى خلق لاهلاك المشركين وحصل لها السعة بواسطة هذا النبى وما حصل لغيرها من المعابد فى الدنيا اذ لا يوجد فى الدنيا معبد مثل الكعبة من ظهور محمد صلى الله عليه وسلم الى هذين الحين والتعظيم الذى يحصل لها من القرابين فى كل سنة من مدة ألف ومائتين وثمانين لم يحصل لبيت المقدس الا مرتين مرة فى عهد سليمان عليه السلام لما فرغ من بنائه ومرة فى السنة الثامنة عشر من سلطنة يوشيا ويبقى هذا التعظيم لمكة الى آخر الدهر ان شاء الله كما وعد الله بقوله لا تخافى لانك لا تخزين ولا تخجلين لأنك لا تستحيين وبقوله برحمات عظيمة أجمعك وبالرحمة الابدية رحمتك وبقوله حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك وبقوله رحمتى لا تزول عنك وعهد سلامى لا يتحرك وملك زرعها شرقا وغربا وورثوا الأمم وعبروا المدن فى مدة قليلة لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة ومثل هذه الغلبة فى مثل هذه المدة القليلة لم

يسمع من عهد آدم عليه السلام الى زمان محمد (عليه السلام) لمن يدعى الدين الجديد وهذا مفاد قول الله : وزرعك يرث الأمم ويعمر المدن الخربة سلاطين الاسلام سلفا وخلفا اجتهدوا اجتهادا تاما فى بناء الكعبة والمسجد الحـرام وتزيينهما وحفر الآبار والبرك والعيون فى مكة ونواحيها والغرباء يحبـون مجاورتها من ظهور الاسلام الى هذا الحين سيما فى هذا الزمان وألوف من الناس يصلون اليها فى كل سنة من أقاليم مختلفة وديار بعيدة ووفى بما وعد بقوله : « كل اناء مجبول بضدك لا ينجح » لأن كل شخص من المخالف قام بضـدها اذله الله كما وقع بأصحاب الفيل ..

البشارة العاشرة :

فى الباب الخامس والستين من كتاب أشعيا هكذا :

١ (طلبنى الذين لم يسألونى قبل
ووجدنى الذين لم يطلبونى
قلت ها أنذا الى الأمة الذين لم يدعوا باسمى) .

٢ (بسطت يدى طول النهـار
الى شعب غير مؤمن
الذى يسلك بطريق غير صالح وراء أفكارهم) .

٣ (الشعب الذى يغضبنى أمام وجهى دائما) .

(الذين يذبحون فى البساتين ويذبحون على اللبن) ٤ (الذين يسكنون فى القبور فى مساجد الأوثان يرقدون الذين يأكلون لحم الخنزير والمرق المنجس فى آنيتهم) ٥ (الذين يقولون ابعد عنى لا تقرب منى لانك نجس هـؤلاء يكونون دخانا فى رجزى نارا متقدة طول النهـار) ٦ (هامكتوب قـدامى لا اسكت بل أرد وأكافى جزاء فى حضهم) فالمراد بالذين لم يسألونى والذين لم يطلبونى العرب لأنهم كانوا غير واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه فما كانوا سائلين عن الله وطالبين له كما قال الله تعالى فى سورة آل عمران **« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبـل لفى ضلال مبين »** ولا يجوز أن يراد بهم اليونانيون كما عرفت فى البشارة الثانية ، والوصف المذكور فى الآية الثانية والثالثة يصدق على كل واحد من اليهود والنصارى ، والأوصاف المذكورة فى الآية الرابعة ألصق بحال النصارى ، كمـا أن الوصف المذكور فى الخامسة ألصق بحال اليهود فردهم البارى واختار الامة المحمدية .

البشارة الحادية عشرة : فى الباب الثانى من كتاب دانيال فى حال الرؤيا التى رآها بختنصر ملك بابل ونسى ثم بين دانيال عليه السلام بحسب الوحى

تلك الرؤيا وتفسيرها ٣١ (فكنت أنت الملك وترى واذ تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيما ورفيع القامة واقفا قبالك ومنظره مخوفا) ٣٢ (رأس هذا التمثال هو من ذهب ابريز والصدر والذراعان من فضة والبطن والفخذان من نحاس) ٣٣ (والساقان من حديد والقدمان قسم منهما من حديد وقسم منهما من خزف) ٣٤ ـ (فكنت ترى هكذا حتى انقطع حجر من جبل لا بيدين وضرب التمثال فى قدميه من حديد ومن خزف فسحقهما) ٣٥ (فانسحق حينئذ مع الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب وصارت كغبار البيدر فى الصيف فذرتها الريح ولم يوجد لها مكان والحجر الذى قد ضرب التمثال صار جبلا عظيما وملا الأرض بأسرها) ٣٦ (فهذا هو الحلم وتنبىء أيضا قدامك يا أيها الملك بتفسيره) ٣٧ (أنت هو ملك الملوك واله السماء أعطاك الملك والقوة والسلطان والمجد) ٣٨ ـ (وجميع ما يسكن فيه بنو الناس ووحوش الحقل وأعطى بيدك طير السماء أيضا وجعل جميع الأشياء تحت سلطانك فأنت هو الرأس من الذهب) ٣٩ (وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك من فضة ومملكة ثالثة أخرى من نحاس وتتسلط على جميع الأرض) ٤٠ (والمملكة الرابعة تكون مثل الحديد كما أن الحديد يسحق ويغلب الجميع هكذا هى تسحق وتكسر جميع هذه) ٤١ (أما فيما رأيت قسم القدمين وأصابعهما من الخزف الفاخورى وقسما من حديد تكون المملكة مفترقة وان كان يخرج من نصبة الحديد حسبما رأيت الحديد مختلطا بالخزف من طين) ٤٢ (وأصابع القدمين قسم من حديد وقسم من خزف فتكون المملكة بقسم صلبة وبقسم مسحوقة) ٤٣ (وفيما رأيت الحديد مختلطا بالخزف من طين انهم يختلطون بزرع بشرى بل لا يتلاصقون مثل ما ليس بممكن أن يمتزج الحديد بالخزف) ٤٤ (فأما فى أيام تلك الممالك يبعث اله السماء مملكة وهى لن تنقضى قط ملكها لا يعطى لشعب آخر وهى تسحق وتفنى جميع هذه الممالك أجمعين وهى تثبت الى الأبد) ٤٥ (وكما رأيت أن من جبل انقطع حجر لابيدين وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب فالاله العظيم أظهر للملك ما سيأتى من بعد والحلم هو حقيقى وتفسيره صحيح) ا هـ فالمراد بالمملكة الأولى سلطنة بختنصر وبالمملكة الثانية سلطنة المادتين الذين تسلطوا بعد قتل بلشاصر بن بختنصر هو مصرح به فى الباب الخامس من الكتاب المذكور وسلطنتهم كانت ضعيفة بالنسبة الى سلطنة الكلدانيين والمراد بالمملكة الثالثة سلطنة الكيانيين لأن قورش ملك ايران الذى هو بزعم القسيسين كيخسر وتسلط على بابل قبل ميلاد المسيح بخمسمائة وست وثلاثين سنة ولما كان الكيانيون على السلطنة القاهرة فكأنهم كانوا متسلطين على جميع الأرض ، والمراد بالمملكة الرابعة سلطنة اسكندر بن فيلفوس الرومى الذى تسلط على ديار فارس قبل ميلاد المسيح بثلاثماية وثلاثين سنة ، فهذا السلطان كان فى القوة بمنزلة الحديد ثم جعل هذا السلطان سلطنة فارس منقسمة على طوائف الملوك فبقيت هذه السلطنة ضعيفة الى ظهور الساسانيين ثم صارت قوية بعد ظهورهم فكانت

ضعيفة تارة وقوية تارة وتولد فى عهد انوشيروان (محمـــد بن عبد الله) صلى الله عليه وسلم وأعطاه الله السلطنة الظاهرية والباطنية وقد تسلط متبعوه فى مدة قليلة شرقا وغربا وعلى جميع ديار فارس التى كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها ، فهذه هى السلطنة الأبدية التى لا تنقضى وملكها لا يعطى لشعب آخـــر ٠٠

فهذا الحجر الذى انقطع لابيدين من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب وصار جبلا عظيما وملا الأرض بأسرها هو محمد صـلى الله عليه وآله وسلم ٠

البشارة الثانية عشرة : نقل يهوذا الحوارى فى رسالته الخبر الذى تكلم به أخنوخ الرسول ٠٠ وأنا أنقل عبارته من الترجمة العربية المطبـوعة سنة ١٨٤٤ :

(الرب قد جاء فى ربواته المقدسة ليدائن الجميع ويبكت جميع المنـافقين على كل أعمال نفاقهم التى نافقوا فيها وعلى كل الكلام الصعب الذى تكلم به ضد الله الخطأة المنافقون) ٠

فجاء محمد فى ربواته المقدسة فدان الكفار وبكت المنافقين والخطـاة على أعمال النفاق وعلى أقوالهم القبيحة فى الله ورسله فبكت المشركين لعـــدم تسليم توحيد الله ورسالة رسله مطلقا وعبادتهم الأصنام والاوثان ، وبكت اليهود على تفريطهم فى حق عيسى ومريم عليهما السلام ، وبعض عقائدهم الواهية وبكت أهل التثليث مطلقا على تفريطهم فى توحيد الله وافراطهم فى حق عيسى عليه السلام ، وبكت أكثرهم على عبادة الصليب والتماثيل وبعض عقائدهم الواهية ٠

البشارات : الثالثة عشر والرابعة عشر والخامسة عشر :

ملاحظة : لقد تصرفنا هنا فى كلامه فدمجنا البشارات الثلاث وصغناها صياغة مختصرة مع أنه ذكر كلا على انفراد وشرح كلا ولكنا رأينـــا أن الموضوع واحد فدمجنا وأحببنا الاختصار ٠

فى الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا :

٣١ (قدم لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها فى حقله) ٣٢ (وهى أصغر جميع البذور ولـــكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور الســـماء تأتى وتأوى فى أغصانها) ا ٠ هـ٠ وفى الباب العشرين من انجيل متى هكذا :

١٠ (فان ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج من الصـــبح ليستأجر فعلة لكرمه فاتفق مع العملة على دينار فى اليوم وأرسلهم الى كرمه ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما فى السوق بطالين فقال لهم :

اذهبوا أنتم أيضا الى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا وخرج أيضـا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين قالوا له لأنه لم يستأجرنا أحد قال لهم اذهبوا أنتم أيضا ، الى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله ادع الفعلة وأعطهم الأجرة مبتدئا من الآخرين الى الاولين فجاء أصحاب الساعة الحادية عشر وأخذوا دينـارا دينارا فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا دينارا دينارا وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا ، نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر فأجاب وقال لواحـد منهم : يا صاحب ما ظلمتك أما اتفقت معى على دينار فخذ الذى لك واذهب فانى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمـالى أم عينك شريرة لانى أنا صالح ، هكذا يكون الآخرون أولين والاولون آخرين لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون) •

وفى الباب الثالث عشر من انجيل متى :

(يشبه ملكوت السموات انسانا زرع زرعا جيدا فى حقله) •

(يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها فى حقله) •

(يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع) •

وفى الباب الحادى والعشرين من انجيل متى هكذا :

(لذلك أقول ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) •

وفى الباب الثالث من انجيل متى هكذا :

١١ (وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهـودية قائلا توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات) •

وفى الباب الرابع من انجيل متى هكذا :

١٢ (ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف الى الجليل من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول : (توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات) •

هذه النصوص كلها تشير الى نبوة محمد عليه السلام •

فالأمة البطالة التى هى الاخيرة والاولى هى أمته •

والأمة التى ورثت ملكوت الله وعملت أثماره هى أمته •

وحبة الخردل التى هى أصغر البذور ثم أصبحت أكبر الشجر هى أمته •

وهكذا لا يمكن أن تفهم هذه النصوص فهما مستقيما الا اذا طبقناها على محمد رسول الله وأمته •

البشارة السادسة عشر : فى الباب الحادى والعشرين من انجيل متى هكذا :

٣٣ (اسمعوا مثلا آخر : كان انسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه الى كرامين وسافر ولما قرب وقت الاثمار أرسل عبيده الى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك ، فأخيرا أرسل اليهم ابنه قائلا يهابون ابنى ، وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث علموا نقتله ونأخذ ميراثه) ..

٤٠ (فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين) ٤١ (قالوا له أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا ويسلم الكرم الى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها) ٤٢ (قال لهم يسوع أما قرأتم قط فى الكتب الحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا) ٤٣ (لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) ٤٤ (ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه) ٤٥ (ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم) اهـ .

أقول ان رب البيت كناية عن الله والكرم كناية عن الشريعة واحاطته بسياج وحفر المعصرة فيه وبناء البرج كنايات عن بيان المحرمات والمباحات والأوامر والنواهى وان الكرامين الطاغين كناية عن اليهود ، وكما فهم رؤساء الكهنة والفريسيون أنه تكلم عليهم والعبيد المرسلين كناية عن الأنبياء عليهم السلام ، والابن كناية عن عيسى عليه السلام ، وقد عرفت فى الباب الرابع أنه لا بأس باطلاق هذا اللفظ عليه وقد قتله اليهود أيضا فى زعمهم ، والحجر الذى رفضه البناؤون كناية عن محمد ﷺ .

وهذا هو الحجر الذى كل من سقط عليه ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه ، وما ادعى العلماء المسيحية بزعمهم أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام فغير صحيح لوجوه :

(الأول) : ان داود عليه السلام قال فى الزبور المائة والثامن عشر هكذا :

٢٢ (الحجر الذى رذله البناؤون هو صار رأسا للزاوية) ٢٣ (من قبل الرب كانت هذه وهى عجيبة فى أعيننا) فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام وهو من اليهود من آل يهوذا من آل داود عليه السلام فأى عجب فى أعين اليهود عموما لكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية سيما فى عين داود عليه السلام خصوصا لأن مزعوم المسيحيين أن داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام فى مزاميره تعظيما بليغا ويعتقد الألوهية فى حقه ، بخلاف

آل اسماعيل لأن اليهود كانوا يحقرون أولاد اسماعيل غاية التحقير ، وكان كون أحد منهم رأسا للزاوية عجيبا فى أعينهم ٠

(والثانى) : أنه وقع فى وسط هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض وكل من سقط هو عليه سحقه ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأنه قال : (وان سمع أحد كلامى ولم يؤمن فأنا لا أدينه لانى لم آت لادين العالم بل لاخلص العالم) كما هو فى الباب الثانى عشر من انجيل يوحنا ، وصدقه على محمد غير محتاج الى البيان لأنه كان مأمورا بتنبيه الفجار والاشرار فان سقطوا عليه ترضضوا وان سقط هو عليهم سحقهم ٠

(الثالث) : قال النبى صلى الله عليه وسلم : (مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه الا موضع تلك اللبنة ختم بى البنيان وختم بى الرسل) ولما ثبتت نبوته بالأدلة الاخرى كما ذكرت نبذا منها فى المسالك السابقة فلا بأس بأن أستدل فى هذه البشارة بقوله أيضا ٠

(والرابع) : أن المتبادر من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن ٠

البشارة السابعة عشر : فى الباب الثانى من المشاهدات هكذا : ٢٦ (ومن يغلب ويحفظ أعمالى الى النهاية فسأعطيه سلطانا على الأمم فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما أخذت أيضا من عند أبى وأعطيه كوكب الصبح ، من له أذنان فليسمع ما يقول الروح بالكنائس) ٠ ونصوغ بعض تحليله لهذه البشارة باختصار :

« ان صاحب قضيب الحديد الذى يرعى به الأمم رسول الله صلى الله علية وسلم اذ اجتمع له سلطان الدين والدنيا ولخلفائه لاراشدين ودول المسلمين » ٠

والكنيسة المذكورة بأنها ستعطى له اسمها الأصلى (تياثيرا) كما قال القسيسان ويت ووليم اللذان ناظرا صاحب كتاب صولة الضيغم وهذه الكنيسة قريبة من القسطنطينية التى حكمها المسلمون من مئات السنين ٠

البشارة الثامنة عشر : وهذه البشارة واقعة فى آخر أبواب انجيل يوحنا وأنا أنقل عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ فى بلدة لندن فأقول فى الباب الرابع عشر من أنجيل يوحنا هكذا :

١٥ (ان كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم الى الابد روح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لانه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم) ٢٦ (والفارقليط روح القدس الذى يرسله الاب باسمى وهو يعلمكم كل شىء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) ٣٠ (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون) ٠

وفي الباب السادس عشر من انجيل يوحنا هكذا : ٧ (لكني أقول لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق لأني ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما ان انطلقت أرسلته اليكم) ٨ (فاذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطيئة وعلى البر وعلى حكم) ٩ (أما على الخطية فلانهم لم يؤمنوا بي) ١٠ (واما على البر فلاني منطلق الى الآب ولستم ترونني بعد) ١١ (وأما على الحكم فان اركون هذه قد دكن) ١٢ (وان لي كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن) ١٣ (واذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي) ١٤ (وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم) ٠

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرين :

الأمر الاول : انك قد عرفت في الامر السابع أن أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم أن يترجموا غالبا الاسماء وان عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني لا باليوناني ، فاذن لا يبقى شك في أن الانجيل الرابع ترجم اسم المبشر به باليوناني بحسب عادتهم ، ثم مترجمو العربية عربوا اللفظ اليوناني بفارقليط وقد وصلت الى رسالة صغيرة في لسان أردو من رسائل القسيسين في سنة ألف ومائتين وثمان وستين من الهجرة وكانت هذه الرسالة طبعت في كلكتة وكانت في تحقيق لفظ فارقليط وادعى مؤلفها أن مقصوده أن ينبه المسلمين على سبب وقوعهم في الغلط من لفظ فارقليط وكان ملخص كلامه : ان هذا اللفظ معرب من اللفظ اليوناني فان قلنا (ان هذا اللفظ اليوناني الأصل باراكلي طوس فيكون بمعنى المعزى والمعين والوكيل ، وان قلنا ان اللفظ الأصل بيركلوطوس يكون قريبا من معنى محمد وأحمد ، فمن استدل من علماء الاسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصل بيركلوطوس ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو أحمد لكن الصحيح أنه باراكلي طوس، انتهى ملخصا من كلامه فأقول : ان التفاوت بين اللفظين يسير جدا وان الحروف اليونانية كانت متشابهة فتبدل بيركلوطوس بـ باراكلي طوس في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس ثم رجع أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الأخر ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والامر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الانصاف اعتقد يقينا بأن مثل هذا الامر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد بل لا يبعد أن يكون من المستحسنات والأمر الثاني أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أنهم مصاديق لفظ فارقليط مثلا منتنس المسيحي الذى كان في القرن الثاني من الميلاد ، وكان مرتاضا شديدا واتقى عهده ، ادعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال انى هو الفارقليط الموعود به الذى وعد بمجيئه عيسى عليه السلام وتبعه أناس كثيرون ، ذلك كما هو مذكور في بعض التواريخ ، وذكر وليم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان أردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا :

(ان البعض قالوا انه ادعى أنى فارقليط يعنى المعزى روح القدس وهو كان اتقى ومرتاضا شديدا ولأجل ذلك قبله الناس قبولا زائدا) انتهى كلامه ٠٠ فعلم أن انتظار فارقليط كان فى القرون الاولى المسيحية أيضا ، ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم وقال صاحب لب التواريخ : « ان اليهود والمسيحيين من معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم كانوا منتظرين لنبى فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم لانه ادعى أنى هو ذاك المنتظر انتهى ملخص كلامه » ٠

فيعلم من كلامه أيضا أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبى فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وهو الحق لأن النجاشى ملك الحبشة لما وصل اليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم (فقال أشهد بالله أنه للنبى الذى ينتظره أهل الكتاب) وكتب فى الجواب (أشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، أى جعفر بن أبى طالب وأسلمت على يديه لله رب العالمين) ٠

وهذا النجاشى قبل الاسلام كان نصرانيا ، وكتب المقوقس ملك القبط فى جواب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم هكذا : (لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك ٠

أما بعــد ٠٠

فقد قرأت كتباك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت أن نبيــا قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك) ٠

والمقوقس هذا وان لم يسلم لكنه أقر فى كتابه أنى قد علمت أن نبيــا قد بقى وكان نصرانيا ٠ فهذان الملكان ما كانا يخافان فى ذلك الوقت من محمد صلى الله عليه وسلم لأجل شوكته الدنيوية ، وجاء الجارود بن العلاء فى قومه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « والله لقد جئت بالحق ونطقت بالصدق والذى بعثك بالحق نبيا لقد وجدت وصفك فى الانجيل وبشر بك ابن البتول فطول التحية لك والشكر لمن أكرمك لا أثر بعد عين ولا شــك بعــد يقين ، مد يدك فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنك محمد رسول الله » ثم آمن قومه ٠

وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشر بك ابن البتول أى عيسى عليه السلام فظهر أن المسيحيين أيضا كانوا منتظرين لخروج نبى بشر به عيسى عليه السلام ٠

فاذا علمت ذلك فأقول ان اللفظ العبرانى الذى قاله عيسى عليه السلام مفقود واللفظ اليونانى الموجود ترجمة لكنى أترك البحث عن الأصل وأتكلم عن هــذا

اللفظ اليونانى وأقول ان كان اللفظ اليونانى الأصل بيركلوطوس فالامر ظاهر وتكون بشارة المسيح فى حق محمد صلى الله عليه وسلم بلفظ هو قريب من محمد وأحمد وهذا وان كان قريب القياس بلحاظ عاداتهم لكننى أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم الزاما، وأقول ان كان اللفظ اليونانى الاصل باراكلى طوس كما يدعون فهذا لا ينافى الاستدلال أيضا لأن معناه المعزى والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعانى كلها تصدق على محمد صلى الله عليه وسلم. وأنا أبين الآن أولا أن المراد بفارقليط النبى المبشر به أعنى محمد صلى الله عليه وسلم لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذى جاء ذكره فى الباب الثانى من كتاب الأعمال وأذكر ثانيا شبهات العلماء المسيحية وأجيب عنها فأقول : أما الاول فيدل عليه أمور :

١ ــ ان عيسى عليه السلام قال أولا : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى » ، ثم أخبر عن فارقليط ، فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقى عليهم بعد ضرورى واجب الرعاية ، فلو كان فارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة الى هذه الفقرة لأن ما كان مظنونا أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لانهم كانوا مستفيضين به من قبل أيضا ، بل لا مجال للاستبعاد وأيضا لأنه اذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهورا بينا فلا يتصور انكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم فى صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد فهو عبارة عن النبى المبشر به • فحقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثيرين من أمته ينكرون النبى المبشر به عند ظهوره فأكد أولا بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه •

٢ ــ ان هذا الروح على زعمهم متحد بالأب مطلقا وبالابن نظرا الى لاهوته اتحادا حقيقيا فلا يصدق فى حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبى المبشر به فانه يصدق هذا القول فى حقه بلا تكلف •

٣ ــ ان الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لا من خواص هذا الروح المتحد بالله (على زعمهم) فلا يصدقان على الروح ويصدقان على النبى المبشر به بلا تكلف •

٤ ــ ان عيسى عليه السلام قال : « هو يذكركم كل ما قلته لكم » ولم يثبت من رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام • وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم اياه •

٥ ــ ان عيسى عليه السلام قال : « والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون » • وهذا دل على أن المراد به ليس الروح لأنك قد عرفت فى الامر الاول أنه ما كان عدم الايمان مظنونا منهم وقت نزوله بل لا مجال

للاستبعاد أيضا فلا حاجة الى هذا القول ، فلو أردنا به النبى المبشر به يكون هذا الكلام فى محله وفى غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية .

٦ ــ ان عيسى عليه السلام قال : « هو يشهد لأجلى » وهذا الروح ما شهد لاجله بين يدى أحد لان تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين الى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضا فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ما شهد بين أيديهم ، بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم فانه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه وبرأه عن ادعاء الالوهية الذى هو أشد أنواع الكفر والضلال وبرأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براءتهما فى القرآن فى مواضع متعددة وفى الأحاديث فى مواضع غير محصورة .

٧ ــ ان عيسى عليه السلام قال : « وأنتم تشهدون لأنكم معى من الابتداء » وهذه الآية فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا (وتشهدون أنتم أيضا لأنكم كنتم معى من الابتداء) وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا : (وتشهدون أنتم أيضا لانكم معى من الابتداء) . فيوجد فى هذه التراجم الثلاث لفظ أيضا وكذا يوجد فى التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وفى ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ أيضا فلفظ أيضا سقط من التراجم التى نقلت عنها عبارة يوحنا سهوا أو قصدا ، فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة فارقليط ، فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار فلا توجد مغايرة الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هى شهادته بعينها . فلا يصح هذا القول بخلاف ما اذا كان المراد به النبى المبشر به فان شهادته غير شهادة الحواريين .

٨ ــ ان عيسى عليه السلام قال : « ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما ان انطلقت أرسلته اليكم » .

فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين فى حضوره لما أرسلهم الى البلاد الاسرائيلية فنزوله ليس بمشروط بذهابه فلا يكون مرادا بفارقليط ، بل المراد به شخص لم يستفض منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئة موقوفا على ذهاب عيسى عليه السلام لان وجود رسولين ذوى شريعتين مستقلتين فى زمان واحد غير جائز بخلاف ما اذا كان الآخر متبعا لشريعة الأول أو يكون كل من الرسل متبعا لشريعة واحدة لانه يجوز فى هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر فى زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

٩ ـ ان عيسى عليه السلام قال : « يوبخ العالم » فهذا القول بمنزلة النص الجلى لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه وبخ العالم سيما اليهود على عدم ايمانهم بعيسى عليه السلام توبيخا لا يشك فيه الا معاند بحت ، وبخلاف الروح النازل يوم الدار فان توبيخه لا يصح على أصول أحد ، وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضا لأنهم كانوا يدعون الى الملة بالترغيب والوعظ وما قال رانكين فى كتابه المسمى بدافع البهتان الذى هو بلسان أردو فى رده على خلاصة صولة الضيغم « ان لفظ التوبيخ لا يوجد فى الانجيل ولا فى ترجمة من تراجم الانجيل ، وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقا بينا لأجل أن محمدا صلى الله عليه وسلم وبخ وهدد كثيرا الا أن مثل هذا التغليط ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله » • انتهى كلامه فمردود •

وهذا القسيس اما جاهل غالط أو مغلط ليس له ايمان ولا خوف من الله لأن هذا اللفظ يوجد فى التراجم العربية المذكورة التى نقلت عنها عبارة يوحنا ومن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا : « ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية الخ » وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦، وسنة ١٨٢٥ وفى التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ و ١٨٤١، يوجد لفظ الالزام ، ولفظ التبكيت والالزام أيضا قريبان من التوبيخ لكن لا شكاية منه لأن مثل هذا الامر من عادات علماء بروتستنت ولذلك ترى أن مترجمى الفارسية وأردو تركوا لفظ فارقليط لشهرته عند المسلمين فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ومترجم أردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ فان هؤلاء أسلافه أيضا حيث أرجع الى الروح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا اللفظ مؤنث وليس بمذكر •

١٠ ـ قال عيسى عليه السلام : « أما على الخطية فلانهم لم يؤمنوا بى » وهذا يدل على أن فارقليط يكون ظاهرا على منكرى عيسى عليه السلام موبخا لهم على عدم الايمان به ، والروح النازل يوم الدار ما كان ظاهرا على الناس موبخا لهم •

١١ ـ قال عيسى عليه السلام : « ان لى كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن » وهذا ينافى ارادة الروح النازل يوم الدار لأنه ما زاد حكما على أحكام عيسى عليه السلام لأنه على زعم أهل التثليث كان أمر الحواريين بعقيدة التثليث وبدعوة أهل العالم كله فأى أمر حصل لهم أزيد من أقواله التى قال لهم الى زمان صعوده ، نعم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التى هى ما عدا بعض الأحكام العشرة المذكورة فى الباب العشرين من سفر الخروج وحللوا جميع المحرمات وهذا الامر لا يجوز فى حقه أن يقال انهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حمل سقوط حكم تعظيم السبت الذى هو أعظم أحكام التوراة الذى كان اليهود ينكرون كون

عيسى عليه السلام مسيحا موعودا به لأجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الاحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول زيادة الأحكام لاجل ضعف الايمان وضعف القوة الى زمان صعوده كما يعترف به علماء بروتستنت كان خارجا عن استطاعتهم فظهر أن المراد بفارقليط نبى تزاد فى شريعته أحكام بالنسبة الى الشريعة العيسوية ويثقل حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد صلى الله عليه وسلم ٠

١٢ ـ ان عيسى عليه السلام قال : « ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع » وهذا يدل على أن فارقليط يكون بحيث يكذبه بنو اسرائيل فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ولا مجال لمظنة التكذيب فى حق هذا الروح النازل يوم الدار على أن هذا الروح عندهم عين الله فلا معنى لقوله بل يتكلم بما يسمع فمصداقه محمد صلى الله عليه وسلم فانه كان فى حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله وكان يتكلم بما يوحى اليه كما قال الله تعالى : ((**وما ينطق عن الهوى ٠ ان هو الا وحى يوحى**)) وقال : ((**ان أتبع الا ما يوحى الى**)) ٠

١٣ ـ ان عيسى عليه السلام قال «انه يأخذ مما هو لى» وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق وقادر مطلق ليس له كمال منتظر بل كل كمال من كمالاته حاصل له بالفعل ، فلابد أن يكون الموعود به من الجنس الذى يكون له كمال منتظر ، ولما كان هذا الكلام موهما أن يكون هذا النبى متبعا لشريعته دفعه بقوله فيما بعد « جميع ما للاب فهو لى فلاجل هذا قلت مما هو لى يأخذ » يعنى أن كل شىء يحصل لفارقليط من الله فكأنه يحصل منى كما اشتهر من كان لله كان الله له ، فلاجل هذا قلت ان مما هو لى يأخذ ٠

وأما الثانى : أعنى الشبهات التى توردها علماء بروتستنت فخمسة :

الشبهة الأولى : جاء فى هذه العبارة تفسير فارقليط بروح القدس وروح الحق وهما عبارتان فى الأقنوم الثالث فكيف يصح أن يراد بفارقليط محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

أقول فى الجواب : ان صاحب ميزان الحق يدعى فى تأليفاته كون ألفاظ روح الله وروح القدس وروح الحق وروح الصدق وروح فم الله بمعنى واحد ، قال فى الفصل الأول الباب الثانى من مفتاح الاسرار فى الصفحة ٥٣ من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : « ان لفظ روح الله ولفظ روح القدس فى التوراة والانجيل بمعنى واحد » انتهى ٠

فادعى أن هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد فى العهدين وقال فى حل الاشكال فى جواب كشف الأستار : « من له شعور ما بالتوراة والانجيل فهو

يعرف أن ألفاظ روح القدس وروح الحق وروح فم الله وغيرها بمعنى روح الله ، فلذلك ما رأيت إثباته ضروريا » انتهى ٠

فاذا ما عرفت هذا القول نحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته ههنا ونسلم ترادف هذه الألفاظ على زعمه لكنا ننكر أن استعمالها فى كل موضع من مواضع العهدين بمعنى الاقنوم الثالث ونقول قولا مطابقا لقوله من له شعور ما بكتب العهدين يعرف أن هذه الألفاظ تستعمل فى غير الاقنوم الثالث كثيرا ، فى الآية الرابعة عشر من الباب السابع والثلاثين من كتاب حزقيال قول الله تعالى فى خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا : (فأعطى فيكم روحى) ففى هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الانسانية لا بمعنى الأقنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم ٠

وفى الباب الرابع من الرسالة الأولى ليوحنا هكذا : ترجمة عربية سنة ١٧٦٠ : ١ (أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الارواح هل هى من الله ، لان الانبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا الى العالم) ٠

(بهذا تعرفون روح الله كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله) ٠

(نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال) ٠

وهذه الجملة الواقعة فى الآية الثانية : (بهذا تعرفون روح الله) وفى التراجم الأخر هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ (وبهذا يعرف روح الله) ترجمة عربية سنة ١٨٢٥ (فانكم تميزون روح الله) ولفظ روح الله فى الآية الثانية ولفظ روح الحق فى الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الأقنوم الثالث ولذلك ترجم مترجم ترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ولفظ الأرواح بالواعظين فى الآية الاولى ولفظ روح فى الآية الثانية بالواعظ من جانب الله ، ولفظ روح الحق فى الآية السادسة بالواعظ الصادق ، وترجم لفظ روح الضلال بالواعظ المضل ، وليس المراد بروح الله وروح الحق الأقنوم الثالث الذى هو عين الله على زعمهم وهو ظاهر ، فتفسير فارقليط بروح القدس وروح الحق لا يضرنا لانهما بمعنى الواعظ الحق ، كما أن لفظ روح الحق وروح الله بهذا المعنى فى الرسالة الأولى ليوحنا فيصح اطلاقهما على محمد صلى الله عليه وسلم بلا ريب ٠

الشبهة الثانية : ان المخاطبين بضميركم الحواريون فلابد أن يظهر فارقليط فى عهدهم ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يظهر فى عهدهم ٠

أقول هذا أيضا ليس بشىء لأن منشأة أن الحاضرين وقت الخطاب لابد

أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب ، وهو ليس بضرورى فى كل موضــع ؛ ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام فى الآية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من انجيل متى فى خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هكذا : (وأيضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء) ، وهؤلاء المخاطبون قد ماتوا ومضت على موتهم مدة هى أزيد من ألف وثمانمائة سنة وما رأوه آتيا على سحاب الســماء ، فكمــا أن المراد بالمخاطبين ههنــا الموجودون من قومهم وقت نزوله من السماء فكذلك فيما نحن فيه ٠

الشبهة الثالثة : أنه وقع فى حق فارقليط أن العالم لا يراه ولا يعــرفه وأنتم تعرفونه وهو لا يصدق على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأن الناس رأوه وعرفوه ٠

أقول : هذا أيضا ليس بشىء وهم أحوج الناس تأويلا فى هذا القــول بالنسبة الينا لأن روح القدس عين الله عندهم والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد صلى الله عليه وسلم فلابد أن نقول ان المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة ، ففى صورة التأويل لا اشتباه فى صدق هذا القول على محمد صلى الله عليه وسلم ويكون المقصود أن العالم لا يعرفه معرفة حقيقية كاملة وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة والمراد بالرؤية المعرفة ، ولذا لم يعد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بعد لفظ أنتم ، بل قال : وأنتم تعرفونه ٠ ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية يكون نفى الرؤية محمولا على ما هو المراد من قول الانجيــل الأول فى الباب الثالث عشر من انجيله ٠ وأنقل عبارته عن الترجمة العربيــة المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ :

١٣ (فلذلك أضرب لهم الأمثال لانهم ينظرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون) ١٤ (وقد كمل فيهم تنبؤ أشعيا حيث قال : انكم تستمعون سمعا ولا تفهمون وتنظرون نظرا ولا تبصرون) فلا اشكال أيضــا وأمثال هذين الأمرين وان كانت معانى مجازية ، لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية ووقعت فى كلام عيسى عليه السلام كثيرا فى السابعة والعشرين من البــاب الحادى عشر من انجيل متى هكذا : (وليس أحد يعرف الابن الا الأب ولا أحد يعرف الاب الا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له) وفى الآية الثامنة والعشرين من الباب السابع من انجيل يوحنا هكذا : (الذى أرسلنى حق ، الذى أنتم لستم تعرفونه) وفى الباب الثامن من انجيل يوحنا هكذا : ١٩ (لستم تعرفوننى أنا ولا أبى ، لو عرفتمونى لعرفتم أبى أيضا) ٥٥ (ولستم تعرفونه أى الله) وفى الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من انجيل يوحنا هكذا : أيها الأب ان العالم (لم يعرفك أما أنا فعرفتك) وفى الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا : (لو كنتم قد عرفتمونى لعرفتم أبى أيضا ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه) ٨ (قال له فيلبس يا سيد أرنا الأب وكفانا) ٠

٩ (قال له يسوع : أنا ملكم زمانا هذه مدته ولم تعرفنى يا فيلبس الذى رآنى فقد رأى الأب فكيف تقول انت أرنا الاب) فالمراد بهذه الاقوال بالمعرفة المعرفة الكاملة وبالرؤية المعرفة والا لا تصح هذه الاقوال يقينا لان العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام فضلا عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايخ والحواريين ورؤية الله بالبصر فى هذا العالم ممتنعة عند أهل التثليث أيضا ٠

الشبهة الرابعة : انه وقع فى حق فارقليط (انه مقيم عندكم وثابت فيكم) ويظهر من هذا القول ان فارقليط كان فى وقت الخطاب مقيما عند الحواريين وثابتا فيهم فكيف يصدق على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ٠

أقول : هذا القول فى التراجم الأخرى هكذا : ترجمة عربية سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٥ (لانه مستقر معكم وسيكون فيكم) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨١٤ وترجمة أردو المطبوعة سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٣٩ كلها مطابقة لهاتين الترجمتين وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ (هكذا ماكث معكم ويكون فيكم) فظهر ان المراد بقوله ثابت فيكم الثبوت الاستقبالى يقينا فلا اعتراض به لوجه من الوجوه وبقى قوله مقيم عندكم فأقول : لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عندكم الآن لأنه ينافى قوله (أنا أطلب من الاب فيعطيكم فارقليط آخر) وقوله (قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون) وقوله (ان لم انطلق لم يأتكم الفارقليط) واذا أول بقول بمعنى الاستقبال كما أن القول الذى بعده بمعنى الاستقبال ومعناه يكون مقيما عندكم فى الاستقبال فلا خدشة فى صدقه أيضا على محمد صلى الله عليه وسلم والتعبير عن الاستقبال بالحال بل بالماضى فى الأمور المتيقنة كثير فى العهدين، ألا ترى أن حزقيال عليه السلام أخبر أولا عن خروج يأجوج ومأجوج فى الزمان المستقبل واهلاكهم حين وصولهم الى جبال اسرائيل ثم قال فى الآية الثانية من الباب التاسع والثلاثين من كتابه هكذا (ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذى قلت عنه) فانظروا الى قوله ها هو جاء وصار ٠٠ فعبر عن الحال المستقبل بالماضى لكونه يقينا لا شك فيه وقد مضت مدة أزيد من الفين وأربعمائة وخمسين سنة ولم يظهر خروجهم وفى الآية الخامسة والعشرين من الباب الخامس من انجيل يوحنا هكذا (الحق الحق أقول لكم : انه تأتى ساعة وهى الآن حين يسمع الاموات صوت ابن الله والسامعون يحيون) فانظروا الى قوله وهى الآن وقد مضت مدة أزيد من ألف وثمانمائة ولم تجئ هذه الساعة والى الآن أيضا مجهولة ، لا يعرف أحد متى تجيء ٠٠

الشبهة الخامسة : فى الباب الأول من كتاب الاعمال هكذا (وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم ان لا يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الأب الذى سمعتموه منى) لأن يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس،

ليس بعد هذه الايام بكثير وهذا يدل على أن فارقليط هو الروح النازل يوم الدار لأن المراد بوعد الاب هو فارقليط ·

أقول : الادعاء بأن المراد بموعد الاب هو فارقليط ادعاء محض بل هو غلط ثلاثة عشر وجها وقد عرفتها ، بل الحق ان الاخبار عن فارقليط شيء والوعد بانزال الروح عليه مرة أخرى شيء آخر وقد وفي الله بالوعدين وقد عبر بالوعد الأول بمجيء فارقليط وههنا بموعد الاب ، غاية الامر أن يوحنا نقل بشارة فارقليط ولم ينقلها الانجيليون الباقون ولوقا نقل موعد نزول الروح الذى نزل يوم الدار ولم ينقله يوحنا ولا بأس فيه فانهم قد يتفقون فى نقل الأقوال الخسيسة كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب الى أورشليم · اتفق على نقله الاربعة وقد يتخالفون فى نقل الاحوال العظيمة · ألا ترى ان لوقا انفرد بذكر احياء ابن الارملة من الاموات فى نابين وبذكر ارسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذا ، أو بذكر ابراء عشرة برص · ولم يذكر هذه الحالات أحد من الانجيليين مع أنها من الحالات العظيمة ، وأن يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس فى قانا الجليل وظهر من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمرا وهذه المعجزة أول معجزاته ، وسبب ظهور مجده وايمان التلاميذ به وبذكر ابراء السقيم فى بيت صيدا فى أورشليم وهذه أيضا معجزة عظيمة ، والمريض كان مريضا من ثمانية وثلاثين سنة ، ويذكر قصة امرأة أخذت فى زنا ويذكر ابراء الأكمة وهذا أيضا من أعظم معجزاته وهى مصرحة بهما فى الباب التاسع ، ويذكر احياء العاذر من بين الأموات ولم يذكرها أحد من الانجيلين مع أنها حالات عظيمة وهكذا حال متى ومرقس فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التى لم يذكرها غيرهما ولما طال البحث فى هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التى نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندهم فى زماننا · اهـ ·

— ٦ —

وهناك كتاب ظهر فى أوروبا وأحدث ضجة وأخذا وردا ثم كانت النتيجة ان رفضه العالم النصرانى بلا مبرر · هذا الكتاب يسمى « انجيل برنابا » والكتاب أعطى قولا فصلا فى المسائل الثلاث الأساسية وهى رسالة عيسى ورسالة محمد وعدم صلب المسيح ·

فهل هناك مبرر لرفض هذا الكتاب :

١ — يذكر التاريخ ان البابا جيلاسيوس الأول الذى جلس على الاريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أى قبل ميلاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بحوالى قرن أصدر أمرا ينهى فيه عن مطالعة كتب معينة من جملتها كتاب اسمه انجيل برنابا · اذن من المعروف تاريخيا أن هناك كتابا اسمه انجيل برنابا موجود قبل الاسلام ·

٢ — وقد عثر على هذا الانجيل على نسختين : ايطالية واسبانية أما الاسبانية

فقد أقرضها الدكتور (هلم) من هدلى ـ بلدة من أعمال همبشير ـ المستشرق سايل ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكهوس أحد أعضاء الكلية الملكية فى أكسفورد فنقلها الى الانكليزية ثم دفع الترجمة مع الأصل سنة ١٧٨٤ الى الدكتور هويت أحد مشاهير الاساتذة ثم بعد ذلك طمس خبرها وامحى أثرها ٠

وأما النسخة الايطالية فموجودة فى مكتبة بلاط فيينا وأول من عثر عليها كريمر أحد مستشارى ملك بروسيا وكان مقيما وقتئذ فى أمستردام فأخذها سنة ١٧٠٩ من مكتبة أحد مشاهير وجهاء المدينة المذكورة فأقرضها كريمر طولند ثم أهداها بعد ذلك بأربع سنين الى البرنس ايوجين سافوى ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨ مع سائر مكتبة البرنس الى مكتبة البلاط الملكى فى فيينا حيث لا تزال هنالك ٠ واذن هذا الكتاب فى ورده وصدر أوروبى ٠

٣ ـ انه لم يعرف بتاتا عند المسلمين أن هناك كتابا اسمه انجيل برنابا قبل ظهوره فى أوروبا ولو أن للمسلمين يدا فى صنع هذا الانجيل لذكروه وحاولوا نشره وكان مشهورا ٠

٤ ـ يذكر سايل انه مذكور فى النسخة الاسبانية المفقودة انها مترجمة عن النسخة الايطالية وفيها مقدمة عن الراهب الذى اكتشف النسخة الايطالية والقصة هى ما يلى : ان الراهب اللاتينى فرامرينو عثر على رسائل لايريناوس وفى عدادها رسالة يندد فيها بالقديس بولس الرسول وان ارينايوس أسند تنديده هذا الى انجيل القديس برنابا فأصبح من ذلك الحين الراهب فرامرينو المشار اليه شديد الشغف بالعثور على الانجيل واتفق انه أصبح حينا من الدهر مقربا من البابا سكتس الخامس فحدث يوما انهما دخلا معا مكتبة البابا فأخذت البابا سنة من نوم فأحب مرينو أن يقتل الوقت فى المطالعة الى أن يفيق البابا فكان الكتاب الأول الذى وضع يده عليه هو هذا الانجيل نفسه فكاد أن يطير فرحا من هذا الاكتشاف فخبأ هذه الذخيرة الثمينة فى أحد وردنيه ولبث الى أن استفاق البابا فأستأذنه بالانصراف حاملا ذلك الكنز معه فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على أثر ذلك الدين الاسلامى ٠

٥ ـ ان الكتاب متماسك يشكل وحدة متكاملة ويدل على علم لا مثيل له فى كتب العهد القديم وفيه من براعة الحجة ووضوح المسلك ودقة الخطاب وتوضيح خفايا فى حياة المسيح عليه السلام وتشابه كثير بين بعض مقاطعه والأناجيل الاخرى كل ذلك يجعل احتمال نسبته الى برنابا أكبر من أى احتمال آخر ٠

٦ ـ ان الكتاب لا يوجد فيه ما يشير الى تأثره بالمفاهيم الاسلامية بتاتا ولا يوجد فيه ما يشم منه أن صاحبه قد قرأ القرآن أو عرف دين النبى محمد صلى الله عليه وسلم مما يؤكد أن الكتاب لم يؤلفه مسلم وانه كتب قبل الاسلام ٠

٧ ــ والدارس للكتاب يرى أن له صولة فى تهذيب النفس وترقيتها ويحس صدق العبارة وحرارة الاخلاص فيفتح له الكتاب آفاقا روحية لا يستطيع الانسان أن يتصور بعدها أن رجلا اختلق هذا الكتاب كذبا وزورا • وبعد هذه المقدمات ننقل فقرات من هذا الكتاب مما له علاقة ببحثنا من البشارات الصادرة على لسان المسيح به فى رسالة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام :

١ ــ فى الفصل السابع عشر يقول : ولكن سيأتى بعدى بهاء كل الانبياء والاطهار فيشرق نورا على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لانه رسول الله أى يبين غامض أقوالهم •

٢ ــ فى الفصل الثالث والاربعين يقول : الحق أقول لكم ان كل نبى متى جاء فانه انما يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذى أرسلوا اليه ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الارض الذين يتبلون تعليمه وسيأتى بقوة على الظالمين ويبيد عبادة الاصنام بحيث يخزى الشيطان لأنه هكذا وعد الله ابراهيم قائلا : انظر فانى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا ابراهيم الاصنام تحطيما ، هكذا سيفعل نسلك أجاب يعقوب : يا معلم قل لنا بمن صنع هذا العهد فان اليهود يقولون باسحق والاسماعيليون يقولون باسماعيل • أجاب يسوع ابن من كان داوود ومن أى ذرية : أجاب يعقوب من اسحق لأن اسحاق كان أبا يعقوب ويعقوب كان أبا يهوذا الذى من ذريته داوود • فحينئذ قال يسوع •• ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون ؟ أجاب التلاميذ من داوود فأجاب يسوع : لا تغشوا أنفسكم لأن داوود يدعوه فى الروح ربا قائلا هكذا : قال الله لربى اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك يرسل الرب قضيبك الذى سيكون ذا سلطان فى وسط أعدائك فاذا كان رسول الله الذى تسمونه مسيا ابن داوود فكيف يسميه داوود ربا صدقونى لأنى أقول لكم الحق ان العهد صنع باسماعيل لا باسحق •

٣ ــ وفى الفصل الرابع والاربعين يقول : لذلك أقول لكم ان رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تقريبا لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة روح الحكمة والقوة روح الخوف والمحبة روح التبصر والاعتدال ، مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العدل والتقوى روح اللطف والصبر التى أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه ، ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه الى العالم صدقونى انى رأيته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبى لأن الله يعطيهم روحه نبوة ولما رأيته امتلأت عزاء قائلا يا محمد ليكن الله معك وليجعلنى أهلا ان أحل سير حذائك لأنى اذا نلت هذا صرت نبيا عظيما وقدوس الله •

٤ ــ وفى الفصل الرابع والخمسين يقول : فمتى مرت هذه العلامات تغشى العالم ظلمة أربعين سنة ليس فيها من حى الا الله وحده الذى له الاكرام والمجد الى الابد ومتى مرت الأربعون سنة يحيى الله رسوله الذى سيطلع أيضا

كالشمس بيد أنه متألق كألف شمس فيجلس ولا يتكلم ٠٠ وسيقيم الله أيضا الملائكة الأربعة المقربين الذين ينشدون رسول الله فمتى وجدوه قاموا على الجوانب الاربعة للمحل حراسا له ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين يأتون كالنحل ويحيطون برسول الله ثم يحيي الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعهم تابعين لآدم فيقبلون يد رسول الله واضعين أنفسهم فى كنف حمايته ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون اذكرنا يا محمد فتتحرك الرحمة فى رسول الله لصراخهم ٠٠٠ ، ١٧ ثم قال يسوع أرجو الله ألا أرى هذه الهولة فى ذلك اليوم ان رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظر لأنه لا يخاف الا الله وحده ٠٠٠٠ ، ٢١ عند ذلك يخاف رسول الله لانه يدرك أن لا أحد أحب الله كما يجب ٠٠٠٠ ، ٢٣ ولكن اذا خاف رسول الله فماذا يفعل الفجار المملؤون شرا ٠٠

٥ ــ فى الفصل الثانى والثمانين يقول : ولكن صدقينى أنه يأت وقت يعطى الله فيه رحمته فى مدينة أخرى ويمكن السجود له فى كل مكان بالحق ويقبل الله الصلاة الحقيقية فى كل مكان برحمته أجابت المرأة اننا ننتظر مسيا فمتى جاء يعلمنا أجاب يسوع أتعلمين أيتها المرأة أن مسيا لابد ان يأتى أجابت نعم يا سيد حينئذ تهلل يسوع وقال : ويلوح لى أيتها انك مؤمنة فاعلمى أنه بالايمان بمسيا سيخلص كل مختارى الله اذن وجب أن تعرفى مجىء مسيا قالت المرأة : لعلك أنت مسيا أيها السيد ٠ أجاب يسوع انى حقا أرسلت الى بيت اسرائيل نبى خلاص ولكن سيأتى بعدى مسيا المرسل من الله لكل العالم الذى لأجله خلق الله العالم ، وحينئذ يسجد لله فى كل العالم وتنال الرحمة حتى ان سنة اليوبيل التى تجىء الآن كل مئة سنة سيجعلها مسيا كل سنة فى كل مكان ٠

٦ ــ وفى الفصل الثالث والثمانين (وبعد صلاة نصف الليل اقترب التلاميذ من يسوع فقال لهم ستكون هذه الليلة فى زمن مسيا رسول الله اليوبيل السنوى الذى يجىء الآن كل مئة سنة لذلك لا أريد أن ننام بل أن نصلى) ٠٠ ولعله أراد بهذه الليلة ليلة القدر أو ليلة براءة أى ليلة النصف من شعبان وعلى هذا نفهم أن تجلياتها كانت مرة كل مئة سنة من قبل وعلى هذا نفهم الكلمة ٠٠ ان سنة اليوبيل التى تجىء الآن كل مئة سنة فى الفقرة السابقة ، ان المقصود منها اصطلاح خاص بهذه الليلة والله أعلم ٠

٧ ــ الفصل السادس والتسعين أجاب يسوع : لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى أنى لست مسيا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا ابراهيم قائلا بنسلك أبارك كل قبائل الارض ولكن عندما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لاجله الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الاصنام وسينتزع من الشيطان

سلطته على البشر وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا ٠

٨ ـ فى الفصل السابع والتسعين : فقال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا وما هى العلامة التى تعلن مجيئة ؟ أجاب يسوع : اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى قال الله : اصبر يا محمد لانى لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجما غفيرا من الخلائق التى أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركا ومن يلعنك يكون ملعونا ومتى أرسلتك الى العالم أجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن ايمانك لا يهن ان اسمه المبارك محمد ٠

هذه شذرات مما ورد فى هذا الكتاب واذا ثبت أن الكتاب كان موجودا قبل الاسلام فقد ثبت عندئذ أن ذلك مما بقى صحيحا من آثار عيسى والله أعلم ٠

— ٧ —

ونختم البحث بنصين كل منهما يدل بما لا يقبل الشك أن النصارى أثناء بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا ينتظرون رسولا أوصافه هى نفس أوصاف السيد الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

١ ـ قصة سلمان الفارسى الذى هرب من الأرض الفارسية باحثا عن الدين الحق : يقول سلمان لما قدمت الشام قلت من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا الأسقف فى الكنيسة قال فجئته فقلت انى قد رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك فى كنيستك وأتعلم منك وأصلى معك قال فادخل فدخلت معه ، قال فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فاذا جمعوا له أشياء اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق قال : وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ثم مات فاجتمعت اليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : ان هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فاذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا قالوا : وما علمك بذلك ! قال : قلت أنا أدلكم على كنزه فدلنا عليه قال : فأريتهم موضعه قال فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا قال فلما رأها قالوا : والله لا ندفنه أبدا فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ٠ ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلا لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا منه قال : فأحببته حبا لم أحبه من قبل وأقمت معه زمانا ثم حضرته الوفاة فقلت له يا فلان انى كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله فالى من توصى بى وما تأمرنى : فقال يا بنى والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجل بالموصل

وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به ٠ قال فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له يا فلان ان فلانا أوصانى عند موته أن الحق بك وأخبرنى انك على أمره قال فقال لى : أقم عندى فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له يا فلان ان فلانا أوصى بى اليك وأمرنى باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى فالى من توصى بى وما تأمرنى : قال يا بنى والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه الا رجلا بنصيبين وهو فلان فالحق به فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبرى وما أمرنى به صاحبى قال فأقم عندى فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له يا فلان ان فلانا كان أوصى بى الى فلان ثم أوصى بى فلان اليك فالى من توصى بى وما تأمرنى : قال : أى بنى والله ما نعلم أحدا بقى على أمرنا آمرك أن تأتيه الا رجلا بعمورية فانه بمثل ما نحن عليه فان أحببت فأته قال : فانه على أمرنا ٠ قال مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبرى فقال أقم عندى فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم قال واكتسبت حتى كان لى بقرات وغنيمة قال : ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان انى كنت مع فلان فأوصى بى فلان الى فلان وأوصى بى فلان الى فلان ثم أوصى بى فلان اليك فالى من توصى بى وما تأمرنى : قال أى بنى والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظلك زمان نبى هو مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا الى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فان استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ٠. والرواية متصلة السند رواتها عدول ٠

٢ ـ وروى البخارى ومسلم عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال : حدثنى أبو سفيان بن حرب قال : انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الشام فبينا أنا بها اذ جىء بكتاب من النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل جاء به دحية الكلبى فدفعه الى عظيم بصرى فدفعه الى عظيم الروم هرقل فقال هرقل : هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى قالوا نعم : فدعيت فى نفر من قريش فدخلنا عليه فأجلسنا بين يديه فقال : أيكم أقرب نسبا منه فقلت أنا فأجلسنى بين يديه وأصحابى خلفى ثم دعا بترجمانه فقال : قل لهؤلاء انى سائل هذا عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فان كذبنى فكذبوه ٠ قال أبو سفيان وأيم الله لولا أن يؤثر على الكذب لكذبته ثم قال لترجمانه سله كيف نسبه فيكم ، قلت هو فينا ذو نسب ، قال فهل كان من آبائه من ملك ، قلت لا ٠ قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال : قلت لا ٠ قال فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم قلت : بل ضعفاؤهم قال : أيزيدون أم ينقصون : قلت لا ٠ بل يزيدون قال هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له قلت لا ٠ قال

فهل قاتلتموه قلت نعم قال : كيف قتالكم اياه • قلت تكون الحرب بيننـــا وبينه سجالا يصيب منا ونصيب منه • قال فهل يغدر قلت لا • ونحن منه في هذه المدة ما ندرى ما هو صانع • قال أبو سفيان فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه قال فهل قال هذا القول أحد قبله قلت لا • فقال لترجمانه قل له انى سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها • وسألتك هل كان فى آبائه ملك فزعمت أن لا فقلت لو كان فى آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتبـاع الرسـل وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى • وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له فزعمت أن لا فكذلك الايمان اذا خالطت بشاشته القلوب وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك أمر الايمان حتى يتم • وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم سجالا ينال منكم وتنالون منه وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة • وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا فقلت لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم يقول بقول قيل قبله • ثم قال : بم يأمركم قلنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف فقال ان يك ما تقول حقا فانه نبى وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم • ولو أعلم أنى أخلص اليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمى ثم دعا بكتاب رسول الله فقرأه فاذا فيه •••• فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الاصوات عنده وكثر اللغط فأمر بنا فأخرجنا فقلت لأصحابى لقـــد أمر أمر ابن أبى كبشة أنه ليخافه ملك بنى الاصفر •



وأخيرا سأل الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب قصص الأنبياء الدكتور (كارلو نلينو) المستشرق الايطالى عن كلمة (بير كليتوس) الواردة فى الاناجيل : فأجابه بقوله : ان القسس يقولون ان هذه الكلمة معناها (المعزى) فقال له انى أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراة فى آداب اللغـة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيسا فقال : ان معناها الذى له حمـد كثير فسأله أيضا : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمـد فقال : نعم وهـذا ما جاء فى القرآن على لسان المسيح :

((ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)) •

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم : (من قال رضيت بالله تعالى ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا وجبت له الجنة) أخرجه أبو داود ٠

واذا مر معك فى المبحث الأول عن الله ما أثلج ضميرك يقينا نهيبب بك أن ترضى بالله ربا ٠

واذا مر معك فى المبحث الثانى عن الرسول ما أثلج صدرك يقينا نهيب بك أن ترضى به رسولا ٠

وها نحن سنبدأ بعرض الاسلام دين الله الذى بلغه لنا رسول الله فى المبحث الثالث ونهيب بك أن ترضاه دينا ٠

لتكون بعد هذا كله أهلا لنيل رضوان الله وجنته ولتنجو بهذا من سخط الله وعقوبته والله ولى أمرنا وأمرك ٠

فهارس الكتاب

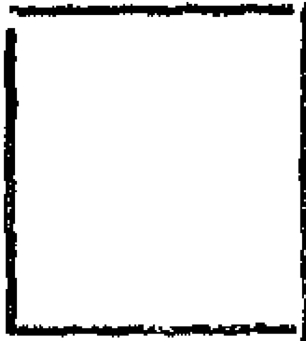
الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع | الصفحة

دار التراث العربي للطبــاعة

١٣ ش سعدالله بالدرب الأحمر

ت ٩٣٦١٤٥



الأصل الثالث

الإسلام

الطبعة الأولى
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

دراسات منهجية هادفة

حول الأصول الثلاثة:

الله، الرسول، الإسلام

الأصل الثالث

الإسلام

الجزء الأول

تأليف

سعيد حوّى

راجعه الأستاذ

وهبي سليمان الغاوجي

نظر في هذا الفصل قبل طبعه أستاذنا وأخونا الشيخ وهبي سليمان الغاوجي وأبدى ملاحظاته التي انتفعنا بها فجزاه الله خيراً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المقدمة

١ ــ الإسلام دين المرسلين والنبيين جميعا ؛ من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التي بها ختم الله الرسالات ؛ وقد أكد الله في القرآن هذا المعنى تأكيدا تاما . فذكر على لسان نوح قوله « وأمرت أن أكون من المسلمين » وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل « ربنا واجعلنا مسلمين لك » وفي وصية يعقوب لأولاده « إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وعن موسى عليه السلام « فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » وفي معرض الحديث عن التوراة « يحكم بها النبيون الذين أسلموا » وعن يوسف عليه السلام : « توفني مسلما وألحقني بالصالحين » وعن سحرة فرعون وقد آمنوا بموسى « ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » وعن حواريي عيسى « آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » وعن ملكة سبأ وقد آمنت « وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين » وفي دعاء الرجل الصالح « وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين » وقد ورد في الحديث الصحيح (والأنبياء اخوة أبناء علاّت أمهاتهم شتى ودينهم واحد) أخرجه الشيخان وأبو داوود . قال تعالى « شَرَع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

٢ ــ والإسلام في الأصل معناه الاستسلام لله في أمره ونهيه على لسان الوحي ؛ فمن

أسلم وجهه وقلبه لله في كل أمر فهو المسلم ؛ ولما كان النبيون والمرسلون أكثر الناس لله استسلاما ، فقد كانوا بذلك أول المسلمين « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » « قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » . وبدون تسليم واستسلام لله في حكمه فلا إسلام « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وحكم الله إنما يعرف بواسطة الوحي الثابت ، إذا بلّغنا إياه الرسول الصادق ، فإذا ما كان هذا فإن منطقية الإنسان أن يستسلم لأمر الله ذلك . لأنه ما دام الإنسان من خلق الله ، وما دام علْم الله محيطاً بكل شيء ، وما دام الله هو الحكيم ، فمقتضى عبودية الإنسان أن يستسلم له ، وتقتضي سنن الحياة أن يستسلم الإنسان لله ، لأن الله أعلم بها وبالإنسان .

٣ ــ ولما كان صلاح الإنسان باستسلامه لله ، فإن الله لم يترك أمة من الأمم إلا وقد أرسل لها رسولا « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » وقال عليه السلام : (أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) ونفهم من هذا وَهْمَ الذين يتصورون أن الرسل لم يرسلوا إلا إلى بعض الأمم ، وبعض المناطق . فالحقيقة خلاف هذا ، وإن كنا لا نستطيع الجزم بمعرفة الرسول إلا إذا ورد الوحي الثابت بذكره .

فمثلا : الفرس يعتقدون أن لهم نبيا إسمه ــ زرادشت ــ ونحن نعتقد أن الفرس قد أرسل لهم رسول بالآية القرآنية وبأثر ابن عباس (إن أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس المجوسية) ولكننا لا نستطيع أن نجزم أن ــ زرادشت ــ هذا نبي وعلى هذا ما تذكره بقية الأمم عن انبيائها مما لم يذكره القرآن .

٤ ــ والاسلام يطلق على معنيين :

أ ــ على نفس النصوص التي يوحي بها الله مبينا دينه .

ب ــ وعلى عمل الإنسان في إيمانه بهذه النصوص واستسلامه لها .

والملاحظ أن الإسلام بالمعنى الأول يختلف سعة وشمولا من رسول إلى رسول ،

مع اتفاقه بالمبادىء والأصول . فالإسلام الذي أنزل على موسى أوسع مما أنزل على نوح ، لأن الله ذكر عن التوراة « وكتبنا لهم فيها من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء » . وإسلام محمد ﷺ أوسع من إسلام أي رسول سابق ، لأن الرسل السابقين جميعا بعثوا لأقوامهم خاصة ، والرسول عليه السلام بعث للناس جميعا ، فاقتضى ذلك أن يكون إسلامه أشمل وأوسع من كل رسالة سابقة ، وقد وصف الله القرآن بقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » .

٥ — وبذلك تم بناء النبوة والرسالة : فهدانا الله لسنن الأنبياء والمرسلين السابقين « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » « ويهديكم سنن الذين من قبلكم » وأكمل لنا ما ينبغي أن يكمل « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » وقال عليه السلام (مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون لـــه ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين) أخرجه الشيخان . وبهذا الكمال والتمام أصبحت البشرية كلها مطالبة به ، فنسخ بذلك كل شرع سابق ولن يتنزل بعد ذلك شرع لاحق ، اذ بمحمد ﷺ ختمت الرسالة « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا » « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » . « إن الدين عند الله الإسلام » . فمن لم يتبع محمدا ﷺ فهو هالك ضال .

(والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) أخرجه مسلم .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولـــه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا » .

وفي الأصل فإن الإسلام الذي بعث به الرسل السابقون ، قد نُسي ، أو حرف أو بدل وطمست معالم الحق فيه ، واستقر الباطل عند أهله ، في عقائدهم ، وعباداتهم وسلوكهم ، وإذا علمنا أنه لا يوجد الآن أي كتاب ديني في العالم غير القرآن وحديث

الرسول ﷺ الصحيح له سند متصل أدركنا أن الإنسانية إذا أرادت الإسلام لربها، ليس أمامها إلا اتباع محمد ﷺ وليست مختارة في ذلك، فإن الله لا يقبل غيره.

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ».

٦ ـ والإسلام الذي دعا اليه رسول الله ﷺ يعرف من الكتاب والسنة المعتمدة عند علماء نقد الروايات. وهذا الإسلام هداية كاملة للإنسان والناس، فإن الله عز وجل جعله كاملا وشاملا بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا وقد بُين حكمها فيه. إباحةً، أو حرمةً، أو كراهةً، أو سنيةً، أو وجوباً، أو فريضة. سواء في ذلك شئون العقيدة، أو العبادة، أو السياسة، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، أو الحرب، أو السلم. أو التشريع إلى آخر ما يتصوره الإنسان من شئون الإنسان. قال الله تعالى واصفاً كتابه « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » وقال عنه « وتفصيل كل شيء » وما لا يعرف من الكتاب والسنة صراحة يعرف استنباطا، يعرفه مجتهدوا الأمة الإسلامية.

فقد بينت في الكتاب والسنة قضايا العقيدة. وقضايا العبادة، وقضايا المال، وقضايا الاجتماع، وقضايا الحرب والسلم. وقضايا التشريع والقضاء، وقضايا العلم والتعليم والثقافة، وقضايا الحكم والسلطان. وقد عبر عن ذلك فقهاؤنا بقولهم: إعلم أن مدار أمور الدين على الإعتقادات والآداب والعبادات والمعاملات والعقوبات.

ويدخل في الاعتقادات قضايا الحكم، والسلطان. ويدخل في الآداب قضايا الأخلاق، والعبادات خمسة: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، والمعاملات خمسة: المعاوضات المالية والمناكحات والمخاصمات والأمانات والتركات، والعقوبات خمسة: القصاص وحد السرقة والزنا والقذف والردة.

٧ ـ وقد عرف الرسول ﷺ الإسلام تعريفات كثيرة، لم يفهم كثير من الناس مقصود رسول الله ﷺ منها إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أحيانا يعرف الكل بالجزء تبياناً لأهمية الجزء كقوله عليه الصلاة والسلام: (الحج عرفة) فالمعروف أن الوقوف بعرفة ليس كل الحج بل هو جزء منه ولكنه عبر عنه به لتبيان أهميته، فكما يخطيء خطأ عظيما إذا تصور الإنسان أن الحج كله هو الوقوف بعرفات كذلك يخطيء الذي يتصور الإسلام أنه بعض أجزائه إذا عرفه بها رسول الله ﷺ وسنذكر هذه التعاريف لنعرف مضمونها ومحلها:

التعريف الأول :ـ عن طلحة بن عبيد الله قال : جـاء رجل الى رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ خمس صلوات في اليوم والليلة : فقال : هل عليّ غيرهن ؟ قال : لا إلا أن تَطوّع وذكر له الزكاة فقـال علي غيرهـا ؟ قال : لا إلا أن تطوّع فأدبر وهو يقول : لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال عليه السلام : أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق) أخرجه الستة إلا الترمذي وعند أبي داوود :(أفلح وأبيه ان صدق) .

التعريف الثاني :ـ وقال معاوية بن حيدة : وإني سألتك بوجه الله تعالى بما بعثك الله إلينا ؟ قال بالاسلام قلت : وما آيات الإسلام ؟ قال : أن تقول أسلمت وجهي لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة . كل مسلم على مسلم محرم أخوان نصيران لا يقبل من مشرك بعدما أسلم عمل أو يفارق المشركين إلى المسلمين) أخرجه النسائي .

التعريف الثالث :ـ أخرج الخمسة الا البخارى عن رسول الله ﷺ قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا) .

هذه تعاريف أجمعها الأخير وهي كلها إنما عبرت بالجزء عن الكل ، لتبيـان أهمية هذا الجزء . بدليل الحديث الصحيح الآخر الذي اعتبر هذه الخمسة أركانـاً للإسلام. قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه ابن عمر : (إن الإسلام بني على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله واقام الصلاة وايتـاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان .)

فقد ذكر هذا الحديث أن بناء الإسلام يقوم على هذه الأركان الخمسة فإذن هذه الخمسة هي ركائز الإسلام وليست كل الإسلام وإن كان الأساس عادة من جنس البناء .

عندما يقول القائل : إن هذا البيت بني على دعائم أربع يعني هذا أن هناك دعائم ، وفوق الدعائم بناء . وعندما يفهم إنسان من هذا الكلام أنه لا يوجد إلا الدعائم يكون مخطئا ، كذلك الذي يتصور أن الإسلام كله هو أركانه هذه الخمسة يكون مخطئا جدا ، ويكفي لكي يعرف خطأه أن يفتح القرآن ليرى القرآن قد ذكر غير هذه الأشيـاء الخمسة فذكر أخلاقا ، وذكر اقتصادا ، وذكر اجتماعا ، وذكر سياسة ، وذكر سلما وذكر حربا ، وذكر خيرا ، وذكر شرا .... ويكفي كذلك ليعرف خطأه أن يفتح كتاب فقه ليرى فيه عبادات ، ومعاملات ، وقضاءا ، وجهادا ، وإرثا ، وزواجا ، ويكفي

كذلك ليعرف خطأه أن يفتح كتاب حديث جامع كصحيح البخاري ليرى غير العقائد والعبادات أحكام بيع وشراء ، وأحكام عقود ، وأحكام سياسة ، واجتماع وأخلاق.

إذن هذه الخمسة . أركان الإسلام التي يقوم عليها بناؤه وليست كل الإسلام .

وإذن فالإسلام أساس وبناء : الأساس هو الأركان والبناء هو أحكام الإسلام في قضايا البشر . إنك تجد إذا درست الإسلام . أن للإسلام منهاجه السياسي المستقل ، حيث ترى فيه نظرة الإسلام المنفردة إلى موضوع الأمة ، والوطن ، والرئاسة العليا ، وطريقة الشورى ، والقضاء ، والأجهزة التنفيذية . والتقسيمات الإدارية ... الخ .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الإجتماعي المستقل ، حيث ترى فيه نظرة الإسلام المنفردة إلى الانسان وإلى الرجل ، وإلى المرأة وإلى تنظيم الأسرة ، والحياة الاجتماعية ومفاهيمها إلى آخر ذلك .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الأخلاقي المستقل . حيث تجد طريقا أخلاقيا واضحا كاملا شاملا راقيا واقعيا ، لم يبق فيه جانب من جوانب الحياة إلا وقد دلك فيه على أنظف سلوك وأطهره .

وإذا درست الإسلام وجدت أن منهاجه التعليمي المستقل الذي يعمر الدنيا ولا ينسى الآخرة ، ورأيت جوانب هذا المنهاج متكاملة لا نقص فيها ولا عوج ، ولا إفراط فيها ولا تفريط .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه العسكري المستقل في الأهداف والتطلعات والتعبئة والتنفيذ والتدريب والأسس والمفاهيم والقواعد .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الإقتصادي المستقل ، سواء في ذلك تنظيمه المستقل لقضية الملكية أو لخزينة الدولة ، او لحل المشاكل الاقتصادية الاجتماعية أو للعلاقات الاقتصادية بين دولته وبقية الدول ..

وهكذا وهكذا لا نجد قضية من قضايا الوجود البشري إلا وللإسلام فيها حكم . مجموع هذه الأحكام هي بناء الإسلام الذي يقوم فوق أركانه .

إن هذا ما ينبغي أن تفهمه من حديث ابن عمر (ان الاسلام بني على خمس ..) وعلى ضوء هذا الحديث ينبغي أن نفهم الأحاديث الأخرى وهذا مقتضى قول الله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .

٨ — هذا الإسلام كلف الله به البشرية حتى يستقيم أمرها في دنياها لأخراها ، إلا أن النفس البشرية بطبيعتها لا ترغب في التكاليف والقيود التي تحد من أهوائها ، وشهواتها ونزواتها وحريتها ، وإن كان ذلك لصالحها . لذلك فقد فرض الله على أهل الحق الذين آمنوا به ، والتزموا به أن يحملوا الإنسانية على الخضوع لسلطانه ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد .

الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حتى يقوم الإسلام في المجتمع الإسلامي . والجهاد من أجل فرض سلطان شريعة الله على العالم خارج حدود الوطن الإسلامي . قال تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » .

فهذه الثلاثة ، الجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : هي المؤيدات البشرية لقيام الإسلام ، وهي غير المؤيدات الربانية التي مظهرها عقوبات الفطرة في الإنحراف عن الإسلام ، أو العقوبات الربانية في الدنيا والآخرة . لذلك فقد دخلت هذه الثلاثة في بعض تعريفات السيد الرسول ﷺ للإسلام مع الاركان لأهميتها .

روى البزار عن رسول الله ﷺ قال : (الإسلام ثمانية أسهم . الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، والجهاد سهم ، وقد خاب من لا سهم له) .

وروى الحاكم عن رسول الله ﷺ أنه قال (الإسلام انتعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج ،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتسليمك على أهلك ،فمن انتقص شيئاً منهن فهو سهم من الإسلام يدعه ومن تركهن فقد ولى الإسلام ظهره) .

إن المعروف كلمة عامة تشمل كل شيء طلب في الشريعة أو أبيح . سواء كان فريضة ، أو واجبا ، أو سنة ، أو مباحا والمنكر كلمة تشمل كل ما لم تجزه الشريعة ، أو أمرت الناس بالاحتراس منه ، أو الإنتهاء عنه ، ويدخل في ذلك الحرام والمكروه فالمعروف يشمل أركان الإسلام والإسلام .

والمنكر يشمل الإنحراف عن الإسلام أركانا وبناءا .

ومهمة المسلمين إبقاء الإسلام قائما . ولذلك كان عنوان كون السلطة إسلامية هو هذا :

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

إقام الصلاة رمز على أن دولتهم دولة عبادة لله .

وإيتاء الزكاة رمز على أن دولتهم دولة عدالة ربانية .

والأمر بالمعروف رمز على أن الخير كله في دولتهم موجود .

والنهي عن المنكر رمز على أن الشر كله في دولتهم مقهور .

وهذا كله رمز على أن بناء الإسلام قائم في أسسه وبنيانه .

وعلى ضوء ما تقدم فإن التعريفين الأخيرين اللذين مرا معنا آنفا ، إنما عرفا الإسلام كذلك بأجزاء مهمة فيه ، ولم يذكرا الإسلام كله . لأن الإسلام كما رأينا أشمل من هذا كله ، وإنما ذكر أحدهما الأركان ، وزاد عليها المؤيدات البشرية لقيام الإسلام ، لتبيان أهمية الأركان والمؤيدات بالنسبة للمسلم . وذكر الآخر الأركان ومؤيدين من مؤيدات الإسلام ، وأدبا من آداب المسلم داخل بيته لتبيان أهمية هذه المعاني ، وعظم مكانتها في الإسلام ، وليست كل الإسلام كما رأينا .

ومن هذا القبيل حديث عمر رضي الله عنه الذي يقول فيه : (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد : أخبرني عن الإسلام فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت فأخبرني عن الإحسان قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال : فأخبرني عن الساعة قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال : فأخبرني عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة ــ وليس عند مسلم العالة ــ رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ــ هذا لفظ مسلم ــ وعندهم فلبثت ثلاثا ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي .

إن كلمة فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم في الحديث جعلت بعضهم يفهم أن الدين الإسلامي كله هو هذه القضايا وهذا خطأ في الفهم . فإن القاعدة الأصولية أن النكرة في سياق النفي تَعُمّ . أما المعرفة في سياق الإثبات فلا تعم فكون السيد الرسول قال يعلمكم دينكم لا يعني هذا أنه يعلمكم الدين كله كلياته وجزئياته ، وإنما تصدق الكلمة ولو علمنا بعض ديننا . فلو كان إنسان يقرأ كتاب فقه : فسألناه ماذا تفعل فقال أدرس الإسلام لكان صادقا مع أن الإسلام أوسع من كتاب فقه أو لو كأن يقرأ باب فقه ، فسألناه ماذا تقرأ فقال أقرأ الفقه . لكان صادقا مع أنه يقرأ بابا من الفقه ، وكذلك الحديث . ولو تأمل الإنسان الحديث بشكل آخر . يرى أن الإحسان إيمان وإن كان أعلى درجاته كما ورد في الحديث (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت) وأركان الإيمان الستة داخلة في الشهادتين كما سنرى . فالحديث إذن فصّل الركن الأول من أركان الإسلام بشكل واسع . والأركان كما رأينا هي جزء الإسلام وليست كل الإسلام .

واذن نفهم مّمن كل ما ذكرنا :

١ ــ أن الإسلام عقيدة تتمثل بالشهادتين وأركان الإيمان .

٢ ــ وأن الإسلام عبادة تتمثل بالصلاة والزكاة والصوم والحج .

وأن هذه وهذهأركان إسلام .

٣ ــ وأن الإسلام بناء يقوم فوق هذه الأركان ، يتمثل بمناهج الحياة في الإسلام : المنهاج السياسي ، والاقتصادي ، والعسكري ، والاخلاقي ، والاجتماعي ، والتعليمي و..

٤ ــ وإن للإسلام مؤيدات هي طريق قيامه . تتمثل بالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وهذه المؤيدات هي غير المؤيدات الربانية المتمثلة بعقوبة الفطرة ، وعقوبة القهر الإلهي في الدنيا . والمتمثلة في الجنة والنار في الآخرة .

فالإسلام إذن ــ عقيدة وعبادة ومناهج حياة ومؤيدات .

الاسلام

- **مؤيدات :** الجهاد ــ الأمر بالمعروف ــ النهي عن المنكر ــ حكم وعقوبات.
- **بنـــاء** مناهج حياة : ــ منهاج سياسي ــ منهاج اقتصادي ــ منهاج عسكري ــ منهاج تعليمي ــ منهاج أخلاقي ــ منهاج إجتماعي
- **أركان**
  - عبادات : ــ صلاة ــ زكاة ــ صوم ــ حج .
  - عقيدة : ــ الشهادتان : الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر

٩ ـ ويقابل الإسلام الجاهلية . فما من جزء من الإسلام إلا ويقابله جاهلية . يؤيد هذا قول رسول الله ﷺ لأبي ذر عندما تصرّف في قضية تصرفا غير إسلامي : (إنك امرؤ فيك جاهلية) وقوله تعالى «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» فالستر إسلام وما قابله جاهلية . وقول عمر (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية) .

وإنما كان الإسلام بفروعه كلها يقابل الجاهلية ، لأن كل جزء من الإسلام إنما هو أثر عن علم الله المحيط . وكل ما يقابله من فكر وسلوك إنما هو جاهلية ، لأنه أثر عن محدودية علم الإنسان ، وتغلب أهوائه وشهواته عليه . بحيث يرى الجمال قبحا والقبح جمالا .

فالإسلام هو الكمال المحض ، والجاهلية هي النقص المحض ، والإنسان مخير أن يسلك أحد الطريقين والجزاء أمامه قال تعالى «إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا» .

وقد يلتبس على بعض الناس أنهم يرون عند من يسيرون على طريقة الجاهلية بعض كمال يظهر في سلوكهم ، أو طريقة حياتهم ، أو في بعض أنظمتهم وتعليل ذلك : أنه قد يختلط ما هو من الإسلام بنظام الجاهلية فيظهر حسن ما هو من الإسلام فيه ، فيتعلق الجاهل بهذا النظام كله لجهله بحقيقة الإسلام ، ولو أنه عرف الحق لأدرك أن الإسلام محاسن هذا النظام دون مساوئه ، مع ضم كل حسن إلى هذه المحاسن ، ليتمحض الخير كله في أجمل ما يمكن أن يكون .

ووجود شيء من الإسلام في نظام الجاهلية شيء طبيعي كأثر من آثار العقل الذي أعطاه الله للإنسان ، وأثر عن النفخة الروحية التي جعلت الإنسان خليفة على أرض الله «ونفخت فيه من روحي» بحيث يستطيع معرفة ما هو طيب وجميل في التمدن الإنساني والحياة الإنسانية ، ولكن كما قلنا سابقا إن القوى الأخرى الموجودة في الإنسان ، وعدم إحاطة العقل بكل شيء تمنع الإنسان من الوصول الكامل إلى كل كمال في الحياة الإنسانية . فالهوى ، والشهوة ، والضعف البشري أمراض لا يسلم منها حتى القليل إلا من استنار بنور الوحي .

ونؤكد مرة ثانية أننا عندما قلنا : إن العقل يرى حسن بعض الأشياء لم نعن أن العقل وحده يستطيع أن يبصر الحسن والخير بحيث لا يشك في ذلك ، قد يبصر ولكنه يبقى محدودا ، والذي يؤكد لنا حقيقة الإبصار أو عدمه هو الوحي . إن الذي يعلم

الخير كله ، والشر كله هو الله وحده . لقد نفخ الله في هذا الإنسان من روحه ، فأصبح الإنسان عنده إمكانية المعرفة ، ولكنها المعرفة الفرعية والمحدودة القابلة للوهم والخطأ ، أما الله فغير محدود ولا يتوهم ولا يخطيء .

وليس كلامنا هذا فيما يقع تحت التجربة ، ويتوصل اليه بالبرهان اذ كلما يقع تحت التجربة ويتوصل إليه بالبرهان يقره الإسلام سلفا وهو إسلام . وإنما كلامنا في السلوك الإنساني بحيث تنتظم قوانينه وسننه كانتظام سنن الكون .

إن كل عضو من أعضاء الإنسان يستنزف جهود دارس مختص فترة من الزمن ، وانواع الخلايا في كل عضو تستنزف جهود كثيرين . والنفس البشرية . والعواطف ، والحياة . والإحساسات . والعلاقات ، كل ذلك يحتاج إلى فترة طويلة من الزمان ليصبح الإنسان مختصاً في جزء منها .

وعوامل الوراثة ما يقدم الأب للأبناء ، وعوامل الأرض . والمناخ ، والمجتمع ، ثم الحياة الاجتماعية في تعقيدها ثم ... ثم .. إن من يدرس فرعا من هذه الفروع لا يستطيع أن يرسم طريقاً كاملا للإنسان كإنسان ، وللبشر كبشر ، ويستحيل أن يحيط إنسان بكل شيء .

ومجموعة المختصين يبقى كل إنسان منهم جاهلا بما عند الآخرين ، فيصدرون حكمهم ويبقى ناقصا ؛ فالله هو الهادي للإنسان : ومظهر هدايته على الأرض دينه الإسلام الذي تبقى البشرية في ضلال إن لم تعتصم به .

وبعد هذا نقول :

في العقائد إذن إسلام وجاهلية...... وفي العبادات إسلام وجاهلية ......

وفي الأخلاق والآداب إسلام وجاهلية...... وفي السياسة إسلام وجاهلية ....

وفي التعليم إسلام وجاهلية ...... وفي الحرب والسلم والاجتماع إسلام وجاهلية ......

وفي كل القوانين إسلام وجاهلية ......

وحيثما كان الحق فهو إسلام ؛ وحيثما كان الباطل فهو جاهلية ، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله ، وحيثما كان العكس فتلك جاهلية ، والمصلحة الحقيقية للإنسان لا تعرف إلا بشرع الله ، وجاهلية العقائد والعبادات أخطر أنواع الجاهلية ، لذلك فإن

الله عز وجل قد يغفر لمن تخلق ببعض الجاهلية مع الإعتقاد الصحيح ، ولكنه لا يغفر أبدا حتى لمن تخلق بكل أخلاق الإسلام ما دامت عقائده وعباداته عقائد الجاهلية وعباداتها . « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

والله عز وجل قد أنزل هذا الإسلام كاملا فمن اخذه كله فهو المسلم ، ومن أخذ قسماً وقصر في جزء فقد خلط بين إسلام وجاهلية « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » فما دام معتقدا بكل الإسلام فهو مسلم إن أتبع السيئة توبة ، فهو إلى خير وإن أصر على السيئة فهو فاسق ولكنه مسلم . والمفروض أن يكون كل مسلم قد تخلى عن أخلاق الجاهلية كلها ، وتحلى بالإسلام كله ، وأن تكون الأمة الإسلامية مظهرا كاملا للنظام الإسلامي ، وأن تحاول إبادة نظام الجاهلية في العالم ، ولكن الإنحراف الخطير الذي حدث في نظام الحكم الإسلامي فأخرجه عن كونه حكما وخلافة على منهاج النبوة ، إلى ملك عضوض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون[1] ملكا عضوضا) . جعل نظام الجاهلية يتسلل إلى الأمة الإسلامية مبتدئا بنظام الحكم (تنقض عرى الإسلام عروة عروة فأولها نقضا الحكم وآخرها الصلاة) .

وبدلا من أن يكون الإسلام هو المهاجِم ليجتث نظام الجاهلية ، فإنه أصبح المهاجَم يحاول نظام الجاهلية اجتثاثه ، وما أكثر الدعوات الجاهلية في أرض الإسلام اليوم وما أكثر ما استجاب لها المسلمون : التبشير والشيوعية ، وفلسفة الإباحة والحزبيات السياسية غير ذات الإتجاه الإسلامي ، والعمالة للكافرين باسم التقدمية ، ومحاربة الرجعية وشعارات من هذا القبيل ، ولم يوجد كل هذا فجأة بل أوجد بحنكة وذهاء . واستطاعت هذه الدعوات الجاهلية أن توجد — كل منها — لنفسها قواعد في كل مكان في العالم الإسلامي وأن يكون لكل منها أتباع من المسلمين أنفسهم .

وساعد على التمكين لهذا كله : ١ — جهل المسلمين بالإسلام ٢ — إنتقال السلطة السياسية إلى المستعمرين أولا ، ثم إلى من يدين بالولاء الفكري أو السياسي أو هما معاً لهم . فكان غزواً جاهلياً منظما ، أدواته كل ما عرف العالم من وسائل الدعاية ، حتى أصبح الإسلام غريبا . فكان لا بد من كتابة شاملة عنه .

---

١ — وفي رواية : « الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك » رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى وابن حبان عن سفينة وهو صحيح .

ولهذا فسنكتب في هذا البحث أربعة فصول :

١ ــ الفصل الأول ــ أركان الإسلام .

٢ ــ الفصل الثاني ــ المنهاجان الإجتماعي والأخلاقي في الإسلام .

٣ ــ الفصل الثالث ــ المناهج العامة .

٤ ــ الفصل الرابع ــ مؤيدات الإسلام .

من أجل أن يتضح الإسلام كله ، وتصبح صورة المسلم عنه كاملة ، بحيث يعيه وعيا صحيحا . فيعلم أن هذا الإسلام لا يقبل شركة ، ويعلم من هو المسلم كل المسلم ، ويعلم كيف يجعل سلوكه في الحياة جميعا إسلاميا ، ويعلم ما يترتب على هذا السلوك . وماذا يترتب على انحرافه عنه . ويعلم بعد هذا كله ماهية التكليف الذي كلف الله به عباده بعد أن عرف في البحثين السابقين المكلف وهو الله ومبلغ التكليف رسول الله ﷺ .

وإنما جعلنا المنهاج الإجتماعي ، والمنهاج الأخلاقي في فصل واحد لارتباطهما ببعضهما . وجعلنا المنهاج السياسي والعسكري والتعليمي والمالي وغيرها في فصل واحد لعدم انفكاك قضايا الحرب والثقافة والمال عن المنهاج السياسي . أما فصل المؤيدات فقد تحدثنا به عن المؤيدات الغيبية المتمثلة بالعقوبات الربانية في الدنيا والآخرة وعن المؤيدات الفطرية ، ونرجو ألا تنتهي من دراسة هذا البحث إلا وقد استكملت جوانب من المعرفة بدين الله وشريعته وجمعت إلى ذلك سلوكا مستقيما وعملا صالحا .

الفصل الأول

الأركان

إن الأركان الخمسة هي الأسس العملية والنظرية للإسلام كله ، فالشهادتان هي الأساس العملي والنظري لكل ما عداها من الإسلام فما لم يشهد الإنسان أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله لا يلتزم بالاسلام ولذلك كانت الشهادتان الركن الأول لأنها اساس لأركان الإسلام من ناحية واساس للاسلام كله من ناحية أخرى ، أما الأركان الأربعة الأخرى فكل منها أساس لجانب من جوانب الإسلام . فالصلاة هي الأساس العملي والنظري للجانب العبادي كله ، فالله عز وجل اهل العبادة وحده وقد شرع لنا أن نعبده بالذكر والدعاء وقراءة القرآن . والذكر منه التسبيح ، والتمجيد ، والاستغفار وكل هذه المعاني تجدها في الصلاة المفروضة فلا تستقيم عبادة الإنسان لله إلا إذا كان يقيم الصلاة، إذ هي الركن الذي تدور حوله شئون العبادة . والزكاة هي الأساس العملي والنظري للجانب المالي في الإسلام . فالمال في الإسلام مال الله والإنسان مستخلف فيه ، فعليه أن يأخذه بالطريق الذي حده الله ، وينفقه في الطريق الذي حده الله . والزكاة هي الأساس العملي والنظري لهذه الجوانب كلها في شئون المال ، فما لم يستسلم الإنسان لله بالزكاة لن يسلم لله في بقية جوانب جمع المال وإنفاقه . والصوم هو الأساس العملي والنظري لجانب ضبط النفس على أمر الله في الإسلام . فالله عز وجل جعل مدار دخول الجنة على موضوع ضبط النفس فقال « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وقال « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » وضبط النفس يشمل ضبطها عن شهواتها المحرمة ، وعن نزواتها الباطلة ، ويشمل ضبطها على

الأخلاق العظيمة الطيبة ، ويشمل ضبطها على أمر الله كله . والصوم هو الأساس العملي والنظري لهذا كله ، إذ هو فطم للنفس عن أهم شهواتها التي هي مباحة في الأصل ، لتتدرب النفس بعد ذلك على الإنضباط في بقية الشئون . والحج هو الأساس العملي والنظري لجانب بذل الجهد والمال في سبيل الله خالصا ، إذ جعل الله عز وجل الجهاد بالنفس والمال من فرائضه ، والحج مران عملي ، على هذا وقد أشار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هذا بقوله : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) ؛ كما أن الحج هو الأساس العملي والنظري للمنهاج السياسي الإسلامي الذي مظهره أن المسلمين أمة واحدة كما أن الحج هو الأساس النظري والعملي لاستسلام الإنسان لله ، ولو لم يعرف حكمة الأمر والنهي ، فالحج رمز على هذا الاستسلام العملي لله فيما أمر ونهى بصرف النظر عن معرفة الحكمة من الأمر والنهي .

وكل ركن من هذه الأركان يخدم بقية الأركان في تحقيق جوانب الإسلام . فالحج عبادة من أعلى العبادات ، والصوم كذلك ، والزكاة كذلك ، وكلها تخدم قضية شعور المسلم بأخوته لبقية المسلمين ، وكلها تخدم قضية ضبط النفس ، وكلها تخدم قضية الاستسلام لله ، دون نقاش ، أو تذمر ، أو معرفة للحكمة .

وهي كلها تربط الإنسان بالجوانب الكاملة لبناء الإسلام . لذلك لا يستطيع المسلم أن يتصور قيام بناء الإسلام دون قيام أركانه ، فالبناء يستمد قوته من قوة أساسه ، فكلما كان الأساس أقوى كان البناء أشد إحكاماً ، وكلما كان الأساس منهاراً كلما ساعد هذا على انهيار البناء . لذلك كانت القاعدة في التربية الإسلامية ، إحكام أمر الأركان ليبنى عليها بناء الإسلام كله بعد ذلك ، وإنها لظاهرة غير منطقية محاولة إحكام أمر البناء بلا أركان ، أو إحكام أمر الأساس ثم لا يبنى عليه بناؤه الذي كان الأساس أساساً من أجله .

لذلك جعلنا الفصل الأول في هذه الدراسة دراسة الأركان ، ثم أتبعناها بدراسة بقية جوانب الإسلام ، وها نحن نبدأ بدراسة الأركان ركناً ركناً :

الركن الأول : الشهادتان

(أ) نظرة تحليليـــة :

١ ـ قال عليه الصلاة والسلام : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل).

وفي رواية (من شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله تعالى جسده على النار) وقال : (أتاني جبريل فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة قلت : وان زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبي ذر).

وقال : (ثنتان موجبتان فقال رجل : يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال : من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة).

٢ ـ مما سلف نعلم أهمية هذا الركن بالنسبة للإسلام كله ، فإذا كان الإسلام لا يقوم بلا أركان ، فإن الإسلام وأركانه الأربعة لا يقوم بلا شهادتين ، بل لا يكون موجوداً أصلاً . فالشهادتان بالنسبة للإسلام كله ، كالروح بالنسبة للجسد ، فكما أن كل ذرة من ذرات الجسد لا تكون بها حياة إلا بالروح ، فكذلك لا إله إلا الله محمد رسول الله هي حياة كل جزء من أجزاء الإسلام ، فأي عمل يعمله الإنسان من الإسلام لا يكون نابعاً من هذا الأصل يعتبر ميتاً ، وهو في ميزان الله معـــدوم . ولذلك فإن الكافرين لا قيمة لأعمالهم عند الله ولو كانت صالحة ، لأنها ميتة . يقول الله تعالى :

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثورا » وحتى المسلم إذا عمل عملاً مهما كان صالحاً ، ولم يكن عمله فيه روح الشهادتين ، فإنه يكون غير مقبول (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله،ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) .

٣ – قال تعالى مادحاً صحابة رسول الله ﷺ « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها » وكلمة التقوى هي الشهادتان ، وبدونها فلا تقوى ولا قبول عمل « إنما يتقبل الله من المتقين » لذلك كان أعظم ما نحرص عليه ، وأعلى ما نحاول الإتصاف به ، وأهم ما نتعب في سبيل تحصيله . وأجمل ما نعلم ، هو أن نحقق أمر الله في هذه الكلمة « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فإذا ما تحققنا بها ، واستقرت عليها قلوبنا ، كان من آثار ذلك كل ثمر طيب «كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » .

٤ – وهاتان الشهادتان لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ،إن شهادة أن لا إله إلا الله تتممها شهادة أن محمداً رسول الله ، إذ شهادة لا إله إلا الله كما سنرى تقتضي سلوكاً معيناً ، ومعاني معينة ، ولها حقوق ، وعلى صاحبها واجبات ، ولصاحبها جزاؤه ، وعلى تاركها عقابه ، وهذا كله لا يعرف إلا بواسطة الرسول الذي قامت كل الأدلة الصحيحة المعقولة والمنقولة على أنه رسول الله حقاً ، لذلك كان التلازم كاملاً بين شهودي لا إله إلا الله وشهودي أن محمداً رسول الله ، ويتضح هذا أكثر إذا عرفنا معنى (أشهد ألا إله إلا الله) .

٥ – مادة كلمة الإله في اللغة (الألف واللام والهاء) وقد جاء في معاجم اللغة من هذه المادة ما يلي :

ألهت إلى فلان	: إذا سكنت إليه واطمأننت
أله الرجل يأله	: إذا استجار
أله الرجل إلى الرجل	: إتجه إليه لشدة شوقه
أله الفصيل بأمه	: إذا ولع بها

أله إلاهة وألوهة : عبـــد

لاه يليه ليها : إذا احتجب

والقاعدة في اللغة العربية أن الكلمات ذات المادة الواحدة ، يكون فيما بينهـــا ترابط ، ولو أننا تأملنا مدلولات المادة السابقة . فإننا نجد الترابط واضحاً فيما بينها . فأنا لا أستجير إلا بمن أسكن إليه وأحبه وأعتبره أقوى مني ، بحيث يقدر على إجارتي ؛ وعلى هذا فالإله يُسكن إليه ويطمأن ، ويستجار به . ويستعاذ به ويحب ويشتاق إليه ويعبد ، وهو محتجب . فإذن فنحن عندما قلنا : لا إله إلا الله دخل في ذلك ضمناً معان معينة : فكأنني قلت : لا مطمأن إليه ، ولا مستجار به ، ولا محبوب ، ولا معبود ، إلا الله . وفعلاً فإن القرآن علمنا أن هذه المعاني كلها من خصائص الذات الالهية فقال :

١ ــ « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

٢ ــ « وإنه كان فريق من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » .

٣ ــ « والذين آمنوا أشد حباً لله » « يحبهم ويحبونه » وحب رسول الله يأتي تبعاً لحب الله بإذنه (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني لحب الله إياي وأحبوا آل بيتي لحبي) .

٤ ــ « أفغير الله تأمروني أعبد أيُّها الجاهلون ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

* * *

وإذا كانت من معاني كلمة الإله /المعبود / وهو المعنى الأساسي فيها ، فماذا تعني هذه الكلمة : إن مادة عبد في اللغة هي (العين والباء والدال) ويأتي منها :

١ ــ العبد هو المملوك وهو خلاف الحر ، وقد ورد في القرآن « وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل » أي إتخذتهم عبيدا .

٢ ــ العبادة هي الطاعة مع الخضوع وقد ورد في القرآن « ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان » أي الا تطيعوه « وقومهما لنا عابدون » أي خاضعون مطيعون .

٣ ــ المعبَّد هو المكرم المعظم قال الشاعر (أرى المال عند الباخلين معبدا) .

٤ ــ عبد به : لزمه فلم يفارقه .

٥ ــ ما عبدك عني : ما حبسك عني .

ولو أنك تأملت هذه المعاني المختلفة لهذه المادة . فإنك تجد الترابط التام بينها ، فلا يحبس إلا من يستعبد نوع عبودية ، ومن استعبدت له لزمته وعظمته وأطعته ، وخضعت له وتنازلت له عن كثير من حريتي ؛ فصارت كلمة المعبود تتضمن معاني : المالك المطاع المعظم المستمسك به . فعندما قلت : لا معبود إلا الله أي لا مالك لي ولغيري ، ولا مطاع ولا معظم ومستمسك به إلا الله ، وإذا تأملنا القرآن وجدنا فعلاً أن من خصائص الذات الإلهية هذه المعاني :

١ ــ « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس » « ولله ملك السموات والأرض ».

٢ ــ « قل أطيعوا الله والرسول » وطاعة الرسول طاعة لله على الحقيقة « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

٣ ــ « وهو العلي العظيم » .

٤ ــ « اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

* * *

والعبودية تقابلها الربوبية ، والمعبود هو الرب الاله « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس » فماذا تعني كلمة الرب : إن مادة كلمة الرب في اللغة الراء والباء المضعفة ويأتي منها هذه الاستعمالات :

١ ــ رب الولد ورب الضيعة : إذا رباه ، وأصلح شأنه ، أو تعاهدها وأصلح أمرها ورعاها .

٢ ــ رب فلان قومهم ، وربيت القوم : إذا حكمتهم وسستهم فانقادوا لك واجتمعوا عليك ومنه (فلان يرب الناس) أي يجمعهم ويسمى مكان الاجتماع (المرب). يقول النابغة :

(تخب إلى النعمان حتى تنساله فدىً لك من رب تليدي وطارفي)

٣ ــ (رب الدار ورب الإبل : أي صاحبها ومالكها ومنه الحديث : أرب غنم أم رب إبل ؟ أي أمالك ..؟ ويلاحظ الترابط بين هذه المعاني ، فالمالك يسوس ، ويتعهد ويصلح ويربي ، والمربي له سلطان وسيطرة ونوع ملك .

وبالنسبة للذات الإلهية ، فالله على الحقيقة هو مالك كل شيء ، وهو السيد ، والحاكم ، وليس لغيره من سيادة ولا حاكمية ، وهو خلق وربى ، وأصلح شأن الكون ويرعاه .

وإذا تأملنا القرآن نجد أن القرآن ذكر أن هذه كلها خصائص الذات الالهية : « ألا له الخلق والأمر »« إنِ الحكمُ إلّا لله » « الحمد لله رب العالمين » « قال فرعون وما رب العالمين قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم توقنون » .

* * *

من هذا التحليل يتبين أن المسلم عندما قال (لا إله إلا الله) فكأنه قال : لا مُطمأنّ إليه ، ولا مستجار به ، ولا محبوب ولا معبود ، ولا مالك ولا مطاع ، ولا معظم ولا معتصم به ، ولا سيد ولا حاكم إلا الله . فالتوكل عليه واجب ، والاستجارة بغيره باطلة ، ومحبته فريضة،ومحبة غيره لا تكون إلا بإذنه ؛ ومعاني العبادة والعبودية لا تقدم إلا له ، وهو مالكي وحده ، فلا أطيع غيره إلا بإذنه ، وهو المستحق للتعظيم ، فيه أعتصم ، وهو الذي له حق السيادة المطلقة على البشر ، والحاكمية المطلقة عليهم ، فهو مصدر الأمر والنهي ، وهو مصدر التحليل والتحريم ، وهو مصدر التشريع، فلا سلطة تشريعية إلا له ، فهو ذو الجلال والكمال جل جلاله وسبحانه ولا إله غيره .

وأي إخلال بواحدة من هذه ، بحيث يعطيها الإنسان لغير الله بدون إذنه جهل بما لله من حق . « قل إنما حرم ربي الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن والإثمَ والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

* * *

وبعد أن عرفنا معنى لا إله إلا الله يبقى أن نعرف معنى كلمة : أشهد .

أشهد في اللغة تأتي على ثلاثة معان وقد استعملها القرآن بكلٍ من المعاني الثلاثة فهي تأتي :

١ ـ من المشاهدة وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال : « يَشْهَدُه المقربون » .

٢ ـ من الشهادة وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال « وأشْهِدُوا ذَوَيْ عدلٍ منكم » .

٣ ـ من الحلف وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسولُ الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جُنّة » فاعتبر كلمتهم نشهد يميناً وقال فقهاء الحنفية من قال : أشهد فقد حلف . وفيما بين هذه المعاني ترابط تام : فالإنسان يحلف إذا شهد ويشهد إذا شاهد وفي الحديث (على مثل الشمس فاشهدْ أو دَعْ) .

وعلى هذا فشهادة الإنسان أنه لا إله إلا الله لا تعتبر إلا باستجماع هذه المعاني :

١ ــ مشاهدة أنه لا إله إلا الله بالعقل والقلب .

٢ ــ الشهادة على هذا باللسان .

٣ ــ أن تكون الشهادة جازمة لا تردد فيها . فيها جزم على ما يحلف عليه فمن لم يشهد بلسانه أنه لا إله إلا الله عناداً وكبراً فهو كافر . ومن لم يشاهد عقله وقلبه أنه لا إله إلا الله أو كان متردداً في ذلك فهو منافق إن نطق بالشهادتين بلسانه . وكافر إن لم ينطق .

٦ ــ ولا يقوم الإنسان بلوازم لا إله إلا الله إلا إذا عرف رسوله ، وتعرف بواسطة رسوله على الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لتحقيق لوازم هذه الوحدانية ، وبدون ذلك يبقى الإنسان في متاهات الضلال الكبير البعيد الذي لا يعرف معه سيراً ينسجم مع وضعه ، ويصل به إلى الغاية مبتدئاً من بداياتها الصحيحة . لذلك كانت معرفة الرسول تعدل معرفة الله ، إذ لا يقوم أحد بحق الله ، إلا إذا عرف رسوله ، ولذلك حكم الله بكفر من لم يؤمن بالرسول الذي يرسله للناس بعد ان أقام الحجة على الناس برسالته « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً » .

ولذلك كان شعار الإسلام : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . ولا تغني واحدة منهما عن الأخرى .

وقد رأينا في البحثين السابقين (الله) و (الرسول) الأدلة الكثيرة التي دلتنا على الله وصفاته العليا وعلى الرسول ﷺ وعلى كونه رسول الله حقاً ، وكتبنا الفصول الكثيرة لهذا من أجل أن يطمئن عقل الإنسان وقلبه بمشاهدة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيقولها لسانه بعد اقتناع قلبه ، ويقوم بلوازم ذلك عن ارتياح .

* *

هاتان الشهادتان يستتبع الإيمان بهما ، والنطق بهما ، الإيمان بالغيب الذي أخبرنا عنه الله بواسطة رسوله ، والذي أمهاته :

الإيمان : بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، وهذه الستة يطلق عليها أركان الإيمان وهي كلها داخلة ضمناً بالشهادتين ، فمن التزم بالشهادتين كان التزامه بها في الحقيقة التزاماً بكل أركان الإيمان الأخرى ، ولذلك يكتفى من الإنسان

إذا أراد الدخول بالإسلام أن يقول أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ويعتبر بذلك من المؤمنين إن كان صادقاً ، مع أنه لم يتلفظ بكل أركان الإيمان وما ذلك إلا لأن أركان الايمان كلها داخلة في الشهادتين وتفصيل ذلك :

أن : أشهد ألا إله إلا الله . ذكرت صراحة الركن الأول من أركان الإيمان وهو الإيمان بالله .

أن : أشهد أن محمداً رسول الله ذكرت صراحة الإيمان بالرسول ،والإيمان بالرسول يقتضي أن نؤمن بكل رسول لله أخبرنا عنه هذا الرسول الصادق ، فدخل الركن الثاني من أركان الإيمان بذلك وهو الإيمان بالرسل .

ومن آمن بالله والرسل آمن بالملائكة الذين أخبر عنهم الرسل ومنهم الواسطة بين الله والرسل في تبليغ أمر الله ووحيه .

ومن آمن بالله والرسل والملائكة آمن بالوحي ، ومن آمن بالوحي آمن بالكتب .

ومن آمن بالله والرسل والملائكة والكتب آمن باليوم الآخر ، لأن وجود اليوم الآخر فرع عن الإيمان بقدرة الله وعدله وفضله ، وقد أخبرنا عنه الرسل ، وذكر بالكتب ، والايمان بالقدر فرع الإيمان بالله فمن آمن بعلم الله الأزلي وإرادتــه التي خصصت الأشياء بالوقوع ، وقدرته التي أبرز بها الأشياء ، وكون ذلك قد كتب في كتاب فقد آمن بالقدر .

ولما كان الإخلال بركن من أركان الإيمان إخلالاً بالشهادتين أصلاً ، ولما كان جودة الفهم لمضامين هذه الأركان يؤثر على جودة الفهم للشهادتين كان لا بد أن نتحدث عن هذه الأركان حديثاً يوضح بعض نواح فيها فنقول :

١ – إن بعض المفسرين ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » هو الإيمان بأركان الإيمان الستة . على اعتبار أن مرجع أمر الغيب كله إليها . فلو قال قائل : إن الله والملائكة واليوم الآخر والقدر غيب ، أما الكتب والرسل فليسا كذلك ، فكيف اعتبرنا الإيمان بهما إيماناً بغيب ؟ فالجواب : إننا اعتبرنا الإيمان بالرسل من الإيمان بالغيب من حيث إتصال الوحي بهم ، وهو غيب ، وصفة الرسالة لا تقوم إلا به ، فإيماننا بهذه الصفة إيمان بغيب ، واعتبرنا الإيمان بالكتب من الإيمان بالغيب من حيث الإعتقاد بأنها منزلة عليهم من الله وذلك أمر غيبي .

ولو قال قائل : إن الغيوب أكثر من ذلك فالجواب: مرجع كل الغيوب إلى هذه الأمهات ، فالإيمان بمعجزات الرسل السابقين، فرع الإيمان بالقرآن والإيمان بالجن فرع الإيمان بالقرآن ، والإيمان بالسموات السبع التي فيها الملائكة والجنة والبيت المعمور وسقفها العرش ، وإليها تصعد ارواح المؤمنين ، وإليها عرج برسول الله ﷺ فرع الإيمان بالقرآن كذلك . والإيمان بعالم البرزخ بعد الموت ، فرع الإيمان باليوم الآخر وهكذا فما من غيب إلا وهو راجع الى هذه الأركان الستة .

٢ ــ هذه الأركان الستة ذكرها الحديث الصحيح حديث جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان والذي مر معنا في المقدمة .

وقد ذكرها القرآن كذلك ، ذكر خمسة منها مجتمعة في أكثر من مكان ، وذكر السادس منفرداً في اكثر من مكان قال تعالى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدا » « إنا كل شيء خلقناه بقدر » « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » . ولعل السبب في ذكر الأركان الخمسة وحدها في الآيتين دون ذكر القدر لأن القدر داخل في الإيمان بالله ، إذ معنى القدر على الحقيقة : علم الله القديم بما هو كائن ، وتخصيص الإرادة الإلهية لهذه الكائنات بالوقوع ، وإبراز القدرة ما تعلقت به الإرادة ، وكتابة هذا كله في اللوح المحفوظ الذي هو كذلك من عالم الغيب ، الله أعلم بنوعيته ؛ وإذن فمرجع الإيمان بالقدر إلى الإيمان بالله ، ومع أنه داخل في الإيمان بالله ، فقد ذكر وحده في آيات كما رأينا .

٣ ــ والإيمان هذا لا يقبل التجزئة ، فمن كفر بركن منه فقد كفر بالكل ، ومن كفر بمضمون قطعي في ركن فقد كفر بالكل : فلا بد من إيمان بالله : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب » .

ولا بد من الإيمان بالرسل « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا » . (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة

يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار) ولا بد من إيمان بالملائكة قال تعالى « والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ». « قل من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » .

ولا بد من الإيمان بالكتاب « ومن أظلم ممن كذب بايات الله وصدف عنها » وقال « وما قدروا الله حقَّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » .

ولا بد من إيمان باليوم الآخر « وقالوا إنْ هيَ إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق قالوا بلى وربِّنا قال: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

ولا بد من إيمان بالقدر قال عليه السلام : (لو أنَّ لأحدهم مثل أحدٍ ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر) وقال (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره) وإذاً فلا بد من إيمان بمجموع الأركان الستة فمن جزّأ كفر .

٤ — وكما أن أركان الإيمان لا تقبل التجزئة فإن لكل ركن شمولاً ، وله تفصيلات لا يعتبر الإيمان إيماناً إلا إذا صدق بها كلها : فالإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده ، وصفاته ، وأسمائه ، وأفعاله ، على الوجه المراد له ، من تنزيه وكمال قال تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » . « ألم يعلم بأن الله يرى » « إعلموا أن الله بكل شيء عليم » « إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه » « الله خالق كل شيء » « كل يوم هو في شأن » « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميتَ إذْ رميتَ ولكن اللهَ رمى » .

والإيمان بالملائكة : يشمل الإيمان بصفاتهم : من حيث انهم لا ذكور ولا إناث ، وقد خلقوا من نور ، فهم أجسام نورانية ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون . وبمن ذكر منهم تفصيلاً ، كجبريل ، وميكال ، وملك الموت ، ونافخ الصور ، وحملة العرش ، وخازن النار ، والحفظة والزبانية .. وبالباقي إجمالا .

وبوظائفهم من تبليغ للرسل ، أو كتابة لأعمال الإنسان ، أو كتابة رزقه وأجله ، وشقاوته وسعادته ، وسؤال الميت في قبره ، وقبض الأرواح ، والنفخ في الصور ، وحراسة ابن آدم ، وعبادة،وحضور المساجد وأماكن العبادة ، ومجالس الخير والذكر ، إلى غير ذلك من الوظائف الموكلة لبعضهم ، مما هو مفصل في الكتاب والسنة .

والإيمان بالكتب : يشمل الإيمان بأفرادها والصحف : صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داوود ، وإنجيل عيسى ، وقرآن محمد ﷺ ثم يكون القرآن ناسخاً لها ، ثم يكون كله حقاً لا باطل فيه ، ثم بكونه لم يُغير منه حرف ، ولم يبدل ، فهو هو الذي أنزل على محمد ﷺ الموجود الآن بين أيدينا ، فلا تبديل ، ولا تغيير ، ولا زيادة ، ولا نقصان ؛ مع الإعجاز ، ثم تحريم ما حرم ، وتحليل ما أحل ، ثم اعتقاد الهدى فيه ، والضلال في غيره إن كان مخالفاً لمضمونه ، فأنظمته هي الحق الذي لا حق غيره ؛ سواء في ذلك العقائد ، أو العبادات ، أو مناهج الحياة ، أخلاقاً وتشريعاً ، وآداباً ، ثم إن الغيوب التي أخبرنا عنها حق . من جن ، إلى ملائكة ، إلى سموات إلى جنة إلى نار إلى رسل ، إلى معجزات ، إلى يوم آخر ، إلى ساعة إلى ... ثم الإيمان بالسنة إذ أنها موضحة القرآن ومبينته ، ولا يفهم القرآن تفصيلاً إلا بها ، ويستتبع ذلك أن نفهم الكتاب والسنة ضمن الحدود التي حدتها نصوص الكتاب والسنة ، وأجود فَهْم للكتاب والسنة فَهْمُ المجتهدين في الأمة الإسلامية لسعة علمهم ، ثم الإيمان بأن القرآن هو كتاب الهداية الربانية إلى قيام الساعة ، وأي طلب للهدى أو الحق أو الخير أو العدل في غيره ومن غيره ضلال وردة وكفر .

والإيمان بالرسل : يشمل الإيمان بهم تفصيلاً إذا فصل القرآن ، وإجمالاً إذا أجمل ، ثم الإيمان بصدقهم وعصمتهم وفطانتهم وتبليغهم . وكونهم صادقين يعني أن كلامهم هو الأساس الذي يقاس عليه غيره ، وغيرهم إذا خالفهم كاذب ، وكونهم فطناء يعني أنهم المثل الأعلى في العقل ، وكل خروج عن الاقتداء بهم انحطاط عقلي .

والإيمان باليوم الآخر : يشمل الإيمان بأشراط الساعة ومقدماتها من تغير بعض الظواهر الكونية ، أو ظهور خوارق للعادات على يد الدجال الذي يدعي الألوهية ، أو مجيء يأجوج ومأجوج إلى الأرض المقدسة ، كما يشمل الإيمان بالبرزخ بعد الحياة الدنيا ، كما يشمل الإيمان بالساعة ، ونفخة الصور ، الأولى والثانية ، والجنة والنار ، إلى آخر ما ذكر في الكتاب والسنة في هذا الموضوع .

ثم لهذا الإيمان حد أدنى هو التصديق الذي لا شك فيه ولا شبهة ، بل هو جزم ، وما لم يكن كذلك فلا إيمان ، إذ أن الله وصف المؤمنين فقال « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » فإذا كان ريب فذلك النفاق قال تعالى « في قلوبهم مرض » عن المنافقين ، وقد فسر المرض بالشك ، وهذا الجزم يجب أن يكون في جميع أفراد المؤمن بهم كما مر في الفقرة السابقة .

ونحب أن نذكر هنا أن المقصود بالشك غير الوسوسة ، فالشك نفاق وكفر . والوسوسة إذا ألقاها الشيطان ورفضها قلبنا ، فلا قيمة لها . ومثال ذلك رجل قال لمؤمن يا كافر أو دعاه إلى كفر فإن مجرد هذا لا يؤثر على إيمان المؤمن إلا إذا استجاب للدعوة ؛ وكذلك إلقاء الشيطان . فإنه لا قيمة له ما دام القلب مطمئناً بالإيمان ؛ وعلى هذا نفهم حديث أبي هريرة (إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : أَوَقَدْ وجدتموه ؟ قال : نعم قال : ذلك صريح الإيمان.وفي رواية الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة) وكذلك نفهم حديث ابن مسعود : قالوا يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به قال ذلك محض الإيمان . ولعله كان صريح الإيمان ومحض الإيمان لأن القلب كرهه واشمأز منه ومثل هذه الحالة دليل على حياة القلب . إذ إحساس القلب بالوسوسة وكراهيته لها علامة على صحة هذا القلب « إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . وإذن حالة الوسوسة تختلف عن حالة الشك التي تتنافى مع الإيمان ، والتصديق الذي هو الحد الأدنى الذي لا يقبل الله الانسان بدونه .

٥ ـ وفوق الحد الادنى الذي لا يقبل الله الإنسان بدونه درجات يتفاوت الناس فيها ، وبقدر ارتفاع الانسان في هذه الدرجات تكون تقواه أكثر كمالاً . وهذه أمثلة توضح تفاوت الناس في درجات الإيمان في كل ركن من أركانه :

أ ـ أدنى درجات الإيمان بالله التصديق . ثم الأعلى من هذا : الشعور بالذات الإلهية وصفاتها والاقبال عليها (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت) (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وأوضح ما يكون الإيمان بأسماء الله عندما يكون الإنسان متحققاً بهذه الأسماء ؛ فمن كان في قلبه رحمة عرف اسم الله الرحيم أكثر ، هذا مع ملاحظة أن رحمة الله ليس كمثلها شيء ، وعندما يكون الإنسان كريماً يكون أقرب إلى معرفة اسم الله الكريم ، هذا مع ملاحظة الفارق بين المقامين ، وفارق كبير بين اثنين أحدهما يذكّره كل شيء في الله « فانظر إلى آثار رحمة الله » « ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءاً » والآخر لا يتذكر الله إلا لماما .

ب ـ والإيمان بالملائكة حده الأدنى التصديق ، وقد تصفو قلوب بعض الناس فيرون ما آمن به الآخرون غيباً « إذ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إن اللهَ اصطفاكِ وطهركِ

واصطفاك على نساء العالمين » عن أسيد بن حضير قال : (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكتَ فسكنتْ فقرأ فجالت فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريباً منها فانصرف فأخره ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: وتدري ما ذاك ؟ قال : لا قال : تلك الملائكة دَنَتْ لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس لا تتوارى منهم) أخرجه البخاري . وعن البراء (كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال : تلك السكينة تنزلت للقرآن) أخرجه الشيخان .

وعن حنظلة بن الربيع الأسيدي كاتب رسول الله ﷺ قال (لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت ؟ فقلت : نافق حنظلة فقال : سبحان الله ما تقول ؟ فقلت : نكون عند النبي ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً قال : والله إني لأجد مثل هذا فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وذكرا له ذلك فقال : والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات) أخرجه مسلم والترمذي (المعافسة : المعالجة والممارسة والملاعبة) .

فهذه حالات يصفو بها الإيمان ويرتفع إلى درجة الشهود ، ويأتي بعد ذلك شعور واستحياء ، ومعرفة ومراعاة لطبيعة الملائكة .

جـ ـ والايمان بالكتب أدناه ما رأينا من تصديق وشمول ، ويأتي بعد ذلك مقامات قال تعالى : « الذين آتيناهمُ الكتابَ يتلونه حقَّ تلاوته أولئك يؤمنون به » « وإذا تُليتْ عليهم آياته زادتهم إيماناً » « الله نزَّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُ منه جلودُ الذين يخشون ربهم ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات مُحْكماتٌ هنَّ أمُّ الكتاب وأُخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويلَهُ إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » « إن الذين أوتوا العلم من قبلهم إذا يتلى عليهم يخرون سجداً ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » . فالناس مع كتاب الله يتفاوتون ، فبعضهم يقرأ ويتأثر وكأنه يتلقاه عن الله وحياً ، ويعمل وكأنه مخاطب به وحده ؛ وآخرون ليسوا كذلك ولكل مقام .

د ــ وأدنى الإيمان بالرسل ما رأيناه ، وبعد ذلك يتفاوت الناس ، فمن إيمان يملأ القلب مع الحب والإعجاب والتعظيم والتأسي لدرجة تذوب معها الشخصية لتفنى بشخصية السيد الرسول ﷺ إلى أقل من ذلك (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) وفي رواية (أحب إليه من ماله وأهله) .

هـ ــ والإيمان باليوم الآخر كذلك فمن المؤمنين من يعيش في اليوم الآخر دائماً ، ذكرى ، وتحسساً ، ومحاسبة لنفسه ، وصوغاً لحياته كلها بما يتفق مع مواقفه التي أخبرنا عنها الرسول الصادق الأمين ، فيزهد في الدنيا ، ويقبل على الآخرة إقبال من لا يرى غيرها ، وفي حياة الرسول ﷺ والصحابة مثل كامل لمن أراد أن يعرف أهل الآخرة المؤمنين بها ، ثم الناس بعد ذلك درجات .

و ــ ويتفاوت الناس كذلك في الإيمان بالقدر ، فمنهم من يحقق الحكمة فيه « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فيرضى عن الله في كل حال ، ويتوكل على الله في كل أمر شعاره « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا » مطمئن على رزقه ، مطمئن على أجله ، لا يخشى في الله شيئاً : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ز ــ والحقيقة أن هذه الدرجات العالية من الإيمان أو الأقل منها ، كلها ترجع إلى مقدار جزم الإنسان بالشهادتين ، وعمق الإيمان بها في قلبه ويقينه ، فكلما كانت الشهادتان أكثر تمكناً في القلب ، كلما ارتفعت درجات الإيمان بأركانه كلها .

والحقيقة كذلك أن كل أعمال الإيمان والإسلام إنما هي لتحقيق الشهادتين في قلب المسلم ، شعوراً وإحساساً لذلك كانت الشهادتان بداية الإسلام ونهايته ، ولذلك ورد في الحديث : (من شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله جسده على النار)

* * *

(ب) من مضامين وآثار (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

١ ــ ان لا إله إلا الله محمد رسول الله ينبع عنها منهج للحياة . يقول صاحب معالم في الطريق تحت عنوان : لا إله إلا الله منهج حياة ما يلي :

العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة أن لا إله إلا الله . والتلقي عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في كيفية هذه العبودية

ـــ هو شطرها الثاني ، المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لهما . فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج . ثم الحدود والتعازير والحِل والحرمة والمعاملات .. والتشريعات والتوجيهات الإسلامية .. إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلّغه لنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً ، لأنه بغير تمثّل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلماً . ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ؛ فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة كما انها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة أو قامت على قاعدة أخرى معها أو عدة قواعد أجنبية عنها : « إنِ الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيّم) ... — (يوسف : ٤٠) — « من يطع الرسول فقد اطاع الله » .. — (النساء : ٨٠) — . هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين وفي حركته الواقعية كذلك :

إنه يفيدنا أولاً في تحديد (طبيعة المجتمع المسلم) .
ويفيدنا ثانياً في تحديد (منهج نشأة المجتمع المسلم) .
ويفيدنا ثالثاً في تحديد (منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية) .
ويفيدنا رابعاً في تحديد (منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية) .
وهي قضايا أساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الإسلامية قديماً وحديثاً .

إن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله ... هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وتتمثل هذه العبودية في التصور الإعتقادي ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء . فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله

واحد فإياي فارهبون . وله ما في السموات والأرض ولـه الدينُ واصبا . أفغير الله تتقون ؟ » ... — (النحل : ٥١ — ٥٣) — .

وليس عبداً لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله — معه أو من دونه — : « قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . — (الانعام : ١٦٢ — ١٦٣) — . وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله ، عن الطريق الذي بلغنا الله به ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يـأذن به الله » . (الشورى : ٢١) — . « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . — (الحشر : ٧) — .

هذا هو المجتمع المسلم . المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم كما تتمثل في شعائرهم وعباداتهم ، كما تتمثل في نظامهـم الاجتماعي وتشريعاتهم .. وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود ، لتخلف ركنه الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولقد قلنا ان العبودية لله تتمثل في (التصور الاعتقادي) .. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي الإسلامي .. إنه التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني، والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه — غيبه وشهوده — ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها — غيبها وشهودها — ولحقيقة نفسه .. أي لحقيقة الإنسان ذاته .. ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً . تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده . وتعامله مع الكون ونواميسه ، ومع الأحياء وعواملها ، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملاً يستمد أصوله من دين الله — كما بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم — تحقيقاً لعبوديته لله وحده في هذا التعامل .. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله .

فإذا تقرر أن هذا هو (المجتمع المسلم) . فكيف ينشأ هذا المجتمع ؟ ما منهج هذه النشأة ؟. إن هـذا المجتمع لا يقوم حـتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله .. لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور . ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر .. ولا تدين بالعبودية

لغير الله في النظام والشرائع .. ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هـذه العبودية الخالصة .. تنقي ضمائرها من الاعتقاد في الوهية أحد غير الله — معه أو من دونه — وتنقي شعائرها من التلقي عن أحد غير الله — معه أو دونه — وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله — معه أو من دونه .

عندئذ — وعندئذ فقط — تكون هذه الجماعة مسلمة ، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك .. فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله — عـلى النحو الذي تقدم — فإنهم لا يكونون مسلمين .. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً .. وذلك أن القاعدة الاولى التي يقوم عليها الإسلام والتي يقوم عليها المجتمع المسلم — وهي شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله — لم تقم بشطريها ...

وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام إجتماعي إسلامي : وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام .. ينبغي أن يتجه الإهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله — في أية صورة من صورها التي أسلفنا — وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة .. وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله . إعتقاداً وعبادة وشريعة هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم ، وينضم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده .. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وهكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول .. وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم .

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله — معه أو من دونه — إلى العبودية لله وحده بلا شريك ثم من تقرير هـذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية .. وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد مشتق من المجتمع الجاهلي القديم ومواجه له بعقيدة جديدة ونظام للحياة جديد يقوم على أساس هذه العقيدة وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها .. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا

ينضم . كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديدأو يحاربه وإن كانت السنة جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه — وهو أفراد أو مجموعات — أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً — وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام بغير استثناء .

وطبيعي أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم : قوة الإعتقاد والتصور . وقوة الخلق والبناء النفسي . وقوة التنظيم والبناء الجماعي . وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب عليه . أو على الأقل يصمد له .٧

ولكن ما هو (المجتمع الجاهلي) وما هو منهج الإسلام في مواجهته ؟.

إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم ، وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا : إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده .. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي وفي الشعائر التعبدية وفي الشرائع القانونية .

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار (المجتمع الجاهلي) جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً .

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية ... أولاً : بإلحادها في الله — سبحانه — وبإنكار وجوده أصلاً ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى (المادة) أو (الطبيعة) . ورجع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى (الاقتصاد) أو (أدوات الإنتاج) . وثانياً : بإقامة نظام العبودية فيه للحزب — على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة ، — لا لله سبحانه ، ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من إهدار لخصائص (الإنسان) وذلك باعتبار (أن المطالب الأساسية) له هي فقط مطالب الحيوان . وهي : الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس ، وحرمانه من حاجات روحه (الإنساني) المتميز عن الحيوان وفي أولها : العقيدة في الله وحرية اختيارها وحرية التعبير عنها . وكذلك حرية التعبير عن (فرديته) وهي من أخص خصائص (إنسانيته) هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفردية وفي اختيار نوع العمل والتخصص وفي التعبير الفني عن (الذات) .. إلى آخر ما يميز (الإنسان) عن (الحيوان) أو عن (الآلة) ، إذ أن التصور الشيوعي والنظام الشيوعي سواء ، كثيراً ما يهبط بالإنسان عن مرتبة الحيوان إلى مرتبة الآلة .

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية — وهي ما تزال قائمة في الهنـد واليابان والفلبين وإفريقية — تدخل فيه .. أولاً : بتصورها الإعتقادي القائم على تأليه غير الله — معه أو من دونه — وتدخل فيه ثانياً : بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع ، المرجع فيها لغير الله وشريعته. سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ أو استمدتها من هيئات مدنية (علمانية) تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله .. أي أن لها الحاكمية العليا باسم (الشعب) أو باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان .. ذلك أن الحاكمية العليا لا تكون إلا لله سبحانه ولا تزاول إلا بالطريقة التي بلغها عنه رسله .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعاً .. تدخل فيه هذه المجتمعات أولاً : بتصورها الإعتقادي المحرف الذي لا يفرد الله — سبحانه — بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك . سواء بالنبوة أو بالتثليث ، أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها .

« وقالت اليهود : عزير ابن الله وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟ » — (التوبة : ٣٠) .

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » .. — (المائدة : ٧٣) — .
« وقالت اليهود : يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » — (المائدة ٦٤) — .

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق » .. — (المائدة : ١٥) — .

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة . ثم تدخل فيه بأنظمتها وشرائعها ؛ وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده بالإقرار له وحده بحق الحاكمية واستمداد السلطان من شرعه . بل تقيم هيئات من البشر لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون إلا لله سبحانه .. وقديماً وصمهم الله بالشرك والكفر لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله — والمسيح ابن مريم — وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً . لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » ..

وهم لم يكونوا يعتقدون في ألوهية الأحبار والرهبان ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية . إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية ، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم بما لم يأذن به الله . فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا أحباراً ولا رهباناً .. وكلهم سواء .. وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنهـا مسلمة . وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله . ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً . ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها — فهي — وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله — تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله . فتدين بحاكمية غير الله . فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريباً .

والله سبحانه يقول عن الحاكمين : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » — (المائدة : ٤٤) — . ويقول عن المحكومين : « ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا إلى الطاغوت . وقد أُمروا أن يكفروا به » إلى أن يقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .. — (النساء : ٦٠ — ٦٥) — .

كما انه — سبحانه قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دونه لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن انفسهم أنهم (مسلمون) لناس منهم واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركا كاتخاذهم عيسى ابن مريم رباً يؤلهونه ويعبدونه سواء ، فهذه كتلك خروج من العبوديّة لله وحده . فهي خروج من دين الله .. ومن شهادة أن لا إله إلاّ الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة « علمانيته » وعدم علاقته بالدين أصلاً . وبعضها يعلن أنه « يحترم الدين » ولكنه يُخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً ، ويقول : إنه ينكر « الغيبية » ويقيم نظامه على « العلمية » باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال[1] . وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله

(١) يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » في الجزء السابع من الظلال .

ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه : هذه شريعة الله . وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ..

وإذا تعين هذا فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة : إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره .

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها .. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة .. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده . وهي من ثم تلتقي – مع سائر المجتمعات الأخرى – في صفة واحدة .. صفة (الجاهلية) .

وهذا يقودنا إلى القضية الأخيرة وهي منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري كله . اليوم وغدا وإلى آخر الزمان . وهنا ينفعنا ما قررناه في الفقرة الأولى عن « طبيعة المجتمع المسلم » . وقيامه على العبودية لله وحده في أمره كله .

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال : – ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه ؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة ؟ أم هو الواقع البشري أياً كان ؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة .. إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة .. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل .. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ثم يتبع إتباعاً كاملاً بلا تلعثم ولا تردد : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » – (الحشر : ٧) – . ثم إن الإسلام يسأل : « أأنتم أعلم أم الله ؟ » .. ويجيب : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .. « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

والذي يعلم – والذي يخلق ويرزق كذلك – هو الذي يحكم .. ودينه الذي هو منهجه للحياة هو الأصل الذي ترجع إليه الحياة ..

أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهي تفسد وتنحرف وتقوم على علم البشر

الذين لا يعلمون والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلا .

ودين الله ليس غامضاً ومنهجه للحياة ليس مائعاً .. فهو محدد بشطر الشهادة الثاني : محمد رسول الله . فهو محصور فيما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم من النصوص في الأصول .. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ولا اجتهاد مع النص . وإن لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد – وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته لاوفق الأهواء والرغبات . « فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » – (النساء : ٥٩).

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة .. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هــذا شرع الله .. إلا أن تكون الحاكمية العليا معلنة وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحــانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي من البشر . وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريد الله ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعي سلطاناً باسم الله . كالذي عرفته أوربا ذات يوم باسم « الثيوقراطية » أو « الحكم المقدس » فليس شيء من هذا في الإسلام . وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله – صلى الله عليه وسلم – وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله .

إن كلمة (الدين للواقع) يساء فهمها ويساء استخدامها كذلك. نعم إن هذا الدين للواقع ولكن اي واقع .. إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه وفق منهجه منطبقاً على الفطرة البشرية في سوائها ومحققاً للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها . هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق والذي يعلم من خلق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » – (الملك : ١٤) – .

والدين لا يواجه الواقع أياً كان ليقره ويبحث له عن سند منه وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافته المستعارة إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغي منه ما يلغي وينشيء واقعاً غيره إن كان لا يرتضيه . وواقعه الذي ينشئه هو الواقع . وهذا هو المعني بأن الإسلام : « دين للواقع » .. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح ، ولعله يثار هنا سؤال . أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهــم ؟ . زمرة أخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام ويجيب عليه :

– « أأنتم أعلم أم الله » ؟

— « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله كما أنزله الله وكما بلغه عنه رسول الله .. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم فهم .. أولاً : « واهمون » فيما بدا لهم ، « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ؟ فلله الآخرة والأولى » ... (النجم : ٢٣ — ٢٥) .

وهم .. ثانياً «كافرون » .. فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة على هذا الدين ومن أهل هذا الدين.

٢ — وإن لا إله إلا الله تجعل أهلها على انسجام مع نواميس الكون كله . يقول صاحب معالم في الطريق تحت عنوان : شريعة كونية ما يلي :

إن الإسلام حين يقيم بناءه الإعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده : ويجعل هذه العبودية متمثلة في الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء باعتبار أن هذه العبودية الكاملة لله وحده — في صورتها هذه — هي المدلول العملي لشهادة أن لا إله إلا الله .. وأن التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وحده هو المدلول العملي كذلك لشهادة أن محمداً رسول الله ..

إن الإسلام حين يقيم بناءه كله على هذا الأساس بحيث تمثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله منهج الحياة في الإسلام وتصور ملامح هذا المنهج وتقرر خصائصه . إن الإسلام حين يقيم بناءه على هذا النحو الفريد الذي يفرقه عن جميع الأنظمة الأخرى التي عرفتها البشرية ... إنما يرجع إلى أصل أشمل في تقريره عن الوجود لا عن الوجود الانساني وحده وإلى منهج للوجود كله لا منهج للحياة الإنسانية وحدها .

إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله ، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان : وأودعه الله — سبحانه — قوانينه التي يتحرك بها والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها كما تتسق بها حركته الكلية سواء : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون » — (النحل : ٤٠) . « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . (الفرقان : ٢) . إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره وقدراً يحركه وناموساً ينسقه . هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها وينظم حركاتها جميعاً فلا

تصطدم ولا تختل ولا تتعارض ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة – إلى ما شاء الله – كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره والقدر الذي يحركه والناموس الذي ينسقه بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة أو أن يتنكر للقدر أو أن يخالف الناموس .. وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد إلا أن يشاء الله : « إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .. – (الاعراف : ٥٤) .

والإنسان من هذا الوجود الكوني والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله .. لقد خلقه الله – كما خلق هذا الوجود – وهو في تكوينه المادي من طين هذه الأرض وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنساناً إنما رزقه الله إياه مقدراً تقديراً وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنه الله له – رضي أم أبى – يعطى وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه – فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنيناً وجوده – وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة . وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له . وهو يحس ويتألم ويجوع ويعطش ويأكل ويشرب ويمثل الطعام والشراب . وبالجملة يعيش .. وفق ناموس الله عن غير إرادة منه ولا اختيار شأنه في هذا شأن هذا الوجود الكوني وكل ما فيه في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه ...

والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الإنسان . والذي أخضع الإنسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني .. هو سبحانه – الذي سن للإنسان (شريعة) لتنظيم حياته الإرادية تنظيماً متناسقاً مع حياته الطبيعية . فالشريعة – على هذا الأساس – إن هي إلا قطاع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان وفطرة الوجود العام وينسقها كلها جملة واحدة .

وما من كلمة من كلمات الله ولا أمر ولا نهي ولا وعد ولا وعيد ولا تشريع ولا توجيه .. إلا وهي شطر من الناموس العام وصادقة في ذاتها صدق القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية – أي القوانين الإلهية الكونية – التي نراها تتحقق في كل لحظة بحكم ما في طبيعتها من حق أزلي أودعه الله فيها وهي تتحقق بقدر الله .

و «الشريعة» التي سنها الله لتنظيم حياة البشر هي – من ثم – شريعة كونية بمعنى أنها متصلة بناموس الكون العام ومتناسقة معه .. ومن ثم فإن الإلتزام بها ناشيء من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة . وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان ..

ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام – ولا حتى بهذا الذي يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له – رضوا أم أبوا – فإنهم – من ثم – لا يملكون أن يشترعوا لحياة البشر نظاماً يتحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة إنما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر ومدبر أمره وأمرهم وفق الناموس الواحد الذي اختاره وارتضاه .

وكذلك يصبح العمل بشريعة الله واجباً لتحقيق ذلك التناسق .. وذلك فوق وجوبه لتحقق الإسلام اعتقاداً . فلا وجود للإسلام في حياة فرد أو حياة جماعة إلا بإخلاص العبودية لله وحده وبالتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله وحده . تحقيقاً لمدلول ركن الإسلام الأول : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وفي تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر . كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد .. إنهم – في هذه الحالة وحدها – يعيشون في سلام مع الكون وفي سلام مع أنفسهم .. فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركتهم مع حركة الكون ، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه .. وأما السلام مع أنفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته لأن شريعة الله تنسق بين الحركة الظاهرة والفطرة المضمرة في يسر وهدوء .. وينشأ عن هذا التنسيق تنسيق آخر في ارتباط الناس ونشاطهم العام لأنهم جميعاً يسلكون حينئذ وفق منهج موحد هو طرف من الناموس الكوني العام .

كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق اهتدائها وتعرفها في يسر إلى أسرار هذا الكون والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة في أطوائه . واستخدام هذا كله وفق شريعة الله لتحقيق الخير البشري العام بلا تعارض ولا اصطدام . ومقابل شريعة الله هو أهواء البشر :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .. — (المؤمنون : ٧١) .

ومن ثم توحد النظرة الإسلامية بين الحق الذي يقوم عليه هذا الدين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض ويصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ويحاسب الله به ويجازي من يتعدونه .. فهو حق واحد لا يتعدد وهو الناموس الكوني العام الذي أراده الله لهذا الوجود في جميع الأحوال والذي يخضع له ويؤخذ به كل ما في الوجود من عوالم وأشياء وأحياء ..

« لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ، وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين .. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون » ... (الانبياء : ١٠ — ٢٠) .

وفطرة الإنسان تدرك هذا الحق في أعماقها فطبيعة تكوينه ، وطبيعة هذا الكون كله من حوله توحي إلى فطرته بأن هذا الوجود قائم على الحق ، وأن الحق أصيل فيه ، وأنه ثابت على الناموس لا يضطرب ولا تتفرق به السبل ولا تختلف دورته ، ولا يصطدم بعضه ببعض ولا يسير وفق المصادفة العابرة والفلتة الشاردة ، ولا وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة إنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديراً .. ومن ثم يقع الشقاق — أول ما يقع — بين الإنسان وفطرته عندما يحيد عن الحق الكامن في أعماقها تحت تأثير هواه وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مستمدة من هذا الهوى لا من شريعة الله . وعندما لا يستسلم لله إستسلام هذا الوجود الكوني الخاضع لمولاه .

ومثل هذا الشقاق يقع بين الأفراد والجماعات والأمم والأجيال . كما يقع بين البشر والكون من حولهم . فتنقلب قواه وذخائره وسائل تدمير وأسباب شقاء بدلاً من أن تكون وسائل عمران وأسباب سعادة لبني الإنسان . وإذن فإن الهدف الظاهر من قيام شريعة الله في الأرض ليس مجرد العمل للآخرة . فالدنيا والآخرة معاً مرحلتان

متكاملتان . وشريعة الله هي التي تنسق بين المرحلتين في حياة هذا الإنسان وتنسيق الحياة كلها مع الناموس الإلهي العام . والتناسق مع الناموس لا يؤجل سعادة الناس إلى الآخرة بل يجعلها واقعة ومتحققة في المرحلة الأولى كذلك . ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها في الدار الآخرة .

هذا هو أساس التصور الإسلامي للوجود كله وللوجود الإنساني في ظل ذلك الوجود العام . وهو تصور يختلف في طبيعته اختلافاً جوهرياً عن كل تصور آخر عرفته البشرية . ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أي تصور آخر في جميع الأنظمة والنظريات .

إن الالتزام بشريعة الله – في هذا التصور – هو مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون . وبين الناموس الذي يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون . ثم ضرورة المطابقة بين هذا الناموس العام والشريعة التي تنظم حياة بني الإنسان . وتتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدعيها لنفسه إنسان ..

وإلى ضرورة هذا التطابق والتناسق يشير الحوار الذي جرى بين إبراهيم – عليه السلام – أبي هذه الأمة المسلمة – وبين (نمرود) المتجبر المدعي بحق السلطان على العباد في الأرض والذي لم يستطع – مع ذلك – أن يدعي بحق السلطان على الأفلاك والأجرام في الكون . وبهت أمام إبراهيم عليه السلام . وهو يقول له : إن الذي يملك السلطان في الكون هو وحده الذي ينبغي أن يكون له السلطان في حياة البشر ولم يحر جواباً على هذا البرهان :

« الم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه – أن آتاه الله الملك – إذ قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت . قال : أنا أحيي وأميت قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب .. فبهت الذي كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين» – – (البقرة : ٢٥٨) .

وصدق الله العظيم : (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ؟ » .. – (آل عمران : ٨٢) .

٣ – وأن لا إله إلا الله محمد رسول الله ينبع عنها ثقافة خاصة وحضارة حقة ويشرح

هاتين القضيتين صاحب كتاب معالم في الطريق بفقرتين : الأولى تحت عنوان : الإسلام هو الحضارة. والثانية تحت عنوان : التصور الإسلامي والثقافة .

(أ) الاسلام هو الحضارة : الإسلام لايعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات .. مجتمع إسلامي . ومجتمع جاهلي .

« المجتمع الإسلامي » هو المجتمع ألذي يطبق فيه الإسلام .. عقيدة وعبادة . وشريعة ونظاماً . وخلقاً وسلوكاً .. و « المجتمع الجاهلي » هو المجتمع اللذي لا يطبق فيه الإسلام . ولا تحكمه عقيدته وتصوراته وقيمه وموازينه ونظامه وشرائعه وخلقه وسلوكه ...

ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم ناساً ممن يسمون أنفسهم « مسلمين » . بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع . وإن صلى وصام وحج البيت الحرام. وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه — غير ما قرره الله سبحانه وفصله رسوله صلى الله عليه وسلم . ويسميه مثلاً « الإسلام المتطور » .

« والمجتمع الجاهلي » قد يتمثل في صور شتى — كلها جاهلية — : قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى ويفسر التاريخ تفسيراً مادياً جدلياً ويطبق ما يسميه « الإشتراكية العلمية » نظاماً .

وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى ولكن يجعل له ملكوت السماوات ويعزله عن ملكوت الأرض فلا يطبق شريعته في نظام الحياة ولا يحكم قيمه التي جعلها هو قيماً ثابته في حياة البشر ويبيح للناس أن يعبدوا الله في البِيَع والكنائس والمساجد ولكنه يحرم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم. وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله في الأرض التي ينص عليها قوله تعالى : « وهو الذي في السماء إلـــه وفي الأرض إله ».. — (الزخرف : ٨٤) . ومن ثم لا يكون هذا المجتمع إسلامياً في دين الله الذي يحدده قوله : « إنِ الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه .. ذلك الدين القيم » .. — (يوسف : ٨٤) . وبذلك يكون مجتمعاً جاهلياً ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله . في البيع والكنائس والمساجد .

« المجتمع الإسلامي » — بصفته تلك — هو وحده « المجتمع التحضر » والمجتمعات الجاهلية — بكل صورها المتعددة — مجتمعات متخلفة ولا بد من إيضاح لهذه الحقيقة الكبيرة .

لقد كنت قد أعلنت مرة عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان : نحو مجتمع إسلامي متحضر » .. ثم عدت في الإعلان التالي عنه فحذفت كلمة « متحضر » مكتفياً بأن يكون عنوان البحث — كما هو موضوعه — « نحو مجتمع إسلامي » ...

ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائري (يكتب بالفرنسية) ففسره على أنه ناشيء من « عملية دفاع نفسية داخلية عن الاسلام » وأسف لأن هذه العملية — غير الواعية — تحرمني مواجهة « المشكلة » على حقيقتها . أنا أعذر هذا الكاتب . لقد كنت مثله من قبل .. كنت أفكر على النحو الذي يفكر هو عليه الآن .. عندما فكرت في الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة .. وكانت المشكلة عندي — كما هي عنده اليوم — هي مشكلة : « تعريف الحضارة » .

لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسي . وهي رواسب آتية من مصادر أجنبية .. غريبة على حسي الإسلامي .. وعلى الرغم من اتجاهي الإسلامي الواضح في ذلك الحين إلا أن هذه الرواسب كانت تغبش تصوري وتطمسه . كان تصور « الحضارة » — كما هو في الفكر الأوربي — يخايل لي ويغبش تصوري ويحرمني الرؤية الواضحة الأصيلة .

ثم انجلت الصورة .. « المجتمع المسلم » « هو المجتمع المتحضر » فكلمة « المتحضر » إذن لغو لا يضيف شيئاً جديداً .. على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حسي تلك الظلال الأجنبية الغريبة التي كانت تغبش تصوري وتحرمني الرؤيا الواضحة الأصيلة .

الاختلاف إذن هو على « تعريف الحضارة » .. ولابد من إيضاح إذن لهذه الحقيقة .

حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده — متمثلة في سيادة الشريعة الالهية — تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر .. وتكون هذه هي « الحضارة الإنسانية » لان حضارة الانسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للانسان ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع .. ولا حرية — في الحقيقة ولا كرامة للانسان — ممثلاً في كل فرد من افراده — في مجتمع بعضه أرباب يشرعون، وبعضه عبيد يطيعون .

ولا بد ان نبادر فنبين أن التشريع لا ينحصر فقط في الأحكام القانونية — كما هو المفهوم الضيق في الاذهان اليوم لكلمة الشريعة — فالتصورات والمناهج والقيم والموازين

والعادات والتقاليد .. كلها تشريع يخضع الافراد لضغطه . وحين يصنع الناس — بعضهم لبعض — هذه الضغوط ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع لا يكون هذا المجتمع متحرراً . انما هو مجتمع بعضه ارباب وبعضه عبيد — كما اسلفنا — وهو — من ثم — مجتمع متخلف .. او بالمصطلح الاسلامي .. « مجتمع جاهلي » .

والمجتمع الاسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه اله واحد ويخرج فيه الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل الذي ترتكز اليه حضارة الانسان وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له وهو يعلن خلافته في الارض عنه ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الاعلى .

وحين تكون آصرة التجمع الاساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة . ويكون هذا كله صادراً من إله واحد تتمثل فيه السيادة العليا للبشر . وليس صادراً من ارباب ارضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر .. يكون ذلك التجمع ممثلاً لأعلى ما في « الانسان » من خصائص .. خصائص الروح والفكر .. فأما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقوم والارض ... وما إلى ذلك من الروابط فظاهر ان الجنس واللون والقوم والارض لا تمثل الخصائص العليا للانسان .. فالانسان يبقى انساناً بعد الروح والفكر ثم هو يملك — بمحض ارادته الحرة — ان يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته . ولكنه لا يملك ان يغير لونه ولا جنسه كما انه لا يملك ان يحدد مولده في قوم ولا في ارض .. فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على امر يتعلق بارادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر .. اما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على امر خارج عن ارادتهم الانسانية فهو المجتمع المتخلف . او بالمصطلح الاسلامي .. هو « المجتمع الجاهلي » .

والمجتمع الاسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الاساسية والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الاسود والابيض والاحمر والاصفر والعربي والرومي والفارسي والحبشي وسائر اجناس الارض في امة واحدة ربها الله . وعبوديتها له وحده . والأكرم فيها هو الاتقى . والكل فيها انداد يلتقون على امر شرعه الله لهم ، ولم يشرعه احد من العباد : وحين تكون « انسانية » الانسان هي القيمة العليا في مجتمع . وتكون الخصائص « الانسانية » فيه هي موضع التكريم والاعتبار .

يكون هذا المجتمع متحضرا .. فاما حين تكون « المادة » — في اية صورة — هي القيمة العليا .. سواء في صورة « النظرية » كما في التفسير الماركسي للتاريخ او في صورة « الانتاج المادي » كما في امريكا واوربا وسائر المجتمعات التي تعتبر الانتاج المادي قيمة عليا تهدر في سبيلها القيم والخصائص الانسانية .. فان هذا المجتمع يكون مجتمعاً متخلفاً .. او بالمصطلح الاسلامي .. مجتمعاً جاهلياً .

ان المجتمع المتحضر .. الاسلامي ... لا يحتقر المادة — لا في صورة النظرية (باعتبارها هي التي يتألف منها هذا الكون الذي نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه ايضاً) ولا في صورة « الانتاج المادي » .. فالانتاج المادي من مقومات الخلافة في الأرض عن الله — ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص « الإنسان » ومقوماته .. وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته . وتهدر فيها قاعدة (الأسرة) ومقوماتها . وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته ... إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة في الإنتاج المادي .

وحين تكون « القيم الإنسانية » و « الأخلاق الإنسانية » التي تقوم عليها هي السائدة في مجتمع يكون هذا المجتمع متحضراً . والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيماً « متطورة » متغيرة متبدلة لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل . كما يزعم التفسير المادي للتاريخ وكما تزعم « الإشتراكية العلمية »

إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان خصائص « الإنسان » التي يتفرد بها دون الحيوان والتي تغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويفرده عن الحيوان . وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه وتغلب الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان .

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم « وثابت » لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها « التطوريون » و « الإشتراكيون العلميون » .

عندئذ لا يكون إصطلاح البيئة وعرفها هو الذي يحدد القيم الأخلاقية . إنما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت .. عندئذ لا تكون هناك قيم وأخلاق « زراعية » وأخرى « صناعية » ولا قيم وأخلاق « رأسمالية » وأخرى « إشتراكية » . ولا قيم وأخلاق « بورجوازية » وأخرى « صعلوكية » ولا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومستوى

المعيشة وطبيعة المرحلة .. إلى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية ... إنما تكون هناك — من وراء ذلك كله — قيم وأخلاق « إنسانية » وقيم وأخلاق « حيوانية » إذا صح هذا التعبير — أو بالمصطلح الإسلامي : قيم وأخلاق « إسلامية » وقيم وأخلاق « جاهلية » .

إن الإسلام يقرر قيمة وأخلاقية هذه « الإنسانية » — أي التي تنمي في الإنسان الجوانب التي تفرقه وتميزه عن الحيوان — ويمضي في إنشائها وتثبيتها وصيانتها في كل المجتمعات التي يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات في طور الزراعة أم في طور الصناعة . وسواء كانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعي ، أو مجتمعات حضرية مستقرة وسواء كانت هذه المجتمعات فقيرة أو غنية .. إنه يرتقي صعداً بالخصائص الإنسانية ويحرسها من النكسة إلى الحيوانية .. لأن الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي من الدرك الحيواني إلى المرتفع الإنساني .. فإذا انتكس هذا الخط — مع حضارة المادة — فلن يكون ذلك حضارة إنما هو « التخلف » أو هو « الجاهلية » .

وحين تكون « الأسرة » هي قاعدة المجتمع .. وتقوم هذه الأسرة على أساس « التخصص » بين الزوجين في العمل . وتكون رعاية الجيل الناشيء هي أهم وظائف الأسرة .. يكون هذا المجتمع متحضراً .. ذلك أن الأسرة على هذا النحو — في ظل المنهج الإسلامي — تكون هي البيئة التي تنشأ وتنمى فيهاالقيم والأخلاق « الإنسانية » التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة ممثلة في الجيل الناشيء . والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة . فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هي قاعدة المجتمع .. حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأسرة .. حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة .. وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجيل الجديد وتؤثر هي — أو يؤثر لها المجتمع — أن تكون مضيفة في فندق أو سفينة أو طائرة .. حين تنفق طاقتها في « الإنتاج المادي » و « صناعة الأدوات » ولا تنفقها في « صناعة الإنسانية » لأن الإنتاج المادي يومئذ أغلى وأعز وأكرم من « الإنتاج الإنساني » . عندئذ يكون هذا هو « التخلف الحضاري » بالقياس الإنساني .. أو تكون هي « الجاهلية » بالمصطلح الإسلامي .

وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع ... متخلف أم متحضر ، جاهلي أم إسلامي .. والمجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق

والنزعات الحيوانية في هذه العلاقة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي والعلمي . إن هذا المقياس لا يخطيء في قياس مدى التقدم « الإنساني » .

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم « الأخلاقي » بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز « الإنساني » عن الطابع « الحيواني » ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية – ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة – رذيلة أخلاقية .. إن المفهوم الأخلاقي يكاد ينحصر في المعاملات الاقتصادية – والسياسية أحياناً في حدود « مصلحة الدولة » – ففضيحة كريستين كيلر وبروفيومو الوزير الإنجليزي – مثلاً – لم تكن في عرف المجتمع الإنجليزي فضيحة بسبب جانبها الجنسي . إنما كانت فضيحة لأن كريستين كيلر كانت صديقة كذلك للملحق البحري الروسي . ومن هنا يكون هناك خطر على أسرار الدولة في علاقة الوزير بهذه الفتاة وكذلك لأنه افتضح كذبه على البرلمان الإنجليزي والفضائح المماثلة في مجلس الشيوخ الأمريكي ، وفضائح الجواسيس والموظفين الإنجليز والأمريكان الذين هربوا إلى روسيا .. ليست فضائح بسبب شذوذهم الجنسي ولكن بسبب الخطر على أسرار الدولة .

والكتاب والصحفيون والروائيون في المجتمعات الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات : إن الإتصالات (الحرة) ليست رذائل أخلاقية .. الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته أو تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود ، بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدت ، والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة .. عشرات من القصص هذا محورها ومئات التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتيرية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها ..

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة .. غير متحضرة .. من وجهة نظر « الإنسان » وبمقياس خط التقدم « الإنساني » ..

إن خط التقدم الإنساني يسير في اتجاه « الضبط » للنزوات الحيوانية ، وحصرها في نطاق « الأسرة » على أساس « الواجب » لتؤدي بذلك « وظيفة إنسانية » ليست اللذة غايتها وإنما هي إعداد جيل إنساني يخلف الجيل الحاضر في ميراث الحضارة « الإنسانية » التي يميزها بروز الخصائص الإنسانية ولا يمكن إعداد جيل يترقى في خصائص الإنسان

ويبتعد عن خصائص الحيوان إلا في محضن أسرة محوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفي وقائمة على أساس الواجب الذي لا يتأرجح مع الانفعالات الطارئة . وفي المجتمع الذي تنشئه تلك التوجيهات والايحاءات الخبيثة المسمومة والذي ينحسر فيه المفهوم الأخلاقي فيتخلى عن كل آداب الجنس لا يمكن أن يقوم ذلك المحضن الإنساني .

من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والإيحاءات والضمانات الإسلامية هي اللائقة بالإنسان ويكون « الإسلام هو الحضارة » ويكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر .. بذلك المقياس الثابت الذي لا يتميع أو لا « يتطور » .

وأخيراً فإنه حين يقوم « الإنسان » بالخلافة عن « الله » في أرضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره . وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره . وأن يحكم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها . وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة ، ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي ويستخدمها في ترقية الحياة وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها ، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الاختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة .. أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ويصنع المادة الخامة ويقيم الصناعات المتنوعة ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله .. حين يصبح وهو يصنع هذا كله « ربانياً » يقوم بالخلافة عن الله — على هذا النحو — عبادة لله . يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة .. فأما الإبداع المادي — وحده — فلا يسمى في الإسلام حضارة .. فقد يكون وتكون معه الجاهلية .. وقد ذكر الله من هذا الإبداع المادي في معرض وصف الجاهلية نماذج :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » — (الشعراء : ١٢٧ — ١٣٥) .

« أتتركون فيما ها هنا آمنين ؟ في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم .

وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ؟ فاتقوا الله واطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » (الشعراء : ١٤٦ – ١٥٢) .

« فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ». – (الانعام ؛ ٤٣ – ٤٥) .

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » . (يونس : ٢٤) .

ولكن الإسلام – كما أسلفنا – لا يحتقر المادة . ولا يحتقر الإبداع المادي ، وإنما هو يجعل هذا اللون من التقدم – في ظل منهج الله – نعمة من نعم الله على عباده ويبشرهم به جزاء على طاعته :

« فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » ... (نوح : ١٠ – ١٢) .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ... (الاعراف : ٩٦) .

المهم هو القاعدة التي يقوم عليها التقدم الصناعي والقيم التي تسود المجتمع . والتي يتألف من مجموعها خصائص الحضارة « الإنسانية » .

وبعد .. فإن قاعدة إنطلاق المجتمع الإسلامي ، وطبيعة تكوينه العضوي تجعلان منه مجتمعاً فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية ، وطبيعة تكوينها العضوي .. المجتمع الإسلامي وليد الحركة ، والحركة فيه مستمرة وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم .

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري .. إنها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر تنشيء لهم تصورا خاصاً للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات وتحدد لهم منهجاً للعمل يترجم هذا التصور .. الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة

الكون ... انها — كما قلنا — آتية من خارج النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري .. وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه .

إنه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الإنسان وعن محيط الكون المادي .

وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه ودون أن يكون للإنسان يد فيه — في ابتداء الأمر — تبدأ أولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الإسلامي . ويبدأ معها عمل « الإنسان » أيضاً .. إنسان يؤمن بهذه العقيدة . الآتية له من ذلك المصدر الغيبي الجارية بقدر الله وحده . وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكماً) .. إن الإنسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه ... إنه سينطلق بها .. هذه طبيعتها .. طبيعة الحركة الحية .. إن القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزه حتماً .. إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدماً .

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : أنتم الآن مجتمع ، مجتمع إسلامي منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة ولا تسود فيه قيمها الأساسية — القيم التي أسلفنا الإشارة إليها — وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وجد (فعلاً) .

والثلاثة يصبحون عشرة . والعشرة يصبحون مئة والمئة يصبحون الفاً . والالف يصبحون إثني عشر ألفاً . ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي .

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره ، وانفصل بقيمه واعتباراته، وانفصل بوجوده وكينونته عن المجتمع الجاهلي — الذي أخذ منه أفراده — وتكون حركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع وأعطته وزنه ومكانه في هذا المجتمع حسب الميزان والاعتبار الإسلامي ويكون وزنه هذا معترفاً له به من المجتمع دون أن يزكي نفسه أو يعلن عنه ، بل إن عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الأنظار المتطلعة إليه في البيئة .

ولكن « الحركة » التي هي طابع العقيدة الإسلامية . وطابع هذا المجتمع الذي

انبثق منها لا تدع أحداً يتوارى . إن كل فرد من أفراد هذا المجتمع لا بد أن يتحرك . الحركة في عقيدته والحركة في دمه والحركة في مجتمعه ، وفي تكوين هذا المجتمع العضوي . إن الجاهلية من حوله ، وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله والمعركة مستمرة والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

على إيقاعات الحركة،وفي أثناء الحركة يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع،وتتحدد وظيفته ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه .

هذه النشأة وهذا التكوين خاصيتان من خصائص المجتمع الإسلامي تميزانه ، تميزان وجوده وتركيبه،وتميزان طابعه وشكله . وتميزان نظامه والإجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً،وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة لا تعالج بمفهومات اجتماعية أجنبية عنها ، ولا تدرس ، وفق منهج غريب عن طبيعتها ولا تنفذ بإجراءات مستمدة من نظام آخر .

إن المجتمع الإسلامي ــ كما يبدو من تعريفنا المستقل للحضارة ليس بمجرد صورة تاريخية يبحث عنها في ذكريات الماضي إنما هو طلبة الحاضر وأمل المستقبل . إنه هدف يمكن أن تستشرفه البشرية كلها اليوم وغداً ، لترتفع به من وهدة الجاهلية التي تتردى فيها، سواء في هذه الجاهلية المتقدمة صناعياً واقتصادياً والأمم المتخلفة أيضاً .

إن تلك القيم التي أشرنا إليها إجمالاً هي قيم إنسانية لم تبلغها الإنسانية إلا في فترة « الحضارة الإسلامية » (ويجب أن ننبه إلى ما نعنيه بمصطلح « الحضارة الإسلامية » .. إنها الحضارة التي توافرت فيها تلك القيم وليست هي كل تقدم صناعي أو اقتصادي أو علمي مع تخلف تلك القيم عنها) .

وهذه القيم ليست « مثالية خيالية » إنما هي قيم واقعية عملية . يمكن تحققها بالجهد البشري ــ في ظل المفهومات الإسلامية الصحيحة ــ يمكن تحقيقها في كل بيئة بغض النظر عن نوع الحياة السائد فيها وعن تقدمها الصناعي والاقتصادي والعلمي .. فهي لا تعارض ــ بل تشجع بالمنطق العقيدي ذاته ــ التقدم في كافة حقول الخلافة ولكنها في الوقت ذاته لا تقف مكتوفة اليدين في البلاد التي لم تتقدم في هذه الحقول بعد . إن الحضارة يمكن أن تقوم في كل مكان وفي كل بيئة .. تقوم بهذه القيم .. أما أشكالها المادية

التي تتخذها فلا حد لها لأنها في كل بيئة تستخدم القدرات الموجودة بها فعلاً وتنميها .

المجتمع الإسلامي إذن – من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه – ليس صورة تاريخية ثابتة ، لكن وجوده وحضارته يرتكنان إلى قيم تاريخية ثابتة .. وحين نقول « تاريخية » لا نعني إلا أن هذه القيم قد عرفت في تاريخ معين . وإلا فهي ليست من صنع التاريخ ولا علاقة لها بالزمن في طبيعتها .. إنها حقيقة جاءت إلى البشرية من مصدر رباني .. من وراء الواقع البشري . ومن وراء الوجود المادي أيضاً .

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي . ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة لأنها هي مقومات هذه الحضارة : (العبودية لله وحده . والتجمع على آصرة العقيدة فيه . واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة . وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته . وحرمة الأسرة . والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه .. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة) .

إن « أشكال » الحضارة الإسلامية التي تقوم على هذه الأسس الثابتة ، تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي . لأنها تستخدم الموجود منها فعلاً في كل بيئة .. ومن ثم لا بد أن تختلف أشكالها .. لا بد أن تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمستويات في الإطار الإسلامي والتكيف بالقيم والمقومات الإسلامية .. وهذه المرونة – في الأشكال الخارجية للحضارة – ليست مفروضة على العقيدة الإسلامية التي تنبثق منها تلك الحضارة إنما هي من طبيعتها .. ولكن المرونةليست هي التميع .. والفرق بينهما بعيد جداً .

لقد كان الإسلام ينشيء الحضارة في أواسط إفريقية بين العراة .. لأنه بمجرد وجوده هنالك تكتسي الأجسام العارية ويدخل الناس في حضارة اللباس التي يتضمنها التوجيه الإسلامي المباشر . ويبدأ الناس في الخروج كذلك من الخمول البليد إلى نشاط العمل الموجه لاستغلال كنوز الكون المـــادي . ويمرون كذلك من طور القبيلة – أو العشيرة – إلى طور الأمة . وينتقلون من عبادة الطوطم المنعزلة إلى عبادة رب العالمين .. فما هي الحضارة إن لم تكن هي هذا ؟ .. إنها حضارة هذه البيئة التي تعتمد على إمكانياتها القائمة فعلاً .. فأما حين يدخل الإسلام في بيئة أخرى فإنه ينشيء – بقيمه الثابتة – شكلاً آخر من أشكال الحضارة تستخدم فيه موجودات هذه البيئة وإمكانياتها الفعلية وينميهـــا .

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة – بطريقة الإسلام ومنهجه – على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي . وإن كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم – عند وجوده – وتدفعه إلى الأمام دفعاً وترفع أهدافه . كما أنها تنشئه إنشاء حين لا يكون ، وتكفل نموه واطراده .. ولكنها تظل في كل حال قائمة على أصولها المستقلة،ويبقى للمجتمع الإسلامي طابعه الخاص،وتركيبه العضوي الناشئان عن نقطة انطلاقه الأولى التي يتميز بها من كل مجتمعات الجاهلية ..

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ » .. – (البقرة : ١٣٨) .

(ب) التصور الإسلامي والثقافة

العبودية المطلقة لله وحده هي الشطر الأول لركن الإسلام الأول . فهي المدلول المطابق لشهادة أن لا إله إلا الله ، والتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشطر الثاني لهذا الركن ، فهو المدلول المطابق لشهادة أن محمداً رسول الله – كما جاء في فصل : « لا إله إلا الله منهج حياة » ..

والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل في اتخاذ الله وحده إلهاً . عقيدة وعبادة وشريعة .. فلا يعتقد المسلم أن « الألوهية » تكون لأحد غير الله – سبحانه – ولا يعتقد أن « العبادة » تكون لغيره من خلقه ولا يعتقد أن « الحاكمية » تكون لأحد من عباده كما جاء في ذلك الفصل أيضاً .

ولقد أوضحنا هناك مدلول العبودية والاعتقاد والشعائر والحاكمية وفي هذا الفصل نوضح مدلول الحاكمية وعلاقته بالثقافة .

إن مدلول « الحاكمية » في التصور الإسلامي لا ينحصر في تلقي الشرائع القانونية من الله وحده . والتحاكم إليها وحدها والحكم بها دون سواها .. إن مدلول « الشريعة » في الإسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية ولا حتى في أصول الحكم ونظامه وأوضاعه ، إن هذا المدلول الضيق لا يمثل مدلول « الشريعة » والتصور الإسلامي .

إن « شريعة الله » تعني كل ما شرعه لتنظيم الحياة البشرية .. وهذا يتمثل في أصول الإعتقاد وأصول الحكم وأصول الأخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة أيضاً .

يتمثل في الاعتقاد والتصور – بكل مقومات هذا التصور – تصور حقيقة الألوهية وحقيقة الكون غيبه وشهوده وحقيقة الحياة غيبها وشهودها وحقيقة الإنسان والارتباطات بين هذه الحقائق كلها وتعامل الإنسان معها. ويتمثل في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأصول التي تقوم عليها لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده. ويتمثل في التشريعات القانونية التي تنظم هذه الأوضاع وهو ما يطلق عليه إسم «الشريعة» غالباً بمعناها الضيق الذي لا يمثل حقيقة مدلولها في التصور الإسلامي. ويتمثل في قواعد الأخلاق والسلوك وفي القيم والموازين التي تسود المجتمع ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث في الحياة الاجتماعية. ثم.. يتمثل في «المعرفة بكل جوانبها وفي أصول النشاط الفكري والفني جملة».

وفي هذا كله لا بد من التلقي عن الله كالتلقي في الأحكام الشرعية – بمدلولها الضيق المتداول – سواء بسواء.. والأمر في «الحاكمية في مدلولها المختص بالحكم والقانون – قد يكون الآن مفهوماً بعد الذي سقناه بشأنه من تقريرات».

والأمر في قواعد الأخلاق والسلوك وفي القيم والموازين التي تسود المجتمع قد يكون مفهوماً كذلك إلى حد ما. إذ أن القيم والموازين وقواعد الأخلاق والسلوك التي تسود في مجتمع ما ترجع مباشرة إلى التصور الاعتقادي السائد في هذا المجتمع وتتلقى من ذات المصدر الذي تتلقى منه حقائق العقيدة التي يتكيف بها ذلك التصور. أما الأمر الذي قد يكون غريباً – حتى على قراء مثل هذه البحوث الإسلامية – فهو الرجوع في شأن النشاط الفكري والفني إلى التصور الإسلامي وإلى مصدره الرباني.

وفي النشاط الفني صدر كتاب كامل يتضمن بيان هذه القضية باعتبار أن النشاط الفني كله هو تعبير إنساني عن تصورات الإنسان وانفعالاته واستجاباته وعن صورة الوجود والحياة في نفس إنسانية.. وهذه كلها يحكمها – بل ينشئها – في النفس المسلمة تصورها الإسلامي بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة؛ وعلاقتها ببارىء الكون والنفس والحياة وبتصورها خاصة لحقيقة هذا الإنسان ومركزه في الكون وغاية وجوده ووظيفته وقيم حياته... وكلها متضمنة في التصور الإسلامي الذي ليس هو مجرد تصور فكري إنما هو تصور اعتقادي حي موح مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث

في الكيان الإنساني[1]

فأما قضية النشاط الفكري وضرورة رد هذا النشاط إلى التصور الإسلامي ومصدره الرباني تحقيقاً للعبودية الكاملة لله وحده فهذه هي القضية التي تقتضي منا بياناً كاملاً لأنها قد تكون بالقياس إلى قراء هذا الزمان - حتى للمسلمين منهم الذين يرون حتمية رد الحاكمية والتشريع لله وحده - غريبة أو غير مطروقة.

إن المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق العقيدة أو التصور العام للوجود أو يختص بالعبادة أو يختص بالخلق والسلوك والقيم والموازين أو يختص بالمبادىء والأصول في النظام السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني وبحركة التاريخ الإنساني .. إلا من ذلك المصدر الرباني ولا يتلقى في هذا كله إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة. ولكن المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة كالكيمياء والطبيعة والأحياء والفلك والطب والصناعة والزراعة وطرق الإدارة - من الناحية الفنية والإدارية البحتة - وطرق العمل الفنية وطرق الحرب والقتال - من الجانب الفني - إلى آخر ما يشبه هذا النشاط .. يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم .. وإن كان الأصل في المجتمع المسلم حين يقوم أن يسعى لتوفير هذه الكفايات في هذه الحقول كلها باعتبارها فروض كفاية يجب أن يتخصص فيها أفراد منه وإلا أثم المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفايات ولم يوفر لها الجو الذي تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج؛ ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى في هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم وأن يشغل فيها المسلم وغير المسلم .. لأنها من الأمور الداخلة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» .. وهي لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان وغاية وجوده وحقيقة وظيفته ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله وبخالق الوجود كله ولا تتعلق بالمبادىء والشرائع والأنظمة والأوضاع التي تنظم حياته أفراداً وجماعات. ولا تتعلق بالأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع. ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته أو ارتداده إلى الجاهلية.

---

١ - كتاب - منهج الفن الاسلامي - لمحمد قطب.

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني كله أفراداً أو مجتمعات — وهو المتعلق بالنظرة إلى « نفس » الإنسان وإلى « حركة تاريخه » وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون ونشأة الحياة ونشأة هذا الإنسان ذاته — من ناحية ما وراء الطبيعة — (وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب .. الخ) فالشأن فيه شأن الشرائع القانونية والمبادىء والأصول التي تنظم حياته ونشاطه مرتبط بالعقيدة ارتباطاً مباشراً فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه ويعلم عنه أنه يتلقى في هذا كله عن الله .. والمهم أن يرتبط هذا في حس المسلم بعقيدته وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده . أو مقتضى شهادته : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

إنه يطلع على كل آثار النشاط الجاهلي . ولكن لا ليكون منه تصوره ومعرفته في هذه الشؤون كلها . إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية وليعرف كيف يصحح ويقوم هذه الإنحرافات البشرية بردها إلى أصولها الصحيحة في مقومات التصور الإسلامي وحقائق العقيدة الإسلامية .

إن اتجاهات « الفلسفة » بجملتها . واتجاهات « تفسير التاريخ الإنساني » بجملتها . واتجاهات « علم النفس » بجملتها — عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها — ومباحث « الأخلاق » بجملتها . واتجاهات دراسة « الأديان المقارنة » بجملتها ، واتجاهات « التفسيرات والمذاهب الاجتماعية » بجملتها — فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة . لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها — إن هذه الاتجاهات كلها هي الفكر الجاهلي — أي غير الإسلامي — قديماً وحديثاً متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية وقائمة على هذه التصورات . ومعظمها — إن لم يكن كلها — يتضمن في أصوله المنهجية عداء ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة والتصور الإسلامي على وجه خاص .

والأمر في هذه الألوان من النشاط الفكري — والعلمي — ليس كالأمر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب — وما إليها — ما دامت هذه في حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية دون أن تجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفي في صورة من صوره وذلك كتجاوز الداروينية مثلاً لمجال إثبات المشاهدات وترتيبها في علم الأحياء إلى مجال القول — بغير دليل وبغير حاجة للقول كذلك إلا الرغبة والهوى —

إنه لا ضرورة لافتراض وجود قوة خارجـــة عن العالم الطبيعي لتفسير نشأة الحياة وتطورها .

إن حكاية أن « الثقافة تراث إنساني » لا وطن لهولا جنس ولا دين .. هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية — دون أن نجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية « الميتافيزيقية » لنتائج هذه العلوم،ولا الى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه . ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعاً ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصايد اليهود العالمية التي يهمها تمييع الحواجز كلها — بما في ذلك ، بل في أول ذلك حواجز العقيدة والتصور — لكي ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله . وهو مسترخ مخدر يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطاني . وفي أوله نشاطهم الربوي الذي ينتهي إلى جعل حصيلة كد البشرية كلها تؤول إلى أصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود .

ولكن الإسلام يعتبر أن هنالك — فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية — نوعين اثنين من الثقافة : الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامي . والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قاعدة واحدة .. قاعدة إقامة الفكر البشري إلهاً لا يرجع إلى الله في ميزانه .. والثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكري والواقعي الإنساني،وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائماً .

ويكفي أن نعلم أن الإتجاه التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة لم ينشأ ابتداء في أوربا وانما نشأ في الجامعات الإسلامية في الأندلس والمشرق مستمداً أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية ومدخراته وأقواته .. ثم استقلت النهضة العلمية في أوربا بهذا المنهج واستمرت تنميه وترقيه . بينما ركد وترك نهائياً في العالم الإسلامي بسبب بعد هذا العالم تدريجياً عن الإسلام بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع وبعضها يتمثل في الهجوم عليه من العالم الصليبي والصهيوني .. ثم قطعت أوربا ما بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية وشردت به نهائياً بعيداً عن الله في أثناء شرودها عن الكنيسة الـتي كانت

تستطيل على الناس — بغياً وعدواناً — باسم الله[1] .

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوربي بجملته — شأنه شأن نتاج الفكر الجاهلي في جميع الأزمان في جميع البقاع — شيئاً آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامي . ومعادية في الوقت ذاته عداء أصيلاً للتصور الإسلامي .. ووجب على المسلم أن يرجع إلى مقومات تصوره وحدها وألا يأخذ إلا من المصدر الرباني إن استطاع بنفسه وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقي يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه إلى الأخذ عنه .

إن حكاية فصل « العلم » عن « صاحب العلم » لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة في نظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والنشاط الإنساني والأوضاع والقيم والأخلاق والعادات وسائر ما يتعلق بنفس الإنسان ونشاطه من هذه النواحي .

إن الإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم عن غير المسلم أو عن غير التقي من المسلمين في علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة او الفلك أو الطب أو الصناعة أو الزراعة أو الأعمال الإدارية والكتابية .. وأمثالها . وذلك في الحالات التي لا يجد فيها مسلماً تقياً يأخذ عنه في هذا كله (— كما هو واقع من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم ، الناشىء من بعدهم عن دينهم ومنهجهم ، وعن التصور الإسلامي لمقتضيات الخلافة في الأرض — بإذن الله — وما يلزم لهذه الخلافة) من هذه العلوم والخبرات والمهارات المختلفة .. ولكنه لا يتسامح في أن يتلقى أصول عقيدته . ولا مقومات تصوره . ولا تفسير قرآنه وسيرة نبيه . ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه . ولا مذهب مجتمعه . ولا نظام حكمه . ولا منهج سياسته . ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره ... الخ . من مصادر غير إسلامية . ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق في دينه وتقواه في شيء من هذا كله .

إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة . كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية .. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته .. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره . فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً الى جانب ذلك الرصيد الضخم — وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك — وما

---

1 — راجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب : المستقبل لهذا الدين .

هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره . فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها . وعلى انحرافها . وعلى ضآلتها . وعلى قزامتها .. وعلى جعجعتها وانتفاشها وعلى غزورها وادعائها كذلك ، وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي .

ومع ذلك فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأياً لي أبديه .. إن الأمر أكبر من أن يفتى فيه بالرأي .. إنه أثقل في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه إنما هو قول الله — سبحانه — وقول نبيه صلى الله عليه وسلم .. نحكمه في هذا الشأن ونرجع فيه إلى الله والرسول كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه .

يقول الله — سبحانه عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير » .. — (البقرة : ١٠٩) .

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » .. (البقرة : ١٢٠) .

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .. — (آل عمران : ١٠٠) .

ويقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر — رضي الله عنهم — « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء .. فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا . وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق وانه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني » .

وحين يتحدد الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين على ذلك النحو القاطع الذي يقرره الله سبحانه يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون عن نية طيبة في أي مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ، أو التاريخ الإسلامي . أو التوجيه في نظام المجتمع المسلم أو في سياسته أو اقتصاده أو يقصدون إلى خير أو

إلى هدى أو إلى نور ... والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس – بعد تقرير الله سبحانه – إنما هم الغافلون .

كذلك يتحدد من قول الله سبحانه : « قل : إن هدى الله هو الهدى » .. المصدر الوحيد الذي يجب على المسلم الرجوع إليه في هذه الشؤون . فليس وراء هدى الله إلا الضلال . وليس في غيره هدى . كما تفيد صيغة القصر الواردة في النص : « قل : إن هـــدى الله هو الهدى » .. ولا سبيل إلى الشك في مدلول هـــذا النص ولا إلى تأويله كذلك .

كذلك يرد الأمر القاطع بالإعراض عمن يتولى عن ذكر الله بقصر اهتمامه على شؤون الحياة الدنيا . وينص على أن مثل هذا لا يعلم إلا ظناً . والمسلم منهي عن اتباع الظن . وإنه لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فهو لا يعلم علماً صحيحاً .

« فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله . وهو أعلم بمن اهتدى » .. – (النجم : ٢٩ – ٣٠) .

« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .. – (الروم : ٧) .

والذي يغفل عن ذكر الله ولا يريد إلا الحياة الدنيا – وهو شأن جميع « العلماء » اليوم – لا يعلم إلا هذا الظاهر . وليس هذا هو « العلم » الذي يثق المسلم في صاحبه فيتلقى عنه في كل شأنه إنما يجوز أن يتلقى عنه في حدود علمه المادي البحت ولا يتلقى منه تفسيراً ولا تأويلاً عاماً للحياة أو النفس ، أو متعلقاتها التصورية .. كما أنه ليس هو العلم الذي تشير إليه الآيات القرآنية وتثني عليه كقوله تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها ليستشهدوا بها في غير مواضعها فهذا السؤال التقريري وارد في آية هذا نصها الكامل : « أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب» .. (الزمر : ٩) .

فهذا القانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .. هو الذي

يعلم .. وهذا هو العلم الذي تشير إليه الآية . العلم الذي يهدي إلى الله وتقواه . لا العلم الذي يفسد الفطر فتلحد في الله .

إن العلم ليس مقصوراً على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع .. فالعلم يشتمل كل شيء . ويتعلق بالقوانين الطبيعية وتسخيرها في خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع .. ولكن العلم الذي ينقطع عن قاعدته الإيمانية ليس هو العلم الذي يعنيه القرآن ، ويثني على أهله . إن هناك ارتباطاً بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك وعلم الأحياء وعلم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم طبقات الأرض .. وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية والقوانين الحيوية .. إنها كلها تؤدي إلى الله حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله .. كما اتجه المنهج الأوربي في النهضة العلمية — مع الأسف — بسبب تلك الملابسات النكدة التي قامت في التاريخ الأوربي خاصة بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة . ثم ترك آثاره العميقة في مناهج الفكر الأوربي كلها وفي طبيعة التفكير الأوربي وترك تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الديني جملة — لا لأصل التصور الكنسي وحده ولا للكنيسة وحدها — في كل ما أنتجه الفكر الأوربي في كل حقل من حقول المعرفة . سواء كانت فلسفة ميتافيزيقية أو كانت بحوثاً علمية بحتة لا علاقة لها — في الظاهر — بالموضوع الديني [1] .

وإذا تقرر أن مناهج الفكر الغربي ونتاج هذا الفكر في كل حقول المعرفة يقوم ابتداء على أساس تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الديني جملة فإن تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداء للتصور الإسلامي خاصة لأنه يتعمد هذا العداء بصفة خاصة ويتحرى في حالات كثيرة — في خطة متعمدة — تمييع العقيدة والتصور والمفهومات الإسلامية ثم تحطيم الأسس التي يقوم عليها تميز المجتمع المسلم في كل مقوماته .

ومن ثم يكون من الغفلــة المزرية الاعتماد عــلى مناهج الفكر الغربي وعلى نتاجه كذلك في الدراسات الإسلامية .. ومن ثم تجب الحيطة كذلك في أثناء دراسة العلوم البحتة — التي لا بد لنا في موقفنا الحاضر من تلقيها من مصادرها الغربية — من أية ظلال فلسفية تتعلق بها ، لأن هذه الظلال معادية في أساسها للتصور الديني جمــلة والتصور

١ — يراجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

الإسلامي بصفة خاصة . وأي قدر منها يكفي لتسميم الينبوع الإسلامي الصافي .. ا هـ .

٤ ــ وإن الإيمان بأنه لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ينتج عنه «استعلاء الحق : يقول تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .. يقول صاحب كتاب /معالم في الطريق / تحت عنوان : « استعلاء الإيمان » بعد أن يصدر بحثه بالآية السابقة ما يلي :

أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصب على حالة الجهاد الممثلة في القتال .. ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة بكل ملابساتها الكثيرة .

إنه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء .

إنه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء ، وكل وضع ، وكل قيمة ، وكل أحد . الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان .

الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان . وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان . وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان . وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان .

الاستعلاء .. مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المال كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء .

الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية ،ولا عرف اجتماعي ولا تشريع باطل ولا وضع مقبول عند الناس ولا سند له من الإيمان .

وليست حالة التماسك والثبات في الجهاد إلا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيه الإلهي العظيم .

والاستعلاء بالايمان ليس مجرد عزمة مفردة ولا نخوة دافعة ولا حماسة فائرة . إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود . الحق الباقي وراء منطق القوة وتصور البيئة واصطلاح المجتمع وتعارف الناس لأنه موصول بالله الحي الذي لا يموت .

إن للمجتمع منطقه السائد وعرفه العام وضغطه الساحق ووزنه الثقيل .. على من ليس يحتمي منه بركن ركين وعلى من يواجهه بلا سند متين .. وللتصورات السائدة والأفكار الشائعة إيحاؤهما الذي يصعب التخلص منه بغير الاستقرار على حقيقة تصغر في ظلها تلك التصورات والأفكار والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها وأكبر وأقوى .

والذي يقف في وجه المجتمع ومنطقه السائد وعرفه العام وقيمه واعتباراته وأفكاره وتصوراته وانحرافاته ونزواته .. يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس وأثبت من الأرض وأكرم من الحياة .

والله لا يترك المؤمن وحيداً يواجه الضغط وينوء به الثقل ويهده الوهن والحزن ومن ثم يجيء هذا التوجيه : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ... — (آل عمران : ١٣٩) .

يجيء هذا التوجيه ليواجه الوهن كما يواجه الحزن وهما الشعوران المباشران اللذان يساوران النفس في هذا المقام .. يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات . الاستعلاء الذي ينظر من عل إلى القوى الطاغية والقيم السائدة والتصورات الشائعة والاعتبارات والأوضاع والتقاليد والعادات والجماهير المجتمعة على الضلال .

إن المؤمن هو الأعلى .. الأعلى سنداً ومصدراً .. فما تكون الأرض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض ؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس ؟ وهو من الله يتلقى وإلى الله يرجع وعلى منهجه يسير

وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود .. فالإيمان بالله الواحد في هذه الصورة التي جاء بها الإسلام هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى . وحين تقاس هذه الصورة إلى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب . سواء ما جاءت به الفلسفات

الكبرى قديماً وحديثاً وما انتهت إليه العقائد الوثنية والكتابية المحرفة . وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة .. حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة إلى ذلك الركام وهذه التعسفات، تتجلى عظمة العقيدة الإسلامية كما لم تتجل قط، وما من شك أن الذين يعرفون هذه المعرفة هم الأعلون على كل من هناك[1] .

وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص . فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله بصفاته كما جاء بها الإسلام ومن المعرفة بحقائق القيم في الوجود الكبير لا في ميدان الأرض الصغير . هذه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصوراً أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلة في أيدي البشر الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم . ولا يثبتون على ميزان واحد في الجيل الواحد ؛ بل في الأمة الواحدة . بل في النفس الواحدة من حين إلى حين .

وهو الأعلى ضميراً وشعوراً . وخلقاً وسلوكاً .. فإن عقيدته في الله ذي الأسماء الحسنى والصفات المثلى هي بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى والعمل الصالح والخلافة الراشدة . فضلاً على ايحاء العقيدة عن الجزاء في الآخرة ، الجزاء الذي تهون أمامه متاعب الدنيا وآلامها جميعاً . ويطمئن إليه ضمير المؤمن ولو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب .

وهو الأعلى شريعة ونظاماً . وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديماً وحديثاً ويقيسه إلى شريعته ونظامه فسيراه كله أشبه شيء بمحاولات الأطفال وخبط العميان إلى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل . وسينظر إلى البشرية الضالة من عل في عطف وإشفاق على بؤسها وشقوتها ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال .

وهكذا كان المسلمون الأوائل يقفون أمام المظاهر الجوفاء . والقوى المتنفجة والاعتبارات التي كانت تتعبد الناس في الجاهلية .. والجاهلية ليست فترة من الزمان إنما هي حالة من الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهج الإسلام في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء .

هكذا وقف المغيرة بن شعبة أمام صور الجاهلية وأوضاعها وقيمها وتصوراتها في

---

١ – يراجع فصل « تيه وركام » في كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » .

معسكر رستم قائد الفرس المشهور « عن أبي عثمان النهدي قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم في إجازته ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم فأقبل المغيرة بن شعبه والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة (والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة أو أربعمائة خطوة) لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه[1] فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، فلا نصنعه . ولم آتكم ولكن دعوتموني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة . ولا على هذه العقول » ..

كذلك وقف ربعي بن عامر مع رستم هذا وحاشيته قبل وقعة القادسية .

« أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير[2] وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط . ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : ألله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ..

وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه

---

١ — مغثوه : صرعوه .

٢ — النمارق : الوسائد والحشايا للاتكاء . والزرابي : البسط المخملة

شعوره بأنه الأعلى ، وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمناً . ويستيقن أنها فترة وتمضي وأن للإيمان كرة لا مفر منها . وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأساً . إن الناس كلهم يموتون أما هو فيستشهد . وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة ، وغالبه يغادرها إلى النار . وشتان شتان . وهو يسمع نداء ربه الكريم :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار » .. — (آل عمران : ١٩٦ — ١٩٨) .

وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغاير لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه ، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى ، وبأن هؤلاء كلهم في الموقف الدون . وينظر إليهم من عل في كرامة واعتزاز ، وفي رحمة كذلك ، وعطف ورغبة في هدايتهم إلى الخير الذي معه ، ورفعهم إلى الأفق الذي يعيش فيه .

ويضج الباطل ويرفع صوته ، وينفش ريشه ، وتحيط به الهالات المصطنعة التي تغشي على الأبصار والبصائر ، فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائن دميم وفجر كالح لئيم .. وينظر المؤمن من عل إلى الباطل المنتفش ، وإلى الجموع المخدوعة . فلا يهن ولا يحزن ، ولا ينقص إصراره على الحق الذي معه ، وثباته على النهج الذي يتبعه ، ولا تضعف رغبته كذلك في هداية الضالين والمخدوعين .

ويغرق المجتمع في شهواته الهابطة ويمضي مع نزواته الخليعة ، ويلصق بالوحل والطين حاسباً أنه يستمتع وينطلق من الأغلال والقيود . وتعز في مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة ، وكل طيبة حلال ، ولا يبقى إلا المشرع الآسن ، وإلا الوحل والطين .. وينظر المؤمن من عل إلى الغارقين في الوحل اللاصقين بالطين . وهو مفرد وحيد فلا يهن ولا يحزن ولا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيف الطاهر ، وينغمس ، في الحمأة وهو الأعلى بمتعة الإيمان ولذة اليقين .

ويقف المؤمن قابضاً على دينه كالقابض على الجمر في المجتمع الشارد عن الدين ، وعن الفضيلة وعن القيم العليا ، وعن الاهتمامات النبيلة ، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل .. ويقف الآخرون هازئين بوقفته ، ساخرين من تصوراته ، ضاحكين من

قيمه .. فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل إلى الساخرين والهازئين والضاحكين وهو يقول كما قال واحد من الرهط الكرام الذين سبقوه في موكب الإيمان العريق الوضيء في الطريق اللاحب الطويل.. نوح عليه السلام .. « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » .. — (هود : ٢٨) — وهو يرى نهاية الموكب الوضيء ، ونهاية القافلة البائسة في قوله تعالى :

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون .. وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون — وما أرسلوا عليهم حافظين — فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » .. — (المطففين : ٢٩ — ٣٦) . وقديماً قص علينا القرآن الكريم قولة الكافرين للمؤمنين :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا ؟ » — (مريم : ٧٣) . أيُّ الفريقين ؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ؟ أم الفقراء الذين يلتفون حوله ؟ أي الفريقين ؟ النضر بن الحارث ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، وأبو سفيان بن حرب ؟ أم بلال وعمار وصهيب وخباب ؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيراً أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا سلطان لهم في قريش ولا خطر ، وهم يجتمعون في بيت متواضع كدار الأرقم ، ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب الندوة الفخمة الضخمة والمجد والجاه والسلطان ؟.

إنه منطق الأرض . منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان . وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء . عاطلة من عوامل الإغراء . لا قربى من حاكم ، ولا اعتزاز بسلطان ، ولا هتاف بلذة ، ولا دغدغة لغريزة ، وإنما هو الجد والمشقة والجهاد والاستشهاد .. ليقبل عليها من يقبل وهو على يقين من نفسه ، أنه يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس . ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات . ولينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع . ومن يشتهي الزينة والأبهة ، ومن يطلب المال والمتاع . ومن يقيم لاعتبارات الناس وزناً حين تخف في ميزان الله .

إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس . إنما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه .. إنه لا يستمدها من شهوات

الخلق حتى لا يتأرجح مع شهوات الخلق ، إنما يستمدها من ميزان الحق الثابت الذي لا يتأرجح ولا يميل .. إنه لا يتلقاها من هذا العالم الفاني المحدود ، إنما تنبثق في ضميره من ينابيع الوجود .. فأنّى يجد في نفسه وَهْناً أو يجد في قلبه حزناً وهو موصول برب الناس ، وميزان الحق ، وينابيع الوجود ؟.

إنه على الحق .. فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وليكن للضلال سلطانه . وليكن له هيله وهيلمانه ، ولتكن معه جموعه وجماهيره .. إن هذا لا يغير من الحق شيئاً . إنه على الحق وليس بعد الحق إلا الضلال . ولن يختار مؤمن الضلال على الحق — وهو مؤمن ولن يعدل بالحق الضلال كائنة ما كانت الملابسات والأحوال ..

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » — (آل عمران : ٨ — ٩).

(ج) نواقض الشهادتين :

١ — إن مما ينقض دعوى الشهادة ، التوكل والاعتماد على غير الله . نأخذ هذا من قوله تعالى « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » إذ نفهم منها أنه لا يجوز لنا أن نتوكل على غيره ونأخذ هذا كذلك من قوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت » ونأخذ هذا من معنى لا إله إلا الله ؛ إذ وجدنا أن الاطمئنان لا يصح أن يكون لغير الله .

وليس معنى التوكل أن نترك العمل ، بل الله عز وجل أمرنا أمرين : أمرنا أن نعمل ، وأمرنا ألا نعتمد على العمل ، أمرنا أن نعد كل أدوات القتال . وأن نهيء كل ما يلزم للحرب ، وأمرنا أن نعتمد عليه وحده ، أمرنا أن نكتسب . وأمرنا أن نؤمن أنه هو الرزاق ، أمرنا أن نتداوى وأمرنا أن نؤمن أنه هو الشافي ، أمرنا أن نأخذ بالأسباب وأن نعتمد عليه وحده ، ونتوكل عليه جل جلاله ، فمن أعد وهيأ وعمل ولم يتوكل عليه ، ولم يعتمد عليه ، فقد أخل بأحد الأمرين ؛ ومن توكل ولم يستعد ويعمل فقد أخل بأحد الأمرين .

وها هنا مكمن الفرق بين الكافر والمؤمن . الكافر يبذل كل طاقته . والمؤمن يبذل

كل طاقته ، ولكن الأول لا يعتمد إلا على ما بذل والثاني لا يعتمد إلا على الله وحده .

فالاعتماد على الأسباب والغفلة عن الله فيها معصية ، والاعتماد على الأسباب مع ادعاء أنه لا علاقة لله فيها شرك يناقض الشهادتين ، ويكذب عشرات الآيات القرآنية التي تنسب كل شيء إلى إرادة الله وعلمه وقدرته : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . « وما النصر إلا من عند الله » . « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » « وإذا مرضت فهو يشفين » . « ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً » .

فلا بد من إيمان بالأسباب التي بثها الله في هذا الكون ، ولا بد من إيمان بأن الله هو خالق كل شيء « الله خالق كل شيء » . فمن أنكر الأسباب وعطلها كفر . ومن جعل لها تأثيراً أشرك .

٢ — وإن مما ينقض دعوى الشهادتين عدم اعتراف الإنسان بأن كل نعمة هو فيها ظاهرة وباطنة حسية ومعنوية هي من فضل الله ، وأنها لولا الله ما كانت . وقد رأينا في التحليل اللفظي لـ (لا إله إلا الله) كيف أن الله هو وحده المربي والمنعم .

ويتمم هذا المعنى أن نعترف بأن كل ما يصيبنا هو من الله كذلك ، وأنه هو المانع كما هو المنعم . وأن من حقه أن يمنع وأن يبتلي . وليس لنا معه إلا الرضى : قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » . وقال : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم » .. « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أكثر منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون » . وقال تعالى « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما أنجاهم إلى البر إذا هم يشركون » « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئاتُ ما كسبوا وما هم بمعجزين . أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .. « لا يسئم الإنسان من دعاء الخير

وإن مسه الشر فيؤوس قنوط.ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة » .

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض» « وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون.ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون.ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » . « هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر » .

٣ ــ وإن مما ينقض دعوى الشهادتين العمل لغير الله بدون اذنه . ناخذ هذا من قوله تعالى : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له » ونأخذ هذا من قولنا « لا معبود إلا الله » والعبادة ليست مقتصرة على الصلاة والزكاة والصوم والحج بل كل عمل تعمله تقصد به وجه الله فهو عبادة ، وكل عمل تعمله تقصد به وجه غير الله بدون إذنه فهو شرك ، ويدخل في هذا النوع من الشرك حالات كثيرة :

منها : أن يعمل الإنسان للقومية جاعلاً إياها هدف عمله الوحيد ، يقاتل من أجلها ، يتكلم من أجلها ، يدعو للإيمان بها والعمل لها مع تركيز عصبيته كلها لها . إن مثل هذا الاتجاه إتجاه شركي لأن الله أمرنا أن نعمل له ، وأن نجاهد له ، وأن نقاتل له . ونحن إذ نفعل هذا قد نخدم قومنا تبعاً وعرضاً ، وقد لا نخدمهم بل نكون ضدهم إذا كانوا كافرين . فالمسلم لا يكيف سلوكه على حسب ما تقتضيه مصالح قومه بل على حسب ما يأمره الله عز وجل .

ومنها : العمل للوطنية كهدف فهذا شرك ، إن المسلم لا يتعلق بوطنه إلا بالقدر الذي يكون فيه هذا الوطن وأهله مستسلمين لله ، وهو إذ يعمل ما فيه مصلحة هذا الوطن وأهله إنما يعمل هذا لله ، أما إذا أصبح الوطن هو قبلة العمل ، ولم تعد نية وجه الله فيه هي الأصل ، فذلك الشرك . لقد عاب الله عز وجل على أقوام تعلقهم بأوطانهم فقال :

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا » . إن رفع شعار الوطنية ، والوحدة الوطنية ، والعمل من أجل المصلحة الوطنية لا يجوز أبداً أن يكون الأصل

الذي توزن به الأشياء ، فإذا ما أصبح كذلك ، كان شركاً ، أما إذا كان الأصل الذي توزن به الأشياء هو الإيمان بالله ، والعمل بما أمر ، وكان مما أمر، القيام بما فيه مصلحة للوطن ، وعملنا هذا تحقيقاً لأمره ، قاصدين وجهه ، فهذه هي العبادة ، وهذا الذي لا حرج فيه

العمل للإنسانية والإنسان شرك ، وصرف للإنسان عن الله الذي ينبغي أن يوجه إليه الإنسان وجهه .

وشعار « العلم للعلم » شرك

وشعار « الواجب للواجب » شرك

وشعار « الأدب للأدب » شرك

وكل شعار يصرف وجه الإنسان عن أن يكون الله مقصوده ومعبوده شرك .

٤ ــ وإن مما ينقض دعوى الشهادتين إعطاء غير الله حق الأمر والنهي ، وحق التحليل والتحريم ، وحق التشريع ، وحق الحاكمية ، قال تعالى : « ألا له الخلق والأمر » وقال « إنِ الحُكم إلا لله » وقال : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

ويدخل في ذلك ما يسمى « بالديمقراطية » إذ الديمقراطية هي كلمة الأكثرية الممثلة بمجلس نيابي أو غيره يكون مفوضاً بأن يشرع ما يريد دون قيد إلا قيد الدستور في بعض البلاد ، والدستور تضعه الأكثرية بلا تقيد بأمر ما إلا بآرائهم وأفكارهم ، إن مثل هذا إنما هو إعطاء حق التشريع والتحليل والتحريم للبشر وهو شرك ،

أما الصيغة الصحيحة التي تجنبنا هذا الشرك في المجتمع الإسلامي فهي أن يكون لنا مجلس شورى ، ولا حرج أن يكون منتخباً ، على أن يكون كل فرد من أفراد المجلس والمجلس ككل ملتزمين بأحكام الله ؛ ما سمح الله لهم فيه أن يجتهدوا اجتهدوا ، وما ورد فيه نص لم يكن لهم فيه إلا التسليم إن كان النص قطعياً ، أو الترجيح إن كان ظنياً ، أي أن الكتاب والسنة يمثلان الدستور في البلاد الدستورية البرلمانية ، بحيث لا يستطيع المجلس النيابي أن يسن من القوانين ما يخالف الدستور ، فيكون عمله في الصورة ، إما مفسراً للدستور أو سانّاً ما لا يخالفه . ويدخل في ذلك أن تعطى صلاحية التشريع المستقل عن حكم الله لطبقة كطبقة الرأسماليين ، أو الطبقة الوسطى ، أو الطبقة الدنيا ، ويدخل في ذلك أن تعطى صلاحية التشريع للحزب أو لقياداته ، ويدخل في

ذلك أن تعطى صلاحية التشريع لرجل سواء كان رجل دين ، أو رجل سياسة .

ويدخل في ذلك ألا يعترف الإنسان بأنه مكلف من الله بواسطة الرسول ﷺ فيسقط عن نفسه التكاليف ، كيف وقد خاطب الله رسوله بقوله : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .

٥ ـ وإن مما ينقض دعوى الشهادتين :

أن تعطى الطاعة لغير الله بغير إذنه إذ من معاني لا إله إلا الله كما رأينا : لا مطاع إلا الله . والطاعة التي أذن لنا الله فيها هي أن نطيع رسوله لأن طاعة رسوله طاعة له « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . وطاعة أولي الأمر إذا كانت على كتاب الله وسنة رسوله ، فإذا انحرفوا فلا طاعة لهم في معصية الله . سواء كانوا علماء دين ، أو أمراء . والآية التي نصت على هذا : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فطاعة ولي الأمر مشروطة بكونه منا ، وبكونه يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله حال اختلافه معنا . وفي الحديث « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » « إنما الطاعة في المعروف » ، فلا يطيع المسلم في ذات الله أحداً : لا نفسه ولا شيطانه ولا كافراً ولا ضالاً ولا مبتدعاً ولا فاسقاً ولا مسرفاً ولا غافلاً ولا داعياً إلى ضلالة ولا أحداً إذا دعانا إلى غير أمر الله : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » « ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » « وإن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » « إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » « ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

فمن أطعته من هؤلاء اتخذته إلهاً ، وإذا اتخذته إلهاً كفرت . « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر » . إن مظهر ردة هؤلاء طاعتهم لمن كره ما نزل الله في بعض الأمر . ومما يدخل في هذا الأصل :

عدم طاعة رسول الله . إذ مظهر طاعة الله طاعة رسوله لأننا لا نعرفها إلا عن طريقه ، طاعة رسوله تعني طاعة سنته ، فمن لم يعترف بسنته فهو كافر أما إذا اعترف بها وعصى فهو فاسق .

٦ — ومن نواقض الشهادتين الحكم بغير ما أنزل الله أو الاحتكام إلى غيره جل وعلا قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . وقال : « ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . وقال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وقال : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون » .

وقد وصف الله المنافقين بقوله :

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين.وإذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون.وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين.أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون.إنما كان قول المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون.ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون »

٧ — ومن نواقض الشهادتين : كراهية شيء من الإسلام أوكراهية الاسلام كله :

قال تعالى : « والذين كفروا فتعساً لهاً وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » سورة محمد ﷺ . وقال عليه السلام : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) . ويدخل في ذلك أن يكره الإنسان حكماً من أحكام الإسلام سواء كان في العبادات أو الاقتصاد ، أو المعاملات ، أو السياسة ، أو السلم أو الحرب ، أو الأخلاق ، أو التنظيم الاجتماعي أو العلمي أو ...

إن أي كراهية لمضمون آية ، أو لمضمون حديث ثابت ، أو لسنة بشمولها الذي يدخل فيه قول الرسول ﷺ أو فعله أو تقريره أو صفته ، يخرج الإنسان عن الإسلام . وينقض دعوى الشهادتين عنده .

٨ — ومما ينقض دعوى الشهادتين : إستحباب الحياة الدنيا على الآخرة ، وجعل الدنيا هدف الإنسان الوحيد : قال تعالى « وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد » . وقال « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » وقال تعالى « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » وقال : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » .

وقد بين الله عز وجل ما هي الحياة الدنيا فقال :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا ... » وقال « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وبين من طلب الآخرة وتوعد سواه فقال : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »

٩ — ومما ينقض دعوى الشهادتين الاستهزاء بشيء من الكتاب والسنة ، أو بأهلهما من أجلهما . أو بحكم من أحكام الله عز وجل ، أو شعيرة من شعائره . فعن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن اسلم وقتادة — دخل حديث بعضهم في بعض — أنه قال رجل في غزوة تبوك ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء — يعني رسول الله وأصحابه القراء — فقال له عوف بن مالك كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ

ليخبره فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ــ فقال يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركْب نقطع به عناء الطريق. قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » ، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه والآية التي نزلت في هذا الشأن : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون،ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ،لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » .

فالاستهزاء بأي حكم من أحكام الإسلام ، أو شعيرة من شعائره ، أو نص من نصوصه ينقض الشهادتين كأن يسخر من آية فيها حكم كقوله : ترجعنا إلى شريعة السن بالسن والعين بالعين أو كقوله : تريدنا أن نمشي على « ورفع بعضكم فوق بعضكم درجات » أو دعونا من هذا الكلام الفارغ بعد سماعه رأياً له علاقة بحكم من أحكام الإسلام ، أو كالقول بعد مثل هذا : لا زلتم تتمسكون بهذه القشور كأن في الإسلام قشراً ينبغي أن يقذف به ، أو كالاستهزاء باللحية أو بأصحابها من أجلها ، أو بالصلاة أو بأصحابها من أجلها ، أو بالعلم بالإسلام ، أو بأهله من أجله أو الترفع على هؤلاء واحتقارهم ، لأنهم ليس عندهم علم إلا به ، إلى أشياء كثيرة كلها تدخل في هذا الأصل ، ويقع فيها المنافقون ، وكلها تأخذ بصاحبها إلى الكفر . ولعل أمثال هذا ما أشار إليه الرسول بقوله : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفا) .

١٠ ــ ومما ينقض دعوى الشهادتين : تحليل ما حرم الله ، أو استحلاله ، وتحريم ما أحل الله . قال تعالى : « إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » . وأعظم الكذب ما كان على الله في تحريم ما أحل ، وتحليل ما حرم قال تعالى : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم » .

وقال تعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر يُضَلّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زُين لهم سوء أعمالهم والله

لا يهدي القوم الكافرين » .

فتحريم ما أحل الله كفر ، وتحليل ما حرم الله كفر : والمسارعة إلى التحريم ، كالمسارعة إلى التحليل ، وقد أصبح الناس في هذا قسمين . فمنهم من غلبت عليه الشدة فيسارع إلى تحريم كل ما صادفه مما ليس حراماً ؛ وكلاهما ليس على الجادة . إن المسلم لا يتقدم أمام الله ورسوله برأي إلا أن يعلم حكم الله فيقوله ، وذلك عنوان صدقه في شهادتيه أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ فإن الله يقول « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » .

١١ – ومما ينقض دعوى الشهادتين عدم الإيمان بكل نصوص الكتاب ، والسنة الثابتة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام :

قال تعالى : « أَفتؤمنونَ ببعض الكتابِ وتكفرون ببعض فما جزاءُ مَنْ يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردونَ إلى أشدِّ العذاب وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون » .

وقال عليه السلام : (ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكيء على أريكة فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله) رواه الترمذي وهو حديث حسن صحيح وروى مالك قال بلغني أن النبي ﷺ قال : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

فعدم الإيمان بشيء من نص الكتاب ينقض الإيمان لأن الله قال : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وعدم الإيمان بالسنة الثابتة ينقض الإيمان لأنه تكذيب لرسول الله بشيء ثابت عنه وتكذيب رسول الله بأدنى شيء كفر .

وكما أن عدم التصديق بشيء من الكتاب والسنة الثابتة المتواترة أو بمجموع السنة ينقض دعوى الشهادتين ، فكذلك الإيمان بنصوص زائدة على الكتاب على أنها من الكتاب أو زائدة عن السنة ومكذوبة على أنها من السنة قال عليه السلام : (من كذب على نبيه أو على عينيه أو على والديه لم يرح رائحة الجنة) وهو حديث حسن في الكبير للطبراني . ولمسلم والترمذي عنه عليه السلام : (من حدث عني بحديث يرى أنه كذب

فهو أحد الكاذبين) .

١٢ – ومما ينقض دعوى الشهادتين : تولي الكافرين والمنافقين وعدم محبة أهل التوحيد والمؤمنين : قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » .. وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » وقال : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » .

وقال : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزةَ فإنَّ العزةَ لله جميعاً » . وقال « واْتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخَ منها فأتْبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحملْ عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصصِ القصصَ لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القومُ الذين كذبوا بآياتنا وأنفسَهم كانوا يظلمون » (الاعراف : ١٧٧) .

قيل في ذكر صاحبها أنــه رجل كان هواه مع قومه الكافرين على موسى ومن معه ودعا عليهم وكان رجلاً صالحاً قبل .

١٣ – ومما ينقض دعوى الشهادتين : سوء الأدب مع رسول الله ﷺ : قال تعالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوتِ النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون » والتهديد بإحباط العمل مُشعرٌ بالردة قال تعالى : « ومَنْ يرتدد منكم عن دينه فيمتْ وهو كافر فأولئك حبطتْ أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإذا كان رفع الصوت ومخاطبة رسول الله ﷺ كما يُخاطب الآخرون يكون مظنةَ ردةٍ فكيف بما هو أكبر من ذلك ؟ كالاستهزاء بحال من أحواله ، أو عمل من أعماله . كأمثال هؤلاء الكفرة الذين يستحقون القتل : إذ

يغمزون من كون الرسول ﷺ كان في عصمته تسع نساء .

إن الآية التي مرت معنا يدخل فيها أحوال كثيرة ولا شك أن من جملة أحوال من يدخل فيها أولئكم الذين يتحدثون عن رسول الله في كتاباتهم ، أو مقالاتهم ، أو خطبهم وكأنه رجل عادي ليست له صفة النبوة والرسالة ، بدعوى المنطق العلمي أو الأسلوب العلمي ، أو التحليل العلمي ، أو أشياء من هذا الزخرف الباطل وصدق الله العظيم : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطينَ الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ القولِ غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهمْ وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون » . (الأنعام ١١٣) .

١٤ — ومما ينقض دعوى الشهادتين اشمئزاز القلب من توحيد الله وانبساطه لنوع من أنواع الشرك قال تعالى : « وإذا ذُكِرَ الله وحده اشمأزتْ قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ الذين من دونه إذا هم يستبشرون » . وأهم تطبيقات هذه الآية ما نراه عند طبقات من الناس اليوم : إذا أرجعت الأمور والحوادث إلى الله نفرت قلوبهم وإذا أرجعتها إلى الطبيعة أو إلى الأسباب العادية أو نسبتها إلى الأولياء انبسطوا لذلك وسرّوا .

إذا قلت : لقد انتصرنا لأننا استعددنا وعبأنا قوتنا وكنا رجالاً ... سروا ، وإذا قلت : إن الله نصرنا انقبضوا . إذا قلت : هُزمنا لعدم أخذنا بوسائل الحرب الحديثة سروا ، وإذا قلت : هزمنا لأن الله لم يرد نصرنا لذنوبنا اشمأزوا . إن تطالبهم بأن يكونَ الله مقصودهم في كل شيء يشمئزون وإذا عددت لهم المقصودات وزينتها لهم من نفس ودنيا وشهوة ومتاع استأنسوا .. وهكذا ..

١٥ — ومن نواقض الشهادتين ادعاء أن للقرآن باطناً يخالف الظاهر ، وأن هذا الباطن يستقل بعلمه بعض الناس بواسطة الإلهام، وما يقال في القرآن يقال في السنة . فالله عز وجل أنزل كتابه عربياً قال « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » وقال : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » وقال : « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءكَ من العلمِ مالكَ من الله من وليٍّ ولا واق » . واللغة العربية معروفة المفردات معروفة القواعد ، فلا يفهم القرآن ولا السنة التي تشرح

القرآن إلا بمفردات هذه اللغة وقواعدها ، وأساليب أصحابها . فمن خرج عن ذلك فإنما يخرج إلى غير أصل بل إلى هوى وضلال ، وذلك تعطيل للشريعة بتعطيل نصوصها ، وتفريق للمسلمين ، لأنه لا يبقى بعد ذلك أصل يرجعون إليه ، وإن اليهود والنصارى لم يصلوا إلى ضلال في فهم كتبهم كهذا الضلال ، ولا شك أن أصحاب الدعوة إليه أعظم زنادقة خرجوا بين المسلمين .

والقرآن بعد ذلك هو كما وصف :

(كتاب الله فيه نبأُ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصلُ ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به » من قال به صدق ، ومن عمل به أُجِرَ ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم) .

١٦ — ومن نواقض دعوى الشهادتين : عدم معرفة الله معرفة صحيحة ، بإنكار شيء من صفاته ، أو أسمائه أو أفعاله :

قال تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه » وقال : « ألله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » وقال : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فَلَهُ الأسماء الحسنى » . وقال : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . وقال : « قل هو الله أحد ألله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وقال : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلمُ تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عندِ ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب . ربنا لا تُزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهبْ لنا من لدنك رحمةً، إنكَ أنتَ الوهاب » . وقال : « ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءاً ... » وقال على لسان ابراهيم عليه الصلاة والسلام : « والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين » . وقال : « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » . وقال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . وقال : « الله خالق كل شيء » . ومن أذكارنا

الصحيحة (لا حول ولا قوة إلا بالله) . وقال على لسان موسى عليه السلام مخاطباً ربه : « إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء » .

وروى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد /رض/ قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : (قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) .

فما عرفَ الله من لم يعرفْ أن كلّ ما في هذا الوجود أفعاله .

وما عرف الله من لم يعرف أسماءه وصفات كماله .

وما عرف الله من نسب إليه شيئاً من نقص .

وما عرف الله من لم يعرف أن الكمال كله له .

« ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز » الحج (٧٤) .

« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » .

قالت النصارى : إن الله يلد له ولد وكفروا ، وقالت اليهود : الله بخيل وكفروا وقالوا إن الله فقير وكفروا وقالوا : (إن الله تعب بعد ما خلق الخلق فاستراح) وكفروا . قال تعالى : « وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ». « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » . « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » . « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هداً أنْ دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إنْ كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا » « لقد كفر الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ». « وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّتْ أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان » « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب » .

إن عدم معرفة الله معرفة صحيحة ، ووصفه بما لا يليق بذاته ، أو تشبيهه بخلقه ،

أو جعل خلقه جزءاً منه ؛ كل ذلك كفر ونقض للشهادتين . لأنه إعطاء للألوهية لغير صاحبها الحقيقي ، إذ من لم يعرف الله جهله ، ومن جهله لم يوحده ، وكذّب وحي الله فيما وصف الله به ذاته .

١٧ ـ ومما ينقض دعوى الشهادتين عدم معرفة الرسول معرفة صحيحة ، أو سلبه صفة مما وصفه الله به أو وصفه بصفة منقصة له ، أو محقرة ، أو عدم اعتقاد كونه الأسوة العليا للإنسان .

قال تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

وقال : « قلْ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » .

وقال : « ن، والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وقال : « وإن يكادُ الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » . وقال : « ولكنْ رسولَ الله وخاتم النبيين » فمن تابع غير محمد ﷺ على أمر النبوة كفر ، ومن قال عنه إنه نبي للعرب فقد كفر . لأن الله قال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا » ومن وصفه بالبدوي أو الأعرابي تحقيراً فقد كفر ، والمسألة تدخل فيها أحوال كثيرة نسأل الله الحفظ

١٨ ـ ومما ينقض دعوى الشهادتين تكفير أهلهما وعدم تكفيـر من كفر بهما واستحلال قتال أهلهما : فالقواعد : من كفّر مؤمناً فقد كفر ، ومن لم يكفر الكافر فقد كفر ، ومن شك في كفر الكافر فقد كفر .

قال عليه السلام : (ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) . وقال : (سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر) رواه الشيخان .

وقال : (لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو الكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن

صاحبه كذلك)

وفي الحديث الذي رواه الطبراني في الكبير والصغير باسناد فيه لين : (أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث رجل قرأ كتاب الله حتى إذا رست عليه بهجته وكان عليه رده الإسلام اخترط سيفه وضرب به جاره ورماه بالشرك قيل يا رسول الله الرامي أحق به أم المرمي ؟ قال الرامي ...)

وإنما كان تكفير المؤمن كفراً لأن فيه طعناً في نفس الإيمان.

كما كان الشك في كفر الكافر أو تصحيح مذهبه أو عدم تكفيره كفراً لأنه تكذيب لله ولرسوله ﷺ

١٩ — ومما ينقض دعوى الشهادتين

أن يعمل عملاً مما جعله الله عز وجل عبادة لا تليق إلا به فيعطيه لغيره كأن يذبح لغير الله ، أو يركع ويسجد لغير الله ، أو يطوف بغير بيت الله بنية القربة لله . قال تعالى « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت » .

وكأن يدعو غير الله معتقداً فيه النفع والضر والله عز وجل يقول : « له دعوةُ الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسطِ كفيه إلى الماء ليبلغ فَاهُ وما هو ببالغه وما دعاءُ الكافرين إلا في ضلال » . وكأن يحلف بغير الله تعظيماً قال عليه السلام : (من حلف بغير الله فقد أشرك) إذا كان يعتقد وجوب البر وكأن ينذر نذراً لغير الله قال تعالى : « وليوفوا نذورهم » معتقداً القربة في ذلك .

وكأن ينوي حج غير بيت الله بنية القربة لله ، أو يشد الرحال بنية القربة لغير ما جعله الله قربة . والأصل الجامع لهذا كله : أن المسلم لا يعمل عملاً إلا لله ولا يعمل عملاً إلا إذا شرعه الله له . فان عمل ما لم يأذن به الله فتلك معصية ، أو عمل لغير الله فذلك شرك .

٢٠ — وهناك نوع من الشرك ينقض الشهادتين في العمل الذي يكون فيه ، ولا ينقض الشهادتين من أساسهما ، هذا النوع من الشرك هو الذي يسمى الشرك الأصغر ،

والذي دواؤه أن تقول : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لما أعلمه . ومظاهر هذا النوع من الشرك كثيرة :

كأن يحسن صلاته من أجل مدح الناس له ، ورؤيتهم إياه ، وكأن ينفق من أجل كلام الناس واطرائهم له ، وكأن يجاهد من أجل أن يذكر مكانه ويذاع اسمه .

وكأن يتعلم من أجل أن يتصدر الناس .

وكأن يخطب حتى يقول الناس خطيب .

وأمثال هذا كثير وكله شرك ينقض التوحيد فرع نقض ، ولذلك يسمى الشرك الأصغر ، وهو معصية يستحق بها صاحبها دخول النار وقد وردت في ذلك الآثار الكثيرة .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) .

وروى أحمد عن رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال قالوا بلى يا رسول الله قال : الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) . روى أبو داوود عن أبي أمامة قال : (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ فقال : لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول : لا شيء له ، ثم قال : إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه) .

وروى النسائي عن عبادة عن رسول الله ﷺ قوله : (من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى) .

وروى مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله قال : (إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك بما أنزلت على رسولي ؟ فقال : بلى يا رب قال فماذا عملت فيما علمت قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله : كذبتَ وتقولُ الملائكة كذبتَ ويقول

الله له : بل أردتَ أن يقال : فلان قارىء وقد قِيلَ ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال : بلى يا رب قال فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال كنتُ أصلُ الرحمَ وأتصدق فيقول الله له كذبتَ وتقول الملائكة كذبتَ ويقول الله : بل أردتَ أن يقال : فلان جواد فقد قيلَ ذلك. ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله في ماذا قُتِلتَ ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله : كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال : فلان جريء فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة) .

* * *

ونكتفي بهذا القدر من نواقض الشهادتين ، إذ التفصيل والاستقصاء متعذر ، ولكنها قواعد يدخل فيها غيرها . ونسأل الله أن يسلم لنا إيماننا فقد غلب الكفر في عصرنا حتى أنك نادراً ما تجد إنساناً قد صفت له الشهادتان بلا نواقض .

* * *

الركن الثاني : الصلاة

(أ) نظرة عامة في الصلاة

١ ـ إن الصلوات هي المرتكزات الأساسية لصلة الإنسان بالله ، وإحياء معاني الإيمان في قلبه . فبالصلاة يتذكر الإنسانُ اللهَ من مبدئها إلى منتهاها ، إلى ما ورد من أذكارها ، وبالصلاة يتذكر الإنسان اليوم الآخر . « مالكِ يوم الدين » وبالصلاة يتذكر الإيمان بالرسول (السلام عليك أيها النبي ....) (وأشهد أن محمداً رسول الله) (اللهم صل على محمد ...) وبالصلاة يتذكر الإنسان الكتاب والطريق الذي هُديَ إليه « إهدنا الصراط المستقيم » وأثناء تلاوته لشيء منه ، أو سماعه ، وعلى هذا فالصلوات هي المظهر العملي للإيمان بالغيب وقد عُبّر عنها بالقرآن بلفظ الإيمان في قوله تعالى : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » فقد ورد في أسباب نزولها كما روى الشيخان « إنه مات على القبلة قبل أن تُحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى « وما كان الله ليضيع إيمانكم » لذلك كان فعل الصلاة دليلاً على الإيمان ، وتركها دليلاً على الكفر ، وقال صلى الله عليه وسلم : (بين الرجل والشرك ترك الصلاة) (بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة) (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) (كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة) (من ترك صلاة العصر حبط عمله) .

٢ ـ وعلى قدر ما تكون العقيدة واضحة في نفس الإنسان ، وعلى قدر ما يكون الإيمان يقظاً في قلبه تكون استقامته على أمر الله ، ولما كانت الصلاة هي التي بها تحيا عقيدة الحق في قلب الإنسان كانت هي السبب المباشر الذي يجعل الإنسان مستقيماً « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » .

ولذلك كانت الصلاة مقياساً وميزاناً « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد عُلِمَ نفاقه) . ما قبلها من الإسلام لا يقوم إلا بها ، وما بعدها من الإسلام لا يقوم إلا بها ، فهي الركن الثاني في الإسلام الذي يحقق الركن الأول شعورياً وعملياً ، وكل الإسلام بعد ذلك يأتي أثراً عنها . لذلك رأينا الآية الأولى في هذه الفقرة كيف جعلتها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن أجل هذا كان خير ما يفعله المسلم وأعظم ما يقربه إلى الله هي. وقال صلى الله عليه وسلم : (استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خيرَ أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوءِ إلا مؤمن) . (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) .

قال معدان بن أبي طلحة : لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ ورضي عنه فقلت أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة أو قال قلت : بأحب الأعمال إلى الله تعالى فسكتَ ثم سألته فسكتَ ثم سألته الثالثة فقال : سألتُ عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله تعالى سجدةً إلا رفعكَ الله بها درجةً وحطَّ عنك بها خطيئة. قال معدان ثم أتيت أبا الدرداء فسألته فقال مثلَ ما قال لي ثوبان .

٣ ــ والحقيقة أن الصلاة رمز كامل على معرفة الله ، والقيام بحقوق عبوديته . فالله خلق كل شيء للإنسان فكونُ العبد يقول : الحمد لله . إنما هو رمز على المعرفة والاعتراف ، والله عز وجل خالق كل شيء فهو أكبر من كل شيء ، فعندما يقول العبد المسلم « الله أكبر » فذلك رمز على المعرفة والاعتراف والله عز وجل الخالق لا يشبه المخلوقين فقول المسلم « سبحان الله » رمز على هذه المعرفة واعتراف ، والركوع والسجود . وقولنا « سبحان ربي الأعلى » أو « سبحان ربي العظيم » إعتراف لله وحده بالربوبية واعتراف بأن محل الإنسان في الوجود العبودية لله .. لذلك قال رسول الله ﷺ (الصلاة مثنى مثنى تشهد في كل ركعتين وتخشع وتمسكن وتقنع يديك يقول : ترفعهما إلى ربك تعالى مستقبلاً ببطونهما وجهك وتقول : يا رب يا رب يا رب ومن لم يفعل فهي خداج) .

٤ ــ وإذا كانت الصلاة رمز العبودية لله ، وهي التي تعطي المؤمن يقظة الإيمان الدائمة ، فإنها كذلك لا تقوم ولا تكون سهلة على الإنسان إلا إذا وجد الإيمان العميق

بالله واليوم الآخر . فمن لم يكن إيمانه عميقاً بالله واليوم الآخر ، كانت الصلاة عليه صعبة قال تعالى : « وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعينَ الذين يظنون أنهم ملاقو ربِّهم وأنهم إليه راجعون » . إن الإنسان الذي استقر في قلبه الإيمان باليوم الآخر ، واستشعر لقاء الله ورجوعه إليه . هو الذي تصبح الصلاة له قرة عين كما كانت لرسول الله ﷺ (حُبب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلتْ قرة عيني في الصلاة) .

٥ ــ ولهذا كله كانت الذنوب والأخطاء مع الصلاة مغفورة مقهورة ، إذ هي تجديدٌ صلةٍ وتجديد عهدٍ وغسل .. لماضٍ وفتح صفحة جديدة مع الله عز وجل (إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر) . عن سعد بن أبي وقاص قال : كان رجلان أخوان فهلك أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة فذكرت فضيلة الأول منهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يكن الآخر مسلماً ؟ قالوا : بلى وكان لا بأس به فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريكم ما بلغت به صلاته بعده إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقي من درنه فإنكم لا تدرون ما بلغت به صلاته .

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ونحن معه إذ جاء رجل فقال يا رسول الله : إني أصبت حداً فأقمه علي فسكت عنه ثم أعاد فسكت وأقيمت الصلاة فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم تبعه الرجل واتبعته أنظر ماذا يرد عليه فقال له : أرأيت حين خرجت من بيتك أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء ؟ قال : بلى يا رسول الله قال : ثم شهدت الصلاة معنا ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : فإن الله تعالى قد غفر لك حدك أو قال : ذنبك .

٦ ــ وإقامة الصلاة تكون بترك كل ما أمر بتركه فيها وبفعل كل ما أمر بفعله فيها : فللصلاة شروط وأركان وواجبات وسنن وآداب ، ولها مكروهات ، ويفسدها أشياء ، فمن ترك مفسداتها ومكروهاتها ، وأتى بشروطها وأركانها ، وواجباتها وسننها وآدابها ، فقد أقامها وقد جعلها الله عز وجل فريضة ونوافل لجبر نقصان الفريضة ، أو لرفع الدرجات إن لم يكن في الفريضة نقصان ، ومن ليس في صلاته نقصان إلا كُمَّلُ الرجال وقليل ما هم ؟

عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل لينصرف من صلاته

وما كتب له منها إلا عشرها . تسعها . ثمنها . سبعها . سدسها . خمسها . ربعها . ثلثها . نصفها) . أخرجه أبو داوود . فرجل أقام الصلاة إذن هو هـذا الذي أتى بهـا كاملة الأركان والسنن ، والواجبات والآداب ، والفروض والنوافل .

٧ ـ ومراكز الإسلام المساجد « وأنَّ المساجدَ لله فلا تدعوا مع الله أحداً » فعمارتها رمز ارتباط المسلم بإسلامه والمسلمين « إنما يَعْمُرُ مساجدَ الله مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخر وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يخشَ إلا اللهَ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » .

قال ابن مسعود : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض ، إن كان المريض ليمشي بين الرجلين حتى يأتي الصلاة وقال : (إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه) أخرجه مسلم وابو داوود وزاد : (وما منكم من أحد إلا وله مسجد في بيته ولو صليتم في بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم) أي هذا الترك يؤدي بكم إلى الكفر كما هو واقعنا . وقال عليه الصلاة والسلام :(أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبواً ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم) . وقال : (من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله) رواه مسلم .

وقال : (صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وسوقه خمساً وعشرين ضعفاً وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا تخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه اللهم ارحمه ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة) .

٨ ـ هذه معان في الصلاة وإقامتها ، من حققها وتحقق بها كان ذلك الإنسان الذي سلم عن كل ضعف ، وارتفع إلى خير خلُق وكان كما وصف الله عباده : « إن الإنسان خُلِقَ هلوعا إذا مسَّهُ الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلينَ الذين هم علـى صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائلِ والمحرومِ والذين يصدقون بيوم

الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جنات مكرمون » .

من التجارب الطريفة في هذا الموضوع ، أن مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك أجرت اختباراً نفسياً على (١٥٣٢١) نفساً من الرجال والنساء المتعطلين ، وفي ضوء هذه الاختبارات ، أمكن توجيه كل منهم إلى المهنة المناسبة له وقد عين الدكتور /هنري لنك/ أحد علماء النفس التجريبي مستشاراً خاصاً في هذه العملية ، ونيط به وضع الخطط ، ومراقبة الدراسات الاحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس ويقول في ذلك : (وفي هذا الوقت بالذات بدأ إدراكي لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان إذ وجدت أن كل من يعتنق ديناً أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لا يزاول أية عبادة) .

هذا والعبادة باطلة والدين باطل فكيف إذا كانت العبادة الحقة والدين الحق : إن المسلم الحق إنسان لا مثيل له في قوة الشخصية في العالم كله ، بفضل صلته بالله ، واعتزازه بهذه الصلة .

٩ ــ ولنعود لنقول : الصلاة هي مظهر ما قبلها من الإسلام ، وكل ما بعدها من الإسلام أثر عنها فالصلاة أهم أعمال الإسلام بعد الشهادتين وهي رمزهما :

إنها تذكرنا أنه لا معبود إلا الله	: إيّاك نعبد
ولا مستعانَ به إلا الله	: وإياك نستعين
ولا هادي إلى صراط الحق غيره	: إهدنا الصراط المستقيم
وأنه المستحق للتعظيم وحده	: سبحان ربي العظيم
وأن له السيادة والعلو	: سبحان ربي الأعلى
وأنه المنعم المتفضل	: ربنا ولك الحمد

وكما تظهر هذه القضايا في أقوال الصلاة ، فكذلك تظهر في أعمالها من طهارة لها إلى ستر عورة ، إلى استقبال قبلة ، لركوع لسجود ، لقيام لقعود ، وكل ذلك مستمد

من رسول الله ﷺ.فيها تتحقق الشهادتان ، والإسلام كله بعد ذلك يقوم : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

١٠ ـ قال عليه السلام : إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله؛ صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ؟ ثم تكون سائر أعماله على هذا) رواه الترمذي .

وقال عليه السلام : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) متفق عليه .

١١ ـ وأخيراً فإن الحد الأدنى من إقامة الصلاة إقامة فرائضها ، ومن أراد الاستزادة ، من فضل الله وعبادته فقد فتح له باب الاستزادة (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ خمس صلوات في اليوم والليلة قال هل علي غيرهن ؟ قال:لا،إلا أن تطوع.فقال رسول الله ﷺ وصيام شهر رمضان قال هل علي غيره قال لا ، إلا أن تطوع قال وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال : علي غيرها ؟ قال لا إلا أن تتطوع فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال رسول الله ﷺ أفلح إن صدق) .

وما من حالة يصبح الإنسان فيها في حرج إلا خففت عليه صلاته فالمسافر جعلت لـه الصلاة الرباعية ثنتين ، والمريض يصلي كما يستطيع قياماً أو قعوداً أو غير ذلك ، ومن لم يجد الماء يتيمم ومن لم يستطع استعماله لمرض يتيمم فلا يعقل أن يكون الإنسان مع هذا كله في حالة لا يستطيع معها القيام بأمر الله ، ولا عذر لإنسان يترك أمره ، وإنها لجناية على ذات الإنسان أن يترك صلاته التي تطهر ظاهره كله بغسل أو وضوء أو سواك أو ... وتطهر باطنه من كل رذيلة لا تليق بالإنسان ثم إنها الجناية على الذات بعد ذلك إذ يدخل النار :

« قالوا : ما سلككمْ في سقر قالوا لم نَكُ من المصلين ولم نك نطعم المسكين

وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين » .

(ب) صورة من الحديث للصلاة

قال تعالى : « وأقم الصلاةَ لذكري » وقال : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » أي فريضة موقتة بأوقات معينة وقال عليه السلام لمعاذ : (فأعلمهم أن الله تعالى افترض خمس صلوات في كل يوم وليلة) وقال عليه السلام : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر) فهن خمس صلوات إذن وأوقاتهن ما يلي :

قال عليه السلام : إن للصلاة أولاً وآخِراً وإن أول وقت صلاة الظهر حين تزول الشمس وآخر وقتها حين يدخل وقت العصر وإن أول وقت العصر حين يدخل وقتها (أي حين يكون ظل كل شيء مثله) وإن آخر وقتها حين تصفر الشمس وإن أول وقت المغرب حين تغرب الشمس وإن آخر وقتها حين يغيب الشفق وإن أول وقت العشاء حين يغيب الشفق وإن آخر وقتها حين ينتصف الليل وإن أول وقت الفجر حين يطلع الفجر وإن آخر وقتها حين تطلع الشمس) رواه الترمذي .

وعن مالك قال : كتب عمر إلى عماله إن أهم أموركم عندي الصلاة ، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ثم كتب : أن صلوا الظهر إذا كان الفيء ذراعاً الى أن يكون ظل أحدكم مثله . والعصر والشمسُ مرتفعة بيضاء نقية قدر ما يسير الراكب فرسخين أو ثلاثة قبل مغيب الشمس. والمغربَ إذا غربت الشمس. والعشاءَ إذا غاب الشفق إلى ثلث الليل فمن نام فلا نامت عينه فمن نام فلا نامت عينه فمن نام فلا نامت عينه . والصبح والنجوم بادية مشتبكة) .

وعن عقبة بن عامر قال : ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهن أو نقبر فيهن موتانا حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب) . وشعار المسلمين إذا دخل وقت صلاتهم أن يؤذنوا : وسنة الأذان :

عن أبي محذورة قال : قلت يا رسول الله علمني سنة الأذان قال : فمسح مقدم

رأسي قال تقول : ألله أكبر ألله أكبر ألله أكبر ترفع بها صوتك ثم تقول : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله تخفض بها صوتك ثم ترفع صوتك بالشهادة أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح فإن كان صلاة الصبح قلت : الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم ، ألله أكبر ألله أكبر لا إله إلا الله) .

فإذا اجتمع المسلمون للصلاة أقاموا الصلاة ثم وقفوا لأدائها وسنة الإقامة :

قال أبو محذورة : وعلمني (أي رسول الله) الإقامة مرتين مرتين : ألله أكبر ألله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح ألله أكبر ألله أكبر لا إله إلا الله .

وإذا أقمت الصلاة فقلها مرتين : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة أسمعت ؟ قلت : نعم) فـإذا قامت الصلاة أمَّ المسلمين أحدهم يقول عليه السلام : إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم وأحقهم بالإمامة أقرأوهم) وقال : (يؤم القوم أقرأوهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً ولا يُؤم الرجل في بيته ولا في سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه) .

ويصلي إمامهم بهم الصبح ركعتين والظهر أربع ركعات والعصر كذلك والمغرب ثلاث ركعات والعشاء أربعاً ومن لم يتح له أن يصلي مع إمام لعذر أو لغير عذر صلاها منفرداً على نقصان في الأجر وخلاف بين الفقهاء في الوزر إن لم يكن صاحب عذر .
وأما كيفية الصلاة فقد روى أبو حميد الساعدي كيفية صلاته عليه السلام قال : كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم يكبر حتى يقر كل عظم في موضعه معتدلاً ثم يقرأ ثم يكبر ويرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه ثم يعتدل ولا يصوب رأسه ولا يقنع ثم يرفع رأسه فيقول سمع الله لمن حمده . ثم يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه معتدلاً ثم يقول ألله أكبر ثم يهوي إلى الأرض فيجافي يديه عن جنبيه ، ثم يرفع رأسه ويثني رجله اليسرى فيقعد عليها ويفتح

أصابع رجليه إذا سجد ثم يسجد ثم يقول الله أكبر ويرفع رأسه فيثني رجله اليسرى فيقعد عليها حتى يرجع كل عظم إلى موضعه ثم يصنع في الأخرى مثل ذلك ، ثم إذا قام من الركعتين كبر ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه كما كبر عند افتتاح الصلاة ثم يصنع ذلك في بقية صلاته حتى إذا كانت السجدة التي فيها التسليم أخرج رجله اليسرى وقعد متوركاً على شقه الأيسر) .

وأما تسليمه عليه السلام للخروج من الصلاة فقد وصف : (كان رسول الله يسلم عن يمينه وعن يساره حتى أرى بياض خده) . وقال ابن مسعود : كان يسلم عن يمينه وعن يساره : السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله) أما كيفية وضعه يديه على فخذيه أثناء القعود فقد وصفه أحد الصحابة قال : (كان إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى) (ويده اليسرى على ركبته اليسرى باسطها عليها) . وأما ما يقوله في القعود فقد روى ابن مسعود : علمني رسول الله التشهد كفي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن : التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) .

وأما السجود فيكون على سبعة أعضاء عن ابن عباس قال : أمرنا النبي ﷺ أن نسجد على سبعة أعضاء ولا نكف شعراً ولا ثوباً : الجبهة واليدين والركبتين والرجلين) وأما الذكر فيه وفي الركوع فقد ورد عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : (إذا ركع أحدكم فليقل سبحان ربي العظيم ثلاثاً وذلك أدناه وإذا سجد فليقل سبحان ربي الأعلى ثلاثاً وذلك أدناه) .

وأما القراءة في القيام فقد ورد : من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ثلاثاً غير تمام) قال أبو هريرة : سمعت رسول الله يقول : قال الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله عز وجل حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمن الرحيم قال الله أثنى علي عبدي ، وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي . وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، وإذا قال : إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال

هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) . وكان يقرأ في الركعتين الأوليين من الصلاة المفروضة شيئاً من القرآن غير الفاتحة أما ما زاد على الركعتين فكان يقتصر فيه على الفاتحة قال أبو قتادة : (كان يقرأ في الظهر في الأوليين بـأم الكتاب وسورتين وفي الركعتين الأخيرتين بأم الكتاب ويسمعنا الآية أحياناً ويطول في الركعة الأولى ما لا يطيل في الثانية وكذا في العصر والصبح) .

وقبل الفاتحة في الركعة الأولى يستعيذ بالله فقد جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

وقبل الاستعاذة في الركعة الأولى يستفتح بشيء من الذكر فقد ورد أن أبا هريرة قال : قلت يا رسول الله أرأيت إسكاتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول، قال أقول : اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب . اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد) .

وسُمِع عمر يستفتح: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك) .

هذه الصلوات الخمس لا تصح إلا بأوقاتها فمن صلى صلاة قبل دخول وقتها لم تجز صلاته إلا فيما أبيح فيه الجمع ، كما أنها لا تصح إلا بطهارة كاملة من النجاسات والأحداث فمن أصابت ثوبه أو بدنه نجاسة لزمه تطهيرها، ومن كان جنباً لزمه أن يغتسل ومن لم يكن متوضئاً لزمه الوضوء قال عليه السلام : (لا يقبل الله صلاة بغير طهور) .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا » وقد وصفت ميمونة زوجة رسول الله غسله من الجنابة فقالت : (فغسل يديه ثم صب بيمينه على شماله فغسل فرجه وما أصابه ثم مسح بيده على الحائط أو الأرض ثم توضأ وضوءه للصلاة غير رجليه ثم أفاض عليه الماء ثم نحى رجليه فغسلهما . هذا غسله من الجنابة) وأما وضوؤه عليه السلام فقد روي ان عثمان دعا بماء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاث مرات ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين ثم

قال رأيت رسول الله توضأ نحو وضوئي هذا ثم قال : من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه) . كما لا تصح الصلاة إلا إذا كانت عورة الإنسان مستورة وعورة الرجل ما بين سرته إلى ركبته والمرأة كلها عورة إلا وجهها وكفيها في الصلاة وفيما عدا الصلاة كلها عورة على القول الذي قامت عليه الأدلة .

كما لا تصح صلاة الإنسان إلا مستقبل البيت الحرام حقيقة ، أو اجتهاداً في محله ، كما لا تصح صلاة بلا نية الصلاة ، فهذه مجملات ما تقوم به الصلاة المفروضة ذكرناها تبركاً بذكر النصوص ، وإلا ففي كتب الفقه كل التفصيلات الدقيقة لكل ماله علاقة بهذه الشئون ، مع جمع لكل ما ورد عن الرسول عليه السلام في هذه المواضيع ، إذ أثر عنه صيغ مختلفة لبعض الفروع مما أدى إلى اختلاف في التطبيق المذهبي لا يضر ما دام معه دليله .

* * *

وأما صلاة التطوع فإنها على أربعة أقسام :

القسم الأول : السنن الرواتب ويدخل فيها راتبة الظهر وهي ثنتان أو أربع قبلها وثنتان بعدها أو أربع ، وراتبة المغرب وهي ركعتان بعدها ، وراتبة العشاء ركعتان بعدها أو أربع ، وراتبة الفجر ركعتان قبلها وراتبة العصر أربع قبلها لمن أحب ، وبعد صلاة العشاء تأتي صلاة الوتر المهمة والتي يمتد وقتها حتى الفجر وأقلها ركعة على بعض المذاهب ، أو ثلاث على رأي آخرين وأكثره إحدى عشرة ركعة ، وراتبة الضحى وأقلها ركعتان وأكثرها ثمان .

القسم الثاني : وهو ما سن له الجماعة من التطوعات وهي صلاة التراويح في رمضان وصلاة العيدين على القول بأنها سنة .

القسم الثالث : التطوع المطلق وهو مشروع بالليل والنهار إلا في وقت لم تشرع فيه الصلاة مطلقاً أو صلاة النافلة فقط .

القسم الرابع : صلوات لها أسباب منها تحية المسجد ، ومنها صلاة الإستخارة ، ومن ذلك سجود التلاوة ، وسجود الشكر ، وقد ورد في ذلك كله آثار نثبت بعضها :

قال عليه السلام : (ركعتا الفجر أحب إلي من الدنيا وما فيها) رواه مسلم . وقال عن صلاة الفجر أي التطوع (صلوها ولو طردتكم الخيل) أبو داوود .

وقال عليه السلام : (من حافظ على أربع قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله على النار) رواه الترمذي وقال عنه : حديث حسن صحيح .

وقال عليه السلام : (رحم الله امرءاً صلى قبل العصر أربعاً) رواه أبو داوود .

وقالت عائشة : (ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط إلا صلى أربع ركعات أو ست) ، أبو داوود

وقال عليه السلام : (إن الله زادكم صلاة فصلوها ما بين صلاة العشاء إلى صلاة الصبح الوتر) أحمد .

وقال عليه السلام : (الوتر حق فمن أحب أن يوتر بخمس فليفعل ومن أحب أن يوتر بثلاث فليفعل ومن أحب أن يوتر بواحدة فليفعل) رواه أبو داوود .

وقال أبو هريرة : (أوصاني خليلي بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى وأن أوتر قبل أن أنام) متفق عليه .

وروت أم هانيء : (أن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فصلى ثمان ركعات فلم أر قط صلاة أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود) متفق عليه .

وروى مسلم عنه عليه السلام : (صلاة الأوابين حين ترمض الفصال) أي حين تؤثّر الشمس على خفاف صغار الإبل .

وقال عليه السلام : (من حافظ على شفعة الضحى غُفِرَتْ ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر) .

وقال عليه السلام : (من صام رمضان وقامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) .

وأما التطوع فقد ذكر عنه صاحب كتاب الكافي من فقهاء الحنابلة :

(التطوع المطلق وهو مشروع في الليل والنهار وتطوع الليل أفضل لقول رسول

الله ﷺ أفضل الصلاة بعد المفروضة صلاة الليل) وهو حديث حسن ، والنصف الآخير أفضل . قال عمرو بن عبسة : قلت يا رسول الله : (أي الليل أسمع قال جوف الليل الأخير) رواه أبو داوود . وقال النبي ﷺ (أحب الصلاة إلى الله صلاة داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه) متفق عليه .

ويستحب للمتهجد أن يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين لقول رسول الله ﷺ : (إذا قام أحدكم من الليل فليفتح صلاته بركعتين خفيفتين) رواه مسلم ويستحب أن يكون له ركعات معلومة يقرأ فيها حزبه من القرآن لأن رسول الله ﷺ قال : أحب العمل إلى الله الذي يدوم عليه صاحبه وإن قل) متفق عليه . وقالت عائشة : (كان رسول الله ﷺ يصلي ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء الآخرة إلى الفجر إحدى عشر ركعة) رواه مسلم .

وهو مخير إن شاء خافت وإن شاء جهر قالت عائشة : (كل ذلك كان يفعل النبي ﷺ ربما أسر وربما جهر) حديث صحيح إلا أنه إن كان يسمع من ينفعه أو يكون أنشط له وأطيب لقلبه فالجهر أفضل ، وإن كان يؤذي أحداً أو يخلط عليه القراءة فالسر أولى ، فإن أبا سعيد قال : اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال : ألا إن كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضاً ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة) رواه أبو داوود .

* * *

وقال عليه السلام : (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس) . وروى جابر قال : (كان رسول الله ﷺ يعلمنا الإستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : (إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، أللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري او قال في عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به) أخرجه البخاري . وقال ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يقرأ

علينا السورة في غير الصلاة فيسجد فنسجد معه حتى لا يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته) متفق عليه .

وروى أبو بكر قال : كان النبي ﷺ إذا جاءه الشيء يسر به خرّ ساجداً) ذكره صاحب الكافي. وروى عبدالله بن زيد قال : خرج النبي ﷺ يستسقي فتوجه إلى القبلة يدعو وحوّل رداءه وصلى ركعتين جهر فيهما بالقراءة) متفق عليه .

وعن عائشة قالت : خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فبعث منادياً فنادى الصلاة جامعة وخرج إلى المسجد وصف الناس وراءه وصلى أربع ركعات في ركعتين وأربع سجدات) متفق عليه .

وروى ابن عباس : أن النبي ﷺ صلى ست ركعات وأربع سجدات) رواه مسلم وهو أيضاً في باب الخسوف . وقال عمر : (صلاة الأضحى ركعتان وصلاة الفطر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ وقد خاب من افترى) رواه احمد .

وروت عائشة أن رسول الله ﷺ قال : (التكبير في الفطر والأضحى في الأولى سبع تكبيرات وفي الثانية خمس تكبيرات سوى تكبيرتي الركوع) رواه ابو داوود .

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أملح ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر) متفق عليه .

وروى أبو سعيد أن رسول الله ﷺ قال : (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر بما استطاع من طهر ويدهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم صلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى) رواه البخاري .

وقال رسول الله ﷺ لبلال : (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة قال : ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم

أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي) رواه البخاري .

* * *

هذا عرض سريع للصلاة في الإسلام وقد سن الرسول ﷺ أن ترافق بعض الصلوات أذكار معينة فمثلاً عن ثوبان قال : (كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام) رواه مسلم .

وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَد) متفق عليه .

وعن عبد الله بن الزبير / رضي / . أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) قال ابن الزبير : وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة) رواه مسلم .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) رواه مسلم .

وعن كعب بن عميرة عن رسول الله ﷺ قال : معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين تسبيحة وثلاثاً وثلاثين تحميدة وأربعاً وثلاثين تكبيرة) رواه مسلم .

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ : كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات : اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل

العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من فتنة القبر) رواه البخاري .

وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال : يا معاذ والله إني لأحبك فقال : أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) رواه أبو داوود بإسناد صحيح ..

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول : أللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال) رواه مسلم .

وعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال : ما زلت على الحال التي فارقتك عليها قالت : نعم . فقال النبي ﷺ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته) رواه مسلم .

* * *

الركن الثالث : الـــزكاة

(أ) نظرات عامة في الزكاة :

١ ــ إن مرتكز نظام المال في الإسلام الزكاة ، فهي بمثابة العمود الفقري فيه ، إذ أن نظام المال في الإسلام يقوم على أساس الاعتراف لله بأنه المالك الأصيل ، وبالتالي الاعتراف بأن له وحده حق تنظيم قضية التملك والحقوق فيه ومآله ، والزكاة هي التعبير العملي عن هذا كله ، إذ أنها أهم الحقوق التي جعلها الله في الملك ، وليست كلها كما يفهم بعض الناس . فقد ورد في الحديث : (إن في المال حقاً سوى الزكاة) إلا أن هذه الزكاة هي أهم الحقوق في المـــال ، ولذلك كانت رمز الاستسلام لله في قضايا المال كلها يقول عليه السلام : (والصدقة برهان) . ومن دراستها يفهم الكثير من مواقف الإسلام من قضية رأس المال

من هذه المواقف :

ــ أن كنز المال وتجميده ليس وضعاً صحيحاً للمال ، بل تشغيله هو الوضع الصحيح والزكاة هي التنظيم العملي لهذا . إذ أن صاحب رأس المال عندما يعطله عن العمل مع دفعه زكاته يتنازل عن جزء منه سنوياً ، مما يؤدي إلى تقلص رأس المال بالنهاية .

فمثلاً لو كان إنسان يملك الملايين ولا يشغلها فهو سيدفع منها سنوياً ٢,٥٪ زكاة ، ففي خلال سنوات ستزول هذه الملايين كلها ما عدا النصاب ؛ وإذن فصاحب رأس المال مضطر لتشغيله وتنميته إذا أراد المحافظة على رأسماله ، حتى تكون الزكاة على حساب الربح لا على حساب رأس المال نفسه ، وعلى هذا فنظام الزكاة يجعل رأس المال في حالة حركة دائمة بشكل عفوي ولكنه قسري ، ومن هنا نفهم معنى الآية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فلا كنز ما دام

الإنفاق في سبيل الله موجوداً وأقله ، الزكاة وفي الأثر : (ما أديت زكاته فليس بكنز) . إذ لا تجتمع الكنزية والزكاة . ومن هنا نفهم كذلك خطأ الذين فهموا أن الإسلام يحرم على الإنسان أن يدخر أمواله ولو أدى زكاتها ، أخذاً من الآية . إن المفهوم الصحيح هو الذي ذكرناه ، وهو أن صاحب رأس المال ما دام يدفع زكاته فإنه مضطر لتشغيله لينمو ، أو أنه سيزول تلقائياً . وفي كلتا الحالتين تنعدم الكنزية في الأموال .

ـ ومنها : أن رأس المال ليس من حقه الربح لأنه رأسمال مجرد ، بل للآخرين فيه حق لمجرد أنه رأسمال ، ولا يستحق رأس المال الربح بعد هذا إلا في مقابل استعداده لتحمل الخسارة . فمثلاً في شركة المضاربة ، إنما يستحق صاحب رأس المال الربح في مقابل تحمله الخسارة كلها في حالة الخسران ، وكذلك في كل حالة يعمل فيها رأس المال ، إنما يستحق الربح في مقابل استعداده لتحمل الخسارة ، أما رأس المال المجرد ، فإنه يستحق النقصان بالزكاة ولا يستحق الربح بدون مقابل .

وهذا فارق دقيق كبير بين النظرة الرأسمالية والشيوعية من جهة وبين النظرة الإسلامية إلى قضية رأس المال .

فالنظرية الرأسمالية ترى أن رأس المال يستحق الربح دائماً وبلا مقابل ، ومن هنا أجازوا الربا وأمثاله مما يكون فيه رأس المال رابحاً في كل حالة ، ولم يفرضوا على رأس المال أي ضريبة ، وإنما تكون الضرائب على أرباح رأس المال .

والنظرية الشيوعية التي تعتبر رأس المال مستغلاً في كل حالة ، وأنه يمتص أرباح العمال وقد عبر عن هذا ماركس بنظرية فضل القيمة التي هي : أن العامل عندما يشتغل عند رب العمل يقدم إنتاجاً قيمته أكثر مما يعطيه رب العمل من أجر ، هذا الفائض من الربح يذهب إلى يد صاحب رأس المال مستغلاً جهود مئات البشر بواسطة ماله .

إن الإسلام بواسطة أنظمته كلها ، وبواسطة الزكاة قد جعل المسألة في وضع لا يمكن أن يكون هناك أعدل منه :

المال يربح في مقابل تحمله الخسارة .

وصاحب رأس المال يربح في مقابل إدارته وتحمله الخسارة ؛

وعلى صاحب رأس المال أن يدفع سنوياً ، لا من الأرباح وحدها ، بل من الأرباح ورأس المال هذه النسبة المئوية الثابتة ، لاصناف من البشر معينين ، وعلى هذا فقد أصبح فضل القيمة التي تصوّره ماركس لا يعود إلى جيب الرأسمالي منه إلا مقدار ضئيل يستحقه ، والبقية ترجع إلى أصناف من المجتمع تستحقهـــا لتحقيق التضامن الاجتماعي الذي يجب أن يشارك فيه كل انسان قادر ؛ هذا مع ملاحظة أن العامل عند رب العمل ينبغي أن يأخذ حقه كاملاً كما سنرى إن شاء الله عند البحث عن منهاج المال في الاسلام .

٢ ــ هذه الزكاة حاول بعض الناس أن يصوروها بأنها ضريبة كبقية الضرائب التي تفرضها الدولة ، وحاول بعض الناس أن يصوروها بأنها صدقة طوعية لا علاقة للدولة بها ؛ وكلتا النظريتين خاطئة خطأ جسيماً في هذا الموضوع والنظرة السليمة لهذا الموضوع ــ والله أعلم ــ هي ما يلي :

ــ إذا اعتبرنا ضريبة الدولة العادلة هي ما تأخذه في مقابل تحقيقها للمشاريع اللازمة للأمة ، وعلى هذا تكون الضريبة العادلة حق الدولة في المال ، فإن الزكاة تختلف عن هذا بأنها حق أصناف معينين من الناس في المال ، فليست الزكاة حق الدولة ، وإنما هي حق أصحابها الذين عينهم الشارع ، والذين سنراهم أثناء هذا البحث .

ــ إلا أن الدولة هي المسئولة عن وصول هذه الحقوق المالية إلى أصحابها ، بل اعتبرها القرآن من الواجبات الأساسية للدولة أن تقوم بهذه المهمة فقال :

« ألذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

وعلى هذا فالوضع العادي في دولة إسلامية ، أن تنشيء هذه الدولة مؤسسة مستقلة ، مهمة هذه المؤسسة جباية الزكوات وتوزيعها ، مع ملاحظة أن نفقات هذه المؤسسة بموظفيها ينبغي أن تكون من مال الزكاة أو نقول : رواتب الموظفين من مال الزكاة ، والسكن وتوابعه يكون من خزينة الدولة .

وهناك ناحية مهمة . هي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الراشد قد أوكل إلى أصحاب رؤوس الأموال الباطنة (الذهب والفضة) أن يخرجوا بأنفسهم

زكوات أموالهم ، وذلك نتيجة لما أصبح عليه المسلمون من سعة في عصره ، فهل يبقى هذا الأمر معمولاً به في عصرنا ؟

الذي نقوله : إن تعقيد الحياة الاقتصادية في زماننا ، والحاجة إلى وجود رؤوس أموال ضخمة متجمعة في مؤسسات خاصة ، وتعقيد طرق الإنفاق والحاجة إلى تنظيمها ، كل هذا يجعل الحاجة ملحة للعودة بالمسألة إلى ما كانت عليه زمن رسول الله ﷺ والخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر. وهو أن تتبنى الدولة الجمع كله وهي التي تقوم بعملية التوزيع ، خاصة وقد تأكدنا أن كثيراً من الناس لا يدفعون زكوات أموالهم .

ــ وقد وضع الإسلام بيد الدولة سلطة واسعة في موضوع جباية الزكاة فأعطاها حق محاربة المانعين للزكاة إذا كانوا فئة قوية ، وقد روي في ذلك : (لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه،وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر رضي الله عنه : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه . قال عمر / رضي / فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق) متفق عليه .

كما أعطى الإسلام الدولة حق مصادرة جزء من مال مانع الزكاة إذا كان فرداً فقد ورد في الحديث : (من أعطاهـــا مؤتجراً فله أجرها ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا ، لا يحل لآل محمد منها شيء) فعلى هذا إذا ثبت أن إنساناً ما، معه مال ، ويمنع زكاته. فللدولة عدا عن محاسبته الدقيقة على زكواته الممنوعة ، أن تعاقبه بأخذ شطر ماله عقوبة مالية .

٣ ــ والأموال التي تجب فيها الزكاة خمسة :

أ ــ عروض التجارة .

ب ــ الذهب والفضة وما يلحق بهما من نقد .

جـ ــ الزروع والثمار .

د ــ الأنعـــام .

هـ ــ المعدن والركاز .

ويلاحظ أن أئمة الإجتهاد في الإسلام ، قد اختلفت اجتهاداتهم في جزئيات كثيرة من هذه النواحي الخمسة ، وهذا يتيح للدولة الإسلامية آفاقاً واسعة في التطبيق ، فإنها تستطيع أن تأخذ من الآراء المطروحة أمامها للقضية الواحدة الرأي الأنسب لكل وضع من الأوضاع . فقد ترى مثلاً أن الأنسب في بعض الحالات ، أن تتبنى رأي الحنابلة في زكاة المعدن ، وقد تأتي حالة يستغني بها الناس فترى الدولة أن تتبنى رأي الشافعية ، فتعدد الآراء الاجتهادية في القضية الواحدة التي ليس فيها نص لصالح المسلمين ، توسعة عليهم ، ولصالح حكومتهم التي لا تضيق أمامها سبل الحل لأي مشكلة ، وسنستعرض بايجاز كل قسم من أقسام الأموال التي تجب فيها الزكاة .

١ ــ زكاة النقود

المقصود بالنقود الآن الذهب والفضة ، والأوراق المالية والعملة المتداولة المفيدة مالاً ، سواء كانت نحاسية أو غيرها ، فكلها مال تجب فيه الزكاة المفروضة المقدرة ، وهي وإن كانت في الأصل فرضت على النقد الذي هو ذهب وفضة ، إلا أن الأوراق والعملة المالية لهـا حكم الذهب والفضة ، لأنهـا مسنودة بهما عادة ، ويستطيع الإنسان أن يحصل بدلها ذهباً أو فضة مباشرة .

فما ملكه الإنسان من ذهب أو فضة أو عملة مالية ، فعليه زكاته إذا كان مالكاً أكثر من الحد الأدنى الذي أهدر الشارع وجوب الزكاة فيه ، وحال على بداية هذا التملك حول قمري كامل ، فإن عليه أن يدفع مما ملكه ٢,٥٪ وما يربحه خلال العام ، يضاف إلى الرأسمال ، ويدفع عن الجميع ، فالزكاة مستحقة على المال وعلى نموه خلال العام .

٢ ــ عروض التجارة

وكل شيء اشتراه الإنسان ونواه للتجارة ، فإنه يُقوَّم وتدفـع زكاته ،كزكاة النقود ، وتخرج زكاة العروض مضافة إلى النقد إن كانا مملوكين لواحد ، فإذا حال الحول على مبدأ ملك النصاب ، أو على آخر زكاة زكاها الإنسان ، فإنه يقوّم ما يملكه من عروض التجارة ، ويضيفه إلى ما يملكه من نقد ، ثم يُخرج زكاة الجميع

بعد ان يحذف من الجميع ما عليه من ديون حتى مهر زوجته على مذهب الحنفية .

أما الديون التي للإنسان . فهل تضاف إلى هذا وهذا ، ويخرج زكاة الجميع في رأس الحول .

يقول فقهاء الحنفية :

أما الدّين القوي كدين القرض والتجارة . فإنه يزكى إذا قبض عن كل السنين الماضية ، وكلما استلم دفعة منه يزكيها إذا كانت ليست أقل من أربعين درهماً (الدرهم حوالي /٣٥/ قرش سوري .

وأما الدّين المتوسط ، كدين كان نتيجة عن بيعه شيئاً من حاجاته الأصيلة ، كدار السكنى وثيابه ، فكذلك يدفع زكاته عما مضى من سنين إذا كان ما قبضه ليس أقل من مئتي درهم .

وأما الدّين الضعيف كدين المرأة على زوجها من مهرها ، أو دين زوجها عليها من خلعها ، فإنه ليس عليه زكوات عن ما مضى قبل القبض . فإذا ما قُبض يزكى بعد حولان الحول عليه .

٣ ـ زكاة الزروع والثمار

قال الحنفية :

الأرض العشرية في كل ما يخرج منها الزكاة ، القليل والكثير ، وما يبقى وما لا يبقى ، عشرة بالمئة من الخارج . إذا كانت الأرض تسقى بماء السماء ، أو بماء سيح لم يكلف شيئاً . وخمسة بالمئة إذا كانت تسقى بكلفة كآلة .

وقال الشافعية :

ما يخرج من الأرض سواء كانت عشرية أو خراجية فيه زكاة إذا توفرت فيه شروط معينة :

١ ـ أن يكون مما يقتات به .

٢ ـ أن يكون مملوكاً لمالك معين .

٣ ـ أن يبلغ نصاباً ، والنصاب عندهم خمسة أو سق والوسق يعدل ١٢٠ كلغ .

٤ ـ إذا كان ثمراً ، أو يكون عنباً ورطباً ، أما غيرها من الفواكه فلا زكاة فيها عندهم .

فإذا ما اجتمعت شروط الزكاة في نتاج الأرض زكى فأخرج العشر مما يسقى بلا كلفة ، ونصف العشر فيما يسقى بكلفة ، وثلاثة أرباع العشر فيما كان مختلطاً .

ومذهب الحنابلة والمالكية قريب من مذهب الشافعية .

٤ ـ زكاة الأنعام

الأنعام إن كانت للتجارة فهي من عروض التجارة .

وإن كانت للدر والنسل والعمل وتعلف كل العام ، فليس فيها زكاة إلا على رأي المالكية ، إذا بلغت نصاباً ، وإن كانت للسوم والرعي . ففي البقر بأنواعه ، والغنم مع المعز والجمال بأنواعها زكاة إذا بلغت نصاباً وحال عليها الحول .

والنصاب في الإبل خمس ، وفي البقر ثلاثون ، وفي الغنم أربعون ، فاذا بلغت الإبل خمساً ففيها شاة وإذا بلغت البقر ثلاثين ففيها بقرة عمرها سنة ، وإذا بلغت الغنم أربعين ففيها شاة ، وهذا بداية النصاب ثم تكون الزكاة كل عدد بحسابه الخاص المقرر بالسنة الصحيحة .

٥ ـ زكاة المعدن

قال المالكية :

المعدن هو ما خلقه الله تعالى في الأرض من ذهب أو فضة ونحاس ورصاص ومغرة وكبريت ، وإنما تجب الزكاة في الذهب والفضة المستخرجين من الأرض إذا

بلغا نصاباً ، سواء كان المستخرِج مسلماً أو غير مسلم ، في أرض الإسلام على قول » وفي قول آخر لا بـــد من الإسلام ، ولا يشترط للوجوب حولان الحول . وقال الحنابلة :

المعدن هو كل ما تولد من الأرض وكان من غير جنسها ، سواء كان جامداً كذهب وفضة وبلور وعقيق ونحاس ، أو مائعاً كزرنيخ ونفط ونحو ذلك فيجب على من استخرج من ذلك شيئاً وملكه ربع العشر بشرطين :

الأول : أن يبلغ بعد تصفيته نصاباً من ذهب أو فضة ، أو ما تساوي قيمته نصاباً من غيرهما .

الثاني : أن يكون المستخرج مسلماً .

فإذا توفر الشرطان فقد وجب إخراج ربع العشر زكاة تصرف في مصارفها .

وقال الشافعية :

تجب الزكاة في المستخرج من الأرض إذا كان ذهباً أو فضة فقط ، دون اشتراط حولان الحول ، وكان المستخرج قد استخرجه من أرض مباحة ، أو مملوكة للمستخرج .

٤ ــ مما تقدم ندرك مقدار ما يمكن أن تجمعه الدولة في صندوق الزكاة من زكاة ، خاصة إذا أخذت بأعلى أقوال الأئمة إيجاباً ، وبالدمج بين بعض الأقوال لاستخراج حكم جديد مناسب ، لقضية ظهر في عصرنا بعض جوانبها أكثر من السابق .

فكل الأوراق النقدية الموجودة في أيدي الأفراد ، أو الشركات التي ترجع لأفراد فيها الزكاة .

وكل عروض التجارة الموجودة في الأسواق والمصانع وغيرها فيها الزكاة .

وكل الأغنام والأبقار والجمال فيها الزكاة بعد إسقاط العفو .

والزروع والثمار فيها كذلك حقوق .

والمستخرج من الأرض وخاصة البترول فيه كذلك حقه ، وكل ذلك لصناديق الزكاة ، وكل هذا لحل مشاكل المسلمين الإقتصادية بشكل عملي ومباشر .

٥ ــ هذه الأموال التي تتجمع في صناديق الزكاة تنفق على فئات ثمان :

١ ــ الفقراء . ٢ ــ المساكين . ٣ ــ موظفو الزكاة . ٤ ــ المؤلفة قلوبهم . ٥ ــ الغارمون . ٦ ــ مساعدة العبيد على الحرية . ٧ ــ المسافر المنقطع ٨ ــ في سبيل الله .

وقد جمعت هذه الأصناف كلها الآية : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفةقلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

ويدخل في الغارمين من استدان ليتزوج ، أو عقد العقد وأصبح المهر عليه ديناً ، فإنه يأخذ ليفي دينه . ويدخل في الغارمين من كان عليه دين كأثر عن بنائه داراً لسكناه وسكنى عياله ، فيعطى ما يفي دينه . ويدخل في الفقراء الطلاب الذين قد بلغوا وليس لهم ملك خاص بهم ، ولو كان آباؤهم أغنياء فيعطون راتباً شهرياً حتى ينهوا دراساتهم . ويدخل في الفقراء والمساكين العمال الذين لا يوجد لديهم رأسمال يقيمون به عملهم فيعطون رأسمال كافياً ، والطبيب عامل والصيدلي عامل ، فإذا تخرج الطبيب وليس لديه آلة عمل ، يعطى من مال الزكاة ما يقيم به عيادته .

ويدخل / في صنف سبيل الله / أن يعطى المجاهدون والفدائيون وكل فقراء المسلمين ثمن سلاح ليكون بيدهم بشكل دائم . ويدخل في المؤلفة قلوبهم ، أن يعطى الزعماء السياسيون المجمدون عن العمل السياسي في الدولة الإسلامية ، وأصحاب الصحف في زماننا . ويدخل في الفقراء والمساكين العاجزون عن العمل ، فيشترى لهم على مذهب الشافعية عقاراً يملكونه ويعيشون من ريعه مدى حياتهم ، إذا كان أمثالهم يعيشون زمناً يكون ما يأخذونه خلاله يساوي ثمن عقار ، وإلا فيدفع لهم رواتب حتى يعيشوا . ويدخل في الفقراء والمساكين كل العاطلين عن العمل لفقدان العمل ، حتى يجدوا عملاً ، أو توجد لهم الدولة عملاً إذا كانوا لا يملكون مالاً .

ولتوضيح بعض مضامين ما تقدم ننقل هــذا البحث الطيب للاستاذ يوسف القرضاوي[1] يقول تحت عنوان : من هم الفقراء والمساكين أو الذين تصرف لهم الزكاة :

(١) ــ خطتنا في هذا الكتاب إذا وجدنا بحثاً ناضجاً يوفي البحث الذي نريد كتابته حقه أن ننقله مستغنين بذلك عن كتابته بقصد الاستفادة من كل ما كتب عن الإسلام .

عنى القرآن الكريم بمصارف الزكاة أكثر مما عنى بمصادرها ووعائها ، لأن جباية الأموال قد تكون سهلة على أصحاب السلطان بوسائل شتى ، ولكن الصعب حقاً هو صرفها في وجوهها ، وإيتاؤها أهلها ، ووضعها موضعها . ومن ثم لم يدع القرآن تحديد مصارف الزكاة لرأي حاكم وهواه ، ولا لطمع طامع يريد ان يزاحم المستحقين بالباطل . فنزل كتاب الله يبين الأشخاص والجهات التي تصرف فيها ولها الزكاة ؛ فكان ذلك رداً على المنافقين الذين سال لعابهم شرهاً إلى أموال الزكاة بغير حق ، ولمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه أهملهم ولم يستجب لأطماعهم ... قال تعالى : « ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون .. إلى أن قال : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . (التوبة ٥٨ : ٦٠) .

وقد روى أبو داود أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أعطني من الصدقات فقال له ان الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقة حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك) .

والذي يعنينا في بحثنا هذا من تلك الأجزاء أو المصارف الثمانيـــة هو الفقراء والمساكين وهما أول المصارف التي جعلها الله أهلاً لاستحقاق الزكاة .

قد اختلف الفقهاء والمفسرون في تحديد مفهوم الفقير والمسكين ، والفرق بينهما ، وأيهما أسوأ حالاً ؟ وهو خلاف لا يترتب عليه حكم في باب الزكاة بعد أن اتفق الجميع على أنهما صنفان لجنس واحد هو أهل العوز والحاجة .

والراجح : أن الفقير هو إسم للمحتاج الذي لا يسأل الناس ، والمسكين هو الذي يسأل الناس ويطوف عليهم .

ويرى جمهور الفقهاء أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين . وحدده بعضهم بقوله : الفقير من لا يملك شيئاً أو يملك دون نصف الكفاية لنفسه ولمن يعوله . والمسكين من يملك نصف الكفاية أو معظمها ولكن لا يملك تمام الكفاية .

المستورون المتعففون أولى بالزكاة :

ولقد يظن كثير من الناس — من سوء العرض لتعاليم الإسلام ، وسوء التطبيق لها ، أن الفقراء والمساكين المستحقين للزكاة ، هم أولئك المتبطلون أو المتسولون الذين احترفوا سؤال الناس ، وتظاهروا بالفقر والمسكنة ، ومدوا أيديهم للغادين والرائحين في المجامع والأسواق ، وعلى ابواب المساجد وغيرها ، ولعل هذه الصورة للمسكين كانت ماثلة في أذهان كثير من الناس منذ زمن قديم ، حتى في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم مما جعله عليه السلام ينبه الناس على أهل الحاجة الحقيقيين الذين يستحقون معونة المجتمع بحق ، وإن لم يفطن لهم الكثيرون . فقال عليــه الصلاة والسلام في ذلك : (ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان ، وإنما المسكين الذي يتعفف اقرؤوا إن شئتم « لا يسألون الناس إلحافا »[1] .

ومعنى « لا يسألون الناس الحافا » : لا يلحون في المسألة ، ولا يكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه ، فإن من سأل وعنده ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف .

وهذا وصف لفقراء المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله ورسوله ، وليس لهم مال ولا كسب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم[2] .

قال الله تعالى في وصفهم والتنوية بشأنهم : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا » .

فهؤلاء وأشباههم أحق الناس أن يعانوا كما أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه المذكور... وفي رواية أخرى : (ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس)[3] . ذلك هو المسكين الجدير بالمعونة ، وإن كان الناس يغفلون عنه ، ولا يفطنون له ، ولكن رسول الإسلام لفت الأنظار

---

(١) البقرة/٢٧٣

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٣) الحديث بروايته — متفق عليه .

إليه ، ونبه العقول والقلوب إليه ، وإنه ليشمل كثيراً من أصحاب البيوتات ، وأرباب الأسر ، والمتعففين الذين أخنى عليهم الزمن ، أو قعد بهم العجز ، أو قل مالهم وكثرت عيالهم ، أو كان دخلهم من عملهم لا يشبع حاجاتهم المعقولة .

وقد سئل الإمام الحسن البصري عن الرجل تكون له الدار والخادم ، أيأخذ من الزكاة ؟ فأجاب بأنه يأخذ إن احتاج ولا حرج عليه[1] .

وسئل الإمام أحمد في الرجل : إذا كان له عقار يستغله ، أو ضيعة تساوي عشرة آلاف درهم أو أقل من ذلك ، أو أكثر ، ولكنها لا تقيمه — يعني لا تقوم بكفايته — فقال : يأخذ من الزكاة[2] .

وقال الشافعية : إذا كان له عقار ، وينقص دخله عن كفايته ، فهو فقير أو مسكين . فيعطى من الزكاة تمام كفايته ولا يكلف بيعه[3] .

وقال المالكية : يجوز دفع الزكاة لمن يملك نصاباً أو أكثر لكثرة عياله ، ولو كان له الخادم والدار التي تناسبه[4] .

وقال الحنفية : لا بأس بأن يعطى من الزكاة من له مسكن ، وما يتأثث به في منزله ، وخادم وفرس وسلاح ، وثياب البدن ، وكتب العلم إن كان من أهله ، واستدلوا بما روي عن الحسن البصري أنه قال : (كانوا يعطون الزكاة لمن يملك عشرة آلاف درهم من الفرس والسلاح والخادم والدار) .

وقوله (كانوا) : كناية عن أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهذا لأن هذه الأشياء من الحوائج اللازمة التي لا بد للانسان منها ، فكان وجودها وعدمها سواء[5] .

ليس المقصود بالزكاة إذن المعدم المترب فقط ، ذلك الذي لا يجد شيئاً ، أو لا

---

(١) الاموال لأبي عبيد ص ٥٥٦ .
(٢) المغني مع الشرح الكبير جـ ٢ ص ٥٢٥
(٣) المجموع جـ ٦ ص/١٩٢ .
(٤) شرح الخرشي وحاشية العدوي على خليل جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٥) بدائع الصنائع للكاساني جـ ٢ ص /٤٨ .

يملك شيئاً ، وإنما يقصد بها أيضاً ذلك الذي يجد بعض الكفاية ، ولكنه لا يجد كل ما يكفيه .

لاحظ في الزكاة لقوي مكتسب :

وإذا كان مدار الاستحقاق هو الحاجة — حاجة الفرد إلى كفاية نفسه ومن يعوله — فهل يعطى المحتاج وإن كان متبطلاً يعيش عالة على المجتمع ، ويحيا على الصدقات والإعانات ، وهو مع ذلك قوي البنيان ، قادر على الكسب ، وإغناء نفسه بكسبه وعمله ..

لقد فهم ذلك بعض الناس خطأ ، فظنوا الزكاة إغراء بالبطالة ، وتشجيعاً للكسالى والقاعدين ، ولكن نصوص الإسلام ومبادئه تقضي بغير هذا .

فالواجب على كل قوي قادر على العمل ، أن يعمل ، وأن ييسر له سبيل العمل ، وبذلك يكفي نفسه بكد يمينه وعرق جبينه ، وفي الحديث الصحيح : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده[1] .. ومن أجل ذلك رأينا رسول الإسلام يقول في صراحة ووضوح : (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي)[2] — والمرة القوة والشدة . والسوي المستوي السليم الأعضاء — .

ولا اعتداد بالقدرة الجسمانية واللياقة البدنية ، ما لم يكن معها كسب يغني ويكفي ، لأن القوة بغير كسب ، لا تكسو من عري ، ولا تطعم من جوع ، قال النووي : (إذا لم يجد الكسوب من يستعمله حلت له الزكاة لأنه عاجز)[3] . فإذا كان الحديث المذكور قد اكتفى بذكر (ذي المرة السوي) فإن حديثاً آخر قيد هذا الإطلاق وأضاف إلى (القوة) (الاكتساب) فعن عبيد الله بن عدي الخيار ، أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي — صلى الله عليه وسلم — يسألانه من الصدقة ، فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين (قويين) فقال : إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها — أي في الزكاة — لغني ولا لقوي مكتسب)[4] .

---

(١) رواه البخاري وغيره — الترغيب والترهيب للمنذري ج ٢ أول كتاب البيوع .
(٢) رواه الخمسة — وحسنه الترمذي .
(٣) المجموع ج ٦ ص ١٩١
(٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وقال أحمد : ما اجوده من حديث . وقال النووي : هذا الحديث =

وإنما خيرهما الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأنه لم يكن على علم بباطن أمرهما ، فقد يكونان في الظاهر جلدين قادرين ، ويكونان في الواقع غير مكتسبين ، أو مكتسبين كسباً لا يكفي .

واستدل العلماء بالحديث على أنه ينبغي لولي الأمر – أو رب المال – وعظ آخذ الزكاة الذي لا يعرف حقيقة حاله ، وتعريفه أنها لا تحل لغني ، ولا لقادر على الكسب ، أسوة برسول الله(١) – صلى الله عليه وسلم – . والمراد بالاكتساب : إكتساب قدر الكفاية ، وإلا كان من أهل الاستحقاق ، والعجز عن أصل الكسب ليس بشرط . ولا يصح أن يقال بوقوف الزكاة على الزمنى والمرضى والعجزة فحسب .

قال النووي : والمعتبر كسب يليق بحاله ومروءته . وأما ما لا يليق به فهو كالمعدوم(٢) .

على أن حديث تحريم الزكاة على (ذي المرة السوي) يعمل بإطلاقه بالنسبة للقادر الذي يستمريء البطالة مع تهيؤ فرص الكسب الملائم لمثله عرفا .

والخلاصة : أن كل قادر على الكسب ، مطلوب منه شرعاً أن يعمل ليكفي نفسه بنفسه ، فمن كان عاجزاً عن الكسب لضعف ذاتي . كالصغر والأنوثة ، والعته والشيخوخة والعاهة والمرض ، أو كان قادراً ولم يجد باباً حلالاً للكسب يليق بمثله ، أو وجد ولكن كان دخله من كسبه لا يكفيه وعائلته ، أو يكفيه بعض الكفاية دون تمامها ، فقد حل له الأخذ من الزكاة ولا حرج عليه في دين الله .. هذه هي تعاليم الإسلام الناصعة ، التي جمعت بين العدل والإحسان ، أو العدل والرحمة ، أما مبدأ الماديين القائلين : (من لا يعمل لا يأكل) فهو مبدأ غير طبيعي ، وغير أخلاقي ، وغير إنساني بل إن في الطيور والحيوانات أنواعاً يحمل قويها ضعيفها ، ويقوم قادرها بعاجزها . أفلا يبلغ الإنسان مرتبة هذه العجماوات ؟.

المتفرغ للعبادة لا يأخذ من الزكاة :

ومن الرائع حقاً ما ذكره هنا فقهاء الإسلام فقالوا : إذا تفرغ إنسان قادر على

= صحيح . المجموع جـ ٦ ص ١٨٩ .وقد سكت عنه ابو داود المنذري (مختصر السنن) جـ ٢ ص/٢٣٣ .
(١) نيل الاوطار جـ ٤ ص ١٧٠
(٢) المجموع جـ ٦ ص ١٩٠

الكسب لعبادة الله تعالى ، بالصلاة والصيام ونحوهما لا يعطى من الزكاة ، لأنه مأمور بالعمل ، والمشي في مناكب الأرض ، ولا رهبانية في الإسلام ، والعمل في هذه الحال لكسب العيش من أفضل العبادات إذا صدقت فيه النية ، والتزمت حدود الله .

المتفرغ للعلم يأخذ من الزكاة :

فأما إذا تفرغ لطلب علم نافع ، وتعذر الجمع بين الكسب وطلب العلم ، فإنه يعطى من الزكاة قدر ما يعينه على اداء مهمته ، وما يشبع حاجاته ، ومنها كتب العلم التي لا بد منها لمصلحة دينه ودنياه[1] وإنما أعطي طالب العلم لأنه يقوم بفرض كفاية ، ولأن فائدة علمه ليست مقصورة عليه ، بل هي لمجموع الأمة ، فمن حقه أن يعان من مال الزكاة لأنها لأحد رجلين ، إما لمن يحتاج من المسلمين ، أو لمن يحتاج إليه المسلمون وهذا قد جمع بين الأمرين .

واشترط بعضهم أن يكون نجيباً يرجى تفوقه ، ونفع المسلمين به ، وإلا لم يستحق الأخذ من الزكاة ما دام قادراً على الكسب[2] وهو قول وجيه ، وهو الذي تسير عليه الدول الحديثة ، حيث تنفق على النجباء والمتفوقين بأن تتيح لهم دراسات خاصة ، أو ترسلهم في بعثات خارجية أو داخلية .

كم يعطى الفقير والمسكين من الزكاة :

ولكي تكمل أمام أعيننا الصورة السوية للزكاة الإسلامية ، وأثرها في محاربة الفقر والمسكنة ، لا بد أن نجيب هنا عن سؤال مهم هو : كم يعطى الفقير والمسكين من مال الزكاة ؟.

ووجه الأهمية في الإجابة على هذا السؤال : أن السائد في أذهان عامة الناس مسلمين وغير مسلمين ـ أن الفقير يأخذ من الزكاة دراهم معدودة ، أو حفنات من حبوب أو أرغفة من خبز يسد بها رمقاً ، أو يكفي بها حاجة أياماً معدودات أو شهراً أو شهرين .. ثم يظل الفقير بعد ذلك على فقره صفر اليدين ، ماداً يده بالسؤال ، محتاجاً أبداً إلى المعونة . وحينئذ تكون الزكاة أشبه بالأقراص المسكنة للآلام ، إلى

---

(١) انظر شرح غاية المنتهى جـ ٢ ص ١٣٧ طبع المكتب الإسلامي .
(٢) المجموع جـ ٦ ص ١٩٠ ، ١٩١

وقت محدود ، لا بالأدوية الناجعة التي تجتث الآلام من جذورها .

وستتبين بعد دراسة نصوص الإسلام ، ومذاهب فقهائه : أن هذا السائد في أفهام الناس وهـمٌ عريض لا أساس له من شريعة الإسلام .

المذهب الأول : إعطاء الفقير كفاية العمر :

إن أقرب المذاهب في هذا الشأن إلى منطق الإسلام ونصوصه : أن يعطى الفقير ما يستأصل شأفة فقره ، ويقضي على أسباب عوزه وفاقته ، ويكفيه بصفة دائمة ، ولا يحوجه إلى الزكاة مرة أخرى .

قال الإمام النووي في (المجموع) :

المسألة الثانية في قدر المصروف إلى الفقير والمسكين : قال أصحابنا العراقيون ، وكثيرون من الخراسانيين ، يعطيان ما يخرجهما من الحاجة إلى الغنى ، وهو ما تحصل به الكفاية على الدوام . وهذا هو نص الشافعي — رحمه الله — واستدل له الأصحاب بحديث قبيصة بن المخارق الهلالي — رضي الله عنه — أن رسول الله قال : (لا تحل المسألة إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش — أو قال سداداً من عيش — ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحاجة من قومه : قد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة ، حتى يصيب قواماً من عيش — أو قال سداداً من عيش — فما سواهن من المسألة — يا قبيصة — سحت يأكلها صاحبها سحتاً . رواه مسلم في صحيحه .

قال أصحابنا : فأجاز رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المسألة حتى يصيب ما يسد حاجته فدل على ما ذكرناه .

قالوا : فإن كان عادته الإحتراف ، أعطي ما يشتري به حرفته ، او آلات حرفته ، قلّت قيمة ذلك أم كثرت ، ويكون قدره بحيث يحصل له من ربحه ما يفي بكفايته غالباً تقريباً ، ويختلف ذلك باختلاف الحرف ، والبلاد والازمان والاشخاص وقدرت جماعة من أصحابنا ذلك فقالوا :

من يبيع البقل يعطى خمسة دراهم أو عشرة .

ومن حرفته بيع الجوهر يعطي عشرة آلاف درهم مثلاً إذا لم يتأت له الكفاية بأقل منها .

ومن كان تاجراً أو خبازاً أو عطاراً أو صرافاً أعطي بنسبة ذلك .

ومن كان خياطاً أو نجاراً أو قصاراً أو قصاباً أو غيرهم من أهل الصنائع ، أعطي ما يشتري به الآلات التي تصلح لمثله .

وإن كان من أهل الضياع (المزارع) يعطى ما يشتري به ضيعة ، أو حصة في ضيعة تكفيه غلتها على الدوام .

قال أصحابنا : فإن لم يكن محترفاً ولا يحسن صنعة أصلاً ، ولا تجارة ولا شيئاً من أنواع المكاسب ، أعطي كفاية العمر الغالب لأمثاله في بلاده . ولا يتقدر بكفاية سنة[1] . ومثلوا لذلك بأن يعطى ما يشتري به عقاراً يكريه ويستغل منه كفايته .

هذا ما ذهب إليه الإمام الشافعي وأصحابه ، ومن ذهب مذهبه .. وقد روي عن الإمام أحمد أيضاً : أنه أجاز أن يأخذ الفقير تمام كفايته دائماً ، بمتجر أو آلة صنعة ، أو نحو ذلك ، واختار هذه الرواية بعض علماء مذهبه[2] .

فهذا كلام لم نقله من عند أنفسنا وإنما قاله أئمة الإسلام وفقهاؤه مستندين إلى نصوص الإسلام وقواعده وروحه العامة . وهو كلام نير يزاحم الشمس في وضوحه وإشراقه وإبانته عن هدف الإسلام في القضاء على الفقر وإغناء الفقير بالزكاة .

إذا أعطيتم فأغنوا :

وهذا المذهب هو الموافق لما جاء عن الفاروق عمر رضي الله عنه . فلقد رأينا السياسة العمرية الراشدة ، تقوم على هذا المبدأ الحكيم الذي أعلنه الفاروق رضي الله عنه (إذا أعطيتم فأغنوا)[3] . فكان عمر يعمل على إغناء الفقير بالزكاة ، لا مجرد سد جوعته بلقيمات ، أو إقالة عثرته بدريهمات .

جاء رجل يشكو إليه سوء الحال . فأعطاه ثلاثاً من الإبل ، وما ذلك إلا ليقيه من العيلة ، والإبل كانت أنفع أموالهم ، وأنفسها حينذاك . وقال للموظفين الذين

(١) المهذب وشرحه ، المجموع ج ٦ ص.١٩٣ — ١٩٥
(٢) الإنصاف ج ٣ ص ٣٣٨ .
(٣) (الأموال) لابي عبيد ٥٦٥ .

يعملون في توزيع الصدقات على المستحقين : كرروا عليهم الصدقة ، وإن راح على أحدهم مائة من الإبل) .

وقال معلناً عن سياسته تجاه الفقراء : (لأكررن عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل)[1] .

وقال عطاء الفقيه التابعي الجليل : (إذا أعطى الرجل زكاة ماله أهل بيت المسلمين فجبرهم فهو أحب إلي)[2] .

وهذا المذهب هو الذي رجحه الإمام الحجة في الفقه المالي في الإسلام : أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه القيم (الأموال) .

المذهب الثاني : يعطى كفاية سنة :

وهناك مذهب ثان قال به المالكية ، وجمهور الحنابلة ، وآخرون من الفقهاء : أن يعطى الفقير والمسكين من الزكاة ما تتم به كفايته وكفاية من يعوله لمدة سنة كاملة . ولم يرَ أصحاب هذا الرأي ضرورة لإعطائه كفاية العمر . كما لم يروا أن يعطى أقل من كفاية السنة .

وإنما حددت الكفاية بسنة لأنها ــ في العادة ــ أوسط ما يطلبه الفرد من ضمان العيش له ولأهله ، وفي هدي الرسول في ذلك أسوة حسنة ، فقد صح أنه ادخر لأهله قوت سنة[3] .

ولأن أموال الزكاة في غالبها حولية ، فلا داعي لإعطاء كفاية العمر ، وفي كل عام تأتي حصيلة جديدة من موارد الزكاة ، ينفق منها على المستحقين ، ويرى القائلون بهذا المذهب ؛ أن كفاية السنة ليس لها حد معلوم لا تتعداه من الدراهم أو الدنانير ، بل يصرف للمستحق كفاية سنته بالغة ما بلغت .

فإذا كانت كفاية السنة لا تتم إلا بإعطاء الفقير الواحد أكثر من نصاب من نقد ،

---

(١) الأموال ص ٥٦٥ .
(٢) نفسه/٥٦٦ .
(٣) متفق عليه .

أو حرث ، أو ما يشبه ذلك ، أعطي من الزكاة ذلك القدر ، وإن صار به غنياً ، لأنه حين الدفع إليه كان فقيراً مستحقاً[1] .

الزواج من تمام الكفاية :

ومن الرائع حقاً أن يلتفت علماء الإسلام إلى أن الطعام والشراب واللباس ليست هي حاجة الإنسان فحسب ، بل في الإنسان غرائز أخرى تدعوه وتلح عليه ، وتطالبه بحقها من الإشباع ، ومن ذلك غريزة النوع ، أو الجنس التي جعلها الله موطأ يسوق الإنسان إلى تحقيق الإرادة الإلهية في عمارة الأرض ، وبقاء هذا النوع الإنساني فيها إلى ما شاء الله ، والإسلام لا يصادر هذه الغريزة ، وإنما ينظمها ويضع الحدود لسيرها وفق أمر الله .

وإذا كان الإسلام قد نهى عن التبتل والاختصاء ، وكل لون من ألوان مصادرة الغريزة ، وأمر بالزواج كل قادر عليه ، مستطيع لمؤنته (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) فلا غرو أن يشرع معونة الراغب في الزواج ممن عجزوا عن تكاليفه المادية من المهر ونحوه .

ولا عجب إذا قال العلماء : إن من تمام الكفاية ما يأخذه الفقير ليتزوج به إذا لم تكن له زوجة واحتاج للنكاح[2] .

وقد روى أبو عبيد أن عمر زوج ابنه عاصم وانفق عليه شهراً من مال الله[3] .

وقد أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز من ينادي في الناس كل يوم : أين المساكين ؟ أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ (أي الذين يريدون الزواج) أين اليتامى حتى أغني كلاً من هؤلاء[4] .

والأصل في هذا ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ جاءه رجل فقال — : (إني تزوجت امرأة من الأنصار . فقال : على كم تزوجتها .؟ قال : على أربع أواق .

---

(١) شرح الخرشي على متن خليل جـ. ص ٢١٥ .
(٢) حاشية الروض المربع جـ ١ ص ٤٠٠ وانظرها من مطالب أولي النهى جـ ٢ ص ١٤٧ .
(٣) الأموال ص ٢٢٧ .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ٢٠٠

فقال النبي ﷺ عـلى أربع أواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل . ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب فيه)[١] . والحديث دليل على أن إعطاء النبي لهم في مثل هذه الحال ، كان معروفاً لهم ، ولهذا قال له ما عندنا ما نعطيك ، ومع هذا حاول علاج حالته بوسيلة أخرى .

كتب العلم من الكفاية :

والإسلام دين يكرم العقل ، ويدعو الى العلم ، ويرفع من مكانة العلماء . ويعد العلم مفتاح الإيمان ، ودليل العمل ، ولا يعتد بإيمان المقلد (مع قدرته على النظر) ولا بعبادة الجاهل ، ويقول القرآن في صراحة : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » ويقول في التفريق بين الجاهل والعالم ، وبين الجهل والعلم : « وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور » ويقول الرسول : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) . وليس العلم المطلوب محصوراً في علم الدين وحده ، بل كل علم نافع يحتاج إليه المسلمون في دنياهم . فإن تعلمه فرض كفاية ، كما قرر الغزالي والشاطبي وغيرهما من العلماء .

فلا عجب أن رأينا فقهاء الإسلام يقررون في أحكام الزكاة أن يعطى منها المتفرغ للعلم على حـين يحرم منها المتفرغ للعبادة . ذلك أن العبادة في الإسلام لا تحتاج لتفرغ كما يحتاج العلم والتخصص فيه . كما أن عبادة المتعبد لنفسه ، أما علم المتعلم فله ولسائر الناس[٢] .

ولم يكتف الإسلام بذلك بل قال فقهاؤه : يجوز للفقير الأخذ من الزكاة لشراء كتب يحتاجها من كتب العلم التي لا بد منها لمصلحة دينه ودنياه[٣] .

أي المذهبين أولى بالاتباع ؟ :

وبعد عرض هذين المذهبين من مذاهب الفقه الإسلامي : مذهب من يرى إعطاء

---

(١) نيل الأوطار ج ٦ ص ٣١٦ والأواق جمع أوقية وقد كانت تساوي حينذاك ٤٠ درهما وكانت الشاة خمس دراهم أو عشرة فهذا القدر كثير على مثل هذا الرجل الذي جاء يطلب المعونة في مهره .

(٢) المجموع ج ٦ ص ١٩٠ .

(٣) أنظر الإنصاف في الفقه الحنبلي ج ٣ ص ١٦٥ ، ٢١٨ .

الفقير كفاية العمر كله مرة واحدة . ومذهب من يرى إعطاءه كفاية سنة كاملة فحسب ، بصفة دورية ، فأي هذين المذهبين أحق أن يتبع ، ولكل منهما وجهته ودليله ؟ وخاصة إذا أردنا أن تقوم الحكومة بأمر الزكاة ؟.

والذي أختاره أن لكل من المذهبين مجاله الذي يعمل به .

ذلك ان الفقراء والمساكين نوعان :

نوع يستطيع أن يعمل ويكتسب ويكفي نفسه بنفسه ، كالصانع والتاجر والزارع . ولكن ينقصه أدوات الصنعة أو رأس مال التجارة ، أو الضيعة وآلات الحرث والسقي .. فالواجب لمثل هذا أن يعطى من الزكاة ما يمكنه من اكتساب كفاية العمر ، وعدم الاحتياج إلى الزكاة مرة أخرى ، وفي عصرنا هذا يمكن تنفيذ ذلك عن طريق بناء مصانع ومنشآت من مال الزكاة تملك للفقراء القادرين على العمل .

والنوع الآخر عاجز عن الكسب كالزَّمِن والأعمى والشيخ الهرم والأرملة والطفل ونحوهم ، فهؤلاء لا بأس أن يعطى الواحد منهم كفاية السنة ، أي يعطى راتباً دورياً يتقاضاه كل عام ، بل يصح أن يوزع على أشهر العام إن خيف من المستحق الإسراف ، وبعثرة المال في غير حاجة ماسة ، وهذا هو الذي ينبغي اتباعه في عصرنا ، كما هو الشأن في رواتب الموظفين .

والعجيب أنني بعد أن أخذت هذا التقسيم وجدته منصوصاً عليه في بعض كتب الحنابلة . فقد قال في غاية المنتهى وشرحه ، بعد أن ذكر قول الإمام أحمد في صاحب العقار والضيعة التي تغل عشرة آلاف أو أكثر ولا تكفيه : إن له أن يأخذ من الزكاة ما يكفيه — قال : وعليه فيعطى محترف ثمن آلة حرفته وإن كثرت ، وتاجر يعطى رأس مال يكفيه . ويعطى غيرهما من فقير ومسكين تمام كفايتهما مع كفاية عائلتهما سنة ، لتكرر الزكاة بتكرر الحول فيعطى ما يكفيه إلى مثله[1] .

مستوى لائق للمعيشة :

ومن هنا يتبين لنا أن الهدف من الزكاة ليس إعطاء الفقير دريهمات معدودة ، وإنما الهدف تحقيق مستوى لائق للمعيشة ، لائق به بوصفه إنساناً كرمه الله ، واستخلفه

(١) مطالب أولي النهى ج ٢ ص ١٣٦

في الأرض ، ولائق به بوصفه مسلماً ينتسب إلى دين العدل والإحسان ، وينتمي إلى خير أمة أخرجت للناس .

وأدنى ما يتحقق به هذا المستوى الإنساني أن يتهيأ له ولعائلته طعام وشراب ملائم وكسوة للشتاء وللصيف ، ومسكن يليق بحاله ، وهذا ما ذكره ابن حزم في (المحلى) وذكره النووي في (المجموع) وذكره كثيرون من العلماء .

قال النووي — في تحديد الكفاية التي بدونها يصبح الإنسان فقيراً — فضلاً عن المسكين الذي هو عنده أحسن حالاً من الفقير — قال : المعتبر .. المطعم والملبس والمسكن وسائر ما لا بد له منه ، على ما يليق بحاله ، بغير إسراف ولا إقتار لنفس الشخص ولمن هو في نفقته[1]

ومما لا بد للمرء منه في عصرنا : أن يتعلم أولاده من أحكام دينهم ، وثقافة عصرهم ، ما يزيل عنهم ظلمات الجهل ، وييسر لهم سبيل الحياة الكريمة ، ويعينهم على أداء واجباتهم الدينية والدنيوية .

وقد ذكر الفقهاء في بحث الحاجات الأصلية للفرد المسلم أن منها : دفع الجهل عنه فإنه موت أدبي ، وهلاك معنوي ، ومما لا بد للمرء منه في عصرنا ، أن يتيسر له سبيل العلاج إذا مرض هو أو أحد أفراد عائلته ، ولا يترك للمرض يفترسه ويفتك به ، فهذا قتل للنفس ، وإلقاء باليد إلى التهلكة ، وفي الحديث (يا عباد الله تداووا فإن الذي خلق الداء خلق الدواء[2]) وقال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »[3] « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما »[4] .

وفي الصحيح (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) وإذا ترك المسلم أباه ، أو ترك المجتمع المسلم فرداً منه فريسة للمرض دون أن يعالجه ، فقد أسلمه وخذله بلا شك ، والذي ينبغي الإلتفات إليه ، أن مستوى المعيشة للشخص لا يمكن تحديده تحديداً جامداً صارماً ، لأنه يختلف باختلاف العصور والبيئات وباختلاف ثروة كل أمة ومقدار دخلها القومي .

---

(١) المجموع جـ ٦ .
(٢) البخاري .
(٣) سورة البقرة/١٩٥ .
(٤) سورة النساء/٢٨ .

وربّ شيء يكون كمالياً في عصر أو أمة ، يصبح حاجياً أو ضرورياً في عصر آخر أو أمة أخرى .

معونة دائمة منتظمة :

إذا عرفنا أن هدف الإسلام من الزكاة – بالنسبة للفقير والمسكين الذي لا يحسن حرفة ، ولا يقدر على عمل – هو كفالة مستوى معيشي ملائم له ولعائلته ، وأنه يعطى تمام كفايته لمدة سنة كاملة ، فلنضف إلى ذلك أن الزكاة بالنسبة لهذا الصنف من المستحقين معونة دائمة منتظمة ، حتّى يزول الفقر بالغنى ، ويزول العجز بالقدرة ، أو تزول البطالة بالكسب وهكذا .

ولنتأمل في هذه القصة الواقعية التي حكاها لنا أبو عبيد بسنده :

(بينما عمر نصف النهار قائل في ظل شجرة وإذا أعرابية فتوسمت الناس فجاءته فقالت : إني امرأة مسكينة ولي بنون وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان بعث محمد بن مسلمة ساعياً – تعني جابياً وموزعاً للصدقة – فلم يعطنا فلعلك – يرحمك الله – أن تشفع لنا إليه . قال : فصاح بـ(يرفأ) – خادمه – أن ادع لي محمد بن مسلمة فقالت إنه أنجح لحاجتي أن تقوم معي إليه .

فقال : إنه سيفعل – إن شاء الله .

فجاءه (يرفأ) : فقال : أجب .. فجاء فقال : – السلام عليكم يا أمير المؤمنين : فاستحيت المرأة . فقال عمر : – والله ما آلو أن أختار خياركم . كيف أنت قائل إذا سألك الله – عز وجل – عن هذه ؟ فدمعت عينا حمد ثم قال عمر : – إن الله بعث إلينا نبيه – صلى الله عليه وسلم – فصدقناه واتبعناه ، فعمل بما أمره الله به ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين ، حتّى قبضه الله على ذلك . ثم استخلف الله أبا بكر فعمل بسنته حتّى قبضه الله ، ثم استخلفني فلم آل أن أختار خياركم أن بعثتك فأد إليها صدقة العام وعام أول ، وما أدري لعلي لا أبعثك . ثم دعا لها بجمل فأعطاها دقيقاً وزيتاً وقال : – خذي هذا حتّى تلحقينا بخيبر فإنا نريدها فأتته بخيبر فدعا لها بجملين آخرين وقال : – خذي هذا فإن فيه بلاغاً حتّى يأتيكم محمد بن مسلمة فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام وعام أول[1] .

---

(١) الأموال ص ٥٩٩ .

علام تدل هذه القصة بأحداثها وحوارها ؟.

إنها تدل على مبادىء ومعان كثيرة وسامية حقاً .

تدل على مدى شعور الحاكم المسلم بمسئوليته عن كل فرد يعيش في ظل حكم الإسلام .

وتدل على مدى شعور الأفراد أنفسهم بحقهم في عيشة لائقة تهيئها لهم الدولة المسلمة . وتدل على أن الزكاة كانت الدعامة الأولى لبناء التكافل المعيشي في المجتمع . وتدل على أنها كانت معونة منتظمة مستمرة ، إذا لم تصل لصاحبها ، فإن من حقه أن يتظلم ويشكو .

وتدل على أن السياسة العمرية الراشدة ، هي إعطاء ما يكفي ويغني ، فقد أعطى المرأة أولاً جملاً محملاً بالدقيق والزيت ، ثم ألحق به جملين آخرين ، وجعل هذا كله عطاء مؤقتاً حتى يعطيها محمد بن مسلمة حقها من العامين : الماضي والحاضر .

وتدل بعد ذلك كله على أن عمر رضي الله عنه لم يكن في ذلك مبتدعاً ، بل كان متبعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولخليفته أبي بكر رضي الله عنه .

سياسة الإسلام في توزيع مال الزكاة :

للاسلام في توزيع الزكاة سياسة حكيمة عادلة ، تتفق وأحدث ما ارتقى إليه تطور الأنظمة السياسية والمالية في عصرنا الذي يخيل لبعض الناس أن كل ما يأتي به من النظم والتشريعات جديد مبتكر . . فقد عرف الناس في عصور الجاهلية ، وفي عهود الظلام في أوربا ، كيف كانت تجبي الضرائب والمكوس من الفلاحين والصناع والمحترفين والتجار وغيرهم ، ممن يكسب رزقه بكد اليمين ، وعرق الجبين ، وسهر الليل ، وتعب النهار ، لتذهب هذه الأموال الممزوجة بالعرق والدم والدمع — إلى الإمبراطور ، أو الملك ، أو الأمير ، أو السلطان في عاصمته الزاهية . ينفقها في توطيد عرشه ومظاهر أبهته ، والإغراق على من حوله من الحواشي ، والأنصار والأتباع . فإن فضل فضلٌ فلتوسيع المدينة وتجميلها ، واسترضاء أهلها . فإن فضل شيء فلأقرب المدن إلى جنابه العالي ، وهو في ذلك كله غافل عن تلك القرى الكادحة المتعبة ، والديار العاملة النائية التي منها جبيت هذه المكوس ، وأخذت هذه الأموال .

فلما جاء الإسلام وأمر المسلمين بإيتاء الزكاة ، كما أمر ولي الأمر بأخذ هذه

الضريبة تطهيراً وتزكية لأصحاب الأموال . وإنقاذاً للفئات المحتاجة من هوان الفقر وذل الحاجة ، حتى يسود التكافل والعدل أبناء المجتمع المسلم قاطبة .

وكما جاء الإسلام بذلك ، وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ولاته وسعاته إلى الأقاليم والبلدان بجمع الزكاة ، وأمرهم أن يأخذوا الزكاة من أغنياء البلد ثم يردوها على فقرائه .

ولقد مر بنا حديث معاذ بن جبل — المتفق عليه — أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله إلى اليمن ، وأمره أن يأخذ الزكاة من أغنيائهم ويردها على فقرائهم . وكذلك نفذ معاذ رضي الله عنه وصية النبي صلى الله عليه وسلم . ففرق زكاة أهل اليمن في المستحقين من أهل اليمن . بل فرق زكاة كل إقليم في المحتاجين منه خاصة . وكتب بذلك لهم كتاباً كان فيه : من انتقل من مخلاف عشيرته (يعني الذي فيه أرضه وماله) فصدقته وعشره في مخلاف عشيرته[1] .

وعن أبي جحيفة قال قدم علينا مصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ الصدقة من أغنيائنا فجعلها في فقرائنا فكنت غلاماً يتيماً . فأعطاني منها قلوصاً (ناقة) .

وفي الصحيح أن أعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أسئلة منها (بالله الذي أرسلك آلله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ قال : نعم) وروى أبو عبيدة عن عمر رضي الله عنه أنه قال في وصيته : أوصي الخليفة من بعدي بكذا ، وأوصيه بكذا ، وأوصيه بالأعراب خيراً ؛ فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشي أموالهم ، فيرده في فقرائهم[2] .

وكذلك كان العمل في حياة عمر ، أن يفرق المال حيث جمع ، ويعود السعاة إلى المدينة لا يحملون شيئاً غير أحلاسهم التي يتلفعون بها . وعصيهم التي يتوكأون عليها .

فعن سعيد بن المسيب أن عمر بعث معاذاً ساعياً على بني كلاب أو على بني سعد ابن ذبيان فقسم فيهم حتى لم يدع شيئاً حتى جاء بحلسه الذي خرج به على رقبته»[3] .

---

(١) رواه عنه طاووس بإسناد صحيح أخرجه سعيد بن منصور وأخرجه نحوه الأثرم نيل الأوطار جـ ٢ ص ١٦١ .

(٢) الاموال ص ٥٩٥ .

(٣) الاموال ص ٥٩٦

وقال آخر من أصحاب يعلى بن أمية وممن استعملهم عمر في الزكاة : كنا نخرج لنأخذ الصدقة فما نرجع إلا بسياطنا[1] .

وعلى هذا النهج الذي اختطه الرسول وخلفاؤه الراشدون سار أئمة العدل من الحكام . وأئمة الفتوى من فقهاء الصحابة والتابعين .

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه ولي عاملاً على الصدقة من قبل زياد ابن أبيه ، أو بعض الأمراء في عهد بني أمية ، فلما رجع قال له : أين المال ؟. قال : وللمال أرسلتني ؟.. أخذناه من حيث كنا نأخذه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعناه حيث كنا نضعه[2]

قال أبو عبيد : فكل هذه الأحاديث تثبت أن كل قوم أولى بصدقتهم حتى يستغنوا عنها ، ونرى استحقاقهم ذلك دون غيرهم ، إنما جاءت به السنة لحرمة الجوار ، وقرب دارهم من دار الاغنياء[3] .

فإن جُهل المصدق ، فحمل الصدقة من بلد إلى آخر سواه ، وبأهلها فقر إليها ردها الإمام إليهم كما فعل عمر بن عبد العزيز ، وكما أفتى به سعيد بن جبير[4] .

إلا أن إبراهيم النخعي ، والحسن البصري ، رخصا في الرجل يؤثر بها قرابته . قال أبو عبيد : وإنما يجوز هذا للإنسان في خاصة ماله . فأما صدقات العوام (جمهور الأمة) التي تليها الأئمة — أولو الأمر — فلا .

ومثل قولهما حديث أبي العالية أنه كان يحمل زكاته إلى المدينة . قال أبو عبيد : ولا نراه خص بها إلا أقاربه أو مواليه[5] .

وإذا كان الأصل المتفق عليه ، أن الزكاة تفرق في بلد المال الذي وجبت فيه ، فإن من المتفق عليه كذلك أن أهل هذا البلد إذا استغنوا عن الزكاة كلها أو بعضها لانعدام الأصناف المستحقة ، أو لقلة عددها ، ووفرة مال الزكاة ، جاز نقلها إلى

---

(١) الأموال ص ٥٩٧
(٢) رواه أبو داود وابن ماجه . أنظر نيل الأوطار ج ٤ ص ١٦١ .
(٣) الأموال ص ٥٩٨ .
(٤) الأموال ص ٥٩٨ .
(٥) الأموال ص ٥٩٥ .

غيرهم أو إلى الإمام ليتصرف فيها حسب الحاجة ، أو إلى أقرب البلاد إليهم .

ويعجبني ما قاله الإمام مالك في هذا : لا يجوز نقل الزكاة إلا أن يقع بأهل بلد حاجة . فنقلها الإمام إليهم على سبيل النظر والاجتهاد[1] .

وعن سحنون أنه قال : ولو بلغ الإمام ، أن في بعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة المستحقة لغيره إليه ، فإن الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها عن من ليس بمحتاج . والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه)[2] اﻫ .

٦ ــ وقد يتساءل إنسان بعد هذا ، وهل هذه الزكوات تكفي للقيام بكل ما تقدم . أو يقال : هل الزكاة قادرة على حل كل المشاكل الإقتصادية لمجتمع .

والجواب : أننا لم نقل إن الزكاة وحدها هي كل شيء في نظام المال في الإسلام ، بل هي الركن فيه . هذا الركن مع نظام المال في الإسلام كما سنراه ، لا شك هو الحل الكامل لكل مشاكل الإقتصاد في المجتمع الإسلامي .

أما الزكاة فإنها بلا شك تحل كل مشاكل الأفراد المالية ، إذا وجدت العقلية العملية التي تعرف كيف تطبق أحكام الإسلام على واقع الحياة ، إذ أن واردات الزكاة من الضخامة بحيث لا تقف أمامها مشكلة . مع ملاحظة أن نظام الزكاة عندما يعالج مشكلة إنسان يحلها له جذرياً ، بحيث يصبح هذا الإنسان دافع زكاة بعد ذلك ، ولتوضيح هذه الملاحظة نذكر هذا المثال :

لعل أهم مشاكل الإنسان المالية تدور حول الزواج والسكن والبطالة والعجز .. فإذا ما أردنا أن نحل هذه المشاكل بواسطة نظام الزكاة فإنه يمكننا أن نفعل ما يلي :

١ ــ بالنسبة للعاجزين نطبق عليهم أحكام مذهب الشافعية بأن نشتري لكل منهم عقاراً يكفيه وأهله ريعه ، فلو أننا في عام حللنا مشكلة العاجزين من مال الزكاة ، فإن العام القادم لن تكون أمامنا مشاكل عجزة كثيرين ، فبالاستطاعة أن نفرغ مال الزكاة لحل مشكلة أخرى مثلاً هي مشكلة البطالة .

٢ ــ بالنسبة لمشكلة البطالة إذا أخذنا برأي الشافعية في الموضوع فإننا نستطيع

---

(١) المرجع السابق

(٢) المدونه الكبرى ج ١ ص ٢٤٦ .

بعد عملية إحصاء للعمال العاطلين ، ومعرفة إمكانية كل منهم أن نفعل ما يلي :

من يستطيع عملاً معيناً منهم ولكنه ينقصه رأسمال ، يعطى له بالقدر الذي يقيم عمله .

والآخرون يدربون على أعمـــال ، ثم يعطى لهم رأسمال يساعدهم على إقامة أعمالهم .

أو تستطيع الدولة بعد دراسة إقتصادية ترى معها حاجتها إلى نوع معين من الصناعة والإنتاج ، أن تشتري معامل وتملكها لهؤلاء العمال ، مع قيامها بالترتيبات الإدارية والتنظيمية التي تجعل المعمل يسير ضمن إطار سليم ، وهذا في الحقيقة تطبيق لرأي الشافعية في إعطاء العامل رأسمال يشتري به آلة لعمله الذي يعمل به .

فإذا ما حلت معنا مشكلة البطالة من مال الزكاة خلال عام أو عامين أو ثلاثة ، فإن هذه المشكلة لن تصادفنا بعد ذلك بشكل جماعي ، فنستطيع بعد ذلك أن نفرغ مال الزكاة مثلاً لحل مشكلة السكن والزواج ، بأن يعلن أن مال الزكاة كفيل لكل من يعقد عقد الزواج أو يشتري لنفسه داراً بأن يفي عنه دينه إذا قدم الوثائق اللازمة وهكذا .

والمقصود من كلامنا هذا ، أننا نستطيع أن نحل مشاكل الأفراد الاقتصادية بواسطة نظام الزكاة بشكل جذري لا يلاحقنا بعد ذلك ، مما يؤكد بعدها أنه يأتي يوم من الأيام لا يبقى إنسان بحاجة إلى مال ، كما جرى واقعياً في التاريخ .

وقد يتساءل متسائل وماذا نفعل بالزكاة إذا اكتفى الناس . والجواب : أننا في مثل هذه الحالة نتوسع في كفالة أنواع من الناس . فمثلا يمكن أن ننفق هذه الزكوات على كل طالب بلغ ويريد أن يتابع دراسته . فهو معتبر فقيراً شرعاً ما دام عمله هو تحصيل علم يخدم به الأمة ، وعلى هذا فيمكن أن يجرى على كل طالب راتب حتى ينهي دراسته ، فإذا ما أنهاها يعطى المال اللازم لإقامة العمل الذي أهلته له دراسته ، ويمكن ويمكن ومن جملة ما يمكن : أن نفرغ ناسا للدعوة إلى الله من مال الزكاة يجوبون العالم كله دعاة إلى الله فهذا مما يدخل في قوله تعالى « وفي سبيل الله » .

وأخيراً يمكن نقلها إلى مسلمين آخرين في غير أرضنا يعانون من قلة المال ، وقد ذكرنا هذا من أجل توضيح أن بالزكاة حلاً لكل المشاكل بشكل كامل .

٧ – ذكرنا في البداية أن الزكاة من مهمات الدولة الإسلامية وهي عنوان عليها ، والدولة التي لا تأخذ الزكاة وتضعها في مواضعها ليست إسلامية ، فلا يمكن أبدا أن نعطي صفة الدولة المسلمة لدولة لا تقيم الزكاة . كيف وقد قال الله « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

ولكن لا يعني هذا طبعا أنه في حالة عدم وجود الدولة المسلمة أن المسلم لا يطالب بالزكاة ، إنه في حالة فقدان الدولة المسلمة ، فإن على المسلم المالك لنصاب الزكاة أن يدفع الزكاة لمستحقيها ، وحبذا لو كان المسلم الذي يدفع الزكاة ذا بصر نافذ ، يعرف الأنفع في الزكاة فيصرفها فيه ، فكثيراً ما تعطل مرافق تخدم الإسلام والمسلمين لعدم وجود المال الذي يمكن أن يؤدى لها من الزكاة ، وكثيراً ما تعطى الزكوات لناس حكم الإسلام فيهم أنهم مرتدون لا يجوز أن تعطى لهم الزكاة .

٨ – ولعل بعض الناس بعد كل ما قدمناه ، يشكون بأن من واجب الدولة المسلمة تنظيم قضية الزكاة ، ولذلك فقد آثرنا أن نؤكد هذا الموضوع بنقل ما كتبه الأستاذ القرضاوي في هذا :

يقول تحت عنوان (مسئولية الدولة عن شئون الزكاة) : –

الزكاة – كما تبين لنا – حق ثابت مقرر « فريضة من الله » ولكنه ليس حقــا موكولا للأفراد يؤديه منهم من يرجو الله والدار الآخرة ، ويدعه من ضعف يقينه بالآخرة ، وقل نصيبه من خشية الله . كلا : إنها ليست إحسانا فرديا وإنما هي تنظيم إجتماعي تشرف عليه الدولة ، ويتولاه جهاز إداري منظم ، يقوم على هذه الفريضة الفذة جباية ممن تجب عليهم وصرفاً إلى من تجب لهم .

دلالة القرآن على ذلك :

وأبرز دليل على ذلك أن الله تعالى ذكر هؤلاء القائمين على أمر الزكاة جمعــا وتفريقا ، وسماهم العاملين عليها ، وجعل لهم سهما في أموال الزكاة نفسها ، ولم يحوجهم إلى أخذ رواتبهم من باب آخر تأمينا لمعاشهم ، وضمانا لحسن قيامهم بعملهم

قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم[1] » وليس بعد هذا النص الصريح في كتاب الله ، مجال لترخص مترخص ، أو تأول متأول ، أو زعم زاعم ، وخاصة بعد أن جعلت الآية هذه الأصناف وتحديدها ، فريضة من الله ، ومن ذا الذي يجرؤ على تعطيل فريضة فرضها الله ؟ . وقال تعالى في نفس السورة التي ذكر فيها مصارف الزكاة « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم[2] » وقد ذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف ، إلى أن المراد بالصدقة في هذه الآية الزكاة ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل من يلي أمر المسلمين من بعد .

السنة النبوية :

وفي حديث ابن عباس المشهور في الصحيحين وغيرهما ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم — حين بعث معاذا إلى اليمن قال له : أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. رواه الجماعة عن ابن عباس .

وشاهدنا من هذا الحديث هو قوله عليه السلام في تلك الصدقة المفروضة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فبين الحديث أن الشأن فيها أن يأخذها آخذ ، ويردها راد ، لا أن تترك لاختيار من وجبت عليه .

قال شيخ الإسلام الحافظ بن حجر استدل به على أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها ، إما بنفسه ، وإما بنائبه ، فمن امتنع منهم أخذت منه قهرا[3] ونقلها الشوكاني بنصها في نيل الأوطار[4] .

وهذا الذي جاءت به السنة القولية ، أكدته السنة العملية ، والواقع التاريخي الذي

---

(١) سورة التوبة/٦٠

(٢) سورة التوبة/١٠٣

(٣) فتح الباري للحافظ بن حجر جـ ٣ ص ٢٣١ في شرح حديث وصية معاذ من صحيح البخاري — كتاب الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد إلى الفقراء حيث كانوا .

(٤) نيل الأوطار جـ ٤ ص ١٢٤ مصطفى الحلبي — طبعة ثانية

جرى عليه العمل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم — والخلفاء الراشدين من بعده .

ولهذا قال العلماء : يجب على الإمام أن يبعث السعاة لأخذ الصدقة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده كانوا يبعثون السعاة ، ولأن في الناس من يملك المال ، ولا يعرف ما يجب عليه ، ومنهم من يبخل فوجب أن يبعث من يأخذ(١) .

أما أرباب الأموال من الشعب ، فيجب عليهم أن يساعدوا هؤلاء السعاة على أداء مهمتهم ، ويؤدوا إليهم ما وجب عليهم ، ولا يكتموهم شيئاً من أموال زكاتهم . هذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أمر به أصحابه .

عن جابر بن عتيك رضي الله عنه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : — سيأتيكم ركب مبغضون فإذا أتوكم فرحبوا بهم ، وخلوا بينهم وبين ما يبتغون فإن عدلوا فلأنفسهم ، وإن ظلموا فعليها فإن تمام زكاتكم رضاهم ، وليدعوا لكم) . وإنما كانوا مبغضين لأنهم يطلبون المال والإنسان شحيح به فهو شقيق الروح .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم — إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ؟ قال : نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها إلى الله ورسوله ولك أجرها وإثمها على من بدلها(٢) .

فتاوى الصحابة :

وعن سهل بن أبي صالح عن أبيه قال : اجتمع عندي نفقة فيها صدقة — يعني بلغت نصاب الزكاة فسألت سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري أن أقسمها أو أدفعها إلى السلطان فأمروني جميعا أن أدفعها إلى السلطان ، ما اختلف علي منهم أحد وفي رواية فقلت لهم : هذا السلطان يفعل ما ترون (كان هذا في عهد بني أمية) فأدفع إليهم زكاتي ؟ فقالوا كلهم : نعم فادفعها رواها الإمام سعيد بن منصور في مسنده(٢) .

وعن ابن عمر — رضي الله عنهما — قال : ادفعوا صدقاتكم إلى من ولاه الله أمركم فمن بر فلنفسه ومن أثم فعليها(٢) . رواه البيهقي بإسناد صحيح أو حسن .

---

(١) المجموع جـ ٦ ص ١٦٨

(٢) نسبه في المنتقى إلى أحمد — المرجع السابق .

وعن المغيرة بن شعبة أنه قال لمولى له وهو على أمواله بالطائف — كيف تصنع في صدقة مالي ؟ .

قال : منها ما أتصدق به ، ومنها ما أدفع إلى السلطان .

قال : وفيم أنت من ذلك ؟ (أنكر عليه أن يفرقها بنفسه) .

فقال : إنهم يشترون بها الأرض ويتزوجون بها النساء .

فقال : إدفعها إليهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أمرنا أن ندفعها اليهم — رواه البيهقي في السنن الكبرى[1] .

هذه الأحاديث الصريحة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهذه الفتاوى الحاسمه عن صحابته الكرام ، تجعلنا ندرك بل نوقن ، أن الأصل في شريعة الإسلام أن تتولى الحكومة المسلمة أمر الزكاة ، فتجبيها من أربابها ، وتصرفها على مستحقيها ، وأن على الأمة أن تعاون أولياء الأمر في ذلك ، إقراراً للنظام ، وإرساء لدعائم الإسلام ، وتقوية لبيت مال المسلمين .

من أسرار هذا التشريع :

وربما قال قائل : إن الشأن في الأديان أن توقظ الضمائر ، وتحيي القلوب ، وتضع أمام أنظار الناس مثلا أعلى ، ثم تحاول أن تقودهم بزمام الشوق إلى مثوبة الله ، أو تسوقهم بسوط الخشية من عقابه ، تاركة لأصحاب السلطان أن يحددوا ، وينظموا ، ويطالبوا ، ويعاقبوا ، فهذا من شأن السلطة السياسية وليس من مهمة التوجيه الديني .

والجواب إن هذا قد يصح في أديان أخرى ، ولكن لا يصح أبدا في الإسلام ، فإنه عقيدة ونظام ، وخلق وقانون ، وقرآن وسلطان .

ليس الإنسان مشطوراً في الإسلام شطرين : شطراً منه للدين ، وشطراً آخر للدنيا ، وليست الحياة مقسومة قسمين : بعضها لقيصر ، وبعضها لله ، وإنما الحياة كلها ، والإنسان كله ، والكون كله لله الواحد القهار . جاء الإسلام رسالة شاملة هادية ، فجعلت من هدفها تحرير الفرد وتكريمه ، وترفيه المجتمع واسعاده ، وتوجيه الشعوب

(١) هذه الأحاديث ذكرها الإمام النووي في المجموع جـ ٦ ص ١٦٢ — ١٦٤

والحكومات الى الحق والخير ، ودعوة البشرية كلها إلى الله : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أربابا من دون الله .

وفي هذا الإطار جاء نظام الزكاة ، فلم تُجعل من شئون الفرد ، بل من وظيفة الحكومة الإسلامية . فوكل الإسلام جبايتها وتوزيعها على مستحقيها إلى الدولة ، لا إلى ضمائر الأفراد وحدها . وذلك لجملة أسباب لا يحسن بشريعة الإسلام أن تهملها :

أولا : إن كثيرا من الأفراد قد تموت ضمائرهم ، أو يصيبها السقم والهزال ، بسبب حب الدنيا ، أو حب الذات ، فلا ضمان للفقير إذا ترك حقه لمثل هؤلاء .

ثانيا : إن في أخذ الفقير حقه من الحكومة ، لا من الشخص الغني ، حفظا لكرامته ، وصيانة لماء وجهه أن يراق بالسؤال ، ورعاية لمشاعره أن يجرحها المن والأذى .

ثالثا : إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى ، فقد ينتبه أكثر من غني لإعطاء فقير واحد على حين يغفل عن آخر فلا يفطن له أحد ، وربما كان أشد فقرا .

رابعا : إن صرف الزكاة ليس مقصورا على الأفراد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . فمن الجهات التي تصرف فيها الزكاة مصالح عامة للمسلمين لا يقدرها الافراد ، وإنما يقدرها أولو الأمر وأهل الشورى في الجماعة المسلمة مثل : إعطاء المؤلفة قلوبهم ، وإعداد العدة والعدد للجهاد في سبيل الله ، وتجهيز الدعاة لتبليغ رسالة الإسلام في العالمين .....

بيت مال الزكاة :

ومن هنا نعلم أن الأساس في النظام الإسلامي أن يكون للزكاة ميزانية خاصة ، وحصيلة قائمة بذاتها ، ينفق منها على مصارفها المحدودة ، وهي مصارف إنسانية وإسلامية خاصة ، ولا تضم إلى ميزانية الدولة العامة الكبيرة ، التي تتسع لمشروعات مختلفة ، وتصرف في مصارف شتى .

ولقد أشارت آية مصارف الزكاة من سورة التوبة إلى هذا المبدأ ، حين قررت أن العاملين عليها يأخذون مرتباتهم منها . فمعنى هذا أن يكون لها ميزانية مستقلة ، وينفق على إدارتها منها ، وذلك ما فهمه المسلمون من أقدم العصور ؛ فقد جعلوا للزكاة بيت

مال قائماً بذاته ، إذ قسموا بيوت المال في الدولة الإسلامية إلى أربعة أقسام :

أولها : بيت المال الخاص بالزكاة ، وفيه تكون حصيلتها ونظام العمل على جمعها ، وتوزيعها على مصارفها حسب شدة الحاجة .

الثاني : بيت المال الخاص بحصيلة الجزية والخراج . (والجزية) مال يؤخذ من غير المسلمين الذين يقيمون بين المسلمين ، على أن يكون لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، وهو يؤخذ منهم في مقابل ما يؤخذ من المسلمين في الزكاة وغيرها من الصدقات الأخرى ، كصدقة الفطر ، وكفارات الذنوب ، والتقصير في العبادات ، وفي مقابل حمايتهم ، والدفاع عنهم ، دون أن يكلفوا المشاركة في الخدمة العسكرية ، والخراج ضريبة سنوية تفرض على رقبة الأرض حسب طاقتها ، كالذي فرضه عمر على سواد العراق وغيره .

الثالث : بيت المال الخاص بالغنائم والركاز (عند من يقول إنه ليس من الزكاة ولا يصرف في مصارفها) .

الرابع : بيت المال الخاص بالضوائع وهي الأموال التي لا يعرف لها مالك ، ومنها الأموال التي لا وارث لها)[1] . ا.هـ

٩ ـ ومن العجيب أن بعض الناس كفروا بالإسلام ، ولم يعودوا مسلمين ، أو استخفوا به ، لدرجة أنهم بدلا من أن يحاربوا من لا يقيمه ، يدافعون عن تصرفاته الباطلة ، ولو بتهديم الإسلام .

أمثال هؤلاء يقولون بعد سماعهم أمثال ما تقدم، وهل تستطيع الدولة أن تجبي الزكاة ؟ هم يسألون هذا السؤال في عصرنا الذي تقوم به الدول بفرض ضرائب الدخل ، والضريبة التصاعدية وغيرها وغيرها ، ولا تعجزها جبايتها ؛ ينسون هذا كله ، ليقرروا بكل غباء ، أن الدولة لا تستطيع جباية الزكاة جباية ممكنة ، لذلك كان لا بد أن نقرر بعض القضايا :

---

(١) انظر المبسوط جـ٣ ص ١٨ والبدائع جـ٣ ص ٩٨ ، ٦٩

١ ـ باستطاعة الدولة أن تخصص شهرا في السنة لجباية زكاة النقود والعروض والسوائم .

أما السوائم فما أسهل رؤيتها ومعرفتها وجبي زكاتها .

وأما عروض التجارة فهي موجودة في المصانع والحوانيت فما أسهل تخمينهـا وجبي زكواتها .

وأما النقود فباستطاعة الدولة أن تلجأ إلى نظام بسيط يجعل كل إنسان مضطرا داخل الدولة لدفع الزكاة .

هذا النظام هو :

إن كل إنسان عنده نقد ، عليه أن يقدمه لمصارف خاصة ، ليدفع زكاته وتختم له هذه المصارف على أوراقه ختما معينا ، يتبدل كل عام ، وأي ورقة ماليه بعد شهر جباية مال الزكاة لا تكون موقعة تفقد نصف قيمتها الشرائية أخذا من الحديث (ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا لا يحل لآل محمد منها شيء) .

وطبعا ينظم الأمر بحيث تراعى قضية الأموال الموجودة خارج حدود الدولة ، ويوضع لذلك نظام ، وتؤخذ الإحتياطات ، حتى لا يشتري الناس بأوراقهم الماليـة ذهبا يخزنونه .

وهذا كله سهل ، إذ تقدم وسائل الدولة في تنفيذ مخططاتها جعل مثل هذه الأمور سهلة الحل .

٢ ـ أما بالنسبة لزكوات الزروع والثمار والمعدن فهذه أمرها ظاهر ، وطرق جبايتها سهلة ومختلفة ، وما نظن أن الأمر يحتاج إلى نقاش .

تبقى نقطة نحب أن نشير إليها :

إن الطريقة التي افترضناها كطريقة لجباية زكوات النقود ، ليست هي الطريقة الوحيدة الممكنة ، بل هناك طرق كثيرة يمكن أن تلجأ لها الدولة ، غير أن هذه الطريقة ، قد تفيد بشكل آخر وهو تحريك السوق التجارية خلال فترة الجباية السنوية ، لأن كثيرين من الناس قد يشترون بما يملكون من أوراق مالية حاجيات تلزمهم لسنة قادمة ، وكثيرين يرغبون بالتخلص من أوراقهم المالية بشكل من الأشكال ، وهذا كله يفيد الحياة الإقتصادية .

١٠ – واخيرا يقول الأستاذ القرضاوي :

وقد جعل القرآن الزكاة – مع التوبة من الشرك وإقامة الصلاة – عنوان الدخول في دين الإسلام واستحقاق أخوة المسلمين والانتماء إلى المجتمع الإسلامي . قال تعالى في شأن المشركين المحاربين « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم[١] » وقال سبحانه « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين »[٢] .

فلا يتحقق لكافر الدخول في جماعة المسلمين ، وتثبت له أخوتهم الدينية التي تجعله فردا منهم : له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وتربطه بهم رباطا لا تنفصم عراه ، إلا بالتوبة عن الشرك وتوابعه ، وإقامة الصلاة التي هي الرابطة الدينية الاجتماعية بين المسلمين ، وإيتاء الزكاة التي هي الرابطة المالية الاجتماعية بينهم .

ومنهج القرآن الكريم ، والسنة المطهرة أن يقرنا الصلاة بالزكاة دائما ، دلالة على قوة الإتصال بينهما وأن إسلام المرء لا يتم إلا بهما . فالصلاة عمود الإسلام ، من أقامه فقد أقام الدين ومن هدمه فقد هدم الدين ، والزكاة قنطرة الإسلام ، من عبر عليها نجا ، ومن تجاوزها هلك . قال عبد الله بن مسعود : (أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له)[٣] .

وقال جابر بن زيد : (افترضت الصلاة والزكاة جميعا . لم يفرق بينهما . وقرأ : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » . وأبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة . وقال : رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعني بذلك قوله : (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) .

لقد جعل القرآن إيتاء الزكاة من اوصاف المؤمنين والمحسنين الأبرار المتقين . وجعل منعها من خصائص المشركين والمنافقين . فهي محك الإيمان . وبرهان الإخلاص كما جاء في الصحيح (الصدقة برهان) وهي فيصل التفرقة بين الإسلام والكفر ، وبين الإيمان والنفاق ، وبين التقوى والفجور .

فبغير إيتاء الزكاة لا ينتظم المرء في عقد المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح ،

---

(١) سورة التوبة الآية ٥
(٢) نفس السورة – ١١
(٣) تفسير الطبري ج ١٤ ص ١٥٣ المعارف .

وضمن لهم ميراث الفردوس ، وجعل لهم الهدى والبشرى . قال تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون»[1] . وقال سبحانه « هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة »[2] .

— وبدون الزكاة لا يدخل في زمرة المحسنين « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون »[3] .

- وبدون الزكاة لا يكون من الأبرار الصادقين المتقين .

قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال — على حبه — ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة (إلى أن قال) أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »[4] . وبدون الزكاة لا يفارق المشركين الذين وصفهم القرآن بقوله « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون »[5] .

وبغير الزكاة لا يتميز المنافقون الذين وصفهم الله بأنهم « يقبضون أيديهم » أي عن الإنفاق وبأنهم « لا ينفقون إلا وهم كارهون »[6] .

وبغير الزكاة لا تستحق رحمة الله التي أبى أن يكتبها إلا للمؤمنين المتقين المؤتين للزكاة قال تعالى « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »[7] وقال عز وجل « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله »[8] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١ — ٤
(٢) النمل الآية ٢ — ٣
(٣) النمل الآية ٣
(٤) البقرة الآية ١٧٧
(٥) فصلت الآية ٧
(٦) التوبة الآية ٥٤
(٧) الاعراف الآية ١٥٦
(٨) التوبة الآية ٧١

وبدون الزكاة لا تستحق ولاية الله ولا رسوله ولا المؤمنين قال تعالى « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون »(١) .. وبدون إيتاء الزكاة لا يستحق نصر الله الذي وعد به من نصره .

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . ألذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »(٢) .

ولقد توعد الإسلام بالعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة كل من منع هذه الزكاة . ففي عقوبة الآخرة يقول الله تعالى مهددا للكانزين للذهب والفضة الذين لا يؤدون منها حق الله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »(٣) .

ويروي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه (يعني بشدقيه) ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم الآية : ((ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم . بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »(٤) .

وفي العقوبة الدنيوية يقول عليه الصلاة والسلام : (ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين)(٥) (أي بالقحط والمجاعة) وفي حديث ثان : (ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا)(٦) . وفي حديث آخر (ما خالطت الصدقة (٧) — أو قال الزكاة — مالا إلا أفسدته (٨) ومعنى هذا أن تترك الزكـــاة في المال ولا تخرج منه فتهلكه .

---

(١) المائدة الآية ٥٥

(٢) الحج الآية ٤٠ — ٤١

(٣) التوبة الآية ٣٤ — ٣٥

(٤) آل عمران الآية ١٨٠

(٥) رواه الطبراني في الاوسط — ورواته ثقات

(٦) رواه ابن ماجه والبزار والبيهقي واللفظ له

(٧) رواه البزاز والبيهقي

(٨) رواه أحمد والنسائي وابو داود .

وهذا كله في العقوبة الكونية القدرية أي التي يتولاها القدر الأعلى .. وهناك عقوبة دنيوية أخرى هي عقوبة شرعية قانونية ، وهي التي يتولاها أولو الأمر في المجتمع الاسلامي ، وفي هذه العقوبة جاء حديثه صلى الله عليه وسلم في الزكاة (من أعطاها مؤتجرا (أي طالب الأجر) فله أجرها ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله (أي نصفه) عزمة من عزمات ربنا لا يحل لآل محمد منها شيء) .

وهذا الحديث الشريف يجيز لولي الأمر مصادرة نصف مال من امتنع عن أداء زكاته وهو نوع من العقوبة المالية التي يتخذها الحاكم عند الحاجة ليؤدب بها المتنعين والمتهربين ، وليس ذلك عقوبة لازمة ولا دائمة ، وإنما هو من العقوبات التعزيرية التي تخضع لتقدير أولي الأمر ، واجتهاد أهل الحل والعقد في المجتمع المسلم .

ولم تقف عقوبة مانع الزكاة عند الغرامة المالية فحسب ، بل يجوز لولي الأمر أن يستعمل العقوبة البدنية ، والحبس وغيرها حسب المصلحة والحاجة ..

وأكثر من ذلك . إن الإسلام يشرع سل السيوف . وإعلان القتال على الممتنعين المتمردين عن أداء الزكاة ، ولهذا قاتل الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ومعه الصحابة رضي الله عنهم ما نعي الزكاة ، وقال كلمته المشهورة : (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ـ والله لئن منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه[1] .

قال ابن حزم : (وحكم مانع الزكاة إنما هو أن تؤخذ منه أحبَّ أم كره ، فإن مانع دونها فهو محارب ، فإن كذب بها فهو مرتد ، فإن غيبها ولم يمانع دونها فهو آت منكرا فوجب تأديبه أو ضربه حتى يحضرها ، أو يموت قتيل الله تعالى إلى لعنة الله) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إن استطاع) وهذا منكر ففرض على من استطاع أن يغيره[2] .. وكل هذه النصوص تؤكد لنا درجة الإلزام العالية التي تتمتع بها الزكاة . فليست مجرد واجب عادي ، بل هي — كما بينا — إحدى الدعائم الخمس التي قام عليها بنيان الإسلام .. وأصبح معلوما بالضرورة ، أنها أحد أركان الإسلام ، وتناقل ذلك الخاص والعام .. ولم تعد فرضيتها في حاجة إلى إقامة دليل ، فقد ثبت ثبوتا مؤكدا بالآيات القرآنية الصريحة

---

(١) رواه الشيخان

(٢) المحلى لابن حزم جـ ١١ ص ٣١٣

المتكررة ، وبالسنة النبوية المتواترة ، وبإجماع الأمة كلها خلفا عن سلف ، وجيلا إثر جيل .

قال ابن قدامه : فمن أنكر وجوبها جهلا به ، وكان ممن يجهل ذلك ، إما لحداثة عهده بالإسلام ، أو لأنه نشأ ببادية نائية عن الأمصار عُرّف بوجوبها ولا يحكم بكفره لأنه معذور .

وإن كان مسلما ناشئا ببلاد الإسلام بين أهل العلم فهو مرتد تجري عليه أحكام المرتدين ويستتاب ثلاثا فإن تاب وإلا قتل لأن أدلة وجوب الزكاة ظاهرة في الكتاب والسنة وإجماع الأمة . فلا تكاد تخفى على أحد ممن هذه حاله فإذا جحدها فلا يكون إلا تكذيبه الكتاب والسنة وكفره بهما)[1] .

الزكاة حق معلوم :

والزكاة في النظرة الإسلامية حق أو دين في أعناق الأغنياء ، للفئات الضعيفة والمستحقة ، وهي كذلك حق معلوم أي محدد النسبة والمقدار ، علمه الذين تجب عليهم الزكاة ، وعلمه الذين تصرف لهم الزكاة ، والذي قرر هذا الحق وحدده هو الله تعالى الذي وصف المتقين المحسنين من عباده بقوله « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » وفي سورة أخرى وصف الأخيار من عباده الذين يستحقون الإكرام في جناته فقال : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » .

ولا غرابة في تقرير هذا الحق وتحديده ، إذا عرفنا حقيقة تملك الإنسان للمال في النظرية الاسلامية التي عرفت بنظرية (الإستخلاف) والتي يدل عليها قوله تعالى «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » وغيرها من الآيات .

فالإنسان ليس هو المالك الحق للمال ، وإنما هو أمين عليه من قبل مالكه الأصلي وهو الله تعالى ، مالك المال وواهبه وخالقه ورازقه .. ومن واجب الإنسان أن يذعن لما يأمر به هذا الخالق الرازق ، وما يعينه من حق في هذا المال قل أو كثر .

وإذا كانت الزكاة حقا معلوما أوجبه الله تعالى للفقراء والمساكين وسائر المستحقين ،

---

(١) المغني ج ٢ ص ٥٧٣ ط ثالثه المنار.

من مقتضى ذلك ، ألا تسقط — وقد وجبت ولزمت — بمرور عام أو أكثر دون أدائها وإيتائها أهلها .

وفي هذا يقول أبو محمد بن حزم : من اجتمع في ماله زكاتان فصاعدا وهو حي تؤدى لكل سنة على عدد ما وجبت عليه في كل عام ، وسواء كان ذلك لهروبه بماله ، أو لتأخر الساعي (محصل الزكاة من قبل الدولة) أو لجهله ، أو لغير ذلك ، وسواء في ذلك العين (النقود) والحرث والماشية ، وسواء أتت الزكاة على جميع ماله أو لم تأت ، وسواء رجع ماله بعد أخذ الزكاة منه إلى ما لا زكاة فيه ، أو لم يرجع ، ولا يأخذ الغرماء شيئاً حتى تستوفى الزكاة[1] .

فإذا كانت الضريبة تسقط بالتقادم ، ومرور سنوات تقل أو تكثر — حسب تحديد القانون — فإن الزكاة تظل دينا في عنق المسلم لا تبرأ ذمته ، ولا يصح إسلامه ، ولا يصدق إيمانه إلا بأدائها ، وإن تكاثرت الأعوام وهي — كما يرى ابن حزم وغيره — دين ممتاز ، مقدم على سائر الديون لما اجتمع لها من صفات ، وما توافر لها من خصائص ، فهي حق الله ، وحق الفقير ، وحق المجتمع جميعا .

وكذلك لا تسقط الزكاة بموت رب المال ، وتخرج من تركته ، وإن لم يوص بها . هذا قول عطاء والحسن والزهري وقتاده ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور وابن المنذر[2] .. وهذا القول هو الصحيح . لقول الله تعالى في المواريث « من بعد وصية يوصى بها أو دين » فعم سبحانه وتعالى الديون كلها والزكاة (كما قال ابن حزم) دين قائم لله تعالى ، وللمساكين والفقراء والغارمين ، وسائر من فرضها تعالى لهم في نص القرآن .

واستدل ابن حزم على تقديم دين الزكاة على ديون الناس ، بما رواه مسلم في صحيحة عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمي ماتت وعليها صوم شهر فأقضيه عنها ؟ فقال : لو كان على أمك دين أكنت قاضيه عنها ؟ قال نعم . قال فدين الله أحق أن يقضى) .

من هنا نتبين أن موت المكلف بالزكاة لا يسقطها عنه ، ولو كان موته عن طريق

---

(١) المحلى ج ٦ صفحة ٨٧

(٢) المغني : لابن قدامه ج. ٢ صفحة ٦٨٣

القتال والشهادة في سبيل الله لما روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يغفر للشهيد كل ذنب الا الدّين) .

ومن ذلك دين الزكاة إذا أخرها حتى استشهد وهي في ذمته ، كما ذكر ابن تيمية وغيره من العلماء[1] . وبهذا كله يتأكد لنا أن الزكاة في الإسلام حق أصيل ثابت لا يسقطه تقادم ولا موت ، وأنها تؤخذ من التركة وتقدم ـ في أرجح الأقوال ـ على كل حق وكل دين سواها . فالإسلام جعل الزكاة حقا من حقوق الله على عباده ، وحقا من حقوق الإنسان على أخيه الإنسان .

فهي حق الله باريء الإنسان ورازقه ، وخالق المال وواهبه ، ومسخر مـا في الكون لخدمة الإنسان بأمره سبحانه .

وهي حق الفقير المحتاج على أخيه الغني ، بمقتضى الأخوة المشتركة بينهما .

٢ ـ مختارات من نصوص الزكاة :

روى الستة عن أبي هريرة قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب . قال عمر كيف نقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله . فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله . فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . قال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق

عن الستة إلا الترمذي وهو بلفظ مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ . ما من صاحب دهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة واما إلى النار قيل يا رسول الله فالإبل ؟ قال : ولا صاحب إبل لا يؤدي منها

(١) منار السبيل جـ ١ ص ٢٨٥

حقها ومن حقها حلبها يوم وردها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها رد عليها أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل يا رسول الله فالبقر والغنم ؟ قال ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مرت عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل يا رسول الله فالخيل ؟ قال : ثلاثة : هي لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر . أما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنه انقطع طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له ، فهي لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تغنيا وتعففا ثم لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها ، فهي لذلك ستر ، ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام ، فهي على ذلك وزر . وسئل ﷺ عن الحمر فقال : ما أنزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

(في الأوسط عن بريدة عن رسول الله ﷺ ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين) . روى أبو داود عن الحارث الأعور عن علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم ، وليس عليك شيء في الذهب حتى يكون لك عشرون دينارا ، فاذا كانت لك عشرون دينارا. وحال عليها الحول ، ففيها نصف دينار ، فما زاد فبحساب ذلك . قال فلا أدري أعلي يقول بحساب ذلك أم رسول الله ﷺ . وليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول) .

(روى البخاري والنسائي وأبو داود عن أنس : أن أبا بكر كتب له حين وجهه إلى البحرين هذا الكتاب ، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر : (محمد) سطر ، و(رسول) سطر ، و (الله) سطر : بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، والتي أمر الله بها رسوله . فمن سألها

من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سأل فوقها فلا يعط : في أربع وعشرين من الإبل . فما دونها من الغنم في كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمسا وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض ، فإن لم تكن بنت مخاض فابن لبون ، فإذا بلغت ستا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون ، فإذا بلغت ستا وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل . فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة ، فإذا بلغت ستا وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون ، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل ، فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين إبنة لبون ، وفي كل خمسين حقة ، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليست فيها صدقة ، إلا أن يشاء ربها ، فإذا بلغت خمسا ففيها شاة ، وصدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة ، شاة ، فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان ، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه . فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة ، فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، فلا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة .

وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية ، ولا تخرج في الصدقة هرمة ولا ذات عوار ، ولا تيس إلا أن يشاء المصدق ، وفي الرقة ربع العشر ، فإن لم يكن إلا تسعين ومائة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها . ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة ، وليست عنده ، وعنده حقة ، فإنها تقبل منه الحقة ، ويجعل معها شاتين او عشرين درهما ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده ، وعنده الجذعة ، فإنها تقبل منه ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده إلا ابنة لبون ، فإنها تقبل منه ابنة لبون ، ويعطي شاتين أو عشرين درهما ومن بلغت صدقته بنت لبون وعنده حقة ، فإنها تقبل منه الحقة ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت صدقته بنت لبون وليست عنده ، وعنده بنت مخاض فإنها تقبل منه بنت مخاض ويعطي معها عشرين درهما أو شاتين ، ومن بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده ، وعنده بنت لبون ، فإنها تقبل منه ، ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين ، فإن لم تكن عنده بنت مخاض على وجهها وعنده ابن لبون فإنه يقبل منه وليس معه شيء) .

(روى الستة واللفظ لأبي داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : ليس في الخيل والرقيق زكاة إلا أن زكاة الفطر في الرقيق) .

(روى مالك عن سفيان بن عبد الله : أن عمر بعثه مصدقا ، فكان يعد على الناس بالسخل ، فقالوا تعد بالسخل ولا تأخذ منها شيئاً ، فلما قدم على عمر ذكر ذلك له فقال تعد عليهم السخلة يحملها الراعي ولا تأخذها ، ولا تأخذ الأكولة والربى ولا الماخض ولا فحل الغنم ، وتأخذ الجذعة والثنية وذلك عدل بين غذاء المال وخياره) .

(في الأوسط عن أنس قال : فرض محمد ﷺ في أموال المسلمين في كل أربعين درهما درهم وفي أموال أهل الذمة من كل عشرين درهما درهم وفي أموال من لا ذمة لهم في كل عشرة دراهم درهم) .

(روى البخاري وأصحاب السنن عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وما سقي بالنضح نصف العشر) .

(روى مالك في الموطأ عن الصائب بن يزيد : أن عثمان كان يقول هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤد دينه حتى تحصل أموالكم فتؤدون منه الزكاة) .

(عن الستة إلا أبي داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار وفي الركاز الخمس) .

(روى أبو داود عن سمرة بن جندب : أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نخرج من الذي نعده للبيع) .

(عن الستة بلفظ البخاري عن ابن عمر قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين وأن تؤدى قبل خروج الناس إلى المصلى) .

(وفي رواية وكان ابن عمر يؤديها قبل ذلك بيوم أو بيومين) .

(عن الستة عن أبي سعيد قال : كنا نخرج زكاة الفطر ورسول الله ﷺ فينا عن كل صغير وكبير حر ومملوك من ثلاثة أصناف صاعا من تمر ، صاعا من اقط ، صاعا من شعير ، فلم نزل نخرجه حتى كان معاوية فرأى مدّين من بر يعدل صاعاً من تمر . فأما أنا فلا أزال أخرجه كما كنت أخرجه ما عشت) .

عن ابن عباس قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات) .

(روى الشيخان وأبو داود عن ابن حميد الساعدي قال : استعمل النبي ﷺ رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي إلي فقام النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول هذا لكم وهذا هدية أهديت لي أفلا جلس في بيت أبيه وأمه . حتى تأتيه هديته إن كان صادقا والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحدا منكم لقي الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه يقول اللهم هل بلغت) .

(روى مسلم وأبو داود عن عدي بن عميرة الكندي عن الرسول صلى الله عليه وسلم : قال من استعملنا منكم على عمل فكتمنا مخيطا فما فوقه كان غلولا يأتي به يوم القيامة فقام إليه رجل فقال يا رسول الله إقبل عني عملك قال:ومالك ؟ قال سمعتك تقول كذا وكذا فقال وأنا أقوله ألا من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره فما أوتي منه أخذه وما نهي عنه انتهى) .

(روى أبو داود عن إبراهيم بن عطاء مولى عمران بن حصين عن أبيه : قال : إن زيادا أو بعض الأمراء بعث عمران بن حصين على الصدقة فأخذها من الأغنياء وردها على الفقراء فلما رجع قال لعمران أين المال ؟ قال وللمال أرسلتني ؟ أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ووضعناها حيث كنا نضعها على عهده).

(روى أبو داود عن بشير بن يسار قال : زعم أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبي حثمة أن النبي ﷺ وداه مئة من إبل الصدقة يعني دية الأنصاري الذي قتل بخيبر) .

(روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل في فلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة إسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج وقد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته فقال يا عبد الله ما اسمك ؟ قال فلان للإسم الذي سمع في السحابة فقال يا عبد الله لم سألتني عن إسمي قال سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول إسق حديقة فلان باسمك فما تصنع فيها ؟ قال أما إذا قلت هذا فاني أنظر إلى ما يخرج منها فاتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وأرد فيه ثلثه) .

(روى النسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : سبق درهم مئة الف درهم قالوا وكيف ؟ قال كان لرجل درهمان فتصدق بأجودهما وانطلق رجل إلى عرض ماله فأخذ منه مئة ألف درهم فتصدق بها) .

(روى الشيخان وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد قال : إن أعرابياً قال يا رسول الله أخبرني عن الهجرة قال ويحك إن شأن الهجرة شديد فهل لك من إبل ؟ قال نعم قال فهل تؤدي صدقتها ؟ قال نعم قال فاعمل من وراء البحار فإن الله لن يترك من عملك شيئاً) .

(في الكبير عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ : صنائع المعروف تَقِيْ مصارع السوء وصدقة السر تطفىء غضب الرب وصلة الرحم تزيد في العمر) .

الركن الرابع : الصّـــوم

(أ) نظرات عامة في الصوم :

١ — إن ضبط النفس لا غنى للبشرية عنه ، فما من إنسان فيه عقل إلا ويدرك أنه لو أطلق كل إنسان لأهوائه العنان في كل مجال ،واستطاع أن يحققها فإن البشرية تنتهي في لحظات ، أو في أيام ، أو أن الحياة تصبح لا تطاق ، والواقع الحالي للبشر يرينا كم يعاني البشر من تعاسة نتيجة لعدم تقيدهم بالحدود التي ينبغي أن يتقيدوا بها ، والتي هي الحدود التي حدها الله للبشر في علاقاتهم بعضهم ببعض ، إذ لله وحده حق الإلزام ، لأنه وحده صاحب الأمر والنهي والحكم ، لأنه وحده الأعلم والأحكم والأرحم .

ودين الله الذي هو الإسلام ، إنما هو الصيغة الوحيدة للإنسان التي ينبغي أن تصاغ عليها نفسه ، وأن تضبط بها شهواته وأهواؤه ، وبها حياة الناس ، وهي الطريق المستقيم المنير الوحيد الذي لهم ، وعليهم أن يسلكوه :

« أو من كان ميّتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثلــه في الظلمات ليس بخارج منها » .

٢ — والرمز العملي لضبط النفس في دين الله ، هو الصوم المفروض ، ولذلك كان من أركان هذا الدين ، ولذلك كان طريقا من طرق الوصول إلى حقيقة التقوى التي هي التعبير العملي عن أخــذ المسلم نفسه بالاسلام : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ولعلنا نفهم من الآية سر وجود فكرة الصوم على اختلاف تطبيقاتها العملية عند كل الاديان الكبيرة في

العالم ، النصرانية ، واليهودية ، والبرهمية[1] .. وإنما كان هذا كأثر من آثار فرض الله الصوم على كل أمة أرسل لها رسول ، وكل أمة كما رأينا قد أرسل لها رسول . فوجود مثل هذه الفكرة ، إنما هو من بقايا دين كان الله أنزله ، ثم حرف ونسخ وعلى كل فالآية بينت أن الصيام فريضة الله في كل دين أنزله الله ، ودين الله في صيغته الأخيرة الخاتمة والناسخة ، قد فرض فيه الصوم بصيغة نهائية ، وخاتمة وناسخة ، ولذلك كان صوما ما شئت أن ترى من واقعيته ، إلا رأيت ، ومن سهولته إلا رأيت ، ومن نفعه إلا رأيت ، ومن آثاره الطيبة على الحياة البشرية ، اجتماعيا ، وسلوكيا ، وعمليا إلا رأيت ، ومظهر هذه المعاني ما تراه عنه في الفقرات التالية :

٣ ـ الصيام المفروض علينا إستقلالا ، هو صيام شهر رمضان ، الشهر القمري ، وفي ذلك معان كثيرة :

ففي شهر رمضان نزل القرآن ففيه كان بدء الدعوة الإسلامية ، وبدء نزول كتابها فيه ، فصيام هذا الشهر تخليد لذكرى ينبغي أن تبقى حية في نفس المسلم شعوريا وعمليا.

واختيار الشهر القمري الذي له علامته الكونية الكبيرة ، القمر بدءاً وانتهاءاً ، يحمل في طياته عوامل الوضوح والثبات ، والاستعصاء على التحريف او التزوير او التدجيل ، فلا تستطيع سلطة ولا جماعة أن تحرف المسلمين عنه .

يقول عليه السلام: (صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته (أي الهلال) فإن غُمّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين) رواه البخاري .

واختيار الشهر القمري فيه كذلك حكم كثيرة منها :

إن السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بحوالي عشرة أيام ، فعلى هذا يتقدم شهر رمضان كل عام عنه في السنة الماضية عشرة أيام بالنسبة للسنة الشمسية ، وعلى هذا ففي خلال ستة وثلاثين عاما لا يبقى يوم من أيام السنة إلا وقد صامه المسلم .

اليوم القصير في السنة واليوم الطويل ، اليوم الحار ، واليوم البارد ، وبذلك يتساوى المسلمون في كل أقطارهم في مقدار الصيام ، وشدته ، كل دورة من هذه الدورات ،

---

(١) راجع كتاب الأركان الأربعة للأستاذ أبي الحسن الندوي .

ولولا هذا لكان نصيب أهل المناطق الحارة أشد من نصيب أهل المناطق الباردة في شهر شمسي واحد ثابت ، وناس يصومون يوما طويلا أبد الدهر وناس يصومون يومـــا قصيرا ، أما بهذا فكل منهم خلال دورة واحدة قد أصابه من شدة الصوم ما أصاب غيره . إن للفواكه مواسم معينة ، ولأنواع من الطعام مواسم معينة ، كذلك والصيام على الشهر القمري يُعوّد الإنسان على الامتناع خلال أوقاتٍ معينة عن كل نوع خلال الدورة الكاملة التي تحدثنا عنها ، وفي المقابل فإنه لا يحرمه أبد الدهر من التمتع بنوع واحد خلال وقت الصوم .

وفي تعيين شهر رمضان بالذات ، شهرا للصوم ، دون ترك التعيين للإنسان ليختار شهرا معينا لنفسه من السنة ، فيما عدا ما ذكرنا حكمه الأخرى من إشعار المسلمين بوحدتهم ، ومن تعويد النظام والانضباط والاستسلام لله ، ومن فتح الباب لأعمـــال موحدة من الخير ينال كل من المسلمين فيها نصيبه ، ولذلك نرى أن أكثر أئمة الاجتهاد ذهب إلى أنه متى ثبتت رؤية الهلال في قطر من أقطار المسلمين فقد وجب على كل المسلمين الصوم ، ولم يخالف في ذلك إلا الشافعية ، وفي ذلك توكيد لدخول المسلمين جميعا في يوم واحد مدرسة واحدة ، هي مدرسة رمضان بما فيها من معان عظيمة .

٤ ــ والصيام المفروض هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، مع نية الصيام لله تعالى . فلا صيام إذا لم تكن نية الصائم أنه يفعل هذا لوجه الله ، إيمانا به وبرسوله وبكتابه وشريعته ، وإخلاصا له في العمل وقد ورد في الحديث (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) .

والمفطرات هي كل ما يدخل الجوف من طعام وشراب وغيرهما والجماع أو الإنزال بسحاق أو استمناء ...

فالشيء الأساسي إذن في الصيام هو الامتناع عن شهوتي البطن والفرج ، وهما أعتى شهوات الإنسان ، فمن استطاع أن يحفظ نفسه خلال فترة الصوم عن هاتين الشهوتين ، كان على غيرهما أقدر ، وكان على تنظيمها بعد ذلك ، بحيث لا يخرج فيها عن حدود الحلال مستطيعا ، وإذا استطاع ذلك كان على طريق الجنة سائرا وفي الحديث :

(من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه أَضمن له الجنة) .

ولا ينضبط اللسان بشيء كانضباطه بالصيام ، وهذه نقطة هامة : إن التشبع الدائم للإنسان يجعل أعضاءه في كامل طاقتها ، ويجعل نفسه كذلك ، ومن هنا فإن لسانه ينطلق وقد لا يستطيع ضبطه ، واللسان أداة التعبير عن النفس ، فمهما كان في النفس من شرود عن طريق الله ، ظهر في اللسان ، وفي اليد ، وفي الرجل ، وفي السلوك ، وفي العمل ، فحبس النفس عن شهوة الطعام ، إضعاف بالتالي لها عن الإنطلاق في أي طريق ، وترويض لها على الانضباط على الطريق الصحيح .

وهذا هو الجانب السلبي في الموضوع ، والذي مظهره كف النفس عما ينبغي قال عليه السلام :

(إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب وإن سابه أحد أو قاتلته فليقل إني امرؤ صائم) وقال (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) ربما لم يحقق الإنسان من صيامه هذا الجانب فهو كما قال عليه السلام (رب صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر) .

إن تطهير النفس شيء أساسي في الصوم ، وقال عليه السلام إذ أقبل رمضان (مرحبا بالمطهر) (أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ويحط الخطايا ويستجيب الدعاء .. فأروا الله من أنفسكم خيرا فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله)

وأما الجانب الإيجابي :

فإن الصوم ترويض للنفس على الصبر ، وقوة الإرادة ، والطاعة لله ، ووقت الصوم يمتد من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان ، ولكن كما قلنا ما زاد اليوم نتيجة لفصل كذا ومكان كذا سينقص في صيام آخر ، نتيجة لكون الصيام مرتبطاً بالأشهر القمرية .

ويلاحظ في توقيت الصوم أنه علق على علامتين سماويتين يسهل تمييزهما ، هما الفجر ، وغروب الشمس وفي ذلك ضبط للوقت ، يستطيعه أي إنسان في أكثر مناطق العالم . ولا بد هنا من الإشارة إلى حالتين :

الأولى : حالة القطبين إذ يمتد بهما النهار والليل إلى ستة أشهر ، فلو كان الإنسان

في مثل هذه المناطق فكيف يكون صومه ؟ .

الثانية : أن هناك مناطق بعد القطبين ، قد يكون الليل فيها ٢٣ ساعة ، والنهار ساعة او العكس ، النهار ٢٣ ساعة والليل ساعة واحدة ، ويتناقص هذا ويزيد على حسب البعد من القطبين ، أو القرب منهما ، فكيف يصوم الإنسان في مثل هذه البلاد ؟.

والجواب هو :

قال الشافعية : في البلاد التي ليس فيها فجر وعشاء متميزين عن بعضهما ، يكون صوم الناس فيها صيام أقرب البلاد إليهم التي فيها عشاء متميز ، وفجر متميز ، وكذلك البلاد التي يدوم نهارها أو ليلها أكثر من أربع وعشرين ساعة ، وكذلك يكون حكم الصلاة ، حيث تقدر أوقاتها تقديرا في البلاد التي يدوم ليلها أو نهارها فترة طويلة على الأساس السابق .

وكذلك البلاد التي غروب الشمس فيها هو بداية فجرها ، فإن وقت العشاء فيها كوقته في أقرب بلد إليهم يغيب فيها شفق العشاء ، ثم تكون فترة يطلع شفق الفجر فيها.

والمهم في هذا كله أنه لا توجد حالة من الحالات يسقط فيها فرض الصوم عن الإنسان في البلاد الواضح فجرها وغروبها ، من الفجر إلى الغروب ، وفي البلاد الأخرى كما رأينا :

يقول عز وجل : « فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

والمقصود بالفجر هنا ، الفجر الثاني ، وهو المستطير يقول عليه السلام : (لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير في الأفق) .

ويلاحظ في الصوم بهذا الشكل ، أنه أعطى الإنسان وقتا يعوض فيه عن كل ما فقده في صيامه من حاجة الجسد ، طعاما أو شرابا ، أو جنسا ، فتمحض الصيام نفعا خالصا للإنسان ، جسمياً ونفسيا . وإن لم يكن هذا هو الهدف ، بل الهدف هو طاعة الله وتقواه . ولكن أشرنا إلى هذا لأن الذين لا يعلمون ، يدّعون ان الصيام يضر جسم الإنسان ؛ وللرد عليهم ننقل هذه التجارب العملية التي أجراها اختصاصيون حول هذه القضية ، مع التعليق عليها كما نشرتها مجلة (المسلمون) تحت عنوان : (اثر الصيام

على صحة الإنسان) بقلم الأستاذين بهيئة تدريس كلية الطب ، داكار باكستان وراجعه وعلق عليه الدكتور أ . أ .

مقدمة : يصوم المسلمون في شتى بقاع الأرض الشهر القمري التاسع — رمضان — كل عام ، حيث يحرم عليهم الأكل والشرب ، من طلوع الفجر ، أو ما يقرب من ساعة ونصف قبل شروق الشمس ، حتى مغيبها ، وما بين الإفطار والإمساك يسمح لهم بالأكل والشرب في حدود طاقاتهم .

والصيام فرض على الأصحاء من الرجال عند سن الخامسة عشرة عاما ، أو (البلوغ) والصحيحات من النساء عند سن اثني عشر عاما (أو البلوغ) ، أما المرضى والمسافرون ، فغير ملزمين بالصيام[1] كما تنص الآية : « .. فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ...) (البقرة ١٨٣) . ونسبة لتغير الدورة القمرية ، فإن هنالك تحولا في عدة شهر رمضان من عام لآخر ، حيث يسبق الشهر القمري الشهر الميلادي بأحد عشر يوما سنويا .

ويتراوح الصيام اليومي بين اثني عشرة ساعة وتسع عشرة ساعة حسب اختلاف المواقع الجغرافية ، والمواسيم المختلفة التي يحل فيها رمضان . ولهذا يأكل الصائم وجبة أو وجبتين أثناء الليل حسبما تقتضي حاجته ، طول مدة الليل حتى مطلع الفجر .

ولقد طال الجدل العلمي حول مدى التأثير الفسيولوجي للصيام على جسم الإنسان . فبينما يرى البعض أنه ضار بالجسم ، يرى البعض الآخر أنه غير ضار ، ما دام التغير الوحيد هو في اختلاف موعد تناول وجبات الطعام . وهذا في حد ذاته لا يؤثر في مجموع الطاقة الحرارية التي يحتاجها الجسم طوال الأربع وعشرين ساعة .

وفي الواقع إن الجسم قد يستهلك كميات أكثر من البزوتينات والنشويات والسكريات في رمضان ، ومعنى هذا أن ياخذ الجسم كميات أكثر من الطاقة الحرارية .

بحث : ولقد أجري بحث طبي على ثلاثة عشر متطوع ، من بينهم أنثى حامل في شهرها السادس ، لمعرفة مدى تأثير صوم رمضان على جسم الإنسان ، وللمقارنة

---

(١) — وإنما يجب عليهم قضاؤه .

أجريت تجربة مماثلة على رجل مفطر عمره سبعة وعشرون عاماً ، في نفس الوقت وفي ظروف مشابهة . وقد تضمنت التجربة تأثير الصوم في الوزن ، والحرارة والنبض ، وضغط الدم ، ونسبة التمثيل الأساسي لخلايا الجسم ، وتوازن السوائل في الجسم . كما أجري بحث كيماوي على الدم والبول .

طريقة التجربة : كان من بين الثلاثة عشر متطوعاً : ثلاث نساء أعمارهم على التوالي : ١٧ و ٢٧ و ٤٠ عاماً . وتتراوح أعمار الرجال بين ٢٢ و ٦٩ بمتوسط عمر ٣٣ عاماً . وجميع المتطوعين ينتمون للطبقة المتوسطة ، والتي يتراوح مقدار ما يحصل عليه كل منهم من الطاقة الحرارية بين ٢,٥٠٠ و ٣,٠٠٠ وحـــدة حرارية . وجميعهم بحالة صحية جيدة ، وكلهم خال من الأمراض العضوية والطفيليات .

وقد أجريت كل الأبحاث والتحاليل اللازمة على جميع المتطوعين قبل بدء رمضان بمدة أسبوع ، لإمكان المقارنة بين حالتهم قبل الصوم وبعده . وقد أخذت العينات التي أجري عليها البحث قبل تناول إفطار الصباح . أما في رمضان فقد أخذت العينات بعد أن يتناول كل منهم جرعة من الماء فقط عند موعد الإفطار . وقد أعيد إجراء هذه التجارب في اليوم الأول ، والعاشر ، والاخير من رمضان وبعد شهر من انتهاء رمضان .

وقد أجريت الأبحاث على أدق الطرق العلمية الحديثة .

وإليك أيها القارىء الكريم النتائج التي حصلنا عليها من هذه الأبحاث :

النتائج : ١ ــ الوزن : كانت تأثيرات الصيام على وزن الجسم هي كما يرى من الجدول الموضح (جدول رقم ١)

(١) جدول لبيان أثر الصوم على وزن الجسم (بالأرطال) :

	قبل الصوم	رمضـــــان			بعد الصوم
	أ	ب	ج	د	ﻫ
المقارن « المتطوع الفاطر »	١٤٢	١٤٠	١٤٠	١٤٢	١٤٢
متوسط وزن الصائمين	١٢٢	١٢٢	١٢١	١١٩	١٢١
وزن المرأة الحامل	١٠٦	١٠٦	١٠٨	١١٠	١١٧

حيث : (أ) تعني قبل رمضان
(ب ج د) تعني اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان
(ه) بعد مضي شهر من رمضان .

ويلاحظ من التجربة أنه لم يكن هنالك تغير ملحوظ في وزن الرجل المفطر ، وباستثناء اثنين من المتطوعين ، فقد كان هنالك نقص بسيط في وزن الصائمين أقصاه سبعة أرطال خلال رمضان . وفي حالة واحدة ظل الوزن كما كان قبل الصيام ، كما زاد وزن المرأة الحامل حوالي أربعة أرطال خلال فترة الصيام ، ونصف العدد تقريباً عاد وزنهم كما كان قبل الصيام في التجربة التي أجريت بعد شهر من انتهاء الصوم .

٢ ــ الجهاز الدموي : لم يكن هنالك تأثير ظاهر على نسبة النبض ، وحرارة الجسم من جراء الصيام . وبقيت حالة الهيموجلوبين عادية ، ويعتقد أن السبب هو أن وقت الصوم غير كاف لإحداث أي تركيز يذكر في الهيموجلوبين . كما لم يكن هنالك تغيير ملحوظ في ضغط الدم عند المتطوعين بصفة عامة ، وإن كان هنـــالك هبوط بسيط في ضغط الدم في بعض الحالات في الفترة الأولى من رمضان .

(ملاحظة : التمثيل الحراري هو مقدار ما يأخذه الجسم من الأكسجين ، وما يطرده من ثاني أكسيد الكربون ليتمكن من استمرار نشاطه . ووحدته السعر الحراري . والجسم يأخذ عادة ما يعادل حوالي ٣٠٠٠ سعر حراري) .

٣ ــ نسبة التمثيل الحراري للخلايا : لم يكن هنالك تغيير ملحوظ في نسبة التمثيل الأساسي في خلال الجسم ، طوال فترة الصوم ، غير أنه في حالة المرأة الحامل ، كان مرتفعا ، ويتراوح بين +١٥,١ سعرا (أكثر من المعتـــاد) في أيـــام الصيام الأولى و+ ٢٦,١٥ سعرا بعد مضي شهر من رمضان وهذه النتيجة في حدود طاقة الجسم إذا ما أعطي اعتبار لكونها حامل .

٤ ــ نسبة السكر في الدم : (جدول رقم ٢) نرى في الجدول الموضح مدى التغيير في مستويات كمية السكر في الدم .

جدول يوضح أثر رمضان على سكر الدم : (مليجرام ـ ١٠٠ مم في الدم) .

	أ	ب	ج	د	هـ
ـ المقارن (المفطر)	٩٢	٨٧	٩٠	٨٨	٩٣
ـ متوسط مستوى سكر الدم بالنسبة المئوية عند الصائمين	٨٤	٨٠	٨٠	٧٤	٨٦
ـ المرأة الحامل[1]	٨٨	٨٤	٧٢	٦٨	٨١

المفتاح : (أ) قبل رمضان

(ب،ج،د) : اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان

(هـ) : بعد مضي شهر من رمضان .

ومن هذا الجدول يلاحظ أنه كان هناك هبوط واضح في مستويات كمية السكر في الدم . وفي عشر حالات فردية للمتطوعين كانت النسبة أقل من ٧٠ مليجرام في المائة ويعتبر هذا الحد هو الحد الأدنى للحالة الطبيعية عند الإنسان . ولم يحدث إطلاقاً أن ارتفعت نسبة سكر الدم أكثر من ١٠٤ مليجرام في المائة في كل حالات البحث .

٥ ـ درجة إستهلاك السكر : كما أجريت تجربة على أربعة من المتطوعين ـ من بينهم إمرأة ـ قبل رمضان مرة ، ثم في اليوم الأخير منه مرة أخرى ، لمعرفة مدى التغير في سرعة استهلاك السكر في الدم عند الصيام .

الغلوكوز : ويلاحظ من الجـدول المرفق . أنه لم يكن هنالك تغير ملحوظ عن النسبة المعتادة عند المفطر كما رأينا في الجـدول رقم ١ . ولوحظ أن محتويات الدم وعناصره بقيت في الحدود العادية طوال مدة الصوم ، كما لوحظ أن وظيفة الكبد ظلت طبيعية .

٦ ـ توازن السوائل : يلاحظ أن كمية ما يأخذه المتطوع من السوائل كان كافياً

---

(١) ـ يلاحظ أنه أبيح للمرأة الحامل أن تفطر في رمضان إذا خشيت على نفسها أو ابنها من الصيام بإخبار طبيب مسلم عدل .

للجسم عند معظمهم ، وكان عند البعض أعلا نسبيا ، بحيث يصل ٢,٤ لترا في الأربع وعشرين ساعة . ونسبة التبول كانت كما هو موضح في الجدول رقم ٣ . وفي غضون الأربع وعشرين ساعة كانت بصفة عامة ، في الحدود العادية ، وإن سجلت نسبة أقل من وقت لآخر بالنسبة للصائمين كما سجلت نفس النتيجة للرجل المفطر ، وهي بلا شك نتيجة لتقلبات الطقس ، وتبخر الماء عن طريق مسام الجسم ، وليست نتيجة للصيام ، والدليل على ذلك أن نفس النتيجة وجدت عند الصائم والمفطر سواء بسواء.

(جدول رقم ٣) جدول يوضح أثر رمضان على كمية التبول .

(لترات في اليوم)

	أ	ب	ج	د	هـ
المقارن (الرجل المفطر)	١٠٢	١٠١	١٠٥	١٠٤	١٠٠
متوسط تبول الصائمين	١٠٤	١٠٧	١٠٢	١٠٢	١٠٤
المرأة الحامل	١٠٤	١٠٣	١٠٣	١٠٨	١٠٤

حيث (أ) : قبل رمضان

(ب ج د) : اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان

(هـ) : بعد مضي شهر من رمضان .

ويستنتج من ذلك أنه لم يكن هنالك أي تغير في وظيفة الكليتين أثناء الصوم ، إذ لوحظ أن مركبات البول كانت طبيعية في كل التجارب .

والنتيجة الواضحة لذلك : أثبتت الأبحاث الطبية السالفة بأن الصيام ليس ذا أثر يذكر على تدهور صحة الإنسان — لو صح أن هنالك تدهور على الإطلاق — وفي معظم الحالات يلاحظ نقصان بسيط في الوزن ، وانخفاض ضئيل في مستوى كمية سكر الدم عند الغروب نتيجة لطول اليوم ، ولكنه في حدود طاقة الجسم وفي المستوى الفسيولوجي الطبيعي . ويجدر أن نذكر هنا أن الملاحظات الآنفة الذكر ، انطبقت على أناس أصحاء . وليس معنى هذا أنها يمكن أن تنطبق على المرضى ، أو ذوي العاهات . ومن المصلحة أن يعرف مدى تأثير رمضان على المصابين بالسكر أو أي أمراض مستعصية .

وقد لوحظ ان هنالك فتورا عاما عند الصائمين خصوصا في الساعات الأخيرة من اليوم ، وربما كان ذلك نتيجة لانخفاض مستويات كمية السكر في الدم ، ولكن سرعان ما يدب النشاط بعد تناول الإفطار .

تعليق الدكتور أ.أ

أثبت هذا البحث الحديث الذي أجراه عالمان مسلمان على أسس علمية سليمة . أن الصوم ليس له تأثير ضار بالجسم . بل بالعكس أود أن أضيف إلى ذلك أن للصوم فوائد ، أثبتها العلم أيضا . أهمها :

١ ـ راحة الجهاز الهضمي ساعات كل يوم ، والمعروف عن الجهاز الهضمي كغيره من الأحشاء الداخلية ، أنه آلة تعمل بلا انقطاع ، من ساعة أن يرضع الطفل لأول مرة من ثدي أمه ، إلى أن يموت . ومن الأمور الطبيعية في علاج كثير من المرضى الصوم عن الطعام لساعات معلومة ، وخاصة منها التحضير للعمليات الكبيرة . إذ يشترط فيها خلو المعدة من الطعام خلوا تاما قبل إعطاء البنج . بل وفي العمليات المستعجلة ربما اضطر الجراح إلى تفريغ المعدة قبل إعطاء البنج

(المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء) . (من كلام طبيب العرب الحارث بن كلدة)

٢ ـ المعروف علميا أن القليل من الطعام خير من الكثير ، بل إن الأكل في مواعيد ثابتة لا يتخللها أكلات خفيفة ، مع أخذ الوجبات بحيث تكفي الطاقة اللازمة للجسم . هو أفضل بكثير من ملء المعدة وحشوها بما يفيد وما لا يفيد ، وهذه في ذاتها إحدى فضائل الصوم الجسمانية حيث يكتفي الصائم بالقليل من الطعام عند إفطاره ، وهذه هي سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم عند صومه ... « وما آتاكم الرسول فخذوه ».

٣ ـ ثابت علمياً أيضا أن الإكثار من الطعام له مضار ظاهرة ، بل وأمراض محددة لها علاقة مباشرة بالإكثار من الطعام ، كبعض الأمراض الروماتزمية ، وأمراض القلب ، وضغط الدم ، والبول السكري . فلا غرو إن كان في الصوم راحة للجسم لمدة محددة كل عام هي $\frac{١}{١٢}$ من عمر المريض .

ويلاحظ انتشار مثل هذه الأمراض بنسبة أعلا منها في البلاد حيث الصوم مفروض ومؤدى .

وبعد فهذه تجربة جريئة لكي يرى من لم يكن قد رأى أثر الصوم في المسلم ، وفي تعوده على الشدة ، وكبح جماع شهوة البطن ، وهي أقوى الشهوات . وفي تكوين الفرد الصلب ، الذي لا يلين . وأن ثلاثة عشر قرنا أو تزيد لشاهدة على تكوين هذا المثل الدائم ، لأثر الصوم ، لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) . اهـ .

وعلى كل حال فليس إثبات مثل هذه الأبحاث إلا من أجل الذين في قلوبهم مرض أما المؤمنون فإنهم يطيعون الله ، بصرف النظر عن أي موضوع آخر ، إذا تأكد لهم أن رضى الله في شيء ثابت الورود عنه ، أو عن رسوله عليه الصلاة والسلام .

٤ ــ ورمضان في الحقيقة مدرسة ، إذا أحسن المنتسبون إليها أدبهم معها خرجوا وهم بشر جدد غير الذين كانوا في الأمس . فرمضان هو المدرسة التي يجدد فيها المسلم ماوهى من عرى الاسلام عنده . ويأخذ ما قصر في أخذه من قبل ، ودورة يقبل بها المسلمون على عالم جديد ، ويخلفون وراءهم عالما آخر . عالما ملؤه همة جديدة ، وروح جديد ، وانتعاش جديد ، وأمل يرتفعون به عن أن تكون الدنيا أكبر همتهم ، ويتذكرون فيه أن الآخرة ورضوان الله فيها هي الهدف الكبير الذي لا ينبغي أن يغيب عن قلب المسلم .

والقصة هي كما يلي : في كتابنا « جند الله ثقافة وأخلاقاً » رأينا أهمية التقوى وماهيتها وأنها الخلق الذي علق الله عليه فلاح المسلم في دنياه وآخرته :

« إن المتقين في جنات ونعيم » .

« واعلموا أن الله مع المتقين » وقال : « والله يحب المتقين » .

وأن هذه التقوى حتى يستجمعها المسلم في قلبه فتكون له خلقا . لا بد أن يسلك لها طريقها وأهم الطرق المؤدية إلى التقوى الصيام ، والقيام ، والأذكار ، والدعاء ، وقراءة القرآن ، والإنفاق في سبيل الله ، والاعتكاف ، والصبر ، والاستغفار .

فقد قال الله عن الصيام : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وقال عن القرآن : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » وقال : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وقال : « إن الله مع الصابرين » .

وقال عليه السلام في الحديث القدسي (وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتّى أحبه) (وأنا معه إذا ذكرني) .

وشهر رمضان هو الشهر الذي يسير به المسلم في كل طرق التقوى بشكل عفوي ، إذا أقام به ما سنه لنا رسول الله ﷺ فما من طريق يحقق التقوى في قلب المسلم ، إلا ويؤديه المسلم الحقيقي في رمضان بشكل عفوي ، فما ينتهي شهر الصوم ، إلا وقد امتلأ قلب المسلم نورا وايمانا وتقوى ؛ فمن سنن الصيام السحور وهو الأكلة ما بين منتصف الليل إلى الفجر . يقول عليه السلام فيه : (تسحروا فإن في السحور بركة) فالسحور معناه أن يكون المسلم قبل الفجر مستيقظا ، ومن سنن هذه الحالة الوضوء ، والصلاة ، والاستغفار ، والتوجه بعد الفجر إلى المسجد لصلاة الفجر ؛ ومن سنة صلاة الفجر . أن يذكر المسلم الله فيها وبعدها ، بأذكار مأثورة واردة ، ومن سنن الصيام الدعاء عند الفطور فللصائم دعوة مستجابة ؟

(اللهم لك صمت ؛ وعلى رزقك أفطرت ؛ وعليك توكلت ، وبك آمنت ؛ ذهب الظمأ ؛ وابتلت العروق ؛ وثبت الأجر يا واسع الفضل اغفر لي ، الحمد لله الذي أعانني فصمت ؛ ورزقني فأفطرت) ومن سنن الصيام صلاة التراويح التي يصليها المسلمون جماعة بعد العشاء ؛ فيجمعون بها ذكرا وقراءة قرآن ، وركوع وسجود وتبتل.

ومن سنن رمضان اعتكاف العشر الأواخر من رمضان ، والاعتكاف قطع لقلب المسلم عن كل ما له علاقة في الدنيا ، وتفرغ لكل أعمال الآخرة .

ومن سنن رمضان أن يكثر المسلم من قراءة القرآن ، وأقل ذلك أن يقرأ القرآن مرة ، ومن سنن هذه القراءة المدارسة المشتركة ؛ فقد كان جبريل يساجل رسول الله القرآن في رمضان .

ومن سنن رمضان الإنفاق في سبيل الله ، فقد كان رسول الله ﷺ في رمضان أجود من الريح المرسلة . ومن سنن رمضان وواجباته صدقة الفطر التي يخرجها المسلم عن نفسه وأولاده الصغار ، غير البالغين ، قال عليه السلام في خطبة قبل يوم الفطر بيوم أو يومين (أدوا صاعا من بر أو قمح أو صاعا من تمر أو شعير عن كل حر أو عبد صغير أو كبير) .

وقال ابن عباس : (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو

والرفث وطعمة للمساكين) وقال عليه السلام (أما غنيكم فيزكيه الله وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى)

والمسلمون في رمضان تعمر مساجدهم بحلقات العلم والوعظ والتذكير ، فيتعلم من كان جاهلا ، ويتعظ من كان سادرا ، ويتذكر من كان غافلا ، وفي رمضان تتلقى أجيال المسلمين كلها الإسلام :

تتلقاه في اجتماع الأسرة قبل الفجر ، وتتلقاه في تحلقها قبل المغرب بانتظار الفطر ، وتتلقاه بالتطبيق العملي إذ يعتبر كثير من فقهاء المسلمين أن من واجب الأولياء أمر ابن السابعة بالصوم ، وضربه عليه اذا بلغ عشرا ، والرسول عليه السلام في العشر الأخير من رمضان ، كان يوقظ أهله في الليل ليأخذوا حظهم من عبادة الله .

ورمضان بعد هذا كله شهر الصبر الذي يعيشه المسلمون في أقطار الدنيا ، فيأخذون منه الدرس الكبير ، ولعل الصبر هو نصف ما يحتاجه الإنسان في هذه الدنيا كلها .

إن رمضان مدرسة تظهر آثار تربيتها في كل شيء ، في الفرد ، وفي الأسرة ، وفي الأمة سياسيا ، وعسكريا ، واقتصاديا ، ونفسيا ، وتربويا ، لتحيي الإسلام في كل شيء .

ب ـ مختارات من نصوص الصوم

(روى البخاري وأبو داود عن أبي هريرة : أن الرسول ﷺ كان يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين) .

(روى الستة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكون معتكفا في المسجد فيناولني رأسه من خلل الحجرة فأغسل رأسه وأنا حائض) .

(وفي رواية : وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان) .

وفي رواية أخرى : كان يمر بالمريض وهو معتكف فيمر ولا يعرج يسأل عنه) .

(وفي أخرى : قالت والسنّة للمعتكف أن لا يعود مريضا ، ولا يشهد جنازة ، ولا يمس امرأة ، ولا يباشرها ، ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بد منه . ولا اعتكاف إلا بصوم ،

ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع) .

(روى الشيخان وأبو داود عن صفية قالت : كان النبي ﷺ معتكفا ، فأتيته أزوره ليلا فحدثته ، ثم قمت لانقلب فقام معي ليقلبني ، وكان مسكنها في دار أسامة ، فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال على رسلكما إنها صفية بنت حيي ، فقالا سبحان الله يا رسول الله ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا أو قال شيئا) .

(روى القزويني عن ابن عمر قال : إن النبي ﷺ كان إذا اعتكف طرح له فراشه ، أو يوضع له سريره وراء أسطوانة التوبة) .

(روى القزويني عن أنس قال : دخل رمضان فقال النبي ﷺ إن هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرمها فقد حرم الخير كله ، ولا يحرم خيرها إلا محروم) .

(روى مالك عن ابن شهاب : أن أبا هريرة وابن عباس اختلفا في قضاء رمضان ، فقال أحدهما : يفرق بينه وقال الآخر لا يفرق) .

(روى الستة عن عائشة قالت : كان يكون علي الصوم من رمضان فما أستطيع أن اقضي إلا في شعبان ، وذلك لمكان رسول الله ﷺ)

(روى مالك والترمذي وأبو داود عن عائشة قالت : كنت أنا وحفصة صائمتين ، فأهدي لنا طعام فأكلنا منه ، فدخل رسول الله ﷺ فقالت حفصة : وبدرتني وكانت بنت أبيها يا رسول الله إني أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدي لنا طعام فأفطرنا عليه فقال اقضيا مكانه يوما) .

(روى الستة إلا النسائي عن أبي هريرة قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل فقال يا رسول الله : هلكت . قال : مالك ؟ قال وقعت على امرأتي وأنا صائم فقال هل تجد رقبة تعتقها ؟ قال لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال لا . قال : هل تجد إطعام ستين مسكينا ؟ قال لا . قال : إجلس فأتى النبي ﷺ بعرق فيه تمر قال : اين السائل ؟ قال : أنا . قال : خذ هذا فتصدق به . فقال : أعلى أفقر مني يا رسول الله ، فوالله ما بين لابتيها – يريد الحرتين – أهل

بيت أفقر من أهل بيتي فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال أطعمه أهلك).

(وفي رواية زاد : وصم يوما واستغفر الله) .

(روى مالك أنه بلغه : أن أنسا كَبِرُ حتى كان لا يقدر على الصوم فكان يفتدي).

(لأحمد والأوسط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من أدركه رمضان وعليه من رمضان شيء لم يقضه فإنه لم يقبل منه ومن صام تطوعا وعليه من رمضان شيء لم يقضه فإنه لا يقبل منه حتى يصومه) .

روى الستة عن عائشة قالت : أن رسول الله ﷺ : كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف ازواجه بعده) .

(روى الترمذي عن أبي سعيد قال : بلغ النبي ﷺ عام الفتح مر الظهران ، فآذنا بلقاء العدو ، فأمرنا بالفطر فأفطرنا أجمعين) .

(روى الشيخان والنسائي عن أنس قال : كنا مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر ، فنزلنا منزلا في يوم حار أكثرنا ظلا صاحب الكساء فمنا من يتقي الشمس بيده فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر) .

(روى الشيخان وأبو داود والنسائي عن جابر قال : كان النبي ﷺ في سفر فرأى رجلا قد اجتمع الناس عليه ، وقد ظلل عليه فقال : ماله ؟ فقالوا : رجل صائم فقال ليس البر أن تصوموا في السفر) .

(روى أصحاب السنن عن رسول الله ﷺ : إن الله وضع شطر الصلاة عن المسافر ، وأرخص له في الإفطار ، وأرخص فيه للمرضع والحبلى اذا خافتا على ولديهما) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد قال : كنا نسافر مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا يجد المفطر على الصائم ولا الصائم على المفطر وكانوا يرون أنه من وجد قوة فصام فحسن . ومن وجد ضعفا فأفطر فحسن) .

(روى الستة عن عائشة قالت : إن حمزة بن عمرو الأسلمي قال للنبي ﷺ : أأصوم

في السفر ؟ وكان كثير الصيام فقال إن شئت فصم وإن شئت فافطر) .

(روى أبو داود والنسائي عن حمزة بن عمرو الأسلمي : أنه قال للنبي ﷺ إنه صاحب ظهر يسافر عليه ، وربما صادفه رمضان قويا شاتيا. الصوم أهون عليه من أن يؤخره فيكون دينا وقال : أفأصوم يا رسول الله أعظم لأجري أو أفطر ؟ فقال أي ذلك شئت يا حمزة) .

(روى البخاري وأبو داود والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ (من أفطر يوما من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صـــامه) .

(روى مالك عن سليمان بن يسار قال : إن رسول الله ﷺ نهى عن صوم أيام التشريق) .

(روى مسلم عن نبيشة الهذلي عن رسول الله ﷺ قال : أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله) .

(روى أصحاب السنن عن صلة بن زفر : كنا عند عمار في اليوم الذي يشك من شعبان أو رمضان ، فأتينا بشاة مصْلية فتنحى بعض القوم فقال : إني صائم فقال عمار : من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم ﷺ) .

(روى مالك : سمعت أهل العلم ينهون عن صوم اليوم الأول الذي يشك فيه أنه من شعبان أو من رمضان إذا نوى به الفرض ويرون أن على من صامه لغير رؤية ثم جاء الثبت أنه رمضان القضاء ، ولا يرون في صيامه تطوعا بأسا) .

(روى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة عـــن رسول الله ﷺ : إذا انتصف شعبان فلا تصوموا) .

(روى أبو داود والترمذي والشيخان والنسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجلا يصوم صومـــاً فليصمه) .

(روى الشيخان عن ميمونة : أن الناس شكوا في صيام رسول الله ﷺ يوم عرفه

فأرسلت إليه بحلاب وهو واقف فشرب والناس ينظرون) .

(روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم)

(للكبير عن كريب قال : أرسلني ناس إلى أم سلمة أسألها أي الأيام كان رسول الله ﷺ أكثر لها صوما ؟ فقالت السبت والأحد ويقول هما يوما عيد للمشركين فأحب ان أخالفهم) .

(روى القزويني عن محمد بن عباد بن جعفر قال : سألت جابرا وأنا أطوف بالبيت أَنَهَى النبي ﷺ عن صيام يوم الجمعة ؟ قال نعم ورب هذا البيت) .

(روى القزويني عن ابن مسعود قال : قلما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة) .

(روى النسائي والترمذي عن عائشة قالت : إن رسول الله ﷺ كان يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس) .

(روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ تعرض الأعمال على الله يوم الإثنين ويوم الخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم) .

(روى الترمذي وأبو داود عن مسلم القرشي قال : سألت أو سئل رسول الله ﷺ عن صيام الدهر فقال إن لأهلك عليك حقا فصم رمضان ، والذي يليه ، وكل أربعاء وخميس ، فإذا أنت قد صمت الدهر كله) .

(روى الترمذي وأبو داود عن معاذة العدوية : سألت عائشة : أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت نعم قلت من أي الشهر كان يصوم ؟ قالت لم يكن يبالي من أي الشهر كان يصوم) .

(روى مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي قتاده قال : سئل رسول الله عن صوم الاثنين قال : ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل علي فيه) .

(لأصحاب السنن عن ابن مسعود : كان رسول الله ﷺ يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام) .

(روى الشيخان والترمذي وأبو داود عن أبي سعيد : أن رسول الله ﷺ نهى عن صيام يومين يوم الفطر ويوم النحر) .

(لأبي داود والترمذي وللشيخين مطولا عن أبي عبيد مولى ابن أزهر : شهدت عمر في يوم نحر بدأ بالصلاة قبل الخطبة ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن صوم هذين اليومين ، أما يوم الفطر ففطركم من صومكم وعيد المسلمين وأما يوم الأضحى فكلوا من لحوم نسككم) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد المفروضة الصلاة في جوف الليل) .

(روى الترمذي عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ : صيام يوم عاشوراء إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله) .

(روى مسلم وأبو داود عن ابن عباس قال : حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا يا رسول الله : إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى فقال : فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمت اليوم التاسع فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ) .

(ولرزين : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود) .

(روى الشيخان والنسائي عن ابن عباس : ما صام رسول الله ﷺ شهراً كاملا قط غير رمضان ، وكان يصوم حتى يقول القائل لا والله ما يفطر ، ويفطر حتى يقول القائل لا والله ما يصوم) .

(وللستة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم ، وما رأيته استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان وما رأيته في شهر أكثر منه صياما في شعبان) .

(روى النسائي عن أسامة قال : قلت يا رسول الله : لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان . قال : ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم) .

(روى أبو داود : كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات فإن لم يجد فتميرات فإن لم تكن حسا حسوات من ماء) .

(روى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أفطر قال ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله) .

(روى البخاري وأبو داود والترمذي عن عامر بن ربيعة قال : رأيت رسول الله ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أعد ولا أحصي) .

(روى البخاري في ترجمة عن ابن عمر قال : يستاك الصائم أول النهار وآخره).

(روى الشيخان وأبو داود ومالك عن ابن عمر قال : إن النبي ﷺ نهى عن الوصال قالوا إنك تواصل قال إني لست كهيئتكم إني أُطعم وأُسقى) .

(روى البخاري وأبو داود عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر قالوا فإنك تواصل .... بنحوه) .

(روى مسلم والترمذي وأبو داود عن أبي أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر) .

(وللدارمي عن ثوبان عن رسول الله ﷺ قال : صيام شهر بعشرة أشهر وستة أيام بعده بشهرين فذلك تمام السنة) .

(روى ابو داود والنسائي عن هنيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت كان النبي ﷺ يصوم تسع ذي الحجة ويوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر أول إثنين من الشهر والخميس) .

(روى الترمذي عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ : صيام يوم عرفة إني أحتسب على الله أن يكفر السنة التي بعده والسنة التي قبله) .

(روى الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : لا يمنعن أحدكم أذان بلال من سحوره فإنه يؤذن أو قال ينادي بليل ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم وليس الفجر أن يقول هكذا وجمع بعض الرواة كفيه حتى يقول هكذا ومد أصبعيه السابتين وفي رواية هو المعترض وليس بالمستطيل) .

(روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن عمر عن رسول الله ﷺ قال : إذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم) .

(روى الشيخان وأبو داود عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر في رمضان فلما غابت الشمس قال يا فلان : إنزل فاجدح لنا . قال يا رسول الله: إن عليك نهارا قال إنزل فاجدح لنا فنزل فجدح فشرب ﷺ ثم قال بيده : إذا غابت الشمس من هاهنا وجاء الليل من هاهنا فقد أفطر الصائم) .

(روى الشيخان ومالك والترمذي عن سهيل بن سعد عن رسول الله ﷺ :لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر) .

(روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل أحب عبادي إلي أعجلهم فطرا) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن مالك بن عامر أبو عطية : قلت لعائشة رضي الله عنها فينا رجلان من أصحاب النبي ﷺ أحدهما يعجل الإفطار ويؤخر السحور والآخر يؤخر الإفطار ويعجل السحور قالت أيهما الذي يعجل الإفطار ويؤخر السحور ؟ قلت : عبد الله بن مسعود . قالت : كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ. وفي رواية : أحدهما يعجل الإفطار ويعجل الصلاة والآخر يؤخر الإفطار ويؤخر الصلاة) .

(روى النسائي عن أبي عبيدة عن رسول الله ﷺ قال : الصوم جنة مالم يخرقها).

(عن أبي أمامة قال : قلت يا رسول الله : مرني بأمر ينفعني الله به قال عليك بالصوم فإنه لا مثل له) .

(روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله قال : من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وأسقاه) .

(في الأوسط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من أكل أو شرب ناسياً في رمضان فلا قضاء عليه ولا كفارة) .

(وفي الأوسط ولأحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من أدركه رمضان وعليه رمضان آخر لم يقضه لم يقبل منه) .

(روى البخاري وأبي داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) .

(روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا باذنه) . ـ وهذا في النفل والقضاء ـ .

(روى مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إذا دعي احدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطرا ليطعم وإن كان صائما فليصل قال هشام يريد فليدع لهم) .

(روى الشيخان والترمذي والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ : تسحروا فإن في السحور بركة) .

(روى الشيخان والترمذي والنسائي عن زيد بن ثابت قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قال أنس قلت كم بينهما ؟ قال قدر خمسين آية) .

(عن حذيفة عن رسول الله ﷺ قال : لا تقدمـــوا الشهر حتى تروا الهلال أو تكملوا العدة ثم صوموا حتى تروا الهلال أو تكملوا العدة) .

(روى أبو داود عن حسين بن الحارث الجدلي عن الحارث بن حاطب قال : عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننسك لرؤيته فإن لم نره وشهد شاهدا عدل نسكنا بشهادتهما وقال : إن فيكم من هو أعلم بالله ورسوله مني وقد شهد هذا من رسول الله ﷺ وأومأ إلى ابن عمر فقال : بذلك أمرنا رسول الله ﷺ) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن عائشة قالت : دخل عليَّ النبي ﷺ ذات يوم فقال عندكم من شيء فقلنا لا قال فإني إذاً صائم ثم أتانا يوما آخر فقلنا يا رسول الله أُهديَ لنا حيس قال أَرِنيه فقد أصبحت صائما فأكل) .

(وفي رواية : قلت يا رسول الله دَخَلْتَ علي وأنت صائم ثم أكلتَ حيسا قال نعم يا عائشة إنما منزلة من صام في غير رمضان أو وفي غير قضاء رمضان في التطوع بمنزلة رجل أخرج صدقة من ماله فجاد منها بما شاء فأمضاه وبخل بما بقي فأمسكه).

(وفي رواية قال الصائم المتطوع أمين أو أمير نفسه فإن شاء صام وإن شاء أفطر) .

(وعن عائشة : قالت : يقبلني رسول الله ﷺ وهو صائم وأنا صائمة) .

(روى أبو داود عن أبي هريرة قال : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن المباشرة للصائم فرخص له وأتاه آخر فسأله فنهاه ، فإذا الذي رخص له شيخ وإذا الذي نهاه شاب) . والمقصود بالمباشرة لمس البشرة بالبشرة لا الجماع .

(روى الستة عن عائشة وأم سلمة : قال أبو بكر بن عبد الرحمن : سمعت أبا هريرة يقص يقول في قصصه من أدركه الفجر جُنُباً فلا يصم فذكرت ذلك لأبي فأنكره فانطلق وانطلقت معه حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة فسألهما عن ذلك فكلتاهما قالت :

كان النبي ﷺ يصبح جنبا من غير حلم ثم يصوم فانطلقنا حتى دخلنا على مروان فذكر ذلك له عبد الرحمن فقال مروان ، عزمت عليك إلا ما ذهبت إلى أبي هريرة فرددت عليه ما يقول . فجئنا أبا هريرة فذكر له عبد الرحمن فقال أبو هريرة : أهما قالتاه لك ؟ قال نعم قال هما أعلم ثم رد ما كان يقول إلى الفضل بن عباس فقال سمعت ذلك من الفضل ولم أسمعه من النبي ﷺ فرجع أبو هريرة عما كان يقول) وفي رواية قالتا : إن كان رسول الله ﷺ ليصبح جنباً من جماع غير احتلام في رمضان ثم يصوم) .

(روى الستة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : قال كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي . للصائم فرحتان فرحة عند فطوره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك) .

(روى الشيخان عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال : في الجنة باب يدعى الريان يدعى له الصائمون فمن كان من الصائمين دخله ومن دخله لم يظمأ أبداً) .

(روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من فطّر صائما كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً) .

(وفي الأوسط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : أغزوا تغنموا وصوموا تصحوا وسافروا تستغنوا) .

(روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من صام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) .

(روى الشيخان ومالك والنسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين) .

(روى الترمذي عن أم عمارة بنت كعب الأنصارية عن رسول الله ﷺ قال : الصائم إذا أكلتْ عنده المفاطير صلت عليه الملائكة) .

(روى مالك والشيخان وأبو داود عن ابن عمر قال : إن رجالا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال ﷺ أرى رؤياكم تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر . وفي رواية في العشر الأواخر) .

الركن الخامس : الحج

(أ) نظرات عامة في الحج

١ ـ الحج مجموعة رموز صيغت بأعمال :

فهو رمز على استسلام الإنسان لله إذا بلغه أمر الله بواسطة رسوله ، إذ ينفذ الأمر بصرف النظر عن المعنى العملي لهذا الأمر ، وما الطواف ، والوقوف ، والسعي والحلق ، والتقصير وغيرها من اعمال الحج ، إلا رمز استسلام المسلم لأمر الله دون نقاش .

وهو رمز على ارتباط هذه الأمة بأبيها إبراهيم عليه السلام حيث نحيي شعائره ، ونطوف بالبيت الذي بناه .

وهو رمز على وحدة الأمة الإسلامية ، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان ، فوحدة المسلمين نابعة عن عقيدتهم ودينهم وشريعتهم .

٢ ـ والحج مظهر عملي لكثير من قواعد الإسلام :

فهو المظهر العملي للأخوة الإسلامية ، حيث يحس الإنسان بشكل عملي أنه أخ لكل مسلم في العالم .

وهو المظهر العملي للمساواة بين الشعوب اذا دخلت في الاسلام ، وهو المظهر العملي لقوله تعالى « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فبه يتم أعظم تعارف بين شعوب العالم .

وهو المظهر العملي لخضوع المسلمين جميعا لسلطة سياسية واحدة .

٣ ـ والحج مدرسة يرتفع بها المسلم إلى آفاق أرقى وأعلى :

يتعلم بها على بذل الجهد مع الصبر « لكن أفضل الجهاد حج مبرور » .

ويتعلم بها أن يعيش في عبادة دائمة .

ويتعلم بها أن يكون لطيفاً مع المؤمنين رحباً بهم .

ويتعلم بها كبح عواطفه ، وإلجام نزواته .
ويتعلم بها دروسا من الإخشيشان والقسوة .
ويتعلم بها دروس العبودية لله .
ويتعلم بها كيف ينفق في سبيل الله دون مقابل .
ويتعلم بها كيف يعظم ما عظمه الله . وكيف يحقر ما حقره الله .
ويتعلم بها أن يعادي من عادى الله ، وأن يوالي من والاه .

٤ ــ والحج يحيي في نفس الإنسان مشاعر كثيرة :

يحيي فيه مشاعر العطف على المسلمين ، والانتصار لمأساتهم ، ومشاعر الجيل الإسلامي الأول الذي عاش هنا ، وحياة الاضطهاد من أجل العقيدة التي عاناها .
ومشاعر الولاء لله والرسول والمؤمنين .
ومشاعر التوجه الخالص لله .
ومشاعر التجرد عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة .
ومشاعر العزم على فتح صفحة جديدة مع الله .

٥ ــ وفي كل فعل من أفعال الحج عظات ومعان ، اذا تحسسها الإنسان ولدت معه مفاهيم ربانية أكثر ، وسلوكا إسلاميا أجود ، وتأسيا برسول الله أعلى :

مجمع الناس عرفات قبل طواف الركن ، حيث يجتمع في يومه كل من نوى الحج ، ليبدأ كل الناس منطلقهم منه دفعة واحدة لتعظيم البيت ، ثم يزدلفون منه نحو البيت إلى مزدلفة ، وقد تابوا وأنابوا وأقبلوا على البيت بنفوس أطهر وأكثر شفافية .

ومن مزدلفة ينطلقون إلى منى ، ليرموا الجمار قبل أن يطوفوا معلنين أن عدو الله هو عدوهم ؛ ويذبحون لله شكرا على أن أباح لهم بهيمة الأنعام ، ويحلقون استعدادا للطواف بنفوس نظيفة ، وثياب نظيفة ، ومنظر حسن .

ثم يطوفون بالبيت معظمين له ، لتعظيم الله إياه « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » ثم يسعون بين الصفا والمروة فعل أمهم الصالحة ، يوم ابتدأ أمر التمهيد لبناء بيت الله .

ويخرج الإنسان من هذه الرحلة وقد ولد من جديد ، ويرجع مرة ثانية ليرمي الجمار معلناً الشيطان بالعداء أولاً وآخراً .

٦ ــ والحج عودة بالمسلمين إلى مراكز الإسلام الأولى ، دين إبراهيم ومحمد عليهما السلام . فتقوى في المسلم رابطته بهذه المراكز ، على أنها وطنه الروحي ، وقبلته

الوحيدة ، ووجهة جسمه . ومنطلق تطلعاته . وآماله ، فيرجع منه وقد تغيرت كثير من معالم صورة الحياة لديه . فبعد أن كان ارتباطه بمراكز الإسلام نظريا ، أصبح حقيقة وواقعا . وحسا وعملا . وفي النصوص التالية إشارات لمن تأمل .

روى الإمام أحمد والطبراني في الكبير عن أبي الطفيل :

قلت لابن عباس يزعم قومك أنه صلى الله عليه وسلم سعى بين الصفا والمروة وأنه سنة . قال : صدقوا أن إبراهيم لما أمر بالمناسك اعترض له الشيطان ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع ثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض قال : يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودي من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض ، أقرن ، أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش . قال : ثم ذهب به جبريل إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حتى ذهب ، ثم ذهب به جبريل إلى منى . قال : هذا منى مناخ الناس ، ثم أتى به جمعا قال : هذا المشعر الحرام ، ثم ذهب به إلى عرفة ، هل تدري لم سميت عرفة ؟ قلت : لا قال : إن جبريل قال لإبراهيم هل عرفت ؟ قال نعم فمن ثم سميت عرفه . هل تدري لم كانت التلبية ؟ قلت وكيف كانت ؟ قال : إن إبراهيم لما أمر أن يؤذن في الناس بالحج . خفضت له الجبال رؤوسها ، ورفعت له القرى فأذن بالناس بالحج) .

روى الطبراني في الكبير قال ابن عمرو بن العاص :

طوفوا بهذا البيت ، واستلموا هذا الحجر ، فإنهما كانا حجرين أهبطا من الجنة ، فرفع أحدهما ، وسيرفع الآخر ، فإن لم يكن كما قلت ، فمن مر بقبري فليقل هذا قبر عبد الله بن عمرو الكذاب) .

وروى البزار والطبراني في الكبير عن ابن عمر :

أن النبي ﷺ أتاه في مسجد منى رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف ، فقالا : يا رسول الله جئنا نسألك فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه وإن شئتما أمسك وتسألاني فقالا : أخبرنا يا رسول الله . فقال للأنصاري : جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك

فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه ، وعن حلقك رأسك ومالك فيه ، وعن طوافك بالبيت بعد ذلك ومالك فيه . فقال : والذي بعثك بالحق لعنْ هذا جئت أسألك قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني اسماعيل ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة . يقول عبادي جاؤني شعثاً وغبرا من كل فج عميق يرجون جنّتي . فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل ، أو كقطر المطر ، وزبد البحر لغفرتها . أفيضوا عبادي مغفورا لكم وعمن شفعتم له . وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات . وأما نحرك فمدخور لك عند ربك . وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، وتمحي عنك خطيئة . وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول إعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى . للبزار والكبير .

(عن ابن مسعود رفعه : تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرما إلا غابت الشمس بذنوبه) النسائي والترمذي بلفظه .

(أبو هريرة رفعه : العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)

(وفي رواية : من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) للستة إلا أبو داود .

(وعن أبو هريرة رفعه : الحُجّاج والعُمّار وفد الله إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم) . للقزويني .

وبعد : فالحج إحياء لأخلد ذكريات ربانية عرفها البشر ، ذكرى الأسرة التي لا تبالي في الله بشيء ، ذكرى الولد الذي يقدم نفسه قرباناً لله ، ذكرى الوالد الذي يقدم ابنه قرباناً لله ، ذكرى الأم التي تثق برعاية الله ثقة لا حد لها ، وتطيعه وتطيع سيدها طاعة لا حد لها . ذكرى التوكل الكامل ، ذكرى العودة الفاتحة الى البيت الذي أخرج من جواره المستضعفون .

والحج ميزان يعرف به المهتمون بأمر المسلمين ، حال المسلمين ، فالأمة الإسلامية

بما فيها من قوة أو خير ، من ضعف أو جهل ، من ذلة أو فقر ، من عزة أو غنى ، بما فيها من كل شيء ، لا تعرف كما تعرف في الحج .

والحج معول الهدم الأول ، في كل حاجز يوضع بين أبناء هذه الأمة ، حاجز القومية ، والوطنية ، والمال ، والجاه ، والسلطان ، والشيطان ، كل هذا يزول بضربة واحدة من معول الحج العظيم .

والحج قبل هذا وبعده ، طريق من طرق الخلاص من براثن الشيطان ، إلى معية الرحمن . فالمسلم الذي يرمي الجمرة قبل طوافه بالبيت ، ثم يطوف بالبيت ، ثم يرجع ليرمي ، لا شك أنه تحقق لو تأمل بقوله تعالى « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

ولا شك أن علماء المسلمين ، لو أحسنوا للحج وفي الحج ، لكان الحج حلاً لكل مشاكل المسلمين .

(ب) صورة حديثية للحج

قال ابن عباس : (من السنة أن لا تحرم بالحج إلا في أشهر الحج) البخاري .

وقال : وقّتَ رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة ، ولأهل الشام الجحفة ، ولأهل نجد قرن المنازل ، ولأهل اليمن يلَمْلَمْ . قال : فهن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج والعمرة فمن كان دونهن فَمَهَلّه من أهله حتى أهل مكة يهلون منها) رواه الستة إلا مالكا .

وروى ابن عمر : (سئل رسول الله ﷺ ما يلبس المحرم؟ قال : لا يلبس المحرم القميص ولا العمامة ولا البرنس ولا السراويل ولا ثوبا مسه وَرْسٌ ولا زعفران ولا الخفين إلا أن لا يجد نعلين فليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين) رواه الستة .

وقالت عائشة : كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه) أبو داود

وللترمذي : أن النبي ﷺ تجرد لإهلاله واغتسل .

وللرزين : (انه أي النبي ﷺ اغتسل لإحرامه ولطوافه بالبيت ولوقوفه بعرفة).

وعن أبي بكر : (أنه خرج حاجا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ومعه امرأته اسماء بنت عميس الخثعمية فلما كانوا بذي الحليفة ولدت أسماء محمد بن أبي بكر

فأتى أبو بكر النبي ﷺ فأخبره فأمره أن يأمرها أن تغتسل ثم تهل بالحج وتصنع ما يصنع الناس إلا أنها لا تطوف بالبيت) النسائي . وقال ابن عمر : الحائض تهل بالحج والعمرة وتشهد المناسك كلها غير أنها لا تطوف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ولا تقرب المسجد حتى تطهر) مالك .

لأبي داود عن ابن جبير : قلت لابن عباس يا أبا العباس عجبت لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في إهلاله حين أوجب فقال : إني لأعلمُ الناس بذلك إنما كانت من رسول الله ﷺ حجة واحدة، فمن هناك اختلفوا . خرج رسول الله ﷺ حاجا فلما صلى بمسجده في ذي الحليفة ركعتيه ، أوجب في مجلسه فأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه ، فسمع ذلك منه أقوام فحفظته عنه ، ثم ركب فلما استقلت به ناقته أهل وأدرك ذلك منه أقوام ، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون أرسالا ، فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل فقالوا : إنما أهل حين استقلت به ناقته ، ثم مضى فلما علا على شرف البيداء أهل وأدرك ذلك منه اقوام فقالوا : إنما أهلّ حين علا على شرف البيداء ، وأيم الله لقد أوجب في مصلاه ، وأهلّ حين استقلت به ناقته ، وأهل حين علا على شرف البيداء . قال ابن جبير فمن أخذ بقول ابن عباس أهل في مصلاه إذا فرغ من ركعتيه).

ولأبي داوود والنسائي عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ :

(يلبي المقيم أو المعتمر حتى يستلم الحجر) .

وللستة عن ابن عمر (سمعت رسول الله ﷺ يهل ملبيا يقول: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . لا يزيد على هذه الكلمات) .

وروى أبو داوود عن جابر مثل هذا وزاد جابر :

(والناس يزيدون ذا المعارج ونحوه من الكلام والنبي ﷺ يسمع ولا يقول شيئا).

وروى الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن عمر قال :

(تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج فأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة وبدأ فأهلّ بالعمرة ، ثم أهل بالحج ، وتمتع الناس معه . فكان منهم من أهدى ، ومنهم من لم يهد ، فلما قدم مكة قال للناس من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شيء حرم عليه حتى يقضي حجه ، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ، ثم ليهل بالحج وليهد ، فمن لم يجد هديا

فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله . وطاف رسول الله ﷺ حين قدم مكة فاستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أطواف من السبع ، ومشى أربعة ، ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين ، ثم سلم ، فانصرف فأتى الصفا ، فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف ، ثم لم يحلل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ، ونحر هديه يوم النحر ، وأفاض فطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه ، وفعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ من أهدى فساق الهدي من الناس) .

وروى مسلم وأبو داوود والنسائي عن جابر قال :

(إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذّن في الناس في العاشرة أنه حاج . فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم به ، ويعمل مثل عمله . فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع ؟ قال اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي . وصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء حتى استوت به على البيداء نظرت الى مد بصري بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملنا به . فأهل بالتوحيد لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك ، وأهل الناس بهذا الذي يهلون به فلم يرد عليهم ﷺ شيئاً منه ولزم ﷺ تلبيته لسنا ننوي إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن ، فرمل ثلاثا ، ومشى أربعا ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» ، فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان أُبَيّ يقول ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ كان يقرأ في الركعتين « قل هو الله أحد» ، و«قل يا أيها الكافرون» ، ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا ، فلما دنا من الصفا قرأ «إن الصفا والمروة من شعائر الله» ، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه ، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك ، قال هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي رمل ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى إذا أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا ، حتى إذا كان آخر طواف على المروة قال : لو أني استقبلت من

أمري ما استدبرت لم أسُق الهدي ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة ، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدة في الأخرى وقال : دخلت العمرة في الحج هكذا مرتين لا بل للأبد ، وقدم عليٌّ من اليمن ببدن النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجد فاطمة ممن حل ولبست ثيابا صبيغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت أبي أمرني بهذا . وكان علي يقول بالعراق فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشا على فاطمة للذي صنعت مستفتيا له فيما ذكرت منه ، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها ، فقالت أبي أمرني بهذا فقال صدقت صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ قال قلت اللهم إني أهل بما أهل به رسولك صلى الله عليه وسلم قال : فإن معي الهدي فلا تحل ، قال : فكان جماعة الهدي الذي قدم به عليٌّ من اليمن والذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم مئة . فحلَّ الناس كلهم وقصّروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي ، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر فضربت له بنمرة ، فسار ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فركب فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وان أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا في بني سعد ، فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله . واتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ، وانتم تسألون عني فما أنتم قائلون . قالوا نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت فقال : بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد أللهم اشهد . ثلاث مرات ، ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه . واستقبل القبلة فلم يزل

واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً حين غاب القرص . فأردف أسامة خلفه ، ودفع صلى الله عليه وسلم وقد شنق للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله . ويقول بيده أيها الناس السكينة السكينة السكينة ، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً . ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة. ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فرقي عليه ، فاستقبل القبلة ، فحمد الله وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر ، أبيض وسيماً ، فلما دفع ﷺ مرت ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر اليهن ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه من الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل ، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج إلى الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، منها كحصى الخزف ، رمى من بطن الوادي ، ثم انصرف الى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر ، وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة ، فجعلت في قدر ، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها ، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر ، فأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فقال : انزعوا بني عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه . لمسلم وأبي داود والنسائي .

وفي رواية : قال صلى الله عليه وسلم نحرت ها هنا ومنى كلها منحر ، انحروا في رحالكم ، ووقفت ها هنا وعرفة كلها موقف . ووقفت ها هنا والجمع كلها موقف .

عن ابن عباس : أن أسامة كان ردف النبي صلى الله عليه وسلم من عرفة إلى المزدلفة ، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى وكلاهما قال لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يلبي حتى رمى جمرة العقبة . للستة إلا مالكا .

(عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رمى الجمرة التي تلي المنحر ومسجد منى رماها بسبع حصيات ويكبر كلما رمى بحصاة ثم تقدم أمامها فوقف مستقبلاً القبلة رافعاً يديه ويطيل الوقوف ، ثم يأتي الجمرة الثانية فيرميها

بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم ينحرف ذات الشمال ، فيقف مستقبلاً القبلة رافعاً يديه يدعو ، ثم يأتي الجمرة التي عند العقبة ، فيرميها بسبع حصيات ولا يقف عندها . للبخاري والنسائي .

(عن عبد الرحمن بن زيد : رمى ابن مسعود جمرة العقبة من بطن الوادي بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، فجعل البيت عن يساره ، ومنى عن يمينه ، فقيل له إن أناساً يرمونها من فوقها فقال هذا والذي لا إله غيره مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة) . للستة إلا مالكاً .

(عن ابن عباس : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو على راحلته هات ألقط لي فلقطت له حصيات من حصى الخزف فلما وضعتهن في يده قال بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) . للنسائي .

(عن جابر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي يوم النحر ضحى ، وأما بعد ذلك فبعد زوال الشمس) . للستة إلا مالكاً .

(عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منى فاتى الجمرة فرماها ، ثم أتى منزله بمنى ونحر ، ثم قال للحلاق خذ ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ، ثم جعل يعطيه الناس) .

(عن علي : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحلق المرأة رأسها ، وزاد رزين : في الحج والعمرة وقال إنما عليها التقصير) .

(عن ابن عمرو بن العاص : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه ، فجاءه رجل فقال : لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح قال إذبح ولا حرج فجاءه آخر فقال لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي قال إرم ولا حرج فما سئل يومئذ عن شيء قدم أو أخر إلا قال إفعل ولا حرج) . للستة إلا النسائي .

(وللشيخين : قال : حلقت قبل أن أرمي قال إرم ولا حرج وأتاه آخر فقال : إني ذبحت قبل أن أرمي فقال إرم ولا حرج وأتاه آخر فقال : إني أفضت إلى البيت قبل أن أرمي قال إرم ولا حرج) .

(عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير فقال لا حرج) . لأبي داود والنسائي والشيخين بلفظهما .

(وفي رواية : رميت بعد ما أمسيت فقال لا حرج) .

(وفي رواية : زرت قبل أن أرمي قال لا حرج) .

(عن عمر : خطب الناس في عرفة فقال : إذا جئتم منى غداً فمن رمى الجمرة فقد حل له ما حرم على الحاج إلا النساء والطيب لا يمس أحد نساء ولا طيباً حتى يطوف بالبيت) لمالك .

(عن ابن عباس : قال إذا رمى الجمرة فقد حل له كل شيء إلا النساء قيل والطيب ؟ قال : أما أنا فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتضمخ بالمسك أو طيب هوَ ؟) للنسائي .

(عن جابر : كنا نتمتع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها) .

(عن مالك : بلغه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بمنى هذا المنحر وكل منى منحر ، وقال : في العمرة هذا المنحر يعني المروة وكل فجاج مكة وطرقها منحر) .

(عن جابر : كنا لا نأكل من لحوم بدننا فوق ثلاث . فأرخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كلوا وتزودوا) .

(وفي رواية : كنا نتزود لحم الهدي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة) . للشيخين .

(عن علي : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقوم على بُدنه وأتصدق بلحمها وجلودها وأجلتها ولا أعطي الجزار منها وقال : نحن نعطيه من عندنا) . للشيخين وأبي داود .

(عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قدم مكة وهو يشتكي فطاف على راحلته كلما أتى على الركن استلمه بمحجن فلما فرغ من طوافه أناخ وصلى ركعتين) .

(ولمسلم وأبي داوود عن جابر قال : طاف رسول الله ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت يستلم الحجر بمحجن وبين الصفا والمروة ليراه الناس وليشرف وليسألوه فإن الناس غشوه) .

(وروى البخاري عن ابن عباس قال : يا أيها الناس اسمعوا مني ما أقول لكم

وأسمعوني ما تقولون ولا تذهبوا فتقولوا قال ابن عباس. قال ابن عباس من طاف بالبيت فليطف من وراء الحجر ولا تقولوا الحطيم فإن الرجل في الجاهلية كان يحلف فيلقي سوطه أو نعله أو قوسه).

(وروى البخاري عن ابن جريج : أخبرني عطاء أنْ مَنَعَ ابن هشام النساء الطواف مع الرجال قال : كيف يمنعهن وقد طاف نساء النبي ﷺ مع الرجال قلت أبعد الحجاب أو قبله ؟ قال : لقد أدركته بعد الحجاب. قلت : كيف يخالطن الرجال ؟ قال : لم يكن يخالطن كانت عائشة تطوف حجزة من الرجال لا تخالطهم فقالت امرأة انطلقي نستلم يا أم المؤمنين قالت : انطلقي عني وأبت وكن يخرجن متنكرات بالليل فيطفن مع الرجال ...)

(وروى الإمام أحمد عن سعيد بن مالك قال : طفنا مع رسول الله ﷺ فمنا من طاف سبعا ، ومنا من طاف ثمانيا ، ومنا من طاف أكثر من ذلك فقال النبي ﷺ لا حرج).

(ولمالك والنسائي عن جابر قال : إن رسول الله ﷺ كان إذا نزل من الصفا مشى حتى إذا انتصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى يخرج منه).

وبعد : هذا هو الأساس :

إن أساس الإسلام هذه الأركان الخمسة. بها يعرف إسلام الإنسان وبها يعرف إسلام الشعب ، وبها يعرف إسلام الحكم ، وبها يعرف إسلام الأمة ، وبدونها لا يقوم إسلام لا في نفس الفرد ولا في نفس الشعب ، ولا في نفس الحكم ، ولا في نفس الأمة.

فالإنسان الذي لا يشهد الشهادتين مؤديا مضمونهما ، مجتنبا نواقضهما ، مصليا لله بعدهما مزكيا صائما حاجا كيف يقوم الإسلام عنده أو به قياما صحيحا.

والشعب الذي لا يُربى على الإسلام لله بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج ، لا يطمع منه أن يؤدي واجبات الإسلام الأخرى.

والحكم الذي لا يستسلم كل فرد لله فيه بهذه الأركان ، والذي لا يسعى جاهدا لإحيائها والتشجيع عليها ، أو الذي يقف حاجزا دونها. فلا يسمح بحج ، ويشجع على الفطر ، ولا يأخذ زكاة ويؤتيها ، ولا يبالي بصوم ، ويتبنى شعارات تناقض الشهادتين كيف يكون إسلاميا ، وكيف يطمع منه بأن يقيم الإسلام. ومن أفظع ما وقع فيه المسلمون من أوهام وأخطاء ، أنهم أوصلوا باختيارهم أحيانا إلى سدة الحكم ناسا من أبناء المسلمين لا يؤمنون بغيب ، ولا يقيمون صلاة ، ولا يؤتون زكاة ، ولا يصومون

ولا يحجون ، وهم يطمعون منهم أن يجعلوا الإسلام دين دولتهم الرسمي ، عقيدة ونظاما نصا وروحا ، إنه لا إسلام بلا مسلمين ، ولا مسلمون وأركان الإسلام مهدمة في نفوسهم .

والأمة التي تهدمت أركان الإسلام في أنفسها ، أمة لم يعد لها من الإسلام إلا اسمه .

واذا كانت المسألة هكذا ، فلا بد من أن يعيد المسلمون الحقيقيون النظر في كثير من الأمور ، ويجهدوا من أجلها ، فيقيموا أركان الاسلام في أنفسهم إقامة أجود ، ويتزنون بها الناس أكثر ، ويجهدون في الدعوة لقيامها أكثر الجهد ، إذ أن هـذه المرتكزات لو قامت قيامـا صحيحا ، واستفيد من الحركية التي تتمخض عنها — في اجتماعات المسلمين لصلواتهم ، وفي مساجدهم وجمعهم ، وفي المال العظيم المتجمع عن طريق الزكاة ، وفي رمضان الذي هو شهر الانظلاق ، وفي الحج الذي هو التذكير العملي بالمنهج النظري والسياسي للإسلام — ، لصلح أمر المسلمين .

كما أن عليهم أن يجهدوا في تبيانها وتوضيحها ، وأن يؤكدوا أنها الميزان الذي يجب أن يزن به المسلمون إسلام الحاكمين والمحكومين وإسلام الحكم .

ولكن كما يجب التركيز على هذه الأركان الخمس من حيث مضمونها ، فيجب التركيز كذلك على أنها أركان الإسلام وأساسه ، وليست كل الإسلام ، بل الإسلام بناء يقوم على هذه الأركان ، فمهما كانت أهمية الركن ، فإنه لا يستغنى به عن البناء ، فالتركيز على أهمية الركن ينبغي أن يرافقه التركيز على أنه ركن فحسب ، وأن هذا الركن ينبغي أن يقوم عليه بناؤه ، وأن المسلم بدون هذا يكون كمن بنى الأساس في أرض ثم أبقاه ولم يبن عليه ، فيكون هذا عجيبا : أساس قد عطل عن البناء عليه .

والفصول الثلاثة الآتية إنما تفصل موضوع البناء بعد الأركان فإلى الفصل الأول منها :

(المنهاجان الاجتماعي والأخلاقي في الإسلام) الذي جعلناه هو والباب الأول من الفصل الثالث ، الجزء الثاني من الأصل الثالث .

* * *

الفهرس



الأصل الثالث

الإسلام



دراسات منهجية هادفة

حول الأصول الثلاثة:

الله، الرسول، الإسلام

الأصل الثالث

الإسلام

الجزء الثاني

تأليف

سعيد حوى

راجعه الأستاذ

وهبي سليمان الغاوجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الفصل الثاني

المنهاج الأخلاقي والاجتماعي

المقدمة : الانسان بلا اسلام

عندما يغيب الاسلام عن مسرح الحياة لا يبقى شيء في الأرض في محله، ولا يبقى شيء ثابتاً. تختل المقاييس ، وتزول المعايير ، ويصبح حرام الأمس حلالاً ، وحلال الأمس حراماً، وما يقر اليوم يلغى غداً، وما يثبت غداً يلغى بعد غد، وتنطلق أهواء البشر لتعبر عن نفسها بنظريات متضاربة متناقضة ، لا يعرف الانسان بها ومعها لنفسه مدخلاً أو مخرجاً، فيحار ويدور ولا يكف عن الدوران، ومهما تصور أنه عارف ماذا يعمل فإنه في الحقيقة لا يدري لماذا يعمل ، ولماذا يريد كل جيل يريد أن يعبر عن ذاته بشكل مختلف عن الجيل الذي قبله ، وكل فرد في جيل يريد أن يعبر عن ذاته بشكل مختلف عن الآخر ، وليس هناك أصل يرجع الناس إليه ، أو يعترفون به ، فلا تقوم على أحد حجة ، ولا يخضع انسان لرأي ، ومهما أراد أحد أو سلطان أن يرد الناس إلى نظام ، فإنهم يستعصون عليه . أليس الانسان حراً ؟

ويومئذ يصبح البشر نوعاً من الحيوانات السائمة تماماً ، بل لعله في هذه الحالة يكون أردأ أنواع الحيوانات . إذ أنه سيسخر إمكاناته العلمية في طريقها المنحرفة ، فيأتي بما لا يستطيع أي حيوان مهما كان شريراً أن يفعل أقل منه بآلاف المرات .

وهذا الكلام هو واقع الانسان اليوم ، وسيزداد هذا الواقع سوءاً ، وإلا فماذا

تعني كثرة الإجرام ، مع ازدياد أجهزة الأمن ؟ وماذا تعني أجيا` الفوضويين والخنافس ؟ وماذا تعني العلاقات الجنسية المطلقة؟ وماذا يعني ارتفاع نس . المصابين بالشذوذ الجنسي حتى لتبلغ في بعض البلاد سبعين بالمئة من الرجال وهي نادة يأباها الحيوان ؟ وماذا تعني هذه النظريات المطروحة يومياً بحيث تجعل كل شيء متناقضاً ؟

ان غياب الإسلام عن العالم لا يبقى معه شيء في محله ، لأن الاسلام هو الأصل الرباني الوحيد الصحيح السليم عن الانحراف والتحريف ، وهو وحده الذي تستطيع البشرية أن تفيء إلى ظله،وبدون هذا فان كل شيء في الانسان وللانسان يضيع . ودعنا نستعرض قضاياخمساً هي أهم شيء بالنسبة للانسان : الدين — العقل — المال — النفس — النسل. لنجد بوضوح كيف أن هذه تضيع بلا إسلام ولندرك بالتالي ضياع الانسان بلا إسلام.

١ — الدين :

فتح المسلمون الاندلس وكانوا فيها ملايين ، ثم غُلبوا عنها ، فماذا بقي من هذه الملايين ؟ إنك الآن لا تجد مسلماً واحداً هناك . وفتحنا مصر وكان فيها نصارى ، وبلاد الشام وكان فيها نصارى ولا يزالون حتى الآن موجودين ، لا يحفظ لنا التاريخ حادثة اكراه واحدة من أجل تغيير العقيدة ، فضلاً عن القتل من أجل هذا التغيير . وحكمنا الهند قروناً وكان بإمكاننا ألا نبقي مخالفاً لديننا هناك، ولكن لم تحدث أبداً حادثة اكراه واحدة على تغيير الدين ، ولذلك بقي غير المسلمين في الهند أكثر بمقدار الضعف من المسلمين .

ملك من ملوك بريطانيا يبلغ عدد قتلاه من شعبه مئة ألف لأنهم خالفوه في المذهب فقط ، لا في أصل الدين ، ومن قوانينه : أن الهرطوقي إذا تاب يُرحم ،ورحمته أن يقتل بالسيف بدل الإحراق في النار ،والهرطوقية إذا تابت ترحم ،ورحمتها أن تدفن حية بدل أن تحرق (هذا بعد التوبة) ومحاكم التفتيش ، ومذابح البروتستانت كلها تعطيك شواهد على أنه في حال غياب المسلم عن مسرح العالم فلن يحفظ على الإنسان دينه الذي ارتضاه لنفسه ، أما في حالة وجوده فهذه هي الشهادات :

يقول البطريرك (عيشويابة) عام ٦٥٦ هجرية :

(إن العرب الذين مكنهم الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون) ويقول مكاريوس بطريرك انطاكية : (أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد فهم

يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين أو ناصريين يهوداً أو سامرة) ويقول أرنولد : (حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم الى التركي ، لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أي حكومة مسيحية) .

ويقول أرنولد : (وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة ، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر) .

ويقول ريتشارد ستيبز من أبناء القرن السادس عشر : (وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من اشرس الشعوب ... سمحوا للمسيحيين جميعاً للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاؤا ، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القسطنطينية ، وفي أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثني عشرة عاماً قضيتها في اسبانيا ، أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب ، بل إننا في خطر على حياتنا وأحفادنا).

ومن أراد أن يرى حقائق التاريخ تتكلم ، فليقرأ كتاب الدعوة إلى الإسلام — لأرنولد — ففيه آلاف الشهادات أن الإسلام الذي يأمر أتباعه (لا إكراه في الدين) سيكون أبداً الوحيد الذي يحمي الانسان من أن يكره على ضميره أو على عقيدته . فالفتح عندنا لا يعني الإكراه .

وفي عصرنا هذا الذي يقال فيه أن الحرية الدينية مصونة للجميع نجد العكس تماماً . إن الحرية الدينية مغتالة جهراً أو ضمناً ، لدرجة أن أبناء الدين أنفسهم غير مؤتمنين على حفظ دينهم ، فضلاً عن أن يؤتمنوا على حفظ دين غيرهم . في الاتحاد السوفييتي والبلاد الإشتراكية عامة يفرض تعليم الماركسية الإلحادية ، وتحرم الدعوة إلى الاديان ، ونظرة واحدة على الإحصائيات تعطينا صورة عما تتمتع به هذه البلاد من حرية دينية (احصائيات الكنائس التي لم تبق كنائس ، والمساجد التي لم تبق مساجد ، والخمسين مليوناً من المسلمين الذين يصبحون في سنوات عشرا ....) واقرأ هذه الآية : (ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعض لهدِّمتْ صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . ألذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

في الاتحاد السوفييتي والبلدان الإشتراكية واضح كيف تُغتال الحرية الدينية جهراً.

أما في البلدان الرأسمالية وغيرها فتغتال الحرية الدينية أحياناً جهراً وأحياناً سراً ، وما عملية اجتثاث الإسلام من اريتريا عنا ببعيدة . وما مقتل مالكولم إكس عنا ببعيد .

فالحقيقة الكاملة أنه لن يحفظ على الانسان دينه الا إذا كان الإسلام حاضراً .

٢ ــ ولن يحفظ على الانسان عقله: الا إذا كان الإسلام قائماً،وأي تجربة للحكم في العالم يرافقها أي مضمون تثبت أن صالح العقل لم يكن فيها إلا إذا كان ذلك حكم المسلمين بالإسلام .

فمن مظاهر إهمال العقل في عصرنا الحاضر التي تدل على أن عصرنا وأنظمة الحكم فيه، مع أنها تدعي أنها ذروة ما وصلت إليه الإنسانية ليست لصالح العقل . ما يلي :

أ ــ إن انظمة الحكم اليوم في العالم تدعي العلمانية ، ولكنك تجد العلم في جانب والواقع في جانب،فالعلم يقول إن الخمرة مضرة ، والواقع يقول إنها مباحة في انظمة كل دول العالم تقريباً،والعلم يقول إن الدخان مضر، والواقع يقول إن دول العالم كلها تشجع عليه ، والعلم يقول إن الزنا ليس لصالح الجنس البشري ، والواقع أنه مباح عندهم ، والعلم يقول إن المرأة تختلف عن الرجل ، والواقــع يقول يجب أن نجعلها ــ غصباً عن كل شيء ــ كالرجل .

ب ــ وفي عصر العقلانية تجد الأكاذيب تنشرها الجرائد والمجلات والإذاعات بدون حساب ، والإشاعات الملفقة بلا رقيب ، وتحريف الحقائق لتبرير الجرائم بدون وازع ، بحيث أصبحت السياسة وتوابعها مركبات من الكذب والخداع ، ويستخدم لهذا كله حقائق علم النفس وروح الاجتماع ،فأي عقل يبقى للإنسان إذا كان ما يغذى به هذا العقل مجموعة الأخطاء والأضاليل .

جـ ــ وفي حالتين يساء إلى العقل : حالة ما إذا كان العقل يفرض عليه نوع من الفكر لا يسمح له بنقده ، أو البحث فيه ، أو التأمل والمناقشة . وحالة ما إذا أطلق للسان ان يقول بدون تعقل ، بل لمحض الهوى والشهوانية والشطط . وكلتا الصورتين تجدهما أمامك حيث لا اسلام.ففي المجتمع الشيوعي ،أن تفكر جريمة،وفي المجتمع الآخر انت حر أن تقول ولو خالفت المعقول .إن المظاهر التي تدل على أن ما يجري في العالم ليس لصالح العقل كثيرة ، والاحصائيات تثبت هذه الحقيقة ، فنسبة الذكاء في العالم تتناقص،ونسبة الأمراض العقلية في العالم ترتفع. يقول (ديل كارنيجي) : (من الحقائق عة أن نصف عدد الأسرّة التي في مستشفياتنا يشغله أناس يثقلهم الإرهاق العصبي والعقلي).

إنه لا يحفظ على الانسان عقله الا إذا كان الاسلام حاضراً .

٣ — حفظ النفس : إن حق الحياة حق مقدس للإنسان إلا في حالات :

« انه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

فليس شيء سهل أن يُقتل الإنسان الكريم « ولقد كرمنا بني آدم » ولكن حيث يغيب الإسلام عن العالم يصبح قتل النفس كشربة ماء بمبرر وبغير مبرر .

في عصرنا هذا الذي يقال عنه عصر المدنية تجد هذه الحقائق :

أ — قتل في روسيا من أجل تنفيذ الشيوعية وتحقيقها ١٩٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ، وحكم على نحو ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة بعقوبات فادحة مختلفة ، ونفي عن البلاد نحو ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ إلى ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ، فماذا تعني هذه الأرقام ؟ هل تعني أن هنالك قيمة للنفس البشرية ! .

ب — ماذا يعني إغتيال السود لأنهم سود في امريكا أو جنوبي إفريقيا ، ماذا تعني القنابل الذرية والهيدروجينية ؟ ماذا تعني المذابح الجماعية في كل بلد مستعمر ؟ ماذا تعني المجازر في البلدان غير المستقرة التي يتصارع أهلها على السلطة ؟ ماذا تعني المجازر للخصوم السياسيين المعارضين في كثير من البلدان ؟ ماذا تعني المجازر التي تقع كل فترة في الهند من أجل الإجهاز على المسلمين ؟ ماذا تعني القصور المبنية من الجماجم ؟ ماذا تعني الحروب العالمية ؟ إن هذا كله يعني أن النفس البشرية لا قيمة لها .

ولكن حيث يكون الإسلام موجوداً فلا تقتل نفس إلا بحق .

٤ — حفظ المال : إن المال عديل الروح كما يقولون ، ويقول الله عن الإنسان : «وإنه لحُبِّ الخير لشديد ».«وتحبون المال حباً جماً»لذلك كان شيئاً أساسياً أن يُحفظ على الإنسان ماله، وضرورياً كما أن الحياة ضرورية، ولكن حين يغيب الإسلام يضيع كل شيء .

إن الظاهرة التي حدثت في حمص يوم خرج منها أبو عبيدة بن الجراح عجزاً عن حمايتها فرد إلى أهلها النصارى أموال الجزية التي أخذها منهم ، كانت تعني ميلاد عدالة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ، وميلاد مجتمع جديد لا مثيل له في العالم ، مجتمع يعطي الإنسان كل مقومات حياته ووجوده .

قارن هذه الظاهرة بما يفعله الإستعمار في أرض وطنها ، أو قارن ما يحدث في مجتمع إسلامي حق حيث لا يأخذ إنسان مالاً إلا بحق ، ولا يؤخذ منه مال إلا بحق . بالمجتمع الشيوعي أو الرأسمالي المعاصرين .

في المجتمع الشيوعي لاتسل عن حق التملك، فهو وحق الحياة مهدران وهذا شيء واضح . وفي المجتمع الرأسمالي يُحفظ على الإنسان ماله ظاهرياً، ويسرق منه حقيقة بالربا والاحتكار والاستغلال ، وهضم حقوق الفقراء والمعوزين والطرق الفاجرة الداعرة ...

إن مال الانسان لا يحفظ للانسان الا بالإسلام ، فلن تُعطى ظالماً ، ولن يؤخذ منك مظلوماً .

٥ ــ **حفظ النسل :** وحفظ النسل عليه يتوقف بقاء جنس الإنسان ، ومن ثم كان ضرورياً من الضروريات الخمس للإنسان .

ولن يحفظ على الإنسان نسله إلا إذا كان الإسلام قائماً ، والمسلمون أوصياء على العالم ، فحينئذ يبقى نسل الإنسان ويحفظ .

ودراسة بسيطة لما عليه العالم اليوم تبين بوضوح إلى أين يسير النسل البشري . ففي فرنسا مثلاً (لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاماً متوالية) .

(ومن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية للمتطوعة للجيش الفرنسي على فترة كل بضع سنين) ومثل هذه الظاهرة أخذت تتجلى في الشباب الأمريكي فقدأعلن رئيس الولايات المتحدة أن اكثر من مليون شاب أمريكي لم يصلحوا للخدمة العسكرية من بين ستة ملايين تقدموا للتجنيد ، وعزا ذلك إلى ضعف بُنية الشعب الأمريكي بصفة عامة نتيجة لحياة الترف التي انغمس فيها .

ومن (فيينا) تأتي الأنباء لتقول إن المرأة سائرة نحو حالة تصبح فيها جنساً ثالثاً، فلا هي ذكر ولا هي أنثى ، ومظهر هذه الحالة ظهور حالات عدم الحمل على كثير من النسوة دون سبب من اسباب العقم ، نتيجة لفقدان خصائص أنوثتها بسبب مشاركتها المطلقة للرجل في أعماله .

وفي السويد انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين ، الى غير المتزوجين ، وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين ، مع ملاحظة أن ٢٠٪ من البالغين الأولاد والبنات لا

يتزوجون أبداً، ونسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله،وأن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست اوسبع زيجات طبقاً للإحصاءات التي أعدتهــا وزارة الشئون الإجتماعية بالسويد .

ومن فرنسا مرة ثانية : إن عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل وتبعثهم الى المستشفيات في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولى لكونهم مصابين بمرض الزهري خمسة وسبعون الفاً ، وابتلي بهذا المرض وحده / ٢٤٢/ جندياً في آن واحد في ثكنة متوسطة ، ومثل هذا المرض يؤثر على النسل تأثيراً هائلاً ، ففي أمريكا يموت مابين ثلاثين واربعين ألف طفل بمرض الزهري الموروث وحده في كل سنة.

إن ما يحدث اليوم في العالم ما يلي : ٩٥٪ من العلاقات الجنسية الحاصلة اليوم بين الرجال والنساء يحولون بينها وبين نتائجها الفطرية، بتدابير منع الحمل، وأما الخمس الباقية في المئة التي تنتج الحمل فتعالج بتدابير أخرى من الإسقاط وقتل الأولاد . يقول القاضي (لندسي) : إنه يسقط في أمريكا مليون حمل على أقل تقدير في كل سنة ويقتل الآلاف من الاطفال من فور ولادتهم .

وعار على البنت الألمانية أن تبقى بكراً وأدوات منع الحمل موجودة في كل طريق.

فهل هذا كله لصالح النسل البشري ؟

إنه لا يحفظ النسل البشري حفظاً تاماً إيجاداً ووجوداً ومقومات حياة إلا إذا كان إسلام.

وبعد : إن الانسان بلا إسلام يقتل نفسه ، ويظلم نفسه ، ويعيش حياة الألم مهما أخذ حظه من اللذة العابرة . وإن الانسانية بلا إسلام تدمر نفسها ، وتهدم سعادتها ، وتعيش حياة الشقاء الدائم حتى في هذا العالم الذي لا يدوم. وسنحاول في هذا الفصل أن نعطي صورة موجزة عن الاسلام في منهاجه الاخلاقي والاجتماعي ليعرف الانسان إلى أي شيء ندعوه ؟

وسنكتب في ذلك ثلاثة أبواب :

الباب الاول ــ نظرة تحليلية لوضع الانسان في الاسلام من حيث كونه مسلماً أو كافراً ، رجلاً أو امرأة، مع ايراد نصوص من السنة النبوية حول هذا الموضوع.

الباب الثاني ــ تميز الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم ، والدولة المسلمة أخلاقياً .

الباب الثالث ــ الأخلاق الاسلامية ارتقاء بالانسان إلى كمالاته كلها .

الباب الأول
نظرة تحليلية لوضع الإنسان في الإسلام

الإنسان مسلم أو كافر

- ١ -

« ولقد كرمنا بني آدم » « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .

« فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .

« إني جاعلٌ في الأرض خليفة » .

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » .

« ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » .

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » .

« قُتِلَ الإنسان ما أكفره »

« والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

إذن فالانسان أكرم المخلوقات بسر الروح الذي نفخ فيه ، وبسر خلافته في أرض الله، وبسر تسخير الكون كله له ، وبسر حمله الأمانة، وبسر قيامه بأمر الله وعبادته ، ولكنه بنفس الوقت يوجد ناس عطلوا هذه الأشياء التي من أجلها كان خلقهم، وكان تكريمهم ، فعطلوا قلوبهم وأعلنوا الحرب على ربهم ، وجهلوا حكمة خلقهم، وظلموا نتيجة ذلك ، فاصبحوا في مقياس الإنسانية الصحيحة أقل من الحيوان ، لأن الحيوان لم يعط ما أعطوا،وهم سخروا ما أعطوا في غير طريقه الصحيح.فانقسم الناس نتيجة ذلك إلى كافر ومسلم . أولاهما خاسر ، وثانيهما رابح ، أولاهما عطل إنسانيته ، وثانيهما حققها ، فهم سواء من حيث الأصل ، ولا يستوون من حيث القيمة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » .

- ٢ -

والله الذي خلق الكون وهو مالكه جعل للمسلمين حق السلطان على الأرض ، فهم سادتها ، وهم ملاكها ، ويجب أن تكون الأرض والبشرية تحت وصايتهم مقهورة ذليلة لتعطيلها خصائصها بانحرافها عن أمر الله :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »

لقد فرض الله على المسلمين أن يخضعوا العالم لسلطان الله ، فلا يبقى شبر من الأرض ولا يبقى كافر إلا وقد خضع لحكم المسلمين بالاسلام ، وما دام هناك شبر من الأرض ، أو كافر لم يخضع لسلطان الله فذلك تقصير من المسلمين يؤاخذون عليه امام الله إن كانوا يستطيعون إخضاعه ولم يفعلوا ، وعلى المسلمين أن يبقوا في عملية جهاد مستمر ،

حتى يصلوا إلى هذا الهدف العظيم الذي لا يريدون فيه إلا أن تكون كلمة الله هي العليا (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) «وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » .

ولا بد أن نفرق بين حالتين : حالة القتال لإخضاع الكافر لسلطان الله ، وحالة الإكراه على الدخول في دين الله . فالحالة الأولى هي التي فرضها الله علينا ، أما الحالة الثانية فقد حرمها الله علينا ، فلا يجوز أن نكره الناس على الدخول في الإسلام « لا إكراه في الدين » إلا أعرابيا وثنيا ، فلا يسمح له بالبقاء على وثنيته .

- ٣ -

إن مشكلة الإنسان أنه يريد أن يقيم نفسه بمنزلة الجماد والنبات والحيوان ، بمعنى أنه يريد أن يتهرب من مسؤوليته أمام الله ، يريد أن يهرب من التكليف ، يريد أن يكون حرا كما أن الحيوان حر .ولكن الله الذي جعل الجماد والنبات والحيوان وكل شيء مسخرا للإنسان ، فأعطى الإنسان هذا الكون كله — « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » — لم يجعل الإنسان حرا ،بل طالبه في مقابل ما أعطاه أن يكون عبدا له جل جلاله « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

ولما كان الكافر لا يريد أن يفهم هذه الحقيقة ، ولا يريد أن يخضع لله ، ولا أن يكون مسؤولا أمامه ، فرض الله على المسلمين أن يخضعوا هذا الكافر لحكمهم ولسلطانهم ، باسم الله ، وبشريعة الله ، إرغاماً له على الخضوع لأقل مما فر منه ، مع إعطائه الحرية في أن يبقى على الدين الذي يرتضيه ، فاذا ما قال قائل إن من الناس من يخضع لله بغير الإسلام نقول : إن الخضوع لله لا يكون الا على الصراط الذي أراده الله ، ودلنا عليه بواسطة رسوله عليه السلام .

ولئن كانت المسألة في جوهرها هي ما ذكرناه ، فإن المسألة ذات شق آخر ، وهو أن هذه الوصاية التي فرضها الله للمسلمين على الكافرين لصالح المسلمين ، والكافرين ، فان الكافرين إذا خرجوا عن هذه الوصاية وحكموا أنفسهم باهوائهم ، فلن يكون في ذلك إلا دمار الحياة البشرية ، وشقاء الإنسان كما رأينا في المقدمة .

- ٤ -

نظرة على العالم تلقيها تجد أن القوة هي التي تحكم الحق ، وأن العدل لا يكون إلا

إذا كان وراءه قوة ، وأن الشجاعة يرافقها الظلم ، هذا منطق الواقع قديما وحديثا .

ونظرة أخرى تلقيها على ما يجري في العالم الآن وأمس تجد أن الإنسان أرخص الأشياء، وأن مقومات وجوده مضيعة كلها أو بعضها على حساب بعض .

وما حدث في تاريخ العالم أن عَدْلَ الامة حكم قوتها، أو رافقت شجاعتها رحمتها أو كان الحق أحب إليها من كل شيء، إلا في ظل وصاية المسلمين على الناس ، حيث يحكم قاضي المسلمين لأهل سمرقند الكافرة على الجيش الإسلامي ، فيخضع الجيش الاسلامي للحكم ، وحيث يحكم قاضي المسلمين للكافرين حتى على إمام المسلمين، وحيث كانت الرحمة والبناء أبدا ترافقان المسلم الشجاع الفاتح الظافر .

ولقد شهدت كل أمة غلبها المسلمون ، وبقيت على دينها الأول ، أن أجمل حكم حمى الإنسان هو حكم المسلمين بالاسلام ، فلا دين يمتهن ، ولا عقل يضيع ، ولا نفس تهدر ، ولا مال يسلب ، ولا نسل لا قيمة له .

- ٥ -

وقبل أن نستمر نحب أن نلخص ما مر :

١ ـ خلق الله كل شيء للانسان .

٢ ـ في مقابل ذلك كان الإنسان من بين هذه المخلوقات الحسية ، هو المكلف الوحيد أمام الله .

٣ ـ انقسم الناس في قيامهم بالتكليف إلى قسمين : كافرين ومؤمنين .

٤ ـ فرض الله على المؤمنين أن يجاهدوا من أجل أن يخضعوا الكافرين لسلطان الله رب العالمين .

٥ ـ وأن هذا الإخضاع إنما هو في حقيقته لصالح المسلمين بشكل كامل في الدنيا والآخرة ولصالح الكافرين من بعض الجوانب .

- ٦ -

واذن فلا سلام حقيقياً لأهل الأرض إلا بالإسلام ، والمسلمون لا يعطون لأهل الأرض سلاماً دائما الا بالإسلام، أو بالخضوع للإسلام إلا إذا اضطروا، أو لمصلحة، فيكون السلام لأجل . ولذلك نلاحظ أن كثيرا ما تستعمل لفظة السلام في القرآن

بمعنى الإسلام كقوله تعالى : « ادخلوا في السلم كافة » وكقوله « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » وما دام شبر في الأرض لم يخضع لحكم الله هو وأهله،فالحرب . قال تعالى : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » وما دام أحد لم يخضع لسلطان الله فالفتنة موجودة والواجب الإخضاع،لتكون كلمة الله هي العليا وأي فتنة أكبر من فتنة الإغراء بالانحراف .

- ٧ -

وينتج عما تقدم أن الناس قسمان :

١ — المسلمون . ٢ — الكافرون .

والكافرون ثلاثة أقسام :

١ — الخاضعون لسلطان الله والداخلون في كنف حماية المسلمين .

٢ — من عاهدناهم لمصلحة .

٣ — من ليس بيننا وبينهم عهد ولم يخضعوا وهم المحاربون .

والمسلمون أمة واحدة (المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على مَنْ سواهم) (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه) « وماعند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » . والكافرون الخاضعون لسلطان الله الداخلون في حماية المسلمين هم الذين يعقد المسلمون لهم عقد الذمة .

وهل نعقد لكل كافر عقد الذمة ؟ .

بعض الفقهاء خصصوا وبعضهم عمموا ، والواقع العملي على التعميم إلا عن الوثنيين العرب ، ومن كلام فقهاء الحنابلة تحت باب عقد الذمة :

(لا تعقد إلا لأهل الكتاب ، أو لمن له شبهة كتاب ،كالمجوس، ويجب على الإمام عقدها حيث أمن مكرهم والتزموا لنا بأربعة أحكام :

أحدها : أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

الثاني : ألا يذكروا دين الإسلام إلا بخير .

الثالث : ألا يفعلوا ما فيه ضرر على المسلمين .

الرابع : أن تجري عليهم أحكام الإسلام في نفس ومال وعرض وإقامة حد فيما يحرمونه كالزنا لا فيما يحلونه كالخمر ولا تؤخذ الجزية من امرأة وخنثى وصبي ومجنون وقِنّ وزَمِنٍ وأعمى وشيخ فانٍ وراهب بصومعته .

ومن أبى من أهل الذمة بذل الجزية، أو أبى الصغار أو أبى التزام حكمنا ، أو زنى بمسلمة ، أو أصابها بنكاح ، أو قطع الطريق ، أو ذكر الله تعالى أو رسوله بسوء، أو تعدى على مسلم بقتل أو فتنه عن دينه . انتقض عهده ، ويخير الإمام فيه ، كالأسير،وماله فيْ،ولا ينتقض عهد نسائه وأولاده ...) متن دليل الطالب .

وعلى هذا فلا حق لأهل الذمة في وظيفة من وظائف الدولة، ولا حق لهم في الشورى ، ولا حق لهم في السيادة،ولا حق لهم في انتخاب قيادات الدولة الاسلامية، وإن شاء المسلمون أن يستخدموهم في بعض وظائف الدولة لضرورة فلا حرج ، على ألا تكون لهم سيادة علي المسلمين،لأن من شروط عقد الذمة أن يكونوا أذلاء للمؤمنين ، ومن الذلة ألا يتصدروا مجلسا فيه مسلم ، ومن الذلة أن يبدأوا المسلمين بالسلام، ومن الذلة التزامهم بما مر قريبا قال عليه السلام (لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه) .

وفي مقابل هذا فإن المسلمين لا يكرهونهم على تغيير دينهم « لا إكراه في الدين » ولا يجادلونهم إلا بالتي هي أحسن « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » ولا يعتدون على مال لهم ، أو عرض (من آذى ذمياً فقد آذاني) وقال عليه السلام (وإن الله لم يحل لكم ضرب أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم) .

ومما ذكره فقهاء المسلمين : (لو قتل مسلم لذمي خنزيرا أو أراق له خمرا فانه يغرم أما لو قتل ذلك لمسلم أو أراق له خمرا فهدر .

والجزية كما أنها رمز على إعطائهم الذلة للدولة المسلمة فهي من ناحية أخرى رمز على عدل الإسلام.لأن الجزية تؤخذ في مقابل حمايتهم عسكريا ، وعلى هذا فلا يكلف أهل الذمة بقتال ، وعدم تكليفهم عدل لأن القتال في الإسلام عبادة ، فلو أننا كلفناهم أن يقاتلوا معنا لكلفناهم شيئا ليس من عقيدتهم ، أما إذا رغبوا أن يقاتلوا معنا ووثقنا منهم فان الجزية تسقط عنهم كما حدث تاريخيا .

هذا حكم الكافرين الذين صالحونا على أن يدفعوا الجزية لنا ،وينزلوا على حكمنا ، وقبلنا ذلك منهم . أما الكافرون الذين لم ينزلوا على حكمنا ، ويرغبون في عقد معاهدة هدنة معنا وكان لنا في ذلك مصلحة ، فهؤلاء يمكن أن نهادنهم لأجل ، وفي مدة الهدنة لا يجوز لنا أن نغدر بهم ما داموا لم يغدروا « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » .

ومن قصص المسلمين الثابتة في هذا ما رواه أبو داوود والترمذي :

(كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد ، غزاهم فجأة رجل على دابة أو فرس وهو يقول : الله اكبر وفاء لا غدر فاذا هو عمرو بن عبسة فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت النبي ﷺ يقول : من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى يقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء فرجع معاوية) .

وأما الصنف الثالث من الكافرين وهم المحاربون الذين ليس بيننا وبينهم عهد ولا عقد ، فهؤلاء ليس بيننا وبينهم إلا الحرب ، وفي حالة انتصارنا عليهم دون صلح ، أو عقد عهد ،تكون أموالهم كلها لنا غنيمة ، ونساؤهم وصبيانهم لنا عبيداً ، ورجالهم البالغون المقاتلون يخير الإمام فيهم على مذهب الحنابلة بين القتل والرق والمن والفداء بمال أو بأسير مسلم ، ويجب عليه فعل الأصلح .

قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداءا حتى تضع الحرب أوزارها » .

قال العلماء في تفسير هذه الآية :

قال الشافعية والحنابلة الإمام مخير بين القتل والرق ،والمن والفداء ويختار الاصلح ، وقال الحنفية : الإمام مخير بين القتل والرق ، والآية منسوخة . وعلى هذا فالمن

المطلق حرام عندهم بحيث يرجع الأسير إلى دار الحرب كما كان، وكذلك عند المالكية والحنابلة وأجازه الشافعي .

والمسالة مبسوطة في كتب الفقه والتفسير .

ونستطيع تلخيص هذه الفقرة بما يلي :

١ — على المسلمين أن يجاهدوا لإخضاع الكافرين لسلطان الله .

٢ — لا جهاد إلا بعد عرض أمور ثلاثة على الكافرين : الإسلام أو الجزية أو القتال .

٣ — فإن أسلموا فلنا ما لهم، وعليهم ما علينا ، وان رضوا بالجزية كان الأمر على ما صالحناهم عليه لا يعتدى لهم على مال، ولا نفس، وان أبوا فالقتال، وقد أحل الله لنا وقتذاك استرقاق نسائهم وأولادهم ، وقتل أنفسهم أو استرقاقها فإن شئنا أن نمن فلا حرج ، وان لم نمن قسمت الذرية والنساء والأموال على الجيش المسلم الفاتح وكذلك الأسرى إن شاء الإمام ، أما الأرض فالإمام مخير كما ذهب بعض العلماء بين قسمتها على الجيش الفاتح أو إبقائها في يد أصحابها على أن يؤدوا خراجها للمسلمين ، وكل ما له علاقة في هذه القضايا مفصل في كتب الفقه هو وأمثاله ، كما إذا احتل العدو ارضنا ثم أجليناهم عنها فما حكم الغنائم وقتذاك ؟ وغيرها وغيرها من المسائل .

والذين يرون أن كبيرا علينا أن نسترق الكافرين واهمون ، ألا يرون كبيرا أن يكون هؤلاء كافرين ؟أو ليس الذي يرفض العبودية لله يستأهل أن يكون عبدا للانسان؟ هذا مع ملاحظة أن هذه العبودية التي تفرض على هؤلاء هي أرحم من كل نظام عرفه البشر في معاملة أسرى الحرب، ولا ننسى أن الرق أحد ما يُخير به المسلمون، فلو أراد إمامهم غيره لكان الباب مفتوحا على رأي كثير من الاجتهادات ، ولنرجع إلى رحمة النظام الإسلامي بمن استرقوا نتيجة للحرب لنروي قصتها التي تتلخص بما يلي :

١ — لا تحل المرأة الأسيرة لأحد إلا بعد قسمتها واستبراء رحمها بحيضة خوفا من أن تكون حاملا ، فإذا كانت حاملا لا يقربها صاحبها إلا بعد الولادة والطهر .

٢ — بعد تقسيم الأسرى صغارا وكبارا على الجيش الفاتح ، واختصاص كل بما ملك منهم ، عليه ان يعاملهم على قدم المساواة مع نفسه في المطعم والملبس ، وألا يكلفهم ما لا يطيقون (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت

يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإذا كلفتموهم فأعينوهم.)

٣ — لا يجوز أن يضربهم، ومن ضُرب منهم كان كفارة ضربه عتقه ، والا فإنه مؤاخذ أمام الله وفي الأثر :

(كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا خادم إلا واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال اعتقوها فقيل له ليس لهم خادم غيرها قال فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها) .

ومن هنا جعل فقهاء الحنابلة من أسباب عتق المملوك الاعتداء الفاحش عليه ، وإن لم يكن الاعتداء فاحشا سن العتق .

٤ — ويعامل العبد كانسان محترم حتى في النداء يقول عليه السلام :

(لا يقولن أحدكم عبدي وعبدتي ، ولا يقول المملوك ربي وربتي ، ليقل المالك فتاي وفتاتي ، وليقل المملوك سيدي وسيدتي ، فانكم المملوكون والرب هو الله عز وجل)

٥ — وبالنسبة للمرأة إذا كانت مسلمة أو كتابية يجوز لمالكها أن يجامعها أو يزوجها لغيره مع بقائها على ملكه ، وإذا زوجها لغيره لا يجوز له أن يجامعها ، وفي الصورة الأولى أي إذا لم يزوجها وعاملها معاملة الأزواج فحملت وولدت له واعترف بالولد أنه ابنه ، فقد حرم عليه أن يبيعها ، ومتى مات عتقت مباشرة وتصبح حرة .

٦ — ومن أراد الحرية من العبيد فقد فتح له الإسلام طريق الحرية بأن يقول لسيده كاتبني على أن أدفع لك مالا في مقابل حريتي ، فإذا ما اتفقا ، عمل العبد وقدم لسيده ما اتفقا عليه ، فإذا أنهى ما تم عليه العقد أصبح حرا .

أخرج البخاري :(سأل سيرين أنسا المكاتبة وكان كثير المال فأبى ، فانطلق سيرين إلى عمر فدعاه عمر فقال له كاتبه فأبى ، فضربه بالدرة وتلا :« فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا » فكاتبه) .

٧ — ولمساعدة هؤلاء العبيد على الحرية جعل الله سهما في الزكاة من أجل فك الرقاب ، وفرض الله من كفارة القتل الخطأ عتق رقبة ، وكذلك من كفارة الظهار ، واليمين ، والفطر العمد في رمضان. كما ندب الله ورسول المسلمين لتحرير الرقاب « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة ...» .

وعندما يدرس الإنسان مسألة أسرى الحرب رجالا ونساءا وأطفالا ، فانه لا

يجد أعدل من هذا السبيل حيث لم يضيع واحد من هؤلاء ولم تضيع جوانب انسانيته حيث سير به بتأنٍ ليكون مواطنا صالحا منسجما في دولة الإسلام ثم بامكانه دائما أن يحصل على حريته .

أما أسرى الحرب الآن فتراهم يعذبون ، أو يضطهدون ، أو لا يعاملون معاملة طيبة ، ولا يمكن بشكل من الأشكال أن يمنحوا شرف المواطنين في الدولة الآسرة . ومع فتـــح الاسلام طريق الحرية لمن شاء من العبيد بحيث يمكن ان يصبح النـــاس كلهم أحرارا فان إبقاء الرق على الإباحة فيه مصلحة دائمة للمسلمين إذ مـــا دام حرب بين المسلمين والكافرين فصالح المسلمين أن يبقى هذا الباب مفتوحا .

فإن كثيرا من مشكلات المجتمع الإسلامي يمكن أن يساعد على حلها وجود رقيق :

فمن لم يستطع الزواج من حرة لغلاء المهر تزوج من أمة أو اشتراها .

وكثير من مرافق العمل تحتاج فيها إلى نساء غير متسترات ، والإماء هن هذا الصنف ، إذ لم يفرض الإسلام على الأمة أن تتستر كما تتستر الحرة ، بل يكفي أن تستر ما بين صدرها إلى ما تحت ركبتيها إلا إذ خيف منها الفتنة فتلزم بالستر يقول الله تعالى :

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض .... ثم يقول :

« يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » .

إن المجتمع الذي يستطيع كل فرد فيه أن يزني لا يحتاج إلى إماء كحاجة المجتمع النظيف الذي لا يرضى لأتباعه أن يقضوا شهواتهم إلا عن طريق حلال .

والآن وقد انتهى الرق فلا يستعبد حر في المجتمع الإسلامي أما إذا دخلنا معارك مع الكفرة أيا كانوا فقتلنا رجالهم فماذا نفعل بنسائهم وأولادهم؟قد يقول قائل تعيلهم الدولة ونقول: هكذا بلا مقابل ؟ أو بمقابل من عمل ؟ وإذا كان بمقابل فكيف نقضي شهوات المرأة.عن طريق الزنى ؟ حاشا أن نجيز هذا ، إننا نقول : إن الحل الأمثل هو أن يوزع النساء والأطفال على المحاربين كعبيد ، ويعاملون بمقتضى أحكام معاملة

العبيد ، وطريق الحرية مفتوح أمامهم إذا سلكوه ، وتحل مشكلتهم ببساطة وهدوء .

ولا بد قبل الانتهاء من هذه الفقرة أن نشير إلى جانب هام هو :

في غير الإسلام تكون عقوبة الأدنى أعظم من عقوبة الأعلى أو تساويها ، أما في الإسلام فنلاحظ أنه جعل عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر ، وجعل تكاليف الحر أكثر من تكاليف العبد. فمثلا لا تفرض على العبد صلاة الجمعة ، ولا الحج ، وعورة الأمة كما رأينا ما بين صدرها إلى ركبتيها ، بينما الحرة كلها عورة وهكذا .

وأخيراً : لقد رأينا أن إمام المسلمين مخير بالنسبة للأسرى ، ما بين القتل والرق ، والمن والفداء ، فإذا ما رأى إمام المسلمين أن لا يلجأ الآن الى الاسترقاق نظرا لاصطلاح العالم على تحريم الرق ، ونظرا لكون الإسلام من أهدافه العامة إيصال العبيد إلى الحرية ، وحتى لا يكون للكافرين علينا حجة ، فإن باستطاعته أن يختار واحدا من الأمور الأخرى غير الرق ليطبقها على هؤلاء الذين يسقطون في أيدينا بعد الحرب وقد رأينا أن بعض الاجتهادات الإسلامية تبيح له ذلك .

الإنسان : ذكر وأنثى

- ١ -

لقد كان الناس قبل الاسلام يبحثون عن حقيقة المرأة إنسان هي أو غير إنسان ، لها روح أو ليس لها روح ، روحها نجسة أو شريرة ، ولئن رأت بعض الأديان والمذاهب أن المرأة ليست أهلاً لحمل أمانة الله كالرجل ، بل الرجل وحده هو المسؤول أمام الله ، ولئن كانت مذاهب تحمّل المرأة إثم الخطيئة الأولى وحدها ، فإن الإسلام أتى ليقرر :

ــ أن المرأة إنسان كالرجل تماماً في صفة الإنسانية « من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » « وبث منهما رجالا كثيراً ونساءا » وقال عليه السلام (النساء شقائق الرجال)

ــ وأن المرأة مكلفة كالرجل أمام الله : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله » .

ــ وأن المرأة يمكن أن تكون أكرم على الله من الرجل إذا كانت أتقى ، وأشرف إذا كانت أبر .

ــ وأن للمرأة شخصية مستقلة ، تتملك وتتصرف في ملكها ، وتبيع وتشتري وتتزوج ، ولا يجوز لأحد أن يزوجها إلا بإذنها إذا كانت بالغة ، وتعطي رأيها إذا

أستشيرت ، وتناقش وترث وتورث . : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

ـ وأن لها حق العلم ، وعليها فريضة العلم الذي تطالب به شيئاً .

ـ وأن لها حق العمل فلا تمنع من عمل تقدر عليه بيعاً وشراء ....وكتابة ووظيفة ضمن الحدود التي حدها الله والتي تناسب طبيعتها وسيأتيك بيان هذا كله .

ـ ٢ ـ

ولكن إذا كانت المرأة هي والرجل سواء من حيث إنسانيتها ، فان تركيب كل يختلف عن الآخر « وليس الذكر كالأنثى » فالمرأة تختلف عن الرجل في أعضائها وبشرتها وخلاياها وصوتها ومخها وفي إفرازات بعض غددها ، والمرأة تحيض والرجل لا يحيض . والمرأة تحمل والرجل لا يحمل . ويبقى حملها في بطنها تسعة أشهر ، واذا ولدت فإن رزق ولدها معها ، فهي التي ترضعه وهي التي ترعاه ، إذ ولدها من أعجز أنواع المخلوقات ، يحتاج إلى فترة رعاية طويلة ، وما تكاد تنتهي من ولدها الأول ، حتى تحمل بالثاني ، وهذا كله من شأنها وحدها ، أما الرجل فهو لا يعدو أن يلقي بذارا خلال ثوان معدودات وتبدأ مهمة المرأة بعد ذلك .

ـ ٣ ـ

والحقيقة أن انقسام عالم الإنسان إلى ذكر وأنثى لا يعدو أن يكون استمرارا لسنة الله في خلقه ، إذ كل الحيوانات والنباتات تنقسم إلى مذكر ومؤنث ، وتلاقي الذكر والأنثى ينتج عنه بقاء النوع ، وكذلك الإنسان ، فلولا هذا اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة لفني النوع البشري خلال جيل واحد ، ومن هنا نفهم حكمة وجود الغريزة الجنسية عند الرجال والنساء ، ونفهم لم كان تلاقي الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء انحرافا عن سنن الفطرة التي سنها الله لعباده ، إذ لو اكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء لفني البشر .

ـ ٤ ـ

وإذا شارك الإنسان الحيوان في كونه ذكرا وأنثى ، فان الإنسان يختلف عن الحيوان كثيرا ، فابن الإنسان يحتاج إلى رعاية غيره سنوات طوالا ، ولكون حياة الإنسان

معقدة أكثر، فإن هذه الرعاية تستمر حتى سن الخامسة عشر على الغالب، إذ هي الفترة الضرورية لتدريب ابن الإنسان على المشاركة في الحياة البشرية ، وتدريبه خلال هذه الفترة ورعايته تحتاجان إلى رعاية رجل وامرأة بآن واحد .

إذ الشخصية البشرية التي لا يرعاها رجل وامرأة بآن واحد ، تبقى ناقصة في عالم الإنسان ، وقد تضيع، ومن ثم كانت الأبوة والأمومة والزواج .



فالزواج ضروري بل هو العلاقة الوحيدة المعقولة بين الرجال والنساء :

إذ لا تستطيع المرأة أن تقوم بأعباء رعاية أبنائها : كسوتهم وإطعامهم وخدمتهم الواحد بعد الآخر ، خاصة والمرأة بمجرد أن تحمل تصاب بمرض الوحم ، وكلما ثقل بطنها تعذر عملها ، فاذا ولدت كانت في حالة مَرَضية وابنها يحتاج لها يوميا كل ساعات يومه ، فاذا ما أتى الأول والثاني والثالث ...... وكلهم يحتاجون إلى رعاية ونفقة وطعام وكسوة وخدمة ، فماذا تفعل المرأة ؟ لا هي في وضع يسمح لها بالعمل بعيدا عنهم ، ولا تستطيع أن تتخلى عنهم ، ولو تخلت كل امرأة عن أولادها لم يبق إنسان . لذلك كان الوضع المعقول أن يتحمل مسؤلية الاولاد مع المرأة شريكها في الاولاد ، وليس من المعقول أن يتحمل رجل مسؤولية شيء لم يتسبب به ولا علاقة له فيه ، لذلك فإن الرجل لا يتحمل إلا مسؤولية أبنائه . فكان الزواج هو الوضع العادي الذي يجعل الرجل والمرأة يتحملان معا مسؤلية الأولاد .



ومن هنا نجد الإحصائيات في كل مكان في العالم تذكر أن المرأة التي تزني لا ترغب أن يكون لها أولاد عن طريق الزنى ، ولا تتحمل تبعة الولادة إلا امرأة متزوجة إذ آلام الحمل والولادة والمسؤولية والتعب التي تترتب على ذلك أكبر بكثير من لذة الجماع . فارتبط بقاء النوع بعلاقة الزواج حتى لو وصل البشر إلى حالة ألغوا فيها الزواج فان مصير الجنس البشري إلى الخراب .

لذلك كان الزنى وسيلة غير فطرية لعلاقة الرجال بالنساء. فالمرأة التي تزني وهي متزوجة تحمّل زوجها مسؤولية أولاد غيره وذلك ظلم ، وغير المتزوجة التي تُمتّع

نفسها حال شبابها بأي رجل يصرفها هذا عادة عن الزواج والشوق إلى الزوج الواحد وبنفس الوقت هي لا ترغب بالأولاد .

- ٧ -

أتى الإسلام ليقيم بأمر الله علاقة البشر على أساس فطري

١ – الزواج هو العلاقة الوحيدة المشروعة بين الرجال والنساء .

٢ – المرأة مهمتها تختلف عن مهمة الرجل – الرجل يلقي بذاره ، المرأة تتلقى البذار ، تحمل ، تضع ، تربي ، تنتهي من الولد الأول ، يأتي الثاني والثالث ، والكل يحتاجون إلى خدمة ، فإذا خدمتهم المرأة وتفرغت لشأنهم احتاجت إلى من ينفق عليها ، لذلك أوجب الإسلام على الرجل الإنفاق على الزوجة والأولاد .

٣ – مهمة الرجل العمل خارج البيت للقيام بشأنه وشأن البيت ، ومهمة المرأة عمل داخل البيت قبل الزواج وبعده ، قبل الزواج لأنها تتمرن على أعمال البيت ، وبعد الزواج لأن وضعها ووضع أولادها وحاجتهم إليهـا ، وحملها ورضاعها ، وتهيئة حاجيات زوجها الذي يكد من أجلها ، كل هذا يجعل مجال عملها الطبيعي داخل بيتها .

وإذن فالاختلافات الجسمية بين الرجال والنساء نشأ عنه اختلاف فطري في الوظيفة ومجال العمل .

- ٨ -

ولما كان الزنى طريقا غير فطري لعلاقة الرجال والنساء ، فقد حرمه الله ، وحرم كل ما يؤدي إليه من تبرج المرأة وعرض زينتها ، واختلاطها بالرجال ، وخلوتها بهم وسفرها مع غير محارمها :

ولما كان بعض الناس لا بد من مخالطتهم بالنسبة للرجـل والمرأة ، كالبنت والأخت والعمة والخالة والأخ والأب والعم والخال . فان الله حرم الزواج ضمن دائرة معينة لانعدام واقعة الزنى عادة بين أبناء هذه الدائرة ، وحتى تبقى للمرأة دائرة تأخذ فيها حريتها مع الرجال ضمن حدود .

يقول الله تعالى : «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وامهات

نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما ، والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ...» .

إن زوجة الغير محرمة على الإنسان حتى ولو كانت في عدتها منه .

والجمع بين الأختين أو المرأة وخالتها ، أو المرأة وعمتها ، محرم لما فيه من قطع عرى المحبة والمودة ما بين الأرحام بذلك لما يخلفه الزواج بين الضرائر من منافسة وغيره.

أما لم حرم الزواج على المرأة والرجل بهذه الدائرة الكبيرة من البشر ؟ فالجواب : إن الحكم في ذلك كثيرة لا نعرفها كلها قد يكون منها :

١ ـ توسيع دائرة الصلات الاجتماعية بين البشر ، بحيث يصبح تزاوج ما بين القريب والبعيد ، أو القريب والقريب البعيد ، فتتوثق عرى الصلات الاجتماعية فيما بين الناس .

٢ ـ كي تختلط الدماء والأجناس فيما بينها ، فلا يحاول جنس أو أسرة أن يبقى مغلقا .

٣ ـ وربما تكون الحكمة هي أن هذه الدائرة كثيرة الاختلاط فيما بينها ، فاذا ما أبيح الزواج أدى كثرة الاختلاط إلى ما يؤدي إليه الزواج من علاقة شهوانية بين أفراد هذه الدائرة ولذلك فقد عودت هذه الدائرة على فطم نفسها عن الشهوة في هذه الحدود .

٤ ـ إن المرأة وقد قطعت علاقاتها بالرجال الأجانب ، لابد لها من دائرة تستطيع بواسطتها تأمين كثير من القضايا التي لا يستطيعها إلا الرجال ، فكانت هذه الدائرة هي الدائرة العملية لها ، لذلك جعلت العلاقة بينها وبينها علاقة حرمة .

٥ ـ وقد تكون الحكمة أن الله عز وجل أراد تكريم هذه الصلات مع بعضها ، فجعل هذه الصلات أكرم من أن تكون صلات شهوانية ، ونزه هذه الدائرة أن يحس الواحد منهم نحو الآخر بشهوة .

٦ ـ وقد تكون الحكمة عدم لياقة هذه المحارم للزواج لأنها خروج عن الوضع

السليم ، فالوضع السليم أن تكون الأم سيدة ولدها ، وزوجة الأب لها حرمة الأم واخت الأب والأم لها نفس الحرمة ، وأخت الإنسان لها كذلك ، وهكذا بقية المحارم . والزواج فيه سيادة الزوج على الزوجة ، وفي ذلك قلب للفطرة وتحطيم للمشاعر الإنسانية كيف يعلو الإنسان أمه مجامعا لها أو أخته أو .. ؟ إن هذا شيء تتقزز منه نفس الإنسان .

لقد سمعنا قديما أن بعض الأمم كانت تبيح للإنسان الزواج بالأخت وغيرها من هذه الدائرة ، وسمعنا ان القضاء السويدي أجاز للانسان أن يتزوج بأخته من أمه أو أبيه بحجة أنه ليس شرطا أن تضعف بنية الإنسان نتيجة لأمثال هذه الأنواع من الزواج

والحقيقة أن هذا تفكير شعب فقد كل إحساس إنساني ، وأصبح لا ينظر إلى المسائل إلا من حيث إنها تضر جسميا أولا تضر . إن المسألة أكبر من ذلك .

إن المسألة بالنسبة للمسلم أن الله خالق الخلق ، هو وحده الذي له حق التحريم والتحليل ، وأن الإنسان من واجبه أن يطيع الله الذي خلقه ، وما دام رسول الله قد أخبر عن الله أن هذه الدائرة محرمة على الإنسان ، فهذا وحده يكفي لمنع الزواج ، ومن باب أولى الزنى في هذه الدوائر من القرابة سواء كانت عن طريق القرابة أو المصاهرة أو الرضاع .

أخبرني كيف يعيش الأخ مع الأخت إذا كان يمكن أن يتزوج بها في المستقبل ، إنه لا شك سيشتهيها وهي كذلك ، وسيقيمان علاقة الزنى بينهما ، ولو كان له أكثر من أخت ، فانه سيفعل ذلك ، وبالتالي هو يستغني عن الزواج ، وهن يستغنين عن الزواج ، ويكتفين بعلاقة الزنى ، وما نقوله في أخته نقوله في أمه ، ونقوله في بنته ، ونقوله في خالته ، وبالتالي ما عاد الإنسان يثق أن تبقى زوجته مع ابنه ، أو أبيه ، أو أخيها ، وبالتالي لا يثق أن ولدا من أولاده منه ، إذ لا يستطيع أن يبقى دائما مع زوجته ، وبالتالي كيف يتحمل مسؤلية ولد ؟ .

إن الإنسان الذي يسمع قضاء محاكم السويد الآن ، يطمئن إلى ان الإنسانية لا تسير نحو التقدم بل هي ترجع إلى جاهليتها الفظيعة المتمثلة بالوثنية والمجوسية وغيرها .

وحدد الإسلام بدقة كل ماله علاقة بقضايا المرأة دائما بالشكل الذي ينسجم مع فطرة الإنسان إذ الإسلام هو الدين الذي يتلاءم مع هذه الفطرة فمثلا :

١ — المرأة إذا كانت بنتا فنفقتها على أبيها ، وإلا يوجد أبوها فعلى غيره من أوليائها .

٢ – إذا اراد الرجل أن يتزوج امرأة فان رضيت به وقدم لها مهراً مقابل ما تعطيه من نفسها وأجرى العقد بشروطه جاز الزواج .

٣ – نفقة المرأة إذا تزوجت على زوجها .

٤ – إذا مات زوجها وكان لها أولاد كبار فنفقتها على أولادها ، أو على أوليائها مرة ثانية إن لم يكن لها أولاد وليست غنية .

٥ – في مقابل هذه النفقة التي تفرغ المرأة للأعمال البيتية ، فالبيت ورعايته هو سكن المرأة ومقرها الدائم ، ولا تخرج منـــه إلا لغاية مشروعة ، وبإذن زوجها ، وعليها القيام بشؤونه وشؤون أولادها فيه .

٦ – ليس بين الرجل وزوجته عورة ، يحق له أن يرى كل جسمها وان ترى كل جسمه .

٧ – أما ما عدا زوجته من الرجال فلا يحق له أن يرى من جسمه الا ما فوق السرة وتحت الركبة إلا لضرورة التطبيب .

٨ – أما ما عدا زوج المرأة فإن كان لا يحل لها إلى الأبد كأخيها صح أن يرى منها ما فوق أسفل عظم القص من الصدروما تحت الركبة ، وأما غير هذا فلا يحق له أن يرى منها شيئا ، إلا وجهها وكفيها في حالة أمن الفتنة إذا كانت عجوزا او غير جميلة في رأي بعض الفقهاء .

٩ – ولباسها إذا خرجت في الطريق ينبغي أن يكون ساترا ، لا يصف ولا يشف لما يترتب على ذلك من إثارة الغرائز دون مبرر ، إذ المرأة في غير هذه الحالة تثير الغريزة فتشجع على الزنى بها أو بغيرها ، أو يعيش من أثارت غريزته بعذاب نتيجة الحرمان إن لم يكن له زوجة وليس لهذا كله وجه .

١٠ – والإمرة والرئاسة داخل البيت للرجل ، إذ لا بد من رئيس ، والرجل بتركيبه العضوي والجسمي والعقلي ، وبوضعه العملي وخبرته في الحياة لاختلاطه أكثر بالبشر هو وحده المرشح لهذه الرئاسة ،وفيما عدا هذا فهما سواء، حقه عليها يقابله واجب عليه « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

١١ ــ وإذا لم تصلح الحياة الزوجية بسبب من الرجل أو المرأة أو بسببهما ، ووجد كل من الرجل والمرأة أن الأفضل فسخ هذا الزواج فقد أوضح الإسلام طريق تصفية الزوجية على الشكل التالي :

أ ــ إذا رغبت هي بالتصفية تدفع له مقابل ما أخذته من مهر فاذا رضي انتهت العلاقة الزوجية .

ب ــ إذا رغب هو بالتصفية طلق طلاقا رجعيا ، يحق له فيه خلال ثلاث حيض أو أطهار أن يراجعها فيه ، فأذا لم يراجعها انتهت الحياة الزوجية ، واخذت كل ما بقي لها عنده من مهر .

جـ ــ ويحق لهما مرة ثانية وثالثة أن يتزوجا من بعضهما بعقد جديد اذا كان يدعها بعد كل طلاق حتى تنتهي عدتها ، أما لو راجعها أثناء العدة فلا حاجة إلى عقد . بل ولا الرضا منها وفي المرة الثالثة إذا تم الطلاق فلا عود إلا بعد ان تتزوج زوجا غيره ويعاشرها معاشرة الأزواج .

د ــ أما الأولاد فان كانوا صغارا وأرادتهم فلها ذلك ما لم تصبح زوجة للغير وعليه نفقتهم وإن كانوا كبارا أو تزوجت أمهم فهم له .

ــ ٩ ــ

وينتج عن الاختلاف الجوهري بين الرجال والنساء في الجسم والوظيفة الحياتية اشياء أخرى :

١ ــ إن الإسلام أباح للرجل أن يعدد زوجاته ولكن المرأة لا يحق لها ذلك :

إذ المرأة لو عددت فهل لها عدة بطون تضع أبناء كل زوج في بطن ؟ وكيف تستطيع أن تقوم بأعباء عدة أزواج ؟ وكيف بالتالي يطمئن رجل أن يتولى مسؤوليتها وحده ؟ وكيف تكون علاقتها بهؤلاء ؟ إن منطق الفطرة وطبيعة المرأة يقولان : إن المرأة لا يصح أن يكون لها إلا زوج واحد .

وأما الرجل فانه يستطيع أن يبذر في أكثر من رحم ، وأن يعيل أكثر من امرأة ، وأن يتحمل مسؤولية ما ينتج عن ذلك ، فشيء عادي إذن أن يباح للرجل في هذا الموضوع ما لا يباح للمرأة . ولكن شروط الزواج بأكثر من واحدة كثيرة :

أ ـ العدل بين الزوجات في النفقة والسكنى والمبيت

ب ـ القدرة على الإنفاق .

جـ ـ أن يعفهن إذ من واجب الرجل دينيـا أن يعف من تزوجها حتى لا تشتهي الرجال .

د ـ المساواة بين أولاد الجميع فيما طلبت فيه المساواة .

ولا ننسى أن الإسلام أباح للإنسان التعدد حتى أربع زوجات ولكن لم يفرضه ، إن الإسلام لا يجبر أحدا على أن يتزوج اكثر من امرأة ، ولكنه يقتل من زنى بعد زواجه رجلا كان أو امرأة ، لأنه لم يبق للانسان حجة بعد إذ فتح له الطريق الصحيح الشريف النظيف

فان كان كثير الشهوة وزوجته باردتها تزوج بأخرى فان لم تكفياه فثالثة ، وإلا فرابعة ومن لا تكفيه أربع نساء ؟

ومن تزوج وعلق نوعاً من الجمال آخر أو امرأة بلا تسبب منه ، فقد فتح له طريق الزواج ، ومن حركته عوامل أخلاقية أو أريحية نحو امرأة . . فالزواج طريق مفتوح إذ كثيرا ما يرى الإنسان أن أخلاقه تحثه أن يتزوج من امرأة لسبب

ولا ننسى أن المرأة تحمل ، وبعضهن لا يشتهين الأزواج خلال الحمل ، وتضع ولا يستطيع قربانها وما كل زوج يصبر . ثم شيء آخر ، إن منطق الفطرة يبيح للإنسان أن يتزوج أكثر من واحدة إذ المرأة التي لم يتحقق منها الغرض من الزواج بأن كانت عقيمة أو مريضة ... هل الأنسب لها أن تطلق أو يتزوج عليها ، واذا تزوج عليها فهل أجبر الثانية على القبول بمشاركة غيرها معه .

وقد يسافر الإنسان ويترك زوجته في مكان ويضطر إلى المرأة فماذا يفعل ؟

وفي حالات الحروب وقد كثر عدد النساء على الرجال ما العمل إلا في الإباحة ؟

وبشكل عام إذا كانت النساء أكثر من الرجال ، فهل الأفضل زواج بثانية . وإعفافها أو الزنى .

إن منطق الفطرة كله يقول بإباحة التعدد لا بفرضه ولا بتحريمه ما دام صاحبه يستطيع أن يؤدي حقوقه .

ومن لم ترضى به تستطيع أن تطالب زوجها أن يخلعها لتتزوج غيره ، والخلع في

كل حال شيء مباح إن أرادته المرأة في كل حين بشروطه .

٢ ــ وتنتج عن الاختلاف الجوهري بين الرجال والنساء ، أن فرض الإسلام على المرأة أن تعتد إذا مات زوجها أو طلقها ، بحيث تبقى فترة معينة بلا زواج ولا ظهور بمظهر مريدة الزواج ، وذلك شيء فطري . إذ قد تكون حاملا من زوجها الأول فمن تمام تصفية الزواج الأول أن تنتظر حتى تضع إن كانت حاملا ، أو حتى يتضح علم حملها ، أما الزوج فليس مشغولا بشيء من هذا .

٣ ــ وقد مر معنا أنه كأثر عن الاختلاف بين الرجال والنساء ، وظيفة وجسما كانت عورة المرأة التي لا يجوز أن تبديهـا تشمل اكثر مما يشمـل التحريم على الرجل ، وهـذا شيء منطقي إذ الرجل عمله خارج البيت ، فلو كلف بالستر لكان في ذلك حرج ، أما المرأة فعملها داخل البيت فاذا ما خرجت لضرورة فلا حرج إن لبست ، ثم المرأة بتكوينها مرشحة لجذب الرجل إليها ، وهذا الترشيح يستفرغه زوجها فهي ما كانت كذلك إلا لتقوم بخدمة النوع ، وخدمة النوع تؤديها مع زوج واحد .

٤ ــ ونتج عن الاختلاف في الوظيفة والجسم ، أن جعل الإسلام شهادتها تحتاج إلى توكيد بشهادة امرأة اخرى معها لينوبا عن رجل ، وهذا كذلك لأن مهمة المرأة وعملها يصرفانها عن الأهتمام بالشئون الأخرى ، ومن لم يهتم بشيء نسيه ، فامرأتان أحرى بألا تنسيا ، ثم المرأة تكوينها النفسي يجعل عاطفتها أقوى من عاطفة الرجل ، وقد تحملها عاطفتها أكثر من الرجل على اجتناب الحق ، فوجود امرأتين أمتن في تثبيت حقوق الناس ، وقد ذكر القرآن نفسه الحكمة فقال « أن تَضِلَّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

وجعل الإسلام كذلك ضرورة أن يكون بجانب شهادة النساء رجل في بعض الحالات لزيادة التأكيد ، وحرصا على اداء الحقوق ، مع ملاحظة ان القضايا التي تختص بالنساء تقبل فيها شهادة النساء وحدهن .

٥ ــ ونتج عن هذا الاختلاف في الوظيفة والجسم ، أن أعطاها الإسلام نصف الرجل من الميراث في غالب الاحيان ، وذلك منطقي اذ ما دامت اعباء الرجل المالية أكثر وهو المكلف بالمهر والنفقة عليها وإقامة البيوت ... فشيء عادي أن تكون حصته أكثر من حصتها في هذا الموضوع .

٦ ــ ونتج عن هذا الاختلاف في الوظيفة والجسم ، أن كلف الإسلام الرجل أكثر مما كلفها :

فقد أسقط عنها فريضة الجهاد إلا في حالات قليلة .

وأسقط عنها الصلاة فترة نفاسها وحيضها وأخر عنها الصوم حتى تطهر منهما .

وأسقط عنها واجب القيام بأمور الأمة من أمر بمعروف ، ونهي عن منكر . أي أن الإسلام فرغها لمهمتها داخل البيت ، وقد رأينا كيف أن الإسلام فرض على غيرها إعالتها والإنفاق عليها .

٧ — ونتج كذلك عن هذا أن أعطى الاسلام حق تأديب الزوج للزوجة ، ولكن بالمعروف ، فيعظ ويذكر ، ويهجر ويضرب ضرب تأديب لا إيلام . قال عليه السلام (اضربوا ولا يضرب خياركم) .

— ١٠ —

ونستطيع تلخيص ما مر بما يلي :

١ — إن المرأة إنسان كالرجل تماماً في صفة الإنسانية .

٢ — غير أن تركيبها الجسمي يختلف عن تركيبه .

٣ — يؤدي هذا إلى اختلاف في الوظيفة الحياتية لكلٍ .

٤ — الوضع الفطري للمرأة يتطلب منها أن تكون وظيفتها داخل البيت .

٥ — على الرجال في مقابل هذا نفقة النساء .

والسؤال الآن هو :

هل الأحسن للبشرية أن تخرج المرأة من بيتها للعمل ؟ وهل هذا أحسن للمرأة نفسها؟ وهل هذا أحسن للرجل نفسه ؟ يجيب كثير من الكافرين على هذا بتسرع : نعم ويقولون بحماس إن إبقاء المرأة في بيتها تعطيل لنصف إنتاج المجتمع ...

ولنناقش الأمر بهدوء :

١ — ألا يحتاج بيت الإنسان وأولاده إلى من يقوم بشؤونه، فاذا ما خرجت إمرأة للعمل ، ألا تحتاج إلى غيرها كخادمة تحل محلها ، واذا استغنينا عن الخادمة ، واشترينا كل شيء من السوق مصنوعاً ووضعنا أولادنا في دور الحضانة ألسنا نكون قد جعلنا ناساً يعملون نفس العمل الذي تقوم به المرأة في بيتها وتكون النتيجة واحدة ، أوليس البيت ومجموعة الأولاد يستنفذون جهد إنسان كامل ، وهل يضيع جهد المرأة في هذا الطريق .

٢ ــ هل ينمو الولد نمواً صحيحاً في حضن أمه ، أو في حضن دور الحضانة ؟ إن كل تجارب علماء التربية تثبت أنه ليس كالأم للطفل ، ولا ينمو نمواً كاملاً إلا في أحضانها .

٣ ــ أليس الأكرم للمرأة أن تكون مخدومة تؤمن لها كل حاجياتها وكل نفقاتها ، من أن تبحث جاهدة عن العمل وتعمل ما لا يتناسب مع ما خلقت له .

٤ ــ أليس الأكرم للرجل والأهنأ له أن يأتي إلى بيته فيجد زوجته بانتظاره مقبلة عليه ، قائمة بشؤونه تريحه ويسكن إليها . أليس هذا أجود من أن يأتي وإياها إلى البيت تعبين مجهدين كل منهما عاجز عن خدمة الآخر .

٥ ــ أيهما أسعد: إمرأة تحس أن قلب زوجها لها ، وطاقته الجنسية لها . أو امرأة ترى أن قلب زوجها لغيرها ، وطاقته الجنسية لغيرها . أيهما أسعد: رجل يرى قلب زوجته لغيره ، وجسمها يشاركه فيه غيره ، أو إنسان يرى أن قلب زوجته له ، وجسمها له . وهل رأيت امرأة تخالط الرجال ليل نهار ويبقى قلبها لزوجها في عصرنا المليء بالإثارة والإغراء ؟.

ــ ١٠١ ــ

وقد يقول قائل : ولنفرض أن امرأة لم تجد زوجاً ولا معيلاً ألا يحق لها أن تعمل ، ويتساءل آخرون ألا يجوز للمرأة أن تتعلم ؟ ويتساءل آخرون تساؤلات عديدة حول هذا الموضوع .

والذي نقوله هو : ان الله إذا جعل المحل العادي للمرأة بيتها و كلف غيرها أن ينفق عليها، لم يحرم عليها أن تعمل ، ولا أن تتعلم ، ولا أن تتملك ، ولا أن تكتسب ولا أن تشارك برأي ، بل على العكس من ذلك . عندما ندرس وضع المجتمع الإسلامي ، فإننا لا نرى أبداً أنه وجد عصر حرم فيه على المرأة ان تعمل أو تتعلم أو تكتسب أو تتملك ، بل نجد في كل عصر أن المرأة كانت تعمل وتتقاضى على عملها أجرا ، وأنها كانت تتعلم وكان يؤخذ عنها العلم ، فوجد في تاريخنا شاعرات وأديبات وفقيهات ومحدثات ومفسرات ، وفي كل أعصارنا الإسلامية كان للمرأة شخصيتها المالية المستقلة فتبيع وتشتري ، وتتملك وتقاضي ، وكان لها شخصيتها الإنسانية ، فكانت تستشار وتدلي برأيها ، وتناقش ويرجع إلى رأيها إن كان صواباً ، وهذا كله موجود ومشهور .

حتى القتال فإن تاريخنا يذكر أن نساءاً شاركن في معارك وقاتلن ، بل مما يذكره فقهاء المسلمين أن القتال يكون أحيانا فرض عين على المرأة كأن داهمنا العدو ، وهذا يعني أن تعلم القتال يكون أحياناً فرض عين على المرأة المسلمة ككثير من العلوم التي تحتاجها .

فالإسلام لم يحرم على المرأة أن تتعلم بل فرض عليها أن تتعلم بعض العلوم .

ولم يحرم عليها أن تعمل بل هنالك أعمال ينبغي أن يقوم بها النساء .

ولم يحرم عليها أن تقاتل ولكنه لم يوجب عليها القتال .

ولكن هذا كله مشروط أن يكون ضمن الحدود التي لا يجوز أن تتجاوزها المرأة. فالعمل الذي يؤدي إلى تبرجها ، وخلوة الاجانب فيها ، واختلاطها بمن لا يحل ، وفتنتها، وبالتالي زناها، مثل هذا العمل لا يجوز ضمناً، لا للعمل نفسه،ولكن لما أحاط فيه .

والعلم جائز لها ومباح مهما كان نوعه ، فما أحد يحرم على امرأة أن تتعلم علم الحساب أو الفيزياء أو الكيمياء ، ولكن أن تتعلم مع هذا الوقاحة والسفاهة والضلال ، والكفر والميوعة والانحلال ، أو تخلو بمن يعلمها من الرجال وحدها . مثل هذا لا يجوز .

وأن تتعلم القتال لا حرج ، على أن لا يرافق تعلمها ما حرم الله عليها ، ومن سفاهة الناس أنهم بحجة تعليم الفتاة القتال ،يعلمونها أن تعرض نفسها على البشر سافرة مستعرضة ، وكأن هذا هو القتال . فأمثال هـــذا حتماً هو الذي يحرمه الله ويأباه ، وإذن فالوضع الطبيعي للمرأة أن يكون بيتها مأواها،واذا اضطرت للخروج فلا حرج على شرط أن يكون خروجها ودخولها مأذوناً فيه شرعاً .

ولا ننسى أن نذكر مسألة هنا وهي أن المرأة إنما تستحق نفقتها على زوجها في مقابل احتباسها في بيتها ، فإذا خرجت إلى العمل الجائز شرعاً بإذن زوجها ، كان أجرها لها ، وتبقى نفقتها على زوجها أما إذا خرجت بغير إذنه ورضاه سقطت نفقتها في هذه الصورة وكانا شريكين في النفقة عليهما .

نصوص من السنة

(قال بريدة : كان النبي ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فإذا أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيك ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

وإذا حاصرت أهل حصن وأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا) . رواه أبو داوود والنسائي ومسلم بلفظه .

(قال يحيى بن سعيد : إن أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشام فخرج يشيعهم فمشى مع يزيد بن أبي سفيان وكان أمير ربع من تلك الأرباع فقال يزيد لأبي بكر إما أن تركب وإما أن أنزل فقال له : ما أنت بنازل ولا أنا براكب إني أحتسب خطاي في سبيل الله ثم قال : إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم

له ، وستجد قوماً فحصوا عن اوساط رؤسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف فإني موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ولا تقطع شجراً مثمراً ولا تخربن عامراً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة ولا تغرقن نخلاً ولا تحرقنه ولا تغلوا ولا تجبنوا) رواه مالك .

(قال نجدة بن عامر الحروري : أنه كتب إلى ابن عباس هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء ؟ وهل كان يضرب لهن بسهم ؟ وهل كان يقتل الصبيان ؟ ومتى ينقضي يُتْمُ اليتيم ؟ والخُمس لمن هو ؟ فقال ابن عباس لولا أن أكتم علماً ما كتبت إليه . تسألني هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء ؟ فقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحذين من الغنيمة ، وأما سهم فلم يضرب لهن ، وأنه لم يكن يقتل الصبيان فلا تقتل الصبيان الا أن تكون تعلم ما علم الخضر من الصبي الذي قتل) لمسلم وأبي داوود والترمذي ، (قالت الربيع بنت معوذ : لقد كنا نغزو مع النبي ﷺ لنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى الى المدينة) البخاري

(قالت أم عطية : غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى) مسلم

(قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : ان كانت المرأة لتجير على المسلمين فيجوز) رواه ابو داوود

(عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تُستأذن في نفسها وإذنها صماتها) .

(وفي رواية : والبكر يستأذنها أبوها في نفسها وإذنها صماتها) الستة إلا البخاري .

(عن ابن عباس قال : إن جارية بكراً أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة فخيرها النبي ﷺ) ابو داوود .

(روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها) .

(وفي رواية : إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع) الشيخان وأبو داوود .

« روى طلق بن علي عن رسول الله ﷺ : اذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور)

(عن أبي هريرة قال : قيل لرسول الله ﷺ أي النساء خير ؟ قال التي تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره) النسائي

(عن أسماء بنت أبي بكر قالت : تزوجني الزبير وماله في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح وغير فرسه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحه فأعلفه وأسقي الماء وأخرز غربه وأعجن ولم اكن أحسن أخبز فكان يخبز لي جارات من الأنصار وكن نسوة صدق وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي وهي على ثلثي فرسخ قالت فجئت يوماً والنوى على رأسي فلقيت النبي ﷺ ومعه نفر من أصحابه فدعاني وقال أخ أخ ليحملني خلفه فاستحييت وعرفت غيرته فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى فجئت الزبير فقلت لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب فاستحييت منه وعرفت غيرتك فقال : والله لحملك النوى على رأسك أشد علي من ركوبك معه . حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتني سياسة الفرس فكأنما اعتقني) رواه الشيخان

(روى عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ معلقاً على امرأة معها صبيان لها قد حملت أحدهما وهي تقود الآخر : حاملات والدات رحيمات لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة) للقزويني .

(روى حكيم بن معاوية عن أبيه : قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت) رواه أبو داود وقال : لا تقبح : أن تقول قبحك الله .

(روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن قالت : وما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان العقل فشهادة امرأتين بشهادة رجل ، وأما نقصان الدين فإن إحداكن تفطر رمضان وتقيم أياماً لا تصلي) . أبو داود ومسلم وابن ماجه .

(قال ابن عباس عن رسول الله ﷺ : لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم فقال رجل يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجّة وإني قد اكتتبت في جيش كذا قال ارجع فحج مع امرأتك) . الشيخان

(قال ابن عباس : لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء) رواه البخاري والترمذي وأبو داوود .

الباب الثاني

تميز الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة أخلاقياً وسلوكياً

- ١ -

إن التقسيمات الأساسية للناس في الإسلام هي أن الناس ينقسمون إلى مؤمنين وإلى كافرين، وإلى منافقين. هذا هو التقسيم الأساسي الذي يعترف عليه الإسلام، وأي تقسيم آخر يقسم على أساسه الناس لا يعترف عليه الاسلام ويحاربه، فعلى أساس هذا التقسيم يكون الولاء والنصرة والأخوة والمحبة، أو الحرب والكره والبغض.

روى النسائي عن أنس قال: قال عليه الصلاة والسلام (ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب في الله ويبغض في الله ....).

وأخرج أبو داوود عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان).

وقال جل جلاله « إنما المؤمنون إخوة » والحصر هنا يعني أنه لا أخوة بين المؤمنين وغيرهم، وقال « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاّ تفعلوه تكنْ فتنة في الأرض وفساد كبير ».

وكل تقسيم آخر يكون على أساسه الولاء والنصرة والتعاون، أو الصراع والحرب والخصام، هو انحراف عن الحقيقة الإسلامية لا يجوز للمسلم أن يتبناه أو يشارك فيه، أو يرضى عنه. كأن يقسم الناس إلى أغنياء، وطبقة وسطى وفقراء، او بالاصطلاح الشيوعي إلى بروليتاريا وبورجوازيين وأريستوقراطيين، أو تقدميين ورجعيين. او إشتراكيين وإقطاعيين أو ماسونيين وغير ماسونيين. ثم يعطي الإنسان ولاءه على هذا الأساس بصرف النظر عن الإيمان والكفر والنفاق فيوالي الكافرين والمنافقين. إن مثل هذا كفر ونفاق وخروج عن الإسلام ومتى فعله المسلم لم يعد مسلماً « والذين كفروا

بعضهم أولياء بعض » « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .. » .

نعم قد نقسم المؤمنين إلى متقين وفاسقين ، ونقسم الكافرين إلى ذميين ومعاهدين وحربيين ، ونقسم الحربيين إلى أهل كتاب وغيرهم ، ويكون لنا نتيجة لهذه التقسيمات مواقف تختلف أو تتفق ،ولكن هذا كله ضمن الإطار العام (إيمان — كفر — نفاق) ولاء ومحبة وإخاء ، وتضامن ونصرة وخلطة للمؤمنين ، وكره وبغض وحرب وصراع مع الآخرين ، وإن التقوا معنا ببعض جزئيات الأمور فهذا لا يؤثر عملياً على نظرتنا الكبرى. إن المسلمين زمن رسول الله ﷺ كانت قلوبهم مع الرومان ضد الفرس ، بمعنى أنهم أحبوا أن ينتصر الرومان لأنهم أهل كتاب على الفرس لأنهم ليسوا كذلك ، ولكن هذا ما أخرج المسلمين عن اعتبار أن الطرفين كافران ، وأنهما عدوان لنا وأن علينا أن نحاربهما وأن نخاصمهما

وما يجري الآن من كون بعض المسلمين يتعاونون مع الكافرين على إخوانهم المسلمين لالتقاء الجميع على فكرة الاشتراكية ، أو الديمقراطية أو غيرهما ، يخرج هؤلاء المسلمين عن الإسلام ويجعلهم في حالة ردة ونفاق .

إن الأمر وصل نتيجة لغموض هذا المعنى عند بعض المسلمين أن أوجدوا أحزاباً أو شاركوا بأحزاب وهيئات جعلوا أخوتهم لمن يدخلها فقط ، مع ملاحظة أن هذه الأحزاب قادتها كافرون ،ومؤسسوها من النصارى ، أو اليهود ، أو الملحدين، وأعطوا بسبب ذلك طاعتهم لهؤلاء الكفرة ، والله عز وجل حرم هذا كله « يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

« ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون »

واعتبر القرآن من يفعل ذلك مرتداً « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر » .

إن الناس مؤمنون وكافرون ومنافقون ، وعلى هذا الأساس،ومنه، يكون منطلق تفكيرنا وتصرفاتنا .

والتقسيم السابق ناتج عن تقسيم الآراء والأفكار والأقوال ، إلى ما يعتبر إيماناً أو كفراً أو نفاقاً.

فالايمان عقيدة وتصور ينبع عنهما سلوك .

والكفر عقيدة وتصور ينبع عنهما سلوك .

والنفاق عقيدة وتصور ينبع عنهما سلوك .

فالتصور الإيماني يشمل نظرة الإنسان إلى الكون والإنسان ، وإلى مبدأ الكون والإنسان ومصير الكون والإنسان ، والمنهاج الذي يتلاءم مع هذا التصور العام المتلقى عن المصدر الوحيد الذي يحق للإنسان أن يتلقى منه وهو الله بواسطة رسوله الذي قامت الأدلة على رسالته ، هذا التصور يستقر في القلب فيطمئن به القلب ، فيكون عقيدة ينبع عنها سلوك عملي وأخلاقي متسق معها .

والتصور الكفري يشمل نظرة الناس إلى الكون والإنسان والحياة ، والمنهاج الذي الذي يسيرون عليه ، ومصدر استمداده، فبعضهم يستمد هذا كله من أهواء ذاته، ومن ظنون البشر ، ومن الحدس والخلط والخبط والفكر المبعثر ، وبعضهم يستمد بعض أفكاره من الوحي المنسوخ والمخلوط بأوهام البشر في التجاوز به عن حده، والانحراف فيه عن وضعه، وبعضهم لا يؤمن بشيء إلا بما وافق هواه ....

وينتج عن هذا الخلط والخبط في التصور ومصدر استمداده ما يشبه العقائد المستقرة ، أو غير المستقرة في النفس والقلب، ينتج عنها سلوك عملي وأخلاقي منسجم معها .

والتصور الآخر تصور المنافقين هو نفس تصور الكافرين مع التظاهر بمسلك المؤمنين، فينتج عن ذلك سلوك أخلاقي وعملي متناقض، ولكنه منسجم مع هذا التناقض في شخصية هؤلاء من حيث حقيقتهم وما يتظاهرون به. وإذن اختلاف الناس في التصور ينتج عنه اختلاف في العقيدة ، ينتج عنه اختلاف في السلوك ، وهذه أمثلة يتضح فيها تأثير العقيدة على السلوك ، واختلاف السلوك ، كأثر عن اختلاف العقيدة :

أ - المسلم المؤمن يرى أن المصدر الوحيد الذي يتلقى عنه التعاليم ، والأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ، هو الله. ويعرف ذلك بواسطة رسول الله ، وتكون مهمة علماء المسلمين توضيح هذه القضايا ، وعلى هذا فالحلال الصريح يبقى حلالا أبد الدهر ، والحرام الصريح يبقي حراما أبد الدهر ، أما المجتمع الكافر فيرى أن له

حق التشريع لنفسه بواسطة ممثليه أو نوابه ، وعلى هذا فقد نجد قضية واحدة تكون مباحة ، ثم تصبح محرمة ، ثم تصبح مباحة بلا مسوغ عقلي أو علمي سوى أن هوى المجتمع قد تغير ، كما حدث مثلا في أمريكا يوم صدر قانون تحريم الخمر. فأنت تجد أن الخمر كانت مباحة عندهم ثم حرمت لأنهم رأوا تحريمها ، ثم عادوا بعد فأباحوها ، مع أن الأبحاث العلمية أكدت ضرورة التحريم ، ولكن أهواءهم تريد غير ذلك .

ب – ومثلا آخر :

المسلم يرى أن العصمة ليست إلا للأنبياء ، أما غيرهم فيمكن أن يخطئوا ، وعلى هذا فكل إنسان مهما بلغ يمكن أن يخطىء ، والمسلم نتيجة لهذا يبقى متمسكا بالمعصوم فقط وأقواله ، وهو النبي ، وعلى قدر قرب كلام غير النبي من الوحي يكون قربه من الحق .

لكن بعض أصحاب الديانات الأخرى يرون أن العصمة تكون لغير الأنبياء ، وعلى هذا فعندما يتكلم هذا المعصوم غير النبي يكون لكلامه الاعتبار الكامل ، ويأخذ مكانه وكأنه وحي ، فمهما أمر أطاعوه ، ومهما نهى أطاعوه ، وما أحل أصبح حلالا وما حرم أصبح حراما ، وينتج عن هذا أنك تجد القضية الواحدة قال بها واحد من هؤلاء بأنها حلال ، وأتى الآخر وحرمها ، واتى آخر وقال غير ذلك ، مع أن القضية لم يتغير شيء من شروطها ، وأوضاع حلها أو حرمتها . فمثلا تجد رجال الكنيسة قديما يحرمون عمل قوم لوط ، ثم يأتي واحد منهم فيطالب بإباحته ، مع أن العملية حرمت في الماضي لأنها ليست عملا فطريا لقضاء الشهوة .

ج – ومثلا آخر :

المسلم يرى بأن الله يحاسبه يوم القيامة على ما قل أو كثر من قول أو عمل أو تصرف ، وأن الله وحده هو الذي يملك أمر المغفرة أو العقوبة ، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله لا تحمل نفس عن نفس ذنباً ولا إثماً ، وينتج عن هذا أن المسلم يبتعد عن الذنب ، وإذا أذنب فإنه يتوب إلى الله وحده ، ويبقى خائفا من عدم قبول التوبة ، فيدفعه هذا إلى العمل الصالح ليعوض عن عمله السيء .

أما النصراني في زماننا مثلا فإنه يرى أن المسيح يحمل عنه ذنبه ، وأن البابا ونوابه يملكون غفران هذا الذنب إذا اعترف إليهم ، وينتج عن هذا تساهل عنده في أمر الذنب ، ونسيان لله ، واعتماد على البشر . من هذه الأمثلة البسيطة يتبين لنا كيف أن

التصور يؤثر على العقيدة، وتؤثر هي بدورها على السلوك. فأي سلوك إنما هو نتاج عقيدة أو غلبة نفس وهوى .

فالكفر أنواع ، ولكل نوع عقيدة ، وكل عقيدة ينتج عنها سلوك ، وقد تتشابه النتائج السلوكية مع اختلاف العقائد الكافرة ، وقد تختلف ولكنها تبقى متقاربة . والإيمان عقيدة ينتج عنها سلوك ، والنفاق كذلك

- ٣ -

وقد يحدث أن نجد مؤمنا مسلما له من أخلاق الكافرين والمنافقين نصيب ، وقد نجد منافقا أو كافرا له من أخلاق المؤمنين نصيب . فمثلا الكرم خلق من أخلاق المؤمنين فرسول الله ﷺ حدثنا أن الله عز وجل قال للجنة (وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل) إذ الكافر لا يجد مبرراً لإنفاق المال دون مقابل سوى المصلحة أو المنفعة أو الغرض ، أما المسلم فإن إكرام الضيف عنده هو مبرر الإنفاق ، لأن الله أمر بذلك ، وإطعام الطعام مبرر الإنفاق لأن الله أمر بذلك .

والصدق خلق من أخلاق المؤمنين لأن الكافر لا يرى ما يمنعه عن الكذب إذا كان في الكذب مصلحة ، أو منفعة أو غرض ، أما المؤمن فيحجزه عن الكذب كون الله عز وجل لا يرضاه للمسلم ، وهكذا قل عن كل خلق .

ولكنا نجد أحيانا كافراً صادقا ، ونجد مؤمنا كاذبا ، ونجد كافراً كريما ، ونجد مؤمنا بخيلا ، ومرجع ذلك بالنسبة للمؤمن أن العقيدة لم تتمكن من قلبه ، أو لم تتح له التربية الصالحة ، او لم تتح له البيئة المسلمة التي يعتاد بها على أخلاق الإيمان .

أما مرجع ذلك بالنسبة للكافر فيعود إما لأن هذا جزء من بقايا العقيدة الصحيحة التي كانت له قبل أن يدخل عليها الانحراف ، أو لمجاورته لأهل الإيمان فيستفيد من أخلاقهم ، أو لرؤيته التجريبية العملية أن أخلاق الإيمان أنفع على المدى الطويل من غيرها وأمتن في بناء الحياة ، أو أن خلقا خاصا لا بد منه ، إذ أن البيئة تحتمه ...

وعلى كل حال المظهر الأول شذوذ ، والمظهر الثاني شذوذ .

ولو أنك أخذت مجتمعَيْن أحدهما كافر قد تحلل من كل ماله علاقة بالوحي ، والآخر مسلم لا زال للإسلام فيه تأثيره ، فإنك تجد فارقا كبيرا في الأخلاق بحيث تتأكد أن الإيمان تنبع عنه أخلاقه ، والكفر تنبع عنه أخلاقه .

ففي المانيا مثلا لا تجد شيئا الآن اسمه كرم ، إذ من الأشياء العادية أن يأخذ الصديق من صديقه سيجارة ويدفع له ثمنها ، وأن يدعو الأخ أخته إلى بيته ونفقتها وهي عنده على نفسها ، ولكنك لا تجد مثل هذا أبدا في المجتمع الإسلامي بوجه عام .

وعلى كل حال فإن الكفر لا بد على المدى البعيد أن تظهر أخلاقه كلها وإن كان التدرج اليها بطيئاً ، والايمان لا بد على المدى البعيد ان تظهر اخلاقه كلها إذا ما أتيحت له التغذية التامة وكان الإستعداد جيداً .

فأوربا النصرانية في الأصل ، والتي تعتبر كافرة بنصرانيتها المنحرفة وان بقيت فترة من التاريخ محافظة على بعض الأخلاق الأساسية في دين المسيح عليه السلام ، إلا أن هذه الأخلاق تضاءلت حتى أصبحت في النهاية عدماً ، إذ الكفر ذلك البذرة الشيطانية الخبيثة لا يمكن أن يكون ثماره إلا خبثا .

والمسلم الذي يغذي إيمانه لا بد أن يأتي يوم وقد ظهرت عليه أخلاق الإيمان كلها ، فالبذرة الربانية الصالحة لا تكون ثمارها إذا أحسن رعايتها إلا صالحة. وقد قال الله تعالى: « ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكُلَها كُلَّ حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » .

— ٤ —

وهل ينفع الكافر عند الله أن تكون عنده بعض الاخلاق التي هي من أخلاق الإسلام؟ وهل يضر المسلم عند الله أن تكون عنده بعض الأخلاق التي هي من أخلاق الكفر ؟

أما بالنسبة للمسلم فلا شك أن هذا يعتبر انحرافا قد يصل به إلى الكفر ، فتكون له عقوبة الكافرين ، وقد لا يصل به إلى الكفر فيكون مؤاخذا عليه عند الله ، وقد يعاقبه الله في الدنيا عليه ، وقد أبقى له الله عز وجل في الدنيا طريق الاستقامة مفتوحاً ، بحيث إن شاء أن يستقيم تاب إلى الله نادما على ما فعل ، ناوياً ألا يعود ، عازماً على الاستقامة ، مستغفرا الله عز وجل ، مؤديا الحقوق لأهلها إن كان انحرافه له علاقة بحقوق الخلق ، فإن فعل غفر الله عز وجل ذنبه ، ولا يؤاخذه عليه في الآخرة إن شاء .

أما بالنسبة للكافر فان أعماله هذه التي تنسجم ظاهريا مع الإسلام تنفعه في الدنيا فقط ، فيكون ثوابها في تطبيقها دنيويا ، أما في الآخرة فلا ، على اعتبار أنها لم تنبع كأثر

عن الاعتراف بالله ورسوله ، وذلك هو شرط أعمال الإسلام ، إذ الأسلام والإيمان تصديق واستسلام ، وهذه ليس فيها طابع التصديق ولا الاستسلام ولذلك فلا قيمة لها عند الله عز وجل قال تعالى :

« وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءا منثورا »

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » .

- ٥ -

بعد عرض هذه القضايا كلها يتضح معنا أن الطريق الذي يسلكه المسلم طريق متميز مستقل ، قد يتقاطع مع غيره من الطرق ، ولكنه تقاطع عرضي وليس غير ذلك ، وقد نبـه الله عز وجل المسلم على هذه الحقيقة في أول سورة من سور القرآن (الفاتحة) التي يكررها المسلم في كل صلاة :

« إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين »

فطريق المسلم متميز ، هو طريق الأنبياء والمرسلين ، ولا يرضى أن يسلك طريق غيرهم ، سواء كانوا يهودا أو نصارى ، ومن باب أولى غيرهم ممن لا كتاب سماويا لهم .

إن طريق المسلم هو طريق الله الذي دل عليه كل نبي لله ، وكل رسول ، ووضحه كاملا خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » « قـل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيّما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

(سأل رجل عبد الله بن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال :

تركنا محمد في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد[1] وثمّ رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ثم قرأ « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

(١) مفردها جادة ، أي السبيل أو الطريق .

وعن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى ضرب مثلا صراطا مستقيما على كتفي الصراط داران (وفي رواية سوران) لهما أبواب مفتحة على الابواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فالأبواب التي على كتفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله تعالى حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه أخرجه الترمذي .

وفسره رزين في حديث رواه عن ابن مسعود :

أن الصراط هو الإسلام .

وأن الأبواب محارم الله .

والستور حدود الله .

والداعي على رأس الصراط القرآن .

والداعي فوقه واعظ الله في قلب كل مؤمن. فهذا طريق متميز — لا يشبه طريقاً ولا يشبهه طريق — طريق مستقيم .

— ٦ —

وينتج عن هذا كله أن المسلم الحق ، إنسان متميز تميزا تاما عن غيره في كل شيء ، فهو متميز منذ البداية في عقائده وعبادته ومناهج حياته وفي هدفه النهائي وهدفه القريب .

فإذا كان هدف غير المسلم النهائي هو الحياة الدنيا ، في لهوها ولعبها ، وزينتها وتفاخرها وتكاثرها ، وذهبها وفضتها ولذتها ، فإن هدف المسلم النهائي هو الآخرة وهو من الدنيا على حذر .

وإذا كان هدف الكافر في الحياة الدنيا من عمله الاجتماعي أو السياسي أو الإصلاحي في زعمه هو تحقيق تقدم مادي ، أو تعميم شهوة ، فإن الهدف العام للمسلم في عمله العام ، إقامة دولة الله وحمايتها ، وتوحيد الأمة الإسلامية ونصرة شريعتها ، وإحياء سنة رسولها ، والجهاد في سبيل الله حتى تخضع الدنيا لكلمة الله .

وإذا كان هدف الكافر الشخصي ، تحقيق أكبر قدر ممكن من اللذة والمتعة ، فهدف المسلم الشخصي أن يكون الله راضياً عنه ، محباً له ، متمسكا بكتاب الله ، مقتديا

برسول الله ﷺ ، مجاهدا في سبيل الله حتى يستشهد ، وهو على ذلك ، وهو يحس أن في ذلك سعادته ، إن الكافر لو أعطى أحدا حتى أباه مالاً يحس بألم لأنه خسر ، بينما المسلم سعادته في أن يعطي ، وهذا مفترق الطريق بين سعادة المسلم ، وسعادة الكافر ، إن سعادة المسلم بقيامه بأمر الله ، وألمه في انحرافه عن ذلك ، وسعادة الكافر في التفلت من كل قيـد . ولما كان هذا الكتاب كله يشرح تميز المسلم في عقائـده وعباداته ومناهج حياته ، فسنقتصر هنا على شرح تميز المسلم في هدفه النهائي ثم العام وما يترتب على ذلك من تميز في السلوك .

تميز المسلم في هدفه النهائي

إن هدف الكافر الدنيا ، وليس له في الآخرة مطلب ، بل هو ناس لها ، منكر إياها ، غافل عنها ، والحياة الدنيا هي ما وصفها القرآن :

« زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

« إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ».

إن الكافر همه كله الدنيا « ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق» فلا يفكر إلا بها وليست له همة إلا بأن يحصل أسبابها كلها ، فهو يريد النساء يتمتع كما يريد ، ويزني كما يشاء ، وينظر لمن يختار ، ويريد ألا تمنع امرأة نفسها عنه ، وهو يريد الأولاد ، ويريد الذهب ، ويريد أدوات الركوب والرفاه ، والفخفخة ، ويريد الأراضي ، ويريد أن يلعب وأن يلهو . أن يكون أثاثه جميلا ، ولباسه جميلا ، ويريد أن يعلو على الآخرين ، وأن يفخر ويسمو ... وليس له همة ولا أمل إلا في شيء من هذا ، أما الآخرة فليس له أدنى همة إليها ، ولا رغبة فيها ، بل هو كافر بها أو شاك أو تارك إياها وراء ظهره .

أما المسلم فهو كما وصف الله « ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وهو كما نصح قوم قارون قارون « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

والمسلم يرغب أن يتمحض خالصا للاخرة تحقيقاً لأمر الله وهو من الدنيا على حذر « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » « من كان يريد حرث الآخرة نَزِد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » .

يقول عليه السلام (إزهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس) . وقال عليه السلام (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالم ومتعلم) .

وقال (لو كانت الدنيا تعدل عنه الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) .

وقال (ما لي وللدنيا ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها).

وحدث أبو سعيد قال : (جلس رسول ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال رجل أويأتي الخير بالشر ؟ فسكت رسول الله ﷺ فرأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرمضاء (العرق الكثير) وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه حسده فقال: إنه لا يأتي الخير بالشر وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا (انتفاخا) أو يلم ،إلا أكلة الخضرة فانها أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت (أي اجترت بتأن ورفق) . وبالت ثم رتعت،وإن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة)أخرجه الشيخان . وليس معنى حذرنا من الدنيا وكون الآخرة هي هدفنا الوحيد ، أن نموت أو نتماوت فان الرسول عليه السلام يقول :

(ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك) أخرجه الترمذي .

ووصفت عائشة زهد عمر فقالت : (كان عمر زاهدا وكان إذا مشى أسرع واذا تكلم أسمع وإذا ضرب في ذات الله أوجع) .

ولكن المقصود بذلك هو أن تقف من كل جزء من أجزاء الدنيا عند ماحده الله

ا فيه. يقول عليه السلام(إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا والنساء فان أول فتنة بني إسرائيل كانت النساء) أخرجه مسلم .

فالمال من الدنيا، ورجل الآخرة هو الذي يأخذه من حله ، ويضعه في محله، معطيا حق الله فيه كما أمر الله في ذلك كله .

والنساء من الدنيا ، ورجل الآخرة هو الذي يتمتع منهن بالقدر المسموح فيه .

والأولاد من الدنيا ، ورجل الآخرة لا يجعل حبه لهم يطغى على تأديبه لهم ، أو السير بهم في طريق الله ، أو يتجاوز بهم حقهم .

والخيل والأنعام من الدنيا ، ورجل الآخرة هو الذي يعطي حق الله فيها ، ويستعملها في الطريق الذي سمح الله له أن يستعملها فيه .

وتملك الأراضي من الدنيا ، ورجل الآخرة لا يتملك إلا عن طريق مشروع ، ويعطي حق الله منها ، ولا يتعامل مع الآخرين فيها إلا ضمن حدود الشريعة .

واللعب من الدنيا ، وقد حد الله لأبناء الآخرة لعبهم الجائز لهم ، وما عداه فهو باطل ، ورجل الآخرة هو الذي يقف عند ما حده الله له من لعب .

واللهو من الدنيا ، ورجل الآخرة يأخذ منه بالقدر المسموح ضمن الحدود التي رسمها الشارع .

والزينة من الدنيا ، ورجل الآخرة هو الذي يبقى ضمن حدود الله فيها .

والتفاخر والتكاثر من الدنيا ورجل الآخرة يبقى عند حدود الله في ذلك كله .

واليك الآن بيان هذا :

— ١ —

إن المسلم يتملك ، والكافر يتملك ، ولكن الفارق بينهما أن الكافر يعتبر المال عنده غاية في حد ذاته ، حتى إنه ليصبح إلهه الذي يطيعه في كل شيء . بمعنى أنه لا يبالي عن أي طريق وصل إلى المال ، وإذا وصل إليه، فانه لا يخرج عنه إلا كرها ، وهذا نوع من العبودية . يقول عليه السلام (تعس عبد الدرهم) .

أما المسلم الذي يطلب رضوان الله ويرجو اليوم الآخر ، فإن المال عنده وسيلة لحفظ الكرامة عن الابتذال ولكسب الحسنات ، وتكفير السيئات ، وينتج عن هذا

أنه لا يتملك مالا إلا عن طريق حلال ، وإذا تملك فإنه يؤدي في ذلك حق الله منه ، وهو سعيد النفس ، وزيادة على ذلك فنفسه دائما تجود بما تملك إذا رأت ضرورة الإنفاق ، وليست نفسه مستشرفة إلى المال ولا متعلقة به .

فالمال بالنسبة للمسلم وسيلة يثبت بها صحة إيمانه بتملكه الحلال ، وصحة إيمانه بالإنفاق وصحة إيمانه بالجود وابتغاء رضوان الله في هذا كله .

- ٣ -

والمسلم يحب المرأة ورسول الله ﷺ كان يقول : حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء .... »

ولكن هذه المحبة لا تخرجه عما حده الله له ، بل يحقق فيها ما يحبه الله طمعا في ثواب الله .

فلا ينظر إلى امرأة أجنبية بشهوة ، بل يغض طرفه ، ولا يقضي شهوته إلا عن طريق الزواج ، وإذا تزوج فإنه يبقى عند ماحده الله تعالى له ، فلا يجامع زوجته أثناء حيضها ، ولا نفاسها ، ولا في دبرها ، ويتمتع بعد ذلك كما شاء ، وهو لا يتزوج إلا من أحل الله له أن يتزوج منها ، فيحقق بهذا الحكمة من العلاقة الجنسية ضمن حدود الله ، وهو يبتغي في ذلك كله وجه الله واليوم الآخر ، والله يأجره على هذا كله .

والمتعة بالمرأة وتمتيعها ومتعتها وسيلة عند المسلم والمسلمة لتحقيق حكمة بقاء النوع ، وزيادة المسلمين وهو يفعل هذا كله راجيا رضوان الله .

أما الكافر فالتمتع في حد ذاته هو الغاية عن أي طريق كان ، فلا يقيد نفسه بقيد ، فهو يزني وينظر إلى المرأة ويشتهي ، ولا تحد شهوته قيود ، ويتمتع ولا يحد تمتعه قيود ، فالمرأة بالنسبة إليه إله يعبد ، يأمر فيطاع ، ونفسه كذلك إله يعبد ، تأمر فتطاع ، وهمه الوحيد ، وهمها الوحيد أي الكافرة ، أن يحققا أكبر قدر ممكن من المتعة واللذة دون حدود ، ويعتبران نفسيهما خاسرين إذا ضيعا أي فرصة يستطيعان أن يحققا بها لذة وشهوة وهوى .

أما المسلم فإذا جمحت به نفسه إلى الحرام نهاها رغبة بما عند الله ، ورهبة منه. «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » .

والمسلم يحب أولاده ولكن محبته لله أشد ، ولا تصرفه محبته لأولاده عن أي واجب آخر ، لا عن الإنفاق ولا عن الجهاد ، ولا عن العبادة، كما لا تجعله محبته لأولاده متساهلاً في أمر تأديبهم ، أو يفضلهم على غيرهم ممن هو أحق منهم بشيء لا يستحقونه، وهو حق للآخرين ، ولا تمنعه محبته لأولاده أن يجعلهم يهربون من الواجب أو يساعدهم على الهروب منه ، بل على العكس يشجعهم عليه ، وإن كان فيه قتلهم .

« إنما أموالكم وأولادكم فتنة » « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » .

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

فالأولاد بالنسبة للمسلم وسيلة يحاول بها كسب رضا الله وجنته ، فهو يريد بهم تكثير سواد المسلمين ، ونصرة الإسلام وتأديبهم عليه ، وجعلهم صالحين حتى يدعوا له الله فيرحم ويغفر . أما بالنسبة للكافر والكافرة ، فإسعاد الولد وتدليله وترفيهه ، والتمتع به ، والحظوة بسببه ، أهداف لا يبالي معها بحلال وحرام ، وواجب وتقاعس عنه ، فمهما استطاعوا أن يهربوا به ، أو بسببه من الواجب فعلوا ، رضاه هو الغاية، أما المسلم فرضى الله بطاعة أمره في الولد هو الغاية .

ومع كل هذا نقول : ليس الكافر بأسعد عملياً من المسلم ، في مال ، أو زوجة ، أو ولد ، بل الحقيقة أن المسلم في هذا كله هو السعيد المطمئن ، المرتاح الضمير والوجدان. فمن الناحية العملية لا يسعد أباه الا المسلم ، فالولد غير المسلم متى كبر لم يعد يحس بأن لأبيه عليه فضلاً ، وليس له عليه حق ، وبالتالي لا يلتفت إليه برعاية أو خدمة أو إسعاد ، أما ولد المسلم فعلى العكس . همه رضى والده وإسعاده ، وخدمته ورعايته ، لأنه يرى أن رضى الله في ذلك .

وكذلك المرأة المسلمة ترى رضى الله في رعاية زوجها وطاعته بالمعروف، والقيام بشأنه، فلا تمد بصرها لغيره، وتقصر نفسها عليه ، والزوج المسلم كذلك . فأسعد زوج مع زوجته ، وأسعد زوجة مع زوج مسلم ومسلمة ، أما الكافرة والكافر فليس لهما من هذا كله نصيب وإن كان فلا يدوم .

- ٤ -

والخيل والأنعام والحرث والسيارات الفاخرة وكل ما يركب يرى الكافر اقتناءها وتملكها وصيانتها هدفاً في حد ذاته ، يفاخر به الآخرين ، ويكاثرهم ويباهيهم ، ويتعالى عليهم ، ويرى له ميزة على الآخرين بذلك ، ويستكثر من ذلك ، وليس له هدف إلا هذه المعاني ، ولا يقيد نفسه بقيد في الحيازة أو التصرف ، هدفه في ذلك التمتع في هذه الحياة الدنيا بهذه الوسائل ، وهي من أنواع المتعة .

وأما المسلم فهو لا يرى مانعاً من حيازة هذه الأشياء ، ولكن ليستخدمها دون أن يباهي بها ، أو يتعالى، وهي وسيلة لقضاء هذه الحياة — أما الآخرة فهي الهدف،ولذلك فهو لا تهمه الحيازة بقدر ما يهمه القيام بأمر الله فيها ، شاكراً لله لما أنعم ، متواضعاً لخلق الله فيما أعطي ، باذلاً لعباد الله حقهم فيه

- ٥ -

نلاحظ أن ما مر معنا حتى الآن هو من الدنيا ، ولكنه لا بد منه . فبدون مال لا تستقيم الأمور ، وبدون حرث لا تستقيم الأمور،وبدون نساء لا تستقيم الأمور، فهذه الأشياء لا بد منها ، ولذلك لم يحرم الإسلام علينا أصولها أو وجودها ، وانما الذي حرم علينا هو ما ينسينا الآخرة ، أو يسقطنا في الامتحان الدنيوي فيما ابتلانا الله عز وجل فيه ، وما دمنا ضمن ما حده الله لنا ، ملتزمين صراطه ، فلا حرج ، ولكن اللعب واللهو والزينة وضعها مختلف . فلا يتوقف عليها قيام الحياة الدنيا واستمرارها كالأمور السابقة .

لذلك نرى أنه قد ضيق على المسلم فيها اكثر مما ضيق عليه في الأمور الأولى وإن كانت كلها من الدنيا ، لأن هذه الأمور اكثر تأثيراً على ايجاد الغفلة عند الإنسان عن العالم الآخر ، وأكثر تحريضاً له على جعل الدنيا هدفه النهائي ، واكثر صرفاً له عن السلوك الصحيح في الحياة وأكثر تعطيلاً للوقت في غير طائل . ولنر كيف حدد للمسلم طريقه في هذه القضايا :

١ — اللعب واللهو :

لقد أكثر الله عز وجل من وصف الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو .. » ولما كانت الدنيا مذمومة وكان أبرز

رمز لها هو ما كان له صلة في اللهو واللعب ، فقد حظر الله على المسلم اللهو واللعب إلا ضمن حدود ضيقة : فمثلاً :

حرم الله علينا اللعب بالنرد وما يشبهه من ورق اللعب.يقول عليه السلام « من لعب بالنرد شير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه» مسلم . ويرى فقهاء الحنفية أن الشطرنج وأشباهه كذلك . أما فقهاء الشافعية فلم يستحبوا للمسلم لعب الشطرنج ولكنهم لم يحرموه إذا لم يشتغل فيه المسلم كثيراً ، أو يعطله عن واجب ، أو يشغله عن ذكر الله ، لأن فيه مراناً للذهن ، وعلى كل حال فهم لم يستحبوه لأنه من اللعب وفي الحديث (لست من دد ولا الدد مني) والدد هو اللعب .

لأن هذه الأنواع من اللعب لا تفيد شيئاً ، وانما هي كلها ضرر لما تسلبه من وقت وجهد فكري وعصبي ، ولما تثيره من تنافس مذموم ، وتفاخر بأشياء تافهة ، ولما تؤدي إليه من قمار .

أما اللعب الذي يترتب عليه مصلحة، فذلك جائز ولكن المصلحة لا يستقل بتقديرها الإنسان ، وإنما الذي يبينها هو الله ورسوله ، أو ما يستنبطه أهل الاستنباط من علماء المسلمين مما نص عليه الله ورسوله .

قال عليه السلام : (فارموا واركبوا وأحب الي أن ترموا من ان تركبوا كل لهو باطل . ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه،وملاعبته أهله،ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنما هي نعمة تركها أو قال كفرها) . رواه أصحاب السنن .

وقال (لا سبق الا في خف أو حافر أو نصل) رواه اصحاب السنن .

وقال (من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يؤمن أن يسبق فليس بقمار ومن أدخل فرساً بين فرسين وقد أمن أن يسبق فهو قمار) رواه أبو داوود .

وروى مسلم عن سلمة بن الأكوع قال :(فبينما نحن نسيروكان رجل من الأنصار لا يسبق شدا فجعل يقول ألا مسابق إلى المدينة هل من مسابق ؟ فجعل يعيد ذلك فلما سمعت كلامه قلت له أما تكرم كريماً ولا تهاب شريفاً ؟ قال : لا إلا أن يكون رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله بأبي وأمي أنت ذرني فلأسبق الرجل قال : إن شئت ، قلت :أذهب اليك وثنيت رجلي فطفرت فعدوت فربطت عليه شرفاً أو شرفين استبقي نفسي ثم ، عدوت فربطت عليه شرفاً أو شرفين ، ثم إني دفعت حتى ألحقه فأمسكه

بين كتفيه قلت قد سبقت والله قال : أنا أظن فسبقته إلى المدينة ...) أو كما قال

وللشيخين والنسائي عن ابن جبير : مر ابن عمر بفتيان من قريش نصبوا طيراً أو دجاجة يترامونها وقد جعلوا لصاحبها كل خاطئة من نبلهم فلما رأوا ابن عمر تفرقوا فقال ابن عمر من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هـــذا . إن النبي ﷺ لعن من اتخذ الروح غرضاً — أي هدفاً — يرمى) ومنه نعلم أن اللعب المباح يشترط فيه الا يخالط حرام كما نعلم حرمة مصارعة الثيران واشباهها .

وللشيخين والنسائي عن عائشة (... وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب في المسجد .. وللشيخين وأبي داوود عن عائشة : (كنت ألعب بالبنات (أي لعب الصبيان) عند رسول الله وكن يأتين صواحبي فكن ينقمعن منه ﷺ فكان يسربهن الي فيلعبن معي .

وفي رواية أن النبي ﷺ قدم من غزوة تبوك أو خيبر ، وفي سهوتها ستر ، فهبت الريح ، فانكشف ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب فقال : ما هذا يا عائشة ؟ قلت : بناتي ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع فقال : وما هذا الذي أرى وسطهن ؟ قلت : فرس وقال : ما هذا الذي عليه ؟ قلت جناحان قال : فرس له جناحان : قلت أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ فضحك حتى رأيت نواجذه .)

ومما وصف به الصحابة : (كان اصحاب رسول الله يتبادحون بالبطيخ حتى إذا كان الجد كانوا هم الرجال) .

* * *

أما اللهو بالغناء والموسيقى فقد رخص بالغناء ما لم يرخص بالموسيقى ، ولم يرخص في المعازف إلا في طبل الحرب وشاهين الرعاة عند بعض الفقهاء ، والدف في الأفراح ، أما الغناء المجرد عن الموسيقى فقد رخص فيه أكثر . إلا مع الدف ، فقد رخص فيه في الأفراح ، ولا شك أن الأمة الإسلامية التي ينبغي أن تكون نفسيات أتباعها معبأة دائماً ، لا يليق أن يصبح الغناء والموسيقى عندها شغلاً شاغلاً ، فما نراه الآن مـــن الإغراق في الغناء والموسيقى لا يليق بأمة مجاهدة . وإنما هو اليق بالمترفين الكافرين ، ومن النصوص في هذا : روى أحمد باسناد صحيح عن السائب بن يزيد : أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقال يا عائشة تعرفين هذه ؟ قالت : لا قال : هذه قينة بني فلان تحبين أن تغنيك ؟ قالت : نعم فأعطاها طبقاً فغنتها فقال : نفخ الشيطان في منخريها) .

وروى البخاري وأبو داوود والترمذي عن الربيع بنت معوذ: (جاء النبي ﷺ حيث بُني علي فدخل بيتي وجلس على فراشي فجعل جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائهم يوم بدر ، إذ قالت إحداهن : فينا نبي يعلم ما في غد قال لها ﷺ : دعي هذه وقولي بالتي كنت تقولين) .

وروى الشيخان والنسائي عن عائشة : (دخل رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه ودخل أبو بكر فانتهرني وقال : مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ فأقبل عليه صلى الله عليه وسلم فقال : دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجتا وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق ....) .

وروى النسائي عن عامر بن سعد رضي الله عنه قال: (دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس فإذا جواري يغنين فقلت : أنتما صاحبا رسول الله ﷺ من أهل بدر يفعل هذا عندكم فقالا : إجلس إن شئت فاستمع معنا وإن شئت اذهب فقد رخص لنا في اللهو عند العرس) .

وأخرج الترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف) .

وأخرج البخاري عنها قالت : (زففنا امرأة إلى رجل من الانصار فقال النبي ﷺ : يا عائشة أما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو) وعن محمد بن حاطب الجمحي قال : قال رسول الله ﷺ فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت) أخرجه الترمذي والنسائي وزاد : في النكاح وقصة حداء الصحابة أثناء العمل أو السير أو القتال مشهورة والروايات فيها كثيرة وكلمة الرسول ﷺ لأنجشة وهو يحدو مشهورة : (رفقاً بالقوارير) أي بالنساء .

وقد روى البخاري تعليقاً عن رسول الله ﷺ :

(ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحز والحرير والخمر والمعازف..)فدل هذا الحديث على أن المعازف محرمة أما الغناء المجرد ضمن حدود ضيقة . وفي أوقات محددة ، وفي مناسبات معدودة ففيه سعة .

* * *

٢ ــ **وأما الزينة :** كجزء من الدنيا فقد أبيح منها ما لا يجعل المسلم عبداً لها ، أو يتجاوز به رجولة الرجل ، أو أنوثة الأنثى ، أو يكون به شبه بالكافرين في زينتهم

المختصة بهم . فتميزت زينة المسلم في بيته ونفسه عن الكافر وحدود هذا كله :

أ ــ لا يجوز للرجل أن يلبس الحرير والذهب ، أو يتختم بالذهب إلا الفضة بمقدار بسيط ، ويجوز للمرأة الذهب والحرير لأنها تحتاج للزينة وهي أليق بجمالها ، ولا يجوز التشبه بأزياء الكافرين ، ولا إطالة اللباس للخيلاء :

روى أبو داوود والنسائي عن علي: (رأيت النبي ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه وذهباً فجعله في شماله ثم قال : إن هذين حرام على ذكور أمتي) وللستة إلا مالكاً عن عمر من رسالة أرسل بها إلى جيش مسلم : (وإياك والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير فإن رسول الله ﷺ نهى عن لبوس الحرير إلا هكذا ورفع لنا صلى الله عليه وسلم إصبعيه السبابة والوسطى وضمهما) .

وللشيخين وأبي داوود والنسائي عن ابن عمر (إن النبي ﷺ قال من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة فقال أبو بكر : يا رسول الله إن ازاري يسترخي إلا أن أتعاهده فقال : إنك لست ممن يفعله خيلاء) .

وروى أبو داوود عن عائشة وقد قيل لها : هل تلبس المرأة النعل ؟ فقالت : قد لعن رسول الله ﷺ الرجلة من النساء) .

وروى أبو داوود عن أبي هريرة (لعن النبي ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل) .

وروى مسلم وأبو داوود والنسائي عن ابن عمرو بن العاص : (رأى النبي ﷺ علي ثوبين معصفرين فقال : أمك أمرتك بهذا-قلت:أغسلهما يا رسول الله ؟ قال : بل احرقهما وفي رواية : هذه ثياب الكفار فلا تلبسهما) .

وروى الستة إلا مالكاً : (خرج ﷺ وقد اتخذ حلقة من فضة (أي خاتماً) فقال من أراد أن يصوغ عليه فليفعل ولا تنقشوا على نقشه) .

فإذا لوحظ ما مر فلا على الإنسان أن يلبس أجود الثياب . روى النسائي عن أبي الأحوص عن أبيه (أتيت النبي ﷺ وعلي ثوب دون فقال لي:ألك مال ؟ قلت نعم قال : من أي المال ؟ قلت من كل المال قد أعطاني الله تعالى من الإبل والبقر والغنم والرقيق قال : فإذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته) .

وللطبراني في الكبير عن ابن سيرين (أن تميماً الداري اشترى رداءاً بألف وكان يصلي فيه) .

وفي حديث لأبي داوود : يقول فيه عليه السلام (إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في أعين الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش) . ونقل سعيد بن المسيب عن رسول الله ﷺ : (إن الله طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا — أراه قال — أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود) .

الا أن المرأة لا تستعمل الطيب حال خروجها من بيتها : فلأصحاب السنن عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ :(كل عين زانية وإن المرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية) .

ب — إن هناك حدوداً في اللباس لا يجوز أن يتجاوزها الإنسان وهي ما يسمى عورة من الرجل والمرأة فلا يصح أن يلبس الانسان لباساً يصفها أو يشف لها وعورة الرجل ما بين سرته إلى ركبتيه وبعضهم يرى أن الركبة كذلك من العورة والمرأة كلها عورة مع غير محارمها على التأبيد . قال عليه السلام (الفخذ عورة) .

وروى البخاري وأبو داوود عن عائشة (يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن أكنف مروطهن فاختمرن بها)قال ابن حجر العسقلاني : فاختمرن به أي غطين وجوههن .

وروى أبو داوود عن أم سلمة (لما نزلت يدنين عليهن من جلابيبهن خرجن نساء الانصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية) .

ولمسلم والترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا المرأة إلى المرأة في ثوب واحد) .

وروى أبو داوود والنسائي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : (قلت يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : إحفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك قلت : يا رسول الله فالرجل يكون مع الرجل قال : إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل قلت فالرجل يكون خالياً قال : الله أحق أن يستحيي منه الناس) .

ج — ومن الزينة التي لا تجوز ما ورد ذكره في الآثار التالية :

(روى الستة عن عائشة رضي الله عنها : أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فلما رآها النبي ﷺ قام على الباب فلم يدخل فعرفت في وجهه الكراهية فقلت يا رسول الله أتوب إلى الله ورسوله ماذا اذنبت ؟ فقال ما بال هذا النمرقة ؟ قلت اشتريتها لك

لتقعد عليها وتوسدها فقال إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة فيقال لهم أحيوا ما خلقتم وقال إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة) .

(وفي رواية : حشوت للنبي ﷺ وسادة فيها تماثيل كأنها نمرقة فجاءفقام بين البابين وجعل يتغير وجهه فقلت ما لنا يا رسول الله قال ما بال هذه الوسادة ؟ قلت وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها قال أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة) .

(زاد في رواية : فأخذته فجعلته مرفقتين فكان يرتفق بهما في البيت) .

وفي أخرى : قدم النبي ﷺ من سفر وقد سترت على بابي درنوكاً فيه الخيل ذوات الأجنحة فأمرني فنزعته) .

(وفي أخرى : أنها سترت على بابها بنمط فلما قدم رأى النمط فعرفت الكراهية في وجهه فجذبه حتى هتكه وقطعه وقال إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين قالت فقطعنا منه وسادتين وحشوتهما ليفا فلم يعب ذلك علي) .

(وفي أخرى قال انزعيه فإنه يذكرني الدنيا) .

(روى الشيخان والنسائي عن عائشة : لما اشتكى النبي ﷺ ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبه أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال اولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور أولئك شرار خلق الله) .

(روى البخاري وأبو داود عن ابن عمر قال : إن النبي ﷺ أتى بيت فاطمة فوجد على بابها ستراً موشياً فلم يدخل فجاء علي فرآها مهتمة فأخبرته فأتاه علي فذكر له ذلك وقال قد اشتد عليها فقال صلى الله عليه وسلم ما لنا وللدنيا وما أنا والرقم فذهب إلى فاطمة فأخبرها فردته إليه تقول فما تأمرنا به فيه ؟ قال ترسلين به إلى أهل حاجة) .

كما أننا نهينا أن نأكل أو نشرب في آنية الفضة والذهب :

لمالك والشيخين عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ : إن الذي يأكل ويشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم) .

وللستة إلا مالكاً عن حذيفه (إني سمعت النبي ﷺ يقول : لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة) .

والدنيا بعد ذلك بالنسبة للمؤمن سجن يقول عليه السلام كما يروي مسلم والترمذي : (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) ولا يستعبد المسلم من الدنيا شيء (تعس عبد

الدرهم تعس عبد القطيفة ....) ..

ولعل من جملة الحكم التي قيد الله من أجلها المسلم عن الاسترسال في شؤون الدنيا ، أن يبقى المسلم متذكراً الآخرة ، ذاكراً أنه الآن في مرحلة الامتحان ، وليبقى متميزا عن أبناء الدنيا المستعبَدين لها ، الذين جعلوها أكبر همهم ، وحتى يستفيد من الوقت استفادة كاملة فما معنى أن يضيع الإنسان ساعات عمره بلا طائل ؟ .

رأينا فيما مضى أن المسلم متميز عن الكافر في هدفه النهائي ، فالهدف النهائي للكافر الدنيا ، بينما الهدف النهائي للمؤمن هو الآخرة ، ورأينا كيف يترتب على هذا اختلافات في السلوك ، ونحب هنا أن نشير مرة ثانية إلى أن بعض الكافرين يتوهمون أنهم يعملون للآخرة ويستهدفونها ، وقلنا إن هذا في الحقيقة ناتج عن بقايا إيمان قديم ورث مع كفر لاحق ، ولكن هذا عملياً يزول على مر الزمان ، كما نشاهد عملياً حال كثير من الأحبار والرهبان الذين لا هم لهم إلا الدنيا .

ونحب هنا أن نذكر أنه نتيجة لما مر فإن كثيراً من المؤسسات التي هي من مستلزمات حياة الكافرين لا تصلح أن تنمو في مجتمع إسلامي ، وأن كثيراً من المؤسسات التي لا محل لها في المجتمع الكافر تنمو نمواً عظيماً في المجتمع الاسلامي السليم ، فلا محل في مجتمع إسلامي لمؤسسات القمار ، ولا لنواديه ، ولا محل في مجتمع إسلامي لمؤسسات اللهو والرقص والموسيقى والنحت... ودور الأزياء الفاخرة والمجلات الخليعة ... إلى آخر هذه السلسلة التي لا تصلح لأهل الآخرة .

- ٦ -

وكما تميز المسلم عن الآخرين في هدفه النهائي ، فإنه يتميز في أهدافه العامة والعليا التي يطمح أن يحققها بنفسه ، أو بالتعاون مع الآخرين من المسلمين ، إذ غير المسلم قد لا يكون له هدف يسعى لتحقيقه إلا التمتع بدنياه ، وإذا كان له هدف يشارك الآخرين في السعي له فهو هدف له علاقة في تحقيق جزء من أجزاء الحياة الدنيا من استعلاء أو تماجد أو رفاه ....

أما بالنسبة للمسلم فالأمر مختلف. فأولاً لا يصح أن يعيش المسلم بلا هدف في الدنيا ؛ فالمسلم رجل له هدف ، وهذا الهدف لا يصح أن يكون دنيوياً ، وإن كانت الدنيا قد تأتي تبعاً له ، ولو أننا أردنا إجراء عملية استقصاء للأهداف العامة للمسلم ، فإننا نجدها لا تخرج عن خمسة :

١ ــ اقامة دولة الله : نصرتها أو حمايتها أو إصلاحها أو إيجادها إن لم تكن .

٢ ــ نصرة شريعة الله .

٣ ــ إحياء سنة رسول الله ﷺ .

٤ ــ توحيد أمة الله عندما لا تكون موحدة .

٥ ــ الجهاد في سبيل الله حتى يخضع العالم لسلطان الله .

فالمسلم لا يستطيع أن يعيش في دولة ليست كلمة الله هي العليا ، وعلى هذا الأساس لا يرغب أن يعيش في ظل حكومة كافرة ، لذلك كان من الفروض على المسلمين أن تكون لهم دولة تقام فيها أحكام الله عز وجل ، ولهم أمير ينفذ فيهم هذه الأحكام ، وينتج عن هذا أن يكون المسلم إما مستهدفاً وجود دولة الله إن لم تكون موجودة ، أو نصرتها وحمايتها إن كانت موجودة ، وإصلاحها إذا رأى فيها خللاً ، وهو آثم إن لم يشارك في أي من هؤلاء حتى يتم في حالة الاحتياج إليه .

والمسلم إنما يفعل هذا حتى يتمتع بأحكام الله ، ويعيش في ظل شريعة الله . فالدولة الإسلامية مرتبطة بالشريعة الإسلامية ، والا كانت المسألة دعوى . فعلى هذا الاساس يبقى المسلم حساساً في حالة إنحراف المجتمع ، أو الدولة عن شريعة الله ، وينصر هذه الشريعة بالوسائل المحادة لذلك عندما يرى هذا الخروج .

والمسلم لا يرى أن هذا وهذا في حالة كمال إلا إذا أحييت سنة رسول الله ﷺ إحياءاً كاملاً بتطبيقها عملياً على كل مستوى من المستويات .

وقد يحدث أن الأمة الإسلامية تتمزق وحدتها نتيجة لعوامل خارجيه او داخلية ، فهو لا يكتفي بإقامة دولة إسلامية في مكان متناسياً بقية أبناء أمته ، بل يرى من واجبه مع بقية المسلمين أن يكون عمل مشترك دائم ، حتى تتم للأمة الإسلامية وحدتها تحت ظل خليفة واحد ، وفي وطن واحد ، وهو لا يستطيع أن يتخلى عن هذا الهدف بتاتاً ، وهو يعلم أن علي بن أبي طالب قاتل معاوية وقتل آلاف من المسلمين من أجل هذا الهدف. كما أن المسلم يعتبر نفسه مأموراً أن يبقى في عملية جهاد حتى لا يبقى شبر في الأرض إلا وقد خضع لسلطان الله بخضوعه للمسلمين الممثلين الوحيدين لنظام الله في الأرض ، وذلك تحقيقاً لقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » وعملياً تبقى الفتنة موجودة بشكل أو آخر إلا إذا خضع العالم كله لسلطان المسلمين ، وعلى هذا فإن المسلم يعتبر هدفاً رئيسياً عنده أن يعمل لتحقيق هذا .

وهذه الأهداف التي ذكرناها كلها من الفروض على المسلمين بشكل عام وعليهم أن يحققوها وأن يسعوا لها كأهداف عليا لهم في الحياة .

والمسلم لا بد أن يحقق في ذاته كي يستطيع المشاركة في هذه الأهداف العليا خمسة صفات أساسية هي :

١ – أن يكون الله غايته في هذا كله .

٢ – أن يكون الرسول ﷺ قدوته .

٣ – أن يكون القرآن والسنة إمامه .

٤ – أن يبقى دائماً في عملية جهادية ، وعلى استعداد دائم لذلك من الناحية النفسية والجسمية والتدريبية .

٥ – أن يكون الموت من أجل هذا أحلى أمنياته ، وأحب اليه من الحياة .

فإذا لم يكن المسلم كذلك ، فلن يستطيع تحقيق الأهداف السابقة الذكر ، وعملياً فالصحابة رضوان الله عليهم وهم النماذج العليا للمسلمين كانوا متحققين بهذه الصفات كلها :

فكانوا يبتغون في كل عمل وجه الله وحده « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .

وكانوا مستمسكين بسنة رسول الله ﷺ كلها حتى في أدق الحالات وأبسطها والله قال لهم ولنا « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

وكانوا معتصمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ لا يحيدون عنها ، ولا يبتغون الهدى في سواهما ولا يحكمون معهما رأياً ولا غيره .

وكانوا في جهاد دائم لا ينقطع ، وهو عملهم الأساسي وقد هدد الرسول ﷺ بالذلة لمن تركه (إذا تبايعتم بالعينة وتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تعودوا إلى دينكم) والله عز وجل جعل عنوان الفسوق أن يكون شيء من متاع الدنيا أحب إلى المسلم من الجهاد فقال : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

ونقصد بالجهاد أنواعه كلها كما فصلناها في كتابنا : « جند الله ثقافة واخلاقاً »

وكانوا – أي الصحابة – يحبون الموت في سبيل الله ويفضلونه على الحياة ويحزنون إذا لم يستشهدوا ، وكلمة خالد في ذلك مشهورة : جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون

الحياة – وفي رواية – الحمر .

وعلى هذا فالشيء العادي للمسلم أن تكون صفاته هذه ، لأنها لا بد منها لتحقيق الأهداف الآنفة الذكر ، وقد عبر بعضهم عن هذا كله بقوله على لسان المسلمين :

(الله غايتنا والرسول قدوتنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا)

وبهذا يتميز المسلم عن أي إنسان آخر ، فلا يوجد إنسان في العالم تشبه أهدافه هذه الاهداف ، ويسعى للتحقق بمثل هذه الصفـــات ، وأي عملية صرف المسلم عن هذه الأهداف العليا أو عن الهدف المرحلي اليها ، إنما هو انحراف ومسخ ونسف للعقلية المسلمة ، والنفسية المسلمة ، وتبني المسلم لأي هدف أو شعار لا يكون جزءاً من هذا الذي ذكرناه ، مع وضوح هذا الجزء في الهدف الكبير وضرورته له ، إنما هي مؤامرة لصرف المسلم عن إسلامه .

وبما قدمناه وضح تميز الإنسان المسلم عن غيره من البشر في هدفه النهائي ، وهدفه العام والخاص .

- ٨ -

وكما تميز المسلم في أهدافه الخاصة والعامة ، والبعيدة والقريبة ، وصفاته ، فإنه يتميز في كل شيء ، لأن قدوته واحدة ، ومصدر تلقيه الهداية واحد ، فهو متميز نتيجة لذلك في كل شيء يمكن أن يكون فيه حق وباطل ، هدى وضلال ، وضوح وعمه ، إستقامة وعوج ، فهو متميز في كلامه ، ومتميز في عواطفه وانفعالاته وصفاته النفسية . ومتميز في آدابه ، ومتميز في طعامه وشرابه ونومه من حيث عاداته فيها ، ومتميز في القيام بواجباته ودقته فيها ، ومحاسبته نفسه على التقصير بأدنى الأمور ، وبالجملة فإن تميز المسلم هو الأصل ، وعدم تميزه هو العارض ، ونكتفي هنا أن نضرب مثلين على تميز المسلم في اموره عامة على اعتبار أن هذا الكتاب كله يبين هذا التميز كما ذكرنا :

الأول : تميزه في كلامه .

الثاني : تميزه في طعامه وشرابه .

أولاً :

غير المسلم لا يقيد كلامه قيد ، فتراه ثرثاراً لاغياً كثير الكلام في كل شيء ، بعلم أو بغير علم ، بتحقيق أو بغير تحقيق ، بما يعنيه وما لا يعنيه ، بالخير أو بالشر ،

يساير أهل الباطل في باطلهم ، ويماري أهل الحق في حقهم ، ويجادل بعلم وبغير علم ، ولا يقصد في جداله إظهار الحق ، كقصده غلبة المناقش ، ويحقر الآخرين اذا تكلم ، ويقسو في تعبيره أحياناً ، ويشتط أحياناً ، ويتكلف الفصاحة ، ويكثر من التشدق والتقعر ، ولا يبالي إذا خرج من لسانه الفحش والسب والكلام البذيء ، ويكثر المزاح بغير الحق ، فيكذب مازحاً ، بل يكذب في كل حين بلا مبالاة ويسخر ويستهزىء ويفشي سراً ، ويَعِدُ ولا يبالي بالوفاء ، ويحلف ولا يبالي بالبر أو الحنث أو الكذب ، ويعطي عهداً فينقضه ، ويغتاب الناس ولو كانوا أقرب المقربين اليه ، وينقل حديث الشر بين الناس بعضهم لبعض فيوقع الفتن ، واذا مدح أفرط في المدح ، وإذا ذم أفرط في الذم ، ويتكلم ولا يبالي أخطأ أو أصاب ، نتج عن كلامه خير أو شر ، فائدة أو ضر ، وبالتالي فإنه لا يقيده قيد ، وقد لا نجد كافراً اتصف بهذا كله ، ولكن لا تجد كافراً عنده مانع من أن يكون كذلك إذا لم يحاسب على كلامه .

أما المسلم فعلى النقيض من هذا كله .

فهو من اللحظة الأولى ملتزم ألا يتكلم إلا بخير قال الله تعالى : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) وألا يتكلم إلا فيما يعنيه . وقال صلى الله عليه وسلم (من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) وأن يحاسب نفسه قبل أن يتكلم فلا تخرج كلمة من فيه الا بميزان خوفاً من وعيد قوله عليه السلام (إن الرجل ليتكلم الكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم سبعين خريفاً) وإذا رأى الناس يخوضون في الباطل اعتزلهم طاعة لأمر الله قال تعالى : «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » وقال « واذا مروا باللغو مروا كراماً » ولا يحب الجدال والمراء وإنما يبين الحقيقة فمن ماراه فيها أقام عليه الحجة وانتهى قال صلى الله عليه وسلم (لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه) وقال (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) ولا يحب خصومة الآخرين ومماحكتهم واللدد في مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) ولا يحب التكلف في الكلام كما أنه ليس أقل فصاحة من غيره قال صلى الله عليه وسلم (إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون) ولا يحب اللعن والسب والفحش والبذاءة . وقال عليه

السلام (ليس المؤمن باللعان ولا الطعان ولا الفاحش ولا البذيء) يتحرج عن اللعن إلا ما أباح له الله ويمازح ويداعب ولكن بحق فلا يخرجه مزاحه ومداعبته إلى باطل أو اختلاق كذب وقد ذكر الرسول ﷺ الرجل يتكلم الكلمة ليضحك بها الناس فقال (ويل له ويل له) .

والمسلم يبتعد وينـأى بنفسه عن الاستهزاء بالآخرين أو السخرية بهم أو غيبتهم قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » « ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » وإذا ائتمنه إنسان على سر فانـه لا يفشيه وفي الحديث (إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة) وإفشاؤه خيانة . الا (المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس : سفك دم حرام او فرج حرام واقتطاع مال بغير حق) .

والمسلم ملتزم إذا وعد بالوفاء فلا يعد إلا وهو ناوٍ أن يفي قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » « إنه كان صادق الوعد » .

ومن علامات المنافق (إذا وعد أخلف) .

والمسلم ملتزم إذا تحدث أن يكون صادقا ، وإذا عاهد أن يكون صادقا ، وإذا حلف أن يكون صادقا فهو الوحيد الذي يبقي للكلمة شرفها ، وثقة الخلق بها . قال صلى الله عليه وسلم (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا) وليس من الكذب المحرم ما رخص فيه رسول الله ﷺ وهو (تقول أم كلثوم : ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الاصلاح ،والرجل يقول القول في الحرب ،والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها) وحتى في هذه الثلاثة يختار المسلم من الكلام ما يكون في أحد أوجه معانيه صدق .

والمسلم ملتزم ألا يغتاب فهو لا يذكر الناس بما يكرهونه حتى ولو كانوا كافرين إلا إذا ترتب على عدم الذكر مضرة أو كان في الذكر ضرورة .

والمسلم ملتزم ألا ينقل بين الناس الكلام الذي يؤدي إلى ايجاد الخصومات أو زيادتها أو استمرارها قال صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة قتات) أي نمام بل يكون دائما ناقلا بين الناس ما يصلح بينهم .

والمسلم ملتزم ألا ينافق ،فتراه صريحا واضحا ،بينا أمره ،غير مذبذب قال صلى الله عليه وسلم (من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة) وقال

(تجد من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث) وقال (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) وهو إذا اضطر للمداراة لم تخرجه مداراته إلى باطل وكذب .

والمسلم لا يحب أن يمدح الآخرين في وجوههم لما في ذلك من مظنة الرياء، وغرس العجب في قلب الممدوح وفي الحديث (إن كان أحدكم لا بد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكي على الله أحدا حسيبه الله أن كان يرى أنه كذلك) .

والمسلم ملتزم إذا تكلم أن يكون كلامه صحيحا علميا ، خاليا من الخطأ ، يتثبت قبل أن يقول (أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار) وهو لا يتكلم إلا بما فيه مصلحة السامعين ، فلا يثير موضوعا يترتب على إثارته ضرر ، أو تهاون في العقيدة أو السلوك (ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)، وبالتالي فإن المسلم الحق له من سلطانه على لسانه بإذن الله ما يجعله محل الثقة التي لا يشك فيها، والخير الذي لا يخالطه شر، والمعروف الذي لا يخالطه منكر .

قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى » وبهذا وضح تميز المسلم في كلامه .

ثانياً : تميزه في طعامه وشرابه :

غير المسلم لا يقيد نفسه بقيد في موضوع الطعام والشراب ، فهو يأكل كل شيء من لحم الخنزير أو الميتة أو ما لم يذبح ذبحا شرعيا ، وقد يأكل النجاسات كالدم ، ويشرب الخمر ، ويأكل على أي طريقة وهكذا ....أما المسلم فهو من البداية يعتقد أن الله خلق الكون وما فيه لصالح الإنسان ، فمن حقه أن يقيد الإنسان ، وأن يمنعه عن بعض الأمور امتحانا لهذا الإنسان ، أيطيع الله وقد أعطاه ما أعطاه ، فعلى هذا نجد المسلم لا يأكل ولا يشرب ما حرم عليه، فلا يأكل لحم خنزير ولا يشرب الدم، ولا يشرب الخمر ، ولا يأكل لحوم الحيوانات المحرمة التي تصيد بنابها أو مخلبها ، كالأسد والنسر، والحيوانات التي يجوز أكلها لا يأكلها إلا إذا ذبحت على الطريقة الشرعية حيث يذكر اسم الله عليها اثناء ذبحها كرمز على أن الذي أباح إزهاق روحها هو خالقها وبإذنه نفعل ذلك ، وحيث تقطع الأوداج والحلقوم والمريء من مكان معين عند الرقبة في غير حالة الصيد ليذهب الدم الحرام النجس وهكذا ..

ولا شك في الحكمة فيما حرمه الله علينا لان من أسمائه الحكيم ، فالخمر ضار ، ولحم الخنزير فيه ضرر ، ولحوم الحيوانات المحرمة فيها ضرر ، وقد يكون هذا الضرر أخلاقيا إن لم يكن جسميا ، إذ للتغذية أثرها في تكوين نفس الانسان ، فمن لا يأكل

اللحم بتاتا تختلف نفسيته عن من يأكله دائما ، ونوع معين من اللحم قد يؤثر تأثيرا ما في تكوين النفسية البشرية ، ولعل إباحية الغرب وتهتكه وعدم مبالاته بالعرض مرتبطة ارتباطا جزئيا بموضوع لحم الخنزير ، وعلى كل حال فالمسلم يلتزم هذا الالتزام سواء وُجد ضرر ، أو لم يوجد ، لمجرد أن الله أمر ، وأن أمره واجب التنفيذ ، إذ هو المالك الحقيقي للكون ، ومن حقه أن يمنع الإنسان عما يحب . فالمسألة من أساسها اعتراف بسلطة الله في التشريع ، فالكافر لا يرى أن لأحد سلطانا عليه .فإذا امتنع لسبب وباختياره ، وإذا لم يمتنع فلسبب وباختياره ، أما المسلم فهو معترف بسلطان الله عليه . ومؤمن بأن محمدا ﷺ مبلغ صادق عن الله فهو ملتزم التزاما أمينا بهذا .

ثم إن المسلم إذا أكل أو شرب فانه يبدأ باسم الله ، ويختم بالحمد لله ، كرمز على أنه يأكل بإباحة الله له ، ولا يأكل إلا بيمينه كرمز على تميزه ، وتفضيل اليمين على الشمال ، وله في هذا الموضوع آداب أخرى كلها أثر عن العقيدة وتنسجم معها ، ويظهر فيها تميز المسلم عن غيره من الكافرين والمنافقين .

ولعلنا في هذين المثلين اللذين ضربناهما عن تميز المسلم في جانبين من سلوكه أدركنا عمق تميزّ المسلم . وبنفس الوقت جلال هذا التميز وجماله وسلامته ، والحقيقة أن دارس الشخصية الإسلامية كما أرادها الله ورسوله يرى بشكل واضح كيف أنها متميزة في كل طيب وجميل .

- ٩ -

وشيء عادي بعد كل ما قدمناه أن يكون المجتمع الإسلامي متميزا عن كل مجتمع آخر ، وما يسود فيه يختلف عما يسود في المجتمعات الأخرى . وقد أشرنا سابقا إلى أن كثيرا من المؤسسات التي تنمو في مجتمع كافر لا يكاد يكون لها وجود في مجتمع مسلم ، وأن كثيرين ممن يرفعهم المجتمع الكافر إلى القمة كالمومسات والراقصات والموسيقيين والمغنين .... يكونون في مجتمع إسلامي محتقرين ، وأن كثيرا مما يستمسك به المسلمون بكل قواهم ، يتخلى عنه المجتمع الكافرُ بكل قواه ، وكل شيء مطلق مائع تجده محددا منضبطا في مجتمع إسلامي .

وسندرس أربع قضايا لنرى تميز موقف المجتمع المسلم فيها عن موقف المجتمع الكافر ، ونختارها مما يغلب وجوده في عصرنا :

١ — الفن والجمال .

٢ — القومية والوطنية والعنصرية والإنسانية .

٣ — الحرية .
٤ — الإخاء والمساواة .

١ — الفن والجمال :

في المجتمع الكافر الجمال قبل الأخلاق ، بل الجمال هو الأخلاق ، والفن هو الأخلاق . وإذا تعارض مع الخُلُق ، فليترك الخلق له فمثلا : .
كلما أظهرت المرأة جمالها للخَلْق كلما كان هذا أحسن ، وكلما استطاعت أن تبرز جمالها أكثر كلما كان هذا أحسن ، وكلما قدرت على إيجاد وسائل تزيد إغراءها وجاذبيتها وفتنتها وتظهرها للآخرين كلما كان هذا أعظم عندهم ، بصرف النظر عما يترتب على ذلك من تهييج شهوات ، وشغل تفكير ، واستباحة أعراض ، وزيادة الحرص على الزنا ، ونسيان الواجبات . هذا كله لا قيمة له في سبيل الجمال والمتعة .
وفي المجتمع الكافر النحت جزء جيد من أجزاء الحضارة ، لانه تعبير عن رفعة الذوق ودقته ، وتخليد لجمال أو لذكرى استقرت في قلب نحات رسام، فمهما أراد إنسان أن يعبر بواسطة النحت أو الرسم عن شيء فعل ووجد تجاوبا كبيرا من الناس هناك. حتى إن صورة من الصور يمكن أن تباع بملايين ، فهذا كله شيء عظيم ، بصرف النظر عما يوحيه ذلك من تقديس لجماد ، أو تعظيم لحجر ، وبصرف النظر عن وقت يذهب سدى ، وقت الرسامين والنحاتين ، ووقت البشر الذي يقضى في مثل النظر والفرجة ، وبصرف النظر عما توحيه بعض أنواع هذه الصور من وثنية كصورة مريم كما يتخيلونها ، أو صورة المسيح كما يتخيلونه ، أو صور القديسين في زعمهم ، أو صور آلهة كاذبة من الأوثان ، وبصرف النظر عما توحية بعض هذه الصور من قيم فاسدة لذهن منحرف. كصورة فتاة بكر عذراء عارية يطلق عليها صاحبها إسم الطهارة ، وبصرف النظر عن توسع هذا الميدان حتى ليعمل في حقله ملايين ويتفننون فيه ، حتى لا تبقى صورة خبيثة يمكن أن تخطر في خاطر إبليس إلا وقد وضعوها تصويرا او نحتا بين أيدي البشر ، حتى حالات الجماع بأشكاله ... كل هذا لا مانع منه أليس فيه متعة الإنسان ..

وفي المجتمع الكافر ، الأدب تعبير عن ذات الإنسان ، وعن نفسه في كل حالة من حالاتها الشاذة أو الحسنة ، الخسيسة أو العالية ، والأدب مسخر لتبرير كل شيء يصنعه الإنسان ، وتحبيبه للآخرين . تجد القصة التي تفتح للمرأة آفاق محبة غير زوجها ، ويبررون لها هذا ، ويفتحون لها الطريق ، ويدلونها عليه . وتجد القصة التي تشوق الإنسان لأن يتميز عن الآخرين حتى في الشر ، وتجد القصة التي تثير العطف على

المجرم على حساب الضحية والمجتمع .

وتجد القصيدة التي تفضح من تريد ، وتثير الغرائز وتدفعها إلى الزنى والحب الآثم دفعا، ويأتي الغناء والموسيقى والخمر والحشيش والافيون ونوادي الموسيقى والغناء ومحلات الزنى الرسمية أو السرية لتتمم خريطة المجتمع الشهواني، ليعيش وينام ويفكر ويسهر ويسمر في عالم الشهوات وهكذا. فليست هناك عقلانية تضبط تصرفات البشر. المصلحة هي أن يتمتع أكثر ما يستطيع وأن يتمتع غيره بعده. الاخلاق هي تحقيق الرغبات والأهواء .

والله عز وجل يقول : « ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

ويقول : « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » .

أما المجتمع الإسلامي فمجتمع يكفر بالنحت وما يحيط به من تصوير وتمثيل ، لأنه طريق إلى الوثنية ، وطريق إلى قضاء الوقت في غير طائل ، وطريق الى إضاعة المال ، وطريق إلى ترسيخ مفاهيم فاسدة ، وطريق لنشر الفاحشة ، واخيراً طريق يسلكه الكفرة فلا نقلدهم به ولا نتابعهم عليه . إذ هو مظهر فاسد من مظاهر الفكر الإنساني الحرف،والضلال الفظيع.وقد يقول قائل إن الارض ما عاد يخشى عليها من الوثنية ونقول: أدخل كنائس النصارى في الأرض ألا تجد عبادة الصور؟. ثم انظر التماثيل التي نصبها الجاهليون لزعماء ماتوا أو قتلوا أو هم يعيشون،ألا ترى أن الناس يحترمونها كما يحترمون صاحبها ، وإذا ما مات سيزداد هذا الاحترام،وهل ذلك إلا وثنية ؟ ويظهر أن قائل هذا الكلام لا يعلم أن هناك شعوباً لا زالت وثنية ، وليست المسألة هذه فقط. أدخل كلية من كليات النحت والفن وما يسمى بهندسة الديكور لترى الأجساد العارية تعرض وترسم وتنحت،وادخل معارض المصورين لترى كل خفي . إن الانحراف قد يكون في بدايته بسيطا .

إن الله يأبى على المسلم هذا الطريق ، ويأبى أن تنفق أموال الأمة على هذا ، ويأبى أن يكون عندنا مئات الأساتذة الذين يأخذون رواتبهم من مال الأمة ولا تجني الأمة منهم سوى أن يعلموا أولادها أن يرسموا بدلا من أن يعلموها ما يفيد كالخط الجميل والرسم الهندسي ....

إن مجتمعا إسلاميا لا يمكن أن ترى فيه هذه القضايا أصلا :

نحاتون ، رسامون ، مصورون ، مختصون في أجزاء هذه الفنون تعطى لهم المكانة

الأولى بين الناس ليس هذا من شيم المسلمين وإذا كان هذا في مجتمع كافر محترما ، فإن أمثال هذا وهؤلاء في مجتمع إسلامي محتقرون ، ولا محل لهم رسميا في المجتمع الإسلامي أو دوائر دولته الرسمية .

يقول عليه السلام كما يذكر ابن عباس إذ قال له رجل : إني أصور هذه الصور فأفتني فيها فقال له : أدن مني فدنا ثم قال له أدن مني فدنا حتى وضع يده على رأسه وقال : أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول : (كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفسا تعذبه في جهنم فقال إن كنت لا بد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له) رواه الشيخان والنسائي .

وفي المجتمع الإسلامي جمال المرأة وجسمها وثيابها وفتنتها وكل ما تستطيع استكماله في هذا لزوجها فقط . إذ هو الوحيد الذي له حق الاستفادة من هذا ، أما الآخرون فليس لهم حق التمتع في شيء من هذا ، حتى المحارم والأقارب ، والنساء الذين أبيح لهم النظر إلى زينة المرأة ضمن حدود ، فإنهم لا يجوز لهم أن ينظروا بشهوة ، أو تريهم هي نفسها شيئاً منها بهذا القصد .

ليس في المجتمع الإسلامي أي محل لإثارة غرائز البشر إلا عن الطريق الأوحد لذلك وهو الزواج : فلا تبرج في طريق ، ولا ملابس مغرية قصيرة شفافة واصفة لامرأة أمام أجانب . إن مجتمعنا يحب ما يحبه الله له ، فإذا أحب الآخرون أن يتمتعوا بالجمال فإنه يحب أن يتمتع بطاعة الله ، ويحب أن يتمتع بالحشمة والطهارة والعفة والستر ، وبدون هذا فلا إيمان أصلا . قال صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

وفي المجتمع الإسلامي الأدب لإصلاح نفس الإنسان ، وليس لمجاراة أهوائها ، وللترويح عنها بالحق الذي لا يخرجها إلى باطل . سواء في ذلك القصة ، أو المقامة ، أو التاريخ ، أو القصيدة ، أو المقالة ، أو المحاضرة ...

والغناء إنما يكون ضمن هذه الحدود ، يغني الرجل حداء أو نشيدا ، فيسمع الرجل ، وتسمع المرأة ، ولا حرج ، بشرط أن يكون الحداء أو الغناء نظيفا ، وتغني المرأة للنساء بشرط نظافة الغناء ولا حرج .

أما الموسيقى فما كان منها أداة رجولة كالطبل والدف جاز للحرب وللحج وللفرح ، وما كان منها أداة تسلية لغير الفسقة والكفرة ، ولا يدعو إلى ما يحرم ، ولا يزين الدنيا حتى تكون هدفا كشباهين الرعاة جاز ، وما كان لإثارة الغرائز ، وما كان من عادة

الكفار والفساق استعماله ، وما كان للهو والقصف المحض ، كالعود وكل الأوتار والمعازف فلا ..

فلا يكون في مجتمع إسلامي مدارس لتعليم الموسيقى ، ولا يكون فيها كليات لهذا ، ولا تكون دروس في مدارسنا لمثل هذا ، ولا تخصص الأموال لأمثال هذه القضايا ، ولا يكون لهؤلاء المغنين والموسيقيين شأن ، بل هم محتقرون في حالة الإثم ، وعاديون في حالة بقائهم في المباح ، إلا منشدا حسن الصوت يثير عواطف طيبة، وبهذه الشروط تبقى المسألة كالملح للطعام يكفي القليل منه فإذا ما كثر أفسد .

وعلى هذا فلا يصح أن يكون في مجتمع إسلامي دور خاصة لأمثال الموسيقى أو غناء النساء ، ولا يصح أن تكثر إذاعات المسلمين من أمثال حتى المباح ، وإنما يكون ما تقدمه هذه الإذاعات كالملح وبلا موسيقى ، وفي أيام الأعياد والأفراح لا مانع أن توضع الأغاني التي يرافقها الدف ، وما أبيح من آلات الفرح كشاهين الرعاة المذكور .

* * *

ونظرة واحدة إلى موقف المسلم من قضايا الفن والجمال بشكل عام ، تريك أن هذا هو الموقف الوحيد المعقول . إقتصاديا ، وسياسيا ، وتربويا ، وتعليميا ، وحربيا ، ونفسيا . فكم نحفظ أوقات تضيع بلا إنتاج؟ وكم نحفظ تماسك نفسيات الأمة، فنجعلها تعيش وهي مستيقظة على قضاياها ، وكم نوجه الطاقات إلى ما ينبغي أن توجه اليه بمثل هذا ؟ وكم نحفظ على أمتنا روحها الحربية ، واستعدادها للتضحية بهذه المواقف ؟ .

إن المجتمع الذي يعيش بين أحضان النساء ، ويتربى على اتباع الشهوات ، ويعتاد على حياة اللهو والقصف واللذة ، مجتمع يتحلل شيئا فشيئا فتتكون عنده عقد اللامبالاة ، وتأنف نفسه من التضحية ، ويفقد تطلعاته إلى المثل العليا ، وتتخـدر إحساساته ومشاعره ، ويعيش للدنيا فقط .

٢ ـ القومية والوطنية والعنصرية والعصبية القبلية :

المجتمع غير المسلم تربط بين أفراده رابطة الوطن ، بصرف النظر عن غيرها ، أو رابطة الوطن مع القوم ، بصرف النظر عن غيرهما ، أو يربط فيما بينهم كونهم بيضاً مثلاً ، أو أبناء قبيلة واحدة ، فيكون ولاؤهم في هذه الأحوال لمجرد هذه الروابط . فما فيه منفعة لوطنهم يقبلونه ، وما فيه مضرة لا يفعلونه لأجل الوطن ، وما فيه منفعة للقوم يفعلونه ، وما فيه مضرة لا يفعلونه لأجل القوم ، وما فيه مصلحة للجنس يفعلونه ، وما لا فلا. من أجل الجنس ولاؤهم لبعضهم على هذا الأساس ، وحربهم على هذا الأساس ، ومن

أتاهم من غيرهم لا يعطى مثل حقوقهم ، ولا مثل معاملتهم ، بل قد يحتقر وقد يهان وقد يطرد .

أما المجتمع الإسلامي فارتباطه بالوطن والقوم بمقدار ارتباط هذا الوطن وأهله بالاسلام . فولاء المسلم لإسلامه أولا وأخيرا ، فإذا كان في وطن كافر فإنه مع المسلمين على أبناء وطنه ، واذا كان مع القوم الكافرين فهو مع المسلمين عليهم ، فهو لا يعتبر وطنه الا بلاد المسلمين ، ولا يعتبر قومه إلا المسلمين ، وإذا هاجر المسلم من أي جنس وارض ولون وقوم إلى المجتمع الإسلامي ووثق منه يكتسب كامل حقوق المسلمين ، ويعامل نفس المعاملة التي يتعامل بها المسلمون فيما بينهم . أما العنصرية فغير موجودة أصلا ، فالأسود والأبيض في ميزان الكرامة الإنسانية سواء ، وقد يكون أسود أعلى عند المسلمين من آلاف البيض ، وإن بلالا لأحب إلى المسلم الأبيض من أخيه المسلم لأن بلالا أرقى في ميزان الإسلام من أخيه .

أما العصبية للقبيلة والاسرة فقد هدمها الإسلام تهديما ، وأقام بدلها العصبية للحق يقول عليه السلام :(انصر أخاك ظالما أو مظلوما فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره) البخاري والترمذي .

وهذه هي النصوص التي تدل على ما ذكرناه :

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا » .

فأمر الله عند المسلم أغلى من وطنه وأغلى من نفسه فضلا عن قومه .

قال الله تعالى « لا تجدُ قوماً يؤمنونَ بالله واليوم الآخر يوادّون من حادَّ اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويُدخلُهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضيَ الله عنهم ورضوا عنه أولئكَ حزبُ الله ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون» فالمسلم مع المسلم على أخيه وأبيه وعشيرته ، فكيف يتخلى عن إسلامه من أجل قومه وقوميته وهو يحب لو أجرى دماءهم جميعا إذا كانوا كافرين محاربين لله ورسوله ودينه .

وقال صلى الله عليه وسلم (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلا لون ولا جنس يتفاضل به البشر عند الله ، وإنما

يتفاضلون عند الله بالتقوى . فمن كان أحسن إيمانا وإسلاما وإحسانا كان أقرب إلى الله ولو كان عبدا أسود ولو رقيقا .

روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء وإنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب)ولمسلم والترمذي عن جندب عن رسول الله ﷺ أنه قال (من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية).

٣ ـ الحرية :

في مجتمع كافر يكون الشعار مزيدا من الحرية.مزيدا من حرية الدولة أن تفعل ما تشاء كما في النظام الشيوعي ، أو مزيدا من حرية الشعب والدولة كما في النظام الديموقراطي ، حيث يريد الناس مزيدا من الحرية الاقتصادية ، ومزيدا من الحرية السياسية ، ومزيدا من حرية السلوك والتصرفات ، ومزيدا من حرية النفس ، حتى وصلوا إلى أنهم أصبحوا يريدون أن يكون هدفهم الأعلى هو حياة الحيوان ، فيتعرون كما يتعرى الحيوان ، ويتسافدون كما يتسافد ، وكل آمالهم حيوانية وهكذا ...

أما المجتمع الإسلامي فعلى العكس من ذلك تماماً. شعاره مزيداً من العبودية لله ومزيداً من إحكام الارتباط مع الإسلام ، على مستوى الشعب ، أو على مستوى الدولة . فراحة المسلم واطمئنانه، وراحة المجتمع المسلم وأمله هو في عبوديته لله وحده ، بطاعة أمره ونهيه في كل شيء . في السياسة ، أو الاجتماع ، أو الاقتصاد ، أو السلوك .

إن المجتمع المسلم تقوم أواصره على أساس الإيمان بالله .

وهو لذلك يذعن لقانون العبودية له ، ويراها واجباً عليه ، وحقاً لله الذي خلقه .

ويعتبر هذه العبودية هي المظهر العملي الذي يشكر به الإنسان الله عز وجل ، على أن سخر الكون كله لصالحه ، وهنا يفترق طريق المسلم عن الكافر . الكافر يستفيد من الكون ناسياً من خلقه وسخره له ، والمسلم يحفظ هذه الحقيقة دائماً فيذكرها إذا أكل ، وإذا شرب ، وإذا لبس ، وإذا عوفي ، وإذا مرض.. إن الحرية في المجتمع الإسلامي هي حرية المسلم في تطبيقه الاسلام ، وحريته في قمع المنحرفين عن الاسلام ، وحريته في أن يخضع البشر لسلطان الله ، وحريته في ألا يجعل غير عبدالله يتمتع بحرية إلا بالمقدار

الذي يأذن به الله عز وجل . إذ هو مالك الكون والإنسان .
« وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » .

* * *

وإذن فما دام الإنسان ضمن شعار العبودية فهو يملك كامل الحرية :
فلا يُدخل بيته إلا بإذنه قال تعالى: «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها »

ولا يُعتدى على جسمه ولا نفسه ولا ماله ولا عرضه... ويتكلم فيرد على الكبير ولو كان أمير المؤمنين إذا أخطأ ، وينتخب من شاء لإمرة المؤمنين ، ولكنه يلتزم بطاعة من تكون له الولاية ولو لم ينتخبه ، ما دامت إمرته شرعية . فالحرية السياسية له مصونة ، وحرية الرأي والاجتهاد له مصونة ، وحرية النقد والقول له مصونة ، والحريةالاقتصادية له مصونة ، وحرية التصرفات له مصونة ، فهو كامل الحرية في كل شيء ما دام ملتزماً بالحق والعدل اللذين أمر الله بهما ، ولم يخرج عليهما ، أي ما دام ملتزماً بالعبودية لله .

هذا بالنسبة للمسلم . أما غير المسلم في أرض الاسلام فما دام ملتزماً بما عاهدنا عليه فله كامل الحرية ضمن ما عاقدناه عليه ، فإذا ما خرج على العهد فالذنب ذنبه .
فما أعظم الفرق بين مفهوم الحرية السليم الواضح الصحيح عند المسلمين ، ومفهوم الحرية الغامض الفوضوي المدمر عند غير المسلمين .

* * *

٤ ــ الاخاء والمساواة :

في مجتمع كافر يمكن أن يتآخى الناس ولو على دخلٍ مع اختلاف عقائدهم ، ويمكن أن يتساووا ولو إسماً في الحقوق والواجبات .

أما في مجتمع إسلامي فلا ، لأنه لا يمكن أن يتساوى أهل الحق والباطل ، والحق والباطل مختلفان ، ولا يمكن أن يتآخى أهل الحق والباطل ، والحق والباطل مختلفان ، فالمسلم لا يمتع غير المسلم بأخوته قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة» فقط. والمسلمون متساوون فيما بينهم بالحقوق والواجبات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) ولكن لا يمكن أن يتساوى معهم الكافر ، فإذا كان لهم العزة فله الذلة . ولكن ليس معنى هذا أن يظلم بل نفي له بما عاهدناه عليه إذا وفى لنا بما عاهدنا عليه .

إن فكرة الاخاء بين المسلم والكافر فكرة خبيثة كافرة ، يخرج بها المسلم عن الاسلام وفكرة المساواة بين المسلم وغير المسلم فكرة خبيثة ، يخرج بها المسلم عن الإسلام . كيف والله عز وجل يقول :

« حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » .

« قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور » .

« هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

* * *

وأخيراً : إن المجتمع الإسلامي مجتمع متميز بقيمه ونظراته وأخلاقه وعاداته وتقاليده وتشريعاته . مجتمع لا مثيل له ، مفتوح لكل البشرية أن تدخل فيه لأنه مجتمع الحق الذي لا حق غيره . إن تميزنا ليس عاراً لأنه تميز الحق ، وإنما العار عند الذين لا يقبلون الحق ، ويدخلون فيما دخلنا فيه ، ويصبحون منا وفينا . إن أهل الباطل هم الذين يعيزون ، أما نحن فبهدى الله نعتز وبالحق الذي أنزله علينا نفتخر « فماذا بعد الحق الا الضلال » .

- ١٠ -

وكما يتميز الفرد المسلم والمجتمع المسلم تتميز الدولة المسلمة :.

فالدولة الكافرة إما دولة تحكم الشعب بإرادته لتحقيق رغباته وإرادته .

وإما دولة تحكم شعبها غصباً عنه لتحقيق رغبات أفرادها وإرادتهم .

أما الدولة المسلمة المتمثلة بأمير المؤمنين ، فلا يصح أن تحكم المسلمين إلا برضاهم ، ولإقامة الكتاب والسنة ، وهذا مفترق الطريق . الشعب الكافر يريد من حكومته أن تحقق له ما يريد ، فإن أراد اليوم عكس ما أراده الأمس كان على الدولة أن تحققه له ، ولو أراد بعد غد عكس مراده اليوم ، فإن على الدولة أن تفعل . أما الدولة المسلمة فإنها تبايع شعبها على الإلتزام بالكتاب والسنة ، والزامه الكتاب والسنة فلا هي تستطيع الخروج عنهما ، ولا تسمح لأحد أن يخرج عنهما ، مع التزامها بأن تستشير المسلمين فيما يهم المسلمين . فهذه ثلاث قضايا :

١ـ المسلمون يختارون أميرهم منهم برضاهم ، ولا يجوز أن يسوسهم أحد غصباً عنهم : قال ﷺ (من أمّ قوما وهم لإمامته كارهون لم تجاوز صلاته اذنيه) .

وعن ابن عباس عن عبد الرحمن بن عوف قال : (لو رأيت رجلاً أتى عمر اليوم فقال هل لك يا أمير المؤمنين في فلان يقول : لو قد مات عمر لبايعت فلاناً فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت فغضب عمر فقال : إني إن شاء الله تعالى لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم ...) فأنت ترى أن عمر اعتبر تأمير إنسان دون أن يكون للمسلمين رأي فيه غصب حق من حقوق المسلمين. إذن فالمسلمون يختارون أميرهم برضاهم ، لا يشاركهم في هذا الاختيار غيرهم من أهل الذمة .

٢ ـ والمسلمون يبايعون أميرهم على أن يقيم فيهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال رسول الله ﷺ : (إسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى) : أخرجه البخاري .

٣ ـ إن الامير ملزم باستشارة المسلمين فيما يعرض له من قضايا ، ولا شورى في شيء منصوص عليه في الكتاب والسنة ، فلا رأي مع النص ، فاذا وجد النص التزم به الحاكم والمحكوم ، ولكن في عقد أو حرب أو صلح أو مصلحة أو مضرة أو التزام أو الزام ....

قال تعالى :

« وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » « وأمرهم شورى بينهم » .

فنقطة التميز المهمة في الدولة الإسلامية أنه لا قيمة لهوى أحد أو إرادته أو رغبته إذا عارضت كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأنه ليس لغير المسلمين رأي مع المسلمين في اختيار الأمير ، بل اكثر من هذا ليس لغير الملتزمين بالإسلام رأي مع الملتزمين به في اختيار الأمير

* * *

وبما قدمناه نكتفي في إثبات تميز المسلم والمسلمين تميزا نابعاً عن عقيدة متميزة تميزاً يخرجهم عن كل باطل ، وعن كل ضلال ، وعن كل سفه ، وعن كل خفة ، وعن كل كفر ونفاق ، إنه تميز كله حق ، لأنه من عند الحق عز وجل المبين في كتاب الله الحق وسنة رسوله الحق :

قال تعالى « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » .

الباب الثالث
الأخلاق الإسلامية ارتقاء بالإنسان إلى كمالاته كلها

إن الفارق بين الانسان والحيوان هو أن الإنسان بما أوتي من طاقات كان مكلفاً، وأن الحيوان لنقصان طاقته لم يكلفه الله بشيء، وإن الإنسان الذي يرفض أن يقوم بعبء التكليف قد أقام نفسه بمنزلة الحيوان. ولذلك فقد سقط عن رتبة الإنسانية. وقد ذكر الله عز وجل في اكثر من آية من القرآن أن الكافرين ليسوا جديرين بصفة الانسانية بل هم حيوانات، وشر الحيوانات، لأنهم عطلوا حكمة وجودهم:

« أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ».

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ».

وقد يغضب بعض الناس لهذا الكلام، ولكن لو تأملت حال الكافرين وجدت عملياً أنهم يعتبرون الحيوانية هي المثل الأعلى، ويسعون للارتقاء نحوها! فهؤلاء الذين يدخلون نوادي العراة لماذا يفعلون هذا؟ أليس من أجل تقليد الحيوان؟ وهؤلاء الذين يرون إباحة الزنى مع أي امرأة أليسوا يقلدون ما تفعله كثير من الحيوانات ويأباه بعضها؟ وهؤلاء الذين لا تضبط تصرفاتهم بميزان صحيح دقيق ما الفارق بينهم وبين عالم الحيوان؟ .... إن الحقيقة السافرة أن الكافر عملياً طريقه في الحياة هو طريق الحيوانية، وهدفه الأعلى هو الانغماس في حمأتها. وإذن فالحقيقة التي لا شك فيها أن الكافر يعطل جوانب إنسانيته.

والحقيقة أن كل ما كلفنا الله عز وجل هو تأكيد لإنسانيتنا، ورفع لمستواها، والسير في خط التميز عن الحيوان إلى منتهاه، ولا نقصد بالتميز الذي يفقد الإنسان حياته بألا يأكل، وألا يتزوج ليتناسل. فهذا شيء لا بد منه لاستمرار الحياة البشرية والحيوانية وحتى النباتية، ولكن نعني بالتميز التميز العقلي والروحي والاخلاقي والسلوكي والاجتماعي، الذي يجعل للحياة معنى، وللإنسانية خصائصها الواضحة.

- ١ -

إن الله عليم وجعل عند الإنسان استعداداً للعلم ، والله مريد وجعل للإنسان ارادة ، والله قادر وجعل للإنسان قدرة ، والله حي وجعل للإنسان حياة ، والله سميع وجعل الإنسان سميعاً ، والله بصير وجعل الإنسان بصيراً ، والله متكلم وجعل الإنسان متكلماً ، والله حكيم وجعل عند الإنسان استعداداً للحكمة ، والله كريم ، وجعل عند الإنسان استعداداً للكرم ، والله رحيم ، وجعل عند الإنسان استعداداً للرحمة ، والله هاد وجعل عند الانسان استعداداً للهداية ، والله حليم ، وجعل عند الإنسان استعداداً للحلم ، والله مضل ، وجعل عند الإنسان استعداداً للإضلال ، والله متكبر ، وجعل عند الإنسان استعداداً للتكبر ، والله منتقم ، وجعل عند الإنسان استعداداً للانتقام ، والله منعم ، وجعل عند الإنسان استعداداً للإنعام ، والله علي ، وجعل عند الإنسان استعداداً لطلب العلو ، وما من صفة لله ، أو إسم إلا والإنسان عنده استعداد وقابلية للتخلق به ، إلا ما انفردت به الذات الإلهية عن مخلوقاتها من قدم ووحدانية وبقاء ... هذا مع ملاحظة أن هذه عند الخلق غيرها عند الله. فالله سميع وليس كسمعه شيء ، وبصير وليس كبصره شيء ، ومريد وليس كإرادته شيء ... وهكذا ..

- ٢ -

وبهذا الاستعداد الأخلاقي العظيم عند الإنسان كان أهم حاجة في بعثة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم تقويم أخلاق الإنسان ، ورسم الطريق لهذه الأخلاق كي تسير في طريقها الفطري :

قال صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) قال تعالى «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة » .

وكان مدار نجاح الإنسان عند الله أو سقوطه على أخلاقيته قال تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

قال صلى الله عليه وسلم (إن اقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون) .

وأول الطريق في تزكية النفس البشرية ، ضبط استعداداتها الأخلاقية بمعيار العبودية لله ، فلا يظهر خلق من أخلاقها إلا في الحدود التي حدها الله عز وجل للإنسان على لسان الرسل .

فإذا كانت الكبرياء والعظمة لله ، واذا كان الإنسان عنده استعداد للتكبر والتعاظم

فإن تكبره وتعاظمه بغير حق ، أما كبرياء الله فبحق ، وأما عظمة الله فبحق ، وعلى هذا فكمال الإنسان أن لا يجعل هذا الاستعداد عنده ينمو ، بل كماله أن يتخلق بضده .

قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته » أو كما قال عليه السلام وإذا كان الله رحيماً والإنسان رحيماً ، فرحمة الله مطلقة لا يحدها إلا مراده ، وأما الإنسان فرحمته لا يصح أن تنمو إلا ضمن الإطار الذي حدده الله عز وجل له فيرحم المؤمنين ، ولا يرحم الكافرين ، ويذبح الغنم والبقر والجمال وما أحل الله له أن يذبحه ، ولا يجوز له أن تخرجه رحمته فيحرم هذه الأشياء وهكذا ...

والله حليم ، والانسان حليم ، ولكن استعداد الإنسان للحلم ينبغي أن يكون مقيداً في الحدود التي حدها الله لهذا الحلم أن يظهر ، فلا يحلم المسلم إذا انتهكت حرمات الله ، ولا يحلم وهو يرى دين الله يضعف ، ولكنه يحلم إذا اعتدي على ذاته مثلاً .

والله منتقم ، والانسان منتقم ، ولكن لا يصح أن يخرج استعداد الانسان للانتقام عن الحد الذي حده الله عز وجل للإنسان . فمن قتل أبي عمداً يحق لي أن أقتله انتقاماً ، ويحق لي أن أعفو وأن آخذ الدية ، فإذا أخذت الدية حرم علي بعد ذلك الانتقام ، ومن اعتدي عليه رد الاعتداء بمثله ، ولا يجوز له أن يتجاوز .

والله عفو والانسان عنده استعداد للعفو ، ولكن هذا الاستعداد ينبغي أن يحد بما حده الله له ، فقد أعفو عمن ظلمني ، ولكن عندما أكون قاضياً لا يجوز لي أن أعفو عن حد من حدود الله ، كحد الزنى ، ولا يجوز لي أن أعفو عن خصم يطالبه خصمه بحقه .

والله عز وجل مريد وأعطى الإنسان إرادة ، ولكن الله إرادته مطلقة « فعال لما يريد » « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » .أما الإنسان فليس حراً أن يفعل ما يشاء ، بل هو مقيد بالحدود التي حدها له الله لاستعمال إرادته ،وأي خروج عن هذه الحدود انحراف أخلاقي عن سَوِيِّ الطريق .

والله تعالى مضل وهاد ، اذا أضل فبحق وعدل ، واذا هدى فبحق وفضل ، ولكن الإنسان مكلف أن يكون هادياً .

والله تعالى سميع ويسمع كل شيء ، والانسان سميع ولكنه مكلف ألا يسمع إلا ما أبيح سماعه ، ويحرم عليه أن يسمع ما حرم عليه سماعه ، من غيبة وفسوق وكفر

وموسيقى محرمة ...

وهكذا قل في كل إسم لله يكون عند البشر استعداد للظهور بمعناه .

ـ ٣ ـ

ومن ثم فقد حدد الله عز وجل للإنسان حدود الحلال والحرام في كل شيء ، حدود الهداية والضلال في كل شيء ، وعلى قدر وقوف الإنسان عند هذه الحدود يكون كماله وتكون كرامته .

قال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « ولباس التقوى ذلك خير » .

« تلك حدود الله فلا تعتدوها » تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين »

« تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه »

ونلاحظ في الآية الأخيرة أن تعدي حدود الله ظلم من الإنسان لنفسه ، لأنه ما من حد حده الله عز وجل للإنسان إلا وهو لصالح الإنسان ، فعندما منع الإنسان عن أكل لحم الخنزير ، وسباع البهائم ، وشرب الخمر ، فذلك لصالحه ، وعندما منع عن الزنى فذلك لصالحه إذ من زنى بغيره لا بد أن يزنى بعرضه إذا عم الزنى ، وبالتالي فسيعاني ، فقد ينفق على غير أبنه ويتعب عليه.. وهكذا في المعاملات الاقتصادية الوقوف عند الحلال والحرام لصالح الإنسان ، كذلك كل حد حده الله للإنسان فإنه لصالح الإنسان. وكلما كمل الإنسان أكثر كلما وقف عند الحدود ، وتورع عن تجاوزها ، أو حتى أن يقربها ، فالزنى يقرب إليه الاختلاط بالنساء الأجانب ، والنظر والحديث الذي لا ضرورة فيه ، فكما يجتنب المسلم الحد الأصلي فإنه يجتنب ما يقرب إليه ، بل ما يقرب إلى الذي يقرب إليه مما قد يكون غير واضح كثيراً .

يقول عليه السلام :

(إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » متفق عليه .

وقال عليه السلام : (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً

مما به بأس) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

- ٤ -

وبالتالي فإن لله الأسماء الحسنى وصف ذاته بها ،وهو رب ، وأن العبد أعطي استعداداً للتخلق بأسماء الله مع العبودية لله ، وعلى قدر استغراق الإنسان في عبوديته لله يكون كماله . إن بعض العلماء شرح الحديث :(إن لله تسعة وتسعين إسماً من أحصاها دخل الجنة) بأن المقصود من إحصائها تقصي معرفتها ، وتقصي ما يستطيع أن يتخلق الإنسان منها . إن كمالات الإنسان تظهر إذا صرف ما أعطي من استعداد في الطريق الذي حدده الله عز وجل ، طريق الله الذي له ما في السموات وما في الأرض .

الذي أعطى الإنسان هذا الكمال في الخلقة والعقل والقدرة ، والإرادة والبيان والصفات . فينبغي أن يقدم الإنسان له الشكر بخالص العبودية على ما أعطى ولا شكر أبلغ من الطاعة .

وإن انساناً تمتع بهذا الذي الذي أعطاه الله إياه كله ، ثم لم يؤد شكر الله عليه ، ولم يعرف الذي أعطاه إياه، لأكبر الجاهلين وأكبر الحمقى ؟

إنه لا أكمل من الله،فطاعته هي الكمال .وإن الانسان الذي لا يعطي عبوديته وطاعته لله يعطيها في العادة : إما لدولة تستعبده ، أو لحزب يقيده ، أو لمجتمع أو لهواه غير المعقول ، أو لصنم ، أو لكهنة صنم ، أو لإنسان آخر ، وللشيطان في هذا كله ، وبالتالي فإن الخروج عن العبودية لله ، وقوع في عبودية آلهة كاذبة خاطئة أخرى كثيرة .

أما عبد الله فحر يطيع المجتمع في طاعة الله ، ويطيع حزب الله في طاعة الله ، ويطيع حاكمه في طاعة الله، ويطيع رسول الله لأن في طاعته طاعة الله « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ولا يطيع في كل حالة إلا ألله، فهو عبد الله وحده،وعتيق من كل عبودية أخرى ، ومن ثم كان المسلم أكمل البشر .

- ٥ -

ولو أن الإنسان استعرض أوامر الله ، وما أدب الله به عباده ، لوجد أن كل ما أدب الله به عباده كمال وصلاح ، ونضرب أمثلة بسيطة :

- المسلم اذا تثاءب يضع يده على فمه . أهذا أولى وأكمل ، أو الأولى أن يفتح فاه ليري لهواته للآخرين .

- المسلم إذا عطس وضع كفيه على وجهه . أهذا أولى أو لا .

ـ المسلم إذا مشى في طريق مشى بأناة وتواضع . أهذا أولى أم التكبر والخيلاء على الآخرين .

ـ المسلم لا يؤذي أحداً في مال أو عرض أو نفس . أهذا أولى أم الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم .

إن أي أدب أو خلق أدب الله عز وجل به عباده هو الكمال ولا كمال سواه .

ثم ما ترك الله شيئاً الا وعلّم المسلم كيف ينبغي أن يكون سلوكه فيه « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » .

وأمام هذا الشمول في التعاليم ، والكمال في كل واحد منها ، كان المسلم الحق أكمل الخلق على الإطلاق ، ومع كون أخلاق الإسلام شاملة وكاملة ومثالية ، فإنها كذلك واقعية : فما كلفنا الله عز وجل شيئاً إلا ونحن نستطيعه « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

وادرس أوامر الإسلام واحداً واحداً ، في كل منها صلاح البشر ، وأنه في طوق البشر . من صلاة ، إلى صيام ، الى حج ، الى بيع ، الى شراء ، إلى سلوك إلى كل شيء ، ودراسة بسيطة لواحد من هؤلاء تلقي لك برهاناً على سهولة الإسلام :

الصيام مفروض على المسلمين شهراً في السنة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ولكن النفساء والحائض يجب عليها الفطر ، والمريض يحق له أن يفطر ، والعاجز عن الصيام لسبب مبيح يحق له أن يفطر ، والمسافر يجوز له الفطر ، ومن إذا صام ازداد مرضه أو أبطأ برؤه جاز له الفطر إلى آخره .. فأنت ترى من هذا المثال كم روعي التسهيل على خلق الله في أوامر الله . إنها المثالية الواقعية التي ترفع الإنسان إلى أعلى وبلا حرج .

ـ ٦ ـ

ثم مظهر الكمال والارتقاء في هذه العبودية لله ، إنها قيام بالواجبات كلها التي ينبغي ان يقوم بها الإنسان ، وبعبارة أخرى إنها أداء الحقوق إلى أصحابها :

أ) فلله حق يجب أن يقام .

ب) وللوالدين حقوق يجب أن تعطى .

ج) وللزوج والزوجة حق يجب أن يعطيه كل منهما للآخر وللأولاد كذلك .

د) وللأقارب حقوق يجب أن تؤدى .

هـ) وللجيران حقوق ينبغي أن تؤدى .
و) وللعمل والحرفة حق ينبغي أن يؤدى .
ز) وللمسلمين حقوق ينبغي أن تؤدى
ح) وللمواطنين من غير المسلمين حقوق يجب أن تحفظ .
ط) وللدولة حقوق يجب أن تؤدى .

ي) وللإنسانية كلها ، ولكل ذي حياة حقوق يجب أن تؤدى ، وحتى لكل شيء حق ، والمسلم هو الإنسان الكامل الذي يعطي كل ذي حق حقه، فيؤدي واجبه على الشكل الكامل ، والعبودية لله في أحد جوانبها هي هذا . والانسان الذي لا يترك واجباً إلا قام به ، لا يسبقه أحد في مضمار الكمال الانساني .

* * *

وحق العباد عند الله يحاسب عليه الله أكثر مما هو لهخاصة،إذ يجتمع فيه حقان حق الله في طاعة أمره فيه ، وحق العباد المعطى لهم من الله في ذلك . لذلك كان العفو عن حق الله الخالص ، أقرب من العفو عن الحق الذي يشارك فيه المخلوقون .

أ ــ فحق الله أن تؤمن بذاته وصفاته وأفعاله ، وما أمرك أن تؤمن به من رسل وملائكة وكتب ويوم آخر وقدر ، وما ورد في ذلك على لسان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

وحق الله أن تتخذه إلهاً فلا تتخذ معه آلهة أخرى .

فلا تطيع سواه إلا في طاعته ، ولا تحب غيره اكثر منه ، ولا تدعو سواه ، ولا تتوكل ولا تعتمد إلا عليه، ولا تعظم غيره ، ولا تقدم أي معنى من معاني العبادة إلا له .

وحق الله أن تذكره فلا تغفل عنه عملاً وسلوكاً .

وحق الله أن تتعاون مع المسلمين لإيجاد دولة تقيم حدوده وتنفذ أوامره .

وحق الله أن تجاهد في سبيله حتى تكون كلمته هي العليا في العالمين .

وحق الله أن تقتدي برسوله في كل حال من أحواله « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) .

وحق الله كما أمر صلاة وصياماً وزكاة وحجاً وذكراً ودعاءاً ، وحق الله أن تسلم له حكمه متى تأكدت أنه حكمه،وحق الله ألا تأكل مالاً إلا حلالاً ، وألا تكسب إلا حلالاً ، وأن تؤدي حقه فيه ....

وحق الله مع هذا كله أن تؤدي الحقوق كلها لأصحابها ، وأن تعمل هذا كله لله

وحده، لا تبتغي بذلك الا رضوانه وجنته، وكل شيء بعد ذلك من الخير الذي تحرص عليه يأتيك في الدنيا والآخرة .

قال تعالى « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

وإذن فمن حق الله أن تنصر شريعته ، وتقيم دولته ، وتكون فرداً من أمته ، وتوحدها إن كانت ممزقة ، وتقتدي برسله ، وتجاهد في سبيله حتى تكون كلمته هي العليا في العالمين ، ثم لا تطلب على ذلك أجراً من غيره أو جاهاً قال تعالى :

« قل لا أسألكم عليه أجرا » « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

ب ــ وحق الوالدين أن تطيعهما كبيراً كما أطاعاك صغيراً ، وأن تنفق عليهما كبيراً كما أنفقا عليك صغيراً ، وأن تخدمهما كبيراً كما خدماك صغيراً ، وأن تحبهما كبيراً كما أحباك صغيراً وكبيراً ، وأن تحسن صحبتهما كما أحسنا صحبتك ؛ وأمك حقها أكبر من حق أبيك ، لأنها تعبت أكثر ، وحملتك في بطنها ، وأرضعتك ثديها ، فلا تقدم عليهما زوجاً ، ولا ولداً ، ولا صديقاً ، فمن الانحراف الذي أخبر عنه الرسول ، والذي يكون قبل قيام الساعة أن يبر الرجل صديقه ويعق أباه وأمه .

أخرج الشيخان : (جاء رجل فقال : يا رسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتي قال : أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أبوك) .

وهذا الحق يبقى ضمن حدود الاسلام ، والمعروف حتى ولو كان الوالدان مشركين ، إلا إذا أمراه بما يخالف الاسلام فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

أخرج الشيخان وأبو داوود عن اسماء قالت : (قدمت علي أمي وهي مشركة فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : قدمت عليّ أمي وهي راغبة أفأصل أمي قال : نعم صلي أمك) .

وحق الوالدين أن تبرهما وتحسن اليهما ، والبر والاحسان كلمتان يدخل بهما كل خير ، فالكلمة الخشنة ليست من البر والاحسان ، وإثارة الغبار وهما جالسان ليس من الاحسان ، والجلوس في مكان مرتفع عليهما ليس من الاحسان ، ووضعهما في موضع أقل حسناً مما أنت فيه ليس من الاحسان ، والاساءة إلى أصحابهما ليس إحساناً اليهما .

والأصل في هذا قوله تعالى: « وقضى ربك ألا تعبدوا الا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » .

أخرج أبو داوود عن عمرو بن السائب أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان جالساً فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل إليه أخوه من الرضاعة فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه) .

وأخرج أبو داوود (أن رجلا قال يا رسول الله : هل بقي من بر أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما فقال : نعم : الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما) .

وأخيرا فحق الوالدين أن ترضيهما فابحث عن وسائل الرضا أخرج الترمذي (رضى الرب في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد) .

ح - وللزوجة على الزوج حقوق :

وللزوج على الزوجة حقوق وقد مر معك سابقا شيء من هذه الحقوق لكل . وللأولاد على أبويهما حقوق .

فحق الأولاد على الآباء الكسوة والإطعام والتربية والإحسان والتأديب ، واختيار الإسم الحسن ، واعدادهم للقيام بالواجبات ذكورا وإناثا .

إن الطفل غير مكلف في الإسلام حتى يبلغ مبلغ الرجال ، وذلك حوالي سن الخامسة عشر ، وحقه خلال هذه المرحلة مرحلة ما قبل التكليف أن يعد للقيام بواجباته بعد التكليف على اختلاف أنواعها ، سواء كانت عبادية ، فيمرن على الصيام والصلاة ، أو جهادية فيمرن على السباحة والركوب واستعمال ادوات الحرب والرمي ، أو عملية فيعلم حرفة ، أو لسانية فيقوم لسانه ، ويعلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو أخلاقية فيمرن على كل خير ، أو عقيدية فتوضح له كل جوانب العقيدة ، أو علميا فيتعلم فروض العين ، ويُعلم من الكتاب والسنة والفقه ، ويتعلم فرضا من فروض الكفاية ، ومن حقوق الأولاد المساواة بينهم ، والعدل معهم ، والأصول في ذلك كثيرة منها :

دعاء إبراهيم لأولاده ووصيته لذريته : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » « رب اجعلني مقيم الصلاة

ومن ذريتي ربنا وتقبلْ دعاء » . ووصية لقمان لابنه « يا بُنَي لا تشركْ بالله إن الشرك لظلم عظيم.ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إليَّ المصير.وإن جاهداك على أن تشركَ بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبْهما في الدنيا معروفا واتّبع سبيل من أناب إليَّ ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون.يا بُنَي إنها إن تك مثقالَ حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير.يا بُنَيّ أقم الصلاة وأْمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور.ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرَحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور.واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

ووصايا رسول الله ﷺ للأولاد وبالأولاد كثيرة :

أخرج الترمذي عن رسول الله ﷺ (ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن) .

(لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع) .

وأخرج أبو داود عن رسول الله ﷺ :(من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن اليهن وزوجهن فله الجنة) .

وأخرج الترمذي (أمر رسول الله ﷺ بتسمية المولود يوم سابعه ووضع الأذى عنه والعق عنه) ومن وصايا الخلفاء (علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل)

ومن وصاياه عليه السلام (أدبوا أولادكم على حب نبيكم وآل بيته وتلاوة القرآن).

ومن وصاياه (يا غلام سَمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك) (يا غلام إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) .

ولما جاءه أحد الناس يستشهده على عطية أعطاها أحد أولاده سأله (أكل أولادك نحلت مثل هذا قال : لا . قال : فإني لا أشهد على جور) .

والأصل الجامع « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

د — وللأقارب وهم الأرحام حقوق :

وأيناها في الفصل الماضي وما رتب عليها الإسلام من تكافل في النفقة ، وتكافل في الزواج ، ومآل الميراث إليهم ، أو إلى بعضهم على حسب درجات القرابة ، وحجب بعضهم لبعض فيه .

وزيادة على ذلك فانحق القريب أن تعرفه، وأن تتعرف عليه، وأن تعقد بينك وبينه صلة يقول عليه الصلاة والسلام (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر) .

ومن حقهم أن تصلهم بما تستطيعه من أنواع الصلة ، وذلك من فرائض الإسلام ، وأدنى ذلك السلام والزيارة والمراسلة والهدية ، وقد جعل الله عز وجل أجر عطائك لأرحامك مضاعفا على سواه . يقول عليه الصلاة والسلام (الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان) ولقد قرن الله عز وجل في كتابه قطيعة الرحم بالإفساد في الأرض فقال منكرا على من يفعل ذلك :

« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » لأن قطع الإنسان صلاته مع أسرته دليل على تحلل ذاته ، وفقدانها كثيرا من صفات الإنسان الأساسية ، كالرحمة والود، ومن لم يحفظ ود أقاربه فحري أن لا يحفظ حقوق الأبعد، ومن لم يعط المخلوق حقه ، فحري أن ينسى حقوق الخالق ، لذلك كان عنوان القطيعة عن الله قطيعة الرحم يقول عليه الصلاة والسلام :

(الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله) أخرجه الشيخان .

هـ — وللجيران حقوق :

وأدنى حق الجار ألا تؤذيه في عرض أو مال أو نفس أو ولد ، وجار السوء يجعل الإنسان في حذر دائم ، وخوف دائم ، وشقاء دائم ، لذلك كان التقصير في إعطاء الجار هذا الحق الأدنى النار مهما فعل الإنسان من خيرات ومبرات.يروي مسلم عن رسول الله ﷺ (لايدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) .

وذكروا لرسول الله ﷺ امرأة تصلي الكثير وتقوم الكثير ولكنها تؤذي جيرانها فقال : هي في النار . والحق الثاني للجار ألا يضيع وجيرانه موجودون (والله لا يؤمن ... من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم) .

ثم بعد ذلك الإحسان والصلة والبر وهي أمور لا تحد بحد وهذه أمثلة عليها :

أخرج أبو داوود والترمذي (ذبحت شاة لابن عمر رضي الله عنه فقال لأهله هل أهديتم منها لجارنا اليهودي قالوا : لا، قال : ابعثوا له منها فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) .

وقال عليه الصلاة والسلام (لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره) أخرجه الستة إلا النسائي . وروى الشيخان عن رسول الله ﷺ (لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة) أي ظلفها .

وجعل عليه السلام الإحسان إلى الجار دليل الإيمان بالله واليوم الآخر فقال : (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره) .

و ـ وحق العمل :

أن تتقنه قال صلى الله عليه وسلم (إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه) .

وألا تغش فيه (من غش فليس منا) .

وأن تنجزه في موعد لأن من علامات المنافق « اذا وعد أخلف »

وإذا كان تاجرا ألا يخدع وألا يكذب وألا يحلف فيه يقول عليه الصلاة والسلام : (التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء) وقال (اليمين الفاجرة مَنْفَقَة للسلعة ممحقة للكسب) .

ولعل من أهم الحقوق في العمل أن يكون جائزا في شرع الله غير محرم ولا مكروه لذلك كان شرط العمل الفقه في العمل يقول عمر : (لا يبع في سوقنا إلا من قد تفقه في الدين) .

وإذا كان عاملا للدولة أو أجيرا عاما أو خاصا فحق العمل عليه أن يكون قويا على العمل ، أمينا فيه حفيظا لأجزائه ، عليما بدقائقه وطرق تنفيذه . نأخذ هذا من قوله تعالى :

« إن خير من استأجرت القوي الأمين » .

« اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » .

قال أبو ذر قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال : يا أبا ذر : إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها » .

ز ـ وحقوق المسلمين :

يقول عليه السلام (حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنازة وإجابة الدعوة وتشميت العاطس) أخرجه الخمسة وزاد مسلم في رواية (وإذا دعاك فأجبه وإذا استنصحك فانصح له) .

فمن حق المسلم أن تنصحه يقول عليه السلام (الدين النصيحة قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) (المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه إن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى فليمطه عنه) .

ومن حق المسلم أن تسلم عليه وفي الحديث (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم) رواه مسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام :(يسلّم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير) أخرجه الخمسة إلا النسائي. ومن السلام المصافحة قال عليه السلام (ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا) قال :(تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء) .

ومن حق المسلم عيادته إذا مرض وفي الحديث (من عاد مريضا لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع) رواه مسلم . وقال عليه السلام (من عاد مريضا أو زار أخا له في الله تعالى ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا) رواه الترمذي .

وقال عليه السلام (من توضأ فأحسن الوضوء وعاد أخاه محتسبا بُوعِدَ من النار مسيرة سبعين خريفا) .ومن حق المسلم اتباع جنازته :

يقول عليه السلام (من تبع جنازة وحملها ثلاث مرات فقد قضى ما عليه من حقها) رواه الترمذي ومن حق المسلم تشميته إذا عطس :

يقول عليه السلام (إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله على كل حال وليقل له أخوه أو صاحبه يرحمك الله فإذا قال له : فليقل يهديكم الله ويصلح بالكم) أخرجه البخاري .

ومن حق المسلم أن تجيبه إذا دعاك : يقول عليه السلام (آجيبوا هذه الدعوة إذا دعيتم وكان ابن عمر يأتي الدعوة في العرس وغيره وهو صائم (أي في غير رمضان) أخرجه الخمسة إلا النسائي .

وفي رواية لابي داوود (من دعي ولم يجب فقد عصى الله ورسوله ومن دخل على

غير دعوة دخل سارقا وخرج مغيرا) .

وأخرج أبو داوود (إذا اجتمع داعيان فأجب أقربهما بابا فان أقربهما بابا أقربهما جوارا وإن سبق أحدهما فأجب الذي سبق) .

وحق المسلم ألا تظن به إلا خيراً، وألا تتجسس عليه، وألا تحسده، وألا تبغضه، وألا تسميه إلا بأحب أسمائه اليه ، وأن تعطيه أخوتك كاملة، وألا تظلمه ، وألا تحتقره، وألا تمس ماله ودمه وعرضه بأذى ، والأصل الجامع في هذا قوله عليه السلام :

(إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله تعالى المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، التقوى ههنا التقوى ههنا التقوى ههنا ويشير إلى صدره، ألا لا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث) رواه مسلم .

ومن حق المسلم إذا كان أسيرا أن يفك أسره وإذا كان جائعا أن يطعم وفي الحديث :

(اطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العاني) رواه البخاري .

ومن حق المسلم إذا حدثك ألا تفشي سره وفي الحديث : (المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس : سفك دم حرام أو فرج حرام واقتطاع مال بغير حق) رواه أبو داوود .

ومن حق المسلم أن يعان ، وأن ينصر ، وأن يستر ، وأن يفرج عنه، وأن تُقضى حاجته، وأن يكرم، ويوقر كبيرا ، ويرحم صغيرا ، وأن يدافع عنه في غيبته والاصول في ذلك :

(ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر) الترمذي .

(كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال :(اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء) أخرجه الخمسة .

(من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة) الترمذي .

(ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم

تزل الأقدام) .

(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة،ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ...) رواه مسلم

ومن حق المسلمين أن يحس الفرد بآلامهم ويحمل همومهم :

وفي حديث الحاكم (من أصبح وهمه غير الله فليس من الله ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم) رواه ابن مسعود ، وهو صحيح .

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) أخرجه الشيخان .

وهذه نماذج وإلا فالأمر أوسع من ذلك ......

ح ـ وحق غير المسلمين :

من رعايا الدولة الإسلامية في أرض الإسلام بعد أن يؤدوا ما عليهم من حق الاعتراف بسلطان المسلمين وأداء الجزية اليهم ، الوفاء بعهدهم ، فلا يؤخذ منهم زيادة على ما عوهدوا عليه ، يقول عليه السلام (لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم فيصالحونكم على صلح فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم) رواه ابو داوود .

ويقول عليه السلام (وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم) رواه ابو داوود .

ويقول عليه السلام (من قتل معاهدا متعهدا في غير كنهه حرم الله تعالى عليه الجنة) رواه ابو داوود والنسائي .

وقال عليه السلام : (من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة) .

وقد مر معك حقه ألا يجبر على تغيير دينه وألا يجادل إلا بالتي هي أحسن ...

وإذا أسلم سقط عنه ما وجب عليه كذمي وأصبح كالمسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم .

ط ـ والدولة على أنواع :

إما كافرة ، أو مسلمة فاسقة ، أو مسلمة صالحة .

فإن كانت كافرة فواجب المسلم الجهاد فيها .

وأما المسلمة الفاسقة فأقل ما يفعله المسلم معها ألا يعينها على فسوقها .

يقول عليه السلام موصيا أحد الصحابة : (أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدي من غشى أبوابهم وصدقهم في كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولا يَرِدْ عليّ الحوض ومن لم يغش أبوابهم ولم يصدقهم في كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وسيرد عليّ الحوض ....) أخرجه الترمذي .

وأما المسلمة الصالحة فمن حق الأمير فيها الطاعة في المعروف في العسر واليسر والمكره والمنشط ، وإذا أمر فطاعته فريضة ، واذا نازعه أحد الحكم من ثائر أو خارج حورب ، ووجب على المسلمين أن يكونوا مع أميرهم عليه ، وكان حقاً عليهم أن يقتلوه .

يقول عليه السلام (إسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله) أخرجه البخاري .

وقال عليه السلام (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) . أخرجه الخمسة .

وقال عليه السلام (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية) . أخرجه الشيخان .

وقال عليه السلام (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني) أخرجه الشيخان والنسائي .

وقال عليه السلام (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) .

وحق الطاعة شامل لكل ما يؤمر به المسلم ما دام في المعروف ، فإذا أمر المسلم فقد وجبت عليه الطاعة حتى لو أمر بمباح يصبح المباح فريضة يجب تنفيذها .

فمثلا لو أصدر الأمير قانونا ينظم السير يصبح تنفيذه فرضا ، ومن خالفه آثم عند الله واستحق العقوبة في الدنيا .

ي- : وما من شيء إلا وقد بين للمسلم الحق عليه فيه حتى الحجر ، حتى الطريق ، حتى الحيوان ، حتى غير المسلم من خارج دار الإسلام ، حتى الجن ، حتى الملائكة ، حتى الروح ، حتى عالم الغيب كله ، حتى الطعام ، حتى الشراب إلى غير ذلك مما هو موجود في هذا الكون .

فالمسلم إنسان الواجب الذي يعرف الحق لصاحب الحق ، ويؤدي هذا الحق كاملا

مُحبتة به نفسه ، راضياً بذلك قلبه .

وقد ضربنا فيما مضى أمثلة على هذه الحقوق التي يطالب بها المسلم ، كي نعرف شمولها وكمالها ، وكمال من يقوم بها ، والا فمن أراد المعرفة الكاملة لذلك فلا بد له من دراسة شاملة للكتاب والسنة ، وكتب الفقه ، يتتبع فيها الحقوق عليه ، وعندئذ سيجد العجب من دقة ما علمنا من الحقوق التي علينا ، واقرأ هذا المثل من كتب الفقه :

(وعلى مالك البهيمة إطعامها وسقيها فإن امتنع أجبر فإن أبي أو عجز أجبر على بيعها أو إجارتها أو ذبحها إن كانت تؤكل ويحرم لعنها وتحميلها مشقا وحلبها بقدر ما يضر ولدها وضربها في وجهها ووسمها فيه وذبحها إن كانت لا تؤكل) .

وأمثال هذا كثير مما بيِّن به أدق الحقوق وأعلاها على أرقى ما يطمح إليه إنسان مستقيم الفطرة .

ـ ٧ ـ

وكما أن على المسلم واجبات ، فإن له حقوقا ، فكل حق للزوجة ، يقابله واجب عليها ، وكل واجب على الرجل ، يقابله حق له ، وهكذا في كل شيء :

إن الموظف الذي واجبه أن يقوم بأمانة وقوة وحفظ وعلم في خدمة المسلمين باختصاصه، من حقه أن نؤمن له حاجاته الأساسية يقول عليه السلام :(من كان لنا عاملا ولم يكن له زوجة فليتخذ زوجة وليس له مسكن فليتخذ مسكنا وليس له خادم فليتخذ خادما وليس له دابة فليتخذ دابة) .

المسلم الذي واجبه الطاعة لأميره من حقه على الأمير أن يرعى شئونه كلها ، وأن يكون كفيلا لهذه الشئون حيا وميتا والا يضيع هذا المسلم في أبسط لوازمه يقول عليه السلام :

(أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك دَيناً أو ضيعة فإليّ ومن ترك مالاً فلورثته وأنا مولى من لا مولى له، أرث ماله وأفك عانيه والخال مولى من لا مولى له يرث ماله ويفك عانيه) .

(كلكم راع ومسؤول عن رعيته،فالإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته ....) أخرجه الخمسة إلا النسائي .

ومن حق المسلم على الأمير ألا يحتجب عن حاجاته يقول عليه السلام :

(من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة) رواه أبو داوود والترمذي .

ومن حق المسلمين على الأمير ألا يخونهم وألا يغشهم يقول عليه السلام : (ما من عبد يسترعيه الله رعيـــة يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) رواه الشيخان .

ومن حق المسلمين على الأمير أن يسوسهم بالعدل يقول عليه السلام (إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا) أخرجه مسلم والنسائي .

ومن حق المسلمين على الأمير أن يسوسهم بالرفق واللين والرحمة يقول عليه السلام : (إن شر الرعاء الحطمة) رواه مسلم والحطمة هو العنيف في سوقه وإيراده وإصداره

ومن حقوق المسلم على الدولة ألا تدخل بيته إلا بإذنه ما دام لم تظهر في بيته ريبة ، وألا تؤاخذه إذا انتقدها بحق ، بل تتراجع أمامه عن باطلها ولو كان أقل المسلمين شأناً ، ومن حقه ألا يحبس عن أهله في مهمة ، ولو كان جندياً أكثر من فترة معينة وهكذا . . .

ولكن كون المسلم يؤدي الحقوق هو الحل الوحيد كي يأخذ حقوقه كاملة ، إذ عندما يكون أفراد مجتمع لا يقومون بواجباتهم فعندئذ يضيع حق كل واحد منهم جزاء تفريطه بواجبه ، لذلك كان الحل الإسلامي لأخذ كل مواطن حقه هو أن يقوم كل مواطن بواجبه ، والدولة مسؤولة عن تقصير أي فرد بواجبه ، والمسلمون مسؤولون إذا قصرت الدولة ، وبالتالي فلا يضيع أي حق في مجتمع إسلامي سليم . ومن هنا كان المجتمع الإسلامي مثالياً بهذه الأخلاقية الواقعية بكل مظاهره ، فلا يضيع حق على حساب حق آخر . يقول عليه السلام : (فإن لأهلك حقاً وإن لضيفك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً) .

ولما قال سلمان لأبي الدرداء (إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه) قال عليه السلام (صدق سلمان) .

— ٨ —

ولكن لنفرض فرضاً أن المسلم منع حقوقه ، فهل يعفيه هذا من أداء واجباته؟ أو هل يتخلى المسلم عن مثاليته في ظرف من الظروف ؟ أبداً . فالمسلم لا يقوم بواجباته بقصد أن تؤدى له حقوقه بل يقوم بواجباته لأنه يعتبر نفسه مكلفاً بها من الله ، ومحاسباً عليها أمام الله ، وهو إذا قام بها فإنما يقوم بها لله ، وانحراف الناس عامة ، ومرض الناس

عامة ، وتقصير الناس عامة وفساد الناس عامة ، كل ذلك لا يعفي المسلم من القيام بواجباته يقول عليه السلام :

(وسيكون بعدي خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا ؟ قال : أوفوا ببيعة الأول ثم أعطوهم حقهم واسألوا الله تعالى الذي لكم فإن الله تعالى سائلهم عما استرعاهم) أخرجه الشيخان .

ويقول عليه السلام (لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤا أسأت ولكن وطنوا انفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤا أن تجتنبوا إساءتهم) أخرجه الترمذي . فالمسلم لا يبالي رضي الناس عليه أو سخطوا وإنما الذي يبالي به هو أن يقوم بحق الله عليه متوكلاً على الله تعالى وحده .

يقول عليه السلام (من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله تعالى مؤونة الناس ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى إلى الناس) أخرجه الترمذي .

إن المسلم لا يقوم بواجباته لمنفعة أو غاية دنيوية أو مغنم أو جاه فكل ذلك لا يجوز وإن كان قد يأتي تبعاً ، ولكنه يقوم بذلك لأمر الله له ، ولو كلفه ذلك حياته وماله ووقته وصحته وبدنه وشرفه وجاهه ، وقد رأينا في مبحث صفات الرسول ﷺ كيف قام عليه السلام بواجباته مع ما كلفه ذلك من مشقة وجهد وعذاب وإيلام ، وكل إنسان مسلم له في الرسول ﷺ أسوة حسنة ، والرسول عليه السلام كما رأيت من عمله كان يقوم بالواجب ، بصرف النظر عن النتائج سواء كانت لصالحه أو لغير صالحه ، ومن هنا نعلم أن هؤلاء الذين يفسدون لأن الناس فسدوا ، وينحرفون لأن الناس انحرفوا ، ويتركون الإسلام لأن الناس تركوا ، ويضلون لأن الناس ضلوا ، ويأكلون الربا لأن الناس أكلوه ، ويتساهلون في الحلال والحرام لأن الناس تساهلوا ، هؤلاء في الحقيقة إن استحلوا ما عملوه بحجة أن الناس عملوا ، كفروا وما هم بمسلمين ، وإن لم يستحلوا فقد فسقوا عن أمر الله وحق عليهم قوله تعالى :

« فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً » .

إن المسلم كما قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أبو داوود :

(عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله تعالى فانهزم أصحابه فعلم ما عليه فرجع حتى أريق دمه فيقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقا مما عندي حتى أريق دمه أشهدكم أني قد غفرت له) .

والحقيقة أن الإنسان لا يكمل إلا إذا أطلقت طاقاته الجسمية في طريقها الصحيح ، وطاقاته العقلية في طريقها الصحيح ، وطاقاته النفسية في طريقها الصحيح ، عندئذ يكون كاملاً ، وإلا فهل يكمل إنسان فقد صفة الرحمة من ذاته ، او صفة الحنان ، أو صفة الحلم ، أو صفة الكرم ؟ إن فقد الإنسان لأي صفة من صفاته الأساسية يخرجه عن الكمال ، لذلك كان الإسلام هو الطريق الفطري لتنمية هذه الأخلاق الأساسية للإنسان ، ففرض فيه على الإنسان أن يتحقق بهذه الصفات وأن يلتزم بها سلوكاً .

ثم هل يكمل إنسان وهو منحرف أخلاقياً ؟ . إن الحسد ظاهرة مرضية لصفة جيدة هي التنافس. فالله عز وجل غرس في نفس الانسان حب منافسة الآخرين ليتسابق الناس في الخير ، فإذا ما انحرفت هذه الصفة حتى أصبحت حسداً ، يتمنى به الانسان أن يذهب كل خير حصل للناس لأنه لا يقدر عليه ، فهذه ظاهرة مرضية لا يكون معها الإنسان كاملاً ، وكذلك كل ظاهرة مرضية أخلاقية أخرى . ولذلك فكما بيّن الإسلام طريق تنمية الأخلاق الصالحة كلها بالإنسان ، فقد بين الظواهر المرضية للأخلاق وربي المسلم على تركها .

فكان الإسلام بذلك هو الطريق الفطري لقطع الطريق على أي انحراف تطمح إليه نفس الإنسان .

والإنسان جسد، هذا الجسد ينبغي أن ينمي ويقوى ويرتفع مستواه، ويحافظ عليه، ولا يستعمل كل عضو فيه إلا فيما ينبغي أن يستعمل ، والمسلم هو الإنسان الوحيد الذي يرقى بجسمه نحو كل خير ، ويبعده عن كل ما يضر ، ويستعمل كل عضو فيه فيما ينبغي أن يستعمل فيه ، وكذلك أطلق الإسلام طاقات العقل ، ففرض على الإنسان أن يفكر ودله على طريق التجربة ، وحرم عليه أن يدخل عقله ما لم يقم عليه دليل ، وفرض عليه أن يتعلم ، وطالبه بألا يحرص على شيء حرصه على العلم ...

وكذلك أطلق الإسلام طاقات الروح ، والنفس البشرية في الطريق الصحيح ، فللروح تطلعاتها إلى الخلود والبقاء ، فدلها على طريقة تحقيق هذا الخلود المنعم ، وللنفس حاجات ضرورية وحاجية ، وكمالية معقولة مقبولة ، أعطى الإسلام للنفس حق تحقيقها عن طريق صحيح سليم .

وهكذا لم يبق الإسلام طاقة عند الإنسان معطلة ، ولم يسمح لطاقة أن تعمل إلا فيما يفيد وفيما خلقت له . فكان المسلم هو الإنسان الكامل انطلاقاً من قلبـه الذي

يمثل الكمال في القلوب من حيث مشاعره واحساساته وسروره وحزنـه ووضوح رؤياه الحق إلى كل شيء في المسلم .

فلا يكمل إنسان إلا بالإسلام .

* * *

- ١٠ -

وبعد : لقد كانت الأخلاق الإسلامية فيها كمال الإنسان لأنها :

١ ــ تفجير لطاقات الإنسان كلها في طريقها الصحيح : العلمية ، والعقلية ، والروحية ، والنفسية ، والجسدية ، فلا تبقى طاقة معطلة : العلم فريضة ، والتفكير فريضة ، والصفاء الروحي فريضة ، والاخلاق الفطرية اكتسابها والتحقق بها فريضة ، وتدريب الجسم فريضة ، والزواج في الإسلام أفضل من التفرغ لعبادة الله كما نص على ذلك فقهاء الحنفية ..

٢ ــ إن كثيراً من أخلاق النفس الإنسانية تموت لعدم استعمالها وتنميتها ، أما في الإسلام فلا يبقى خلق للنفس إلا وقد نمي : من الحنان ، إلى الكرم ، إلى الحلم ، إلى الهداية ، إلى الرحمة ، إلى اللطف ... وما من خلق للنفس إلا ونمي التنمية الصحيحة السليمة .

٣ ــ إن كثيراً من الظواهر المرضية للنفس تنمو عند الكافرين ، كالحسد ، والغل ، والحقد ، والكبر ، والتعالي . أما في الإسلام فإن هذه الظواهر المرضية للنفس تجتث اجتثاثاً .

٤ ــ إن بالإخلاق الإسلامية وحدها يحقق الإنسان حكمة وجوده ، ويعثر بها على محله الصحيح في الوجود ، وهو أنه سيد الكون وعبد الله .

٥ ــ إن الأخلاق الإسلامية وحدها التي تجعل الإنسان يؤدي إلى كل ذي حق حقه حيواناً كان أو إنساناً أو جماداً أو نباتاً فضلاً عن قيامه بحقوق الله رب العالمين .

وبهذا يكون المسلم وحده هو الإنسان في وضعه السليم الصحيح ، وما عداه فلا تطلق عليه صفة الإنسانية إلا تجوزاً .

إن الله قد خلق رسوله مستجمعاً لكل الكمالات الإنسانية التي لا يبقى معها مزيد لمستزيد . وقد رأينا هذا كله في الفصل الأول من كتاب الرسول ﷺ .

فإذا ما فرض الله على كل مسلم ومسلمة أن يقتديا برسول الله ﷺ فشيء عادي إذن أن يكون المسلم الحق مستجمعاً من الكمال ما لا يستجمعه أحد ، وعلى هذا

فيكفي أن يدرس القارىء ذلك الباب عن رسول الله ﷺ ليعرف بالتالي إلى أي حد ترتقي أخلاق الإسلام بالإنسان .

* * *

ويبقى بعد ذلك قضيتان :

١ — قضية الحكم بالحسن أو القبح على الأخلاق

٢ — قضية الأخلاق الأساسية والفرعية

— ١ —

إن لكل مخلوق في الوجود طباعه وعاداته التي طبع عليها. للحيوان عاداته، وللإنسان عاداته وأخلاقه، ولكن عادات الحيوان محدودة ورتيبة لضآلة دائرة علمه وإرادته وقدرته ، ومحدودية جسده ، أما الإنسان فالأمر بالنسبة له يختلف ، فقد أوتي من العلم والارادة والقدرة والبيان والكمال الجسدي ما لم يؤته غيره ، ولذلك كانت دائرة العادات البشرية ، والطباع والأخلاق الإنسانية كثيرة جداً ، فكان كأثر عن ذلك لكل شعب في العالم عادات تختلف عن عادات غيره ، ولكل قبيلة ، ولكل أسرة ، ولكل أمة ، ولكل جنس ، وحتى لكل فرد طباع وأخلاق تختلف عن غيرها .

* * *

وعندما تدرس هذه الاخلاق تجد بعضها يشترك فيه الكثير ، وبعضها خاص بأفراد، وبعضها قريب القبول من الناس ، وبعضها بعيد ، وبعضها يقبله العقل ، وبعضها يرفضه ، وبعضها يتفق مع سنن الكون ، وبعضها يختلف ، وبعضها الحسن الذي يجمع الناس على حسنه ، وبعضها السيء الذي يجمع الناس على رفضه ، وبعضها يتنازع فيه الناس ، وبعضها متغير ، وبعضها ثابت .

بعض الناس تملي عليهم أخلاقهم شهواتهم ، وبعض الناس تملي عليهم أخلاقهم الألفة ، وبعضهم يملي عليهم أخلاقهم مفكروهم أو زعماؤهم الدينيون أو السياسيون ، وبعضهم يملي عليهم أخلاقهم نتائج تفكيرهم .

ومن الناس من عنده استعداد لنوع معين من السلوك ، ومن الناس من عنده استعداد لنوع آخر مختلف .

ومن الناس من تصل بهم تجربتهم إلى نوع معين من الأخلاق.وأهل البلاد الباردة اكثر هدوءاً ، وأهل البلاد الحارة أكثر كسلاً .

والنباتيون تختلف أخلاقهم عن أكلة اللحوم .

• • •

هذه الاخلاق منها الحسن ومنها السيء ، منها الطيب الكريم ومنها الخبيث اللئيم :

الغش خلق سيء لما يترتب عليه من آثار سيئة على صاحبه وعلى الناس ، أما على على صاحبه فلأن الناس سيعرفونه بالنهاية ، وبالتالي يخسر ثقة الناس به . فإن كان تاجراً كسدت تجارته ، وإن كان طبيباً تركه الناس . وأما على الناس فلأن الإنسان لم لم يحصل غرضه الذي أراده على الوجه المقصود .

والإخلال بالوعد خلق سيء لما يترتب عليه من آثار سيئة في حياة الناس من تعطيل أوقات ، وهدر طاقات ، وفقد ثقة الناس بالكلام .

والكذب خلق سيء لما يترتب عليه من أكل حقوق ، أو هدر حقوق ، أو تهرب من واجبات ، فلا يصدق قائل ، ولا يعرف صحة قول إلا بعد جهد وتنقيح وتعقيد ، وفي ذلك ما فيه من تعطيل الحركة الاجتماعية .

ولكن من الذي يحكم على كل خلق بأنه حسن وأنه قبيح ؟ .

هل يستقل العقل بالحكم على الأخلاق حسنها وقبيحها ؟ .

أو هل تستقل التجربة بتبيان حسن الخلق أو قبحه من نتائجها ؟ .

لا شك أن العقل يستطيع لو فكر تفكيراً سليماً أن يصل إلى أحكام صحيحة في الحكم على بعض الأخلاق فمثلاً لو فكر الإنسان تفكيراً سليماً في موضوع اللواط فإنه يجد أنه انحراف عن الفطرة لأن المشاهد أن الشهوة الجنسية ركبت في الذكر والانثى من أجل أن يلتقيا جنسياً ليبقى النوع ، فاتصال الذكر بالذكر انحراف عن الفطرة ، ثم إن عملية اللواط عملية تتقزز منها النفس لأنها في مكان قذر ....

فالعقل يستطيع بالنهاية أن يصدر حكماً سليماً على أن اللواط خلق سيء لأنه لو عمم بين الرجال وعمم السحاق بين النساء لتلاشى الجنس البشري .

وبالتجربة يستطيع الإنسان أن يتبين أن التسويف بإنجاز الواجبات خلق سيء ، إذ التسويف يؤدي إلى تراكم العمل ، وبالتالي إجهاد المكلف به ، ويؤدي إلى تعطيل كثير من شؤون الناس .

ولكن في المقابل فإن العقل البشري ، والتجربة الإنسانية ، ليسا كافيين للحكم على كل الاخلاق ، وليست احكامهما قطعية كذلك فيما يحكمان فيه .

• • •

١ – لأن العقل البشري ليس محيطاً إحاطة تجعله يصدر أحكاماً على كل شيء .

٢ – لأن بعض الأخلاق يصعب ترجيح أحد جانبي الخير أو الشر في الحكم عليها لتعقيدها .

٣ – لأن شهوات الإنسان وأهواءه تؤثران على أحكامه .

٤ – لأن نتائج التجربة قد لا تظهر إلا بعد مدة طويلة في كثير من الأخلاق والسلوك .

٥ – إن عقول البشر قد تتفاوت ، وتجاربهم قد تتفاوت ، وبالتالي لا يلتقون على تحسين شيء ولا تقبيحه .

٦ – كثير من الأخلاق تظهر وكأنها نسبية فما فيه مصلحة لي قد يكون فيه مفسدة للآخرين .

٧ – نزوع الإنسان إلى الأنانية يجعل الأخلاقية متعطلة بواقعه كفرد ، وبالمجموعة كأمة أو كشعب أو كأبناء وطن .

ومن ثم فقد جعل الله عز وجل إليه أمر إصدار الأحكام وتحسين الحسن وتقبيح القبيح « ألا له الخلق والأمر » « إنِ الحكم إلا لله » لأنه وحده جل جلاله المحيط علماً ، الحكيم المنزه عن الخطأ ، والمنزه عن المصلحة ، والغني عن خلقه ، وهو الخالق للإنسان ، فليس لغيره حق الحكم على الإنسان .

والله عز وجل إنما يبلغ أحكامه لخلقه بواسطة رسله الذين قامت الحجة على الناس بأنهم رسله بالصفات والمعجزات والآثار وببعثة رسول الله ﷺ إلى الناس عامة للأقوام كلها ، وللأجيال كلها ، فقد تحدد للبشرية كل ما ينبغي أن تفعله ، وما ينبغي أن تَذَرَهُ ، لذلك لم يبق خلق حسن إلا وقد بين حتى تمت مكارم الأخلاق كلها . يقول عليه السلام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) سواء مكارم الأخلاق التي جاء بها الرسل السابقون ، أو مكارم الأخلاق التي اهتدى إليها الناس في كل العصور ، أو مكارم الأخلاق التي كان عليها العرب قبله عليه السلام . فكانت رسالته جامعة لكل خلق حسن ، حتى لا يبقى وضع إلا وقد عرفت فيه اخلاق النبوة « ويهديكم سنن الذين من قبلكم » «فبهداهم اقتده» « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » .

• • •

والصيغة التعليمية لهذا الصرح من مكارم الأخلاق الذي وضع الله البشرية أمامه وألزمها به ، مظهرها الكتاب والسنة اللذان لم يتركا شاردة ولا واردة يحتاجها البشر

من الهداية إلا وقد فصلت لهم ، كما وصف الله كتابه : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين » .

« ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

وكما وصف رسول الله ﷺ تعاليمه :

(وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء) .

* * *

ومن ثم لم يبق جانب من جوانب الحياة الإنسانية ألا وقد صيغ في الاسلام صياغة أخلاقية : الجانب النظري والجانب العملي ، العقائد والعبادات ، الجانب الاقتصادي ، والجانب السياسي ، والجانب الثقافي ، والجانب العسكري ، والجانب الاجتماعي ، وجعلت هذه الجوانب كلها بشكل متكامل ، فلا تبقى قضية من قضايا الإنسان الا وقد بين له ما ينبغي أن يفعل فيها ، وما هو الأعدل والأقوم ؟ .

وكل هذه القضايا صيغت ليبقى الإنسان في دائرة مكارم الأخلاق ، مجتنباً سيئها ، مقبلاً على طيبها . وروعي في هذا كله طبيعة البشر ، فمنهم من لا يرضيه في نفسه إلا العدل ، ومنهم من عنده استعداد للفضل ، ومنهم من لا يعرف الا الجور ، فمن سار في طريق الجور قوّم ، وتقويمه من مكارم الأخلاق .

ومن لا يقبل إلا العدل أعطيه ولم يبعد عن مكارم الأخلاق ، ومن عنده استعداد للفضل ، بينت له الحدود التي يحلق فيها إلى الآفاق العليا للسلوك البشري .

وقد جعلت التربية الإسلامية هدفها الوصول إلى إنسانية تتعايش بمكارم الأخلاق العليا ، وراعت بعد ذلك طبائع الكثير من البشر ، فأبقت لهم طريق سلوك الحد الأدنى من مكارم الأخلاق مفتوحاً ، وقطعت على غير هؤلاء وهؤلاء طريقهم ، حتى لا تفسد الحياة البشرية بظهور الضعة وخسة الأخلاق .

- ٢ -

هذه الأخلاق التامة الكاملة التي جمعت كل خلق حسن عرفته البشرية من قبل ، دلت البشرية على كل خلق حسن من بعد ، والتي أعطت البشرية الصورة الثابتة الوحيدة لصرح الكمال الأخلاقي في كل شيء ، بمقدار ما يأخذ الإنسان منها يرتفع ، وبمقدار ما يحمل نفسه عليها ترتقي إنسانيته ، وبمقدار ما يتخلى عن جزء منها يسفل ويهبط .

فهي الميزان التي توزن به صفة الإنسانية عند البشر ، فمن أخذ حظه منها كاملاً

كان الإنسان الكامل ، ومن أخذ بعضاً منها كان نقصه بمقدار ما فرط .

ولا يحصلها الإنسان كاملاً إلا إذا غاص في بحار الكتاب والسنة. والنماذج العملية لذلك : الصحابة .

غير أن هنالك أخلاقاً تعتبر أساسية هي بمثابة الأصول وهناك أخلاق تعتبر فروعاً من تلك الأصول ، وليس تضييع فرع كتضييع أصل . ولذلك كان من أهم ما ينبغي أن يعرفه المسلم ؛ الأخلاق الإسلامية الجامعة التي لا يستكمل بناءه الأخلاقي إذا فقد واحداً منها ، ولعل من أهم ما وقع التفريط به من قبل المسلمين هو هذا ، فقد ضخم بعضهم خلقاً من أخلاق الإسلام ، وصغر خلقاً آخر مع أنهما قد يكونان في ميزان الإسلام سواءاً ، مما أدى إلى ضياع كثير من أمهات الأخلاق الاسلامية ، ونسيان المسلمين لها ، ونتج عن ذلك أن فقدت الشخصية الإسلامية جمالها وكمالها وتناسق سلوكها وتكامله .

فمثلاً : من السُّوَر التي يحفظها كل مسلم قوله تعالى « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فأنت ترى أن هذه السورة قد جمعت أربعة أخلاق لو نقص خلق منها لوقع الإنسان في الخسران بينما تجد عملياً أن الخلقين الأولين قد سلطت عليهما أضواء التطبيق ، بينما كان الخلقان الآخران مهملين إلا في النادر .

وزاد الطين بلة ،أن كثيراً من الأخلاق التي سلطت عليها الأضواء أكثر من غيرها ، لم تفهم الفهم الصحيح المستوعب لكل جوانبها . وأبرز مثال على ذلك ، وعلى ما قبله ، موقف كثير من المسلمين من أمثال هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون» فهنا علق الفلاح على أخلاق ثلاثة : التقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد،ولكن الملاحظ أن الجهاد لم يأخذ من عناية المسلمين ما أخذته التقوى ، ولكن لا التقوى فُهمت فهما شاملاً صحيحاً كما وضحها القرآن ، ولا الجهاد أبرزت كل مضامينه ، وهكذا قل في كثير من الأخلاق الإسلامية الأساسية .

* * *

وهذا مكمن الفرق بين شخصية المسلم الأول الذي رباه رسول الله ﷺ ، وبين شخصية المسلم في العصور التي تلت ، المسلم الأول لا تشاء أن ترى خلقاً من أخلاق الإسلام إلا وجدته فيه ، أما المسلم بعد ذلك فصرت ترى جوانب من الإسلام متضخمة

عنده ، وأخرى قد فرط فيها .

المسلم الأول كان عالماً ، وزاهداً ، وعابداً ، ومقاتلا ،وداعياً ، وجريئاً ، وصريحاً ، وحكيماً ، ولسنا ، وسياسياً ، وادارياً ، وكيّساً وفطناً .... والمسلم بعد ذلك لم يعد كذلك ، صرت تجد عالماً لا يعرف القتال ، ومقاتلا لا يعرف الله ، وسياسياً ليس عليماً ولا حكيماً ، وهكذا ضاعت الشخصية الإسلامية النموذجية التي يفترض أن يكون عليها كل مسلم ،فلم نرها إلا بأفراد مهما كثروا فهم قلة إذا قيسوا ببقية المسلمين.

* * *

لذلك وجدنا أنه لا بد أن نعيد إلى الأذهان الصورة الصحيحة للأخلاق الأساسية في الاسلام ، التي إذا فقد المسلم خلقاً منها كان على شفا هلكة . وحاولنا في كتاب آخر أن نعطي لكل خلق من هذه الأخلاق مدلوله الصحيح ، ومضمونه الواسع المستمد من الكتاب والسنة ، وحاولنا هناك الا ننسى تبيان الطريق الذي يتحقق به المسلم بهذه الأخلاق ، والأمل بفضل الله كبير أن تعود الأخلاق الإسلامية إلى الظهور مرة ثانية ليحيا بها الإسلام من جديد ، ولتحيا بعد ذلك الأرض بالإسلام من جديد وتتطهر.

ولا شك أن الأخلاق الأساسية في الإسلام كثيرة ، ولكن عند التتبع يجد الإنسان أن كثيراً من الأخلاق التي ذكرت في الكتاب والسنة تتفرع عن أصل جامع ، ولما كانت غايتنا هي الوصول إلى هذه الأصول الجامعة التي تتفرع عنها كل الأخلاق الأخرى ، ولا يصح التفريط في واحد منها . اتجه البحث عن هذه الأخلاق ، وبعد التتبع وجدنا أن أمهات الأخلاق التي تتفرع عنها كل الأخلاق الإسلامية هي التي وصف الله عز وجل بها حزبه في القرآن . إذ وجدنا أنه ما من خلق في الإسلام إلا ويرجع الى صفة من هذه الصفات .

ولنرى المسألة بوضوح نقول :

إن كلمة حزب الله ذكرت مرتين في القرآن مرة في سورة المائدة،ومرة في سورة المجادلة .

أما في سورة المائدة فقد ذكرت بعد هذه الآيات :

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم : يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن

حزب الله هم الغالبون » .

والملاحظ أن هذه الآيات كلها في وصف حزب الله بدليل ذكر الغلبة في الأخير ، والردة في الأول ، والقوم الذين يقفون في وجه الردة في الوسط ، فلا بد أن الذين يستحقون الغلبة هم :هؤلاء القوم الذين يجابهون المرتدين وبالتالي فهم حزب الله .

وأما في سورة المجادلة فقد ذكرت كلمة حزب الله بعد ما يلي :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون »

وبعد التحقيق نجد أنه ما من صفة ولا خلق ذكر بعد ذلك في القرآن إلا ويمكن إرجاعه إلى واحد من الأخلاق المذكورة في هذين النصين ، فمثلاً : التقوى مرجعها إلى الصفة الأولى : « يحبهم ويحبونه » لأن الله يقول « والله يحب المتقين » والصلاة مرجعها إلى التقوى لأن الله يقول «هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة» والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرجعه إلى « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » وعلى هذا قس ،وكل ما كتبناه في الكتاب الذي عقدناه لبيان هذه الأخلاق يصلح أن يكون دليلاً على أن هذه الصفات هي أمهات الأخلاق الإسلامية .

* * *

ولا بد هنا من الإشارة إلى شيء هو :

أن إحياء هذه الاخلاق مجتمعة هو الطريق الوحيد للقضاء على الردة أو شبه الردة الحالية المنتشرة في العالم الإسلامي ، فلا شك أن العالم الإسلامي الآن في حالة ردة فظيعة قد تكون في بعض جوانبها أفظع من الردة القديمة وأشمل .

والآيات هذه تذكر أن الردة حال وقوعها لا يقف لها ولا يصمد ولا يقضي عليها إلا قوم اصطفاهم الله لذلك وهم المتصفون بالصفات التي أشارت إليها الآيات ، فلا يمكن إذن أن يكون غيرهم ممن فقد صفة من هذه الصفات مرشحاً للقيام بمثل هذا العبء الجليل الخطير ، ولذلك خصصنا لها كتاباً مستقلاً . وعلى هذا فدراستنا لهذه الأخلاق ينبغي أن تكون عملية. القصد منها التطبيق والتحقق قبل أي شيء آخر .

كما أن مثل هذه الدراسة تحتمها مسؤوليتنا أمام الله وقد وُجِدنا في مثل هذا العصر: قال تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ويعلم

الصابرين » « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » .

وقد ذكرت الآيات التي رأيناها خمسة أخلاق هي :

١ ــ يحبهم ويحبونه .

٢ ــ أذلة على المؤمنين .

٣ ــ أعزة على الكافرين .

٤ ــ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

٥ ــ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون .

والملاحظ أن آية المجادلة أشارت الى الصفة الخامسة فقط على اعتبار أنها ذروة صفات حزب الله ولكنها ليست الوحيدة فلا يكون الإنسان مستجمعاً صفات حزب الله حتى يجمع الصفات الخمس : فمن لم يكن ذليلاً على المؤمنين فليس من أهل هذا المقام ، ومن لم يجاهد فليس من أهل هذا المقام ، ومن لم يحب الله ويحبه الله فليس من أهل هذا المقام ، ومن والى غير المؤمنين فليس من أهل هذا المقام ، ومن والى غير الله والرسول ﷺ فليس من أهل هذا المقام .

ولما كان التفصيل في هذه الاخلاق ضرورياً لعصرنا الذي استشرت فيه الردة ، وكان هذا التفصيل سيؤدي إلى سعة هذا الكتاب بشكل كبير جداً رأينا أن نفصل هذا الموضوع بكتاب مستقل هو « جند الله : ثقافة وأخلاقاً » وقد فصلنا في ذلك الكتاب كل ما يدخل تحت هذه الصفات الخمس فاستعرضنا معنى الولاء ، وبينا حدوده ، وذكرنا الطرق التي ذكرت في الكتاب والسنة مما يؤدي إلى محبة الله ، وبينا مضامين الذلة على المؤمنين ، والعزة على الكافرين ، وذكرنا أنواع الجهاد في الاسلام وكيف يقوم كل نوع . فكان كتاباً يحتاجه المسلم في عصرنا لأنه الكتاب الذي يبين نقطة الإنطلاق في تصفية مشاكل الأمة الاسلامية المعاصرة . هذا مع تعرض الكتاب لجوانب كثيرة أخرى يحتاج المسلم المعاصر أن يأخذ حظه منها . فإلى ذلك الكتاب ليعرف المسلم الصورة المتكاملة للأخلاق الأساسية في الاسلام ولما كان موضوعه يكمل موضوع هذا الكتاب من عدة جوانب فقد جعلناه كجزء من هذه السلسلة التي أخرجناها تحت عنوان : دراسات منهجية هادفة .

ونؤثر بعد إحالتنا على ذلك الكتاب أن نغلق هذا الفصل بعد أن أخذنا صورة عن القضايا الأساسية في النظامين الاجتماعي والأخلاقي في الاسلام لنبدأ الحديث عن مناهج الحياة العامة في الاسلام .

الفَصل الثالِث

مناهج الحياة العامة

المقدمة

- ١ -

إن الاسلام لا بد له من حكومة تقيمه وترعاه وتحميه ...

فالحكومة الإسلامية ضرورية من أجل حفظ العقيدة وحمايتها من عبث العابثين ، ولهو اللاهين ، وخروج المارقين ، وزندقة الزنادقة ، وشبه الكافرين ، وإقامة حكم الردة على المرتدين « من بدل دينه فاقتلوه » والقتل يحتاج إلى حكومة في الوضع الطبيعي .

والحكومة ضرورية من أجل إقامة العبادات ، فالكسالى عن الصلاة يؤدبون ، والممتنعون عن الزكاة يعزرون ، وتاركو الصيام يعاقبون ، والمقصرون عن الحج وهو باستطاعتهم يزجرون .

والحكومة الإسلامية ضرورية لحفظ الأرواح «كتب عليكم القصاص في القتلى...» « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون » .

والحكومة ضرورية لحفظ الأعراض « سورة أنزلناها وفرضناها ... » « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة...» « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » والحكومة ضرورية لحفظ الأموال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالبا طل ... »

والحكومة ضرورية لإقامة الجهاد : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » .

والحكومة ضرورية لإقامة ما يلزم المسلمين من علوم ، وتربية المسلمين على الإسلام وإقامة كل أنظمة الإسلام السياسة ، والا جتماعية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، والاخلاقية ، والثقافية .

والحكومة ضرورية من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، فإن الإسلام ما لم تكن له حكومة تحمله وتحميه يكون ذليلا ، والنفوس تحب الانطلاق والانفلات إلى كل شهوة وهوى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » فلا

بد من حكومة تصرف الناس عن الهوى إلى الاستقامة ، وقديما قال الخليفة الراشد (إن الله ليزع بالسطان ما لا يزع بالقرآن) .

والمسلمون لا يطمئنون ما لم تكن لهم حكومة مسلمة :

فغير المسلم لا يؤتمن على حرية العقيدة، وغير المسلم لا يؤتمن على عدل ولا قانون ، ولا حق ولا مصلحة ، فالمسلم في ظل حكومة غير إسلامية معرض إسلامه للخطر ، ومضطر للطاعة حتى في معصية الله ، وفي ذلك تناقض كبير بين العقيدة الإسلامية والسلوك ، عدا عن كون ذلك ذلة لا تليق بالمسلم ولا تجوز عليه، إذ جعل الله عز وجل المسلم هو الأعلى« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » وعندما تكون الحكومة التي تحكم المسلم غير مسلمة فإن في ذلك ذلة له .

هذا مع أن الحكومات في زماننا أصبحت ترى أن لها الحق في أن تتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شئون مواطنيها ، فتفرض عليهم العقيدة التي تريد ، وتربي أولادهم عليها ، وتفرض السلوك الذي تريد وتجبرهم عليه. وفي هذا تعريض الإسلام للزوال إن لم يكن في أول جيل ففي جيل ثان ، والدارس لحال المسلمين في الصين أو في الاتحاد السوفياتي أو في الحكومات المرتدة في العالم الإسلامي يرى هذا الأمر واضحاً.

والحكومة الإسلامية لا بد منها لتقدم البشرية في طريقها الصحيح :

فالتقدم البشري له مظهران ، المظهر الأول : التقدم في زيادة تسخير الكون لصالح الإنسان ، والمظهر الثاني : تقدم الإنسان في مجالات الأخلاق والسلوك والاستقرار والاطمئنان والعدل ، ومعرفة الحقوق والقيام بها ، ومعرفة الواجبات وقيامها ، ويلاحظ أن البشرية بدون الإسلام قد تتقدم في المظهر الأول ، وتتأخر في المظهر الثاني ، فترى البشرية بلا إسلام ترجع في تصرفاتها إلى عهود الهمجيةالأولى، والفوضوية الأولى ، والجاهلية الاولى ، فلا بد من الإسلام إذا أريد للبشرية أن تتقدم في طريقها الصحيح . إذ الإسلام هو الصورة الوحيدة للتقدم البشري في كل الأعصار وفي كل مجال ، وعندما ينفصل المظهر الأول للتقدم عن المظهر الثاني ، يصبح المسلمون في خطر يهددهم بالزوال والفناء ، سواء قاموا هم بهذا الدور أو قام به غيرهم ، كما هو واقع الآن، وليس هناك من حل إلا بقيام دولة الإسلام التي تجمع كل أنواع التقدم وتضع حدا للمغالطات التي تقدمها الجاهلية كدليل على أنها حق بتقدمها في عمارة الدنيا .

والحكومة الإسلامية ضرورية لتبليغ رسالة الإسلام العالمية ، وإخضاع البشر لسلطان الله وشريعته ، بلا إكراه على تغيير العقيدة ، كي يتمتع الإنسان والحيوان برحمة الإسلام ، ويتخلص الإنسان بذلك من ظلم الإنسان ، إذ لا يحقق العدل الكامل إلا شريعة الله ، وبدون شريعة الله يتحكم فرد من أمة في أمة ، أو تظلم طبقة طبقة بالتناوب ، وفي كل صورة من صور الحكم تغيب فيها صورة الحكومة الإسلامية وحقيقتها يكون تعبيد الإنسان للإنسان حتى في أكثر النظم ديموقراطية .

وأخيرا نقول : إنه بلا حكومة إسلامية تكون عرى الإسلام في حالة نقض وفي الحديث : (تنقض عرى الإسلام عروة عروة فأولها نقضاً الحكم وآخرها الصلاة) وما نقضت بقية عرى الإسلام إلا بعد أن نقضت العروة الأولى ، إذ ما دامت العروة الأولى مستمسكة فإن عرى الإسلام كلها قائمة .

وما دامت هذه كلها من الواجبات ولا تتم إلا بقيام الحكومة الإسلامية ، فقد أصبح قيام حكومة الإسلام فرضا ، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، والعمل من أجلها فريضة عينية على كل مسلم إذ أن فرض الكفاية يبقى فرض عين حتى يقوم .



والأساس الذي تقوم عليه الحكومة الإسلامية هو التزامها بشريعة الله ، وانبثاقها عن إرادة المسلمين ، وتنفيذها لأحكام الله ، وقضاؤها على نوازع الهوى المخالفة لشريعة الله ، وصلاح أفرادها في أنفسهم .

إن الحكم الصالح لا يمكن أن يكون بلا رجال صالحين ، وبدون وجود رجال من هذا النوع على رأس الحكم وأجهزته فلا إسلام ، وكل جهاز من أجهزة الحكم لا بد له من مناهج ، فبدون كون هذه المناهج إسلامية فلا إسلام ، وما لم تصبح هذه المناهج قائمة في عالم الواقع فلا إسلام .

وما لم تُصبغ الدولة كلها شعبا وحكومة ، وأجهزةً بصبغة الإسلام فلا إسلام ...

وما لم تلتزم الأمة في تصوراتها كلها : سواء الثقافية ، أو الحضارية ، أو المدنية بالإسلام فلا إسلام . وبدون هذا فإن حكومة الإسلام لا تكون قائمة .

وما لم تنبثق هذه الحكومة عن إرادة المسلمين فانها تكون ظالمة ، سالبة الحق من أهله .

والحكومة الاسلامية حكومة فريدة في نوعها ، لأن المعاني التي تقوم عليها فريدة ، فللإسلام نظرته الخاصة في موضوع الأمة والوطن ، والرئاسة العليا للدولة ،

والتنظيم الحربي .

كما أن للإسلام سياسته الاقتصادية ، والعسكرية ، والتشريعية ، والثقافية المنفردة .

كما أن الأجهزة التي تنشأ نتيجة لهذا كله تختلف سواء في نوعية رجالها أو في غاياتها . وينتج عن هذا كله أن نظرية الإسلام في القضايا العامة ، نظريـة فريدة ، هذه النظرية بها وحدها صلاح الإنسان والناس .

وقد جربت الإنسانية كل ما خطر على بالها لإسعاد الناس وما زالت تجرب ، ولم ينتج عن ذلك إلا الألم والقلق والفوضى والطغيان ، والظلم وسفك الدماء ، واحتقار الكرامة الإنسانية ، وإهدار القيم ، وليس أمام الإنسانية خيار إلا في سلوك طريق الله العالم بما يصلحها ويفسدها ، ويسعدها ويشقيها .

إن البشرية ما لم يستلم قيادتها رجال صالحون عادلون ، حكماء علماء أنقياء ، يسيرون بها على معالم شريعة عادلة كاملة شاملة ، نحو هدف راق سام عظيم ، فإنها ستبقى تعيش في فوضاها الرهيبة المؤلمة .

وسنحاول في هذا الفصل أن نرسم صورة الحياة العامة التي يقيمها الإسلام ليعرف المسلم طريقه إلى قيادة البشرية وإنقاذها .

وسنكتب في هذا الفصل بابين وخاتمة .

الباب الأول : أوليات الحياة الإسلامية العامة : الأمة ـــ الخلافة ـــ الوطن ...

الباب الثاني : السياسات العامة :

١ ـــ السياسة الإقتصادية

٢ ـــ السياسة التعليمية والإعلامية

٣ ـــ السياسة العسكرية

٤ ـــ السياسة الجزائية

خاتمة : نلقي فيها نظرة سريعة على أجهزة الدولة الإسلامية .

إن هناك أمة هي الأمة الاسلامية لها وطن هو دار الإسلام والعدل ، تنبثق عنها حكومة متمثلة بالخلافة لها سياسة تشريعية واضحة ، وسياسة اقتصادية عادلة ، وسياسة عسكرية عالية ، وسياسة تعليمية ناضجة ، وسياسة إعلامية سامية ؛ وعليها واجبات داخلية وخارجية صريحة ، ولها أجهزتها التي تنسجم مع هذا كله ، وهذا ما اردنا بيانه في هذا الفصل .

الباب الأول
أوليات الحياة الإسلامية العامة

الأمة

١ - يقول الله تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» ويقول : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

إن الأمة التي ننتسب اليها هي أمة المرسلين جميعاً من لدن آدم حتى محمد عليهم الصلاة والسلام ، فالرسل وأتباعهم على مدار التاريخ البشري يشكلون أمة واحدة، هذه الأمة الواحدة هي الأمة الإسلامية ، وهي التي ينتسب إليها المسلم ولا يجوز أن ينتسب إلى غيرها انتساب إخاء وولاء .

هذه الأمة التي تدين لله بالاسلام على مدار التاريخ مرت بمرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة ما قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

والمرحلة الثانية : المرحلة التي تبدأ ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم .

فقبل محمد صلى الله عليه وسلم كانت الرسالة الإسلامية تظهر بشكل قومي ، أي أن رسل الله كانوا يرسلون إلى أقوامهم خاصة ، فكان الرسول ينادي قومه فقط ، كما قص الله قصتهم علينا في القرآن من نوح إلى هود إلى شعيب إلى صالح . كلهم كان نداؤهم يا قوم ، وعيسى عليه السلام يروون عنه قوله (بعثت لخراف إسرائيل الضالة) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة) .

أما ببعثته صلى الله عليه وسلم فقد انتقلت الدعوة الإسلامية من الإطار القومي إلى الإطار الإنساني ، فأصبح النداء : « يا أيها الناس » « يا أيها الإنسان » وأصبحت ، الإنسانية كلها ملزمة باتباع رسول واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون رسول بعده ، ولا يقبل اتباع رسول قبله « محمد رسول الله وخاتم النبيين » (لا نبي بعدي) (لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني) « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

وبهذا أصبحت شعوب البشر كلها ، على اختلاف أجناسها وألوانها وألسنتها ،

من أبيض لأصفر لأحمر لأسود ، في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا وأقيانوسيا و ...
أمة لرسول واحد ، يفترض عليها أن تتبعه وتقتدي به ، وتسلم لله بشريعته ودينه ، فإن استجابت هذه الشعوب كلها كانت أمة واحدة ، وإن لم تستجب هذه الشعوب كلها ، فمن استجاب منها أو من أفرادها هم الذين يشكلون الأمة الإسلامية ، فكل مسلم فرد وعضو من اعضاء الأمة الإسلامية ، وما لم يقر هذا الإقرار ، ويشعر بهذا الشعور ، فليس مسلما إذ من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ، التي يعتبر انكار فرد من أفرادها كفرا ، هذه الحقيقة التي هي أن الأمة الإسلامية أمة واحدة ، وكل فرد من أفرادها عضو فيها .

٢ — ومظاهر وحدة الأمة الإسلامية مظاهر كثيرة ومتشابكة لامثيل لها أبدا ، ويرتبط المسلمون بهذه المعاني ارتباطا يشكل وحدة تقوم على عوامل كل منها يؤكد الآخر ، حتى يصل الأمر إلى حد الإنصهار الكامل ، وهذه بعض مظاهر هذه الوحدة :

أ — **وحدة العقيدة** : إن / لا إله إلا الله محمد رسول الله / هي أصل وحدة المسلمين ، متى قالها الإنسان كان من هذه الأمة ، وما دام خارج دائرتها فليس منها . إنه متى أسلم الإنسان وجهه لله ، على طريقة رسول الله ﷺ فقد تحقق بالعبودية لله ، وتحرر من رق ما سواه ، وإذ كان الله واحدا ، فقد وحدت العبودية له قلوب المسلمين من كل لون وجنس .

ب — **وحدة العبادة** : إن الله الذي آمنا به نحن المسلمين علمنا أنه خلقنا لعبادته « وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون » ولا يتحقق الايمان بالله شعوريا وعملياً إلا بالعبادة ، ولا تقوم إنسانية الإنسان إلا بها . والعبادة التي فرضت على المسلمين جميعاً واحدة ، يطالب فيها كل فرد منهم رجلا كان أو امرأة ، وكلما كان الإنسان أكثر إسلاماً كان أكثر عبادة في حدود سنة رسول الله ﷺ ولهذا المعنى أثره الكبير في تأكيد وحدة المسلمين ، وزيادة على ذلك فإن في العبادات الإسلامية معاني كثيرة ، تزيد وحدة الأمة الإسلامية قوة ومتانة وصلابة سبك : فوحدة القبلة حيث تلتقي قلوب المسلمين كل يوم خمس مرات متجهة إلى مركز واحد ترتبط عنده ، أمر له أثر كبير في إشعار المسلم أنه مرتبط ببقية المسلمين ، وصوم شهر واحد في العام يشارك فيه كل مسلم نوع من الحياة واحد ، ونوع من السلوك واحد ، وتميز عن العالم كله في وقت واحد ، له كذلك أثر عميق في توكيد أخوة الإسلام والإيمان ، وفي الحج يلتقي المسلمون جميعاً كل عام ، إذ أن الحج يفترض على كل المسلمين

المستطيعين ولا يخلو بلد من بلدان الإسلام من مسلم يفترض عليه الحج سنويا ، وبهذا تلتقي جسوم المسلمين ، ولغاتهم، لباسهم واحد، أعمالهم واحدة ، كلماتهم واحدة، إنه بالحج ينصهر المسلمون في بوتقة الأمة الإسلامية حتى لا يكون لأحد كيان إلا في ذاتيته كمسلم ،إن وحدة العبادة عدا عن كونها أصلا في وحدة الأمة، فإنها كذلك شرعت بحيث تجعل المسلم ينصهر تلقائيا في بوتقة الأمة الإسلامية .

ج ـ وحدة السلوك في العادات والأخلاق :

إن كل مسلم له في الرسول ﷺ أسوة حسنة ، وينشأ عن هذا المعنى ، وحدة سلوكية في الآداب كاملة . فالمسلمون جميعاً يأكلون على هيئة واحـــدة ، وينامون على هيئة واحدة ، واذا استيقظوا يتصرفون تصرفات واحدة ، وحتى إذا ارادوا الغائط فإن لهم أدبا واحدا ، آدابهم في السلام واحدة ، وفي الصحبة واحدة ، وفي المرض واحدة ، وإذا عطس المسلم الهندي يعطس على هيئة واحـــدة مع المسلم العربي ، ويقابلان هذه الظاهرة بنوع من الأدب واحد ، وإذا مشوا تجد طريقتهم في المشي واحدة ، هذا مع وحدة في الأخلاق الأساسية للإنسان ، من صبر ، لصدق ، لكرم، لوفاء ، لاستقامة .... إنه لولا تفاوت الناس في الخلقة والذكاء لكان المسلمون نسخاً متشابهة ، إنه لا توجد دولة من الدول لها هذه الوحـــدة في العادت والسلوك والأخلاق ، كما لمجموعة الشعوب التي تشكل الأمة الإسلامية .

د ـ وحدة التاريخ :

إن تاريخ المسلم لا يرتبط بطين الوطن ، ولا بصباغة اللون، ولا بلغة الجنس الذي ينتسب إليه ، إن تاريخ المسلم الذي ينتسب إليه ويعتز به هو تاريخ الإسلام، ودعاته رسل الله عليهم الصلاة والسلام، فأنا مسلم يرتبط تاريخي بآدم ونوح وعيسى وموسى ومحمد ﷺ وبمن اتبعهم وآمن بهم وأسلم معهم لله ، هؤلاء فقط أربط تاريخي بهم واعتز بالانتساب إلى هذا التاريخ، ولا يربطني بغيره من التاريخ أي رباط سوى رباط الواقع المجرد ، إن العربي لا يربطه بتاريخ الجاهلية العربية أي رباط تقوم عليه نتائج من الولاء أو الاعتزاز أو الفخر،بل ، يفتخر بالاسلام ويخجل مما سواه ، وكل مسلم موقفه هذا الموقف ، لا تربطه بأية جاهلية أية رابطة ، ولا بالكافرين أي رباط ولا بغير المسلمين مشاعر .

إن تاريخ المسلم هو تاريخ الأمة الإسلامية ، أي تاريخ الرسل، وهذا شيء يملأ المسلم عزة وكرامة ، إذ ليس له مع الشر صلات ولا وشائج .

وهذه عقيدته التي يلقى الله عليها : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » .

(إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء) .

(لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان) .

إن أي إعتزاز من قبل المسلم بوشائج غير وشائج الإسلام يخرجه عن روح الاسلام ، وهو بحد ذاته ارتكاس وانتكاس من وضع سليم صحيح ، إلى حضيض قذر .

هـ ــ وحدة اللغة :

إن الإسلام عقيدة وعبادة وسلوك ، واللغة إنما هي تعبير عن هذه المعاني، فهي وسيلة لا غاية لذلك أرسل كل نبي بلغة قومه « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » وقد ذكر الله في القرآن أن من آياته التي تدل عليه اختلاف الألسنة والألوان « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » فشيء عادي إذن تعدد اللغات،غير أن الإسلام والقرآن كونهما كانا بلغة العرب في رسالة محمد ﷺ وكون العالم كله مكلفا بهذه الرسالة ولا تفهم هذه الرسالة إلا بفهم اللغة العربية ، كان شيئا منطقياً أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبشر جميعا ، وللأمة الإسلامية خاصة إذ أنها وحدها التي استجابت لدعوة الله يقول الشافعي : (إن الله تعالى فرض على جميع الأمم تعلم اللسان العربي بالتبع لمخاطبتهم بالقرآن والتعبد له) ويقول فقهاء الحنفية : (للعربية فضل على سائر الألسن وهو لسان أهل الجنة من تعلمها أو علمها غيره فهو مأجور) إن الإنسان كلما ازداد معرفة باللغة العربية كلما كان أقدر على فهم الإسلام، ولذلك خوطبت بها الأمم كما قال الشافعي رحمه الله تعالى،ولا يعني كون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للأمة الإسلامية إفناء بقية اللغات،بل المسألة هكذا: لا بد للأمة الإسلامية من لغة مشتركة تتفاهم بها ، وليس معقولا أن تكون هذه اللغة غير العربية ، وهي لغة عبادتهم ، وتكون إذن في هذه الحالة لغة الإنسان الأصلية لغة ثانية له يدرج بها مع أبناء جنسه ، كما يدرج العربي بالعامية ، وعندما نقول إن العربية هي اللغة الرسمية لا يعني هذا إثارة عصبية ، فحاشا ، بل المسألة أن تعلم العربية فخر لمن تعلمها يقول عليه الصلاة والسلام :

(يا أيها الناس إن الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من

أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي) .

و — وحدة المشاعر والتصورات والأفكار والطريق :

إن طريق المسلمين في الحياة واضحة متميزة هي طريق النبيين : « إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » (تركتكم على الجادة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك) وقال عمر رضي الله تعالى عنه : (تُركتم على الواضحة ليلها كنهارها) وقال علي رضي الله تعالى عنه (تُركتم على الجادة منهج عليه أم الكتاب) وقال عليه الصلاة والسلام (من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم) .

وكما أن للأمة الإسلامية طريقها المتميز ، فلها فكرها المتفرد، إذ أن أفكارها ومفاهيمها كلها مقيدة بكتاب الله . يقول الله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم » « هذا بصائر للناس » وعلى هذا فتصورات المسلمين وأفكارهم كلها تنبع من أن القرآن هو البصيرة التي يرون بها الأمور .

وعدا عن هذين فإن مشاعر الأمة الإسلامية واحدة ، إن للنفس البشرية حالات مرضية طببها الإسلام ، وحرم على المسلم أن يصاب بها ، وللنفس البشرية حالات صحة هي مجموع الصفات الطيبة للنفس ، فرضها الإسلام على المسلم ، فهذه أولى حالات التقاء الشعور،ويترقى هذا المعنى عند المسلم بترقي عواطفه وانفعالاته الإسلامية، وكلما ارتفعت عواطف المسلمين كلما تلاقت ، وكلما ازداد تأثرهم بالإسلام كلما ازدادت مشاعرهم تلاقيا .

ز — وحدة الدستور والقانون :

إن منابع الدستور والقانون للأمة الإسلامية هو القرآن والسنة ، ولا يجوز أن يكون للمسلمين قانون يخالف شرع الله ، فعلى هذا يكون للمسلمين قانون جنائي واحد وقانون معاملات واحد ، وقانون للأحوال الشخصية واحد ، وقانون دولي واحد ، وصحيح أن نصوص الكتاب والسنة قد يختلف في فهمها المجتهدون،إلا أن من قواعد التشريع الإسلامي أن خليفة المسلمين بالتعاون مع مجلس شوراه يحق له أن يرجح فهماً اجتهادياً على بقية الفهوم ، ويكون لهذا الترجيح قوة القانون ، وبذلك يكون للأمة الإسلامية تشريع واحد ، دستوري وقانوني .

ح — وحدة القيادة :

إن الأمة الإسلامية لها قائد واحد في الأصل ، هذا القائد هو رسول الله ﷺ الذي

له على المسلمين فرض الطاعة ، فاذا ما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فإن على المسلمين اختيار وانتخاب خليفة له ، يقيم شريعة الله ، ويقود المسلمين لاستكمال نشرها ، ويسوس المسلمين بها ، وطاعته في حدود الشريعة فريضة ، فعلى كل مسلم في العالم أن يعطيه ولاءه وطاعته ، ولا يجوز أبداً بحال من الأحوال أن يبقى المسلمون بلا خليفة وإمام ، فوجوده رمز وحدتهم ، ووحدتهم رمز قوتهم ،وقوتهم هي سبيلهم لفرض سلطان الله على الأرض وإصلاح فسادها .

* * *

بهذا كله ، بوحدة العقيدة ، والعبادة ، والسلوك ، والتاريخ ، واللغة ، والتشريع ، والقيادة ، تقوم وحدة الأمة الإسلامية أمتن ما تكون ، وأعظم ما تكون ، وأقوى ما تكون . فالمسلمون أمة واحدة أبناؤها إخوة « إنما المؤمنون إخوة » وولاؤهم بعضهم لبعض « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » جسد واحد وروح واحدة (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) ولا يمكن أن يعطوا لأحد من غير المسلمين مودة وإخاءً وولاءً.

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

٣ — ومن هنا نعلم أن المسلم لا يرتبط عاطفيا ، أو عقليا ، أو عمليا ، أو شعوريا ، إلا بالأمة الإسلامية ، فارتباطه أولاً بأمته الإسلامية ، منها يستمد جنسيته ، ولها يسخر طاقاته ، وعلى أساس ذلك يعطي ولاءه وأخوته ، لا لقبيلة ، ولا لجنس ، ولا لأرض ، ولا لعشيرة ، وفي ذلك يقول صاحب (معالم في الطريق) تحت عنوان جنسية المسلم عقيدته ما يلي :

(جاء الإسلام إلى هذه البشرية بتصور جديد لحقيقة الروابط والوشائج ، يوم جاءها بتصور جديد لحقيقة القيم والاعتبارات ، ولحقيقة الجهة التي تُتلقى منها هذه القيم وهذه الاعتبارات .

جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى ربه ، وليجعل هذه السلطة هي السلطة الوحيدة التي يتلقى منها موازينه وقيمه ، كما تلقى منها وجوده وحياته ، والتي يرجع إليها بروابطه ووشائجه ، كما أنه من إرادتها صدر وإليها يعود .

جاء ليقرر أن هنالك وشيجة واحدة تربط الناس في الله، فإذا انبتّت هذه الوشيجة فلا صلة ولا مودة : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » ...
(المجادلة : ٢٢)

وأن هناك حزباً واحداً لله لا يتعدد ، وأحزاباً أخرى كلها للشيطان والطاغوت : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان ، كان ضعيفاً » ....

وأن هناك طريقاً واحداً يصل إلى الله ، وكل طريق آخر لا يؤدي إليه : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ...

وأن هناك نظاماً واحداً هو النظام الإسلامي ، وما عداه من النظم فهو جاهلية : « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ...

وأن هناك شريعة واحدة هي شريعة الله ، وما عداها فهو هوى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ...

وأن هناك حقاً واحداً لا يتعدد ، وما عداه فهو الضلال : « فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟ » ..

وأن هناك داراً واحدة هي دار الإسلام ، تلك التي تقوم فيها الدولة المسلمة ، فتهيمن عليها شريعة الله ، وتقام فيها حدوده ، ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضاً . وما عداها فهو دار حرب ، علاقة المسلم بها إما القتال ، وإما المهادنة على عهد أمان . ولكنها ليست دار إسلام . ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين :

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر — إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق — والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » ..

بهذه النصاعة الكاملة ، وبهذا الجزم القاطع جاء الإسلام . جاء ليرفع الإنسان ويخلصه من وشائج الأرض والطين ، ومن وشائج اللحم والدم — وهي من وشائج

الأرض والطين — فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله ، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الإرتباط في الله . ولا جنسية للمسلم إلا عقيدته التي تجعله عضواً في (الأمة المسلمة) في (دار الاسلام) . ولا قرابة للمسلم إلا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله ، فتصل الوشيجة بينه وبين أهله في الله ...

ليست قرابة المسلم أباه وأمه وأخاه وزوجه وعشيرته . ما لم تنعقد الآصرة الأولى في الخالق . فتتصل من ثم بالرحم :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » ...

ولا يمنع هذا من مصاحبة الوالدين بالمعروف مع اختلاف العقيدة ما لم يقفا في الصف المعادي للجبهة المسلمة . فعندئذ لا صلة ولا مصاحبة . وعبد الله بن عبد الله بن أبي يعطينا المثل في جلاء :

روى ابن جرير بسنده عن ابن زياد قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — عبد الله بن عبد الله بن أبي قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول أبي ؟ — بأبي أنت وأمي — قال : يقول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل : فقال : فقد صدق والله يا رسول الله . أنت والله الأعز وهو الأذل . أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بوالده مني لئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتيهما به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا) .. فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ، قال : أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لا يأويك ظلها ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله . فقال : يا للخزرج إبني يمنعني بيتي فقال : والله لا يأويه أبدا إلا بإذن منه . فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخلن إلا بإذن من الله ورسوله . فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : (إذهبوا إليه فقولوا له : خله ومسكنه) . فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم ...

فإذا انعقدت آصرة العقيدة ، فالمؤمنون كلهم إخوة ، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر « إنما المؤمنون إخوة » ... على سبيل القصر والتوكيد .

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » .

وهي ولاية تتجاوز الجيل الواحد إلى الأجيال المتعاقبة ، وتربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها ، برباط الحب والمودة والولاء والتعاطف المكين :

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون،والذين جاؤا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » . . .

* * *

ويضرب الله الأمثال للمسلمين بالرهط الكريم من الأنبياء الذين سبقوهم في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان .

« ونادى نوح ربه قال : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألْن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » . . .

« وإذ ابتلى إبراهيمَ ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماماً : قال ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين » . . .

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر .. قال : ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » . . .

ويعتزل إبراهيم أباه وأهله حين يرى منهم الإصرار على الضلال .

« وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا » . . .

ويحكي الله عن إبراهيم وقومه ما فيه أسوة وقدوة : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » . . .

والفتية أصحاب الكهف يعتزلون أهلهم وقومهم وأرضهم ليخلصوا لله بدينهم ، ويفروا إلى ربهم بعقيدتهم ، حين عز عليهم أن يجدوا لها مكانا في الوطن والأهل والعشيرة .

« إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض ، لن ندعوا من دونه إلهاً . لقد قلنا إذاً شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون — إلا الله — فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مرفقاً » ...

وامرأة نوح وامرأة لوط يفرق بينهما وبين زوجيهما حين تفترق العقيدة « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : إدخلا النار مع الداخلين » ...

وامرأة فرعون على الضفة الأخرى : « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين » ...

وهكذا تتعدد الأمثال في جميع الوشائج والروابط .. وشيجة الأبوة في قصة نوح ، ووشيجة البنوة والوطن في قصة أصحاب الكهف ، ورابطة الزوجية في قصص امرأتي نوح ولوط وامرأة فرعون ..

وهكذا يمضي الموكب الكريم في تصوره لحقيقة الروابط والوشائج .. حتى تجيء الأمة الوسط ، فتجد هذا الرصيد من الأمثال والنماذج والتجارب ، فتمضي على النهج الرباني للأمة المؤمنة ، وتفترق العشيرة الواحدة ، ويفترق البيت الواحد ، حين تفترق العقيدة ، وحيث تَنْبَتُّ الوشيجة الأولى . ويقول الله سبحانه في صفة المؤمنين قوله الكريم : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » ..

وحين انبتت وشيجة القرابة بين محمد — صلى الله تعالى عليه وسلم — وبين عمه أبي لهب ، وابن عمه عمرو بن هشام (أبو جهل) وحين قاتل المهاجرون أهلهم وأقرباءهم وقتلوهم يوم بدر .. حينئذ اتصلت وشيجة العقيدة بين المهاجرين والأنصار ، فإذا هم أهل وأخوة ، واتصلت الوشيجة بين المسلمين العرب وإخوانهم : صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي . وتوارت عصبية القبيلة ، وعصبية الجنس ، وعصبية الأرض . وقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (دعوها فإنها منتنة) ..

وقال لهم : (ليس منا من دعا إلى عصبية . وليس منا من قاتل على عصبية . وليس منا من مات على عصبية) .. فانتهى أمر هذا النتن .. نتن عصبية النسب ، وماتت هذه النعرة .. نعرة الجنس . واختفت تلك اللوثة .. لوثة القوم . واستروح البشر أرج الآفاق العليا ، بعيداً عن نتن اللحم والدم ، ولوثة الطين والأرض .. منذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض ، إنما عاد وطنه هو (دار الإسلام) .. الدار التي تسيطر عليها عقيدته ، وتحكم فيها شريعة الله وحدها . الدار التي يأوي اليها ويدافع عنها ، ويستشهد لحمايتها ومدّ رقعتها .. وهي (دار الإسلام) لكل من يدين بالإسلام عقيدة ، ويرتضي شريعته شريعة . وكذلك لكل من يرتضي شريعة الإسلام نظاما – ولو لم يكن مسلماً – كأصحاب الديانات الكتابية الذين يعيشون في (دار الاسلام) ..

والأرض التي لا يهيمن فيها الإسلام ولا تحكم فيها شريعته هي (دار الحرب) بالقياس إلى المسلم ، وإلى الذمي المعاهد كذلك .. يحاربها المسلم ولو كان فيها مولده ، وفيها قرابته من النسب وصهره ، وفيها أمواله ومنافعه .

وكذلك حارب محمد – صلى الله عليه وسلم – مكة وهي مسقط رأسه ، وفيها عشيرته وأهله ، وفيها داره ودور أصحابه وأموالهم التي تركوها ، فلم تصبح دار إسلام له ولأمته إلا حين دانت للإسلام وطبقت فيها شريعته .

هذا هو الإسلام .. هذا هو وحده .. فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ، ولا ميلاداً في أرض عليها لافتة إسلامية ، وعنوان إسلامي ،ولا وراثة مولد في بيت أبواه مسلمان، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ...

هذا هو وحده الإسلام . وهذه هي وحدها دار الإسلام . لا الأرض ولا الجنس ، ولا النسب ولا الصهر . ولاالقبيلة ولا العشيرة ...

لقد أطلق الإسلام البشر من اللصوق بالطين ليتطلعوا إلى السماء ، وأطلقهم من قيد الدم .. قيد البهيمة .. ليرتفعوا في عليين .

وطن المسلم الذي يحن إليه، وجنسية المسلم التي يعرف بها، ليست جنسية حكم، وعشيرة المسلم التي يأوي إليها ويدفع عنها ليست قرابة دم . وراية المسلم التي يعتز بها ، ويستشهد تحتها ، ليست راية قوم . وانتصار المسلم الذي يهفو إليه ويشكر الله عليه ليس غلبة جيش . إنما هو كما قال الله عنه : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » ..

إنه النصر تحت راية العقيدة دون سائر الرايات . والجهاد لنصرة دين الله وشريعته لأي هدف من الأهداف ، والذياد عن (دار الاسلام) بشروطها تلك لا أية دار . والتجرد بعد هذا كله لله . لا لمغنم ولا لسمعة ، ولا حمية لأرض أو لقوم أو ذود عن أهل أو ولد ، إلا لحمايتهم من الفتنة عن دين الله .

عن ابي موسى رضي الله عنه قال : سئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ قال : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) ..

وفي هذا وحده تكون الشهادة ، لا في أية حرب ، لاي هدف غير هـــذا الهدف الواحد ... لله ..

وكل أرض تحارب المسلم في عقيدته ، وتصده عن دينه ، وتعطل عمل شريعته ، فهي (دار حرب) ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته .. وكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعته ، فهي (دار اسلام) ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة ، ولا قوم ولا تجارة .

الوطن : دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة ، وشريعة من الله.. هذا هو معنى الوطن اللائق (بالإنسان) .

والجنسية : عقيدة ومنهاج حياة . وهذه هي الآصرة اللائقة بالآدميين .

إن عصبية العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية صغيرة متخلفة .. عصبية جاهلية عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي ، وسماها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — (منتنة) بهذا الوصف الذي يفوح منه التقزز والاشمئزاز .

ولما ادعى اليهود أنهم شعب الله المختار بجنسهم وقومهم ، رد الله عليهم هذه الدعوى ، ورد ميزان القيم إلى الإيمان وحده على توالي الأجيال ، وتغاير الاقوام والأجناس والاوطان :

« وقالوا : كونوا هودا أونصارى تهتدوا . قل : بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة . ونحن له عابدون » ...

فأما شعب الله المختار حقًا فهو الأمة المسلمة التي تستظل براية الله على اختلاف ما بينها من الأجناس والأقوام والألوان والأوطان . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ...

الأمة التي يكون من الرعيل الأول فيها أبو بكر العربي . وبلال الحبشي . وصهيب الرومي . وسلمان الفارسي .واخوانهم الكرام . والتي تتوالى أجيالها على هذا النسق الرائع .. الجنسية فيها هي العقيدة ، والوطن فيها هو دار الإسلام . والحاكم فيها هو الله . والدستور فيها هو القرآن .

* * *

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله ، والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوشاب التصورات الجاهلية الدخيلة ، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية : الشرك بالأرض . والشرك بالجنس. والشرك بالقوم .. والشرك بالنسب . والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة . تلك التي يجمعها الله سبحانه في آية واحدة ، فيضعها في كفة ، ويضع الإيمان ومقتضياته في كفة أخرى ، ويدع للناس الخيار : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » ...

كذلك لا ينبغي أن تقوم في نفوس أصحاب الدعوة إلى الله تلك الشكوك السطحية في حقيقة الجاهلية ، وحقيقة الإسلام ، وفي صفة دار الحرب ودار الإسلام .. فمن هنا يؤتى الكثير منهم في تصوراته ويقينه .. إنه لا إسلام في أرض لا يحكمها الإسلام ، ولا تقوم فيها شريعته . ولا دار إسلام إلا التي يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونه ؛ وليس وراء الإيمان إلا الكفر ، وليس دون الإسلام إلا الجاهلية وليس بعد الحق إلا الضلال .. أ هـ .

٤ ــ هذه الأمة الإسلامية في واقعها العملي منذ بعثة رسول الله ﷺ أمة محمد ﷺ وهي أفضل مظهر للأمة الإسلامية في كل العصور .قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وقال عليه السلام (أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) رواه الترمذي وروى البخاري عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ : (مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل

استأجر قوماً يعملون له عملاً ، فعملوا له إلى نصف النهار فقالوا لاحاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم ، فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا : كل ما عملنا باطل ، ولك الأجر الذي جعلت لنا ، فقال : أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا فاستأجر قوما أن يعملوا بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كلاهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور .

وروى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأوتي أهل التوراة التوارة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر فعجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتابين : أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين ، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً . ونحن كنا أكثر عملاً ، قال الله تعالى : هل ظلمتكم من أجركم شيئا ؟ قالوا لا قال : فهو فضلي أوتيه من أشاء) .

وروى الشيخان والنسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : (أضل الله تعالى عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والاحد ، وكذلك هم فيه تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة. المقضي لهم قبل الخلائق) .

وفي رواية : (نحن الآخرون السابقون ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له) .

والخيرية بهذه الأمة تبقى إلى قيام الساعة يقول عليه السلام : (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوله) . رواه الترمذي .

٥ ــ هذه الأمة المسلمة لا تجتمع إلا على حق فحيثما اجتمعت على شيء كان ذلك هو الحق يقول عليه السلام (لن تجتمع أمتي على ضلالة فعليكم بالجماعة فإن يــد الله على الجماعة) الطبراني ..

وعلى هذا فلزوم جماعة المسلمين لزوم الحق ، ومفارقة الجماعة مفارقة الحق ، ولذلك

قال عليه السلام : (من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه) رواه أبو داود .

وليست الجماعة اجتماع الرعاع الجهلة أو الفسقة ، فهؤلاء لا يمثلون الجماعة ، وإنما تتمثل الجماعة بالعارفين بالله ، العلماء بأحكامه ، العاملين بها الدعاة اليها ، الربانيين ولو كان واحدا ، قال ابن مسعود : (الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك).

وقد تختلف هذه الأمة، وقد يضل من ذراريها كثير، ولكن الله وعد مع هذا أن يبقي في هذه الأمة مظاهر الخير فيها ، ومظاهر الكمال منها :

روى مسلم عن رسول الله ﷺ : سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها .

وروى الشيخان عن رسول الله ﷺ :

(لا يزال أناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) ...

وقال تعالى : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » .

وقد تتمثل هذه الأمة بأفراد وقد تتمثل بآلاف وقد تتمثل بالبشرية كلها .

٦ - والله عز وجل بعث محمدا للناس جميعا : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » « يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » فالبشرية كلها أمة دعوته ، عليها أن تستجيب له لتدخل في الأمة الإسلامية ، الأمة التي استجابت لدعوات الأنبياء ، والمسلمون بالنيابة عن رسول الله ﷺ مكلفون أن يدعوا الناس جميعاً للدخول في هذا الدين ، فإما استجابوا ، وإما خضعوا لسلطان المسلمين بدفع الجزية ، وإما الحرب حتى يحكم الله بينهم وبين أعداء الله ، فالأمة الإسلامية عليها أن تبقى في حركة دائمة لإدخال الناس في دين الله طوعاً « لا إكراه في الدين » أو إخضاعهم لسلطانه قهرا « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » وقد وعد الله هذه الأمة التمكين والنصر والظفر والغلبة فقال : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » وقد كان من ذلك الكثير وسيتمم الله وعده حتى تخضع الدنيا بمن فيها لأمة الإسلام وقد ورد في ذلك الكثير عن رسول الله ﷺ وإنه لواقع .

٧ - وليس المسلم بالخيار بين أن ينتسب إلى الأمة الإسلامية ويعطي على ذلك ولاءه وإخاءه ، ويسخر من أجلها طاقاته ، وبين أن ينتسب لقومه أو وطنه أو عشيرته بصرف

النظر عن الإسلام ، ويعطي على ذلك ولاءه وإخاءه وطاقاته .

إن المسلم إذا فعل هذا لم يعد من المسلمين ولا كرامة بل أصبح كافراً أو منافقاً والآيات في ذلك كثيرة. إن على المسلم أن يستمسك بجماعة المسلمين أى بالأمة الإسلامية ، حتى إذا لم يبق للمسلمين جماعة أي لم يعد أحد منهم على الحق الكامل ، ولم يستطع أن يفعل شيئاً فعندئذ يعتزل الناس جميعاً ويكون بذلك أمة وحده .

روى الشيخان وأبو داود عن حذيفة قال : (كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله : إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن قلت : وما دخنه يا رسول الله ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها فقلت يا رسول الله ؟ فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) وليس في الحديث حجة على اعتزال أهل الحق بل هو حجة على من اعتزل أهل الحق حين وجودهم وإنما الحديث حجة على من شارك أهل الباطل باطلهم مهما كثروا وزادوا .

٨ ــ وما له علاقة بهذه الأمة المسلمة يحل بالشورى بين أفرادها وقد جعل الله عز وجل الشورى صفة أساسية من صفات هذه الأمة كالصلاة والزكاة قال تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » . هكذا: « وأمرهم شورى بينهم » .

أي أمر المؤمنين شورى بين المؤمنين فوسعت هذه الآية الشورى إلى أبعد أبعادها فكل ما له علاقة بالمسلمين عامة يستشار فيه المسلمون وقد جرت السوابق الدستورية في زمن الخلافة الراشدة على هذا فقد أخرج البيهقي وابن السمعاني عن ابن شهاب قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نزل الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يقتفي حدة عقولهم . وعند البيهقي عن ابن سيرين قال: إن كان عمر بن الخطاب ليستشير حتى كان ليستشير المرأة فربما أبصر في قولها الشيء يستحسنه فيأخذ به (وفي مناقشة جرت بين أبي بكر وعمر وأبو بكر الخليفة في قضية أرض أقطعها أبو بكر إلى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ولم يوافق عمر يقول عمر لأبي بكر رضي الله عنه :

أخبرني عن هذه الأرض التي اقتطعتها هذين الرجلين أرض هي لك خاصة أم هي بين المسلمين عامة ؟ قال : بل هي بين المسلمين عامة قال : فما حملك أن تخص هذين لها دون جماعة المسلمين ؟ قال : استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا علي بذلك قال : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أوكل المسلمين أوسعت مشورة ورضا فقال أبو بكر : قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا مني ولكنك غلبتني) ويلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يستشير عامة الناس في بعض القضايا العامة فقد روى الإمام أحمد (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار الناس في الأسارى يوم بدر) وكان يفعل هذا في كل مرة يحزب المسلمين أمر يوم بدر وأحد والخندق ...

ويلاحظ أن كثيرا من القضايا تحتاج إلى أصحاب اختصاص يستشارون بها ويعطون فيها آراءهم ، ومن ثم فإننا نجد أن سوابق دستورية كثيرة في تاريخ الخلافة الراشدة تؤكد هذا المعنى . فقد كتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ شاور في الحرب فعليك به (وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وقد أرسل إليه عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خويلد الأسدي : قد وجهت إليك أو أمددتك بألفي رجل عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خويلد فشاورهما في الحرب ولا تولهما شيئا) .

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن الشورى في الاسلام حيث لا نص عن الله ورسوله ﷺ ففيها طابع الاجتهاد من حيث معرفة حكم الله في القضية المطروحة على بساط البحث ، فلا بد إذن أن يكون هناك رجال يمثلون المجلس الأعلى لشورى المسلمين ، بحيث إذا عرضت عليهم قضية تحتاج إلى معرفة حكم الله عرفوه واستنبطوه تحقيقا لأمر الله « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وإذا أشار أهل الاختصاص بشيء فيه مساس بأحكام الله عرفوه وردوه أو أصلحوه ، وهذا المجلس إليه ترجع أمور الدولة كلها . فلئن أوجب الله على الناس طاعة أولي الأمر فإن على ولي الأمر أن يطيع أهل الرأي هؤلاء ، وقد عبر عن هذا المعنى عمر بن الخطاب تمام التعبير إذ قال : (فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا بهلهم من مكيدة لهم في حرب كانوا فيه تبعا لهم) ومن درس تاريخ الخلافة الراشدة رأى نوعية مجلس الشورى الأعلى للمسلمين فقد أخرج ابن سعد عن القاسم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا نزل به أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي وأهل الفقه دعا رجالا من المهاجرين والأنصار ودعا عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن

جبل وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهم وكل هؤلاء كان يفتي في خلافته وانما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء فمضى أبو بكر على ذلك ثم ولي عمر فكان يدعو هؤلاء النفر وكانت الفتوى تصير وهو خليفة إلى عثمان وأُبي وزيد) .

وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور عن أبي جعفر في قصة منها : (فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين بين القبر والمنبر وكانوا يجلسون ؛ علي وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف / رضي الله عنهم / فإذا كان الشيء يأتي عمر بن الخطاب من الآفاق جاءهم فأخبرهم بذلك فاستشارهم فيه .

وروى البخاري عن ابن عباس (وكان القراء اصحاب مجلس عمر رضي الله عنهم ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا) وكلمة القارىء في اصطلاح الصحابة تعني العليم الفقيه المتضلع في فهم الإسلام التقي ، وأخرج ابن سعد عن عطاء بن يسار رضي الله عنه : أن عمر وعثمان رضي الله عنهما كانا يدعوان ابن عباس رضي الله عنهما فيشير مع أهل بدر ويفتي في عهد عمر وعثمان إلى يوم مات وعن يعقوب بن يزيد قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستشير عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الأمر إذا أهمه ويقول : غص غواص ، وعن سعد بن أبي وقاص / رضي الله عنه / قال : ما رأيت أحداً أحضر فهما ولا ألب لبا ولا أكثر علما ولا أوسع حلمـــا من ابن عباس ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعوه للمعضلات ثم يقول : قد جاءتك معضلة ثم لا يجاوز قوله وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار .

إنه في غير البلاد الإسلامية حيث يكون برلمان ودستور ، فإنه لا يحق للبرلمان أن يصدر قانونا يخالف الدستور ، وهذا شيء بديهي ، بل على البرلمان أن يصدر قوانين يحقق فيها المبادىء التي نص عليها الدستور ، وفي الدولة الإسلامية شيء بديهي أن تكون قوانين الدولة تحقق أهداف الدستور الأساسي للمسلمين المتمثل بالكتاب والسنة ، وألا تخرج هذه القوانين عن الكتاب والسنة بل تنبع عنها ، وشيء بديهي أنه لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة إلا نمط خاص من الرجال ممن وصلوا إلى رتبة الاجتهاد المطلق ، أو ممن وصلوا إلى درجة من العلم يستطيعون أن يستخرجوا حكم الله في القضية المعروضة عليهم على مذهب من المذاهب الاجتهادية الإسلامية ، بحيث يكون أهلا للفتوى فيه ، إذ أن الفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا ، ولا يستطيعها إلا رجل أحاط علما بزمانه وبالكتاب والسنة والفقه وأصول الفقه وكيفية استنباط الأحكام ، وملاحظة الأحكام التي تقوم على النص ، أو على العرف ، أو على المصلحة ، بحيث يعرف كيف يفتي في

قضية تغير فيها العرف أو المصلحة ، هذا مع التقوى والنزاهة والتجرد والإخلاص لله ، والفناء في الإسلام ، فإذا ما توفر هذا النوع من الرجال كانوا بشكل عفوي المجلس الاستشاري الأعلى لأمير المؤمنين في مركز خلافته ، أو لنائبه في كل ولاية ، والمهم أن يكونوا من هذه النوعية سواء عينوا تعيينا أو عينوا بموافقة حزب الله أو بانتخابه ، وإن كان الانتخاب بحد ذاته بشرط عدم ترشيح الإنسان نفسه طريقة أفضل وأقوم إذ أننا نرى الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية ترك للمبايعين أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبا ، كما نلاحظ أن هناك أحاديث تشير إلى أن محبة الناس أي الصالحين منهم لرجل دليل على محبة الله له ، ففي الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ : (إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل : إن الله تعالى يحب فلاناً فأحببه فيحبه جبريل فينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض) متفق عليه ، وفي رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : (إني أحب فلانا فأحببه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلانا فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ثم توضع له البغضاء في الأرض) . والمقصود أنه يحبه أهل الله ويبغضه أهل الله إذ الفساق يحبون الفاسق وهو مكروه عند الله ، والكافرون يحبون الكافر وهو مكروه عند الله ، وقد قال الله عز وجل : « وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » فمن توفرت فيه شروط العضو في حزب الله هذا الذي يحق له أن يختار من بين من توفرت فيهم شروط عضوية مجلس الشورى العدد اللازم منهم ، أما لم لَمْ تكن المسألة انتخابا في زمن الخلافة الراشدة فذلك لأن هناك نصوصا عن الشارع تبين من الأفضل والأحب والأعلم في ذلك الوقت وفي مثل هذه الحالة فإن نص الشارع المعصوم عن الخطأ أولى من اجتهاد الرجال .

وهذا نمط عن الشورى التي كانت تحل بها مشاكل الأمة الإسلامية أو تتخذ فيها قرارا :

في قضية أراضي السواد في العراق كان هناك رأيان رأي يقول بقسمتها ورأي تقول بوقفها على المسلمين في كل العصور فماذا فعل عمر ؟

استشار أولاً المهاجرين الأولين فكان رأي عبد الرحمن بن عوف أن تقسم على الفاتحين ورأي عثمان وطلحة وعلي وابن عمر أن توقف .

ثم أرسل عمر إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فأجمعوا على الوقف فوقف عمر .

لما خرج عمر إلى الشام في إحدى قدماته لقيه في (سرع) امراء الأجناد أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الطاعون وقع في الشام قال ابن عباس : قال عمر : أدع لي المهاجرين الأولين فدعاهم واستشارهم وأخبرهم أن الوباء وقع بأرض الشام فاختلفوا فقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء وقال بعضهم قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه فقال ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : أدع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه .... فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته فقال : إن عندي في هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه فحمد الله عمر ثم انصرف .

* * *

٩ — وقد شرع الله عز وجل لهذه الأمة شريعة تقطع دابر الشقاق والخلاف والتنازع ، وتمتن وحدة هذه الأمة وتقويها ، وتزيد في أسرها ، فلا تقع فرقة بين المسلمين إلا بجهل منهم ، وانحراف عن دينهم ، وقدمنا بعض ما يؤكد وحدة المسلمين في بداية هذا البحث والآن نشير إلى نوع من التشريع يمنع الفرقة :

حرّم الله على المسلمين الغيبة والنميمة ، والاقتتال والمراء والتنازع على الحكم ، والتكالب على الرئاسة ، والعمل في عصبية ، أو الدعوة إليها والقتال لها ، وكل هذا وأمثاله يؤدي إلى الفرقة .

كما حرم عليهم الحسد والغل والحقد ، والغش والتدابر والهجران ، وكل ذلك يؤدي إلى الفرقة .

كما حرم عليهم أنواعا من التملك كالتملك عن طريق الربا والاحتكار والميسر ، لأنها تؤدي إلى بغضاء وتنافر .

كما حرم عليهم أن يخطب أحد على خطبة أحد ، أو يبيع أحد على بيع أحد لما يؤدي من الشحناء ، كما حرم عليهم طاعة غيرهم ، أو اعطاءه الولاء ، أو المشاركة في الفتن

والخروج على الإمام لما في ذلك كله من شحناء .

وكل ما يؤدي إلى نزاع في قضايا المعاملات حرمه الفقهاء من جهالة لتغرير ... كما حرم عليهم الخمر والتنابز بالالقاب والتجسس لما يؤدي ذلك إلى قطع الأواصر . ومن تتبع أصول الشريعة وفروعها وجدها جميعا تدور حول محورتمتين أخوة المسلمين ووحدتهم ، وقطع دابر فرقتهم واختلافهم ،ولا يحيط بهذا الموضوع إلا من أحاط بكل النصوص .

١٠ – هذه الأمة قسم من أفرادها يصل في الإسلام إلى الكمال والتمام في الفهم والسلوك والعمل ، وقسم سائر ولم يصل ، وقسم يرضى بالحد الأدنى ولا يسير ، ولا شك أن الذي يحق له أن يشارك في القضايا الأساسية للأمة ، سياسة وتوجيها ، هم القسم الأول ، فهؤلاء الذين يمثلون حزب الله على الحقيقة ، وهؤلاء الذين ينبغي أن يكون لهم تنظيمهم الخاص الذي به يمارسون توجيه الأمة ،والمسلمون ما أصيبوا خلال التاريخ إلا من قبل هذا . وفي زمن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر كان حزب الله قائماً برجاله ، وحتى في تنظيمه ، ولم يرض عمر أن يتفرق عنه كبار الصحابة لعوامل منها : إشراكهم معه في حمل المسؤولية حتى إذا اختفت معالم حزب الله فلم يبق في القمة رجاله الأفذاذ .

بعد زمن الخلافة الراشدة صار في قمة الأمة الاسلامية رجال ساروا في الأمة إلى الدمار . والآن ونحن على أبواب ميلاد جديد لمجد الأمة الاسلامية ينبغي أن نلاحظ هذا ، فندفع الأمة الاسلامية إلى أخلاقية حزب الله ، ونجعل لهؤلاء الذين ارتفعوا تنظيمهم . ونوسد اليهم أمر تصريف شئون الأمة ، ونحاول بشكل دائم أن نضم الى هذا التنظيم العناصر الصالحة التي بلغت كمالها ، ونحاول أن نكمل غيرهم حتى يصلح للمشاركة الفعلية في قضايا الأمة ، كل الأمة ، وقد كتبنا كتاب « جند الله : ثقافة وأخلاقاً » وسنكتب عن : « جند الله تخطيطاً وتنظيماً وتنفيذاً » إن شاء الله رغبة في توضيح معالم حزب الله الذي يأخذ بيد الأمة الاسلامية الآن وغداً إلى ما تحقق به أمر الله عز وجل.

* * *

الخلافة

أ ــ هذه الأمة الإسلامية لا يصح أبدا أن تبقى بلا إمام انعقد على ذلك إجماع المسلمين . يقول الشهرستاني :(فدل بذلك كله على أن الصحابة وهم الصدر الأول كانوا على بكرة أبيهم متفقين على أنه لا بد من إمام ، فذلك الإجماع على هذا الوجه دليل قاطع على وجوب الإمامة) . وقال ابن خلدون :

(ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه ، وتسليم النظر إليه في أمورهم ، وكذا في كل عصر بعد ذلك ولم يترك الناس فوضى في عصر من الأعصار ، واستقر ذلك إجماعاً أولاً على وجوب نصب الإمام) وقال الجرجاني : (إن نصب الإمام من أتم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين) وقال النسفي في عقائده : (والمسلمون لا بد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم ، وإقامة حدودهم ، وسد ثغورهم ، وتجهيز جيوشهم ، وأخذ صدقاتهم ، وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق ، وإقامة الجمع والأعياد ، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد ، وقبول الشهادات القائمة على الحقوق ، وتزويج الصغار والصغائر الذين لا أولياء لهم ، وقسمة الغنائم ، ونحو ذلك من الأمور التي لا يتولاها آحاد الأمة) وهذه الإمامة التي انعقد عليها إجماع الأمة هي الخلافة .

ب ــ ونظام الخلافة هذا يختلف عن أي نظام حكم في العالم ، وقد يتشابه في بعض أجزائه مع بعض أجزاء أنظمة أخرى ، ولكنه ككل يختلف اختلافا جوهريا . ذلك أن أصل الخلافة عن الله للرسل « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » والإمامة التي ذكرناها هي خلافة النبوة ، وقد وضح هذا أبو بكر عقب بيعة السقيفة إذ ناداه رجل : يا خليفة الله فقال له أبو بكر : لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله ﷺ وهكذا كان ينادى أبو بكر طوال خلافته ، فالإمامة والقيادة في الأصل للرسل « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إني جاعلك للناس إماما » . ونظام الخلافة في الحقيقة نيابة عن النبوة ، فالخليفة إذن

مهمته وراثة النبوة بإقامة أحكامها فمثلا :

١ ـ الله عز وجل ذكر من مهمة الرسول ﷺ « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ».فتكون مهمة الخليفة تعليم الناس الكتاب والسنة وتربية الناس عليهما ...

٢ ـ الله عز وجل ذكر « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » إذن مهمة الرسل إخضاع البشرية لسلطان الله ، ومهمة الخلفاء إكمال عمل الرسول في هذا الموضوع .

٣ ـ مهمة الرسل : إقامة عدل الله وتحكيم شريعة الله « كتب عليكم القصاص » « سورة أنزلناها وفرضناها ... » ومهمة الخلفاء كذلك وبشكل مختصر ، فإن نظام الخلافة هو النيابة عن رسول الله ﷺ في إقامة شريعة الله .

وهذا هو الفارق الأساسي بين نظام الخلافة وأي نظام للحكم آخر .

ج ـ هذا الخليفة يختاره المسلمون منهم انتخابا وبرضاهم ، فلا يجوز بشكل من الأشكال أن يفرض على المسلمين إمام أو خليفة إلا باختيارهم ورضاهم وانتخابهم ، ذلك حق المسلمين ، لأن الله عز وجل وصف المؤمنين بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » ومعنى الآية أن أمر المسلمين شورى بين المسلمين ، وأهم أمور المسلمين اختيار إمامهم فلا يصح أن يكون ذلك إلا برأيهم وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في أمر إمامة المسلمين بالصلاة (من أم قوما وهم لإمامته كارهون لم تجاوز صلاته أذنيه) فمن باب أولى الولاية الكبرى ، والإمامة العظمى ، وقد صرح بذلك عمر في خطبة له كما روى البخاري (فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا) ومما يؤكد أن لكل المسلمين الحق في انتخاب الأمير،هذه الرواية الصحيحة عن ابن عباس قال : كنت أقرىء رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمن ابن عوف فقال : لو رأيت رجلا أتى عمر اليوم فقال : هل لك يا أمير المؤمنين في فلان يقول : لو قد مات عمر لبايعت فلانا فوالله ما كانت بيعة أبي بكر رضي الله عنه إلا فلتة فتمت فغضب عمر فقال : إني إن شاء الله تعالى لقائم في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم) فكما ترى من النص فإن عمر يعتبر أن محاولة إيصال الخلافة إلى رجل بلا مشورة من المسلمين اغتصاب لحق المسلمين في هذا الأمر

د ـ وهذا المنصب لا يجوز لأحد أن يرشح نفسه له إذ يقول عليه السلام (إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله أو أحدا حرص عليه) (لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها

عن مسألة وُكِلتَ إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها) (إن أخونكم عندنا من طلبه) بل المسلمون هم الذين يرشحون لإمامتهم من يريدون ، وذلك أن المسلمين جميعا يشكلون حزب الله ، وحتما لهذا الحزب قياداته ورجالاته ، وأعلى طبقة قيادية في حزب الله هي التي ترشح من يمكن أن يكون أمير المؤمنين ، والمسلمون يعطون رأيهم ، فمن أوْلوه ثقتهم أعطوه بعد ذلك بيعتهم .

وهكذا كان الأمر بالنسبة للخلفاء الراشدين الأربعة الذين يمثلون خلافة النبوة قد رشحتهم أعلى طبقة في حزب الله يومذاك وهي طبقة المهاجرين والأنصار، ثم استشير المسلمون في الأمر وكانت بيعتهم على أساس رضى المسلمين .

و — وإذا انتخب الخليفة وبويع اجتمع المسلمون جميعا عليه، ويبقى خليفة حتى يموت ، أو يعجز عن القيام بأعباء الخلافة ، أو ينحرف عن أمر الله ، وأي خروج عليه أو منازعة له من قبل أحد ضلال وفسوق ، يقول عليه السلام في الحديث الصحيح : (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) وفي الحديث الصحيح الآخر (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه) وهذا في حالة وجود الخليفة الحق القائم بالحق ، إذ تعريف البغاة والخوارج الذين يجب على المسلمين طاعة الإمام في قتالهم ، الخارجون على الإمام الحق بغير الحق ...

غير أن لأمير المؤمنين أن يقيل الناس بيعتهم إن شاء ورأى كراهية الناس لشأنه، أو إذا أراد أن يطرح الثقة على الناس، أو شاء اعتزال العمل فقد روى أبو نعيم عن أبي بكر أنه قال :

(يا أيها الناس إن كنتم ظننتم أني أخذت خلافتكم رغبة فيها أو إرادة استئثار عليكم وعلى المسلمين فلا والذي نفسي بيده ما أخذتها رغبة فيها ولا استئثاراً عليكم ولا على أحد من المسلمين ولا حرصت عليها يوما ولا ليلة قط ولا سألت الله سرا ولا علانية ولقد تقلدت أمرا عظيما لا طاقة لي به إلا أن يعين الله ، ولوددت أنها إلى أي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يعدل فيها ، فهي إليكم رد ولا بيعة لكم عندي فادفعوا لمن أحببتم فإنما أنا رجل منكم) .

وأخرج ابن النجار عن زيد بن علي عن آبائه قال : قام أبو بكر رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ فقال : هل من كاره فأقيله ؟ ثلاثا يقول ذلك ، فعند ذلك يقوم علي بن أبي طالب فيقول : لا والله لا نقيلك ولا نستقيلك من ذا الذي يؤخرك وقد قدمك رسول الله ﷺ .

ز — ومهمة الخليفة الأولى إقامة كتاب الله ، يقول عليه الصلاة والسلام : (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة مـا أقام فيكم كتاب الله) ويقول : (إن أمّر عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا) فهو مقيد فيه أولا ، وبالشورى بعـد ذلك في الأمور التي لا نص قطعي الثبوت ، قطعي الدلالة فيها ، فلا يجوز له أن يعطل كتاب الله ، ولو عطله يعزل ، ولا يجوز له أن يعطـل الشورى ولو عطلها يعزل ، لأن تعطيلها فسوق ، وإذا فسق استحق العزل أو عزل تلقائيا على خلاف بين الفقهاء .

ح — ولعل بعد ما قدمناه وضح الفارق بـين أنظمة الحكم الموجودة الآن من ديموقراطية ، إلى ملكية إلى غيرها ، وبين نظام الخلافة ، وقد كان عمر رضي الله عنه حريصا على توضيح الفوارق بين نظام الخلافة وغيره من أنظمة الحكم . فقد أخرج ابن سعد عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب /رض/: آلله ما أدري خليفة أنا أم ملك ؟ فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم قال قائل : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا فإن الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر .

وأخرج أيضا عن سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فاستعبر عمر .

ط — وأمير المؤمنين هو مركز ثقة الأمة الإسلامية كلها فهو المسؤول عن قضائها وعن شوراها وعن تنفيذها ما دام مستقيما على أمر الله ، وما دام لأمير المؤمنين هذا المركز فحتما سيشترط فيه صفات كثيرة : منها أن يكون على درجة من العلم بالإسلام توصله لحد الاجتهاد ، وأن يكون ذا بصيرة وخبرة في أمور السياسة والحكم والحرب ، وأن يكون مسلماً تقياً ورعاً ..... وهكذا شروط كثيرة ، وهناك شروط اختلفت فيها مواقف الأمة الإسلامية ، فالشيعة مثلا يرون أن من شروط الخلافة أن يكون صاحبها هاشميا من أبناء علي بن أبي طالب ، وجماهير أهل السنة يرون أن هذا ليس شرطا ، بل القرشية شرط فلا بد أن يكون الإمام قرشيا وبعض أهل السنة والخوارج يرون أن الكفاءة وحدها هي الشرط ، فلا يشترطون لذلك أسرة ولا قبيلة ولا جنسية .

على أن النصوص جازمة في أن تكون الخلافة في قريش وبنو هاشم من قريش .

روى الشيخان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان) ...

وروى البخاري عن رسول الله ﷺ قال :

(إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين) .

وحديث (الأئمة من قريش) مشهور .

إلا أن عمر يقول : (لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته) .

وابن خلدون نتيجة لأمثال هذا علل كون الخلافة في قريش بكونها القبيلة الوحيدة التي يلتف حولها العرب ولها العصبية القادرة على النهوض بأمر الإسلام ، فإذا لم تعد قريش قادرة على القيام بهذا العبء ، أو لم تستطع القيام بأمر الله أو انحرف القائمون بالأمر فيها عن الله ، أو وجدت العصبية الأقوى على حمل دين الله صح أن تصرف الخلافة إلى غيرها .

والذي يدرس مناقشة أبي بكر للأنصار يوم السقيفة يلاحظ أن أبا بكر أدار الأمر على الواقع إذ قال للأنصار (ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش أوسط العرب نسباً وداراً) .

فأبو بكر ناقش الأمر من حيث الواقع لا من حيث النصوص ، ولا شك أن واقع العرب يومذاك أنها لا تدين كلها لغير قريش برياسة والرسول ﷺ يتحدث عن هذا الواقع في الحديث الصحيح : (الناس تبع لقريش في هذا الشأن ، مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم) .

وملاحظة الواقع في أمر الخلافة شيء مهم ، ولعل تجربة الشريف حسين في مكة تجربة خطيرة الشأن في تاريخ المسلمين إذ كانت أول محاولة للعرب لإرجاع الخلافة إليهم ولكن النتيجة كانت سقوط الخلافة برمتها ووقوع العرب أنفسهم تحت سلطان الكافرين المستعمرين ، مما أعقب هذه الردة التي نعاني منها الآن . وحتى لا تلتبس علينا قضية الواقع نقول :

إن المسلم الحق هو من حرر ولاءه ، وأحب ربه عملا وشعورا ، وذل للمؤمنين وعز على الكافرين وجاهد .

هذا المسلم هو الذي يتمثل فيه حزب الله وهذا الذي يحق له أن يقرر أمر الخلافة ويعطيها لأهلها ، فعندما تفقد قبيلة أو شعب هذه الصفات أو إحداها ، ويوجد شعب آخر متحقق بها فشيء عادي أن يقرر أمر الخلافة ويضعها حيث شاء .

فمثلاً في الوقت الذي ظهر فيه آل عثمان . كان العالم الإسلامي كله في وضع مهين من حيث ضعف روح الجهاد ، وملكة القتال ، ولو أننا أجرينا يومها إحصاء على

شعوب العالم الإسلامي حول مَن من شعوب العالم الإسلامي يملك أكثرية مجاهدة فاننا لا نجد يومها أكثر من أتباع آل عثمان ، بدليل أنهم فرضوا سلطانهم على الجميع مسلمين وغير مسلمين ، فهل الوضع العادي بعد ذلك إلا أن تؤول إليهم الخلافة ، إن الذنب في استئثار عنصر على عنصر في تقرير قضية الخلافة يعود على المسلمين جميعاً ، إذ يفقدون خصائص ذواتهم المسلمة .

أما لو كان المسلمون جميعاً من الطراز المجاهد الذي مر معنا ، فإنها يومذاك لا يمكن أن تكون الخلافة إلا شورى بين الجميع .

وعلى كل حال ما دام الأمر في وضعه العادي يعود إلى المسلمين وأهل الحل والعقد فيهم ، ترشيحاً وانتخاباً واقراراً ثم بيعة عامة ، فالمسألة تقرَّر عندما تقع ، ولا تأتي الشورى إلا بالخير .

ي — والخلافة الإسلامية مرت بأطوار وأدوار :

١ — طور الخلافة الراشدة .

٢ — الخلافة الأموية الأولى حتى نهاية يزيد .

٣ — خلافة ابن الزبير .

٤ — الخلافة الأموية الثانية حتى نهاية مروان بن محمد .

٥ — الخلافة العباسية حتى سقوط بغداد .

٦ — الخلافة العباسية في القاهرة حتى استيلاء السلطان سليم عليها ، ثم ما أعقب ذلك من تنازل الخليفة العباسي للسلطان سليم عن الخلافة .

٧ — الخلافة العثمانية التي انتهت سنة ١٩٢٤

ولا شك أن تسلسل الخلافة على هذا الشكل لم يكن هو الوضع العادي لتطور الخلافة إذ أن نظام الخلافة يقوم :

١ — على ترشيح الجماعة لمن لهم أهلية الخلافة .

٢ — ثم انتخاب أهل الحل والعقد للخليفة .

٣ — ثم البيعة العامة من كل المسلمين ، وذلك تفويض للخليفة بالقيام بالأمر في مقابل حق الطاعة .

٤ — ثم قيام الخليفة بالإسلام وتدبير أمور المسلمين .

ولا شك أن كل الخلفاء كانوا مسلمين ، وما كانوا يعتقدون غير الإسلام ، ولا يدينون بسواه ، ولا يلزمون الأمة بغيره عقيدة وسلوكاً إلا ما كان له علاقة ببعض

شئونهم غير أن الجوانب الآنفة الذكر لم تكن متمثلة تمثلاً كاملاً ، بل بعضها كان يعطل تعطيلاً تاماً ، وبعضها كان ناقصاً ، وأحياناً كانت الخلافة صورية ، ولكنها على كل حال موجودة وإثم المسلمين مع وجودها معطلة أقل من إثمهم بعد الغائها .

إنها الخلافة بصرف النظر عن الطريقة التي تمت فيها ، أو عن كفاءة أصحابها ، والذين يتصورون أن الخلافة انتهت بنهاية الخلفاء الراشدين فهم مخطئون معارضون للنصوص وللواقع ، أما معارضتهم للنصوص فلقوله عليه السلام في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن جابر بن سمرة قال : (دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول : (إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة.... كلهم من قريش) ويبدو أن ذلك نهاية عهد عمر بن عبد العزيز لأن الخليفة بعده كان مولعاً باللهو إذا أسقطنا مروان بن الحكم ، واعتبرنا ابن الزبير هو الخليفة أو بالعكس ، وهذا إذا فهمنا أن المقصود من الحديث التسلسل ، ويمكن أن يفهم الحديث إذا جمعت رواياته فهما آخر ولكنها كلها تدل على وجود الخلافة بعد الأربعة الراشدين .

وأما معارضة هؤلاء للواقع فإن أكثرية المسلمين اعتبرت هؤلاء خلفاء ، ويكفي بهذا شرعية ، وكلهم كانوا مسلمين لا يؤثرون على الإسلام شيئاً آخر ، ولا يحكّمون سواه ، مع ضعف أحياناً ، وتساهل أحياناً ، ولكنه ضعف لا يخرج عن الإسلام .

ك ـ ولا شك أن السلسلة التي مرت معنا ليست الصورة الوحيدة للخلافة ، إذ أعلن عبد الرحمن الناصر في الأندلس نفسه خليفة كما قامت الخلافة العبيدية وادعى كثير من ملوك المغرب الخلافة ، ولا نريد أن ندخل في جدل حول هذه الخلافات ولكن هناك فكرة لا بد من الإشارة اليها وهي موضوع تعدد الخلافة ، فهل يجوز أن يكون للمسلمين أكثر من خليفة ؟ ذهب بعض فقهاء المالكية إلى الجواز بحجة سعة دار الإسلام ولكن ما قيمة هذا الإجتهاد ؟

يلاحظ أن هذا الاجتهاد أتى متأخراً بعد إجماع على عدم جواز التعدد ، ثم هو وليد بيئة معينة هي البيئة المغربية التي كثر فيها مدعو الخلافة حتى إن أحداً لم يعلن نفسه خليفة بجانب الخليفة الشرقي الا مغربياً .

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية :

الخلافة مظهر وحدة الأمة الإسلامية تعبوياً وعسكرياً وسياسياً ولا تنسق هذه الجوانب بدون سلطة مركزية واحدة لكل المسلمين .

وناحية ثالثة : إن أهل العدل متفقون على أن قتال علي لمعاوية كان قتالاً عادلاً

فلو كان تعدد الخلافة جائزاً فلم كان ذلك القتال العادل .

وناحية رابعة : ماذا يقولون في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن رسول الله ﷺ (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما) ...

إن مظهر وحدة الأمة الإسلامية خلافتها وحَجُّها : كعبة واحدة وإمام واحد ، أخرج الشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي وسيكون بعدي خلفاء فيكثرون قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أوفوا ببيعة الأول ثم أعطوهم حقهم واسألوا الله الذي لكم فإن الله سائلهم عما استرعاهم) .

ل — ومتى انعقدت البيعة للخليفة فقد وجبت له الطاعة على كل المسلمين ، وحرم الخروج عليه وشق عصا هذه الطاعة .

روى مسلم والترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني)

وروى الستة إلا مالكا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية . فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)

وروى مسلم والنسائي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك)

وروى الشيخان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية)

وروى مسلم والترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بعهد ذي عهدها فليس مني ولست منه) .

وروى الشيخان وأبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .... ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا فإن أعطاه منها ما

يريد وفى له وإن لم يعطه لم يف) وروى مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) .

وروى أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه)

ولم يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم – والله أعلم – إلا حالتين تجيزان الخروج على الإمام وقتاله؛ ترك الصلاة والكفر :

روى مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلّون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقامو فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة إلا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعته) .

وروى مسلم وأبو داود والترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ما صلّوا) .

وفي حديث مبايعة عبادة بن الصامت :

(وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا لكم من الله فيه سلطان) أو كما قال عليه السلام .

والكفر البواح هو ما ينقض الشهادتين ، وقد رأينا نماذج من ذلك في فصل الأركان . إلا أن الفقهاء تحدثوا عن فسق الإمام هل ينعزل به ؟ فقالوا : إن أمكننا عزله بلا فتنة عزلناه وإلا لا.

والنصوص واضحة أنه متى انعقدت البيعة لإمام لم يبق أمام المسلم إلا الطاعة له وحرب عدوه :

روى مسلم والنسائي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من بايع إماما فأعطاه يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر) .

(من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق

جماعتكم فاقتلوه) .

وروى الشيخان (لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه) .

وابن عمر هو الذي قال :

(لم أجدني آسى على شيء إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي) ولكن كون الله قـــد حرم علينا قتال إمامنا لا يعني أنه أمرنا ألا نكلمه بالحق ونأمره به ، بل الله حرم علينا قتاله ، وأوجب علينا نصحه ووعظه ، وأمره بالعدل ، وعدم طاعته بالجور والانحراف :

(أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) .

(الدين النصيحة ....لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

وروى الترمذي والنسائي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(اسمعوا إنه سيكون من بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض ومن دخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وارد علي الحوض) .

دخل عائذ بن عمرو الصحابي على عبيد الله بن زياد فقال : (أي بني اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن شر الرعاء الحطمة فإياك أن تكون منهم) .

وبدون هذا خراب الأمور ...

يقول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : سيكون عليكم أمراء يدعون من السنة مثل هذه فإن تركتموها جعلوها مثل هذه فإن تركتموها جاءوا بالطامة الكبرى) الطبراني في الكبير .

وإذن فأدب المسلمين مع الخليفة الطاعة الكاملة في المعروف ، وأدب الخليفة الالتزام بالحق ، ولعل من أعظم ما دهى نظام الخلافة وصولها أحياناً إلى غير أهلها ، والاعتداء على سلطات الخليفة ، حتى لم يعد له أحياناً لا سمع ولا طاعة .

* * *

بعد هذه الخطوة العامة ننقل ما كتبه الأستاذ عبـــد القادر عودة حول موضوع

الخلافة مختصرين بعضه حاذفين بعض جمله لينسجم مع هذا الكتاب مع ملاحظة أن بعضاً مما سننقله قد مرآنفا ولا حرج من التكرار إذا كان فيه فائدة :

قال رحمه الله :

الخلافة أو الإمامة العظمى

معنى الخلافة :

تعني الخلافة أو الإمامة العظمى رئاسة الدولة الإسلامية، فالخليفة أو الإمام الأعظم هو رئيس الدولة الإسلامية الأعلى .

ولما كانت الدولة الإسلامية قائمة على الإسلام الذي يسيطر على الأفراد والجماعات ويوجههم في حياتهم الدنيا وجهات معينة ، كان للخليفة في رأي الفقهاء الإسلاميين وظيفتان : الأولى:إقامة الدين الإسلامي وتنفيذ أحكامه .

والثانية : القيام بسياسة الدولة التي رسمها الإسلام ، على أننا نستطيع أن نكتفي بالقول بأن وظيفة الخليفة هي إقامة الإسلام ، لأن الإسلام كما علمنا دين ودولة، فإقامة الإسلام هي إقامة للدين ، وقيام بشئون الدولة في الحدود التي رسمها الإسلام.

ولقد سبق أن بينا أن وظيفة الحكومة الإسلامية هي إقامة أمر الله أي إقامة الإسلام، والخليفة هو رئيس الحكومة الإسلامية فتكون وظيفته هي إقامة الإسلام وإدارة شئون الدولة في حدود الإسلام .

ولقد عرف الفقهاء الخلافة بما لا يخرج عن هذا المعنى ،فعرفت بأنها رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرفت بأنها خلافة الرسول في إقامة الدين وحفظ حوزة الملة ، بحيث يجب إتباعه على كافة الأمة . [1] .

وعرف الماوردي الإمامة بأنها موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا [2] .

وعرفها ابن خلدون بأنها حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به [3] ....

---

١ ـ المواقف ص ٦٠٣ ـ المسامرة ج ٢ ص ١٤١ ـ أسنى المطالب وحاشية الشهاب الرملي ج ٤ ص ١٠٨ .

٢ ـ الاحكام السلطانية للماوردي ص ٣ .

٣ ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠ .

ولقد سمي أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله ﷺ على هـذا الأساس ، ورأى البعض أن يسميه بخليفة الله ناظراً في ذلك إلى أن الرسول كان قائماً على أمر الله وأن أبا بكر قام به أيضاً ، فكلاهما يعتبر خليفة الله، ولكن أبا بكر اختار أن يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ....

ولما استخلف عمر رضي الله عنه رأى أن يسمي رئيس الدولة بأمير المؤمنين حتى لا تتكرر الإضافة إلى الخليفة السابق ثم الذي سبقه وهكذا تصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرى الناس من هذا التاريخ على تسمية رئيس الدولة الإسلامية بأمير المؤمنين ، ولكن الوظيفة بقيت على تسميتها الأولى: الخلافة أو الإمامة، والخلافة أشهر، كما أن القائم بشئون الوظيفة وإن نودي بأمير المؤمنين إلا أنه أصبح يسمى بالخليفة دون إضافة .

ويسمى الخليفة أحياناً بالإمام الأعظم ،وهذه التسمية تدخل تحت قوله تعالى «ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » (القصص) ، ويوصف الإمام بالأعظم تمييزاً له عن أي إمام آخر كالإمام الذي يؤم الناس في الصلاة .

إقامة الخلافة فريضة :

وتعتبر الخلافة فريضة من فروض الكفايات كالجهاد والقضاء ، فإذا قام بها من هو أهل لها سقطت الفريضة عن الكافة وإن لم يقم بها أحد أثم كافة المسلمين حتى يقوم بأمر الخلافة من هو أهل لها .

ويرى بعضهم أن الإثم يلحق فئتين فقط من الأمة الإسلامية أولاها : أهل الرأي حتى يختاروا خليفة ، والثانية : من تتوفر فيهم شرائط الخلافة حتى يختار أحدهم خليفة (١) .

والحق أن الإثم يلحق الكافة ، لأن المسلمين جميعاً مخاطبون بالشرع وعليهم إقامته ....

مصدر فرضية الخلافة : المصدر الأول لفرضية الخلافة هو المشرع ، فالخلافة أو الإمامة فريضة شرعية يوجبها الشرع على كل مسلم ... ويخاطب الجميع بها ، وعليهم أن يعملوا حتى تؤدى هذه الفريضة ، فإذا أديت سقطت عنهم حتى تتجدد بعزل الخليفة أو موته ، والأدلة على فرضية الخلافة هي :

أولا : الخلافة أو الإمامة سنة فعلية استنها الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين .

---

٤ ـ الاحكام السلطانية للفراء الحنبلي ص٣ ٠ والاحكام السلطانية للماوردي ص٤ ٠

فالرسول صلى الله عليه وسلم كوّن من المسلمين وحدة سياسية ، وألف منهم جميعاً دولة واحدة ، كان هو رئيسها وإمامها الأعظم ، وكان له وظيفتان : الأولى التبليغ عن الله ، والثانية القيام على أمر الله وتوجيه سياسة الدولة في حدود الاسلام ، وقد انتهى عهد التبليغ بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحي .

وإذا لم يكن بالناس حاجة للتبليغ بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لوجود القرآن والسنة ، فإنهم في أشد الحاجة إلى من يقوم على القرآن والسنة ويسوسهم في حدود الإسلام ، بعد أن كون الرسول منهم وحدة سياسية ، واستن لهم رئاسة الدولة وإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، بل إن التأسي بالرسول واتباع سنته يقتضي من المسلمين جميعاً أن يكوّنوا من أنفسهم وحدة سياسية واحدة ، وأن يقيموا لهم دولة واحدة تجمعهم ، وأن يقيموا على رأسها من يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين وتوجيه سياسة الدولة توجيهاً إسلامياً خالصاً .

ثانياً : أجمع المسلمون وأصحاب الرسول خاصة وهم أدرى الناس باتجاهات الإسلام على أن يقيموا على رأس الدولة من يخلف الرسول ، وما أن تحقق أبو بكر من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى خرج على الناس يقول لهم (ألا إن محمداً قد مات ولا بد لهذا الدين من يقوم به) فترك الصحابة تجهيز النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدفنوه حتى أقاموا أبا بكر خليفة له ، والإجماع مصدر من مصادر الشريعة يُلْزِم المسلمين كما يُلْزِمُ النص .

وإذا كان الصحابة قد اختلفوا فيما بعد على الخلافة فينبغي أن نعلم أن الخلاف كان على الشخص الذي يملأ الوظيفة لا على وجوب الخلافة وفرضيتها وعلى وجوب إقامتها (1) .

ثالثاً : إن الكثير من الواجبات الشرعية يتوقف على إقامة خليفة وإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب شرعاً ، كما أن في نصب الإمام دفع ضرر ، وإزالة الضرر تجب شرعاً ، وفيه أيضاً جلب منافع للأمة وهو واجب أيضاً ، ذلك أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود وشعائر الشرع وغيرها إنما هو مصالح عائدة على الخلق ، وهذه المصالح لا تتم الا بإمام يرجعون اليه فيما يختلفون فيه ، وهم مع اختلاف الأهواء وتشتت الآراء قلما ينقاد بعضهم لبعض فيفضي ذلك إلى التنازع والنوائب ، وربما أدى إلى اهلاكهم جميعاً ، والتجربة تشهد بذلك وتشهد

---

١ ــ المسامرة ج٢ ص ١٤٢ ، المواقف ص ٦٠٣ ، مقدمة ابن خلدون ص ٤٨١ .

بأن عدم إقامة خليفة يؤدي الى تعطيل الدين ، والخروج على الإسلام ، وتفرق المسلمين كما هو حادث الآن (١) .

رابعا : ان نصوص القرآن والسنة أوجبت إقامة إمام للجماعة الإسلامية (٢) من ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) وقال (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) وقال (من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر) وقال : (إن من طاعة الله أن تطيعوني وأن من طاعتي أن تطيعوا أئمتكم) وقال : (لا نبي بعدي وستكون خلفاء فيكثرون قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله قال : فوا ببيعة الأول فالأول فأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم » وقال : « سيليكم بعدي ولاة فيليكم البرّ ببره ويليكم الفاجر بفجوره فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل مــا وافق الحق فإن أحسنوا فلكم وإن أساءوا فلكم وعليهم) وقال : (من أتاكم وجمعكم على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه) وقال : (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الأخير منهما) .

ويؤخذ من هذه النصوص مجتمعة أن على المسلمين أن يختاروا إماماً لهم أو خليفة عليهم ، فإن المسلم الذي يموت وليس له إمام يموت ميتة جاهلية . وعليهم أن يختاروا إماماً واحداً ، فإن بويع لاثنين وجب قتل الاخير إن لم يترك الأمر للأول ، وكذلك يجب قتل من أراد أن يفرق الجماعة وهي مجتمعة على إمام واحد .

خامساً : إن الله جل شأنه جعل المسلمين أمة واحدة على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وشعوبهم ، « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » المؤمنون ٥٢ . « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » الأنبياء ٩٢ ، وواجب على المسلمين أن يتحدوا ويلتفوا حول راية القرآن « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » آل عمران ١٠٣ وحرم عليهم التفرق والاختلاف والتنازع « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا » آل عمران ١٠٥ ، « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » الأنفال ٤٦ ، ومقتضى هذه النصوص أن يكونوا أمة واحدة ، ووحدة سياسية واحدة ، وأن يكونوا من أنفسهم دولة واحدة .

---

١ ـ المواقف ص ٦٠٤ . الخلافة ص ١٠ .
٢ ـ المسامرة ج٢ ص ١٤٢ . الملل والنحل ج٤ ص ٨٧ . الخلافة ص ١١ . المحلى ج٩ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يروى عنه (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم) ويقول (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم) ودليل هذين الحديثين أنه يشرع لكل عدد بلغ ثلاثة فصاعداً أن يؤمروا عليهم أحدهم ، لأن في ذلك السلامة من الخلاف الذي قد يؤدي الى القلق إذا استبد كل منهم برأيه ، وفعل ما يطابق هواه ، كما أن اجتماعهم على أحدهم فيه جمع لكلمتهم ، وتضامن بينهم في مواجهة ما ينزل بهم .

وإذا شرع هذا لثلاثة في فلاة من الأرض أو مسافرين ، فشرعيته أولى لعدد اكثر يسكنون القرى والأمصار ، ويحتاجون لدفع التظالم والفصل في الخصومات [1] .

فيجب إذن تطبيقاً لهذين الحديثين فضلاً عما ذكرنا من أحاديث سابقة ،أن تقيم الأمة الإسلامية إماماً لها أو خليفة عليها ، وهي باعتبارها أمة واحدة لن تقيم إلا واحداً ، ولا يصح لها أن تقيم أكثر من واحد .

سادساً : إن الله وقد جعل المسلمين أمة واحدة ، وألزمهم أن يكونوا من أنفسهم دولة واحدة ، قد جعل أمر الحكم شورى بينهم « وأمرهم شورى بينهم » وإذا كان المسلمون مقيدين بأن يكونوا أمة واحدة ، وأن يختاروا من يلي الحكم منهم ، فإنه يتعين عليهم أن يختاروا لرئاسة الدولة الإسلامية إماماً كلما خلا هذا المنصب ، وليس لهم باعتبارهم أمة واحدة ودولة واحدة أن يختاروا إلا اماماً واحداً .

الشروط الواجبة في الامام

لا يصلح كل شخص أن يكون إماماً أو خليفة ، لأن وظيفة الإمامة بما لها من جلال وخطر ، تقتضي أن يكون شاغلها حائزاً على صفات معينة ، ومن ثم يشترط فيمن يختار إماماً أو خليفة أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

١ ــ الإسلام :

يشترط في الإمام أو الخليفة أن يكون مسلماً لأن وظيفته نفسها تقتضي هذا ، فمهمته إقامة الدين الإسلامي وتوجيه سياسة الدولة في حدود الإسلام ، وما يستطيع أن يقوم بذلك على وجهه الصحيح إلا مسلم يؤمن بالإسلام ، ويعرف مبادئه واتجاهاته ، فطبائع الأشياء إذن توجب أن يكون رئيس الدولة الإسلامية مسلماً .

وإذا كان هذا هو ما توجبه طبائع الأشياء ، ومنطق الواقع ، فإن الإسلام نفسه

---

١ ــ المواقف ص ٦٠٤ ــ ٦٠٥ وراجع مقدمة ابن خلدون ص ١٨١ ...

يحرم أن يلي أمر المسلمين غير مسلم ، وذلك ظاهر من قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » آل عمران : ٢٨ : فإذا حرم الإسلام على المؤمنين أن يوالوا غير مؤمن، فقد حرم عليهم أن يجعلوه حاكماً عليهم ، لأن الحكم ولاية . وقوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » التوبة: ٧١ : وقوله : « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » الأنفال : ٧٣ وقوله : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » .

٢ ـ الذكورة :

يشترط في الإمام أو الخليفة أن يكون ذكراً لأن المرأة بطبيعتها لا تصلح لرئاسة الدولة ؛ وما تقتضيه هذه الوظيفة من المتاعب والعمل المستمر وقيادة الجيوش ، وتدبير الأمور .

كما أن الإسلام منع ولاية المرأة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة) وفي رواية : (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) .

٣ ـ التكليف :

يشترط في الامام أو الخليفة أن يكون مكلفاً أي بالغاً عاقلاً ، فالصغير والمجنون والمعتوه لا يصلحون لرئاسة الدولة ، لأن الإمامة ولاية على الغير ، وهؤلاء لا ولاية لهم على أنفسهم . فكيف تكون لهم الولاية على غيرهم؟ كما أن الصغير والمجنون والمعتوه لا مسئولية عليهم . لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يصحو ، وعن المجنون حتى يفيق) ومن لم يكن أهلاً للمسئولية عن نفسه ، فهو غير أهل للمسئولية عن غيره. والاصل في وظيفة الإمامة المسئولية التامة . لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع ومسئول عن رعيته فالأمير راع على رعيته وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة عنه) وقوله (لا يسترعي الله تبارك وتعالى عبداً رعية قلت أو كثرت إلا سأله تبارك وتعالى عنها يوم القيامة أقام فيهم أمر الله تبارك وتعالى أم أضاعه حتى يسأله عن أهل بيته خاصة) .

٤ ـ العلم :

يشترط في الإمام أو الخليفة أن يكون عالماً ، وأول ما يجب عليه علمه هو أحكام

الإسلام لأنه يقوم على تنفيذها . ويوجه سياسة الدولة في حدودها ، فإذا لم يكن عالماً بأحكام الإسلام لم يصح تقديمه للإمامة . ويرى البعض أنه لا يكفي الإمام من العلم بأحكام الإسلام أن يكون مقلداً ، لأن التقليد عندهم نقص ويوجبون أن يكون مجتهداً ، لأن الإمامة في رأيهم تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال ، ولكن البعض الآخر يجيز أن يكون الإمام مقلداً . ولا يستلزم أن يكون مجتهداً [1]

ولا يكفي أن يكون الإمام عالماً بأحكام الإسلام ، بل يجب أن يكون مثقفاً ثقافة عالية ، ملماً بأطراف من علوم عصره ، إن لم يكن متخصصاً في بعضها ، وأن يكون على علم بتاريخ الدول وأخبارها ، وبالقوانين الدولية والمعاهدات العامة ، والعلاقات السياسية والتاريخية والتجارية بين مختلف الدول .

٥ ــ العدالة :

ويشترط في الإمام أو الخليفة أن يكون عدلاً ، لأنه يتولى منصباً يشرف على كل المناصب التي يشترط فيها العدالة ، فكان من الأولى أن تشترط العدالة في منصب الإمامة أو الخلافة .

والعدالة عند الفقهاء هي التحلي بالفرائض والفضائل ، والتخلي عن المعاصي والرذائل وعن كل ما يخل بالمروءة ، ويشترط بعضهم أن تكون العدالة ملكة لا تكلفا ، ولكن البعض يرى أن التكلف إذا التزم أصبح ملكة وخلقاً [2] .

٦ ــ الكفاية :

ويشترط في الإمام أو الخليفة أن يكون كافياً قادراً على قيادة الناس وتوجيههم ، قادراً على معاناة الإدارة والسياسة ، فمن قام بالقسط فقد قام بما أمر به .

٧ ــ السلامة :

ويشترط البعض في الإمام أو الخليفة سلامة الحواس والاعضاء من النقص والعطالة كالعمى والصمم والخرس وتجديع الأطراف ، وحجتهم أن عدم السلامة على هذا

---

١ ــ المواقف ص ٦٠٥ ٠ المحلى ج٩ ص ٦٣٢ ٠ أسنى المطالب وحاشية الشهاب ص ١٠٨ ٠ الملل والنحل ج٤ ص ١٦٦ الاحكام السلطانية للماوردي ص ٤ ٠ الاحكام السلطانية للفراء ص ٥ ٠ المسامرة ج٢ ص ١٦٣ ٠ الخلافة ص ١٦ ٠

٢ ــ الملل والنحل ج٤ ص ١٦٧ ــ مقدمة ابن خلدون ص ١٨٣ ــ المواقف ص٦٠٥، ٦٠٦ ــ المسامرة ج٢ ص ١٦٢ ــ ١٦٤ ــ الاحكام السلطانية للماوردي ــ الاحكام السلطانية للفراء ص ٦٢٥ ٠٠٠

الوجه يقلل من الكفاية في العمل ، أو من الإتيان به على وجه تام ،

٨ ـ القرشية :

وهو شرط مختلف عليه : فالجمهور يشترط أن يكون الإمام أو الخليفة من قريش وحجتهم في ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ من أحاديث في هـذا الشأن فروي عنه (الأئمة من قريش) وروي (الأئمة من قريش ما إذا حكموا عدلوا) وروي(الأئمة من قريش وإن لي عليكم حقاً ولهم عليكم مثل ذلك ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين) وروي (إن هـذا الأمر في قريش ما أطاعوا الله واستقاموا على أمره) وروي (إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين) وروي (ان هذا الأمر في قريش ما إذا استرحموا رحموا وإذا حكموا عدلوا ، وإذا قسموا قسطوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) وروي (أما بعد يا معشر قريش فإنكم أهل هذا الأمر ما لم تعصوا الله فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحى هذا القضيب ـ لقضيب في يده ـ ثم لحا قضيبه فإذا هو أبيض يصلد) ، وروي (يا معشر قريش إنكم أهل هذا الأمر ما لم تحدثوا فإذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحاكم كما يلحى القصب) وروي (استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم فإن لم تفعلوا فكونوا رواعين أشقياء)وروي(قدموا قريشاً ولا تقدموها)...

ويستند الجمهور أيضاً إلى إجماع الصحابة على أن تكون الإمامة في قريش ، فقد احتج أبو بكر يوم السقيفة على الأنصار بأن الأئمة من قريش فعدلوا عن المطالبة بالإمامة بعد أن كانوا يقولون منا أمير ومنكم أمير ورضوا بما قاله لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء[1] .

ويرى الخوارج وبعض المعتزلة أنه لا يشترط أن يكون الإمام قرشياً ، وإنما يستحق الإمامة من قام بالكتاب والسنة سواء كان عربياً أو عجمياً ،ذلك لأنهم يردون حديث الأئمة من قريش بحجة أنه من أحاديث الآحاد . وذهب ضرار بن عمر إلى أن تولية غير القرشي أولى ، لأنه يكون أقل عشيرة فإذا عصى كان أمكن خلعه[2]

(١) ـ الاحكام السلطانية للماوردي ص ٥ ـ الاحكام السلطانية للغراء الحنبلي ص ٤ ـ الخلافة ص ١٦ ـ ص ١٨٣ المسامرة ص ١٦٤ مقدمة ابن خلدون ج٢ المواقف ٦٠٦ ـ الملل والنحل ج٤ ص ٨٩ ـ المحلى ج٩ ص ٣٥٩ ـ أسنى المطالب ج٤ ص١٩٠.

(٢) ـ عون البناري مع نيل الاوطار ج٨ ص ٢٩٥ ...

ولما ضعف أمر قريش وضعفت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم عجزوا عن حمل الأمر ، وتغلب عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم ، فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية ،واستندوا في ذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم (اسمعواو أطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) كما استندوا إلى قول عمر : (لوكان سالم مولى حذيفة حيا لوليته) وسالم ليس قرشياً ، وإلى ما روي عن عمر : (إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته وإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل) ومعاذ أنصاري لا نسب له في قريش . كذلك استدلوا بتأمير عبدالله بن رواحة وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وغيرهم في الحروب ، وممن أسقط شرط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدرك ما عليه أمر قريش من التلاشي والاضمحلال واستبداد الأعاجم بالأمر (١) .

والمتمسكون بشرط القرشية يردون على ذلك بأن الحديث ورد في الإمارات الصغرى لا في الإمامة العظمى ، وأن ما روي عن عمر لعله اجتهاد منه تغير بعد ذلك ، كما أن تأمير عبد الله بن رواحة وغيره ليس له دخل بالإمامة العظمى .

ويعلل ابن خلدون جعل الأمر في قريش بقوة عصبيتهم(لأن قريشا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب فيهم وكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ، فلو جعل الأمراء من سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكره ، فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة ، والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ، بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم ، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة ، لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها ، فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب ، وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة ، وإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع ، فأذعن لهم سائر العرب ، وانقادت الأمم سواهم إلى أحكام الملة ، ووطئت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات واستمر بعدها في الدولتين إلى أن اضمحل أمر الخلافة ، وتلاشت عصبية العرب ، فإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل أو عصر ولا أمة ، علمنا أن ذلك إنما هو من

١ ــ عون الباري مع نيل الاوطار جـ٨ ص ٤٩٦ ــ مقدمة ابن خلدون ص ١٨٢ ...

الكفاية فرددناه إليها، وطلبنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية ، وهي وجود العصبية ، فاشترطنا بالقائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية غالبة على من معها لعصرها، وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تَعْدُ هذا، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائبا عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم ، وهو مخاطب بذلك . ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه ، ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم ، وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفا للأمر الوجودي [1]

وظاهر مما سبق أن ابن خلدون يرى أن الإمامة جعلت في قريش لقوتها وغلبتها، وأن حقها في الإمامة زال بزوال قوتها وغلبتها ، ومعنى ذلك أنه يفسر القرشية بالعصبية الغالبة ......

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن جمهور الأمة المستمسكين بشرط القرشية أجازوا خلافة المتغلب ولو لم يكن قرشيا : وفي هذا ما يناقض التمسك بشرط القرشية ، ولكنهم عللوا ذلك بالضرورة .

* * *

هذه هي الشروط التي يجب أن تتوفر في الإمام الأعظم أو الخليفة، وليس ثمة ما يمنع من اشتراط شروط أخرى إذا اقتضتها المصلحة العامة ، فيجوز مثلا أن يشترط في الإمام أن يكون قد بلغ سنا معينة ، ويجوز أن يشترط فيه الحصول على درجات علمية معينة ، ويجوز أن يشترط فيه أي شرط آخر إذا دعت لذلك الشرط مصلحة الجماعة أو اقتضته ظروف الحياة التي تتغير بمرور الأيام .

انعقاد الإمامة أو الخلافة

الطريق الشرعي للإمامة :

تنعقد الإمامة من طريق واحد مشروع لا ثاني له ، وهو اختيار أهل الحل والعقد للإمام أو الخليفة ، وقبول الإمام أو الخليفة لمنصب الخلافة .

فالإمامة أو الخلافة ليست إلا عقدا ، طرفاه الخليفة من ناحية ، وأولوا الرأي في الأمة من الناحية الأخرى ، ولا ينعقد العقد إلا بإيجاب وقبول : الإيجاب من أولي الرأي في الأمة أو أهل الشورى ، وهو عبارة عن اختيار الخليفة ، والقبول من جانب الخليفة الذي اختاره أولوا الرأي في الأمة .

---

١ ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ...

على هذا جرى الأمر من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبهذه الطريقة بويع الخلفاء الراشدون جميعاً ونستطيع أن نتبين ذلك إذا رجعنا إلى الوقائع التي قامت عليها بيعة كل منهم ، والظروف التي تمت فيها ، وحللناها تحليلا علميا ومنطقيا .

بيعة أبي بكر :

لما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليولوه الأمر ، وسمع عمر بن الخطاب بالخبر فأخبر أبا بكر ، وذهبا ومعهما أبو عبيدة إلى السقيفة فخطب أبو بكر في الحاضرين وعرض عليهم أن يختاروا عمر أو أبا عبيدة فقالا : والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، ابسط يدك نبايعك ، فلما ذهبا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد من الأنصار فبايعه ، وتتابع الناس فبايعوه من كل جانب فلما كان الغد جلس أبو بكر على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ....

هذه هي بيعة أبي بكر لم تتم إلا باختيار المهاجرين والأنصار وأولي الرأى في الأمة ، وبقبول أبي بكر لهذا الاختيار وإقراره له .

واختيار أبي بكر على هذا الوجه يتفق مع قول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » الشورى : ٣٨ ، وأهم أمور المسلمين وأحقها بالشورى هو أمر الحكم ، فعلى المسلمين أن يختاروا من يلي أمرهم ويقوم على شئونهم وينفذ أمر الله فيهم ، ليحققوا ما وصفهم الله به من أن أمرهم شورى بينهم ....

بيعة عمر :

ولما حضرت الوفاة أبا بكر استشار كثيرا من الصحابة في تولية عمر ، ثم كتب للناس خطابا جاء فيه (أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا) وأمر به أن يقرأ على الناس فجمعوا وقرىء عليهم ، وكان أبو بكر قد أشرف عليهم فقال : (أترضون بمن أستخلف عليكم فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإني قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا) فقال الناس : سمعنا وأطعنا .

ولما استشار أبو بكر بعض الصحابة في عمر قبل أن يكتب للناس قال : « لو تركته ما عدوت عثمان والخيرة له — أي لعمر — أن لا يلي من أموركم شيئا [1] .

فهذا أبو بكر لا يفتات على الناس فهو يختار لهم ويجعل اختياره متوقفا على رضائهم به ومتوقفا على رضاء عمر ، ولو رفض عمر ما وسعه أن يلزمه ، ولو رفض الناس

---

١ — الكامل لابن الاثير ج٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

ثوليه عمر لما ألزمهم إياه وإنما أحسن أبو بكر الاختيار ووثق به المسلمون ، وبحسن اختياره فكانوا عند حسن ظنه بهم ، ولو لا أنه كان يعلم حق العلم أنه نصح واجتهد للمسلمين في اختيار عمر لما فعلها .

ومن الخطأ أن نعتبر ما حدث من ابي بكر اختياراً للخليفة من بعده ، فلو كان فعل أبي بكر في حقيقته اختيــاراً لما سأل الناس أيرضون بعمر أم لا يرضون ، وإنما كان فعل أبي بكر في حقيقته ترشيحا لمن يراه أقدر على القيام بأمر الناس ، وإذا كان الترشيح ممن يحسن الناس به الظن ويأمنونه على مصالحهم يعتبر في حكم الاختيار ، إلا أنه ليس إلاترشيحا في واقع الامر وفي فقه الفقهاء والاختيار لا يكون ولا يصح إلا ممن لهم حق الاختيار .

وأبو بكر لا يملك أن يختار الخليفة بعده وإن كان يقوم على أمر الجماعة لأنه نائب الجماعة عليها لمهمةمعينة يراعى فيها شخصية النائب ،وليس للنائب أن يختار غيره ما دامت النيابة ملحوظا فيها شخصية النائب ، كذلك فان الجماعة استخلفت أبا بكر لمدة حياته فاذا صح له أن يختار من ينوب عنه في حياته فليس له أن يختار من يقوم مقامه بعد وفاته ، لأن نيابته تنتهي بوفاته فاذا اختار من يقوم على أمر الأمة بعد وفاته فقد خرج على حدود نيابته ، ولا يكون اختياره الا ترشيحا ، إن شاءت الجماعة التي هي صاحبة الحق في الاختيار أن تأخذ به فعلت ، وإن شاءت رفضت ولا تثريب عليها .

ولو كان فعل أبي بكر اختياراً واستخلافاً فعليا-لما كان هناك ما يدعو لان يبايع الناس عمر بعد ذلك ، فبيعة الناس لعمر هي التي جعلته خليفة وما انعقدت خلافته إلا بهذا دون غيره .

وإذا كان ما فعله أبو بكر ليس إلاترشيحا فينبغي أن نعلم أن أبا بكر لم يرشح عمرا للخلافة إلا بعد أن استشار خاصة الصحابة ، فلما قبلوا هذا الترشيح قبل به وعلق الأمر على اختيار عامة الناس .

وبعد فان أبا بكر أبر واتقى من أن يعطل قول الله : « وأمرهم شورى بينهم واختيار الخليفة القائم لمن يتولى بعده دون رجوع لأهل الرأي وتمكينهم من الإختيار في حرية تامة ليس إلا تعطيلا صريحا لهذا النص الذي أوجب الله على الأمة العمل به .

بيعة عثمان :

ولما طعن عمر طلب منه المسلمون أن يستخلف ، فقال : أنظر فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ولن يضيع الله

دينه ، فخرجوا ثم عادوا فقالوا له يا أمير المؤمنين لو عهدت عهدا ، فقال : ما أردت أن أتحملها حيا وميتا ، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة ، وهم : علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا ، فاذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه .

فلما مات عمر جمع المقداد أهل الشورى في حجرة عائشة باذنها وطلحة غائب فتنافسوا في الأمر ، فقال عبد الرحمن أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد ، فقال : أنا أنخلع منها فرضوا به وأعطوه موثقهم على أن يكونوا معه على من بدّل وغيّر ، وأن يرضوا من يختاره لهم . وأعطاهم موثقه ألا يخص ذا رحم وألا يأل المسلمين نصحا .

وبقي عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها يلقى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن في المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم في الأمر ، حتى أنه لم ينم في الليلة الأخيرة ، وظل يجتمع بهذا وبذاك حتى صلاة الصبح ، وفي صباح اليوم الرابع جمع المهاجرين والأنصار وأهل الفضل والسابقة وأمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التحم المسجد بأهله ، ثم قال : أيها الناس اشيروا علي ، فقال عمار بن ياسر إن اردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا ، وأيد المقداد بن الأسود رأي عمار ، وقال ابن سرحان إن أردت ألا تختلف مع قريش فبايع عثمان ، وأيد هذا الرأي عبد الله ابن ربيعة ، وتشاح الناس ، فقال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ، ودعا عليا وقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده قال : أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي ، قال نعم فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال : اللهم اسمع واشهد أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان ، ثم بايعه فبايع الناس جميعا (١) .

وقدم طلحة في يوم المبايعة وبعد تمامها ، فقال له عثمان : أنت على رأس أمرك ، وإن أبيت رددتها ، قال : أتردها ، قال : نعم ، قال : أكل الناس بايعوك ؟ قال نعم . قال : قد رضيت لا أرغب عما أجمعوا عليه .

هذه هي الوقائع فلننظر فيها لنراها على حقيقتها ، وأول ما يطالعنا فيها أن الناس طلبوا من عمر أن يستخلف فاختار لهم ستة أشخاص ليختاروا من بينهم رجلا واحدا

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

يلي أمر الأمة ، وتعبير الكتب التاريخية يوهم أن الناس طلبوا من عمر أن يختار لهم الخليفة بعده ، ولكنهم في الحقيقة لم يطلبوا منه إلا أن يرشح لهم من يخلفه كما فعل أبو بكر ، لأن الخليفة القائم لا يملك أن يختار خلفه شرعا كما قررنا من قبل ، وإنما يملك أن يرشح للخلافة من يراه أقدر عليها ، ولأن الخلافة لا تنعقد إلا ببيعة أهل الرأي في الأمة ، فكل ما يحدث من اختيار قبل البيعة ليس إلا ترشيحا للخلافة قد يأخذ ذووا الرأي به وقد يهملونه .

ولقد كان اختيار عمر ترشيحا لا شك فيه ، لأنه اختار ستة أشخاص وما يصح أن يلي الأمر الا واحـــدٌ منهم ، وإذا كان عمر قد ترك لهم أن يختاروا من بينهم فإن اختيارهم هذا ليس إلا ترشيحا ثانيا ، أي أن عمر رشح ستة للخلافة على أن يرشحوا هم من بينهم واحدا ، ولو كان الرأي لهؤلاء الستة فقط لما كان عبد الرحمن في حاجة إلى أن يستشير المهاجرين والأنصار والأشراف وأمراء الأجناد ثلاثة أيام بلياليها ، حتى لقد ذكر أنه لم ينم في الليلة الأخيرة ، ولما كان في حاجة لأن يجمع الناس في المسجد بعد الصلاة ويسألهم أن يشيروا عليه ، ولو كان الرأي لهؤلاء الستة دون غيرهم لانعقدت الخلافة بمبايعة خمسة منهم لسادسهم ، ولما كان هنالك ما يدعو لأن يبايع الناس جميعا .

فاختيار عمر إذن كان ترشيحا ، واختيار عبد الرحمن كان ترشيحا ، ولم تنعقد البيعة لعثمان إلا برضاء الجماعة عنه ومبايعتهم إياه ، وإذا كان عبد الرحمن قد اختار عثمان وبايعه فتابعه الناس على ما رأى فما ذلك إلا أنهم يثقون في عبد الرحمن ، وتلك طبيعة البشر في كل الأزمان يتابعون من يثقون فيه ويحسنون به الظن .

بيعة علي :

ولما قتل عثمان ذهب أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار إلى علي يعرضون عليه أن يبايعوه ، فقال : لا حاجة لي في أمركم فترددوا عليه مرارا وصمموا على مبايعته ، فقال : إذن ففي المسجد ، فاجتمع الناس وبايعوه [1] .

وظاهر من هذا أن الخلافة لا تكون إلا بيعة عامة للناس بيعة عن رضا واختيار .

نتيجة لا شك في صحتها :

هذه هي الوقائع التاريخية لبيعة الخلفاء الراشدين الأربعة تؤدي دراستها دراسة تحليلية إلى نتيجة واحدة لا شك في صحتها ، وهي أن البيعة لا تتم إلا باختيار عامة أهل الرأي أو أغلبهم للخليفة ورضاء الخليفة بذلك،وأن اختيار الخليفة القائم لمن يأتي بعده

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٨٠ .

ليس إلا ترشيحا متوقفا على قبول أهل الرأي ، فإن قبلوا هذا الترشيح بايعوا المرشح وإلا رفضوه ورشحوا غيره .

وهذا هو نفسه ما فهمه عمر بن عبد العزيز حينما عهد إليه سليمان بن عبد الملك ، فقد اختاره خليفة من بعده وكتب بذلك كتابا ختمه بخاتمه ، وأمر رجاء بن حيوة بأن يجمع أهل بيته ليبايعوا لمن في الكتاب دون معرفة اسمه فبايعوا . وبعد أن مات سليمان جمع رجاء الناس في مسجد دابق وطلب منهم المبايعة على من سمي في ذلك الكتاب المختوم فبايعوا ، فلما بايعوا فض الكتاب وقرأه عليهم فإذا فيه : (هذا الكتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز . إني قد وليته الخلافة بعدي ومن بعده يزيد ابن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم) ، فلما قرىء الكتاب صعد عمر بن عبد العزيز المنبر وقال : (إني والله ما استؤمرت في هذا الأمر وأنتم بالخيار) ، وفي رواية أخرى (أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم) [1] .

فعمر بن عبد العزيز وهو من خيرة المسلمين علما وفقها ودينا يرى أن بيعة الخليفة لا تكون إلا باختيار من جانب أولي الرأي في الأمة ، وبقبول من جانبه هو ، كما يرى أن اختيار الخليفة السابق ليس بيعة ، وأن مبايعة الناس لمجهول ليست بيعة صحيحة ، ولذلك كله رد الأمر للناس ليختاروه إن شاؤوا راضين غير مكرهين وقد فعلوا .

مدة الخلافة :

وإذا كان الخليفة يعتبر شرعا نائبا عن الأمة في إقامة أمر الله ، وفي القيام على شئون الأمة في حدود أمر الله ، وكان هذان العملان واجبين على الأمة بصفة دائمة ، فإن نيابة الخليفة عن الأمة ليست موقوتة بمدة معينة ، ولكنها تمتد ما طال عمر الخليفة وكان قادرا على مباشرة عمله ، ولم يأت بما يستوجب عزله من النيابة ، إذ لا معنى لتحديد مدة نيابة الخليفة ما دامت واجبة ، وما دام هو قادرا عليها ، صالحا للقيام بشئونها .

ولقد جرت السوابق الإسلامية على أن يبقى الخليفة في منصبه مدى حياته ، ما لم يرغب هو في اعتزال المنصب ، كما فعل الحسن بن علي ومعاوية بن يزيد ، أو ما لم يعزل من منصبه لسبب ما كما عزل إبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد الأمويان .

والواقع الذي تؤيده التجارب التاريخية أن بقاء الخليفة في منصبه إلى وفاته يؤدي إلى

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز ٤٨ ـ ٥٤ .

استقرار أمور الأمة ، ويحول دون الخلاف على شخص الخليفة ، أو التنافس على منصب الخلافة إلا للضرورة القصوى ، وتحصر هذه الضرورة في حالات ثلاث هي : حالة الموت ، وحالة العزل ، وحالة الاستقالة ، والحالتان الأخيرتان نادرتان .

وليس ثمة نصوص صريحة توجب أن يكون الخليفة في منصبه إلى وفاته ، ولكن إجماع الأمة على هذا يقوم مقام النص ، لأن الإجماع من مصادر الشريعة الإسلامية .

عزل الخليفة :

وإذا كان من حق الخليفة أن يبقى في منصبه طول حياته فإن من حق الأمة أن تعزله إذا تغير حاله . لأن اختياره للخلافة مشروط بتوفر شروط معينة فيه ، فإذا ظلت هذه الشروط قائمة فيه فهو قائم في منصبه ، وإذا انتفت عنه كان أهلاً لأن ينفى عن المنصب .

وتتغير حال الخليفة أو الإمام الأعظم ، إما بجرح في عدالته ، أو بنقص في بدنه على ما يرى أبو الحسن الماوردي .

الجرح في العدالة :

هو الفسق وهو على ضربين : أحدهما ما تابع فيه الشهوة ، والثاني ما تعلق فيه بشبهة[1] .

فالأول متعلق بأفعال الجوارح ، وهو ارتكابه للمحظورات ، وإقدامه على المنكرات تحكيما للشهوة وانقيادا للهوى ، كالزنا وشرب الخمر والغصب ، فهذا النوع من الفسق يمنع من انعقاد الإمامة ، ويمنع من استدامتها ، وإذا طرأ على من انعقدت له الإمامة انعزل بفسقه ، فإذا عاد إلى العدالة لم يعد للإمامة إلا بعقد جديد على رأي الماوردي وبعض الفقهاء ، وإن كان من يرى أنه يعود للإمامة دون عقد ولا بيعة ما دام لم يعزل فعلا .

أما الضرب الثاني من الفسق فمتعلق بالاعتقاد ، والمتأول بشبهة تعترض فيتأول لها خلاف الحق ، ومن رأي الماوردي وغيره أن فسق الاعتقاد حكمه حكم فسق الجوارح يمنع من انعقاد الإمامة ويمنع من استدامتها ، على حين يرى بعض علماء البصرة أن الفسق المتعلق بالاعتقاد لا يؤدي إلى عزل الإمام ، بل هناك من يرى أن الفسق بنوعيه لا يترتب عليه العزل ما لم يكن كفرا .

وقد استدل من قال بعزل الخليفة بالكفر دون المعصية بحديث عبادة بن الصامت قال : (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا

---

(١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٦ .

ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان)

والقائلون بالعزل يرون أن المقصود بالكفر هو المعصية ، خصوصا وقد ذكرت روايات أخرى للحديث بلفظ المعصية والإثم بدل الكفر ، فما دام الخليفة أو الإمام قد أتى منكرا محققا يعلمه الناس من قواعد الإسلام فلهم أن ينكروا ذلك، وأن ينازعوا ولاة الأمر في ولايتهم وأحقيتهم لها [١] .

وجمهور الفقهاء يرون كقاعدة عامة ، أن للمسلمين عزل الخليفة للفسق ، وأي سبب آخر يوجب العزل ، مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين ، وانتكاس أمور الدين كما كان لهم نصبه وإقامته لانتظامها وإعلائها .

ربما كانت القاعدة العامة عند جمهور الفقهاء أن للأمة خلع الخليفة أو عزله بسبب يوجبه ، إلا أنهم اختلفوا في حالة ما إذا استلزم العزل فتنة ، فرأى فريق أن يعزل الخليفة لسبب يوجبه ولو أدى ذلك إلى فتنة ، ورأى فريق أنه إذا أدى العزل لفتنة احتمل أدنى المضرتين ، ورأى الفريق الثالث أن لا يعزل الخليفة إذا استلزم العزل فتنة ولو أنه مستحق العزل بفعله [٢] ....

نقص البدن :

أما ما يطرأ على الخليفة فيغير حاله ويدعو إلى عزله فينقسم إلى ثلاثة أقسام على ما يرى الماوردي والفراء :

الأول : نقص الحواس : ومنه ما يمنع عقد الإمامة أو استدامتها وهو زوال البصر أما الصمم والخرس فيمنعان من عقد الإمامة ولكن اختلف في منعهما من استدامتهما .

الثاني : فقد الأعضاء : ومنه ما يمنع من عقد الإمامة ومن استدامتهما وهو ما يمنع العمل كذهاب اليدين أو يمنع من النهوض كذهاب الرجلين ، واختلف فيما منع من بعض العمل ، وبعض النهوض ، فقيل يمنع من استدامة الإمامة وقيل لا يمنع .

---

(١) نيل الاوطار ج ٧ ص ٨١ وما بعدها ـ الخلافة ص ٣٨ وما بعدها ـ الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٦ ـ الاحكام السلطانية للفراء ص ٤ ـ المسامرة ج ٢ ص ١٦٧ .

(٢) شرح الزرقاني ج ٨ ص ٦٠ ـ حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ٤٢٩ ـ أسنى المطالب وحاشية الرملي ج ٤ ص١١١ ـ كشاف القناع ج٤ ص٩٥ ـ المواقف ٦٠٧ ـ الملل والنحل ج ٤ ص ١٧٥ ، ١٧٦ ـ المحلى ج ٤ ص ١٧٥ ، ١٧٦ ـ المحلى ج ٩ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

الثالث : نقص التصرف : وهو نوعان حجر وقهر . فأما الحجر فهو أن يستولي عليه من أعوانه من يستبد بتنفيذ الأمور من غير تظاهر بمعصية ولا مجاهرة بمشاقة ، فلا يمنع ذلك من إمامته ولكن ينظر في أفعال من استولى على أموره فإن كانت جارية على أحكام الدين ومقتضى العدل جاز إقراره عليها ، وإن كانت أفعاله خارجة عن حكم الدين ومقتضى العدل لم يجز إقراره عليها ، ولزمه أن يستنصر من يقبض يده ويزيل تغلبه .

وأما القهر فهو أن يصير مقهورا في يد عدو قاهر لا يقدر على الخلاص منه فيمنع ذلك من عقد الإمامة له لعجزه عن النظر في أمور المسلمين ويمنع من استدامتها لليأس من خلاصه وللأمة فسحة في اختيار غيره (١) ...

اختيار الامام أو الخليفة

نستطيع هنا أن نقول ان الإمامة تمر في ثلاث مراحل :

أولها : مرحلة الترشيح للإمامة ، فيرشح الإمام السابق ، أو أحد أهل الرأي الإمام اللاحق . ومن الأمثلة على ذلك ترشيح أبي بكر لعمر أو أبي عبيدة في اجتماع السقيفة ، وترشيح عمر لأبي بكر بعد أن رفض عمر وأبو عبيدة ترشيح أبي بكر لهما ، وكذلك ترشيح أبي بكر لعمر عندما حضرته الوفاة ، وترشيح عمر للستة بعد أن طعن .

ثانيها : مرحلة الاختيار وقبول الترشيح ، وفي هذه المرحلة يختار أهل الشورى واحدا من المرشحين إذا تعدد المرشحون ، أو يوافقون على اختيار المرشح إذا كان واحدا .

ومن الأمثلة على ذلك موافقة الناس على ترشيح أبي بكر لما قريء عليهم خطاب أبي بكر ، واختيار عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان ومتابعة الناس له في هذا الاختيار .

ثالثها : مرحلة البيعة ، وهي مظهر الاختيار والدليل عليه ، وقد تندمج مرحلة البيعة في مرحلة الاختيار فلا يكون بينهما فاصل زمني كما حدث في بيعة أبي بكر ، فقد رشحه عمر وقال له : أمدد يدك أبايعك ، فبايعه وتتابع الناس على ذلك .

والبيعة تقليد إسلامي أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأول بيعة في الإسلام ذات شأن هي بيعة الأنصار في مكة المكرمة وتسمي بيعة العقبة ، بايع فيها سبعون أنصاريا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال لهم : (على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٥ ، ٢٠ ـ الاحكام السلطانية للفراء ص ٤ ، ٦ .

منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة) .

وقد نزل القرآن ببيعة النساء في قوله تعالى « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » الممتحنة : ١٣ .

وكان الصحابة يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام وعلى الهجرة وعلى الجهاد ، بل بايعوه على عدم الفرار من القتال كما حدث في الحديبية .

وروي عن ابن عمر أنه قال : كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يلقننا هو (فيما استطعت) .

والأصل في البيعة أن تكون على الكتاب والسنة وإقامة الحق والعدل من قبل الإمام ، وعلى السمع والطاعة في المعروف من قبل أهل الشورى ، وتتم المبايعة إذا بايع جميع أهل الشورى أو أكثرهم .

وإذا تمت المبايعة انعقدت الإمامة ، ووجب على الإمام أن يقوم بأمر الله في المسلمين ، وأن يقيم فيهم كتاب الله وسنة رسوله ، لا يألو جهدا في إحقاق الحق وتحقيق العدل ، وكان على أهل الشورى وعلى الأمة بصفة عامة أن يسمعوا للإمام ويطيعوه في حدود طاعة الله ، أما أهل الشورى فعليهم ذلك التزاما بالبيعة التي بايعوا ، وأما أفراد الأمة فالتزاما ببيعة نوابهم الذين ينوبون عنهم ويمثلونهم وهم أهل الشورى ، وليس لأحد الفريقين أن ينزع يدا من طاعة ما لم يحدث الإمام ما يقتضي الخروج على طاعته ، وقد حرم الإسلام هذا واعتبره غدرا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لكل غادر لواء يعرف بقدر غدرته وإن أكبر الغدر غدر أمير عامة) وقوله : (من نزع يدا من طاعة فلا حجة له يوم القيامة) .

والأصل أن يضع المبايع يده في يد من يبايعه ثم يأتي بعبارة البيعة ، وقد سجل القرآن شكل البيعة في قول الله جل شأنه : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » الفتح : ١١ . كذلك سجل الحديث هذا الشكل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليعطه ما استطاع) .

وقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يضع يده في يد المبايعين ، وأنه انتدب عمر ليأخذ بيعة النساء [1] ، وجرى الأمر بعد الرسول على أن يتقبل الخلفاء البيعة

---

(١) أن تستشار المرأة وهي في خدرها في قضية عامة لا بأس في ذلك وأن تؤخذ منها البيعة في بيتها بعد الانتخاب لا بأس في ذلك وهذا الاخير في شأن الخلافة فقط .

من الحاضرين ، وأن يتقبلها نوابهم ممن لم يحضر مجلس الخليفة .

طلب الولاية :

ويجمل بأهل الشورى أن لا يختاروا أو يبايعوا من يطلب الإمامة أو يحرص عليها ، فإن طلب الولاية والحرص عليها مكروه في الاسلام إن لم يكن محرما ، وأغلب طلاب الولاية الحريصين عليها إنما يطلبونها للسلطان والجاه والاستعلاء على الناس ، وما تؤدي ولاية هؤلاء غالبا إلا إلى الفساد والإفساد .

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة والحرص عليها ومنعها من طالبيها ، فعن أبي موسى أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلان من بني عمه فقال أحدهما يا رسول الله أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل ، وقال الآخر مثل ذلك فقال : (إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا يسأله أو أحدا حرص عليه) وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت اليها) وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة) .

وأولى بالمنع من الولاية من طلبها وهو ضعيف ليس أهلا لها ولا يقدر على القيام بحقها ، وقد منعها الرسول صلى الله عليه وسلم أبا ذر لضعفه فيروى عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله ألا تستعملني قال : (إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) .

واجبات الإمام وحقوقه

إذا اختار أهل الشورى إماما وبايعوه ، ثبتت له الإمامة بالبيعة ، ولزوم الإمامة له يلزمه واجبات يسأل عن ادائها ، ويجعل عليه مسئوليات لا حصر لها ، ولكنه في الوقت نفسه يرتب له حقوقا على الأمة تظل قائمة ما قام الإمام بواجباته ولم يقصر في القيام على مسئولياته .

واجبات الامام :

تنحصر واجبات الإمام على كثرتها في واجبين أحدهما إقامة الإسلام ، والآخر إدارة شئون الدولة في حدود الإسلام .

وإذا قلنا ان من واجب الإمام إدارة الدولة في حدود الإسلام ، فمعنى ذلك أن من واجبه أن يدير شئون الدولة في حدود الشورى ، لأن الإسلام يجعل الشورى فريضة على

المسلمين ، ويلزم الحكام أن يستشيروا المحكومين في كل أمور الحكم ويأخذوا برأيهم أو برأي أكثريتهم إن لم يجمعوا على رأي واحد .

وقد حاول بعض الفقهاء أن يعدد واجبات الإمام فحصرها في عشرة أشياء [1] :

أحدهما : حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة أي إقامة الدين على وجهه الصحيح بتعبيرنا العصري .

الثاني : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم ، أي إقامة العدل بين الناس وتنفيذ الأحكام .

الثالث : حماية البيضة والذب عن الحوزة ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين ، أي نشر الأمن في الداخل .

الرابع : إقامة الحدود لتصان محارم الله عن الإنتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف أو استهلاك . أي تنفيذ عقوبات جرائم الحدود ، وجرائم القصاص .

الخامس : تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بغرة ينتهكون بها محرما ويسفكون فيها دما لمسلم أو معاهد . أي حماية الأمن الخارجي بالعدة والاستعداد الدائمين .

السادس : جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة .

السابع : جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير عسف .

الثامن : تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

التاسع : استكفاء الأمناء وتقليد العظماء فيما يفوضه إليهم من الأعمال .

العاشر : أن يباشر بنفسه مباشرة الأمور وتصفح الأحوال ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة .

هذه هي واجبات الإمام كما حددها بعض الفقهاء ، وهي تدخل جميعا تحت واجبين اثنين : هما إقامة الدين ، وادارة شئون الدولة في حدوده .

حقوق الإمام :

وللإمام حقان في مقابل قيامه بواجباته ، أحدهما حق له على الناس ، والثاني حق له في مال المسلمين .

حق الإمام على الناس :

---

(١) الأحكام السلطانية للفراء ص ١١ - والأحكام السلطانية للماوردي ص ١٥ .

وحق الإمام على الناس هو حق السمع والطاعة ، ولكن هذا الحق ليس حقا مطلقا وإنما هو مقيد بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » النساء : ٥٩ :

فالطاعة واجبة لأولي الأمر في حدود ما أنزل الله بدليل أن ما يتنازع فيه يرد إلى أمر الله ورسوله ، فمن أمر منهم بما يتفق مع ما أنزل الله فطاعته واجبة ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم حدود طاعة الناس لأولي الأمر فقال : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وقال : (إنما الطاعة في المعروف) وقال : (السمع والطاعة على المرء فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) ، وقال : (إنه سيلي أمركم من بعدي رجال يطفئون السنة ويحدثون بدعة ، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها . قال ابن مسعود : يا رسول الله كيف بي اذا أدركتهم قال : ليس يا ابن أم عبد طاعة لمن عصى الله — قالها ثلاث مرات) .

وهكذا قطع القرآن والسنة في أن طاعة أولي الأمر لا تجب إلا في طاعة الله ، وأن ليس لأحد أن يطيع فيما يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

حق الإمام في مال المسلمين :

عرفنا أن الإمام نائب عن الأمة ، والنيابة لا تقتضي بطبيعتها أن يأخذ النائب أجراً على عمله ، ولكن لما كان تفرغ الإمام للنيابة يمنعه من تحصيل عيشه فقد رؤي أن يفرض للإمام من بيت مال المسلمين ما يقوم بعيشه وعيش أهله الذين يعولهم فضلا عما يصيبه كفرد من الأموال العامة التي تقسم بين الجميع كنصيبه في الفيء وحقه من العطاء .

* * *

الوطـــن

١ ــ إن وطن الأمة الإسلامية هو الأرض كلها ، إذ أن الأرض لله « لله ملك السموات والأرض » والمسلمون هم أهل الله في أرضه « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض » « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

وعلى هذا فإن الله عز وجل قد أعطى المسلمين حق تملك الأرض كلها لتكون كلها وطنا لهم ، وجعل أخذ هذا الحق فرضا عليهم «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » والفتنة في الأرض قائمة ما دام سلطان لغير الله ، أما إذا استقر السلطان لله بخضوع العالم لشريعته . والقائمين بدينه : فعندئذ فقط يتحقق السلام على الأرض إذ السلام هو الإسلام ، ولا سلام بدونه. « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام / أي الإسلام/ لست مؤمنا » وقد وعد الله عز وجل ووعده الحق أن يظهر دينه ، ويعز شريعته ، وهو وعد قائم سابقا ولاحقا « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الإسلام يبلغ ما بلغ الليل والنهار وفي رواية ما بلغ النجم وفي حديث لا يبقى بيت وبر ولا مدر إلا دخلته كلمة الإسلام وإن هذا لكائن باذن الله وعندئذ تصبح الدنيا كلها وطنا للمسلم بلا حدود ولا قيود : ويومئذ يمكن أن تطمئن البشرية وتسعد .

٢ ــ وقبل خضوع العالم لسلطان الله فإن العالم كله ينقسم إلى دارين : دار إسلام ودار حرب ، فدار الإسلام هي التي يكون فيها السلطان للإسلام والمسلمين ، وأما دار الحرب فهي التي لم تخضع لسلطان الإسلام والمسلمين ، ووطن المسلم هو دار الإسلام أنى كان ، ومن أي جنس كان ، إذ لا يرتبط المسلم بطين الوطن ، بل بالعقيدة التي آمن بها وبوطنها ، وقد عاب الله على من كانت أرضه فوق عقيدته فقـــال : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أواخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا » .

وإذا كان وطن المسلم دار الإسلام فهل تجب عليه الهجرة إليها إن لم يكن فيها ؟ .

قال الحنابلة (إن قدر على إظهار دينه في دار الكفر يسن له أن يهاجر إلى دار الإسلام ليتمكن من الجهاد وتكثير عدد المسلمين) .

يفهم من هذا أن الهجرة عندهم سنة فقط في حالة تمكن المسلم من إقامة دينه ، أما إذا عجز عن إظهار دينه بمحل يغلب فيه حكم الكفر والبدع المضللة بحيث يمنع من إظهار الواجبات أو يخاف ، وكذا إن خاف الإكراه على الكفر ، أو تكفير ذريته ، فانه في هذه الحالة يفترض عليه أن يهاجر لقوله تعالى « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم قالوا : كنا مستضعفين في الأرض قالوا : ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم»

وقال الحنفية : الهجرة واجبة من دار الكفر والبدعة إلى دار الإسلام ...

وقال الماوردي : وعلى ذلك مذهب الشافعية : (إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام) .

وفي فتح الباري عن البغوي في شرح السنة : (ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار أي ما دام في الدنيا دار كفر فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أن يفتن عن دينه ومفهومه أنه لو قدر أنه لا يبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها .

وهؤلاء الذين لا يقيمون في دار الإسلام إذا استنصرونا في الدين نصرناهم إلا على ناس بيننا وبينهم عهود قال تعالى :« وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » .

٣ ــ ودار الحرب يمكن أن تنقسم الى قسمين :

١ ــ دار حرب بيننا وبينهم ميثاق وعهد ويجعلها بعضهم دارا مستقلة يسميها دار العهد.

٢ ــ دار حرب لا يوجد بيننا وبينها عهد وميثاق .

كما يمكن أن تكون دار الإسلام على أقسام :

١ ــ دار العدل : وهي الدار التي تقيم الإسلام وتحمي السنة وعلى رأسها الخليفة الشرعي للمسلمين .

٢ ـ دار البغي : وهي التي سيطر عليها الخارجون على الإمام الحق ولو حكموا بالإسلام .

٣ ـ دار البدعة وهي التي سيطر عليها المبتدعون وأظهروا فيها بدعتهم .

٤ ـ دار الردة : وهي التي ارتد أهلها أو سيطر المرتدون عليها أو كان أهلها كافرين خضعوا لحكم المسلمين ثم نقضوا العهد وسيطروا عليها .

٥ ـ الدار المسلوبة : وهي الدار التي استولى عليها كافرون من خارج ارض الإسلام وكانت في الأصل دار إسلام .

وهذه الأقسام الخمسة كلها داخلة في دار الإسلام قال أبو حنيفة رحمه الله :

إذا غلب أهل الحرب على دار من دورنا أو ارتد أهل مصر وغلبوا وأجروا أحكام الكفر، أو نقض أهل الذمة العهد وتغلبوا على دارهم، ففي كل هذه الصور لا تصبح دار الإسلام دار حرب إلا بشروط ثلاثة :

١ ـ باجراء أحكام أهل الشرك حتى لا يحكم فيها بأحكام الإسلام بتاتاً ولو بقسم منها .

٢ ـ باتصالها بدار الحرب بألا يتخللها بلد من بلاد الإسلام .

٣ ـ بألا يبقى مسلم ولا ذمي فيها آمنا بالأمان الأول أي أمان الإسلام بل بنوع من الأمان يختلف .

وعلى هذا فمذهب أبي حنيفة يعتبر مثل الهند وفلسطين وتركستان أجزاءً من دار الاسلام .

وكذلك البلاد التي تحكمها أحزاب كافرة مرتدة أو التي يسيطر عليها ديكتاتور كافر وكانت في الأصل دار إسلام، فإنه لا يعترف باستقلالها أو انفصالها عن دار الإسلام .

ما قدمناه هو اجتهاد أبي حنيفة أما أبو يوسف ومحمد تلميذاه فقالا : تصبح دار حرب بشرط واحد وهو إظهار حكم الكفر قالوا : وهو القياس وعلى هذا الرأي لا نستطيع أن نعتبر الآن دار إسلام في العالم إلا قطعاً صغيرة من العالم الإسلامي وبتساهل .

وعلى كلٍ الدار التي يعطيها المسلم ولاءه ويعتبرها وطنه هي دار العدل من بين هذه الدور كلها .

٤ ـ وإذا فرض أنه لا توجد دار عدل بأن لا يكون خليفة للمسلمين ثم لا يحكم

بالإسلام وشرائعه ولا يلتزم الناس به، فعندئذ تصبح دار الإسلام كلها دار ردة أو بدعة أو فسوق،وفي هذه الحالة يجب على المسلمين عامة وعلى أهل الحل والعقد خاصة فريضة إقامة الإمام والجهاد معه حتى نرجع أرض الإسلام كلها،فتصبح دار عدل،ولا يصح أبدا ولا يجوز أن يبقى المسلمون ساعة واحدة بلا خليفة أو إمام، وبلا دار ينفذ فيها حكم الاسلام . قال فقهاء الشافعية : (إذا فقد الإمام تنتقل أحكام الخلافة إلى أعلم أهل زمانه) وإذن فإن فقهاء المسلمين لا يتصورون أن تخلو أرض الإسلام من خليفة للمسلمين يحكم أرض الإسلام بالإسلام .

٥ — ونتيجة لما تقدم نقول :

إن وطن المسلم هو دار الإسلام على شرط أن تكون دار عدل ، ولا تكون دار عدل إلا بخلافة شرعية تقيم أحكام الإسلام بنظام السنة ، فإن لم تكن دار الإسلام كلها كذلك فالمنطقة التي تتوفر فيها هذه الشروط هي التي تكون دار عدل وهي التي يتمثل فيها وطن المسلم الذي يرتبط فيه عاطفيا وشعوريا وولاء وتجب هجرته إليه على رأي كما رأينا .

٦ — وفي حالة كون دار الإسلام كلها دار عدل ، فإن على إمام المسلمين أن يعد العدة ، ويقيم الجهاد لتوسيع هذه الدار حتى يصبح العالم كله دار إسلام ليصبح وطنا للأمة الإسلامية .

أما في حالة كون دار الإسلام غير دار عدل ، فأول واجب على المسلمين أن يوجدوا دار العدل ، وأن يقيموا خلافتهم ثم يبدأوا عملهم بإعادة دار الإسلام كلها إلى حظيرة دار العدل ، فيسقطون الحكومات المرتدة والظالمة والمبتدعة ، ويحاربون الحكومات الكافرة ، ويحررون الأرض السليبة ، ثم ينساحون في الأرض حتى يخضعوها لسلطان الله ويستردوها من أيدي الغاصبين .

ومتى وجدت دار العدل فقد وجب على حكام المسلمين جميعا أن يخضعوا لها ، وإذا لم يخضعوا لها يكونون بغاة ظالمين يجوز حربهم وقتلهم ، إذ أن وحدة الأرض الإسلامية كوحدة الأمة الإسلامية ، لا يجوز أن يقف أمامها حائل ، ومن حال دون ذلك فقد أهدر دمه وماله ولو كان مسلما .

وقد قاتل علي معاوية من أجل هذا المعنى .

وهذا الذي ذكرناه كله فرائض ولا تسقط هذه الفرائض إلا في حالة واحدة وبشكل مؤقت ، وذلك عندما تكون قوة دار العدل غير متكافئة بالمنظار الإسلامي مع الدور

الأخرى ، بحيث يكون انتصارهم علينا قطعي الوقوع ، ففي هذه الحالة لا نحارب بل نلجأ إلى الوسائل الأخرى من إثارة حرب العصابات في داخل تلك الدور ، والعمل السياسي إلى غير ذلك ، وقد أجاز فقهاء المسلمين في حالات ضعفنا أن نرضي عدونا بأموالنا ريثما نعد قوتنا .

وعلينا هنا أن نلاحظ ملاحظتين :

أ ـ أن الميزان الذي نزن به قوتنا هو ميزان الإسلام ففي ميزان الإسلام الرجل منا برجلين منهم .

ب ـ لا يعني ضعفنا الحالي الاستمرار فيه بل يفترض علينا أن نحاول سد العجز الموجود عندنا ، إنْ من ناحية العتاد أو الرجال أو التدريب والسلاح ، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

٧ ـ ولعل أهم وصية توصى بها دار العدل حين قيامها ووجودها أن تطهر ذاتها من أعدائها المرتدين والمنافقين ورؤساء البدعة فتبطش بطشة واحدة بكل ما يجوز قتله كالزنادقة والملاحدة والوجودية والمجاهرين بالمعصية المصرين عليها ...

إذ ما لم تبطش فسيبطش بها ، وبدون هذا الاستئصال للمرتدين وأضرابهم لا يمكن أن يقوم الإسلام ، وقد يستطيع أعداء الله أن يؤلبوا المسلمين على أولياء الله .

« وفيكم سماعون لهم » « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » .

انه لا يهدم دار العدل شيء مثل أن يكون فيها مرتدون ثم لا يقتلون ، وفاسقون ثم لا يلاحقون .

٨ ـ رأينا أن دار الإسلام يمكن أن تشمل الأرض كلها ، ويمكن أن تشمل جزءا صغيرا من الأرض ، ويمكن أن تشمل أجزاءا وقد يكون المسلمون سكان دار الإسلام أصحاب لسان واحد ، وقد يكونون أصحاب ألسنة مختلفة ، وقد يكونون أصحاب مذهب فقهي واحد وقد يكونون أصحاب مذاهب .

فعلى أي أساس في حال سعة دار الإسلام تكون التقسيمات الإدارية ؟ هل تكون على أساس الحدود والظواهر والحواجز الجغرافية الطبيعية ؟ أو يكون على أساس اشتباك المصالح ؟ أو تكون على أساس قومي لساني يراعى فيه لسان القوم ؟ أو تكون على أساس مذهبي يراعى فيه مذهب مجموعة من الناس ؟ أو أنها تتبع رأي الخليفة المجرد مع مجلس

شوراه بصرف النظر عن أي واحد من هذه المعاني ؟ .

ثم إذا كان هنالك غير مسلمين قد فتحت بلادهم ، ورغبوا أن تكون لهم ولاية خاصة بهم يحكمونها بأنفسهم مع خضوعهم لدولة الإسلام وقيامهم بالتزاماتهم كاملة نحوها ، من دفع جزية ، والتزام بأحكام الاسلام في المعاملات ، وسماح للمسلمين في الدعوة إلى الله بحرية هل لهم ذلك ؟ ...

فيما يتعلق بهذه القضايا لا توجد أمامنا نصوص سوى السوابق الدستورية التي صدرت عن الخلافة الراشدة في هذه القضايا ، وهي سوابق نحن ملزمون بها ، يقول عليه السلام (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ) وما عدا هذه السوابق فالأمر تابع لاجتهاد الإمام ورؤية ما فيه المصلحة فلنستعرض بعض هذه السوابق مع الإشارة إلى التغييرات التي طرأت على المجتمع الإسلامي خلال العصور لنرى ما إذا كان واقعنا تنطبق عليه هذه السوابق لنصل إلى القاعدة التي يمكن أن نطبقها في عصرنا .

٩ ـ يلاحظ بالنسبة لموضوعنا ما يلي :

١ ـ إن الإمام هو الذي كان يعين الولاة ويقسم الولايات وقد يكون تقسيم الولايات على أساس الواقع ، فمصر قبل الإسلام كانت ولاية رومانية ، وتصبح بعد الفتح الإسلامي ولاية . وقد يكون هذا الواقع قوميا فخراسان ولاية سكانها فرس ،وقد تكون بعض الولايات منفصلة عن بعضها ثم تضم كما ضم الشام كله لمعاوية في عهد عمر .

٢ ـ كانت الخلافة الراشدة تحرص على أن يكون سكان الولاية راضين عن أميرهم ، حتى إذا شكوا أميرا عزل ، وهذه سنة عمر حتى ولو كان الأمير مظلوما كما في حادثة سعد بن أبي وقاص ، ونفهم من هذا أن رغبة الناس تراعى في أميرهم وهذا واضح من النصوص .

(إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم) فحق التأمير كان لهم (من أم قوما وهم لإمامته كارهون لم تجاوز صلاته أذنيه) وامرة الصلاة من أهم أنواع الإمارات في الإسلام .

٣ ـ كما يلاحظ أيضا أن الخلافة الراشدة كانت تختار لولاياتها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط على أساس أنهم يمثلون أنضج طبقة في المجتمع الإسلامي ، والولايات المفتوحة ولو أسلم أهلها فإنهم يبقون حديثي عهد في الإسلام فشيء طبيعي عادي أن لا يلي ولايات المسلمين إلا أرفع طبقة في حزب الله .

هذه ملاحظات ثلاث نذكرها لتلقي ضوءا على موضوعنا ونذكر ملاحظة أخرى

لنفس الغرض حول طبيعة المجتمع في زمن الخلافة الراشدة : إنه حتى انتهاء الخلافة الراشدة كان المسلمون يشكلون وحدة فكرية ، فلم تكن مذاهب فكرية ، ولم تكن مذاهب اعتقادية سوى بذور عند أفراد وفي حدود ضيقة هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فإن فترة الخلافة الراشدة لم ينضج خلالها من أبناء البلاد المفتوحة في الإسلام إلا القليل جدا .

وبعد هذه الملاحظات نقول : إن العالم الإسلامي اليوم وقد عاش ابناؤه في الإسلام مئات السنين قد أصبح في كل قطر فيه رجال ناضجون في الإسلام من أبناء كل بلد ، وأن الواقع العملي للعالم الإسلامي الآن أنه مؤلف من ألسنة مختلفة،وأن الواقع العملي للعالم الإسلامي أنه مؤلف من مذاهب فقهية ،كل مذهب يغلب على بقعة، أو مذاهب عقائدية كل مذهب يغلب على بقعة .

وأمام هذا الواقع هل هناك مانع شرعي يمنع من ملاحظة هذه المعاني في التقسيمات الإدارية. فالمنطقة ذات اللسان الواحد يكون لها ولاية، والمنطقة الشيعية تكون لها ولاية ، والمنطقة ذات المذهب الفقهي الواحد يكون لها ولاية ، وتختار كل ولاية حكامها منها ، مع الخضوع للسلطة المركزية المتمثلة بالخليفة . إذا رجعنا إلى الملاحظات السابقة وجدنا أن هذا كله لا مانع منه إذا شاء أمير المؤمنين ووجد المصلحة في ذلك ، والمهم أن تكون هناك رغبة حقيقية عند سكان المنطقة ، وهذه الرغبة تمثل رغبة الأكثرية ، إذ قد يكون واقع قطر أن أبناءه لهم ألسنة مختلفة ، ومذاهب فقهية مختلفة ، ويحبون أن يشكلوا مع بعضهم ولاية واحدة تجمعهم روح الإخاء الإسلامي العام .

وينبغي هنا أن نلاحظ ملاحظة هي أن أمير المؤمنين عليه أن يحتاط ، فتكون القوة العملية تحت سلطانه دائما ، بحيث لا تستطيع ولاية الاستقلال أو السيطرة أو شق عصا الطاعة .

هذا بالنسبة للمسلمين ، أما بالنسبة لغير المسلمين ، فإننا نلاحظ أن فقهاء المسلمين لا يرغبون أن يسكن غير المسلمين في بلدان المسلمين بحيث يشكلون تجمعا له شوكة وقوة ، بل يرون أن يكون لغير المسلمين أماكن خاصة بهم ، أو إذا دخلوا بلدا مسلما ليسكنوا فيه منعوا من التجمع في مكان وفرقوا به بحيث لا تكون لهم شوكة ، حتى قال فقهاء الحنفية : (الذمي إذا اشترى دارا في المصر لا ينبغي أن تباع منه فلو اشترى يجبر على بيعها من المسلم وقيل لا يجبر إلا إذا كثر) .

١٠ — وشيء عادي أن يكون على رأس كل ولاية أمير ينوب عن الإمام في حكم

ولايته ، وشيء عادي أن تتوفر في الأمير صفات خاصة ، لأن مهمته هي نفس مهمة الإمام في حدود ولايته من حيث إقامة الإسلام وإدارة شئون المسلمين وقد قال عمر :

(يا أيها الناس إني والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا من أموالكم ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم فمن فُعِلَ به شيء من ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه) وفي رواية (أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم فمن فعل به غير ذلك فليقم) .

١١ ـ وأخيرا نقول :

إن على المسلمين عامة وعلى مسلمي كل قطر خاصة أن يجعلوا قطرهم دار عدل ، وأن على هذه الأقطار أن تتحد لتشكل وطنا واحدا يقسم إداريا بشكل معقول ويرضي المسلمين ، ويكون لكل ولاية دستورها الإسلامي ونظامها الداخلي . ويكون لمجموع الولايات كذلك دستورها ونظامها الداخلي ، على أن تكون تفصيلات ذلك كله مستمدة من الكتاب والسنة ، والسوابق الدستورية للخلافة الراشدة ، ومصلحة المسلمين ، وعلينا أن نتذكر بعد هذا أن العمل لهذا فريضة :

فأن يكون في كل قطر إسلامي حكومة إسلامية فريضة .

وأن تتحد هذه الأقطار لتشكل دار العدل فريضة .

وأن تسعى دار العدل لإنهاء الأوضاع الشاذة من دار الإسلام فريضة .

وأن تسعى دار الإسلام لتعميم الإسلام في العالم فريضة .

والعمل من أجل هذا كله فريضة واجبة على كل مسلم .

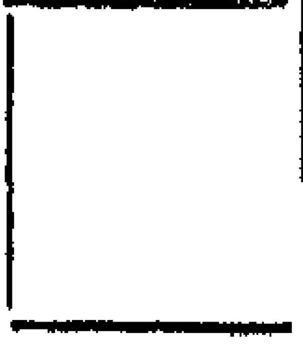
* * *

وإلى الباب الثاني من هذا الفصل الذي جعلناه مع الخاتمة الجزء الثالث من الأصل الثالث .

* * *

فهرست

صفحة



الأصلُ الثالث
الإسلام

دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة:
الله، الرسول، الإسلام

الأصل الثالث

الإسلام

الجزء الثالث

تأليف
سعيد حوى

راجعه الأستاذ
وهبي سليمان الغاوجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الباب الثاني

السياسات العامة

السياسة الاقتصادية

عند الكلام عن السياسة الإقتصادية في الإسلام، نحب ألا نخلط بين شيئين :بين قوانين الحياة الإقتصادية كقانون العرض والطلب ، وبين الجانب التشريعي الذي يمثل الحياة الاقتصادية إذ السياسية الاقتصادية لها علاقة بالجانب التشريعي فقط، أما الحياة الاقتصادية فهي شبيهة بقوانين الكون ، فكما لا يتوقع أن يكتب في كتاب تشريعي قانون الجاذبية، أو قانون القوة النابذة، كذلك لا يتوقع أن يكتب في كتاب يتحدث عن سياسة التشريع الاقتصادي قوانين الحياة الاقتصادية .

إن قوانين الحياة الاقتصادية تكتشفها الملاحظة والتجربة والتتبع والاستقراء والإحصاء ، ولها كتبها الخاصة بها ، وليس هذا من التشريع .

أما التشريع الاقتصادي فإنه يهتم بأن تكون العلاقات الاقتصادية قائمة على العدل ، وأن تكون لصالح الإنتاج ، كما يهتم بحل المشاكل التي تنتج عن الحياة الاقتصادية وأمثال هذا من القضايا .

وأي نظام اقتصادي كامل لا بد أن يتحدث عن جوانب منها: قضية التملك، طرقه، وسائله المشروعة وغير المشروعة ، الحقوق فيه ، مآله ، ومنها : واجبات الدولة في الحياة الاقتصادية وواردات الدولة ونفقاتها ، ومنها حل مشاكل الأمة الاقتصادية ، وسنعرض نحن في هذا البحث إلى هذه الجوانب كلها في الاسلام ، وإلى غيرها كذلك ، وسنكتب نتيجة لذلك أربعة أبواب :

الباب الأول : نظام الملكية في الإسلام .

الباب الثاني : حل المشاكل الاجتماعية الاقتصادية .

الباب الثالث : واردات الدولة الإسلامية ونفقاتها وتنظيم بيت المال .

الباب الرابع : الأسس التي يقوم عليها التخطيط الاقتصادي للأمة الاسلامية .



نظام الملكية في الإسلام

أ ــ قبل البدء في شرح تنظيم الإسلام لقضايا التملك ، ينبغي أن يكون واضحاً في ذهننا بديهيات ثلاث :

١ ــ أن المساواة التامة بين الناس في شئون الملك مستحيلة ، ولنضرب على ذلك مثالاً : لو أتينا إلى بلدة وحاولنا أن نقيم فيها مساواة مطلقة في هذا الموضوع ، فإننا عاجزون مبدئياً ، إذ فيهم الصغير والكبير ، وإعطاء هذا مثل هذا ، نوع من أنواع عدم المساواة ، ولنفرض أننا فعلنا ذلك ، وتركنا الناس بعدها سنة يعملون كل بجهده وإمكانياته المالية والجسمية والعقلية والنفسية فهل تبقى المساواة موجودة بعد هذه السنة ؟ حتماً لا ؛ فلو حاولنا أن نعيد المساواة مرة ثانية ؛ بأن نأخذ ممن معه أكثر لمن معه أقل فماذا يحدث ؟ سيحدث أن الذي بذل جهداً أكثر حتى كثر ماله ، سيترك بذل الجهد لما يرى من عدم استفادته منه ، والذي لم يبذل جهداً سيزداد كسلاً لرؤيته وصول الأموال إليه من غير تعب ، ومهما حاولت أن توجد رقابة فإنك لن تستطيع أن تضع الأمور في مواضعها ، إذ ما أكثر ما تحتاج إلى رقباء ، ليس لهم عمل إلا الرقابة ، وفي هذا تعطيل قسم كبير عن الإنتاج ، ولا تتيسر الرقابة الدائمة في كل حين ، إذن التفكير في هذا من الأساس خاطىء ، ولذلك ذكر الله في القرآن أن الحياة البشرية لا تستقيم إلا بتفاضل الناس في الرزق ، إذ هو سنة من سنن الله في قضايا الإقتصاد ، يقول جل جلاله : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق .. » وبين الحكمة في ذلك : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » ، « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .. » فلولا أن يخدم الناس بعضهم بعضاً ، كل على قدر ما أوتي من طاقات لتعطلت مصالح البشر .

٢ ـ وليس من المعقول أن تترك قضايا التملك بلا تنظيم ولا تنسيق ولا ضوابط ، إذ معنى هذا جعل الأمور فوضى بحيث يأ كل القوي الضعيف ، ويؤكل المال بالحق والباطل، ويقوم ميزان الجور ، ويلغى قانون العدل ، وإذن فلا بد من تنظيم عادل كامل مضبوط لقضايا التملك ، يحقق من ناحية العدل الكامل ، ومن ناحية أخرى لا يؤدي إلى ان تصبح الأموال كلها بيد ، أو بأيد قليلة ، إذ في هذه الحالة يكون من نصيب بعض الناس البطر، ومن نصيب القسم الأكبر من البشر الموت ، ولذلك فقد جعل الله عز وجــل هدفاً من أهداف توزيع الثروة في المجتمع الإسلامي ألا تكون بأيد قليلة فقال بعد إذ وزع قسماً من الأموال على بعض الناس معللاً « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

٣ ـ وليس طريقاً صحيحاً أن تكون الدولة مالكة كل شيء ، وأن يكون الشعب كله أجيراً عندها وذلك لأنه :

أ ـ خروج عن اختصاص الدولة ، إذ الدولة مهمتها التنظيم والتنسيق ، وإحقــاق العدل ، ورفع الظلم ، فإذا ما تجاوزت هذا إلى حد أنها استولت على أملاك شعبها ، فإنها تكون قد ظلمت .

ب ـ في حالة كون الشعب كله أجيراً ، فإن نسبة كبرى من الطاقة تضيع ، إذ لن يُخلِصَ الأجير لغيره كما يُخلِص لنفسه .

ج ـ إن الشعب عندما يكون كله أجيراً عند الدولة ، وبيد الدولة كل القوى المادية فإن الإنسان سيكون عبداً لا يستطيع الاحتجاج إذا ظلم، ولمن يحتج إذا كان من يحتج عليه هو الذي يظلمه ويفرض عليه الظلم .

د ـ وأخيراً حتى تضبط الدولة سير هؤلاء الأجراء عامة ، فإنها ستحتاج إلى موظفين كثيرين جداً، لا عمل لهؤلاء إلا تسيير الأمور، وهؤلاء يعيشون عالة على الشعب الأجير كله، وقد يرتشون ، وقد يتكاسلون ، وقد يظلمون ، وقد يتجاوزون الحد ، وكل ذلك شر كبير .

فإذا ما وضحت هذه البديهيات الثلاثة نقول :

إن الإسلام هو النظام الوحيد الذي نظم طرق التملك وقيوده ، والحقوق فيـه ، ومآله ، تنظيماً كاملاً عادلاً فطرياً ، يحقق مصلحة الناس جميعاً بميزان ينسجم مع الهدف الصحيح للإنسان، ومع الشخصية السليمة للإنسان، ومع الحياة الاقتصادية الصحيحة، ومع الحق الذي ليس فيه جور ومع المصلحة التي ليس فيها ظلم، ومع الإنصاف الذي ليس فيه

تعسف ، وكيف لا يكون كذلك وهي شرعة الله وصبغته « ومن أحسن من الله صبغة » وأي نظام للتملك غير الإسلام تجد فيه مثلا ثغراً وظلماً وضرراً أومجاوزة للحد ، وتفريطاً في الحقوق ، وها نحن نبدأ باستعراض تنظيم الإسلام للتملك ، وسنرى أثناء هذا العرض تفرد الإسلام عن أي نظام في العالم ، وإن كان يلتقي ببعض جوانبه مع نظم أخرى ، وسيكون عرضنا على التسلسل الآتي :

١ ـ الطرق المحظورة وغير المشروعة للتملك .

٢ ـ الطرق المشروعة للتملك واحترام التملك الناتج عنها .

٣ ـ الحقوق العامة والخاصة في التملك .

٤ ـ القيود والحدود التي تقيد أو تحدد حرية الإنسان في تصرفه في ملكه المشروع .

٥ ـ مآل التملك .

٦ ـ ميزات هذا النظام .

وباسم الله نبدأ وعليه نتوكل .

١ ـ الطرق المحظورة وغير المشروعة للتملك :

أ ـ الربا : الربا محرم في الإسلام ، قليله وكثيره ، وحرمته في الإسلام على درجة من الخطورة تفوق حرمة الزنا ، مع ما للزنا من فظاعة استحق بها صاحبه الرجم إن كان محصناً فقد روي (درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم شر من ستة وثلاثين زنية) ، (الربا ثلاثة وسبعون باباً ، أدناهامثل أن ينكح الرجل أمه في الإسلام) وهذه الحرمة تنصب على كل من له مشاركة في الربا (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال : هم سواء) . وهذه الفظاعة في الربا إنما كانت ،لما يترتب عليه من آثار سيئة في الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية ، فالربا يؤدي إلى تركيز أموال الأمة كلها بيد المرابين ، أو بيد الدولة إن كانت هي المرابي الوحيد ، إذ المرابي يزداد ماله على حساب الآخرين بلا نقصان ظاهراً ، فإذا ما كثر المرابون ، وكثر الآخذون بالربا ، تزداد ثروات الأولين يوماً فيوماً ، حتى يأتي اليوم الذي يصبح كل شيء ملكاً لهم . والربا يؤدي إلى أن يصبح الناس عمالاً بلا مقابل عند المرابي . بل يكونون أحياناً أجراء بلا مقابل ، وتلك حالة ما أتعسها ، إذ قد لا يربح المستقرض بعد جهده مقدار ما يأخذه المرابي ، وأحياناً يخسر فيكون قد فاته جهده والخسارة ، وزاد الربا ، والربا يجعل طبقات كثيرة من هؤلاء الناس

المرابين معطلي الإنتاج بلا عمل فيقعدون والاموال تأتيهم . وللربا مفاسد كثيرة تقرأها في محلها ، لذلك فقد أعلن الله حربه على اهله ، وأمر رسوله ﷺ أن يعلن الحرب على أهله ، وعلى الدولة الإسلامية أن تعلن الحرب على أهله بالنيابة يقول جل جلاله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون » ...

وإذ حرم الإسلام الربا فقد فتح طرقاً تغني عنه ، فقد سمح أولاً بشركة المضاربة ، وهي شركة يكون رأس المال فيها من جانب والعمل من جانب آخر والربح مشترك بينهما بالقدر الذي يتفقون عليه ، والخسارة كلها على صاحب رأس المال . إذ يكفي العامل أنه خسر عمله ، وسمح ثانياً بالسَّلَم وهو بيع آجل بعاجل ، فمن كان مضطراً للمال عاجلاً يبيع على الموسم مثلاً من إنتاجه بسعر مناسب ، وبشروط مذكورة في كتب الفقه عند هذا الباب ، وحض ثالثاً على القرض الحسن المكفول ببيت الزكاة وبيت مال المسلمين ، وأخيراً فإن الزكاة إذا أقيمت قياماً سليماً كما سنرى فنادراً ما يحتاج إنسان إلى قرض ، وإذا احتاج فالطرق السابقة تمده ، ولا عذر لدولة تبيح الربا ، إذ الدولة بما لديها من إمكانات تستطيع أن تفعل ما فيه المصلحة ، وشرع الله هو المصلحة ، وحاشا أن يكون شرع الله مستحيل التطبيق .

ولا بد هنا من الإشارة إلى ناحية مهمة :

إن ما نقرره هنا من أحكام ، إنما ينطبق على دار الإسلام وحدها ، أما دار الحرب فالأمر فيها مختلف ، إذ أن الإسلام لم يعتبر مال أو دماء أهل الحرب معصومة ، فعلى هذا لو دخل مسلم دار الحرب بأمان كما يحدث الآن إذ يدخل المسلم بجواز سفر ، ففي هذه الحالة يلزمه الوفاء بعهدهم ، ولكنه لو وصل إليه مال من مالهم برضاهم فإنه يجوز أن يتملكه ، ولو كان حراماً في أرض الإسلام ، فمثلاً ، لو وضع مسلم أمواله في بنوكهم ، يحل له أن يأكل الربا المتولد من هذه الأموال ، ولو أمن على بضائعه في أرضهم عند شركات التأمين ، ثم أصابت البضاعة جائحة ، جاز أن يأخذ ما أعطوه وهكذا .

وهذا رأي أبي حنيفة .

ب ـ القمار والميسر واليانصيب :

إن اليانصيب الذي يسميه أعداء الله بالخيري هو المَيْسِر الذي كان في الجاهلية ، بل

ميسر الجاهلية أقل سوءاً منه ، إذ أن الرابح في ميسر الجاهلية كان ينفق الربح كله على الفقراء ، أما يانصيب اليوم فتقدم منه جوائز لمن يسعفه الحظ في زعمهم فيخرج رقمه ، والقمار بكل صوره شر من هذا وذاك ، وذلك كله طرق محرمة للتمليك والتملك ، لأنها أخذ بظلم ، وإعطاء بظلم لا يداخلها رضا أبداً .

إننا عندما نجمع آلاف الليرات ونعطيها لإنسان لمجرد أن رقمه خرج في دورة أرقام ، هل نكون معقولين في هذه الحالة في نقل الملكية ، وعندما يتحكم في نقل الملكية ضربة نرد هل يكون ذلك صحيحاً ؟ الإنسان الذي يعمل ، والموظف الذي يجهد ، يـذهب حصيلة جهده ، وعمله بتصرف أرعن من هذه التصرفات ، ويأخذها من لم يجد ولم يجتهد وكم يترتب على ذلك من مآس تحيق بإنسان أو أسرة ، وتعطيل جهود هؤلاء الذين يلتقون على مثل هذا ، وتأريث عداوات باطنية فظيعة ، عدا عن صرف كثير من طاقات تخدم أمثال هذه المشاريع المهدمة للإنتاج . سواء كموظفين في مقاهي ونوادي القمار ، أو موظفين في شركة إصدار اليانصيب من باعة وحسبة ومديرين ، ولولا هذا لاضطر هؤلاء جميعاً لعمل منتج جيد . ولهذا كله فقد حرم الإسلام هذه الطرق كلها ، والوسائل التي تساعد عليها أو تؤدي إليها لآثارها السيئة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والانتاجية والسلوكية : فإنها نقل للملكية غير معقول ، وتضييع للوقت غير معقول ، وشل للانتاج غير معقول ، إن الإنسان الذي يكون أصدقاؤه كلهم من المقامرين لا يمكن أن يكون إلا عدواً لهم أجمعين ، ولا ننسى أن نذكر هنا أن المقامرة على الخيل داخلة فيما ذكرناه إلا في حالات خاصة جائزة في الشريعة بشروطها المعينة في باب البرهان .

جـ ـ السرقة والغصب والاختلاس :

عندما يكون في بلد عشرات النشالين ، وعصابات السرقة ، والقوة التي تغصب المال بلا حق فماذا يكون ؟ إن الذي يعمل لا يتمتع بحصيلة عمله ، وأن الذي لا يعمل يتمتع بثمرة جهود الآخرين ، وبالتالي تنصرف كثير من الجهود للاحتراس ، فيتعطل كثير من الجهود بسبب ذلك ، وينصرف كثير من الناس عن الإنتاج ، لأن طريقاً أخصر للكسب يستطيعون أن يسلكوه ، ويعجز الكثير عن متابعة إنتاجهم بسبب عجزهم بعد سلب أموالهم ، ولذلك فقد حرم الإسلام هذه المعاني كطريق للتملك وفرض عقوبات قاسيـة زجراً لمن يريد أن يسلك هذا الطريق ، ويدخل في السرقة المحرمة تطفيف الكيل والميزان

إذا باع، وأخذ الزيادة خلسة إذا اشترى .

د ــ تحريم استغلال الحكم بكل أجزائه كوسيلة للكسب والتملك :

١ ــ من مظاهر استغلال الحكم التي حرمها الإسلام أخذ الموظف رشوة أو هدية ، لأنه في العادة يأخذها في مقابل التساهل بحقوق الأمة . كمن يأخذ مالاً ويعطي شهادة سواقة لإنسان لا يستحقها ، ومن يأخذ مالاً ليقضي لإنسان على آخر ، ومن يأخذ مالاً للتغاضي عن ضريبة عادلة وهكذا . والأصل في ذلك الحديث : (عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال : استعمل النبي ﷺ رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتبية على صدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي إلي ؛ فقام النبي ﷺ فصعد المنبر فحمد الله ثم أثنى عليه وقال : ما بال العامل نبعثه ويأتي فيقول : هذا أهدي إليّ : فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جيء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ، ألا هل بلّغت ؟ ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟..) رواه البخاري ومسلم .

٢ ــ ومن مظاهر استغلال الحكم الذي يحَرّمُ الكسب والتملك عن طريقها ، سيطرة الشركات ، ورؤوس الأموال على الحكم ، بحيث يسنُّ هذا الحكم القوانين التي تخدم هذه الشركات ، ويصبح الشعب كله مُستَغَلاً من قبلها ومن صور ذلك :

أ ــ وزير له شركة مع شركاء يتاجرون خارج البلاد فيتحكم بالاستيراد والتصدير بحيث يخدم مصلحة شركائه ، وقد لا يكون شريكاً بل مرتشياً ، وقد لا يكون هذا ولا ذاك ولكنه يخدم هؤلاء لقرابة أو مصلحة حزبية . ومن أمثلة هذا منع تصدير بضاعة إلى سوق خارجي طبيعي لها ، يغلّيها في ذلك السوق ، ويرخصها داخلياً ، فإذا ما اشترى الشركاء في هذه الحالة اشتروا بسعر رخيص خاصة إذا كانوا ضامنين للوزير ، فإذا ما فتح باب التصدير باعوا بسعر عالٍ حتى في نفس البلد ، وفي ذلك اضرار أي إضرار بمصلحة الناس . وكذلك إغلاق باب الاستيراد لبضاعة يرفع سعرها مباشرة داخلياً ، ففي كلتا الحالتين يكون التواطؤ محرماً والكسب عن طريقه كذلك .

ب ــ شركة تنتج النسيج تتفق مع وزير أن يُصْدِرَ مثلاً قانوناً أو مرسوماً أو قراراً يوجب أن يكون لباس الطلاب هذا العام موحداً ومختلفاً عما كان في العام الماضي ، ولا

يقبل الطالب إلا بذلك . ينتج عن مثل هذا أن تربح الشركة كثيراً ولكن على حساب من؟ على حساب الشعب كله ، وتذهب حصيلة الأرباح إلى جيوب عدة أفراد .

جـ ـ قد تصدر الحكومة قراراً نتيجة لضغط بعض الأفراد أو النـاس أو الشركات بحماية المصنوعات الوطنية بأن يمنع استيراد البضائع التي تصنع في البلاد من قبل شركات يملكها أفراد ، ويحدث نتيجة لهذا أن يرتفع سعر البضاعة الوطنية ، أو يبقى سعرها على ما هو عليه ، وتكون أقل جودة نتيجة لفقدان المنافسة وبهـذا يكون قد خسر الشعب كله على حساب مجموعة أفراد، ونحن نعتبر استغناء أمتنا عن غيرها في كل شيء فرضـاً ولكن ننكر أن يقع الضرر بالشعب كله من أجل أفراد ، فلا بد من إيجاد صورة عادلة في مثل هذه الحالة .

د ـ النهر من أنهار المسلمين يكون في الأصل ملكاً لكل المسلمين فلو حاولت شركة أن تبني على هذا النهر سداً ثم تبيع الماء المحصور في السد لمن يستفيد منه ، هل يجوز ذلك مع ملاحظة أنها استغلت ما يملكه الناس عامة لصالحها ؟..

يبدو أن هذا من اختصاص الدولة الإسلامية بدليل أن شق الترع والأنهار الجـانبية كانت تفعله الحكومة الإسلامية خلال عصورها جميعاً ، وشبيه بهذا إقامة سد على نهر لتوليد الكهرباء وبيعها للشعب ، فمن أين يحق لشركة أن تستغل ملك الأمة عامة ، ثم تبيع منتوجه لهذه الأمة فارضة السعر الذي تريده ؛ إن مثل هذا ينبغي أن يكون من اختصاص الدولة ، أن تفعله وتقيم مشاريعه ، وما لم تفعل وأعطت حق استثمار مثل هذه المشاريع المضمون ربحها إلى الأفراد تكون ظالمة ، إذ ما الذي جعل لهؤلاء وحدهم الحق أن يقيموا مثل هذه المشاريع ويستأثروا بها عمن سواهم .

٣ ـ ومن مظاهر استغلال الحكم التي يحرم الكسب والتملك عن طريقها أن ينـال الإنسان امتيازات يكون له من ورائها ربح ، إذ جرت سنة الخلافة الراشدة أن تحاسب من زاد ماله بعد أن تولى أمراً من أمور المسلمين أو ربـح ، وكان ربحه مظنة استغلال لسلطان الحـكم ، ومن السوابق القانونية والدستورية في الخلافة الراشدة التي يفهم منها هذا ، هذه الأمثلة :

أ ـ عندما رأى عمر ، إبل ابنه السّمان في السوق وعرف أن سمنها كان أثنـاء رعيها مع إبل المسلمين على سمنها بشكل آخر . وهو أن الرعاة كانوا يرعونها في أجود المناطق

لأنها إبل ابن أمير المؤمنين ، واعتبر أن هذا استغلال لسلطان المسلمين فأمر ابنه أن يبيعها ويجعل ربحها في بيت مال المسلمين .

ب ـ ومن الأوامر التي أصدرها عمر بن عبد العزيز لعماله :

(ونرى أن لا يتـّجر إمام (أي الخليفة) ولا يحل لعامل (الوالي) تجارة في سلطانه الذي هو عليه فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أموراً فيها عنت وإن حرص ..) ..

* * *

هـ ـ تحريم التملك عن طريق الاحتكار: والآثار في تحريم التملك عن طريق الاحتكار كثيرة :

(من احتكر الطعام أربعين يوماً فقد برىء من الله وبرىء الله منه) ،(الجالب مرزوق والمحتكر ملعون) ،(لا يحتكر إلا خاطىء) ،(من احتكر حكرة يريد بها أن يغلي على المسلمين فهو خاطىء) ..

وتختلف مذاهب الاجتهاد الاسلامي في حد الاحتكار فمنهم من جعل الاحتكار المحرم في بعض أنواع الطعام ومنهم من جعله في الطعام وغيره مما يحتاج إليه المسلمون ، ولا شك أن لإمام المسلمين أن يختار من هذه الأموال ما فيه المصلحة وقد تتغير المصلحة من آن لآخر أما الفرد المسلم فكلما ازدادت تقواه كلما كان أقرب إلى الأخذ بالأحوط .

و ـ تحريم التملك عن طريق التلاعب في الأسعار: والأصل حديث (من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة) ويدخل في ذلك أن تستولي شركة واحدة على إنتاج مادة مثلاً وتفرض على الشعب كله سعراً أعلى من السعر المعقول لو كان تنافس .

ويدخل في ذلك اتفاق عدة شركات على رفع سعر مادة ينتجونها أكثر من الحد المعقول للسعر الحر ، ويدخل في ذلك اتفاق أهل السوق على رفع سعر بضاعتهم إضراراً بالناس ، أما إذا اتفقوا حتى لا يتنافسوا لدرجة تؤدي إلى الخسارة أو عدم الربح فلا شيء في ذلك لأن تنافسهم وقتها فيه ضرر بهم والضرر مرفوع (لا ضرر ولا ضرار) ويدخل في ذلك النجش بأن يدفع إنسان لبائع في بضاعته سعراً مرتفعاً أمام مشتر آخر يقصد التغرير بهذا المشتري .

ز ـ تحريم التملك عن طريق صنع الآلات والأشياء المحرمة : كأوراق اللعب والنرد

والمزامير وأدوات الموسيقى كالعود والقيثار وما دخـل تحت فكرة التصوير المحرم ، كالتماثيل والصور العارية ، وصور الأحياء مطلقاً في بعض المذاهب ، وصناعة الخمر ، ويدخل في هذا التحريم ما يأخذه الصانع ثمناً لما صنع ، والتاجر ثمناً لما روج ، والمشتري كذلك ، ولو نظر الانسان بدقة إلى هذه القضايا كلها فإنه يجد أن هـذه الأشياء في وجودها كل المفسدة، وفي انعدامها كل المصلحة. فانشغال كثير من الناس في دوامة إنتاج هذه الأشياء وترويجها تعطيل لجهود كثير من البشر عن الانتاج الصالح لخدمة البشر ، عدا عن كون كثيرين من الناس يستغلون عواطف الشر عند الانسان بهذه القضايا وترويجها ، فيثرون ثراء فاحشاً يستنزفون به ثروات الأمم ،ونظرة إلى شركات إنتـاج الصور العارية ، والمجلات الخليعة ، والسينما الماجنة الكاذبة ، والأرباح الفاحشة التي يربحها أصحاب هذه الأشياء نتيجة لانحطاط الانسان وفساده ، والترويج لإفساده ، تقنعك بالحكمة الكبيرة في هذا التحريم .

ح ـ تحريم التملك عن طريق الاجارة المحرمة :

كتأجير المرأة جسمها للزنى ، وكأجرة الراقصة والموسيقي ، وصالة الرقص والتياترو والسينما ونوادي القمار ، وكأجرة المغني ، وأجرة الراشي الذي يتوسط للرشوة ، وأجرة القوّاد ، وأجرة الجاسوس والخائن والمساعد على الاثم أنى كان نوعه .

ويدخل في ذلك إيجار الانسان نفسه للظالمين ليستعملوه في ظلمهم ، أو فيما فيه فسوق عن أمر الله ، وواضح من تحريم هذا النوع من الكسب أن الاسلام لا يرغب أن يوجد ناس يتعيشون عن طريق فيه مضرة بالناس فيتعطل بذلك كثير من الناس عن الانتاج الحقيقي ، فتخسر الأمة جهودهم مرتين.مرة لأنهم أضروا بهـا ، ومرة لأنهم كان يمكن أن يعملوا بشكل آخر .

ط ـ تحريم التملك عن طريق الانتفاع بملك اليتيم أو الوقف أو الأمـة بأقل من أجر المثـل :

إن الإنسان الراشد يستطيع أن يتصرف في ملكه بيعاً وشراء وهبة وتأجيراً ورهناً كما يشاء في حدود الشريعة إلا أن اليتيم والصغير وهما لا يستطيعان أن يتصرفا في ملكهما بأنفسهما يقيّد تصرف الأب والوصي في ملكهما بما فيه محض منفعة لهما ، فلو أجرا ملكهما بأقل من سعر المثل حرم على المؤجر والمستأجر ، وهذا الحكم ينسحب على أملاك الأمـة

كلها ، فلا يجوز لو لي الأمر أن يتصرف في أملاك الامة إلا بما فيه كامل المصلحة لهـا . فلو أجر أرضاً أو مصلحة أو أعطى امتيازاً بأقل من سعر المثل حرم عليه . وحرم على المستأجر تملك الناقص عن أجر المثل ، وهذا نفسه كذلك ينسحب على الاشياء الموقوفة إن كل درهم ينقص عن أجر المثـل يكون تملكه وتمليكه حراماً في هذه الصور كلها وللامة حق فسخ أمثال هذه العقود .

ي ـ تحريم التملك عن طريق استئثار بعض الامة بما يخص الامة جميعاً من غير إذنها: والاصل في ذلك مـــا أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وابن عساكر والبيهقي ويعقوب بن سفيان عن عبيدة قال : جاء عيينه بن حصن والاقرع بن حابس إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال : يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإذا أردت أن تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها فأقطعها إياهما وكتب لهما عليه كتاباً . وأشهد في ذلك عمر وليس في القوم فانطلقا إلى عمر ليشهداه فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما ثم تفل فيه ومحاه فتذمرا وقالا مقالة سيئة قال عمر : إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والاسلام يومئذ ذليل وإن الله قد أعز الاسلام فاذهبا فاجهدا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما فأقبلا إلى أبي بكر وهما يتذمّران فقالوا والله مـــا ندري أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال : بل هو ولو شاء كان.فجاء عمر مغضباً حتى وقف على أبي بكر فقال : أخبرني عن هذه الارض التي اقتطعتها هذين الرجلين أرض لك هي خاصة أم هي بين المسلمين عامة ؟ قال : بل هي بين المسلمين عامة . قال : فمـا حملك أن تخص هذين بها دون جماعة المسلمين ؟ قال : استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا علي بذلك قال : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أو كل المسلمين أو سعت مشورة ورضا فقال أبو بكر: قد كنت قلت لك : إنك أقوى على هذا مني ولكنك غلبتني .

ولهذه القاعدة تطبيقات من أبرزها في عصرنا الحاضر قضية البترول والمواد الخـــام الموجودة في باطن الأرض ممـا يسمى عند الفقهاء الركاز أي ما ركز في الأرض خلقة أو بسبب .

فقد ذهب الاجتهاد المالكي أن المواد الخام الموجودة في باطن الأرض ملك للأمة الإسلامية كلها ، وذهب الاجتهاد الحنبلي أن ما يستخرج من باطن الأرض فيه الزكاة إذا كان مستخرجه أهلاً للزكاة أي مسلماً .

وذهب الاجتهاد الحنفي إلى أن في الركاز الخمس ، ومصرفه مصرف الخمس في الغنائم

ولكنهم قصروا الركاز على ما ينطبع من المعادن، فلا يعتبر البترول وأمثاله عندهم داخلاً في تعريف الركاز إلا أن تعريفهم للبترول يدل على أنهم ما كانوا يعرفون أهميته قديماً . فقد قالوا في تعريفه أنه دهن يطفو على وجه الماء فعاملوه معاملة الماء ولو أنهم عاصرونا لرأوا أن أهميته تعدل أهمية الذهب والفضة والنحاس عدا عن أن قصرهم الركاز على ما قصروه عليه مخالف لصريح اللغة التي يفهم بها الحديث والحديث (وفي الركاز الخمس) ويلاحظ أن فقهاء الحنفية أجازوا للامام السماح للحربيين في التنقيب عن الركاز ولهم ما شرطه الإمام ، إلا أننا نحب أن نذكر أن فقهاء الحنفية وإن أجازوا ذلك إلا أنهم يعتبرون الامام كوصي اليتيم في التصرفات ، فكل تصرف فيه نقص عما يجب يعتبر لاغياً ويطالب الآخرون بتعويض النقص هذا مع ملاحظة أن الاسلام يفرض علينا أن نستغل خيراتنا بأيدينا كما سنرى في الباب الأخير ...

بعد هذه المقدمة نقول :

إن العالم الاسلامي مقسم الآن إلى أقطار وبعض هذه الأقطار فيها مواد خام كثيرة وهذه المواد ملك للامة الاسلامية كلها ، فإذا ما اكتفى قطر فعليه أن يقدم ما زاد عن حاجته من هذا المال إلى غيره أو إلى الخزينة العامة إن كانت هناك دولة واحدة كما هو الوضع الصحيح ولكن الذي يحدث أن المواد الخام لا تخرج زكواتها أو الحقوق فيها كالخمس في اجتهاد الحنفية مع ملاحظة أن فقهاء الحنفية فرضوا الخمس حتى في حالة كون المستخرج غير مسلم . ثم هذه المواد الخام يرجع ريعها على القطر نفسه فتتخم بعض الأقطار وأبناؤها بينما المسلمون في بقية الاقطار في حالة فقر ونحن لا ندعو إلى ان تدفع أموال بعض هذه الاقطار الى حكومات أقطار أخرى قد تكون مرتدة أو كافرة أو باغية ولكننا ندعو الى الدولة الاسلامية الواحدة التي تنصب هذه الاموال الفائضة فيها لتقوم بتغذية مشاريع الولايات الاسلامية الفقيرة ، وحتى تقوم هذه الدولة فإننا ندعو أن تنفق هذه الزيادات في الاموال على حملة الاسلام في كل قطر ليستعينوا بها على جهادهم في إقامة دولة الاسلام ، وهو بالتالي من حقهم إذ استئثار بعض المسلمين بما يخص كل المسلمين لا يجوز ، فاستئثار بعض الحكومات أو أفراد منها بشيء خاص عن بقية الامة لا يستحقونه لا يجوز .

يقول عمر : (فان أعش – إن شاء الله – لم يبق أحد من المسلمين إلا سيأتيه حقه حتى الراعي بسرو حمير يأتيه حقه ولم يعرق فيه جبينه) ...

وأخرج البيهقي عن أسلم قال : سمعت عمر رضي الله عنه يقول : اجتمعوا لهذا المال فانظروا لمن ترونه ثم قال لهم : إني أمرتكم أن تجتمعوا لهـــذا المال فتنظروا لمن ترونه وإني قد قرأت آيات من كتاب الله،سمعت الله يقول :

«ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دُوَلة بين الاغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديـــد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون — والله ما هو لهؤلاء وحدهم — والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم... الآية »والله ما هو لهؤلاء وحدهم « والذين جاؤوا من بعدهم .. الآية» (والله ما من أحد من المسلمين إلا وله حق في هذا المال أعطي منه أو منع حتى راعٍ بعدن) مما تقدم نفهم شمول القاعدة التي ذكرناها لقضية واردات المواد الخام وغيرهـــا أنه ليس من شرع الله أن يعيش المسلمون في قطر فقراء عالة ، وفي مكان آخر في قصور الذهب ، إن قصر الذهب لم يبن إلا بحق الآخرين وقد ذكر فقهاء الحنفية أنه لا يجوز للامام أن يقطع ما لا غنى للمسلمين عنه.أي يخص أحداً به من دون الناس من المعادن الظاهرة ، وهي ما كان جوهرها الذي أودعه الله في جواهر الأرض بارزاً ، كمعادن الملح والكحل والقار والنفط والآبار التي يستقي منهـــا النـــاس ...

ك — تحريم التملك عن طريق استئجار لا يقوم به الإنسان بواجبه :

فقد يحدث أن الدولة تحدث وظيفة غير ضرورية لا تحتاجها الأمة ، فعملها هـــذا لا يجوز وتمليكها المال لهذا الموظف لا يجوز ، وتملك الموظف هذا المال عن هذا الطريق لا يجوز .

وقد يحدث أن موظفاً لا يقوم بواجباته ، ويصرف ساعات العمل في غير ما استخدم له ، فيستغلها لمصلحة شخصية ، أو يعطل عمل الموظفين ، أو يتكاسل عن إنجاز مهماتهم ، أو يتغيب أو يتأخر عن الموعد المحدد لبدء عمله أو يخرج قبـــل موعد انتهاء عمله بـــلا عذر ، ففي هذه الحالات كلها يكون تملكه مالاً عن الجزء المقابل للوقت المهدر إلا مـــا تسوهل فيه عرفاً إذا لم يعوضه،حراماً يؤاخذ عليه ، وعلى هذا قس كل إجارة لا يقوم بها الانسان بواجبه تقصيراً منه ، أما إذا كان السبب المستأجر فالأمر يختلف .

ل – تحريم التملك عن طريق الغش :

والأصل فيه حديث رسول الله ﷺ : أنه مرّ برجل يبيع طعاماً فأدخل يده فيه فرأى بللا فقال : ما هذا ؟ قال : أصابته السماء ، فقال : (فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس من غشنا فليس منا) .

ويدخل في الغش الثناء على السلعة بما ليس فيها ، ويدخل فيه عدم إظهار عيوب المبيع خفيها وجليها ، حتى لو أظهر أحسن وجهي الثوب وأخفى الثاني ، أو عرضه في مكان مظلم لا يتبين ما فيه قصداً للغش ،أو أرى أحسن فردي الخف،فكل هذا من صور الغش .

ويدخل كذلك في الغش تهاون الصانع في صنعته ، وعدم إتقانها إتقاناً تاماً،والميزان في ذلك : إن ما لا يرضاه لنفسه إذا قدمه للآخرين كان غاشاً .

ويدخل في الغش أن يخبر البائع إذا أراد الشراء أن سعر السلعة كذا بأقل مما هو في السوق ، وإذا أراد البيع ذكر أكثر من السعر الحقيقي بالسوق قائلا في الحالتين ان هذا هو الذي يتبايع فيه الناس .

م – تحريم التملك عن طريق استغلال اضطرار الانسان :

يقول فقهاء الحنفية : (بيع المضطر وشراؤه فاسد وهو أن يضطر الرجل إلى طعام أو شراب أو لباس أو غيرها ولا يبيعها البائع إلا بأكثر من ثمنها بكثير ، وكذلك إذا اضطر لبيع شيء ولم يؤخذ منه إلا بغبن فاحش كثير) ويدخل في ذلك إجارة المضطر كما إذا كان إنسان جائعاً مثلا،فلم يشغله من يلزم له إلا بأقل من أجر المثل بكثير ، وكذلك العمال الذين لا عمل لهم إلا صنعة معينة لو تركوها تعطلوا. فاستغلال رب العمل اضطرارهم إليه ، وإعطاؤهم أقل من أجر المثل حرام ، وكذلك المزارعون ومستأجروا البساتين الذين لا عمل لهم إلا في الأرض ولو أخرجوا منها ضاعوا ،فاستغلال رب الأرض اضطرارهم إليه وإعطاؤهم أقل من أجر المثل لا يجوز ، ويدخل في ذلك أن تكون الدولة هي المشتري الوحيد ، فلا يستطيع أحد أن يبيع إلا منها بعض أنواع المنتوجات ، فشراؤها في هذه الحالة فاسد ، والتملك الناتج عن أقل من سعر المثل حرام ، وكل حالة تجبر الدولة فيها الانسان على البيع ويكون البيع بأقل من سعر المثل يدخل في هذه القاعدة .

ن – تحريم التملك عن طريق بيع المعدوم ، أو ماله خطر العدم ، أو غير المتقوم ، أو المباح لكل المسلمين ، ولم يحرز إحرازاً خاصاً ، ويدخل في ذلك بيع الحمل في

بطن أمه ، واللبن في الضرع ، والثمر قبل ظهوره ، والميتة والدم وبيع الخمر والخنزير في حق مسلم وبيع العشب ولو في أرض مملوكة للإنسان ، والماء في نهر أو بئر ، والصعيد والحطب والحشيش قبل الاحراز ، وبيع معجوز التسليم كالطير في الهواء والسمك في البحر أو النهر ،وهناك قضية تحتاج إلى بحث وهي أن الدولة أحياناً توجد بركاً اصطناعية لتوليد السمك فهل يجوز إجارتها وتضمينها ؟ وأحياناً تكون البركه خلقة وفيها سمك فهل يجوز إجارتها لشركة مثلاً ؟ بحيث لا يكون لأحد حق الصيد فيها ؟

يذكر فقهاء الحنفية في هذا الموضوع ما يلي : (قال في النهر إعلم أن في مصر بركاً صغيرة كبركة الفهادة تجتمع فيها الأسماك هل تجوز إجارتها لصيد السمك منها نقل في البحر عن الايضاح عدم جوازها ونقل أولاً عن أبي يوسف في كتاب الخراج عن أبي الزناد قال : كتبت إلى عمر بن الخطاب في بحيرة يجتمع فيها السمك بأرض العراق أن يؤجرها فكتب إلي أن افعلوا) . وما في الايضاح بالقواعد الفقهية أليق . أه ...

ونقل في البحر أيضاً عن أبي يوسف عن أبي حنيفة عن حماد عن عبد الحميد بن عبد الرحمن أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن بيع صيد الآجام فكتب إليه عمر أنه لا بأس به وسماه الحبس اه.

ثم قال في البحر فعلى هذا لا يجوز بيع السمك في الآجام إلا إذا كان في أرض بيت المال ، ويلحق به أرض الوقف ، وقال الخير الرملي : أقول الذي علم مما تقدم عدم جواز البيع مطلقاً سواء كان في بحر أو نهر أو أجمة وهو بإطلاقه أعم من أن يكون في أرض بيت المال أو أرض الوقف ، وما تقدم عن كتاب الخراج غير بعيد أيضاً عن القواعد ، ومرجعه إلى إجارة موضع مخصوص لمنفعة معلومة هي الاصطياد ، وما حدث به أبو حنيفة عن حماد مشكل . فإنه بيع السمك قبل الصيد ، ويجاب بأنه في آجام هيئت لذلك ، وكان السمك فيها مقدور التسليم فتأمل ... اه. لكن قوله غير بعيد الخ فيه نظر ، لأن الاجارة واقعة على استهلاك العين وسيأتي التصريح بأنه لا يصح إجارة المراعي وهذا كذلك ولذا جزم المقدسي بعدم الصحة واعترض البحر بما قلنا) ...

يرى مما قاله فقهاء الحنفية أنهم يرجحون أن يكون حق الصيد في الأنهار والبحار والبرك لكل إنسان، ولا يجوز منعه عندهم، ولكن بعضهم يرى أن ما أعد للصيد بجهد يجوز إجارته ، وهذا ينطبق على ما تفعله الدولة في إيجار برك اصطناعية تنفق عليها من أموال الأمة فمن حق الأمة أن تؤجر هذه البرك .

س – تحريم التملك عن طريق العقود الفاسدة التي حظرتها الشريعة الاسلامية ، إذ اعتبر فقهاء الحنفية ان الربح المتولد عن العقد الفاسد نوع ربا ، وذلك أن العقود التي سمح بها الاسلام ينبغي أن يتوفر فيها العدل والرضا ، وعدم التنازع حالاً أو مآلاً ، وحظر كل عقد يؤدي إلى الاخلال بهذه المعاني ، وشرع الضوابط الكاملة لهذا ، وألغى كل شرط يتنافى مع الضوابط المشروعة ففي الحديث (كل شرط ليس في كتاب الله تعالى فهو باطل وإن كان مائة شرط) وتعرف هذه النواحي في كتب الفقه ونذكر على سبيل الاجمال مثالاً عن شروط صحة المبيع يقول فقهاء الحنفية :

(وأما الثالث وهو شرائط الصحة فخمسة وعشرون منها عامة ومنها خاصة) .

فالعامة لكل بيع : شروط الانعقاد وهي أربعة أنواع ، في العاقد ، وفي نفس العقد ، وفي مكانه ، وفي المعقود عليه ، فشرائط العاقد إثنان العقل والعقد ، فلا ينعقد بيع مجنون ، وصبي لا يعقل ، ولا وكيل من الجانبين إلا في الأب ووصيه والقاضي والرسول من الجانبين ، ولا تشترط فيه البلوغ ، ولا الحرية ، فيصبح بيع الصبي أو العبد لنفسه موقوفاً ، ولغيره نافذاً ولا الاسلام والنطق ..

وشرط العقد اثنان أيضاً : موافقة الايجاب للقبول ، فلو قبل غير ما أوجبه أو بعضه ، أو بغير ما أوجبه أو ببعضه ، لم ينعقد إلا في الشفعة بأن باع عقاراً ، فطلب الشفيع العقار وحده ، وكونه بلفظ الماضي ، وشرط مكانه واحد وهو اتحاد المجلس . وشرط المعقود عليه ستة : كونه موجوداً ، مالاً متقوماً ، مملوكاً في نفسه ، وكون الملك للبائع فيما يبيعه لنفسه وكونه مقدور التسليم .

هذه شروط الانعقاد ولا بد منها إذ ما لا ينعقد لا يصح .

وتتمة شرائط الصحة العامة عدم التوقيت ، ومعلومية المبيع ، ومعلومية الثمن بما يرفع المنازعة ، وخلوه عن شرط مفسد ، والرضا ، والفائدة .

والخاصة : معلومية الأجل في البيع المؤجل ثمنه ، والقبض في بيع المشتري المنقول ، وفي الدين ، ففسد بيع الدين قبل قبضه كالمسلم فيه ، ورأس المال وبيع شيء بدين على غير البائع ، وكون البدل مسمى في المبادلة القولية ما سكت عنه فسد ، وملك بالقبض ، والمماثلة بين البديلين في أموال الربا ، والخلو عن شبهة الربا ، ووجود شرائط السلم فيا ، والقبض في الصرف قبل الافتراق وعلى الثمن الأول في مرابحة وتولية وإشراك ووضيعة) .

س – ومن طرق التملك غير المشروعة أخذ الصدقات بغير استحقاق ، سواء كانت

زكاة أو كان ذلك بواسطة السؤال المباشر .

. لأصحاب السنن عن رسول الله ﷺ : (المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء تركه إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان أو في أمر لا يجد منه بـــداً) .

ولمسلم عن رسول الله ﷺ : (إن من سأل الناس تكثّراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر) ..

وللنسائي عن رسول الله ﷺ : (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي) ...

ع – ومن طرق التملك غير المشروعة أن يأخذ الانسان ثمن ثمر باعه ثم أصابتـــه جائحة وفي ذلك يقول الفقهاء :

(ومن اشترى ثمراً فأصابته جائحة فإنه يوضع عنه من الثمن مقدار مـا أصابته الجائحة ... وإنما يوضع عنه بشرطين : أحدهما : أن تكون الجائحة من غير فعل بني آدم كالقحط وكثرة المطر والبرد والريح والجراد وغير ذلك ، واختلف في الجيش والسارق. والثاني : أن تصيب الجائحة ثلث الثمرة فأكثر ...

وجاء في بداية المجتهد : اختلف العلماء في وضع الجوائح في الثمار فقال بالقضاء بهـا مالك وأصحابه وعمدة من قال بوضعها حديث جابر : أن رسول الله ﷺ قال (من باع ثمراً فأصابته جائحة فلا يأخذ من أخيه شيئاً على ماذا يأخذ أحدكم مال أخيه) ... أخرجه مسلم ...

هذا واتفقوا على أن الآفات السماوية من مثل البرد والقحط والعفن جائحة ، وكذلك العطش بخلاف ما أصاب من صنع الآدميين ، كما أن هناك خلافاً فيما تجب فيه الجائحة من البقول والثمار وفي المقدار من الثلث أو ما دونه .

ف – ومن طرق التملك غير المشروعة التملك عن طريق الغبن الفاحش إذا رافقه تدليس أو حلف ...

* * *

هذه صورة موجزة عن بعض الطرق المحظورة للتملك ، ومن أراد التتبع فعليـــه بكتب الفقه ، ومن هذه الصورة الموجزة ندرك الفارق بين الاسلام العادل ، وبين مـا يجري حالياً في كل مكان ، كما ندرك عمق الفوارق بين النظام الاسلامي وبقيـــة الأنظمة الأخرى .

٣ – الطرق المشروعة للتملك واحترام التملك الناتج عنها :

يمكن حصر صور التملك المشروع بما يلي :

أ ـ التملك عن طريق السبق إلى مباح ليس لأحد فيه حق ويدخل في ذلك ما يلي :

١ ـ التملك عن طريق إحياء الموات :

الموات هي الأرض التي ليست مملوكة لأحد ، مسلم ، أو ذمي ، وغير المنتفع بها ، وغير ما لا يستغني المسلمون عنه . ويدخل في ذلك ما انقطع الماء عنها ، او غلب عليها ، أو غلبت الرمال عليها ، او كانت سبخة فأصلحها إنسان بإذن الامام ولم يشترط بعض الفقهاء إذن الامام فحيثما وجدت أرض موات غير مملوكة لأحد حل لأي إنسان إحياؤها والأول أرجح . فاذا أحياها كانت له وملكها .

٢ – التملك عن طريق الصيد :

والصيد هو كل ممتنع متوحش طبعاً ، لا يمكن أخـــذه إلا بحيلة ، من سمك ، إلى ظباء ، إلى طيور ، وهو جائز إذا روعيت شروطه ، سواء في ذلك شروط حله للأكل إن كان يؤكل ، كالتسمية والجرح ، إلا إذا كان سمكـــاً ، أو شروط القتل والامساك كمصلحة لا للعب وإطعامه وتعاهده إن كان حياً .

٣ – التملك عن طريق استخراج المعادن من الأرض إذا لم تكن مملوكة لأحـــد ، وأدى حق الله منـــها من خمس مصرفه مصرف الغنائم ، كما هو مذهب الحنفية ، أو زكاة كما هو مذهب الحنابلة ، كما ادى حق الأمة في حال إعطائه وحده حق التنقيب عنها ، فمن المعلوم ان هذه المعادن ملك لكل الأمة ، فالوضع الطبيعي ان تستخرجها الامة أي الدولة ، إلا أن الامام بمشورة المسلمين إذا رأى إعطاء حق التنقيب والاستخراج لأحد فينبغي ان يكون هذا على أن يكون للامة نصيبها ، لأنه حقها كاملاً وقد مر شيء مما له علاقه بهذا .

٤ – التملك عن طريق الاحتشاش والاحتطاب والاستقاء ، فالكلأ يشترك فيه المسلمون جميعاً ، فاذا ما استعمل الانسان حقه فاحتش منه فقد ملكه ، ويجوز له بيعه والانتفاع منه ، وكذلك الاحتطاب من الأرض غير المملوكة لأحد مما لا يضر به شجراً ، وكذلك الاستقاء ، وبيع الماء بعد الاحراز ، فكل ذلك جائز وطريق للتملك ، ونشير هنا إلى قضية هي إحراز الماء من النهر بواسطة الضخ ، أو حفر السواقي والأنهار ، هل للإنسان مطلق الحرية في الأخذ كما يشاء ؟ يلاحظ ان فقهاء الحنفية قالوا : لكل إنسان شق نهر

لسقي أرضه من الانهار العظيمة أو نصب رحى إذا لم يضر بالعامة ، لأن الانتفاع بالمباح إنما يجوز إذا لم يضر بأحد ، كالانتفاع بشمس وقمر وهواء ، وضربوا أمثلة على الاضرار بالعامة ، كأن يفيض الماء ويفسد حقوق الناس ، او ينقطع الماء عن النهر الأعظم أو يمنع جريان السفن

ب ـ التملك عن طريق الاستيلاء على اموال الكافرين والمحاربين قهراً إذا لم يكن عهد ، اما إذا دخل الانسان دار الحرب بعهد فلا يجوز له اخذ مالهم الا برضاهم ، فاذا وجد الرضا منهم حـــل له الاخـذ ، ولو كان اصل العقد غير مباح في شريعتنا كما مر والأصل في هذا :

ان الله مالك الكون لم يجعل للكافرين حقاً في التملك إلا برضا المسلمين ، فاذا دخل كافر تحت رعاية المسلمين فكان ذمياً ، اصبح لتملكه حرمـــة ، ، وإلا فلا ، ومن حق المسلمين الاستيلاء على اموالهم واملاكهم فاذا ما حدث هذا الاستيلاء وجب إخراج الخمس للانفاق على من خصص الله له مما سيمر معنا ، والباقي يقسم على من قام بعملية الاستيلاء والقهر ، لأنه لولا جهدهم ما كان ، وهذا كله إذا كانت الدولة الاسلامية من وراء عملية الاستيلاء . اما لو دخل بعض المسلمين ارض دار الحرب بلا اذن الدولة ولا حمايتها على طريقة حرب العصابات مثلا فما حكم تملكهم في هذه الحاله ؟ يقول فقهـــاء الحنفية : إذا دخلوا بلا إذن الامام وكانوا ثلاثة فأقل ، وعن أبي يوسف سبعة فأقل حل لهم ما سلبوه ولا خمس فيه ، اما إذا كان باذن الامام ففيه الخمس والباقي لهم .

هذا في الأموال المنقولة أما في الأراضي فقال فقهاء الحنفية : الامام مخير في أن يبقيها بيد أصحابها ويفرض عليها الخراج وعليهم الجزية أو يقسمها بين الفاتحين .

جـ ـ الأخذ عن طريق استحقاق حقوق حددها الشارع :

كأن يكون انسان مستحقاً للزكاة فعلى من عليه الزكاة الدفع إليه ، وكأن يكون انسان له حق في وقف ، وكأن يكون انســان له حق في بيت مال المسلمين بسبب من أسباب الاستحقاق ، ففي كل هذه الصور يكون التملك مشروعاً .

د ـ ما يتملك بواسطة المعاوضة بالتراضي اذا روعي فيه مـــا شرط الشارع في العوضين والعاقدين واللفظين ، ويدخل في ذلك المعاوضة عن طريق البيوع الصحيحة ، والسلم والاجارة والحوالة والضمان والقراض أو المضاربة والشركة والمساقاة او المزارعة أو الشفعة ، والصلح والخلع والصداق ، الى آخر ما هو مذكور في كتب الفقه من طرق

المعاوضات المشروعة.

هـ – ما يؤخذ عن رضا من غير عوض اذا روعي فيه ما يلزم كالهبات والوصايا والصدقات .

و – ما يؤخذ عن طريق الارث بحق وهو حلال بعد قضاء الديون واخراج الحقوق والوصايـــا .

* * *

فاذا ما تملك الانسان عن طريق من هذه الطرق المشروعة ، واجتنب كل الطرق المحظورة للتملك ، فقد اصبح لماله حرمة ، لا يجوز لاحد سواء كانت دولة أو غيرها ان يعتدي عليه بأي شكل من اشكال الاعتداء ، على شرط ان يؤدي الحقوق التي فرضها الله عز وجل في هذا المال مما سنبينه في الفقرة التالية ، وان يتقيد في تصرفه في المال ضمن ما حدده الشارع كما سنبينه في الفقرة الرابعة .

٣ – الحقوق العامة والخاصة في التملك :

١ – من الحقوق في المال الزكاة قال تعالى : « وفي أموالهم حق معلوم للسائـــل والمحروم » ، « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » ...

ولا تجب الزكاة في المال الا اذا كان بالغاً نصاباً ، والنصاب هو المقدار الشرعي الذي حدده الشارع كحد ادنى للغنى الذي تجب فيـــه الزكاة ، ويختلف باختلاف الاموال ، فأدنى نصاب الابل خمس وادنى نصاب الغنم اربعون ...

كما لا تجب الزكاة الا اذا كان هذا النصاب فائضاً عن حاجة الانسان الاصلية من لباس او غيره .

كما لا تجب الزكاة الا بعد حولان الحول القمري على أول يوم تملك الانسان فيـــه نصاباً ، وحال الحول ولم ينعدم النصاب ، ولم يكن في نهاية الحول اقل منه ، فاذا مـــا توفرت شروط الوجوب هذه ، وجب على الانسان ان يدفع الزكاة التي قدرها الشارع الى المستحقين الذين عينهم الشارع من الاموال كلها :

أ – من انتاج الارض فالمذاهب مختلفة فيما يجب فيه الزكاة ، فبعض المـــذاهب الاسلامية ترى ان الارض ما دام يملكها مسلم ففيها الزكاة في كل حال ، ولو كان صاحبها يدفع خراجها إلى الدولة المسلمة ، وبعض المذاهب لا ترى مـع الخراج زكاة ، وبعض

المذاهب ترى ان مـــا أنتجت الأرض قليلاً كان أو كثيراً من أي نوع كان فيه زكاة ، وبعضها يرى أن القليل ليس فيه زكاة وحددوا هذا القليل ، وبعض الأنواع فيها زكاة والآخر ليس فيها ، وحددوا كلاً منها ، والمسألة في النهاية ترجع الى الدليـل وترجيح خليفة المسلمين أو نائبه .

ب — من الذهب والفضة والأوراق المالية .

جـ — من عروض التجارة .

د — من الغنم والبقر والابل والماعز .

هـ — مما يستخرج من باطن الأرض من المعادن ولكن المذاهب مختلفة فيه ، فمنهم من يرى ان فيه الزكاة مطلقاً إذا كان مستخرجه مسلماً ، ومصرفه مصرف الزكاة ، ومنهم من يرى ان فيه الخمس ومصرفه مصرف الخمس في الغنائم ، ومنهم من يرى ان بعض ما يستخرج من الأرض ليس فيه خمس ولا زكاة ، ومنهم من يرى أن كل ما يستخرج فيـه الزكاة إذا كان مسلماً . . .

٢ — إلا أن الزكاة يطالب بها المسلم كحق عليه ، أما غير المسلم في الأرض الاسلامية فيطالب بشيئين :

أ — بخراج الارض إذا كان مزارعاً . . .

ب — بالجزية . . .

وخراج الارض إما أن يكون مقاسمة بين الدولة المسلمة والمزارع في الانتـــاج على حسب ما يتم عليه الاتفاق ، على شرط عدم الارهاق وإما ان يكون موظفاً على الارض بحسب طاقتها فتأخذ الدولة شيئاً معيناً سنوياً . وهل اذا انتقلت إلى يد مســـلم يبقى فيها الخراج ؟ ما عليه العمل أن الخراج يبقى عليها .

واما الجزية فتؤخذ من كل معاهد في الارض الاسلامية كرمز على خضوعه لدولة الاسلام ومشاركة منه في نفقاتها .

وهذا في مقابل مـا يؤمنه المسلمون لهم من حماية الاموال والاعراض والانفس وحريتهم الدينية .

٣ — وللمسلمين عيدان : عيد الفطر وعيد الاضحى وفي كل عيد من العيدين اوجب الله على من له ادنى ملك شيئاً .

ففي عيد الفطر أوجب الله عز وجل على من يملك نصاباً زائداً عن حاجته الاصلية

ولو لم يَحُلْ علية الحول أن يتصدق عن نفسه وأولاده الصغار أي غير البالغين مقدار نصف صاع من قمح ، او مقدار صاع من شعير عن كل نفس ، ومصرف هذا مصرف الزكاة مع زيادة سعة في رأي بعض المذاهب ، وتُخْرِج المرأة عن نفسها إن كانت كذلك تملك نصاباً ، ولا نستهين بهذه الصدقة وآثارها ففي بلد عدد سكانه مليون يخرج فيها حوالي مليوني كيلو قمح أو قيمتها ، فمهما كان فقراء البلدة كثراً فإنهم في هذه الحالة يتوسعون نوع سعة .

وفي عيد الاضحى أوجب الله على كل بالغ مقيم مالك أدنى نصاب ، سواء كان رجلاً أو امرأة ، أن يذبح شاة أو يذبح سبعة مشتركون ناقة أو بقرة ، والواجب الذبح أما اللحم فيسن له ان يتصدق على الفقراء بالثلث ، ويهدي أصدقاءه ولو كانوا أغنياء ثلثاً ، وينتفع هو بالثلث . والحكمة واضحة في هذين الواجبين وهي ان يكون الناس في أيام العيد في سعة ووفر وهما على كل حال حقوق في الملك .

٤ — وإذا استطاع المسلم الحج فقد فرض عليه ، والاستطاعة ان يكون معه مال يستطيع معه الحج في أشهر الحج ، ولو كان يُعِدُّهُ لشراء شيء من غير حاجاته الضرورية فعلى هذا من حقوق المال في الاسلام ان يحج الانسان إذا كان معه مال يكفي لحجه ، زائد عن نفقته ونفقة عياله ، فاذا جمع في حجه بين عمرة وحج متمتعاً أوقارنا فعليه ذبح شاة ، وإذا تصرف تصرفاً ما يخل في الحج ، فقد رتب عليه جزاء مالي محدد في كتب الفقه ، وكل ذلك من الحقوق في المال اسلاماً .

٥ — ولا بد للرجل من زواج في الغالب ، ولا زواج في الاسلام إلا بصداق ومهر يقل أو يكثر ، فلم يحدد في الاسلام الحد الاعلى للمهر وإن حددت المذاهب الفقهية الحد الادنى ، ومهر الزوجة مؤجله ومعجله حق من حقوقها لا بد أن تناله ، وهو دين في ذمته اذا لم يدفعه أو قسماً منه حتى يدفعه ، واذا مات تأخذه الزوجة من تركته أولا كبقية الديون ، واذا طلقها طالبته به ودفعه .

٦ — والرجل مكلف بالانفاق على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده الصغار واولاده الكبار البالغين العاجزين عن العمل بسبب حسي أو معنوي ، وعلى والديه وجدوده اذا كانوا فقراء ، وعلى أقاربه وأرحامه إن كانوا فقراء ، ولا يوجد أولى منه بالانفاق ، اي أقرب كل ذلك بالمعروف ، والنفقة تشمل السكن والملبس والمأكل والخدمة إذا كان هناك حاجة إليها ، والمرأة ان كانت زوجة فنفقتها على زوجها في كل حال ، وان

كانت غير ذلك فنفقتها على أبيها أو أرحامها ، إلا إذا كانت غنية ، وإذا كانت محترفة أو موظفة فنفقتها على نفسها ، اذا لم يرض زوجها بخروجها للعمل ، وقد تكون المرأة الغنية في وضع تكون نفقة غيرها عليها كما اذا كان ابواها فقيرين وليس لهم غيرها ... وكل هـذه المعاني تجدها مفصلة في كتب الفقه في باب النفقة ...

ومن الحقوق في المال ما يفرضه إمام المسلمين من ضريبة عادلة على الأغنياء عند الحاجة إلى ذلك في حال عدم كفاية بيت المال لمطالب الأمة ، بعد كونه ينفق بالعدل ، والقاعدة التي تطبق عند هذا فقط هي : (إذا احتاج المسلمون فلا مال لأحد) فلو لي الأمر العادل أن يوظف علي الاغنياء ما يراه كافياً لتكثير الجند ، وسد الثغور ، وحماية الملك المتسع الأقطار ، وإقامة الجهاد إذا خلا بيت المال من الأموال ، ووجه المصلحة في ذلك ظاهر فانه إذا لم يفعل الإمام ذلك النظام ، بطلت شوكة الامام ، وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار .

٨ – ومن الحقوق في المال بذله لمن اضطر إليه ، ومن فروع مذهب أحمد كما يذكر ذلك ابن القيم ما يلي : ان قوماً إذا اضطروا الى السكن في بيت انسان لا يجدون سواه ، أو النزول في خان مملوك ، أو استعارة ثياب يستدفئون بها ، أو رحى للطحن ، أو دلو لنزع الماء ، أو قدر أو فأس أو غير ذلك وجب على صاحبه بذله بلا نزاع ، لكن هل له أن يأخذ عليه أجراً ؟ فيه قولان للعلماء وهما وجهان لأصحاب أحمد ، ومن جوز له أخذ الأجرة حرم عليه أن يطلب زيادة على أجرة المثل ...

والأصول في ذلك كثيرة منها :

« فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة : (هو إعارة القدر والدلو والفأس ونحوها) . وفي حديث الرسول ﷺ عن الخيل ....، وأما الذي هي له ستر فرجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها) .

٩ – ومن الحقوق في المال الكفارات ؟ كفارة الظهار ، والقتل الخطأ ، والايمان ، وإفطار شيء من رمضان بلا عذر لمن وقع في شيء من ذلك ...

١٠ – ومن الحقوق في المال مشاركة العاقلة في الدية ، إن كان منها ووجب عليها ، ودفع الديه الى أصحابها ان ارتكب موجبها وآل الأمر إليها .

١١ – ومن الحقوق في المال مواساة المسلمين عند عموم الحـاجة ، كما إذا وقعت

مجاعة عامة ، فقد كان عمر يضم عام المجاعة من لا يملك شيئاً إلى من يملك .

١٢ — ومن الحقوق في المال تجهيز ميت لا مال له ، وإشباع جائع سواء كان جاراً أو غيره ، وحق الجوار أكبر ، لأنه إن لم يفطن الجار إلى الجار ضاع ، لذلك كان علامة عدم الايمان أن يشبع الانسان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم .

١٣ — ومن الحقوق في المال القيام بحق الضيف وابن السبيل :

لأبي داود عن رسول الله ﷺ : (ليلة الضيف حق على كل مسلم ، فمن أصبح بفنائه ، فهو عليه دين ان شاء اقتضى وان شاء ترك) .

وفي رواية : (أي رجل أضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً فان نصره حق على كل مسلم ، حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله) ...

وللستة إلا النسائي : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه ...) .

وفي رواية : (ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه قالوا : يا رسول الله كيف يؤثمه ؟ قال : يقيم عنده ولا شيء له يقريه به) .

١٤ — ومن الحقوق في المال صرفه عند احتياج المسلمين اليه :

يقول الامام القرطبي : واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فانه يجب صرف المال اليها قال مالك رحمه الله : (يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم وهذا إجماع أيضاً) ...

١٥ — ومن الحقوق في المال مثل هذه الصورة :

يقول ابن جزيء : (ان غارت بئر جاره وله زرع يخاف عليه التلف فعليه أن يبذل له فضل مائه ما دام متشاغلا باصلاح بئره) القوانين الفقهية لابن جزيء ...

ومن الحقوق في المال : إنظار المعسر إن كان مديناً لصاحب المال يقول الامام أحمد : (ان المدين لا يكلف أن يقضي بما عليه في خروجه من ملكه ضرر ، كثيابه ومسكنه المحتاج إليه وخادمه ، كذلك ولا ما يحتاج الى التجارة به لنفقته ونفقة عياله) قال تعالى : « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » ...

ويكفي ما مر لاخذ صورة عن الحقوق في المال والصور كثيرة والاستقصاء متعذر .

٤ — القيود والحدود التي تقيد أو تحدد حرية الانسان في تصرفه في ملكه المشروع :

أ — تحريم إتلاف المال :

لا يجوز للانسان أن يتلف ماله بشكل من الاشكال ، ويدخل في هذا تحريم إحراق بعض المنتوجات الزراعية أو الصناعية وتعطيلها ، بقصد الابقاء على ارتفاع سعر جنس البضاعة المتلفة ، ويدخل في ذلك قتل الدواب والحيوانات المملوكة بلا سبب موجب مجيز للقتل ، أي حيث لا يكون في ذلك منفعة أو مبرر شرعي ، ويدخل في ذلك إحراق الانسان نقوده كما يفعل بعض الفسقة إذ يشعلون سيجار الراقصة بأوراق مالية ويدخل في ذلك ما لو كان للانسان ملك لم يتعهده في الرعاية حتى هلك كمزروعات وحيوانات .

ب — وجوب بيع ما يضطر اليه الناس :

فقد نص فقهاء الحنفية أن البيع واجب في حالة اضطرار واحتياج الناس أو انسان لمبيع بسعر المثل ، ويدخل في ذلك الادوية والاشربة والاطعمة والالبسة ، وكل شيء يحتاج الناس اليه يجب على الانسان ان يبيعه ممن يحتاجه بسعر المثل . ويدخل في ذلك وجوب اجارة الارض لمن يحتاجها ولا يجد غيرها ، واجارة الدار لمن يسكنها ولا يجد غيرها ، كل ذلك بسعر المثل وطبعاً في حالة الزيادة عن حاجة المالك ، ويدخل في ذلك استئجار رجل في عمل لا يحسن غيره وهو مضطر للعمل لحاجته ، فيجب في هذه الحالة دفع أجر المثل له ولا حرية للمستأجر في ذلك ، ويدخل في ذلك اضطرار الانسان لبيع السلم فقد ذكر فقهاء الحنفية أن على الدولة أن تتدخل لتجعل سعر السلم معقولاً لا يضر بالبائع .

حـ — تحريم التبذير والاسراف وجواز الحجر في هذه الحالة :

تعريف التبذير هو : صرف المال وتضييعه على خلاف مقتضى الشرع أو العقل ، كالاسراف في النفقة ، وان يتصرف تصرفات لا لغرض أو لغرض لا يعده العقلاء من أهل الديانة غرضاً ، كدفع المال الى المغنين واللعابين ، وشراء الحمامة الطيارة بثمن غال والغبن في التجارات من غير محمدة ، وأصل المسامحات في التصرفات البر . والاحساد مشروع الا أن الاسراف حرام كالاسراف في الطعام والشراب قال تعالى : « وإذا أنفقوا

لم يسرفوا ولم يقتروا » حتى اعتبر فقهاء الحنفية إنفاق المال كله في وجوه الخير من الاسراف كأن يصرفه في بناء المساجد .

فاذا ما كان الانسان مبذراً حجر عليه في رأي الشافعي وأبي يوسف ومحمد إذ قال أبو يوسف ومحمد يحجر على الإنسان إذا كان عليه دين أو كان عنده غفلة وهو من لا يهتدي الى التصرفات الرائجة فيغبن أو كان مسرفاً وزادالشافعي : (أو كان فاسقاً وقال أبو حنيفة : إذا كان الانسان حراً مكلفاً لا يحجر عليه إلا إذا بلغ غير رشيد فيمهل حتى يسلم له ماله إلى الخامسة والعشرين ثم يعطاه في كل حال وللامام اختيار ما يراه مناسباً من هذه الأقوال والحجر على مراتب .

أقوى : وهو المنع عن أصل التصرف .

ومتوسط : وهو المنع عن وصفه وهو النفاذ .

ضعيف : وهو المنع عن وصف وصفه وهو كون النفاذ حالاً ... اه .

وفي حالة الحجر ينفق على الانسان المحجور عليه بما يناسب حاله .

د ــ تقييد تصرف الانسان بملكه بما لا يضر الآخرين . اذ الحديث يقول :(لا ضرر ولا ضرار) ويدخل في هذه القاعدة فروع كثيرة :

١ ــ لو انتهت مدة إجارة الأرض الزراعية قبل ان يستحصد الزرع ، تبقى في يد المستأجر بأجر المثل حتى يستحصد ، منعاً لضرر المستأجر بقلع الزرع قبل أوانه .

٢ ــ إذا كان الماء لا يصل الى أرض إلا بواسطة أرض أخرى فلا يحق لصاحب الأرض الوسيطة أن يمنع الماء عن الأرض الأخرى هكذا قضى عمر في المسألة .

٣ ــ اذا تعدى أرباب الطعام تعدياً فاحشاً في القيمة جاز للسلطان أن يسعر بمشورة أهل الخبرة ، لان فيه صيانة حقوق المسلمين عن الضياع .

٤ ــ إن لولي الامر أن يحمل من يهمل أرضه على زراعتها إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك من أجل مصلحة الفقير ، لان له معلوماً في زرعها ، ومن أجل مصلحة الناس عامة وتتأكد القضية ، إذا كانت الارض خراجية .

٥ ــ ينسب الى الامام أبي يوسف قوله : (ان الجيران إذا كانوا تأذوا من دخان الحمام فلهم منعه ، الا ان كان دخان الحمام مثل دخانهم) .

٦ ــ اذا أدى تلقي السلع الى ضرر بالعامة ، يمنع المتلقي من الشراء حتى تصل السلعة الى السوق .

٧ — قرر الحنفية ان عقد الإجارة يفسخ إذا أدى استيفاء المعقود عليه إلى ضرر يلحق أحد العاقدين في النفس أو في المال ، ويضربون على ذلك أمثلة : (استأجر شخصاً يقطع يده للاكلة أو لهدم بناء ثم بدا له في ذلك كان عذراً إذ في إبقاء العقد إتلاف شيء من بدنه أو ماله — غاية البيان عن الكرخي — (أو ليفصد أو ليحجم أو يقلع ضرساً ثم يبدو له أن لا يفعل فله في ذلك كله الفسخ لأن فيه استهلاك مال أو غرماً أو ضرراً . وفي البدائع : والعذر أما أن يرجع للعين المؤجرة كمن استأجر حمّاماً في قرية مدة معلومة فنفر الناس ووقع الجلاء ، فلا يجب الأجر ، وأما أن يرجع للمؤجر كأن يلحقه دين فادح لا يجد قضاءه إلا من ثمن العين المؤجرة . فيجعل الدين عذراً في فسخ الاجارة، وكذلك لو اشترى شيئاً فأجره ثم اطلع على عيب به ، له أن يفسخ الاجارة ويرده بالعيب .

وأما أن يرجع العذر للمستأجر ، نحو أن يفلس فيقوم من السوق ، أو يريد سفراً ، أو ينتقل من الحرفة إلى الزراعة ، أو من الزراعة إلى التجارة ، أو ينتقل من حرفة إلى حرفة ، وكما إذا كانت الاجارة لغرض ولم يبق ذلك الغرض ، أو كان عذر يمنعه من الجري على موجب العقد شرعاً ، تنتقض الاجارة من غير نقض ، كما لو استأجر انسان لقطع يده عند وقوع الأكلة أو لقلع السن عند الوجع فبرأت الأكلة وزال الوجع تنقض الاجارة .

ﻫ — إذا تعلق حق العامة ومصلحتهم بملك انسان سقطت حريته في التصرف بهذا الشيء ولكن لا يسقط حقه بالتعويض ، كتوسيع الطرق أو إقامة المساجد وتوسيعها .

و — وإذا تعلق حق العامة في منفعة معينة كان لهم استيفاؤها بأجر المثل ، ولو لم يرض أصحابها . يقول ابن القيم تحت عنوان (إلزام الصانع قبول أجر المثل) .

(ومن ذلك أن يحتاج الناس الى صناعة طائفة — كالفلاحة والنساجة والبناء وغير ذلك — فلولي الأمر أن يلزمهم بذلك بأجرة مثلهم فإنه لا تتم مصلحة الناس الا بذلك) ، (وذلك لأن اقامة المرافق في الدولة واجبة على رئيسها ومعاونيه .

ز – وعن الامام أحمد أنه ليس للمرأة ان تتصرف في مالها بزيادة على الثلث بغير عوض الا باذن زوجها وبه قال الامام مالك لما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال في خطبة خطبها (لا يجوز لامرأة عطية في مالها الا باذن زوجها اذ هو مالك عصمتها) ورواه أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : (لا يجوز لامرأة عطية الا باذن زوجها) .

ح – ومن الحدود التي لا ينبغي تجاوزها ما في هذه الصور التالية : قال الحنفية : ولا يجوز الاستئجار على الغناء والنوح والملاهي لأن المعصية لا يتصور استحقاقها بالعقد فلا يجب عليه الأجر من غير أن يستحق هو على أجير شيئاً اذ المبادلة لا تكون الا باستحقاق كل واحد منهما على الآخر ، ولو استحق عليه المعصية لكان ذلك مضافاً الى الشارع من حيث أنه شرع عقداً موجباً للمعصية تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ... الزيلعي ج ٥ – ص ١٢٥ ...

وقالوا : رجل استأجر فحلا لينزي به لا يجوز ذلك ، ولا أجر فيه وكذلك النائحة والمغنية .. وان استأجر المسلم ذمياً لبيع الخمر او الميتة والدم لم يجز وورد النهي عن ذلك .. الفتاوى الخانية ج ٢ ص ٣٢٢ .

وقالوا : (لا تجوز اجارة الاماء للزنا لأنها اجارة على المعصية) البدائع ج ٤ ص ١٩٠ .

وقالوا : (ومن كان له عصير فلا بأس عليه في بيعه ، وليس عليه أن يقصد بذلك الى من يأمنه أن يتخذه خمراً دون من يخاف ذلك عليه ، لأن العصير حلال ، فبيعه حلال ، كبيع سواه من الأشياء الحلال ، مما ليس على بائعها الكشف عما سيفعله المشتري فيها ، وانما جاز هذا العقد اذا لم يذكر فيه صراحة ولا ضمناً أن يتخذه المشتري خمراً ، فالبيع في هذه الحال صحيح ولو اتخذه بعد ذلك خمراً في مختصر الطحاوي ص ٢٨٠ ...

وقالوا في الزيلعي : (وجاز بيع العصير من خمار ، لأن المعصية لا تقوم بعينه ، بل بعد تغيره ، بخلاف بيع السلاح من أهل الفتنة لأن المعصية تقوم بعينه ، فيكون اعانة لهم وتسبباً ، وقد نهينا عن التعاون على العدوان والمعصية ، ولأن العصير يصلح لأشياء كلها جائز شرعاً ، فيكون الفساد إلى اختياره) .

وقال الحنفية في البدائع : (وأما القرد ـ أي شراء القرد ـ فعن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه روايتان في جوازه وعدم جوازه ، وجه رواية عدم جوازه : (أنه غير منتفع به شرعاً ، فلا يكون مالاً كالخنزير ، ووجه رواية الجواز أنه إن لم يكن منتفعاً به بذاته يمكن الانتفاع بجلده ، فكان بالنظر إلى جلده مالاً ، وجاز لذلك شراؤه ، والصحيح عدم الجواز لأنه لا يشتري للإنتفاع بجلده عادة ، بل للتهور به ، وهو حرام فكان هذا بيع الحرام للحرام وأنه لا يجوز) .

وقال الحنابلة : (ولا ـ أي لا يصح ـ بيع سلاح ونحوه ـ في فتنة ، أو لأهل الحرب ، أو لقطاع الطريق لو علم البائع ذلك من مشتريه ولو بقرائن لقوله تعالى : « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ويصح بيع السلاح لأهل العدل لقتال البغاة ، وقتال قطاع الطريق ، لأن ذلك معونة على البر والتقوى (كشاف القناع جـ ٣ ص ١٤٦ ...)

وجاء فيه أيضاً جـ ٣ ص ١٤٦ / (ولا يصح بيع ما قصد به الحرام ، كعنب وعصير لمتخذهما خمراً ، وكذا زبيب ونحوه) .

وفي المغني لابن قدامة جـ ٤ ص ٢٢٣ قال الجنابلة :

(وبيع العصير ممن يتخذه خمراً باطل) ...

(وجملة ذلك أن بيع العصير لمن يعتقد أنه يتخذه خمراً حرام ولنا قوله الله تعالى : « ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » وهذا نهي يقتضي التحريم) ...

(وروي عن النبي ﷺ أنه لعن في الخمر عشرة ، ولأنه يعقد عليها لمن يعلم أنه يريدها للمعصية فأشبه إجارة أَمَتَهُ لمن يعلم أنه يزني بها ، والآية « وأحل الله البيع وحرم الربا » مخصوصة بصور كثيرة ، فيخص منها محل النزاع بدليلنا ، وقولهم تم البيع بشروطه وأركانه ، قلنا كره لوجود المانع (إذا ثبت هذا فإنما يحرم البيع ويبطل إذا علم البائع قصد المشتري ذلك إما بقوله ، وإما بقرائن مختصة به تدل على ذلك) .

فأما إن كان الأمر محتملاً ، مثل أن يشتريها من لا يعلم حاله ، أو من يعمل الخل والخمر معاً ، ولم يلفظ بما يدل على إرادة الخمر ، فالبيع جائز ، وإذا ثبت التخمير فالبيع باطل ، وهكذا الحكم في كل ما يقصد به الحرام ، كبيع

السلاح لأهل الحرب ، أو لقطاع الطريق أو في الفتنة ، وبيع الأمة للغناء ، أو إجارتها كذلك ، أو إجارة داره ليبيع الخمر فيها ، أو لتتخذ كنيسة ، أو بيت نار ، وأشباه ذلك ، فهذا حرام والعقد باطل لما قدمنا .

(وقد نص الامام أحمد على مسائل نبه بها على ذلك ، فقال في القصاب والخباز : (إذ علم أن من يشتري منه يدعو عليه من يشرب المسكر لا يبيعه ، ومن يخترط الأقداح لا يبيعها ممن يشرب فيها ، ونهى عن بيع الديباج للرجال ، ولا بأس ببيعه للنساء ، وروى عنه : (لا يبيع الجوز من الصبيان للقمار) . (وعلى قياسه البيض ، فيكون بيع ذلك كله باطلا) .

وقال المالكية : (ويمنع المسلمون من بيع آلة الحرب ، يعني من الحربيين ، ويلحق بذلك بيع الخشب لمن يعمل منه صليباً ، وبيع الدار لمن يعملها كنيسة ، والعنب لمن يعصره خمراً) . التبصرة جـ ٢ ص ١٤٧ لابن فرحون .

ويقول في مؤيد هذا المنع : (ويؤدب من يبيع آلات اللهو ويفسخ البيع ويكسر ، ويؤدب أهل ذلك) التبصرة أيضاً .

ويقول : (بيع العنب لمن يعصره خمـراً ، وبيع ثيـاب الحرير لمن يلبسها غير جائز) . شرح الحطاب جـ ٣ ص ٢٦٣ — ص ٢٦٤ .

(وكذا بيع الخشبة لمن يستعملها صليباً ، وبيع العنب لمن يعصره خمراً على أحد قولين . كما يحرم بيع السلاح لمن يعلم أنه يريد به قطع الطريق على المسلمين أو إثارة الفتنة بينهم ، كما لا يجوز في مذهب مالك بيع الجارية المملوكة لقوم عاصين يتسامحون في الفساد ، وعدم الغيرة ، وهم آكلون للحرام ويطعمونها منه) . المدونة جـ ٤ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

وفي الشرح الكبير للدردير والدسوقي عليه :

(ويمنع بيع كل شيء علم أن المشتري قصد به أمراً لا يجوز ، كبيع جارية لأهل الفساد ، وبيع أرض لتتخذ كنيسة أو خمارة أو بيع خشبة لمن يصنعها صليباً ، وبيع العنب لمن يعصره خمراً ، والنحاس لمن يتخذه ناقوساً . . .

وكذا يمنع أن تباع آلة الحرب للحربيـــين ، كسلاح أو كراع وسرج وكل ما يتقوون به في الحرب ، من نحاس أو خباء أو ماعون ، ويجبرون على إخراج ذلك من ملكهم .

وقال ابن رشد : (والخلاف في هذا مقيد بما إذا علم البائع أن المشتري يفعل كذا ، أما إذا لم يعلم ثم ظهر أنه يفعل ذلك ، فإن البيع لا يفسخ بلا خلاف ، ولكن يجبر المشتري على اخراجه من ملكه ببيع أو نحوه .

وقال كل الفقهاء : فالوصية لجهة محظورة ، كالوصية بمال يشترى به خمراً ، أو للنواح أو كالوصية لمعابد الوثنيين باطلة ، لأن هذا الالتزام الانفرادي تمحض شراً فيكون باطلاً) .

ط – ومن الحدود التي لا يجوز لصاحب المال أن يتجاوزها ، أن يستعمل ماله للرشوة من أجل اقتطاع مال الغير بغير حق قال تعالى :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم » .

أما دفع المال لتحصيل الحق إذا تعذر التحصيل إلا به فذلك جائز للمعطي .

ويدخل في ذلك شراء الحكم برشوة أصحابه أو برشوة من يوصلون إليه من أجل الإضرار بالعامة لمصلحة المرتشين .

* * *

ونكتفي بهذا القدر من القيود أو الحدود ولا شك أن هذه الفقرة لها علاقة بالفقرة الأولى في بعض جوانبها غير أنا تساهلنا بهذا رغبة في تأكيد بعض المعاني التي تحتاج إلى تأكيد .

٥ – مآل التملك في الاسلام ..

إذا ارتد المسلم – والعياذ بالله – فإن ماله يكون لبيت مال المسلمين على قول عند الفقهاء وعلى قول آخر : ما ملكه حال ردته يكون لبيت مال المسلمين وما ملكه قبل الردة فلورثته المسلمين .

وفي الوضع العادي فإن ما ملكه المسلم يؤول حال وفاته إلى ورثته المسلمين، على ما بينه الله عز وجل وفصله رسوله ﷺ في ذلك ، فإن لم يكن له وارث فإن ماله يؤول إلى بيت مال المسلمين ، وكلامنا هنا عن مآل التملك في الوضع العادي وسنبين هذا على الطريق التالية : نستعرض النصوص القرآنية الواردة في باب الميراث مع شرح مختصر لها ثم نختار بعض النصوص الواردة في

باب المواريث ثم نذكر أصحاب السهام ثم العصبات بعد أن عرفناهم ثم نذكر من يرث فرضاً (أي أصحاب الهام) أو تعصيباً أو بهما .

ثم نذكر عدة قواعد تعيننا على فهم قضايا الميراث ، ثم ننقل فقرة من كتاب السياسة المالية توضح حكمة التوريث ودقته ، ثم نشير إلى موضوع الوصيـة في الاسلام ، وبذلك يكون قد اتضح عندنا ماله علاقة في مآل المـــال للتملك المشروع الذي أديت حقوقه في نظام إسلامي .

— ١ —

قال تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثلُ حظ الأنثيين (١) فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك (٢) وإن كانت واحدةً فلها النصف (٣) ولأبويه لكل واحد منهما السُدُسُ مما ترك إن كان له ولد (٤) فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث (٥) فان كان له أخوةٌ فلأمه السدس (٦) من بعد وصية يوصي بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليما حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورَث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث (٧) من بعد وصية يوصى بها أو دين غيرَ مُضار وصية من الله والله عليم حليم . تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعصِ الله ورسوله ويتعـــد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مُهين ».

١ـ فيما بقي بعد أخذ أصحاب السهام سهامهم أو جميع المال على ذلك إذا لم يكن ورثة إلا الأولاد للذكر نصيباً أنثى ٢ ـ للبنتين فأكثر إذا انفردن ثلثا المال ٣ ـ للبنت الواحدة نصف المال ٤ ـ لكل من الأبوين السدس إذا كان للمتوفى ولد ذكر أو أنثى وألحق بالولد ولد الابن ٥ ـ إذا لم يكـــن للمتوفى ولد فللأم الثلث وللأب الثلثان إذا انعدم أصحاب الفرائض . وإلا فثلث الباقي للأم والثلثان

للأب ٦ - إذا كان للمتوفى اخوة أو أخوات وليس له ولد فللام السدسُ والأب الباقي وليس للاخوة والأخوات شيء ٧ - إذا لم يكن للمتوفى ولد ولا والد وكان له اخوة من أم فإن كان أخاً أو أختاً فله أو لها السدس حال الإنفراد فإن كانوا أكثر من واحد فلهم الثلث بالتساوي رجالاً ونساء .

« يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة (١) إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد (٢) فإن كانتا اثنتين(٣) فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ... (٤)»

١ - الكلالة من لا والد له ولا ولد ٢ - أما إذا كان لها ولد ذكر فلا يرث أخوها أو اخوتها منها شيئاً ٣ - اثنتين أو أكثر فهن شركاء في الثلثين ٤ - روى الشيخان عن البراء : أنها آخر آية نزلت أي في الفرائض .

« وأولو الأرحام » ١ - « بعضهم أولى » ٢ - « ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم » ...

١ - أولوا الأرحام هم ذوو القرابات ٢ - أولى ببعض في الارث والتوارث وقبل هذه الآية كان المؤمنون يتوارثون بأخوة الإيمان والهجرة ثم نسخ الحكم ذاك بهذا ، أخرج ابن جرير عن أبي الزبير قال : كان الرجل يعاقد الرجل ترثني وأرثك فنزلت : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله .

- ٢ -

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر) متفق عليه .

عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يتوارث أهل ملتين شتى) رواه أبو داود وابن ماجه .

عن بريدة : (أن النبي ﷺ جعل للجدة السدس إذا لم تكن دونها أم) . رواه أبو داود ...

وعن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد بن الربيع

الى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله : هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما ولم يدع لهما مالاً . ولا تنكحان إلا ولهما مال ، قال : (يقضي الله في ذلك) فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله ﷺ الى عمهما فقال : (أعطِ لابنتي سعد الثلثين ، وأعط أمهما الثمن وما بقى فهو لك) . رواه أحمد والترمذي أبو داود وابن ماجه . وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب .

وعن هذيل بن شر حبيل قال : سئل أبو موسى عن ابنة ، وبنت ابن ، وأخت ، فقال : للبنت النصف ، وللاخت النصف ، وإيت ابن مسعود فسيتابعني ، فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبي موسى . فقال : لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين أقضي بما قضى النبي ﷺ : (للبنت النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين وما بقي فللاخت) . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم) . رواه البخاري ...

وعن قبيصة بن ذؤيب قال : جاءت الجدة الى أبي بكر رضي الله عنه تسأله ميراثها . فقال لها : مالك في كتاب الله شيء ومالك في سنة رسول الله ﷺ شيء ، فارجعي حتى أسأل الناس . فسأل فقال المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس . فقال أبو بكر رضي الله عنه هل معك غيرك ؟ فقال محمد بن مسلمة مثل ما قال المغيرة ، فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه ثم جاءت الجدة الأخرى الى عمر رضي الله عنه تسأله ميراثها . فقال : هو ذلك السدس ، فإن اجتمعتما فهو بينكما ، وأيتكما خلت به فهو لها .) رواه مالك وأحمد ، والترمذي وأبو داود والدارمي وابن ماجه .

وعن محمد بن أبي بكر ابن حزم : أنه سمع أباه كثيراً يقول : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : عجباً للعمة تورث ولا ترث) ... رواه مالك ...

- ٣ -

السهام وأصحابها : السهام نصف أو ربع أو ثمن أو ثلثان أو ثلث أو سدس ، يأخذ النصف خمسة والربع اثنان والثمن واحد والثلثان أربع والثلث اثنان والسدس سبعة وهذه هي حالات ذلك .

النصف ...:

البنت عند انفرادها ...

بنت الابن حال انفرادها ولا بنت صلب ولا ابن ...

الأخت الشقيقة لأب وأم عند انفرادها ولا أولاد أو أولاد أولاد ...

الأخت لأب ... عند انفرادها ولاأولاد أو أولاد أو أخت شقيقة ...

الزوج إذا لم يكن للميت ولد أو ولد ابن ...

الربع ..:

الزوج إذا كان للميت ولد او ولد ابن ...

الزوجات مشتركات او الزوجة إذا انفردت إذا لم يكن للميت ولد أو ولد ابن...

الثمن ...:

الزوجات أو الزوجة إذا انفردت مع الولد أو ولد الابن ...

الثلثان ...:

البنتان فأكثر حال انفرادهن ...

بنات الابن إذا كن ثنتين فأكثر حال انفرادهن ولا بنت صلب ولا ابن ...

الأخوات الشقيقـــات إذا كن ثنتين فأكثر وكن منفردات ولا أولاد أو أولاد أولاد أو أب ...

الاخـــوات لأب إذا كن ثنتين فأكثر وكن منفردات ولا أولاد أو أولاد أولاد أو أخت شقيقة أو أب ...

الثلث ...:

للام إذا لم يكن للميت ولد ذكر أو أنثى ولا ولد إبن ولا اثنان فأكثر من الاخوة والاخوات ...

للاخـــوة للام ذكورهم واناثهم سواء إذا لم يكن ولد أو ولد ابن مطلقاً أو أب أو جد ...

السدس ...:

لكل من الابوين مع وجود الولد أو ولد الابن ...

للام مع وجود اثنين من الأخوة والاخوات ولو لم يرثوا أو وجود ولد أو ولد ابن ...

الجدات الصحيحات ويشتركن فيه إذا اجتمعن وتستقل به واحدة إذا انفردت إذا لم يكن أم ...

الجد الصحيح مع الولد أو ولد الابن وعدم الأب ...

بنات أو بنت الابن مع البنت إذا لم يكن معهن من يعصبهن ...

الاخوات لأب مع الاخت الشقيقة الواحدة يشتركن فيه وتستقل به الواحدة ...

ابن الام إذا انفرد ...

– ٤ –

العصبات : بعد أن يأخذ أهـل الفروض فروضهم على حسب الحال فالباقي يكون للعصبات للذكر مثل حظ الانثيين في حالات وللذكور فقط في حالات أخرى والعصبة الاقرب هي صاحبة الحق وترتيب العصبات على الشكل التالي :

الدرجة الاولى : البنون وبنوهم بمحض الذكور ...

الدرجة الثانية : الاب والجد وان علوا بمحض الذكور ...

الدرجة الثالثة : الاخوة لابوين أو لأب عند عدم الأخوة لابوين ثم بنـــوهم كذلك وأن سفلوا بمحض الذكور ...

الدرجة الرابعة : الاعمام لابوين أو لاب عند عدم الاعمام لابـــوين ثم بنوهم كذلك وان سفلوا بمحض الذكور ...

الدرجة الخامسة : أعمام أبي الميت لابوين أو لاب ثم بنوهم كذلك وان سفلوا ...

ملاحظـــة .

المرأة تكون عصبة بغيرهـــا فتشارك في الميراث بنصف حظ الذكر : إذا كانت بنتا مع إخوة ذكور لها ،... إذا كانت بنت ابن مع ذكر ابن ابن،...،إذا كانت أختا مع إخوة ،...، إذا كانت أختاً مع بنات فالاخوات مـع البنات عصبات وما عدا هذا فلا تكون المرأة عصبة أي يرث الذكور فقط بالتعصيب في غير هذه الحالات دون الإناث .

مجموع من يرث من الذكور والاناث فرضاً أو تعصباً :

من الذكور :

الابن وابنه وان نزل الأب والجد وإن علا وأخ الشقيق والاخ الشقيق والاخ للاب والاخ للام وابن الاخ الشقيق وابن الاخ للاب والعم الشقيق والعم للاب وابن العم الشقيق وابن العم للاب والزوج والمعتق .

من الإناث :

البنت وبنت الإبن والأم والجدة من قبلها والجدة من الاب والاخت الشقيقة والاخت للاب والاخت للام والزوجة والمعتقة .

وما عدا هؤلاء من الذكور والإناث فمن ذوي الأرحام وحالات الوارثة للذكور هي :

١ – الابن يرث تعصيباً فيحجب ما سواه من العصبة بعد أخذ أصحاب الفروض فروضهم بملاحظة وجوده ...

٢ – ابن الابن يرث تعصيباً حال فقد الابن وبعد أن يأخذ أصحاب الفروض فروضهم ...

٣ – الأب يأخذ السدس إذا كان ولد أو ولد ولد ويرث تعصيباً إذا لم يكن ولد أو ولد ولد بعد أخذ أصحاب الفروض فروضهم ...

٤ – الجد الصحيح : يأخذ السدس إذا فقد الأب وكان المتوفى ولد أو ولد ولد ويرث تعصيباً إذا فقد الولد وولد الولد ولم يكن أب ...

٥ – الاخ الشقيق يرث تعصيباً إذا لم يكن ولد أو ولد ولدٍ أو أب أو جد ...

٦ – الاخ لأب يرث تعصيباً إذا لم يكن ولد أو ولد ولدٍ أو أب أو جد أو أخ شقيق ...

٧ – الاخ للام يأخذ السدس إذا لم يكن والد وإن علا أو ولد وإن نزل ويشترك مع إخوته في الثلث ...

٨ – ابن الاخ الشقيق يرث تعصيباً بعد أخذ أصحاب الفروض فروضهم إذا لم يكن بنون ولا آباء ولا اخوة لأبوين أو لاب ويرث في هذه الحالة تعصيباً أبناء الاخوة الذكور دون الإناث ...

٩ – ابن الاخ لاب يرث تعصيباً إذا لم يكن ابن أخ لاب وأم يستحق الارث ...

١٠ – العم الشقيق : يرث تعصيباً بعد أخذ أصحاب الفروض فروضهم ولم يكن بنون ولا آباء ولا إخوة لابوين أو لاب أو أبناء اخوة لاب وأم وأبناء إخوة لاب ...

١١ – العم لاب إذا لم يكن عم شقيق ، فما قبله من العصبات ...

١٢ – ابن العم الشقيق : يرث تعصيباً إذا لم يكن عم لاب فما قبله من العصبات .

١٣ – ابن العم لاب يرث تعصيباً إذا لم يكن ابن عم شقيق فمن قبله من العصبات ...

١٤ – الزوج له النصف فرضاً إذا لم يكن للزوجة المتوفاة ولد منه أو من غيره والربع ان كان لها ولد منه أو من غيره ...

١٥ – المعتق يرث تعصيباً إذا لم يكن أحد من العصبات موجوداً ...

وحالات الوراثة للاناث هي :

١ – البنت لها النصف فرضاً حال انفرادها والثلثان للبنتين فأكثر فرضاً حال انفرادهن وإذا لم يكن عصبة ترد عليها باقي التركة بنسبة سهامها وترث تعصيباً مع اخوتها الذكور للذكر مثل حظ الانثيين ...

٢ – بنت الابن لها النصف حال انفرادها ولا بنت صلب ولا إبن وتشارك في الثلثين إذا كن أكثر من واحدة ولا بنت صلب ولا ابن وتأخذ السدس حال انفرادها إذا كانت واحدة حال وجود بنت واحدة ولا ابن ويشترك أكثر من واحدة في السدس أما إذا كان مع بنت الابن أو بنات الابن من يعصبهن من ذكر فيكون الميراث بالتعصيب إذا لم يكن ابن ذكر ...

٣ – الأم : لها الثلث إذا لم يكن للميت ولد ذكر أو أنثى أو ولد ابن أو

اثنان أو أكثر من الاخوة والاخوات ولها السدس في حال وجود شيء من هذا ...

٤ – الجدة من قبل الام لها السدس إذا لم تكن أم وجدة أخرى وفي حال وجود الجدة الأخرى تقتسمان السدس ...

٥ – الجدة من قبل الاب لها السدس إذا لم يكن جدة من قِبَل الام أو أم وتشترك الجدتان في حال وجودهما في السدس ...

٦ – الاخت الشقيقة لها النصف عند انفرادها ولا أولاد أو أولاد أولاد وفي حال وجود بنات فانها تعصبهن واذا كانت أكثر من أخت شقيقة فيشتركان في النصف أو في التعصيب وتشارك اخوتها الذكور في التعصيب اذا لم يكن بنون وآباء ...

٧ – الاخت لاب لها نفس أحكام الاخت الشقيقة في حال عدم وجودها فلا ترث شيئاً بوجود الاخت الشقيقة وتأخذ أحكامها في حالة عدم وجودها ...

٨ – الاخت لام : لها السدس إذا لم يكن والد ولا ولد وتشارك في الثلث اذا كان معها إخوة أو أخوات بالتساوي ...

٩ – الزوجة لها ربع مال الزوج ان لم يكن له ولد منها أو من غيرها ولها الثمن ان كان له ولد ...

١٠ – المعتقة ترث تعصيباً اذا لم يوجد أحد من عصبات النسب ...

– ٦ –

قواعـــد ...

القاعدة الاولى : الفاضل عن فرض الاختين من الاب والام الإخوة والاخوات من الاب للذكر مثل حظ الانثيين ...

القاعدة الثانية : من ترك ابني عم أحدهمـــا أخ لام فللأخ من الام السدس بالفرضية والباقي بعد السدس بينهما نصفين بالعصوبة لاستوائهما بها ...

القاعدة الثالثة : الفاضل عن فرض ذوي السهـام اذا لم يكن عصبة مردود على ذوي السهام بمقدار سهامهم ، الا أنه لا يرد على الزوجين لانه لا رحم بينهما ...

القاعدة الرابعة : اذا لم يكن للميت عصبة ولا ذو سهم ورثه ذوو أرحامه وهم الاقارب الذين ليسوا بعصبة ولا أصحاب سهام على ترتيب درجة قربهم كما فصلها الفقهاء :

ولد البنت ثم ولد الاخت ثم ابنة الاخ ثم ابنة العمّ ثمّ الخال ثم الخالة ثم أبو الأم ثم أخو الأب من الأم ثم العمة ثم ولد الأخ من الأم ومن أولى بهم ...

القاعدة الخامسة : لا يرث القاتل كائناً من كان من المقتول ولا يرث الكافر من المؤمن أو المؤمن من الكافر ...

القاعدة السادسة : الأخوات من البنات عصبات فلو مات رجل عن بنت وأخت فللبنت النصف وللاخت الباقي تعصيباً وإذا كن أكثر من واحدة فالباقي بينهن بالتساوي تعصيباً ...

- ٧ -

والمتأمل لدقائق الميراث في الاسلام يجد عجباً من العجب وعدلاً لا مثيل له ودقة لا يبلغها التأمل حتى ان آيات الميراث وحدها لو عقلها الانسان لأيقن أن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون من عند الله المحيط علماً بكل شيء :

يقول صاحب الكتاب (السياسة المالية في الاسلام) عن هذا الموضوع :

ويكفي أن نقف هنا عند حالة واحدة ، وهي حالة الأب والأم حين يتوفى لهما ابن ، انهما يرثان في تركته ولكن على صور :

١ — فحين يكون للإبن ولد ذكر أو ذرية فيها ذكر تتساوى الأم مع الأب ، لكل واحد منهما السدس ...

٢ — وحين يكون للولد بنت تأخذ البنت النصف ، وتأخذ الأم السدس ويأخذ الأب الباقي ، وهو الثلث ، السدس فرضاً ، والسدس الثاني بالتعصيب ، وان كان للابن بنتان أخذت البنتان الثلثين ، وأخذ كل من الأب والأم السدس ...

٣ — وحين لا يكون للابن ذرية ويكون له اخوة — من أب أو أم — لا يرث الاخوة شيئاً ، وتأخذ الأم السدس فقط ، ويأخذ الأب الباقي ، وهو خمسة اسداس : اما حين لا يكون للابن إخوة فتأخذ الأم الثلث ويأخذ الأب الباقي ، وانظر مرة أخرى في هذه الحالات ...

ففي الحالة الاولى تساوت الام والاب ... ومساواة الام والاب في هذه الحالة تكشف عن حكمة بالغة ، ذلك أن الاب والام قد أصبحا جدين لان لابنهما المتوفى أبناء ، وإذن فقد تقدمت بهما السن ، وهما في هذه الحالة يكادان يتساويان في مسؤوليات الحياة ، أو قل إن كلا منهما في حاجة الى من يحمل عنه بعض أثقال الشيخوخة وهمومها ، فهما - وهذه حالهما - انسانان ، وليسا رجلا وامرأة ، ولهذا قضت حكمة الخبير العليم التسوية بينهما ووضعهما بمكان واحد من هذا الميراث الذي جاءهما على الكبر ، وان كان قد وصل اليهما ملفقاً في أحزان ودموع ، وفي الحالة الثانية أخذ الاب ضعف نصيب الام مع البنت الواحدة التي تركها الإبن لان الاب أصبح الآن مسؤولاً عن كفالة ابنة ابنه . وقضاء حاجاتها إذ هو أولى الناس بها ، وفي الحالة الثالثة ، عبرة لمن اعتبر ، الاخوة مع الام والاب ليس لهما نصيب في تركة الإبن - أخيهم - ولكنهم يؤثرون في قسمة التركة بين الاب والام ، فتأخذ الام السدس فقط ويذهب الاب بالباقي وهو خمسة أسداس . ما الحكمة في ذلك ؟

علل فقهاء المسلمين ذلك بأن الاب في هذه الحالة هو الذي من شأنه أن يرعى إخوة الإبن المتوفى ...

- ٨ -

ونختم هذه الفقرة بالكلام عن الوصية على اعتبار أنها جزء من تنظيم الإسلام لمآل المال ناقلين بعض النصوص أولاً ثم بعض كلام الفقهاء في الموضوع :

عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده) .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مرضت عام الفتح مرضاً أشفيت على الموت ، فأتاني رسول الله ﷺ يعودني ، فقلت : يا رسول الله : ان لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي ، أفأوصي بمالي كله ؟ قال : (لا) ، قلت : فثلثي مالي ، قال : (لا) ، قلت : فالشطر ، قال : (لا) قلت : فالثلث قال (الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ،

وانك لن تنفق نفقة تبتغي فيها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك) . متفق عليه .

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع :

(ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث) . رواه أبو داود وابن ماجه ...

عن ابن هريرة رضي الله عنه عن رسول عن الله ﷺ : (إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ، ثم يحضرهما الموت ، فيضاران في الوصية ، فتجب لهما النار) . ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه (من بعد وصية يوصي بها أودين غير مضار) الى قوله : (وذلك الفوز العظيم) . رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه ...

عن جابر رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : (من مات على وصية مات على سبيل وسنة ومات على تقى وشهادة ومات مغفوراً له) . رواه ابن ماجه .

قال فقهاء الحنفية :

الوصية غير واجبة إذا لم يكن الانسان مشغول الذمة بنحو زكاة وفدية صوم ، أما إذا كان مشغول الذمة بشيء من حقوق الله أو العباد فواجبة ، والوصية مستحبة إذا كانت على فقراء ، ومباحة إذا كانت على أغنياء ومكروهة على أهل الفسق .

ولا تجوز الوصية لوارث إلا أن يجيزها بقية الورثة ...

ولا تجوز بما زاد على الثلث إلا أن يجيزها الورثة كذلك ...

ويجوز أن يوصي المسلم للذمي والكافر المسلم ...

ويستحب أن يوصي الانسان بدون الثلث لان الثلث كثير ...

(ومن أوصى بوصايا من حقوق الله تعالى وضاق عنها الثلث قدمت الفرائض منها على غير الفرائض لان قضاءها أهم ، وذلك مثل الحج والزكاة والكفارات وإن تساوت قوة بأن كانت فرائض أو واجبات بدىء بما قدمه ...

(ومن أوصى بحجة الاسلام أحجوا عنه رجلا من بلده ، فإن لم تبلغ الوصية النفقة أحجوا عنه من حيث تبلغ) اه .

وعلى هذا أول ما يؤخذ من تركة الميت ديون العباد ثم الوصية إذا لم تتجاوز

الثلث ثم يوزع الباقي على الورثة على الطريقة التي رأيناها ، فإذا لم يكن وارث من ذوي الفروض أو من العصبات أو من ذوي الارحام آل الى بيت مال المسلمين) وبهذا نكون قد انتهينا من استعراض مآل التملك في الاسلام ...

٦ – ميزات نظام التملك في الاسلام ...

أ – من ميزات هذا النظام أنه لا يسمح لرأس المال أن يستغل البشر بحيث يبقى دائماً رابحاً دون استعداد لتحمل الخسارة ، ويظهر ذلك من تحريم الربا...

ب – ومن ميزاته أنه لا يسمح لاحد أن يربح عن طريق استغلال اضطرار الآخرين واحتياجاتهم ...

جـ – وأنه لا يسمح بالتلاعب في الحياة الاقتصادية بواسطة الاحتكارات أو الاتفاقات التي تضر بالعامة ...

د – وانه لا يسمح باستغلال شهوات الإنسان وأهوائه من أجل تحصيل ربح...

هـ – وانه يفتت الثروات الضخمة بشكل فطري أولاً عن طريق تحديده طرق التملك المشروع ، وتقييده طرق التملك غير المشروع ، ووضعه الحقوق في المال ، وجعل الملك يؤول الى أيد كثيرة بواسطة نظام الإرث وما رافقه ...

و – وانه يوجه طاقات الافراد جميعاً بشكل عفوي نحو الإنتاج لانه لا يسمح لاحد أن يكسب عن طريق لا يعطي انتاجاً حقيقياً كالقمار واليانصيب والموسيقى والزنى ...

ز – انه يجعل المال كثيراً بيد كل طبقات الامة بحيث تبقى الحركة الاقتصادية نشيطة بشكل دائم بواسطة نظام الزكاة وتوزيع الفائض في بيت المال على الامة كما سنرى ...

ح – وأن كل مبادئه عادلة عدلاً مطلقاً لا يعرف البشر له مثيلاً فما من جانب فيه إلا وهو مظهر من مظاهر العدل سواء في طرق التملك ، أو في الحقوق فيه أو في مآله ، وما من نظام آخر إلا والظلم يكتنفه من جميع ظلماته ...

ط – وان كل جانب فيه معقول المعنى ولا يصل العقل الى نقض جانب منه بل قبوله دليل على صحة الانسان وسلامته ...

حل المشاكل الاجتماعية الاقتصادية

إن الحياة الاجتماعية مليئة بالمشاكل التي لا تحل إلا بواسطة المـــال ، فمن هذه المشاكل الفقر والحاجة والخصاصة ، ومن هذه المشاكل طلب العلم ، إذ هناك كثيرون من الناس يرغبون بالعلم ولا يجدون المال الذي يستطيعون معه التحصيل أو الاستمرار بالتحصيل ، ومن هذه المشاكل العجز فهناك ناس عجزة بأصل الخلقة أو بشكل عارض ، كالمشلولين والعمي ومقطوعي الأرجل وأمثـــالهم ، فهؤلاء يحتاجون الى رعاية مال يعيشون به ، وهناك ناس يحتاجون الى الزواج ويرغبون به وليس عندهم المال الذي يتزوجون به ويعيلون به أسرهم ، وهناك ناس ليس لهم سكن وهم بحاجة إليه لإيوائهم وإيواء عيالهم معهم ، وهناك ناس قادرون على العمل ولكن لا عمل لهم ، إما لعدم وجود مجاله أو لعدم وجود رأسمال كاف لإقامة أعمالهم وهناك ناس يعملون فتأتي ظروف غير مؤاتية فيفلسون ويصبحون مدينين وتحتاج قضيتهم الى حل ، وهناك ناس يرغبون بالقتال لتحرير بلادهم من سيطرة كافر سواء كان داخلياً أو خارجياً فيحتاجون إلى مال ، وهناك مشاكل أخرى كلها تحتاج الى حلول مالية ، فما طريق حل هـــذه المشاكل في نظام الإسلام ؟...

إن الله عز وجل قد شرع لنا عدة أنظمة من أجل حل هذه المشاكل وأشباهها أو أجزاء منها وهذه الانظمة هي :

١ – نظام الزكاة ...

٢ – نظام الصدقات المطلقة والمقيدة والكفارات ...

٣ – نظام الأوقاف ...
٤ – نظام النفقات ...
٥ – نظام خمس الغنائم ...
٦ – نظام الركاز ...
٧ – الكفالة العامة من بيت المال لكل إنسان في الأرض الإسلامية ...

ولكن نظرة الناس الى هذه الانظمة أصبحت قاصرة وضعيفة مما غيب عنهم كثيراً من آدابها وأحكامها ولذلك فإننا سنستعرض هذه الجوانب جانباً جانباً مع ملاحظة أننا كتبنا عن الزكاة في فصل الأركان بحثاً كاملاً فنكتفي هنا أن نذكر بعض النقاط التي لها علاقة بموضوعنا ...

١ – نظام الزكاة...

مر معنا في الفصل الأول من هذا البحث – الأركان – حديث كامل عن الزكاة فلا نعيد الكلام فيها غير أ"نا نذكر هنا ما يلي :

١ – إن صندوق الزكاة صندوق مستقل لا علاقة له ببيت المال العام ...
٢ – إن واردات الزكاة ضخمة جداً إذ أنها تشمل ربع العشر تقريباً من رأسمال الأمه هذا عدا زكاة الأنعام والأرضين ...

٣ – إن هذا المال يمكن أن يحل مشاكل الفقر والبطالة والجهـــل والعجز والإفلاس والزواج والسكن وغيرها . وقد رأينا تفصيل ذلك هناك ووجدنا أنه يمكن إنشاء مصانع به تملك لمجموعات من الفقراء كما يمكن أن يعطى كل طالب منه ما لم يكن غنياً وليس غنى للابن البالغ كما يمكن أن يعطى – لكل من لا يملك مالاً لإقامة عمله – بلا مقابل ويدخل في ذلك المزارعون الذين لا يملكون أدوات العمل الذي تحتاجه الزراعة ...

كما يدخل في ذلك من يستطيع الزراعة وليس له أرض ولا قدرة ماليـــة امثال هؤلاء يمكن أن يدفـع لهم المال الذي يستطيعـون به أن يحيوا أراضي مواتاً ، وكل ذلك من مال الزكاة بلا مقابل ، وقد رأينا أدله ذلك في باب الزكاة من الفصل الاول ، ولو طبق نظام الزكاة سنوات وروعيت فيه أمثال هذه القضايا لكفى به حلا لكل مشكلة ، وقد رأينا في بحث الزكاة من فصل

الأركان تطبيقات ونصوصاً مدهشة جداً لو وجدت من يقيمها ، ومع هذا فإنه نظام الزكاة ليس وحيداً ...

٢ – نظام الصدقات المطلقة والمقيدة والكفارات ...

يساعد نظام الزكاة نظام الصدقات المطلقة أو المقيدة والكفارات

فقد جعل الله الزكاة الحد الأدنى من الإنفاق وندب المسلم الى الانفاق المطلق وقد رأينا في الأصل الثاني عن الرسول ﷺ في فصل الثمرات نماذج من إنفاق المسلمين مما لا يكاد يتصور ...

وكلما عمق إيمان الإنسان بالله واليوم الآخر ازداد انفاقه لذلك قال عليه الصلاة والسلام : (والصدقة برهان) ...

وعدا عن الصدقات المطلقة فهناك الصدقات المقيدة بوقت أوحال كصدقة الفطر أو التصدق بجزء من لحم الاضحية أو التصدق بلحوم ما يهدى للحرم ، أو الوفاء بنذر وكفارة الحنث في اليمين المنعقدة وهناك الكفارات المالية :

فمن وطىء امرأته أثناء حيضها كفّر بصدقة ومن أفطر في رمضان ولا يستطيع الصوم تأبيداً كفّر ومن حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها حنث وكفّر . وفي باب الظهار تشرع الكفارة بمال في حالاتها المقررة ، وفي باب الافطار عمداً في رمضان تشرع الكفارة المالية في أحوالهـا المقررة وفي بـاب الحج كثيراً ما تكون الكفارة مالاً إذا وجدت جناية أو بغير المال وينتفع الفقراء .

وكل هذا وأمثاله يساعد الانظمة الأخرى على حل المشاكل الاجتماعية الاقتصادية...

٣ – نظام الاوقاف ...

وأهم مساعد لنظام الزكاة نظام الاوقاف ، فإن المسلمين ما تركوا وجهاً من وجوه الحاجة ولا جانباً من جوانب الخير والبر ولا فرعاً من فروع الحياة يحتاج الى مساعدة إلا وقد وقفوا عليه :

فقد وقفوا الأوقاف الكثيرة لمساعدة طلاب العلم على طلب العلم فلا يحتاجون لأحد ، ووقفوا الاوقاف الكثيرة على العلماء وأصحاب الشعائر الدينية حتى لا يحتاجوا لأحد .

ووقفوا الاوقاف الكثيرة على المرضى عامة حتى يحمل المريض دواءه وعلاجه ونفقات عطالته مجاناً ...

ووقفوا أوقافاً كثيرة لمساعدة العجزة والضعفاء والمساكين والفقراء حتى لا يحتاجون إلى أحد ...

ووقفوا الأوقاف الكثيرة على اليتامى حتى لا يضاموا وعلى الأرامل حتى لا يحتاجوا ...

ووقفوا الأوقاف الكثيرة على أمور من البر لا يفطن لها الناس، حتى إنهم وقفوا أوقافاً على الحيوانات التي تكبر وعلى الاولاد الذين يكسرون آنيتهم الى غير ذلك من العجائب.

ولولا أن أوقاف المسلمين لعب بها كثيراً، لكفت طبقات كثيرة من الناس، ولكن إلى الله المشتكى فلا بد من إعادة الأمور إلى نصابها في موضوع الاوقاف بشقيها، الاوقاف الذرية، والاوقاف العامة، فإن من دواعي الاسى، أن يتصرف في أموال الاوقاف الإسلامية الكافرون على ما يشاؤون فتذهب أموال المسلمين إلى ما لم يأذن به الله.

٤ – نظام النفقات ...

١ – عن عائشة رضي الله عنها قالت: (إن هنداً بنت عتبة قالت: يا رسول الله: إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف) متفق عليه ...

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أعطى الله أحدكم خيراً فليبدأ بنفسه وأهل بيته) رواه مسلم ...

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي مالاً وإن والدي يحتاج الى مالي قال: (أنت ومالك لوالدك إن أولادكم من أطيب كسبكم كلوا من كسب أولادكم) رواه أبو داود وابن ماجه ...

وعن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: اتقوا الله في هذه البهائم المعجمه فاركبوها صالحة واتركوها صالحة) رواه أبو داوود...

٢ – قال فقهاء الحنفية :

(تجب النفقة بأحد أسباب ثلاثة الزوجية أو القرابة أو الملك) ولم يبق الآن في الظاهر ملك فبقيت الزوجية والقرابة ...

(قال هشام : سألت محمداً عن النفقة فقال هي الطعام والكسوة والسكنى) ...

(النفقة واجبة للزوجة على زوجها ولو صغيراً أو فقيراً مسلمة كانت أو كافرة فقيرة أو غنية متى أصبحت عنده فإن كانا موسرين تجب عليه نفقة اليسار ، وإن كانا معسرين تجب عليه نفقة الإعسار ، وإن كانا مختلفين فعلى ظاهر الرواية يعتبر حال الزوج وعلى ما اختاره صاحب الهداية فبين الحالين ، إلا أنه إذا كان هو المعسر يطالب بقدر وسعه والباقي دين عليه إلى الميسرة) ...

(وعلى الزوج أن يسكن زوجته في دار مفردة ليس فيها من أهله إلا طفله الصغير من غيرها إلا أن تختار المرأة ذلك) ...

(ونفقة الاولاد الصغار الفقراء على الأب لا يشاركه فيها أحد موسرا كان الأب أو معسراً وإذا كان معسراً والأم موسرة تؤمر الأم بالإنفاق عليهم ويكون ذلك ديناً على الأب أما إذا كانوا صغاراً أغنياء بأن ورثوا مالاً مثلاً فنفقتهم في مالهم) ...

(ونفقة الصغير واجبة على أبيه ولو خالفه في دينه) والصغير مادون البلوغ (وجب على الرجل الموسر يسار الفطره – أي الذي يملك نصاباً فائضاً عن حاجته الاصلية – أن ينفق على ابويه وأجداده وجداته سواء كانوا من قبل الاب أو الأم إذا كانوا فقراء ولو قادرين على الكسب والقول لمنكر اليسار والبينة لمدعيه ولو كانوا كفاراً ولا يشارك الولد في نفقة أبويه أحد) ...

(ونفقة الآباء على الابناء بالسوية ذكوراً وإناثاً وهو المفتى به ، وفي رواية الحسن عن أبي حنيفة أنها بين الذكور والإناث أثلاثاً) ...

(والنفقة تجب لكل ذي رحم محرم إذا كان صغيراً فقيراً أو امرأة فقيرة ولو كانت بالغة أو كان زمناً أو أعمى وكانا فقيرين ويجب ذلك على أرحامهم على قدر الميراث)...

(وتجب نفقة الابنة البالغة والإبن الزمن والاعمى إذا كانوا فقراء على الابوين أثلاثا ، على الاب الثلثان ، وعلى الام الثلث كالميراث) .

٥ – نظام خمس الغنائم ...

ا- تعريف عام :

يقول صاحب كتاب السياسة المالية في الاسلام :

في غزوة بدر نزل قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » ..[1] فكانت هذه الآية حكماً قاطعاً في شأن الغنائم التي تقع في أيدي المسلمين من جيوش المشركين وما أجلبوا به من المتاع والسلاح .. فلله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل – الخمس ، وأربعة الاخماس الباقية للمقاتلين الذين استحوذوا على تلك الغنائم .

وفي هذا مباحث :

أولا : كيف تقسم الغنائم بين المحاربين ؟

للمحاربين في الغنائم أربعة أخماس – كما قلنا – والمروي عن رسول الله ﷺ أنه في غزوة بدر جعل للفارس سهمين ، وللراجل سهما ، إذ روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ﷺ قسم غنائم بدر : للفارس سهمان وللراجل سهم[2] .

أما في غزوة حنين فإنه جعل للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً . روى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : شهدت أنا وأخي مع رسول الله ﷺ حنيناً ، ومعنا

---

(١) سورة الانفال ٤١ ...

(٢) كتاب الخراج لابي يوسف ١٨٠ ...

فرسان لنا ، فضرب لنا رسول الله ﷺ بستة أسهم : أربعة لفرسينا وسهمين لنا [1] .

فهذان فعلان لرسول الله ﷺ ، والرأي في الأخذ بهذا أو ذاك منهما يرجع إلى تقدير الإمام وما يراه مناسباً لكل حال .

وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يرى أن يكون للرجل سهم ، وللفرس سهم أي سهمان للفارس ، وسهم للراجل . ويقول لا أفضل بهيمة على رجل .. وحسب الفرس أن يأخذ نصيباً كنصيب الرجل [2] .

ويقول أبو يوسف إن ما جاء من الأحاديث والآثار من أن يكون للفرس سهمان وللرجل سهم أكثر وأوثق ، والعامة عليه ، وليس هذا على وجه التفضيل ، ولو كان على وجه التفضيل ما كان ينبغي أن يكون للفرس سهم وللرجل سهم أنه قد سوى بهيمة برجل مسلم ، وإنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر ، وليرغب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله .. ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه [2] ؟

ثانياً : كيف كان يقسم خمس الغنيمة ؟.

منطوق الآية الكريمة « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل » – يفيد أن هذا الخمس يقسم إلى خمسة أقسام : قسم لله ولرسوله ، وقسم لذوي القربى ، وقسم لليتامى ، وقسم المساكين ، وقسم لابن السبيل .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الخمس كان في عهد الرسول ﷺ خمسة أسهم ، لله وللرسول سهم ولذي القربى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم [3] .

وروي عن ابن عباس أيضاً غير هذا .. قال : (كانت الغنيمة تقسم على خمسة

(١) الخراج لابي يوسف ١٩٠ ...
(٢) الخراج لابي يوسف ١٩ ...
(٣) الخراج لابي يوسف ١٩ ...

أخماس : فأربعة منها لمن قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة : فربع لله وللرسول ولذي القربى ، يعني قرابة النبي ﷺ ، قال : فما كان لله وللرسول فيها فهو لقرابة النبي ﷺ ، ولم يأخذ النبي من الخمس شيئاً ، والربع الثاني لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل ، وهو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين (١) .

ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان على ثلاثة أسهم وأسقطوا الباقي ، ثم قسمه علي كما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان ، ذلك أن السهمين اللذين فرضهما الله سبحانه وتعالى لله ولرسوله ولذوي القربى كان أمرهما الى النبي ﷺ ، فلما لحق صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى ، ارتفع هذان السهمان ، وصار الخمس كله للثلاثة الباقية : اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

هذا وقد جرت مراجعات كثيرة بين عمر رضي الله عنه وبين قرابة رسول الله ﷺ في شأن الخمس المفروض لهم في خمس الغنائم .

روي عن ابن عباس قال : كان عمر يعطينا من الخمس نحواً مما كان يرى لنا ، فرغبنا عن ذلك ، وقلنا : حق ذوي القربى خمس الخمس ، فقال عمر رضي الله عنه : إنما جعل الله الخمس لأصناف سماها ، فأسعدهم بها أكثرهم عدداً ، وأشدهم فاقة ، قال فأخذ ذلك منا ناس وتركه ناس (٢) .

وروي عن ابن عباس أيضاً فقال : (عرض علينا عمر رضي الله عنه أن نزوج من الخمس أيمنا ، ونقضي منه عن مغرمنا ، فأبينا إلا أن يسلم لنا ، وأبى ذلك علينا (٣) (الأيم : غير المتزوج ، والمغرم : الدّين) ...

وقد كان الإمام علي رضي الله عنه يرى أن خمس الخمس من حق ذوي القربى ، ولكنه لما ولي الخلافة سار فيه سير الخلفاء الثلاثة من قبله وكره أن يخالفهم ، وكان يقول : (ما قدمت هاهنا — اي على الخلافة — لأجل عقدة شدها

---

(١) الاموال لابي عبيد ٣٢٥ .
(٢) الاموال لابي عبيد ٣٣٥ .
(٣) الخراج لابي يوسف ٣٠ .

عمر) ويقول : (اقضوا كما كنتم تقضون ، فإني أكره الاختلاف حتى تكون للناس جماعة ، أو أموت على ما مات عليه أصحابي[1] .

ثالثاً : مصرف الخمس:

اختلف الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين : سهم الرسول ، وسهم ذوي القربى ، فقال قوم : سهم الرسول للخليفة من بعده . وقال آخرون سهم ذوي القربى لقرابة الرسول ، وقالت طائفة : سهم ذوي القربى لقرابة الخليفة من بعده .. ثم أجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح[2] (الكراع : الخيل) ...

وأما ما كان لليتامى والمساكين وابن السبيل ، فقد اختلف فيه :

قال بعضهم إنه يوضع في أهله المسمين : اليتامى والمساكين وابن السبيل فيكون حكمه حكم الصدقات ، ويرى بعضهم أن حكمه حكم المغانم ، فهو للمسلمين عامة ، يضعه الإمام حيث يشاء في مصالح المسلمين وحاجتهم .

يقول أبو عبيد : إلا أن الأصل عندي في الخمس أن يوضع في أهله المسمين في التنزيل ، لا يعدى به غيرهم إلا أن يكون صرفه الى نفل المقاتلة خيراً للمسلمين عامة من أن يوضع في الأصناف الخمسة[3]

والذي دعا الى هذا الخلاف ، أن هذا الخمس هو من الغنائم ، وكان الشأن به أن يصرف مصرفها ، ولكن وقد حددت الآية الكريمة جهاته التي يصرف فيها فقد جرى مجرى الزكاة التي حدد أهلها المستحقون لها ، فمن نظر الى الوجه الأول قال إنه غنائم فجعل أمره الى الإمام ، ومن نظر الى الوجه الثاني قال إنه صدقة فصرفه في مصارفه .

وتحديد الجهات المصروف فيها الخمس والجهات المصروف فيها الزكاة ليس على حد سواء .. فالتحديد في الخمس ليس على سبيل القطع والحصر وإنما هو على

(١) الاموال لابي عبيد ص ٣٣٢ .
(٢) الخراج لابي يوسف ٢١ .
(٣) الاموال لابي عبيد ص ٣٢٦ ...

هذه الصورة ليذهب مذهب الخير والنفع في المسلمين ، أما في الزكاة فإن التحديد فيها مراد لذاته ، فلا يجوز أن يدخل على الأصناف الثمانية التي تصرف فيها الزكاة أحد غيرهم .

فالله سبحانه وتعالى يقول في الخمس : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه » فاستفتح الكلام بأنْ نسبه الى نفسه ، ثم ذكر أهله – أي أهل الخمس – بعد ، وكذلك قال في الفيء : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله » فنسبة جل ثناؤه الى نفسه ثم ذكر أهله .. فصار فيهما – أي الفيء والخمس – الخيار الإمام في كل شيء يراد الله به ، فكان أقرب اليه .

ولما ذكر سبحانه وتعالى الصدقة قال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » ولم يقل لله ، ولكذا ، فأوجبها لهم ، ولم يجعل لأحد فيها خياراً [1] اهـ ...

ب : ملاحظات عامة :

١ – نلاحظ مما مرأن الاصل في خمس الغنيمة ألا يكون لبيت المال العام، وإنما هو للتوزيع على الفقراء والمساكين واليتامى ، وهذا عدا عن الزكاة ، كما نلاحظ مما مرأن لآل بيت الرسول ﷺ أن يأخذوا من هذا المصدر بخلاف الزكاة فإنها لا تجوز لهم بإجماع المسلمين إذا كان بيت مال المسلمين منتظماً .

٢ – إذا عرفنا أن الأمة الإسلامية عليها أن تبقى في حالة جهاد مستمر حتى يخضع العالم لسلطان الله ، أدركنا أن هذا المورد للفقراء والمساكين واليتامى له وزنه الكبير في وضع إسلامي صحيح ، فما دام هناك كفار يقاتلون ، فهناك غنائم يأخذ منها هذه الاصناف المذكورة ، وهذا لا يحجبهم عن حقوقهم الأخرى إن كانوا يستحقونها .

٣ – إن الغنيمة التي تحدثنا عنها هنا هي ما يؤخذ بحرب وقهر ، أما ما يأخذه المسلمون بلا حرب ولا قهر فذلك هو الفيء والفيء عادة لا يكون للجيش

(١) انظر الاموال لابي عبيد ص ٣٢٧ .

إذا لم يقاتل كما سنرى ، ومع ذلك فإن خمس الفيء يصرف لمصارف خمس الغنيمة - وما تبقى فلبيت المال ...

٦ - الركاز ...

قال عليه الصلاة والسلام : (وفي الركاز الخمس) ...
قال الشوكاني في نيل الأوطار :

(الركاز بكسر الراء وتخفيف الكاف وآخره زاي مأخوذ من الركز بفتح الراء يقال ركزه ركزاً إذا دفنه فهو مركوز وهذا متفق عليه . قال مالك والشافعي: الركاز دفن الجاهلية وقال أبو حنيفة والثوري وغيرهما ، إن المعدن ركاز واحتج لهم بقول العرب : أركز الرجل إذا أصاب ركازاً وهي قطع من الذهب تخرج من المعادن والفضة وخالف في ذلك الجمهور فقالوا : لا يقال للمعدن ركاز واحتجوا بما وقع في حديث الباب (أي قوله عليـه الصلاة والسلام : قبل وفي الركاز الخمس : والمعدن جبار) من التفرقة بينهما بالعطف فدل ذلك على المغايرة وخص الشافعي الركاز بالذهب والفضة وقال الجمهور لا يختص واختاره ابن المنذر .... والحديث ... يدل على أن ذكاة الركاز الخمس على الخلاف السابق في تفسيره قال ابن دقيق العيد : ومن قال من الفقهاء : إن في الركاز الخمس أمـا مطلقاً أو في أكثر الصور فهو أقرب الى الحديث اه ... وظاهره سواء كان الواجد له مسلماً أو ذمياً والى ذلك ذهب الجمهور فيخرج الخمس وعند الشافعي : لا يؤخذ منـه شيء (أي من الذمي) واتفقوا على أنه لا يشترط فيه الحول بل يجب إخراج الخمس في الحال ...

ومصرف هذا الخمس الفيء عند مالك وأبي حنيفـة والجمهور (أي الفقراء والمساكين وابن السبيل واليتامى . وعند الشافعي مصرف الزكاة ، وعن أحمـد روايتان وظاهر الحديث عدم اعتبار النصاب ، وإلى ذلك ذهبت الحنفية والعترة. وقال مالك وأحمد واسحق : يعتبر لقوله عليه الصلاة والسلام : ليس فيما دون خمس أواق صدقة) .... وأجيب بأن الظاهر من الصدقة الزكاة فلا تتنـاول الخمس وفيه نظر .. اه ...

وقال الحنفية :

(معدن ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص او صفر او زئبق أو كنز وجد

في فلاة من الأرض سواء ضم ذهباً أو فضة أو سلاحاً أو أثاثاً ، وكذلك الكنز إذا كان دفين عصر جاهلي أي قبل أن يدخل الإسلام الى البلد ، ففي كل ذلك يكون الخمس حق الفقراء سواء كان المستخرج ذمياً أو مسلماً ، أو كان المستخرج في أرض عشرية أو خراجية .

ويدخل فيما قاله الحنفية ما تستخرجه الشركات التي تستخرج الذهب أو النحاس أو الحديد أو الزئبق أو غير ذلك من المعادن فيجب أن تخرج هذه حق الفقراء من انتاجها رأساً وهو الخمس بدفع قيمته أو بشكل آخر .

ويدخل فيما قاله الحنفية ما تجده مؤسسات البحث عن الآثار ، فكل شيء كان من دفن الجاهلية أي قبل أن يدخل الإسلام الى البلد فللفقراء خمس قيمته .

ويبقى هنا سؤال :

هل في البترول الخمس :

إذا رجعنا إلى أقوال الحنفية في الموضوع فإننا نتردد في الجزم بالجواب ، فالحنفية قالوا : إن النفط والقير لا زكاة فيهما وقالوا في تعليل ذلك لأنهما من جملة المياه ولا خمس في الماء :

فإذن كان حديثهم هذا يوم كان النفط والقير لا قيمة لهما ، بل ربما اعتبرا مضرين في بعض الأحوال ، أما الآن وقد تبينت قيمة النفط الذي هو البترول ، فيبدو أن المسألة تختلف عندهم والله أعلم وذلك لما يلي :

١ ـ عرفوا المعدن الذي هو أحد شقي الركاز عندهم بأنه الاجزاء المستقرة التي ركبها الله تعالى في الأرض يوم خلق الأرض ، وعرفوا الركاز بأنه ما ركز في الأرض خلقة أو بيد ، والبترول يدخل في هذا وهذا ، وقياسهم إياه على الماء كان له وجه قديماً أما الآن فلا ...

٢ ـ القول الراجح عندهم أن الزئبق إذا وجد في الأرض ففيه الخمس والزئبق مائع كالبترول وإن كان يجمد بغيره بعد علاج ، ألا ترى أن أجزاء من البترول تجمد بعد علاج ...

لهذا كله فإننا نرى أن على المفتين في مذهب الحنفية أن يعيدوا النظر في هذا الموضوع ليروا بأي شيء أخذ من العنبر الخمس « ويقولون عن العنبر بأنه نوع من

أنواع الحشيش البحري فإذا كان في حشيش البحر الخمس وهو مذهب أبي يوسف أفيكون البترول أقل من ذلك .

ونحن الآن لا نفتي ولكن نحض على البحث .

وأخيراً : ترى لو كانت حكومات العالم الإسلامي تعطي فقراء بلادها خمس الركاز بهذه المعاني الواسعة وما فاض عن قطر وزع في قطر آخر فكيف يكون الحال :

ألا إن الفقراء الآن في العالم الإسلامي يمنعون حقوقهم ، ويستغل المبشرون فقرهم ، فيحملونهم على ترك الاسلام كما يحدث في أندونيسيا فمن المسؤول ؟...

هل الإسلام هو المسؤول ؟...

وسنرى في الباب التالي أثناء الكلام عن بيت مال المسلمين أن فائض بيت المال يوزع على الأمة الإسلامية بالتساوي وعلى هذا فان الفقير في الأرض الإسلامية :

له حق في الزكاة وعند أهله ، وفي خمس الغنيمة ، وفي بيت المال وفي ... وزيادة على ذلك له حظه مع كل مسلم بالتساوي في فائض بيت المال .

ألا إن الذين يمنعون المسلمين حقوقهم سيلقون جزاءهم في الدنيا والآخرة ...

٧ ـ الكفالة العامة من بيت المال لكل إنسان في دار الاسلام

رأينا أن كل نظام من الانظمة السابقة يحل قضايا بعض الناس اقتصاديا على طريقته الخاصة ، أحياناً بواسطة جهاز خاص في الدولة لذلك ، وأحياناً بشكل فردي ...

ولكن وراء هذا كله مسؤولية إمام المسلمين ، ألا يضيع أحد ، والا يحتاج أحد ، ومسؤولية المسلمين بالتضامن عن ذلك ، ومسؤولية بيت مال المسلمين بالنهاية ...

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاءاً فعلي قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته) ...

وفي رواية (من ترك ديناً أو ضياعاً (أي عيالاً) فليأتني فأنا مولاه) ، وفي رواية (من ترك مالاً فلورثته ومن ترك كلا (أي ثقلا من دين أو عيال) فإلينا) متفق عليه ...

ومشهورة قصة عمر رضي الله عنه مع اليهودي الذي رآه يسأل الناس وهو طاعن في السن ففرض له من بيت المال ما يكفيه ...

ونكتفي بهذا هنا على اعتبار أن الباب التالي سيكون فيه حديث عن مثل هذا أثناء الكلام عن نفقات بيت المـــال وسنرى هناك أن المسألة أوسع من هذا كله ...

وبعد : أي مشكلة اجتماعيـة اقتصادية تستعصي على الحل في نظام إسلامي بعد هذا كله إن المجتمع الإسلامي أخصب وأكرم وأطيب من كل تصور لأي شيء خيالي في العالم ومن لم يصدق فلينظر الآن الى المسلمين رغم كل الأوضاع القاسية التي يعانونها لترى عطاءاً وإنفاقاً وتكافلاً ومؤسسات تقوم ؛ وكل ذلك بمحض الدافع الإيماني فكيف لو رافق هذا دولة توجه ، وحزب يربي ؟

واردات الدولة المسلمة ونفقاتها

تنظيم بيت المال

أن القواعد التي على أساسها يكون الإنفاق في الدولة المسلمة تختلف اختلافاً جوهرياً عن قواعد الإنفاق في أي نظام جاهلي أو رقيع آخر ، كما أن طريقة الإنفاق ، ونوع واردات الدولة المسلمة تختلف . ولتوضيح هذه الجوانب سيكون حديثنا في هذا الباب عن الواردات والصرف في دولة مسلمة ويدخل في الواردات بحث :

١ — الخراج ...

٢ — العشور والجمارك ...

٣ — واردات الأملاك العامة من ظاهر الأرض وباطنها ...

٤ — التركات التي لا وارث لها والأموال التي لا أصحاب لها ...

٥ — المصادرات المشروعة .

٦ — الجزية ...

٧ — التوظيف أو الضرائب حين الحاجة إليها ...

٨ — الحقوق العامة للدولة المسلمة ...

٩ — الفيء ...

١٠ — التعزيرات المالية ...

١١ — واردات المؤسسات والملكيات الخاصة للدولة ...

ويدخل في الصرف ...:
١ – رواتب الموظفين ...
٢ – نفقات المشاريع العامة ...
٣ – كفالة المسلمين في شؤونهم الحاجية إذا لم يكف ما قدمنا سابقاً ولذلك كله قواعده العامة ...

ثم تقسيم الفائض في بيت المال على المسلمين عامة ...

وهذا كله يدخل تحت عنوان كبير هو : بيت المال : موارده ، ومصارفه ، وعلى هذا فسنكتب في هذا الباب فقرتين :

الفقرة الأولى : واردات بيت المال ...
الفقرة الثانية : مصارف بيت المال ...
وسنذكر في كل فقرة ما أدخلناه تحتها آنفاً ...

الفقرة الأولى : واردات بيت المال

١ – الخراج ...

يقول صاحب كتاب السياسة المالية في الإسلام عن الخراج ما يلي :

وهو ما يفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة أو صلحا ، ويرى أبو يوسف أن الخراج هو الفيء يقول :

فأما الفيء فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض ، والله أعلم ، لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله ، وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل .. كي لا يكون دُوَلَةً بين الأغنياء منكم » . حتى فرغ من هؤلاء ثم قال عز وجل : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ثم قال تعالى : « والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ثم قال تعالى :

« والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » .. يقول أبو يوسف: فهذا والله أعلم لمن جاء بعدهم من المؤمنين الى يوم القيامة ، وقد سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وقالوا : اقسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر أبى ذلك عمر عليهم ، وتلا عليهم هذه الآيات وقال : قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفيء ، فلو قسمته لما بقي لمن بعدكم شيء ، ولئن بقيت ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ، ودمه في وجهه [١] ...

ويرى أبو عبيد أن الجزية من الفيء أيضاً [٢] فالخراج على الرؤوس ، والأرض وأصحابها مما أفاء الله على المسلمين بما أظهرهم على عدوهم .

وعلى هذا فالفيء لا يخصص بالخراج وحده ، وإنما يشمل الخراج والجزية معاً ، وهذا يتفق مع وجهة النظر التي رآها أبو يوسف من أن الفيء هو الخراج لأنه لا يقسم بين الذين شهدوا الحرب ، بل تحبس الأرض وينفق خراجها في شؤون المسلمين جميعاً في كل عصر ، على ما استقر عليه رأي عمر رضي الله عنه في أرض العراق والشام .. وهذا هو الشأن في الجزية فانها للمسلمين جميعاً .. من شهد الحرب منهم ومن لم يشهدها ، لأن الجزية إنما فرضت على أهل الذمة من أصحاب الأرض التي افتتحها المسلمون .

وقد جاء في افتتاح الأرضين ثلاثة أحكام :

أولاً : الأرض التي أسلم عليها اهلها ، فهي لهم ، ملك ايمانهم ، وعليهم العشر .. زكاة ، لاخراجها .

ثانياً : الأرض التي افتتحت صلحاً على خراج معلوم فهي على ما صولح عليه أهلها ، لا يلزمهم أكثر منه .

ثالثاً : الأرض التي أخذت عنوة ، وقد اختلف فيها الرأي بين المسلمين :

(١) الخراج لابى يوسف : ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) أنظر كتاب الاموال لابي عبيد ص ٤٦ .

(أ) قال بعضهم : سبيلها سبيل الغنمة ، فتخمس ، وتقسم أربعة أخماسها بين الذين افتتحوها ، والخمس الباقي لمن سمى الله تبارك وتعالى في قوله : « واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

(ب) وقال بعضهم : بل حكمها والنظر فيها الى الامام ، إن رأى أن يجعلها غنيمة فيخمسها ويقسمها كما فعل رسول الله ﷺ بخيبر ، فذلك له ، وإن رأى أن يجعلها فيئا فلا يخمسها ولا يقسمها ، ولكن تكون موقوفة على المسلمين عامة ، كما صنع عمر بالسواد[1] ، وقد فعل عمر رضي الله عنه ذلــك بأرض العراق والشام ومصر ، فجعلها أرض خراج محبوس خراجها على المسلمين جميعاً ، حاضرهم ، ومن يجيء بعدهم[2] ...

قال أبو يوسف[3] : حدثني الليث بن سعد عن حبيب بن أبي ثابت قال : أن أصحاب رسول الله ﷺ وجماعة من المسلمين أرادوا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يقسم الشام كما قسم رسول الله ﷺ (خيبر) ، وأنه كان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن رباح رضي الله عنهما فقال عمر رضي الله عنه : إذن أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم ؟ ثم قــال : اللهم اكفني بلالاً وأصحابه قال : فرأى المسلمون أن الطاعون الذي أصابهم – أي بلالاً وأصحابه – بعمواس كان من دعوة عمر ، قال : وتركهم عمر – أي ترك أهل الشام – ذمة يؤدون الخراج للمسلمين[4] .

وروي عن ابراهيم التيمى قال : لما افتتح المسلمون السواد قالوا لعمر : اقسمه بيننا ، فإنا افتتحناه عنوة ، فأبى وقــال : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم في المياه – أي في طلب الماء لسقي الأرض، كل من يريد أن يذهب بالنصيب الأوفر منه !! – فاقر أهل السواد في أرضهم ،

(١) السواد : أرض الجزيرة بالعراق، وسمي سواد لانه أرض زرع ، يظللها الشجر والزروع فتبدو سوداء على خلاف الارض البيضاء فهي أرض قاحلة لانبات فيها .
(٢) انظر كتاب الاموال لأبي عبيد ص ٥٥ .
(٣) هو أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب الامام أبي حنيفة رضي الله عنهما .
(٤) الخراج لأبي يوسف ص ٢٦ .

وضرب على رؤوسهم الجزية ، وعلى أرضهم الطسق – أي الخراج – ولم يقسمه بينهم »[1] ...

وكتب عمر الى سعد بن أبي وقاص يوم افتتح العراق : (أما بعد فقد بلغني كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائمهم ، وما أفــاء الله عليهم ، فانظر ما جلبوا عليك في المعسكر من كراع – أي متاع – أو مال ، فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرض والأنهار لعمالها ، فيكون ذلك في أعطيـات المسلمين ، فإنا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء[2] ...

قال أبو يوسف : حدثني غير واحد من علماء أهل المدينة قالوا : لما قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيش العراق من قبل سعد ابن أبي وقاص شاور أصحاب محمد ﷺ في قسمة الأرضين التي أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام ، فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا ، فقال عمر رضي الله عنه . فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأي ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : فما الرأي ؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم ، فقال عمر : ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلاًّ على المسلمين[3] ، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟ فأكثروا على عمر رضي الله تعالى عنه ، وقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذا رأيي ؟ قالوا : فاستشر ، قال : فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبدالرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأي عثمان وعلي وطلحـة وابن عمر رضي الله عنهم رأي عمر . فارسل الى عشرة من الانصار ، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم

---

(١) الأموال لأبي عبيد ص ٥٧ .

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ٥٩ .

(٣) يريد أن يقول ان البلاد التي فتحت وهي العراق والشام هي أغنى البلاد ، وأن ما يفتح من البلاد بعد موته قد لا يكون فيه خير يعود على المسلمين بل ربما كان في حاجة الى عون يمد به من بلد آخر .

وأشرافهم ، فلما اجتمعوا ، حمدالله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : (إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من اموركم ، فإني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفني من خالفني ، ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو أي — أي رأيي — . معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد به إلا الحق . قالوا : نسمع يا أمير المؤمنين ، قال : لقد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا اني أظلمهم حقوقهم ، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلماً ، لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم . فقسمت ما غنموا من اموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وأنا في توجيهه [1] ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج ، وفي رقابهم الجزية ، يؤدونها فتكون فيها للمسلمين : المقاتلة ، والذرية ، ولمن يأتي بعدهم . أرأيتم هذه الثغور ؟ لا بد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة ، والكوفة والبصرة ومصر؟ لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، وإدرار العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ قالو : جميعاً . الرأي رأيك ، فنعم ما قلت ورأيت . إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم ، فقال : قد بان لي الأمر [2] .. فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ فاجتمعوا له على (عثمان بن حنيف) ، وقالوا : إن له بصراً ، وعقلاً ، وتجربة فأسرع إليه عمر ، فولاه مساحة أرض السواد [3] .

بهذا استقر الرأي بين المسلمين على حبس الأرض وفرض الخراج عليها ، وكان في هذا خير وبركة عليهم وعلى من جاء بعدهم .

حكم الارض الخراجية :

وكما اختلف الصحابة في مصير أرض الخراج وهل تقسم بين المجاهدين أو تحبس

---

(١) اي لا يزال في يدي منه شيء سأرجعه الى من يستحقه .

(٢) اي عرفت وجه الحق ، وانتهيت الى الرأي القاطع في هذا الأمر .

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٢٤ وما بعدها ...

على المسلمين ، اختلفوا في مصيرها بعد أن استقر الرأي على حبسها وضرب الخراج عليها هل يجوز شراؤها ؟ وإذا انتقلت من ذمي إلى مسلم فهل يؤدي عنها خراجها ؟ وإذا أدى عنها خراجها فهل يؤدي مع هذا زكاتها وهو العشر ؟ اختلف المسلمون في هذا ، وقامت لكل ذي رأي حجة لرأيه .

فأكثر الصحابة على أن تظل ارض الخراج في يد الذميين الذين يعملون عليها ويؤدون خراجها لا تنتقل الى المسلمين بالشراء أو الهبة .

قال أبو عبيد : قد تتابعت الآثار بالكراهة بشراء أرض الخراج ، وإنما كرهها الكارهون من جهتين :

إحداهما أنها فيء للمسلمين ، والأخرى .. أن الخراج صغار [١] وقد روى عن عمر رضي الله عنه انه قال : (لاتشتروا رقيق أهل الذمة فإنهم أهل خراج ، وأرضوهم فلا تبتاعوها ، ولا يقرن أحدكم بالصغار بعد إذ نجاه الله منه [٢] والمعنى الذي يقصد إليه عمر هو أن الخراج إنما يضرب على أهل الذمة فإذا انتقلت ارض الخراج من يد ذمي الى مسلم انتقلت بخراجها ، ولزم المسلم في هذه الحال أن يؤدي الخراج كما يؤديه الذمي ، وفي هذا صغار نجاه الله منه .

ومع هذا فقد ترخص بعض الصحابة والتابعين في شراء ارض الخراج كعبدالله بن مسعود ، ومحمد بن سيرين ، وعمر بن عبد العزيز .

وكان الإمام مالك رضي الله عنه يقول ذلك في الأرض التي فتحت صلحاً . اي لا يجوز خروجها من أيديهم ، فهو يرى أن كل ارض فتحت صلحاً فهي لأهلها ، لأنهم منعوا بلادهم حتى صولحوا عليها ، وكل ارض فتحت عنوة فهي فيء للمسلمين [٣] ..

أما عمر بن عبد العزيز فكان يرى ان الجزية التي قال الله عز وجل فيها : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » انها على الرؤس لا على الأرض [٤] . وعلى هذا فلا صغار في اداء خراج الأرض ، ومن ثم فلا حرج في شرائها .

---

(١) كتاب الأموال لأبي عبيد ص ٧٩ .
(٢) الأموال لأبي عبيد ص ٧٧ ،
(٣) انظر كتاب الأموال لأبي عبيد ص ٨٨ .
(٤) الأموال لأبي عبيد ٨٨ .

فإذا صارت ارض الخراج الى يد المسلم فما حكمها ؟

عمر بن عبد العزيز والإمام مالك بن انس والأوزاعي يرون ان عليه العشر والخراج، لأن العشر زكاة واجبة على المسلم لا تسقط بحال ، والخراج اصل مفروض على الأرض تعلقت به حقوق من قبل ان تنتقل الأرض الى يد المسلم .. كتب عمر بن العزيز الى عامله على فلسطين فيمن كانت بيده ارض بجزيتها على المسلمين ان يقبض منه جزيتها ثم يأخذ منه زكاة ما بقي بعد الجزية ، وكان يقول : والعشر على الحب [١] .

ويقول ابو عبيد : ومما يفرق بين العشر والخراج ويوضح انهما حقان اثنان، ويبين ذلك ان موضع الخراج الذي يوضع فيه غير مهم مع العشر ، إنما ذلك — اي الخراج — في اعطية المقاتلة وارزاق الذرية ، وهذا — اي العشر — صدقة الاصناف الثمانية اي التي ذكرها جل شأنه في قوله :« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل». اما الليث بن سعد فكان لا يرى العشر واجباً مع انه كان يخرج العشر من ارضه مع الخراج [٢] .

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنه انه كان يقول : (ما أحب ان يجتمع على المسلم صدقة المسلم وجزية الكافر [٣] .

ارض العشر يشتريها الذمى .. ما حكمها ؟

إن الرأي عند أبي حنيفة وابي يوسف ان يضاعف عليه العشر ، امـا الإمام مالك ابن انس فيرى الا شيء عليه ، لأن الصدقة إنما هي على المسلمين .. زكاة أموالهم ، وطهراً لهم ، ولا صدقة على المشركين في ارضهم ومواشيهم وكان من رأيه ايضاً ان يؤمر الذي يبيع الأرض ، لأن في امتلاكها إبطالاً للصدقة المفروضة عليها [٤] .

---

(١) الأموال لابي عبيد ٨٨ ... الاموال لأبي عبيد ٨٩ .
(٢) » » » ص ٨٩
(٣) » » » ص ٨٩
(٤) » » » ص ٩١

ويقول فقهاء الحنفية (وكل ارض فتحت عنوة فاقر أهلها عليها او صالحهم الامام فهي أرض خراج) والخراج قسمان خراج مقاسمة وهـــو ان يكون للدولة جزء الناتج ، وخراج موظف وهو ان يكون للدولة شيء معين سنوياً لا يتبـــدل ولا يتغير) ...

(والخراج الموظف ينقص إذا لم تطقه الأرض) ومن أسلم من أهل الخراج أخذ منه الخراج على حاله ولا خراج إن غلب الماء فعطل الأرض أو أصاب الزرع آفة سماوية كغرق وحرق وشدة برد) (ويجوز أن يشتري المسلم أرض الخراج من الذمي ويؤخذ منه الخراج) .

★ ★ ★

مما تقدم نعرف ان هناك أراضي اتفق المسلمون على أن يجعلوا ريعهـا لبيت مال المسلمين من أجل مصالح المسلمين ، هذه الاراضي معروفة مشهورة محددة في كتب الفقه الإسلامي ، ومن اوائل ما ينبغي أن تفعله الدولة الإسلامية أن تحدد هذه الاراضي ، وأن تأخذ حق بيت المال منها ، وهذا وحده حل كاف لما يسمونه مشكلة الأرض في كثير من البلاد الإسلامية .

٢ـ العشور (الجمارك) ...

العشر عند الفقهاء يطلق على ناحيتين :

١ ـ عشر الأرض المسقية بماء السماء ، وهذا زكاة تؤخذ من المسلم ومصارفها مصرف الزكاة ...

٢ ـ العشر الذي يؤخذ من تجار دار الحرب إذا دخلوا الأرض الاسلاميـــة بتجارة ، وما له علاقة بهذا المعنى وهو شبيه بنظام الجمارك الحالية فهذا الذي يكون مآله الى بيت المال العام ويصرف مصارفه ولكي يتضح لنا هذا الوارد من موارد بيت المال ولنتعرف على قصته تاريخياً ننقـــل هذه الفقرة من كتاب (السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي) ...

يقول صاحبه فيه :

ليست العشور من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ، ولكنها اجتهاد اتضح

في عهد عمر رضي الله عنه ، ويحكي أبو يوسف [١] قصة ذلك فيقول : إن أهل منبج ، كتبوا الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقولون : دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا . فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ بذلك فأشاروا عليه به ، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب .

ويروي يحيى ابن آدم [٢] ان أبا موسى الأشعري كتب الى عمر بن الخطاب يقول إن تجار المسلمين إذا دخلوا دار الحرب أخذ منهم العشر . فكتب إليه عمر : خذ أنتَ منهم كما يأخذون من تجار المسلمين .

ومن الممكن أن نستنتج من هذين النصين الدواعي التي شرعت العشور ، وهي فيما نرى ترجع الى ما يلي:

١ - يدفع تجار المسلمين عشر تجارتهم إذا دخلوا بها دار الحرب ، فلتسترد جماعة المسلمين هذه الخسارة من المعاملة بالمثل بأخذ عشر تجارة الوافدين من دار الحرب.

٢ - التجار الذين يفدون من الخارج ينتفعون بالمرافق العامة كالشرطة والقضاء وغيرها وهذه ينفق عليها من بيت مال المسلمين ، فليسهم هؤلاء بنصيب في هذه النفقات ما داموا ينتفعون بها انتفاعاً كبيراً .

٣ - يدفع المسلمون الزكاة ومقادير أخرى للصالح العام عند الحاجة ، ومعنى هذا أن هناك مسؤوليات كبيرة في تجارتهم ، فإذا نافس في السوق جماعة ليست عليها مثل هذه المسؤوليات المالية انعدم تكافؤ الفرص بين أبناء المهنة الواحدة ، وهو ما يسبب كساد تجارة المسلمين .

ولعلّ هذه الأسباب هي التي أثرت على تحديد مقدار هذه الضريبة فجعلتها عشر التجارة بالنسبة للقادم من دار الحرب ، ونصف العشر بالنسبة للذمي ، لأن الأخير يدفع الجزية [٣]

وهل تؤخذ العشور ملاحظاً فيها التجارة ؟ أو ملاحظاً فيها التاجر ؟ أو بتعبير

(١) الخراج ص ١٦١ - ١٦٢ .
(٢) الخراج ص ١٧٣ ، وانظر كذلك الخراج لأبي يوسف ص ١٦١ .
(٣) عن قيمة هذه الضريبة انظر الخراج لأبي يوسف ص ١٥٩ - ١٦١ .

آخر : هل يدفع التاجر كلما دخل أرض المسلمين ؟ أو يدفع مرة في السنة وإن دخل أكثر من مرة ؟...

* * *

نسوق هنا نصاً شهيراً اتخذ في المراجع المتأخرة أساساً لتنظيم وقت الدفع ، وهو عن زياد بن حدير قال : كنت أعشر بني تغلب كلما أقبلوا وادبروا ، فانطلق شيخ منهم الى عمر ، فقال : إن زياداً يعشرنا كلما أقبلنا وأدبرنا . فقال : تكفي ذلك . ثم اتاه الشيخ بعد ذلك وعمر في جماعة فقال : يا امير المؤمنين أنا الشيخ النصراني ، فقال عمر : وأنا الشيخ الحنيف ، قد كفيت . قال : قال زياد فكتب عمر الي ألا تعشرهم في السنة إلا مرة واحدة [1] ...

ويفهم من هذا أن العشر يؤخذ مرة واحدة في العام وإن دخل التاجر أكثر من مرة ، ولكن ذلك لا يستقيم مع طبيعة الموضوع ، فإن هذا العشر متعلق بالتجارة لا بالتاجر ، فاذا انتهت تجارته التي دخل بها وعاد فأحضر تجارة اخرى ودخل بها فان الرأي ان يدفع عنها مهما قصرت المدة بين الحالتين ، ولعل ذلك يتضح من نص آخر اورده ابو يوسف ، قال : ... ثم لا يؤخذ منها (اي من التجار التي عشرت) الى مثل ذلك الوقت من الحول وإن مر بها غير مرة [2] . ونستنتج من هذا النص ان التجارة التي تدفع مرة لا تدفع ثانياً في خلال عام واحد ، وانه إذا تبقى منها شيء وحل عام جديد دفع عشر جديد على هذا المتبقي ، ومن الواضح تبعاً لذلك ان اية تجارة اخرى ترد لو كانت لنفس التاجر الذي دخل من قبل فانها تدفع العشر ايضاً .

وحدد الفكر الاسلامي التجارة التي يدفع عنها العشر بأن تكون قيمتها تساوي مائتي درهم او عشرين مثقالاً على الأقل [3] .

ويدخل في العشور كذلك الضرائب التي كانت تؤخذ من السفن التي تمر ببعض الثغور ، فتدفع عشر ما تحمله عيناً ونقداً ، فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه

---

(١) يحيى ابن آدم : الخراج ص ٦٨ ، وابو يوسف : الخراج ص ١٦٣ .
(٢) الخراج لابي يوسف ص ١٥٩ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ .

الضريبة من السفن التي تمر بسواحلهم قادمة من الهند ، تحمل الأعواد المختلفة والمسك والكافور والعنبر والصندل والصيني ، وكان الاندلسيون يضربون مثل هذه الضريبة على السفن التي تمر ببوغاز جبل طارق ، فكان الفرنجة او غيرهم إذا مروا بسفنهم أدوا الضريبة في مدينة بأقصى بلاد الاندلس جنوباً يقال لها (طريف) ويزعم الفرنجة أن كلمة (Tariff) التي تدل عندهم على الضرائب او الرسوم التي يؤخذ على البضائع عند دخولها البلاد وخروجها ، أو الكتاب المتضمن بيان لائحة الأثمان ، تحريف (طريف) المشار إليها لأنهم كانوا يسمون ما يدفعونه رسوم طريف ثم أهمل اللفظ الأول وبقي الثاني [1] ... اهـ ...

مما تقدم يتضح أن طريقة العشر لها موجبان :

الموجب الأول : معاملة الدول الأخرى بالمثل ...

الموجب الثاني : سماحنا لبضائع الكافرين في الدخول الى ارضنا وانتفاع تجار الحرب بذلك ...

وفيما مضى كانت الأمور واضحة ، دولة المسلمين واحدة ، والحواجز فيما بينها مفقودة وكان بالامكان الوصول الى تطبيق عملي بسيط لهـا تبين القضيتين اللتين بهما يؤخذ العشر ، أما الآن فقد تعقدت الأمور بشكل أكثر . فهناك حدود وحواجز بين أقطار المسلمين ، وتجار المسلمين يستوردون من دار الحرب ، وأي بضاعة من بلادنا تذهب الى دار الحرب تؤخذ عليها جمارك ، وأصبحت ضريبة الجمارك تفرض الآن لأسباب منها أن يرتفع سعر السلعة المستوردة فلا تنافس حاصلات البلد ، او من أجل ألا يشتريها إلا طبقة من النـاس ، وأشياء اخرى جدت في هذا الموضوع تعقد من أجلها المعاهدات التجارية بين الدول ، وتتأثر بكثير من أوضاع البلاد الاقتصادية ، والفتوى تقدر زماناً ومكاناً ، ولذلك فإننا نؤثر أن لا ندخل في تفصيلات جوابية على هذا تاركين المسألة للكتب الفقهية ... ولعلّ لنا عودة إليه في كتاب مبسط عن الفقه الاسلامي إن شاء الله تعالى ...

٣ – واردات الاملاك العامة من ظاهر الارض وباطنها ...

يقول الامام الشافعي : كل عين ظاهرة كنفط أو قار أو كبريت أو موميا أو

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٣٥ .

حجارة ظاهرة كموميا في غير ملك لأحد فليس لأحد أن يحتجزهـا دون غيره ولا لسلطان أن يغنمها لنفسه ولالخاص من الناس لأن هذا كله ظاهر كالماء والكلأ .)

وفي مذهب الإمام مالك :(أن المعادن سائلة كانت أم جامدة كالنفط والذهب والفضة والنحاس وما الى ذلك تعتبر ملكاً للامة كلها ولو وجدت في أرض مملوكة ملكاً خاصاً لأنها ليست جزءاً من الأرض ولا من ما فيها) وهذا الاتجاه عنـــد الإمام مالك يجعل الدولة الاسلامية في سعة بالنسبة لهذا الموضوع إذ يصبح من حقها كنائبة عن الأمة ان تستثمر كل المواد الخام في الأرض الإسلاميـة وقد مر معنا في نظام التملك ويمر معنا في اكثر من مكان في هذا الكتاب أن على المسلمين أن يستثمروا خيراتهم بأيديهم كجزء من النظام الذي يفرض تعلم العلوم المفروضة فرض كفاية على الامة وفي الحالات الاخرى الـتي لا تستطيـع الأمة أن تستثمر شيئاً بنفسهـا فلا يجوز أن يعطى حق الاستثمار لأحد يغبن نصيب الامة وكل غبن في عقد يجعل العقد فاسداً يطالب به الطرف الآخر بمثل الوضع السليم .

وعلى كل حال فان ريع الاملاك العامة مرجعه الى خزينة الدولة في نظـــام إسلامي ، وفي عصرنا هذا يشكل هذا الوارد أضخم مورد لخزينة الدولة الإسلامية على اعتبار أن العالم الاسلامي مليء بالمواد الخام .

ولا ننسى ما كنا قدمناه عن حق الفقراء في خمس بعض المواد الخام وهو ما يسمى بالركاز كما لا ننسى أن الامة الاسلامية كلها لها حق في هذه المواد الخام .

٤ — التركات التي لا وارث لها والاموال التي لا اصحاب لها ...

من واردات بيت المال ما أشار إليه صاحب كتاب السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي بما يلي :

(تركة من لا وارث له ، أو ما تبقى من التركة بعد ميراث أحد الزوجين إذا لم يكن هناك وارث إلا أحـد الزوجين ولم يكن الزوج أو الزوجـة ذا قرابة يمكن بها رد باقي التركة عليه ، ومنها كذلك مـــال اللقطة التي لا يعرف صاحبها ...

ومن هذه الموارد المال الذي لا يعرف صاحبه كمال فرّ عنه ذووه من المشركين أو مال أنكره أصحابه الحقيقيون لشبهة حوله ... أﻫ ...

وبالتالي فكل مال لا مالك له فإنما هو ملك الأمة كلها، ونلاحظ هنا شيئاً هو أن خمسي الخمس من الغنائم اللذين كانا للرسول ولذوي قرباه جعلهما الصحابة في السلاح والكراع أي يجوز أن يكونا في بيت المال العام على أن يكفل بيت المال العام الفقراء من آل رسول الله ﷺ .

٥ – المصادرات المشروعة ...

يقول عليه الصلاة والسلام عن الزكاة : (ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا لا يحل لآل محمد منها شيء) نفهم من هذا النص أن مانع الزكاة يصادر جزء من ماله زيادة على الزكاة تعزيراً وهذه المصادرة مرجعها الى بيت مال الزكاة والله أعلم، وهنا مسألة هي نتيجة لانعدام الحكم الاسلامي في أقطار العالم الاسلامي فإن كثيراً من الناس مرت عليه سنون لم يؤد فيها زكاة فلو قامت دولة إسلام وثبت لها عن أحد هذا فان لها الحق أن تأخذ زكوات عن كل ما مضى من سنوات عن الاموال التي لم تزل مع التعزير، ومرجع مال الزكاة بيت مال الزكاة.

غير أن هناك مصادرات مرجعها إلى بيت المال منها :

مصادرات الأموال الربوية وأموال البنوك بعد تصفيتها وإعطاء أصحابها رأسمالهم فقط ...

مصادرة أموال المغنين والموسيقيين والممثلين والراقصين والبغايا وكل من اكتسب عن طريق حرام حتى غَنِيَ .

مصادرة أموال أندية القمار واللهو والبطالة وإعطاء أصحابها رأسمالهم فقط ...

مصادرة أموال المرتدين من ملحدين وزنادقة وأمثالهم وهم الآن كثر على خلاف بين الفقهاء هل تصادر أموالهم قبل الردة أو هي لورثتهم أما من نشأ على الردة فلا شك أن أمواله كلها تصادر .

مصادرة أموال السحت التي تأكدنا أن مصادرها غير شرعية كالصحف والمجلات الداعرة أو التي تمول من الكفار بدليل قطعي .

مصادرة أموال السياسيين الذين أثروا على حساب الأمة إثراء غير مشروع ...

وهذا كله يحتاج إلى دراسة ومزيد من التتبع قبل الإقدام عليه حتى لا يقع في الأرض ظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ... (يروى أن عمرهم بمصادرة نصف أموال بعضهم وهذا أصل في المصادرة ومقدارها في بعض الأحوال ونحن لا نعتبر كلامنا هنا في هذا الموضوع قطعياً) .

ولا شك أن هذه المصادرات موردها هام للدولة الإسلامية أول قيامها ...

٦ – الجزية ...

يقول صاحب كتاب السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي عنها ما يلي بتصرف :

الخراج ثبت باجتهاد عمر رضي الله عنه ، وهو بهذا يختلف عن الجزية لأنها ثبتت بنص القرآن الكريم . قال تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فالجزية مبلغ معين يوضع على رؤوس من انضموا تحت راية المسلمين ولكن لم يشاؤوا الدخول في الإسلام .

وبناء على الآية السابقة « قاتلوا الذين لا يؤمنون ... » تؤخذ الجزية من أهل الكتاب أي من اليهود والنصارى ، أما غير اليهود والنصارى ، فالأصل ألا يقبل منهم إلا الإسلام أو الحرب ، ولا يقروا على شركهم ولا تقبل منهم جزية ، بيد أنه (ذكر لعمر بن الخطاب قوم يعبدون النار ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال عمر : ما أدري ما أصنع بهؤلاء . فقام عبد الرحمن بن عوف وقال: أشهد أن رسول الله ﷺ قال : (سنوا فيهم سنة أهل الكتاب) [1] ...

وهكذا ألحق الحديث الشريف واجتهاد الأئمة بأهل الكتاب – في موضوع الجزية – طوائف أخرى كثيرة ، وإنما قلنا في موضوع الجزية لأن هذه الطوائف لم تستمتع بغير موضوع الجزية من المميزات التي منحها الإسلام لأهل الكتاب ، فلا تؤكل ذبائح هذه الطوائف ، ولا تنكح نساؤهم قال أبو يوسف : وجميع أهل الشرك من المجوس وعبدة الأوثان وعبدة النيران والحجارة والسامرة تؤخذ منهم

---

(١) ابو يوسف : الخراج ص ١٥٥ .

الجزية ما خلا أهل الردة من أهل الاسلام وأهل الأوثان من العرب ، فإن الحكم فيهم أن يعرض عليهم الاسلام فإن أسلموا وإلا قتل الرجال منهم وسبي النساء والصبيان ، وليس أهل الشرك من عبدة الأوثان والمجوس في الذبائح والمناكحة على مثل ما عليه أهل الكتاب ، لما جاء عن النبي ﷺ في ذلك وهو الذي عليه الجماعة والعمل لا اختلاف فيه [(١)].

... أما من ناحية الوضع العسكري فإن الجزية تجب — في أصل التشريع — على من قبل الانضواء تحت راية المسلمين ولم يشأ الدخول فى الاسلام على أن يتم ذلك بدون حرب ، وذلك كالذي حدث في اليمن ، يحكي البلاذري [(٢)] : أن أهل اليمن لما بلغهم ظهور النبي ﷺ وعلو حقه ، أتته وفودهم ، فكتب لهم كتباً بإقرارهم على ما أسلموا عليه من أموالهم وأرضهم ، ووجه اليهم رسله وعماله لتعريفهم شرائع الاسلام وسننه ، وقبض صدقاتهم وجزي رؤوس من أقام على النصرانية واليهودية والمجوسية منهم . أما إذا قامت الحرب بين المسلمين وغير المسلمين وانتصر المسلمون في الميدان فإن المهزومين يصبحون غنيمة ، أي يجوز في الرجال القتل أو الاسترقاق أو المن او الفداء ويجوز في النساء والأطفال الاسترقاق أو المن أو الفداء ، وعندما فتحت أرض السواد انتظر المحاربون المسلمون أن تقسم عليهم الأرض والسكان كما سبق القول ، وقد عبر عبد الرحمن بن عوف عن ذلك بقوله لعمر : ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم [(٣)] . ولكن عمر لم يفعل ذلك في فتوح العراق والشام ، وإنما اجتهد في أمر الناس كما اجتهد في أمر الأرض ، واستشار المسلمين ، واستقر الأمر على أن يترك هؤلاء أحراراً ، وتفرض عليهم الجزية ويروي يحيى بن آدم قصة ذلك فيقول إن عمر أراد أن يقسم (سكان) السواد بين المسلمين ، فأمر السكان أن يحصوا فوجد الرجل المسلم يصيبه ثلاثة من العلوج ، فشاور أصحاب النبي ﷺ ، فقال علي : دعهم يكونون مادة للمسلمين ، فبعث عثمان بن حنيف ، فوضع عليهم ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٢ — ١٥٤ وانظر كذلك الأحكام السلطانية الماوردي ص ١١٨ .

(٢) فتوح البلدان ٧٥ .

(٣) ابو يوسف : الخراج ص ٢٩ ، والعلوج : جمع علج وهو الواحد من كفار العجم (القاموس المحيط) ...

واثني عشر[1] . ويروي كذلك يحيى بن آدم أن رؤساء السواد أتوا عمر بن الخطاب فقالوا له : إنا قوم من أهل السواد ، وكان أهل فارس قد ظهروا علينا وأضروا بنا ، ففعلوا وفعلوا ... فلما سمعنا بكم فرحنا وأعجبنا بذلك ، فلم نرد كَفَّكُمْ عن شيء ، حتى أخرجتموهم عنا ، فبلغنا أنكم : تريدون أن تسترقونا . فقال عمر — وكان قد استشار الصحابة كما مر — فالآن إن شئتم فالاسلام وإن شئتم فالجزية . فاختاروا الجزية [2] .

ويروي البلاذري أن عمر جعل أهل السواد ذمة تؤخذ منهم الجزية ، ومن أرضهم الخراج وهم ذمة لا رق عليهم[3] .

وأما عن مقدار الجزية فإن أحسن الآراء هو ما ذكره أبو حنيفة ، فقد صنف الناس ثلاثة أصناف : أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهماً في السنة ، وأوساط يؤخذ منها أربعة وعشرون درهماً ، وفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهماً ، ويرى مالك أن تقدير الجزية موكول للولاة ، وحدد الشافعي أقلها بدينار وترك للولاة تقدير ما يزيد عنه حسب الحالة [4] .

وطبقة الأغنياء تتمثل في الصيارفة ، والبزازين ، وأصحاب الضياع ، وأصحاب المتاجر الكبيرة ، والطبيب المشهور ، والطبقة المتوسطة هم من هؤلاء إذا كانوا أقل كسباً ، أو لم يصلوا بعد إلى الرواج والازدهار ، كالتاجر حديث التجارة أو قليل الرواج ، والطبيب الذي لم يشتهر بعد وهكذا ، أما الطبقات الدنيا فتتمثل في العاملين بأيديهم كالخياطين والنجارين والاسكافية [5] .

ولا تؤخذ الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء القادرين ، فلا تجب على امرأة ولا صبي ، ولا مجنون ولا عبد ولا مسكين[6] كما لا تؤخذ من ذي العاهة ولا

---

(١) يحيى ابن آدم : الخراج ص ٤٢ وأبو يوسف الخراج ص ٤٣ والبلاذري فتوح البلدان ص ٢٧٥ .
(٢) يحيى بن آدم : الخراج ص ٥٠ .
(٣) فتوح البلدان : ص ٢٧٥ .
(٤) الماوردي الاحكام السلطانية ص ١٢٨ ويحيى ابن آدم : الخراج ص ٧٢ - ٧٣ وابن عبد الحكم فتوح مصر ص ٨٧ .
(٥) انظر الخراج لأبي يوسف ص ١٤٨ .
(٦) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٢٨ .

من الشيخ الفـاني ، ولا من الراهب الذي اعتزل النـاس إذا كان هـؤلاء يتلقون صدقات الناس ، أما إذا كانوا أغنياء فإن الجزية تؤخذ منهم [١] . وقد كتب عمر إلى أمراء أهل الجزية ألا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي ، قال يحيي بن آدم [٢] : ومعنى هذا ألا تضرب الجزية على النساء والاطفال وهو المعروف عند أصحابنا ، ويعطي الماوردي [٣] تفاصيل دقيقة عن تجزئة الجزية ، فمن مات قبل الحول أخذ من تركته بقدر ما مضى من الحول ، ومن أسلم ممن تجب عليهم الجزية لزمه منها قسط الشهور التي مضت قبل إسلامه ، وذلك القول فيمن أفاق من جنون أو بلغ بعد الصبا [٤] .

ويلتزم لمن يدفع الجزية حقان : أحدهما الكف عنهم ، والثاني : الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين ، روى نافع عن ابن عمر قال : كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ أن قال : احفظوني في ذمتي [٥] .

والجزية رمز لخضوع الانسان للسلطات الاسلاميه كما أن لها مبرراتها الاخرى كالسببين التاليين :

١ — يستمتع دافعوا الجزية بالمرافق العامة مع المسلمين كالقضاء والشرطة وغيرها، والمرافق العامة تحتاج إلى نفقات يدفع المسلمون قسطها الاكبر ، ويسهم أهـل الكتاب ومن جرى مجراهم بالجزية في تـكاليف هذه المرافق .

٢ — لا يكلف القادرون من أهـل الكتاب أن يحمـلوا السلاح ويدافعوا عن البلاد ، بل يقوم بذلك المسلمون ولذلك يدفع أهل الكتاب هذه الضريبة نظير إعفائهم من هذا الواجب الكبير [٦] ، فـاذا اشترك بعضهـم مع المسلمين في أمر الدفاع سقطت عنه الجزيـة ، كما تسقط إذا عجز المسلمون عن الدفاع عنهـم وحمايتهم ، يروي الطبري أن عتبة بن فرقد كتب لأهل أذربيجان الكتاب التالي:

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ١٤٦ .
(٢) الخراج ص ١٧٣ — ١٧٤ وانظر كذلك ص ٧٧
(٣) الأحكام السلطانية ص ١٣٠ .
(٤) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٣٠
(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٢٧ — ١٢٨ .
(٦) المجتمع الاسلامي للمؤلف ص ١٢١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ليس على صبي ولا امرأة ولا زَمِنٌ ليس في يديه شيء من الدنيا ، ولا متعبد مقل ليس في يده من الدنيا شيء ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ، وعليهم قِرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ، ودلالته ، ومن حشر منهم في سنة وضعت عنه الجزية تلك السنة[1] .

ويروي البلاذري أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام ، ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشاً كبيراً لمهاجمة المسلمين ، فأدرك المسلمون أنهم لا يقدرون على الدفاع عن أهل حمص وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهضوا بذلك فسقطت عنهم الجزية[2] .

ومن الواضح مما أوردنا من دراسة أن من أسلم تسقط عنه الجزية في الحال ، وكان ذلك ما فعله عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ويروي يحيي بن آدم أن (من أسلم ممن يدفعون الجزية طرحت الجزية عن رأسه ، وأسلم دهقان من أهل عين التمر في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال علي : أما جزية رأسه فنرفعها ...[3] .

وفي النهاية فالجزية بدل عن الخدمة العسكرية وذلك من عدل الإسلام المطلق إن القتال في الإسلام مرتبط بالعقيدة فهو في سبيل الله وليس من العدل أن نكلف انساناً أن يقاتل من أجل عقيدة لا يؤمن بها أو يقاتل من يشاركه في العقيدة .

---

(١) تاريخ الامم والملوك جـ ٤ ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

(٢) فتوح البلدان ص ١٤٣ .

(٣) يحيى بن آدم : الخراج ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ...

ولا بد في النهاية كذلك أن نذكر بشيئين :

١ – أنه في نظام اسلامي لا يقبل من المسلم مال في مقابل سقوط القتال عنه.

٢ – وأن الأصل أن يؤخذ من كل كافر بدل عسكري هو الجزيه إلا إذا ارتضى أن يقاتل معنا وذلك متروك لنا ان قبلنا ووثقنا والأصل عدمه ...

٧ – التوظيف والضرائب حين الحاجة اليها ...

يقول الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام جـ ٢ ص ١٢ :

« انا إذا قررنا اماماً مطاعاً مفتقراً الى تكثير الجنود وسد الثغور وحماية الملك المتسع الأقطار وخلا بيت المال ، وارتفعت حاجات الجند الى ما لا يكفيهم – فللإمام اذا كان عدلاً – أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال، إلى أن يظهر مال بيت المال ، ثم اليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمرات وغير ذلك ... وانما لم ينقل مثل هذا عن الأولين لاتساع بيت المال في زمانهم بخلاف زماننا .

فانه لو لم يفعل الامام ذلك النظام بطلت شوكة الإسلام وصارت ديارنا عرضة لإستيلاء الكفار » .

« فاذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق لهم بأخذ البعض من أموالهم ، فلا يتمارى في ترجيح الثاني على الأول وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر في الشواهد » .

ويقول الامام الغزالي في كتابه المستصفى جـ ١ ص ٣٠٣ :

« إذا خلت أيدي الجنود من الأموال ولم يكن من مال المصالح – بيت المال – ما يفي بنفقات العسكر وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الاسلام ، أو ثوران فتنة من قبل أهل الشر جاز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند. لأننا نعلم أنه إذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين » .

ويقول العز بن عبد السلام في كتابه « القواعد » جـ ٢ ص ١٦٢ :

المصلحة العامة كالضرورة الخاصة ، ولو دعت ضرورة واحد الى غصب أموال

الناس لجاز له ذلك ، بل يجب عليه إذا خاف الهلاك لجوع أو حر أو برد ، وإذا وجب هذا لإحياء نفس واحدة ، فما الظن باحياء النفوس ، بل إقامة هؤلاء أرجح من دفع الضرورة عن واحد » .

من هذه النصوص نرى أن فرض الضرائب وتنظيمها جائز لكن بشروط ....:

١ - الشرط الأول : أن تكون بقية الواردات لا تفي بحاجة الأمة ....

٢ - وألا تكون مصارف الدولة على طرق غير مشروعة ...

فإذا اختل أحد الشرطين امتنع الجواز ، فلو كانت واردات الدولة تفي بحاجات الأمة العامة ، أو كانت هناك أموال تبذر من بيت المال في غير طريق مشروع ، فعندئذ لا يجوز أن تفرض أي ضريبة . لأن الحكومة الاسلامية لا تفرط في درهم إلا إذا ذهب إلى طريق مشروع ، وتطالب بضغط نفقاتها ورؤية ما إذا كان نوع من النفقات يذهب إلى غير محله من وظيفة غير شرعية ، أو إدارة يمكن الاستغناء عنها ، أو مؤسسة تقوم بخدمة محرمة ، ففي هذه الأحوال ليس لها حق فرض الضريبة حتى ترجع الامور إلى نصابها .

فإذا كانت واردات بيت المال الاخرى لا تفي بكل حاجة مشروعة ضرورية للأمة ، وكان كل درهم يذهب في طريقه المشروع ، جاز عندئذ فرض الضرائب على الامة ولكن على أي أساس يكون فرض هذه الضرائب وتوزيعها على الناس.

هل يكون بفرض ضرائب على البضائع والحاجيات فتكون ضرائب غير مباشرة؟
أو يكون بفرض ضرائب مباشرة على الناس بالتساوي ؟
أو تكون بفرض ضرائب على الناس بقدر ما يملكون ؟
وكيف تقدر الاملاك وعلى أي أساس ؟

أو تكون على قاعدة الغرم بالغنم ، فمن يستفيد من إحداثات الدولة ودوائرها أكثر يدفع أكثر ، وما تستفيد منه الامة جميعاً تتحمل نفقاته مشتركة ؟

وهل تقبل فكرة الضرائب التصاعدية كوسيلة عملية تتحقق بها قاعدة الغرم بالغنم ؟

أسئلة كلها تحتاج إلى أجوبة ليس هذا أوانها ولكننا نذكر هنا :

١ - أن العالم الاسلامي في حالة قيام حكومة إسلامية واحدة فيه لا تحتاج

حكومته أبداً إلى فرض أي ضريبة لكثرة واردات بيت المال وخاصة من المواد الخام .

٢ - إنه في حالة فرض ضريبة فلا يجوز أن تبقى دائمة ومستمرة وإنما تبقى ببقاء الحاجة اليها فإذا انتعش بيت المال مرة ثانية وكفت وارداته رفعت الضريبة.

٣ - أن رأي الامام ومجلس شوراه في مثل هذه الامور معتبر .

٨ - الحقوق العامة للدولة المسلمة ...

١ - من الحقوق العامة للدولة المسلمة أن تحمي من الاملاك العامة حتى لا يستفيد منه إلا القطاع العام والنصوص في ذلك :

يقول ابن قدامة : (روي عن ابن عمر قال : حمى النبي ﷺ النقيع لخيل المسلمين ، وأما سائر أئمة المسلمين فلهم أن يحموا مواضع لترعى فيها خيل المجاهدين ، ونعم الجزية أو إبل الصدقة ، وضوال الناس التي يقوم الامام بحفظها وماشية الضعيف من الناس على وجه لا يستضر به من سواه من الناس ، وبهذا قال أبو حنيفة ومالك والشافعي في صحيح قوله) .

ويروي صاحب المغني على من ينكر أن يكون لأئمة المسلمين هذا الحق بعد النبي ﷺ بإقامة الادلة على ثبوته لهم بقوله : (ولنا : أن عمرو وعثمان حميا واشتهر ذلك في الصحابة ، فلم ينكر عليهما فكان هذا إجماعاً) .

وقد روي أن أعرابياً أتى عمر رضي الله عنه فقال : (يا أمير المؤمنين بلادنا قاتلنا عنها في الجاهلية ، وأسلمنا عليها في الاسلام ، علام تحميها ؟ فأطرق عمر ، وجعل ينفخ ويفتل شاربه ، وكان إذا كربه أمر فتل شاربه ونفخ فلما رأى الأعرابي ما به جعل يردد ذلك ، فقال عمر : المال مال الله ، والعباد عباد الله، والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت شبراً من الارض في شبر) وليس لهم أن يحموا إلا قدراً لا يضيق به على المسلمين ويضر بهم ، لانه إنما جاز لما فيه من المصلحة لما يحمي ، وليس من المصلحة إدخال الضرر على أكثر الناس) .

ويقول الامام الشافعي رضي الله عنه (إن حمى رسول الله ﷺ فيه صلاح لعامة المسلمين ، إذ أن الخيل المعدة لسبيل الله ، وما فضل من سهمان أهل

الصدقات، وما فصل من النعم التي تؤخذ من أهل الجزية ترعى فيه، فأما الخيل فقوة لجميع المسلمين، وأما نعم الجزية فقوة لأهل الفيء المجاهدين، وأما الابل التي تفضل عن سهمان أهل الصدقة، فلا يبقى مسلم إلا عليه من هذا صلاح في دينه ونفسه، ومن يلزمه أمره من قريب، أو عامة من مستحقي المسلمين).

٩ – الفيء ..

يقول صاحب كتاب السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي عن الفيء ما يلي :

عندما يذكر الفيء مع الغنيمة والخراج والجزية يراد به المال المأخوذ عفواً، وهو بذلك يقابل الغنيمة التي تؤخذ قهراً [١]، والمال المأخوذ عفواً هو الذي يؤخذ بدون حرب ولا إيجاف خيل، أي بالرعب يقذفه الله في قلوب المشركين[٢]، حتى لو تم هذا الرعب برؤية الجيش، فالمهم تبعاً لرأي أبي يوسف أنه ما دام الجيش لم يقم بعمل عسكري من طعان او حصار فإن ما أخذ يعتبر فيئاً لا غنيمة، روى يحيى بن آدم عن محمود بن يسار قال : سمعت الضحاك يقول : أيما (أهل) حصن أعطوا فدية من غير قتال وإن كانوا قد نظروا إلى الجيش فهو بين جميع المسلمين لأنه فيء[٣]. وقد بيّن الله سبب الهزيمة وأنها عوامل متعددة يثيرها سبحانه وتعالى ويدفعها للعمل، بعضها ظاهر كالريح وبعضها باطن كالخوف، وهو ما قال به المفسرون[٤] عند تفسير قوله تعالى : « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء »[٥]...

ومن أموال الفيء بناء على ما تقدم أموال فدك، يروي يحيى بن آدم[٦] أن بقية من أهل خيبر تحصنوا، فسألوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويسيرهم، ففعل، فسمع بذلك أهل فدك فنزلوا على مثل ذلك، فكانت أموالهم فيئاً لأنها

---

(١) الماوردي : لاحكام السلطانية ص ١١١ .
(٢) تفسير البيضاوي ص ٥٤٧ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٤٨ .
(٤) البيضاوي ص ٥٤٧ .
(٥) سورة الحشر الآية ٦ .
(٦) الخراج ص ٣٧ .

لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، ويذكر البلاذري أن رسول الله ﷺ بعث الى أهل فدك منصرفه من خيبر محيصة بن مسعود الانصاري يدعـوهم إلى الاسلام فصالحوا الرسول ﷺ على نصف الأرض بتربتها فقبل ذلك منهم ، فكان نصف فدك فيئا لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب [1] .

هذا هو الفيء بمعناه الدقيق الإصطلاحي ، على أنه قد يطلق أحياناً ويراد بـه معنى أوسع مما ذكر فيدخل فيه الغنيمة ، وبهذا المعنى قال معارضو عمر له في حديثهم عن أرض السواد : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ؟[2] بل إن أبا يوسف [3] افتتح كلامه عن الفيء والخراج بقوله : فأما الفيء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض .

ويجعله الماوردي أشمل من ذلك فيقول : الفيء كل مـال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، فهو كمال الهدنة والجزية وأعشار متاجرهم ، أو كان واصلا بسبب من جهتهم كمال الخراج [4] .

ويرى بعض العلماء ان اسم كل واحد من المالين يقـع على الآخر إذا أفرد بالذكر ، فإذا جمع بينهما افترقا كاسمي الفقير والمسكين .

وقال القاضي أبو الطيب إن الفيء يقال له فيء لأنه مال رجع الى المسلمين بنفسه بدون محاولة منهم لأخذه من الكفار ، وأمـا الغنيمة فمال رده الفاتحون على أنفسهم [5] .



ولنعد الى المعنى الذي آثرناه لنقرر أنه لكون الفيء وصل الى المسلمين عفوا بدون حرب ولا إيجاف خيل لم يكن فيه حق للمقاتلين ، إذ لم يكن هنـاك مقاتلون ، وعلى هذا جرى توزيعه بعيداً عنهم على الوضع التالي :

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٦ .
(٢) ابو يوسف الخراج ص٢٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٨ .
(٤) الاحكام السلطانية ص ١١١ .
(٥) تهذيب الاسماء واللغات القسم الثاني ج ١ ص ٦٤ .

إذا تحقق الفيء بصلح التزمت فيه شروط الصلح ، وقد سبقت الاشارة الى هذا، قال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها »[1].
وما يحصل عليه المسلمون بناء على هذا الصلح يكون التصرف فيه كالتصرف فيما تركه المشركون للمسلمين ورحلوا عنه ، وهذا أو ذاك يؤخـــذ خمسه فيقسم كما يقسم خمس الغنائم[2] « لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[3] أما الأخماس الأربعة الباقيـــة فهي خالصة لبيت مال المسلمين ، وهي أساس مورد بيت المال ، ولذلك سمي سواها مما يورد لبيت المال فيئا ، وإن لم يكن فيئا حقيقة فأرض الخراج بعد أن استقر عليها بعدم التوزيع على المحاربين أطلق عليها بعض الباحثين فيئا ، وكذلك أطلق الفيء على العشور والجزية إلصاقا بالفيء إذا اتحد المصرف في كل . ومن الواضح بعد ان درسنـا الخراج والفيء ان الفيء استعمل استعمالاً عاماً لأنه الأصل في موارد بيت المال ، أما الخراج فاستعمل استعمالاً عاماً لأنـه أكثر وأخصب موارد بيت المال ... أه

(ب) ويدخل في الفيء صور ...

١ ــ لو كان للمستعمرين الكافرين في أرض إسلاميـة مستعمرة أملاك ورحلوا عن أرضنا نتيجة الثورة كان على أثرها صلح فكل ما تركوه في خمسه يـوزع على مصارف الخمس والبقية لبيت مال المسلمين كما حدث في الجزائر مثلاً فكل فرنسي جلا وترك مالاً أو ارضاً إن كان غصبها ممـن له عليها بينة أخذها وإلا فالخمس للفقراء والبقية لبيت مال المسلمين .

١٠ ــ التعزيرات المالية ...

يذهب بعض الفقهاء الى جواز التعزيرات المالية وقد ناقش ابن تيمية هـذا الموضوع في كتابه الحسبة مناقشات طويلة وأتى بأقوال الفقهاء المجيزين له وعلى هذا الاتجاه فإن من واردات بيت المال هذه التعزيرات التي يفرضها الامام كنتيجة من نتائج المخالفة للقانون العام ويشترط هنا ألا يكون هناك تعسف في التطبيق ونية الاضرار فيه .

---

(١) سورة النحل الآية ٩١ .
(٢) الماوردي ١٠٨ ، الاحكام السلطانية ص ١٢٤ .
(٣) سورة الانفال الاية ٤١ .

وعلى كل فان هذا الوارد ينخفض أو يرتفع بمقدار وعي الأمة وعلمها وتهذيبها...

١١ – واردات المؤسسات والملكيات الخاصة للدولة...

هناك مشاريع لا تصلح أن تقيمها إلا الدولة ولا يستطيعها الأفراد أو قد لا تكون من حقهم ولا تنتفع بها الأمة كلها بل ينتفع منها أفراد وتحتاج الى نفقات دائمة كمشاريع المياه والكهرباء وغيرها فلا شك أن ريع هذه المؤسسات مرجعه الى بيت المال ونحب هنا ان نفرق بين حق الدولة في ابتداء مشروع وبين استيلائها على مشروع، والشيء الاساسي الذي ينبغي ان نعرفه في هذا السبيل أنه ليس للدولة ان تستولي على مؤسسة مشروعة القيام والملك بدون مقابل وبدون رضى صاحبها وقد تكون هناك حالات نادرة أجاز فيها فقهاء المسلمين أن تنتقل فيها الملكية جبرا، ولكن هذا خلاف الأصل فيقتصر فيه على ما ورد، والمرجع في ذلك القضاء والفقه الاسلامي والنصوص ولكن للدولة حق الابتداء باقامة أي مشروع وجعل ملكيته للأمة على شرط ان تكون المصلحة فيه محققة.

أما الامتيازات التي أعطيت من قبل حكم كافر أو فاجر لا يلتزم بالاسلام وكان في ذلك الامتياز مخالفة لنصوص الشريعة، أو إجحاف بحق الأمة، فذلك وضع آخر يجب أن ينتهي أو يعدل...

* * *

هذه صورة مجملة عن واردات بيت المال في نظام اسلامي وهي كافية ليعرف الإنسان الأرض التي تقف عليها خزينة الدولة في الاسلام.

الفقرة الثانية : مصارف بيت المال

إن بيت المال في الاسلام يقوم :
١ – رواتب الموظفين وكفالة الرعايا:
٢ – الانفاق على المشاريع العامة التي تحتاجها الأمة :
٣ – توزيع الباقي على الأمة بالتساوي : ...
وهذا ما سنستعرضه هنا ...
١ – رواتب الموظفين و كفالة الرعايا ...

روى البخاري عن عائشة قالت لما استخلف أبو بكر رضي الله عنه قال : (لقد علم قومي ان حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهـــلي ، وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال ، ويحترف المسلمين فيه) .

وروى أبو داود بإسناد صحيح عن عمر رضي الله عنه قال : عملت على عهـد رسول الله ﷺ فعملني أي أعطاني أجرة عملي ...

وروى أبو داوود باسناد صحيح عن المستورد بن شداد قال : سمعت النبي ﷺ يقول: من كان لنا عاملا فليكتسب زوجة ، فان لم يكن له خادم فليكتسب خادما،فان لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً وفي رواية : (من اتخذ غير ذلك فهو غال) ...

والغلول إنما يكون إذا كان الأخذ بغير إذن كما في الرواية الصحيحة عند أبي داوود عن بريدة عن النبي ﷺ قال : (من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول) وروى الترمذي عن معاذ رضي الله عنه قال : (بعثني رسول الله ﷺ الى اليمن فلما سرت أرسل في اثري فرددت فقـال : أتدري لم بعثت إليك ؟ لا تصيبن شيئا بغير إذني فانه غلول ومن يغلل يأت بما غل يـوم القيامة لهذا دعوتك فامض لعملك ...

وسواء كان ما أخذه رشوة صريحة ، او هدية لم يكن لها سبب إلا عمله ، أو كان سرقة واختلاساً ، فكل ذلك غلول وهو حرام .

نفهم من هذا أن من اشتغل للمسلمين أعطي اجرة عمله ، وان هذه الاجرة ينبغي أن تكفيه وتؤمن له حاجاته الاساسية من مسكن وزوجة وخدمة وقد ذكرت الدابة في روايات فالنقل كذلك ينبغي أن يؤمن .

وهنا لا بد من الاشارة الى شيء هو : ان الوظيفة لا تكون إلا لحاجة ، ولا تكون إلا بشيء مشروع . فلا يجوز للدولة ان تحدث وظيفة تستغني عنها الامة ، ولا يجوز للدولة أن تحدث وظيفة لعمل غير مشروع ، ولا يجوز أن ينفق المال على هذا أو هذا ، ومن هنا نفهم أن كثيراً من الوظائف الحاضرة يجب أن تختصر وتلغى .

أما الكفالة العامة من بيت المال للرعايا فذلك مقتضى كلامه عليه الصلاة والسلام (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) وفي حياة رسول الله ﷺ والخلافة الراشدة تطبيقات كثيرة ، تدل على أن بيت المال في خدمة المحتاج من المسلمين وغيرهم من رعايا الدولة الاسلامية ، إذا ثبتت حاجتهم ، ولم تحل مشكلتهم بالوسائل الأخرى التي أشرنا إليها في الباب السابق .

٢ ـ الانفاق على المشاريع العامة التي تحتاجها الأمة ...

في الباب الرابع من هذا البحث نرى جزءاً من الاهداف العامة لنظام اقتصادي إسلامي ككون الاقتصاد الاسلامي ، اقتصاداً حربياً ، وككون الاقتصاد الاسلامي يحقق للامة حاجاتها الاساسية ، وهذا كله يحتاج الى اموال كي تتحقق مشاريعه ، كما أن هناك مشاريع يجب ان تتبناها الدولة المسلمة بشكل بديهي . فمثلاً : مشاريع الكهرباء التي تدار بالمياه العامة فالمياه العامة ملك للامة ، فالمشاريع التي تستغل مجموع هذه المياه اولى أن تكون للامة وهكذا ...

وعلى كل فإن أمثال هذه المشاريع تؤخذ نفقاتها من بيت المال بشروط :

١ ـ الشرط الاول : ان يكون المشروع يحقق هدفاً إسلامياً ، أو يبيحه على الأقل النظام الاسلامي .

٢ ـ أن يكون المشروع محقق النفع للامة وهذا شرط دائم يشترط في كل تصرفات الدولة الاسلامية المالية ، إذ الدولة الاسلامية بالنسبة لأموال الأمة كوصي اليتيم في ماله .

٣ - ألا ينفق على المشروع ما لا يحتاجه المشروع .

ويدخل في هذا الجزء من النفقات بناء الجسور ، وشق الترع ، وتأمين مياه الري والشرب ، وربط الأمة بشبكة مواصلات قوية ، وإقامة الصناعات الحربية الضخمة ، وإيجاد اسطول بحري ...

وتفضل الدولة الاسلامية ألا تقيم المشاريع التي هي أليق بالأفراد إلا إذا لم يقمها أفراد ...

وفي كل حال يحظر على نوع معين من رجال الدولة أن تكون لهم صلة بمؤسسات اقتصادية ، أو أن ينشئوا مؤسسات اقتصادية بعد الحكم ، وقد مر معنا في باب التملك ماله علاقة بهذا .

* * *

يقول فقهاء الحنفية :

« وما جباه الامام من الخراج ، وما أهداه أهل الحرب الى الامام والجزية ، وما أخذ منهم من غير حرب تصرف في مصالح المسلمين العامة ، فتسد منها الثغور ، وتبنى منها القناطر والجسور ، ويعطى قضاة المسلمين وعمالهم ، ومحتسب ومرابط ما يكفيهم وذراريهم ، ويدفع منه أرزاق المقاتلة وذراريهم » ...

٣ - توزيع الباقي على الامة بالتساوي :

أخرج ابن سعد عن سهل بن أبي حثمة وغيره : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان له بيت مال بالسنح معروف ليس يحرسه أحد فقيل له : يا خليفة رسول الله : ألا تجعل على بيت المال من يحرسه ؟ فقال : لا يخاف عليه فقلت : لم ؟ قال : عليه قفل وكان يعطي ما فيه لا يبقي فيه شيئاً . فلما تحول أبو بكر الى المدينة حوله فجعل بيت ماله في الدار التي كان فيها ، وكان قدم عليه مال من معادن القبلية ، ومن معادن جهينة كثيراً ، وانفتح معدن أبي سليم في خلافة أبي بكر ، فقدم عليه منه بصدقة ، فكان يوضع ذلك في بيت المال وكان أبو بكر يقسم على الناس نفراً نفراً ، فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا وكان يسوي

بين الناس في القسم ، الحر والعبد والذكر والانثى والصغير والكبير فيه ، وكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيحمل في سبيل الله ، واشترى عاماً قطائف أتى بها من البادية ، ففرقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء ، فلما توفي أبو بكر ودفن دعا عمر بن الخطاب الأمناء ودخل بهم بيت مال أبي بكر ، ومعه عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهم ، ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه ديناراً ، ووجدوا حبيشة للمال فنفضت فوجدوا فيها درهماً ، فترحموا على أبي بكر ؛ وكان في المدينة وزان على عهد رسول الله ﷺ وكان يزن ما عند أبي بكر من مال . فسئل الوزان : كم بلغ ذلك المال الذي ورد على ابي بكر ؟ قال مائتي الف) . الكنز

وروى أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قدم على عمر مال من العراق فأقبل يقسمه فقام إليه رجل فقال : يا امير المؤمنين : لو أبقيت من هذا المال لعدو إن حضر ، أو نائبة إن نزلت [1] فقال عمر : مالك قاتلك الله ، نطق بها على لسانك شيطان ، لقاني الله حجتها . والله لا أعصين الله اليوم لغد لا ، ولكن أعدلهم ما أعدلهم رسول الله ﷺ وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن الحسن قال : كتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى رضي الله عنهما : أما بعد فاعلم يوماً في السنة لا يبقى في بيت المال درهم حتى يكتسح اكتساحاً ، حتى يعلم الله أني قد أديت الى كل ذي حق حقه .

عن مجمع التيمي قال : كان علي رضي الله عنه يكنس بيت المال ويصلي فيه يتخذه مسجدا رجاء أن يشهد له يوم القيامة) ... أخرجه بن عبد البر في كتابه (الاستيعاب) .

وعن عنترة الشيباني قال : كان علي رضي الله عنه يأخذ في الجزية والخراج من أهل كل صناعة من صناعته وعمل يده ، حتى يأخذ من أهل الإبر والمسال والخيوط والحبال ، ثم يقسمه بين الناس .وكان لا يدع في بيت المال مالاً يبيت فيه حتى يقسمه ، إلا أن يغلبه شغل فيصبح إليه ، وأخرج أبو عبيد في الاموال عن علي رضي الله عنه : أنه أعطى العطاء في سنة ثلاث مرات ثم أتاه مال من أصبهان

---

(١) قد يكون لهذا الرأي قيمة في عصرنا وهو اجتهاد صحابي يمكن الاخذ به ولو اشتد عليه عمر ولكن غيره أحب الينا .

فقال : اغدوا الى عطاء رابع إني لست بخازنكم فقسم الحبال فأخذهــا قوم وردها قوم) الكنز .

* * *

أما طريقة القسمة فقد كان أبو بكر يساوي بين النــاس ، وكان عمر يفاضل على حسب فضل الصحبة ، والبعد والقرب من رسول الله ﷺ ورجــع في آخر أمره الى رأي ابي بكر ، فكانت المساواة هي ما استقر عليــه أمر اجتهاد الخلافة الراشدة .

وأما شمول القسمة فهي كما قال عمر البيهقي :

(ولم يبق أحد من المسلمين – لاحظ كلمة المسلمين – إلا وله في هذا المال حق ، إلا مــا تملكون من رقيقكم ، فإن أعش إن شاء الله لم يبق أحد من المسلمين إلا سيأتيه حقه ، حتى الراعي بسرو حمير يأتيه حقه ، ولم يعرق فيه جبينه) راجع تفسير ابن كثير الجزء الرابع صفحة /٣٤٠/

* * *

هذه سنة الخلافــة الراشدة في امر المال فكيف يكون حال المسلمين لو كانت لهم دولة واحدة وطبق نظام المال في الاسلام كله ؟

بعض الأهداف التي ينبغي أن يحققها التخطيط الاقتصادي للأمة الإسلامية

هناك أهداف عامة تتحقق تلقائياً في الحياة الاقتصادية الاسلامية ، هذه الاهداف يلمحها الانسان من خلال نصوص الشريعة ، ومن احكامها ، وفروع هذه الأحكام وهي وإن كانت تتحقق تلقائياً إلا أن الدولة من واجباتها أن تساعد في تحقيقها ، أو أن تفرض تحقيقها ، على ان نعرف ان الوسائل لهذه الاهداف يجب أن تكون إسلامية بحتة كما ان الاهداف إسلامية .

١ – أن يكون اقتصاد الأمة الاسلامية اكتفائياً ...

٢ – أن تؤمن لكل مسلم بل لكل انسان في الأرض الاسلامية حاجاته الأساسية ...

٣ – أن تعمر الأرض وتستخرج طاقاتها إعماراً واستخراجاً كاملين ...

٤ – تأمين الحاجات الأساسية للأمة كالمواصلات وغيرها ...

٥ – تسخير الطاقات كلها لانشاء القوة العسكرية المستقلة والمتفوقة بقدر الامكان ...

٦ – اقتصاد عادل لا ضرر ولا ضرار فيه ...

هذا ما سنتحدث عنه في هذا الباب فقرة فقرة ...

١ – اقتصاد كفائي ...

نلاحظ أن الله عز وجل أمر المسلمين بالجهاد الدائم ، وعلى هذا فإن العالم في الأصل يمكن أن ينقسم إلى قسمين دار حرب ودار إسلام ، ولما كان احتمال الحرب قائماً ، بل هو الاصل ، فشيء عادي أن تكون الامة الاسلامية في حالة استغناء عن غيرها ، وهذا منطق البداهة ، فإذا أمرك الله بالحرب فعليك أن

ترتب أمورك على أساس الاكتفاء بما عندك ، والاستغناء عن الآخرين ، وعلى هذا فإن على الامة الاسلامية أن تخطط من أجل وجود الاقتصاد الكفائي

كما أنه شيء عادي أن نحرر أوضاعنا الاقتصادية من سيطرة الكافرين ، حتى في الاشياء البسيطة ، وقد روي أن الرسول ﷺ لما قدم المدينة كانت السوق بيد اليهود فأنشأ الرسول ﷺ للمسلمين سوقاً أخرى

كما أنه شيء عادي ألا نعتمد على غيرنا في أي صناعة أو مورد ، وقد روي عن الرسول ﷺ قوله الانسان يقاتل بقوس فارسية ألا قاتلت بقوس عربية أو كما قال عليه الصلاة والسلام (الكلام قبل أن يصبح الفرس مسلمين) .

وعلى كل فهناك أصل متفق عليه هو أن كل علم احتاجه المسلمون فهو فرض كفايه كما سنرى في السياسة التعليمية : من طب لصيدلة لصناعة لهندسة ...

وما نص الفقهاء على ذلك إلا لإغناء الامة عن غيرها ، إذ ليس المقصود بالعلم بالصناعات وغيرها إلا إقامتها ، وإلا فالعلم بصناعة ما وحده لا يحل مشكلة المسلمين .

لهذا كله فليس أمام المسلمين خيار في هذا الموضوع ، ولكن لا يعني هذا تحريم التجارة والعلاقات الاقتصادية مع الآخرين ، فذلك شيء جائز ، وإنما المقصود أن نكون مع هذه العلائق في حالة اكتفاء واستغناء .

والأمة مكلفة بهذا على قدر الطاقة والله عز وجل جعل الأرض الإسلامية مليئة بالخيرات والبركات ، ولو أحسن المسلمون واتحدوا ، لاحتاج العالم اليهم ولاستغنوا عن العالم ، فعندنا ٧٥ ٪ من المواد الخام في العالم و ٨٥ ٪ من احتياطي البترول العام ، هكذا يقولون والله أعلم .

٣ — إقتصاد تنمية وإعمار ...

قال تعالى على لسان صالح عليه الصلاة والسلام : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

وقال تعالى : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » ...

وقال : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

من هذا نفهم آن الكون مسخر للإنسان ، وأن من حق الإنسان أن يستفيد من كل ما فيه ، وأن إعمار الأرض هدف يسعى له الإنسان كهدف مرحلي للآخرة «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» وحض الإسلام على الإعمار لا يعدله حض آخر حتى أمر رسول الله ﷺ من بيده فسيلة أن يغرسها حتى في حالة قيام الساعة .

والإعمار في العادة لا يتم إلا بوجود العامل البشري المختص ، والإمكانيات المالية ، وتنظيم ذلك على أسس عادلة ، وسنرى في باب السياسة التعليمية كيف أن الله تعالى فرض على الأمة أن يكون فيها اختصاصيون في كل جانب من جوانب الحياة ، ورأينا كيف أن النظام الاقتصادي الاسلامي يجعل في يد كل فرد مالاً ، ويجعل بيت المال عامراً ، ورأينا كيف أن النظام الاقتصادي الاسلامي أعدل نظام وأكمله .

فإذا ما طبق الإسلام تطبيقاً سليماً صحيحاً ، عمرت الأرض بالحياة ، كما تعمر بالعدل والأمن والحق .

٣ — اقتصاد كفائي ...

(جاء بلال رضي الله عنه الى عمر رضي الله عنه حين قدم الشام وعنده أمراء الاجناد فقال : يا عمر يا عمر ، فقال عمر رضي الله عنه : هذا عمر ، فقال : إنك بين هؤلاء وبين الله وليس بينك وبين الله أحد فانظر بين يديك ومن عن يمينك ومن عن شمالك فإن هؤلاء الذين جاؤوك — أي أمراء الاجناد — والله إن يأكلون إلا لحوم الطير فقال عمر رضي الله عنه : صدقت ، والله ما أقوم من مجلسي هذا حتى تكفلوا لي كل رجل من المسلمين بِمُدّيْ بُرٌ ، وحظهما من الخل والزيت فقالوا : نكفل لك يا أمير المؤمنين ، هو علينا قد أكثر الله من الخير وأوسع فقال : فنعم إذن) ...

(دخلت زوجة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عقب توليته الخلافة فوجدته يبكي فقالت : الشيء حدث قال : لقد توليت أمر أمة محمد ففكرت في الفقير الجائع والمريض والضائع ، والعاري المجهود ، والمقهور والمظلوم ، والغريب والاسير والشيخ الكبير ، وعرفت أن ربي سائلي عنهم جميعاً ، فخشيت ألا تثبت لي

حجة فبكيت) .

ويقول ابن حزم : (وفرض على الاغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، وفي اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعيون المارة) ...

من هذه النصوص نتبين أن مسؤولية الدولة الاسلامية أن تؤمن لكل إنسان الحاجات الاساسية من مطعم وملبس ومسكن وزوجة .

ورأينا كيف يتم ذلك ، كما رأينا أنه حتى الذمي يؤمّن له من بيت المال ما يكفيه ، فلا يجوز أن يبقى في الارض الاسلامية إنسان لا تؤمّن له حاجاته الاساسية ، والدولة تعرف ذلك ، وفي قصص الخلافة الراشدة غناء أي غناء في تأكيد هذا المعنى .

٤ – اقتصاد يحقق حاجات الامة ...

ونقصد أن تؤمن للجماعة كجماعة ، أو للأمة كأمة كل لوازمها ، فعندما قال رسول الله ﷺ (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته) وعندما قال عمر : (لو عثرت شاة على شط الفرات لخشي عمر أن يحاسبه الله عنها لِمَ لم يعبد لها الطريق) أصبح واضحاً من القاعدة العامة ومثلها التطبيقي

أن كل ما تحتاجه الجماعة ينبغي أن تؤمنه الدولة المسلمة لأبنائها ، فإذا احتاجت للمواصلات على اختلاف اشكالها فيجب تأمينها على قدم المساواة للجميع وإذا احتاجت المشافي فيجب تأمينها ، وإذا احتاجت للأدوية فيجب تأمينها ، وإذا احتاجت لأنواع من العلم فيجب تأمينه ، وإذا احتاجت لموظفين لتسهيل أمور معاملاتها كان لها ذلك

وعلى هذا فإن على إمام المسلمين ان يدرك حاجات الأمة في كل الجوانب ، ويسخر المال العام لسدها وإيجادها حتى لا تحس الجماعة بحاجتها لشيء ما .

٥ – اقتصاد حربي ...

قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به

عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »

من هذا النص يتبين ان المسلمين عليهم ان يكونوا أقوياء ليرهبوا أعداءهم في الداخل والخارج، وسيمر معنا في السياسة العسكرية كيف أن على المسلمين أن يخضعوا العالم لسلطان الله عز وجل، وهذا لا يتم إلا إذا عبأ المسلمون انفسهم تعبئة جيدة، وجعلوا نظام حياتهم العامة والاقتصادية حربياً، والآية أمرت ببذل الاستطاعة فما دام في المستطاع أكثر فنحن مطالبون به، وقضايا الحرب في عصرنا مرتبطة بقضايا الاقتصاد الى حد كبير من حيث ايجاد المصانع اللازمة، وتأمين العتاد الكافي، والامدادات التي لا تنقطع، وترتيب أمور الأمة على اساس معين، وجعل البناء بشكل خاص، وأشياء كثيرة جداً يعرفها المختصون، نحن مكلفون بها.

وهذه قضية لا يتساهل بها أبداً:

« ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة».

إنه ما لم نصنع حياتنا على هذا الأساس فنحن آثمون...

***

٦- اقتصاد عادل لا ضرر فيه ولا ضرار.

إن تحقيق العدل أهم قضية في نظام الحكم الاسلامي، « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » والعدل قضية مراعاة في كل التشريع الاسلامي وكجزء من العدل أن لا يكون هناك ضرار ولا ضرر، وقد نص على ذلك رسول الله ﷺ بقوله: (لا ضرر ولا ضرار). ولذلك فإنه في نظام اقتصادي إسلامي لا يجد الإنسان إلا عدلاً، ولا يجد ضراراً او ضرراً.

فمن الصور التي ذكرها الفقهاء أن بيع المضطر وشراءه فاسد لكونه دفع أكثر من سعر المثل بدافع الاضطرار.

وكما يكون هذا في البيع يكون في الأجارة، فلو استغل أرباب العمل حاجة العمال للعمل، وأعطوهم أقل من أجور المثل، فإنهم يجبرون على دفع أجر المثل لهم.

ولو اتفق أهل سوق على رفع السعر ليس لهم ذلك ، وأجبروا عـلى إنهاء اتفاقهم ، ولو تلاعبت شركات في الأسعار فوقع ضرر بالناس ليس لهـا ذلك ، وتجبر على عدمه ، وقد منع الفقهاء تلقي الركبـان حتى لا يرتفع السعر على الناس فيتضرروا به ، وأجاز الفقهاء للامام التسعير إذا وقع حيف من قبل الباعة .

والصور التي تكلم الفقهاء عنها كثيرة جداً وتطبيقاتها كثيرة جـداً وهي معروضة بالتفصيل في كتب الفقه ، وكل ذلك يؤكد العدل ، ويحقق المصلحة التي لا ترجع الى أهواء الناس ، وإنما الى موازين الشارع الذي مـا ترك خيراً إلا وأمرنا به ، ولا شرا إلا ونهانا عنه ، ومن ابتغى الهـدى في غير كتاب الله أضله الله .

وبهذا ينتهي ماله علاقة بالسياسة الاقتصادية .

السياسة التعليمية والاعلامية

السياسة التعليمية والاعلامية لأمة تتعاونان على إبراز شخصيتها ، والشعور بالذات عندها ، مع شيء زائد تؤديه السياسة الاعلامية هو مخاطبة أعداء الأمة بلسان الأمة ، دفاعاً عنها ، أو تبريراً لمواقفها ، أو دعوة لمبادئها ، أو تخذيلا لأعدائها ، ولارتباط هذين الجانبين جعلناهما تحت عنوان واحد .

والسياستان التعليمية والإعلامية في الإسلام تقومان على اتجاهات منفردة ، لقضايا متعددة ، كما أن لهما أهدافاً متعددة منفردة وعلى الأمة في برامجها ومناهجها أن تحقق هذه النظرات وهذه الاهداف .

وسنكتب في هذا الموضوع فقرات خمساً عن جوانب لا بد من مراعاتها في السياسة التعليمية للامة الاسلامية وهذه الفقرات هي :

الفقرة الأولى : الحضارة الاسلامية والسياسة التعليمية المناسبة لها .

الفقرة الثانية : الشخصية الاسلامية ، وتفجير طاقاتها ، والسياسة التعليمية المناسبة لذلك .

الفقرة الثالثة : العلم والتكليف في الاسلام ، والسياسة التعليمية المنفذة لذلك .

الفقرة الرابعة : الإنسان ذكر وانثى ، والسياسة التعليمية المنمية لرجولة الرجل وأنوثة الأنثى .

الفقرة الخامسة : التكامل في بناء الشخصية ، والسياسة التعلية المناسبة من أجل إخراج الانسان من كل تناقض ...

ثم نذكر تعقيباً حول الإعلام وأجهزته في نظام إسلامي خالص ، وكيف أن عليه أن يساعد النظام التعليمي في تحقيق الغايات المذكورة في الفقرات السابقة .

الفقرة الاولى : الحضارة الاسلامية والسياسة التعليمية والاعلامية المناسبة لذلك :

– ١ –

حضارة أمة ما هي مجموع ثقافتها ومدنيتها .

وثقافة امة ما هي مجموع الجوانب الفكرية والروحية والسلوكية والأخلاقية لها :

ومدنية أمة ما هي مجموع الجوانب المادية لها .

والناتج الحضاري لأمة يكون عادة حصيلة امتزاج الجانب المدني بالجانب الثقافي .

وهنالك نوعان من الحضارة : حضارة اسلامية ، وحضارة جاهلية . فالحضارة الاسلامية هي التي تقوم على الثقافة الاسلامية ويكون الناتج الحضاري فيها متناسباً مع هذه الثقافة .

وما عدا ذلك فإنها حضارة جاهلية .

– ٢ –

ونمو مدنية ما وارتقاؤها لا يتوقف على ثقافتها دائماً ، بل يتوقف على عوامل كثيرة ، قد يكون إحداها الجانب الثقافي ، وقد لا يكون ، وهذه العوامل هي :

١ – استغلال الطاقات الكونية الظاهرة والباطنة استغلالا تاماً .

٢ – الاستفادة من الوقت استفادة تامة .

٣ – وجود الإنسان المختص الماهر في اختصاصه .

٤ – كفاية الاختصاصات لكل حاجات الأمة .

٥ – حكم يؤمن استقراراً .

فعلى مقدار نمو هذه الجوانب وتكاملها يكون رقي مدنية ما ، وبمقدار ضمور هذه الجوانب أو بعضها يكون ضمور مدنية ما .

– ٣ –

وقد تستطيع أمة ما أن تكون مدنية قمة ، ولكن لا توجد أمة أبداً مرشحة لتكوين حضارة قمة إلا الأمة الاسلامية .

لأنها وحدها التي تملك مقومات مدنية القمة ، وعندها ثقافة القمة . أما الامم الأخرى ، فليس لها إلا ثقافة جاهلية وضيعة ، فهي وإن امتلكت مقومات مدنية القمة ، لكنها لا تستطيع لانحطاطها الثقافي أن تشكل الحضارة العالية الراقية .

فالتقدم في تسخير الكون لا يعني بالضرورة تقدما في الأخلاق ، فلو استطاع لص أن يستخدم بيتاً عظيماً فلن يجعله هذا البيت غير لص .

وأمة متأخرة اخلاقياً وروحياً وسلوكياً وفكرياً ، لا يمكن أن تكون متحضرة حضارة راقية ، ولو وصلت الى القمر او الى المريخ .

- ٤ -

والجانب الثقافي في حضارة ما ، هو أعظم جانبيهـــا . فالنبات والإنسان يشتركان في الاستفادة من هذا الكون فكون الانسان سخره واستفاد منه ومن غيره أكثر ، إنما كان ذلك بخصائصه الانسانية العالية ، ومن هنا كانت ميزته . فإذا فقد الانسان خصائصه العليا ، لم يعد الجانب الثاني ذا قيمة . فأمة فقدت خصائصهـا الانسانية أي أصبحت ثقافتها متأخرة ، امة منحطة حضارياً ، ولو ارتقت ماديا، وأمة تمت خصائصها الانسانية ، وكانت ثقافتها صحيحة وراقية ، هي التي يمكن أن تطلق عليها كلمة متحضرة ما دامت تسخر الكون بقدر طاقتها لحاجتها .

ومن ثم فإن أعظم لحظات الحضارة البشرية ، تلك اللحظات التي شهدت جيل الصحابة ، حيث وصلت الخصائص الإنسانية الى درجة لم يشهد لها العالم مثيلاً ، ولهذا قلنا إن الأمة الاسلامية يمكن لها وحدها أن تخرج حضارة القمة .

- ٥ -

وإنما كانت الأمة الاسلامية وحدها مرشحة لحضارة القمة ، لأن مقومات المدنية كلها قد طولبت بها الأمة الاسلامية ، كأعلى ما يكون الطلب ، هـذا مع كون الثقافة الاسلامية هي الثقافة الوحيدة المتكاملة من حيث كونها تعطي الانسان أعظم الفكر والاخلاق والسلوك ، هذا عدا عن كونها حقاً خالصاً ، هذا مع إحاطة كاملة بكل حاجات الانسان ، وذلك كله لأنها ربانية المصدر ، ثابتة الأصول نامية الفروع .

- ٦ -

وتأكيداً لاتصال ثقافة أمة بمدنيتها ، وتأكيداً لكون الناتـج الحضاري يتأثر بثقافة الأمة ، نضرب عدة أمثلة :

أ - البنطلون الغربي العـادي أثر عن ثقافة الامم الذي انتجته من حيث كونه منظوراً بـه الى الجانب الجمالي والاقتصادي فقط ، ومن حيث كونه متناسباً مع

طبيعة جلوس الغربي ، وقيامه ، وحركته ، وعمله ، ولكنه من وجهة النظر في الثقافة الاسلامية

لا يتناسب مع صلاة المسلم ولا يتناسب مع طريقة قضاء حاجته ، ولا يتناسب مع قضية الطهارة ، ولا يتناسب مع قضية ستر العورة ، ولا عدم تشكلها ، وتجسيمها ، ولا يتناسب مع الجلسة المعتادة للمسلم في مسجده ، أو على مائدة طعامه .

على عكس السروال مثلاً أو الثوب ، وكلا منا الآن كله محصور في ثياب الراحة ، أما ثياب العمل ، أو ثياب المعركة ، فذلك له وضع آخر ، إذ شيء عادي أن كل نوع من العمل يحتاج الى نوع معين من الثياب .

ب — طراز البناء الغربي ، أثر عن ثقافة الغربيين الحالية التي لا يهمها قضية العِرْض ، وقضية حجب النساء عن أعين الغرباء ، ولا قضية ستر الانسان داخل بيته عن أعين الناس ، ولا يراعى فيها قضية كون الانسان داخل بيته غيره خارج بيته ، ولكن في طراز البناء الاسلامي تجد هذا واضحاً ، فالبيت مصون عن أن يرى ما بداخله أحد ، لأن الحرم أكرم من أن ينظر اليهن ، ولأن داخل البيت بالنسبة للمسلم يتبجبح به أكثر مما يأخذ حريته خارجه ، والكلام هنا عن بيوت السكن .

وهكذا تجد تأثير ثقافة أمة ما بنتاجها المدني

ج — نوادي القمار واليانصيب ، ونوادي الرقص والموسيقى ، ونوادي العري وكشف العورات ، ونوادي اللهو والورق والنرد ، ونوادي السكر والعربدة ، ومحلات السباحة المختلطة ، وأمثال هذا كله نام عند الأمم الكافرة ، لأن اللهو واللعب عندها هو الهدف العظيم .

أما بالنسبة للامة الإسلامية ، حيث تعتبر الحياة الدنيا ولهوها ولعبها شيئاً تافهاً ، وحيث تعتبر الآخرة والعمل لها هي الهدف ، وحيث تعتبر ما تقدم كله أحقر من أن يلتفت اليه المسلم ، فتحرمه عليه ، فإن أمثال هذه المؤسسات ليس لها وجود في حضارة إسلامية .

د — أول ما صنع السلاح الذري في العالم ، استعمل في ضرب المدن ، فقتل الأطفال والنساء والشيوخ ، وذلك لأن الأمم الغربية ليس لديها موازين صحيحة

للغايات والوسائل السياسية ، فالغاية تبرر الواسطة ، فكان السلاح الذري كناتج مدني متأثراً بثقافة الأمة التي صنعته .

أما في حضارة إسلامية فالأمر يختلف :

إن الإسلام لا يجيز قتل الأطفال والنساء والشيوخ الذين لم يشاركوا في المعركة ، ولا نضرب مدينة إلا من باب المعاملة بالمثل ، فالأصل عندنا لو أردنا صنع السلاح الذري ، أن نصنعه بشكل نجابه به جيوشاً مقاتلة ، ولا نصنع الشيء الآخر ، إلا من باب الاحتياط لمقابلة عدو بمثل عمله .

هـ ـ في مدرسة غربية يكون المسرح والنادي الموسيقي ، وأدوات اللهو والغناء والملاعب التي يقصد منها مجرد اللهو واللعب أشياء أساسية ، ولكن في مدرسة إسلامية يكون أساسياً فيها المسجد ، ونادي الرماية ، وأدوات التكوين الجسمي الجهادي العالي .

* * *

هذه أمثلة تبين مدى ارتباط مدنية أمة بثقافتها ، وقد توجد بعض النواتج الحضارية المشتركة بين البشر بشكل عام ، ولكن طريقة استعمال هذه النواتج وتسخيرها ، وطريقة تبادلها ، ثم تقييمها ووضعها في محلها ، كل هذا يختلف اختلافاً جزئياً أو كلياً . فمثلاً الخمرة كناتج مدني ـ فقط في مجتمع كافر ، مع أن العنب ناتج مشترك ، ولكن طريقه البيع والاكل والتسويق ، والنظرة اليه من حيث المصدر والحقوق فيه ، تختلف نوع اختلاف ما بين الأمة الإسلامية وغيرها .

وبذلك تدرك عمق ارتباط الجانب الثقافي بالجانب المدني في حضارة ما .

— ٧ —

قلنا إن المدنية تكون كأثر عن مجموعة أشياء :

استغلال الطاقات والاستفادة من الوقت ، ووجود الإنسان المختص ، وكفاية الاختصاصات والحكم المستقر .

وسنضرب هنا أمثلة تبين كيف أن هذه الأمور تؤثر في رقي مدنية ، وانعدامها يؤثر في تخلف مدنية :

في منطقة التخلف المدني اليوم في العالم تجد أدياناً مختلفة ، وأنظمة مختلفة ، ومع ذلك تجدها متأخرة مدنياً ، وعندما تدرس أوضاعها تجد أن طاقاتها لا

تستغل استغلالاً كاملاً ، فلا ظاهر الأرض ولا باطنها يستفاد منه استفادة كاملة ، ثم الوقت أكثره يضيع هباء ، ثم الذين يعملون ليس لديهم اختصاص كاف ، ثم هناك نقصان كبير في مجالات الاختصاص ، وأخيراً نظام الحكم غير مستقر .

ولكن عندما تدرس وضع ألمانيا الغربية مثلا فإنك تجد أمة تحطمت في الحرب العالمية الثانية ، ودمر كل شيء عندها ، ومع ذلك فإنها استطاعت أن تعيد بناءها خلال خمسة عشر عاماً . لأنها استفادت من الوقت ، فكان كل ألماني يعمل عشر ساعات لنفسه واثنتين لبناء ألمانيا ، ولأن كل إنسان يعمل بمهارة في اختصاصه ، ولأن الطاقات الظاهرة والباطنة في الأرض تستغل ، ولان الامة فيها كفايتها من الاختصاصيين والحكم فيه استقرار .

وقد تكون هناك عوامل مساعدة ، مثل النظام أو الثقة او المال ، ولكن هذه عناصر مساعدة فقط ، وليست أساسية ، فأمة فقيرة كاليابان استطاعت خلال أربعين عاماً أن تصبح دولة كبرى عندما تأمنت لها تلك المعاني الاساسية.

-٨-

ولا بد هنا من الإشارة إلى نقطة مهمة هي : في عصرنا هذا عصر الدعاية تحاول الدول المتقدمة مدنياً أن تجعل سبب تقدمها نظامها ، وتدعو إلى هذا النظام بهذه الحجة .

فالشيوعيون يقولون لاصحاب البلدان المتخلفة ، إن النظام الشيوعي سبب التقدم ، والرأسماليون يقولون : إن النظام الرأسمالي هو سبب التقدم ، والمبشرون النصارى يقولون : إن النصرانية هي سبب تقدم الشعوب النصرانية والواقع أن هؤلاء غير صادقين .

فمنطقة التقدم المدني تشمل أنظمة متعددة : النظام الشيوعي في روسيا والصين ، والنظام الرأسمالي في بعض البلدان الغربية ، والنظام الاشتراكي في بعضها الآخر ، والنظام المحافظ في اليابان ، والنصرانية كانت سبب تخلف أوروبا يوم كانت أوروبا متمسكة بها ، ولم تتقدم أوروبا إلا بعد نبذها النصرانية ، وفي منطقة التخلف المدني أنظمة متعددة ، منها الرأسمالي الذي يسير ببطء ، ومنها الاشتراكي الذي ازداد به التخلف ، ومنها بلدان نصرانية ، ومنها بلدان هندوسية ، ومنها بلدان بوذية ومنها بلدان فيها إسلام .

فربط التقدم والتخلف في النظام خديعة كبرى يتسلل بها إلى الشعوب .

لا شك أن النظام أحياناً ، أو الدين الباطل يكون معوقاً ، فدين كالهندوسية حيث يكون الإنسان في خدمة البقر ، وتأكل البقر خيراته ، وكذلك الفئران ، لا بد أن يعرقل النمو ، ونظام لا تتوفر بجانبه الثقة ، يجعل رؤوس الاموال تهرب وتبتعد :

ولكن مع هذا وهذا إذا توفرت الشروط الاساسية التي ذكرناها يمكن أن يتم التقدم المدني :

ففي النظام النازي حيث الديكتاتورية على أشدها ، حدث تقدم مدني ، وفي النظام الشيوعي حيث الثقة معدومة حدث تقدم مدني ، وإن كان هذا وهذا على حساب الإنسان وكرامة الإنسان .

وبهذه المناسبة نقول : إن الامة المتخلفة في العادة تعاني عقدة نقص ، والمسلمون اليوم متخلفون وعندهم عقدة نقص ، وتريد كل الدنيا أن تستغل هـــذه العقدة فتزيدها وتضخمها ، ثم كل من الناس يدعو المسلمين إلى ما عنده ، وكلهم مجمعون على حرب الإسلام ، وكلهم يقول . يا مسلمون ، سبب تأخركم إسلامكم ، فاتركوه وصيروا شيوعيين صيروا رأسماليين صيروا نصارى .

والشباب الفارغ ينصرف عن السير الصحيح ليعيش في هذا الهراء ، فـلا هو سار في طريق التقدم الصحيح وفقد ذاتيته والحق الذي أنزل عليه .

ولو أنهم درسوا فقط الواقـــع التاريخي ، بصرف النظر عن الحقـائق التي سنذكرها ، لعرفوا أن كل جانب من جوانب مدنية أوروبا كان بنا ومنا ، وأنها لولانا لبقيت غارقة في ظلامها المتعدد الجوانب

وفي كتاب حيدر بامات وأمثاله عناء أي عناء في تبيان هذا الموضوع .

– ٩ –

والثقافة الإسلامية مصدرهـــا الكتاب والسنة والفهوم الصالحة من الكتاب والسنة ، فالكتاب أولاً والسنة ثانياً ، والفهوم الصالحة ثالثاً ، وإنما ذكرنا الفهوم الصالحة لان الكتاب والسنة لم ينصا على كل شيء صراحة ، فتولى علماء الامة الإسلامية استنباط الاحكام من الكتاب والسنة لكل قضية عرضت

فقسم استنبط ماله علاقة بقضايا العقائد .

وقسم استنبط ما له علاقة بقضايا الأحكام العملية ...

وقسم استنبط ما له علاقة بقضايا الاخلاق والآداب وكتبوا في كل آلاف الكتب...

ولا شك أن طالب الاسلام لا يستغني عما كتبوه ، لأن سعة مداركهم ، وعلومهم مع تقواهم ، جعلت فهومهم من السمو والرقي ، ومظنة الصواب ، ما يجعل الانسان مطمئناً إليها .

فلا يحصل الإنسان الثقافة الإسلامية ... إلا بأن يعرف الكتاب والسنة والعقائد والفقه والأخلاق المستنبطة من الكتاب والسنة .

والناس الذين أكثروا النقاش حول الفقه أو الكتاب والسنة مخطئون ، فلا بد من دراسة الكتاب والسنة لأنهما قد تعرضا لكل شيء ، ولكل ما يحتاجه الإنسان نظرياً وسلوكياً ، ويبقى ما تحدثت عنه علوم العقائد والفقه والأخلاق جزءاً مما ورد في الكتاب والسنة ، ثم هما مصدر الهداية والمعرفة ، وفيهما ما لم يوجد في كتاب آخر بلا شك ، فالاشتغال بغيرهما عنهما انحراف خطير ، وابتعاد عن السنة العملية للصحابة والتابعين ، ونقصان هائل في ثقافة الانسان ، وجعل الانسان عرضة لقبول الأفكار الناقصة ، والدعوات الضالة ولكن لا بد كذلك من دراسة العلوم الثلاثة الأخرى ، لأنها بسطت بعض الأمور ، وأعطتنا أمهات المسائل ، ودلتنا على الصواب من احتمالات الفهم للكتاب والسنة ، وأعطتنا زبدة المواضيع في كل جانب ، وأعطتنا جواباً على فروع كثيرة لا نستطيع أن نفهمها مباشرة من الكتاب والسنة ، وأعطتنا الصورة العملية التطبيقية للكتاب والسنة في كل عصر ومكان

عدا عن كون الانسان لا يسهل عليه أن يطلع على الكتاب والسنة بسرعة، حتى يدرك بعمق كل ما يلزمه في قضاياه اليومية ، بينما المختصرات في هذه العلوم تعرفك على أهم ما يلزمك ، بسرعة ودقة ، وهكذا جوانب كثيرة كلها مفيدة تجعل دراسة هذه العلوم لا بد منها .

ولا تعارض بين هذا وهذا فمن درس هذه العلوم إنما يدرس فهوم العلماء الكتاب والسنة في القضايا التي نتعرض لها .

* * *

وعلم أصول الفقه يدلنا على الطريق الذي ينبغي أن نسلكه لاستنباط الأحكام العملية من الكتاب والسنة ، أو الطريق الذي سلكه العلماء من قبل .

وعلوم العربية هي التي بواسطتها نفهم الكتاب والسنة .

ولكن هذه العلوم ليست هدفاً لذاتها بل هى وسيلة لما قبلها ، فعندما تصبح الوسائل غايات وتضيع الغايات تكون كارثة لا مثيل لها .

والمدنية الاسلامية ينبغي أن تنبثق عن هذه المصادر :

الكتاب والسنة والاجتهاد المقيد بهما والنابع منهما .

— ١٠ —

ولو تساءلنا عن موقف الإسلام من مقومات المدنية لكان الجواب : أن مقومات المدنية في الإسلام قد أعطيت حقها كاملاً بشكل لا مثيل له من التكامل وهذا تفصيل المسألة :

أما بالنسبة لاستخراج الطاقات ، والاستفادة من كل شيء ، فقد قال الله تعالى: « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » وقال : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

وقال : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

فالله عز وجل بيّن للإنسان أن كل ما في هذا الكون مسخر له ومن حقه أن يستفيد منه .

وقال عليه الصلاة والسلام : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها) رواه البزار ورواته أثبات ثقات ... وقال عليه الصلاة والسلام : (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) ...

ومن هذين النصين ندرك مقدار ما حضنا عليه إسلامنا من أجل إعمار الأرض بنية صالحة .

إن الاستفادة من طاقات الأرض ظاهرها وباطنها ، حق للإنسان يؤجر عليه عند الله إن صحت نيته فيه وكان مسلماً ، هذا موقف الاسلام من أول مقومات المدنية . أما بالنسبة للوقت فيكفي فيه قوله عليه الصلاة والسلام أثناء الحديث عما يسأل عنه العبد يوم القيامة : (وعن عمره فيما أفناه) ومن أقوال عمر رضي

الله تعالى عنه : (إني لأكره أن أرى الرجل لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته) ... أي يضيع وقته ، ومن أقوال علي رضي الله تعالى عنه (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) ..

والوقت بالنسبة للمسلم حياة ، فليس لدى المسلم وقت يضيع في سكر أو لهو أو لعب أو لغو ، إما عمل أو عبادة أو مباح ذو مقصد حسن ، والعمل المباح ذو القصد الحسن من العبادة إن صحت النية .

وأما بالنسبة إلى الانسان المختص ، وكفاية الاختصاصات لحاجات الامة ، فقد اعتبر فقهاء المسلمين أن كل علم تحتاجه الامة الاسلامية فرض كفاية إذا لم تقم به الامة ببعض أفرادها أثمت جميعاً .

حتى قالوا : لو احتاج المسلمون إلى صناعة إبرة ولم يوجد بين المسلمين من يحسن صناعتها فكل المسلمين آثمون) .

فكل علم من العلوم ، وكل اختصاص مفيد ، هو فرض من الفروض ، ثم قالوا بعد ذلك : والتبحر في الاختصاص مندوب .

أن يكون عندنا مختصون في جراحة القلب ذلك فرض كفاية ، وأن يكون هؤلاء المختصون متبحرين في اختصاصهم ، فذلك مندوب ، وهكذا في كل علم. وإذن فإسلامنا يريد منا مدنية القمة التي لا يعلونا معها أحد ، كما أن ثقافتنا ثقافة القمة وبذلك توجد حضارة القمة للانسان .

قال صاحب كتاب تبيين المحارم :

(وأما فرض الكفاية من العلم فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا ، كالطب ، والحساب ، والنحو ، والفقه ، والكلام ، والقراآت ، وأسانيد الحديث ، وقسمة الوصايا ، والمواريث ، والكتابة ، والمعاني ، والبديع والبيان والاصول ، ومعرفة الناسخ من المنسوخ ، والعام والخاص ، والنص والظاهر ، وكل هذا آلة لعلم التفسير والحديث ، وكذا علم الآثار والاخبار ، والعلم بالرجال وأساميهم ، وأسامي الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعدالة في الرواية ، والعلم بأحوالهم لتمييز الضعيف من القوي ، والعلم بأعمارهم وأصول الصناعات . والفلاحة ، كالحياكة والسياسة والحجامة .

ومن تأمل هذا الكلام عرف أن الاسلام قد فرض وجود اختصاصيين في كل فرع من فروع الثقافة الاسلامية والمدنية العالية .

وقال صاحب كتاب شرح التحرير اثناء الكلام عن فرض الكفاية (فيتناول ما هو ديني كصلاة الجنازة ، ودنيوي كالصنائع المحتاج اليها) ...

وقد ذهب بعضهم الى أن فرض الكفاية في العلم أفضل من فرض العين ، لكن هذا الكلام مرجوح ، إلا أنه يدل على مدى الأهمية التي يعلقها فقهاء المسلمين على هذا الموضوع .

ولو أردنا أن نطبق ما قاله الفقهاء على متطلبات عصرنا فإننا نقول :

البترول حتى يستخرج يحتاج الى خبراء في علم طبقات الأرض ، وخبراء في كيفية الاستخراج ، وخبراء في صناعة الآلات ، وخبراء في الاستخراج والعمل ، وخبراء في التصفية ، وخبراء في صناعة آلاتها ، ويتفرع عن البترول حوالي ثمانين صناعة كلها تحتاج الى خبراء ، وكلها تحتاجها الأمة ، فوجود هذا كله من افراد الامة المسلمة فرض كفاية .

الزراعة تحتاج الى خبراء في التربة ، وخبراء في الري ، وخبراء في التقسيم ، وخبراء في صناعة الآلات ، وخبراء في طرق تغذية التربة ، وخبراء فيما يصلح للتربة من المزروعات ... وكل ذلك فرض كفاية .

في الطب ينبغي أن يكون عندنا اختصاصيون فيه جملة ، واختصاصيون في كل جانب فيه بشرياً أو حيوانياً ، والداء له دواء ، فوجود خبراء في الأدوية ، وخبراء في صناعتها ، كل ذلك فرض كفاية حتى لو كان دواء واحد لا يوجد بين المسلمين من يتقن صناعته فكل المسلمين آثمون ، وأكثر الإثم على من يقدر ولا يفعل .

وهكذا في الذرة والصناعة والطيران والبحرية .

وهكذا في كل اختصاص .

فإسلامنا يفرض علينا أن يكون في أمتنا كفايتها العلمية في كل فن وعلم تحتاج إليه ، كما طلب منا أن يكون كل منا بارعاً في اختصاصه ودائرة عمله .

(إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه) ...

هذا ما له علاقة في الجانب الثالث والرابع من مقومات المدنية ، وأما فيما يتعلق باستقرار الحكم في الاسلام .

فقد جعل الله عز وجل قتل المرتد فريضة ليبقى الصف الداخلي رصيناً ، وأمرنا إذا أراد أحد أن يثور على الخليفة الشرعي أن نقتله (من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق جماعتكم فاضربوه بالسيف كائنا من كان)

وجعل بيد أمير المؤمنين سلطات كثيرة ، يستطيع بها أن يؤدب ويعزر ويقتل ، سياسة من يستحق القتل ، كرأس بدعة وصاحب فرقة .

إن إسلامنا لا يرضى منا ان يكون أحد في شيء من أمر الخير فوقنا ، أو أعلى منا ، وأحسن ، والنصوص في ذلك كثيرة : في غزوة أحد صعد بعض المشركين الى الجبل بعد انتهاء المعركة حتى علوا المسلمين ، فأمر رسول الله ﷺ بانزالهم بقوله : (لا ينبغي لهم ان يعلونا) فكيف يسمح الاسلام إذن أن يعلونا غيرنا في كل شيء .

إن سبب ضعفنا وتأخرنا الحاليين بعدنا عن اسلامنا وإلا فهذا هو إسلامنا .

والواقع التاريخي يشهد ان القرون الوسطى في اوروبة كانت أبشع عصورهم، لأنهم كانوا متمسكين بدينهم الباطل ، بينما كانت حضارتنا يومذاك زاهية ، وكنا على ديننا العظيم مع هنات ، وفي كتاب الدكتور السباعي (من روائع حضارتنا) ما يغني في هذا الموضوع .

– ١١ –

ومن الاشياء الاساسية في الثقافة الاسلامية :

دراسة السيرة وحياة الصحابة والتابعين ، لأن ذلك النموذج العملي لقيام الاسلام غضاً طرياً .

ودراسة التاريخ الاسلامي بوضوح واعتبار وعزة ، وصياغة تاريخ وجهة النظر الاسلامية .

ودراسة حاضر العالم الاسلامي جغرافيا وبشرياً ، والتعرف على احوال المسلمين ، عالميا ، ودراسة علاقاتنا مع العالم ، ووضع هذا في اطاره المناسب وكل جانب من جوانب الثقافة الاسلامية أو المدنية الاسلامية يحتاج الى اختصاصيين كثر يسدون حاجة المسلمين .

فإذا ما اتضحت لنا هذه الجوانب كلها، عرفنا ان اول هدف في السياسة التعليمية لدولة إسلامية هو :

إيجاد اختصاصيين في كل جانب من جوانب الثقافة أو المدنية، أي في كل جانب من جوانب الحضارة الإسلامية .

والمسألة تكون على الشكل التالي :

- ١٢ -

١ – إحصاء ...
٢ – تخطيط ...
٣ – تنفيذ ...

العملية تبدأ بعملية إحصاء لكل انواع الاختصاصات التي تحتاجها امتنا : اختصاصات في الطيران وصناعته، وفي الذرة وصناعتها، وفي الطب وفروعه، وفي الرادار وفروعه، والمواصلات البرقية والسلكية واللاسلكية وفروعها، وفي الحديث وعلومه، وفي التفسير وعلومه، وفي القرآت وعلومها، وهكذا كل العلوم التي تحتاجها الثقافة الاسلامية، والمدنية الاسلامية حتى تكون حضارة قمة، هذه هي العملية الاولى .

ثم تأتي العملية الثانية : الخطة التي تحقق هذا الموضوع على كل مستوى بالشكل الذي ينسجم مع حاجات الامة ولا يؤدي الى تضخم جانب على حساب جانب، أو ايجاد بطالة لأنواع من المختصين لا حاجة لهم، بعد أخذ الأمة حاجتها ثم يبدأ التنفيذ برجال أكفاء، ومال مناسب، واستعداد ضخم، هذا هو الوضع العادي إذا اردنا تحقيق هذه المقدمة، وهذا هو الهدف الاول من اهداف السياسة التعليمية في الاسلام .

*

إن الشعوب الإسلامية التي تحررت من سلطان الحكومات الغربية الكافرة، لم تستطع حكوماتها الفاسقة حتى الآن أن تؤمن لها اختصاصات كافية، ولم تستطع أن ترفع من مستوى العامل في عمله، مع أن بعضها قد مر على استقلاله عشرات من السنين، ولو بدأ حكامة بمثل ما ذكرناه لكان كل شيء مختلفاً، ولسارت أمتنا في طريقها السليم .

الفقرة الثانية : الشخصية الاسلامية وتفجير طاقاتها والسياسة التعليمية المناسبة لذلك :

— ١ —

إن في الانسان طاقات ، وإن للشخصية الانسانية جوانب : فهناك الجسد وطاقاته ، وهناك العقل وطاقاته ، وهناك النفس والروح وطاقاتها ، وهناك الاستعداد الهائل عند الانسان نحو الخير والشر ، وهناك الطاقة الكبرى عند الانسان لتسخير هذا الكون والاستفادة مما فيه ، وهناك الاستعداد للحياة العملية .

هذه الطاقات في الشخصية الانسانية ، إما أن تطلق في إطارها الصحيح ، أو إطارها الفاسد ، وإما أن يطلق بعضها ويعطل الآخر أو تطلق كلها .

والسياسة التعليمية السليمة هي التي تفجر طاقات الإنسان كلها ، وتفجرها في طريقها الصحيح .

ولا يوجد أبداً نظام يفعل هذا غير الاسلام العظيم :

— ٢ —

في الاسلام (إن لبدنك عليك حقاً) (المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير) ولذلك كلف الأولياء أن يربوا أولادهم على الفتوة منذ الصغر (علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل ومروهم ان يثبوا على الخيل وثباً)

ومن فروض العين في الاسلام أن يتعلم الانسان القتال — كما سنرى — ومن أول شروط القتال أن يكون الانسان ذا لياقة جسمية كاملة .

ففي منهاج إسلامي للتربية والتعليم لا بد أن يوجد منهاج متسلسل ومتدرج لكل ما يخرج جسماً قوياً ، وذلك يكون بإحصاء التمارين التي يحتاجها الجسم ليكون قوياً مقاتلاً . كالجري والقفز ، والسباحة والملاكمة ، والمصارعة والربع ثم يمر الطالب على كل منها بدورة مستقلة ، فإذا ما انتهى من مرحلة الدراسة يكون قد أخذ حظه الكامل من التربية الجسمية ، أما ما نراه الآن من ألعاب رياضية القصد منها مجرد اللهو واللعب وقتل الوقت ، فذلك لا محل له في منهاج إسلامي .

إن ساعة كل يوم للتدريب الجسمي ليست كثيرة في مدارس إسلامية تريد أن تخرج جيلا مقاتلا شجاعاً .

- ٣ -

والعقل عندما لا يعطي مداه في التحليل والتعليل والربط ، وعندما لا يعرّف على الطريق ، وعندما لا ينمي .

والذاكرة إذا لم تنم بشكل دائم ، وإذا لم تحفظ الشيء العظيم الخالد ، فإنها تكون معطلة أو مهملة .

وفي المدارس الحالية تشغل الذاكرة بحفظ التافه من الأدب دون العظيم الخالد ، ويلقن الطلاب ألا يحفظوا فتضعف ملكات الحفظ عندهم ، ويدرسون الرياضيات والعلوم مبتورة عن تطبيقاتها العقلية في الوصول إلى الله ، فيبقون العقل في اطار من النظر المحدود .

أما في منهاج إسلامي فاننا نعلّم العقل وننميه ، ونعلّم الذاكرة وننميها ، ونطلق العقل فيما تعلّم حتى يصل الى مداه النهائي الذي من أجله كان .

وروح الانسان وقلبه كالجسد تماماً ، من حيث احتياجهما للغذاء المناسب لهما، من حركة وذكر وعبادة ، ولذلك فرضت الصلاة في الاسلام ، وندب الذكر وقيام الليل ، ونفس الانسان فيها نوازع كثيره من الهوى ، فتحتاج الى ضبط ومن ثم كان الصوم .

ففي منهاج تعليمي اسلامي لا بد أن تعطى روح الانسان وقلبه ونفسه حاجاتها ، وهذا لا يكون إلا بأن يكون الطالب في جو مناسب كل يوم .

في نظام تعليمي حالي تجد الطالب يقضي وقتاً معيناً داخل المدرسة ثم يخرج وقد انقطع عن كل ما له علاقة في المدرسة أو في جوها ، أما في نظام تعليمي اسلامي فانه يراعى ان يكون الجو الذي يعيش به الطالب منسجماً مع تعليمه ، فيبحث هل الطالب ملتزم مسجد حيه ، وملتزم صحابة الخير ، وهل له اتجاهات تردي قلبه وروحه ، فالطالب في منهاج إسلامي يرسم له طريقه داخل المدرسة وخارجها ، ويطالب فيه وبمقتضياته ، وبما يثبت ذلك في الداخل والخارج ، ان الشهادة على سلوك الانسان بمقتضى علمه ، هي التي ينبغي أن تؤهل الانسان للنجاح في مرحلة الطلب .

إن شهادة إمام المسجد لطالب بأنه يداوم على المسجد ، وشهادة أهل الحي على استقامته – والعقاب على من يكذب من هؤلاء – لا ينبغي أن تقل أبـــداً عن شهادة المدرسة في حسن سلوكه .

إن تهذيب نفس الانسان ، والارتقاء بقلبه وروحه وإيمانه ، أشياء أساسية في نظام اسلامي للتعليم ، أما إذا كان العالم لا يفعل هذا فلأنه كافر ونحن مؤمنون ، ولأن دينه باطل ونحن أصحاب الدين الحق .

– ٥ –

وأخلاق الإنسان كثيرة متشعبة ، وقد تنحرف هذه الأخلاق عن طريقهـــا المستقيم ، فينقلب التنافس الى حسد ، وقد تموت بعض الأخلاق الحسنة لعدم التنمية ، وقد تنمو الأخلاق المنحرفة للسير فيها .

وفي منهاج للتعليم في الاسلام لا بد من تحليل لكل خلق يمكن أن ينمو في الانسان ، ورده الى طريقــه الصحيح على أساس اسلامي خالص إذ الاسلام وحده شرح للإنسان طريق الخير وطريق الشر ، بشكل كامل وسليم .

فتدريس الاخلاق ، ومراعاة تطبيقها ، وحساب الانسان عليها علماً وسلوكاً ، داخل الدراسة وأثناءها ، أو خارج ذلك ، شيء أصيل في نظام تعليمي اسلامي .

– ٦ –

وتنمية ملكات الانسان العملية من أجل تسخير الكون ، والانخراط في سالك الحياة اليومية ، شيء لا بد منه في نظام التعليم . فمعرفة الكون ، ومعرفة طرق الاستفادة منه ، وكيف يستفيد الانسان من كل جانب فيه ، ثم دفع الانسان في الحياة العملية واجب تعليمي ، وفي عصرنا انظمة التعليم تدرس جوانب من الكون مبتورة عما يمكن الاستفادة منها ، فلا يتخرج الطالب بروح عملية ، وخبرة عملية .

إن هذا ينبغي ان يتلافى في منهاج إسلامي للتعليم ، حيث تقـــدم للطلاب الدراسات النظرية ، والتطبيقات العملية ، ويفرض على الانسان ان تكون له مشاركة عملية حياتية في شيء من شؤون الحياة ، أو مهنة من المهن .

إن من الأشياء القاتلة في عصرنا أن يتخرج الطالب وهو عاجز عن كسب قوته إلا عن طريق وظيفة حكومية ، فلا بد من حل لهذه المشكلة عن طريق فرض تعلم مهنة ، فذلك أساسي في التربية الاسلامية ، إذ يقول الخليفة الراشد :

(إني لأرى الرجل فيعجبني فأسأل هل له حرفة فإن قيل لا سقط من عيني) .

ولا يسقط من عين الخليفة الراشد إلا انسان ناقص التكوين العملي . ويقول عليه الصلاة السلام : (إن الله يحب العبد المحترف) .

وإعطاء صورة عن الخير والشر في كل شيء ، وجعل الانسان في دائرة الخير وإبعاده عن دائرة الشر ، وجعله في بيئة خيرة يعيش فيها ، وتفجير طاقات الخير عنده ، شيء اساسي في منهاج تعليم وتربية اسلاميين .

- ٧ -

ولتحقيق هذه المعاني كلها لا بد من :

١ ـ ايجاد المناهج الدراسية المناسبة لهذا كله ...

٢ ـ جعل المدرسة مسؤولة عن الطالب داخلها وخارجها ...

٣ ـ ربط الطالب ببيئة صالحة خارج المدرسة ...

٤ ـ ربط الطالب في المسجد وببيئته ...

٥ ـ جعل بعض الدروس في المسجد والزام الطالب بحضورها ...

٦ ـ إقامة دورات سنوية تحدد مدتها تكون مليئة بالوعظ والارشاد ، والمناقشة الصالحة ، واستخراج خبايا النفوس السيئة واصلاحها ، والعبادة من صلاة جماعة لذكر لقراءة قرآن ، لقيام ليل لصيام ، والتدريب الرياضي والعسكري ...

٧ ـ الفرض على كل طالب أن يتعلم مهنة ويتقنها ، حتى يأخذ شهادة بذلك من الاختصاصيين فيها ...

٨ ـ تخصيص وقت يومي للتدريب الرياضي لكل الطلبة عدا عن التدريب الخاص في دورات ، وقد تتحقق هذه المعاني بأشكال كثيرة ، والمهم هو أن تتحقق سياسة الاسلام في هذا الموضوع بتفجير كل طاقة من طاقات الانسان في اطارها الصحيح السليم ، حتى لا تبقى طاقة معطلة ، أو طاقة تسير في غير طريقها السليم .

الفقرة الثالثة : العلم والتكليف في الاسلام والسياسة التعليمية المنفذة لذلك ...

- ١ -

العلم في الاسلام بعضه فرض عين ، وبعضه فرض كفاية ، وبعضه واجب ، وبعضه مسنون ، وبعضه مباح ، وبعضه مكروه ، وبعضه حرام .

والانسان قبل البلوغ لا يكون مكلفاً وإنما يبدأ تكليفه بعد البلوغ ، فمرحلة ما قبل البلوغ هي مرحلة الإعداد لتحمل المسؤولية ، والسياسة التعليمية في الإسلام ينبغي أن يلاحظ فيها مرحلة ما قبل البلوغ وطبيعتها ، ومرحلة ما بعد البلوغ وطبيعتها ، كما ينبغي أن نقدم للإنسان فروض العين ، ونجعله مختصاً بفرض من فروض الكفاية ، ونقدم له العلم المفروض والواجب والمسنون والمباح ، ونبعد الإنسان عن العلوم المكروهة أو المحرمة .

- ٢ -

قال الفقهاء : (واعلم أن تعلم العلم يكون فرض عين ، وهو بقدر ما يحتاج لدينه ، وفرض كفاية وهو ما زاد عليه لنفع غيره ، ومندوباً كالتبحر في علم الفقه، وعلم القلب ، وحراماً كالشعوذة والتنجيم والرمل والسحر وعلم الموسيقى ، ومكروهاً كأشعار المولدين من الغَزَل والبطالة ، إلا الحاجات بلاغية علمية ، ومباحاً كأشعارهم التي لا سخف فيها .

وقد مر معنا في الفقرة الأولى ما له علاقة بفروض الكفاية ، أما فروض العين التي يطالب كل مسلم بتعلمها فيدخل فيها أشياء كثيرة يجمعها اصلان : معرفة حق الخالق ، ومعرفة حق المخلوق على مقتضى الشريعة .

ويدخل في ذلك معرفة الله والرسول والاسلام ، ويدخل في ذلك معرفة الطريق لإصلاح القلب والنفس وتزكيتها ، ويدخل في ذلك تعلم الفقه المحتاج إليه الانسان، كفقه الطهارة والصلاة والزكاة لمن يملك نصاباً ، والصوم والحج لمن له قدرة عليه ، والنكاح والطلاق لمن اراد الدخول في الزواج ، والبيوع لمن يشتغل بها ، وكل من اشتغل بشيء وجب عليه علمه ، لأن علم الحلال والحرام من العلوم المفروضة

على الانسان ، ويدخل في ذلك علم الاخلاق محمودها ومذمومها، كالرحمة ، والاخلاص، وكالحسد ، والغل ، ويدخل في ذلك معرفة نواقض الاسلام والشهادتين ، ويدخل في ذلك معرفة النواحي الاساسية في التربية الاسلامية بحيث يكون الانسان فرداً في حزب الله ، ويدخل في ذلك تعلم القتال على الرجال والنساء [1] كل بحسب حاله ، لأن القتال يكون أحياناً فرض عين ، ولا قتال إلا بعلم وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ويدخل في ذلك أن يعرف الانسان حداً أدنى من السيرة وحياة الصحابة ويدخل في ذلك معرفة تجويد القرآن لمن يقرأ ويدخل في ذلك التعرف على أحوال المسلمين بقدر المستطاع ويدخل في ذلك علم رد الضلالات المكفرة المنتشرة .

وعلى هذا فالسياسة التعليمية في الاسلام مهمتها أن تخرج إنساناً أتقن فروض العين علماً وسلوكاً .

* * *

وأما العلم المسنون فهو التبحر في العلوم المفروضة فرض عين ، على كل إنسان على أن لا يؤثر المندوب على الفريضة ، وليس كلا منا في أن يكون هنالك اختصاصيون في كل علم ، فهذا فرض كفاية . فمثلاً : حفظ القرآن فرض كفاية ولكن حفظ بعضه مما يلزم للصلاة فرض عين ، وحفظه جميعاً سنة عين وتعلم جزء من الفقه مما يلزم الانسان فرض عين ، والتبحر في ذلك سنة أما أصل علم الفقه فيجب أن يختص به ناس وهو من باب فروض الكفاية .

وعلى هذا فالسياسة التعليمية ينبغي أن يراعى فيها تحقيق السنة مع الفرض ، على اعتبار أن الفرض لا يكمل إلا بسنة ، فالسنة هي تكميل الفرض في محله، وهي بمثابة السياج الذي يحمي الفرض ، فإتقانها دليل على إتقان الفرض ، ولكن إهمالها يخشى فيه أن يكون سبباً في نقصان الفرض نفسه .

— ٣ —

وأما العلوم المحرمة والمكروهة :

فيدخل فيها تعليم الموسيقى ، والنحت ، والتصوير إذا كان لحي" ، أما الخط الجميل فذلك مندوب أو مباح ، وصور الطبيعة من شجر وجبل وشمس مباح .

---

(١) نقل لي بعضهم أن شيخنا محمد الحامد رحمه الله كان يرى تعليم المرأة القتال على ان يتولى تعليمها ارحامها أو نساء أما في وضعه الحاضر فلا

ويدخل في ذلك إبراز تاريخ الكافرين بشكل يمجدهم أو يحببهم ، ويدخل في ذلك تدريس الفلسفات الضالة ، والنظريات المنحرفة الحدسية وإعطائها صفة القطعية .

ويدخل في ذلك دراسة الأدب الخليع الماجن ، أو الكافر الفاسق ، دون توهين أمره وإضعافه .

ويدخل في ذلك تدريس ما يتنافى مع الاسلام ، وإعطائه صفة الدعوة أو العقيدة ، كتدريس الفكر القومي لتأكيد عصبية ما ، أو لتكريه شعب مسلم بآخر .

ويدخل في ذلك تدريس بعض العلوم من غير وجهة النظر الاسلامية ، كأن يدرس التاريخ بوجهة نظر كافرة أو ملحدة .

ويدخل في ذلك تدريس العلوم التي تثير شكوكاً ، أو تؤكد شكوكاً ، أو يدرس الانسان شيئاً من وجهة نظر كافرة ، واعطاء ذلك صفة المسلمات ، ويدخل في ذلك دروس الرقص ، ويدخل في ذلك اللهو واللعب ، مما لا يعتبر من الرياضة الاسلامية وعلى هذا تراعى هذه القضايا كلها في السياسة التعليمية .

فلن يكون عندنا دروس موسيقى ، ولا دروس تصوير حيّ ، ولن يؤلف في أي علم من العلوم إلا مسلم مختص ثقة في دينه ، ينظر الى الامور كلهـا من وجهة النظر الاسلامية البحتة .

ولن يكون عندنا كليات للفنون الجميلة ... التي تعتبر تصوير الاجسام العارية جزءاً من برامجها .

- ٤ -

وأما العلوم المباحة فكل علم ليس له صفة مما مر يكون مباحاً ، مع ملاحظة أن وجود المختصين في كل علم فرض كفاية ، أما بالنسبة لغير المختصين فيكون تدريسها مباحاً . ويدخل في ذلك الحساب والجبر والهندسة لغير المختصين ، أو من يلزم له شيء من ذلك لعمله ، ويدخل في ذلك معرفة قوانين هذا الكون ومظاهره وأحواله ، ودراسة أحوال البلدان المختلفة من وجهة النظر الاسلامية ، ويدخل في ذلك دراسة الظواهر الاقتصادية ، والظواهر الاجتماعية ، على شرط أن يقتصر فيها على الوصف ، فإذا وصلنا الى التعليل حرم أن يكون التعليل متناقضاً مع التعليل الاسلامي ، ويدخل في ذلك دراسة الأدب نثراً وشعراً إذا كان من النوع الرصين .

ولا بد هنا من ملاحظة ناحية مهمة هي أن لا يكون تعلم هـذه العلوم على

بحساب تعلم العلوم المفروضة فرض عين أو المسنونة والمستحبة .

والإنسان عندنا يمر بمرحلتين : مرحلة ما بعد البلوغ ، ومرحلة ما قبلها ، والمقصود بالبلوغ أنه بلغ مبلغ الرجال ، والبلوغ عادة يكون إما بالسن أو بالاحتلام ، فإذا احتلم الإنسان فإن ذلك علامة بلوغه ، أو حاضت الأنثى فذلك علامة بلوغها ، وإذا لم يحدث هذا وذاك فمتى بلغ الإنسان الخامسة عشرة سنة قمرية فقد أصبح بالغاً ، وصار مسؤولاً أمام الله عن أعماله .

فالمرحلة الأولى إذن مرحلة إعداد لتحمل المسؤولية ، ولا يكون الإنسان بها مكلفاً لأنه لم تكتمل محاكاته للأمور .

وعادة تكون ملكات الإنسان للحفظ في هذه المرحلة نشيطة ، واستعداداته العلمية كبيرة جداً ، أما المرحلة الثانية فتكون استعداداته العملية أكبر ، وذلك من حكمة الله فيه لاحتياجه في المرحلة الأولى للعلم ، وفي الثانية لشق طريق الحياة الدنيا إلى الآخرة .

- ٦ -

والمرحلة الأولى ينبغي أن يعطى الإنسان فيها كل ما يلزمه لتحمل مسؤولية نفسه ديناً ودنيا ، ويعوّد على ذلك تعويداً عملياً ومن ثم كان الأمر بالصلاة .

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع) ...

وكان الأمر الراشد :

(علّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل ومروهم أن يثبوا على الخيل وثباً) ...

ومن ثم قص علينا القرآن وصايا الآباء للأبناء :

« ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنِيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ...

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم

فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يا بني إنها إن تك مثقالُ حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات او في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » ...

ومن ثم نرى الرسول عليه السلام لا يترك الطفل على خطئه بل يقول له :
(يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك) ...

ويوصي ابن عباس :

(يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تُجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبة الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف) ...

ومن ثم كان الصحابة خلال المرحلة الأولى يحفّظون أبناءهم القرآن ، ويقرؤونهم إياه ، ويعلمونهم المغازي والسير .

وعلى هذا فالسياسة التعليمية في مرحلة ما قبل البلوغ ينبغي أن تراعى فيها هذه الجوانب ، وهي اعداد الطفل لتحمل مسؤولية ما بعد البلوغ فيحفظ من كتاب الله ، ويعرف العقيدة والأخلاق والفقه ويُحفّظ من السنة ، هذا عدا عن تربية جسمه ، وتنمية ملكات الشجاعة والبطولة عنده ويُعَرّف على ما يعتز به من تاريخ ، ويعرّف على المسلمين وعالمهم ، ويعرف الكون حوله تعريفاً إسلامياً ، ويعوّد على الجوانب العملية التي تلزمه ، سواء كانت دينية أو دنيوية وتهيأ له الأجواء المناسبة للتطبيق العملي ، ويتعاون مع أسرته في هذا ، ويربط في المسجد والبيئة الصالحة ، ويلاحظ تطور سلوكه وانسجامه ، ولا يسكت على خطأ صدر منه .

- ٧ -

ونقترح لتحقيق كل ما مر في هذه المقدمة أن يكون التعليم عندنا على مرحلتين المرحلة الأولى : وتكون لصياغة الشخصية الإسلامية ، وللتحقق بفروض العين

وسننها ، وتنقيح الذهن وتنمية الجسم ، والتعود على الكفاح والجهاد .

والمرحلة الثانية تكون خاصة بالاختصاص والثقافة الإسلامية ، وعلى هذا فإذا ما انتهى الإنسان من المرحلة الأولى ونجح فيها عملياً وسلوكياً ، أسرياً ومسجدياً ، نظر إلى أي اختصاص يمكن أن يتجه اليه مما يلائم وضعه وشخصيته ويتفق مع حاجات الأمة .

فإذا ما وجه إلى اختصاصه أعطي كل ما له علاقة به مع دروس الثقافة الإسلامية : الأصول الثلاثة الكتاب – السنة – العقائد – الفقه – الأخلاق العربية وفروعها ، من أدب اسلامي ، وبلاغة ، ونحو وصرف ، وإملاء ومفردات وعروض – حاضر العالم الإسلامي – التاريخ الإسلامي – أعداء الاسلام والمتآمرين عليه ...

الدراسات المعاصرة للإسلام ، والهدف هو أن يوجد الانسان الذي تحقق بفروض العين واختص بفرض من فروض الكفاية ...

الفقرة الرابعة : الإنسان ذكر وأنثى والسياسة التعليمية المنمية لرجولة الذكر وأنوثة الأنثى ...

قال تعالى على لسان أم مريم « وليس الذكر كالأنثى » ...

مر معنا في الفصل السابق ما تتميز به المرأة عن الرجل ، والآثار الفطرية والعقلية لذلك ، ورأينا كيف أن الاسلام أخذ بيد الانسان في هذا الموضوع الى كامل ما تقتضيه الفطرة ، ويقتضيه العقل المجرد عن الهوى ، ولا شك أن نظام التعليم عليه أن يراعي هذا الوضع ، ومراعاة هذا الوضع تكون :

١ – بإيجاد مناهج خاصة لدراسة المرأة .

٢ – بنوعية التأهيل الذي تؤهل له المرأة .

٣ – بتخصصها في بعض الجوانب المناسبة لها .

٤ – فالمناهج الدراسية المرأة يراعى فيها تعليمها التكليف المناسب لها ، كما يراعى فيها تعليمها الكتابة ، كما يراعى فيها تعليمها كيف تكون زوجة صالحة ، وأمّاً صالحة ، ومربية صالحة ، وربة بيت صالحة ، كما تنمى عندها الملكات الأنثوية من

العفة والحياء والبعد عن مواطن الشبهات إلى معاني الشرف والكرامة ، هذا هو الشيء الأساسي في تعليم المرأة : أن نؤهلها لتكون امرأة صالحة مسلمة وزوجة وربة بيت .

ثم هناك قضايا من التخصص تليق بالمرأة ، فتطبيب النساء وتمريضهن ، والخياطة النسوية ، وبعض أنواع الانتاج البيتي ، وتعليم البنات ، وأمثال ذلك كله أولى به المرأة ، فالسير بالمرأة في هذا الطريق مهم إذا لم يؤد ذلك إلى الاخلال بواجباتها الاسلامية .

ونتيجة لهذا فإننا نرى ما يلي :

أن تكون عندنا مرحلتان في تعليم البنات :

١ – المرحلة الأولى : وتنتهي بأدنى سن البلوغ لا تتعلم فيها المرأة إلا ما له علاقة بشأنها كامرأة : التكاليف المكلفة بها ، شؤون البيت – شؤون الطفل – شؤون الزوجية – ويركز في هذه المرحلة على تعليمها الكتاب والسنة لقوله تعالى : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » فتكثر في هذه المرحلة دروس القرآن ترتيلاً وتفسيراً وحفظاً ، وتكثر دراسة السنة ، فلا تمضي هذه المرحلة إلا وقد أحسنت المرأة قراءة كتاب الله وفهمته ، وحفظت الكثير وقرأت كتاباً من أمهات كتب الحديث الكبيرة المتعددة ، وهذه المرحلة هي التي ينبغي ان تنتهي عندها دراسة المرأة في الأحوال العادية .

وذلك لأن مجرد خروج المرأة من بيتها ، واعتيادها على الخروج اليومي ، يؤثر تأثيراً ما على وضع أنوثتها .

٢ – المرحلة الثانية : وهذه لا تكون إلا لبعض النساء وضمن شروط كثيرة ، وفي حدود حاجات الأمة ، وذلك أن هناك أموراً أليق بالنساء : كتطبيب النساء للنساء ، وتمرين النساء للنساء ، وتعليم النساء للنساء . أمثال هذه القضايا تحصى ويحصى كم يحتاج اليها من نساء ، وعلى قدر الحاجة يختار ممن تجاوزت المرحلة الأولى أن تتخصص في جانب من هذه الجوانب بالشروط الشرعية من ستر وحجاب الى غير ذلك .

★ ★ ★

ولا بد هنا من الاشارة إلى شيء هو أن المرأة المسلمة خلال العصور كانت

تتلقى علماً وقد نبغت مسلمات كثيرات في الفقه والحديث والأدب ، ولم يكن المكان الذي نمّى نبوغهن غير بيوتهن ، ولعل أعظم شاهد على ذلك واقع شنقيط البلد الاسلامي حيث تجد في كل بيت مجموعة عالمات ، قد يفقن الرجال ، ولا زال كبار شيوخهم يذكرون انهم أخذوا بعض العلوم عن عماتهم ، او أخواتهم ، او خالاتهم ، فدل هذا على أنه لا يشترط لتعلم المرأة ونبوغها أن تخرج خارج بيتها ، إلا اذا اعتبرنا النبوغ أن تتعلم المرأة ما لا يليق بأنوثتها ، وهذا لا يقول به إلا مراهق الفكر ، منحرف الفطرة ، عتيق العقل ، إذ ما من مرة تسير المرأة في طريق لا يناسب أنوثتها ، إلا كان ذلك على حساب الرجل ، وعلى حساب الأسرة ، وعلى حساب التخصص ، ومن الآن نرى رجالاً يعملون داخل بيوتهم ونساءهم يعملن خارج البيوت .

* * *

إن صناعة الرجال أكرم من كنس الطريق ، وأكرم من صنع القنبلة الذرية ، ونحن نريد المرأة التي تحسن صناعة الرجال أولاً ، وقبل كل شيء ، ولن يوجِد هذه المرأة إلا تعليم صالح ، ومنهاج صالح ، ونظام صالح ، ومعلمات صالحات . ولا يكون هذا إلا بإحداث تغيير كامل في أسلوب تعليم المرأة ، وفي طريقته ، وفي حدوده ، ولن يفيدنا هذا شيء إذا كانت الطبقة التي تمارس تعليم المرأة فاجرة داعرة كافرة ، فلا بد من إيجاد او اختيار الجهاز الذي يرتب أمر تعليم المرأة وتربيتها .

وشيء عادي بعد هذا كله أن يُنْسَفَ جهاز تعليم المرأة الحاضر من أساسه ! إذ لا يصلح منه إلا القليل والقليلات .

الفقرة الخامسة : التكامل في بناء الشخصية ، والسياسة التعليمية المناسبة ، من أجل إخراج الإنسان من كل تناقض .

يلاحظ الآن على مناهج التعليم جميعاً تناقضها مع بعضها ، وفي البلاد الاسلامية يزيد الأمر سوءاً بتناقضها مع الاسلام ، ونحن الآن نتكلم لبلاد الاسلام ، ففي بلاد الاسلام تقدم المناهج تناقضات كثيرة :

أولاً : من حيث تقديمها نظريات على انها حقائق علمية ، مع انها ما خرجت عن كونها فرضيات .

ثانياً : من حيث تقديمها نفياً وإثباتاً للقضية الواحدة في منهاج واحد . فنجد كتاباً في مرحلة يرفض موضوعاً وينفيه ، وكتاباً آخر يثبته ويؤكده .

ثالثاً : من حيث تضخيمها جوانب من الثقافة التافهة ، وإضعافها جوانب مهمة ، فيتفه الشخص نتيجة لذلك .

رابعاً : أن مناهج التعليم لم تصغ صياغة اسلامية كاملة ، بحيث تخرج المناهج من مشكاة واحدة تتفق مع عقيدة المسلم في كل مراحل التعليم .

خامساً : لا يختار الاساتذة المتفقون في العقيدة الصالحة ، والنوعيـة الطيبة ، وهذا مهم جداً . ففي الحديث : (اتفقا ولا تختلفا فتختلف تربيتكما) فعدم اختيار الأساتذة ، وعدم إحسان صياغتهم ، وتولي التعليم من هب ودب ، كل ذلك أدى الى إيجاد تناقضات في شخصية الطلبة .

سادساً : لم تصغ المدرسة ومكتبتها صياغة تتفق مع الخط الاسلامي مما أدى الى أن تكون المدرسة عنصر تهديم ، وأن تكون مكتبة المدرسة أداة تهديم بوضعها كتب التهديم بين يدي الطلاب .

وهذا كله لم يكن عفوياً بل كان بتخطيط خفي خبيث ، حتى أن بعضهم قام بعملية تتبع لأحوال بعض وزراء التعليم في بعض البلدان الاسلامية ، فوجد أن سلسلة الوزراء كانت على تسلسل معين ، تنتقل فيها الوزارة من يد نصراني لنصراني لملحد لفاسد لمستغرب ، فكأن هناك اتفاقاً على بعض المضامين عند من كان بيدهم الامر ، ولا شك أن منهاجاً اسلامياً عليه أن يلاحظ هذا كله .

وعلى هذا فالسياسة التعليمية الاسلامية ينبغي أن تتجه في هذا الموضوع الى ما يلي :

١ ـ الى ايجاد المناهج التي تضع الامور في مواضعها فلا تتناقض ولا تتهافت ، وتضخم ما يستحق التضخيم ، وتصغر ما يستحق التصغير ، وكل ذلك من وجهة النظر الاسلامية الخالصة .

٢ ـ ألا يستلم أمر التعليم إلا عناصر من نوعية صالحة معينة وأمينة منتقاة مرباة ، حريصة على الخير خاضعة لمناهج خاصة ، عملية ، وعلمية ، وروحية ، وسلوكية .

٣ – أن تصاغ المدرسة والمكتبة بشكل إسلامي خالص .

أو تقول بشكل آخر إننا نريد شخصية اسلامية متكاملة ، وهذه الشخصية لن تتم إلا بوجود مدرسة إسلامية خالصة ، ومكتبة إسلامية خالصة ، ومنهاج إسلامي خالص ، ومعلم ومدرس اسلاميين خالصين ، وإدارة اسلامية خالصة ، بحيث لا يحس الانسان بشيء من التناقض ، وبحيث يكمل الشيء الشيء الآخر . فجزء المنهاج يكمله الجزء الآخر ، والمنهاج يكمله المدرس ، والمكتبة تكمل عمل هذا وهذا ، والمدرسة والادارة تصهر ان الشخصية صهراً لتخرج ذهباً .

تعقيب حول أجهزة الاعلام في نظام اسلامي خالص ...

المسجد والمدرسة وأجهزة الاعلام كلها لها مهمة واحدة ، إيجاد الرجل المسلم ، والأمة المسلمة تتعاون مع بعضها على هذا مع زيادة تقوم بها أجهزة الاعلام هي إظهار فكرة الأمة على غيره عالمياً ، وعلى هذا فإن اهداف النظـام التعليمي والاعلامي في داخل الدولة الاسلامية واحدة ، ويبقى هدف آخر خارجي لجهاز الاعلام هو أن ينتقد ما عليه نظام العالم من جاهلية في كل قطر على حـدة . في عقائدها وعباداتها ، وأخلاقها وسلوكها وسياستها ، وتوهين أمر ذلك كله ، ويخاطب كل ناس بلغتهم ، ويستعمل لذلك كل ما يلزم من اساليب الدعوة والتأثير ، هذا مع بيان الحق الذي عندنا ، حتى تقوم الحجة على الناس .

ولعلّ أخطر قضية يواجهها جهاز الاعلام الاسلامي هو محاولة الوصول الى الناس دون النزول على مراد أهوائهم وشهواتهم وغرائزهم ، بل يحاول رفعها الى مستوى الاسلام ، وهذا يحتاج الى عقول عبقرية تحسن أن توجد الصيغة المناسبة الحلال ، لاستعمال الصوت الحسن ، والصيغة المناسبة لجذب قلوب الناس وعقولهم ، والصيغة المناسبة لصرف الناس عن الهوى الماجن الكافر الفاسق .

وقد تلجأ الدولة الاسلامية في اول أمرها الى عملية فطام لشعبها فلا تسمح لصوت يصل الى اذن واحد من رعاياها إلا بإذنها

وهذا لا يتأتى الا بثقة واقتناع كاملين تامين ، بين الشعب وحكومته الاسلامية البارة المنبثقة عن صلاحه .

إننا لا نرى حرجاً أن تصادر الراديوات والتلفزيونات التي تستعمل استعمالاً

سيئاً وأن تقيد المحلات العامة كالمقاهي والنوادي فلا تفتح إلا على إذاعات الأمة وبرامجها بالاتفاق مع الشعب كله وقد يكون في هذا صعوبة ولكن يبدو انه لا بد منه لأسباب كثيرة منها :

١ – كي تتخلص الأمة في المرحلة الأولى من الدعاية المعاكسة ومن التضليل المتعمد.
٢ – كي تتخلص الأمة من مرحلة التمييع الناتج عن اجهزة الاعلام الفاسقة المنتشرة.
٣ – كي لا تقع الأمة في أيدي أجهزة التجسس الرهيبة التي تلتقط ما تلتقطه من الخارج .
٤ – كي تحصر جوانب التوجية في إطار واحد وطريق واحد .
٥ – كي لا تستمع الأمة أو بعض افرادها لتشويشات العدو وحملاته ودعاياته القائمة على أخطر وسائل التشويش .

إن الأمة التي تفتح أذنها لأعدائها لا يمكن أن تفلح ، وعلينا أن نكون شجعاناً في هذا الموضوع وفي غيره من قضايا الاعلام :

إننا سنستبدل الغناء والموسيقى الحاليين بالنشيد والشعر الغنائي الخالص في حدود ضيقة .

ولن يكون في أجهزة إعلامنا محل للدعار والفسّاق والملاحدة والراقصين ، ولن نسمح لجهاز راديو أو تلفزيون أن يقتل الأمة ويخدرها ويضللها .

وسنكون على صلة تامة بالشعب بحيث يكون مقتنعاً بهذا كله ومؤمناً به ، ويشعر بما وفرناه عليه من حياة وجد نتيجة لذلك ، وبما حميناه فيه من ضلال .

والمسألة بعد هذا كله اجتهاد ، ولكنه اجتهاد لتحقيق هدف لا بد منه إن لم يكن على هذه الطريقة فعلى طريقة أخرى والله المستعان .

« وإذا جاءهم أمر من الامن او الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى اولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولو لافضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » .

« وفيكم سماعون لهم » .

إننا لن نسمح لأعداء الأمة الاسلامية أن يشوشوا الأمة الاسلامية مهما كلفنا ذلك إذا كان ذلك باستطاعتنا ، والفارق بيننا وبين غيرنا في هذا اننا رجال حق وغيرنا على الباطل .

السياسة العسكرية

لما كانت الدولة الاسلامية مهمتها إخضاع العالم لسلطان الله حتى يصبح العالم كله دار إسلام كما رأينا في بحث (الوطن) ولما كانت الدولة الاسلامية مهمتها اخضاع رعاياها كذلك لسلطان الله ، ولما كان حراماً على الدولة الاسلامية أن تتقاعس عن القيام بأي من هذين الواجبين فانه يفترض عليها نتيجة لذلك أن تعد العدة الكاملة لهذه العملية بحيث تضمن حماية نظامها من غزوات خارجية وحماية نظامها من انتفاضات داخلية وبحيث تضمن عملية التوسع الدائم الذي يتساقط فيه العالم جزءاً بعد جزء لسلطان الله تحقيقاً لأمره :

« قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » ...

ولا يتم هذا إلا :

برجال ، وتربية ، وعتاد ، وأجهزة متخصصة ، وعمل محكم وحكيم ، ومعرفة محيطة بالعدو في الداخل وفي الخارج ، وأخلاقية رفيعة عالية ، ولنر الخطوط العامة لهذا كله في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعمل الأئمة واجتهادهم مع ملاحظة أنه قد مر معنا قضية تعبئة اقتصادنا تعبئة حربية وكتبنا في أخلاق جند الله كتاباً خاصاً هو « جند الله أخلاقاً وثقافة » ولذلك سنكتفي هنا بالاشارة الى بعض الجوانب الآنفة بشكل موجز على الترتيب التالي :

١ – العتاد ٢ – الرجال ٣ – طريقة استعمال القوة ٤ – تربية خاصة ٥ – معرفة العدو وإحكام الأمر ضده .

١ – العتاد ...

قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » ...

هذه الآية شملت إعداد كل ما يمكن تصوره من عدة حرب وقد مر معنا تفسير ذلك في بحث المعجزة القرآنية .

اذ الآية طالبتنا أن نعد جنس ما يرمي به فشملت كل ما يتصوره العقل البشري من أدوات رمي اذ هي داخلة تحت كلمة « من». فالقوة التي فسرها رسول الله ﷺ بالرمي تشمل السهام عندما كان سهام وتشمل المدافع والصواريخ والقذائف والقنبلة الذرية الآن ... فالآية عمت كل أنواع أدوات الرمي .

كما طالبتنا الآية أن نعد جنس ما يربط للمعركة كالخيل فشمل هذا كل الآليات التي تستعمل كأدوات ركوب في الحرب فدخل في ذلك البوارج والغواصات والطائرات والدبابات والمدرعات وكل آلية تركب للحرب فالآية اذن أمرتنا أن نعد كل الآليات التي تلزم للقتال وكل الأسلحة التي لا بد منها لإحراز النصر واظهار التفوق . ويلاحظ أن الآية أمرتنا باعداد ما نستطيع من عدة واذن فالنظام الاسلامي يأمر أن توجه طاقات الأمة كلها نحو تحصيل الامكانيات العسكرية .

كما يلاحظ أن الآية ذكرت سبب هذا الأمر بأنه ارهاب الأعداء وهذا لا يتأتى إلا إذا كنا متفوقين عسكرياً وعتاداً على أعداء الله جميعاً ، ونتيجة لهاتين الملاحظتين فان الأمة الاسلامية يفترض عليها أن تحاول تحصيل أكبر قوة في العالم بحيث ترهب دار الحرب كلها على اختلاف نظمها وهذا لن يتم إلا إذا كنا نحن نصنع قوتنا بأيدينا ، أما اذا كنا نشتري قوتنا من غيرنا فان هذا لن يتحقق لنا أبداً وعلى هذا فان الآية فرضت بمفهومها ومنطوقها على المسلمين :

١ - التفوق العسكري في السلاح والعتاد والآليات قدر الامكان .
٢ - أن تكون عندنا المصانع التي تؤمن هذا التفوق .
٣ - أن توجه طاقات الأمة كلها نحو هذه القضية .

وفي الآية معان أخرى منها أنها ذكرت نظرية القوة من أجل السلام اذ ما لم تكن قوياً فلن تحصل على السلام من الآخرين وهذا واقع وقد أشارت الآية الى ذلك بقولها « ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين » اذ بدون هذه الرهبة سيهاجمونكم ويطمعون فيكم وهذا نذكره استطراداً مع ملاحظة أننا لا نعد العدة من أجل السلام في مفهوم الناس وانما من أجل السلام النهائي للبشر يوم تخضع الدنيا

لسلطان الله ويومئذ يعم السلام العالم .

٢ – الرجال ...

وهذا التفوق العسكري سواء كان آلياً أو غير آلي يحتاج الى رجال مدربين وإلى اختصاصيين أكفاء اختصاصيين بالتدريب واختصاصيين بقيادة الطائرات ، واختصاصيين بقيادة البحرية ، واختصاصيين بإدارة المعارك وتموينها وتنظيمها ، وكفاآت عسكرية مجربة ، وحتى يقوم هذا كله يحتاج الى جهد وإمكانيات ولن يتيسر هذا كله إلا إذا كان الشعب كله محارباً وعلى استعداد للقتال دائماً، ولذلك فقد خاطب الله المؤمنين بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً » ...

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ...

« انفروا خفافاً وثقالاً » ...

ومقتضى هذه الآيات أن على المسلمين جميعاً أن يكونوا محاربين رجالاً ونساء وأطفالاً ، ولذلك كان من سنن الاسلام أن نعلّم أولادنا الرماية والسباحة وركوب الخيل ومن أحكام الاسلام أن المرأة تخرج وتحارب بغير اذن زوجها إذا هوجمت بلادها وكيف تستطيع أن تقاتل إذا لم تكن عارفة أساليب القتال وبهذا ندرك أن الله فرض على المسلمين جميعاً أن يكونوا محاربين ولا تصلح حرب بلا اختصاصيين في أسلحتها وآلياتها وقوتها فيفترض اذن أن يكون المختصون في كل فن من فنون الحرب موجودين ومهيئين .

يقول عليه الصلاة والسلام : « ارموا بني اسماعيل فان أباكم كان رامياً » ... البخاري ...

ويقول : « وارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا ... » أبو داوود ...

ويقول : « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى » ... أخرجه مسلم ...

وهكذا نفهم من مجموع ما تقدم :

١ – أن المسلمين جميعاً كباراً وصغاراً ورجالاً ونساء ينبغي أن يكونوا محاربين.

٢ – وأنه يجب أن يوجد منهم اختصاصيون في كل ناحية من نواحي القضايا العسكرية وآلات الحرب .

٣ – وأنه لا يجوز لهم أن يركنوا أبداً الى السكينة والهدوء بحيث تضعف عندهم الملكات العسكرية .

٣ – طريق استعمال هذه القوة ...

ان هذه القوة هي قوة حزب الله ودعوته ولا يجوز أن تستعمل إلا حيث يأذن الله أي في سبيله والله عز وجل حدد لنا سبيله الذي يجوز أن نستعمل قوتنا نحن المسلمين فيه ، وهذه الحدود هي :

١ – للقضاء على الحروب الداخلية بين المسلمين قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

فاذا ما حدث أن قطرين اسلاميين أو بلدين أو قبيلتين أو فئتين حدث بينهما نزاع تتدخل القوى الإسلامية للصلح فمن رضخ كان بها والا قاتلناه حتى يرضخ للحق وعندئذ يحكم بين الطائفتين المتنازعتين بحكم الله العادل .

٢ – حرب الخوارج : والخوارج هم الخارجون على طاعة الامام الحق بغير الحق ، فأي بلد أو قطر أو حزب أو جماعة أعلنت الثورة على الامام أو أرادت أن تقوم بانقلاب ضده أو أعلنت عدم اعترافها بنظام الحكم وجب على الامام والمسلمين ارجاعهم الى حظيرة الحق ولو بقتالهم .

٣ – حرب المرتدين : واذا كان الخوارج مع بقائهم على الاسلام نحاربهم فمن باب أولى لو ارتد ناس وشكلوا قوة وسيطروا على مكان فان واجبنا أن نحاربهم ونقضي عليهم وحكم المرتد في كل حالة القتل

٤ – حرب قطاع الطريق والعصابات التي تهدد الأمن فهؤلاء الذين قال الله فيهم : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يُصَلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » .

٥ – حرب المنحرفين عن الاسلام فقد نص الفقهاء على أن بلداً لو تركت سنة الأذان قوتلت حتى تعود ولو تركت سنة الختان قوتلت حتى تعود وقد قاتل أبو بكر ما نعي الزكاة فأي بلد من بلاد الاسلام عطل حدود الله أو عطل

أحكامه أو فشا فيه المنكر أو رفض الاعتراف بحاكمية الله كما وردت عن رسوله ﷺ فقد وجب على امام المسلمين والمسلمين قتالها حتى ترجع لأمر الله خاضعة لأحكامه كلها تاركة الحرام مقيمة الفرائض والواجبات والسنن .

٦ – حرب المعاهدين إذا نقضوا عهدهم : فانه اذا سيطر المسلمون على بلد وتعاقدوا مع أهلها أن يكونوا ذمة للمسلمين ، فقد أصبحت هذه البلاد من أرض الاسلام فاذا ما نكثت عهدها فان علينا تأديبها حتى تعطي الجزية عن يد وهي صاغرة .

٧ – الحرب الدفاعية : فاذا ما اعتدي على أي شبر من أرض الاسلام فقد وجب على المسلمين الحرب، بقدر ما يكفي لصد الهجوم وإجلاء العدو فاذا كانت البلاد المجاورة تكفي لصد العدو فرض عليها فرض عين أن تقاتل حتى تجليه واذا كانت لا تكفي وحدها فعلى من بعدها أن يشارك في المعركة حتى تصل الفريضة العينية كل المسلمين إذا كان إجلاء العدو ورد هجومه يحتاج الى قوة المسلمين جميعاً فمثلا فلسطين احتلها اليهود يفترض فرض عين على كل مسلم في البلاد المجاورة أن يدخل المعركة لاستردادها فاذا كان سكان البلاد المجاورة لا يكفون امتد فرض العين الى من بعدهم وهكذا فأي شبر من أرض الإسلام اعتدي عليه يمكن أن يؤدي هذا الاعتداء الى حرب شاملة لا يبقى معها مسلم في حالة سلام .

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ...

٨ – الحرب الجهادية : يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » ويقول : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ...

وبهذه الآيات وغيرها فقد افترض على المسلمين أن يكونوا في حالة حرب دائمة مع دار الحرب ما داموا يستطيعون حتى يخضعوا دار الحرب بلداً بلداً لسلطان الله فلا تبقى بعد ذلك فتنة معنوية ولا حسية يفتن بها المسلم عن دينه وذلك مقتضى قوله تعالى :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » ...

فكم تحتاج هذه القضايا كلها الى قوة وعتاد ورجال ، ولا ننسى كذلك أننا

نحتاج الى هذه القوة من أجل فرض هيبة الحكم الإسلامي ليسهل تنفيذ أحكام الاسلام وحدوده دون خوف ولا حيطة ولا مراعاة لأحد .

٤ – تربية خاصة ...

إن هدف القتال في الإسلام يختلف عن أهداف أي نظام آخر من صنع البشر فالناس يقاتلون من أجل المجد أو القوم أو الوطن أو العنصرية أو الحكم أو الاستعلاء أو الجنس أو اللون أو المال أو المصلحة أو المنفعة أو الكرامة أما المسلم فلا يجوز أن يقاتل الا من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا فهو إن دافع عن وطنه فلهذا وان دافع عن كرامته فلهذا وان دافع عن حكومته فلهذا فمحور القتال في الاسلام الذي لا يجوز أن يدار القتال على غيره هو هذا « حتى تكون كلمة الله هي العليا » يقول عليه الصلاة والسلام : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وينتج عن هذا أن التربية التي يرباها المسلم المقاتل – وعلى كل مسلم أن يكون مقاتلا – تربية خاصة تنسجم مع هذا الهدف وتختلف نتيجة لهذا اختلافاً جذرياً عن أي تربية أخرى تنشأ عليها الجيوش عند غير المسلمين اذ نجد الجيوش الكافرة تغرس فيها قضية الاقتناع بالقتال من أجل مصلحة الوطن أو رفعته أو مجده ... ويدفعون الى القتال بوسائل الإغراء المادي أو المعنوي الكاذب من تمجيد وتفخيم وتخليد ذكرى إلى آخر ما يفعلون ، أما بالنسبة الى الجيش المسلم فالمسألة من الأساس تختلف ولهذا فوسائل تربيته تختلف وهذه هي الخطوط العامة لأسس تربية المقاتل في الإسلام :

١ – تربيته على الطاعة والانضباط والتنفيذ ضمن حدود الحق يقول الله تعالى: « ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » ...

وهذه الطاعة في السر والعلن : « ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

وهي طاعة تامة في كل حالة :

« بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمكره والمنشط ...»

وهذه الطاعة انما تعطي لأمير المؤمنين أو من ولاه أمير المؤمنين على بعض الشؤون على شرط ألا تستعمل هذه الطاعة ضد أمير المؤمنين نفسه وعلى شرط أن تكون طاعة في المعروف :

« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » أخرجه الخمسة ...

ويقول عليه الصلاة والسلام : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني » . أخرجه الشيخان والنسائي ...

وقال عليه الصلاة والسلام : « من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله » . البخاري ...

وعلى هذا قال فقهاء المسلمين ان طاعة الامام فريضة في المعروف حتى لو أمرك بمباح فيجب عليك طاعته .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن الجندي المسلم يربى على أن طاعته لأمير المؤمنين أولا وطاعته لأميره المباشر ثانياً نيابة عن أمير المؤمنين فاذا ما أراد أميره المباشر أن يثور ضد أمير المؤمنين أو يستعمله في هذا الطريق حل للمسلم قتله : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه» أخرجه مسلم .

٢ — تربيته على الثقة بأن الأجل محدود وأن القتال أو السلام لا يؤخر أجلا ولا يقدم وأن ما قدر الله لك من عمر فلا بد أن تستوفيه :

« ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون النـــاس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

« الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم

الموت ان كنتم صادقين » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الأرض او كانوا غزّىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت » .

٣ – أن يربوا على الاعتقاد بأن النصر من عند الله وأنه ليس بكثرة عدد وعدد:

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وهذا لا يعني ان لا نعد كل العدة بل إن علينا ان نعد، وعلينا كذلك ألا نعتمد إلا على الله : « ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلن تغن عنكم شيئاً » .

ومقتضى ما مر ان نعرف اسباب نصر الله عباده فنتحقق بها وأول ذلك ان يكون القصد نصرة الله باعلاء كلمته :

« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » .

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور».

٤ – ان يربوا على حب الموت لأن الآخرة خير من الدنيا ولأن القتل في سبيل الله حياة :

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون » .

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

٥ – ان يربوا على ازدراء العدو مع الحذر منه بآن واحد فلا يبالون بعدته ولا عدده مع اخذهم كل الاحتياطات : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » . « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون وأعدوا لهم ما استطعتم » ...

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ...

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف، صدور قوم

مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم »...

٦ - أن يربوا على إفراد النية في القتال لله وحده :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتَلْ أو يَغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً. ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ».

٧ - أن يربوا على عدم قبول الشائعات وعلى ردها وعلى إبلاغ أمر صاحبها إلى الأمراء ومعاقبة أصحابها :

« لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا. ملعونين أينما ثُقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا »...

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلا »...

٨ - أن يربوا على الاحتراس من قتل المؤمن إلا إذا كان باغياً يستحق القتل ومحبة قتل الكافر :

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيراً »، « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض »، « لا يجتمعان في النار مسلم قتل كافراً ثم سدد وقارب » رواه مسلم...

٩ - التربية على الاستمرار في المعركة وتحمل لأوائها وعدم الميل الى التراخي مع العدو :

« ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً »...

« ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم »...

١٠ – التربية على عدم الفرار والثبات حتى النهاية :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » ...

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله » ...

١١ – التربية على محبة الجهاد بحيث يكون أحب من المال والولد والأهل :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » ...

١٢ – التربية على العفة عن الأموال إلا بإذن الامام فيما شرع الله له :

« يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » ...

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » ...

فلا يجوز لمسلم أن يأخذ مالاً إلا بقسمة إمام ولا يطأ امرأة إلا بعد قسمة واستبراء بحيضة أو بوضع حمل ...

* * *

هذه أهم الأسس العامة التي يربى عليها الجيش الإسلامي وهي في الحقيقة لها علاقة في التدريب المعنوي وهو جزء من التدريب العسكري بشكل عام إذ التدريب العسكري يشمل :

١ – التدريب المعنوي ويشمل وضوح العقيدة التي يقاتل لها الجندي وحماسه وتفاعله مع القتال ووعيه على ما يسبب النصر أو الهزيمة وحرصه على النصر ...

٢ – التدريب على السلاح ويشمل معرفة استعماله واحسان هذا الاستعمال الى أقصى حد ممكن .

٣ – التدريب الجسمي بحيث يكون المقاتل ذا لياقة بدنية تساعده على الحركة والقتال والصبر وهكذا .

والحقيقة أن التدريب على السلاح وتدريب الجسم يبـدأ عندنا في الاسلام من الصغر ففي الأثر :

« علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » ، « ومروهم أن يثبوا على الخيل وثباً » .

وهذا كله لا يتم إلا إذا وجد جند الله وحزبه وتحققت الصفات التي ذكرناها في كتاب « جند الله أخلاقاً وثقافة » وتعاون البيت والمدرسة وأجهزة التوجيه والإعلام والمسجد والمؤسسات العسكرية والتنظم الحزبي الإسلامي على ذلك .

٥ — معرفة العدو وإحكام الامر ضده ...

وهذا شيء يختلف باختلاف العصور والظروف وقد مر معنا في الأصل الثاني عن الرسول ﷺ كيف أنه عليه الصلاة والسلام كان يرسل السرايا للاستكشاف ولمعرفة أحوال العدو وكيف أنه كان يرسل أفراداً لذلك وكان يعرفه بأحوال العدو المسلمون أو من يواليهم ويعيش في أرض المشركين ومر معنا أثناء الكلام عن حياة الرسول ﷺ العسكرية والسياسية إحكامه عليـه الصلاة والسلام أمر العمل السياسي والعسكري ومن مشهور كلمه عليه الصلاة والسلام « فان الحرب خدعة » والامر في هذه القضايا يحتاج الى كفاآت عالية واحسان لاقتناص الفرص وترتيب الأمور السياسية والعسكرية بدقة مع الاعتماد على الله تعالى أولاً وأخيراً وحسبنا الاشارة في هذا المقام ، فالعمـل العسكري الاسلامي في عصرنا محـاط بحواجز كثيرة لن يتهيأ للمسلمين تجاوزها الا بفضل من الله أولاً ثم بجهد لا مثيل له ثانياً في كل جانب من الجوانب .

السياسة الجزائية في الإسلام

لقد كتب الاستاذ الشهيد عبد القادر عودة ، كتابه عن التشريع الجنائي في الاسلام فأغنى وأوفى .

وفي كتاب عن الاسلام لا بد أن يعرف الانسان ما له علاقة في هذا الجانب ، ولذلك فقد رأينا أن أفضل ما نفعله هو أن نقدم تلخيصاً لكتاب الاستاذ الشهيد ، فكان هذا البحث المختصر .

ولهذا المختصر قصة هي :

في أوائل التفكير في إنجاز مشروع هذه الدراسات المنهاجية ، كان التفكير منصباً على أن أتعاون مع مجموعة من الزملاء لإنجاز هذا المشروع ، وأثناء ذلك كلفت أحد الزملاء أن يقوم بعملية اختصار لكتاب الشهيد ، فكتب هذا البحث كله ووضعه تحت تصرفي .

وقد رأيت المختصر رائعاً وطيباً ، فأدرجته ضمن الكتاب ، وهو ليس من عملي كما ذكرت ، ولكني تصرفت فيه تصرفاً كثيراً مع اقتناعي بفائدة نشره كله ، ولعله ينشر كله منفرداً .

وأما اسم هذا الزميل فلا أذكره في هذه الطبعة لظروف خاصة به قد يرى حرجاً بها أن يذكر اسمه ، فإذا زالت هذه الظروف ، ورضي أن أذكر اسمه ، ذكرته في طبعة قادمة إن شاء الله .

وقد كتب في هذا البحث ثلاث فقرات هي :

الفقرة الأولى : نظرة عامة في الجريمة والعقاب .

الفقرة الثانية : في الجريمة .

الفقرة الثالثة : في العقوبة .

الفقرة الأولى : نظرة عامة في الجريمة والعقاب

مقدمة : نظام العقوبات في الاسلام ليس إلا حلقة من حلقات النظام الاسلامي المتكامل . الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله الأمين محمد ﷺ ليكون للبشرية منهاجاً وسبيلاً تسلكه لتصل به الى خيرها وسعادتها في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وتستطيع أن تؤدي الرسالة التي خلقها الله لأجلها على الوجه الأتم الأكمل .

ولما كان النظام الاسلامي إنما أنزل ليوضع موضع التنفيذ ، ولما كان مجال تنفيذه ذلك الانسان الذي قد يضعف أمام شهوته وحبه لذاته ، ويطغى بذلـــك على حقوق غيره ، ويهدد مصالح المجتمع . لذلك كان لا بد من وسيلة رادعـة تجعـله يقف عند حده ، ولا يتجاوز حقوقه الى حقوق غيره ... وكانت هـذه الوسيلة هي العقوبة .

ولكن النظام الاسلامي لم يلجأ الى العقوبة الا كسلاح أخير لا بد منه . وذلك عندما تفشل كافة الروادع الأخرى في منع الفرد من تجاوز حده .

فقد اعتنى الاسلام بإصلاح نفس الانسان ، وبإعمار قلبه بخشية الله ، وبإشعاره بمسؤوليته يوم القيامة . وبأن ينشىء فيه الميل الى طاعة الله والرسول التي هي أول مقتضيات الايمان . ثم نبهه الى ما في ارتكاب الأفعـال المحرمة والى الأضرار التي تلحق به وبإخوانه نتيجة لها .

ثم من جهة أخرى ، وفر له بنظامه المتكامل المتماسك سبيل الابتعـــاد عن المحرمات حتى لا يكون هنـاك مجال لشيء من الاضرار والحاجـة إلى ارتـكاب هذه الأفعال .

وهكذا أصبح من الحق والعدل ، إيقاع العقاب بهذا الذي تخطى كافة الحدود والسدود ، وأوغل في الخضوع لرغباته وشهواته وعواطفه ، فأدى به هذا الخروج على نظام الجماعة . وهدد بذلك مصالح المجموع .

مقاصد وغايات نظام العقوبات في الاسلام :

للإسلام في الجريمة والعقاب رأي ينفرد به بين كل نظم الأرض ، ويمسك فيه بميزان العدالة المطلقة بقدر ما يمكن أن تتحقق في دنيا البشر ، فلا يسرف في تقديس حقوق الجماعة ، ولا يسرف في تقديس حقوق الفرد ، وذلك تبعاً لنظريته المتوازنة التي ينظر بها الى الناس . والتي تهدف الى تحقيق مصلحة الفرد والجماعة معاً . فهو يحرص أشد الحرص على أمن الجماعة ونظامها وسلامتها . لأن هذا هو الطريق الوحيد الذي يكفل لجميع الافراد أكبر قسط من السعادة في الحياة، باعتبار أن الجماعة هي مجموع الافراد . وهو في ذات الوقت يحفظ للفرد حريته وكرامته وإنسانيته .

لذلك نرى أن كل الجرائم التي حرمها الاسلام هي اعمال تفسد أمن المجتمع ، وتؤدي لو تركت وشأنها الى اضطراب الأمور وإشاعة الفوضى والقلق في النفوس، وبالتالي تؤدي الى دمار المجتمع .

فالمجتمعات كلها تقوم على مؤسسات رئيسية أربع هي نظام الاسرة ، ونظام الملكية الفردية والنظام الاجتماعي ونظام الحكم . وهذه المؤسسات هي التي حرص الاسلام على حمايتها أشد الحرص حتى يتحقق الأمن والاستقرار .

فنظام الأسرة نشأ عن وجود الرجل والمرأة وقدرتها على التناسل ، وحاجة هذا النسل الى من يعوله حتى يبلغ أشده . وهذا اقتضى بطبيعة الحال أن يستأثر كل رجل بامرأة معينة ، وأن ينسب الى نفسه من تلده من الأبناء ، وهكذا نشأت الأسرة ، وصارت هي أساس كل جماعة .

ونظام الملكية الفردية نشأ عن حاجة الانسان بطبيعته الدائمة الى المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، وأدوات السعي لهذه ولغيرها من المنافع . وهذه الحاجة دعته إلى تملك هذه الاشياء والاستئثار بها دون غيره من الناس . لنفسه أولاً ولأسرته ثانياً . بعد أن اقتضى الحال وجود نظام الاسرة . وهكذا أصبح نظام الملكية الفردية أساسياً في تكوين كل جماعة .

والنظام الاجتماعي نشأ عن ضعف الفرد ، وكثرة حاجاته ، وقلة مسائله ،

وحاجته الى التعاون مع غيره . وهذه دعت الى تكوين الجماعة . وقد اقتضى وجود نظام الاسرة ونظام الملكية الفردية أن يكون هناك نظام اجتماعي تقوم الجماعة على مبادئه ، وبين حقوق الافراد وواجباتهم .

ونظام الحكم أصبح بعد تكوين الجماعة ضرورة من ضرورات بقاء الجماعة واستقرارها وأمنها ، إذ أصبح لامناص من وجود جهاز يصرف شؤونها ، ويسهر على مصالحها ونظامها الاجتماعي ، ويوفر لها الأمن في الداخل والخارج .

والشريعة الاسلامية في حرصها على المجتمع ، عملت على حماية هذه الأنظمة الاربعة الاساسية فيه من كل اعتداء أو مساس . وقد تقصت الاعتداءات الخطيرة على هذه الانظمة ، واعتبرتها أنها هي الجرائم الخطيرة والاساسية التي يجب مكافحتها والحيلولة دون وقوعها .

ومن ناحية أخرى فإن الشريعة الاسلامية في حفاظها على هذه الأسس الاجتماعية ، حققت مصالح الفرد وعملت على حمايته . لأنها حمت بذلك أسس حياته ومقوماتها ، وبالتالي عملت على تحقيق أفضل الشروط لاستمرارها على الوجه الأمثل ، الذي أراده الاسلام لتحقيق الحكمة التي أرادها الله تعالى من وجود الإنسان .

ولهذا فقد عمل الاسلام على حماية الفرد ، ليس من غيره فقط بل من نفسه أيضاً – وذلك انسجاما مع نظريته فالفرد ليس حراً في إيذاء نفسه لأنه ليس ملكاً لنفسه ، والجماعة في حاجة إليه صحيحاً معافى لا في الجسد فقط ، بل في النفس والعقل والضمير أيضاً . فكل إيذاء يتعرض له الفرد ، سواء بإرادته ، أو بغير إرادته ، يعود بالضرر على المجتمع الذي يعيش فيه .

والاعتداءات التي اعتبرتها الشريعة خطراً على حياة المجتمع والفرد ، ونصت عليها صراحة في الكتاب والسنة – وهما أصل التشريع – هي :

١ – الزنا. ٢ – القذف. ٣ – شرب الخمر. ٤ – السرقة. ٥ – الحرابة. ٦ – الردة.
٧ – البغي . ٨ – القتل والجرح في حالتي العمد والخطأ .

وهذه الجرائم هي أشد الجرائم التي تمس المجتمع – أي مجتمع – والأسس التي يقوم عليها مساساً خطيراً مباشراً . ولهذا فقد أولتها الشريعة اهتماماً شديداً ، ونصت عليها بشكل لا يدع أي مجال لتغيير صفتها أو السماح بها أو التغاضي عنها .

ثم بعد ذلك وضعت الأسس والقواعد التي بهديها يستطيع المجتمع آن يعتبر بعض الافعال الأخرى جرائم يحرم إتيانها وارتكابها . وذلك حتى يستكمل التشريع ما يلزم للمجتمع من سبل الحفاظ على أمنه واستقراره ، بسبب تطور حاجاته ونمط معيشتة وحياته وظروف بيئته . وهذا كله يجب أن يتم في حدود الإسلام ونصوصه .

أسس التجريم والعقاب في النظام الاسلامي :

إن الإسلام نظام إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » وهذا بالطبع ينطبق على نظام العقوبات الذي هو جزء منه .

وقد راعت الشريعة الاسلامية طبيعة البشر ، فأقامت أحكامها على أساس ما في خلائقهم الاصلية من رجاء وخوف ، ومن قوة وضعف ، فجاءت أحكاماً صالحة لكل زمان ومكان . لأن طبائع البشر واحدة في كل مكان ولأنها لا تتغير بتغير الأزمان .

« فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » . وذلك هو السر في صلاحية الشريعة الاسلامية للقديم والحديث ، وهو السر في صلاحيتها للمستقبل القريب والبعيد .

وقد شرعت العقوبات بما فيها من التهديد والوعيد والزجر ، علاجاً للطبيعة الإنسانية . فإن الإنسان إذا نظر الى مصلحته الخاصة ، وما يترتب عليها من العقوبات ، نفر منها بطبعه لرجحان المفسدة على المصلحة . وكذلك إذا فكر في الواجب وما يجلبه عليه من المشاق ، فقد يدعوه ذلك لتركه ، ولكنه إذا ذكر ما يترتب على الترك من عقوبة حمله ذلك على إتيان الفعل والصبر على مشقته .

فالعقوبات مقررة لحمل الناس على ما يكرهون ما دام أنه يحقق المصالح الحقيقية للفرد والجماعة ، ولصرفهم عما يشتهون ، ما دام يؤدي الى الفساد .

على هذا نستطيع القول بأن الجريمة هي : إتيان فعل محرم معاقب على فعله ،

أو ترك فعل محرم الترك معاقب على تركه . وقد عرف الفقهاء الجرائم بأنها (محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير) . والمحظورات هي : إما إتيان فعل منهي عنه ، أو ترك فعل مأمور به . وقد وصفت المحظورات بأنها شرعية إشارة الى أنه يجب في الجريمة أن تحظرها الشريعة ، وأن يكون تحظيرها بناء على أسس الشريعة .

فاعتبار الأفعال جرائم في نظام العقوبات الاسلامي يجب أن يكون صادراً عن الشارع بنص ، وبناء على ما وضعه الشارع من أسس وقواعد .

فالشريعة الاسلامية نظراً لاهتمامها الشديد بمحاربة الجريمة لتوفير الحماية الكافية للمجتمع وأمنه واستقراره ، عملت على حماية مقومات الجماعة والمجتمع الاساسية ، بأن نصت على الاعتداءات الخطيرة التي يمكن أن توجه لها . هذه الاعتداءات التي تعتبر خطيرة على كل جماعة ومجتمع في أي زمان ومكان . وكذلك حددت العقوبة الواجب إيقاعها بمرتكب هذه الاعتداءات .

وقد اطلق الفقهاء على هذا القسم من الجرائم اسم جرائم الحدود ، وجرائم القصاص والدية ...

ثم إن الشريعة استكمالاً لنظام العقوبات ، أعطت لأولي الأمر حق فرض العقاب على كل أمر حرمته الشريعة ، ولم تحدد له عقوبة كالمعاصي . وكذلك أعطتهم حق تجريم أي فعل تستوجب حال الجماعة تجريمه ، وفرض العقاب على مرتكبه . وقد أطلق الفقهاء على هذا القسم اسم جرائم التعازير .

وهكذا نرى أن الشريعة تمشياً مع نظريتها الخاصة في الجريمة والعقاب ، قسمت الجرائم الى قسمين ، وضعت لكل منهما أحكاماً خاصة حسب نوعه وأهميته ومدى تأثيره في الحياة الاجتماعية ، وخطورة نتائجه . واتخذت في هذا التقسيم معيار أثر هذه الجرائم في المجتمع .

١ ـ القسم الاول :

وهي الجرائم الماسة بكيان المجتمع ومقوماته الاساسية .

ويدخل تحت هذا القسم الجرائم التي تمس المجتمع مساساً شديداً ، وقد

جعلت الشريعة جرائم هذا القسم على نوعين ، وضعت لكل منهما حكماً يختلف عن الآخر قليلاً . وهما :

أ – **النوع الاول** : وهو ما اطلق عليه الفقهاء اسم جرائم الحـــدود . وهي الجرائم المعاقب عليها بحد .

والحد هو العقوبة المقدرة حقاً لله تعالى ، ويدخل في هذا النوع كل جريمـــة يرجع فسادها الى العامة وتعود منفعة عقوبتها عليهم . وقد حصرت الشريعة هذه الجرائم بسبع هي :

١ – الزنا . ٢ – القذف. ٣ – الشرب . ٤ – السرقة . ٥ – الحرابة . ٦ – البغي. ٧ – الردة ...

وقد وضعت الشريعة لهذه الجرائم السبع عقوبات مقدرة ، ليس لأحد سواء من أولي الأمر أو القاضي أو المجني عليه ، أن ينقص منها ، أو يزيد فيهـا ، أو يستبدل غيرها ، أو يعفو عنها .

وعلة تشدد الشريعـة في مكافحة هـذه الجرائم . أنها من الخطورة بمكان بالنسبة للمجتمع ، ولأنها تمس وتهدد المقومات الأصلية لكل مجتمع ، وإن التساهل فيها يؤدي حتما الى تحلل الاخلاق وفساد المجتمـع واضطراب نظامه وأمنـه ، وهي نتائج ما ابتليت بها جماعه إلا تفرق شملها واختل نظامها . وهذا شيء لا تريده الشريعة أن يحصل في المجتمع الاسلامي . فالتشدد في هذه الجرائم قصد به الإبقاء على الاخلاق وحفظ الامن والنظام والاستقرار في المجتمع . أو بتعبير آخر ، قصد به مصلحة الجماعة . وهذا ما دعا الى اعتبار عقوبة هذه الجرائم حقاً لله تعالى .

ب – **النوع الثاني** : وقد أطلق عليه الفقهاء اسم جرائم القصاص والدية .

وهي الجرائم التي يعاقب عليها بقصاص أو دية ، وكل من القصاص والديـة عقوبة مقدرة حقاً للأفراد . ويدخل في هـذا النوع كل جريمة تقـع على جسم الإنسان أو روحه . وهذه الجرائم هي :

١ – القتل العمد . ٢ – القتل شبه العمد . ٣ – القتل الخطأ . ٤ – الجناية على ما دون النفس عمداً . ٥ – الجناية على ما دون النفس خطأ .

وقد قررت الشريعة لهذه الجرائم عقوبتين ، القصاص أو الدية في حالة العمد . والدية في حالة الخطأ . ففي العمد إذا عفي المجني عليه أو وليه عن القصاص سقط القصاص ، ووجبت له الدية ، وإذا عفا عنها أيضاً سقطت كذلك . وفي الخطأ إذا عفا المجني عليه عن الدية سقطت .

ولكن الشريعة رتبت على سقوط القصاص في العمد ، والدية في الخطأ ، أنه يجوز لأولي الأمر معاقبه الجاني بعقوبة تعزيرية . وبعض الفقهاء أوجبوا العقوبة التعزيرية في هذه الحالة كالإمام مالك .

وعقوبة القصاص والدية تعتبر من العقوبات المقدرة التي ليس لأولي الأمر ولا للقاضي أن يسقطاها ، أو ينقصا منها ، أو يزيدا فيها ، أو يستبدلا بها غيرها ، أو يعفوا عنها ، لأنها من حقوق الافراد .

والسبب الذي دعا الشريعة الاسلامية أن تنحو هذا المنحى في هذه الجرائم ، هو أن هذه الجرائم وإن كانت ماسة بكيان المجتمع ، إلا أنها تمس المجني عليه أكثر مما تمس المجتمع ، بل انها لا تمس المجتمع إلا عن طريق مساسها بالمجني عليه . أي أن مصلحة الفرد فيها تغلب على مصلحة المجتمع . ولهذا : فإن المجني عليه أو وليه إذا عفا عن الجريمة لم يعد هناك ما يدعو للتشدد في عقوبتها . لأن أثر الجريمة الخطِرَ على المجتمع يزول بالعفو . فتصبح الجريمة غير خطرة . ويضعف تأثيرها على كيان المجتمع . وخاصة أن إعطاء حق العفو المجني عليه أو وليه مقابل فائدة مادية أو مجانا ، إنما يؤدي الى الحصول على الغاية من العقوبة ، أو على جزء كبير منها على الأقل . خاصة وأن المجني عليه أو وليه يستطيع أن يقارن بين الفائدة التي تعود عليه من تنفيذ عقوبة القصاص وبين عفوه عنها مقابل بدل مادي أو مجانا ، وأن يختار ما يلائم نفسيته ويحقق الطمأنينة في داخله . وطبعاً هذا أدعى إلى أضعاف حدة الخصومات في المجتمع . وينشر روح التسامح فيه . وفي هذا الخير العميم للمجتمع .

بقي هناك أمر احتاطت له الشريعة ، ووضعت له الحل المناسب والملائم بمصلحة المجتمع التي لها في هذا القسم من الجرائم الاعتبار الأول . وذلك أن الحل السابق كما يتخيل البعض ، قد ترك أمر مكافحة هذا النوع من الجرائم

رهنا بعواطف المجني عليه أو وليه ، ومدى اندفاعه وراء الحصول على المنفعة المادية ، وأهمل النظر إلى مصلحة المجتمع وحمايته من المجرمين الذين قد يكونون خطراً كبيراً على المجتمع إذ أن باستطاعتهم استعمال اسلوب الإغراء المادي للافلات من العقاب . ولكن الشريعة قد أغلقت الباب أمام سوء استعمال المجني عليه أو وليه لحقه في العفو ، بأن أعطت للمجتمع ، وحتى يدرأ عن المجتمع ممثلا بأولي الأمر حق الرقابة على كافة الحالات المماثلة . ولهم أن يفرضوا عند حصول العفو العقوبات التعزيرية الملائمة لظروف الجريمة والمجرم ، وذلك حتى يتحقق صالح المجتمع ، وحتى يدرأ عن المجتمع سوء استعمال حق العفو هذا .

٢ ـ القسم الثاني :

وهو القسم الذي يشمل كافة الجرائم الأخرى التي يمكن أن تقع في المجتمع ، والتي لا تدخل على القسم الأول . فقد أطلق الفقهاء على هذا القسم اسم جرائم التعزير .

ومعنى التعزير التأديب . والتعازير هي العقوبات غير المقدرة بنصوص الشريعة ، والمفوضة نوعاً وكمّاً ضمن حدود الشريعة ومبادئها العامة الى أولي الأمر .

والشريعة لم تنص على كل جرائم التعازير ، ولم تحددها بشكل لا يقبل الزيادة أو النقصان ، وإنما نصت على ما تراه من هذه الجرائم ضارا بصفة دائمة بمصلحة الأفراد والجماعة والنظام العام . وتركت لأولي الأمر في الأمة أن يحرموا ما يرون من الأفعال بسبب الظروف أنه ضار بمصالح الجماعة أو نظامها . وأن يضعوا ما يلزم من القواعد لتنظيم الجماعة وتوجيهها ليعاقبوا على مخالفتها .

وفي هذا القسم من الجرائم ، تطبق الشريعة الاصول التي تقوم عليها نظرية العقاب في الاسلام . ويدخل في هذا القسم . .

١ ــ فرض العقاب على كل من يدع شيئاً من الاسلام ، أو يأتي شيئاً من المحرمات التي حرمتها الشريعة ولم تضع لها عقوبة ما ، كالمعاصي التي لا حد فيها ولا كفارة ، سواء كانت المعصية لله أو لحق آدمي . كالربا وخيانة الامانة ، والسب ، والرشوة ،

وتطفيف الكيل والميزان ، والامتناع عن إخراج الزكاة ، وأكل المحرمات ومخالفة الهيئات المشروعة للعبادات .

٢ — اعتبار أي فعل آخر أو امتناع عن فعل جريمة ، وفرض العقاب على مرتكبه إذا استوجبت ذلك مصلحة الجماعة ولو كان هذا الفعل أو الامتناع غير محرم لذاته . ويدخل في هذا فرض العقاب على كل من لا يتقيد بالتعليمات التي يضعها أولو الأمر بغية تنظيم الأمور في المجتمع . كنظام السير ، ونظام التعليم ، وتنظيم المهن ، وتعليمات مكافحة الامراض والآفات ... الخ .

٣ — فرض العقاب في حالة جرائم الحدود غير التامة ، وجرائم الحدود التي يدرأ فيها الحد ، وجرائم القصاص والدية التي لا تطابق فيها عقوبة القصاص أو الدية نظرا لعفو المجني عليه مثلا ، أو لأي سبب آخر .

القواعد الرئيسية في نظام العقوبات الاسلامي :

نظراً لما لنظام العقوبات من أثر هام في حياة الانسان ، ولما ينتج عنه من مساس قوي بمقومات حياته ، وذلك بسبب طبيعته الخاصة ، وعلاقته المتينة والمباشرة بوجود الانسان وحريته وسلامته . فقد اقتضى هذا أن يكون فيه من القواعد الواضحة ، ما يضمن البعد عن الشطط ، وعدم الخطأ أثناء التطبيق والتنفيذ . وكذلك حتى يكون كل فرد في المجتمع عالماً بحدوده التي لا يحق له تجاوزها ، وعارفاً بصفة الافعال المُحَرّمة التي يجب عليه الابتعاد عن اقترافها ، أو بما يطلب منه من أفعال يعمل على تنفيذها .

وكل هذه الأسباب اقتضت أن يكون لنظام العقوبات الإسلامي قواعد خاصة ، إضافة الى القواعد الاساسية للتشريع الإسلامي بشكل عام . هذا وأن أهم هذه القواعد هي :

١ — كل انسان بريء حتى تثبت إدانته . ويتفرع عنها .

أ — الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة ...

ب — تدرأ الحدود بالشبهات ...

٢ — لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص .

٣ – لا يجوز أن يكون للتشريع الجزائي أثر رجعي إلا في حالتين :
أ – الجرائم الخطيرة التى تمس الأمن العام والنظام العام .
ب – إذا كان في ذلك مصلحة الجاني .
٤ – جميع المقيمين في دار الاسلام بلا استثناء متساوون أمام القضاء .
٥ – ليس لأي كان حق العفو عن الجرائم التي تتعلق بحق الله ، والتي تدعى جرائم الحدود .

القاعدة الاولى :

كل انسان بريء حتي تثبت إدانته

من الأصول المقررة في الشريعة الاسلامية ، أن الانسان لا يسأل إلا عن فعله ولا يتحمل إلا نتيجة عمله . وقد جاء في القرآن الكريم « ولا تزر وازرة وزر أخرى » « كل نفس بما كسبت رهينة » وهذا يقتضي خاصة في نطاق العقوبات التي تمس كيان الإنسان ووجوده . التأكد من نسبة الفعل المحرم الى الانسان المتهم به بشكل قاطع لا يدع مجالاً للشك .

ويظهر حرص الإسلام على هذه الناحية بوضوح ، من عنايته الشديدة بمسائل الاثبات على اختلاف أنواعها ، ووضعه القواعد الدقيقة التي تنظمها . وأجلى ما يبين هذا ، شدة الشريعة في إثبات جرائم الحدود .

ومن القواعد الفقهية الكلية في الشريعة الاسلامية قاعدة (الاصل براءة الذمة) وهي تؤكد حرص الاسلام على مبدأ (أن البراءة هي الأصل حتى تثبت الإدانة) .

وتطبيقاً لهذه القاعدة الهامة ، نجد في تشريع العقوبات الإسلامي قاعدتين هامتين تتفرعان عنها وهما :

أ – الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة .

ب – تدرأ الحدود بالشبهات .

وهاتان القاعدتان كما سنرى ، أملاهما الحرص على تحقيق العدالة ، والخوف من الشطط في تطبيق النصوص الجزائية الذي قد يؤدي إلى إلصاق تهمة بإنسان بريء .

وهذه القاعدة الرئيسية وما يتفرع عنها تعمل في خلق جو من الأمن والطمأنينة في نفس كل إنسان من أن تلصق به تهمة أو فعل لا يد له فيه .

أ ـ الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة :

وهذه القاعدة ليست إلا تطبيقاً لقوله عليه الصلاة والسلام : (إن الامام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة) . ومعنى هذا : انه لا يصح الحكم بالعقوبة إلا بعد التثبت من أن الجاني ارتكب الجريمة ، وأن النص ينطبق على الجريمة ، فإذا كان ثمة شك في أن الجاني ارتكب الجريمة أو في انطباق النص على الفعل المنسوب للجاني . وجب العفو عن الجاني أي : الحكم ببراءته . لأن براءة المجرم في حال الشك خير للجماعة ، وأدعى الى تحقيق العدالة من عقاب البريء مع الشك . وهذا ناجم عن أن غاية الشريعة الإسلامية تحقيق المصلحة العامة . ولا تتحقق هذه إذا أُخذَ إنسان بغير فعله وعوقب على جريمة لم يرتكبها .

وهذا المبدأ ينطبق على كل أنواع الجرائم ، فهو ينطبق على جرائم الحدود ، وجرائم القصاص والدية ، وجرائم التعازير .

ويمكن القول بأن مبدأ درء الحدود بالشبهات على أهميته يعتبر تطبيقاً لهذا المبدأ على الأقل في الحالات التي يؤدي فيها درء الحد لتبرئة الجاني .

ب ـ درء الحدود بالشبهات :

وأصل هذه القاعدة قول الرسول ﷺ (إدرأوا الحدود بالشبهات) وتطبيقاً لذلك : روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (لئن أعطل الحدود بالشبهات ، أحب الي من أن أقيمها بالشبهات) . وقد كان الرسول والخلفاء الراشدون يتشددون جداً في التثبت من وقوع جريمة الحد ، قبل إقامة الحد على مرتكبها ، وكان يكفي أن يوجد أي شك حتى يمتنعوا عن إقامة الحد ، بل إنهم كانوا يتحرون بدقة بالغة ، وجود أي شبهة ليدرأوا بها الحد .

القاعدة الثانية :

(لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص)

ويؤخذ هذا المبدأ من قاعدتين أساسيتين في الشريعة الاسلامية وهما :

١ ـ الأصل في الأشياء والأفعال الإباحة :

أي أن كل فعل أو ترك مباح أصلاً بالإباحة الأصلية ، فما لم يرد نص بتحريمه فلا مسؤولية على فاعله أو تاركه .

٢ ـ لا حكم لأفعال العقلاء قبل ورود النص :

أي أن أفعال المكلف المسؤول ، لا يمكن وصفها بأنها محرمة ما دام لم يرد نص بتحريمها ، ولا حرج على المكلف أن يفعلها أو يتركها حتى ينص على تحريمها .

وهاتان القاعدتان تؤديان معنى واحداً هو أنه لا يمكن اعتبار فعل أو ترك جريمة الا بنص صريح يحرم الفعل أو الترك . فإذا لم يرد نص يحرم الفعل أو الترك ، فلا مسؤولية ولا عقاب على فاعل أو تارك . ولما كانت الأفعال تعتبر جريمة في نظر الشارع بتقرير عقوبة عليها ، لذلك فإننا نستخلص من ذلك كله : أن قواعد الشريعة الاسلامية تقضي بأن لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص .

وهذه القواعد الأصولية تستند الى نصوص خاصة صريحة في هذا المعنى ، منها قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » . وقوله : « وما كان ربك مهلكَ القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا » . وقوله : « لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل » . . .

فهذه النصوص كلها قاطعة بأنه لا جريمة إلا بعد بيان ، ولا عقوبة إلا بعد إنذار ، وأن الله لا يأخذ الناس بعقاب إلا بعد أن يبين لهم ، وينذرهم على لسان رسله ، وأنه لا يكلف نفساً إلا بما تطيقه .

والشريعة الإسلامية لا تطبق هذه القاعدة على غرار واحد في كل الجرائم ، بل إن كيفية التطبيق تختلف بحسب ما إذا كانت الجريمة من جرائم الحدود ، أو جرائم القصاص والدية ، أو جرائم التعازير ، وهذا يرجع الى حرص الشريعة على تحقيق الغاية من العقوبة ، والى حماية المجتمع بشكل لا يدع مجالاً للعابثين ، ولمعتادي الإجرام ، ولذوي النفوس المريضة ، أن يعيثوا في المجتمع الفساد .

١ ـ ففي جرائم الحدود : ونظراً لما لهذه الجرائم من أهمية خاصة ، وأثر كبير في المجتمع ، ولما يترتب على إقامة الحد من نتائج ، فإن الشريعة طبقت قاعدة (لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص) تطبيقاً دقيقاً . وهذا ظاهر بجلاء من تتبع النصوص الواردة في هذه الجرائم . فان بعض هذه الجرائم جاء تحديد عقوبتها في ذات النص الذي حدد الفعل المجرم . وفي البعض الآخر جاء تحديد العقوبة في نصوص أخرى .

ولم يترك لأولي الأمر أو للقاضي أي حرية في اختيار نوع العقوبة أو تقدير كميتها حتى ليمكن القول : بأن هذه العقوبات ذات حد واحد حكماً . وإن كان بعضها يحتمل بطبيعته أن يكون ذا حدين .

٢ ـ وفي جرائم القصاص والدية : نهجت الشريعة ذات المنهج المتبع في جرائم الحدود ، أي أنها حددت الجريمة وحددت العقوبة كذلك . ولكنها سمحت لصاحب الحق فقط أن يتنازل عن حقه بالعفو .

٣ ـ أما في جرائم التعازير : فان الشريعة توسعت في تطبيق القاعدة عليها الى حد ما ، لأن المصلحة العامة ، وطبيعة التعزير تقتضي هذا التوسع الذي جاء على حساب العقوبة غالباً ، وعلى حساب الجريمة في القليل النادر .

وقد جاء التوسع على حساب العقوبة ، لأنه لا يشترط في جرائم التعازير أن يكون لكل جريمة عقوبة محددة ، بل للقاضي أن يختار لكل جريمة العقوبة الملائمة من مجموعة العقوبات التي شرعت لعقاب الجرائم التعزيرية والتي تبدأ من النصح وتنتهي بالسجن أو القتل في الجرائم الخطيرة . وليس معنى هذا أن هذه القاعدة غير مطبقة في جرائم التعازير ، فالجريمة محددة والعقاب محدد . ولكن أعطي القاضي الخيار في انتقاء العقوبة الملائمة من لائحة العقوبات المقررة . وهذه السلطة قصد منها تمكين القاضي من تقدير خطورة الجريمة واختيار العلاج المناسب لها .

وانها لسلطة قمينة أن تحقق العدل وترفع الحرج وتضع الأمور في مواضعها .

أما التوسع على حساب الجريمة ، فهو في كونه يجوز في بعض الجرائم التي تمتاز بصفات معينة ، أن لا ينص على الجريمة بحيث يعينها النص تعييناً دقيقاً ، بل يكفي أن ينص عليها بوجه عام .

القاعدة الثالثة :

لا يجوز أن يكون للتشريع الجزائي أثر رجعي إلا في حالتين :

أ – الجرائم الخطيرة التي تمس الأمن العام والنظام العام .

ب– إذا كان في ذلك مصلحة الجاني .

* من قواعد الشريعة الاسلامية أن النصوص الجنائية لا تسري إلا بعد صدورها وعلم الناس بها ، فهي لا تسري على الوقائع السابقة على صدورها أو العلم بها .

ومقتضى هذا أن النصوص الجنائية ليس لها أثر رجعي ، وأن الجرائم يعاقب عليها بالنصوص المعمول بها وقت ارتكابها .

وبالرغم من أننا لا نجد في كتب الفقه مباحث خاصة عن الأمر الرجعي للنصوص ، ولكن من السهل استخلاص هذه القاعدة من تتبع آيات الأحكام الجنائية وأسباب نزولها . فقد نزلت جميع الأحكام التي حرمت المعاصي وفرضت العقوبات على مرتكبيها بعد أن فشا الإسلام فلم يعاقب بها على الجرائم التي وقعت قبل النزول إلا في حالات محدودة جداً يمكن حصرها في ثلاث وهي : جريمة القذف وجريمة الحرابة والظهار ، وهذا يعود إلى أسباب خاصة بطبيعة هذه الجرائم وأثرها في المجتمع . وفي غير هذه الحالات الثلاث لم يصلنا أن أي عقوبة قد طبقت على الجرائم التي ارتكبت قبل ورود تحريم الفعل وفرض العقاب على مرتكبه .

فقد نزلت عقوبات الزنا ، وحرم نكاح زوجة الأب والأمهات والبنات وغيرهن من المحارم ، والجمع بين الأختين ، وزواج الخامسة ، ولم يعاقب أحد على هذه الأفعال التي كان قد ارتكبها قبل ورود نص التحريم .

وكذلك حرمت الخمر ، ونزلت عقوبة السارق ، وحرم الربا ، وفي جميع هذه

الجرائم لم تطبق عقوباتها على من اقترفها قبل ورود التحريم .

ثم إننا نجد أن كثيراً من النصوص التي وردت بالتحريم قد صرحت بالعفو عما سلف . أي بانعدام الأثر الرجعي ، والنص القاضي بالعفو عما سلف يعتبر نصاً عاماً يطبق على كل النصوص الجنائية ولو أنه جاء ضمن نص خاص .

وجوب الرجعية إذا كان التشريع أصلح للجاني :

والعلة في تطبيق النص الأصلح ، أن العقوبة مقصود منها منع الجريمة وحماية المجتمع ، فهي ضرورة اجتماعية اقتضتها مصلحة الجماعة ، وكل ضرورة تقدر بقدرها ، فإذا كانت مصلحة الجماعة تتحقق بتخفيف العقوبة وجب أن يستفيد الجاني الذي لم يحكم عليه بعد من النص الجديد المخفف للعقوبة ، لأن حفظ مصلحة الجماعة ليس في التشديد ، ولأنه من العدل أن لا تكون العقوبة زائدة عن حاجة الجماعة ، ما دامت قد شرعت لحماية الجماعة ، وهذا شيء تقتضيه نظرية العقوبة في النظام الإسلامي .

ومن الأمثلة البارزة على هذا الاستثناء جريمة القتل . ذلك أن العرب قبل الإسلام كانت تباين في الديات وتعترف بهذا التباين . لذلك كانت الديات تتباين بحيث تكون دية الشريف أضعاف دية من هو دونه في الشرف والمكانة ، واتسع هذا التباين حتى تعدى الأفراد إلى القبائل .

ثم جاء الإسلام وبعض العرب يطلب بعضاً بدماء وجراح ، فمحى حكم الجاهلية وسوّى في الحكم بين الناس جميعهم على اختلاف قبائلهم ووضعهم الاجتماعي . ونزلت آية القصاص وبذلك انتهى التفاضل في الدماء والجراح والديات . وطبق هذا الحكم على كل ما سبق من دماء وجراح لم يحكم فيها بعد . وبهذا كان لهذا النص أثر رجعي لأنه أصلح للحياة .

القاعدة الرابعة :

جميع المقيمين في دار الاسلام متساوون أمام الشريعة

المسلمون جميعاً في الشريعة متساوون على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ، متساوون في الحقوق ، متساوون في الواجبات ، متساوون في المسؤوليات ، والشريعة

الإسلامية تطبق مبدأ المساواة إلى أبعد مدى يتصوره العقل البشري، فلا قيود ولا استثناءات، وإنما مساواة تامة بين الأفراد، مساواة تامة بين الجماعات، مساواة تامة بين الأجناس، مساواة تامة بين الحاكمين والمحكومين، مساواة تامة بين الرؤساء والمرؤوسين، وحتى غير المسلمين من رعايا الدولة الإسلامية هم والمسلمون أمام التشريع سواء.

وحتى الآن لم تصل أي من القوانين الوضعية الحديثة إلى ما جاء في نظام العقوبات الاسلامي من تطبيق مثالي لنظرية المساواة، وقد يستغرب البعض هذا، وخاصة إذا لم يكونوا من المختصين بالعلوم القانونية، لذا فإننا سنورد أمثلة من عدم المساواة الموجودة في القوانين الوضعية، ونرى كيف أن الإسلام لم يترك في نظامه أي ثغرة أو استثناء للخروج على نظرية المساواة أو للتملص من تطبيقها. ليس فقط من ناحية النصوص، بل أيضاً من ناحية التطبيق العملي الذي تبينه الأمثلة التاريخية في عصور تطبيق الشريعة الإسلامية.

١ ـ المساواة بين رؤساء الدول والرعايا:

ـ في القوانين الوضعية: تميز القوانين الوضعية دائماً بين رئيس الدولة الأعلى ملكاً كان أو رئيس جمهورية وبين باقي الأفراد. فبينما يخضع الأفراد للقانون، فإن رئيس الدولة لا يخضع له، بحجة أنه مصدر القانون، وأنه السلطة العليا، فلا يصح أن يخضع لسلطة أدنى منه وهو مصدرها.

وكثير من الدساتير الملكية، تعتبر ذات الملك مقدسة. وتجعلها مصونة لا تمس. ومنها ما يفترض أن الملك لا يخطيء. وكذلك فان الأصل في النظام الجمهوري أن رئيس الدولة غير مسؤول، وكانت شعوب العالم تعترف بهذا الوضع حتى القرن التاسع عشر، ثم بدأت تخرج عليه تحقيقاً لمبدأ المساواة. وبعض الدساتير لم تجعل رئيس الجمهورية مسؤولاً جنائياً إلا في حالة الخيانة العظمى، والاعتداء على الدستور. وبعضها الآخر جعله مسؤولاً عن الجرائم العادية التي ارتكبها، ولكنها اشترطت لمحاكمته شروطاً خاصة كإذن البرلمان وأغلبية خاصة.

ـ في الشريعة الاسلامية: أما الشريعة الإسلامية فإنها تسوي بين رؤساء الدول

وبين الرعايا في سريان القانون ، وفي مسؤولية الجميع عن جرائمهم . ومن اجل ذلك كان رؤساء الدول في الشريعة الإسلامية أشخاصاً لا قداسة لهم ، ولا يمتازون على غيرهم ، وإذا ارتكب أحدهم جريمة عوقب عليها كما يعاقب أي فرد.

فهذا أبو بكر الصديق يصعد إلى المنبر بعد أن بويع بالخلافة ، فتكون أول كلمة يقولها توكيداً لمعاني المساواة ونفياً لمعنى الامتياز ، قال : (أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني). ثم يعلن في آخر كلمته أن من حق الشعب الذي اختاره أن يعزله فيقول : (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم).

وهذا عمر بن الخطاب يؤكد ذلك بشدة أكثر ، حتى أنه ليرى قتل الإمام الظالم ، خطب يوماً فقال : (لوددت أني وإياكم في سفينة في لجة البحر تذهب بنا شرقاً وغرباً ، فإن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم ، فإن استقام اتبعوه، وإن جنف قتلوه . فقال طلحة : وما عليك لو قلت إن تعوّج عزلوه . فقال : لا ، القتل أنكل لمن بعده) .

وأعطى أبو بكر القود من نفسه وأقاد للرعية من الولاة . وفعل عمر بن الخطاب مثل ذلك ، وتشدد فيه ، فأعطى القود من نفسه أكثر من مرة . ولما قيل له في ذلك قال : (رأيت رسول الله ﷺ يعطي القود من نفسه وأبو بكر يعطي القود من نفسه ، وأنا أعطي القود من نفسي .)

وأخذ عمر الولاة بما أخذ به نفسه ، وأعلن مبدأه على رؤوس الأشهاد في موسم الحج ، حيث طلب من ولاة الأمصار أن يوافوه في الموسم ، فلما اجتمعوا خطبهم وخطب الناس فقال : (أيها الناس إني ما أرسل اليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم . فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه). فوثب عمرو بن العاص فقال : (يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من المسلمين على رعيته ، فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه منه ؟ فقال : (أي والذي نفس عمر بيده ، إذن لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت النبي ﷺ يقص من نفسه).

هذا وقد جرى العمل في الشريعة على محاكمة الخلفاء والولاة أمام القضاء.

العادى وبالطريق العادي . فهذا امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه في خلافته يفقد درعاً له ، ويجدها مع يهودي يدعي ملكيتها فيرفع أمره إلى القاضي ، فيحكم هذا لصالح اليهودي ضد الخليفة . لأنه لا يملك دليلاً على ادعائه.

٢ ــ رؤساء الدول الأجنبية :

ــ في القوانين الوضعية : تعفي القوانين الوضعية رؤساء الدول الأجنبية ملوكاً كانوا أم رؤساء جمهوريات من أن يحاكموا على ما يرتكبونه من الجرائم في أي بلد آخر غير بلدهم ، سواء دخلوه بصفة رسمية ، أو بصفة غير رسمية ، وهذا الإعفاء يشمل كل أفراد حاشية الملك او رئيس الجمهورية .

وحجة شراح القوانين في تبرير هذا الإعفاء ، أن إجازة محاكمة رؤساء الدول الاجنبية وأفراد حاشيتهم ، لا يتفق مع ما يجب لهم من كرم الضيافة والتوقير والاحترام ، ولا مع احترام سيادة الدولة الاخرى التي يمثلونها . ولكن هذه الحجة لا تستقيم مع المنطق ، لان رئيس الدولة الذي ينزل بنفسه الى حد ارتكاب الجرائم ، يخرج على قواعد الضيافة ولا يستحق شيئاً من التوقير والاحترام . ومثل هذا يقال في أفراد الحاشية .

والواقع أن هذا الاعفاء هو تقليد قديم كان معمولاً به قبل أن تأخذ القوانين الوضعية بمبدأ المساواة ، وظل معمولاً به حتى الآن . وقد ساعد على بقائه اعتراف الدول به ، وصيرورته جزءاً من القانون الدولي .

ــ في الشريعة الاسلامية : إذا كانت الشريعة الاسلامية لا تميز رئيس الدولة الاعلى ، فهي من باب أولى لا تميز رئيس دولة أجنبية . فالشريعة إذن تسري على رؤساء الدول الاجنبية وعلى رجال حاشيتهم أثناء وجودهم في دار الاسلام ، فإذا ارتكبوا جريمة عوقبوا عليها كبقية الناس .

٣ ــ رجال السلك السياسي :

ــ في القوانين الوضعية : تعفي القوانين الوضعية المفوضين السياسيين الذين يمثلون الدول الاجنبية من أن يسري عليهم قانون الدولة التي يعملون فيها .

ويشمل هذا الإعفاء رجال حاشيتهم وأعضاء أسرهم .

وحجة القانون في ذلك أن الممثلين السياسيين يمثلون دولهم أمام الدولة التي يعملون في أرضها ، وليس لدولة على أخرى حق العقاب ، وأن الإعفاء ضروري لتمكينهم من أداء وظائفهم ، حتى لا تتعطل بتعريضهم للقبض والتفتيش والمحاكمة .

ويمكن الرد على هاتين الحجتين ، بأن الممثل السياسي ، ليس إلا فرداً من رعايا دولة أجنبية ، وأن للدولة الحق في العقاب على رعايا الدولة الأجنبية إذا ارتكبوا جريمة في أرضها . ولا يمكن أن يعطل سريان القانون على الممثل السياسي أعمال هذا الممثل ، ما دام يحترم قانون الدولة ويطبقه ولا يعرض نفسه للوقوع تحت طائلته .

— في الشريعة الاسلامية : تسري الشريعة على رجال السلك السياسي فيما يرتكبون من جرائم في دار الاسلام سواء تعلقت الجرائم بحقوق الجماعة أو بحقوق الأفراد . وليس في قواعد الشريعة ما يسمح بإعفائهم من تطبيق الشريعة عليهم ، وليس في أخذ رجال السلك السياسي بجرائمهم ما يعيب الشريعة ، ما دامت الشريعة تسوي بينهم وبين غيرهم من رعايا الدولة ، وتجعل حكمهم حكم رئيس الدولة الأعلى . ولكن العيب في التفرقة التي تأخذ بها القوانين الوضعية بحجة حمايتهم ، وتمكينهم من أداء وظائفهم . لأن الممثل السياسي الذي يرتكب الجرائم ، لا يستحق الحماية ولا يصلح لأداء وظيفته . ولأنه لا يحمي الممثل شيء مثل ابتعاده عن الشبهات والمحرمات . وأما الخوف من اتخاذ الاتهام ذريعة للضغط على الممثل ، فهو خوف في غير محله . لأن هناك من وسائل الضغط ما هو أسهل وأسرع وأجدى من الاتهام . فمنع محاكمة الممثل السياسي لا يمنع من الضغط عليه ، والتأثير فيه . والحجج التي يبررون بها منع المحاكمة [1] لا تبرر المنع بأي حال من الاحوال .

٤ ــ أعضاء الهيئة التشريعية :

— في القوانين الوضعية : تعفي القوانين الوضعية ممثلي الشعب في البلاد النيابية

---

(١) إن المحاكمة اذا رافقها إمكانية الدفاع عن النفس والتمثيل لدولة المحاكم لا يبقى معها محظور .

من العقاب على ما يصدر منهم من الاقوال أثناء تأدية وظائفهم . والمقصود من هذا الإعفاء إعطاء أعضاء البرلمان قدراً من الحرية يساعدهم في أداء وظائفهم حق الاداء .

إلا أن هذا الإعفاء بالرغم من ذلك ، اعتداء صارخ على مبدأ المساواة ، لان هناك مجالس منتخبة أخرى في البلاد النيابية لا تعطى مثل هذه الحصانة ، ولأن هناك كثيراً من المواطنين ممن يعملون في المسائل العامة ولهم فيها تأثير أكبر مما لأي عضو في البرلمان ، ومع ذلك هم محرومون من مثل هذه الحصانة .

— في الشريعة الاسلامية : لا تسمح قواعد الشريعة بإعفاء أعضاء البرلمان من العقاب على الجرائم القولية التي يرتكبونها في دار البرلمان لأن الشريعة تأبى أن تميز فرداً على فرد ، أو جماعة على جماعة ، ولأنها تأبى أن تسمح لفرد أو هيئة بارتكاب الجرائم مهما كانت وظيفة الفرد أو صفة الجماعة .

وهذا الاختلاف بين القانون الوضعي ، والشريعة الإسلامية ، يرجع إلى النظرية الأساسية لكل منهما .

فالمبدأ الأساسي في القانون ، أنه لا يجوز أن يقذف امرؤ آخر أو يسبه أو يعيبه ، فإن فعل عوقب ، سواء كان صادقاً فيما قال او كاذباً .

وهذا المبدأ وإن كان يحمي الأبرياء من ألسنة الكاذبين ، فإنه يحمي أيضاً الملوثين والمجرمين والمنحرفين والفاسقين والخونة من ألسنة الصادقين . وبهذا انعدم الفرق بين الخبيث والطيب ، والمسيء والمحسن ، والرذيلة والفضيلة . وانحط المستوى الأخلاقي للشعوب . فالطيب لا يستطيع أن ينقد الخبيث ، والخبيث سادر في غيه ، ذاهب إلى نهاية طوره ، لأنه لا يخشى رقيباً ولا حسيباً ، فإن تجرأ إنسان على أن يسمي الأسماء بمسمياتها ، باء بالعقوبة وباء المجرم ، فوق حماية القانون بالتعويض المالي على ما نسب اليه من قول هو عين الحق والصدق .

أما في الشريعة الاسلامية فالمبدأ الأساسي في الجرائم القولية تحريم الكذب والافتراء ، وإباحة الصدق في كل الأحوال اذا استطاع اثباته بوسائل الاثبات المشروطة له . وليس لهذا المبدأ أية استثناءات ، وهو يطبق على الجميع دون تفريق . فكل إنسان يستطيع أن يطعن في أعمال الموظفين العموميين والنواب والمكلفين بخدمات عامة ، وينسب اليهم عيوبهم ما دام يستطيع إثبات مطاعنه ،

وله كذلك أن يتعدى أعمالهم العامة إلى أعمالهم وحياتهم الخاصة ، مـــا دام يستطيع إثبات مطاعنه . لأن الشريعة لا تحمي النفاق والرياء والكذب ، ولان الشخص الذي لا يستطيع ان يسير سيرة حسنة في حياته الخاصة ، ليس أهلاً في نظر الشريعة لأن يتولى شيئاً من أمور الناس .

وكل إنسان وفي كل وقت يستطيع طبقاً للشريعة الاسلامية أن يقول ما هو ثابت وصحيح عن كل إنسان ، مهما كانت صفته ومهمته ، كل هذا لأن الشريعة تقوم على المساواة الكاملة الحقيقية ، وعلى الاخلاق الفاضلة ، وترمي إلى إصلاح الجماعة وتقويمها ، وتشجيع الصالح وكبت الطالح ، وتربية الافراد على الاخلاق الحسنة ورفع مستوى الفضيلة بين الجماعة .

٥ ــ الأغنياء والفقراء :

ــ في القوانين الوضعية : تسمح أغلب القوانين بإخلاء سبيل المحكوم عليه ، وتأجيل تنفيذ الحكم الصادر عليه ، ريثما يفصل في الاستئناف وذلك مقابل كفالة مالية . وكذلك تجيز كثير من القوانين ، أن يفرج عن المتهم أثناء التحقيق في الجريمة ، مقابل ضمان مالي .

وكلتا الحالتين خروج ظاهر على مبدأ المساواة ، إذ أن الغني يستطيع دوماً ان يدفع الكفالة المالية فيخرج من محبسه ، أما الفقير فغالباً ما يعجز عن الدفع فيظل رهين الحبس .

ويظهر عدم المساواة بوضوح عندما تكون النتيجة في الحالتين البراءة ، فإن الفقير يكون قد حبس لا لانه أجرم ، بل لانه عجز عن دفع الكفالة المالية بسبب فقره .

ــ في الشريعة الاسلامية : أما الشريعة فلا تفرق بين الاغنياء والفقراء ، فهم لدى الشريعة سواء ، ولهذا لا تعترف الشريعة بنظام الكفالة المالية او الضمان المالي إذا كانت العقوبة الحبس ، لأن هذا النظام يقوم على عدم المساواة ، والشريعة الاسلامية تعرف نظام الكفالة الشخصية وتطبيقه في حالة الحبس للدين . وبعض الفقهاء يرون ان الحبس في الجرائم على ذمة التحقيق والمحاكمة ، نوع من الحبس للاحتياط ، ولهذا فهم يجيزون فيه الكفالة الشخصية .

ولا شك ان كل محبوس احتياطياً يستطيع ان يجد كفيلاً شخصياً ، ولكن ليس كل محبوس يستطيع ان يدفع ضماناً مالياً .

٦ ـ الظاهرون في الجماعة :

في القوانين الوضعية : بعض القوانين الوضعية لا تسمح للنيابة العامة برفع الدعوى العامة على بعض الاشخاص ، إلا بعد استئذان جهة ما ، كالموظفين والمحامين والأطباء وأعضاء البرلمان . وبعضها الآخر يجيز حفظ القضية المرفوعة على هؤلاء ، وتكتفي بعقوبة إدارية توقع عليهم . ومثل هـــذا الحفظ غير ممكن بالنسبـــة لأفراد الشعب العاديين .

وكذلك فإن جميع القوانين الوضعية حين تضع أسس تقدير التعويض المترتب للشخص عن الضرر اللاحق به من جراء جريمة ما ، تراعي مركزه الاجتماعي ومكانته. لذلك فالتعويضات من هذا النوع ، تتفاوت بحسب الأشخاص ، فلو أن مدير الشركة وعاملاً في نفس الشركة أصيبا في حادث واحد بإصابات متماثلة ، فطالبـا بالتعويض ، لكان التعويض الذي يحكم به للمدير ، أضعاف أضعاف ما يحكم به للعامل .

والقوانين في هذا غالباً ما تتخذ الراتب أو الأجر مقياساً في ذلك . ولذلك فصاحب الراتب الأكبر هو الذي يحصل على التعويض الأكبر .

في الشريعة الاسلامية : لا تميز الشريعة بين الأفراد ، فهم لدى الشريعة سواء والقاعدة في الشريعة أن التعويضات لا ينظر فيها الى شخصية المجني عليه ، ولا مركزه الاجتماعي ، ولا ثروته . وإنما يقدر التعويض على أساس نتيجة الفعل الذي وقع عليه . فإذا قتل شريف ووضيع فديتهما واحدة ، وإذا أصيب عامل في شركة ومدير الشركة في حادث وترتب على ذلك إصابة متماثلة ، فإنه يعوّض كل منهما تعويضاً مساوياً لتعويض الآخر .

القاعدة الخامسة : ليس لأولي الأمر حق منح العفو العام أو الخاص إلا في جرائم التعازير :

إن الشريعة الإسلامية انسجاماً مع نظريتها في الجريمة قد وضعت للعفو نظاماً خاصاً هو :

أ – **العفو في جرائم الحدود** : لم تمنح الشريعة لأحد مهما كانت صفته حق العفو عن العقوبات التي تجب في جرائم الحدود . فهي لا تجيز لأولي الأمر ، ولا المجني عليه ، ولا لولي أمره ، أن يعفو عن هذه العقوبات . وهو وإن عفا عنها فإنها لا ترتب على هذا العفو أي أثر في تطبيق العقاب . فالعقوبة في هذه الجرائم لازمة مجتمعة ، وقد عبر عنها الفقهاء بأنها حق الله تعالى . وما كان حقاً لله امتنع فيه العفو وامتنع إسقاطه .

ب – **العفو في جرائم القصاص والدية** : أما في جرائم القصاص والدية فإن الشريعة قد أعطت للمجني عليه أو لوليه فقط من دون أولي الأمر حق العفو عن عقوبتي القصاص والدية فقط دون غيرهما من العقوبات المقررة لهذه الجرائم .

فليس له مثلاً أن يعفو عن عقوبة الكفارة . وليس لعفوه عن عقوبتي القصاص والدية أي أثر على حق ولي الأمر في فرض عقوبة تعزيرية إن شاء هذا فرضها .

والأصل في حق المجني عليه أو وليه في العفو الكتاب والسنة ، فقد جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ... فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . وكذلك في قوله : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ... فمن تصدق به فهو كفارة له » .

ج – **العفو في جرائم التعزير** : أما في جرائم التعازير ، فمن المتفق عليه بين الفقهاء ، أن لولي الأمر حق العفو كاملاً فيها . فله أن يعفو عن الجريمة ، وله ان يعفو عن العقوبة كلها أو بعضها . وكذلك له حق العفو سواء في جرائم التعازير التي نصت عليها الشريعة او في الجرائم التي نص عليهـا هو . ولم يقيد حق ولي الأمر في هذا إلا بأن لا يكون فيه مخالفة لنصوص الشريعة أو مبادئها العامة وروحها التشريعية ، كما أنه مقيد بأن يقصد بالعفو تحقيق مصلحة عامة أو دفع مفسدة . ولكن هذا العفو لا يجوز أن يكون سابقاً لوقـوع الجرائم والحكم بالعقوبات لأن ذلك يعتبر اباحة الافعال المحرمة . وكذلك يشترط أن لا يمس هذا العفو حقوق المجني عليه الشخصية .

ولا شك أن لولي الأمر أن يبيح للافعال التي منعها هو في السابق إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة . أما الافعال التي حرمتها الشريعة ابتداء ، فليس لولي الامر أن يبيحها إطلاقاً لأن الشريعة لم تجعل له فيها إلا حق العفو عن الجريمة أو العقوبة .

أما المجني عليه في جرائم التعازير فليس له حق العفو الا عما يمس حقوقه الشخصية المحصنة ، وقد يعتبر العفو إذا وقع كظرف مخفف ، ويمكن للقاضي أخذه بعين الاعتبار .

الفقرة الثانية : في الجريمة

تعريف الجريمة : تعرف الجرائم في الشريعة الإسلامية بأنها (محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير) أو (هي فعل أو ترك نصت الشريعة على تحريمه والعقاب عليه) .

والمحظورات هي إما إتيان فعل منهي عنه ، أو ترك فعل مأمور به . وقد وصفت المحظورات بأنها شرعية ، إشارة إلى أنه يجب في الجريمة أن تحظرها الشريعة . وهذا إعمال للقاعدة (لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص) .

ويتبين من تعريف الجريمة ، أن الفعل أو الترك لا يعتبر جريمة إلا إذا تقررت عليه عقوبة . فإن لم تكن على الفعل أو الترك عقوبة فليس بجريمة .

انواع الجريمة : تتفق الجرائم جميعاً في أنها فعل محرم معاقب عليه ، ولكنها تتنوع وتختلف إذا نظرنا إليها من غير هذه الوجهة . وعلى هذا يمكن أن تقسم الجرائم أقساماً متنوعة حسب اختلاف وجهة النظر إليها .

أ — فمن حيث خطورة الجريمة على مقومات المجتمع الاساسية ، تقسم الجرائم الى جرائم حدود ، وجرائم قصاص ، وجرائم تعازير .

ب — ومن حيث قصد الجاني — تقسم الجرائم الى : جرائم عمدية وجرائم غير عمدية ...

جـ — ومن حيث وقت كشفها تقسم الى : جرائم متلبس بها وجرائم لا تلبس بها .

د — ومن حيث طريقة ارتكابها تقسم الجرائم الى :

١ — جرائم ايجابية وجرائم سلبية .

٢ — جرائم بسيطة وجرائم اعتياد ...

٣ — جرائم مؤقتة وجرائم غير مؤقتة ...

هـ — ومن حيث طبيعتها الخاصة تقسم الجرائم الى :

١ ــ جرائم ضد الجماعة وجرائم ضد الأفراد ...
٢ ــ جرائم سياسية وجرائم عادية ...

وجميع هذه التقسيمات وضعت لتسهيل النظر في الجريمة ودراستها ونظراً للاحكام المتفاوتة التي تحكم كل قسم ، وللاختلافات الموجودة بين هذه الاقسام .

ونحن لن نتعرض في بحثنا هذا لتفصيلات هذه الاقسام نظراً لطبيعة الايجاز في هذا البحث .

اركان الجريمة : قلنا في تعريف الجريمة أن الجرائم محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير .

ولكن لما كانت الأوامر والنواهي تكاليف شرعية فإنها لا توجه إلا لكل عاقل فاهم التكليف .

ولهذا نجد أنه لا بد من توفر ثلاثة أركان عامة في الجريمة هي :

١ ــ أن يكون هناك نص يحظر الجريمة ويعاقب عليها . وهو ما يسمى بالركن الشرعي أو القانوني للجريمة .

٢ ــ إتيان العمل الذي يكون الجريمة ، سواء كان فعلاً أو امتناعاً ، وهو ما يسمى بالركن المادي للجريمة .

٣ ــ أن يكون الجاني مكلفاً أي مسؤولاً عن الجريمة ، وهو ما يسمى بالركن الأدبي للجريمة .

ولكن توفر هذه الأركان الثلاثة العامة ، لا يغني عن وجوب توفر الأركان الخاصة لكل جريمة على حده ، حتى يمكن العقاب عليها . وهذه الأركان الخاصة تختلف في عددها ونوعها من جريمة إلى أخرى .

١ ــ الركن الشرعي للجريمة

توجب الشريعة لاعتبار الفعل جريمة أن يكون هناك نص يحظر الفعل ويعاقب على إتيانه . وهذا يقضي :

أ ــ أن يكون هذا النص نافذ المفعول وقت اقتراف الجريمة .
ب ــ أن يكون هذا النص سارياً على المكان الذي اقترف فيه الفعل .
جـ ــ أن يكون هذا النص سارياً على الشخص الذي اقترف الفعل .

وكذلك وحتى يستكمل الركن الشرعي قوامه يجب

د ــ أن لا يكون هناك أي من أسباب التبرير أو الاباحة لهذا الفعل .

ونظراً لما للنصوص الجنائية من طبيعة خاصة ، وأثر خطير على مقومات كيان الإنسان وسلامته ، فإن الفقهاء قد اتفقوا على اعتبار المصادر الثلاثة وهي القرآن والسنة والاجماع كمصادر للنصوص الجنائية . واختلفوا في اعتبار المصدر الرابع وهو القياس :

أ ـ أن يكون النص نافذ المفعول وقت اقتراف الفعل :

وهذا يقتضي البحث في أن يكون النص غير منسوخ بنص آخر . والنسخ هو إبطال الحكم التشريعي بدليل يدل عليه صراحة أو ضمناً إبطالاً كلياً أو جزئياً لمصلحة اقتضته .

وكذلك فإن نفاذ النص يقتضي ألا تسري النصوص الا بعد صدورها وعلم الناس بها ، وقد سبق أن تعرضنا لهذا البحث في عرضنا لقاعدة عدم رجعية النصوص الجنائية .

ب ـ أن يكون النص سارياً على المكان الذي اقترف فيه الفعل :

مع أن الشريعة الإسلامية شريعة عالمية لامكانية ، فإن ظروف الإمكان قضت ألا تطبق الشريعة إلا على البلاد التي يدخلها سلطان المسلمين دون غيرها من البلاد. أي أن تطبيقها أصبح إقليمياً من الوجهة العملية .

وقد قسم الفقهاء العالم كله الى قسمين : الأول ويشمل كل بلاد الاسلام ويسمى دار الاسلام . الثاني ويشمل كل البلاد الأخرى ويسمى دار الحرب .

والشريعة الإسلامية تطبق في القسم الأول ولا تطبق في القسم الثاني لعدم إمكان ذلك . والمبدأ العام في الشريعة هو سريانها على الجرائم التي ترتكب في دار الاسلام أياً كان مرتكبها ، وعلى الجرائم التي ترتكب في دار الحرب من مقيم في دار الاسلام .

ج ـ أن يكون النص سارياً على الشخص الذي اقترف العمل :

قلنا إن من مبادىء الشريعة ، أنها تطبق على كل الأشخاص في دار الإسلام دون أي استثناء . ولا يعفى منها أي شخص مهما كان مركزه أو ماله أو جاهه أو صفاته .

والشريعة في هذا تطبق مبدأ المساواة تطبيقاً دقيقاً إلى آخر حدوده . ولا تسمح بتمييز شخص على شخص ، أو هيئة على هيئة ، أو فريق على فريق ، دون أي استثناءات أو تقييدات .

وقد كنا تعرضنا لهذا البحث في معرض الكلام عن قاعدة المساواة أمام الشريعة بين كل المقيمين في دار الاسلام .

د ـ أن لا يكون هناك أي من أسباب التبرير أو الاباحة لهذا الفعل :

إن قيام سبب من أسباب التبرير أو الإباحة يعدم مفعول نص التجريم والمعاقبة وينفي عن الفعل المرتكب الصفة غير المشروعة ، فينهدم بذلك ركن الجريمة الشرعي ، ويغدو الفعل مباحاً كما لو لم يحرم أو يعاقب عليه .

ويدخل في أسباب للتبرير والاباحة :

١ ــ الدفاع الشرعي .
٢ ــ التأديب .
٣ ــ التطبيب .
٤ ــ الألعاب الرياضية .
٥ ــ إهدار الأشخاص .
٦ ــ حقوق الحكام وواجباتهم .

١ ـ الدفاع الشرعي :

الدفاع الشرعي سبب من أسباب التبرير أو الاباحة ، يجعل الأفعال المرتكبة المحرمة

في حال عدم وجوده مباحة مشروعة **إذا** وجد . والدفاع الشرعي في الشريعة الإسلامية على نوعين :

أ — دفاع شرعي خاص : ويسميه الفقهاء (دفع السائل) ...
ب — دفاع شرعي عام: ويسمى اصلاحاً (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر).

أ ـ الدفاع الشرعي الخاص:

الدفاع الشرعي الخاص في الشريعة الاسلامية هو حق الانسان في حماية نفسه أو نفس غيره ، وحقه في حماية ماله أو مال غيره ، من كل اعتداء حالٍّ غير مشروع بالقوة اللازمة لدفع هذا الاعتداء .

والأصل في الدفاع الشرعي الخاص قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ...

وقول رسول الله ﷺ : (من أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد) ..
والشريعة الاسلامية كما أقرت دفع السائل لرد اعتدائه عن نفس الدافع أو عرضه أو ماله ، كذلك أقرته لدفع الاعتداء عن نفس الغير أو عرضه أو ماله . لقوله ﷺ (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) ونصر الأخ المظلوم هو دفاع شرعي عنه . ونصر الأخ الظالم هو ردعه عن الظلم كما قال عليه الصلاة والسلام . كذلك يتأكد الدفاع الشرعي عن الغير بقوله عليه الصلاة والسلام : (ان المؤمنين يتعاونون على الفتّان) .

ولكن نظراً لما قد يترتب على إباحة الأفعال المحرمة المرتكبة في حال الدفاع الشرعي من آثار خطيرة ، وحتى لا يكون هناك مجال لاستغلال الدفاع الشرعي في ارتكاب الافعال المحرمة ، فقد استخلص الفقهاء شروطاً يجب توفرها في الدفاع الشرعي ، حتى يعتبر المصول عليه في حالة دفاع .

شروط الدفاع الشرعي الخاص: يشترط في الدفاع الشرعي الخاص أربعة شروط وهي:

١ — أن يكون هناك اعتداء أو عدوان : فإذا لم يكن هناك اعتداء لم يجز دفعه . كأن يكون الفعل هو استعمالاً لحق أو أداءً لواجبٍ . كحق الأب في تأديب

ولده ، وحق المعلم في تأديب تلميذه ، وواجب الجلاد في تنفيذ حكم الإعدام أو غيرها من الأحكام .

والاعتداء يصح أن يكون على نفس المصول عليه أو عرضه أو ماله ، كما يصح أن يكون واقعاً على نفس الغير أو عرضه أو ماله . ويصح أن يكون واقعاً على نفس الصائل أو ماله . كمن حاول أن يقتل نفسه ، او يقطع طرفه او يتلف ماله .

ولا يشترط لقيام حالة الدفاع ان يقع الاعتداء فعلاً ، فليس على المصول عليه ان ينتظر حتى يبدره الصائل بالاعتداء ، بل للمصول عليه ان يبدر الصائل بالمنع ، ما دامت حالته تدل على انه سيعتدي .

٢ ـ ان يكون الاعتداء حالاً : لأن الدفاع لا يوجد إلا إذا تحقق الاعتداء في الفعل أو النطق ، فحلول الاعتداء هو الذي يخلق حالة الدفاع ، ومن ثم لم يكن الاعتداء المؤجل محلاً للدفاع ، ولم يكن التهديد محلاً للدفاع .

٣ ـ أن لا يمكن دفع الاعتداء بطريق آخر ، يشترط لوجود حالة الدفاع أن لا تكون هناك وسيلة اخرى ممكنة لدفع الصائل . فإذا أمكن دفع الصائل بوسيلة اخرى غير الدفاع وجب استعمالها .

فإذا أمكن مثلا دفع الصائل بالصراخ والاستغاثة ، فليس للمصول عليه أن يضربه أو يجرحه أو يقتله ، فإن فعل ذلك كان فعله جريمة .

ولكن هناك خلاف بين الفقهاء في اعتبار الهرب وسيلة لدفع الاعتداء ، فبعضهم فرق بين كون الهرب مشينا أو غير مشين . ولم يوجب الهرب في حال كونه مشينا . وأوجبه في حالة كونه غير مشين .

٤ ـ ان يدفع الاعتداء بالقوة اللازمة لرده : يشترط في الدفاع أن يكون بالقدر اللازم لدفع الاعتداء فإذا زاد عن ذلك فهو اعتداء لا دفاع . فالمصول عليه مقيد دائماً بأن يدفع الاعتداء بأيسر ما يندفع به .

فمثلا إذا كان الاعتداء يندفع بالتهديد فلا يجوز دفعه بالضرب . وإذا كان يندفع بالضرب فلا يجوز دفعه بالقتل وهكذا...

ولهذا إذا استعمل المدافع قوة أكثر مما تقضي به الضرورة لدفع الاعتداء ، فهو مسؤول عن فعله الذي تعدى به حد الدفاع الشرعي .

ب ـ الدفاع الشرعي العام أو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر :

هذا النوع من الدفاع تنفرد به الشريعة الإسلامية . بل إن الشريعة الاسلامية . بل إن الشريعة الإسلامية تهتم به جداً حتى أنها لتجعله من دلائل كال الإيمان . وهي لا تعتبره مجرد فضيلة وعمل خير ، بل إنها لتفرضه على المؤمنين فرضاً .

وقد حصر بعض الفقهاء الوسائل الصالحة لدفع المنكر في سبع وسائل هي:

١ ـ التعريف . ٢ ـ النهي بالنصح والوعظ . ٣ ـ التعنيف . ٤ ـ التغيير باليد . ٥ ـ التهديد بالضرب والقتل . ٦ ـ ايقاع الضرب والقتل . ٧ ـ الاستغاثة بالغير .

٢ ـ التأديب :

تتجلى إجازة التأديب في مظهرين : هما : تأديب الزوجة . وتأديب الصغار .

أ ـ **تأديب الزوجة** : من حق الزوج في الشريعة الاسلامية ، أن يؤدب زوجته إذا لم تطعه فيما أوجبه الله عليها من طاعته . وأساس هذا الحق **قـــوله تعالى** : « الرجال قوامون على النساء » وقوله : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » .

ومن المتفق عليه ، أن للزوج أن يؤدب زوجته بصفة عامة على كل معصية لم يرد في شأنها حق مقرر . والتأديب الذي تجيزه الشريعة مقيد من حيث الغرض ومن حيث الوسيلة .

فالغاية منه إصلاح حال المرأة ، لا الانتقام ولا الإيذاء .

وهو لا يكون إلا بوسائل ثلاث على التدريج . وهذه الوسائل هي : الوعظ ثم الهجر في المضاجع ثم الضرب . وهذا رأي الإمام مالك والإمام أبي حنيفة . وهما يقولان بعقاب الزوج إذا تجاوز هذا الترتيب . اي ان إيقاع الضرب لا يجوز إلا في حال تكرار المعصية ذاتها لثالث مرة ، بعد أن يكون الزوج قد استعمل في المرة الأولى الوعظ وفي الثانية الهجر .

وحد الضرب مقيد بكونه ضرباً غير مبرح ، أي الذي لا يحدث كسراً أو

جرحاً ، ولا يترك اثراً وان لا يكون على المواضع الخطرة كالوجه والبطن . فالتأديب إذن حق مقيد بشرط السلامة .

لذا فالزوج لا يسأل جنائياً ولا مدنياً عن التأديب ما دام في حدوده المشروعة ، لأنه يستعمل حقاً أباحه له الشارع . أما إذا تعدى الزوج حدود التأديب المشروع ، فهو مسؤول جنائياً ومدنياً عن فعله .

ب ــ تأديب الصغار :

تبيح الشريعة الاسلامية ضرب الأولاد للتأديب والتعليم . وهذا الحق معطى للأب أو الجد أو الوصي . وللمعلم أيا كان مدرساً او معلم حرفة .

ويشترط كذلك في تأديب الصغار ما يشترط في تأديب الزوجة ، من كون الضرب غير مبرح ، ومتفقاً مع حالة الصغير وسنه . وان لا يكون على المواضع الخطرة كالوجه والبطن والمذاكير .

وأن يكون بقصد التأديب ، وان لا يسرف فيه ، وأن يكون مما يعتبر مثله تأديباً للصغير .

فاذا كان الضرب في هذه الحدود ، فلا مسؤولية على الضارب ، لأن الفعل مباح له . أما إذا تجاوز هذه الحدود فهو مسؤول عن فعله مدنياً وجنائياً .

٣ ــ التطبيب :

من المتفق عليه في الشريعة ، أن تعلم فن الطب فرض من الفروض الكفائية ، وانه واجب محتم على كل شخص لا يسقط عنه إلا إذا قام به غيره . وقد اعتبر تعلم الطب فرضاً لحاجة الجماعة للتطبيب ، ولأنه ضرورة اجتماعية ، وعلى هذا فان التطبيب واجب على الطبيب لا مفر من أدائه . والنتيجة البديهية لاعتبار التطبيب واجباً هي ألا يكون الطبيب مسؤولاً عما يؤدي إليه عمله قياماً بواجب التطبيب . لأن القاعدة أن الواجب لا يتقيد بشرط السلامة . ولكن . لما كانت طريقة أداء هذا الواجب متروكة لاختيار الطبيب وحده ، ولاجتهاده العلمي والعملي ، فقد دعا إلى ذلك البحث فيما إذا كان يسأل جنائياً عن نتائج عمله الضارة بالمريض .

وقد اجمع الفقهاء على عدم مسؤولية الطبيب إذا أدى عمله الى نتائج ضارة بالمريض . ولكنهم اختلفوا في تعليل رفع المسؤولية هذا . فأرجعه أبو حنيفة إلى اجتماع إذن المجني عليه أو وليه والضرورة الاجتماعية إلى عمل الطبيب . ونسبه الشافعي وابن حنبل الى احتمال إذن المجني عليه او وليه ، وقصد الاصلاح لا الإضرار . اما مالك فيعلل ذلك باجتماع إذن الحاكم وإذن المريض . ولكن الجميع يقولون بشرط عدم مخالفة أصول فن الطب ، أو الخطأ في تطبيقه .

وعلى هذا نستطيع أن نقول انه يشترط لعدم مسؤولية الطيب الشروط الآتية :

١ – ان يكون الفاعل طبيباً مأذوناً من الحاكم بممارسة هذه المهنة ضمن الشروط التي يراها .

٢ – أن يأتي الفعل بقصد العلاج وبحسن نية : وهذا يقتضي أن يكون الشفاء هو ما يهدف إليه الطبيب من عمله ، فمثلا لا يسمح للطبيب أن يزهق روح المريض بدافع الاشفاق عليه ، أو الرغبة في إراحته من آلامه ولو طلب منه ذلك .

وكذلك لا يسمح باستئصال الغدد الجنسية بدون الحاجة إلى ذلك . ولا يسمح بأن يكون قصده من عمله مجرد التجربة العلمية ، وفي جميع هذه الحالات وما يشبهها ، يكون الطبيب مستحقاً العقاب على جريمة مقصودة ، ولو كان المفعول به راضياً والهدف شريفاً .

٣ – أن يعمل طبقاً للأصول الطبية التي يعرفها أهل العلم ، ولا يتسامحون مع من يجهلها أو يتخطاها ممن ينتسب إلى علمهم أو فنهم ، ولكن من حق الطبيب أن يكون له قدر من الاستقلال في التقدير ، وفي انتقاء إحدى النظريات العلمية التي أوردها العلماء المختصون ولو لم يستقر الرأي عليها بعد .

ولكنه يعتبر مخطئاً إذا تصدى لحالة تستعصي على مثله ، وإنما عليه أن يشير عندئذ بالالتجاء الى طبيب آخر مختص بذلك .

٤ – أن يأذن له المريض أو من يقوم مقامه كالولي ، فاذا لم يؤذن للطبيب بذلك فليس له أن يقوم بالعلاج إلا في الحالات التي يصعب فيها الحصول على الإذن ، مع ضرورة إجراء العمل الطبي .

٤ ــ ألعاب الفروسية :

ويطلق عليها حالياً الألعاب الرياضية ...

تهتم الشريعة الاسلامية بألعاب الفروسية وتحض عليها ، باعتبارها مقوية للأجسام ، منشطة للعقول ، وتجيز الشريعة من انواع الفروسية كل ما يؤدي الى التفــوق في القوة والمهارة مما ينفع الجماعة وقت السلم أو وقت الحرب ، كالمسابقة بالأقــدام وسباق الخيل وغيرها من السباقات ، وكاللعب بالسيف والعصي ، والرماية بأنواعهــا ، وكالمصارعة ورفع الأثقال وشد الحبل والسباحة وغيرها .

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه سابق بالأقدام ، وسابق بين الإبل وبين الخيل ، وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه حضّر نضال السهام ، وأنه صارع ركانة ، وأنه طعن بالرمح ، وركب الخيل مسرجة ومعراة .

حكم إصابات اللعب : وألعاب الفروسية قد تؤدي الى اصابات تقع على اللاعبين أو على غيرهم . فإن نشأت هذه الاصابات عن لعبة لا تقوم على استعمال العنف والقوة بين اللاعبين ، وليس في ممارستها ما يستلزم استعمال القوة مــع الخصم ، أو يحتم ضربه ، او يعرضه للجرح ، فانها تخضع عندئذ لقواعد الشريعة العامــة ، لأنها ليست من ضروريات اللعبة . فان تعمدها أحد فهو مسؤول عنها باعتبارهــا جريمة عمدية . وإن وقعت نتيجة إهمال أو رعونة ، فهو مسؤول عنها باعتبارها جريمة غير عمدية .

أما الألعاب التي تستلزم استعمال القوة مع الخصم كالمصارعــة فان الإصابات الناشئة عنها لاعقاب عليها إذا لم يتعد بحدثها الحــدود المرسومة للعب . فاذا تعدى اللاعب حدود اللعب وأحدث بزميــله إصابة ما فهي جريمة عمــدية إذا تعمدها وغير عمدية إذا لم يتعمدها .

ج ــ **اهدار الاشخاص:** إهدار الأشخاص نظام تنفرد به تقريباً الشريعة الاسلامية. ولا يوجد هكذا كاملا في غيرها من الشرائع ، بل نجد في بعضها اجزاء صغيرة منه أو تشبهه .

المهدورون :

١ – الحربي . ٢ – المرتد . ٣ – الزاني المحصن . ٤ – المحارب . ٥ – الباغي .
٦ – من عليه القصاص . ٧ – السارق ...

١ – **الحربي** : الحربي اصلا من ينتمي لدولة في حالة حرب مع الدولة الاسلامية. وهو ايضاً من كان معصوماً بأمان او عهد ، فانتهى أمانه او نقض العهد .

ومن المتفق عليه ، ان الحربي مهدر الدم ، فاذا قتله شخص أو جرحه فلا عقاب عليه على ذلك ، لأنه إنما قتل او جرح شخصاً مباح القتل والجرح . وإنما يعاقب الفاعل في بعض الحالات لأنه أحل نفسه محل السلطة التنفيذية ، وافتأت عليها بإتيانه عملا مما اختصت نفسها به .

ولا عقاب على قتل الحربي إطلاقاً في ميدان الحرب ، او دفاعاً عن النفس في غير دار الحرب . أما قتل الحربي في غير ميدان الحرب لغير مقتضى ، كأن ضبط في دار الاسلام ، أو استأسر فقتله من ضبطه، أو استأسره أو قتله غيرهما . فان القاتل لا يؤاخذ باعتباره قاتلا ، لأن الحربي مباح الدم طبقاً للشريعة ، وضبطه أو أسره لا يعصمه ولا يغير صفته كحربي . فيبقى دمه مباحاً بعد الضبط او الاسر ولا مسؤولية على قتل مباح . وإنما المسؤولية تأتي من كون القاتل اعتدى على السلطة العامة التي يوكل إليها أمر من يضبط أو يأسر من الحربيين ، فمن هذه الوجهة يسأل القاتل ، ويعاقب لافتياته على السلطة .

وقتل الحربي في دار الحرب وفي حالة الدفاع عن النفس يعتبر واجباً ، وفيما عدا ذلك فهو حق للقاتل وليس واجباً عليه .

٣ – **المرتد** : المرتد هو المسلم الذي غير دينه . فالردة مقصورة على المسلمين ولا يعتبر مرتداً من يغير دينه من غير المسلمين . ويعتبر المرتد مهدر الدم في الشريعة . والأصل أن قتل المرتد للسلطات العامة ، فان قتله أحد الاشخاص بدون إذن هذه السلطات فقد اساء وافتات عليها ، فيعاقب على هذا ، لا على فعل القتل ذاته . وعلة إهدار المرتد أن الردة خروج على النظام الاجتماعي وهو الإسلام ، والخروج على النظام الاجتماعي جريمة خطيرة على المجتمع . لذا كان من الطبيعي أن يعاقب على الردة لحماية النظام الاجتماعي .

وقد ثبت وجوب قتل المرتد بقوله ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه) وقوله ﷺ (لا يحل قتل امريء إلا بأحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل نفس بغير نفس).

٣ - **الزنى المحصن**: تعاقب الشريعة الزاني المحصن بالرجم، والزاني غير المحصن بالجلد. وعقوبة الرجم عقوبة متلفة يقصد منها إهلاك الزاني وزجر غيره، لذا فقد اعتبر الزاني المحصن مهدر الدم.

والمتفق عليه عند مالك وأبي حنيفة وأحمد والرأي الراجح في مذهب الشافعي أن ليس على قاتل الزاني المحصن قصاص ولا ولاية. لأن الزاني المحصن يصبح بزناه مباح القتل. ولكن إذا كان لا يجوز مؤاخذة من يقتل الزاني المحصن باعتباره قاتلا، فانه يجوز أن يؤخذ باعتباره مفتاتاً على السلطات العامة.

أما الزاني غير المحصن، فعقوبته الجلد فقط، فمن قتله في غير حالة التلبس، اعتبر قاتلا عمداً وأقيد به. لأنه قتل معصوم الدم. وهذا متفق عليه بين الأئمة الأربعة.

ولكن إذا قتل الزاني غير المحصن في حالة التلبس، فلا عقوبة على قاتله عند مالك وأبي حنيفة وأحمد ورأي في مذهب الشافعي. وحجتهم في ذلك قضاء عمر رضي الله عنه. (فقد كان يتغدى يوماً فأقبل عليه رجل يعدو ومعه سيف مجرد ملطخ بالدم حتى قعد مع عمر. جاء جماعة في أثره، فقالوا: إن هذا قتل صاحبنا مع امرأته. فقال عمر: ما يقول هؤلاء؟ قال الرجل: لقد ضربت فخذي امرأتي بالسيف، فان كان بينهما أحد فقد قتلته. فقال عمر: ما يقول الرجل؟ فقالوا: ضرب بالسيف فقطع فخذي امرأته وأصاب وسط الرجل فقطعه اثنين. فقال عمر للرجل: ان عادوا فعد وأهدر دم الرجل).

ويعلل بعض الفقهاء إباحة القتل في حالة التلبس بالزنا بالاستفزاز الذي ينتاب القاتل فيدفعه للقتل، وهؤلاء يفرقون بين الأجنبية وغير الأجنبية. ولا يبيحون القتل في الحالة الأولى.

ولكن أغلب الفقهاء لا يعللون الاباحة بالاستفزاز، وإنما يعللونها بتغيير المنكر، فيرون أن قتل الزاني غير المحصن في حالة التلبس تغيير للمنكر باليد وهو

واجب على من استطاعه . وهؤلاء لا يفرقـــون بين الزنا بالاجنبية ، أو الزنا بغير الأجنبية .

ويستوي عند الفقهاء أن يكون القتل للزنا قبل حكم القضاء بثبوت جريمـة الزنا ، أو بعد الحكم . والمهم أن تثبت جريمة الزنا على القتيل بأدلتها الشرعية ، فان ثبتت فلا يسأل القاتل عن القتل على التفصيل السابق . وإن لم تثبت فهو مسؤول جنائياً عن القتل العمد .

٤ — المحارب : وهو من يرتكب جريمة الحرابـة . أي الافساد في الأرض . أو قطع الطريق كما يسميها البعض . والجريمة الحرابة أكثر من عقوبة واحدة ، وذلك ظاهر من قوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً . أن يُقتّلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض » فعقوبة الحرابة: القتل والصلب وقطع الأيدي والأرجـــل من خلاف والنفي . وليست جميع العقوبات متلفة .

ويرى الفقهاء في مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد ، ان العقوبة مرتبه على حسب الجناية التي وقعت ، فمن قتل ولم يأخذ مالاً قتل . ومن أخذ المال ولم يقتل قطع . ومن قتل وأخـذ المال قتل وصلب . ومن أخاف السبيل ولم يقتل ولم يأخذ مالاً نفي .

ويرى مالك أن المحارب إذا قتل فلا بد من قتله ، وليس للإمام تخيير في قطعه ولا في نفيه ، وإنما التخيير في قتله أو صلبه . وأما من أخذ المال ولم يقتل ، فلا تخيير في نفيه ، وإنما التخيير في قتله أو صلبه أو قطعه من خلاف . وأما إذا أخاف السبيل فقط ، فالامام مخير في قتله أو صلبه أو قطعه أو نفيه . ومعنى التخيير عند مالك ، أن الأمر راجع في ذلك إلى اجتهـــاد الامام . فان كان المحارب ممن له الرأي والتدبير ، فوجه الاجتهاد قتله أو صلبه ، لأن القطع لا يرفع ضرره . وإن كان لا رأي له وإنما هو ذو قوة وبأس قطعه من خلاف . وإن كان ليس فيه شيء من هاتين الصفتين ، أخذ بأيسر ذلك وهـو النفي والتعزير .

والحرابة جريمة من جرائم الحدود . ولكن عقوبات الحرابة تسقط استثناء

بالتوبة لقوله تعالى : « إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » ...

ويترتب على مـا ذكرنا أن المحارب يختلف حاله في الإهـدار باختلاف رأي الفقهاء ..

فعلى الرأي الأول : المحارب يهدر دمه بالقتل ، وبالقتل وبأخذ المال . وتهـدر يده اليمنى ورجله اليسرى بأخذ المال فقط ، ولا يهدر منه شيء باخافة السبيل ، لأن عقوبة النفي غير متلفة .

وعلى الرأي الثاني : المحارب يهدر دمه بالقتل ، وبالقتل وأخذ المال . وتهدر يده اليمنى ورجله اليسرى بأخذ المال فقط ، وهي أقل العقوبات ولو كان للإمام أن يقتله أو يصلبه أو يقطعه . وأما من أخاف السبيل فقط فلا يهدر منه شيء ولو كان للإمام أن يقتله أو يصلبه أو يقطعه أو ينفيه .

وكذلك فانه طبقاً للقاعدة العامة ، فان الإهدار يكون من وقت ارتـكاب الجريمة ، ولكن إذا أخذنا بالرأي الثاني فإن مـا يحكم به الامام يصبح مهدراً من تاريـخ الحـكم سواء كان قتلاً أو قطعاً . ولو كان قبل الحـكم غير مهدر .

وتزول حالة الإهدار بتوبة المحارب قبل القدرة عليه ، ويعود المحارب معصوماً ، وقتل المحارب أو قطعة قبل التوبة يعتبر واجباً لاحقاً . ويجوز للسلطات العامة أن تعاقب من يقتل أو يقطع مهدراً لا باعتباره قاتلاً أو قاطعاً ، وإنما باعتباره مفتاتاً على السلطات العامة .

٥ – **الباغي** : الباغي هو الخارج على الامام الحق بغير الحق . والبغي جريمـة توجه ضد نظام الحـكم والحكام ، ولا توجه ضد النظام الاجتماعي . فـاذا كانت الجريمة مقصوداً بها النظام الاجتماعي ، فهي ليس بغياً وإنما هي إفساد في الأرض .

ويشترط الفقهاء في جريمة البغي شروطاً خاصة أهمها :

أ – ان يكون البغاة متأولين ، أي أن يدّعوا سبباً لخروجهم ، ويدلّلوا على صحة ادعائهم ، ولو كان الدليل في ذاته ضعيفاً .

ب – أن يكونوا ذوي شوكة أو منعة ، أي أن يكونوا أقوياء لا بأنفسهم ولكن بغيرهم ممن هم على رأيهم .

ج – أن يأخذوا في تنفيذ غرضهم بالقوه ، أو يبدأوا بالتجمع والامتناع لذلك .

فاذا توفرت شروط جريمة البغي أهدر دم الباغي ، وأبو حنيفة يهدر دمهم من

وقت تجمعهم وامتناعهم ، ولو لم يبدأوا بالقتال أو الاعتداء . أما مالك والشافعي وأحمد فيشترطون لذلك أن يبدأوا بالقتال او الاعتداء . وقتال البغاة واجب في الشريعة لقوله تعالى « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » وكذلك يجوز للسلطات مؤاخذة قاتل الباغي باعتباره مفتاتاً على السلطات العامة ، وذلك إذا لم تأذن له بذلك .

٦ – **من عليه القصاص** : القصاص في الشريعة هو العقوبة الأصلية للقتل والجرح العمد . ومن أتى فعلاً يوجب القصاص ، يعتبر مهدراً فيما أوجبه على مثله بفعله . فإن وجب عليه القتل فهو مهدر الدم ، وإن وجب عليه قطع طرف أو جارحة فهو مهدر في طرفه أو جارحته التي وجب فيها القصاص .

والإهدار في القصاص إهدار رئيسي ، فلا يهدر الجاني إلا للمجني عليه أو وليه . وفيما عدا ذلك فهو معصوم في حق الكافة ، وذلك لأن للمجني عليه أو وليه في جرائم القصاص حق العفو فيمتنع تنفيذ القصاص عند ذلك

٧ – **السارق** : وهو كل من ارتكب سرقة يجب فيها القطع . ويعتبر غير معصوم بالنسبة للعضو الذي يجب قطعه . وعلة الإهدار أن القطع عقوبة متلفة ، وهي حد يجب أن يقام . ولذا كان القطع واجباً لاحقاً .

وكذلك يعاقب من يقطع يد سارق أو رجله ، باعتباره مفتاتاً على السلطات العامة إذا لم يكن مأذوناً له بذلك وكذلك يكون مسؤولاً عن فعله إذا لم تثبت السرقة .

٦ – حقوق الحكام وواجباتهم :

أ – واجبات الحكام : تضع الشريعة الإسلامية واجبات على عاتق السلطات العامة ، وتلزمها بأدائها لصالح الجماعة . ويقوم بتنفيذ هذه الواجبات الموظفون العموميون على اختلاف درجاتهم ، كل فيما يختص به . فإذا أدى الموظف واجبه فلا يسأل عنه جنائياً ، فالقتل مثلاً محرم على الكافة ، ولكنه مباح إذا كان عقوبة ، لأن من واجب القاضي أن يحكم بها ، ومن واجب الهيئة التنفيذية أن تنفذها . وكذلك الحال في عقوبة الجلد والحبس .

والقاعدة في الشريعة الإسلامية أن الموظف لا يسأل جنائياً إذا أدى عمله

طبقاً للحدود المرسومة لهذا العمل . أما إذا تعدى هـــذه الحدود فهو مسؤول جنائياً عن عمله إن كان يعلم أن لا حق له فيه . أما إذا حسنت نيته ، فأتى العمل وهو يعتقد أن واجبه إتيانه ، فلا مسؤولية عليه من الناحية الجنائية .

ومن تطبيقات هذه القاعدة إقامة الحدود . إذ لا خلاف بين الفقهاء في أنها واجبة فإذا أتى بها على الوجه المشروع دون زيادة ، فـلا مسؤولية على مقيمها عما تؤدي اليه من تلف . لأن الواجب لا يتقيد بشرط السلامة . أمـا إذا زاد عليها عمداً أو خطأً فهو مسؤول عن الزيادة .

وعلى هذا : فالإمام يقتص منه في كل ما تعمده من جور فجار به على الناس . فإذا قتل إنساناً جوراً قتل به ، وإذا قطع إنساناً قطع به . سواء باشر الفعل بنفسه ، أو تسبب فيه ، كأن حكم عليه ظلماً بالقتل أو القطع .

وكما يُسأل الإمام عن عمده ، فانه يُسأل عن خطئه . ولكن الفقهاء اختلفوا في ضمان الخطأ فرأى البعض أن الضمان على الإمام وعاقلته . ورأى البعض أن ضمان الخطأ في بيت المال ، لأن خطأ الإمام يكثر فضلاً عن أن الحاكم يعمـل للجماعة وليس لنفسه .

ويطبق مالك وأبو حنيفة وأحمد قاعدة عدم مسؤولية الامـــام عن التلف الحاصل في جرائم التعازير أيضاً ، سواء كانت العقوبة في ذاتها مهلكة كعقوبـة الاعدام ، أو غير مهلكة كالجلد ، ولكن تنفيذها أدّى لموت المحكوم عليـه . ورأي هؤلاء الفقهاء قائم على أن فعل المحكوم عليه ، استوجب الحكم بالعقوبـة وتنفيذها عليه ، وان التعزير واجب لحفظ مصلحة الأفراد ، وصيانة نظام الجماعة. والواجب غير مقيد بشرط السلامة .

أما الشافعي فيرى أن يضمن الامام دية المحكوم عليه إذا عزره فمات ، أو كانت العقوبة التعزيرية هي الموت . لأن من حق الامام العفو عن الجريمة ، والعفو عن العقوبة . كما أن من حقه اختيار العقوبة الملائمة للجريمـة والمجرم . والتعزير مقصود به التأديب لا الهلاك فكان مشروطاً بسلامة العاقبة ، ويدخل في التعزير عند الشافعي حد الخمر إذا زاد على أربعين جلدة .

ورأي الشافعي هذا يؤدي إلى مبدأ اجتماعي صالح ، إذ يعوض ورثة المحكوم

عن موت عائلهم الذي يموت غالباً من عقوبة لم يقصد منها موته . ولا شك أن مثل هذا التعويض يساعد على حماية أسرة المحكوم عليه من العوز .

ب – حقوق الحكام : للحكام في الشريعة كل ما للأفراد من حقوق . ولكن لهم فوق ذلك حق الأمر على الأفراد . واستعمال هـذا الحق يؤدي إلى ترتيب واجب على الأفراد ، هو واجب الطاعة .

وقد قرر القرآن هذا الحق وذاك الواجب بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ...

وحق الأمر وواجب الطاعة كلاهما مقيد بما لا يخالف الشريعة وذلك ظاهر من قوله تعالى : « فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » . وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) . وقوله ﷺ : (من أمركم من الولاة بغير طاعة الله فلا تطيعوه) .

إذاً فأمر الحاكم لا يخلي مسؤولية الموظف عما ينفذه من أوامر مخالفة للشريعة . هذا إذا كان يعلم ذلك . أما إذا لم يكن يعلم ، ونفذه طاعة لأمر الرئيس ، فلا مسؤولية عليه لحسن نيته ، بشرط أن يكون الفعل داخلاً في اختصاص الآمر .

وإذا أكره الرئيس المرؤوس على قتل أحد أو جلده بغير حق فمات ، فكلاهما مسؤول جنائياً عن الفعل ، ولا يعفي الاكراه المرؤوس من المسؤولية .

والشريعة في هذا إنما تشجع المرؤوس على قول الحق . وعلى سلوك السبيل السوي . وتجعل الرئيس في حالة عجز عن مخالفة التشريع ، لأنه لا يجد من ينفذ أمره . وفي ذلك ضمان للمحكومين والحاكمين على السواء .

٢ – الركن المادي للجريمة ...

الجريمة فعل يقوم به إنسان ، ويفضي في أغلب الأحيان إلى الاضرار بحق ، أو قيمة ، أو مصلحة قانونية ، أو إلى تعريضها للخطر . وهذا الفعل الانساني يؤلف بحد ذاته الركن المادي للجريمة . ومن البدهي أنه لا قيام للجريمة إلا بقيام ركنها المادي ، فهو مظهرها الخارجي المحسوس الذي به خرج بها إلى عالم المجتمع ودنيا الواقع . وبه توقع الجريمة الاضطراب في المجتمع والإخلال بنظامه وأمنه .

عناصر الركن المادي . للركن المادي ثلاثة عناصر هي :

. الأول – فعل محرم يقوم به الفاعل : وهذا الفعل قد ينم عنه نشاط إيجابي ، وقد ينم عنه موقف سلبي بحت يتمثل في الامتناع عن القيام بواجب .

الثاني – تحقق النتيجه الضارة الناشئة عن هذا السلوك : فالجريمة لا تكون تامة ما لم تتحقق النتيجة التي يتمثل فيها الضرر . وهذه النتيجة هي التي يهدف الشارع في الأصل إلى منع حدوثها بالعقاب .

الثالث – علاقة السببية الواجبة الوجود بين الفعل والنتيجة الحاصلة . فلا يعاقب امرؤ إذا لم يثبت على سبيل الجزم بالتوكيد أن النتيجة المتحققة الضرر ترتبط بالنشاط الذي قام به .

والشريعة تشترط أن يكون الجاني هو السبب الوحيد في إحداث النتيجة الجرمية . بل يكفي أن يكون فعل الجاني سبباً فعالاً في إحداثها . فمثلاً في جريمة القتل يستوي أن يكون فعل الجاني هو الذي سبب الموت وحده أو أن الموت نشأ عن فعل الجاني وعن أسباب أخرى تولدت عن هذا الفعل ، كتحرك مرض كامن لدى المجني عليه . كما يستوي أن يكون الموت نشأ عن فعل الجاني وحده وعن أسباب لا علاقة لها بفعل الجاني . كالاعتداء الحاصل من شخص آخر.

ولا يعتبر فعل الجاني سبباً للموت إذا انعدمت رابطة السببية بين الفعل وموت المجني عليه . او إذا كانت قائمة ثم انقطعت بعد ذلك بفعل من شخص آخر ينسب اليه الموت دون فعل الجاني الأول . أو إذا كان في إمكان المجني عليه أن يدفع أثر الفعل دون شك ، فامتنع عن دفعه دون ان يكون للجاني دخل في امتناعه . والجاني مسؤول عن نتيجة فعله ، سواء كان الموت نتيجة مباشرة لفعله ، أو كان نتيجة غير مباشرة لهذا الفعل ، وسواء كان السبب قريباً أم بعيداً ما دام الفعل سبباً للنتيجة .

الاشتراك في الجريمة :

قد يرتكب الجريمة فرد واحد . وقد يرتكبها أفراد متعددون ، فيساهم كل منهم في تنفيذها ، او يتعاون مع غيره على تنفيذها . وصور المساهمة والتعاون لا تخرج مهما اختلفت عن حالة من أربع : فالجاني قد يساهم في تنفيذ الركن المادي للجريمة مع غيره . وقد يتفق مع غيره على هذا التنفيذ . وقد يحرضه عليه .

وقد يعينه على ارتكاب الجريمة بشتى الوسائل دون ان يشترك معه في التنفيذ .

وكل واحد من هؤلاء يعتبر مشتركاً في الجريمة ، سواء اشترك مادياً في تنفيذ الركن المادي للجريمة ، أم لم يشترك مادياً في تنفيذه . ويسمى من يباشر تنفيذ الركن المادي (شريكاً مباشراً) ويسمى من لا يباشر التنفيذ (شريكاً متسبباً) وعلى هذا فالاشتراك في الجريمة يقسم الى نوعين :

أ – الاشتراك المباشر : وهو الاشتراك في تنفيذ الركن المادي للجريمة .

ب – الاشتراك بالتسبب : وهو الاشتراك في الجريمة عن طريق الاتفاق على تنفيذها ، او التحريض عليها ؟ او بذل العون لمرتكبها بدون مباشرة التنفيذ المـادي .

صور الاشتراك :

أ – الاشتراك المباشر :

الأصل أن هذا النوع من الاشتراك يوجد في حالة تعدد الجناة الذين يباشرون ركن الجريمة المادي . وعلى هذا يعتبر مباشراً للجريمة :

١ – من يرتكبها وحده او مع غيره . فإذا اشترك اثنان او أكثر في القتل، فأطلق كل منهم عياراً على المجني عليه فأصابه إصابة قاتلة فكـل منهما مباشر لجريمة القتل . وهنا يفرق أغلب الفقهاء بين مسؤولية المباشر في حالة التوافق ، وبين مسؤوليته في حالة التمالؤ :

فالتوافق معناه أن تتجه إرادة المشتركين في الجريمة الى ارتكابهـا دون أن يكون بينهم أي اتفاق سابق ، بـل يعمل كل منهم تحت تاثير الدافع الشخصي والفكرة الطارئة . كما هو الحال في المشاجرات التي تحدث فجأة ، فيتجمع لها أهل المتشاجرين دون اتفاق سابق . ففي هذه الحالة وأمثالها لا يسأل كل من المباشرين إلا عن فعله فقط ولا يتحمل نتيجة فعل غيره .

أما التمالؤ فيقتضي الاتفاق السابق بين الشركاء المباشرين على ارتكاب الجريمة ، بمعنى أنهم يقصدون جميعاً فعل ارتكاب الحادث للوصول الى تحقيق غرض معين ، ويتعاونون أثناء وقوع الحادث على إحداث ما اتفقوا عليه . ولذا فهم يسألون

جميعاً عن الجريمة المرتكبة .

٢ – يعتبر مباشراً للجريمة الشريك المتسبب إذا كان المباشر آلة في يده يحركه كيف يشاء ، هذا يتفق فيه أغلب الفقهاء . أما أبو حنيفة فلا يعتبره كذلك إلا اذا كان الآمر يعتبر مكرهاً للمأمور .

عقوبة المباشرين :

القاعدة في الشريعة أن تعدد الفاعلين لا يؤثر على العقوبة التي يستحقها كل منهم لو كان قد ارتكب الجريمة بمفرده ، فعقوبة من اشترك مع آخرين في مباشرة جريمة هي نفس العقوبة المقررة لمن ارتكب الجريمة وحده ، ولو أن الجاني عند التعدد لا يأتي كل الأفعال المكونة للجريمة .

ب – الاشتراك بالتسبب :

يعتبر شريكاً متسبباً من اتفق مع غيره على ارتكاب فعل معاقب عليه . ومن حرض غيره أو أعانه على هذا الفعل . ويشترط في الشريك أن يكون قاصداً الاتفاق أو التحريض أو الإعانة على الجريمة .

شروط الاشتراك بالتسبب : يستخلص مما سبق أن الاشتراك بالتسبب لا يوجد إلا اذا توفرت ثلاثة شروط :

الشرط الأول : وجود فعل معاقب عليه هو الجريمة أي أن يقع هذا الفعل ، ولكن ليس من الضروري أن يقع الفعل تاماً بل يكفي لمؤاخذة الشريك أن يكون الفعل غير تام أي مشروعاً معاقباً عليه . وليس من الضروري أن يعاقب الفاعل المباشر ليعاقب الشريك . فقد يكون الفاعل حسن النية أو صغيراً أو مجنوناً فيعفى من العقاب ، ويعاقب الشريك .

الشرط الثاني : يجب أن يكون الاشتراك باتفاق أو تحريض أو إعانة :

الشرط الثالث : أن يكون الشريك قاصداً من وسائله وقوع الفعل المعاقب عليه : أي يشترط أن يقصد الشريك من اتفاقه أو تحريضه أو عونه وقوع جريمة معينة فإن لم يقصد جريمة بعينها فهو شريك في كل جريمة تقع ما دامت

تدخل في قصده المحتمل . فـاذا لم يقصد الشريك جريمة مـا أو قصد جريمـة معينة فارتكب الجاني غيرها فلا اشتراك .

عقوبة الشريك المتسبب :

يعاقب الشريك المتسبب بعقوبة تعزيرية لأن عدم مباشرته الجريمة تعتبر شبهة تدرأ عنه القصاص في هذه . ولكن إذا كان فعل الشريك المتسبب يجعله في حكم المباشر كما لو كان المباشر مجرد أداة في يد الشريك المتسبب فان الأخير يعاقب في هذه الحالة بعقوبة الحد أو القصاص لأنه يعتبر شريكاً مباشراً لا متسبباً .
أما في جرائم التعازير فيجوز العقاب على الاشتراك بعقوبة تعادل عقوبة الفاعل الأصلي أو بعقوبة تزيد عليها وذلك حسب الظروف التي يقدرها القاضي .

٣ – الركن الأدبي للجريمة :

ركن الجريمة الأدبي هو أن يكون الجاني مكلفاً . أي مسؤولاً عن الجريمة . إذ لما كانت الأوامر والنواهي تكاليف شرعية ، فإنها لا توجه إلا لكل عاقل فاهم للتكليف . إذ التكليف خطاب . وخطاب من لا عقل له ولا فهم محال . كالجماد والبهيمة ، ومن استطاع ان يفهم أصل الخطاب ، ولا يفهم تفاصيله من كونه أمراً ونهياً ، ومقتضياً للثواب والعقاب كالمجنون والصبي غير المميز ، فهو في عجزه عن فهم التفاصيل كالجماد والبهيمة في العجز عن فهـــم أصل الخطاب ، ومن ثم يتعذر تكليفه . وعلى هذا فإن الشريعة لا تعرف محلاً للمسوولية إلا الإنسان الحي المكلف الذي يتمتع بحرية الاختيار أثناء ارتكاب الفعل .

ونصوص الشريعة توكد هذه المعاني بوضوح . قـال عليه الصلاة والسلام : (رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يصحو ، وعن المجنون حتى يفيق) . وقال كذلك عليه الصلاة والسلام : (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) . وكذلك قال الله تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

أسس المسؤولية الجنائية :

نرى مما سبق أن أسس المسؤولية الجنائية في الشريعة ثلاثة ، إذا وجدت وجدت المسؤولية ، وإذا انعدم أحدها انعدمت هي

١ ـ أن يأتي الإنسان فعلاً محرماً .
٢ ـ أن يكون الفاعل مختاراً .
٣ ـ أن يكون الفاعل مدركاً .

درجات المسؤولية الجنائية أربع :

١ ـ العمد : وهو أن يقصد الجاني إتيان الفعل المحظور ، والعمد هو أجسم أنواع العصيان . وعليه ترتب الشريعة أجسم أنواع المسؤولية .

وللعمد في القتل معنى خاص عند جمهور الفقهاء . وهو أن يقصد الجاني الفعل القاتل ويقصد نتيجته .

٢ ـ شبه العمد : والشريعة لا تعرفه إلا في القتل والجناية على ما دون النفس. وهو أن يقصد الجاني إتيان الفعل القاتل دون أن يقصد نتيجته . أي أن شبه العمد في القتل ، يشبه العمد في غيرها من الجرائم .

وشبه العمد غير مجمع عليه من الأئمة . فمالك لا يعترف بـــه . ولذلك فهو يعرف العمد في القتل بأنه إتيان الفعل بقصد العدوان . أي أنه لا يشترط قصد نتيجة الفعل .

والقائلين بشبه العمد يختلفون في وجوده بالنسبة لما دون النفس . ويتفقون في وجوده بالنسبة للقتل ، إذ معناه عندهم إتيان الفعل القاتل بقصد العدوان ، دون أن تتجه نية الجاني إلى إحداث القتل .

ولكن الفعل يؤدي الى القتل . وحجة القائلين ان رسول الله ﷺ قال : (ألا إن في قتيل خطأ العمد قتيل السوط والعصا والحجر مائة من الإبل) . وسمي شبه العمد بهذه التسمية لأنه يشبه العمد من حيث قصد الفعل ، ولا يشبهه من حيث انعدام قصد الفعل .

وشبه العمد فيما دون النفس معناه إتيان الفعل بقصد العدوان دون أن تتجه نية الجاني الى إحداث النتيجة التي انتهى اليها الفعل .

وشبه العمد أقل جسامة من العمد . وعلى ذلك تكون عقوبته أخف .

٣ – الخطأ : وهو أن يأتي الجاني الفعل دون أن يقصد العصيان . ولكنه يخطىء إما في فعله ، وإما في قصده ، فأما الخطأ في الفعل فمثله أن يرمي طائراً فيخطئه ويصيب شخصاً .

وأما الخطأ في القصد فمثله أن يرمي من يعتقد أنه جندي من جنود الأعداء لأنه في صفوفهم أو عليه لباسهم فإذا به جندي معصوم .

٤ – ما جرى مجرى الخطأ : يلحق الفعل بالخطأ ويعتبر جارياً مجراه في حالتين :

أ – أن لا يقصد الجاني إتيان الفعل ، ولكن الفعل يقع نتيجة تقصيره . كمن ينقلب وهو نائم على صغير بجواره فيقتله .

ب – أن يتسبب الجاني في وقوع الفعل المحرم دون أن يقصد إتيانه . كمن يحفر حفرة في الطريق لتصريف ماء مثلاً ، فيسقط فيها أحد المارة ليلاً .

وعلى هذا فالخطأ أكثر جسامة مما جرى مجرى الخطأ . لأن الجاني في الخطأ يقصد الفعل ، وتنشأ النتيجة المحرمة عن تقصيره وعدم احتياطه . أما فيما جرى مجرى الخطأ فالجاني لا يقصد الفعل ، ولكن الفعل يقع نتيجة تقصيره أو تسببه .

أثر الجهل والخطأ والنسيان على المسؤولية الجنائية :

الجهل : من المباديء الأولية في الشريعة ان الجاني لا يؤاخذ على الفعل المحرم إلا إذا كان عالماً علماً بتحريمه . فإذا جهل التحريم ارتفعت عنه المسؤولية .

ويكفي في العلم بالتحريم إمكانه . فمتى بلغ الانسان عاقلاً وكان ميسراً له أن يعلم ما حرم عليه ، إما برجوعه للنصوص الموجبة للتحريم . وإما بسؤال أهل الذكر ، اعتبر عالماً بالافعال المحرمة . ولهذا يقول الفقهاء : (لا يقبل في دار الاسلام العذر بجهل الاحكام) . ويلحق الجهل بمعنى النصوص والجهل بذات النصوص .

فحكمها واحد ، فان الجهل بالمعنى الحقيقي للنص لا يرفع المسؤولية الجنائية . وقد أقيم الحد على جماعة من المسلمين شربوا الخمر في الشام مستحلين لها مستدلين بقوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » .

الخطأ : الخطأ هو وقوع الشيء على غير إرادة فاعله . فالفاعل في جرائم الخطأ لا يأتي الفعل عن قصد ولا يريده ، وإنما يقع منه على غير إرادته وبخلاف قصده .

والمخطيء كالعامد مسؤول جنائياً كلما وقع منه فعل يحرمه الشارع ، ولكن سبب مسؤوليتهما مختلف . فمسؤولية العامد سببها أنه قصد عصيان أمر الشارع ، وتعمد إتيان ما حرمه ، أو ترك ما أوجبه .

ومسؤولية المخطيء سببها انه عصى الشارع لا عن قصد ، ولكن عن تقصير وعدم تثبت واحتياط . والاصل في الشريعة أن المسؤولية الجنائية لا تكون إلا عن فعل متعمد حرمه الشارع ، ولا تكون على الخطأ لقوله تعالى : « ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » . ولكن الشريعة أجازت العقاب على الخطأ استثناء من هذا الأصل ، ففرضت الدية والكفارة على القتل الخطأ .

ولما كان الأصل هو العقاب على العمد ، والاستثناء هو العقاب على الخطأ . فإنه يترتب على ذلك أن كل جريمة عمدية يعاقب عليها فاعلها إذ أتاها عامداً . ولا يعاقب عليها إذا أتاها مخطئاً ما لم يكن الشارع قد قرر عقوبة لمن أتاها مخطئاً. ويمكن تعليل عدم العقاب بأن الخطأ يعدم ركناً من اركان الجريمة العمدية فلا تتكون الجريمة .

على أن انتفاء المسؤولية الجنائية في هذه الحالة لا يمنع مسؤولية الفاعل مسؤولية مدنية . إذ أن القاعدة في الشريعة أن الدماء والأموال معصومة .

ويلاحظ أن الصالح العام هو الذي اقتضى العقاب على الخطأ . فهناك من الجرائم ماله خطورته ويكثر وقوعه ، لذا فقد عوقب عليها . لأن العقاب يحقق مصلحة عامة .

النسيان : هو عدم استحضار الشيء وقت الحاجة إليه . وقد قرنت الشريعة

النسيان بالخطأ . في قوله تعالى : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او آخطأنا » وفي قوله ﷺ : (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان) .

وقد اختلف الفقهاء في حكم النسيان . فرأى البعض أن النسيان عذر عام في العبادات والعقوبات ، وأن القاعدة في الشريعة أن من فعل محظوراً ناسياً فلا إثم عليه ولا عقاب . ولكن الناسي إذا أعفى من المسؤولية الجنائية ، فإنه لا يعفى من المسؤولية المدنية . لأن الاموال والدماء معصومة .

ويرى البعض ان السنيان عذر بالنسبة للمؤاخذة في الآخرة ، أما بالنسبة لأحكام الدنيا فلا يعتبر النسيان عذراً معفياً من العقوبة الدنيوية إلا فيما يتعلق بحقوق الله تعالى . فإنه يعتبر عذراً بشرط أن يكون هناك داع طبيعي للفعل ، وأن لا يكون هناك ما يذكر الناسي بما نسيه . مثل أكل الصائم ناسياً ، فان طبع الانسان يدعوه للأكل وليس هناك ما يذكّره بالصوم . أما ما يتعلق بحقوق الأفراد ، فالنسيان لا يعتبر عذراً بأي حال .

العقوبة والحالات التالية :

١ — الإكراه . ٢ — السكر . ٣ — الجنون . ٤ — الصغر .

١ — الاكراه :

يعرف بعض الفقهاء الإكراه بأنه فعل يفعله الانسان بغيره فيزول رضاه أو يفسد اختياره . والأكراه نوعان :

نوع يعدم الرضا ويفسد الاختيار ويسمي الإكراه التام أو الملجيء ، وهو ما خيف فيه تلف النفس . ونوع يعدم الرضا ولا يفسد الاختيار ويسمى الإكراه الناقص أو غير الملجيء ، وهو ما لا يخاف فيه تلف النفس عادة . والاكراه الناقص لا يؤثر إلا على التصرفات التي تحتاج الى الرضا ، كالبيع والاجارة والإقرار ، فلا تأثير له على الجرائم . والإكراه يصح أن يكون مادياً ويصح أن يكون معنوياً .

شروط الاكراه : يشترط في الاكراه ليعتبر قائماً الشروط التالية :

أ — ان يكون الوعيد ملجئاً يعدم الرضا كالضرب والقتل الشديد وما إليه ،

مما يمكن اعتباره ملجئاً بحسب الأشخاص والظروف .

وأمر صاحب السلطان يعتبر في ذاته إكراهاً ، دون حاجة إلى اقترافه الوعيد والتهديد ، اذا كان المفهوم أن جزاء المخالفة هو القتل أو الضرب الشديد أو الحبس أو القيد الطويلين . أما أمر من لا سلطان له فلا يعتبر إكراهاً إلا إذا تحقق وقوع وسائل الإكراه عند المخالفة .

وأمر الزوج لزوجته في حكم أمر السلطان ، إن كانت تخشى أن تقع عليها وسائل الإكراه عند عدم الطاعة . ويعتبر الوعيد إكراهاً إذا وجه لنفس المكره ، أما إذا وجه لغيره فهناك خلاف . فيرى البعض أنه يعتبر كذلك ولو وقع على أجنبي ، ولا يراه البعض كذلك . ويشترط البعض أن يقع على الولد أو الوالد أو على ذي رحم محرم .

وكذلك هناك خلاف حول الوعيد باتلاف المال ، فيعتبره البعض إكراهاً إذا كان المال غير يسير بحسب حالة المكره ، ولا يعتبره البعض كذلك .

ويجب لاعتبار الوعيد إكراهاً أن يكون بفعل غير مشروع ، فإذا كان الفعل المهدد به مشروعاً لا يعتبر الفاعل مكرهاً ، كالتهديد بتنفيذ عقوبة محكوم بها .

ب ـ أن يكون الوعيد بأمر حال يوشك أن يقع إن لم يستجب المكره ، وإلا لا يكون الوعيد إكراهاً لأن المكره لديه من الوقت ما يسمح بحماية نفسه . ويرجع في تقدير حلول الوعيد إلى ظروف المكره .

جـ ـ أن يكون المكره قادراً على تحقيق وعيده ، فإن لم يكن كذلك فلا إكراه .

د ـ أن يغلب على ظن المكره أنه إذا لم يجب إلى ما دعي اليه تحقق ما أوعد به . فإن كان يعتقد أن المكره غير جاد ، أو كان يستطيع تفادي الوعيد بأية طريقة ، فإنه لا يعتبر مكرهاً ، ويجب أن يكون ظن المكره مبنياً على أسباب معقولة .

حكم الاكراه : الجرائم بالنسبة للإكراه ثلاثة أنواع :

١ ـ نوع لا يؤثر عليه الإكراه ، فلا يبيحه الاكراه ولا يرخص به .

٢ ـ نوع يبيحه الاكراه ، فلا يعتبر جريمة .

٣ ـ نوع يرخص به الاكراه ، فيعتبر جريمة ولكن لا يعاقب عليه .

١ – الجرائم التي لا يؤثر عليها الاكراه :

اتفق الفقهاء على أن الاكراه الملجيء لا يرفع العقوبة عن المكره إذا كانت الجريمة قتلاً ، أو قطع طرف ، أو ضرباً مهلكاً . وحجتهم في ذلك قوله تعالى: « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » . وقوله تعالى : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » . ولذا فهم يرون أن كل جريمة يمكن أن تباح أو يرخص بها للإكراه، إلا قتل الإنسان ، والاعتداء عليه اعتداء مهلكاً ، ولكن مع هذا اختلف الفقهاء في نوع العقوبة ، فمالك وأحمد يريان القصاص من المكره ، وعلى هـذا الرأي الأرجح في مذهب الشافعي ، وكذلك زفر من أصحاب أبي حنيفة . أما الرأي المرجوح في مذهب الشافعي فيرى أن العقوبة هي الدية على اعتبار أن الاكراه شبهة تدرأ القصاص ، وكذلك رأي أبي يوسف من الحنفية ، أما أبو حنيفة ومحمد فيريان الاكتفاء بتعزير المكره بالعقوبة الملائمة .

٢ – الجرائم التي يباح فيها الفعل :

يرفع الاكراه المسؤولية الجنائية في كل فعل محرم يبيح الشارع إتيانه في حالة الاكراه ، كأكل الميتة ، وشرب الدم لقوله تعالى : « وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم اليه » . ولقوله تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عـاد فلا إثم عليه » . فأكل الميتة ، وشرب الدم ؛ كلاهما محرم ، ولكنه يباح إذا أكره الانسان عليه ، بل إن المكره ليأثم عند ربه على الرأي الراجح إذا امتنع عن مطاوعة المكره ، لأنه يلقي بنفسه في التهلكة بامتناعه وعدم مطاوعته .

وعلى هذا فهذا النوع من الجرائم هو الذي ورد في النصوص إباحته عنـد الضرورة أو الاكراه ، وهذه الأفعال خاصة بالمطاعم والمشارب المحرمة ، كالميتة ولحم الخنزير والدم والنجاسات ، ويختلف الفقهاء في الخمر فمالك لا يبيحها وإن كان يرفع العقوبة . أما الثلاثة الآخرين فيرون أن الاكراه يبيح الخمر .

٣ – الجرائم التي ترتفع فيها العقوبة :

يرفع الاكراه التام العقوبة في كل الجرائم الأخرى عدا ما سبق ، مع بقـاء الفعل محرماً على أصله ، وعلة ذلك أن المكره لا يأتي الفعل مدركاً ولا مختاراً ،

وإذا انعدم الادراك والاختيار فلا عقاب على الفاعل .

وكذلك في هذا القسم يسأل المكره مدنياً عن الأضرار التي أصابت غيره من الجريمة التي ارتكبها ، ولو أنه معفى من عقوبتها ، لأن القاعدة في الشريعة أن الدماء والأموال معصومة .

الاكراه والضرورة :

ويلحق بالاكراه حالة الضرورة من حيث الحكم ، ولكنها تختلف عن الاكراه في سبب الفعل ، ففي الاكراه يدفع المكره الى اتيان الفعل شخص آخر . أما في حالة الضرورة فالفاعل يوجد في ظروف يقتضيه الخروج منها أن يرتكب الفعل المحرم لينجي نفسه أو غيره من الهلاك .

شروط حالة الضرورة :

١ — أن تكون الضرورة ملجئة بحيث يجد الفاعل نفسه أو غيره في حالة يخشى منها تلف النفس أو الأعضاء .

٢ — أن تكون الضرورة قائمة لا منتظرة .

٣ — أن لا يكون لدفع الضرورة وسيلة إلا ارتكاب الجريمة .

٤ — أن تكون الضرورة بالقدر اللازم لدفعها .

حكم حالة الضرورة :

يختلف حكم حالة الضرورة باختلاف الجريمة ، فهناك جرائم لا تؤثر عليها حالة الضرورة ، وجرائم تبيحها الضرورة ، وجرائم ترتفع فيها العقوبة للضرورة .

أ — الجرائم التي لا تؤثر عليها الضرورة :

ليس للضرورة أثر على جرائم القتل او القطع أو الجرح . فليس المضطر بأي حال من الأحوال أن يقتل غيره أو يقطعه أو يجرحه لينجي نفسه من الهلكة .

وليس المضطر أن يأخذ من مضطر مثله ما يقيم حياته ، لأنه أحق به حيث يساويه في الضرورة وينفرد بالملك ، فان أخذه منه فمات فهو مسئول عن موته ، ويعتبر قاتلا له بغير حق .

ب – الجرائم التي لا تبيحها الضرورة :

تباح الجريمة للضرورة إذا كانت الشريعة تنص على إباحتها في حالة الضرورة . وهذا النوع من الجرائم خاص بالمطاعم والمشارب ، كأكل الميتة ، ولحم الخنزير وشرب الدم والنجاسات . فهذه الجرائم وأمثالها يباح إتيانها في حالة الضرورة باتفاق . بشرط ان يقتصر الفعل المحرم على القدر الذي يسد الضرورة . وقد اختلف الفقهاء في اتيان الفعل المحرم الذي يباح للضرورة فقال بعضهم ورأيهم الراجح أن إتيانه واجب على المضطر وليس حقاً له ويرى الآخرون انه حق لا واجب .

جـ – الجرائم التي ترفع الضرورة عقوبتها :

فيما عدا النوعين السابقين من الجرائم ، فإن المضطر إذا أتى الجرائم الأخرى مدفوعاً الى ارتكابها بالضرورة ، فانه يعفى من العقوبة مع بقاء الفعل محرماً . ويشترط للإعفاء من العقوبة ، أن لا يأتي المضطر الفعل إلا بالقدر الذي يدفع الضرورة . ويشترط كذلك للإعفاء من العقوبة ، ان يكون الفعل المحرم مما يرد الضرورة . فمن يسرق أمتعة ليبيعها ويشتري بثمنها طعاماً ، لا يستطيع ان يدعي انه كان في حالة ضرورة . لأن سرقة الأمتعة لا تدفع الضرورة مباشرة . أما سرقة الطعام مباشرة فيمكن معها ادعاء الضرورة .

٢ – السكر :

تحرم الشريعة شرب الخمر لذاته ، سواء أسكر أو لم يسكر وتعتبر جريمة الشرب من الحدود ، ويعاقب عليها بالجلد . ويعرف السكر بأنه : غيبة العقل من تناول خمر أو ما يشبه الخمر . ويعتبر الانسان سكراناً إذا فقد عقله ، فلم يعد يعقل قليلا أو كثيراً . هذا رأي أبي حنيفة . أما أبو يوسف ومحمد وباقي الأئمة فيرون أن السكران هو الذي يغلب على كلامه الهذيان . وحجتهم في ذلك قول الله تعالى: « يا أيها الذي آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون». فمن لم يعلم ما يقول فهو سكران .

السكر والمسؤولية الجنائية :

الرأي الراجح في كل المذاهب الأربعة ، أن السكران لا يعاقب على ما يرتكب من الجرائم إذا تناول المادة المسكرة مكرهاً أو مضطراً . أو تناول المسكر وهو لا يعلم أنه مسكر . أو شرب دواء للتداوي فأسكره . لأنه ارتكب الجريمة وهو زائل العقل ، فيكون حكمه حكم المجنون ، أو النائم وما أشبه .

أما من يتناول المسكر مختاراً بغير عذر أو يتناول دواء لغير حاجة فيسكر منه ، فإنه مسؤول عن كل جريمة يرتكبها أثناء سكره ، سواء ارتكبها عامداً او مخطئاً ، ويعاقب بعقوبتها . لأنه أزال عقله بفعله . وبسبب هو في ذاته جريمة. فيجب ان يتحمل العقوبة زجراً له . فضلاً عن إن اسقاط العقوبة عنه يفضي الى أن من أراد ارتكاب جريمة شربَ الخمر وفعل ما أحب فلا يلزمه شيء .

السكر والمسؤولية المدنية :

يسأل السكران مدنياً عن فعله ، ولو أعفي من العقاب لسكره . فالمسؤولية المدنية لا ترتفع عن السكران بحال ، وذلك لأن الدماء والاموال معصومة . وعدم الإدراك إن صلح سبباً لرفع العقاب ، فانه لا يصلح سبباً لاهدار الدماء والاموال.

٣ – الجنون :

تعتبر الشريعة الانسان مكلفاً إذا كان مدركاً مختاراً . فاذا انعدم أحد هذين العنصرين ، ارتفع التكليف عن الانسان ، ومعنى الإدراك في المكلف أن يكون متمتعاً بقواه العقلية . فان فقد عقله لعاهة أو أمر عارض او جنون فهو فاقد الادراك .

حكم الجنون :

يختلف حكم الجنون بحسب ما إذا كان معاصراً للجريمة او لاحقاً لها :

حكم الجنون المعاصر للجريمة : يترتب على الجنون المعاصر للجريمة رفع العقوبة عن الجاني لانعدام الإدراك فيه . فالجنون لا يبيح الفعل المحرم ، وإنما يرفع عقوبته عن الفاعل . وهذا الحكم متفق عليه بين فقهاء الشريعة وإعفاء المجنون من العقوبة الجنائية لا يعفيه من المسؤولية المدنية عن فعله ، لأن الاموال والدماء معصومة . ولأن الاعذار الشرعية لا تبيح عصمة المحل . وإذا كان الجنون لا يجعل

الجاني أهلاً للعقوبة ، فانه لا ينفي عن الجاني أهليته لتملك أموال ، وما دامت هذه الأهلية متوفرة فيه فقد وجب أن يتحمل المسئولية المدنيــة وهي مسئولية ماليــة .

ومع اتفاق الفقهاء في مسئولية المجنون المدنية ، فانهم اختلفوا في مدى هذه المسئولية ، بسبب أن بعضهم يعتبر عمد المجنون خطأ وهم : مالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد . بينما لا يراه الشافعي كذلك . وهذا ينعكس على التعويض الذي يلزم به المجنون ، فعلى الرأي الأول ، تكون الدية مخففة ويتحملها المجنون وعاقلته ، بينما على الرأي الثاني تكون الدية مغلظة ، وتكون في مال المجنون وحده .

حكم الجنون اللاحق للجريمة : الجنون اللاحق للجريمة إما أن يحدث قبــل الحكم أو بعده .

الجنون قبل الحكم : الجنون قبل الحكم على رأي الشافعية والحنابلة لا يمنـــع المحاكمة ولا يوقفها ، وحجتهم أن التكليف لا يشترط إلا وقت ارتكاب الجريمة . وليس في رأيهم هذا ما يسيء إلى مركز المجنون لأن محاكمة المجرمين في الشريعة محوطة بضمانات قوية ، ولأن أثر الجنون ينحصر في عجز المتهــم في الدفــاع عن نفسه . والقاعدة أن العجز عن الدفاع لا يوقف المحاكمة ولا يمنعها .

أما المالكية والحنفية فيرون أن الجنون قبل الحكم يمنع المحاكمة ويوقفها حتى يزول الجنون ، وأساس هذا الرأي أن شرط العقوبة التكليف ، وأن هذا الشرط يجب توفره وقت المحاكمة . وهذا يقتضي أن يكون الجاني مكلفاً وقت المحاكمة ، فان لم يكن كذلك امتنعت محاكمته .

الجنون بعد الحكم : يرى الشافعي وأحمد أن الجنون بعد الحكم لا يوقف تنفيذ الحكم إلا اذا كانت الجريمة المحكوم فيها من جرائم الحدود ، وكان دليل الاثبات الوحيد الذي بني عليه الحكم هو الإقرار . وذلك لأن الرجوع عن الإقرار يوقف التنفيذ . ولما كان الجنون يمنع المحكوم عليه من الرجوع في إقراره ، وكان من حقه الرجوع في إقراره تعين إيقاف التنفيذ حتى يفيق المجنون .

أما إذا كان الحكم قائماً على دليل آخر غير الإقرار ، فلا يوقف الرجوع عن الإقرار تنفيذ الحكم . وأساس هذا الرأي أن العقوبة عن جريمة ارتكبهــا مجرم

مسئوول وقت ارتكابها، وأن العبرة في الحكم بالعقوبة وتنفيذها، إنما هي بحال المكلف وقت ارتكاب الجريمة لا قبل ذلك ولا بعده، وكذلك يمكن تعليل هذا الحكم بأن العقوبة شرعت للتأديب والزجر، فإذا تعطل جانب التأديب بجنون المحكوم عليه فلا ينبغي تعطيل جانب الزجر.

ويرى مالك أن الجنون يوقف تنفيذ الحكم، ويظل الحكم موقوفاً حتى يفيق المجنون إلا إذا كانت العقوبة قصاصاً فإنها على رأي البعض تسقط باليأس من إفاقة المجنون، وتحل محلها الدية. ولكن البعض يرى في حالة اليأس من إفاقة المجنون أن يسلم المجنون المحكوم عليه بالقصاص لأولياء الدم، فإن شاؤوا اقتصوا، وإن شاؤوا أخذوا الدية.

ويرى أبو حنيفة إيقاف تنفيذ العقوبة على المجنون، إلا إذا كان الجنون قد طرأ بعد تسليم المجنون للتنفيذ عليه، وإذا كانت العقوبة قصاصاً فجن الجاني بعد الحكم عليه، وقبل تسليمه للتنفيذ عليه، فإن القصاص ينقلب بالجنون دية استحساناً.

٤ – صغر السن :

تقوم المسؤولية الجنائية في الشريعة على عنصرين أساسيين هما الإدراك والاختيار. ولهذا تختلف أحكام الصغار باختلاف الأدوار التي يمر بها الانسان من وقت ولادته إلى الوقت الذي يستكمل فيه ملكتي الإدراك والاختيار.

المرحلة الاولى :

وهي مرحلة انعدام الإدراك، وهي تبدأ بولادة الصبي وتنتهي ببلوغه السابعة اتفاقاً، ويسمى فيها الإنسان بالصبي غير المميز. وقد حدد الفقهاء هذه السن بالنظر إلى الحالة الغالبة في الصغار، ولمنع اضطراب الأحكام.
ويعتبر الصبي غير مميز ما دام لم تبلغ سنه سبع سنوات، ولو كان أكثر تمييزاً ممن بلغ هذه السن، ولذا فإن ارتكب الصبي غير المميز أي جريمة فلا يعاقب عليها جنائياً ولا تأديبياً، ولكن إعفاءه من المسؤولية الجنائية، لا يعفيه من المسؤولية المدنية عن كل جريمة يرتكبها، فهو مسؤول في ماله الخاص عن تعويض أي ضرر يصيب به غيره في ماله أو نفسه.

المرحلة الثانية :

وهي مرحلة الإدراك الضعيف ، وهي تبـدأ ببلوغ الصبي السابعـة من عمره وتنتهي بالبلوغ . ويحدد عامة الفقهاء أقصى سن البلوغ بخمسة عشر عاماً . فإذا بلغ الصبي هذه السن اعتبر بالغاً حكماً ولو لم يبلغ فعلاً .

وفي هذه المرحلة لا يسأل الصبي المميز عن جرائمه مسئولية جنائية ، فـلا يحد اذا سرق أوزنا مثلاً ولا يقتص منه إذا قتل أو جرح ، وإنما يسأل مسئولية تأديبية ، فيؤدب على ما يأتيه من الجرائم . والتأديب وإن كان في ذاته عقوبة على الجريمة إلا أنه عقوبة تأديبية لا جزائية ، وعلى هذا فـلا يوقع على الصبي من عقوبات التعزير إلا ما كان تأديباً كالتوبيخ والضرب . ويسأل الصبي المميز مدنياً عن أفعاله ولو أنه لا يعاقب عليها بعقوبة جنائية .

المرحلة الثالثة :

وهي مرحلة الإدراك التام ، وتبدأ ببلوغ الصبي سن الرشد . وفي هذه المرحلة يكون الإنسان مسئولاً جنائياً عن جرائمه أياً كان نوعها .

الفقرة الثالثة : في العقوبة

أقسام العقوبة :

وضع الفقهاء تقسيمات كثيرة للعقوبة وذلك تسهيلاً للدراسة وتيسيراً على الباحثين . وهذه التقسيمات كلها استخرجت من الصفات التي تجمع كل قسم من الأقسام .

فالعقوبات تقسم بحسب الرابطة القائمة بينها إلى أربعة أقسام وهي :

١ ــ العقوبات الأصلية : وهي العقوبات المقررة أصلاً للجريمة ، كالقصاص للقتل ، والرجم للزنا ، والقطع للسرقة .

٢ ــ العقوبات البدلية : وهي العقوبات التي تحل محل العقوبات الاصلية ، إذا امتنع تنفيذ هذه لسبب شرعي كالدية والتعزير .

٣ – العقوبات التبعية : وهي العقوبات التي تصيب الجاني بناء على الحكم بالعقوبة الاصلية ، كحرمان القاتل من الميراث .

٤ – العقوبات التكميلية : وهي العقوبات التي يحكم بها بناء على الحكم بالعقوبة الأصلية كتعليق يد سارق في رقبته بعد قطعها .

والعقوبات تنقسم من حيث سلطة القاضي في تقديرها إلى :

١ – عقوبات ذات حد واحد : وهي التي لا يستطيع القاضي أن يزيد فيها أو ينقصها كالجلد المقرر حدا .

٢ – عقوبات ذات حدين : وهي التي لها حد أدنى وحد أعلى ويترك للقاضي الخيار بينهما كالحبس والجلد في التعازير ...

وتقسم العقوبات من حيث وجوب الحكم بها إلى :

١ – عقوبات مقدرة : وهي العقوبات التي حدد الشارع نوعها ومقدارها وهي عقوبات الحدود والقصاص والدية .

٢ – عقوبات غير مقدرة : وهي العقوبات التي ترك للقاضي تحديد نوعها ، ومقدارها ، وهي عقوبات التعازير .

وكذلك تقسم العقوبات من حيث محلها الى :

١ – عقوبات بدنية : وهي العقوبات التي تقع على جسم الإنسان كالقتل والجلد والحبس .

٢ – عقوبات نفسية : وهي العقوبات التي تقع على نفس الانسان كالنصح والتوبيخ والتهديد .

٣ – عقوبات مالية وهي العقوبات التي تقع على مال الانسان كالدية والغرامة والمصادرة .

وتقسم العقوبات كذلك بحسب جسامة الجرائم التي فرضت عليها إلى :

١ – عقوبات الحدود : وهي العقوبات المقررة على جرائم الحدود .

٢ – عقوبات القصاص والدية : وهي العقوبات المقررة على جرائم القصاص والدية.

٣ – عقوبات الكفارات ; وهي عقوبات مقررة لبعض جرائم القصاص والدية وبعض جرائم التعازير .

٤ – عقوبات التعازير وهي العقوبات المقررة لجرائم التعازير .

وهذا التقسيم الأخير هو أهم التقسيمات للعقوبات .

أنواع العقوبات في الشريعة الاسلامية :

تختلف العقوبات في الشريعة الإسلامية باختلاف الجرائم التي فرضت عليها . وقد وضعت هذه العقوبات على أساس محاربة الدوافع الخاصة بكل جريمة . إذ أن هذا هو طريق الشريعة في اختيار نوع العقاب وكميته فالدوافع التي تدعو إلى الجريمة تحارب بالدوافع التي تصرف عنها . فالجريمة التي تدفع إليها اللذة والشهوة تعاقب بعقوبة تتصف بالألم . ولا يمكن أن يستمتع الانسان بنشوة اللذة إذا تذوق مس العذاب ، أو توقع أنه سيذوقه . ولذا يكون ما يبعده عن التفكير في اقتراف الجريمة . وبهذا تكون الجريمة قد حاربتها الشريعة في النفس قبل أن تحاربها في الحس . وعالجتها بالعلاج الوحيد الذي لا ينفع غيره .

ويظهر هذا بوضوح تام في العقوبات المقررة لجرائم الحدود ، وجرائم القصاص والدية . وهي الجرائم ذات العقوبات المقدرة . وعلى هذا الأساس يتوجب على أولي الأمر أن يضعوا العقوبات لجرائم التعازير .

أولا : العقوبات المقررة لجرائم الحدود :

جرائم الحدود كما قلت من قبل سبع جرائم هي :

١ — الزنا . ٢ — القذف . ٣ — شرب الخمر . ٤ — السرقة . ٥ — الحرابة

٦ — الردة . ٧ — البغي . . .

وتسمى العقوبة المقررة لكل من هذه الجرائم حداً . والحد هو العقوبة المقررة حقاً لله تعالى . أو هو العقوبة المقررة لمصلحة الجماعة . وحينما يقول الفقهاء أن العقوبة حق لله تعالى يعنون بذلك أنها لا تقبل الإسقاط من الأفراد ولا من الجماعة . وهم يعتبرون العقوبة حقاً لله كلما استوجبتها المصلحة العامة ، وهي دفع الفساد عن الناس ، وتحقيق الصيانة والسلامة لهم .

وتمتاز العقوبات المقررة لجرائم الحدود بثلاث ميزات بالإضافة الى الميزات والصفات الأساسية الأخرى لكل العقوبات الإسلامية . وهذه الميزات الخاصة الثلاث هي :

١ — ليس فيها مجال لوضع شخصية الجاني موضع الاعتبار عند توقيع العقوبة .

٢ – أنها عقوبات مقدرة ولازمة فلا يستطيع أحد إنقاصها أو زيادتها ، أو أن يستبدل بها غيرها

٣ – أنها يتجلى بها بوضوح محاربة الدوافع التي تدفع للجريمة بالدوافع التي تصرف عنها .

١ –عقوبة الزنا :

للزنا في الشريعة الإسلامية ثلاث عقوبات هي : الجلد والتغريب والرجم . والجلد والتغريب هما عقوبة الزاني غير المحصن . أما الرجم فهو عقوبة الزاني المحصن.

أ – الجلد : ومقداره مائة جلدة قال تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

فالدافع الذي يدفع الزاني للزنا هو اللذة والإستمتاع بالنشوة التي تصحبها . والدافع الوحيد الذي يصرف الإنسان عن اللذة هو الألم . وأي شيء يحقق الألم ويذيق مس العذاب أكثر من الجلد مائة جلدة ؟.

فالشريعة لم تضع عقوبة الزنا اعتباطاً ، وإنما وضعتها على أساس من طبيعة الإنسان ، وعلم بنفسيته وعقليته ، ولذا فقد دفعت العوامل النفسية التي تدعو للزنا بعوامل بنفسية مضادة تصرف عن الزنا . فإذا تغلبت العوامل الداعية على العوامل الصارفة ، وارتكب الزاني جريمته مرة كان فيما يصيبه من ألم العقوبة وعذابها ما ينسيه اللذة ويحمله على عدم التفكير فيها .

ب – التغريب : وتعاقب الشريعة الزاني غير المحصن بالتغريب عاماً بعد جلده . والمصدر التشريعي لهذه العقوبة حديث النبي ﷺ : (البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام) .

ويرى القائلون بالتغريب أن يغرب الزاني من بلده الذي زنا فيه إلى بلد آخر داخل حدود دار الاسلام على أن لا تقل المسافة بين البلدين عن مسافة القصر . ومالك يرى أن يسجن في تلك البلدة . والشافعي يرى أن يراقب هناك فقط . ولا يرى أحمد الحبس .

ج – الرجم : الرجم عقوبة الزاني المحصن رجلا كان أو امرأة . ومعنى الرجم القتل رمياً بالحجارة ، والمصدر التشريعي لها هو السنة الفعلية والقولية . إذ أن رسول الله ﷺ أمر بها وأجمع أصحابه من بعده عليها . ومن الأحاديث المشهورة بها : (لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير نفس) .

وقد أثر عنه ﷺ أنه أمر برجم ماعز والغامدية وصاحبة العسيف . والإجماع منعقد على إقرار عقوبة الرجم .

والشريعة الاسلامية قد سارت في هذه المسألة كما سارت في كل أحكامها على أدق المقاييس وأعدلها ، فالزاني المحصن هو قبل كل شيء مثل سيء لغيره . وليس المثل السيء في الشريعة حق البقاء . والشريعة بعد ذلك تقوم على الفضيلة المطلقة ، وتحرص على الأخلاق والأعراض والأنساب من التلوث والإختلاط ، وهي توجب على الإنسان أن يجاهد شهوته ولا يستجيب لها إلا من طريق الحلال وهو الزواج . وأوجبت عليه إذا اشتهى الباءة أن يتزوج حتى لا يعرض نفسه للفتنة أو يحملها ما لا تطيق . فإذا لم يتزوج وغلبته على عقله وعزيمته الشهوات فعقابه أن يجلد مائة جلدة وشفيعه في هذه العقوبة الخفيفة تأخره في الزواج الذي أدى به الى الجريمة . أما إذا تزوج فأحصن فقد حرصت أن لا تجعل له بعد الإحصان سبيلاً إلى الجريمة . فلم تجعل الزواج أبدياً حتى لا يقع في الخطيئة أحد الزوجين إذا فسد ما بينهما . وأباحت للزوجة أن تجعل العصمة في يدها وقت الزواج ، كما أباحت لها أن تطلب الطلاق للغيبة والضرر والمرض والإعسار . وأباحت للزوج الطلاق في كل وقت ، وأحلت له أن يتزوج أكثر من واحدة على أن يعدل بينهن. وبهذا فتحت الشريعة للمحصن كل أبواب الحلال ، وأغلقت دونه باب الحرام . فكان عدلاً وقد انقطعت المعاذير والأسباب التي تدعو للجريمة من ناحية العقل والطبع أن تنقطع المعاذير التي تدعو إلى تخفيف العقاب ، وأن يؤخذ المحصن بالعقوبة التي لا يصلح غيرها لمن استعصى على الإصلاح .

ومن مصلحة المجتمع أن يفهم أفراده أن العقوبة تؤلم وتدعو للخوف . وقد بلغت آية الزنا الغاية في إبراز هذا المعنى حيث جاء بها : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » . وحيث جاء بها « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

٢ – عقوبة القذف

للقذف في الشريعة عقوبتان إحداهما أصلية وهي الجلد، والثانية تبعية وهي عدم قبول شهادة القاذف. والأصل في عقوبتي القذف قول الله تعالى: «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون». ولا تعاقب الشريعة على القذف إلا إذا كان كذباً واختلاقاً، فإن كان تقريراً للواقع فلا جريمة ولا عقوبة.

والبواعث التي تدعوا القاذف للافتراء والاختلاق كثيرة منها الحسد والمنافسة والانتقام، ولكنها جميعها تنتهي إلى غرض واحد يرمي إليه كل قاذف هو إيلام المقذوف وتحقيره.

وقد وضعت عقوبة القذف في الشريعة على أساس محاربة هذا الغرض. فالقاذف يرمي إلى إيلام المقذوف إيلاما نفسياً. فكان جزاؤه الجلد ليؤلمه إيلاماً بدنياً. وهذا أشد وقعاً على النفس والحس. والقاذف يرمي من وراء قذفه إلى تحقير المقذوف، وهذا التحقير فردي لأن مصدره فرد واحد هو القاذف، فكان جزاؤه أن يحقر من الجماعة كلها، وأن يكون هذا التحقير العام بعض العقوبة التي تصيبه فتسقط عدالته، ولا تقبل له شهادة أبداً، ويوصم وصمة أبدية بأنه من الفاسقين.

٣ – عقوبة الشرب:

تعاقب الشريعة على شرب الخمر بالجلد ثمانين جلدة، ويرى الشافعي أن حد الخمر أربعون جلدة فقط على خلاف بقية الأئمة، وحجته أنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه ضرب في الخمر أكثر من أربعين جلدة أما الأربعون الأخرى فليست من الحد عند الشافعي وإنما هي تعزير.

ومصدر العقوبة التشريعي هو قول الرسول ﷺ: (من شرب الخمر فاجلدوه وإن عاد فاجلدوه) والرأي الراجح أن العقوبة لم يحدد مقدارها إلا في زمن عمر بن الخطاب حيث استشار بعض أصحاب رسول الله ﷺ في حد شارب الخمر فأفتى علي بن أبي طالب بأن يجلد ثمانين جلدة لأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وحد المفتري، أي القاذف ثمانون جلدة.

ووافق أصحاب الرسول ﷺ على هذا الرأي .

وإذن فتحريم الخمر مصدره القرآن ، والعقاب مصدره السنة المطهرة ، ومقدار الحد مصدره الإجماع والدافع الذي يدفع شارب الخمر لشربها هو رغبته في أن ينسى آلامه النفسية . ويهرب من آلام الحقائق إلى سعادة الأوهام ، التي تولدها نشوة الخمر . وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس شارب الخمر بعقوبة الجلد ، فهو يريد أن يهرب من آلام النفس ، ولكن عقوبة الجلد ترده إلى ما هرب منه ، وتضاعف له الألم . إذ تجمع له بين ألم النفس وألم البدن .

وهو يريد أن يهرب من عذاب الحقائق ، إلى سعادة الأوهام ، وعقوبة الجلد ترده إلى العذاب الذي هرب منه ، وتجمع له بين عذاب الحقائق وعذاب العقوبة .

٤ ـ عقوبة السرقة :

تعاقب الشريعة على السرقة بالقطع لقوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » .

ومن المتفق عليه بين الفقهاء أن لفظ أيديهما يدخل تحته اليد والرجل . فإذا سرق السارق أول مرة قطعت يده اليمنى ، فإذا عاد للسرقة ثانية قطعت رجله اليسرى . وقطع اليد من مفصل الكف ، وقطع الرجل من مفصل الكعب . وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقطعها من نصف القدم من مقعد الشراك ليدع للسارق عقباً يمشي عليه .

وحكمة فرض عقوبة القطع للسرقة أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر أن يزيد كسبه بكسب غيره . وهو لا يكتفي بثمرة عمله فيطمع في ثمرة عمل غيره . وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور أو ليرتاح من عناء الكد والعمل أو ليأمن على مستقبله [1] . فالدافع الذي يدفع الى السرقة ويرجع الى هذه الاعتبارات هو زيادة الكسب أو زيادة الثراء . وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس

(١) كثيراً ما تقع جرائم تفوق جريمة السرقة ، من قتل وترويع وغيرها ، لأن السارق عندما يفكر في سرقة شيء يضع في حسابه احتمال انكشاف أمره ، ولذلك يعد السلاح للدفاع عن نفسه وقت ذلك . (الناشر)

الإنسان بتقرير عقوبة القطع . لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الكسب . وهذا يؤدي الى نقص الثراء . وإلى نقص القدرة على الانفاق والظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح ، وكثرة العمل ، والتخوف الشديد على المستقبل .

فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبة القطع دفعت العوامل النفسية التي تدعو إلى ارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة . فإذا تغلبت العوامل النفسية الداعية ، وارتكب الانسان الجريمة مرة كان في العقوبة والمرارة التي تصيبه منها ما يغلب العوامل النفسية الدافعة فلا يعود للجريمة مرة أخرى .

هذا وقد أثبت الواقع أن جميع العقوبات الأخرى قد فشلت في محاربة جريمة السرقة . وتشهد الاحصائيات العلمية على هذا الاخفاق الذريع ، كيف لا ؟ وهذه الشواهد الواقعية تحت أعيننا تدل على ازدياد موجة السرقة في جميع أنحاء العالم حتى أصبحت السرقة مهنة لم يبقَ لها إلا بأن يعترف لها رسمياً كبقية المهن .

وكل ذي عينين وأذنين وله ذرة من العقل يرى ويسمع أنباء السرقات الإفرادية والجماعية التي لها شكل العمليات المنظمة والتي توسعت حتى أخذت الطابع الدولي ، بل أصبح لبعضها قوى لا تعادلها قوة الحكومات والسلطات الرسمية ، وتملك من الوسائل والإمكانيات الآلية والبشرية ، ما يصعب على كثير من الدول حالياً أن تملكه ، كل ذلك بسبب واحد ، هو فشل العقوبات الوضعية بأنواعها في علاج جريمة السرقة .

٥ – عقوبة الحرابة : وقد مرت مفصلة أثناء الكلام عن جريمتها .

٦ – عقوبة الردة : للردة عقوبتان أصلية وهي القتل ، وتبعية وهي المصادرة .

أ – القتل : تعاقب الشريعة المرتد بالقتل ، والأصل في ذلك قوله تعالى : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . وقول النبي ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » . ومعنى الردة ترك الدين الاسلامي والخروج عليه بعد اعتناقه فلا تكون الردة إلا من مسلم . وتعاقب الشريعة على الردة ، بالقتل لأنها تقع ضد الدين الاسلامي ، وعليه يقوم نظام الجماعة الاجتماعي ، لذا فالتساهل في هذه الجريمة يؤدي إلى زعزعة النظام .

ب – المصادرة : عقوبة الردة التبعية هي مصادرة مال المرتد . ويختلف الفقهاء في مدى المصادرة ، فمذهب مالك والشافعي والرأي الراجح في مذهب أحمد أن المصادرة تشمل كل مال المرتد . ومذهب أبي حنيفة وبعض فقهاء المذهب الحنبلي أن مال المرتد الذي اكتسبه بعد الردة هو الذي يصادر . أما ماله قبل الردة فهو من حق ورثته المسلمين .

٧ – عقوبة البغي : تعاقب الشريعة على البغي بالقتل والأصل في ذلك قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » . وقول الرسول الله ﷺ (ستكون هنات وهنات ، الا ومن خرج على أمتي وهم جميع فاضربوا بالسيف عنقه كائناً من كان) .

وجريمة البغي موجهة إلى نظام الحكم والقائمين بأمره ، وقد تشددت فيها الشريعة لأن التساهل فيها يؤدي إلى الفتن والاضطرابات ، وعدم الاستقرار ، وهذا بدوره يؤدي إلى تأخر الجماعة وانحلالها . ولا شك أن عقوبة القتل أقدر العقوبات على صرف الناس عن هذه الجريمة التي يدفع إليها الطمع وحب الاستعلاء .

ثانياً : العقوبات المقررة لجرائم القصاص والدية :

جرائم القصاص والدية كما ذكرناه قبلاً هي :

١ – القتل العمد . ٢ – القتل شبه العمد . ٣ – القتل الخطأ . ٤ – الجرح العمد .

٥ – الجرح الخطأ . والعقوبات المقررة لهذه الجرائم هي :

١ – القصاص . ٢ – الدية . ٣ – الكفارة . ٤ – الحرمان من الميراث .

٥ – الحرمان من الوصية .

١ – القصاص :

جعلت الشريعة القصاص عقوبة القتل العمد والجرح العمد . ومعنى القصاص أن يعاقب المجرم بمثل فعله ، فيقتل كما قتل ، ويجرح كما جرح . ومصدر عقوبة القصاص هو القرآن والسنة . فالله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى » .

« فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف

من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون » .

ويقول جل شأنه : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . والعين بالعين . والأنف بالأنف . والأذن بالاذن . والسن بالسن . والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . وجاءت السنة مؤكدة لما جاء به القرآن الكريم فقال عليه الصلاة والسلام : (من اعتبط مؤمناً بقتل فهو قَوَد به ، إلا أن يرضى ولي المقتول) . ويقول ﷺ : (من قتل له قتيل فأهله بين خيرتين ، إن أحبوا فالقود ، وإن أحبوا فالعقل ، أي الدية) .

وليس في العالم عقوبة تَفْضُلُ عقوبة القصاص في عدلها ، إذ لا يجازى المجرم إلا بمثل ما فعل . والذي يدفع المجرم بصفة عامة للقتل والجرح هو تنازع البقاء . وحب التغلب والإستعلاء . فإذا علم المجرم أنه لن يبقى بعد فريسته أبقى على نفسه بإبقائه على فريسته . والشريعة الإسلامية قد سوت بين القتل والجراح في نوع العقوبة لأن هذا هو المنطقي والطبيعي . فنوع الجريمتين واحد وهما تنبعثان عن دافع واحد ولا يكون القتل قتلا قبل أن يكون جرحا وضربا في أغلب الأحوال . وهذه تنتهي بالوفاة أحياناً . ولذا فما دامت الجريمتان من نوع واحد ، فوجب أن تكون عقوبتهما من نوع واحد . وقد أعطت الشريعة للمجني عليه أو وليه حق العفو عن عقوبة القصاص مجاناً أو مقابل الدية . ولكن هذا لا يمنع ولي الأمر من معاقبة المجرم بعقوبة تعزيرية ملائمة .

والشريعة قد أعطت هذا الحق للمجني عليه في هذه الجرائم ، نظراً لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً بشخصه ، ولأنها تمسه أكثر مما تمس أمن الجماعة ونظامها . ومن جهة أخرى فكل إنسان لا يخاف قاتل غيره أو ضاربه ، ولا يخشى أن يعتدي عليه لأنه يعرف أن القتل والجرح والضرب لا يكون إلا عن دافع شخصي . بعكس السارق مثلاً ، إذ يخافه كل فرد ويخشاه ، لأنه يعلم أن السارق يطلب المال أنى وجده ، ولا يطلب مال شخص بعينه .

وكذلك فان الشريعة في إعطائها حق العفو للمجني عليه كانت عملية . إذ أن العفو يؤدي إلى محو آثار الجريمة من المجتمع نظراً لأنه لا يكون إلا بعد الصلح والتراضي وصفاء النفوس ، وهو بهذا يؤدي نفس وظيفة العقوبة إذا حدث . والحكم بالقصاص مقيد بامكانه وبتوفر شروطه ، فاذا لم يكن ممكناً ولم

تتوفر شروطه ، امتنع الحكم به ووجب الحكم بالدية . ولو لم يطلب المجني عليه أو وليه الحكم بها . لأن الدية عقوبة لا يتوقف الحكم بها على طلب الأفراد .

وليس في الشريعة ما يمنع في حالة عدم الحكم بالقصاص من معاقبة الجاني بعقوبة تعزيرية مع الدية إذا اقتضت ذلك مصلحة عامة . بل إن مذهب مالك يوجب العقوبة التعزيرية في هذه الحالة .

٢ - الدية :

جعلت الشريعة الدية عقوبة أصلية للقتل والجرح في شبه العمد والخطأ . ومصدر هذه العقوبة القرآن والسنة فالله جل شأنه يقول : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا » . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (ألا إن في قتيل عمد الخطأ قتيل السوط والعصا والحجر مائة من الإبل) .

والدية مقدار معين من المال ، وهي وإن كانت عقوبة إلا أنها تدخل في مال المجني عليه ، ولا تدخل في خزانة الدولة . وهي من هذه الناحية أشبه بالتعويض .

وعقوبة الدية ذات حد واحد ، فليس للقاضي أن ينقص منها شيئاً ، أو يزيد في مقدارها ، وهي وإن اختلفت في شبه العمد عنها في الخطأ ، واختلفت في الجراح بحسب نوع الجرح وجسامته ، فان مقدارها ثابت لكل جريمة ولكل حالة. فدية الصغير كدية الكبير ، ودية الضعيف كدية القوي ، ودية الوضيع كدية الشريف ، ودية المحكوم كدية الحاكم . ومن المتفق عليه أن دية المرأة على النصف من دية الرجل في القتل .

وقد فرقت الشريعة بين عقوبة القتل العمد ، وعقوبة القتل شبه العمد . فجعلتها في الأولى القصاص ، وفي الثاني الدية المغلظة . لأن المجرم في القتل العمد يقصد قتل المجني عليه ، أما في شبه العمد فالمجرم لا يقصد قتل المجني عليه .

وفرقت الشريعة بين عقوبة العمد الخالص والخطأ . فجعلتها في حالة العمد القصاص وفي حالة الخطأ الدية المخففة ولم تعاقب الشريعة في حالة الخطأ بالقصاص ، لانعدام الدوافع النفسية لدى الجاني ، ولأنه لم يتعمد الجريمة ، ولم يفكر فيها . لكن لما كانت الجريمة سببها الإهمال ، وعدم الحرص ، ولما يتسبب عنها في الغالب من أضرار مالية

للمجني عليه أو لورثته ، فقد رأت الشريعة أن تكون العقوبة في أعز ما يحرص عليه الإنسان بعد النفس وهو المال .

ويتضح مما سبق أن الدية عقوبة مشتركة بين العمد الذي لا قصاص فيه ، وبين شبه العمد ، وبين الخطأ ، ولكن مقدارها ليس واحداً في كل الحالات . فهي في العمد وشبه العمد مغلظة ، وفي الخطأ مخففة . والأصل أن الدية بصفة عامة مائة من الابل . والتغليظ والتخفيف لا دخل له في العدد ، وإنما يكون في أنواع الابل وأسنانها .

ولفظ الدية يقصد به الدية الكاملة ، وهي مائة من الابل سواء كانت مخففة أو مغلظة . أما ما هو أقل من الدية الكاملة فيطلق عليه لفظ (الأرش) فيقال أرش اليد ، وأرش الرجل . والأرش نوعان : أرش مقدر وأرش غير مقدر . والأول هو ما حدد الشارع مقداره ، والثاني هو ما ترك للقاضي تحديده .

من يحمل الدية :

القاعدة العامة أن الدية تجب في مال الجاني دون غيره ، سواء كانت الدية عن النفس ، أو ما دون النفس . ولكن الفقهاء اختلفوا فيمن يحمل الدية إذا كان الجاني صغيراً أو مجنوناً . فرأي مالك وأبو حنيفة وأحمد أن الدية الواجبة على الصغير والمجنون تحملها العاقلة ولو تعمد الفعل . لأنهم يرون أن عمد الصغير والمجنون خطأ لا عمد . إذ لا يمكن أن يكون لهما قصد صحيح فألحق عمدهما بالخطأ . ويتفق هذا الرأي مع الرأي المرجوح في مذهب الشافعي . أما الرأي الراجح في مذهب الشافعي فيرى أن عمد الصغير والمجنون عمد ، لأنه يجوز تأديبهما على القتل والعمد وإن كان لا يمكن القصاص منهما . فكان عمدهما عمداً كالبالغ العاقل وعلى هذا تجب الدية في مالهما .

ويختلف الفقهاء كذلك في حكم شبه العمد والخطأ في النفس وما دون النفس . فيرى مالك وأحمد أن العاقلة تحمل ما زاد عن ثلث الدية الكاملة ، فاذا لم يبلغ الثلث فان الجاني يحمله وحده .

ويرى أبو حنيفة أن العاقلة تحمل ما زاد عن نصف عشر الدية الكاملة . فاذا لم يبلغ ذلك فإن الجاني يحمله وحده .

ويرى الشافعي أن العاقلة تحمل الجميع ما قل أو كثر، لأن من ألزم بالكثير ألزم بالقليل من باب أولى. وإذا ما حملت العاقلة الدية فيرى مالك وأبو حنيفة أن يتحمل الجاني من الدية ما يحمله أحد أفراد العاقلة أما الشافعي وأحمد فيريان أن لا يحمل الجاني شيئاً من العاقلة.

العاقلة:

العاقلة هي من يحمل العقل. والعقل هو الدية. وسميت عقلاً لأنها تعقل لسان ولي المقتول. وقيل إنها سميت العاقلة لأنهم يمنعون عن القاتل. فالعقل على هذا هو المنع.

وعاقلة القاتل هم عصابته، فلا يدخل في العاقلة الإخوة لأم ولا لزوج ولا لسائر ذوي الأرحام. ويدخل في العصبة سائر العصبات مهما بعدوا. لأنهم عصبة يرثون المال إن لم يكن هناك وارث أقرب منهم. ولا يشترط أن يكونوا وارثين في الحال. بل متى كانوا يرثون لولا الحجب.

ولا تكلف العاقلة من المال ما يجحف بها ويشق عليها. لأنه لزمها من غير جناية على سبيل المواساة للجاني والتخفيف عنه. فلا يخفف عن الجاني بما يشق على غيره ويجحف به. ولو كان الإجحاف مشروعاً كان الجاني أحق به، لأنه موجب جنايته وجزاء فعله.

واختلف الفقهاء في مقدار ما يحمله كل فرد. فقال مالك وأحمد: يترك الأمر للحاكم يفرض على كل واحد ما يسهل عليه ولا يؤذيه. وفي مذهب مالك رأي يفرض ديناراً على كل شخص. وفي مذهب أحمد رأي يفرض نصف مثقال على الموسر، وربع مثقال على متوسط الحال. وهذا مذهب الشافعي. ويرى أبو حنيفة أن لا يزيد ما يؤخذ من الفرد على ثلاثة دراهم أو أربعة كما يرى التسوية بين الغني ومتوسط الحال.

وليس على الفقير، ولا على المرأة، ولا على الصبي، ولا على زائل العقل شيء من الدية. لأن تحميل الفقير إجحاف به ولأن المرأة والصبي والمجنون ليسوا من أهل النصرة. ولكن هؤلاء إذا كانوا جناة يعقل عنهم.

أما إذا لم يكن للجاني عاقلة أصلا أو كانت له عاقلة فقيرة أو عددها صغير

لا يتحمل كل الدية فهناك رأيان : الأول : ويرى أصحابه أن يقوم بيت المال مقام العاقلة في كل الدية أو ما يبقى منها مما لا تستطيع العاقلة دفعه . وهذا رأي مالك والشافعي وأحمد وظاهر مذهب أبي حنيفة .

الثاني : ويرى أصحابه أن الدية تجب في مال القاتل لأنه هو المسؤول أصلاً عن الدية وهذا الرأي يرويه محمد عن أبي حنيفة ويقول به بعض الحنابلة .

علة تحميل العاقلة الدية :

تحميل الدية للعاقلة معناه أن آخرين غير الجاني يحملون وزر جريمته . وذلك أن ظروف الجناة والمجني عليهم جعلت الأخذ به لازماً لتحقيق العدالة والمساواة . ولضمان الحصول على الحقوق . ولهذا مبرراته الآتية :

١ ــ لو لم تأخذ بهذا لكانت النتيجة أن تنفذ العقوبة على الأغنياء فقط وهم قلة . ولامتنع تنفيذها على الفقراء وهم الكثرة . ويتبع هذا أن يحصل المجني عليه أو وليه على الدية الكاملة إن كان الجاني غنياً ، وعلى بعضها إن كان متوسط الحال . ولا يحصل على شيء إن كان الجاني فقيراً . وهكذا تنعدم العدالة والمساواة بين الجناة ، كما تنعدم بين المجني عليهم ، فكان ترك القاعدة العامة إلى هذا الاستثناء واجباً لتحقيق العدالة والمساواة .

٢ ــ إن الدية وإن كانت عقوبة إلا أنها حق مالي للمجني عليه أو لوليه ، وقد روعي في تقديرها أن تكون تعويضاً عادلاً عن الجريمة . لذا فلو تحمل المتهم الدية وحده ما أمكن أن يصل معظم المجني عليهم إلى الدية التي يحكم بها . لأن مقدار الدية عادة أكبر من ثروة الفرد إذ أن الدية الكاملة مائة من الإبل تقدر بألف دينار . فلو طبقنا القاعدة العامة لصعب على كثير من المجني عليهم الوصول إلى حقوقهم .

ويلاحظ أن المجني عليهم في جرائم العمد لا يتعرضون لمثل هذه الحالة . لأن العقوبة الأصلية هي القصاص إلا إذا عفى المجني عليهم وأولياؤهم مقابل الدية . ولن يعفو هؤلاء إلا إذا كانوا ضامنين الحصول على الدية وإذا حصل هذا فرضاً ، فيكونون هم المسؤولين عن الوضع الذي وضعوا فيه أنفسهم .

٣ — إن العاقلة تحمل الدية في جرائم الخطأ، أو في شبه العمد، وهو ملحق بالخطأ. وأساس جرائم الخطأ هو الإهمال وعدم الاحتياط. وهذان سببهما سوء التوجيه، وسوء التربية غالباً. والمسؤول عن تربية الفرد وتوجيهه هم المتصلون به بصلة الدم. كما أن الفرد ينقل دائماً عن أسرته ويتشبه بأقاربه. فكان الاهمال وعدم الاحتياط هو في الغالب ميراث الأسرة. ولما كانت الأسرة تأخذ عن البيئة والجماعة، فيكون الإهمال وعدم الاحتياط في النهاية ميراث الجماعة، فوجب لهذا أن تتحمل عاقلة الجاني نتيجة خطئه، وأن تتحمل الجماعة أخيراً هذا الخطأ كلما عجزت العاقلة عن حمله.

ويمكننا أن نقول أيضاً أن الإهمال وعدم الاحتياط هو نتيجة الشعور بالعزة والقوة، وإن هذا الشعور يتولد من الاتصال بالاسرة، ومن الاتصال بالجماعة. فالمشاهد أن من لا اسرة له يكون أكثر احتياطاً ويقظة ممن له أسرة. وأن المنتمين للأقليات يكونون أكثر حرصاً من المنتمين للأكثريات. فوجب لهذا أن تتحمل العاقلة والجماعة نتيجة الخطأ ما دام أنهما هما المصدر الاول للإهمال وعدم الاحتياط.

٤ — إن نظام الاسرة ونظام الجماعة يقوم كلاهما بطبيعته على التناصر والتعاون. ومن واجب الفرد في كل أسرة أن يناصر باقي أفراد الأسرة ويتعاون معهم. وكذلك واجب الفرد في كل جماعة. وتحميل العاقلة أولاً والجماعة ثانياً نتيجة خطأ الجاني يحقق التعاون والتناصر تحقيقاً تاما. بل إنه يجدده ويؤكده في كل وقت فكلما وقعت جريمة من جرائم الخطأ اتصل الجاني بعاقلته، واتصلت العاقلة بعضها ببعض، وتعاونوا على جمع الدية واخراجها من أموالهم. ولما كانت جرائم الخطأ تقع كل يوم فمعنى هذا أن الاتصال والتعاون والتناصر بين الافراد ثم الجماعة، كل أولئك يظل متجدداً مستمراً.

٥ — إن الحكم بالدية على الجاني وعلى عاقلته فيه تخفيف عن الجناة ورحمة بهم وليس فيه غبن ولا ظلم لغيرهم؛ لأن الجاني الذي تحمل عنه العاقلة اليوم دية جريمته، ملزم بأن يتحمل غداً بنصيب من الدية المقررة لجريمة غيره من أفراد العاقلة. وما دام كل إنسان معرضاً للخطأ فسيأتي اليوم الذي يكون فيه ما حمله فرد بعينه عن غيره مساوياً لما تحمله هذا الغير منه.

٦ — إن القاعدة الاساسية في الشريعة هي حياطة الدماء وصيانتها وعدم

إهدارها . والدية مقررة بدلاً من الدم وصيانة له عن الإهدار . فلو تحمل كل جان وحده الدية التي تجب بجريمته ، وكان عاجزاً عن أدائها لأهدر بذلك دم المجني عليه ، فكان الخروج عن القاعدة العامة إلى الاستثناء واجباً ، حتى لا تذهب الدماء هدراً دون مقابل .

إذاً فالأخذ بنظام العاقلة يحقق الرحمة والمساواة والعدالة ، ويمنع إهدار الدماء ، ويضمن الحصول على الحقوق .

٣ — الكفارة :

الأصل في الكفارة قوله تعالى : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدّقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » .

والكفارة عقوبة أصلية وهي عتق رقبة مؤمنة ، فمن لم يجدها أو يجد قيمتها يتصدق بها فعليه صيام شهرين متتابعين . فالصوم عقوبة بدلية لا تكون إلا إذا امتنع تنفيذ العقوبة الأصلية . وظاهر النص أن الكفارة شرعت في القتل الخطأ . ومن المتفق عليه أنها واجبة في القتل الخطأ وكذلك في القتل شبه العمد لأنه يشبه الخطأ من وجه إذ الجاني لا يقصد قتل المجني عليه . ولكن الفقهاء اختلفوا في وجوب الكفارة في القتل العمد . فالشافعي يرى أنها تجب في القتل العمد لأنها إذا وجبت في القتل الخطأ مع عدم المأثم فلأن تجب في العمد . وقد تغلظ بالاثم أولى . . ومشهور مذهب أحمد أن لا كفارة في القتل العمد لخلو النص منها . وأبو حنيفة يرى أن لا كفارة في القتل العمد لأنها من العقوبات المقدرة ولا بد لهذه من النص عليها . ويرى مالك أن الكفارة مندوبة في العمد الذي لم يقتص فيه لمانع شرعي أو للعفو .

على من تجب الكفارة :

يرى الشافعي وأحمد أنها تجب على القاتل أياً كان بالغاً أو غير بالغ ، عاقلاً أو

مجنوناً ، مسلماً أو غير مسلم ، وحجتهم أنها عقوبة مالية وهؤلاء يضمنون أفعالهم من الناحية المالية .

ويرى مالك أنها لا تجب على غير المسلم لأنها تعبدية .

ويرى أبو حنيفة أنها لا تجب إلا على بالغ مسلم لأنه فقط الذي يخاطب بالشرائع أصلا ، ولأن غير المسلم لا يلزم بما هو عبادة ، والكفارة عبادة وعقوبة .

الصيام : والصيام عقوبة بدلية لعقوبة الكفارة الاصلية وهي العتق ، ولا يجب الصيام إلا إذا لم يجد القاتل الرقبة أو قيمتها فاضلة عن حاجته . فإن وجدها فلا يجب الصيام عليه .

٤ – الحرمان من الميراث :

الحرمان من الميراث عقوبة تبعية تصيب القاتل تبعاً للحكم عليه بعقوبة القتل . والاصل في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (ليس للقاتل شيء من الميراث). وقوله ﷺ : (ليس للقاتل ميراث بعد صاحب البقرة) . وقد اختلف الفقهاء كثيراً في الحرمان من الميراث .

فمالك يرى أن القتل المانع من الميراث هو القتل العمد . ولو كان القاتل صغيراً أو مجنوناً . وأبو حنيفة يرى حرمان القاتل من الميراث إذا لم يكن القاتل صغيراً ولا مجنوناً ، وكان القتل مباشرة لا تسبباً . ومذهب الشافعي يحرم الإرث على القاتل في جميع الحالات ، ومهما كان نوع القتل عمداً أو خطأً ، وسواء كان القاتل صغيراً أو كبيراً ، عاقلاً أو مجنوناً . ومذهب أحمد أن القتل غير المضمون لا يمنع الميراث كالقتل دفاعاً عن النفس والقتل قصاصاً . ويحرم القاتل من الميراث ولو كان صغيراً أو مجنوناً .

٥ – الحرمان من الوصية :

الحرمان من الوصية عقوبة تبعية ، والأصل فيها قول الرسول ﷺ (لا وصية لقاتل) وقوله (ليس لقاتل شيء) .

وكذلك اختلف الفقهاء في تفسير هذين النصين وتطبيقهما :

ففي مذهب مالك : القتل الخطأ لا يحرم من الوصية . أما في القتل العمد فالبعض يرى أنه يحرم من الوصية . والبعض الآخر أنه يحرم إلا إذا أوصى

المقتول لقاتله بعد حدوث الجناية وهو يعلم ذلك . أو إذا كانت الوصية سابقة على القتل ورأى المقتول البقاء على الوصية .

أما أبو حنيفة فيرى حرمان القاتل من الوصية أياكان نوع القتل ، بشرط أن يكون مباشراً ، وأن يكون عدواناً وأن يكون من بالغ عاقل . ولكن إذا أجاز الورثة الوصية صحت . ولكن أبو يوسف يرى أنها لا تصح ، ولو أجازها الورثة .

أما الشافعي وأحمد ففي مذهبيهما نظريتان :

الأولى : أن الوصية لا تصح لقاتل ، ثم يختلف أصحاب هذه النظرية حول إجازة الورثة للوصية فالبعض يقبلها ، والبعض لا يقبلها .

الثانية : أن الوصية للقاتل تصح في كل حال دون حاجة لإجازة الورثة .

ثالثاً : العقوبات المقررة للكفارات :

الكفارة هي العقوبة المقررة على المعصية بقصد التفكير عن إتيانها . والكفارة في الأصل نوع من العبادة ، لأنها عبارة عن عتق ، أو إطعام مساكين أو صيام . والكفارة إذا فرضت على عمل لا يعتبر معصية فهي عبادة خالصة ، كالإطعام بدلاً من الصوم لمن يستطيع . وإذا فرضت على ما يعتبر معصية فهي عقوبة جنائية خالصة ، كالكفارة في القتل الخطأ . ونظرا لهذه الصفات الخالصة للكفارات نسميها العقوبات التعبدية .

والكفارات عقوبات مقدرة حدد الشارع أنواعها وبين مقاديرها . والجرائم التي يحكم فيها بالكفارة محدودة هي :

١ — إفساد للصيام . ٢ — إفساد الاحرام . ٣ — الحنث في اليمين . ٤ — الوطء في الحيض . ٥ — الوطء في الظهار . ٦ — القتل .

والكفارة الواجبة ليست واحدة في كل هذه الجرائم ، بل تختلف في نوعها ومقدارها وطريقة أدائها باختلاف الجريمة .

وعقوبة الكفارة قد تصحبها عقوبة مقدرة أخرى كما هو الحال في القتل الخطأ ، فعقوبته الدية والكفارة معاً ، وكلاهما عقوبة مقدرة . وقد تصحب الكفارة عقوبة غير مقدرة ، أي عقوبة تعزيرية كما هو الحال في الظهار .

والكفارات التي فرضتها الشريعة عقوبات جنائية هي العتق والإطعام والكسوة والصيام ...

١ ـ **العتق** : والمقصود به عتق رقبة ، أي تحرير أحد الأرقاء . فإن لم يجدها تصدق بقيمتها .

٢ ـ **الاطعام** : والمقصود به إطعام المساكين . وتختلف كفارة الإطعام باختلاف الجرائم . فهي في كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين . وفي إفساد الصوم إطعام ستين مسكيناً . ويجزىء في الإطعام أن يكون من أوسط ما يطعم المطعم أهله .

٣ ـ **الكسوة** : وهي لم ينص عليها إلا في كفارة اليمين . ولا يجزىء في الكفارة أقل من كسوة عشرة مساكين لقوله تعالى : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم » .

٤ ـ **الصيام** : أي صيام الجاني ، والصيام لا يكون إلا في حالة العجز عن الكفارات الأخرى . وتختلف مدة الصيام باختلاف الجريمة . فهو في كفارة اليمين ثلاثة أيام . وفي القتل الخطأ صوم شهرين . ومن المسلم به أن الصيام لا يجوز إلا في حق المسلم لأنه عبادة .

رابعاً : العقوبات المقررة لجرائم التعازير :

ماهية التعزير : التعزير هو تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود ، أي هو عقوبة على الجرائم التي لم تضع الشريعة لأيها عقوبة مقدرة .

والتعازير هي مجموعة من العقوبات غير المقدرة ، تبدأ بالنصح والانذار ، وتنتهي بأشد العقوبات كالحبس والجلد ، بل قد تصل للقتل في الجرائم الخطيرة . ويترك للقاضي أن يختار من بينها العقوبة الملائمة للجريمة ، ولحال المجرم ولسوابقه .

ويعاقب بالتعزير على جرائم الحدود والقصاص والدية عند امتناع العقوبة الأصلية لهذه الجرائم ، أو إضافة للعقوبة الاصلية لهذه الجرائم .

هذا وقد جرى التشريع الجنائي الإسلامي على عدم تقييد القاضي بعقوبة معينة لكل جريمة . بل لقد أعطاه صلاحية فرض العقوبة الملائمة من مجموعة العقوبات المقررة للتعازير ، والتي رآها كفيلة بتأديب الجاني واستصلاحه وبحماية الجماعة من الإجرام .

وتمتاز عقوبات التعازير بأنها عقوبات غير مقدرة يترك للقاضي اختيارها ،

وأنها تقبل العفو من ولي الأمر ، سواء كانت الجريمة ماسة بالجماعة أو بالأفراد ، وأنه ينظر فيها إلى الجريمة وإلى شخصية المجرم معاً .

أنواع التعازير :

إن الشريعة لا تمنع الأخذ بأية عقوبة، تحقق أغراض الشريعة من العقاب ، ولكن أهم العقوبات التي عرفتها الشريعة للتعازير هي :

١ – عقوبة القتل :

الأصل في الشريعة أن التعزير للتأديب . وأنه يجوز من التعزير ما أمنت عاقبته غالباً . فينبغي أن لا تكون عقوبة التعزير مهلكة . ومن ثم لا يجوز في التعزير قتل ولا قطع . ولكن كثيراً من الفقهاء أجازوا استثناء من هذه القاعدة العامة أن يعاقب بالقتل تعزيراً إذا اقتضت المصلحة العامة تقرير عقوبات القتل . أو كان فساد المجرم لا يزول إلا بقتله . كقتل الجاسوس والداعية إلى البدعة ، ومعتاد الجرائم الخطيرة .

وفي تطبيق هذا الإستثناء لا يترك الأمر للقاضي ، بل يجب أن يعين ولي الأمر الجرائم التي يجوز فيها الحكم بالقتل .

وفي الواقع أن الشريعة لا تسرف في فرض عقوبة القتل ، فهي لا تعاقب به إلا على أربع جرائم من جرائم الحدود وجريمة واحدة من جرائم القصاص . أي أن الشريعة تفرض القتل في خمس جرائم فقط .

٢ – عقوبة الجلد :

تعتبر عقوبة الجلد من العقوبات الاساسية في الشريعة ، فهي عقوبة من العقوبات المقررة للحدود . وهي من العقوبات المقررة في جرائم التعازير ، بل هي العقوبة المفضلة في جرائم التعازير الخطيرة . ولعلّ وجه تفضيلها على غيرها أنها أكثر العقوبات ردعاً للمجرمين الخطرين الذين طبعوا على الإجرام أو إعتادوه ، وأنها ذات حدين فيمكن أن يجازى بها كل مجرم بالقدر الذي يلائم جريمته ، ويلائم شخصيته في آن واحد .

وتمتاز عقوبة الجلد فوق ما تقدم بأن تنفيذها لا يثقل كاهل الدولة ، ولا

يعطل المحكوم عليه عن الإنتاج ولا يعرض أهله ومن يعولهم للضياع أو الحرمان كما هو في الحبس مثلاً . فالعقوبة تنفذ في الحال ، والمجرم يذهب بعد التنفيذ مباشرة إلى حال سبيله ، فلا يتعطل عمله ولا يشقى بعقابه أهله

وأهم ميزة لعقوبة الجلد أنها تحمي المحكوم عليه من شر المحابس وما تجره على المحبوسين من إفساد الاخلاق والصحة ، واعتياد التعطل والنفور من العمل .

ويختلف الفقهاء في تحديد الحد الاعلى للجلد . فمذهب مالك يترك الحد الاعلى للجلد لأولي الأمر ، ويجيز لهؤلاء إيقاع العدد الذي يرونه . أما أبو حنيفة ومحمد فيحددانه بتسعة وثلاثين سوطاً .

أما أبو يوسف فيرى أنه خمسة وسبعون وفي مذهب الشافعي ثلاثة آراء : إثنان منها يتفقان مع مذهب أبي حنيفة . والثالث : يرى أصحابه أن يصل العدد إلى مائة ، بشرط أن لا يبلغ التعزير في معصية قدر الحد في هذه المعصية . وفي مذهب أحمد آراء كثيرة تتفق مع ما سبق ذكره في المذاهب الاخرى ، بالاضافة إلى رأي يرى أنه لا يصح أن يزاد في التعزير على عشرة أسواط بأي حال وحجة القائلين بهذا حديث الرسول ﷺ : (لا يجلد أحد فوق عشرة اسواط إلا في حد من حدود الله تعالى) . . .

وهذا الاختلاف بين المذاهب يرجع إلى الحديث السابق والحديث الآخر (من بلغ حداً في غير حد فهو من المعتدين) . فهذا الحديث لا يرده إلا مذهب مالك على أنه منسوخ . وأما الحديث الأول فهو مردود إلا عند بعض فقهاء مذهب أحمد . ومن رده يرده على أنه منسوخ . والذين أخذوا بالحديث الثاني اختلفوا في بلوغ الحد . فالبعض اعتبر ذلك حد الأحرار ، والآخر اعتبره حد الرقيق .

٣ ـ عقوبة الحبس :

الحبس في الشريعة على نوعين : حبس محدد المدة ، وحبس غير محدد المدة . . .

أ ـ الحبس المحدد المدة : تعاقب الشريعة بالحبس المحدد المدة على جرائم التعزير العادية ، وتعاقب به المجرمين العاديين . وأقل مدة هذا الحبس يوم واحد ، وأما حده الأعلى فغير متفق عليه ، والبعض يحدده بستة أشهر ، والبعض بسنة ، والبعض يتركونه لأولي الأمر .

ويشترط في الحبس كما يشترط في غيره من العقوبات أن يـؤدي إلى إصلاح الجاني وتأديبه ، فإن غلب على الظن أنه لن يؤدي الى تأديب الجاني أو لن يصلحه امتنع الحـكم به . ووجب الحكم بعقوبة أخرى .

هذا وإن الشريعة الإسلامية لا تأخذ بالحبس إلا على أنه عقوبة ثانوية لا يعاقب عليها إلا عن الجرائم البسيطة بعكس القوانين الوضعية التي تعتبر الحبس العقوبة الاساسية بين العقوبات ولكل الجرائم . ويترتب على هذا الفارق أن يقل عدد المحبوسين في البلاد التي تطبق الشريعـة الإسلامية إلى حد كبير ، بعكس غيرها من البلدان .

وقد أثبت الواقع أن عقوبة الحبس لم تثبت صلاحيتها إطلاقاً بل إنهـا على العكس لها كثير من المحاذير إذ ضاقت السجون بالمحابيس ، وأصبحت هذه السجون مدارس للاجرام ، إذ أنها لم تردع من هم في حاجة إلى الردع ، بينما تفسد الصالحين من المسجونين ، وتنزل بهم إلى مستوى الفاسدين . بالاضافة الى النفقات الباهظة التي تكلفها السجون ، وما ينجم عن الحبس من تعطيل أفراد عديدين في المجتمع عن الانتاج ، وتعويدهم على الكسل . وإهمال عائلاتهم ، وتركها عرضة للعوز والفاقة ، والمفاسد الخلقية والاجتماعية .

لذلك فالشريعة حين أخذت بنظام الحبس ، أخذت به على أضيق الحدود ، فهي لا توقعه إلا في بعض الجرائم البسيطة ، وعلى المجرمين المبتدئين ، ولمدة قصيرة بشرط أن تردع الجاني .

ب ـ **الحبس غير المحدد المدة** : من المتفق عليـه أن الحبس غير المحدد المـدة يعاقب به المجرمون الخطرون ومعتادوا الاجرام ، ومن اعتادوا جرائم القتل والضرب والسرقة ، أو تكرر منهم ارتكاب الجرائم الخطيرة . ومن لا تردعهم العقوبات العادية . ويظل المجرم محبوساً حتى تظهر توبته ، ويصلح حاله ، فيطلق سراحه ، وإلا بقي محبوساً مكفوفاً شره عن الجماعة حتى يموت .

وفي الواقع أن الشريعة أول من عرف هذه العقوبة التي بدأت القوانين الوضعية تأخذ بها في أوائل القرن التاسع عشر ، وتطبقها على مختلف الوجوه .

٤ ـ التغريب أو الابعاد :

جاء التغريب عقوبة تكميلية على جريمة الزنا . وأبو حنيفة يراه تعزيراً فيهـا

وبقية الفقهاء يرونه حداً وفيما عدا جريمة الزنا يعتبر التغريب تعزيراً باتفاق .

ويلجأ إلى عقوبة التغريب إذا تعدت أفعال المجرم إلى اجتذاب غيره إليها أو استضراره بها .

وأغلب الفقهاء على جواز أن تزيد مدة التغريب عن سنة ، وأن يترك تحديدها لأولي الامر ، والبعض يرى أن يوضع المغرّب تحت المراقبة في المكان الذي غرب إليه .

وقد عاقب رسول الله ﷺ بالتغريب ، فأمر باخراج المخنثين من المدينة . وكذلك فعل أصحابه من بعده . فقد عاقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصر بن حجاج بالنفي من المدينة .

٥ – الصلب :

يعتبر الصلب حدا يعاقب به على جريمة الحرابة ويرى بعض الفقهاء أن يصلب المحكوم عليه بعد قتله . ويرى البعض الآخر أن يصلب ثم يقتل وهو مصلوب .

وقد اعتبر الفقهاء عقوبة الصلب عقوبة تعزيرية . ولكن الصلب للتعزير لا يصحبه القتل ولا يسبقه . وإنما يصلب الانسان حياً ، ولا يمنع عنه طعامه وشرابه ، ولا يمنع من الوضوء للصلاة ، ولكنه يصلي إيماء ، ويشترط الفقهاء في الصلب أن لا تزيد مدته على ثلاثة أيام .

ومما يحتج به لمشروعية عقوبة الصلب أن رسول الله ﷺ عزر رجلا بالصلب وصلبه على جبل يقال له أبو ناب .

وعقوبة الصلب على الوجه السابق عقوبة بدنية يقصد منها التأديب والتشهير معاً .

٦ – عقوبة الوعظ وما دونها :

يعتبر الوعظ عقوبة تعزيرية في الشريعة الاسلامية . ويجوز للقاضي أن يكتفي في عقاب الجاني بوعظه إذا رأى أن في الوعظ ما يكفي لإصلاحه وردعه . وقد نص القرآن الكريم صراحة على عقوبة الوعظ في قوله تعالى : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن » .

وفي الشريعة من العقوبات التعزيرية ما هو دون الوعظ . فالفقهاء يعتبرون مجرد إعلان الجاني بجريمته عقوبة تعزيرية . وفي إحضاره إلى مجالس القضاء عقوبة تعزيرية .

ويجب ألا ننسى أن مثل هذه العقوبات لا توقع إلا على من غلب على الظن أنها تصلحه وتزجره وتؤثر فيه .

٧ – عقوبة الهجر :

ومن العقوبات التعزيرية في الشريعة عقوبة الهجر . وقد ورد به القرآن تعزيراً للمرأة في قوله تعالى : « فعظوهن واهجروهن في المضاجع »

وقد عاقب الرسول ﷺ بالهجر . فأمر بهجر الثلاثة الذين خلفوا عنه في غزوة تبوك وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن ربيعة ، وهلال بن أمية . فهجروا خمسين يوماً لا يكلمهم أحد ، حتى نزل قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » .

وعاقب عمر رضي الله عنه صبيغاً بالهجر مع الجلد والتغريب ، فكان لا يكلمه أحد حتى تاب . وكتب عامل البلد الذي غرب إليه ، إلى عمر يخبره بتوبته فأذن للناس في كلامه .

٨ – عقوبة التوبيخ :

ومن العقوبات التعزيرية في الشريعة الإسلامية عقوبة التوبيخ ، فإذا رأى القاضي أن التوبيخ يكفي لإصلاح الجاني وتأديبه اكتفى بتوبيخه . ولقد عزر رسول الله ﷺ بالتوبيخ . ومن ذلك ما رواه أبو ذر رضي الله عنه قال : (ساببت رجلا فعايرته بأمه فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية) ...

وخاصم عبد الرحمن بن عوف عبداً من عامة الناس إلى رسول الله ﷺ فغضب عبد الرحمن وسب العبد قائلاً : يا ابن السوداء . فغضب النبي ﷺ أشد الغضب و رفع يده قائلاً : (ليس لابن بيضاء على ابن سوداء سلطان إلا بالحق . فاستخذى

عبد الرحمن وخجل . ووضع خده على التراب ثم قال للعبد : طأ عليه حتى ترضى .

٩ – عقوبة التهديد :

والتهديد عقوبة تعزيرية في الشريعة بشرط أن لا يكون تهديداً كاذباً . وبشرط أن يرى القاضي صلاحـــه في تأديب الجاني . ومن التهديد أن ينذره القاضي أنه إذا عاد فسيعاقبه القاضي بالحبس أو الجلد أو سيعاقبه بأقصى العقوبـة . ومن التهديد أن يحكم القاضي بالعقوبة ثم يوقف تنفيذها الى مدة معينة .

١٠ – عقوبة التشهير .

والتشهير من عقوبات الشريعة التعزيرية . ويقصد بالتشهير الاعلان عن جريمة المحكوم عليه ، ويكون التشهير في الجرائم التي يعتمد فيها المجرم على ثقة الناس كشهادة الزور والغش . وقد كان التشهير يحدث قديماً بالمناداة على المجرم بذنبه في الاسواق والمحلات العامة حيث لم تكن هناك وسيلة أخرى . أمـــا في عصرنا الحاضر فالتشهير ممكن باعلان الحكم في الصحف أو لصقه في المحلات العامة .

١١ – عقوبة الغرامة :

من المسلم به أن الشريعة عاقبت على بعض الجرائم التعزيرية بالغرامة ، ومن ذلك أنها تعاقب على سرقة التمر المعلق بغرامة تساوي ثمن مـا سرق مرتين فوق العقوبة التي تلائم السرقة . وذلك قول الرسول ﷺ : (ومن خرج بشيء فعليـه غرامة مثليه والعقوبة) . ومن ذلك عقوبة كتم الضالة فإن عليه غرامتها ومثلهـــا معها ، ومن ذلك تعزير مانع الزكاة بأخذ شطر ماله . ولكن الفقهاء بالرغم من ذلك اختلفوا فيما إذا كان من الجائز جعل الغرامة عقوبة عامة يمكن الحكم بها في كل جريمة . فرأى البعض أن الغرامة المالية يصح أن تكون عقوبة تعزيرية عامة ، ورأى البعض أنه لا يصح أن تكون كذلك .

وحجة المعترضين عليها بأنها نسخت . وأنه يخشى من إباحتها ما يغري الحكام بمصادرة أموال الناس بالباطل . وأن تقريرها يؤدي الى تمييز الأغنياء على الفقراء الذين لا يستطيعون الدفع . والذين أيدوها يقررون أنها لا تصلح إلا في الجرائم البسيطة ، وتركوا أمر تحديدها لأولي الأمر . والمستحسن هنا الإشارة إلى أن

الشريعة الاسلامية لا تبيح حبس المحكوم عليه بمبلغ من المال إلا إذا كان قادراً على الدفع وامتنع عنه . أما إذا لم يكن يستطيع الدفع فلا يجوز حبسه لذلك . ولكن ليس في الشريعة ما يمنع تشغيل المحكوم عليه في عمل حكومي لاستيفاء الغرامة المحكوم بها من أجره .

١٢ – عقوبات اخرى :

هناك عقوبات أخرى أيضاً ليست عامة وأهمها :

أ – العزل من الوظيفة : وهي تطبق على الموظفين ...

ب – الحرمان من بعض الحقوق : كالحرمان من تولي الوظائف العامة ، ومن أداء الشهادة وكإسقاط النفقة للنشوز ...

جـ – المصادرة : ويدخل تحتها مصادرة أدوات الجريمة ، ومصادرة ما حرمت حيازته ...

د – الإزالة : أي إزالة أثر الجريمة . كهدم البناء المقام في مكان محظور... وإعدام أواني الخمر وغيرها ...

استيفاء العقوبات :

الاصل في الشريعة الاسلامية أن عقوبة الحد والتعزير يستوفيها ولي الأمر أي الإمام . أما عقوبات جرائم القصاص فيجوز المجني عليه أو لوليه استيفاؤها بنفسه ضمن شروط معينة .

الاستيفاء في جرائم الحدود : من المتفق عليه بين الفقهاء أنه لا يجوز أن يقيم الحد إلا الإمام أو نائبه . لأن الحد حق الله تعالى ومشروع لصالح الجماعة ، فوجب تفويضه إلى نائب الجماعة وهو الامام – ولا يشترط لاقامة الحد حضور الامام بنفسه ، لأن النبي ﷺ لم ير حضوره لازماً فقال : (أغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها) . وأمر كذلك برجم ماعز ولم يحضر الرجم وأتي بسارق فقال : (اذهبوا به فاقطعوه) .

ولكن إذن الامام باقامة الحد واجب . فما أقيم حد في عهد رسول الله ﷺ إلا بإذنه ، وما أقيم حد في عهد الخلفاء إلا بإذنهم . ومما يروى عن رسول الله ﷺ

في هذا قوله : (أربع إلى الولاة : الحدود والصدقات والجمعات والفيء) .

وإذا كانت القاعدة العامة أن إقامة الحد للإمام أو نائبه ، إلا أنه لو أقامه غيره من الأفراد فإن مقيمه لا يسأل عن إقامته إذا كان الحد متلفاً للنفس أو الطرف ، أي إذا كان الحد قتلا أو قطعا ، وإنما يسأل باعتباره مفتاتاً على السلطات العامة .

أما إذا كان الحد غير متلف كالجلد مثلاً ، فإن مقيمه يسأل عن إقامته ، أي يسأل عن الضرب والجرح وما يتخلف عنهما .

وسبب هذا الفرق أن الحد المتلف للنفس أو الطرف يزيل عصمة النفس وعصمة الطرف . وزوال العصمة عن النفس يبيح القتل . وزوال العصمة عن الطرف يبيح القطع ، فيصير قتل النفس أو قطع العضو مباحاً ، ولا جريمة فيما هو مباح .

أما الحد غير المتلف فلا يزيل عصمة النفس ولا عصمة الطرف ، فيبقى معصوماً من يرتكب جريمة عقوبتها حد غير متلف ، وتعتبر إقامة الحد عليه جريمة ما لم تكن الاقامة ممن يملك تنفيذ العقوبة .

الاستيفاء في جرائم التعازير : واستيفاء العقوبات في جرائم التعازير من حق ولي الأمر أو نائبه ، لأن العقوبة شرعت لحماية الجماعة فهي من حقها . فيترك استيفاؤها لنائب الجماعة . ولكن ليس لأحد غير الامام أو نائبه إقامة عقوبة التعزير ولو كانت متلفة للنفس ، لأنها عقوبة غير لازمة يجوز للامام العفو عنها . لذا فإن قتل أحد الأشخاص شخصاً محكوماً عليه بالقتل تعزيراً يعتبر به قاتلا له ، ويعاقب على جريمة قتل .

الاستيفاء في جرائم القصاص :

الأصل أن عقوبة القصاص كغيرها من الجرائم متروك إقامتها لولي الأمر . ولكن أجيز استثناء أن يستوفى القصاص بمعرفة ولي الدم أو المجني عليه . والأصل في ذلك قوله تعالى : « ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل » .

ومن المتفق عليه أن لولي المجني عليه حق استيفاء القصاص في القتل ، بشرط أن يكون الاستيفاء تحت إشراف الإمام . لأنه أمر يفتقر الى الاجتهاد ويحرم فيه الحيف ، ولأنه لا يؤمن الحيف من المقتص مع قصد التشفي ، ولكن إذا استوفاه في غير حضور الامام عزر المستوفي لافتياته على السلطات العامة وفعله ما منع منه .

وللسلطان أن ينظر في الولي فإن كان يحسن الاستيفاء ويقدر عليه بالقوة والمعرفة اللازمة مكنه منه ، وإن كان لا يحسنه ، أمره أن يوكل غيره لأنه عاجز عن استيفاء حقه .

وليس ثمة ما يمنع من أن يعين خبير لاستيفاء الحدود والقصاص يأخذ أجره من بيت المال لأن هذا العمل من المصالح العامة ، فإذا كان الولي لا يحسن القصاص وكل هذا الخبير .

أما فيما دون النفس من القصاص أي فيما ليس قتلاً . فيرى مالك والشافعي وبعض الحنابلة أن استيفاء القصاص يتولاه الخبراء . وليس للمجني عليه استيفاؤه ولو كان يحسنه لأنه لا يؤمن مع قصد التشفي أن يحيف على المجني عليه أو يجني عليه بما لا يمكن تلافيه ، بينما يرى أبو حنيفة أن يوكل للمجني عليه استيفاء القصاص إذا كان يحسنه

كيفية الاستيفاء في النفس :

يرى أبو حنيفة أن القصاص لا يستوفى إلا بالسيف سواء كان القتل وقع بالسيف أو بغيره . وحجته في ذلك قول الرسول ﷺ : (لا قود إلا بالسيف). وفي رواية عن أحمد أنه يرى هذا الرأي . وعلى هذا إذا استوفى ولي المجني عليه بغير السيف يعزر لافتياته على السلطات العامة ويعتبر مستوفياً لحقه في القصاص.

أما مالك والشافعي وفي رواية عن أحمد ان القاتل أهل أن يفعل به كما فعل لقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله تعالى: « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » .

أي أن للولي أن يقتص من القاتل بنفس الطريقة التي حدث بسببها القتل .

ولكن له أن يستوفي بالسيف . ويجبر على هذا إذا كان القتل قد حدث بطريقة محرمة في نفسها كاللواط وسقي الخمر .

شروط آلة القصاص :

يشترط في آلة القصاص أن تكون صالحة ، لا كالة مثلاً ، ولا مسممة لئلا يعذب المقتص منه . لأن من شروط القصاص أن لا يعذب الجاني ، وأن تزهق روحه بايسر ما يمكن ، يضاف إلى هذا أن يكون منفذ القصاص خبيراً به ، وكل هذا تحقيقاً لقول رسول الله ﷺ : (إن الله كتب الاحسان في كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته).

هل يجوز الاستيفاء بما هو أسرع من السيف : ؟...

الأصل في اختيار السيف أداة للقصاص أنه أسرع في القتل ، وأنه يزهق روح الجاني بأيسر ما يمكن من الألم والعذاب .

ولكن لجنة الفتوى بالأزهر أفتت بأنه إذا وجدت أداة أخرى أسرع من السيف ، وأقل ايلاماً فلا مانع شرعاً من استعمالها فقد قالت في فتواها : (فلا مانع شرعاً من استيفاء القصاص بالمقصلة والكرسي الكهربائي وغيرهما مما يفضي إلى الموت بسهولة وإسراع ، ولا يتخلف الموت عنه عادة ، ولا يترتب عليه تمثيل بالقاتل ؛ ولا مضاعفة تعذيبه ، أما المقصلة فلأنها من قبيل السلاح المحدد ، وأما الكرسي الكهربائي فلانه لا يتخلف الموت عنه عادة مع زيادة السرعة ، وعدم التمثيل بالقاتل دون أن يترتب عليه مضاعفة التعذيب) .

استيفاء العقوبات عند التعدد : تختلف المذاهب في هذه المسألة ...

فمالك يرى أن ينفذ أولاً ما هو لله أي ما يمس حقوق الجماعة ، ثم يقام بعد ذلك ما هو للناس أي ما يمس حقوق الافراد . وحجة مالك في ذلك أن ما لله لا عفو فيه ، وما للناس قد يعفى عنه . لذا فمن مصلحة المحكوم عليه تأخير ما يمس حقوق الافراد . ويستوي عند مالك بعد ذلك البدء بالعقوبة الخفيفة ، أو البدء بالعقوبة الأشد . ويترك لولي الأمر ذلك .

ويرى أبو حنيفة وأحمد تقديم ما يمس حقوق الافراد . على أن يبدأ بالأخف

فالأخف ثم ينفذ بعد ذلك ما يمس حقوق الجماعة على أن يبدأ فيها بما يجُب غيره .

ويرى الشافعي أن تنفذ العقوبات كلها بحسب خفتها ، فيقدم الأخف على الخفيف ، ويقدم ما يمس حقوق الافراد على ما يمس حقوق الجماعة . وهكذا حتى تنفذ العقوبات كلها .

التنفيذ على المريض والضعيف والسكران :

فقهاء الشريعة يتفقون على وجوب تأخير تنفيذ عقوبة القصاص ، وعقوبات الحدود ، وما يماثلها من عقوبات التعازير إذا كان المحكوم عليه مريضاً ، أو كان الوقت لا يناسب تنفيذ العقوبة ، كأن كان برداً شديداً أو حراً شديداً . ولا يستثنون من ذلك إلا عقوبة القتل لأنها عقوبة مهلكة . ويرى البعض عدم التأخير والتنفيذ بقدر الإمكان بحيث لا يضار المحكوم عليه بضعفه . ولو بتخفيف السوط في الجلد مثلاً أو بتعديد فروعه .

أما السكران فيرى الفقهاء ان لا تنفذ العقوبة فيه حتى يصحو من سكره ...

التنفيذ على الحامل :

عرفت الشريعة من يوم وجودها مبدأ عدم التنفيذ على الحامل . وحديث الغامدية قاطع في ذلك ، فقد جاءت الرسول عليه الصلاة والسلام تعترف بالزنا وهي حامل فقال لها (اذهبي حتى تضعي حملك) . ومثله حديث معاذ : (إن كان لك عليها سبيل فلا سبيل لك على ما في بطنها) . والتنفيذ الممنوع على الحامل هو الذي يضر بالحمل .

والفقهاء يجمعون على هذا المبدأ ، ولكنهم يختلفون بعض الشيء في مدى تطبيقه .

فيرى الشافعي أن لا ينفذ على المرأة إذا ذكرت حملاً أو ريبة من حمل حتى تضع حملها ، أو يتبين أنها غير حامل ثم ينفذ عليها بعد الوضع . وإن لم يكن لولدها مرضع فيفضل الشافعي تركها أياماً حتى تجد اولدها مرضعاً في حالة القتل .

ويرى أبو حنيفة فوق ما سبق ان لا ينفذ على الحامل حتى تشفى من النفاس ولو كانت العقوبة جلداً . ويرى مالك ان لا ينفذ على الحامل حتى تضع ، ويعتبر

لنفاس مرضاً يوجب تأخير الجلد حتى ينتهي ، وإن وجد لطفلها مرضع نفـــذ عليها القتل ، وإن لم يصيبوا لطفلها مرضعاً لم يعجل عليها بالقتل . ويرى أحمد أنه إذا وجب القود أو الرجم على الحامل ، أو حملت بعد وجوبه لم تقتل حتى تضع وتسقيه اللبن . ثم إذا وجد له مرضعة قتلت ، ويستحب لولي القتل تأخيره للفطام ، وإن لم يكن له من يرضعه تركت حتى ترضعه حولين ثم تفطمه ، كما يرى تأخير الجلد حتى تضع حملها .

علنية التنفيذ :

الأصل في الشريعة أن يكون التنفيذ علنياً لقوله تعالى : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . ولأن السنة جرت بهذا ويستوي في ذلك القتل وغير القتـــل . والتنفيذ يجب أن يتم بطريقة واحدة لجميع الناس مهما اختلفت مراتبهم وجرائمهم . وتقضي الشريعة أن تسلم جثة القتيل لأهله بعد التنفيذ ليدفنوه كما يشاؤون لقوله عليه الصلاة والسلام : (افعلوا به كما تفعلون بموتاكم) .

العـــود :

يطلق العود اليوم في إصطلاحنـــا القانوني على حالة الشخص الذي يرتكب جريمة بعد أخرى حكم فيها نهائياً . وعود المجرم للاجرام بعد الحكم عليـه دليل على أن المجرم يصر على الإجرام ، وعلى أن العقوبة لم تردعه ، ومن ثم فقد كان من المعقول أن يتجه التفكير الى تشديد العقوبة على العائد . ومن المتفق عليه في الشريعة أن يعاقب المجرم بالعقوبة المقررة للجريمة فإن عاد لها أمكن تشديـد العقوبة ، فإن اعتاد الإجرام استؤصل من الجماعة بقتله أو بكف شره عنها بتخليده في الحبس وذلك حسب الظروف . اه

* * *

وبهذا نكون قد استعرضنا بشكل سريع السياسة الجزائية في الاسلام وبهذا ينتهي الباب الثاني من الفصل الثالث .

رأينا فيا مضى ملامح الحياة العامة الاسلامية ، ولا شك أنها تختلف اختلافاً جوهرياً في مضامينها عن أي حياة عامة أخرى ، وينتج عن ذلك أن الاجهزة التنفيذية التي تحتاجها هذه الحياة تختلف عن غيرها إن لم يكن في الشكل ففي المضمون ، وإن لم يكن في الشكل والمضمون كبعض القضايا الإدارية ففي الأهداف.

فمثلاً قد يوجد في دولة إسلامية تنظيم حزبي وحيد ، ولكن الفارق بين هذا التنظيم وغيره عند الدول المحكومة بنظام الحزب الواحد ، أن الحزب الاسلامي له مناهجه التربوية والسلوكية والفكرية المختلفة ، كما أن السلطات التي بيد الحزب أو افراده مختلفة ، والطريقة التي يعمل فيها تختلف ، والآثار التي تترتب على ذلك تختلف كذلك اختلافاً جوهرياً .

وقل هذا في كل مؤسسة من مؤسسات الدولة المسلمة ولذلك فاننا نقول : إن أي تشابه بين أجهزة الدولة المسلمة وأجهزة غيرها إنما هو تشابه ظاهري فقط .

أما الاجهزة الأساسية التي تحتاجها الدولة المسلمة فهي :

١ - جهاز حزبي إسلامي في كل قطر يكون له نظامه الداخلي ، وتربيته الدقيقة ، وتخطيطه الدقيق ، واستيعابه لمشاكل القطر وحلولها ، وكل مسلم مرشح للدخول في الحزب إذا أدى التزامات ذلك فكرياً وسلوكياً وعملياً ، وينبثق عن هذا الجهاز مجلس شورى ينتخب نائب أمير المؤمنين ، ويكون هذا المجلس ممثلاً لعدد السكان بنسبة أفراد الجهاز الحزبي .

٢ - جهاز وزاري تابع لنائب أمير المؤمنين .

٣ - خليفة يحكم الاقطار الاسلامية عامة .

٤ - الجهاز الذي ينتخب الخليفة ، والأولى أن يكون مجموعة مجالس الشورى في الأقطار الإسلامية .

٥ - مجلس شورى الخلافة الممثل لكل أقطار الأمة الاسلامية ، والذي من حقه محاسبة الخليفة على تقصيره في تحقيق الأهداف الاسلامية .

٦ - مجلس وزراء تابع للخليفة .

٧ - الاجهزة التي تربط الولايات بعضها ببعض .

٨ - الدستور العام الذي ينظم شأن الولايات وطريقة ارتباطها ، ونوعية الحكم فيها ، واختصاصات السلطة المركزية للخلافة واختصاصات السلطة التنفيذية في كل قطر.

٩ - الجيش المؤتمر بأمر أمير المؤمنين والمعبأ أعظم تعبئة والمعد أعظم إعداد.

١٠ - الجهاز الحزبي المسؤول عن نشر الدعوة الاسلامية عالمياً ، والمستقطب لكل المسلمين في العالم.

١١ - الدستور المحلي لكل قطر إسلامي بالشكل الذي لا يتعارض مع الدستور العام ، ويسمح للفروق المذهبية أو الطبيعية أن تظهر فيه بشكل مناسب مع طبيعة القطر.

١٢ - المحكمة العليا لجميع الولايات الإسلامية بحيث تكون مرجعاً قضائياً تحل فيه جميع المشاكل التي تحدث في الولايات من تعارض الدستور المحلي ، والدستور العام ، إلى النظر في كل دعوى ترفع إليها حول شرعية أمر ما تشريعي أو غيره.

١٣ - محكمة عليا محلية تكون مرجعاً في كل قضية لها علاقة في السياسة العليا للقطر.

١٤ - لجنة المراقبة في الجهاز الحزبي العام ، والتي تستطيع أن ترفع دعوى عدم الشرعية الى المحكمة العليا في كل قطر.

١٥ - الجهاز الذي مهمته إجبار الخليفة على الرجوع الى الصواب إذا أراد استبداداً ، ولا يعمل هذا الجهاز إلا إذا رفض الخليفة قرار المحكمة العليا.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة:
الله، الرسول، الإسلام

الأصل الثالث
الإسلام

الجزء الرابع

تأليف
سعيد حوى

راجعه الأستاذ
وهبي سليمان الغاوجي

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الرابع

مؤيدات الإسلام

ذكرنا في مقدمة الحديث عن هذا الأصل أن للإسلام مؤيدات .

والآن نحب أن نفصّل هذه المؤيدات فنقول:

إن مؤيدات الإسلام تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – مؤيدات بشرية تتمثل بالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والحكم.

٢ – مؤيدات فطرية تتمثل بالعقوبة التلقائية التي تترتب على مخالفة أمر الله .

٣ – مؤيدات ربانية تتمثل بعقوبة القهر الإلهي في الدنيا ، أو بالثواب والعقاب في الدار الآخرة .

وقد مرّ معنا تفصيل كامل للمؤيدات البشرية في وضعها الإسلامي الصحيح .

ومر معنا أثناء الحديث عن السياسة العسكرية في الفصل الثالث ، وأثناء الحديث عن العقوبات المحددة وغير المحددة كالتعازير . ومرّ معنا بشكل مفصل في كتاب : جند الله : أخلاقاً وثقافة .

ولذلك فإننا لا نجدنا بحاجة هنا في هـذا الفصل إلى الكلام عن المؤيدات البشرية التي افترض الله على المسلمين أن يقوموا بها من أجل إقامة دينه ، وعلى هذا فسنقتصر في هـذا الفصل على الحديث عن المؤيدات الفطرية للإسلام والمؤيدات الربانية.

ونعني بالمؤيدات الفطرية العقوبات التلقائية التي تترتب عفوياً نتيجـة لأي انحراف عن أمر الله ، لأنه لما كان الإسلام هو دين الفطرة البشرية : « فطرة الله التي فطر الناس عليها

لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » ولما كان الإنسان عندما يمشي في غير طريق الفطرة يعذب ذاته فيشقى، وكلما أوغل في الطريق غير الفطري ازداد شقاؤه مهما كان في الطريق الآخر من ملذات مآلها الضياع .

لذلك قال الله تعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » فالمعيشة الضنك في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، وعبر عن الذين يسيرون في طريق الكفر والضلال بأنهم يظلمون أنفسهم « فلا تظلموا أنفسكم »، « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين »، « ظلموا أنفسهم » وما ذلك إلا لأنهم أوردوها الهلاك في الآخرة والشقاء في الدنيا .

أما المسلم فعلى العكس من ذلك يعيش بسعادة في الدنيا ، وينعم بنعيم الآخرة .

قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وهذا الكلام قد يكون لأول بادرة عجيباً على بعض الأسماع ، ولكنه الواقع الذي تشهد له كل وقائع الدنيا ، ومهمتنا في بحث المؤيدات الفطرية أن نبرهن من واقع الحياة البشرية عليه .

ونعني بالمؤيدات الربانية :

ما يعاقب - الله عز وجل - به المنحرفين عن أمره في الدنيا ، وما يمد به المقبلين على طاعته من ألوان التأييد فيها .

وما أعده الله عز وجل للمنحرفين عن طاعته من عقوبة في الآخرة ، وما أعده لأهل طاعته من نعيم .

وعلى هذا فسينقسم هذا الفصل إلى قسمين :

القسم الأول : المؤيدات الفطرية . القسم الثاني : المؤيدات الربانية .

والقسم الثاني ينقسم إلى فقرتين : أ - المؤيدات الربانية في الدنيا . ب - المؤيدات الربانية في الآخرة .

وقبل الحديث عن المؤيدات الربانية في الآخرة سنتحدث عن اليوم الآخر ويقينية وجوده .

القسم الأول

المؤيدات الفطرية

إن هذا الإسلام يمثل سنن الله التي لا تستقيم الحياة البشرية إلا بها ، وكما أن الإنسان إذا لم يتنفس يختنق ، وإذا لم يأكل يموت لمخالفته سنن الله ، فإن أي انحراف عن أي جزء من أجزاء الإسلام يحمل في طياتـه عقوبته التي تحيق بالمنحرفين عنه . فمن رفض العبودية لله عاقبته سنن الله بأن تجعله عبداً للإنسان . ومن غش ليربح عاقبته سنن الله بأن يفقد الثقة ويخسر . ومن فرط في واجب اليوم عاقبته سنن الله بمضاعفة التعب في يوم آخر.

وهكذا فما من انحراف عن أي جانب من الإسلام إلا وتقابله عقوبة تليق به في الدنيا، لأن الانحراف عن قوانين الله في الكون والإنسان والاجتماع دائماً ليس لصالح الإنسان بل هو تدمير له أو تعذيب..

وسنضرب عشرة أمثلة من عقوبات الفطرة، على عشرة أمثلة من الانحراف عن أمر الله ليتضح هذا المؤيد القوي من مؤيدات الإسلام .

١ ـ الزنى

إن العقوبات الفطرية التي رتبها الله على الاتصال غير الشرعي بين الرجل والمرأة كثيرة تجعل المتعة أقل بكثير جداً من الألم .

فأول العقوبات : إذا حملت المرأة من سفاح فإنها ستمرض وتتألم وتتعطل عن العمل إن كانت عاملة ، دون أن يتحمل معها أحد عبء المشاركة بالإنفاق عليها ، أو على ولدها ، والمرأة عادة لا ترغب في الأولاد عن هذا الطريق ، فهي إما أن تجهض نفسها وذلك ألم أكثر مما تمتعت فيه ، وإما ستتحمل مسئولية الحمل والولد وحدها ، وهذا ألم آخر يفوق المتعة ..

وثاني العقوبات : ما يترتب على عملية الزنى من أمراض جنسية لا تكون إلا عن الزنى كالزهري والقرحة الأكالة ، وجرب التناسل ، وسنط التناسل ، وهربس التناسل ، ومرض السيلان.

وثالث العقوبات : تأنيب الضمير لخيانة الرجل زوجته بزناه بغيرها ، وخيانة المرأة زوجها بزناها بغيره والخوف الذي يحيط بالموضوع من خشية كل من الزانية والزاني افتضاح أمرهما في كل حال ، سواء كانا متزوجين أو غير متزوجين

ورابع العقوبات : تعطيل الحياة الزوجية ، إذ الحياة الزوجية تقوم على أساس صلة المودة التي يغذيها شعور كل من الزوجين بأنه للآخر ، فإذا ما أفرغ الزوج طاقته الجنسية عند غير زوجته ، وأفرغت المرأة طاقتها الجنسية عند غير زوجها ، فترت العلاقة بين الزوجين ، ولم يحس أحدهما بالسكن نحو الآخر ، وكل منهما صار يرى زوجه لغيره ، وفي ذلك من الألم الكثير ، إذ ينشأ عند ذلك الجفاء والخصام وعدم الطاعة والرعاية ، وبالتالي الطلاق فضياع الأولاد ، فزواج آخر قد يكون له نفس المصير .

وخامس العقوبات : أن عملية الجماع ينشأ عنها مودة خاصة ، وينتج عن هذا ألم نفسي عند الزاني لشعوره أن هذا الذي تمت معه عملية الجماع سيكون لغيره في مثل وضعه ، وهذا قريب من السابق ولكن ذلك خصصناه لآثار هذا على الحياة الزوجية .

وسادس العقوبات : أن الذي تعود على الزنى يبقى في شره دائم للنساء ويعيش نتيجة لهذا في قلق دائم ، وضياع واضطراب نتيجة البحث ، ومحاولة الاتصال ، وفشل وسائل الإغراء ، وعدم استطاعته الوصل ، وهو بالتالي ليس لولد ، ولا لبيت ، ولا قرابة له ، ويكفيه نتيجة لذلك إن استغنى بالزنى عن الزواج ألا يجد من يرعاه في مرض أو في كبر ، أو من يواسيه أو يحترمه أو يحس معه بأواصر الحنان والرحمة والألفة .

إن الزنى في الحقيقة عملية تحطيم لأنفس ولأسر ولاجتماع ولذلك قال الله فيه : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا » إنه طريق سيىء وعقوبة سلوك الطريق السيىء معجلة فيه .

والمسألة بعد ذلك في الإسلام قد رتب عليها عقوبة جسدية تصل إلى الإعدام في حالة ، وعذاب الله بعد ذلك آت لمن لم يتب ، ونحن هنا فقط بسبيل شرح عقوبة سنن الحياة

عن الانحراف عن أمر الله ودينـــه وشريعته ، ومهمتنا أن نشير إشارات ولا نطمع في الإحاطة .

٢ ـ شرب الخمر

إن الخمر في دين الله محرمة ، وككل محرم فإن إتيانـه عقوبته فيه ، وهـــذه بعض عقوبات الانحراف عن أمر الله التي تنتج عن مجرد تعاطي هذا المحرم :

١ ــ إن شارب الخمر أول ما يصاب بإدراكه وعقله، ويكفي أن نعلم أن شرب كأس واحـــدة من الويسكي يؤدي إلى أن تكثر أخطاء ضارب الآلة الكاتبـة مثلاً ، ويلاحظ الاضطراب عن الوضع المعتاد في كل تصرف من تصرفات شاربه ، واي عقوبـة أكبر من عقوبة تجعل الإنسان ينحدر إلى وضع المجانين .

٢ ــ إن شارب الخمر يفقد إرادته وقوة ضبطه لنفسه فيكثر هيانه ، وتكثر سقطات لسانه ، وكلما أوغل في شرب الخمر أكثر كلما زادت عنده هــذه الظاهرة أكثر ، وأبشع بإنسان ينهار نفسياً كل يوم .

٣ ــ إن ١٣ ٪ من حوادث المرور سببها الخمر، وكثيراً من الجرائم والفظائع والخيانات سببها الخمر كذلك ، وهذه عقوبة فطرية لا تصيب صاحبها فقط، بل تصيب المجتمع الذي يسمح بشرب الخمر .

٤ ــ والخمر يؤثر على بنية الإنسان تأثيراً كبيراً ، لدرجة أن هـــذا التأثير ينتقل إلى الذرية ، وقد لوحظ أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحي الجسم ، ضعفاء البنيـة ، ناقصي العقول ، ويكون لديهم ميل إلى الإجرام ، ودافع إلى الشر .

٥ ــ وكثير من الأمراض سببها الخمر ، فانفجار الشرايين في الدمـــاغ ، وارتفـاع الضغط ، وعسر الهضم ، واحتقانات المعدة ، وأمراض الكبد وضعف المقاومة... وكثير من الأمراض ، للخمر دخل في وجودها مع من يشربها .

٦ ــ ومن عقوبات جريمة شرب الخمر الفطرية ، إضاعة الوقت، وقتل النشاط ، وإثارة البغضاء ، وخراب البيوت ، وموت الضمير ، وفقدان الحساسية ، وأشياء أخرى كثيرة .

إن عقوبة شرب الخمر فيه ، ولقد رتب الشارع عقوبات تشريعية رادعـة على ذلك ، ليس هنا محل بحثها .

٣ ـ القمار والميسر

وككل انحراف عن أمر الله عقوبته فيه ، فإن القمار والميسر هكذا ، فالعقوبات الفطرية التي تترتب على هذه المعصية كثيرة ، وهي غير ما يستحقه المقـامر من تعزير في التشريع ، وغير مـا يستحقه من عقوبة يوم القيامة على ما اقترفت يداه . ونلخص أهم العقوبات الفطرية في القمار بما يلي :

١ ـ تحطيم أعصاب المقامر أثناء المقامرة ، إذ تتوجه جميع قواه العقليـة ، وتستوفز أعصابه لمعرفة النتيجة خسارة أو ربحاً بشكل لا مثيل له ، مما يؤدي إلى إرهاق الأعصاب ، إذ أن المقامرة تجر بعضها بعضاً ، فمن بدأ مرة تابع مرات ، وهو في هذه الحالة من التوتر العصبي ، فالاستمرار بهذا تحطيم لشخصية الإنسان بشكل كامل .

٢ ـ ومن أهم العقوبات أن المقامر يبقى يومه كله قبل ميعاد بدء مقامرته ، وهو يفكر فيها ، في ربحها وخسارتها ، ثم بعد أن ينتهي من مغامرته فهو أحد اثنين إما رابح تأخذه النشوة فيبقى يعيش فيها ، وإما خاسر مكمود يتذكر خسارته ، ومعنى هذا أن المقـامر لا يعيش لشيء إلا المقامرة ، قد استغرقه القمار عن كل واجب .

٣ ـ إن القمار ربح أو خسارة غير معقولين يتحكم بهما شيء غير معقول وينتج عن هذا أن المتقامرين دائماً في حـالة حقد وحسد وبغضاء ، وتشاحن ظاهر وخفي فيما بينهم ، فجو المتقامرين جو شقاء ونكد ، لا يمكن أن تجد فيه سعادة مستمرة .

٤ ـ عملياً الرابح الوحيد في المقامرة ، هو من يدير عملية القمار من ناد أو مقهى ، أو صاحب بيت ، وأما الأطراف الأخرى فهي في خسارة وربح .

ويترتب على الخسارة فواجع وفظائع ، فالغني اليوم فقير غداً ، وصاحب العيـال قد يفرط بقوت أولاده على مائدة القمار ، وقد يبيع داره وقد وقد ممـا هو من تصرفات المجانين ، إذ يتحكم بعملية نقل الملكية ضربـة نرد أو ورقة لعب ، وكفى بهذا عقوبة للخاسر .

أما الرابح اليوم فهو الخاسر غداً ، إذ يوم لك ويوم عليك في القمار ، ولن يربح في النهاية إلا الخبثاء الذين يديرون هذه القضايا ، وكل مـا في الأمر أن الرابح اليوم خسر مودة الآخرين .

٥ - إن الذي يربح في القمار لا يبالي كيف أنفق المـال ، لأنه لم يتعب في تحصيله الذي يخسر قد تضطره خسارته للخيانة والسرقة، وفي كلا الحالين تجد الانحراف الذي يؤدي إلى الملاحقات القانونية ، والعقوبات أو الضرر الاجتماعي، على كل حال، إذ الرابح عن هذا الطريق لن يفكر في العمل ، وذلك تعويد له على الكسل والتسكع ، فإذا مـا خسر في يوم آخر فماذا يفعل بعد ان اعتاد على عدم مزاولة العمل ؟ إنه إن عمل فبألم ، وإن لم يعمل عانى شقاءاً .

ولكي نعرف بالضبط كيف أن القمار عقوبته فيه، أدرس أحوال المقامرين تجد الديون والشقاء والألم ونسيان الواجبات ، والتفريط بحقوق الأهل والأصحاب والناس، والشرود الدائم ، والخطأ الكثير ، إنك لا تجد إنساناً سوياً أبداً .

٤ - أكل لحم الخنزير

أول عقوبات الانحراف عن أمر الله في أكل لحم الخنزير أن آكل لحم الخنزير معرض للإصابة بدودة لحم الخنزير يقول (بيقي وديكسون) :

(إن الإصابة بها تكاد تكون عامة في جهات خاصة من فرنسا وألمانيـا وإيطاليا وبريطانيا ولكنها تكاد تكون نادرة في البلاد الشرقية لتحريم دين أهلها أكل لحم الخنزير) .

وثاني هذه العقوبات أن آكل لحم الخنزير معرض لمرض التريخينا الذي من خواصه :

أولاً - لا يمكن للطبيب الأخصائي أن يذكر أن خنزيراً ما غير مصاب بهذه الديدان إلا إذا فحص كل جزء من عضلاته تحت المجهر وهـذا غير ممكن لأنه إذا فعل ذلك نفذ لحم الحيوان .

ثانياً - الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع نحو ١٥٠٠ جنـين في الغشاء المخاطي المبطن لامعاء المصاب ، فتوزع الملايين المولودة من الإناث جميعاً بطريق الدورة الدموية إلى جميع أجزاء الجسم ، فتتجمع الأجنة في العضلات الإرادية حيث تسبب آلامـاً شديدة ، والتهابات عضلية مؤلمة تدعو إلى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته ، وتكون نتيجة ذلـك الأورام التي تمتد بطول العضلات .

ثالثاً – لا يوجـد علاج لهذا المرض ، ولأسباب فنية لا يجدي معه دواء ، فحتى الآن لم يعرَف له دواء مناسب .

وثالث هذه العقوبات أن لحم الخنزير ينقل للإنسان بعض الجراثيم العفنة ، والباراتيفود التي تسبب للإنسان تسمماً حاداً ، مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي ، وقد تسبب الوفاة في بضع ساعات .

ورابع هذه العقوبات ما يحدثه أكل لحم الخنزير من تغيير في نفسية الإنسان يخرجهـا عن وضعها السليم وذلك أن للطعام والشراب أثراً في نفس الإنسان بشكل واضح .

فمثلاً : بعض الأشربة إذا شربهـا الإنسان أحس بفرح وخفة ونشاط ، وهناك طعام يحس معه الإنسان بفتور وكسل ، ويلاحظ أن نفسية الذين لا يأكلون إلا النبات تختلف عن نفسية الذين يأكلون اللحـوم ، وحتى الذين يديمون أكل لحم الجمل ، تجد نفسيتهم تختلف عن نفسية الذين يديمون أكل لحم الضأن ، وهذا واضح في الحيوانات بشكل بارز ، فالحيوانات النباتية ألطف وأقل شراسة وأكثر انقياداً من الحيوانات اللاحمـة ، فلنوعية الطعام أثر في تكوين أخلاق النفس البشرية ، والخنزير بشكل عام له أخلاق هابطة دنيئة ، وعنده بلادة فظيعة ، وتحسس بطيء بكل ما يجري حوله ، فأكل لحمه يؤثر تأثيراً سيئاً على نفسية آكليه ، ونظرة واحدة إلى المناطق التي يؤكل فيهـا لحم الخنزير ، ومقارنتها بغيرها من المناطق الأخرى تشعرك بوضوح أن هناك اختلافاً جوهرياً في الأخلاق والنفسية . فمثلاً خلق الشرف ، والمحافظة على العرض ، والغضب لانتهاك حرمات الزوجة والأرحام ، وتبلد كثير من جوانب الشخصية البشرية ، كل هذا تجده بشكل واضح في المنـاطق التي يؤكل فيها لحم الخنزير ، وتجد عكسه في المناطق الأخرى ، إلا إذا وجدت عوامل أخرى أدت إلى تشابه في النفسيات

وهذا عقاب فظيع لا تحس به إلا نفس شفافة صافية : أن تمرض نفس الإنسان لدرجة التبلد ، فلا تقف المواقف المناسبة السليمة من الحوادث ، إذ ينشأ عن هذا ضعف رابطـة الزوجية ، وضعف رابطة الأبوة والبنوة ، وضعف رابطة الأسرة بشكل عـام ، وموت الإحساسات الإنسانية الطيبة ، من ثقة إلى حنان إلى عطف ، وهذا كله عذاب وهذا كله ملاحظ في المناطق التي تأكل لحم الخنزير .

٥ ـ عدم قرار المرأة في بيتها

لقد أمر الله نساء النبي أمراً هو لكل امرأة فقال :

« وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » وإذن فقد جعل الله المهنة الأساسية للمرأة داخل بيتها ، كأم وربة بيت ترعى زوجها وأولادها ، وجعل لها في مقابل ذلك أن نفقتها على غيرها دائماً : على زوجها بعد الزواج ، وعلى أبيها قبله لأنها في مرحلة تدريب على رعاية البيت ، والزوج والأولاد ، وفي حالة فقد هذا وهذا فرض نفقتها على أقرب الناس إليها ، ثم الأقرب إلا إذا كانت غنية .

وما له علاقة في هذه القضايا قد مرّ تفصيلاً في بداية المنهاج الاجتماعي والاخلاقي. ولكن نفرض أن النساء والرجال قد اتفقوا على صيغة أخرى من صيغ التعايش ، تصبح فيها المرأة كالرجل في الوظيفة والعمل ، والمطالبة بالنفقة والكسب ، كما حدث هذا عملياً بشكل كامل في العالم الغربي الآن ، حيث أصبح الرجل والمرأة كلاهما خارج البيت في العمل ويتقاسمان أمر البيت كذلك .

فما هي العقوبات الفطرية التي ترتبت ، ويمكن أن تترتب على مثل هذا كله ؟

إن أول عقوبة فطرية تترتب على مثل هذا: أن تضطرب العلاقة بين الرجل وزوجته، فلا هي تحس بطمأنينة ولا هو يحس بسكن ، ولا الأولاد يحسون برعاية كاملة ولا المرأة تستطيع ذلك .

وثاني العقوبات : أن المرأة تشعر بأنها تستطيع الاستغناء عن زوجها نتيجة لذلك ، والرجل لا يتغير عليه كثير من الأمور إذا فقد زوجته ، وينتج عن هذا أن عقد الزواج دائماً معرض للخطر ، ومن العجيب أن في بلاد الإسلام حيث يباح الطلاق تكاد تكون نسبة الطلاق خاصة في البيئات الملتزمة بالإسلام صفراً ، بينما نسبة الطلاق في بعض البلدان الغربية تصل إلى $\frac{١}{٧}$ من حالات الزواج .

وثالث العقوبات : أن المرأة بهذا الخروج أسقطت حق نفقتها على الآخرين، مما يجعلها في حالة عذاب وشقاء دائم متى بلغت سن الرشد ، إذ تطالب بأن تنفق على نفسها، وعليها أن تبحث عن عمل ، وأن تعمل كالرجل .

ورابع العقوبات : أن المرأة نتيجة لهذا تبدأ تفقد خصائص أنوثتها ، بحيث لا تعود صالحة لوظيفتها الأساسية : حمل الجنين وحضانته لاستمرار النوع البشري ، وفي ذلك ألم نفسي كبير .

وسنرى هذا أثناء الكلام الذي سننقله في نهاية هذا البحث عن سيد قطب ..

وخامس العقوبات : أن تتفكك الروابط الاجتماعية ، فلا أسرة ولا أبوة ولا بنوة ولا مشاعر عاطفية ، فكم من أب لا يعرف عن أبنائه شيئاً ، وكم من أم مهددة ، ولعل عيد الأم في الغرب إنما هو رمز فظيع على انقطاع أواصر الأسرة ، حتى احتاجوا إلى يوم يتذكر فيه الإنسان أن له أماً وأباً .

وسادس العقوبات : انه بانعدام رابطة الأسرة أو ضعفها أصبح الطفل لا يرث عن الآباء خصائص الإنسانية وعواطفها ، ولذلك تجد هذا الضياع الذي يعانيه المراهق في الغرب ، والذي مظهره جيل الخنافس والمشردون والفوضويون وغير المبالين ..

وهذه أمثلة ، والعقوبات الفطرية التي تترتب على هذا أكثر ، حتى أنك لتستطيع أن تقول إن الاجتماع البشري كله معرض لخطر الاضمحلال النفسي والجسدي نتيجة للعقوبات التي تترتب على هذا الانحراف .

وطبعاً كلا منا عندما تصبح القاعدة هي عدم جلوس المرأة في بيتها للقيام برعاية الزوج والأولاد ، وعدم التزامها بآداب الإسلام خارجة . أما إذا كان الأصل في مجتمع قرارها ، وحدثت حالات نادرة ضمن قيود محدودة كما رأينا ، فهذا لا يؤثر ، وليس فيه ضرر ما دام الالتزام بالإسلام موجوداً .

٦ ـ الرشوة

لقد حرم الإسلام الرشوة : أخذها وإعطاءها والوساطة لها : (لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش بينهما) وقال الله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

وهذه الجريمة تترتب عليها عقوبات فطرية كثيرة تصيب الدولة التي تنتشر بها ، والمجتمع الذي يعيش فيها ، والفرد الذي تتم العملية له أو عليه .

فمن أول العقوبات الفطرية أن المجتمع الذي يحس بأنه لا ينال الحق فيه إلا بالباطل والرشوة ، تضيع به الموازين ، وتنهار الثقة ، ويزداد فيه الشك ويتفسخ ، ويصبح ناقماً على دولته غير واثق بها ، مما يسهل الإطاحة بها وانهيارها .

وثاني العقوبات : أن الرشوة إذا انتشرت أصبح كل إنسان معرضاً لدفعها : الآخذ في مجال مضطر للدفع في مجال آخر ، وفي ذلك ألم يحسه كل من عاناه .

وثالث العقوبات : أن المرتشي إنسان يعيش دائماً في حالة خوف من أن يفتضح أمره وكذلك الراشي .

ورابع العقوبات : أن كلا الرجلين إنسان فاقد القيمة ، هذا شعوره بنفسه ، وشعور الآخرين به . أنه إنسان منحط غير جدير بالاحترام ، ويربط الناس تصرفاته المالية كلها بهذا ، فهو إذا أقام بناء قالوا مرتش ، وإذا ظهر له مال قالوا كذلك ، وهو في هـذه الحالة ينحدر وضعه النفسي من سيىء إلى أسوأ ، حتى يتبلد ضميره ، ويعيش أزمة مقت الآخرين له ، ومقته للآخرين ، فلا يبالي بما يقال عنه ، ويؤثر هذا على سلوك أسرته كلها ، فتنحرف ويصبح وجودها ظاهرة غير عادية .

وخامس هذه العقوبات : أن المجتمع الذي يسمح بمثل هذا، مجتمع تضيع فيه الحقوق، ويأكل القوي فيه الضعيف ، وتضيع به الحدود . فحق الدولة يصبح للأفراد ، وحق الأفراد ينتقل إلى غيرهم بغير طريق مشروع ، ومجتمع هـذا شأنه يصبح في حالة سباق إلى الخيانة . فتضيع مثله ، ويتحلل ثم يسقط . وهذا بعض ما يترتب على القضيـة من عقوبات .

٧ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد

إن عقوبات الفطرة التي تترتب على ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والجهاد بالنسبة للمسلمين كثيرة :

منها ذلة الأمـة الإسلامية أمام أعدائهـا في الخارج ، وذلة المؤمنين أمام المنافقين في الداخل ، وهذا واقع نراه الآن وتعيشه الأمة الإسلامية في واقعها الحالي ، وقـد تحدث عن هـذه العقوبة رسول الله ﷺ في أكثر من حديث يقول عليه السلام : (إذا تبايعتم بالعينة وتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى

نعودوا إلى دينكم) . وروي عنه عليه السلام : (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم) .

ومنها أن يعم الظلام والضلال ، وتستشري الفتنة حتى لا يعرف أحد طريقه . وفي الأثر :

(كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم ؟ قالوا وإن ذلك لكائن يا رسول الله قال نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه يا رسول الله ؟ قال : كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر ؟ قالوا وكائن ذلك يا رسول الله قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً .قالوا وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون يقول الله تعالى : (بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران) .

وهذا كله واقعنا الحالي بآثاره كلها .

ومنها أن تفترق قلوب الأمة وتصطدم نفوسها ، ولا يكون بينها تلاق على شيء أبداً، إذ بعد أن فقدت الحق الذي يجمع، فإن الباطل طرقه كثيرة مفرقة .وفي الحديث :

(لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود .. الآية .. ثم جلس وكان متكئاً فقال لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً) .

وعاقبة هذا كله الهلاك والموت، إذ عندما تفقد أمة الإسلام حياتها التي هي باستجابتها لأمر الله ماذا يبقى لها « أومن كان ميتاً فأحييناه »، « استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم لما يحييكم » فالحياة في الإسلام ، وترك ما يؤدي إلى بقاء الإسلام وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد معناه الهلاك . وفي الحديث :

(مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً

وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) . رواه البخاري .

والحقيقة أن مصدر الشر كله يخرج من هـذا الباب ، إذ ما من انحراف إلا ووراءه ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ، وكل انحراف يترتب عليه كما رأينا عقوبات فطرية كثيرة .

٨ ـ الموسيقى والغناء الفاسد

١ ـ إن سماع الموسيقى الدائم يجعل النفس البشرية في حالة ارتخاء دائم ، فتقوى بها نوازع الهوى والإخلاد إلى الراحة ، وكراهية التكاليف والمشقات ، وهذا خطر من الأصل على وجود الأمة وشعورها بواجبها ، واستعدادها للتضحية له ، وهذه أول عقوبة فطرية تترتب على هذا الانحراف ، وادرس تاريخ الأمم فإنك لا تجد أمـة أغرقت واستغرقت في الموسيقى ، وكان عندها روح نضال ، بل تجد عندها دائماً روح الاستسلام .

٢ ـ والموسيقى ذروة اللهو ، واللهو ذروة الحياة الدنيا ، فاستغراق الإنسان بالموسيقى والأنغـام ، وإقباله الدائم عليها ، يجعله في وضع عملي من الناحية النفسية منصرفاً عن الآخرة ، غافلاً عنها ناسياً لها ، وتجد مشاعره كلها منصبة على متعة الدنيا ، مما يجعله بشكل عملي منصرفاً عن القيام بالتكاليف ، وادرس حياة إنسان : رجل أو أنثى مولع بالموسيقى تجد نفس إنسان متثاقلة عن التكاليف ، إن قـام ببعضها أهمل الآخر . فالموسيقى في الحقيقة تخدير لمشاعر الإنسان العليا ، وإيقاظ لمعاني الدنيا في قلب الإنسان .

٣ ـ إن وقت الإنسان في العادة موزع بين العمل والانتاج ، والنوم والطعام وغيره ، وما يتبقى بعد ذلك من الوقت ينبغي أن يصرفه الإنسان على إصلاح ذات نفسه ، باستكماله فضائلها وكمالاتها ، ومجتمع يقضي وقت فراغه في مثل هذا يرجى له خير ، أما إذا شغلت أوقات الفراغ هـذه بوسائل اللهو والتسلية والباطل ، أصبح الإنسان يعيش حيـاة الحيوان التي ليس للمخلوق فيها هدف سوى طعامه وشرابه ومتعته ، والبحث عما يؤدي إلى هذا .

٤ ـ فإذا ما أضيف إلى هذا كله الغنـاء الذي ينبع عن تصور فاسد للإنسان ، وعن عواطف خسيسة ، وعن فكر رديء ، وعن مشاعر منحرفة ، فإن هذا كله قتل للأمة وروحها ، ومسخ لحقيقتها.

إن الغناء يؤثر في تربية الأمة أكثر من تأثير القانون ، وكلمة كونفوشيوس في هذا الموضوع حكيمة : (قبل أن تخبرني من يضع للأمة قانونها أخبرني من يضع لها أغانيها) فالغناء أكثر أثراً في تربية الإنسان من أي شيء آخر ، لأنه ألصق بالنفس والعواطف ، فإذا كان الغناء الذي تسمعه الأمة صباح مساء ، هو من النوع الذي ذكرناه ، وصاحب هذا كله الموسيقى فاقرأ على معنى الواجب عند أفراد هذه الأمة السلام ، وعندما تفقد أمة حب القيام بالواجب ، فهي إلى اندحار وانتحار .

إن محور وجود الإنسان في هذه الحالة ، يدور حول عبودية الذات ، والحرص على المصلحة الشخصية ، وتناسي كل شيء إلا (أنا) .

إن في الموسيقى والغناء الفاسد ضياع توازن الإنسان لصالح الملكات الدنيا فيه ، والرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا لرفع ملكات الإنسان .

وانظر كيف يتفاعل الناس ، وكيف يتحركون ، وكيف يصيحون ، وكيف يستغرقون ، وفيم يتأملون ، وإلام تنصرف تصوراتهم وأذهانهم إذا سمعوا فلانة أو فلاناً ، تعرف ببساطة أن هذا كله يقف في الطرف المعاكس لما دعا إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام .

٥ ـ وما ذكرناه كله في الحقيقة ليس لصالح الإنسان في الأمة ، وليس لصالح الأمة ، بل هو لغير صالحها ، بتحطيم حيويتها وعواطفها الصحيحة ، وقواها المعنوية كلها ، وفي ذلك عقاب أي عقاب ، وعذاب أي عذاب يعانيه الإنسان أمام كل منظر من مناظر الاستهتار بالواجب ، وما أكثرها عندما تميع أخلاق الأمة على موائد اللهو والطرب ، وأمام سماعة الراديو وشاشة التلفزيون .

٩ ـ المحاباة في تطبيق القانون

يقول عليه السلام : (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) رواه الخمسة .

فالأصل في شريعة الله أن الجميع أمامها سواء ، فإذا ما حدث أن الأمة قامت

حكومتها على تنفيذ القانون على بعض الناس ، ومحاباة الآخرين ، فإن عقوبات الفطرة تلاحقها مباشرة .

ومن هذه العقوبات : أن تفقد هذه الحكومة هيبتها ، وثقة الناس بها ، وبالتالي سيطرتها .

ومن هذه العقوبات : أن تزداد الجرائم وتعم ، لأن الناس إما شريف ناج من العقاب لشرفه فلا يبالي مهما ارتكب من جرائم ، وإما ضعيف يقلد الأشراف في جرائمهم ولا يعدم أن يجد شريفاً يشفع له .

ومن هذه العقوبات : أن يألف الناس بعد ذلك المنكر ، وأن يعيشوه ، ويصبح الخير غريباً ، وعندئذ يبدأ الخلل يعم كل شيء .

ومن هذه العقوبات : أن يصاب الناس نتيجة لعدم طول القانون كل الناس بالخوف ، إذ لا ينال كل معتد عقابه ، فيخاف الإنسان على ماله وعرضه ونفسه وفي ذلك عذاب .

ومن هذه العقوبات : أن المظلوم ييأس أن ينال حقه فيتذمر ، ويعم التذمر كلما ازداد الانحراف سعة ، فيحدث الشقاق بين أبناء الأمة ، والنزاع والثورات على الدولة ، وتضطرب الأمور ويصبح الناس ولديهم قابلية لكل داعية إلى خروج على الدولة أو إطاحة بها .

وهذا بعض ما في هذا الانحراف من عقوبة .

١٠ - التفريط في العلم

إن أي جزء من أجزاء العلوم المفروضة فرض عين ، أو فرض كفاية نفرّط به ، يترتب على ذلك عقوبة فطرية ، وأي علم مكروه أو محرم نتعلمه أو نتساهل في تعليمه ، يترتب على ذلك عقوبات فطرية.

فمثلا عندما نفرط في تعلم الأخلاق الصالحة ، وتعليمها ، ينشأ الإنسان ولم يحصّل الحد الأدنى من التهذيب ، فتكون النتائج أنه يعذّب غيره ويعذّب فترى الإنسان يَسْخَرُ من غيره ، ويؤذيه ويشتمه ويعرض عنه ولا يحترمه . وكما يعامل الناس يعامله الناس ، وفي ذلك

عذاب لكل فرد في ذلك المجتمع المفرط .

وعندما نفرط في تعلم فرض من فروض الكفاية نصبح محتاجين لغيرنا فيه ، وغيرنا قد يضغط علينا ويشرط شروطاً لغير صالحنا ، أو يغشنا ، فيضرنا من حيث أردنا أن ننتفع منه ، وفي ذلك كله عذاب .

وعندما نسمح للكتب المضرة أن تنتشر بين أيدي الناس فأول ما نصاب نتيجة لذلك أن وقت الناس يضيع في غير الطريق الصحيح ، ثم تظهر ثمرات هـــذه الكتب في آراء الناس وأفكارهم ، فتبعدهم عن صفــاء الفطرة الإسلامية ، فيختلف النـــاس ، وتضطرب آراؤهم ، ويكون بعد ذلك التخلخل والعذاب « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » .

وهكذا في كل جزء من أجزاء العلم فرطنا به ، وجوداً حيث لا يجوز وجوده ، وعدماً حيث يجب أن يكون .



هذه أمثلة عشرة رأينـــا في كل منها كيف أن الانحراف عن أمر الله عقوبته الفطرية موجودة فيه ، لا نستثني من ذلك سنة أو واجباً أو فريضة أو مكروهاً أو حراماً .

إن ترك سنة السواك يؤدي إلى فساد الأسنان ، وإيذاء الآخرين بالمنظر والرائحة .

وترك ستر العورة يؤدي إلى جفـــاف بعض الأخلاق الأساسية في التربيـة الإسلامية وتبخرها كالحياء ، وفي ذلك مفسدة تظهر آثارها في أشياء كثيرة .

وترك الصلاة يترتب عليـه موت العقيدة بموت القلب الذي يحملهـــا ، وموت القلب تترتب عليه الغفلة عن الله ورسوله وشريعته . والانحراف عن العبودية لله سقوط في عبودية غيره من هوى وصنم وإنسان وطبقة ، وعبودية الإنسان للانسان أو للشيطان شيء فظيع ، إذ لا تبقى للانسان قيمـة ، ولا يبقى له مثل ، بـــل يفقد كل يوم شيئاً من أصالة فطرته لتستقر حيوانيته بعد ذلك .

إن الناس لو عقلوا ما يصيبهم نتيجة الانحراف عن الإسلام أو عن أي جزء فيه لمـــا اطمأنت قلوبهم وعقولهم إلا على طاعة أمر الله باتباع شريعته ، ولكنهم لا يزالون ينحرفون

ويعذبون ويظلمون أنفسهم ولا يعقلون .



وقد سمى الاستاذ سيد قطب هذا المعنى وهو مـــا يترتب على الانحراف عن دين الله والإيمـــان به بعقوبة الفطرة ، وكتب فصلاً ممتعاً حول هذا الموضوع في كتابه (الاسلام ومشكلات الحضارة) ننقله كله لما فيه من حجة بالغة ونذير مبين .

يقول :

لم يكن بد وقد شرد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه.. وعبد الإنسان نفسه واتخذ إلهه هواه . وجهل الإنسان نفسه كذلك ، وراح يخبط في التيه بلا دليل . وأقـــام منهج حياته على قواعد من هـــذا الجهل ، ومن ذلك الهوى . واعتدى على فطرته التي فطره الله عليها ، في حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه .

لم يكن بد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له ، فاعتبر نفسه حيواناً — وقد أراده الله إنساناً — وجعل نفسه آلة — وقد أراده الله مهندساً للآلة . بل جعل الآلة إلهاً يحكم فيه بما يريد . وجعل المادة إلهاً ، يحكم فيه بما يريد . وجعل الاقتصاد إلهاً يحكم فيه بما يريد — وقد أراد له ربه أن يكون سيد المادة وسيد الاقتصاد . ولكنه رفض هذا التكريم كله لينجو فقط من الكنيسة ، ويشرد من إله الكنيسة !

لم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيواناً لطيفاً — كما أن الرجل حيوان خشن — غاية الالتقاء بينهما اللذة ، وغاية الاتصال بينهما المتاع . ونسي أن الله يرفع هـــذه العلاقة ويطهرها ويزكيها ، وينوط بها امتداد الحياة من جهـــة ، وترقية الحياة من جهة أخرى ، ويربط بها عجلة التمدن الإنساني ، ويجعل من الأسرة محضن المستقبل ، ويجعـــل من المرأة حارسة الانتاج النفيس .. نتاج المادة الإنسانية .. ويصونها من التبذل كي لا تكون مجرد أداة لذة . ويصونها من الاشتغال بإنتـــاج المواد في المصنع وهي في الأسرة تنتج وتحرس مادة (الانسان) .

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه (الإنسانية) ليحصر طاقته في الانتاج المادي ، وأقام حياته كلها على أساس مادي ، وتصور مادي ، وكبت الجوانب الحية المرفرفـــة

اللطيفة في حسه ، والتي وهبها الله له لأنه (الإنسان) الخليفة الفذة في هذا الكون، والتي تجمل المتناقضات كلها في تناسق بديع .

لم يكن وقد أقام الإنسان نظامه على الربا،ليكد القطيع البشري كله في خدمة بضعة آلاف من مؤسسي البيوت الماليـــة والبنوك المرابين ، تعود إليهم حصيلة كد البشرية في أقاصي الأرض وهم قابعون وراء المكاتب الفخمة، والنظريات الاقتصادية ، وجميع أجهزة التوجيه والاعلام .

وفي النهاية .. لم يكن بد وقد اتخذ الانسان له آلهة من دون الله ، فاتخذ من المـــال إلهاً ، ومن الهوى إلهاً ، ومن المادة إلهاً ، ومن الانتاج إلهاً ، ومن الأرض إلهاً، ومن الجنس إلهاً، ومن المشرعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله في التشريع لعباده ، فيغتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله .. كل هذه الآلهة اتخذها وعبدها ، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته !!!

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تحل به عقوبة الفطرة ، وأن يؤدي ضريبة المخالفة عن ندائها العميق .. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة ..

وقد كان ..

كان ... وأداها من نفسه وأعصابه. ومن بدنه وعافيته. ومن سعادته وطمأنينته ومن مواهبه وخصائصه . ومن دنياه وآخرته .

أداها — وفي الأمم التي بلغت ذورة الحضارة المادية بالذات — تناقصاً في النسل يهدد بالانقراض . وتناقصاً في الخصائص الإنسانيـة يوحي بالنكسة إلى البربرية . وتناقصاً في الذكاء والمستوى العقلي يهدد بانهيار العلم الذي قامت عليه الحضارة ، وبانهيـــار الحضارة ذاتها في النهاية .

وظهرت آثار الكبت للطاقات الأخرى التي لا تحتاج إليها الصناعة بطرائقها الحاضرة، وآثار القلق على المستقبل في المجتمع المادي المتناحر ، وآثار الخواء الروحي الذي تفرضه الفلسفات والأوضاع في المدنية الكافرة .. ظهرت آثارهـــا في صورة الأمراض العصبية والعقلية والنفسية ، والعته والجنون والشذوذ والانحراف والجريمة .

وظهرت آثار التوجيه المتواصـل إلى حيوانية الإنسان وماديته وسلبيته ، وإطلاق

شهواته وغرائزه من كل ضابط .. ظهرت في صورة الانحلال واللامبالاة والسلبية ، وقبول الديكتاتوريات وحياة القطيع التي لا هدف لها إلا الفساد واللقاح والطعام والشراب .

وكتب على البشرية أن تؤدي الضريبة فادحة صارمة ثقيلة : حروباً رهيبة ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين وممتوهين ومعذبين . وأزمات تلو أزمات.. أزمات إذا قل الإنتاج ، وأزمات إذا زاد الإنتاج ، أزمات إذا مال الميزان التجاري إلى العجز ، وأزمات إذا مال الميزان التجاري إلى الزيادة . أزمات إذا نقصت المحصولات ، وأزمات إذا فاضت المحصولات . وأزمات إذا قل النسل ، وأزمات إذا زاد النسل . وتخبط من هنا وتخبط من هناك . وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار . وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم ، فيخرون أمواتاً بالسكتة وتفجر المخ ، أو يخرون أشلاء أو مجانين ، كما لو كانت قد سلطت عليهم قوى المردة الأسطورية من حيث لا يحتسبون.. وما سلطت عليهم سوى أنفسهم . وما كان إلا نذير الله الذي لم تتفتح له القلوب والآذان .

« ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب » ..(البقرة:٢١١)

« ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » .. (البقرة:١٠٨)

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ...(الأعراف : ١٥٧- ١٧٦) .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا — وأحل الله البيع وحرم الربا — فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربي الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » .. (البقرة : ٢٧٥-٢٧٦) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا — إن كنتم مؤمنين — فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .. (البقرة : ٢٧٨-٢٧٩)

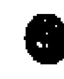
« والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحـــات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ». (سورة العصر)



والآن نأخذ في عرض أقوال الشهود عن بروز آثار الحضارة المادية وتضخمها في الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة .. فنستوفي بهذا عناصر المأساة الأربعة – كما أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث .

وقد أخذنا شهودنا من درجات متفاوتة . ومن بيئات مختلفة : منهم العالم المحقق المؤمن بالعلم ، المعتمد عليه في مواجهـة المأساة .. ولا سواه .. ومنهم الفيلسوف الذي لا يؤمن بالدين ، ومع ذلك يرى على ضوء العقل الخطر الذي تتردى فيه البشرية .. ومنهم الباحث المؤمن بالدين وبالعقل وبالعلم وبفطرة الإنسان العارف في الوقت نفسه بمكان كل من هؤلاء في مجال المعرفة ومجـال العلاج .. ومنهم الطبيبة التي تقدر جدية الموضوع فتعالجه بالجـد الذي يستحقه .. منهم الصحفي الذي لا يعنيه من المسألة إلا العرض الصحفي والتشويق والإغراء .

وقد اكتفينا بهذه الشهادات من عشرات مثلها ، لأنه لا سبيل لإثبات كل الشهادات ، واستدعاء كل الشهود ، في فصل من كتاب !



يبدأ الدكتور ألكسيس كاريل شهادته بالكلام عن مخالفة البشر لما يسميه (القوانين الطبيعية) – ونسميه نحن (قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليهـا) – والعواقب التي لا بد أن يلقاها من يخالف هذه القوانين الصلبة التي لا تلين ، ولا تترك مخالفيها بلا عقوبة ، ثم يأخذ في بيان ما حل بالبشرية فعلاً من هذه العقوبة :

قبل أن أبدأ هذا الكتاب ، كنت أدرك تماماً صعوبة هذا العمل بل استحالته تقريباً. ولكنني شرعت فيه لأنني كنت أعلم أن شخصاً ما لا بد سيؤديه .. **لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي ، لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط .**

لقد فتنهم جمال علوم الجماد . إنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية – وهي قوانين أكثر غموضاً وإن كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين الدنيوية – كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم . ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوي ولأترابهم أبناء آدم ، ولذاتهم الداخلية وتلك التي تتصل بأنسجتهم وعقولهم . فإن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا فإذا انحط وتدهور فإن جمال الحضارة بل حتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى . لهذه الأسباب كتبت هذا الكتاب). (ص١٠-١١).

(الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها عليه المجتمع العصري .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره ، وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها التكنولوجيا ، وإن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وإن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن وحدنا المسؤولون . لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً .. إن مبادىء (الدين العلمي) والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية) .

.. فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة .. هي إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار . لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا . فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر . ولقد أصبح الفرد ضيقاً متخصصاً فاجراً ، غبياً ، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته .. (ص٣٢٢) .

(إن الصفة الغالبة على الفرد في الحضارة العصرية هي الإفراط في النشاط الذي يوجه كله نحو الجانب العملي من الحياة . كذا يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء . وأيضاً بنوع من الضعف العقلي ، الذي يتركه تحت تأثير البيئة التي يتفق وجوده فيها .. ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق) .. (ص ٣٦)

(يبدو ان الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة . ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسؤولين عن الشؤون العامة) . (ص٣٧)

(إننا قلما نشاهد أفراداً يتبعون مثلاً أخلاقياً أعلى في تصرفاتهم في المدنية العصرية) . (ص ١٦٠)

(إن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائي بالجمال في عملهم أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون ، لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك . إن الصناعة — بشكلها الحالي — حرمت العامل من الابتداع والجمال) .. (ص١٦٢)

(إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفي والجمالي أو الديني يخلق أشخاصاً في المرتبة الدنيا ذوي عقول ضعيفة غير سليمة . وبالرغم من أن التعليم العقلي يهيأ الآن لكل فرد ، إلا أننا ما زلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص في كل مكان) (ص١٦٨)

(فأكثر الناس تمدينا يظهرون شكلاً بدائياً فقط من الشعور . إنهم قادرون على العمل السهل الذي يؤمن حياة الفرد في المجتمع العصري . إنهم ينتجون ويستهلكون ويرضون شهواتهم الفسيولوجية . وهم أيضاً يسرون بمشاهدة المباريات الرياضية والأفلام السينمائية الصبيانية الخشنة . كما يسرون حينما ينتقلون بسرعة من مكان إلى آخر بدون بذل أي جهد ، وحينما يتطلعون إلى الأشياء السريعة الحركة . إنهم ناعمون عاطفيون شهوانيون ، قساة ، مجردون من الإحساس الأدبي والديني والشعور بالجمال). (ص١٦٩)

(إن عدم التناسق في دنيا الشعور ظاهرة مميزة لعصرنا) .. (ص١٧٠)

(في استطاعة التفكير أن يولد أمراضاً عضوية بصفة عامة . ومن ثم فإن عدم استقرار الحياة العصرية والانفعال الدائم وانعدام الأمن تخلق حالات من الشعور تجلب الاضطرابات العصبية والعضوية للمعدة والأمعاء . كذا نقص التغذية ، وتسرب الجراثيم المعوية إلى الدورة الدموية .. والتهاب الكلى وما يصحبه من أمراض الكلى والمثانة إن هي إلا النتائج البعيدة لعدم التوازن العقلي والأدبي .. ومثل هذه الأمراض تكاد تكون غير معروفة في الجماعات التي تحيا حياة بسيطة وليست على القدر الذي ذكرناه من الانفعال ، كما أن القلق فيها غير دائم .. وبالمثل فإن الأشخاص الذين يحافظون على سلام ذاتهم الباطنية ، وسط ضوضاء المدنية الحديثة محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعضوية) .. (ص١٧٧) .

« يجب أن يظل النشاط الفسيولوجي خارج حقل الشعور . إذ أنه لا يلبث أن يصاب بالاضطراب حينما نوليه اهتمامنا . ولذلك فإن (التحليل النفسي) حينما يوجه عقل المريض

نحو نفسه قد يزيد من حالة عدم التوازن . ومن ثم فإنه من الأفضل أن يهرب الإنسان من نفسه ببذل جهد لا يشتت عقله بدلاً من الاستغراق في تحليل نفسه .. إذ أننا حينما نوجه نشاطنا نحو غاية محددة نجعل وظائفنا العقلية والعضوية كاملة التناسق . لأن توحيد الرغبات وتوجيه العقل نحو غاية واحدة ينتج ضرباً من السلام الداخلي . ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلما يشتتها بالعمل .. ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بتأمل جمال المحيط ، أو الجبال والسحب ، وروائع ما أنتجه الفنانون والشعراء ، والمبادىء السامية التي تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، والعمليات الحسابية التي تعبر عن القوانين الطبيعية .. وإنما يجب عليه أيضاً أن يكون الروح التي تكافح لبلوغ مثل أدبي عال ، وتبحث عن النور في ظلمات هذا العالم وتسير قدماً في طريق الدين ، وتنبذ نفسها لكي تفهم الأساس غير المنظور لهذا العالم. إن توحيد نشاط الشعور يؤدي إلى تناسق أعظم بين الوظائف العضوية والعقلية .

ولهذا ندر أن توجد الأمراض العصبية وأمراض التغذية ، والإجرام ، والجنون ، بين الجماعات التي نما فيها الشعور الأدبي والعقلي في وقت واحد ، كما يكون الفرد أكثر سعادة في مثل هذه الجماعات) .. (ص٢٧٧-١٧٨)

إن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي ، وترجع القيمة العقلية والروحية المنحطة لأغلب بني الإنسان – إلى حد كبير – إلى النقائص الموجودة في جوهم السكلوجي . إذ أن تفوق المادة ، ومبادىء دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق ... كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التي لهـا شخصيتها وتقاليدها الخاصة تحطمت بفعل التغيرات التي طرأت على عاداتها . وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشاراً واسع المدى كذا الأدب الرخيص ، والراديو ودور السينما.. ومن ثم فإن ازدياد الطبقة الغبية آخذ في الازدياد أكثر فأكثر بالرغم من كمال المناهج التي تدرس في المدارس والكليات والجامعات .. ومن العجيب أن بلادة الذهن توجد غالباً حيثما تتقدم المعرفة العلمية !

(إن أطفال وطلبة المدارس يكونون عقلهم من البرامج السخيفة التي توضع لوسائل التسلية العامة . ومن ثم فإن البيئة الاجتماعية تناهض نمو العقل بكل قوتها بدلاً من أن

تعمل على هذا النمو) (ص١٨٩).

(كما أن الشذوذ الجنسي آخذ في الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانباً ، وأصبح المحللون النفسانيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية . ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب . والعدل والظلم. فالمجرمون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان، وليس هناك من يبدي اعتراضاً على وجودهم . . ولقد جعل القساوسة الدين شبيهاً بالتموين، لكل فرد منه قسط معين . وحطموا الأسس الغامضة ، ولكنهم لم ينجحوا في اجتذاب القوم العصريين . ومن ثم فإنهم يعظون عبثاً أصحاب الأخلاق الضعيفة في كنائسهم نصف الفارغة كل أسبوع) .

(إنهم قانعون بدور الرجل البوليس الذي يؤدونه. فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم لكي يحفظوا إطار المجتمع الحالي أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعـــل الساسة) !. . (ص ١٨٦) .

(ليس العقل قوياً كالجسم . ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها . وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم . . ويقول س.و. بيرس (إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر). .

وفي الولايات المتحدة تبدي المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين . ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة. فإذا استمر عدد المجانين في السير على هذا المعدل فإن حوالي مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً !

ففي عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠,٠٠٠ مجنون كما كان عدد ضعاف العقول ، المصروعين والمحجوزين في المصحات الخاصة ٨١,٥٨٠ وكان عدد مطلقي السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠,٩٣٠ ، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي تعالج في المستشفيات الخاصة ، وعلاوة على المجانين يوجد في البلاد كلها ٥٠٠,٠٠٠ شخص ضعاف العقول ولقد كشف الفحص الذي تولته اللجنة

الوطنية للصحة العقلية بعناية عن أن ٤٠٠,٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار في المدارس العامة والإفـادة مما يتلقون علم .. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير . ويقدر آن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية . **وتدل هذه الارقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب وكيف ان مشكلة الصحة العقلية تعتبر من اهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري . فان امراض العقل خطر داهم : انها اكثر خطورة من السل والسرطان وامراض القلب والكلى . بل والتيفوس والطاعون والكوليرا . فيجب ان يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لانها تزيد عـــدد المجرمين فحسب بل لانها ستضعف حتماً التفوق الذي تتمتع به الأجناس البيضاء حالياً ..** على أنه يجب أن يكون مفهوماً أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بـين المجرمين بالكثرة التي يوجد بها بين أفراد الشعب ! صحيح أن عدداً كبيراً ممن يعانون من النقـائص العقلية موجود في السجون . بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعي الثقافة ما زالوا مطلقي السراح) .

(ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تعاني منه المدنية العصرية وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية) .. (ص١٨٧–١٨٨)

(هناك أشكال معينة من الحياة العصرية تؤدي مباشرة الى الانحلال كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس الأبيض ص٢٦٤) .

(إن في استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عمـــا إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة في الرجـــال العصريين ! بل إن بعض المراقبين يرتابون في حقيقتها (فتيودور دريزر) يعتبرها أسطورة خرافية ، والحقيقة أن سكان المدينة الحديثة يظهرون تشابهاً كبيراً في ضعفهم العقلي والأدبي . فمعظم الأفراد ينتمون إلى طراز واحد. إنهم خليط من الأشخاص مضطربي الأعصاب بليدي الشعور مغرورين معدومي الثقة بأنفسهم ، أصحاب قوة عظيمة وإن كانوا سريعي التعب. يعانون حدة الدوافع الجنسية برغم ضعفهم وشذوذهم أحياناً) . (ص ٣١٦).

هذه فقرات مقتضبة من شهادة دكتور كاريل خاصة (بالانسان) عامة في الحضارة العصرية .. وهناك جانب آخر أحببنا أن نفرده وحده . وهو شهادته فيما يختص بقضية المرأة وعلاقات الجنسين في هذه الحضارة وأخطارها على وجود الجنس البشري ، وعلى مستواه العقلي والأدبي .

ونحب أن ندعه هو يدلي بشهادته (العلمية) دون تعليق :

(علينا أن نستوثق من الكيفية التي ستؤثر بها طريقة الحياة في مستقبل الجنس . لقد كانت استجابة النساء للتعديلات التي أدخلتها الحضارة الصناعية على عادات الأسلاف سريعة قاطعة ، إذ نقص معدل المواليد فوراً . وقد تبين أثر ذلك بوضوح ، كما اسست نتائجه الخطيرة في الطبقات الاجتماعية وفي الأمم التي سبقت غيرها في الانتفاع بالتقدم الذي حققته – إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة – بتطبيق الاكتشافات العلمية . فالتعقيم الاختياري ليس جديداً في تاريخ العالم . فقد عرف في مرحلة معينة من مراحل المدنية السابقة .. إنه ظاهرة علمية نعرف دلالتها) .. (ص٣٧) .

(ان الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ومن وجود الرحم والحمل أو من طريقة التعليم . إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك .. انها تنشأ من تكوّن الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض ... ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة الى الاعتقاد بأنه يجب ان يتلقى الجنسان تعليماً واحداً وأن يمنحا سلطات واحدة ومسؤليات متشابهة .. والحقيقة ان المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي . فليس في الامكان إحلال الرغبات الانسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون الى قبولها كما هي . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور . فان دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال . فيجب عليهن الا يتخلين عن وظائفهن المحددة) .. (ص١١٤)

(إن الأب والأم يساهمان بقدر متساو في تكوين نواة البويضة التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد . ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النووية كل البروتوبلازم

المحيط بالنواة .. وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب في تكوين الجنين) .. (ص١١٥).

(إن دور الرجل في التناسل قصير الأمد. أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر وفي خلال هـذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيماوية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص . وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفرزهـا أعضاء الجنين . وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطرة . فحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريباً من الأب مثلما ينشأ من الأم . فإن مخلوقاً من أصل غريب - جزئياً - قد اتخذ له مأوى في جسم المرأة . فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمـل . وقد تتسمم المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها ، كما أن أحوالها الفسيولوجية والسيكولوجية تعدل بـه دائماً .. وعلى أي حـال يبدو أن النساء - من بين الثدييات - هن فقط اللاتي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين . كما أن النساء اللائي لم يلدن لسن متزنات توازنـاً كاملاً كالوالدات . فضلاً عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن .. صفوة القول أن وجود الجنين ، الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم ، بسبب صغرها ولأنهـا - جزئياً - من أنسجة زوجها ، تحدث أثراً كبيراً في المرأة. **إن اهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن الى درجة كافية. مع ان هذه الوظيفة لازمة لاكتال نمو المرأة. ومن ثم فمن سخف الرأي ان نجعل المرأة تتنكر للأمومة. ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادي ولا ان تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم. يجب ان يبذل المربون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى. كذا لوظائفها الطبيعية . فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين . ولذلك فلا مناص من ان نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدين**) (ص١١٦-١١٧).

(أليس من العجيب أن برامج تعليم البنـات لا تشتمل بصفة عامـة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية ؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط . بل أيضاً على رعاية صغارها) . (٣٦٨-٣٦٩).

وأخيرا :

(من المعروف ان الافراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي . ويبدو أن العقل يحتاج الى وجود غدد جنسية حسنة النمو ، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته .. ولقد أكد فرويد عن حق الأهمية القصوى للدوافع الجنسية في

وجوه نشاط الشعور . ومع ذلك فان ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص . ومن ثم يجب الا تعم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازاً عصبيا قويا وسيطرة على انفسهم .. وبينما يصبح الضعفاء المعتلو الاعصاب غير المتزنين اكثر شذوذاً عندما تكبت شهواتهم الجنسية فان الاقوياء يصيرون اكثر قوة بممارسة هذا الشكل من الزهد) .. (ص١٧٤)

ولنأخذ شهادة (ول ديورانت) الكاتب الامريكي المتفلسف..وهو رجل لا يمكن أن يقال أنه من أعداء هذه الحضارة . فهو شديد الإعجاب بالتقدم الذي تمثله هذه الحضارة في مجموعها وهو يبدو معارضاً للدين في جملته ، كما أنه ظاهر العداء للإسلام بصفة خاصة . وقد نشرت له جامعة الدول العربية ترجمة أجزاء من كتابه قصة الحضارة . ويستطيع قارىء اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الإعجاب بهذه الحضارة في جملتها كما يلاحظ موقفه من الدين جملة وعداءه الظاهر الإسلام خاصة .

ومع هذا كله فهو يؤدي هذه الشهادة عن هذه الحضارة في كتابه (مباهج الفلسفة) .

(وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطرة لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط ، نعني : كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس .؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة وبهذا الجنون النووي من جهة أخرى حين تفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الجماعي للحرب وعندنا مئة ألف سياسي وليس عندنا (رجل حكم) واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل . ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر في ذلك أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة . ولن ننجو منها بغير الحكمة) (ص٦-٧ ج١)

(واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون

الاخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذه في التغير نتيجة هذا العامل . ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة !) (ص ١٢٥ ج ١) .

(فحياة المدنية تفضي إلى كل مثبط على الزواج في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو الجنسي يتم مبكراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادي . فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي الزراعي فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً وغير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة. وأن تضعف القوة علىضبط النفس عما كان في الزمن القديم وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالاً ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي ولم يعد العالم المدني يحكم به) . . . (ص ١٢٦ - ١٢٧) .

(ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولاً عنه . ولا في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة . ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملال الذي يحسونه في حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسانوهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب

المكشوف تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين وهم في حمى الفوضى الصناعية من حمى الزواج ورعايته للصحة) .

(ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لارضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ومنظماً بأسمى ضروب الادارة العلمية . ويبدو أن العلم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها) ... (ص ١١٧ – ص ١٢٨) .

(وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات – وقد أكسبهم المال جرأة – ان الدين يشهر بملاذهم التمسوا في العلم ألف سبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب ، وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنباً ؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها ؟ فقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة) ... (ص ١٣٤)

(وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الجنود الوحشية والإباحية . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقي . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية ، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع ، وألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي . وأصبحت الحكومات في واد ، والشعب في واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة ، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة ،

تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية في الماضي ، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة) ... (ص ١٣٥ - ١٣٦) .

(لما كان اليوم هو عصر الآلة فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قل أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي ، وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمنا مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة ، مما يجعل الخطر جاثما كل لحظة . أما الشباب الذي أصبح أكثر إقداماً ، وأشد غروراً من قبل ، فهو عاجز مادياً ، وجاهل اقتصادياً ، إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلىء الجيوب بما يكفي للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة فيحتفل الزواج بموت الحب .

(حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية فهي واقعة تحت تأثير إغراء خفيف من الغزل والتسلية ، وهدايا من الجوارب ، وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج المنتظر متردداً ، إذ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليهما معاً في مستواهما الحاضر من المعيشة ؟

(وأخيراً تجد الرفيق الذي يطلب يدها للزواج ويعقد عليها لا في كنيسة . لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقي الذي ظل جاثما على إيمانها المهجور أثر في قلبيهما . إنهما يتزوجان في قبو المكتب البلدي (الذي يفوح منه عبير الساسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة ، لهما الحرية في أي وقت في التحلل منه . فلا مراسيم مهيبة ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة في الانفعال تحمل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ويتوجهان إلى البيت في صخب .

(إنه ليس بيتاً ! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشيء وسط الحشائش النضرة ، والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهما الزهور والخضروات التي يشعران بأنها أبهى

وأحلى ، لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلاً كأنهما في زنزانة سجن ، في حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلاً ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئاً روحياً كالبيت الذي كان يتخذ مظهراً ويكسب روحاً قبل ذلك بعشرين عاماً (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ما تجده في مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع لا ينبت لهما الصيف والزرع النضر بل سيلاً من المطر . ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح في السماء أو أي ألوان على أوراق الشجر بل المتاعب والذكريات الحزينة .

(وتصاب المرأة بخيبة أمل . فهي لا تجد في هذا البيت شيئاً يجعل جدرانه تحتمل في الليل والنهار ولا تلبث إلا قليلاً حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول في أنحاء هذا البيت يعزي شعوره ببنائه واصلاح ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبهاً عادياً تلك العلاقات غير البريئة التي كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد في هذا البيت ، وليس فيه ما ينمو ، ولا يمزق سكون الليل ، صوت الرضيع ، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للاطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة في المدينة ؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب .. فيعتزمان منع النسل .. إلى أن يقع بينهما الطلاق !

(ولما كان زواجهما ليس زواجاً بالمعنى الصحيح — لأنه صلة جنسية لارباط أبوة فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط الحياة الساخر .. وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته .. (ص ٢٢٣ — ٢٢٦) .

(ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون في تيـــار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء ، فقـد فقدَ الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل . فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحـد . سينهار (المستوى المزدوج ، وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصـاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سراً شائعاً في كل طبقة يضحي الحمل أمراً عارضاً في حياة المرأة أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفـــال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء !) (ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .

والآن نسمع شهادة الأستاذ أبي الأعلى المودودي في بعض جوانب هـذه الحضارة وما أنشأته من آثار تنطوي على تهديـــد مدمر للحياة الإنسانية ذاتها فضلاً على خصائص الإنسانية .

من كتاب (الحجاب) :

(إن أساطين الفلسفة والأدب ، وأقطاب العلوم الطبيعية الذين رفعوا لواء الإصلاح في القرن الثامن عشر ، كانوا – كما سبق لنا الإشارة إليه – يجابهون نظاماً للتمدن فيـه أنواع من القيود والسدود ، وفيه صلابة من غـير مرونة ، وعسر من غير يسر ، طافحاً بالتقاليد التي لا يقبلها الطبع والضوابط الجـامدة ، والطرق المناقضة للفطرة والعقل . وزاد طينه بلة انحطاط القوم المتواصل على طول القرون فجعله عقبة كأداء في كل طريق للرقي . فبجانب كانت النهضة العلمية والعقلية الجديدة تبعث في نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى التقدم والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتي . وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الأمراء والزعماء الدينيين تبالغ في شدهم بالأغلال التقليدية . فـــن الكنيسة إلى الجندية والقضاء ، ومن قصور الإمارة إلى المزارع ودور التجـارة .. كل شعبة من شعب الحياة وكل مؤسسة للتنظيمات الاجتماعيـة كانت تجري من نظام يتيـح لبعض الطبقات المخصوصة بحجة امتيازاتها القديمة وحقوقهـا المتوارثة أن تعسف وتجور على من لا ينتمي

إليها من العاملين الناهضين ، فتذهب بثمار أعمالهم ، وتستأثر بنتاج مواهبهم و كفاءاتهم . فكل محاولة يقوم بها القائمون لإصلاح تلك الحال كانت تخيب وتفشل بإزاء أثرة الطبقات المسيطرة وجهالتها) ..

لهذه الأسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للإصلاح تثور في نفوسهم مع الأيام ثائرة الانقلاب الجامحة حتى غلبت عليهم وعمتهم آخر الأمر نزعات البغي والثورة على هذا النظام الاجتماعي بجميع شعبه وأجزائه .. وراج بين الناس نظرية متطرفة في الحرية الشخصية ، ترمي إلى إعطاء الفرد الحرية التامة ، والإباحية المطلقة بإزاء المجتمع، فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق في عمل ما يشاء ، والحرية الكاملة في ترك ما يشاء ، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية .. الخ) (ص ٦٠–٦١).

(من غرائب الاتفاق أنه قد واتت هذا الانقلاب الفكري – وهو في صدر شبابه – أسباب تمدنية أخرى . ففي هذا العصر قامت الثورة الصناعية الشهيرة، وأعقبتها تغيرات هامة في الحياة الاقتصادية كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عون على تحويل وجهة سير الاجتماع الحديث الى حيث تريد الآداب الانقلابية أن تحولها. وذلك أن تصور الحرية الشخصية الذي نشأ عليه النظام الرأسمالي جاءت الاختراعات الميكانيكية وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعي تحكمه وتقويه . فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية كبرى وتحولت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة إلى مدن عامرة وأصبح ينجر إليها من القرى والأرياف أضعاف الملايين من النفوس . وغلت تكاليف الحياة غلاء فاحشاً وارتفعت أسعار الحاجيات للحياة من المطعم والملبس والمسكن إلى ما فوق طاقة العامة زد على ذلك أن أضيف إلى حاجات الحياة ما لا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة لأسباب راجع بعضها الى ارتقاء التمدن وبعضها الى مساعي أهل الثروة .

ولكن النظام الرأسمالي لم يوزع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المتع واللذات وأدوات الزينة والزخرفة التي أدخلها في لوازم الحياة بل هو لم يهيىء للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة الحقيقية – وهي السكنى والطعام واللباس – في تلك المدن التي قد زج بهم إليها ..

(كان من نتائج ذلك كله أن أصبحت المرأة كلاً على زوجها ، وأصبح الولد عبئاً على أبيه ، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه فضلاً عن أن يعول غيره من المتعلقين به .

وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحـــد من أفراد المجتمـع عاملاً مكتسباً .
فاضطرت جميع طبقات النساء – من الأبكار والأيامى والثيبات – أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويداً .

(ولما كثر بذلك اختلاط الصنفين ، واحتكاك الذكور والإناث ، وأخـــذت تظهر عواقبه الطبيعية في المجتمع ، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية ، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق ، فهدّأ من قلـــق الآباء والبنات والاخوة والأخوات ، والبعولة والزوجات ، وجعلا نفوسهم المضطربة تطمئن الى أن الذي هو واقع أمام أعينهم لا بأس به فلا يوجسوا منه خيفة إذ ليس هبوطاً وتردياً ، بل هو نهضة وارتقاء، وليس فساداً خلقياً بل هو عين اللذة والمتعة التي يجب أن يقتنيها المرء في حياته ، وأن هذه الهاوية التي يدفع بهم إليهـــا الرأسمالي ليست بهاوية النار ، بل هي جنة تجري من تحتها الأنهار .

(وما وقف الأمر عند هذا الحد بل جاء النظام الرأسمالي الذي رفعت قواعـده على هذا التصور للحرية الشخصية فمنح الفرد حقاً مطلقاً من كل قيد أو شرط في اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق وتبعته فلسفة الأخلاق . فأباحت له كل وسيلة يمكن أن تتخذ لجمع الأموال، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مهلكة أفراد كثيرين . . وبذلك تألف نظام التمدن من أوله الى آخره على صورة تؤثر الفردَ على الجماعة من كل وجهة وليس فيها ضمان للمحافظة على مصالح الجماعة بإزاء أثَـرة الفرد فانفتحت السبل على إخوان الطمع والأثرة ليغيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاءون فعمد هؤلاء الى الغرائز الإنسانية يتحسسون فيها مواطن الضعف والخلل وراحوا يتفننون في استغلالها لأغراضهم . فقـــام واحدهم وروّج في الناس سيئة الخمر جلباً للثروة الى جيبه ولم ينهض منهم من ينقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون . وقام آخر وابتلى خلق الله بآفة الربا ، ونصب شبكته في القاصية والدانية وما هنالك من يدفع عن دماء الناس ضر هـــذا العلق بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتاكة كي لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه وجـاء ثالث وأشاع في المجتمع طرقاً مبتكرة للقمار حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عنصره وما ثمّة من يتقدم لحفظ الحياة الاقتصادية من هذه الحمى المحرقة .

(وما كان من الممكن في هذا العصر من الأنانية والبغي والعدوان الفردي أن يعزب عن إخوان الأثرة والطمع ذلك الضعف الإنساني الأكبر ... الشهوة الجامحة ... التي يمكنهم

باستثارتها جلب كثير من المنافع. فلم يفتهم ذلك فعلاً بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة في الإنسان ما وسعهم وما أمكنهم . إذ أصبح مــدار العمل والعنــاية كله في المراقص والمسارح ومراكز إخراج الأفلام على أن تستخدم لها الغيد الحسان ، ويعرضن على المنصة في صورة أكمل من التبرج ، وفي هيئة أقرب الى العري ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إضرام نار الشهوة فيهم .. جـاء قوم فمهدوا الأسباب لإكراه النساء وتقدموا بحرفة البغاء الى أن أصبحت تجارة دولية منظمة .. وجـاء آخرون فتفننوا في صنع أدوات الزينة والزخرفة . ثم عمموها في المجتمع ليزيدوا من غريزة التبرج التي جبلت عليها المرأة الى أن يجعلوها فيهن هوساً ، ويجمعوا بذلك الذهب والفضة مـلء أكفهم .. جاء فئة أخرى فاخترعوا الملابس النساء أزياء كاشفة مغرية واستخدموا كل فاتنة الجمـال لتلبسها وتغشى بها النوادي والحفلات حتى يقبل عليها الشباب ويفتنوا بها فتغرم الفتيات بتلك الأزياء الجديدة من اللباس وتربح تجارة مخترعيها . وتذرع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية والمقالات الخليعة الى استدرار الأموال وأخذوا كذلك يملأون جيوبهم بإصابة العامة بالجذام الخلقي حتى انتهت الحال على مضي الأيام الى أن لم تبق ناحية من نواحي التجارة خالصة من عنصر الإغراء . وها أنت ذا صرت لا ترى في زمانك هذا إعلاناً من الإعلانات التجارية في الجرائد والمجلات إلا وسمته الملازمة البارزة صورة امرأة عارية أو في حكم العارية ، كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود المرأة ، ولا تجد كذلك فندقـاً من الفنادق ولا مقهى ولا صالة عرض إلا وقـد استخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسي في الرجال .

(وكان المجتمع المسكين المخذول لا يملك – حيال ذلك كله – إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه وهي أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه لكنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداء وعسكر شيطاني عرمرم من العلوم والآداب ، كانا لا يزالان يعملان عملهما في نسخ النظريات الخلقية ومحوها من النفوس .

(ومن براعة القاتل – والله – أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه) (ص ٨٢-٨٧)

.. (هذه حال المرأة عندهم .. وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلابة من

الجمال النسوي إلا شوقاً وطموحاً ونهمة . لأن نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة في الصدور لا تخمد بكل منظر جديد من الخلاعة والسفور ، بل تزداد لهيباً ، وتتطلب منظراً آخر أكثر منه سفوراً وحسوراً وتكشفاً . ومثلهم في ذلك كمثل من تصيبه لفحة من السموم فيكاد لا يسكن ظمؤه . كلما ازداد عطشاً وظمأ . فهم دائماً في إعداد أدوات ، وتهيئة أسباب وظروف لإطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم ، ولا يهدأ لهم دون ذلك بال ، ولا هم يستقر لهم قرار . ما هذه الصور العارية ، وهذا الأدب المكشوف وهذه القصص الغرامية ، وهذه المراقص والمباذل والمسرحيات المشحونة بالانفعالات والنزعات العارمة .. ما هذه كلها إلا نماذج من جهودهم وحيلهم التي يتعاطونها لإخماد الشهوات الجامحة — ولكن في الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها — التي أججها هذا المجتمع الماجن ، وتلك الحياة الاجتماعية الضالة في صدر كل فرد من أفرادهم .. ولكنهم سموها بالفن لإخفاء هذا الضعف الكامن في نفوسهم وفي حياتهم .

(ولا يزال هذا الداء الوبيل — من غلبة الشهوات البهيمية — ينخر في كيان الأمم الغربية وينتقص من قوة حياتها بسرعة هائلة . والتاريخ يشهد أنه ما سرى هذا الداء في مفاصل أمة إلا أوردها موارد التلف والفناء . ذلك بأنه يقتل في الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه في هذه الحياة . وأنّى للناس — لعمر الله — ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة ، التي لا بد لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير ما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب ، وتكون عواطفهم عرضة أبداً لكل فن جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة ، قوي التحريض ، ويكون الدم في عروقهم في غليان مستمر بتأثير ما حولها من الأدب الخليع ، والصور العارية ، والأغاني الماجنة ، والأفلام الغرامية ، والرقص المثير ، والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوي العريان ، وفرض الاختلاط بالصنف المخالف . أستغفر الله — بل أنّى لهم ولأجيالهم الناشئة — أن يجدوا في غمرة هذه المهيجات الجو الهادئ المعتدل الذي لا مندوحة عنه لتنشئة قواهم الفكرية والعقلية وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يغتالهم غول الشهوات البهيمية ويستحوذ عليهم . وإذا هم وقعوا بين ذراعي هذا الغول فأنى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديه !) (ص ٣٧ — ٣٩) .

(كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التناسل هي فرنسا فكانت نسبة المواليد فيها إلى

الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالي (عند نشوب الحرب العالمية الأولى) ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات. وأما المقاطعات السبع والستون الباقية فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد . وكان معدل الوفيات في بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠ ، ١٧٠ بإزاء كل مئة مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين ، ورجال محاربين ، وإنه إن ضحى – على الفرض – بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها في سبيل الدفاع عن الوطن في تلك الآونة ، فإنه لن تمكن النجاة من كرة العدو الثانية . فكان من انبعاث هذا الشعور في نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم وجعل الكتّاب والصحفيون والخطباء – وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة – كلهم يهيبون بالناس من كل جانب وبصوت واحد : أن يكثروا من التوليد والتناسل ، ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج ونادوا أن العذراء التي تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن،تستحق العز والكرامة لا التعب والملامة ! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة الحال حافزاً قوياً لدعاة الحرية والإباحية فانتهزوا الفرصة السانحة وبثوا جميع ما كان قد بقي في جعبة فكرهم الشيطاني من النظريات) .. (ص ٧٢-٧٣) .

(إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم اضمحلال قوام الجسدية وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم . فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي على فترة كل بضع سنين لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام . وهذا مقياس أمين يدلنا – كدلالة مقياس الحرارة في الصحة والتدقيق – على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية) (ص ١١٣) .

(والنكبة الثانية العظيمة التي قد جرها على التمدن الفرنسي طغيان الشهوة المطلقة ورواج الإباحية وقبولها : هي خراب النظام العائلي وتقوض بنيانه ..) (ص١١٤)

(والأمة الفرنسية ـ كما أسلفت ـ لا تزال تهبط فيهـــا نسبة المواليد منذ ستين عاماً متوالية . ففي بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد ، وفي الأخرى تتساويان وفي الثالثة لا تزيد على نسبة الوفيات إلا بقليل جداً . وبجانب آخر لا يزال عدد الجالية المهاجرين في فرنسا ينمو ويكاثر فكانو قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الأصليين سنة ١٩٣١ . وإن استمرت الحال على مــــا هي عليه الآن ، فلا يستبعد أن تعود الأمـــــة الفرنسية عند ختام القرن العشرين أقليـــة في وطنها هي) .. (ص ١٣٢)

(ولا يحسبن أحد أن الأمة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها في هذا الباب. بل الأمر أن جميع الأمم التي قد آمنت بما ذكر آنفاً من نظريات الأخلاق ومبادىء الاجتماع المتطرفة تماثلها وتجاريها في تلك الحال) .. (ص١٢٣)

(نشر في جريدة فري برس بدوترويت الأمريكية مقال جاء فيه :

(إن مـــا قد نشأ بيننا الآن من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات غـــــير المشروعة — الدائمة والعارضة — بين الرجال والنساء يدل كله على أننـــا راجعون القهقرى إلى البهيمية . فالرغبة الطبيعية في النسل إلى التلاشي ، والجيل المولود حبله على غاربه ، والشعور يكون تعمير الأسرة والبيت لازماً لبقاء المدنية والحكم المستقل ، يكاد ينتفي من النفوس . وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال لمآل المدنية والحكومـــة وعدم النصح لها) .. (ص١٣٧)

(كل هذا الاتباع لأهواء النفس والنفور من تبعات الزوجية والتبرم بالحيـــــاة العائلية والارتخاء في الروابط الزوجية ، يكاد يذهب في المرأة عاطفة الأمومة الفطرية التي هي أشرف العواطف الروحية وأسماها في النساء والتي لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدن فحسب ، بل بقاء الإنسانية جمعاء وما نجمت سيئات منع الحمل ، وإسقاط الجنين ، وقتل الأولاد ، إلا بنضوب هذه العاطفة في نفس المرأة فالمعلومات عن تدابير منع الحمـــل موفورة لكل فتى وفتاة في الولايات المتحدة الامريكية على الرغم من قيود القانون . والآلات والعقاقير المانعة للحمل معروضة للبيع في الحوانيت كالسلعة المباحة تستصحبها دائماً بنات المدارس والكليات — بله عامة النساء — لكي لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب ،

إن نسي خدينها أن يأخذ أدواته معه . فيكتب القاضي (لندسي) (في محكمة دنفر) : (٤٩٥ بنتاً في السن الباكرة من بنات المعاهد الثانوية اعترفن لي بأنهن قد جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان إلا أنه لم تحمل منهن إلا خمس وعشرون . وأما الباقيات فسلم بعضهم من الحمل بمحض الاتفاق . ولكن كانت لأكثرهم خبرة كافية بتدابير منع الحمل . وهذه الخبرة قد عمّت فيهن إلى حد لا يكاد الناس يصيبون في تقديره) (ص ١٣٩)

(وقد ذكرت مجلة أمريكية هذه الأسباب التي تزال تؤدي إلى رواج الفحشاء وقبولها هناك بالكلمات الآتية :

(عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض: أولها الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة .. والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية في بابه .. والثالث انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء الذي يظهر في ملابسهن بل في عريهن وفي إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .. **هذه المفاسد الثلاثة فينا الى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام . ولا بد ان يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الامر . فان نحن لم نحد من طغيانها فلا جرم ان ياتي تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ومشاغل ورقص وغناء) .** (ص ١٢٩) .

(والآن نستمع إلى شهادة الطبيبة التي تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) بعنوان (جنس ثالث في طريقه إلى الظهور) من مشاهداتها في (فينا) :

(.. شاءت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد لزيارة صديقة لي طبيبة بإحدى ضواحي (فينا) - بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب وكنت أحسب أن يوم الاحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبي حين فتحت لي صديقتي باب بيتها متعجلة وفي يدها (بطاطس) تقشره . ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك :

(ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتني قائلة :

(ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة في المطبخ يوم الأحد !

(قلت ضاحكة

(أما العمل يوم الاحد فربما فهمته . وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك فهذا ما لم أنتظره .

(فردت :

(لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب . فالعمل في عطلة الاحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالي بالمطبخ فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي . إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معي سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

(ولما سألتها عن سر هذا القلق – مع استقرار الوضع الاجتماعي للمرأة الغربية – أجابت بأن ذلك القلق ، لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا في المرأة العاملة . وذلك لما لحظوا من تغير بطيء في كيانها لم يثر الانتباه أول الأمر لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع تحت ضغط الحاجة والاستقرار في العمل . ولكن ظهر من استقراء الاحصاءات إن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لا يرجع إلى عيب عضوي ظاهر . مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي – عن قصد أو غير قصد – عن مشاغل الأمومة ودنيا حواء وتشبثها بمساواة الرجل ومشاركته في ميدان عمله .

(واستند علماء الأحياء في هذا الفرض – نظرياً – إلى قانون طبيعي معروف وهو أن (الوظيفة تخلق العضو) ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة للأنوثة لا بد أن تضمر تدريجياً بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة

واندماجها فيما نسميه (عالم الرجل) .

(ثم تابع العلماء هذا الفرض فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً وإذا بهم يعلنون – في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ – عن قرب ظهور (جنس ثالث) تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

(وثارت اعتراضات .. منها : أن كثرة العاملات ينفرون من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمل ويتيح لها بحكم القانون فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها مما لا يحصى من دهور وأحقاب

(وكان الرد على هذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة الولد يخالطه دائماً الخوف من أعبائه والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل . ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج فيرد عليه بأن هذا الخروج – على قرب العهد به – قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل، وإصرار عنيد على التشبه به، مما عجل ببوادر التغيير لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها في ضميرها .

وما يزال المهتمون بهذا الموضوع، يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة) ... (جريدة الاهرام) .

ومن مقال إخباري في أخبار اليوم (من استوكهلم) لموسى صبري :

(قال لي أستاذ جامعي سويدي :

(إننا نعلّم أبناءنا وبناتنا في المدارس الثانوية وفي سن مبكرة، كل شيء عن الجنس واضحاً صريحاً . ليست لدينا مشكلة جنس . إن المتعة الجنسية كمتعة الطعام اللذيذ، ومتعة الملابس الأنيقة، والملاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبل الزواج هي شيء طبيعي عادي . وما يباح للشاب يجب أن يباح للفتاة .

... (وخلاصة القول أن (حرية الحب) في السويد تعني أن نداء الجنس هو نـــداء طبيعي ، كنداء البطن ، ونداء العقـــل .. ليس فيه ما يدعـــو إلى كبته أو شدة كتمانـــه .. ولقد تطور بهم مجتمعهم إلى هـــذه النظرة المجردة إلى الجنس بين الرجل والمرأة — وقد فوجئت وأنا أتروض في حدائق (سكانسن) ذات صباح مشمس بوجود بركة مياه لاستحمام الصبية والبنات . ورأيت الأولاد والبنات يستحمون في الماء عرايا كما ولدتهم أمهاتهم وهم ما بين سن الثامنة والحادية عشرة .. وتبددت المفاجأة تماماً عندما عرفت أن الكبار أيضاً من النساء والرجال ينزلون إلى البحر ويمرحون على الشاطىء وهم عرايا تماماً .. ليس هذا هو أسلوبهم في التصييف فهناك من يرتدي المايوه . ولكن نزول (شلة) من الجنسين إلى البحر — وهم عرايا — أمر لا يلفت النظر ولا يدير أي رأس !

والسؤال : وماذا تفعل الفتاة إذا أصبحت أماً بغير زواج ؟

(والجواب : إذا تخلصت من جنينها كان بها . وإذا لم تتخلص فإن الدولة كفيلة برعاية الطفل وحضانته وتعليمه بالمجان حتى سن السادسة عشرة .. وهو يقيد في سجل المواليد باسم أمه . أو باسم الأب — إذا اعترف بـــه . والمجتمع لا يعطي الابن غير الشرعي أو الأمهات غير المتزوجات إلا كل تقدير واحترام ؟

وهنا نتساءل — في جد وخطورة :

إذا كانت السويد تعتبر كدولة من أرقى دول العالم ، فهل نستطيع أن نتصور أننا — وباقي الدول — سننجرف إلى هذا المصير إن عاجلا أو آجلا ؟

(وتأكيد تقدم السويد — كأرقى دول العالم — أمر تؤيده الإحصاءات وتعترف بـه كل الأبحاث العلمية

(إن ما يخص الفرد الواحد في السويد من الدخل القومي يساوي ٥٢١ جنيهاً مصرياً في العام . أي حوالي ٤٣ جنيهاً في الشهر الواحد .

(ووصل نظام الحكم الاشتراكي في السويد إلى ما يقارب محو الفروق تماماً بين الطبقات بفرض الضرائب التصاعدية وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية التي لا تجدها في دول أخرى

(كل مواطن يستحق نصيبه من التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقـــداً والعلاج المجاني في المستشفيات .

(تدفع إعانة أمومة لكل النساء . تشمل هذه الإعانـــة مصاريف الولادة والرعاية الطبية في المستشفى وإعانة إضافية لكل مولود .

(التأمين ضد إصابات العمل إجباري .

(شروط الإعانات في حالة البطالة هي أسخى شروط معروفة دولياً .

(تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة أقرب إلى الخيال. منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيهاً في العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة . رعـــاية صحية مجانية . مصاريف انتقال مجانية الإجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة . مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم .

(التعليم في جميع مراحله بالمجان ، مع تقديم إعانات ملابس ، وإعانات معيشية لغير القادرين وتقدم للطلبة قروض دراسية تصل إلى ٢٥٠ جنيهاً للطلبة المجتهدين .

(تقدم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصـل إلى ٣٠٠ جنيه بفائدة بسيطة تسدد على خمس سنوات .

(إن ثلث الضرائب التي يدفعها الشعب السويدي تنفقها الدولة في التأمينات الاجتماعية ، وتدفع الدولة ٨٠ ٪ منها في مساعدات نقدية . إن أضخم ميزانية هي ميزانيـــة وزارة الشئون الاجتماعية التي وصلت هذا العام إلى ٣٣٤ مليون جنيه . ثم تليها ميزانيـــة وزارة التربية وقد بلغت ١٣٣ مليون جنيه . بينما تنزل ميزانية القصر الملكي إلى حوالي ٤٠٠ ألف جنيه فقط .

(مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين أسرة فان الخط البياني لعدد سكان السويد يميل الى الانقراض.. مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ثم تكفل لطفلها الحياة حتى يتخرج في الجامعة.. فان الأسرة السويدية في الطريق الى عدم انجاب أطفال على الاطلاق ..

(يقابل هذا :

(انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين ..

(وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين ..

(مع ملاحظة أن ٢٠ ٪ من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبداً .

(لقد بدأ عهد التصنيـــع وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠ . كانت

نسبة الأمهات غير المتزوجات في ذلك العام ٧ ٪ وارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٣٠ إلى ١٦ ٪ والإحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة .

« ان نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله . إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات – طبقاً للاحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد . والنسبة بدأت صغيرة وهي مستمرة في الزيادة .. في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقاً بين كل ١٠٠ ألف من السكان . ارتفع هذا الرقم الى ١٠٤ في عام ١٩٥٢ . ثم ارتفع الى ١١٤ في عام ١٩٥٤ .

(سبب ذلك أن ٣٠ ٪ من الزيجات تتم اضطراراً تحت ضغط الظروف بعد أن تحمل الفتاة ، والزواج بحكم (الضرورة) لا يدوم بطبيعة الحال . ويشجع على الطلاق أن القانون في السويد لا يضع أية عقبة ، أما الطلاق إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جداً . وإذا طلب أحدهما الطلاق فإن أي سبب بسيط يقدمه يمكن أن يتم به الطلاق .

(واذا كانت (حرية الحب) مكفولة في السويد ، ، فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد .. انها (حرية عدم الايمان بالله) ! لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضاً . فالمدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها في عقول النشء والشباب ، ، **ان الكنائس موجودة في كل مكان ولكنها اقرب الى التحف الأثرية . والدولة تصرف على الكنائس وتدفع مرتبات القسس . ولكن الكنيسة لا تفتح أبوابها الا صباح الأحد لبضع ساعات ولا يؤمها الا عدد محدود جداً من العجائز أمثال جدتي وجدتك والنكتة التي تسمعها منهم : أنهم حددوا ساعات العمل للكنيسة بثلاث ساعات في الاسبوع . وأنها من حقها بعد ذلك ان تأخذ اجازة .. لم يعودوا يؤمنون بأن الدين هو وسيلة الى اشباع حاجات النوع الانساني !**

(وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا . ان افتقادهم للايمان يجرفهم الى الانحراف والى الادمان على المخدرات والخمور .

... (وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفاً . أي ما يوازي ١٠ ٪ من مجموع أطفال العائلات كلها . . وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف . . إن من قبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥ ، ١٧

وازي ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاماً ! وعادة الشراب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيء إلى أسوأ ... وينبع ذلك حقيقة رهيبة .

إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية . ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية . ويزيد من دواعي تفكك الأسرة ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ..

(قال لي صحفي نرويجي :

(إن مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان ..

(قلت له :

(وماذا تفعل حكومتكم لدرء هذا الخطر ؟

(أجاب متألماً :

(إن حكومتنا أيضاً ليست مؤمنة) .. (أخبار اليوم)



وبدون أي تعليق أو تعقيب نغلق هذا الفصل على هذه النذر الرهيبة فهي ناطقة بذاتها : إن الذين يخالفون قانون الفطرة ، لا يمكن أن يمضوا بلا عقاب .. وهو عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات الأرض ورخاء العيش ومضاعفة الدخل ، والضمانات المادية الخيالية . فللحياة الإنسانية قوانينها الفطرية الصارمة التي لا تجامل ولا تتخلف ، ولا تلين ..

هذه القوانين هي التي يقول عنها الدكتور ألكسيس كاريل :

(إنهم لم يدركوا أن أجسامهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية ، وهي قوانين أكثر غموضاً – وإن كانت تتساوى في الصلابة – مع القوانين الدنيوية . كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم) .

ولقد حذر الله – سبحانه – عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين . وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه المتمشي مع سننه في الكون فلا تكون لهم من عواقبها نجاة :

« فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .. (الأنعام ٤٤-٤٥)

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .. (يونس ٢٤)

وصدق الله العظيم ..

●

ولعل بهذا نوضح موضوع المؤيدات الفطرية التي تجعل الإنسان أمام طريق وحيد عليه أن يسلكه هو طريق الله المتمثل بالإسلام دينه الحق « إن الدين عند الله الاسلام ». الإسلام الذي أنزله الله على محمد عبده ورسوله ﷺ « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

القسم الثاني

المؤيّدات الرّبانيّة

ويقسم الى قسمين :

أ — المؤيدات الربانية في الدنيا

ب — المؤيد الرباني الثاني : الآخرة

١ ـ المؤيدات الربانية في الدنيا

ما ذكرناه في المؤيد السابق منعقوبات الفطرة هو من نوع النتائج المترتبة علىمقدماتها، أو من نوع تحقق القضية إذا وجدت أسبابها . أما المقصود بهذا المؤيد هنا فهو العقوبة المترتبة على الذنب بفعل الله قهراً للمذنب والكل في الحقيقة فعل الله ولكن ذلك عقوبة تظهر نتائجها بشكل واضح دون أن يرى للقهر الإلهي تدخل ظاهر فيها . وهذا يرى فيه بشكل ظاهر تدخل القهر الإلهي .

وحتى يتضح هذا المقام لضرب مثالاً :

إن من عقوبات الفطرة على اللواط هي اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء مما يؤدي إلى الإخلال بعملية التوالد لبقاء النوع .

فأمة كأمة لوط مثلاً عندما أصيبت بهذا الداء واستشرى بها فإنه يعرضها إلى الفناء عملياً إذا مشت بهذا الانحراف إلى منتهاه فهذه عقوبة فطرية علىجريمة بعينها ولكن زيادة على ما يترتب على هذه العقوبات الفطرية فإن الله عذب هذه الأمة عذاباً آخر استأصلها به إذ جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود .

فالذي نعنيه في هذا الباب هو هذا النوع من العقوبات الإلهية التييعاقب بها المنحرفون عن أمره والمجرمون .

وقد قص الله علينا في القرآن أنواعاً من هذه العقوبات عاقب بها أقواماً أو رجالاً لارتكابهم جرائم الانحراف عن أمره وأمر رسله عليهم الصلاة والسلام ننقلها أولاً ليتضح لنا الأمر ثم نعقب على ذلكببعض التعليقات وعلى هذا فبحثنا هذا سينقسم إلى قسمين نماذج

أولاً : نماذج من العقوبات

أ – قارون :

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثرُ جمعاً ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارونُ إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثوابُ الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها إلا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرضَ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وَيْكأنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أنْ منَّ الله علينا لخسف بنا وَيْ كأنه لا يفلح الكافرون » . (القصص الآية ٧٦–٨٢)

ب – اصحاب الجنة :

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليَصْرِمُنَّها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادَوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وَغدَوا على حردٍ قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تُسبِّحون ، قالو سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى رُبنا أن يُبدِلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولَعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . (القلم الآية ١٧–٣٣) .

ج – صاحب جنتين :

« واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نَهَرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ، ودخل جنّتَه وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدْتُ إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواكَ رَجُلاً ، لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن تَرَنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولداً، فعسى ربي أن يؤتينَنِ خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبحَ صعيداً زلقا ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاويةٌ على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتَصِرا » . (الكهف الآية ٣٢–٤٣)

د – المعتدون من اليهود على حرمة يوم السبت :

« واسئلهم عن القرية التي كانت حاضرةَ البحر إذ يَعْدون في السبت إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يَسبِتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون، وإذ قالت أمةٌ منهم لِمَ تعظون قوماً الله مهلكُهم أو معذبُهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون ، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهَوْن عن السُوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . (الأعراف الآية ١٦٣–١٦٦)

هـ – قوم نوح :

« كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر ، فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدِرْ ، وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ ، تجري بأعيننا جزاءاً لمن كان كُفِر ، ولقد تركناها آيةً فهل من مدَّكِر ، فكيف كان عذابي ونذر » . (القمر الآية ٩–١٦)

« ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهلَه من الكرب العظيم ، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين » . (الأنبياء الآية ٧٦ — ٧٧)

و — عـــاد :

« كذبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر ، إنا أرسلنا عليهم ريحـــاً صرصراً في يومِ نحسٍ مستمرٍ ، تنزع الناسَ كأنهم أعجازُ نخلٍ منقعرٍ ، فكيف كان عذبي ونُذُر » . (القمر الآية ١٨ — ٢١)

« وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عاتيـــة ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » . (الحاقة الآية ٦—٨)

ز — ثمود :

« كذبت ثمود بالنذر ،فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعُر ،أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر ، سيعلمون غداً مَن الكذابُ الأشر انا مرسلوا الناقةِ فتنة لهم فارتقبْهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قِسمة بينهم كلُّ شِربٍ مُحتَضَر ، فنادوا صاحبَهُمْ فتعاطى فعقر ،فكيف كانعذابي ونُذُر ،إنا أرسلنا عليهم صيحةواحدة فكانوا كهشيم المحتظِر» . (القمر الآية ٢٣—٣١)

ح — قوم لوط :

« فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال إنكم قوم مُنكَرون ، قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ، فأسر بأهلِك بقِطعٍ من الليــل واتَّبِــعْ أدبارَهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ، وقضينا إليه ذلك الأمرَ أنَّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وجــاء أهـــلُ المدينة يستبشرون ، قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون ، قالوا أوَلَمْ نَنْهَكَ عن العالمين ، قال هؤلاء بنــاتي إن كنتم فاعلين ، لعَمْرُكَ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ، فأخذتهم الصيحــة مُشْرِقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن في ذلك لآيات للمتوسمين ،

وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين » . (الحجر الآية ٦١—٧٧)

« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجّيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » . (هود الآية ٨٢—٨٣)

« ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » . (الأعراف الآية ٨١—٨٤)

ط – قوم شعيب :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ، وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين ، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » . (الأعراف الآية ٨٥—٩٣)

ي – فرعون وقومه :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات » . (الأعراف الآية ١٣٠)

« فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات

فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، ولما وقع عليهم الرِجْزُ قالوا يا موسى ادع لنـا ربُك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون، فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . (الأعراف لآية ١٣٣–١٣٦)

ك – بنو اسرائيل :

« وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسِدُنّ في الأرض مرتـين ولتعلُنّ علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربُّكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » . (الإسراء الآية ٤–٨)

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبيـاء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيهـا قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهمُ الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » . (المائدة الآية ٢٠–٢٦)

ل – اصحاب النبي ﷺ :

« ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوبُ الله من بعد ذلك على من يشاء

والله غفور رحيم » . (التوبة الآية ٢٥-٢٧)

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » . (آل عمران ١٥٢)

ثانياً : تعليقـــات

أ – يلاحظ من الأمثلة القرآنية السابقة أن عقوبة القهر الإلهي في الدنيا تأتي بأشكال متعددة فقد تكون غرقاً ، وقد تكون صاعقة ، وقد تكون مرضا ، وقد تكون زلزالا ، وقد تكون..... وفي الحقيقة ما من مصيبة يصاب بها الإنسان إلا وهي أثر من آثار هذا القهر ، وقد ذكرت هذا المعنى الآية « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . وإن لم تكن المصيبة عقوبة فهي تربية أو امتحان أو ترقية لمقام « ونبلوكم بالخير والشر فتنة » .

ب – إن عقوبة القهر الإلهي العام لا تظهر إلا إذا سبقها رخاء ، لذلك كان من سنة الله أن يمد للظالمين والكافرين ، فترى الظالمين والكافرين مهما ذكّروا لا يتذكّرون ، وعندئذ تنزل بهم عقوبة القهر الإلهي فإذا هم زاهقون وقد ذكرت هذا المعنى الآيات :

« ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطـــع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » . (الأنعام الآية ٤٢-٤٥)

جـ – يلاحظ أن الكافرين والغافلين لرؤيتهم اضطراد نزول البلاء والرخاء عليهم وعلى الناس غيرهم لا يظنون أن لله دخلا فيما يحدث من ذلك بل يتصورون أن ذلك محض عادة طبيعية ومصادفة غير مقصودة فإذا وقع زلزال لا يربطون بين الزلزال وعقوبة الله وإذا حدث خسف لا يربطون بينه وبين عقوبة القهر الإلهي وإذا حدث غرق أو عواصف أو

صواعق فهذا كله لا علاقة لعقوبة القهر فيه مـا دام نازلاً بغيرهم ولم يستأصلوا بعد وقد ذكر القرآن هذا المعنى بقوله :

« وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون ، ثم بدلنا مكان السيئةِ الحسنةَ حتى عفَوا وقالوا قد مس آباءَنا الضراءُ والسراءُ فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون » . (الأعراف الآية ٩٤-٩٥)

« ويرسل الصواعقَ فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » .

د – **وعلى** عكس الكافر والغافل يكون المسلم ، فما من مصيبة تنزل به مهما كان شأنها صغيرة وكبيرة ، عامة أو خاصة ، إلا وتجعله يحس أنه فعل شيئاً استحقها به فيرجـع الى الله ويتوب .

«أولما أصابتكم مصيبةٌ قد أَصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » .

وينتج عن هذا أن المسلم يأخذ درساً من المصيبة فترجعه الى الله ، ويفكر ماذا فعـل حتى استحقها ، فيحاسب نفسه ويطهرها . وينتج عن ذلك كذلك أن يرضى بالمصيبة لما أنها عقوبة عاجلة على ذنب في الدنيا تكفره عنه فيصبر ويحتسب ولا يتضجر وفي الحديث :

(ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها) متفق عليه .

(ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) متفق عليه .

(ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعـالى وما عليه خطيئة) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

عن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال : (قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ثم الأمثل [illegible] الرجل على حسب دينه فإن كان شديداً في دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة) أخرجه الترمذي .

وعن جابر – رضي – « دخل رسول الله ﷺ على أم السائب – رضي – فقال ﷺ مالكِ تزفزفين فقالت : الحمى لا بارك الله فيها فقال : لا تسبي الحمّى فإنها تُذهب خطايا

بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد) .

هـ – إن عقوبة القهر الإلهي في الدنيا ليس شرطاً أن تنزل بكل كافر أو منافق ، قد تنزل وقد يمد الله لأمثال هؤلاء ليعذبهم في الآخرة **ولعذاب الآخرة أشد** :

(وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » .

« ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا ، ... فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم » .

« ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا » .

و – وقد تكون عقوبة القهر الإلهي متمثلة بتسليط أمة على أمة ، أو الناس على الناس . قال تعالى :

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » .

ولعل الصورة المخيفة للواقع القريب ترينا مظاهر هذا .

لقد خلق الله هذا الكون ليستخدمه الإنسان لصالحه ، وإذا بالإنسان يستخدمه لتدمير كل شيء . ولعل ما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية مثالان على هذا النوع من القهر .

وقد يسلط الله على المسلمين بذنوبهم غير المسلمين ، وتروج بين الناس حكمة تمثل هذه السنة لله تقول (اذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني) وفي الآثار ما يؤيد هذه الحكمة ، وفي الواقع ما يدل عليها .

ز – مما تقدم نعلم أن عقوبة القهر الإلهي تظهر بمظاهر متعددة وكلها مستورة بعالم الأسباب .

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » .

ونعيد هنا الفكرة التي ذكرناها أكثر من مرة :

إن الكافر لا يرى إلا السبب المادي القريب .

أما المؤمن فيرى أن كثيراً من الأسباب المادية ترافقها أسباب غيبية،يعرفها بواسطة الرسول الصادق . كالموت له سبب حسي كالسكتة القلبية ، وسبب غيبي هو نزع الروح من الجسد بواسطة الملك .

ثم المؤمن بعد ذلك يرى أن السبب الحسي والسبب الغيبي حال وجوده يكونان بقدرة الله دائماً وأبداً . ومن ثم تكون عند المؤمن ملكة الاعتبار ، وتموت هـــذه الملكة عند الكافر . إن المؤمن يرى الله وراء كل شيء ، وراء النعمة والنقمة ، والنصر والخذلان ، والضر والنفع والبأساء والضراء « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » . والكافر أعمى البصر والبصيرة ، لا يرى إلا ظواهر الأشياء ولا يعرف حقائقها :

« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » .

وهو دائماً يعذّب ويشقى جسدياً أو نفسياً ، وهو لا يحس بأن ذلك بسبب بعده عن طريق الله ودينه وشريعته أي الإسلام .

ب ـ المؤيدات الربانية في الآخرة

الكلام عن الآخرة يأتي في الدرجة الثانية بعد الكلام عن الله جل جلاله. ولكننا بدأنا دراساتنا في الأصول الثلاثة بالكلام عن الله، وختمناه بالحديث عن الآخرة. على اعتبار أن الآخرة هي النهاية، والإسلام هو الطريق إليها، فهي خاتمة المطاف.

وقد حرصنا أثناء الكلام عن الآخرة أن نعرض للموضوع بأساليب متعددة، وأن ننقل فيه لأعاظم من كتبوا عنه ليتأكد مضمونه في القلب تأكداً تاماً. فبدأنا الحديث عنه بنقول للشيخ سعيد النورسي. وختمنا الحديث عنه بكلام للمودودي فيه. وتصرفنا في كلامهما نوع تصرف لا يخل بالمعنى لينسجم مع طبيعة هذا الكتاب. وإذا كثر النقل في هذا الفصل، فلأننا نود تقليب الحديث حتى لا يبقى لكافر حجة، ولم نرد في الكتاب كله إلا تربية الإيمان، فما أعاننا على ذلك أخذناه دون نظر إلى ما يمكن أن ينتقدنا فيه الناقدون.

ولنبدأ الآن الحديث عن اليوم الآخر:

- ١ -

يقول الشيخ سعيد النورسي:

(انظر إلى قوة حقانية الحشر والآخرة، فلا يمكن أن يكون سلطان بـــلا مكافأة للمطيعين ومجازاة للعاصين).

لا سيما: إذا كان له كرم عظيم يقتضي الإحسان، وعزة عظيمة تقتضي الغيرة، وهذه الدار لا تفي بعشر معشار عشير ذلك الكرم وتلك العزة.

لا سيما: إذا كانت له رحمة واسعة تقتضي فضلاً يليق بسعة رحمته، وله جلال يقتضي

تربية من يستخف به ولا يوقره .

لا سيما : إذا كانت له حكمة عالية تقتضي حماية شأن سلطنته ، برحمة الملتجئين إلى جناحه ، وتقتضي المحافظة على حشمة مالكيته بمحافظة حقوق رعيته .

لا سيما : إذا كانت له خزائن مشحونة ، وكرم مطلق ، وهذا يقتضي دار ضيافة دائمة ووجود ضيفان على الدوام .

وكيف وله كمالات تقتضي التشهير بالمجرمين .

وكيف وله جمال بلا مثل، ولطائف حسن بلا نظير، وهذا يقتضي إشهاداً ومشاهدين، ومشتاقين متحيرين ، إذ الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل .

لا سيما : ومشاهد آثار سلطانه تدل على أنه في نهاية العظمة .

أنظر إلى رعيته فكأنما اجتمعوا في منزل سفر ، يملأ ويفرغ كل يوم ، وكأنما حضروا في ميدان امتحان يتبدل كل وقت ، وهـا هم توقفوا ليشهدوا غرائب صنعة الملك ، فهذا كله يقتضي بالضرورة أن يوجد خلف هذا المنزل والميدان والمشهد داراً دائمة ، مليئة مشحونة بأجود مما رأوا خلال السفر .

لا سيما : إذا كان الملك في نهاية الدقة في صفة الحاكمية ، فهو يكتب ويستكتب أدنى حاجة وأهون عمل وأقل خدمة ، ويأمر بأخذ صورة كل ما يجري في ملكه ، ويستحفظ كل فعل وعمل ، فهذا الحفظ يقتضي المحاسبة ، وخاصة في أعظم الأعمال من رعيته .

لا سيما : إذا كان الملك قد وعد وأوعد مكرراً بما إيجاده عليه هيّن يسير ، ووجوده للرعية في نهاية الأهمية ، فخلف الوعد غاية في البعد عن العزة والاقتدار .

لا سيما : إذا أخبر كل رسول للملك أنه أعد للمطيعين والعاصين دار مكافأة وجزاء ، وأنه يَعِدُ وعداً قوياً ، ويوعد وعيداً شديداً ، وهو أجلّ وأعز منه أن يذل ويتنزل بخلف الوعد ، والمخبرون متواترون وهذه السلطنة العظيمة لا تقوم على هذه الأمور الزائلة الواهية المتبدلة السيالة فقط .

لا سيما : إذا أظهر الملك في المنازل الزائلة ، والميادين الهائلة آثار حكمة باهرة ، وعناية طاهرة ، وعدالة عالية ، بحيث يعرف باليقين من له بصيرة أنه لا يمكن أن يوجد

أكمل من حكمته وعنايته ورحمته وعدالته ، فلو لم يكن في دائرة مملكته أماكن دائمة خالدة للزم إنكار هذه الحكمة المشهودة ، وإنكار هذه الرحمة الظاهرة ، وإنكار هذه العدالة المنظورة .

لا سيما : والكرم بلا نهاية يقتضي الامتنان والتنعيم بلا نهاية ، وهما يقتضيان قبول المنة والتنعم بلا نهاية ، وهما يقتضيان دوام وجود الشخص المكرَّم ليقابل دوام التنعم بشكر المنة الدائمة وإلا لصار المنعَم عليه يتنغص ليتذكر الزوال الأبدي .

. . . . .

إن الحقائق المستقرة الثابتة أن صاحب الجمال يحب أن يُشاهد جماله وينظر إلى محاسنه ، فالحسن والجمال يقتضيان الشهود والإشهاد .

إن هذا العالم كما يستلزم صانعه بالقطع واليقين ، فصانعه يستلزم الآخرة بلا شك ولا ريب .

. . . . .

لا سيما : وأن مالك هذا العالم يجيب الملهوف المستغيث ، والداعي المستجير ، وأنه يسمع أخفى نداء من أخفى خلق . فهذا يقتضي أن تسعف أعظم حاجة من أعظم عباده وأحب خلقه إليه .

خاصة إذا أمّن على دعاء ذلك الحبيب جميع الخلق بألسنة الأقوال والأحوال .

وأي حاجة أعظم من الخلود .

خاصة إذا كانت تلك الحاجة كلمح البصر ، سهلة يسيرة على المالك الكريم .

خاصة إذا تضرع ذلك الحبيب بأنواع التضرعات الحزينة ، متذللا بأنواع الافتقارات ، متحببا بأنواع العبادات ، وقد اصطف خلفه مؤتمين به ، مؤمّنين على دعائه الأنبياء والأولياء والأصفياء ، والطلب الجنة والبقاء ، والسعادة الأبدية والرضا ، قبل أن يكون هذا كان

لا بد أن يتفطن الإنسان أن هذه الدنيا ليست بذاتها ولذاتهـا ، بل هي منزل يملأ ويفرغ ، وساكنوها مسافرون يدعوهم رب كريم إلى دار السلام، وأن هذه الزينة فيها ليست للذة والنزهة فقط بدليل أنها تلذك آناً ، ثم تؤلمك بفراقها أزمانـاً ، وتذيقك لتفتح شهيتك ولكنها لا تشبعك لقصر عمرها أو لقصر عمرك ، فهي للعبرة والشكر ، وهي للشوق إلى الأصول الدائمة ، والغايات العلوية ، وأن ما فيها من الزينة صور لما ادخره الرحمن في الجنان لأهل الإيمان، وأن هذه الفانيات اجتمعت اجتماعاً قصيراً لتؤخذ صورها وتماثيلها ومعانيها ونتائجها نماذج فينسج منها مناظر دائمة لأهل الأبد ، فيختار منها صانعها ما يشاء لأهل البقاء وقد فعل .

. . . . . .

انظر من كلمات القدرة إلى هذه الزهرة التي تنظر إلينا في وقت قصير . ثم تفنى تراها كالكلمة التي تزول وتترك في الآذان صدى لآلاف مثلها ، وفي العقول كذلك من معانيها . إذ هي وقت تمام وظيفتها تبقى وتودع في حافظتنا وفي حافظة كل من رآها الشهادة ، وفي بذورها صورها ومعانيها، حتى كأن بذورها وعقولنا لمجرد حفظ زينتها وصورتها، وكأنها منازل لبقائها ، وقس على هذه الزهرة ما فوقها وفوق ما فوقها من ذوي الأرواح الباقيـة تجد أن الإنسان ليس سدى يسرح كيف يشاء ، بل تؤخذ صور أعماله وتكتب وتحفظ ليحاسب ، إن تخريب الخريف لجمال الربيع إنمـــا هو ترخيص بتمام الوظيفة ، واستعداد لوفود وفود جديدة، وتحضير لمجيء مصنوعات موظفات، وتنبيه من الغفلات والسكرات ، أن لصانع هذا العالم عالماً آخر يسوق إليه عباده ويشوقهم إليه ، وأنه قد أعد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

. . . . . .

انظر إلى حافظة البشر ، وثمرة الشجر ، ونواة الثمر ، وبذر الزهر ، لتفهم عظمـة إحاطة اسم الله الحفيظ حتى في الحائل الزائل ؛ وقس على هذا ما يجري في العوالم الغيبية لتعلم أن لصاحب هذا العالم اهتماماً عظيماً بانضباط مـــا يجري في ملكه ، وأن له نهاية الكمال في حاكميته ، وأن ربوبيته على خلقه تامة ، فهذا كله يصرح أنه لا بد من حساب ، وإلا لماذا تحفظ الأعمال والأفعال والأقوال .

إن هذا كله يستلزم المحاسبة، خاصة لأعظم الأعمـــال ، من أكرم المخلوقات وأشرفها الإنسان، لأن الإنسان كالشاهد على شؤون الربوبية ، وكالدلال على الوحدانية، وكالمشاهد لتسبيح الوجود .

« أيحسب الانسان أن يترك سدى » .

كلا بل سيحاسب على السبد واللبد ، وسيذهب إلى الحشر ليتقرر مصيره إلى الأبد وما الحشر والقيامة بالنسبة إلى قدرة الله إلا كالربيع بعد الخريف

إن كل ما يقع معجزات قدرته ، وكلها تشهد على قدرته مستقبلا وما لا .

. . . . . .

ليس إيجاد الحشر بانقلاباته وما فيه بأعسر عليه من إيجاد الربيع بتحولاته وجناتــه « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيــه ومن أصدق من الله حديثاً » كيف لا يصدق حديث من هــذه الموجودات كلماته الصادقة ، وهذه الـكائنات آياته الناطقــة .

. . . . . .

لقد أخبر كل من ذهب من الظاهر إلى الحقيقة ، من ذوي الأرواح النيرة ، والقلوب المنوّرة والعقول النورانية ، ودخل في حضرة قربه سبحانه، أنه أعد للمطيعين والعاصين دار مكافأة وجزاء .

تأمل في كيفية إحياء الأرض في الحشر الربيعي كي ترى قريباً من ثلاث مائة ألف حشر ونشر، بكمال الانتظام في مقدار ستة أيام، وبكمال الامتياز والتشخيص مع غاية إختلاط تلك الأموات غير المحصورة ، مشتبكة منتشرة متداخلة في صحيفة الأرض ، فمن يفعــل هذا كيف يؤوده شيء، وكيف لا يخلق السموات والأرض في ستة أيام، وكيف لا يكون حشر الإنسان كلمح البصر بالنسبة إليه . من يكتب ثلاث مائة ألف كتاب قد انمحت حروفها في صحيفة واحدة معــاً ، بلا خلط ولا غلط ولا مرج ولا مزج كيف يعجز عن استنساخ كتاب هو ألفه أولاً ثم محاه .

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو

على كل شيء قدير ».

. . . . . .

يا من رافقني بفهمه من أول المسألة إلى هنا ، لا تظنن انحصار الدلائل فيما سبق كلا ، بل يشير القرآن الحكيم إلى ما لا يعد ولا يحصى من أمارات ، ان خالقنا سينقلنا من هذا المشهد المؤقت إلى مقر سلطنته الدائمة كما لوّح القرآن إلى ما لا يحد ولا يستقصى من علامات على أنه جل جلاله سيبدل هـــذه المملكة السيارة القابلة للفناء بتلك المملكة المستمرة السرمدية . اه

وبعد :

- ٢ -

ما من شيء في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام استبعده الناس واستغربوه وأنكروه واستهزءوا به كالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ، فترى أجيال الكافرين جيلا بعد جيــل مصرة على هذا الإنكار . وقد عرض علينا القرآن نماذج من هذا الإنــكار :

« وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ».

« أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد » .

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » .

« وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا » .

« ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا » .

« أيَعِدُكم أنكم إذا مِتـّـم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مُخرجون ، هيهاتَ هيهاتَ لما توعدون ، إن هي إلا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجـــل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين » .

« بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » .

« بل كذبوا بالساعة » .

« بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون » .

« وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون » .

« وقالوا إنْ هـــذا إلا سحر مبين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » .

« كلا بل لا يخافون الآخرة » .

لقد استبعدوا الموضوع لأن مقدماته القريبة والظاهرة لا تدل عليه كما يستبعد العامي رقماً حسابياً ضخماً بداياته صغيرة جداً .

قالوا : لمّا اخترع صاحب الشطرنج الشّطرنج ، عُرض عليه أن يطلب مكافأة ، فقال : مكافأتي أن تضع في البيت الأول من بيوت الشطرنج حبة قمح ، ثم تضع في الثانية ضعفها ، ثم في الثالثة ضعف ما وضعت في الثانية ، وفي الرابعة ضعف ما وضعت في الثالثة ، وهكذا حتى تتم بيوت الشطرنج الأربعة والستون وتصور ملكه . إن هذا طلب بسيط يكفي فيه رطل من القمح ولكن عندما حسبت تبين أن قمح العالم كله يومذاك لا يكفي ولا لسنوات لإتمام العملية .

وقالوا : لو أخذنا ورقة سيجارة وقسمناه ووضعنا الناتج فوق بعضه ثم قسمنا الناتج ووضعناه فوق بعضه ثم قسمنا الناتج ووضعناه فوق بعضه وكررنا العملية ٤٨ مرة فإن سمك الناتج يكون من الأرض إلى القمر ولكنك لو سألت أمياً عن الناتج لأجابك أن سمك الناتج خمسة سنتميترات أو عشرة أو خمسة عشر أو متراً أو مترين ، أما أن تكون النتيجة كذلك فهو يراها قبل الدليل أشبه بالخرافات .

المسألة بالنسبة لليوم الآخر هكذا عندما يدرسها الإنسان من مقدماتها القريبة يراهـا غير متوقعة ولكن عندما ينظر إليها نظرة شاملة يراها كالنتيجة الرياضية لا تتخلف ولا يطرأ عليها الشك .

فلننظر إلى المسألة نظرة شاملة :

إن المسألة بكل بساطة هي ما يلي :

١ ـ ان الله عز وجل موجود وقد رأينا دليل ذلك في البحث الأول (الله) .

٢ ـ والله عز وجل عليم وقد رأينا دليل ذلك .

٣ ـ والله عز وجل قادر وقد رأينا دليل ذلك .

٤ ـ والله عز وجل مريد وقد رأينا دليل ذلك .

٥ ـ والله عز وجل عادل وقد رأينا دليل ذلك .

٦ ـ والله عز وجل منتقم وقد رأينا دليل ذلك .

٧ ـ والله عز وجل كريم ومنعم وقد رأينا دليل ذلك .

فهذا الإله القادر الذي خلق السموات والأرض لا يعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية، وهذا الإله العليم بكل شيء لا تعزب عنه ذرات الإنسان إذا أراد جمعها ، وهـذا الإله العادل أعلم بكيفية الجمع الذي لا يكون معه ظلم ، ومقتضى عدله أن يحاسب الإنسان ، لأنه سخر له كل شيء ، ومقتضى عدله أن لا يكون من أحسن كمن أساء ، ومقتضى عدله أن يقتص للمظلوم من الظالم .

وهذا الإله المنتقم مقتضى انتقامه أن ينتقم ممن حاربوه وآذوا رسله ولم يطيعوه،وهذا الإله الكريم المنعم مقتضى إنعامه أن يحسن لمن أحسن وأطاع ووالى أولياء الله في الدنيا.

وأخيراً هذا الإله الفعال لما يريد،أراد أن تكون المسألة بالنسبة للإنسان من المخلوقات الظاهرة ، والجان من المخلوقات الغيبية هكذا ، ولا يُسئل عما شاء وعما أراد،لأن عظمته وجلال شأنه أكبر من أن تحاسَب ، بل هي تحاسب من شاءت .

ثم ان رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه كلهم أخبروا الإنسان أن أمامه بعثا ثانياً وحياة ثانية دائمة وجنة أو ناراً هؤلاء الرسل الذين قامت الأدلة الكاملة على صدقهم قد أخبرونا عن الله ذلك فلم يبق أمام الإنسان إلا أن يكيف سلوكه تبعاً لذلك .

وقد ناقش الله في القرآن منكري اليوم الآخر نقاشاً طويلا وأقام عليهم الحجة بـــه فلنعرض نماذج من نقاش القرآن لهؤلاء .

- ٣ -

أ ـ قال تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالمِ الغيب لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم،

والذين سعَوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رِجْزٍ أليم، ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحقَ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد» .

ردت هذه الآيات على المنكرين بما يلي :

١ – بينت حكمة الساعة وأنها لإثابة المحسن ، وتعذيب الذين حاربوا الله ورسوله وصدوا عن سبيله .

٢ – أشارت إلى أن الله الذي لا يعزب عن علمه شيء هو الذي أراد هذا .

٣ – القرآن حق يعلم هذا كل من عنده علم ، وكون القرآن حقاً وقد أخبر بها فذلك دليل على أنها آتية .

ب – « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزّقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد افترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد، أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » .

١ – لفتتهم هذه الآيات إلى المخبر لهم عن الساعة وهو محمد عليه الصلاة والسلام وسألتهم هل هو كذاب على الله أو مجنون ؟ فإن لم يكن لا هذا ولا ذاك فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الضالون .

٢ – لفتتهم إلى قدرة الله في السماء والأرض وما يمكن أن يحدث فيهما بقدرته، وبينت أن الذي يعرف قدرة الله في خلقه يجد ذلك آية على أن الله قادر على إقامة الساعة

ج – « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرُ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفّى ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور »

عالجت الآيات شك الشاكين بما يلي :

١ – لفتتهم إلى نشأتهم كيف أنهم كانوا تراباً ثم صار التراب غذاءاً ومن الغذاء تكوّن المني ثم كان اللقاح ثم بـــدأ تطور الجنين حتى ولد طفلاً ثم كبر ثم عجز ، فالله الذي نقل الإنسان من طور إلى طور حتى أوصله إلى ما وصل إليه ، هــل يعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية دفعة واحدة .

٢ – لفتتهم الآية إلى النبات الذي يجف حتى يموت كيف يحييه الله عز وجل مرة ثانية ، فالله الذي فعل هذا أيعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية .

إن الله الذي فعل هذا وهذا قادر على أن يبعث الناس جميعاً مرة أخرى فلا مجـــال للشك إذن بقيام الساعة .

د – « أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذي خلق السموات والارض بقـــادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه تُرجعون » .

١ – لفتت الآيات الإنسان إلى موقفه الشائن حيث يقف خصماً لله الذي خلقه من هذه النطفة الحقيرة .

٢ – ومن خصومة الإنسان لله استبعاده أن يخلقه الله مرة ثانية ، مع أنه لو تذكر كيف خلقه الله أول مرة لم يستبعد أن يخلقه مرة ثانية .

٣ – الله الذي خلق كل شيء للإنسان لا ينبغي للإنسان أن يقف منه هذا الموقف .

٤ – الله الذي خلق السموات والارض ، والذي يخلق بمجرد الإرادة والأمر ، أليس قادراً على أن يخلق مثل الإنسان ، والذي يقدر على هذا كيف يستبعد منه إعادة الإنسان ؟ .

هـ – « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

أشارت الآية إلى أن الذين ينكرون البعث إنما يكفرون في الحقيقة بالله ، إذ لو كانوا يعرفون الله حق المعرفة لما أنكروا الساعة والقيامة ، وإنه لعجب أن ينكر الإنسان

البعث وهو يعرف الله ويعرف قدرته .

و — « لَخَلْقُ السموات والأرض أكبر من خلقِ الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الذي يعرف شيئاً عن سعة الأجرام السماوية ، وعن هذا الفضاء الكبير ، يعرف أن خلق الناس بالنسبة إلى ذلك أمر بسيط . فإنكار الإنسان لليوم الآخر شيء عجيب مع قيام الحجة ، إن الله هو خالق السموات والأرض .

ز — « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » .

إن الإنسان عندما يتصور أنه غير راجع إلى الله ، وأنه غير محاسب ، وأنه يعمل ما يريد فعله في هذه الحياة ثم يمضي إلى غير رجعة ، إن هذا الإنسان عندما يتصور هذا التصور ، إنما يحكم على الأشياء كلها وعلى ذاته خاصة بأنها مخلوقة للعبث واللهو . لا لحكمة ، وهو بذلك يتهم الذات الإلهية أو ينكرها ، والحقيقة خلاف هذا وهذا ، والله عز وجل منزه عن هذا وهذا ، بل خَلَقَ الإنسان لحكمة ، وسيحاسبه على أفعاله كلها .

ح — « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » .

إن الانسان الذي أعطى الوجود كله « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما الأرض » . لا يعامل كما يعامل التراب وأمثاله ، فهو سيطالب بقدر ما أعطي ويحاسب ، وهذا منطق الوجود كله ، على قدر ما تعطى تطالب ، فلن يترك الإنسان وقد أعطي ما أعطي مهملاً ، بل سيحاسب على كل صغيرة وكبيرة من قبل ربه عز وجل ، والله الذي خلقه من نطفة ثم طوّره قادر على أن يعيده مرة ثانية ليحاسبه .

ط — « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » .

ردت الآية على عجبهم من إعادتهم بعد أن يكونوا ترابا بعلم الله الذي يعلم كل شيء ، فيعلم ذراتهم إلى أي شيء تؤول ، وما دامت المسألة كذلك فكيف يكون عجب ، بل العجب من تصورهم أن الله ذا الجلال والكمال لا يقدر على إعادتهم .

ي - « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يَكْبُرُ في صدوركم فسيقولون من يعيدنا ، قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً » .

استبعدوا أن إذا صاروا تراباً أن يبعثوا ، فقال لهـــم كونوا بعد موتكم أكثر من تراب : حجارة أو حديداً أو أي شيء تتصورونه كبيراً : هواءاً أو غازات أو نباتاً أو في أجسام أخرى أو... فالذي خلقكم أول مرة وفيكم ذرات الحديد والذهب والفحم هو الذي سيعيدكم مرة أخرى .

ك - « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

إن الله وعد - وإذا وعد لا يخلف الميعاد - أن يقيم الساعـــة ، ويبعث الأموات ، والحكمة في ذلك كي يبين للنـــاس الحق فيما اختلفوا فيه ، وليبين للناس أن الرسل كانوا صادقين ، وأن الذين كذبوهم هم الكاذبون ؛ وليس ذلك يصعب على الله الذي يقول للشيء كن فيكون . هذه هي الحقيقة ولو جهلها أكثر الناس .

. . . . . .

هذه نماذج من نقاش القرآن للكافرين في قضية البعث ، والقرآن مليء بمثل هذا، فقضية اليوم الآخر تعدل قضية الإيمان بالله في ميزان القرآن ، لذلك كثيراً ما تقترنان، وما وصف الرسل بأنهم مبشرون ومنذرون إلا من أجلها، هذه مهمتهم الأساسية أن يبشروا المؤمنين بجنة الله ، وينذروا المكذبين بنار الله . المؤمنون عرفوا الرسل وصدقوهم وقالوا :

« ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا مـــا وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » .

والكافرون حاربوا الرسل وآذوهم وعذبوهم وصدوا عن صراط الله عز وجل وقالوا :

« ما أنزَلَ الله على بشر من شيء » .

فاستحق كل من الطرفين جزاء عمله :

« إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجـار لفي جحيم يصلونها يوم الدين ومـا هم عنها بغائبين ، وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » .

هذا هو المؤيد الأعظم لرسل الله ، وهذا هو المؤيد الأعظم للاسلام ، إن مشيت في طريق الإسلام فلك الجنة ، وإن مشيت في طريق الضلال فلك النار ، وقبل الجنة والنار نعيم وأهوال أخبر عن ذلك كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأخبر عن ذلك كل رسول لله وفصّل هذا كله محمد رسول الله وخاتم النبيين .

— ٤ —

فالله عز وجل جعل الحياة بالنسبة للإنس والجن حياتين : الحياة الدنيا ، والحيـاة الآخرة ، وجعل الحياة الآخرة هي المقر ، وجعل الحياة الدنيا هي الممر . قال ابن مسعود (مالي وللدنيا ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) .

وفي الأثر (كن في الدنيا كغريب أو عابر سبيل) .

فالدنيا ليست دار قرار للإنسان، وكل ما فيها تافه وحقير إذا قيس بالآخرة ، كما أنها فانية والآخرة باقية ، ومجنون من يفضل فانياً تافهاً على باق عظيم ، ولكن الإنسان في هذا الموضوع كالطفل الذي يفضل الغريب المألوف على أبيه وأمه القريبين الغائبين يفضل الأدنى على الأعلى ، والعاجلة على الآجلة ، لأن العاجلة الأدنى هو منها على تماس ، أما الآجلة الأعلى فهو منها على موعد ، ولو عقل لعرف أن موعداً من الله وعلى لسان رسوله أوثق إلى مـا لا يتناهى مما هو في اليد ، لأن ما في اليد من الله ونافد ، ومـا عند الله حاصل وباق :

« ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » .

« كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة، وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يُفعَلَ بها فاقرة » .

ولذلك أكثرَ الله عز وجل وأكثر رسوله من ضرب الأمثال على حقارة الدنيا وفنائها، وجلال الآخرة وبقائها ، ليعقل من عقل ، ويبقى سادراً في جنونه من جن ، وأي جنون أكبر من الغفلة عن نعيم الآخرة وشقائها :

قال عليه الصلاة والسلام : (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه وأشار – يحيا – بالسبابة في اليم فلينظر بم يرجع) مسلم والترمذي .

(ومر عليه الصلاة والسلام بالسوق داخلاً من بعض العوالي والناس كنفتيه فمر بجدي ميت أسك فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ قالوا ما نحب أنه لنا بلا شيء وما نصنع به ؟ إنه لو كان حياً كان عيباً به أنه أسك قال : فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم) مسلم وأبو داوود .

وقال عليه السلام (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم) الترمذي .

وقال تعالى : « يا أيها الناس إنما بغيُكُم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ، إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

وقال : « وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع » أي متعة لا تدوم .

وقال : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً » .

وقال : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

والحيوان مصدر حيي أي لهي دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت فيها .

وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال

الأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي لآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

ولكن هذه الحقيقة لا يستفيق عليها في الدنيا إلا المؤمنون لذلك تصبح الدنيا بالنسبة لهم سجناً ينتظرون الخروج منه ، أما الكافرون فيعتبرونها جنة يتمنون البقاء فيه :

يقول عليه السلام : (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) مسلم والترمذي .

ويستفيق على هذه الحقيقة في الآخرة الكافرون :

« يوم يُنفَخُ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ، يتخافتون بينهم ، إن لبثتم إلا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلُهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً » .

« قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين ، قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون » .

ولهذا كله لا يعتبر إنسان في ميزان الله عالماً ولو عرف هذا الكون كله إلا إذا عرف الآخرة وآمن بها وعرف أنها خير من الدنيا :

« وقال الذين أوتوا العلم وَيْلَكُمْ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلَقّاها إلا الصابرون » .

« وَعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ، أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض وعَمَروها أكثرَ مما عَمَروها وجاءتهم رسلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمَهُم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ومن رأى الأهرام وآثار بعلبك وتَدْمر رأى آثار عمارة الماضين للأرض .

« فأعرِضْ عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » .

هؤلاء الذين لا يعرفون الآخرة ، ولا يريدونها وقد قصروا همتهم على الدنيا ، سينالهم من عذاب الآخرة النصيب الأوفى :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب » .

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

والفارق بين مريد الدنيا ، ومريد الآخرة كبير جداً ، يظهر في الاعتقاد ، وفي يقظة القلب ، وفي السلوك . فطالب الآخرة يفضلها على الدنيا اعتقاداً وشعوراً ، ويقدم أعمالها على أعمال الدنيا ، ويجعل أعمال الدنيا وسيلة تقربة من رضوان الله في الدنيا والآخرة ، فإذا تعارضت صلاته مع عمله قدم صلاته ، وإذا عمل عمل بنية وجه الله فهو وأعماله على صراط الله الموصل إلى الجنة .

(رحم الله عبد الله بن رواحة كان أينما أدركته الصلاة أناخ) .

— ٥ —

إذن هناك دنيا وأخرى ، والحد الفاصل بينهما قيام الساعة ، فبقيام الساعة تنتهي الدنيا وتبدأ الآخرة ، هذه الساعة التي هي الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة متى تكون؟ إن الله عز وجل قد عمى خبرها فلم يخبر به أحداً :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفيٌ عنها ، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

فهي إذن لا تأتي إلا بغتة ، غير أن لها علامات تدل على قربها ، وعندما نقول قربها نعني قربها النسبي ، أي بالنسبة لما هو عند الله ، أو بالنسبة لعمر الكون . قال تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » وقال : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » .

ومن أشراطها بعثة الرسول ﷺ روى البخاري عن رسول الله ﷺ قوله (بعثت أنا والساعة كهاتين يعني أصبعيه) .

وعلامات الساعة كثيرة وكل علامة من علاماتها شرط لوجودها، فما لم تظهر العلامات كلها لا تقوم الساعة وقد أشار الرسول ﷺ إلى كثير من هـذه العلامات وأشار القرآن إلى بعضها ، وبعض ما أشار إليه الرسول ﷺ وقع كما رأينا في بحث النبوءات من الكتاب الثاني / الرسول / وبعضها لم يقع، والذي لم يقع حتى الآن كثير مما يدل على أن بيننا وبينها بعداً نسبياً أي بُعْدٌ بالنسبة للزمن في حسابنا ، أما بالنسبة لعمر الكون أو للذات الإلهية فذلك قريب «وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون» . وبعض الأشراط وهي التي تسمى العلامات الكبرى تكون قبل قيام الساعة بقليل وهي مقدمات ضخمة بين يدي ذلك الحدث الضخم .

ونحن سنستعرض بعضاً من هذه الأشراط مبتدئين بالأشراط التي أشار إليها القرآن :

أ - ب - روى مسلم وأبو داود عن رسول الله ﷺ : (أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً) .

قال تعالى : « هـل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبـل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون » . وقـد فسر الرسول ﷺ آخر هذه الآية في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان من المسلمين يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحـدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج - وهو القتل - وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي عرض عليه لا أرب لي فيه ، وحتى يتطاول الناس بالبنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربهـا ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانهـا خيراً » فلتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعـة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها) .

وفي بعض روايات هذا الحديث يذكر أنه لا تقوم الساعة (... وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً) وواضح أن هذا العرض الطويل لما يكون قبل الساعة قسم منه قد رأيناه ومضى ، وقسم هو الآن في بداياته ، وقسم لم يأت دوره بعد .

قال تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » ولم يرد في نص صحيح وصف لهذه الدابة إلا ما ورد في حديث تميم الداري في وصف دابة هي الجساسة / دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره / يقول العلماء إنها هي نفس الدابة . وإنما الوارد عن رسول الله قضية خروجها :

روى أحمد بإسناد رجاله رجال الصحيح ما عدا واحداً هو ثقة عن رسول الله ﷺ :

(تخرج الدابة فتسِم الناس على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير فيقول ممن اشتريته فيقول : اشتريته من أحد المخطمين) .

وللطبراني في الأوسط بإسناد رجاله ثقات عن رسول الله ﷺ :

(تخرج الدابة من أعظم المساجد فبينما هم كذلك إذ تصدعت) وأعظم المساجد المسجد الحرام .

ب ـ د ـ هـ ـ نزول المسيح وخروج الدجال وفتح يأجوج ومأجوج :

قال تعالى عن المسيح : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » .

وقال : « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها » .

وقال عن يأجوج ومأجوج : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق » .

وأما الدجال فقد ورد فيه أكثر من سبعين حديثاً فحديثه متوافر من أنكره لا شك كفر ، ومرتبط موضوعه بنزول المسيح عليه السلام إذ أن المسيح هو الذي يقتله .

والمسيح والدجال ويأجوج ومأجوج في زمن واحد تقريباً وليس بين الساعة وهذه الأحداث إلا سنوات معدودات .

ولعل أغمض موضوع هنا هو موضوع يأجوج ومأجوج لكثرة الأحاديث الموضوعة ، والأوهام الكثيرة التي أحاطت بهم ، والحق في ذلك أنهما أمتان من بني آدم كثير عددهما ، موجودتان على الأرض ، لا نستطيع تعيينهما ، ولا تعيين محلهما ، اكتساحهم للمنطقة

العربية ، ودخولهم إلى فلسطين من علامات الساعة . أما ما يذكر من أنهم يحاولون يومياً فتح سدهم ولا يقدرون . فالحديث غريب وفي رفع متنه نكارة كما ذكر المحدثون . أمـــا كون الآية ذكرت فتح سدهم وقرب الساعة فقد رأينا أن الساعة اقتربت منذ زمن رسول الله ﷺ وذهب بعضهم إلى أن سدهم المقصود به سد الصين العظيم [1] ، وبعضهم ذهب إلى غير ذلك وبعضهم ذهب إلى أنهما التتار والمغول ، وبعضهم الى أنه الجنس الآري كله بمـــا في ذلك الشعوب الأوروبية الحالية ، وليس في ذلك كله ما يصلح للقطع غير أن هناك حديثين صحيحين يعطياننا بعض الفهم للأمر : روى الشيخان عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قـــد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليهـا فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال : نعم إذا كثر الخبث) .

وأول شر أصيب بـه العرب كان على يد التتار والمغول ، فكأن ما أصيب به العرب يومذاك هو بداية الدفعة الأولى لخروج يأجوج ومأجوج هذا إذا صح فهمنا للحديث .

وفي الحديث الحسن الصحيح الآخر :

(أن النبي ﷺ لما نزلت : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم » .. الآية قال : أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : ذلك يوم ينادي الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول يا آدم : ابعث بعث النار فيقول : أي رب وما بعث النار فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة ، فلما رأى الذي بأصحابه قال : اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس فسري عن القوم بعض الذي يجدون قال : اعملوا وابشروا فوالذي نفس محمد بيده مـا أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة) .

من هذا الحديث نفهم أن يأجوج ومأجوج يشكلان نسبة كبيرة من سكان الأرض ، مما دعا البعض إلى أن يتصور أنهم من العرق الأصفر من صينيين وغيرهم ، أو العرق الأصفر والعرق الآري كله . والأمر بعد ذلك وقبله إلى الله هو أعلم بهم ، كل ما في الأمر أن من

---

(١) يروي بعض من زار الصين من معاصرينا أن الناس هناك حدثوهم أنه يوجد عندهم قبيلتان تسميان: يأجوج ومأجوج وهما موجودتان الآن .

علامات الساعة أن يأجوج ومأجوج ستكتسحان أرضنا حتى فلسطين في زمن المسيح ثم يقضي الله عليهم .

أما الدجال فهو أعظم فتنة تظهر على الأرض منذ خلق الله الخليقة حتى قيام الساعة ، إذ أنه رجل يدّعي الألوهية ، ويظهر الله على يده خوارق عادات تكون بمثابة إشعار للجاهلية بأن لهذا قدرة مطلقة ، فما لم يعتصم الإنسان بالوحي الصادق في شأنه ، والعقل البصير الذي يعرف به جلال الله ، وأنه لا يمكن أن يكون الله هو هـذا الإنسان الأعور الناقص فإن الإنسان يضل .

وهذه بعض نصوص وردت في أمر هذه العلامات الثلاث للساعة :

روى مسلم عن رسول الله (ما من خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال) . وفي رواية (أمر أكبر من الدجال) .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذي عن رسول الله ﷺ : (إن الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينيه عنبة طافئة) وفي رواية (تعلمون أنـه ليس يرى أحد منكم ربه حتى يموت وأنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه من كره عمله) .

وللترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي بكر عن رسول الله ﷺ :

(الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرّقة) حسن غريب .

ولمسلم عن رسول الله ﷺ (يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة) .

ولمسلم والترمذي : (ليفر الناس من الدجال في الجبال قلت يا رسول الله فأين العرب يومئذ قال : هم قليل . وللشيخين عن أبي سعيد (حدثنا النبي ﷺ عن الدجال فكان فيما حدثنا به أن قال : يأتي الدجال وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينتهي إلى بعض السباخ التي بالمدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول اشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون لا فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم فيقول الدجال اقتله فـلا يسلط عليه . وفي رواية بنحوه وفيه قول الرجل : هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ فيأمر به فيشج فيقول خذوه واشبحوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً فيقول : أما تؤمن بي ؟ فيقول : أنت المسيح

الكذاب فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه ثم يمشي الدجال بين قطعتيه ثم يقول له قم فيستوي قائماً ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة ثم يقول يا أيها الناس : إنه لا يفعل بعد بأحد من الناس فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس إنما قذفه الى النار وإنما ألقي في الجنة فقال ﷺ هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين) .

وللشيخين وأبي داود عن حذيفة عن رسول الله ﷺ :

(لأنا أعلم بما مع الدجال منه معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تأجج فأما أدرك أحد فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض ثم ليطأطىء رأسه فيشرب منه فانه ماء بارد وان الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب) .

وللشيخين وأبي داود والترمذي عن رسول الله ﷺ :

(ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب إلا أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك.ف ر) .

ولمسلم وأبي داود والترمذي عن النواس بن سمعان :

ذكر النبي ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم ؟ قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم . إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً . يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله : فما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول : فذاك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال لا أقدروا له قدره . قلنا يا رسول الله : وما إسراعه في الأرض ؟ كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ورأ

وأشبعه ضروعاً وأمده خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان اللؤلؤ . فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه . فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى الى عيسى :

إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي الى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم فيرغب عيسى وأصحابه الى الله جل وعلا ، فيرسل عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة .

ثم يهبط عيسى وأصحابه الى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب عيسى وأصحابه الى الله تعالى . فيرسل طيراً كاعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة . ثم يقال للأرض انبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تاكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك الله في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس . فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن ومسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة .

وفي رواية بعد قوله : لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسيرون حتى ينتهوا الى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون لقد قتلنا من في الأرض فلنقتل من في السماء فيرمون نشابهم الى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماء .

• • • • • •

هذه خمسة علامات من أكبر علامات الساعة وأشراطهـا ، وهناك مئات العلامات الأخرى وردت في السنة ، رأينا نماذج مما وقع منها ، أو يقع الآن في فصل النبوءات من كتاب / الرسول / وبعضها لم يقع وبعض الناس تغلب عليه أغلاط في فهم بعض هـذه العلامات أو في تقدير وقتها .

إذ أن منها ما يكون قرب الساعة بقليل جداً قبل المسيح بسنوات أو معه ، ومنهـا ما يكون قبل ذلك بكثير جداً فيغلطون بالجمع بينها ، ومنها مالا تدل عليه المقدمـات الحاضرة فيغلطون في تأويلها ، ومنها ما جعلهم عصرنا الحاضر ومخترعاته يفهمونهـا فهماً عادياً وهي خوارق ، ومنها ما هو دليل على الخيرية يظنونه مذموماً .

فمثلاً يظن الناس أن الدين إلى انحسار حتى خروج المهدي ، مع أن المهدي قبل عيسى بقليل ، وقبل ذلك يعم الإسلام العالم ، وتفتح روما . والقسطنطينية اليوم مسلمة وكانت كافرة ففتحت ، وقد أخبر الرسول ﷺ بالفتح الأول ولكن يبدو أن القسطنطينية سترجع كافرة مرة ثانية ، وتفتح من جديد ، وفتحها الثاني يكون قبيل المسيح بقليل ، والناس لا يفرقون بين فتحها الأول والثاني ، والظاهر كما أن مدنيات قديمة كثيرة قـد اندرست على مر العصور ، فإن مدنيتنا الحاضرة لن تستمر إذ أن النصوص الكثيرة تفيد أن الناس قبل قيام الساعة لن يكونوا على شيء من العلم ، وهـذا يؤكد أن بيننا وبين القيامة شيئاً من الفترة الزمنية الله أعلم به ولكن أشراطاً كثيرة وردت في السنة الثابتة لم تقع ويبدو أن وقوعها يحتاج إلى زمان طويل والمسألة بعد ذلك كله هكذا :

ما ورد من علامات الساعـة إن كان وقع فهو معجزة وقد رأينا نماذجه في بحث النبوءات ،

وما ورد من علاماتها مما لم يقع فالإيمان به واجب والله أعلم بزمان وظروف وكيفية وقوعه .

ولن تقوم الساعة حتى تستنفد علاماتها وأشراطها التي وردت في الكتاب والسنة وشيء ننبه إليه هو ألا يدفعنا واقع عصرنا إلى تأويل شيء من علامات الساعـة التي لم تقع لأن واقع عصرنا وما فيه قد ينتهي بحرب ذرية تعود الإنسانية فيها الى بدايتها الأولى ولا يبقى فيها إلا الجاهلون .

رأينا أن هناك دنيا وأخرى وأن الحد الفاصل بينهما هو قيام الساعة ورأينا شيئاً من أشراط الساعة والآن نحب أن نذكر هنا ما هو وضع الإنسان قبل الساعة وبعد الموت ؟

نريد أولاً وقبل الجواب عن السؤال الآنف أن نشير الى نواح :

أ — العوالم التي يمر بها الإنسان هي :

١ — عالم البطن .

٢ — عالم الحياة الدنيا .

٣ — عالم البرزخ وهو عالم ما بعد الموت .

٤ — عالم اليوم الآخر وهو عالم ما بعد الساعة .

وكل عالم لاحق أوسع من العالم السابق ويختلف عنه نوع اختلاف ، وتختلف كذلك القوانين التي تنطبق عليه . فالإنسان في بطن أمه لا يتنفس ولا يأكل من فيه ويكون في الغالب رأسه إلى الأسفل على عكس ما يكون في الحياة الدنيا ، والحياة الدنيا أوسع من البطن للإنسان ، وعالم البرزخ أوسع من عالم الدنيا لأنه جزء من الآخرة ، وعالم الآخرة أوسع العوالم على اعتبار أن الإنسان فيه يكشف له عالم الغيب ويعيش فيه .

وعالم الحياة الدنيا يرى فيه الإنسان صورة مصغرة عن عالم البرزخ في النوم ، وفي عالم البرزخ يستشرف الإنسان على الآخرة ، فكل عالم يعيش فيه الإنسان يكون مقدمة لغيره ، ويرى الإنسان فيه صورة مصغرة عنه

وبحثنا هنا له علاقة بعالم البرزخ ، وهو عالم ما بعد الحياة الدنيا وما قبل الآخرة : إننا نأخذ صورة مصغرة عن هذا العالم فى الحياة الدنيا أثناء نومنا . ففي النوم نرى أنفسنا نتعذب أو ننعم أو نجوع أو نعرى أو نَضرِب أو نُضرَب وقد يظهر آثار ذلك على الجسم كما تواترت بذلك حوادث هذا الذي نشاهده في النوم شبيه بما نراه أمامنا بعد الموت ولكن بصورة أخرى أكثر وضوحاً ، وفي حالة يكون ارتباط الروح بالجسد فيها مختلفاً وأكثر ضعفاً ، ولكن ليس مثل عالم الرؤيا يوضح لنا عالم البرزخ ، ولذلك وجد أكثر من نص عبّر عن النوم بلفظ الموت ، أو شبه به من أجل ذلك قوله عليه السلام (النوم أخو الموت) .

ب – مر معنا في بحث / الرسول / ﷺ معان كلهـــا تشير إلى عالم الروح كظاهرة الأحلام والتنويم المغناطيسي والتلباثي وما إلى ذلك ،وأكدنا هناك إلى أن المصدر الوحيد الذي يجوز أن نتلقى منه ما له علاقة بعالم الغيب خاصة هو رسول الله ﷺ إذ هو المصدر الوحيد الثقة المعصوم عن الخطأ في هذا الموضوع وغيره « ما زاغ البصر وما طغى لقـد رأى من آيات ربه الكبرى أفتمارونه على ما يرى » .

« وما هو على الغيب بضنين » أي بمتهم .

والذي نريد أن نذكره هنا هو أنه لما كانت عوالم الغيب جزءاً من العقيدة فلا بـــد أثناء الحديث عنها من الاحتياط الكثير ، فلا نورد نصاً إلا إذا صحت نسبته لرسول الله ﷺ صحة كاملة .

جـ – كنا ذكرنا سابقاً أنه لا مانع من أن يجتمع في القضية الواحدة سببان : أحدهما حسي ، والآخر غيبي ، وإثبات أحدهما لا يعني نفي الآخر ،والجميع بقدرة الله عز وجل ، وإثبات هذا كذلك لا يعني نفي السببين ، وأكثر ما يتجلى هـــذا في الموت . فقد يكون الموت سبب حسي هو المرض ، وله حتماً سبب غيبي هو سحب الروح من الإنسان بواسطة الملك ، وهذا وهذا بقدرة الله .

« قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » « توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .

« الله يتوفى الأنفس حين موتها » .

د – المسألة بالنسبة لعالم الغيب تختلف منهـــا عن عالم الشهادة . فالأشياء التي تتصور غريبة بالنسبة لنا في عالم الشهادة نتيجة للقوانين التي تحكمنا تصبح عادية في عالم الغيب ، فإذا تصورنا طبيباً لا يستوعب إلا مريضاً ، فلا يخطرن بالبال أن ملكاً لا يستوعب إلا إنساناًواحداً ، هذا جهل بعالم الغيب لا يقول به إلا إنسان ما عرف عالم الغيب .

إن قدرة الله مطلقة ، وإذا سلط مخلوقاً على شيء استوعبه ، وعالم الغيب عالم عجيب لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا بواسطة الوحي الصادق،وليس لنا معه إلا الإيمان والتصديق ، دون القياس والتجريب ، لأن المسألة خارجة عن قوانين عالمنا الحسي .

. . . .

بعد هذه المقدمة ننقل بعض النصوص الواردة عما له علاقة بالإنسان من الموت إلى الساعة :

أ - روى مسلم وأصحاب السنن عن أم سلمة :

(دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال : إن الروح إذا قبض تبعه البصر . .)

ب - روى النسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ :

(إذا احتضر المؤمن أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فيخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به أبواب السماء فيقولون مـــا أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه فيقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ماذا فعل فلان ؟ فيقولون دعوه فإنه كان في غم الدنيا فيقول قد مات أما أتاكم ؟ قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية . وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون ما أنتن هذه الريح حتى يأتوا به أرواح الكفار) .

جـ - (روت عائشة / رضي / عن رسول الله ﷺ : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه قلت يا نبي الله أكراهية الموت ؟ قال ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه . للشيخين والترمذي والنسائي) .

(وفي رواية : بعد كره الله لقاءه : والموت قبل لقاء الله) .

(وفي أخرى : قالت إذا شَخِصَ البصر وحَشْرَجَ الصدر واقشعر الجلد وتشنجت الأصابع فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه).

د - (روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ : إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت قدموني وإن كانت غير ذلك قالت : يا ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين أو قال الإنسان ولو سمع الإنسان لصعق . للبخاري ومسلم) .

هـ — (وروى أنس عن رسول الله ﷺ : إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع خفق قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً وأما الكافر والمنافق فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال له لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين) . للشيخين وأبي داود والنسائي .

و — (روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول هو عبدالله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع الى أهلي فأخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً قال سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري . فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك) .

وزاد في الأوسط : إن المؤمن تكون الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن شماله وفعل الخير والمعروف عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ليس من قبلي مدخل وكذا من كل جهة يقول الذي فيه ليس من قبلي مدخل) .

ز — (روى هانيء مولى عثمان : قال كان عثمان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبل لحيته قيل له تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتذكر القبر فتبكي فقال : اني سمعت رسول الله ﷺ يقول : القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجى منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه قال وسمعته ﷺ يقول ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه) .

وزاد رزين : قال هانيء وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجيا

ح (روى ابن عباس : مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ثم قال بلى أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين فغرس على هـذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا . للستة إلا مالكاً) .

ط - (وعن عائشة عن رسول الله ﷺ : إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ) . لأحمد .

ي - (عن ابن عباس : أن النبي ﷺ يوم دفن سعد بن معاذ وهو قاعد على قبره قال لو نجا أحد من فتنة القبر أو مسألة القبر لنجا سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم أرخي عنه) للطبراني في الكبير والأوسط .

ك - قال الله تعالى . « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) .

ل - وقال : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّحُ لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين » .

م - (عن سلمان عن رسول الله ﷺ : رباط يوم في سبيـل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطاً وقي من فتنة القبر ونمي له عمله الى يوم القيامة) . لمسلم والنسائي والترمذي بلفظه .

ن - (قال مسروق : سألنا عبدالله عن هذه الآية «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً » فقال إنا سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) . لمسلم والترمذي وزاد : وتقرىء نبينا السلام وتخبره أن قد رضينا ورضي عنا . .

ص - (عن أنس عن رسول الله ﷺ : ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا

وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة) . للشيخين والترمذي والنسائي .

ع – (روى عوف بن مالك : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظنا من دعائه اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلا خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار قال عوف حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت) للترمذي والنسائي ومسلم بلفظه .

ف – (روى أنس عن رسول الله ﷺ : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) . للستة إلا مالكاً .

ص – (روت عائشة / رض / عن رسول الله ﷺ : اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة القبر وأعوذ بك من شر فتنة المسيح الدجال. اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد ونق قلبي كما نقيت الثوب الأبيض وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب) . للستة إلا مالكاً .

والمسألة بعد هذا كله مسألة إيمان وعمل ، وليست مسألة تحتاج الى فلسفة أو أسئلة . من آمن بالله ورسوله – ولماذا لا يؤمن – عرف أن الله لا يعجزه شيء ، وتلقى الأمر كما هو ولم يحتج إلى سؤال كثير في شئون هي لغير عالمنا ، وما نرى المسلمين بحثوا في هذه الشؤون وتوسعوا فيها وأكثروا من تفريعات مسائلها ومناقشة أمورها إلا يوم ضعف في نفوسهم اليقين ، وقوي الشك ، وعمت الشبه ، وليس علاج ذلك في هذا ، وإنما علاجه بمعرفة الله ومعرفة رسوله ﷺ فمن عرف لزم الباب ، ولم يحتج الى جواب على أشكال لأنه لا إشكال وقتذاك إلا في كلمة لم يعرف معناها أو نص استعصى على فهمه إدراك مراد الشارع فيه .

إن مثلنا ومثل الصحابة في هذه الأمور كمثل أمتين هددتا بخطر ، فأمة عرفت الخطر وسعت لتلافيه ، وأمة شكت وفتشت وتساءلت وناقش أفرادها بعضهم بعضاً حتى داهمهم الأمر وهم على غير استعداد فدمروا .

فيا أيها الناس : ما كان من أمر الغيب وقد أخبرنا عنه خبراً صحيحاً عن رسول الله ﷺ فلنفهمه ونؤمن به ولنسلم الأمر فيه ذلك مقتضى الأيمان وذلك الطريق الأقوم .

. . . .

على أن الباحث العالم المنصف يرى في كل شيء ما يزيد اليقين :

لئن كانت بعض قضايا البرزخ يسمعها الحيوان ولا يسمعها الإنسان فقد ثبت علمياً أن الإنسان لا يسمع الصوت إلا إذا كان ضمن ذبذبة معينة ، فإذا زاد على ذلك أو نقص لم يعد يسمع بينما آذان الحيوانات لا تنطبق عليها نفس القاعدة كما تنطبق على الإنسان ، ومن شاهد الخيل عند قربها من قبر يلاحظ كيفية إصغائها .

ومن تتبع أحوال الموتى عند الموت وراقب وجوههم وأوضاعهم وأحوالهم رأى الفارق الكبير بين أوضاع المسلمين الصالحين وأوضاع الآخرين يظهر هذا على وجوههم قبل الموت وبعده .

ومن درس أحوال العباد والزهاد والصالحين والذاكرين من المسلمين عرف من أحوال الكثير منهم كيف أنهم يشاهدون بعض الأمور البرزخية وقد ورد في حديث الرسول ﷺ : (لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع) أي من عذاب القبر لأن الأثر ورد فيه .

ومن تتبع قصص من لم تأكل الأرض جثته من المسلمين ولو بعد عشرات من السنين أو مئات من يوم دفنه لرأى العجب قديما وحديثاً ، ولعل من أعجب ذلك وأبدهه وما يستطيع كل إنسان أن يتحقق منه ميت في حي الأكراد في دمشق ترى رجله خارجة من القبر لم تتغير ولم تتبدل ويستطيع أي إنسان أن يراها مع أنه مضى على دفنه مئات السنين وما من بلد إسلامي إلا ويروي لك أهله حوادث من هذا النوع شاهدوها أو سمعوا من شاهدها . وفي حوادث السورة من ذلك الكثير ، وكم قبر حفر ففاح من أرضه عبير عجيب وهذه قضايا لا نقولها رجماً بالغيب ولكن نستطيع أن نأتي عليها بأوثق الشهود ومن تتبع حوادث توجيهات الموتى الصالحين للأحياء أو إنذارهم في الرؤى والمنامات ووقوع كثير من النذر كما أنذروا يرى من ذلك الكثير العجيب .

نواح كثيرة تزيد الإيمان ولكن من لم يكتف بقول رسول الله ﷺ في أي شيء فهو

بحاجة إلى تجديد إيمانه برسول الله وبالله وليكثر من قراءة القرآن فإنه لا شك مريض والقرآن شفاء لما في الصدور .

. . . .

- ٧ -

بعد هـذا نصل إلى الحديث عن اليوم الآخر . والحديث عن ذلك ينقسم إلى قسمين الحديث عن الجنة والنار ودخول أهلها إليها وما يكون قبل ذلك. وفي تسلسل الأحداث من بدء الساعة إلى دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بعض خلاف والسر في هـذا الخلاف أن كلمات النصوص أحيانا تحتمل أكثر من معنى ، والقضية غيبية لا تُعرف بغير الوحي أو المعاناة وفي القضايا الغيبية متى فُقِد النص وجد الخلاف إذا حدث الخوض . ولذلك فنحن في هـذه الفقرة سنقتصر على ذكر النصوص وعلى شرح بعض المفردات وسنجعل هذه النصوص تحت عنوانين :

الأول ؟ من بدء الساعة حتى الجنة والنار .

الثاني : وصف الجنة والنار وما لأهلها فيها .

ونؤثر أثناء الدراسة والبحث عدم السؤال والتفصيل لأن هذه القضايا الإيمان والعبرة والعمل وكلما كان الإنسان أكثر علماً كان أكثر وقوفـاً على النص وإيماناً به . ولنبدأ بعرض الموضوع .

أ ـ من الساعة حتى الجنة والنار

١ ـ قال تعـالى « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون .. »

للستة إلا الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(ما بين النفختين أربعون قيل أربعون يوماً ؟ فقال أبو هريرة : أبيت . قالوا أربعون شهراً ؟ قال أبيت . قالوا : أربعون سنة ؟ قال أبيت .. ثم ينزل من السماء ماءاً فينبتون كما ينبت البقـل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة) .

قال تعالى « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » .

٢ — « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » .

« إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » والأمت هو النتوء اليسير .

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » .

« إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا فكانت هباءاً منبثا » البس الفت والهباء المنبث هو الغبار المنتشر .

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » أي حمراء .

« يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا » .

« فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر » .

« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ، **وإذا الصحف نشرت** وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت .. »

« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت » .

« إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت » .

٣ — روى الشيخان عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال :
يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد.

روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلاً أول الخلق يكسى إبراهيم الخليل ثم قرأ « كما بدأنا أول خلق نعيده » وفي رواية (تحشرون حفاة عراة غرلاً فقالت امرأة أيبصر بعضنا عورة بعض ؟ قال يا فلانة لكل منهم يومئذ شأن يغنيه) للشيخين والترمذي والنسائي .

روى أنس (أن رجلاً قال يا رسول الله .. قال الله تعالى «الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم » أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) للشيخين .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة وصنفاً ركبانا وصنفاً على وجوههم قيل يا رسول الله: وكيف يحشرون على وجوههم قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك) . للترمذي .

وعنه عن رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث امسوا رواه الشيخان والنسائي .

٤ ـ « تعرج الروح والملائكة إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلاً إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبـاً يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميا » .

« ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

روى الشيخان والترمذي عن ابن عمر وتلا « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » فقال يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه ..

روى المقداد عن رسول الله ﷺ (تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أو الميـل الذي يكتحل به العين قال فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبتيـــه ومنهم من يكون إلى لقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار ﷺ بيده إلى فيه ..) لمسلم والترمذي ..

وروى الشيخان عن رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظـــله

الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه. ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه).

قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فما أطول هذا اليوم فقال ﷺ والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) لأحمد والموصلي.

٥ — قال تعالى « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال قرينه هذا ما لدي عتيد » .

« فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون » .

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبورا ، ويصلى سعيراً ، إنه كان في أهله مسرورا ، إنه ظن أن لن يحور ، بلى إن ربه كان به بصيرا » .

« هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

٦) قال عليه السلام (من نوقش الحساب عُذّب . قالت عائشة أليس يقول الله : وأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً) فقال إن ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك) . وفي رواية وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذّب) للشيخين وأبي داود والترمذي .

قال تعالى : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

روي أنس (كنا عند النبي ﷺ فضحك فقال هل تدرون لم أضحك؟ قالوا الله ورسوله اعلم قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فإني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداً إلا مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً والكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقول لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل) اسلم .

روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم) .

وروى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ (أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة وأول ما يقضى بين الناس في الدماء) للشيخين والترمذي والنسائي بلفظه .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء منه فليحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ..)

روى البخاري عن قتادة عن صفوان بن محرز : أن رجلا سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى قال يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كتفه عليه فيقول أعملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ويقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقرره ثم يقول إني

سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم يطرح في النار) .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ . (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) لمسلم والترمذي .

وروى أبو أمامة عن رسول الله : (وعدني ربي أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي) .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : (يدخل الجنة من أمتي زمرة سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر فقام عكاشة بن محصن الأسدي فرفع نمرةعليه فقال يا رسول الله .. أدع لله أن يجعلني منهم قال اللهم اجعله منهم ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله أدع لله أن يجعلني منهم قال سبقك عكاشة) للشيخين .

٧ — « ونضع الموازين القسطَ ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقالَ حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين .. »

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً » .

روى الترمذي عن عائشة (رض) : (أن رجلاً قال يا رسول الله .. إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم فقال النبي ﷺ إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتضى لهم منك الفضل . فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكي .. فقال له ﷺ أما تقرأ قول الله تعالى : « ونضع الموازين القسطَ ليوم القيامة إلى .. حاسبين » فقال الرجل يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم كلهم احرار ..) .

٨ – وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ لما نزلت « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم » قال أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك اليوم ينادي الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول يا آدم ابعث بعث النار فيقول أي رب وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد الى الجنة فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة فلما رأى الذي بأصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس فسري عن القوم بعض الذي يجدون قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة ..)

٩ – روى أبو سعيد : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال نعم فهل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب ؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب ؟ قالوا لا يا رسول الله . قال فما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذن لتَتْبَع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبر أهل الكتاب فيدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا نعبد عزير بن الله . فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون ؟ قالوا عطشنا يا رب فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار . ثم تدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد المسيح بن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟ فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون؟فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم يكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله مرة اتقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه . ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول

أنا ربكم ؟ فيقولون أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم قيل يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة ، فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار فيقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً مما أمرتنا . ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً . وكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض فقالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً . .)

وروى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ومنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للواحد حتى يدخلوا الجنة) .

وروى عبدالله بن أبي الجدعاء عن رسول الله ﷺ (يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم قلنا سواك يا رسول الله ؟ قال نعم سواي) .

روى أنس (سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة قال أنا فاعل إن شاء الله قلت فأين أطلبك ؟ قـــال أول ما تطلبني على الصراط قلت فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال فاطلبني عند الميزان قلت فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن) .

روى المغيرة عن رسول الله ﷺ (شعار المؤمنين على الصراط يوم القيامة رب سلم).

قال تعالى : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنُحضرنهم حول جهنم جِثِيّا ، ثم لننزِعَنّ من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عِتِيّا، ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِلِيّا، وإنْ منكم إلا واردهـــا كان على ربك حتماً مَقضيا ، ثم نُنَجّي الذين اتّقَوا ونذرُ الظالمين فيها جِثِيّا . .)

١٠ – روى سمرة عن رسول الله ﷺ (إن لكل نبي حوضاً ترده أمته وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أنا أكثرهم واردة) . للترمذي.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (ترد عليّ أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله قالوا يا نبي الله تعرفنا ؟ قال نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء ولتُصَدّنّ عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول يا رب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول وهل تدري مـا أحدثوا بعدك) . للشيخين .

روى أنس عن رسول الله ﷺ (ليردن علي الحوض رجال حتى إذا رفعوا إلي اختلجوا دوني فلأقول أي رب أصحابي أصحابي فليقولن لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك).

روى أبو ذر (قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قـــال والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد النجوم في السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ . عرضه مثل طوله مـــا بين عمان إلى أيلة وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل) . للترمذي ومسلم .

روى أبو طالوت (أن أبا برزة الأسلمي دخل على عبدالله بن زياد فلما رآه قال إن محمديكم هذا لدحداح ففهمها الشيخ فقال ما كنت أحسب أن أبقى في قوم يعيرونني بصحبة محمد ﷺ فقال له عبدالله إن صحبة محمد لكم زين غير شين قال إنما بعثت إليك لأسألك عن الحوض هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئـاً ؟ قال أبو برزة نعم لا مرة ولا

مرتين ولا ثلاثاً ولا أربعاً ولا خمساً فمن كذب به فلا سقاه الله منه ثم خرج مغضباً) . لأبي داود .

١١ - روى جابر عن رسول الله ﷺ (يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعارير قلنا وما الثعارير قال الضغابيس) للشيخين .

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة في حميل السيل فقال رجل من القوم كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية) لمسلم .

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا) للبخاري .

روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ (إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله تعالى له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى فيقول الله اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا فيقول أتسخر بي أو تضحك بي وأنت الملك ؟ فلقد رأيت رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه . فكان يقول ذاك أدنى أهل الجنة منزلة) للشيخين والترمذي .

وروى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ (آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول يا رب أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول الله تعالى : لعلي إن أعطيتكها تسألني غيرها فيقول لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها وربه تعالى يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول أي ربي أدنني من هذه الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها

لا أسألك غيرها فيقول يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه تعالى يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه . فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها . ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولين فيقول يا رب أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها فيقول يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ؟ قال بلى يا رب هذه لا أسألك غيرها وربه تعالى يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول أي رب أدخلني بها فقال يا ابن آدم ما يصريني منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟ قال يا رب أتستهزىء مني وأنت رب العالمين ؟ فيضحك ابن مسعود فقال ألا تسألوني مما أضحك ؟ فقالوا مم تضحك ؟ فقال هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا مم تضحك يا رسول الله فقال من ضحك رب العالمين حين قال اتستهزىء مني وأنت رب العالمين فيقول لا أستهزىء منك ولكني على ما أشاء قدير) لمسلم.

روى الطبراني في الكبير والأوسط عن سلمان عن رسول الله ﷺ (لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من الله لفلان ابن فلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية) .

روى مسلم عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من انت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ..)

. . . .

ب ــ الجنة والنار

قال تعالى « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

روى مالك والشيخان والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها) .

وقال تعالى « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً » وانظر هذه الإشارة المميزة إلى

الجلود وكونها مذاق العذاب إذ أن العلماء اليوم يقولون إن مركز الأعصاب الحاسة بالألم هي الجلود .

قال « ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . . » « فأما الذين شُقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد » .

روى الشيخان والترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال (إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح فيوقف بين الجنة والنار فيذبح وهم ينظرون فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار) .

وفي رواية (فيؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول لهم هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادي منادٍ يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول لهم هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » وأشار بيده إلى الدنيا) .

وقال تعالى « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

« وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » .

« إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

روى الترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ (لسرادق النار أربعة جدر كثف

كل جدار مسافة أربعين سنة) .

قال تعالى « لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون » .

« فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » .

« ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » .

« وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » .

« يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون » .

« أم شجرة الزقوم إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالؤون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » .

« هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج » .

« إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ، لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مبلسون ، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادَوا يا مالك ليقض علينا ربُّك قال إنكم ماكثون» .

« إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون » .

« كمن هو خالد في النار وسقوا ماءاً حميا فقطَّع أمعاءهم » .

« إن المجرمين في ضلال وسُعُر ،يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر» .

« هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن » .

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالؤن منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين » .

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

« وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ، تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » .

« إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذابا أليما » .

« وما أدراك ما سقر ، لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر » .

« إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً » .

« ويل للمكذبين ، انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ، إنها ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جمالت صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ، هـذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، فإن كان لكم كيد فكيدون » .

« إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيهـا برداً ولا شرابا ، إلا حميماً وغساقا ، جزاءاً وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » .

« هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع » .

« وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول يا ليتني قدمت لحياتي ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » .

روى مسلم والترمذي عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال (يؤتى بالنار يومئذ

لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ..)

« كلا لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة التي تطلّع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، في عَمَدٍ ممددة » .

« يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

روى الشيخان والترمذي عن أنس :

(لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ...)

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (إن أدنى أهل النار عذاباً ينتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه من حرارة نعليه) .

روى سمرة عن رسول الله ﷺ (إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته) هما لمسلم .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث) .

روى أنس عن رسول الله ﷺ (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط : هل مر بك من نعيم قط ؟ فيقول لا والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤساً من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك من شدة قط ؟ فيقول لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط) . لمسلم .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون . أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة والألنجوج عود الطيب وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء) .

وفي رواية أخرى (لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا) . للشيخين والترمذي .

روى جابر عن رسول الله ﷺ إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال الطعام ؟ قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس) وفي رواية بدل التحميد الحمد وفي أخرى التكبير .

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة فأتى رجل من اليهود فقال بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة قال بلى قال تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال ألا أخبرك بإدامهم قال بلى . قال : إدامهم بالام ونون وقالوا وما هذا ؟ قال ثور ونون يأكل من زيادة كبدهم سبعون الفاً) للشيخين « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها **أزواج** مطهرة وهم فيها خالدون» أزواج مطهرة أي مما يستقذر من النساء كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلقة وأما معنى (وأتوا به متشابها) : قال ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ متشابها في اللون والمرأى وليس يشبه الطعم الطعم وقال مجاهد: متشابها لونه مختلفاً طعمه وكذلك قال الربيع ابن أنس وقال يحيى بن أبي كثير : عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك . ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتون بمثلها فيقولون : هذا الذي جئتمونا به آنفاً فيقون لهم الخدم : كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف وقال عبد الرحمن بن زيد يعرفون أسماءه كما كان في الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان وليس هو مثله في الطعم ، واختاره ابن جرير .)

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » والآية دلت على أن الجنة موجودة الآن ومن قبل ، ويستغرب بعضهم أن تكون الجنة بهذه السعة ، ولو أدركوا أن الجنه فوق السماء السابعة وأن سقفها عرش الرحمن ، وأن السماء محيطة ، وان محيطة الدائرة أكبر من قطرها ، لما أشكل عليهم في ذلك شيء إذا كان إيمان وعلم ، فالجنه واسعه اكثر من كل تصور خطر على قلب بشر، فلا تستغرب أن يكون حظ المؤمن منها كبيراً فوق التقديرات .

(روى المغيرة عن رسول الله ﷺ : (سأل موسى عليه السلام ربه ما أدنى أهل

الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له ادخل الجنة، فيقول أي رب : كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أما ترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت يا رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة : رضيت يا رب فيقول هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت يا رب قال رب فاعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت كرامتهم بيدي وختمت عليهم فلم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال غرس ومصداقه في كتاب الله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين . » الآية . .

روى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ : إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض والفردوس أعلى درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله فاسئلوه الفردوس » .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ،ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهارُ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكمُ الجنةُ أورثتموها بما كنتم تعملون . »

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : (ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وذلك قول الله عز وجل « ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . »

قال تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يَرهقُ وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . »

روى جرير : (كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » للشيخين والترمذي وأبي داود .

روى صهيب عن رسول الله ﷺ : (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقول ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا

من النار ؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تعالى) .

(زاد في رواية ثم تلى هذه الآية : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » لمسلم والترمذي .

روى أنس عن رسول الله ﷺ : أتاني جبريل عليه السلام وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء فقلت ما هذه يا جبريل قال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولقومك من بعدك تكون أنت الأول واليهود والنصارى من بعدك قال ما لنا فيها : قال : لكم فيها خير ولكم فيها ساعة من دعا ربه فيها بخير هو له قَسَمْ إلا أعطاه إياه أو ليس له بقسم إلا ذخر له ما هو أعظم منه أو تعوذ فيها من شر هو عليه مكتوب إلا أعاذه منه أو غير مكتوب إلا أعاذه الله منه . قلت ما هذه النكتة السوداء فيها هذه الساعة تقوم يوم الجمعة وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد قلت لم تدعونه يوم المزيد قال إن ربك تعالى اتخذ في الجنة واديا أفيح من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه ثم حف الكرسي بمنابر من نور وجاء النبيون حتى يجلسوا عليها ثم يجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكثب فيتجلى لهم ربهم تعالى حتى ينظروا إلى وجهه وهو يقول أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي هذا محل كرامتي فاسألوني فيسألونه الرضى فيقول تعالى رضائي أحلكم داري وأنا لكم كرامتي فاسألوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم فيفتح لهم عند ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى مقدار منصرف الناس يوم الجمعة ثم يصعد تعالى على كرسيه فيعود معه الشهداء والصديقون أحسبه قال : ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم درة بيضاء لا فصم فيها ولا فصم أو ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء منها غرفها وأبوابها مطردة فيها أنهارها متدلية فيها ثمارها فيها أزواجها وخدمها فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا فيه نظراً إلى وجهه تعالى ولذلك دعي يوم المزيد) . للبزاز والكبير والأوسط والموصلي .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجرَ من أحسن عملا ، أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يُحلَّون فيها من أساور من ذهب ويَلْبَسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا » .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » .

في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول ﷺ قال :

(من يدخل الجنة ينعم فلا ييأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء) .

وروى الترمذي عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول من صلى الصلوات الخمس وصام شهر رمضان كان حقاً على الله أن يغفر له هاجر أو قعد حيث ولدته أمه قلت يا رسول الله ألا أخرج فأوذن الناس ؟ قال لا دع الناس يعملون فإن في الجنة مائة درجة بين كل درجتين مثل ما بين السماء والأرض وأعلاها درجة منها الفردوس وعليها يكون العرش وهي أوسط شيء في الجنة ومنها تفجر أنهار الجنة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) .

قال تعالى « فخلف من بعدهم خَلْفٌ اضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظْلمون شيئا ، جنات عدن التي وعد الرحمن عبادَه بالغيب إنه كان وعدُهُ مأتيا ، لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا » .

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، وهدوا إلى الطيّب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غُرفًا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . »

في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال :

« إن المؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا » .

وروى الطبراني عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: (إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام) .

« إن أصحاب الجنة اليومَ في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك

متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم » .

روى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ :

(إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً) .

قال عكرمة في قوله تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » أي افتضاض الأبكار وقال ابن مسعود افتضاض العذارى .

روى ابن ماجه عن رسول الله ﷺ قال : (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وهو قول الله عز وجل : « سلام قولاً من رب رحيم » فلا يلتفتون الى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم) .

قال تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : (في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون وفيهما من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة : يا عبدالله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان فقال أبو بكر بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ فقال نعم وأرجو أن تكون منهم) .

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال (ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو يسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء) .

زاد الترمذي بعد التشهد (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) زاد أبو داود والإمام أحمد (ثم يرفع نظره الى السماء) وعند أحمد عن أنس عن رسول الله

ﷺ من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال ثلاث مرات أشهد أن لا إله إلا الله الخ. وعن عتبة بن عبد الله السلمي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (ما من مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل) رواه ابن ماجه وعبد الله بن أحمد ..

وروى أبو هريرة في حديث الشفاعة قال ﷺ (فانطلق فآتي العرش فأقع ساجداً لربي فيقيمني رب العالمين مقاما لم يقمه أحد قبلي ولا يقيمه أحداً بعدي فأقول يا رب أمتي أمتي فيقول يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن (وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب (والذي نفس محمد بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو هجر ومكة) وفي لفظ (لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى) متفق عليه وفي لفظ خارج الصحيح بإسناده (إن ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر ..)

« ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون نزلاً من غفور رحيم » .

« يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

زوجة الإنسان التي كانت له في الدنيا تكون أجمل من الحور العين في الجنة ولكل ما تشتهي نفسه وتلذ عينه .

« إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون ، يَلبَسون من سندس واستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يَدْعُون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم . »

في صحيح مسلم من حديث جابر قال قال رسول الله ﷺ يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم ذلك جشاء كريح المسك يلهمون التسبيح والحمد .

وفي المسند والنسائي بسند صحيح عن زيد بن أرقم قال جاء رجل من أهل الكتاب

إلى النبي ﷺ فقال يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال نعم والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مئة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة : قال فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة وليس في الجنة أذى قال يكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كريـــح المسك فيضمر بطنه) ورواه الحاكم في مستدركه بنحوه .

وروى الحسن بن عرفه عن ابن مسعود قال قال لي رسول الله ﷺ إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا .

وروى الحاكم عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ (إن في الجنة طيرا أمثال البخاتي) فقال أبو بكر (إنها لناعمة يا رسول الله قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها) .

وروى الحاكم عن قتادة في قوله تعالى « ولحم طير مما يشتهون » الواقعه ٢١ نحوه وعن ابن عمرو في قوله تعـــالى « ويطاف عليهم بصحاف من ذهب » الزخرف (٢١) قال بسبعين صحفة كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى .)

روى أبو هريرة أن النبي ﷺ كان يتحدث وعنده رجل من أهل البادية : أن رجلا استأذن ربـــه في الزرع فقال ألست فيما شئت ؟ يقول بلى ولكن أحب ذلك فيؤذن له فيبذر فيبادر الطرف نباته واستحصاده وتكويره أمثال الجبال فيقول الرب تعالى دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء فقال الأعرابي : إنك إن تجده إلا قرشيا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع فأمـــا نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه) للبخاري .

قال أبو سعيد إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعـة واحدة كما يشتهي رواه الترمذي . وقد فسرت تحبرون في الآية « أنتم وأزواجكم تحبرون » باللذة والسماع وقد وردت آثار في سماع أهل الجنة من أزواجهن ومن الحور العين ومن بعض الملائكة وهو (أي السماع) على كل حال مما تشتهيه النفس ولهم فيهـا ما يشتهون ولا تشتهي أنفسهم إلا الطيب .

« مثل الجنة التي وُعِدَ المتقون فيها أنهار من ماء غيرِ آسن وأنهار من ابن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيهـــا من كل الثمرات

«ومغفرة من ربهم .»

روى الترمذي عن معاوية جد بهز بن حكيم عن رسول الله ﷺ إن في الجنة بحر العسل وبحر الخمر وبحر اللبن وبحر الماء ثم تنشق الأنهار بعد .)

« إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امريء بما كسب رهين وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا افنان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائِنُها من إستَبرق وجنا الجنتين دان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مُدْ هامّتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخلٌ ورمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيراتٌ حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على رَفْرَفٍ خُضرٍ وعبقري حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » .

« والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلةٌ من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريقَ وكأسٍ من معين ، لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفون ، وفاكهةٍ مما يَتَخيرون ، ولحمِ طير مما يشتهون ، وحورٌ عين ، كأمثال اللؤلؤِ المكنون ، جزاءً بما كانوا يعملون ، لا يَسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قيلا سلاماً سلاماً ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سِدْرٍ مَخْضودٍ ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء

مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعـــة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهنّ أبكارا ، عربا أترابا ، لأصحاب اليمين ، ثلةٌ من الأولين ، وثـــلةٌ من الآخِرين .)

روى الشيخان والترمذي عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن) .

وفي الصحيحين عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال (أدخلت الجنة فإذا بها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك .) وهو قطعة من حديث المعراج .

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ سأل ابن صياد عن تربة الجنة فقال در مكة بيضاء مسك خالص فقال صدق. وروى سفيان بن عيينه عن جابر بن عبدالله في قصة اليهود فلما أن جاؤوه قالوا يا أبا القاسم كم عدد خزنة أهل النار ؟ فقال رسول الله ﷺ (بيديه كلتيهما هكذا وهكذا) وقبض واحدة أيّ تسعة عشر فقال لهم رسول الله ﷺ (ما تربة الجنة ؟) فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا خبزة فقال الخبزة من الدرمكة .)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال إن في الجنـــة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها (واقرؤوا إن شئتم « وظل ممدود » الواقعة (٣) وروى أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مئة سنة هي شجرة الخلد . وروى ابن ابي الدنيا عن ابن عباس قال : الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مئة عام في كل نواحيها فيخرج إليها أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها: قال فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فيحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا) .

وقد روى الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال : (يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع) قيل يا رسول أو يطيق ذلك ؟ قال : (يعطى قوة مائـــة) حديث صحيـــح .

« إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأساً دهاقاً، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاءاً من ربك عطاء حساباً »

« إن الأبرار لفى نعيم على الأرائـــك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يُسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم ، عينا يشرب بها المقربون » .

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بهـــا عباد الله يفجّـرونها تفجيرا ، يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجـــه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكوا به كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخـــلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، وإذا رأيت ثَمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثياب سُندس خُضرٌ وإستبرق وحُلّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » .

قال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . »

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ : (إن أهل الجنة ليتراؤن أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين) رواه الشيخان

« وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سررٌ مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة) .

النمارق / الوسائد ... والزرابي / البسط . والمبثوثة / المبسوطة .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جناتُ عدْنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنـــه ، ذلك

لمن خشي ربه .)

(روى البخاري ومسلم والترمذي عن رسول الله ﷺ قال : (غدوة في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها ولَقَابُ قوسِ أحدكم أو موضع قدمه في الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهـــل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها يعني خمارها خير من الدنيا وما فيها .)

. . . . . .

- ٨ -

اليوم الآخر، الجنة والنار، هذا هو المؤيد الأخير للإسلام الذي لا يبقي للإنسان خيارا، إما الإسلام والجنة ، وإما الكفر والنفاق والنار ، فأي خيار بعد هذا ؟ .

والقضية ليست قضية خيالات أو أوهام كما يتصورها الكافرون ، وكما يحاول إبرازها بعض المغرضين ممن كتبوا عنها من أهل الكتابة الأدبية . .

وإنما هي أكبر الحقائق بعد وجود الله إذ هي الفرع الأكبر لرسالة الرسل . ومن قرأ البحث الأول (الله) عرف أن الأمر على الله سهل . ومن قرأ بحث الرسول ﷺ عرف أن المسألة حق لا ريب فيها ، لأنها بلاغ أصدق الصادقين ، من قامت الأدلة على أنه رسول الله ، وصادق بشكل لا يرتاب معه إنسان ذو عقل .

هذا هو المؤيد الذي يجعل المؤمنين لا يبالون بنصر قريب عاجل ، أو ببلاء يصبّه عليهم أعداؤهم صبا ، أو بخسارة دنيا صغيرة مهينة ، وكيف يبالون والله الذي لا أحد أصدق منه يُثَبِّت فؤادهم بما أعد لهم من فوز وغلبة في اليـــوم الآخر اليقيني الوقوع ، الذي لا تساوي الدنيا بالنسبة اليه شيئا .

« زُيِّنَ للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يومَ القيامة » .

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهين ، وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ، هل ثوب

الكفار ما كانوا يفعلون » .

« ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أنْ قد وجدنا ما وعدنا ربُنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا قالوا نعم فأذّن مؤذن بينهم أن لعنةُ اللهِ على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويَبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون ، وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجال يعرفون كُلّاً بسيماهم ونادوا أصحابَ الجنة أنْ سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ، وإذا صُرِفَتْ أبصارهم تلقاء أصحابِ النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، ونادى أصحابُ الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جَمْعُكم وما كنتم تستكبرون ، أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالُهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ، ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حَرّمَهُما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نَسُوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون .

« فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم إني كان لي قرين ، يقول أئنكَ لمن المُصَدّقين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لَمَدِينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، قال تالله إنْ كِدْتَ لَتُردين ، ولولا نعمةُ ربي لكنت من المُحْضَرين ، أفما نحن بميتين ، إلا موتَتنا الأولى وما نحن بمعذّبين ، إنّ هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون » .

« هذا ذكرٌ وإن للمتقين لَحُسن مآب ، جنات عدنٍ مُفَتّحةً لهم الأبواب ، متكئين فيها يَدْعُون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرت الطرف أترابٌ ، هذا ما توعدون ليوم الحساب ، إنّ هذا لَرِزقُنا ما له من نفاد ، هذا وإن للطاغين لشرَّ مآب ، جهنمَ يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخرُ من شكله أزواج ، هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربّنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ، وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نَعُدّهم من الأشرار ، اتخذناهم سِخْرياً أم زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » .

« وإذ يتحاجون في النار فيقولُ الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ،

وقال الذين في النار لخزنة جهنمَ ادعوا ربَّكم يخففْ عنا يوما من العذاب ، قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

« ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجِع بعضهم إلى بعض القولَ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استُضعِفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استُضعِفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعلَ له أندادا واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون » . .

« قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت اختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » .

« ولو يرى الذين ظلَموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديدُ العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأو العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرَّة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالَهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

. . . .

- ٩ -

ونختم هذا البحث بما ذكره الأستاذ الودودي عن اليوم الآخر في كتابه (الحضارة الإسلامية : أسسها ومبادؤها) ننقلها مع حذف لبعض الجمل لتثبيت معان مهمة .

الايمان باليوم الآخر [1] :

المراد باليوم الآخر الحياة بعد الموت ، وقد سمي ذلك بالحياة الآخرة ، ودار الاخرة ، وقلما تخلو صفحة من صفحات القرآن والقرآن قد أبدأ القول وأعاده لإرساخه في ذهن الإنسان ، وأقام الأدلة على صدقه ، وبين حكمته وأهميته ، ودعا إلى الإيمان به ، وقال بكل صراحة إن الإنسان إن كان لا يؤمن به فقد حبطت أعماله ، ولا خسارة في الدنيا

---

(١) يراجع كتاب تعريف عام بدين الاسلام للاستاذ علي الطنطاوي (الناشر) .

أعظم من خسارته ..

« والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم » (الاعراف ١٤٧) .

« قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله » (الانعام ٢٦١) .

والاعتقاد باليوم الآخر الذي قد عرض بمثل هذه الأهمية البالغة هو في حقيقة أمره جواب عن أسئلة تنشأ في ذهن الإنسان وتنبعث من نفسه بسائق فطرته التي قد فطر عليها ..

أسئلة فطرية :

إن الإنسان يشعر بالحزن أكثر مما يشعر بالفرح ، وبالألم والنكبة أكثر مما يشعر بالراحة والنعمة وهذه عين طبيعته ، فإن كل شيء إذا كان أسرع صدمة لأحاسيسه كان أكثر تحريكا لقوة فكره ، ألا ترى أننا حين نحصل على شيء فقلما نتساءل من أين جاء ؟ وكيف جاء ؟ وإلى متى يبقى عندنا ؟ ولكن حين نفقد شيئاً فإن الحزن عليه يصب على مخيلتنا سوطاً قوياً ، وهناك نجد أنفسنا نتساءل : كيف قد ضاع علينا ؟ وأين قد ذهب ؟ وأين عسى أن يكون الآن ؟ وهل عسى أن نعثر عليه مرة أخرى ؟ ولأجل هذا فإن السؤال عن مبدأ الحياة لا يهمنا بقدر ما يهمنا السؤال عن الموت وما بعده ؟ لا شك أننا حين نرى هذا العالم ووجودنا فيه قد نتساءل ما هذا العالم ؟ كيف بدأ ؟ ومنذا قد أحدثه ؟ ولكن ما كل هذه التساؤلات إلا من أحاديث الفراغ ولذا فإن عامة الناس قلما يشغلون بها أذهانهم ، وإنما عدد يسير من الخواص أصحاب الفكر العميق هم الذين يشغلون بها أذهانهم ، وعلى العكس من ذلك فإن كل إنسان في الدنيا لا بد وأن يفكر في الموت ومرارته ... لا بد أن تعرض له في حياته غير حادثة واحدة يرى فيها أقاربه وأحبابه يفارقون الحياة أمام عينيه .. يموت الفقير والغني والضعيف والقوي ... ومن حوادث الموت ما يترك في الأذهان والقلوب المآسي والأحزان والعبر وأخيراً يستيقن كل حي بأنه هو الآخر لا بد أن يمضي على السبيل الذي قد مضى عليه غيره .. ولعل الدنيا ليس فيها فرد واحد يشاهد هذه الحوادث والمناظر ثم لا يقلقه السؤال عن الموت ولا يتساءل .. ما هذا الموت ؟ وأين يفضي الإنسان بعد اجتياز بابه ؟ وماذا وراء هذا الموت ؟ بل هل وراءه شيء أم لا ؟ .

هذا السؤال عام قد تفكر فيه العوام والخواص جميعا ، من الفلاحين العاديين ، إلى الفلاسفة والحكماء النطاسيين الكبار ، وهناك في هذا الصدد أسئلة أخرى تخالج نفس كل ذي فكر تمريباً ويزيد من شدتها ما يعرض له في حياته من حوادث مقلقة كثيرة . إن هذه الحياة القصيرة التي ينالها كل فرد منا في هذه الدنيا لا تنقضي كل لحظة من لحظاتها إلا في جهد من الجهود ، أو حركة من الحركات ، حتى إن الذي نسميه السكون والركود ما هو في حقيقة أمره إلا حركة ، والذي نسميه البطالة والفراغ ما هو في حقيقة أمره إلا عمل وشغل ، ولا بد أن يكون لكل فعل من هذه الأفعال مفعول ، ولكل حركة من هذه الحركات تجاوب ، ولكل جهد من هذه الجهود ثمرة وعاقبة . من اللازم أن تكون ثمرة كل حسنة حسنه ، وثمرة كل سيئة سيئة ، ولا بد أن تظهر نتيجة كل سعي طيب بصورة طيبة ، ونتيجة كل سعي خبيث بصورة خبيثة ، ولكن هل إننا في هذه الحياة ننال ثمرة كل جهد من جهودنا ، ونتيجة كل فعل من أفعالنا ؟ إن رجلا فاسقاً ما زال طول حياته يرتكب المنكرات والفواحش فنال جزاء بعضها في هذه الحياة الدنيا نفسها بصورة مرض أو ألم أو مصيبة أو نكبة ، ولكن على ذلك بقيت منكرات كثيرة ما نال جزاءها في حياته الدنيا هذه على أكمل وجه وأوفاه فكانت منها — مثلا — منكرات ارتكبها مستترا فلم يعلم بها الناس ، وما زالوا يرون فيه رجلا صالحاً على غير حقيقته ، وإن علموا بها فإن المسكين الذي ظلمه ما لقي في هذه الحياة ما يتلافى به خسارته على كل حال . والأمر إذا كان هكذا فهل يبقى ظلم هذا الظالم ، وصبر هذا المظلوم دون ما نتيجة ؟ أو لا تظهر لظلمه ولا لصبرهم عاقبة أبداً ؟ وقل مثل هذا بالنسبة للمعروفات والحسنات . فكم من رجال صالحين ما زالوا يعملون الصالحات طول حياتهم ولكن دون أن ينالوا جزاءها في حياتهم الدنيا هذه على أكمل وجه وأوفاه ، فاشتهروا بالسوء على بعضها أصلا فهل قد ذهبت كل أعمالهم الصالحة هباءاً منثورا ؟ وهل يكفي لهم جزاء على كل جهودهم المضنية المتتابعة أن قد نالوا ارتياحاً نفسياً وطمأنينة قلبية .

هذا السؤال يتعلق بالأفراد والأشخاص . ولكن هناك بعد هذا السؤال سؤال آخر يتعلق بمصير هذا العالم . وعاقبة كل ما فيه من الأنواع والأجناس والعناصر . وبيانه أنه هذا العالم يموت فيه أناس ثم يولد مكانهم أناس آخرون ، وتفنى فيه أشجار وأنعام ثم تنبت أو تولد مكانها أشجار وأنعام أخرى . فهل إن سلسلة الموت والحياة هذه تبقى

جارية مضطردة هكذا دونما نهاية ؟ وهل إن هذا الهواء ، وهذا الماء ، وهذا النور ، وهذا الحر ، وهذه القوى الطبيعية التي يجري بها هذا المعمل الكوني العظيم على أسلوب مضبوط ... هل هي كلها خالدة لا يعتريها الزوال والفناء أبداً ؟ أليس لها أجل محدود؟ أليس لنظامها وترتيبها أن يعرف نوعاً من التغير والتبدل ؟ إن الاسلام قد عالج كل هذه الأسئلة ، وما عقيده الحياة الآخرة في حقيقة الأمر إلا جواب عن هذه الأسئلة ، ولكن مما يحسن بنا قبل أن نتكلم عن هذا العلاج وصدقه ونتائجه المعنوية والمدنية .. أن ننظر أين من النجاح والتوفيق ما قد بذل الإنسان نفسه من الجهود والمساعي لعلاج هذه الأسئلة . ؟

. . . . . .

إنكار الآخرة :

تقول طائفة من الناس إن الحياة إنما هي هذه الحياة التي نحياها ، وأن ليس معنى الموت إلا الفناء والزوال والانتهاء والانعدام لا حياة بعده ولا شعور ولا ثمرات ولا نتائج :

« إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » (الدخان ٣٥) .

« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » (الجاثية ٣٤) .

وأما معمل الكون الذي نعيش فيه فيقولون إنه خالد أبدي لا زوال له ولا فناء ، وأنه من القوة والمتانة والاستحكام بحيث لا يتسرب إليه الضعف والبلى أبد الدهر .

والذين يقولون بهذا لا يقولون به لأنهم قد عرفوا على وجه اليقين والتثبت بوسيلة من وسائل العلم أن لا شيء بعد الموت ، وأن معمل الكون لا زوال له ولا فناء في واقع الأمر ، وإنما قد اعتمدوا في ذلك على حواسهم ، وما أقاموا هذا الرأي إلا لمجرد أنهم ما شعروا بكيفية ما بعد الموت ، وما شاهدوا بأم أعينهم أثراً من آثار اختلال نظام العالم ، ولكن هل إن مجرد عدم شعورنا بشيء برهان كاف على عدم وجوده في واقع الأمر ؟ وهل إن شعورنا بالأشياء هو وجودها ، وان عدم شعورنا بها هو عدم وجودها ؟ ولو كان الأمر كذلك لكان من حقي أن أقول إن الشيء الفلاني الذي ألمسه بيدي ، أو أنظر إليه بعيني ، لا يبرز إلى حيز الوجود إلا عندما ألمسه بيدي أو أنظر اليه بعيني ، وإنه عندما يتوارى عن عيني ، ويغيب عن شعوري يفنى وينعدم ، ولكان من حقي أن أقول : إن النهر

الذي كنت رأيته ما كان خرج إلى عالم الوجود إلا حينما رأيته يجري ، ودخل عالم الفناء والعدم لما توارى عن نظري ، ولكن هل لرجل عاقل أن يعترف بصحة قولي هـــذا ؟ والجواب على هذا إن كان بالنفي – وهو بالنفي ولا شك – فما لرجل عاقل أن يصدق الرأي القائل بأن لا شيء بعد الموت أصلا لأنه ما جاء تحت مشاهدته وتجربته .

ثم إنه كما لا يصح الحكم بشيء على الموت والفناء لمجرد الاعتماد على الحس والمشاهدة ، كذلك لاعبرة بالأمور التي يحكم بها على الحياة والبقاء لمجرد الاعتماد على الحس والمشاهدة ، وأنه إذا صح الحكم بالبقاء والخلود على معمال الكون لمجرد أن الإنسان ما رآه يفنى وينقرض بعينه ، فإن لي إذا رأيت بناء مشيدا أن أقول إنه لا يبلى ولا يفنى إلى أبد الآباد لأني مـــا رأيته بأم عيني ينهدم ، ولا رأيت فيه أثرا للضعف ينبيء بزواله في المستقبل . ولكن هل يكون هذا الاستدلال مني جديراً بالقبول والتسليم لدى أرباب العقل ؟ .

تأثير انكار الآخرة في الأخلاق .. :

مما يكاد يجمع عليه رأي الحكماء والفلاسفة أن نظام العالم لا بد له من الاختلال والانتهاء يوماً من الأيام ، ولعله ليس في جماعة أهل العلم اليوم من لا يزال يقول بالنظرية القديمة القائلة بأزلية العالم وأبديته ، غير أن فيهم عددا لا يستهان به يقولون إن الموت إنما هو فنـــاء محض لا حياة بعده بأي شكل من الأشكال ، ولا تقوم عقيدتهم هذه إلا على أساس الأمر غير المعقول الذي ذكرناه آنفاً : ومن الحقيقة بشأن هذه الحقيقة – ولو قطعنا النظر عن عدم معقوليتها – إنها لا ترجع ولا تستطيع أن ترجع على الإنسان بشيء من الثقة والطمأنينة النفسية وليس فيهمـــا يجيب بشيء على كثير من الأسئلة التي تخالـــج نفس الإنسان عندما يتفكر في شئون الحياة ومتعلقاتها . وفوق هذا فإن الإنسان إذا كانت أخلاقه وأعماله قائمة على هذه العقيدة فإنها لا تخلو من إحدى حالتين : إذا كانت ظروفه غير ملائمة له فلا بد أن تصيبه هذه العقيدة بنوع من اليأس والقنوط والتقاعس وخور العزيمة لأنه عندما لا يرى في حياته نتيجة لما يؤدي فيها من أعمال البر والصلاح والخير تبرد فيه قوة العمل والجد والنشاط ، وهو عندما لا يجد في هذه الحياة من ينصفه من ظالم ينكسر قلبه ، وهو عندما يرى الظالمين الفاسقين في هذه الدنيـــا يترفلون في النعيم ، ويستمتعون بلذات الحياة ومباهجها ، ويحرزون فيها الرقي والتقدم ، ويجمعون فيها أسباب البذخ والترف والقوة والبطش ، يحسب أن الشر له الحكم النافذ والكلمة المسموعة في عالم

الحياة ، وأن ليس فيه الخير ، إلا ليكون ذليلاً مغلوباً على أمره . وعلى العكس من هذا فإن ظروفه إذا كانت ملائمة له ، جارية على هواه ، فإنه لا بد أن ينقلب إلى حيوان نهم يعبد هواه لتأثير هذه العقيدة فيه ، وأنه إذا بقي محروماً من لذة من لذات الدنيا ونعمة من نعمها ، فلا حياة له بعد هذه الحياة ليتداركها فيها ، إذن لا بد أن يظلم الناس ،ويهضم حقوقهم ، ويسفك دماءهم ، وينهش أعراضهم ، ويقطع أرحامهم ، ويسعى في الارض فساداً ، ولا يتحرج في التسلح بأشنع وأبشع ما يكون من الحيل لتحقيق أهواء نفسه ، وأن أكبر بر ، وأعظم صلاح يمكن أن يتصوره هو ما يرجع على إظهاره بحسن القالة والسمعة والعز والكرامة ، أو فائدة أخرى من الفوائد الدنيوية . كذلك لا يرى الجرائم والذنوب إلا في أعمال يخشى أن ترجع عليه بعقوبة دنيوية ، أو مضرة جسدية ، أو خسارة مادية .

أما الحسنات والخيرات والصالحات التي ترجع بنوع من المنفعة في هذه الدنيا ، فلا تكون في نظره إلا سفاهة وحماقة ، وأما السيئات والمستقبحات التي لا ترجع عليه بنوع من الخسارة في هذه الدنيا ، فلا تكون في نظره إلا عين الحق والصواب .

ولعمر الحق إن مجتمعاً في الدنيا إذا كان كل نظامه للأخلاق لا يقوم إلا على هذه العقيدة ،وهذه العقلية ،فلا بد أن تنقلب كل تصوراته المعنوية وقيمه المعنوية ظهراً لبطن.. إذ لا يقوم كل نظامه للأخلاق والأعمال إلا على الأثرة والأنانية وحب الذات ، ولا يكون البر والصلاح والخير في نظره إلا عبارة عن المتعة المادية والفائدة الدنيوية ، ولا يكون الإثم والذنب والشر في نظره إلا عبارة عن الخسارة المادية الدنيوية ، ولا يكون الكذب والمكر والخداع إثماً في نظره إلا إذا كان يسبب له نوعاً من الخسارة في ماله أو جسده ، وينقلب إلى عين الحق والصواب إذا ما أصبح يسبب له نوعاً من المنفعة في ماله أو جسده . والصدق والإخلاص إذا كان يجلب إليه منفعة يكون في نظره حسنة من الحسنات ، ومكرمة من المكارم ، وإذا كان يجلب إليه خسارة يكون أكبر سيئة وأعظم ذنب ، والزنا يكون وسيلة لتحقيق لذة النفس ومتعتها ، ولا تحدث فيه ناحية الإثم ، والفساد عنده إلا حين تحدث فيه ناحية للمضرة بصحته .

وجملة القول أن الإنسان ما دام لا يخاف أو لا يرجو نتيجة سيئة او حسنة وراء هذه الحياة الدنيا ، فإنه لا يطمح ببصره وراء أعماله إلا الى النتائج العاجلة الظاهرة في هذه

الدنيا نفسها . ولذلك لا بد أن تتغير قيم الأعمال المعنوية على وجه ليس له مجال أن يكون ملائماً لمجتمع إنساني مهذب ، بل الأصح أن أي طائفة إنسانية إذا تمنت لأخلاقها مثل هذا المستوى الدنيء ، فإنها لن تنقذ نفسها من التدهور إلى درجة أحط من درجة البهائم والوحوش الضارية .

ولقائل أن يقول في هذا المقام: إن الدنيا ليس فيها للجزاء أو العقاب الخسائر والمنافع المادية والجسدية فحسب بل هناك في داخل الإنسان قوة تعرف بالضمير يكون تأنيبها وعدم ارتياحها عقوبة كافية للإنسان على اقتراف الذنوب والآثام ، ويكون ارتياحها جزاءاً كافياً للإنسان على أدائه الحسنات والخيرات والصالحات ... إذا قيل هذا قلت جواباً عنه : إن هناك من الذنوب والآثام ما إن فوائدها الدنيوية ولذائذه المادية تجعل الإنسان لا يبالي بتأنيب الضمير ، وهناك من الحسنات والصالحات ما لا بد للانسان إذا أراد أداءه أن يقوم بتضحيات جسيمة لا يكاد مجرد ارتياح الضمير أن يكون جزاءاً كافياً عليها . ثم إننا إذا فكرنا في حقيقة الضمير نفسه علمنا أن ليست وظيفته أن يخلق التصورات الخلقية ،وإنما وظيفته أن يؤيد ما يرسخ في ذهن الإنسان من التصورات الخلقية بنوع خاص من التربية والتعليم لأجل هذا فإن ضمير الكافر لا يؤنبه على كثير من الأعمال التي يؤنب عليها ضمير المسلم إياه . إذن فإن مجتمعاً إنسانياً إذا تبدلت تصوراته المعنوية ، وانعكست مقاييسه للخير والشر ، فإنه لا بد أن تتغير مع ذلك وجهة الضمير نفسه ، فهو إذن لا يؤنب الأفكار أبداً على أعمال قد تخلى المجتمع عن الاعتقاد بفسادها ، ولا يشعر بشيء من الارتياح والطمأنينة إذا ما اقترفوا أعمالاً لا يعتقد المجتمع بصلاحها .

عقيدة تناسخ الأرواح :

وطائفة أخرى تقدمت الى الأنسانيه بعقيدة أخرى بشأن ما بعد الموت هي عقيدة تناسخ الأرواح وخلاصتها أن الموت ليس معناه الفناء المحض ، وإنما معناه استبدال الروح جسداً بجسد ، يقولون إن الروح بعدما تفارق جسداً في هذه الدنيا تنتقل إلى جسد آخر في هذه الدنيا نفسها ، ولا يكون هذا الجسد الثاني أو القالب الثاني بكلمة أصح إلا متفقاً مع الحياة التي قد أعدها الإنسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه في حياته الأولى ، فإن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة ، فان روحه ستنتقل إلى طبقة مبتذلة من طبقات الحيوانات أو النباتات،

وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة فان روحه سترتقي إلى طبقــة من الطبقات العليا . وجملة القول إنه ليس الجزاء ولا العقاب بموجب هذه العقيدة إلا في هذه الدنيا ، وفي عالم الأجساد هذا . كأن الأرواح إنما تأتي إلى هذه الدنيا مرة بعد مرة بقوالب متغيرة لتنال الجزاء أو العقاب على أعمالها السابقة .

لقد مر على الإنسانية حين من الدهر كانت فيــه هذه العقيدة قد لاقت رواجاً وقبولاً عظيماً عاماً بين أهل الأرض . كان يقول بها (فيثاغورس وانبذ قلس)وغيرهما من فلاسفة اليونان قبل المسيح بقرون. وكانت لها كلمة مسموعة في الرومان قبل المسيحية ، ولها آثار توجد في تاريخ مصر القديمة ، وقد خلت حتى في اليهود لعوامل خارجية . ولكنهــا في أيامنا الحاضرة لا توجد إلا في ديانات هندية الأصل كالبرهمية ، والبوذية ، والجينية ، أو في أمم همجية ، أو بعض همجية تقطن في غرب إفريقيا وجنوبها ومدغاسكر واستراليــا الوسطى ، وأندونيسيا ، وأوشيانا ، وشمال أمريكيا وجنوبها ، وقد نبذتهــا وخرجت عليها سائر الأمم المتحضرة في العالم لأن المعلومات التي قد أحرزها الإنسان عن الدنيــا وحياتها لتقدم العلم والعقل تأبى أن تؤيد نظرية من النظريات التي تقوم على أساسها عقيدة تناسخ الأرواح .

حتى إننا إذا ما نظرنا في تاريخ هذه العقيدة في الديانات الهندية الأصل ، علمنا بدون ما ريب أن لم يكن لهــا أي وجود في الهند الويديكية القديمة وأن الذي كان يعتقده الآريون في ذلك الزمان هو أن الإنسان بعدما يفارق الحياة الدنيا يعود إلى حياة أخرى هي راحة ونعمة للذين قد عملوا الصالحات في حياتهم الدنيا ، وعذاب أليم للذين قد عملوا فيها السيئات . ثم إن هذه العقيدة دخل عليها التغير دفعة واحدة ، ومن ذلك أننا نجد من بين كتب الهند في طورها الثاني كتباً توجد فيهــا عقيدة تناسخ الأرواح بصورة مذهب فلسفي . وإلى الآن ما تم التحقيق حول منشأ هذا التغير . يقول البعض إن هذه العقيدة إنما دخلت في ديانة الآريين عن طريق (دراور) أي أمم الهند القديمة ، ويقول البعض الآخر ان كان لها وجود في الطبقات السفلى من الآريين أنفسهم ومنهــا أخذها الفلاسفة البراهمة فيما بعد وأقاموا عليها بناء كاملا للأوهام والظنون والقياسات وعلى غرار هذا فقد كانت ديانة بوذا في أطوارها الأولى خالية خلواً تاماً من فكرة ونظام تناسخ الأرواح كما هما يوجدان الآن في كتب الديانةالبوذية، والذي نعلمه بدراسه الكتب القديمة الأصلية لهذه

الديانة أن عقيدتها في أطوارها الأولى تقوم على أن الوجود إنما هو نهر يجري متدفقاً بالتغير والانقلاب بصفة غير منقطعة ، وهذه العقيدة نفسها ظهرت فيما بعد بصورة عقيدة قائلة : بأن ليس في العالم كله إلا روح واحدة هي التي تشكل دائماً بالأشكال المختلفة ، وتغير لنفسها القوالب تلو القوالب . ويفيد هذا أن العلم الذي كان حصل لأمم الهند القديمة من مصدر الوحي والإلهام في بدء أمرها بدلته هذه الأمم وأدخلت عليه الأوهام والظنون من تلقاء نفسها واخترعت — هكذا من دونه ديانة فلسفية لم تكن إلا ثمرة لأوهامها الباطلة وظنونها الكاذبة .

عقيدة تناسخ الأرواح في ميزان النقد العقلي :

إنه لا مجال هنا لإطالة البحث في عقيدة تناسخ الأرواح ، لكن مما يكفي الإشارة إليه لبيان أن النظريات والتصورات التي يقوم عليها بناؤها كلها تصادم العقل في صميمه ، وتنافي كل معنى العلوم التي نالها الإنسان حتى الآن بالنظر في الدنيا وحياتها .

إنه لما يعتقده القائلون بتناسخ الأرواح أن الإنسان إنما ينال جزاء أعماله في هذه الدنيا نفسها وذلك بصورة أنه يرتقي إلى الطبقات العليا بفضل أعماله الصالحة ، ويتردى إلى الطبقة السفلى من جراء أعماله السيئة فهو — مثلاً — إذا كان قد عمل السيئات في حياته يتردى إلى الطبقات الحيوانية أو النباتية والحيوان أو النبات إذا كان قد عمل الصالحات في حياته يرتقي إلى الطبقات الإنسانية . ومعنى هذا أن ليس الحياة الحيوانية والنباتية إلا نتيجة لسوء أعمال الحياة الإنسانية وأن ليست الحياة الإنسانية إلا نتيجة لصلاح أعمال الحياة الحيوانية أو النباتية أو — بكلمة أخرى — إن أفراد النوع البشري الذين يوجدون الآن على وجه الأرض إنما هم أفراد النوع البشري لأنهم قد عملوا الصالحات في حياتهم الحيوانية أو النباتية وإن أفراد النوع الحيواني أو النباتي الذين يوجدون الآن على وجه الأرض إنما هم أفراد النوع الحيواني أو النباتي، لأنهم قد عملوا السيئات في حياتهم الإنسانية .

وللإيمان بهذه العقيدة لا بد من الإيمان بعدة أمور أخرى كلها متنافية مع العلم والعقل فمثلاً :

١ — إن دورة التناسخ هذه كحلقة مفرغة لا يعرف مبدؤها من منتهاها لأنه من اللازم لكون الإنسان إنساناً بحكمها أن يكون في حياته السابقة حيواناً أو نباتاً، ولا بد لكون

الحيوان حيواناً ، ولكون النبات نباتاً أن يكون في حياته السابقة إنساناً وهذه مسلسلة واهية يأبى العقل أن يسلم بصحتها .

٢ – إن دورة التناسخ إن كانت أزليـــة أبدية فلا بد من الاعتراف بأن لا تكون الأرواح التي تنتقل في أجساد بعد أجساد ، وتستبدل القوالب مرة بعد مرة أزلية أبدية فحسب بل تكون كذلك المواد التي تهيأ لها القوالب في كل مرة أزلية وأبدية ،وأن يكون كل شيء من الأرض والنظام الشمسي والقوى العاملة في هذا النظام أزلياً وأبدياً ، ولكن الذي يدعيه العقل وتشهد بصحته التحقيقات العلمية أن ليس نظامنا الشمسي أزليـــاً ولا أبدياً .

٣ – من اللازم الاعتراف بأن كل الخصائص التي توجد في النباتات والحيوانات، وأفراد النوع البشري هي خواص أجسادهم وما هي بخواص نفوسهم ،لأن النفس التي كانت مالكة لقوى العقل والفكر في هذا الإنسان ، أصبحت لا تعقل لما انتقلت إلى قالب الحيوان ، وسلبت السكينة حتى قوة الحركة الإرادية لها عندما انتقلت إلى قالب النبات .

٤ – إن كلمة الصلاح أو السوء إنما تطلق في حقيقـــة الأمر على أعمال تعمل بالقصد والفكر ، فمن الممكن على هذا الاعتبار أن تكون أعمال الإنسان صالحـة أو سيئة ، ومن الممكن أن يترتب عليها الثواب أو العقاب . أما بموجب الاعتقاد بتناسخ الأرواح فلا بد من الاعتقاد بأن الحيواات والنباتات قادرة على العمل بجسمها وبفكرها .

٥ – إن الحياة بعد كل حياة إذا لم تكن إلا نتيجة لأعمالنا في الحياة الجارية فإن ذلك يستلزم أن لا تكون نتيجة أعمالنا السيئة إلا سيئة ، وما دمنا قد نلنا هذه النتيجة السيئة في حياتنا الأولى فكيف أصبح من الممكن أن تصدر أعمال صالحة عن هذه النتيجة السيئة؟ من اللازم أن لا يصدر عنها إلا أعمال سيئة ، وأن تكون نتيجتها في الحياة الثالثة أسوأ منها في الحياة الثانية ، وهكذا لا بد أن تتردى روح إنسان فاسق في دورة التناسخ من طبقة سافلة إلى طبقة أسفل منها ، ومن المحال أن يصبح الحيوان أو النبات إنساناً . فلنا أن نتساءل هنا أن الذين هم أفراد النوع البشري الآن قد أصبحوا من النوع البشري نتيجة لأعمال صالحة من أية طبقة قد برزوا إلى حيز الوجود ؟

تأثير عقيدة تناسخ الأرواح في الحياة المدنية :

وهناك إلى هذه الأسباب أسباب كثيرة أخرى من المحال بناء عليها أن يقبل العقـل

السليم عقيدة تناسخ الأرواح ويقول بصحتها . لأجل هذا فإن الإنسان على قدر ما نال من التقدم والرقي في ميدان العقل والعلم صارت تبطـل في نظره عقيدة تناسخ الأرواح ، إلا أنها ما بقيت الآن – كما قلت – إلا في أمم همجية أو متخلفـة جداً في ميدان الرقي العلمي والعقلي ومن الحقيقـة – مع هذا – إن هذه العقيدة مثبطة للهمم ، ومميتة لروح التقدم ، ومنها قد نشأت عقيدة (أهنسا) التي هي مدمرة بكل معنى الكلمة لحياة الإنسان الفردية والجماعية ، بحيث إن أمة إذا أصبحت قائلة بها انعدمت فيها روح الإقدام والجرأة والشجاعة والجندية ، واضمحلت فيها القوى الجسدية ، وأصبحت محرومة من كل ما يغذي فيها القوى الجسدية . وبذلك لا يضعف أفرادها باعتبار القوى الجسدية فحسب ، بـل يضعفون كذلك باعتبار القوى الفكرية والذهنية ،ويكون من نتيجة هذا الضعف المضاعف أن تضرب عليها الذلة والمسكنة ولا تحيا في الدنيا إلا مغلوبة على أمرهاوأخيراً إما أن تنقرض عن صفحة الوجود ، أو تنضم إلى أمم غالبة قوية أخرى .

والمضرة الأخرى لعقيدة تناسخ الأرواح أنها تمادي المدنية والحضارة وتجر الانسان جراً إلى الرهبانية وترك الدنيا . إنه لما يعتقده القائلون بهذه العقيدة أن الشهوة هي أصل كل فساد في الأرض ، وهي التي تلوث الروح بالذنوب والآثام ، ولأجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب ، وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة ، فالإنسان إذا أودى بها وقضى عليها ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبهـا ، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ ويقولون : ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه ، لأنه من المحال إذا انشغل الإنسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشئونهـا الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا ، والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها ، والنتيجة اللازمة لذلك (يقولون) أن من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناسخ فعليـه أن ينعزل عن الدنيا ، ولا يسكن إلا في الغابات ، ورؤوس الجبال وكهوفها ، وأن من لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناسخ ، ويستعد للانضمام إلى طبقات الحيوانات والنباتات .. فهل لهذه الفكرة أن تكون مساعدة للانسان على ترقية المدنية والحضارة بحال ؟ وهل لأمة أن تنال الرقي والتقدم في الدنيا إذا آمنت بهذه العقيدة ؟

لا شك أن عقيدة تناسخ الأرواح ببعض وجوهها أقل سوءاً من الاعتقـاد بأن الموت إنما هو فناء محض ، لأن الإنسان توجد فيه بحكم الفطرة رغبة في البقـاء إلى الأبد ، فعسى

أن تبرد فيه هذه الرغبة بعقيدة تناسخ الارواح إلى حد ما ، ومع هذا فإن هذه العقيدة توجد فيها فكرة الجزاء والعقاب والنتائج المرضية وغير المرضية للأعمال فعسى أن تكون هذه العقيدة على أساس هذه الفكرة سنداً يستند إليه قانون خلقي صالح قوي .. ولكن من الحقيقة التي لا مجال فيها للريب والمكابرة كما قلنا مراراً من قبل ، إن عقيدة التناسخ إذا كانت متنافية مع العلم والعقل ، كانت عقبة في سبيل تقدم المدنية والحضارة ، فليس لها مجال أن تؤثر على ذهن الإنسان وتتملك عليه عقله وعاطفته بحيث تظل قائمة بقوة سواسية في كل مرتبة من مراتب الارتقاء العلمي والعقلي وفي كل مرحلة من مراحل تقدم المدنية والحضارة. والأمر إذا كان كذلك فإن بقاء هذه العقيدة كنظرية فلسفية محضة في بطون الكتب لا يكاد يرجع بجدوى على نظام الأخلاق في ثباته واستمراره وخلوده ، لأنها لا ترجع عليه بجدوى إلا في ما إذا خرجت من الكتب واستولت على القلوب والأذهان واعتقد بها الناس اعتقاداً جازماً قوياً. ومع هذا فإن هذه العقيدة تفقد قيمتها الخلقية من حيث نتيجتها النهائية لأن الإنسان إذا كان على يقين من أن دورة التناسخ إنما تدور كما يدور الدولاب في الآلة لا بد أن تظهر النتيجة المقررة فيها لكل فعل من أفعاله ، وليس له مجال أن يغير تأثير هذا الفعل ونتيجتها بتوبة ولا استغفار ولا كفارة ولا بأي شيء آخر .. إذا كان الإنسان على يقين من هذا فإنه إذا اقترف الذنب مرة يقع في سلسلة الذنوب والمعاصي الى آخر أيام حياته ، ويرسخ في ذهنه أنه ما لم يكن باستطاعته أن يخلص نفسه ولو بأية حيلة من الحيل من الانقلاب إلى حيوان أو نبات فما له أن يكبح جماح نفسه ولا يستنفد ما يملك من الجهود لإشباعها بلذات حياته الإنسانية ومباهجها ؟

عقيدة الحياة الآخرة :

إنك حتى الآن قد عرفت ما يرى في عاقبة الدنيا والإنسان ونهاية أمرهما دينان من أديان البشر وقد عرفت كذلك أن هذين الدينين لا يصحان عقلاً ، ولا يردان بشيء مقنع على ما ينشأ في ذهن الانسان من الأسئلة الفطرية عندما يرى في هذه الدنيا آثار الاختلال والزوال والفناء والتهدم ، ولا يصلحان ليكونا سنداً يستند إليه نظام للأخلاق صحيح قوي ، وتعال لنعرفك الآن على ما يرى في هذا الشأن دين آخر :

يقول هذا الدين:

١ ــ كما أن لكل شيء في الدنيا أجلا ينتهي إليه لا محالة بصفته الفردية ، وكما أنه مع

انتهائه إليه تظهر فيه آثار الفناء والزوال والاختلال، كذلك إن لنظام العالم الذي نعيش فيه أجلاً لا بد له أن ينتهي إليـــه . ولا بد مع انتهائه إليه أن يعتريه الفناء والزوال والاختلال ، ويحل محله نظام آخر تكون قوانينه الطبيعية مختلفة عن قوانينه الطبيعية .

٢ – وأنّ الله سبحانه وتعالى بعد اختلال هذا النظام سيقيم محكمته التي سيحاسب فيها عباده حساباً دقيقاً ، وأن الإنسان يومئذ سينال حياة جسدية جديدة ، ويتمثل بين يدي ربه ، وهناك يوزن ويفحص بكل دقة ما قد كسب من الأعمال في حياته الأولى ، ويجزى عليها جزاءاً أوفى ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٣ – وأن ليست حياة الإنسان الدنيوية هذه إلا مقدمة لحياته الآخرة فهي حيـــاة طارئة مؤقتة وتلك حياة خالدة سرمدية ، وهذه ناقصة وتلك كاملة ، وأن الأعمـــال لا تترتب كل نتائجها في هذه الحياة المؤقتة ، وستترتب على أكمل وجوهها في الحياة الآخرة ، فعلى الإنسان أن لا يطمح ببصره إلى مجرد النتائج العاجلة الناقصة ، بل الخادعة في معظم الأحيان ، التي تترتب على أعماله في هذه الحياة الدنيا ، وإنما عليه أن يحدد القيم لأعمـــاله على اعتبار هذه السلسلة الكاملة بنتائج الأعمال وثمراتها .

والدين الذي يقول بهذا هو الدين الذي قد عرضه الأنبياء عليهم السلام، ويدعو إليه القرآن ويقيم الدلائل على صحته وحقّانيته . وقبل أن نتكلم على نتائج هـذا الدين في الاخلاق ومرتبته وأهميته في الحضارة الإسلامية يجمل بنا أن نرى ما هي دلائله وبراهينه؟

الطريق الصحيح للتحقيق العقلي :

هل للانسان من حياة بعد موته؟... سؤال إنما يتعلق بما وراء حدود حواسنا وتجاربنا الحسية ، وكل ما نشاهده هو أن إنساناً بينما كان يتنفس ويتحرك بإرادته إلى ما قبل لحظات إذا به قد حرم كل أثر من آثار الحياة ، وقد غاب عن جسده شيء هو الذي كان قد هيأ لهذه المادة الصماء غير النامية وغير المتحركة قوة النمو والحركة . أما أين قـد ذهب ذلك الشيء ؟ . وهل إنه لا يزال موجوداً أم قد انعدم بعد انفصاله من الجسد وهل سيرتبط بهذا الجسد أو بجسد آخر مثله مرة أخرى أم لا؟ . . لا نستطيع الجواب على هذا السؤال بالنفي ولا بالإثبات معتمدين على حواسنا أو عيوننا التجريبية لأن ذلك الشيء بالذات مـا كنا أحسسنا به من قبل ولا نحسه الآن . فما يجب أن نكون على ذكر منه منذ بداية البحث : أن هذا السؤال لا علاقة له أصلاً بالعلوم التجريبية ، لأن هذه العلوم إن كانت لا تستطيع أن تجيب عليه بالإثبات ، فإنها لا تستطيع كذلك أن تجيب عليه بالنفي سواء بسواء ، غاية

ما لها أن تقول هو أنها لا تعرف ماذا يكون بعد الموت ، ولكنها إذا جاءت عن طريق اللاأدرية الخالصة وقالت إنها ما دامت لا تعرف ماذا يكون بعد الموت ، تعرف أنه لا يكون شيء بعد الموت ، فلا يكون ذلك منها إلا استهزاء بالعقل واعتداء لحدوده . .

والوسيلة الاخرى عندنا للعلم بعد الحواس هي التفكر ، إذ أن الإنسان دائماً يأبى أن يقيد نفسه بالمحسوسات والمرئيات ومن عين ما تقتضيه فطرته أن يستعين بما فيه من قوى الفكر والتأمل ويحاول الكشف عن الحقائق المستترة وراء المحسوسات والمرئيات ، وهذا الجهد الفكري هو المعبر عنه بـ (التفكر) وله طريقان :

أولها . أن تغمضوا أعينكم عما في الآفاق وفي أنفسكم من الآثار والآيات وألا تقيموا لها ما تستحق من الوزن ولا تستخرجوا النتائج (هكذا) إلا من المقدمات العقلية ، ولا تتبعوا إلا الاحكام العقلية فهذا ميدان الفلسفة القياسية المجردة ، وهو أصل كل فساد في الأرض ، ومنه نبعت كل المذاهب الفلسفية التي إذا ارتبك فيها الإنسان مرة فإنه قلما يجد سبيلاً للخروج من مجاهل الفكر والخيال ، والتي عليها قامت تلك العقائد المتضاربة عن الله وملائكته ، ونظام العالم والحياة بعد الموت التي إنما هي نتيجة التخبط في الظلام واتباع الوهم والظن والخرص والتخمين .

وثانيها : أن تفتحوا أعينكم وتشاهدوا ما في الآفاق وفي أنفسكم من الآثار الحاملة للمشعل في الطريق إلى الحقيقة ، وتتوصلوا باستعانة العقل السليم والفكر الصحيح إلى الحقائق الكامنة في أعماق هذه الآثار . وفي هذا الطريق تسير الفلسفة جنباً الى جنب مع العلوم التجريبية ، وهذا أيضاً وإن لم يكن طريقاً يقينياً للوصول إلى الحقيقة . ولكنه — بصرف النظر عن الهداية السماوية — هو الطريق الوحيد لدى الأنسان للوصول إلى الحقيقة وبه وحده من الممكن أن يصل إليها أو يدنو منها على الاقل ، بشرط أن يكون على قوة غير عادية للمشاهدة والاعتبار ، وتكون قواه للإدراك لطيفة مرهفة ، وتكون به أهلية كافية للفكر والتأمل ، وعلى هذا الامتزاج بين المشاهدة والفكر ، يتوقف رقي الإنسان وتقدمه في الحكمة النظرية. إن النظريات التي يقوم على أساسها اليوم بناء الحكمة وإن المبادىء التي لا يخطو طالب العلوم التجريبية خطوة بدون الاعتقاد بها . . ما منها نظرية واحدة ولا مبدأ واحد يقوم على مجرد المشاهدة والتجربة ، بل الذي تقوم عليه كل نظرية من هذه النظريات ، وكل مبدأ من هذه المبادىء هو ذلك القياس العقلي الذي تستخدم فيه المشاهدات والتجارب كالمواد الاساسية . ومن ذلك أن ليس قانون الفطرة ، ولا قانون

الجاذبية ، ولا سلسلة العلة والمعلول ،ولا نظرية النسبية . . .ولا قانون الاختيار الطبيعي" ولا أي قانون أو مبدأ آخر قد آمن به كبار الحكماء والعقلاء وعلماء العلوم الطبيعية ... إلا نتيجة للفكر في مشاهدة الآثار والمظاهر ، واستخدام القياس العقلي ، وإلا فإن أحداً لم يشاهد هذه القوانين ولا هذه المبادىء مشاهدة حسية .

ثم إن النتائج التي يستخرجها أحد من الحكماء بمشاهدتــه وقياسه يكون على يقين من صحتها على قدر ما يكون أحد من عامـــة الناس على يقين من صحة شيء إذا شاهده بأم عينه مشاهدة حسية ، ولكن على الرغم من هذا فإن هذا الحكيم مهما كان عظيماً ماهراً لا يستطيع أن يجبر على الإيمان بهذه النتائج أحداً غيره إذا كان ينكرها إنكاراً ، لأن أحداً ما لم يشاهد الآثار والمظاهر بذلك النظر الخاص الذي قد شاهدها به ذلك الحكيم نفسه ، ولم يستخدم في ذلك من الفكر والروية والتأمل ما قد استخدمه هو لا يستطيع بحال أن يتوصل إلى هذه النتائج . أما عامة الناس فلا سبيل لهم للدخول في عالم الحكمة وإحراز الرقي والتقدم فيه إلا واحدة هي أن يؤمنوا عن ظهر الغيب بالنتائج التي قــد استخرجها حكيم يعتمد على حكمته وبصيرته دون أن يكونوا بأنفسهم قــد توصلوا الى النتائج بمشاهدتهم وقياسهم .

رسخ في ذهنك هذه المقدمة فإنه لا بد أن تكون على يقين من صحتها إذا ما أردت أن تفهم بيان القرآن واستدلاله في ما يتعلق بعالم ما وراء الطبيعة . والحقيقـة أن كثيراً من الأغلوطات والمفاهيم الخاطئة لا تنشأ في ذهن الإنسان إلا لعدم رسوخ هذه المقدمة في ذهنه . .

اعتراض المنكرين للحياة الآخرة .

إن القرآن لما عرض على الناس عقيدة الحياة الآخرة ودعاهم إلى الإيمان بهـا ، ما كان حجة منكريها في ذلك الزمان إلا عين حجة منكريها في زماننا الحاضر ، وذلك أن هذه هي الحجة الوحيدة التي يستطيع أن يحتج بها منكرو هذه العقيدة في كل مكان وزمان ، وخلاصتها : أن الحياة بعد الموت أمر لا يقبله العقل والقياس ، إذ كيف لنا أن نومن بأن الذين قــد ماتوا وتحولوا إلى عظام ورفات وبليت أجزاء أجسادهم أو تبعثرت في الفضاء والتراب والمياه سيرزقون الحياة مرة جديدة .

« وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد » (السجدة ١٠) .

« وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً » (الإسراء ٤٩) .

« أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » (ق : ٣) .

« من يحيي العظام وهي رميم » (يس : ٧٨) .

أسلوب القرآن في الاستدلال :

أما الأسلوب الذي اختاره القرآن للاستدلال في هذا الشأن فهو أنه يدعو الناس قبل كل شيء إلى أن يشاهدوا ما في الآفاق وفي أنفسهم من آيات الله وآثار حكمته ومظاهر قدرته ، ويعملوا فيها الفكر والروية يقول : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (فصلت : ٥٣) .

« أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض » (الأعراف : ١٨٥) .

«وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»(يوسف ١٠٥).

فالذي تنبه عليه هذه الآيات أنكم أيها الناس لستم من القوة والعظمة بحيث من الممكن لكم أن تروا رأي العين ما لا يأتي تحت حواسكم ، أو تعرفوه على حقيقته بالاعتمـــاد على تجربة من تجاربكم ، غير أنكم اذا فتحتم أعينكم ،ورأيتم آيات الله وآثار حكمته ، ومظاهر قدرته الماثلة أمام أعينكم ليل نهار ، وتفكرتم مع ذلك حتى في خلقكم وأنفسكم ، وبذلتم جهوداً صادقة مخلصة للوصول إلى الحقيقة بالتأمل في كل هذه المحسوسات والمرئيات، فإنه لا بد أن يتبين لكم أن كل ما يقال لكم في هذا القرآن، وعلى لسان الرسول الصادق الأمين هو الحق .

إمكان الحياة الآخرة :

ثم إن القرآن يدعو الناس إلى التفكر والتأمل في ما هو أكثر بداهة وجلاء ، حتى من هذه الآيات والآثار نفسها ، ويستدل به على أن ما ترونه بعيداً عن العقل والقياس ليس ببعيد عنها في واقع الامر ، وإن كان بعيداً عن عقولكم وقياسكم وفي ذلك يقول :

« الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » (الرعد ٣) .

« أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها » (النازعات ٢٧) .

وفي هذا استشهاد بآثار الأجرام السماوية على أن الله الذي خلق هذا الكون العظيم

البديع المتسق ، والذي قانونه المهيمن قد شد أكبر سيارة في هـــذا النظام – وأعظم بعددها – لقيوده وأغلاله ، والذي قدرته تحرك هذه السيارات العظيمة بنظام مترابط لا يلحقه خلل ولا انتكاس ولو للحظة من البصر ، والذي قوته قد أقامت طبقات الكون على دعائم غير مرئية وغير محسوسة تعجزون عن ادراكها ... ليس بعاجز عن أن يهلك خلقاً حقيراً مثلكم ثم ينشئه نشأة جديدة ، وإنكم وان كنتم تظنون به هذا الظن فما ذلك منكم الا ظن باطل يقول جل جلاله :

«أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم» (الإسراء ٩٩).

وهو بعدما يدعونا إلى التفكر في آياته وآثار قدرته وحكمته في السماء هكذا، يدعونا الى التفكر في آياته وآثار قدرته وحكمته في عالمنا القريب أي الارض وفي ذلك يقول :

« قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير » (العنكبوت ٢٠) .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » (يس ٣٣) .

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهوَ على كل شيء قدير » (الروم ٥٠) . « ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير »(فصلت ٣٩). « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميِّت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور » (فاطر ٩) .

وهو بعد ذلك يدعونا إلى التفكر فيما قد وضع في ذات أنفسنا من آياته وآثار قدرته وحكمته ويستدل بها على قدرته على إحياء الموتى وفي ذلك يقول :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » (الدهر ١) .

« وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُميتكم ثم يحييكم ثم اليه تُرجعون » (البقرة ٢٨) .

« إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » (الحج ٥) .

«قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة»

« قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبرُ في صدوركم فسيقولون من يعيدُنا قل الذي فطركم أول مرة » (الإسراء ٥٠-٥١)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقـــاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (المؤمنون ١٣ – ١٦) .

« ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » (القيامة ٣٧ – ٤٠) .

والقرآن بعد دعوتنـــا إلى التفكر في الآيات والآثار القريبة من مشاهدتنا وقياسنا ، يعرض علينا دليلاً قاطعاً له أوثق ما يكون من العلاقة بعقلنا العام .

يقول إن إخراج الأحياء من العدم إلى عالم الوجود أصعب من خلقها مرة أخرى على صورتها الأولى بعد افتراقها وانتشار اجزائها . فالذي لم يعجز عن هذا العمل الأصعب ، كيف له أن يعجز عن هذا العمل الأهون ؟ . ومثال ذلك أن رجلاً إذا كان قادراً على اختراع السيارة وقد صنعها فعلا ، فهل يتفق مع العقل أن يقال انـــه ليس بقادر على تركيب أجزاء السيارة على صورتها الأولى بعد افتراقها وفكاكها ؟ عليكم أن تعرفوا قياسا على هذا المثال أن الله باريء الكون ، وصانع السموات والأرض الذي قد خلقكم من العدم ...

من السفاهة أن تقولوا بالنسبة له أنه عاجز عن خلقكم مرة أخرى بعد موتكم . وفي ذلك يقول عز من قائل :

«أولم يروا كيف يُبديء الله الخلق ثم يعيدُه إن ذلك على الله يسير» (العنكبوت١٩) .

« وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (الروم ٢٧) .

« أفَعَيِينا بالخلق الأول بل هم في لَبْسٍ من خلقٍ جديد » (ق ١٥)

وبعد ذلك لا يبقى إلا شبهة واحدة هي أن الموتى الذين قد فنيت أجسادهم كيف من الممكن أن ترد إليهم هذه الأجساد عينها ، فمنهم من مات غرقاً في المـــاء وصار كل جزء من جسده غذاء للأسماك وحيوانات الماء الأخرى ، ومنهم من مات حرقاً أو قـــد أحرق بعد الموت وتحول كل جسده إلى رماد ودخان ، ومنهم من دفن في الأرض وامتزج كل جزء من جسده بالتراب ، فكيف من الممكن أن يعاد إليـــه جسده الأول وتنفخ

فيه روحه الأولى ؟ .

هذه الشبهة قد حاول الناس دفعها بقولهم إنه ليس من اللازم لإعطاء الروح الحياة الجسدية أن يعاد إليها جسدها الأول إذ من الممكن أن تعطى جسداً آخر مشابهاً لجسدها الأول. أما القرآن فيقول إن الله قادر أن يعيد إليها عين جسدها الأول لأن أجزاء جسدها الأول ما انعدمت ، وإنما هي موجودة على صورة مبعثرة إما في الفضاء أو في السماء ، أو في التراب ، أو في أجساد النباتات والحيوانات ، أو أجرام المعادن، وأن الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم موضع كل جزء فيهما له قدرة تامة على أن يجمع هذه الأجزاء المبعثرة مرة أخرى ، ويخلقها على صورتها الأولى :

« قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » (ق ٤) .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » (الأنعام ٥٩) .

والمقصود من كل ما قيل في هاتين الآيتين رفع الاستبعاد الذي ينكر الناس على أساسه الحياة الآخرة . إنه ليس السبب الحقيقي في إنكارهم أنهم قد علموا على وجه قاطع إيجابي ... بتجربة أو مشاهدة أو بوسيلة أخرى من وسائل العلم اليقيني أن لا حياة للإنسان بعد موته ، وإنما الأساس الذي يقوم عليه إنكارهم أن عقلهم ضيق لا يتسع لتصور البعث بعد الموت ، وإنهم ما شاهدوا منظره بأعينهم ، وإنهم معتادوا الرؤية أن من مات مرة لم يرجع إلى الحياة ، لأجل هذا إذا قيل لهم إن الذين قد ماتوا ستعاد إليهم الحياة رأوا في هذا الأمر المخالف لعادتهم أمراً مستبعداً لا يتفق مع العقل والقياس ، ولكن تقدموا خطوة أخرى في سبيل الفكر والتأمل يزل عن نفوسكم هذا الاستبعاد والاستغراب ، وتروا أن ما كان محالا من قبل قد أصبح من الممكن الآن . إن الأمور التي ترونها الآن ممكنة بل واقعة انما السبب في كونها كذلك أنكم معتادون لمشاهدة وقوعها . إن انشقاق البذرة في بطن الأرض وظهورها بصورة شجرة عظيمة ، وإن دخول قطرة من الماء في الرحم وخروجها منه بصورة إنسان . وإن تولد الماء باجتماع غازين ، وتحوله إلى البخار ، وتحول البخار إليه بترتيب خاص مرة بعد أخرى . وإن جريان مئات الملايين من النجوم السيارة كالكرات في فضاء العالم الواسع ، وارتباط بعضها ببعض بدون ما

علاقة مادية مرئية ، بحيث لا يدب دبيب التغير والانقلاب في نظامها للحركة والدوران .. أنتم معتادون لرؤية كل هذه الأمور ، ولذا لا ترون فيها ما يدعو إلى العجب والحيرة ، وإنما ترونها أموراً عادية ، ولكن لو كنتم لا تشاهدونها ، وكنتم مستأنسين بنظام آخر غير نظامها ، لرأيتم أنها أبعد ما تكون عن العقل والقياس ، وأنكرتم إمكانها بكل شدة . وهب أن المريخ لا تنبت فيه الأشجار ، وعلى هذا إذا قيل لسكانه إن بذرة صغيرة حينما تدفن في الأرض تخرج منها شجرة باسقة تكون أعظم من جرمها الابتدائي بآلاف بل بمئات الآلاف من المرات ، ثم تتوالد فيها آلاف مؤلفة من البذور مثلها ... إذا قيل ذلك لسكان المريخ لم يكن عجبهم منه أقل من عجبكم من البعث بعد الموت ، ولا بد أن يقولوا باستحالته كما تقولون باستحالة البعث بعد الموت ، ولكن من الظاهر أن ليست هذه الفتوى بعدم الأمكان بناء على العلم وإنما هي بناء على الجهل ، وليست هي بنتيجة لبعد النظر وحصافة العقل ، وإنما هي نتيجة لقلة النظر وقصور العقل . وما استبعادكم أنتم للبعث بعد الموت إلا مثل هذا ، إنكم إذا أدركتم حقيقة استبعادكم ، علمتم أحسن علم أن شيئاً إذا كان بعيداً عن عقلكم وقياسكم فما بعده هذا بدليل كاف على استحالته وعدم إمكانه في واقع الأمر ، أو لا ترون أن شيئاً من الأشياء التي يخترعها الإنسان اليوم كانت بعيدة عن عقله وقياسه قبل مئة سنة ، ولكن الذي قد شهدت به الحوادث أن لم تكن هذه الأشياء التي يراها الإنسان اليوم بعيدة عن عقله وقياسه سوف تخرج إلى عالم الظهور على يد الإنسان نفسه بعد قرن أو قرنين ، وسوف يثبت ظهورها إن لم تكن مستحيلة ولا غير ممكنة ... إذا كانت هذه هي حقيقة العقل وحقيقة بُعد الأشياء عنه أو قربها منه ، فلا يصح الحكم على شيء بأنه مستحيل أو غير ممكن لمجرد أن عقل الإنسان المحدود لا يتسع له .

إن أول خطوة لإثبات شيء إذا كان خافياً على النظر وكان وراء حدود الحواس ، أن يثبت إمكانه . فالقرآن بإزالة استبعاد الحياة الآخرة بأسلوبه البليغ قد أثبتها أمراً ممكناً .

والخطوة الثانية بهذا الشأن أن تثبت حاجة الإنسان إلى ذلك الشيء حتى يعترف به عقله ويقول : إن وجوده أولى من عدمه .

نظام العالم قائم على الحكمة :

إن إثبات حاجة الإنسان إلى الاعتقاد بالحياة الآخرة يتوقف – في حقيقته على جواب

السؤال التـــالي : (هـل إن هذا الكون صنعه حكيم مدبر أم أنه نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق دون ما حكمة ولا تدبير ؟ .)

يقول الإنسان المادي الدائن بالعلوم التجريبية : إن هذا الكون ما صنعه حكيم مدبر وإنما قد نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق ، وإنما يجري بكل أجزائه – بما فيهـا الإنسان – كآلة متحركة بذاتها ، وفي اليوم الذي ينتهي فيه التعاون والتعامل بين المادة والطاقة (Energy) يختل فيه هذا النظام . من الظاهر أن نظاماً مثل هذا اذا كانت الطبيعة العمياء هي التي تسيره بدون ما علم ولا عقل ولا شعور ولا إرادة ولا حكمة ، فمن العبث أن يبحث فيه عن نوع من الغاية والهدف ، لذا فإن العلوم التجريبية المادية مـا أخرجت من حدود وظيفتها التعليل المبدئي (Tebological Caumtion) لآثار الكون وحكمته فحسب بل قالت ان هذا الطريق للفكر ما هو إلا لغو وسخافة ، وقالت ان هذا الكون وكل موجود من موجوداته ، وكل فعل من أفعاله هو بدون ما غاية ولا هدف. فما العين للنظر وانما النظر نتيجة لترتيب خاص للمادة يوجد في العين ، ومـــا المخ بأداة للفكر والتأمل والشعور والعاطفة ، وانما تفرز الأفكار والعواطف والإرادات من مادته كما تفرز الصفراء من الكبد ، ويفرز البول من الكلية ، فمن الخطأ (تقول هذه العلوم) أن تقدر الأعمال الطبيعية الصادرة عن الأشياء غايتها والمقصود من وراء تركيبها وأن يبحث في وجودها عن حكمة أو تدبير أو عقل .

إذا آمن الإنسان بهذه النظرية واعتقد صحتها فلا مبرر البتة لأن يشعر في نفسه بحاجة إلى حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، لأن الكون إذا كان كل نظامه إنما يجري في نظره بدون ما غاية ولا هدف على يد طبيعية عمياء لا علم لها ولا شعور ، فإنما هو بمنزلة لعبة كلعب الأطفال ، وما كل موجود من موجوداته إلا عبث سيفنى كما يفنى كل عبث بعد انتهائه ، ومن المستبعد أن تكون طبيعة عمياء مثل هذه متصفة بالعدل فيرجى منها حساب أو عدل ، وإذا فرضت أنها متصفة بالعدل فما دام الإنسان إنما يلعب في يدها كلعبة لا تملك لنفسها إرادة ولا اختيار فضلاً عن أن تعمل شيئاً بإرادتها واختيارهـا فاللازم أن لا تكون عليه تبعة أي عمل من أعماله الصالحة أو غير الصالحة ، كما لا تكون على السيارة تبعة سيرها في أية جهة صحيحة أو غير صحيحة ، وإذا ارتفع السؤال عن التبعة فمن العبث السؤال عن العدل أو الظلم ، وعن الجزاء أو العقاب في هـــذه الحياة

الدنيا نفسها ، فضلا عن أن يعترف له بحياة أخرى بعد هذه الحياة .

ولكن هذه النظرية لا تتفق مع العقل ، وحتى الآن لم يعرض على صحتها دليل عقلي ولا شهادة علمية ، ولباب كل ما قيل حتى الآن في الدفاع عنها أننا لا نرى أحدا قد خلق هذا الكون ويعنى بتسييره ، ولا نعقل ما إذا كانت ثمة غاية من وراء خلقه ، وإنما نراه سائراً بدون ما صنع قادر ، وليس من الممكن أن ندرك غاية لسيره كما أننا لسنا بحاجة إلى إدراكها ... ولكن ليس الجهل بالعلة الفاعلية أو العلة الغائية دليلا على عدمهما . هب أن طفلا يرى آلة الطبع تسير وتعمل ولا يدرك لتحقيق أية غاية قد سيرت هذه الآلة فيظنها مجرد لعبة سائرة بدون ما غاية ولا هدف . يرى أن هذه الآلة كما ينشأ منها الصوت ، وتتحرك أجزاؤها ، وترتجف الأرض من تحتها ، كذلك تخرج منها الأوراق مطبوعة نتيجة لحركتها ، ولا يعقل أن فعلا واحداً من هذه الأفعال أي : خروج الأوراق منها مطبوعة هو الغاية المقصودة من وراء هذه الآلة ، وما سائر أفعالها إلا نتائج طبيعية لحركتها ، وما نظره من القدرة على المشاهدة بحيث يحس ما في أجزائها من التركيب والترتيب والنظام ، ويعقل أن الصورة التي قد خلق عليها كل جزء من أجزائها ، وأن الموضع الذي قد وضع فيه ، هي الصورة المتناسبة لأدائه وظيفته في جسد الآلة ، أن لا يخلق إلا على تلك الصورة ، ولا يوضع إلا في ذلك الموضع ، فبناء على كل ذلك يظن ذلك الطفل الغبي أن تلك الآلة إنما نشأت باجتماع قطع من الحديد على سبيل الصدف والاتفاق ، ولا يعرف برؤية أفعال الآلة وترتيب أجزائها أن الذي قد صنعها لا بد أن يكون حكيماً قادراً ، فإنه لحكمته وقدرته قد صنعها بأتقن أسلوب وعلى أقوم صورة بحيث ليس جزء من أجزائها عبثا ولا غير متناسب مع وظيفته .. قل لي بالله ربك إن ذلك الطفل غير العاقل إذ أقام على مشاهدته هذه الآلة من آلات الطبع نظرية قائلة بأن الآلة ليست فيها علة فاعلية ، ولا علة غائية ، ولا قد صرف في صناعتها شيء من الحكمة ، ولا قد روعيت فيها غاية من الغايات ، فهل لرجل عاقل بالغ أن يعترف بأن ذلك الطفل قد أقام نظرية صحيحة في ما يتعلق بحقيقة تلك الآلة ؟ ..

وكل هذا إن كان غير صحيح بشأن آلة الطبع فأولى به أن يكون غير صحيح بشأن هذا الكون العظيم الذي تدل كل ذرة فيه على صانعه وقدرته وإرادته وحكمته . ومهما يقل الطفل الناقص العقل ، القصير النظر ، فما لرجل عاقل اذا شاهد ما في هذا الكون من الآيات والآثار بعين العبرة والبصيرة أن يشك ولو للحظة واحدة أنه من المحال أن

ينشأ ويسير بدون ما حكمة ولا علم ولا إرادة ، نظامٌ مثل هـــذا وهو من الإحكام والاستقامة والتناسب والاتساق بحيث ليس فيه شيء عبثاً ، وليس فيه شيء أكثر ممــا تدعو اليه الحاجة ، ولا أقل منه ، وكل جزء فيه موضوع في محله اللائق به كما تقتضيه الحاجة ، ولا يرى في نظامه فتور ولا ضعف ولا نقص .

من المحال أن يكون النظام القائم على الحكمة مهملا بدون ما غاية ، والدلائل التي قد أقامها القرآن الكريم على حاجة الإنسان إلى الحياة الآخرة لا تقوم كلها إلا على الفكرة القائلة : بأن صانع هذا الكون حكيم قادر لا يخلو كل فعل من أفعاله من الحكمة ، ومن المحال أن يعزى إليه شيء لا يجتمع مع الحكمة . يقول القرآن بعد إقامته هذا الأساس لفكر الإنسان :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثـــاً وأنكم الينا لا تُرجعون فتعالى الله الملك الحق » (المؤمنون ١١٥) .

« أيحسب الإنسان أن يُترك سدى » (القيامة ٣٦) .

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتُهم أجمعين » (الدخان ٣٨) .

« أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » (الروم ٨) .

فالذي تشير اليه هذه الآيات أنكم أيها الناس إن كنتم تظنون أن نظام هذا الكون لمجرد أن يبقى سائراً إلى أجل ثم ينعدم بدون ما نتيجة ، فكأنكم تظنونه فعلا عبثاً سخيفاً ، أو لعبة كلعب الأطفال ، ولا تظنونه صادراً عن حكيم قادر أبدا ، وإنكم إن كنتم تعتقدون أن الله هو الذي قد صنع هذا النظام وأن الله حكيم خبير ، فعليكم أن تستعينوا بما قد آتاكم الله من قوة العقل والنظر لتعرفوا أن ليس شيء من موجودات هذا العالم بخارج إلى حيز الوجود بدون ما غاية ، ولا بداخل في حيز العدم بدون مـــا نتيجة ، ولا سيما الإنسان ، فإنه أفضل خلائق الله على وجه الكرة الأرضية ، وشخصيته ذات الشعور هي حاصل هذه الكرة الأرضية ونتيجة كل حركاتها وتحولاتها وتطوراتها ، وقد أوتي العقل والفكر والنظر والفهم وقوة الإرادة والاختيار بكمال حكمة ... من المحال أن تكون الغاية المقصودة من وراء خلقه مجرد أن يعيش في هذه الدنيا عدداً من السنين كآلة

من الآلات ثم يدخل عالم الفناء والعدم بموته ...

مصير نظام العالم على مقتضى الحكمة :

ولما قد علم أن ليس هذا الكون قد خلق عبثاً ، وليس شيء فيه بدون ما نتيجة . فالسؤال الثاني الذي يثور بهذا الصدد هو : أي مصير آخر غير العدم المطلق عسى أن يكون لهذا الكون على مقتضى الحكمة ؟ . في آيات القرآن جواب تفصيلي على هذا السؤال لا يكاد يسمع به العقل السليم إلا ويطمئن اطمئناناً كاملا . ولكن من اللازم لفهم هذا الجواب أن تكون – أولاً – على بينة من عدة أمور هي :

١ – إن كل ما في عالم الوجود من الآيات والآثار تشهد شهادة ناطقة بأن ليس لهذا العالم من تغير ولا تطور إلا وهو متجه إلى جهة الارتقاء ، وأن ليس المقصود من كل حركة من حركاته ، أو كل دورة من دوراته إلا أن يساق النقص إلى الكمال ، وأن تضفى على الأشياء صورها الكاملة بعد القضاء على صورها الناقصة ..

٢ – وبما أن قانون الارتقاء هذا انما يعمل عن طريق التغير لذا فإن كل كمال أو ارتقاء في هذا العالم لا بد أن يتقدمه فساد أو قتل – بكلمة أخرى – إنه لما يقتضيه خروج كل صورة جديدة إلى حيز الوجود أن تفسد الصورة السابقة وأن زوال الصورة الناقصة يكون مقدمة لخروج صورة جديدة كاملة إلى حيز الوجود . وهذه التغيرات والتطورات وإن كانت تحصل في هذا العالم في كل حين ، ولكن هناك تغير جلي بارز يحصل بعد تغيرات خفية متعددة ، ويكون هناك في هذا التغير الجلي البارز فساد جلي بارز هو الذي نعبر عنه في عرفنا العام بـ (الموت) أو (الزوال) كما أننا نعبر بـ(العمر) عن المدة الواقعه بين خروج شيء على عالم الوجود وبين موته أو فساده القطعي .

٣ – إن كل صورة من الصور تبغي لنفسها محلا خاصاً يناسبها ويناسب طبيعتها ولا ترضى بأن تسكن محلا لا يناسبها ولا يناسب طبيعتها . فالصورة النباتية – مثلا – لا ترضى بان تسكن جسداً حيوانياً فإنه محل لا يناسبها ولا يناسب طبيعتها . ولا تطلب الصورة الإنسانية غير الجسد والنظام الجسدي الخاص الذي قد خلق الإنسان . وعلى هذا إذا أريد أن يعطى شيء صورة راقية فمن اللازم أن يهدم المحل الذي كان بني لصورته القديمة الناقصة . وأن يبنى لصورته الجديدة الراقية محل جديد يناسبها ويناسب طبيعتها .

٤ — اذا فهمت شمول قانون الارتقاء ، وإحاطته بكل أجزاء العالم ، فقد سهل عليك أن تعرف أن هذا القانون كما يشمل كل أجزاء العالم كذلك يشمل نظام العالم نفسه. فالنظام الذي نشاهده الآن لهذا العالم لا ندري كم من نظم قد خلت من قبله منذ بدء سلسلة الخلق والإبداع ، وكم من مراحل الارتقاء التدريجي قد اجتازتها سلسلة الوجود حتى انتهت إلى نظامنا الحاضر الذي نشاهده الآن ، وكذلك ليس نظامنا الحاضر الذي نشاهده الآن بآخر نظام قد انتهت اليه سلسلة الوجود ، ولن تجتازه إلى نظام آخر بعده ، بل لا بد له أيضاً عندما يبلغ آخر كمالاته الممكنة ولا يعود به صلاح لقبول درجة للكمال أعلى أن يتهدم ويقوم على انقاضه نظام آخر يختلف عنه في قوانينه ، ويكون به صلاح لقبول درجات كمال الوجود ومراقبه العليا.

٥ — إننا اذا نظرنا في النظام الحاضر للعالم بعين الجد والاهتمام ، علمنا بدون ما ريب أنه نظام ناقص يحتاج إلى مزيد من الكمال... فما حقائق الأشياء فيه إلا متلوثة بالأرجاس المادية حتى قد نزلت إلى درجة الأوهام ، ونالت ملابسها المادية درجة الحقائق ، وأن شيئاً على قدر ما هو لطيف ، وعلى قدر ما هو مجرد من الأرجاس المادية هو خفي مستتر وراء حدود العقل والشعور في هذا النظام ، وأن الجسد المادي له وزن في هذا النظام ، ولكن لا وزن فيه البتة للحقائق اللطيفة البسيطة. ومن الممكن أن يوزن فيه الحديد والحجر والخشب ، ولكن لا مجال في قانونه لوزن العقل والرأي والفكر والنية والخيال والعزم والعاطفة والوجدان ، ومن الممكن أن توزن فيه او تكال فيه الحبوب والفواكه ، ولكن لا مجال فيه لوزن المحبة والنفرة ، ومن الممكن أن يقاس فيه الثوب ولكن لا مجال فيه لقياس البغضاء والحسد ، ومن الممكن أن تحدد فيه قيمة الدنانير والدراهم ، ولكن لا مجال فيه لتحديد قيمة العاطفة التي تحث الإنسان على السخاء أو البخل.

هذه بعض من وجوه النقص في هذا النظام ، ولأجل نقصه هذا يتطلب العقل نظاماً أرقى منه لا تكون فيه الحقائق بحاجة إلى الملابس المادية ، وإنما تكون بارزة يراها كل من أراد معرفتها بدون ما حجاب ولا حاجز ، وتنتصر فيه اللطافة على الكثافة ، ويتجلى فيه كل ما هو خاف مستتر الآن.

ومن وجوه النقص — كذلك — في هذا النظام أن القوانين المادية لها الغلبة ولها الكلمة

المسموعة فيه ، ولذا لا يحدث فيه للافعال إلا النتائج المتفقة مع مقتضيات القوانين المادية ، ولا تحدث فيه النتائج المتفقه مع العقل والحكمة . فمثلا اذا أوقدت فيه ناراً احترق بها كل شيء قابل للاحتراق . وإذا صببت فيه ماء ابتل به كل شيء قابل للابتلال ، ولكنك إذا عملت فيه صلاحاً لا تظهر فيه نتيجته بصورة الصلاح على كل حال كما يقتضيه العقل والحقيقة ، وإنما تظهر بالصورة التي تقتضيها القوانين المادية ولو كانت هي صورة الفساد المعاكسة تماماً لصورة الصلاح .

والعقل عندما يشاهد هذا النقص في النظام الحاضر يوجب أن يقوم بعده نظام أرقى منه تجري فيه القوانين العقلية بدلا من القوانين المادية ، وتظهر فيه للأفعال نتائجها الحقيقية التي لا تظهر في النظام الحاضر لغلبة وسيادة القوانين المادية فيه ...

مصير نظام العالم حسب بيان القرآن :

إذا أدركت هذه المقدمات فتعال لنريك الآن ماذا يجيب به القرآن على سؤالك عن مصير نظام العالم في ما قد صور في آياته من مشاهد القيامة والنشأة الآخرة يقول :

« ما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى » (الاحقاف ٣) .

« وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » (الرعد ٢) .

ثم إنه يصور أهوال يوم القيامة بكلماته التالية :

« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت » (الانفطار ١ ، ٤)

« إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيرت »(التكوير ٣١) .

« فإذا النجوم طمست، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نُسفت » (المرسلات٨، ١٠)

« فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » (القيامة ٧ ، ٩) .

« وحُمِلت الأرض والجبال فدُكّتا دكة واحدة » (الحاقه ١٤) .

« يوم تُبدلُ الأرض غيرَ الأرضِ والسموات وبرزوا لله الواحدِ القهـار » (ابراهيم ٤٨) .

ففي كل هذه الآيات إشارات واضحة إلى أن ليس نظام العالم الجاري بنظام خالد سرمدي وإنما هو نظام مؤقت له أجل معلوم إذا انتهى اليه فلا بد له من الاختلال والتهدم ،

ولا بد إذن للشمس والقمر والأرض وما اليها من السيارات التي هي أركان هذا النظام ، ويقوم هذا النظام بدورانها أن تتناثر ويحتك بعضها مع بعض ، ويخبو نورها ، ولا بـد إذن أن يتهدم هذا البناء الموقت ، ولكن ليس معنى ذلك أن نظام العـالم سيعدم بذلك عن الوجود ، وتنتهي سلسلة الخلق والإبداع ، وإنما معناه أن سيبدل عندئذ الطور الخاص الذي نشاهده الآن لعالم الوجود ، ويقام مقامـــه نظام آخر ، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل :

« يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسموات » (ابراهيم ٤٨) .

نظام الحياة الآخرة :

أما كيف ومن أي نوع سيكون ذلك النظام ؟ ... فيعلم من الكيفية التي وردت في القرآن الكريم بدون ما ريب ولا إبهام أن ذلك النظام إنمـــا سيكون صورة ارتقائية لنظامنا الحاضر ، وإكمالا لنقصه على عين ما يقتضيه العقل سيكون فيه كل شيء من الوزن والكيل والقياس ، ولكن لا للأشياء المادية وإنمـا للمعاني المجردة ، والحقائق اللطيفة البسيطة . سيوزن فيه الخير والشر ، والبر والإثم ، والفضيلة والرذيلة ، والإيمان والكفر ، والاخلاق والملكات ، وستقاس فيه النيات والإرادات ، والعواطف والهواجس والأحاسيس وسائر أفعال القلوب . لا يحاسب فيه الانسان على وزن الخبز الذي أطعمه أحداً من الفقراء والمساكين ولا على عدد الدراهم التي أعطاها أحدا من السائلين والمحرومين وإنما يحاسب فيه على النية التي حملته على هذا الكرم والسخاء ، وإن القانون فيـــه لا يكون مادياً ، وإنما يكون معنوياً . وفي ذلك يقول جل من قائل :

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (الاسراء ٣٦) .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظـــلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (الانبياء ٤٧) .

« والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم » (الاعراف ٨ — ٩) .

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليُروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (الزلزال ٥ — ٨) .

وسيبرز في ذلك النظام كل شيء هو مستتر لا نراه بأعيننا في نظامنا المادي الحاضر

بسبب غلبة القوانين المادية وقيودها ، وستبدو فيه الحقائق اللطيفة والمعاني المجردة بدون ما حجاب ولا حاجز كما هي على حقيقتها :

« لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (ق٢٣).

« يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية » (الحاقه ١٨) .

وفي ذلك النظام ستحدث للأفعال نتائجها الحقيقية المتفقة مع العقل والعدل ، ولا تجري فيه القوانين المادية ولا الأسباب المادية ، كما هي تجري اليوم في نظامنا الحاضر ولتأثيرها لا تحدث هنا للأفعال نتائجها الحقيقية العقلية ، لذا فإن كل شيء يحول هنا دون أن يظهر العدل والقسط وتترتب على الأفعال نتائجها الحقيقية العقلية .. سيعود بدون ما تأثير في نظام الحياة الآخرة . فمثلاً إن المال والجاه ، والحسب والنسب ، والكياسة والفطانة ، وسلاطة اللسان ، وكثرة الوسائل المادية وقوة الحلفاء ، والأصدقاء والأقرباء ، وسعيهم وشفاعتهم ، كل هذه من الأسباب التي تنقذ الإنسان في نظامنا الحاضر من نتائج كثير من أقواله وأفعاله، ولكنها ستفقد تأثيراتها في نظام الحياة الآخرة، فلا يترتب فيه على كل فعل من أفعال الإنسان ، ولا على كل قول من أقواله ، إلا النتيجة التي يجب أن تترتب عليه على مقتضى من العقل والعدل والحق والصواب .

« هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » (يونس ٣١) .

« ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (آل عمران ٢٥)

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء » (آل عمران ٣٠)

« واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم يُنصرون » (البقرة ٤٨)

« فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » (المؤمنون ٣١)

« يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء ٨٨)

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم

ما كنتم تزعمون » (الانعام ٩٤) .

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامه يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » (الممتحنه ٣) .

« يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه » (عبس ٣٤ ، ٣٧) .

ومن وجوه النقص في نظامنا الحاضر أن ليست فيه قسمة جوائز الطبيعة ومواهبها بقائمة على حسن الأعمال وإنما هي قائمة على عوامل لا تكون فيها الأعمال الذاتية ، ولا الاستعدادات الشخصية إلا بمنزلة سبب من الأسباب ، فطالما تتغلب عليها عوامل كثيرة أخرى ، وتوهن تأثيرها بل تزيله إزالة كلية ، لأجل هذا فلا دخل هنا للاستحقاق الذاتي في قسمة جوائز الطبيعة والسواء بها ، وإن كان فإنما هو بمنزلة الصفر ، من الممكن هنا أن يترفع الإنسان في النعيم ، ويتمتع بالرغد والرفاهية ، واللذات المادية ، والخيرات الدنيوية على الرغم من ظلمه وفسقه وفجوره طول حياته ، كما أنه من الممكن هنا أن يقضي كل حياته بالفقر والبؤس ، والفاقة والمصائب والآلام الدنيوية ، على رغم التزامه الصلاح والأمانة والتقوى والفضيلة طول حياته ..

فهذا النقص يحتاج إلى الإكمال ، يقضي العقل والعدل والحكمة أن يترقى هذا النظام حتى يتحول إلى نظام كامل بكل معنى الكلمة ، إلى نظام لا تكون فيه قسمة الجزاء والعقاب والثواب والعذاب إلا بالعدل والقسط ، ولا ينال فيه كل شخص إلا ما يستحقه بناء على حسنه أو قبحه الذاتي . يقول القرآن : إن نظام الآخرة لا يكون إلا نظاماً كهذا :

« أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (ص ٢٨) .

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » (الجاثيه ٢١) .

« ولكل درجات مما عملوا » (الانعام ١٣٢) .

« وأزلفت الجنة للمتقين وبُرّزت الجحيم للغاوين » (الشعراء ٩٠) .

فهذا هو نظام الحياة الآخرة كما يقرره دين محمد ﷺ ودين سائر أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم وسلامه . أما الذين يرون في هـذا الكون وفي نظامه لعبة كلعب الأطفال ، أو حادثا من الحوادث بدون ما غاية ولا نتيجة ، ولغزاً من الألغاز المرتبكة ما بدأ إلا بالعبث ولا ينتهي إلا بالعبث . فلا يجدون في عقيدة الحياة الآخرة هذه، ولا في دلائلها وشواهدها شيئاً جديراً بالقبول والتسليم . وأما الذين يعتقدون أن هذا الكون ما نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق ، وإنما نشأ بخلق الله العظيم الحكيم ، فهم عندما ينظرون في دلائل عقيدة الحيـاة الآخرة وشواهدها يعترفون بأنه من الـلازم أن يحدث بعد نظام الكون الحاضر نظام آخر بمثل هذا الطور وبمثـل هذه الكيفية ويقولون : إنه لما قد ثبت الإمكان للحياة بعد الموت فإن ثبوت الحاجة إلى هذا الممكن أكثر من الكافي للإيمان بأن الله العلي الحكيم لا بد أن يوجد هذا الممكن اللازم للوجود ..

فالذي قد ثبت بما قلنا في هذا المبحث أن ليست الحياة الآخرة التي قد دعا الإسلام إلى الإيمان بها ببعيدة عن العقل كما يعتقدها الماديون عامة ، وإنما هي من عين ما يقتضيه العقل والعلم والحكمة ، ومن المحال أن تهز هذا الإيمان وتحدث فيه الثلمة مرحلة من مراحل رقي العلم ، بشرط أن يكون ذلك الرقي رقيا حقيقياً لا رقياً سطحياً صورياً ..

حاجة الانسان إلى عقيدة اليوم الآخر :

قد ثبت مما قلناه حتى الآن أن وقوع حياة أخرى بعد حياتنا الدنيا الحاضرة ممكنة وأنه أقرب إلى القياس ، وأنه عين ما تقتضيه الحكمة وأن العقل – بشرط أن يكون سليماً والعلم – بشرط أن يكون حقيقياً – لا يمنعان أبداً الإيمان بعقيدة اليوم الآخر كما قد عرضها القرآن ، وإنما يحملان الإنسان عليها حملا ويدفعانه إليها دفعا ..

ولكن ينشأ هنا سؤال آخر هو : ما هي حاجتنا إلى الإيمان بعقيدة اليوم الآخر هذه. ولماذا قد جعلها الإسلام من أركان الإيمان؟ولماذا قد أكدها القرآن، وأبدأ وأعاد في دعوة الناس إليها حتى جعلها مما لا يدخل الإنسان في الإسلام بدونـه ، وهدده إذا أنكرها بحبط كل ما كسب من الأعمال طول حياته ؟... إذا تأملنـا عقيدة اليوم الآخر كما قد عرضها القرآن الكريم وانعمنا فيها النظر بعين الجد والاهتمام ، علمنا على اليقين أنها ليست بمجرد نظرية فلسفية بل لها أوثق ما يكون من العلاقة بأخلاق الإنسان وأعماله في جملة شعب حياته وتتغير بها وجهة نظره في الحياة الدنيا رأساً على عقب ، فمعنى إيمانه

بها أن لا يرى نفسه في هذه الدنيا كائناً حراً طليقاً ، ولكن كائناً ذا تبعة ومسؤولية ، ولا يؤدي جملة أعماله وتصرفاته إلا على شعور تام من أن عليه تبعة كل حركة من حركاته ، وأنه مسؤول عنها في حياته المقبلة ، وأن سعادته أو شقاءه في مستقبله لا يتوقف إلا على أعماله الصالحة أو السيئة في حاضره ومعنى عدم إيمانه بها أن يرى نفسه كائناً حراً طليقاً لا تبعة عليه ولا مسؤولية ، ولا يؤدي جملة أعماله ولا يرتب جملة تصرفاته في هذه الحياة الدنيا إلا على الظن بأنه ليس مسؤولا عنها ، وأنه لا تترتب عليها نتيجة حسنة أو سيئة في حياة أخرى بعده هذه الحياة . . .

ومن التأثير اللازم لخلو ذهن الإنسان من عقيدة اليوم الآخر أو عدم إيمانه بها ، أنه لا يطمع ببصره إلا الى النتائج المترتبة على أعماله في هذه الدنيـــا ، ولا يحكم على شيء بالمنفعة أو المضرة إلا باعتبار هذه النتائج فحسب . إنه يحترز عن أكل السم ولا يضع يده في النار لماذا ؟ لأنه يعلم أنه لا بد أن يذوق وبال هذين الفعلين ونتائجهما السيئة في حياته هذه ، وأما الظلم والكذب والخيانة والغدر والغيبة والزنا وما اليها من الأفعال التي لا تظهر نتائجها السيئة في هذه الحياة كاملة فإنما يحترز عنها على قدر ما يخاف من ظهور نتائجها السيئة في حياته هذه ، ولا يتردد في اقترافها حينما لا يرى نتيجة سيئة تترتب عليهما ، أو يرجو أن ينال بها منفعة مادية في هذه الدنيا نفسها . وجملة القول أن فعلا معنويا لا تكون له في نظره قيمة معنوية معينة ، وإنما يكون حسنه أو قبحه متوقفاً في نظره على حسن أو قبح نتيجته المترتبة عليه في هذه الحياة الدنيا نفسها . .

أما الذي يقول بعقيدة اليوم الآخر . فلا يطمح ببصره الى النتائج العاجلة المترتبة على أعماله في هذه الحياة وحسب ، وإنما يطمح ببصره إلى نتائجها الحقيقية المترتبة عليها في حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، ولا يحكم على فعل بالمنفعة أو المضرة إلا على اعتبار تلك النتائج فهو كما يكون على يقين من أن السم مهلك والنار مؤلمة ، كذلك يكون على يقين من أن الظلم والكذب والغدر والخيانة والزنا كلها أفعال مهلكة مؤلمة ، وهو كما يعتقد أن الخبز والماء نافعان ، كذلك يعتقد أن العدل والأمانة نافعان ، ويقول بنتيجة معينة يقينية لكل فعل من أفعاله ، ولو لم تظهر في هذه الحياة أصلا بل ولو ظهرت فيها على صورة معاكسة تماماً ، وتكون في نظره للأعمال المعنوية قيم معنوية معينة لا يدب اليها دبيب التغير والتبدل بالمنافع أو المضار العاجلة الظاهرة في هذه الدنيا ، ولا بد أن يكون الصدق والعدل والوفاء بالعهد حقا في نظامه للأخلاق ، ولو كانت لا ترجع شيئ في هذه

الحياة الدنيا إلا بالمضار والمصائب والآلام . ولا بد أن يكون الكذب والظلم والغدر إنما في نظامه للأخلاق ، ولو كانت ترجع عليه بالمنافع واللذات والمباهج في هـــذه الحياة الدنيا .

ليس معنى خلو ذهن الإنسان من الاعتقاد باليوم الآخر أو إنكاره إياه أن ذهنه خال من نظرية من النظريات المتعلقة بعالم ما بعد الطبيعة ، وإنما معناه أنه غافـــل عن أن له شخصية ذات تبعة ومسؤولية ، وأنه يعتقد نفسه كائناً بريئاً من كل تبعة ومسؤولية ، وأنه راض بالحياة الدنيا مطمئن بنتائجها الناقصة ، بل الخادعة في أكثر الأحيان ، وقد انصرف بوجهه عن المنافع والمضار الحقيقية النهائية ، وأقام الوزن للمنافع والمضار العاجلة المؤقتة ، وعلى إعتبارها فحسب جعل لأفعاله قيما معنوية لا تستقر على شيء معلوم ، وقد حرم نفسه ضابطة خلقية راشدة محكمة لا تنضبط إلا بشعوره بالتبعة ورعايته للنتائـج الآجلة ، واعتباره للقيم الخلقية المستقرة على شيء معلوم ، وهكذا قضى كل حياته مغترا بظاهر الدنيا الخلابة ، تحت ضابطة واهية قد تقررت فيها المضرة الحقيقية منفعة ، وتقررت المنفعة الحقيقية مضرة ، وتحول فيها المعروف الحقيقي إلى منكر ، وتحول المنكر الحقيقي إلى معروف . تلك هي النتائج لإنكار الحياة الآخرة قد بينها القرآن بكل شرح وتفصيل. وإنك إذا تتبعت آيات القرآن في هذا الشأن علمت أحسن علم أنه ما من مفسدة ولا منكر يحدث في أخلاق الإنسان وأعماله لعدم إيمانه باليوم الآخر ، إلا وقد عنى القرآن بذكره ونعى على أصحابه فمن ذلك مثلاً :

١ — إن الإنسان يحسب نفسه حراً لا تبعة عليه ، ويرى أن حياته بمجموعها بدون نتيجة ، ولا يعمل في الدنيا إلا على الظن بأن لا رقيب عليه ولا محاسب :

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى » ؟ (القيامة ٣٦) .

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » (المؤمنون ١١٥) .

« أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ يقول أهلكت مالاً لُبَدا ؟ أيحسب أن لم يره أحد » ؟ (البلد ٥ و ٦ و ٧) .

٢ — وأنه إنما يرنو ببصره إلى ظاهر من الحياة الدنيا ، ويحسب أن النتائج السطحية العاجلة التي تظهر لأعماله في هذه الدنيا هي نتائجها الحقيقية النهائية ، وأنه لاغترار بها

لا يتبنى لنفسه إلا آراء فاسدة وأفكاراً باطلة :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (الروم ٧) .

« إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » (يونس ٧) .

« كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » (القيامة ٢٠) .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » (الأعلى ١٧) .

« وغرتهم الحياة الدنيا » (الاعراف ٥١) .

٣ – وأن النتيجة اللازمة لاغتراره بالحياة الدنيا ، ونظره إلى ظاهرها فحسب ، أنه ينعكس في نظره مستوى القيم المعنوية للأعمال .

فالأعمال التي هي ضارة باعتبار نتائجها النهائية يراها نافعة لنظره إلى نتائجها العاجلة فحسب ، والأعمال التي هي نافعة باعتبار نتائجها النهائية يراها ضارة لنظره إلى نتائجها الابتدائية فحسب . لكل هذا فإن جهوده الدنيوية تحيد عن المناهج الصحيحة والطرق المستقيمة وتضيع في الطرق الخاطئة المضلة :

« قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » (القصص ٨٠ – ٨١) .

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » (النمل ٤) .

« أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » (المؤمنون ٥٥ – ٥٦) .

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » (الكهف ١٠٣ – ١٠٥) .

٤ – وأنه من المحال عليه أن يقبل دين الحق ويتبع أحكامه . فكلما عرضت عليه الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ودعي إلى التزامها في حياته رفضها رفضاً . وكلما عرضت عليه العقائد الباطلة ، والأعمال الخاطئة مال إليها ميلا وافتتن بها افتتاناً ، لأنه ما من طريق من طرق الدين إلا هو متطلب للتضحية بكثير من المنافع والمباهج واللذات في

الحياة الدنيا ، وأصل أصوله التضحية بالمنافع الدنيوية المؤقتة في سبيل المنافع الأخروية الخالدة . ولكن الإنسان بإنكاره الحياة الآخرة لا يحسب المنافع إلا منافع هذه الحياة الدنيا. فلا يستعد بحال للتضحية بها ، ولا يسلك طريقاً من طرق الدين إذا كان يدعوه إلى إيثار منافع الحياة الآخرة عليها . لذا فإن إنكار الحياة الآخرة واتباع دين الحق على طرفي نقيض . وفي ذلك يقول عز من قائل :

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين، والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » (الاعراف ١٤٦ — ١٤٧) .

٥ — وإن إنكار الآخرة لا بد أن تنطبع به حياة الإنسان بجملة نواحيها من معنوية وعملية :

« فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكِرة وهم مستكبرون » (النحل ٢٢) .

« واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » (القصص ٣٩) .

٦ — ولا بد أن تفسد معاملاته مع الناس :

« ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم » (المطففين ١ — ٥) .

ولا بد أن يتحجر قلبه ، ويضيق نظره ، فيعرض عن العبادة الإلهية ، ولا يعمل شيئاً إلا رئاء الناس أو ابتغاء منفعة من المنافع المادية العاجلة :

« أرأيت الذي يكذب بالدين ؟ فذلك الذي يدعّ اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » (الماعون ١ — ٧) .

وخلاصة القول أن اعتداء الإنسان حدود الحق ، ووقوعه في الآثام والمنكرات والمعاصي ، نتيجة لازمة لإنكاره اليوم الآخر :

« وما يكذب به إلا كل معتد أثيم » (المطففين ١٢) .

وهذه النتائج لخلو ذهن الإنسان من الاعتقاد باليوم الآخر أو إنكاره إياه لا يكاد يكابر فيها عاقل ، وخاصة أننا لما قد شاهدنا بأم أعيننا ثمرات تلك المدنية التي إنما أقيمت على أساس الغاية المادية ، والافتتان بظاهر من الحياة الدنيا ، وهي خالية خلواً كلياً من الاعتقاد باليوم الآخر ، ما بقي لنا مجال لإنكار الحقيقة القائلة بأن الإنسان لا يستطيع أن يميل إلى التدين وعبودية الحق والتزام مكارم الأخلاق إذا كان منكراً للحياة الآخرة .

هذا وتعال لنريك الآن أن الإسلام عندما يريد إقامة هذه الأمور .. وأنه عندما يدعو الإنسان إلى أخلاق وأعمال صالحة لا بد له لالتزامها من التضحية بكثير من المنافع والمباهج واللذات المادية .. وأنه عندما يعظ الانسان بعبادة ربه ، وتزكية نفسه مما لا يرى نتيجة تترتب عليه في هذه الدنيا، بل وكثيراً ما يرى آلاماً شديدة ومصائب فادحة تترتب عليه في نفسه وجسده ... أو أنه عندما يميز الحرام من الحلال والخبيث من الطيب في جملة شئون الحياة ، وفي تمتع الإنسان بأسباب الدنيا ووسائلها .. وأنه عندما يدعو الإنسان إلى التضحية بأغراضه الشخصية ، ورغباته النفسية ، بل وبماله ونفسه لتحقيق الأغراض الروحية والمعنوية ... وأنه عندما يريد أن يقيد حياة الانسان الفردية والجماعية بضابطة خلقية قد حددت فيها قيمة معنوية معلومة لكل عمل من الأعمال بصرف النظر عما يترتب عليه من المنافع أو المضار في هذه الحياة الدنيا ... فقل لي بالله هل كان له أن يلقى النجاح في إقامة دين كهذا أو شريعة كهذه دون أن يدعو الانسان إلى الاعتقاد باليوم الآخر ؟ وهل كان يرجى من الإنسان مع خلو ذهنه من هـذا الاعتقاد أن يتلقى تعليماً كهذا بالقبول والاذعان ؟ والجواب على هذا إن كان بالنفي — وهو بالنفي بدون ما شك — فقد لزم الاعتراف بأنه لا بد لإقامة نظام ديني كهذا وضابطة خلقية كهذه من أن يلقى في روع الانسان قبل كل شيء آخر الاعتقاد بالحياة الآخرة ، وبناء على هذا السبب قد جعل الإسلام هذا الاعتقاد من أركان الإيمان ، وأكد الدعوة اليه بما لم يؤكد بـه الدعوة إلى اعتقاد آخر حاشا الإيمان بالله .. وتعال لنريك الآن : على أية صورة قد عرض الاسلام عقيدة اليوم الآخر ؟ وما هي الآثار والنتائج التي تترتب عليها في أخلاق الإنسان وأعماله وسلوكه العام في الحياة ؟ .

١ — إيثار الاخرة على الدنيا :

إن أول شيء قد عنى القرآن عناية خاصة بإرساخه في ذهن الإنسان هو أن الدنيا إنما هي منزل مؤقت لإقامته وسكناه ، فما الحياة هذه الحياة الدنيا ، وإنما ستأتي بعدها حياة

أخرى هي خير منها وأبقى ، ومنافعها أوفر وأعظم من منافعها ، ومضارها أشد وآلم من مضارها ، وعلى هذا فالذي يغتر بظاهر هذه الدنيا ويفتتن بمتعها ولذاتها ، ويسترسل وراء منافعها ومباهجها ، ويبذل للحصول عليها جهوداً تضيع عليه نعيم الحياة الآخرة ولذاتها ومنافعها ، فما تجارته هذه إلا تجارة خاسرة . وكذلك إن الذي لا يرى الخسارة والمضرة إلا خسارة هذه الحياة ومضرتها ، ويبذل لاجتنابها جهوداً يستحق بها الخسارة والمضرة في الحياة الآخرة ، فهو في حقيقة أمره يرتكب أعظم حماقة ، ولا تجتمع فعلته هذه مع ما يقتضيه العقل والعلم والحكمة .. وهذا الموضوع قــد بينه القرآن ، وأفاض القول في مالا يأتي تحت الحصر والاستقصاء من آياته . راجع على سبيل المثال الآيات التالية :

« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » (العنكبوت ٦٤)
« قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » (النساء ٧٧) .

« أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » (التوبة ٣٨) .
« بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » (الأعلى ١٧ — ١٨) .

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (آل عمران ١٨٥) .

« واتَّبَعَ الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (هود ١١٦) .
« قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين » (الزمر ١٥) .

« فأما من طغى وآثر الحيــاة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » (النازعات ٣٧ — ٤١) .

« إعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعب ولهــو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباتُه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيــا إلا متاع الغُرور » (الحديد ٢٠) .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ الذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها

وأزواج مطهرة ورضوان من الله » (آل عمران ١٤ — ١٥) .

والمقصود من هذا التغليم الذي قد عرضه الأسلام بابلغ أسلوب بياني إيثار الآخرة على الدنيا ، والتضحية بالمنافع العاجلة في الدنيا ، للحصول على السعادة الأبدية في الآخرة ، واحتمال المضار والخسائر والمصائب والمحن المؤقته في الدنيا ، لاتقاء الخسران الأبدي في الآخرة ... إن من كان يؤمن بالقرآن ورسالة محمد ﷺ عليه أن يؤدي عن طواعية نفسه لا تحت ضغط أو إكراه كل فعل قد قرره الله ورسوله وسيلة من وسائل الفلاح والسعادة في الآخرة ، ويجتنب كل فعل قد قرره سبباً من أسباب الشقاء والخسران في الآخرة بصرف النظر عما إن كان في الدنيا نافعاً أو ضاراً ..

٢ — الحساب والجزاء على الأعمال :

والأمر الثاني الذي قد عنى القرآن بإرساخه في ذهن الإنسان وإلقائه في روعه هو أن أي عمل يعمله في حياته الدنيا ، ولو بغاية من الإسرار هو مسجل عند الله في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأنه سيعرض عليه هذا الكتاب في محكمة الله العادلة يوم القيامة ، حيث ستشهد عليه كل ذرة كان لها نوع من الملاقة بأعماله في حياته الدنيا . حتى إنه ليشهد عليه لسانه وبصره ويداه ورجلاه وسائر أعضاء جسده ، ثم إن أعماله هذه ستوضع في ميزان القسط : أعماله الحسنة في كفة وأعماله السيئة في كفة فإن رجحت الأولى وجب له الفلاح والسعادة الأبدية ، وكانت الجنة هي مأواه ، وإن رجحت الأخرى خسر خسراناً مبيناً وكانت دار البوار جهنم هي مأواه . ويبين القرآن مع ذلك أنه لا يحضر كل شخص في تلك المحكمة إلا بمفرده وأنه لن ينفعه فيها سبب من الأسباب الدنيوية لا حسب ولا نسب ، ولا خلة ولا شفاعة ، ولا مال ولا بنون ولا قوة ولا جاه ..

وهذا الموضوع أيضاً قد جاء بيانه في القرآن بكل شرح وتفصيل بأبلغ أسلوب وأوقعه في القلوب وها نحن أولاء نسرد في ما يلي آيات من القرآن جاء فيها بيان هذا الموضوع على سبيل المثال :

أ — كيفية عرض الأعمال على الإنسان :

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ،

له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » (الرعد ١٠ – ١١) .

« ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا » (الكهف ٤٩) .

ب – شهادة الجلود والجوارح وشهادة الإنسان على نفسه :

« يوم تشهد عليهم ألسنتُهُم وأيديهم وأرجلُهُم بما كانوا يعملون » (النور ٢٤) .

« حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعُهُم وأبصارُهُم وجلودُهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصاركم ولا جلودُكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » (فصلت ٢٠ – ٢٢) ..

« وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (الانعام ١٣٠) .

فهؤلاء هم الشهود الذين بهم سيحضر كل إنسان في محكمة الله العادلة ثم كيف يكون موقفه في تلك المحكمة ؟ يشير إلى ذلك قوله تعالى :

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » (الانعام ٩٤) .

« وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (الاسراء ١٣ – ١٤) .

ج – ولن ينفعه في تلك المحكمة حسبه ولا نسبه :

« لن تنفعكم أرحامُكم ولا أولادُكم يومَ القيامة » (الممتحنة ٣) .

ولا شفاعة شافع (إن كان كافراً) .

« ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » (غافر ١٨) .

« يوم لا ينفع مال ولا بنون » (الشعراء ٨٨)

د – وستوزن فيها الأعمال ويحاسب عليها الإنسان ولو كانت مثقال ذرة :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (الانبياء ٤٧) .

ولا يكون فيها الثواب ولا العقاب إلا على قدر الأعمال :

« اليوم تجزون ما كنتم تعملون » (الجاثية ٢٨) .

« ولكل درجات مما عملوا » (الانعام ١٣٢) .

هذه هي شرطة الآخرة وهذي هي محكمتها يريد القرآن أن يلقي هولهما في روع كل إنسان وما هذه الشرطة كشرطة الدنيا التي قد يعجزها الإنسان بحيلة من الحيل ، ولا هذه المحكمة كمحكمة الدنيا التي قد يطلق فيها سراح الجاني لعدم توفر الشهود ، أو لتوفر الشهود الكاذبين ، أو لتأثيرات باطلة أخرى ... وإنما هي شرطة تراقب الإنسان في كل حال من أحواله ، وإنما هي محكمة لا يستطيع الجاني فيها أن يفلت من نظر شهودها ولو بأية حيلة من الحيل ، وعندها كتاب سجل فيه كل عمل من أعماله بل وكل هاجسة من هواجسه ، وأحكامها قائمة على العدل والقسط ، فلا امكان لأن يسلم فيها المسيء من عقابه أو المحسن من ثوابه ..

فائدة الاعتقاد باليوم الآخر :

وهكذا قد جعل الإسلام من الاعتقاد باليوم الآخر سنداً قوياً تستند إليه ضابطته المعنوية ونظامه الشرعي . ففيه من جانب الترغيب العقلي في أعمال الخير والصلاح ، وفيه من جانب آخر الترهيب من العقوبة اليقينية على أعمال الشر والفساد ، وإن ضابطته أو نظامه هذا لا يحتاج في بقائه وقيامه إلى قوة مادية ، ولا إلى سلطة حكومية ، وإنما هو يضع في نفس كل إنسان بواسطة الإيمان باليوم الآخر ضميراً حياً يرغبه بدون ما طمع أو خوف خارجي في الفضائل والمعروفات التي قد قررها الإسلام فضائل ومعروفات ، على اعتبار نتائجها الحقيقية النهائية ، ويحذره من الرذائل والمنكرات التي قد قررها الإسلام رذائل ومنكرات على اعتبار نتائجها النهائية ..

انظر في القرآن تجد أنه كثيراً ما قد استعان بهذه العقيدة للدعوة إلى فضائل الأعمال ومكارم الاخلاق فقد قيل مثلاً « اتقوا الله » ثم قيل بعده على الفور :

« واعلموا أنكم ملاقوه » (البقرة ٢٢٣) ..

وإن القرآن ليحرض المسلمين على القتال وبذل المهج في سبيل الله وذلك بأن يقنعهم أنهم إذا قتلوا لا يموتون وإنما ينالون حياة خالدة سرمدية ..

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » (البقرة ١٥٤).

ويلقنهم الصبر على المصائب والمكاره، وذلك بأن يبين لهم أن الصابرين عليهم صلوات من ربهم ورحمة. وينشئهم على عاطفة الشجاعة والبسالة بأن يتلو عليهم نبأ بني إسرائيل من بعد موسى:

« قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » (البقرة ٢٤٩).

وينشئهم على تحمل المحن والشدائد، ومجابهة الأهوال والمخاوف مهما كانت بالغة من الفداحة والجسامة بأن يقول: « قل نار جهنم أشد حرا » (التوبة ٨١).

ويحثهم على الانفاق في سبل الخير بأن يقول لهم:

« وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تُظلمون » (البقرة ٢٧٢).

وينهاهم عن الشح والبخل بأن يلقي في روعهم:

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » (آل عمران ١٨٠)

ويدعوهم إلى رفع أيديهم عما في أكل الربا من المنافع العاجلة بأن يقول لهم:

« واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » (البقرة ٢٨١).

ويلقنهم الاستغناء عن متاع الدنيا وعدم الحسد للكفار على ما هم فيه من نعم الحياة الدنيا ومباهجها بأن يقول لهم:

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد، لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » (آل عمران ١٩٧) ا. هـ.

. . . .

هذا هو اليوم الآخر كما عرضناه حتى الآن نهايته الجنة أو النار ، والطريق إلى الجنة الإسلام ، والإسلام ضبط النفس عن الهوى ، فاتباع الهوى هو الطريق إلى النار :

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » .

روى أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ لما خلق الله الجنة قال لجبريل إذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفها بالمكاره فقال اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال وعزتك لخشيت أن لا يدخلها أحد . ولما خلق الله النار قال لجبريل : اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفها بالشهوات فقال اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فلما رجع قال : وعزتك لقد خشيت ألا يسلم منها أحد إلا دخلها) . .

وروى الشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : حفت النار بالشهوات وحفت الجنه بالمكاره) .

إن الطريق إلى النار ممتع : اختلاط رجال ونساء وتبرج بلا حدود . وزنى ولواط . وخمرة . وسرقة ونهب ، وغش واختلاس ، وعقوق وعدم تأدية للواجبات ، وتحلل من التكاليف ولا مبالاة بقيمة ، وعداء لله والرسل ، واجتماع على الشهوات والباطل، واعطاء النفس ما تطلب ، وهروب من عبادة الله ، وركون إلى المادة والمحسوس ، وظلم وتعاون مع الظالمين . وبكلمة واحدة ما تشتهيه النفس تعمله وما لا تشتهيه تتركه . مهما ترتب على ذلك من آثار « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا» « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) . .

أما الطريق إلى الجنة فشاق على النفس : ذكر وفكر ، وتوحيد وخدمة ، وتوكل وخوف ورجاء ، ووضوء وغسل وصلاة وصوم وزكاة ، وحج وحجاب ، وعدم خلوة رجال بنساء ، فلا خمرة ولا إمرأة إلا ما أحل الله من النساء ، وحمل النفس على أخلاق معينة ، وجهاد وعلم وعمل ، وصراع مع أهل الباطل ، وترك مجاملات ، وصبر على هذا كله وبكلمة واحدة إلزام النفس ما كلفها الله به مهما ترتب على ذلك من مشقة ، ولا مشقة في الحقيقة ، فما كلفت النفس فوق طاقتها « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ،

« إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . »

فالله الله يا أيها الإنسان في نفسك ، فقد بلغك رسل الله رسالات الله وانذروك وبشروك واقاموا عليك الحجة ...

. . . . . .

وبعد :

هذه مؤيدات الإسلام :

عذاب ذنب وعقوبة رب لمن خالف في الدنيا والآخرة ..

وحياة طيبة ونعيم دائم لمن أسلم وأطاع في الدنيا والآخرة ..

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشرابُ وساءت مرتفقا »..

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ..

. . . . . .

وبهذا انتهى الفصل الرابع من (كتاب الإسلام) .

وبهذا الفصل ينتهي الكتاب .

وبهذا تنتهي دراساتنا حول الأصول الثلاثة : الله - الرسول - الإسلام .

والله نسأل أن يتقبل .

. . . . . .

وبعد : فلقد تحرينا فيما سقناه مما مرّ حسن الفهم عن الله والرسول ﷺ فإذا شط بنا القلم ، أو زلّ فينا الفهم ، فنستغفر الله ، ونستغفره على كل حال ، ولعل رجلاً صالحاً يمن علينا بما يرى من قصور فنشكره وندعو له .

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ك – بنو اسرائيل	٥٨
ل – أصحاب النبي ﷺ	٥٨
ثانياً : تعليقات	٥٩
ب – المؤيدات الربانية في الآخرة	٦٣
ا – من بدء الساعة حتى الجنة والنار	٩٣
ب – الجنة والنار	١٠٣
أسئلة فطرية	١٢١
إنكار الآخرة	١٢٣
تأثير إنكار الآخرة في الأخلاق	١٢٤
عقيدة تناسخ الأرواح	١٢٦
عقيدة تناسخ الأرواح في ميزان النقد العقلي	١٢٨
تأثير عقيدة تناسخ الأرواح في الحياة المدنية	١٢٩
عقيدة الحياة الآخرة	١٣١
اعتراض المنكرين للحيـــاة الآخرة	١٣٤
اسلوب القرآن في الاستدلال	١٣٥
إمكان الحياة الآخرة	١٣٥
نظام العـــالم قائم على الحكمة	١٣٩
مصير نظام العالم على مقتضى الحكمة	١٤٣
مصير نظام العـــالم حسب بيان القرآن	١٤٥
نظام الحياة الآخرة	١٤٦
حاجة الإنسان إلى عقيدة اليوم الآخر	١٤٩
إيثار الآخرة على الدنيـــا	١٥٤
الحساب والجزاء على الأعمال	١٥٦
فائدة الاعتقاد باليوم الآخر	١٥٨